



لَا تُكْبِرُوا شَوْقِي ضَيْقِي

عصر الدولة والهداية

الجزيرة العربية - العراق - إيران

تاريخ
الأدب
العربي



عصر

الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران

تاريخ
التمدن العربي
٥

عصر
الدول والإمارات
الجزيرة العربية - العراق - إيران

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net



منشورات ذوي القربى

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربى (ج ٥) □
المؤلف :	شوقى الضيف □
الناشر :	ذوي القربى □
الطبعة :	الأولى □
تاريخ الطبع :	١٤٢٨ □
الكمية :	١٠٠٠ نسخة □
المطبعة :	ستاره □
شابك ج ٥ :	٦ - ١٨٨ - ٥١٨ - ٩٦٤ - ٩٧٨ □

مركز التوزيع : قم - پاساژ قدس - الطابق الأول - رقم ٥٩ - تليفون : ٧٧٤٤٦٦٣ - ٢٥١ - ٩٨ +

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا هو الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . وكان المؤرخون للأدب العربي يدخلون منه نحو ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني منتهين به حتى سنة ٦٥٦ حين أغار قطعان التار على بغداد وقوضوا ما كان فيها من مدنية وحضارة . وكان هؤلاء المؤرخون يسمون الحقب التالية حتى الغزو العثماني لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولي . وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلدان باسم العصر العثماني . وكل ذلك تصور مخطئ ، لأن سلطان الخلافة العباسية تنقضى ظلالة منذ سنة ٣٣٤ بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه في كثير من الأمر سوى بغداد ، فقد كانت إيران بيد بنى بويه ونفس العراق أظله سلطانهم ، وكانت البحرين والجماعة بيد القرامطة ، وكانت الموصل وحلب بيد الحمدانيين ، ومصر والشام بيد الإخشيد ، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين ، والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر . وتعاقبت دول كثيرة في اليمن وفي أنحاء الجزيرة العربية ، وبالمثل في كل البلدان والأقاليم المذكورة ، بحيث يصعب من الخطأ أن تسب القرون : الرابع والخامس والسادس حتى منتصف السابع إلى الخلافة العباسية ، وحتى ما بقي لها من اعتراف بالولاء في بعض الدول والإمارات إنما كان اعترافاً اسمياً . لا يدل على أي سلطان وراعه . ومن الخطأ الإبقاء على تسمية القرون الثلاثة التالية لغزو التار بغداد باسم العصر المغولي ، بينما كان سلطان المغول فيها لا يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم العربي ، وتلك البقية هي الشطر الأكبر منه : الجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب والأندلس ، لذلك رأينا أن ندمج العصر المغولي في عصر الدول والإمارات ، لأن هذه التسمية هي الأصلح بالعصر ، وهي أكثر دقة ومطابقة للواقع . وبالمثل أدمجنا فيه ما سُمي بالعصر العثماني ، لأنه لم يكن عصرًا بالمعنى الحقيقي ، وإنما كان حقبة ممتدة ، تنمى لعصر الدول والإمارات ، وثمرة مرة لما أصاب العرب فيه من انقسام وتفكك .

وحقاً يكون عصر الدول والإمارات في تاريخ الأدب العربي بذلك عصرًا طويلاً ، غير أن طوله لا يعني أى تفاصيل روحى أو فكرى بين دوله وإماراته ، فقد كان هناك دائماً شعور عام في كل مكان بأن هذه الإمارات والدول جميعاً إنما هى وطن عربى واحد ، وطن لأحدث فيه الانقسامات أى تقاطع علمى أو أى تناذب أدبى ، وطن تتواصل أجزاؤه ووحداته تتواصل الأفراد في أسرة واحدة . ولذلك مظاهر شتى ، فقد كان العلماء حين يؤلفون كتاب تراجم عاماً يجمعون فيه كل من عاشوا من النابهين في هذا الوطن الكبير ، وكانوا إذا ألفوا كتاباً في تراجم علم كالقراءات أو التفسير أو النحو أو حتى في فرع كفقهاء الشافعية أو المالكية أو الأحناف أو الحنابلة جمعوا فيه علماءه في جميع البلدان العربية ، وبالمثل حين يؤلفون أحياناً في تراجم الشعراء يجمعون في مؤلفاتهم كل الشعراء في جميع الأقاليم العربية ، متناسين ، بل مهملين ، الفواصل السياسية والجغرافية بين الأقاليم والبلدان ، وكأنها في رأيهم أقواس وهمية في المخططات السياسية والجغرافية ، لاتدل أى دلالة على فوارق علمية أو أدبية . ومظهر ثان ، هو أن الكتاب حين كان يؤلف يصبح ملكاً لعلماء العالم العربى جميعهم ، فهم يشرحوه أو يشرحونه أو يكتبون تقارير عليه ، يشترك في ذلك قاصيهم ودانيهم ومن في أقصى المشرق ومن في أقصى المغرب ، ونضرب لذلك مثلاً كتاب أومتى التلخيص في علوم البلاغة للقرظوبى الدمشقى المتوفى في القرن الثامن الهجرى ، فقد شرحه علماء من مصر ومن المغرب ومن أقصى المشرق ، فهو ليس كتاب دمشق وحدها بل هو كتاب البلدان العربية جميعها . ونضرب مثلاً ثانياً ديوان المتنبي فإنه لم يكده ببق بلد عربى إلا وتجرّد له عالم من علمائه يشرحه ويعرض شرحه على الطلاب ، ومن أهم شروحه شرح ابن جنى والعكبرى في العراق وشرح ابن المستوفى في إربل وشرح أبى العلاء المعرى في الشام وشرح الواحدى في إيران وشرح الإفليل وابن سيده في الأندلس ، غير شروح أخرى ، وغير دراسات نقدية لا تكاد تُحصى ، وكان ديوانه ليس ديوان بلد بعينه ، وإنما هو ديوان الأمة العربية جميعها . وليس ذلك فحسب ، فإن ابن هانئ الأندلسى توفى بعده بنحو ثمانية أعوام ، وقد درس شعره وتمثل منهجه تمثلاً تاماً ، بحيث كان ينظم أشعاره على غرار ، وبحيث سماه النقاد متنبى الأندلس . وكل ذلك يصور بقوة وحدة الشعور والفكر في هذا العصر المتطاوّل عصر الدول والإمارات ، وهى وحدة ظل الشعر كما ظل النثر ، وظل الأدب كما ظل العلم ، مرآتها الصافية .

وقد بدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض الحياة السياسية لأقاليمها الأساسية

في هذا العصر، وهي الحجاز ونجد واليمن وحَضْرَمَوْت وظَفَّار وعُمان والبحرين، وعرضنا مجتمعا البدوي والحضري وما كان فيها من نحل شيعية وخارجية وما شاع في نجد من الدعوة الوهابية، وما حفَّ بذلك من زهد ونسك. وصوّرنا جداول الثقافة التي كانت تجري في كل مكان وما رافقها من نشاط العلوم اللغوية والإسلامية. كما صوّرنا نشاط الشعر في الأقاليم المختلفة للجزيرة وطوائفه المتقابلة من شعراء مديح ورناء وفخر وهجاء وأهم شعراء الدعوات المختلفة من إسماعيليين وزيديين وخوارج ووهابيين، وبالمثل شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية. وأوضحنا ما كان من نشاط للكتابة في نجد وغيرها من أقاليم الجزيرة وما كان من نحو كتابة الرسائل الديوانية والشخصية، ونحو الوعظ والمحاورات والرسائل الأدبية.

وبالمثل تحدثنا عن العراق وحياتها السياسية وما تعاقب عليها من دول وكيف أن مجتمعا كان يتألف من ثلاث طبقات : عليا مترفة، ووسطى على شيء من اليسار، ودنيا بائسة، وشيوع المذهب الإمامي الاثني عشري بها وشيوخ الزهد والتصوف وطرقه، وما كان من نشاط الحركة العلمية بها وتأسيس جامعتي النظامية والمستنصرية ببغداد، وكثرة المدارس هناك مع ما كان في المساجد من نشاط علمي واسع، بحيث أصبحت الثقافة - حتى الثقافة الفلسفية - غذاء شعبياً عاماً. وتكاثر ببغداد الندوات الفكرية، وتكاثر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية، كما تكاثر البحوث اللغوية والنحوية والنقدية، وتنشط الدراسات الإسلامية والتاريخية. ويكثر الشعراء في العراق كثرة مفرطة وينظمون في الرباعيات والموشحات. وتتقابل طوائفهم من شعراء مديح على رأسهم المتنبي إلى شعراء رناء وهجاء وشكوى، وشعراء غزل وقد نفذوا إلى ضرب جديد من الشعر الوجداني. ويمجّانهم شعراء لهُو ومجون، وشعراء زهد وتصوف ومدائح نبوية، وشعراء فلسفة وشعر تعليمي، وشعراء شعبيون. ويتنوع النثر تنوعاً واسعاً، فمن نثر فلسفي إلى نثر علمي ومناظرات ووعظ وقصص ورسائل شخصية وديوانية، وتتألق أسماء طائفة من الكتاب النابهين.

وتحدثنا عن إيران وأحوالها السياسية والدول المتقابلة بها والمتعاقبة، وعن مجتمعا والطبقات التي كانت تكونه : العليا والوسطى والدنيا، وعن نشاط الشيعة بها : الزيدية والإمامية والإسماعيلية وما كان يَسْرِي فيها من زهد وتصوف. وعرضنا الحركة العلمية بها والعناية بالمدارس والمكبات وما حدث هناك من نشاط في دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، وفي وضع المعاجم والبحوث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية، وفي الدراسات

الإسلامية والكتابة التاريخية . ويزدهر الشعر بـإيران في القرنين الرابع والخامس للهجرة .
ويظل حياً نامياً حتى القرن التاسع ، ويتكاثر شعراء المديح والثناء والفخر والمجاء
والشكوى والغزل واللمح والمجون والزهد والتصوف والفلسفة والحكمة والأمثال وأصحاب
الشعر الشعبي . ويتنوع النثر ويظهر فيه قصص صوفى كثير وقصص فلسفى بديع ويتكاثر
كُتاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ويلعب فى كل دولة وإمارة غير كاتب بارع .
وهذه الدراسة المنشعة لتاريخ الأدب العربى فى الجزيرة العربية والعراق وإيران طوال
حقب ممتدة من العصر العباسى الثانى إلى العصر الحديث جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت
من كتب التاريخ والجغرافية والثقافة والأدب شعراً ونثراً لأجمع منها المادة العلمية التى
تطلبها الدراسة . ورجعت إلى طائفة من كتب المحدثين من العرب والمشرقين . وأعترف
بأن عقبات كثيرة صادفتني وخاصة فى المصادر والحصول عليها ، وقلتها أحياناً فى بعض
الجوانب . وقد حاولت جهدى أن أرسم المعالم الأساسية لتاريخ الأدب فى تلك الأقاليم
أثناء هذه الحقب المتطاولة ، ولا أنزعج أنني استطعت أن أوفى هذا الرسم حقه كاملاً من
الدقة والاستقصاء . والله ولىُّ الهدى والتوفيق .

شوق هيف

القاهرة فى أول يونية سنة ١٩٨٠ م .

القسم الأول

الجزيرة العربية

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

أقاليم ودول وإمارات

تتمدد الأقاليم في الجزيرة العربية لاتساع رقعتها ، ففي الغرب إقليم الحجاز بمدنه وسلسلة جباله المسماة بالسراة الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، مشرفة غرباً على منطقة ساحلية رملية ضيقة ، هي تهامة التي تفصل بينها وبين بحر القلزم (البحر الأحمر) ومشرفة شرقاً على هضبة نجد الفسيحة التي تظل تنحدر نحو الشرق ، حتى تصاقب أرض العروعر : الهامة والبحرين ، وتظل تنبسط شمالاً في إقليم القصيم حتى جبل أجأ وسلمى ، وتلتقي بصحراء النفود الممتدة من تيماء إلى الشرق ، حتى إذا قربت من العراق بسطت ذراعاً لها نحو الجنوب تسمى الدهناء أو رملة عالج ، وتستدير حول الهامة منبطقة في الربع الخالي ، وهو صحراء مجدبة تفصل بين الهامة ونجد من جهة وبين حضرموت وظفار وعُمان من جهة ثانية ، وما تلبث أن تتصل بصحراء الأحقاف التي تفصل بين اليمن وبين نجد والحجاز . وتستقل اليمن بالراوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وتتوسط حضرموت ومعها ظفار بينها وبين عُمان التي تشرف على المحيط الهندي من جهة وعلى الخليج العربي من جهة ثانية ، وكانت تشمل قديماً طائفة من الإمارات القائمة الآن على الخليج ، وهي رأس الخيمة والشارقة ودبي وأبوظبي . وشمالاً هذه الإمارات البحرين ، وكانت تشمل إمارة قطر الحالية وإمارة الكويت الحديثة ، وكذلك الأحساء . والأقاليم الأساسية في الجزيرة العربية لهذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث هي الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وعُمان والبحرين ، وسنخصص كل إقليم بطرف من الحديث عن دوله وإماراته .

الحجاز^(١) وإماراته

كانت في الحجاز لهذا العصر إمارتان : إمارة مكة وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبعثن نَحْل وعُصفان ومُر الظهران . وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خيبر وقدك ويثيم والقرع ووادي القرى ومدّين . وكانت إمارة مكة للحسينيين من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب في حين كانت إمارة المدينة للحسينيين من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب . وكان الأولون يعتقدون المذهب الزيدى الشيعي ، بينما كان الثانون يعتقدون المذهب الإسماعيلي على الأقل في عصر الدولة الفاطمية . وكان لإمارة مكة المكانة الأولى ، إذ كان المسلمون - ولا يزالون - يؤمنونها سنوياً من بقاع الأرض قاصبها ودانها لأداء فريضة الحج ، وكان مَنْ يُدعى له من الخلفاء على منابرهما سواء الخلفاء العباسيون أو الفاطميون يعد نفسه خليفة المسلمين قاطبة .

وأول أسرة حسنية حكمت مكة لهذا العصر هي أسرة بني سليمان أو بني موسى ، وكان أول من حكمها منهم جعفر بن محمد بن الحسين سنة ٣٥٦ فقد غلب عليها عقب وفاة كافور الإخشيدي ، وراسله الخليفة المزمع الفاطمي كي يقيم باسمه الخطبة في موسم الحج ، فأبى ، مما جعله يجهز له عسكرياً لحربه سنة ٣٦٠ وساعد العسكري بنو الحسين أمراء المدينة ، واستولوا على مكة فترة قليلة عادت بعدها إلى جعفر . وتولى بعده ابنه عيسى سنة ٣٧٠ فأدعى للعزيم الفاطمي ، وأقام الخطبة باسمه ، وظلت تقام باسم الفاطميين مدة متطاولة ، وكانوا يرسلون لمكة وأميرها بالميرة ، ومضت تدبّر لهم بالولاء بعد وفاة عيسى وولاية أخيه أبي الفتح الحسن بن جعفر سنة ٣٨٤ وهو أهم أمراء الأسرة ، وقد حاول أتباع الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي أن يمحطوه على أن يقرأ سجلاً في المسجد الحرام بالبراءة من أبي بكر وعمر وسبب بعض الصحابة وبعض أزواج الرسول ﷺ ، فرفض ذلك وقطع

(١) انظر في أمراء مكة والمدينة تاريخ ابن الأثير وتاريخ دار الخطيب للمصطفى السهودي (طبع مطبعة الزيتون) ابن خلدون (طبع بولاق) الجزء الرابع والفاقي في جم وخلاصة الكلام في أمراء البيت الحرام لابن زيني دحلان كتابه : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (طبع دار إحياء) وماضي الحجاز وحاضره للشيخ حين محمد نصيف وقلب الكتب العربية بالقاهرة) والتقد الأمين في تاريخ البلد ج جزيرة العرب لغزاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الأمين (طبع القاهرة) وصبح الأعشى للنفقشدي في جم الحديث - الجزء الأول - للدكتور عبد الكريم غرابية مواضيع متفرقة والدرر الكاشفة في أعيان المائة الثامنة لابن زعيم ومجمع الأنساب والأسرات الحاكمة لزمبابور (الترجمة حيدر والنعوم الزاهرة لابن تقي بردي (طبع دار الكتب عم العربية - طبع القاهرة) P. ٢٢٠ المصرية) ومجمع البلدان لياقوت في مكة والمدينة ووفاء حم

صلته بمصر . ودفعه - فيما بعد - أبو القاسم المغربي حين قر من مصر على أن يطلب الخلافة لنفسه ، فخطب باسمه ، وتلقب بالراشد بالله ، وسار إلى مدينة الرملة بفلسطين ، وعاهده أميرها وأمير طيئ حسان بن مفرج على نصرته . وعلم بذلك الحاكم فأرسل إلى ابن مفرج بالأموال ، فنفض يده من أبي الفتح وأسلمه إلى المصريين ، وقر أبو القاسم المغربي إلى المراق . واضطر أبو الفتح أن يعلن طاعته للحاكم ، فعفا عنه وعاد إلى إمارته . وحدث بعد عودته في سنة ٤١٣ أن ضرب رجل من شيعة الفاطميين في أثناء الحج الحجر الأسود بدبوس ، فصدمه وهو يقول : إلى متى تُعبدُ ؟ إلى كم تقبل ؟ وبادر الناس إليه فقتلوه ونفروا من أصحابه . وما زال أبو الفتح يلى مكة حتى سنة ٤٣٠ وخلفه ابنه شكر على إمارته ، وأضاف إليها المدينة لمدة ثلاث وعشرين سنة كان يجمع فيها بين الحرمين إلى أن توفى سنة ٤٥٣ وكان فارساً وأديباً شاعراً ، وله قصة ترويحاً كتب التاريخ عن زواجه من جارية هلالية تسمى الجازية ، وهى نواة قصص أبى زيد اللالى . وبشكر انفردت سلالة وحكمها في مكة إذ لم يعقب ولداً ، وصار أمرها بعده إلى عبد له ، غير أن فرحاً من الأسرة الحسينية من بنى هاشم أو الهواشم تغلب على هذا العبد واضطر بنى سليمان إلى الهجرة من مكة إلى شالي اليمن ، فأسسوا لهم إمارة هناك في الخلف السلياني المنسوب إليهم . وكان أحد الهاشميين ، وهو محمد بن جعفر قد تولى أمر مكة بمساعدة الصليحي أمير اليمن سنة ٤٥٤ ويقول المؤرخون إنه كان تارة يجعل الخطبة في الموسم باسم الخلفاء الفاطميين وتارة باسم الخلفاء العباسيين ، تبعاً لما كان يفتق عليه من أموال وفيرة من بغداد أو القاهرة ، إذ كان كل من الجانبين يكثر من إرسال الميرة والأموال إليه . واستطاع أن يجمع في ظل حكمه الحرمين وأن تكون له الإمارة على مكة والمدينة وقراها ، وبذلك اجتمع له الحجاز . وولى بعده ابنه القاسم سنة ٤٨٧ حتى سنة ٥١٨ وكانت الخطبة في عهده تارة تكون باسم الفاطميين ، وتارة باسم العباسيين . وخلفه ابنه أبو قلبة ، فيجعل الخطبة باسم العباسيين حتى وفاته سنة ٥٢٧ . واتصلت الخطبة باسم بنى العباس في عهد ابنه القاسم حتى قُتل سنة ٥٥٦ . وخلفه ابنه عيسى ، وفي عهده انتهت دولة الفاطميين وحكم مصر صلاح الدين واستولى على الحجاز ومدينتيه : مكة والمدينة ، ثم استولى على اليمن . وبظل أبناء عيسى يولون مكة ، فيخلفه ابنه داود سنة ٥٧٠ وفي عهده يبطل صلاح الدين المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بمكة ، ويعوض عنها في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحاً ، ويرسل صلاح الدين مثل ذلك إلى أهل الحرمين . ويدخل سيف الدين طُنشكين الأيوبي مكة سنة ٥٨٢ ويبطل فيها الأذان بحى على خير العمل ، عملاً بأذان أهل السنة أو الجماعة .

ويخلف داود أخوه مكث سنة ٥٨٤ ثم ابن أخيه المنصور بن داود . ومنه انتزع مكة قتادة الحسنى سنة ٥٩٧ وظلت إمارتها في أبنائه إلى العصر الحديث .

وقد استطاع قتادة أن يضم تحت جناح إمارته المدينة والحجاز جميعه ، وكان يخطب للسلطان العادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر ، وللکامل بن العادل سلطان مصر بعد أبيه ، وكان يؤذن في الحرم بحجى على خير العمل على قاعدة الإسماعيلية كما يقول صاحب النجوم الزاهرة ، وأيضاً على قاعدة الزيدية من آبائه . وخلفه ابنه الحسن سنة ٦١٧ ونشبت الحرب بينه وبين مسعود الأيوبي أمير اليمن سنة ٦٢٠ واستولى منه مسعود على مكة والحجاز ، وولّى عليها على بن رسول ثم طغتكين التركي . وعادت مكة إلى بنى قتادة ، ووليها راجع ابن قتادة سنة ٦٢٦ وظلت تنقل بينه وبين أخيه على وحجاز ابن أخيه الحسن ثم ابنه راجع حتى سنة ٦٥٢ . وفي كل هذه الفترة كان أمراء مكة يولون من قبل العباسيين حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ . وكانت مصر بعد ذلك في عهد السلاطين المالكى هى التى توليهم ، وكانوا يعيّنون بجانبهم حكاماً لحماية الحجاج وتنفيذ الأوامر السلطانية . ومن أهم أمراء الأسرة أبونعمى الأول الذى ولى مكة سنة ٦٥٢ وثبته عليها السلطان بيبرس ، وظل يلى شئونها خمسين عاماً ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان يقال لولا أنه زيدى النحلة لصلح للخلافة الحسن صفاته . وروى له الفاسى بترجمته في كتابه العقد الثمين بيتاً أقسمه للسلطان قلاوون صاحب مصر أنه بعهد موثق : أن يحمى الحجاج ويؤمهم ، وأن يظل على طاعته وطاعة ابنه الصالح . وكان شاعراً جواداً ، ومدحه شعراء كثيرون في مقدمتهم الحنديلدى . ويخلفه في سنة ٧٠٦ ولده : رُمَيْشَة وَعُطْبَيْفَة ، وبرسل السلطان الناصر بن قلاوون إلى مكة في سنة ٧٠٢ عشرة آلاف أردب قمحاً تفرّق في أهلها . ويستقل رميثة بمكة سنة ٧١٥ ويُبْقِض عليه في سنة ٧١٨ ويرسل إلى مصر ، ويثولها أخوه حُمَيْشَة . وتردّ مكة إلى رميثة . ويبلغ الناصر في سنة ٧٣١ أنه يجهز بمذهب الزيدية ، فينكر ذلك عليه ، ويرسل إليه عسكرياً . ويحج السلطان سنة ٧٣٢ ويأمر بأن يشترك معه أخوه عطيفة في الإمارة ، حتى إذا كانت سنة ٧٣٨ انفرد بها ثانية رميثة حتى سنة ٧٤٤ إذ ترك الإمارة لولده : ثَقْبَة وعجلان . ويتوفى سنة ٧٤٦ ويتأمر الأخوان على مكة ، ويعملها المصريون لعجلان إذ كان ثقبه يعلن نصرته لمذهب الزيدية وأقام له خطيباً زيدياً يخطب الناس أيام الحج ، وقبض عليه المصريون ولكنه فر من سجنهم ، وعاد إلى شغبه مع أخيه عجلان حتى توفى سنة ٧٦٢ فخلص الأمر لعجلان . وكان بخلاف آبائه يجب أهل السنة ، وينصرهم على الشيعة الزيدية وغيرهم ، وكانت مصر ترسل إليه بالميرة وبالمحمل على العادة . وكان

ممدحاً ، مدحه النشو شاعر مكة وغيره ، وأشرك معه ابنه أحمد في الحكم ، وما زال يل الإمارة حتى توفي سنة ٧٧٧ وخلفه ابنه أحمد حتى توفي سنة ٧٨٨ . ووليا بعده أخوه علي وشركه في الإمرة أخوه مغاس لمدة سنتين ، وما زال عليها حتى توفي سنة ٧٩٧ فخلفه أخوه الحسن حتى وفاته سنة ٨٢٩ . وبثولاها بعده ابنه بركات حتى سنة ٨٥٩ وبخلفه ابنه محمد حتى سنة ٩٠٣ فتصير لابنه بركات ، وأهم منه ابنه أبو نُمي الثاني الذي سافر إلى مصر عقب استيلاء السلطان العثماني سليم الأول عليها سنة ٩٢٢ ليعلم تسليم الحرمين إليه . وكانت إمارة مكة في العهد العثماني تتبع ولاية مصر والخلافة العثمانية ، ووليتها ثلاث أسر من أبناء نُمي : أسرة بركات ، ثم أسرة زيد ، ثم أسرة عون . وظلت الولاية في الأسرة الأولى أكثر من مائة عام ، ثم نافستها أسرة زيد في القرن الحادي عشر وظلت الإمارة تنتقل من بركاني إلى زيدي حتى استقل بها بنو زيد ، وظلوا يولونها إلى زمن فتح محمد علي للحجاز في عام ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ويعين إبراهيم باشا قائد الجيش المصري الشريف محمد بن عون عليه . وبذلك تنتقل الإمارة والحكم فيه إلى الأسرة الثالثة من أبناء أبي نُمي ، ونقصد أسرة عون . وحين انسحب جيش محمد علي من الحجاز سنة ١٨٤٠ عينت الدولة العثمانية عليه والياً لها ، واستبقت الشريف محمد بن عون ، فكانت السلطة ثنائية بينه وبين والي العثماني ، حتى وفاته سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م . وما زالت الإمارة في أبنائه حتى استخلصها سعود الثاني من حسين بن علي آخرهم لا في هذا العصر ، وإنما في العصر الحديث .

وكانت إمارة المدينة أقل شأنًا من إمارة مكة ، وكانت الرياسة فيها لبني المهنا أحفاد الحسين ، ويروى أن أحدهم وهو الحسن بن طاهر رحل إلى الإخشيد بمصر ، فأكرمه وأقطعهم ما يُبذل كل سنة مائة ألف دينار ، وتوفي سنة ٣٢٩ وانهقدت مودة وثيقة بين ابنه مسلم وكافور ، ويقال إن مسلماً كان يدعو للممزر صاحب إفريقية وفي هذا ما يشير إلى أن هذه الأسرة كانت إسماعيلية الهوى ، ويقال أيضاً إنه دخل مصر فطلب منه كافور ابنة لأحد أبنائه ، فردّه ، فحق عليه ونكبه ، وهرب ابنه طاهر إلى المدينة ، فأمره الحسينيون هناك عليهم ، واستقل بها حتى سنة ٣٨١ وخلفه عليها ابنه الحسن ، واختلف المورخون هل الأمراء بعده من سلالة أوهم من سلالة ابن عمه داود بن القاسم الذي يقال إنه وليا بعده . ويذكر بعض المورخين أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر الحسن بن جعفر السلطاني أمير مكة بالإغارة على المدينة سنة ٣٩٠ فأغار عليها وأزال عنها إمارة بني المهنا ، غير أنها لم تلبث أن عادت إليهم ، وظلت في أيديهم إلا فترات قليلة كانت تتبع فيها إمارة مكة .

وكانت الأسرة كما أسلفنا إسماعيلية ، وكان الفاطميون يولون أبناءها على المدينة ، الواحد تلو الآخر ، إذ كانوا من شيعتهم . ومن أهمهم منظور بن حمارة المتوفى سنة ٤٩٥ . وتنتهى الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وتدخل الحجاز في طاعته ، ويُنقِى على بنى مهنا أمراء للمدينة وكانوا يتولون إمارتها في العهد الأيوبي من قبل الخلفاء العباسيين ، ومن أشهرهم حيثش أبو قلَيْبَةَ الذى حضر مع صلاح الدين فتح أنطاكية سنة ٥٨٤ وولى بعده ابنه سالم ، وكان شاعراً ، وكانت بينه وبين قتادة شريف مكة موقعة بذى الحليفة بالقرب من المدينة سنة ٦٠١ هزم فيها قتادة ، وفى ذلك يقول ملتحاً :

مصارعُ آلِ المصطفى عُدُنْ مثلاً بَدَأَنَ ولكنْ صِرَنَ بينَ الأقاربِ

ويقال إن سالماً حضر إلى مصر فى سنة ٦١٠ للشكوى من قتادة ، ومات فى طريق عودته قبل وصوله إلى المدينة ، وولى بعده ابنه شيعة وظل على المدينة حتى قتل سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه عيسى ، وقبض عليه أخوه جَمَاز سنة ٦٤٩ وملك مكانه ، وهو الذى ظلت الإمرة بعده فى بيته ، وطال عمره حتى سنة ٧٠٤ وعصى فى آخر أيامه ، وقدم مصر سنة ٦٩٢ فأكرمه سلطانها خليل وعظمه ، وقبل شفاعته فى أمير ينبع وفى أبى نُسَى أمير مكة وكان قد غاب عن لقاء الركب المصرى . وخلفه ابنه منصور ، ووفد أخوه مقبل على الظاهر بيبرس (هكذا فى ابن خلدون وصبح الأعشى وهو المظفر بيبرس الجاشنكير) فأشرك بينهما فى الإمرة وفيما عيَّنه من إقطاع للأمير المدينة ، وغاب منصور عن المدينة لأمر واستخلف ابنه كيشة ، فلحقها مقبل من يده ، ولحق كيشة بأحياء العرب ، فنصروه على عمه وسقط قتيلاً سنة ٧٠٩ ورجع منصور إلى إمارته ، وظل بها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ويكثر الخلاف بين أفراد هذه الأسرة وما يكاد يتولاها شخص منهم حتى ينقضى عليه آخر . ويمكن أن نذكر من تولوا إمارتها حتى نهاية القرن الثامن على الترتيب كيشة بن منصور ، وودى بن جواز وطفيل بن منصور وسيف وفضل ومانع من عقب جواز ، ثم جواز بن منصور وهبة ابنه ، - وهبة آخر من عقب وُدَى وعُطَيْفَة بن منصور بن جواز وهبة بن جواز وجواز بن هبة بن جواز ونُعمِر بن منصور وثابت بن نعيم . وكثيراً ما كان يشب على الإمارة أحد هؤلاء الأربعة عشر والياً حتى سنة ٧٩٩ . ووراء هؤلاء أسماء أمراء للمدينة آخرين مثل محمد بن عطيفة المتوفى سنة ٧٨٨ وهُبَاز بن هبة الله المتوفى بالسجن فى الإسكندرية سنة ٧٨٩ . وحقاً كانت تتيح المالِكُ وكانوا هم الذين يولون عليها الأمراء ، ولكن الأمر أظلت من أيديهم إزاء هذا الصراع الحاد ، فإيكادون يولون شخصاً حتى تقيم الأسرة شخصاً آخر وتطلب توليته ، ويفزع إلى القاهرة كى تخلع عليه وتنصبه أمراً . على كل حال

سواء الحكم في هذه الإمارة منذ القرن الثامن الهجري ، وكلما قطعنا شوطاً في الزمن اشتد سوءه ، حتى لنرى أحد أمراءها من أحفاد نعيم المسمى الحسن بن الزبير يمتد في يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١ على حراس الحرم النبوي وينهب ما في الحجرة النبوية الطاهرة من تحف وتنافس . وتدهور الإمارة منذ هذا التاريخ وتدخل مع الحجاز في حكم الدولة العثمانية ، وتظل لهذا البيت الحسيني عليها إمارة اسمية . ويؤكد ابن خلدون والفلقشندي أنهم كانوا على مذهب الإمامية الرافضة ، بينما كان أمراء مكة زيدية . ومرّبنا أن أمراء المدينة كانوا إسماعيلية ، ويبدو أنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلي في العهد الفاطمي حتى إذا انقضت الدولة الفاطمية تحوّلوا فيها بعد إمامية اثني عشرية .

نجد وقبائلها وشيوخها^(١) وإماراتها .

ظلت نجد تعيش حياتها الرعوية وتنتشر فيها قبائلها الباقية بعد من هاجر منهم في عصر الفتح ، ولا نكاد نعرف شيئاً واضحاً عن هذه القبائل منذ أوائل هذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث إلا ما يتصل برحلات هذه القبائل إلى الشرق وما كوّته هناك من إمارات ، وكذلك ما يتصل برحلاتها إلى الغرب وقد مضت تنغلغل فيه متجاوزة مصر إلى بلاد المغرب ، وأيضاً ما يتصل بقبيلة طيئ التي كانت تحتل منطقة جيل أنجا وسلمى وتنتشر في بوادي الشام والعراق ، وقد جعلتها مواطنها في هذه الأنحاء تتصل بدول العراق ومصر والشام .

ولعل أول ما نقرؤه من أخبار عن تحركات القبائل النجدية في هذا العصر يتصل ببني هلال بن عامر وأبناء عمومته عقيل وربيعة ، وكذلك ببني سليم . وكان العامريون يتزلون في جبل غزوان ، بينما كان بنو سليم يتزلون شرق المدينة ، وكانوا جميعاً يطوفون بأطراف الجزيرة في العراق والشام وبغريون على القرى هناك ، وكان بنو سليم يغيرون أحياناً على الحجاج في مواسم الحج ، وكانت البعث تجهّز لهم من بغداد للإيقاع بهم . ولما ظهر القرامطة بالبحرين تمخّز كثير من العامريين وبني سليم إليهم ، وصاروا جنداً لهم في البحرين وعمّان ، وحين أغار الأعصم القرمطي سنة ٣٦٠ على الشام ، وهزمت جيوش

الحسين بن غنام وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر وقلب جزيرة العرب لغزاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث - الجزء الأول (١٥٠٠ - ١٩١٨ م) ، للدكتور عبد الكريم غراية .

(١) انظر ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء والجزء الرابع من صبح الأعشى وذيل تاريخ دمشق لابن القلائس والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي في مواضع متفرقة والمريدة للمهاد الأصهباني وابن خلكان في أمراء بني عقيل وبني أسد وروضة الألكار

الفاطمين نقل الخليفة الفاطمي العزيز جنده من بني هلال وبني سليم إلى صعيد مصر ، وبعث بهم المستنصر بعده إلى المغرب ، فغربوا مدن تونس وملكك سليم شرق البلاد وبنو هلال غربيها . وكان قد انضم إلى الأعصم في حربه للفاطمين شيخ طيبي : حسان بن الجراح ، حتى إذا انهزم الأعصم دنا من العزيز وأكرمه ، وتظل لبني الجراح رياستهم لطبيي وعرب بادية الشام طوال العهد الفاطمي ، ويتوفى حسان سنة ٣٦٧ ويخلفه أخوه دغفل المفرج ويستولى على الرملة بفلسطين ، ويتولى زعامة طيبي بعده ابنه حسان سنة ٤٠٤ وكان يعين الفاطميين في حروبهم واستولى على عسقلان سنة ٤١٤ وعلى أفامية سنة ٤٢٢ ولا نجد له ذكراً بعد سنة ٤٣٣ ومن أهم شيوخ بيته بعده فضل بن ربيعة حليف قرواش صاحب الموصل .

وإذا اتجهنا إلى الشرق وجدنا بني خفاجة من عقيل بن عامر وقد توغلوا نحو الحماة ، وزحزحهم فتنة القرامطة صوب حدود العراق ، فلكوا ضواحيه ، وأصبحوا سادة الكوفة في ظل أميرهم عليان بن إسماعيل الخفاجي الذي أسس هناك إمارة بني ثمال سنة ٣٧٤ للهجرة وخلفه فيها أبناؤه ، ونظل نسمع عن غاراتهم مع أبناء عمومتهم بني المتفق بن عامر بن عقيل طوال القرن الخامس الهجري وحتى منتصف القرن السادس إذ كانوا يغيرون على الأنبار والعراق إغارات متصلة ، وكانوا لا يزالون يتزلون في هذه الأنحاء في بطائح البصرة وواسط حتى عصر ابن خلدون متقلبين بغيامهم من مكان إلى مكان .

وتزحت قبائل وعشائر كثيرة لبني عقيل بن عامر إلى الموصل في الشمال الشرقي من الجزيرة واستطاعوا أن يقيموا لأنفسهم فيها إمارة كان أول أمرائها ومؤسسها أبا الزهراء محمد ابن المسيب العقيلي الذي تغلب على الموصل سنة ٣٨٠ وخلفه أخوه المقلد العقيلي الذي اتسعت مملكته ، وقد حارب بني خفاجة واضطروهم إلى الدخول في طاعته ، وكان شاعراً ومحباً لأهل الأدب وقتله أحد مماليكه الأتراك غيلة سنة ٣٩١ ورثاه الشريف الرضي بقصيدتين وجهاة من الشعراء . وخلفه ابنه قرواش ، وكان يمد سلطانه على الموصل جميعه والكوفة والمدائن وسفلى الفرات ، وأدب بني خفاجة مراراً ، وكان كريماً وهاباً نبأ ، كما كان شاعراً مجيداً . ودامت إمارته نحو خمسين سنة حتى قبض عليه أخوه بركة وجبه في إحدى قلاع الموصل سنة ٤٤١ وتولى مكانه . وتوفى بعد سنتين ، فخلفه ابن أخ له يسمى قريش بن بدران ، وكان أول ما فعله قتل عمه قرواش وتوفى سنة ٤٥٣ فخلفه ابنه مسلم إلى أن قتل سنة ٤٧٨ وكان حسن السيرة عادلاً ، كما كان ممدحاً ، مدحه ابن حيوس شاعر

الشام وغيره ، ولا نكاد نصل إلى نهاية القرن الخامس الهجري حتى ينحسر ملك بني عقيل ابن عامر عن الموصل ويعودوا إلى البادية أو البوادي ، ويقول ابن خلدون إنهم كانوا لعصره في الآجام بين البصرة والكوفة المعروفة باسم البطائح .

وإمارة ثالثة للبدو على حدود العراق أقاموها في أوائل القرن الخامس أقامها بنو أسد في أنحاء الحيلة ، وكان أول من تصدى منهم لذلك علي بن مزيد التوفى سنة ٤٠٨ وخلفه ابنه نور الدولة ديس ، ويحالف بني خفاجة على حرب قرواش العقيلي ويحرقان الأنبار انتقاماً منه . وينعقد صلح بين قرواش وديس وبهزمان جمعاً للقرّ ويمدح ابن الشبل البغدادى قرواشاً بهذا النصر المبين . وكان ديس وأهل بيته وسائر أعماله شيعة ، مثله في ذلك مثل قرواش . ويمتد حكمه إلى سنة ٤٧٤ وكان يكذب بين يديه علي بن أفلح الكاتب المشهور ، ويخلفه ابنه منصور بهاء الدولة ، ويفتك أسرى بني عقيل حين استولى العسكر السلطاني على جلالهم ويجهزم ويردهم إلى ديارهم ، وقد نفى الشراء بهذه المأثرة طويلاً وما يلبث أن يتوفى سنة ٤٧٩ خلفاً ذكرى طيبة ، غير شرع جيد كان ينظمه . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة ، وكان ذا بأس وسطوة ، وكان يقال له ملك العرب . وكان يسكن هو وآبائوه قبله في البيوت العربية (الخيام) فبني الحيلة سنة ٤٩٥ وسكنها ، وله قدم ابن المبارية كتاب الصادح والباغم ، وتوفى سنة ٥٠١ وخلفه ابنه ديس وكان أديباً وجواداً كريماً ، وهو الذي عناء الحريري بقوله في إحدى مقاماته - وهي المقامة العثمانية - والناس يحبطون بأبي زيد يشنون عليه ويقبلون يديه حتى : « خيل إلى أنه القرنى أويس (واعظ أموى) أو الأسدى ديس » وقد اشترك في مؤامرات كثيرة ضد السلاجقة والخليفة المسترشد ، مما دفع السلطان مسعوداً السلجوقى إلى العمل على اغتياله سنة ٥٢٩. وولى بعده ابنه صدقة ، وسرعان ما ضعفت الأسرة ، وزايلت الحيلة ، وعادت مع قومها إلى الحياة البدوية . ولا نعود نسمع بعد ذلك بإمارات عربية على الحدود العراقية الغربية .

ونولى وجوهنا في المصريين الأيوبي والملوكى نحو بوادى الشام ومنازل طيبى في جبل شمر أو جبل أجأ وسلمى ، ويذكر المؤرخون فخذين كبيرين من آل ربيعة الطائيين كانا يقومان على أحباء العرب في بوادى الشام والعراق ، وهما آل فضل وآل ميرا ، وكانت منازل الأخيرين بوادى حوران ، وكانوا يسقطون منها جنوباً في الصحراء ويوغلون حتى تصبح مكة المعظمة وراء ظهورهم ، وأهم شعبيهم آل أحمد بن حبيب التوفى سنة ٦٨٢ وكان صاحب المدينة الحسينى يؤدى له الحقر وكذلك أطراف الحجاز ، وكانت له منزلة عالية عند الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون . ويقول صاحب صبح الأعشى : آل ميرا أبطال

مناجيد ، ورجال صناديد ، وكثيراً ما يتحاربون مع أبناء عمهم فضل . ويزور القلقشندی عن الشهاب محمود الحلبي أنه حين غزا التار الشام في أيامه وكان بمحضر قبل من أهل مِرْأَزهَاء أربعة آلاف فارس شاكين السلاح على الخيل المسومة والخياد المطهمة مقلدين بالسيوف وفي أيديهم الرماح ومعهم الطعان والحمول ومعهم مغنية تعرف بالحضرمية طائفة السمة سافرة في المودج تنفي آياتاً حساسة .

وكانت ديار آل فضل الفخذ الكبير الثاني من طيئ تمتد من حمص إلى أطراف العراق وتهبط يساراً إلى البصرة وتستدير نحو منازل بني تميم والجماعة ، وتشمل منازل غطفان مما على وادي القُرى ، كما تشمل منازل بني أسد ، وكان ينضم إليهم لقيف من قبائل العرب : من مدحج وعامر وزبيد وغيرهم . وكان شيوخ هذا الفخذ يولون على إمرة العرب بتقليد من السلطان ، وأول من استن ذلك السلطان العادل بن أيوب ، إذ أقام على العرب أميراً منهم هو حديثة بن عقبة بن فضل ، وخلفه عيسى بن محمد ثم مانع بن حديثة المتوفى سنة ٦٣٠ وخلفه مهنا الذي حضر مع المظفر قطز قتال التار في عين جالوت . وولّى بعده الظاهر بيبرس ابنه عيسى . وكانت العادة السلطانية أن يكتب لمن يولّى تقليد شريف بذلك ، ويلبس تشريفاً أطلس أسوةً بالثواب إن كان حاضراً ويجهز إليه إن كان غائباً ، وتصدر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة ، وبالمثل كانوا يولون الأمراء على آل مِرا . وكانوا يوفرون لهم الإقطاعات لحفظ السابلة وقوافل الحجاج وظل عيسى أميراً على العرب وآل فضل حتى سنة ٦٨٤ وخلفه لعهده للنصور قلاوون ابنه المهنا ، وفي الجزء الثاني عشر من صبح الأهشي مرسوم شريف بإمرته . ويخلفه في سنة ٧١٢ فضل أخوه ، ويقال إن ابنه حج في اثني عشر ألف راحلة ، وظلت الإمارة في طيئ طويلا .

ونسمع في داخل نجد عن إمارات كثيرة بأنحائها وقراها المختلفة في الجماعة والعراض والوشم والقصيم يتنافس فيها الإخوة وأبناء العم ، ومن أهم تلك الإمارات إمارة الدرعية التي تأسست في منتصف القرن التاسع الهجري ولا تمضي طويلا في القرن الثاني عشر حتى نرى أميرها سعوداً يضم الواحات الصغيرة المجاورة لها تحت لوائه ، وتوفى سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٥ م . وخلفه ابنه محمد ، وهو الذي تآزر مع محمد بن عبدالوهاب في سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م على نشر العقيدة السلفية وقمع البدع ، وأخذوا يتعاونان في ذلك حتى دان له أكثر نجد . وتوفى سنة ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م ، وخلفه ابنه عبد العزيز ومضى في نشر الدعوة بإقليم القصيم ووادي السرحان ، وضع بلدة الرياض . ولم يلبث أن قُتل بيد شيعي سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م وولّى بعده ابنه سعود ، وقد استطاع أن يمد لواء

سلطانه من أطراف عُمان ونجران واليمن إلى بادية الشام في أقصى الشمال من الجزيرة ، ومن الخليج العربي ونهر الفرات إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) واستولى على الطائف ومكة ، مما جعل الدولة العثمانية تستعين بمحمد علي واليها في مصر ، كي يستخلص الحجاز منه ، فأرسل إليه جيشا بقيادة ابنه إبراهيم واستطاع الجيش الاستيلاء على المدينة ومكة سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م وصرعان ما توفي سعود في الدرعية سنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م وتولى بعده ابنه عبد الله ، وفي عهده أخذت البلاد تسقط واحدة تلو الأخرى في يد إبراهيم باشا ، واستسلم عبد الله بن سعود ، وأرسل إلى القسطنطينية حيث قضى نفيه سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م . ويتولى حكم الدرعية تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود . وبذلك ينتقل الحكم في آل سعود من بيت عبد العزيز بن محمد إلى بيت أخيه عبد الله بن محمد ، ويبقى فيه إلى اليوم . وينشط تركي ، ويفتح الحسا والقطف ، ويعقد صلحا مع صالح بن علي أمير حائل وزعيم منطقة شر أو جبل أجأو سلمى ويقتال سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م ويحلقه ابنه فيصل وكان ضيقا ، فيأسره المصريون ثم يعيدونه إلى إمارته ويظل بها حتى عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م وهو عام وفاته . وتعمقه فترة من الاضطرابات والفتن بين أبنائه استطاع في خلالها محمد بن رشيد صاحب حائل أن يبسط سلطانه على أكثر البلاد الخاضعة للسعوديين ، لولا أن هبَّ لا في هذا العصر بل في العصر الحديث الثالئ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل فاسترد الرياض وكل ما فقد من إمارة آبائه .

اليمن ودولها^(١)

توزعت اليمن في هذا العصر دول كثيرة ، لعل أقدمها دولة بني زياد في زَيد (٢٠٣-٤١٢ هـ) وخلفهم عليها دولة آل نجاح (٤١٢-٥٥٤ هـ) ثم دولة بني مهدي

لباخرمة (طبع ليدن) والمختلف من تاريخ اليمن للجغراف (طبع القاهرة) والمختلف السلطاني للعقيل (طبع الرياض) وطرفة الأصحاب في معرفة الأنساب لابن رسول (طبع دمشق) والصلحيون والحركة الفاطمية في اليمن (طبع القاهرة) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ، الجزء الأول للدكتور عبد الكريم غراية ومعجم البلدان ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزايابور .

(١) راجع في اليمن ودولها تاريخ ابن الأثير وابن خلدون وصح الأمشي في جزوه الرابع والخامس وابن خلكان في التراجم المشهورة وتاريخ المستنصر لابن الجاور وتاريخ اليمن لهامة (نشرة كافي) وبشر المرام في شرح سلك الحتام فيمن تول ملك اليمن من ملك وإمام للقاضي العرش والقود القوتية للخزرجي (طبع القاهرة) وكتاب تاريخ اليمن لعبد الواسع الجاني (طبع القاهرة) وأنباء الزمن في اعتبار اليمن ليحيى بن الحسين وتاريخ ثغر عدن

الخوارج (٥٥٤-٥٦٩ هـ) ومنهم أخذها الأيوبيون وخلفهم عليها وعلى اليمن دولة آل رسول . ولصنماء دولها هي الأخرى وأولها بنويعفر (٢٥٢-٣٩٣ هـ) وتلتها دولة الصليحيين الإسماعيليين (٤٣٩-٥٣٢ هـ) . ثم دولة الهمدانيين (٤٩٢-٥٦٩ هـ) . وفي صعدة مستقر الزيدية دولة الرسيين منذ سنة ٢٨٨ ونازعهم عليها أبناء عمومتهم بنو سليمان منذ طردهم الهواشم بمكة ونزلوا الخلاف السلطاني سنة ٤٥٠ وقد أزال على بن مهدي دولتهم منه . ثم عادوا إليه ، وقد ظل أئمة الرسيين يتوالون واحدا بعد الآخر حتى العصر الحديث . وفي عدن دولة بني زريع الإسماعيلية (٤٦٧-٥٦٩ هـ) . ومنهم أخذها الأيوبيون كما أخذوا صنعاء وصعدة عاصمة الرسيين . ونحن نسوق الحديث عن هذه الدول ، ثم نتقل منها إلى الحديث عن الأيوبيين والرسوليين وبني طاهر والعصر العثماني ومقاومة الرسيين في صعدة للعثمانيين ، حتى استخلصوا منهم البلاد .

ونبدأ بدول زبيد قبل الفتح الأيوبي ، وأولها دولة بني زياد ، ومؤسسها محمد بن زياد من نسل عبيد الله بن زياد حاكم العراق بعد وفاة أبيه زياد ، ولاء المأمون على اليمن سنة ٢٠٣ للهجرة فاستولى على يهامة وحضرموت ، ومن أهم أمراء هذه الدولة أبو الجيوش إسحق بن إبراهيم (٢٩١-٣١٧ هـ) . وفي عهده استولى القرامطة على زبيد سنة ٣٠٣ ثم تركوها . ودانت له اليمن : عدن وصنعاء وحكامها بنويعفر وصعدة وحكامها الرسيون واتسعت جبايته حتى بلغت مليونين وثلثمائة وستة وستين ألفا من الدنانير ، سوى ما كان يحببه من مراكب السند ومن الغنم المجلوب إلى عدن وباب المندب ومن القنوص على اللؤلؤ ومن جزيرة دهلك . وما زال الحكم في أسرته حتى تشاجر حجبته على الحكم ، وتقلب عليهم نجاش الحبشي سنة ٤١٢ وأسس دولة بني نجاح ، وما زال يحكمها حتى دس له بعض أنصار على بن الصليحي صاحب صنعاء السم فقتل به سنة ٤٥٢ واستولى الصليحي على زبيد ، غير أن أبناء نجاح فروا إلى دهلك ، وأخذوا يحاولون استردادها واستطاعوا أن يفتلوا الصليحي في طريقه إلى الحج سنة ٤٥٩ واستطاع جيش بن نجاح أن يستعيد زبيد من الصليحيين نهائيا سنة ٤٧٩ وكان شاعرا وكاتبا بليغا ، وصنف الفيد في أخبار زبيد ، ويعت هو وأسرته ووزرائهم نهضة في زبيد أدبية وعلمية ، ومن وزراءهم من الله الفاتكي وسرور وكانا ممدحين عالمي الهمة . وتوارث أبناء جيش الحكم حتى سنة ٥٥٤ إذ ملكها بنو مهدي وزال ملك بني نجاح . وقد نشأ مؤسس دولة بني مهدي - وهو على بن مهدي الحميري - في سواحل زبيد على النسل والدين ، ولما شب أخذ في الوعظ فأجبه الناس والتفوا حوله ، وفكر في إقامة دولة لنفسه فاستولى على زبيد وتسمى الإمام المهدي أمير

الزُمنين وقامع الكفرة والملحددين . وكان يؤمن بعقيدة الخوارج ويتبرأ من عثمان وعلى ، وكان يكفر بالمعاصي ، ويقتل من يقترف كبيرة ، وكذلك من خالف اعتقاده من أهل السنة ، وكان يستبيح نساءهم ويسرق أبناءهم وذرائعهم ، وكان أنصاره يعتقدون فيه العصمة ، ولم يلبث أن توفي بعد استيلائه على زيبيد بنحو ثلاثة أشهر ، وحين استولى عليها قتل قاضيا محمد بن أبي عقامة وابنه وكانا فاضلين . وخلفه ابنه مهدي ثم أخوه عبد النبي . وقد أغار في سنة ٥٦١ على الخلاف السلياني وقتل في الغارة أميره وهاس ابن غانم ، وأنشد في ذلك قصيدة رواها صاحب كتاب الخلاف السلياني ، ومازال على زيبيد حتى تسلمها منه توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ للهجرة .

وأول دول صنعاء دولة بني يعفر التي أنشأها يعفر بن عبد الرحمن سنة ٢٥٢ وخلفه عليها أبناؤه ، وحدث في سنة ٢٩٣ لعهد أسعد بن يعفر أن استولى القرامطة بإمرة على ابن الفضل على صنعاء . ولم يلبث أن ادعى النبوة ، وأباح لأصحابه شرب الخمر وزواج البنات ، وحط عن الناس - بزعمه - أركان الإسلام الأساسية : الصلاة والصيام والحج . وفي سنة ٣٠٣ هلك على يد حسني حجام ، جعل له السم في الموضع . وعلم بذلك أسعد بن يعفر فاستنفر قبائل اليمن واسترد صنعاء وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٣٣١ وخلفه عليها ابن أخيه عبد الله بن قحطان حتى قضى نحبه سنة ٣٨٧ وولى بعده ابنه أسعد ، وبوفاته سنة ٣٩٣ تنهى دولة آل يعفر .

وتخلف دولة البعريين بصنعاء دولة الصليحيين ، أسسها على بن محمد الصليحي ، وقد نشأ فقها صالحاً بين قومه الهمدانيين وظل أمره ينمو في مفره بجيلة منذ سنة ٤٣٩ ورمما قبل ذلك بسنوات غير قليلة . وكتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمي يستأذنه في الدعوة للمذهب الإسماعيلي ، فأذن له واتسع نفوذه واستولى على زيبيد ، كما أسلفنا ، من يد آل نجاح سنة ٤٥٢ كما استولى على صنعاء سنة ٤٥٤ واختط بها القصور واتخذها حاضرتها ، وعظم ملكه . واستولى على مكة سنة ٤٥٥ ليزيل منها الإمارة الحسينية الزيدية ثم تركها . وكانت زوجته أسماء من فضليات النساء ، وكانت ممدحة كريمة ، مدحها كثير من الشعراء . وخلفه ابنه المكرم سنة ٤٥٩ واتخذ جيلة عاصمته ، وأصيب بمرض الفالج ، ففوض شئون دولته إلى زوجته الملكة الحرة أرتوى بنت أحمد الصليحي إلى أن توفي سنة ٤٨٤ فتولت بنفسها زمام الأمور ، وتزوجت سبأ بن أحمد الصليحي بأمر المستنصر الفاطمي ، وتوفى سنة ٤٩١ وأخذت تخرج عليها بعض القبائل وبعض البلدان ، واستولى بنو حاتم الهمدانيون على صنعاء سنة ٤٩٢ وظل يحكمها منهم حاتم بن غشم الهمداني حتى سنة ٥٠٢ وخلفه أبناؤه

عليها حتى تسلمها منهم توران شاه الأيوبي . وظل نجم الملكة الحرة يزداد أنفولا والدولة الصليبية تنفكك أوصالها ، حتى لم يبق لها إلا بعض حصون قليلة : وقد خرجت أكثر الحصون في الجنوب إلى بني زُرَّيْع أصحاب عدن . وتوفيت الملكة الحرة سنة ٥٣٢ وبوفاتها انتهت الدولة الصليبية الإسماعيلية .

وحرى بنا أن نسوق الحديث إلى دولة الرُّسَيْن الزيدية بصَّعْدَة في اليمن ، ومؤسساها هناك الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم المولود بجبل الرُّسَ بالقرب من المدينة المنورة سنة ٢٤٥ في زمن جده القاسم الإمام الزيدى المعروف بمؤلفاته في المذهب الزيدى وفى الفقه . وقد خرج من موطنه إلى اليمن في سنة ٢٨٤ واستولى على صَعْدَة وأسس بها إمامة الزيدية باليمن ، وتوفى سنة ٢٩٨ فخلفه ابنه محمد ثم أخوه أحمد ، فالإمام الهادي إلى الحق وهو المؤسس الحقيقى للدولة . وماتزال تلك الأسرة تتوارث الإمامة حتى يفد عليها أبو الفتح الديلمى سنة ٤٣٧ فيستخلص الإمارة لنفسه حتى وفاته ، ويخلفه عليها بنو سلیمان أصحاب الخلاف السلیمانی الزيديون وينسحب الرسيون إلى جبل قطابة ، وتوالى أئمتهم هناك . وتتطور الظروف ويعود الرسيون إلى صعدة ، وتدخل صنعاء في حوزتهم مرارا . ومن أشهر أئمتهم التوكل على الله (٥٣٢-٥٦٦ هـ) . وكان شاعرا محسنا ، وله مكاتبات شعرية مع نشوان بن سعيد الحميرى . ومن أئمتهم في العهد الأيوبي الإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦١٤ . ومن مشهورهم في عهد الدولة الرسولية الحسن ابن وهَّاس ، والموطئ الرسى الذى بويج بالإمامة سنة ٦٤٥ وكان قواما صواما علما فقيها ، وظل الحكم بعده في أبنائه وتوالى أئمتهم في عهد الدولتين : الرسولية والطاهرية ، وسنعود إليهم بعد استيلاء العثمانيين على اليمن عقب فتحهم لمصر .

أما عدن فكانت قديما داراً لبني معن بن زائدة منذ ولابته عليها في عهد المأمون ، وقد امتنعوا على بني زياد أصحاب زَيد ، ولما استولى عليها الصليحي دأبوا الفاطميين قنع منهم بإتاوة يؤدونها ، ثم عزلهم عنها ابنه المكرم ، وجعلها للهمدانين ، ولم يلبث فرع منهم هو فرع بني زُرَّيْع أن استخلصها لنفسه ، وكانوا إسماعيلية ، ومن أهم أمرتهم محمد بن سبأ (٥٣٣-٥٥٠ هـ) . وكان يتلقب بالداعى المعظم المتوج سيف أمير المؤمنين ، وقد اشترى حصن جبلة من الصليحيين ، وخلفه ابنه عمران ممدوح أبى بكر العيذى (٥٥٠-٥٦٥ هـ) . وكان يدبر دولته ودولة ابنه ياسرين بلال ممدوح ابن قلاص الشاهر المصرى وغيره من الشعراء . وحين قدم توران شاه إلى اليمن قبض عليه وانقطعت دولة بني زريع . ويقال إن إيرادات عدن كانت مائة ألف دينار وارتفعت في عهد الأيوبيين إلى

سنة ألف . وحين فتح اليمن توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ أقام نفسه فيها نواباً في مدنها وحصونها ، وعادت إلى أحسن أحوالها من الخصب والعمارة والأمن ، غير أن الحكم فيها لم يتظم تماماً لصالح الدين إلا بعد أن أرسل إليها أخاه سيف الإسلام طغتكين ، فأقام بها منذ سنة ٥٧٨ ودخل كربلاء سنة ٥٨٢ مكة ومنع من الأذان فيها بحج على غير العمل ، وهو أذان الزيدية والإسماعيلية وغيرها من الشيعة ، وتوفي سنة ٥٩٣ وخلفه على اليمن ابنه إسماعيل وأساء السيرة فقتل سنة ٥٩٨ ووليها بعده ابن عمه سليمان ، وظلم الناس ، فولى السلطان الكامل صاحب مصر عليها ابنه الملك المسعود سنة ٦١٢ وأتاب عنه في بعض رحلاته إلى مصر نور الدين عمر بن علي بن رسول أحد قواده ، فكُنّ نفسه فيها ، ولم يلبث أن استقل بها سنة ٦٢٦ للهجرة .

وتظل اليمن في قبضة الدولة الرسولية حتى سنة ٨٥٨ وقد اتخذ نور الدين تعز بالقرب من إقليم عدن عاصمة له وتلقب بالملك المنصور واعترف به الخليفة العباسي سنة ٦٣٢ للهجرة وامتدت مملكته من مكة إلى حضرموت . وكانت الحرب كثيراً ما تنشب بين الرسولين وبين الأئمة في صنعاء . وقتله بماليكه سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه الملك المظفر يوسف وهو صاحب جامع المظفرية بتعز ، وبني جوامع ومدارس كثيرة في مدن اليمن ، وفتح ظفار في أقصى بلاد حضرموت ونشبت بينه وبين أئمة اليمن حروب كثيرة ، وتوفي سنة ٦٩٤ فخلفه الملك الأشرف لمدة عامين فالملك المؤيد حتى سنة ٧٢١ وكانت له مشاركة حسنة في العلوم والفنون ، فالملك المجاهد حتى سنة ٧٦٤ فالملك الأفضل ابنه حتى سنة ٧٧٨ فالملك الأشرف حتى سنة ٨٠٣ وله ألف الخزرجي كتابه العقود اللؤلؤية ، ويصف حفل ختان أبنائه وصفاً رائعاً . وتضعف الدولة بعده وتأخذ في التدهور ، وينتشر بنو طاهر ولاتهم وأماؤهم في عدن وغيرها الفرصة ، ويؤسسون دولتهم .

وقد اتخذ بنو طاهر «زيد» حاضرة لهم ، وأول أمراءهم عامر بن طاهر الذي استولى على عدن سنة ٨٥٨ وتلقب بالملك الظافر وتوفي سنة ٨٧٠ فخلفه أخوه الملك المجاهد إلى وفاته سنة ٨٨٣ وولى بعده الملك المنصور حتى سنة ٨٩٤ وخلفه الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب وقد استولى على صنعاء سنة ٩١٠ ولا نصل إلى سنة ٩٢١ حتى يستولى البرتغاليون على جزيرة كمران في البحر الأحمر ، وحينئذ يرسل قانصوه الغوري صاحب مصر حملة لمطاردة البرتغاليين ويطردون من الجزيرة وتترل الحملة اليمن وتستولى على زيد وتعز وتقضي على دولة بني طاهر

وتدخل اليمن في حوزة الدولة العثمانية ، وتنشب مناوشات كثيرة بين الأمراء أو الأئمة

الزيديين وبين العثمانيين ، وترك الدولة العثمانية اليمن لأهلها سنة ١٠٤٥ فتكثر فيها الفتن والانقسامات حتى في أسرة الأئمة الرسيين ويستتب الحكم للإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ) وقد ظلت الإمامة في عقبه إلى أن تخلصت منهم اليمن في ثورتها الأخيرة ، وكان المتوكل مظفراً استولى على عدن وحضرموت وظفار وجمع بلاد اليمن وتوالى الأئمة من بعده . وحدث في عهد الإمام المنصور بالله على بن المهدي أن زاره القبطان الإنجليزي ولسن عند نزول نابليون بونابرت مصر ، ونزل له طائفاً عن جزيرة ميون المسماة بريم في مضيق باب المندب بالبحر الأحمر ! وهى تقسم البحر عندها قسمين . وما نصل إلى عهد الإمام الناصر لدين الله حتى يحتل الإنجليزي سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م ميناء عدن بالقوة بعد مناوشات قليلة مع جنود سلطان لحج ، وأصبحت مستعمرة إنجليزية . ورأى الأتراك طمع الدول الأوروبية في اليمن ، وأحس أنتمها بحاجتهم إليهم ، فعادوا إلى احتلال اليمن سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م بينامضى الإنجليزي يضمنون إلى مستعمرة عدن تسع محميات أهمها لحج وحضرموت . وأخذت المناوشات تعود ثانية بين الأئمة الزيديين وبين الأتراك العثمانيين إلى أن تولى مناهضتهم لا في هذا العصر ولا في أواخره بل في العصر الحديث الإمام الزيدى يحيى بن محمد حميد الدين

حَضْرَمَوْت (١) وظفار وتاريخها

تقع حضرموت في جنوب الجزيرة على بحر العرب ، وهى إقليم جبلى يتوسطه واد يمتد من الشرق إلى الغرب وتتفرع منه أودية كثيرة وكانت تشتهر قديماً باسم أرض اللبان ، وأهم مدنها في الداخل شبوة وشيأمة وتريم وسيون وعلى الساحل الشحر والمكلا ، وكانت تسكنها قديماً قبيلة كندة ، ومازال الولاة يتتابعون عليها من قبل الخلفاء في صدر الإسلام وزمن الدولتين الأموية والعباسية . ولما تولى محمد بن زياد اليمن أضيفت إليه ، وظل لبنه نفوذ فيها ، حتى ولّى بنويعفر صنماء وأقاموا دولتهم بها ، فإنهم مدوا أيديهم إليها وظلت تبهمهم ، وحاول الحضارمة الثورة عليهم ، ولكن ثورتهم أخفقت ، وقدمها في أثناء حكمهم لها سنة ٣١٧ للهجرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى ، متسباً نسباً شريفاً إلى الحسين بن على ، ونزل بتريم وأصبح له فيها زعامة روحية هو وأسرته إلى اليوم ، وهى زعامة أتاحت للشيع

(١) انظر في حضرموت وظفار وتاريخها ابن الأثير وابن الكثير لعمد بن هاشم وصفحات من التاريخ الحضرمي لسميد عرض بالوزير وداراة المعارف الإسلامية وما بها من حضرموت السبأى لصالح البكرى وتاريخ الدولة

أن يتنفسوا هناك وكانت النحلة الغالبة في حضرموت نحلة الخوارج ولذلك كان أهلها دائماً يثورون ثورات متعاقبة . وزلها القرامطة في أوائل القرن الرابع الهجري مدة ثم تركوها ، وبلغ بها في القرن الخامس أبو إسحق الحضرمي الخارجي ، وقد ساعده الخليل بن شاذان إمام الخوارج في عمان على أن يستقل بها بعد حروب دامية ، واستطاع أن يرُد الصليحي عن حضرموت وهو يعد أول زعيم منها ولي شئونها واستقل بها . والشخصية الثانية بعده شخصية عبد الله بن راشد بن أبي قحطان الكندي المولود بترم سنة ٥٥٣ وقد حكمها وسنه دون الثلاثين ، واهتم بالعلم والعلماء . ولما فتح صلاح الدين اليمن وولى على عدن عثمان الزنجبلي فتح حضرموت وأخذ معه عبد الله ، غير أن العام لم يدر حتى عاد إلى دياره ، وتمر سنوات ويعود ثانية إلى تريم ويستولي من آل النعمان على شبام ، وتغضى البلاد في أمن حتى يغزوها عمر بن مهدي اليمنى بجيش أبوى سنة ٦١٤ ويتمكن من الاستيلاء عليها جميعاً : على الشحر وشبام وتريم ، ويقتل سنة ٦٢٢ وينتهي بذلك عهد الأيوبيين في حضرموت ، وتختلفهم دولة الرسولين ، فيعملون على أن تظل حضرموت تابعة لهم ، وكان يليها بعض أبنائها نواباً عنهم . وحين دانت ظفار شرق حضرموت لسالم بن إدريس الحبوطي استولى مجموعته على حضرموت سنة ٦٧٣ غير أن الرسولين قضوا عليه . ولا يزال شيوخ القبائل في البلاد وفي مقدمتهم بنوراشد وبنو نهدي يتناحرون على حكم المدن ، ويشهر آل باكثير باستيلائهم على الشحر سنة ٧٨٦ وتكون الغلبة لهم في كثير من البلاد . وكان ينافسهم آل بادجانة وآل باوزير والكنديين ولكن آل باكثير ظفروا بهم وبغيرهم من العشائر أو قل ظهروا عليهم . وخلف الرسولين بنو طاهر على اليمن ، وكانت حضرموت تستثمر الولاء لهم ، وقد ردوا عن الشحر محمد بن سعيد بن فارس المهدي سنة ٨٦٧ وعهدوا بها إلى آل باكثير ، واشتهر من بينهم بوطويرق المولود سنة ٩٠٢ وقد استولى على شبام سنة ٩٢٦ واحتل تريم سنة ٩٢٧ واتخذها مركزاً لدولته وكان يجزل العطايا للعلماء والشعراء . واستولى العثمانيون على اليمن سنة ٩٤٥ ويعترف لهم بوطويرق بالطاعة سنة ٩٧٠ غير أن ابنه عبد الله رفض حكم الترك واستقل ببلادهم . وخلفه أخوه عمر وكان نصيره ومعاونيه وكتابه الشاعر الكبير عبد الصمد بن عبد الله باكثير . ويتولى ابنه عبد الله شئون حضرموت حتى سنة ١٠٢٤ ويخلفه أخوه بدر ويظهر ولاءه للزيدية وأتمهم بصنعاء وينشب خلاف بينه وبين ابن أخيه بدر بن عبد الله بسبب ذلك . ويقبض عليه ويعتقل . فيغضب الإمام الزيدي المتوكل على الله إسماعيل ، ويرسل في سنة ١٠٦٩ جيشاً إلى حضرموت يستولي عليها ، ويسلمها إلى بدر بن عمر ويظل يليها حتى وفاته سنة ١٠٧٣ ويتولاها ابنه محمد .

ويضعف شأن آل باكثير . ويصبح ليافع وعشائرها الكلمة العليا في البلاد . ويتحول الحكم والسلطان إليها حتى سنة ١٢٦٣ إذ يعيد غالب بن محسن الكثيرى دولة آل ويستولى على تريم . غير أن الشرع وأكثر البلاد تظل في قبضة اليافعيين ، ويشهر من بينهم عمر بن عوض القعيطى اليافعى ثم ابنه عوض الذى أخطأ خطأ فاحشاً في حق بلده وأمه بتوقيع معاهدة مع الإنجليز سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٨ م أصبحت بها حضرموت إحدى حامياتهم على بحر العرب ، وصمة في جبينه ما بعدها وصمة .

وظفار مضبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم ، وفوق جبالها تنمو أشجار الكندر (اللبان) الذى يستعمله الهنود في معابدهم ، وتاريخها غامض ومن أمرائها محمد بن أحمد المنجوى ، وخلفه سالم بن إدريس الجبوظلى الذى مربنا غزوه لحضرموت وقضاء الرسوليين عليه ، وكانوا يولون عليها نائباً لهم . وفي القرن السادس عشر الميلادى حكم البلاد سيف الإسلام القسافى وهو من صنعاء ، وكانت قلعة يلد مقر حكمه ، وفي القرن السابع عشر الميلادى استولى عليها بنوكثير الحضرميون ، ولا يعرف عنها شيء في القرن الثامن عشر ، وحكمها علوى في القرن التاسع عشر ، وقتله بنو قرا ، وحاول العثمانيون حين عادوا إلى اليمن في هذا القرن فرض سيادتهم عليها . وفزعوا إلى سعيد بن تركى بن سعيد جد أمراء عمان ، وظلت منذ هذا التاريخ تابعة لهم .

عمان وأمراؤها^(١)

تتمتد عمان على الشاطئ، الجنوى الشرقى لجزيرة العرب مشرفة على المحيط الهندى وبحر العرب من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وقد ثار بها الخوارج الإباضية منذ زمن الحجاج في عصر بنى أمية ، وكانوا يتخذون مدينة نزوى في الداخل جنوب الجبل الأخضر مركزاً لهم ، وكانوا يستولون عليها في أكثر سنوات القرن الثالث الهجرى ، وتغلب على عمان أبو طاهر القرمطى عند اقتلاعه الحجر الأسود من الكعبة سنة ٣١٧ وخطب بها لعبيد الله المهدي ، وترددت عليها ولاية القرامطة والروافض إلى أن استعادها منهم الإباضية سنة ٣٦٢ وظلوا مسيطرين عليها حقبة من الزمن . يدل على ذلك أننا نجد

ابن عبد الله السالى وحماد قديماً وحديثاً لحمد على الزرقا والإمارات السبع لأحمد البورى ومقدمة تاريخ العرب الحديث للدكتور عبد الكريم غرابية .

(١) انظر في عمان وتاريخها وأمرائها وديونها تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وصبح الأعيان وصحيم البلدان لباقوت في مواضع متفرقة ونخبة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالى وحماد تاريخ بتكلم حمد

نفرا من أعيانها هم بنوم مكرم وكانوا شيعة إمامية يسبرون إلى بغداد ويتفقون مع البويهيين على أن يغزوها معهم بالسفن من الخليج العربي . وعلكونها فعلا في عصر بهاء الدولة سنة ٣٩٠ وقد اختار منهم أبا محمد بن مكرم ، واستطاع أن يطرد الخوارج إلى جبالهم في نزوى وحولها ، ويخطب لبني العباس . وظل الإباضية في عهد بني مكرم يولون عليهم أئمة منهم ، ومن أهمهم الخليل ابن شاذان ومصر ذكره في حضرموت وأنه أعان أبا إسحق الحضرمي على غزوها والاستيلاء عليها . وتوارث بنوم مكرم ملك عمان ، ومن أهم أرائهم ناصر الدولة علي بن الحسين بن مكرم ، وكان جوادا ممدحا ، ومدحه مهبأر الدليمي وغيره وتوفي سنة ٤٢٨ بعد استناره بالإمارة مدة طويلة .

وفي سنة ٤٤٢ ضعف ملك بني مكرم وتغلب عليهم النساء والعبيد ، فزحف إليها الخوارج من نزوى وملكوها بقيادة إمامهم راشد بن سعيد ، وله حروب مع قبلي نهد وعُقبيل سحقها فيها ، واستدحه بذلك أبو إسحق الحضرمي متوها بيساتة وبطولة جنوده . ومن أهم هؤلاء الأئمة من الخوارج الذين حكموا عمان حفص بن راشد الذي تملكها بعد أبيه وتظل في أيدي خلفائه .

وفي القرن السادس الهجري تملك عمان من أيدي الإباضية بنو نيهان سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣ م وهم عشيرة من العتيك من الأزد استولوا عليها بعد شيوع الفوضى فيها ، وكانوا سنين ، وظل حكمهم فيها طويلا حتى نهاية القرن التاسع ، وقد غزا الفرس عمان في عهد أميرهم كهلان سنة ٦٥٠ وعادوا إلى غزوها في عهد عمر بن نيهان سنة ٦٧٤ ولكنهم عادوا في الغزوتين مدحورين ، كما يصور ذلك شاعر النيهانيين أحمد بن سعيد السألي الحروصي ، ويشن المؤرخ نور الدين السألي حملة على هذه الدولة النيهانية قائلا كانت دولة بني نيهان مبنية على الاستبداد بالأمر وقهر الناس ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا للوكهم ذكرأ اللهم إلا ما ذكره شاعرهم أبو بكر أحمد بن سعيد السألي . وقد زار ابن بطوطة عمان في عهدهم سنة ٧٢٥ وقال عنها إنها خصبة ، وأشاد بأمرها النيهاني وحسن سياسته ثم ذكر نزوى عاصمة الخوارج ، وقال إنهم أهل نجدة وشجاعة . ومن أئمة الإباضية المهمين في القرن التاسع عمر بن الخطاب بن شاذان الذي بويع له بالإمامة سنة ٨٨٥ وقد نازل سليمان بن سليمان النيهاني أمير عمان ، وهزمه واضطره أن يفر إلى هرمز وتوفي عمر ، فعاد سليمان ونازل الإمام التالي للخوارج أبا الحسن بن عبد السلام ، وساء بهزيمة منكرة ، فرحل ثانية إلى هرمز ، وتوفي أبو الحسن فاسترد سلطانه ، ونازل خليفته الإمام الإباضي

محمد بن إسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦ وهُزم هزيمة لم تقم له بعدها قائمة . وانسحب النبهانيون إلى الجبل الأخضر .

وتصبح عمان تابعة للإباضية ، ويستردها سلطان بن محسن النبهاني سنة ٩٦٤ ويتوالى عليها حكام نبهانيون ، حتى يستولى عليها منهم الإمام الخارجي ناصر بن مرشد البعري (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وكان البرتغاليون قد غزوا عمان سنة ٩١٣ واستولوا على بعض شواطئها ، فأخذ بناوشهم ، وظلت مدينتا صحار ومسقط في أيديهم وقيل بل سقطت في يده صحار ، وخلفه سلطان بن سيف البعري (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) وهو أهم البعريين وأبعدهم شهرة إذ استطاع أن يطرد البرتغاليين من مسقط وصحار وبذلك طهر البلاد منهم . وبني لعمان أسطولا ضخما حطم به أسطول البرتغال وسيطر على شواطئ إفريقيا والهند ، وكانت تتبعه مُمَيَّسة في كينيا على ساحل إفريقيا الشرق وجزيرة زَنْجَبَار^(١) وجزيرة سُقُطرة في بحر العرب ، غير أن أسرته ضعفت بعده .

وتخلف أسره البُعريين في حكم عمان أسرة البوسعيديين على يد مؤسس دولتهم أحمد بوسعيد الذي جمع زمام الحكم في عمان جميعها بيده سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م ورد الفرس على أعقابهم سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ م حين جاولوا غزو بلاده . ومن حكام هذه الأسرة البوسعيدية سعيد بن سلطان الذي ولي عمان سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م وظل في الحكم خمسين عاما . وقبل عهده استقلت عن عمان رأس الخيمة في مدخل الخليج العربي بزعامة القواسم ، وكانت إمارتهم تمتد من مسقط إلى قطر وتشمل الشارقة وكانت عاصمتهم . وأخذ الأسطول الإنجليزي يظهر في هذه الأنحاء ، فكان القواسم يقاومونه مقاومة عنيفة . وسرعان ما تزعم «دبى» آل بوفلاس سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م كما تزعم «أبوظبى» آل فلاح وظلت أسرة البوسعيديين تحكم عمان إلى اليوم وتخلت منذ قيامها عن لقب الإمامة واكتفت بالسلطة الزمنية واستطاع الإنجليز منذ سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م أن يقيموا لهم حاميات على شواطئ عمان ، وظلوا بها إلى أن أرغموا على الخروج منها نهائيا .

البحرين ودولها^(٢)

يقول ياقوت : « البحرين » اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر الواقع بين جزيرة

(١) زَنْجَبَار : جزيرة صغيرة بالقرب من ساحل تنزانيا
(٢) انظر في البحرين ودولها تاريخ ابن الأثير والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومعجم البلدان لياقوت في مواضع متفرقة وصبح الأعشى والفضة اللامع في -
سكانها عرب مهاجرون من منطقة الخليج العربي وكانت تتبع عمان غير أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتي .

العرب وبلاد فارس تمتد من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا ومن صحراء الدُّهْناء غربا إلى البحر (خليج العرب) شرقا . وهي بذلك كانت تشمل إقليم قَطْر والإقليم الشرقي للمملكة العربية السعودية الآن المشتمل على الأحساء والقطيف ومجر ، وبمجموعة من الجزر (البحرين الحالية) أكبرها جزيرة أوال ومساحتها نحو خمسة وثلاثين ميلا طولا ونحو عشرة أميال عرضا .

وقد سيطر الفرامطة على هذا الإقليم مدة متطاولة من الزمن ، إذ غلب عليها بنو الجثالي بقيادة أبي سعيد سنة ٢٨٦ للهجرة وقد بدأ بالاستيلاء على القُطيف . وفي سنة ٢٨٧ غلب على هجر ، وسرعان ما تم له الاستيلاء على الإقليم جميعه ونشر فيه عقيدته القرمطية . وقد تحدثنا في العصر العباسي الثاني عن هذه العقيدة وعن أبي سعيد وابنه أبي طاهر وإخارته على مكة واستباحته دماء الحجاج ، واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى بلاده ، ونهبه ما كان بالكعبة من تحف . ولما رجع إلى البحرين رماه الله في جسده ، حتى طال عذابه ونقطعت أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى . وفي سنة ٣٣٩ رُدَّ الحجر الكريم إلى موضعه . وفي عقيدتهم - كما صورناها في كتاب النصر العباسي الثاني - ضلال كثير . ويبدو أن علاقتهم بالفاطميين - وكانوا لا يزالون في المهديدة بجوار تونس - أخذت في القصور . حتى إذا كانت سنة ٣٥٨ قطعوا علاقتهم بهم وأعلنوا خضوعهم للدولة العباسية . ومن أهم أمرائهم الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم حفيد أبي طاهر ، وكان فارسا وشاعرا مجيدا تولى بعد أبيه سنة ٣٥٩ واتفق في السنة التالية مع الخليفة العباسي المطيع لله على محاربة الفاطميين ، فأمدّه بالمال وال سلاح ، وزحف على الشام تحت الرايات السود شعار الدولة العباسية ، وبذلك تنكر نهائيا للمذهب الإسماعيلي الفاطمي أساس عقيدته القرمطية ، وقد استطاع الاستيلاء على دمشق والرملة ، واتجه يجيشه نحو مصر ، والتقى بالفاطميين وعساكرهم المغاربة في عين شمس ، وكاد يتصرع عليهم لولا خروج بعض قواده عليه وانضمامهم إلى الفاطميين ، فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين . ومربنا في حديثنا عن نجد نقل العزيز الفاطمي لجنده من بنى سليم وبنى هلال بن عامر إلى الصعيد وانتقالهم منها فيما بعد إلى المغرب . وفي سنة ٣٦٥ عاد الأعصم إلى الشام لمساعدة أفتكبن الرومي مولى البويهيين ضد جوهر الصقلي القائد الفاطمي ، ولكن الموت عاجله بالرملة سنة ٣٦٦ .

= أميان القرن التاسع للسخاوي وديوان ابن مقرب
 المعبري ونحفة المنشد بتاريخ الأحساء في القديم والحديث
 للحياة ببيوت) ومقدمة تاريخ العرب المحدث ١/ ٢٨٩
 للشيخ محمد بن عبد الله آل عبد القادر (طبع الرياض) وما بعدها .

وتولى أمر القرامطة بعده ستة نفر ، وأخذت دولتهم في الاضمحلال . ولا نصل إلى سنة ٣٧٨ حتى يجمع شخص يسمى الأحيفر من بني المتفق بن عامر بن عقيل جمعا كبيرا ، وينازل به القرامطة ، ويستولى منهم على القطيف ، ولا تقوم لهم بعد ذلك قائمة . وعُت الفوضى في البحرين إلى أن غلب عليها نهائيا الأصفرين أبي الحسن الثعلبي سنة ٣٩٨ وكان يخطب للطائع العباسي ، واستقرت الدولة له . واختلفت في أيامه قبيلة بنو ثعلب مع بني عقيل ، فأخرجوهم من ديارهم إلى العراق ، وطالت أيام الأصفر ، واتسع به طموحه ، فحاول التغلب على الجزيرة والموصل ، ونازله بنو عقيل هناك سنة ٤٣٨ وعاد إلى البحرين ووافاه أجله . وبقي الملك في البحرين بعده متوارثا في بنه إلى أن ضعفوا وتلاشوا .

وتغلّفهم دولة بني العيوني بزعامة مؤسسها عبد الله بن علي . إذ استطاع الاستيلاء على البحرين بمساعدة ملكشاه السلجوقي سنة ٤٦٦ وقد جعل همه القضاء على البقية الباقية من دعوة القرامطة ، وكان لا يزال لها في البحرين أتباع كثيرون . وتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة ، فخلفه ابنه الفضل إلى سنة ٥٠٧ ووليا بعده ابنه محمد المكنى بأبي سنان حتى مقتله سنة ٥٢٥ وكان ذلك فاتحة عهد سيئ من المنازعات بين أبناء الأسرة . ووليا بعده ابنه أبو فراس غرير ، وولى الأحساء في أيامه عمه عبد الله بن علي وولى ابنه أبو الحسن القطيف . والمصدر الوحيد لتاريخ هذه الأسرة ديوان ابن المقرب الذي يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن ولاية البحرين العامين من العيونيين وولاية مدنها المختلفين . ويختلط بعضهم ببعض في الديوان ، ومن أهمهم محمد بن أبي الحسن الذي تولى زمام الأمور في البحرين سنة ٥٨٤ وقد استطاع أن يفرض نفوذه على قبائل نجد مما جعل الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بجفارة الحاج من بغداد إلى مكة ذهابا وإيابا وفرض له نظير ذلك ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز وتمر وألفا ومائتي ثوب أكثرها من الإبريسم . وجمع في سنة ٥٩٨ بأن بعض عشائر من طيئ تتجمع في طريق مكة لقطع الطريق على الحجاج ، فنكل بهم تنكيلا شديدا . وجمعوا له جموعا كثيرة ولكنه أنزل بهم هزيمة ساحقة ، مما جعل جميع قبائل نجد تدين له بالولاء كما جعل الأمن بيم الجزيرة . ويغتنال سنة ٦٠٣ ويخلفه غرير بن الحسن بن شكر ، ويسلبه الإمارة الفضل بن محمد بن أبي الحسن ويفتك به ثاراً لأبيه . وتكثر الخلافات والحروب بين أبناء الأسرة ، وتأخذ في الضعف تدريجا ، ويستولى أبو بكر بن سعيد أحد ملوك فارس على جزيرة أوال (البحرين الحالية) سنة ٦٣٣ ويكون ذلك إيذانا بانتهاء دولة العيونيين .

ويغلب على البحرين بعد هذه الدولة دولة بنى عصفور من بنى عامر بن عوف العقيليين ، وتتوطد العلاقة بينهم وبين سلاطين مصر المماليك بعد هزيمتهم للتار ، ويقدم منهم وفد على السلطان بيبرس فبكرم وفادته ، ويظلون يقدون على المماليك . وعلى رأس سنة سبعمائة للهجرة ينتقل ملك البحرين إلى سعيد بن مفاص من بنى جبر ، ويترعها منه بنو جروان من بنى عامر بن عوف العقيليين ويظلون يحكمونها حتى سنة ٨٢١ وفى عهدهم استولى المغول على جزيرة أوال وظلت فى أيديهم مدة .

ويعود بنو جبر إلى الاستيلاء على البحرين ، إذ خلصها من بنى جروان سيف بن زامل ، واتسع نفوذه فى نجد ، وخلفه أخوه زامل ثم ابنه أجود . ودب الشقاق بين أبناء الأسرة ، فأخذها منهم راشد بن مفاص . وفى هذه الأثناء وفى غفلة من حكام البحرين استولى البرتغاليون فى سنة ٩٢٢ على جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقطيف وقطر ، وظلوا بشك الديار حتى طردهم منها الدولة العثمانية وسرعان ما استولت على الأحساء سنة ٩٦٣ . وقد انفصلت قطر عن البحرين قبيل نهاية القرن العاشر الهجرى بزعماء آل ثانى ، وكانوا من يبرين ، فزاحموا قبيلة عبد القيس ونظبوا عليها . أما بقية البحرين الشاملة حسب اصطلاح هذا العصر للأحساء والقطيف أو بعبارة أخرى للإقليم الشرق من المملكة العربية السعودية ، والشاملة أيضا لجزيرة أوال فقد قام عليها بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ واستولى عباس الصفوى على أوال سنة ١٠٩٢ وظلت تابعة للدولة الصفوية حتى سنة ١١٢٣ واستولى عليها بعد ذلك نادر شاه ملك فارس سنة ١١٥٠ واستخلصها سنة ١١٩٧ هـ / ١٧٨٢ م أحمد بن محمد بن خليفة من أهل الزبارة ولا تزال أسرته تحكمها إلى اليوم ، ووقع أحدهما وهو الشيخ محمد بن خليفة معاهدة مع الإنجليز سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م دخلت أوال (البحرين الحالية) بمقتضاها فى حيايتهم إلى أن استقلت أخيرا .

وظل يلى الأحساء والقطيف بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ كما أسلفنا ، وكان أول من وليها منهم براك بن غرير حتى وفاته سنة ١٠٩٣ ، وخلفه ابنه أو أخوه محمد على اختلاف فى الروايات ، فعمدون بن محمد ، فسلطان أخوه المتوفى سنة ١١٦٦ ووليها بعده عرعر ، فابنه بطين ، فأخوه دجين ، فأخوهما سعدون ، فأخوهما دوعس وقد اشترك مع سعود ابن عبد العزيز سنة ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م فى حروب رجعت فيها كفة سعود . وتطور الظروف وتشب الحرب بين محمد على والسعوديين . ويعود بنو خالد إلى حكم الأحساء والقطيف ، غير أن الحاكم السعودى تركى بن عبد الله يضطرمهم إلى تسليمها سنة

١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م وتمردان إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٨٨ حتى يستخلصها منها في العصر الحديث الملك عبد العزيز آل سعود .

وكانت قطر قد دخلت مع الأحساء والقطيف في حوزة العثمانيين سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م وظل آل ثاني رؤساءها إلى أن نفّض طاعة العثمانيين منهم الشيخ قاسم في العصر الحديث ، واستقل ببلادها سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م ونظّل أمرته متولبة أمرها ومديرة شئونها إلى اليوم .

٢١

المجتمع (١)

يتقابل في الجزيرة أهل بواد وأهل حواضر ، والأولون عرب خلّص ، وقد دخل على الثانيين أخلاط من أجناس مختلفة إفريقية وآسيوية ، والغلبة للعنصر العربي فهو قوام الحواضر . وربما كانت مكة بالذات من الحواضر التي كثُر إليها تزوج الأجانب ، إذ توطنها كثيرون من المسلمين الوافدين عليها للحج ابتغاء رضوان الله ، وهم عناصر شتى من كل أنحاء العالم الإسلامي ، ومثلها المدينة وإن لم تبلغ درجتها من هذا التوطن . والعلاقة بين اليمن والحبيشة قديمة مما جعل كثيرين من الأحباش والإفريقيين يتزلون بها ، ومرت بنا دولة آل نجاح في زيد ، وهم أحباش أو من أصل حبشي . ومن قديم كان الفرس يتزلون في عمان ومدن الخليج ، وكان كثير منهم يستوطنها ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . وبالمثل كان يتزل في مدن الخليج وعمان إفريقيون كثيرون ، وثورة الزنج بالبصرة في القرن الثالث الهجري مشهورة ، ونسمع عنهم بعد ذلك كثيرا في البحرين ، وكانوا كثيرين في عُمان منذ أخذت تستولى في القرن الثالث على سُقَطرة وبعض الجزر ، وتراها بعد ذلك تستولى على زنجبار وبعض شواطئ إفريقية الشرقية .

وكان عرب نجد يعيشون معيشة بدوية تعتمد على رعي الإبل والأغنام ، ويحفّها غير

عبد غانم (نشر وطبع دار المكاتب العربي ببيروت)
ورحلة ابن بطوطة وديوان ابن مقرب العمري ونحفة
المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد ونحفة الأحيان
بسيرة أهل عمان للسلي وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

(١) تنظر في مجتمع الجزيرة صحح الأعشى والنجوم
الزاهرة في مواضع متفرقة وتاريخ اليمن لعامة ومروحي
الذهب للسعودي : الفصل الخاص بالفناء والموسيقى في
الجزء الرابع والعقد الثلثية للخرجي وعنوان : اليمن في
تاريخ نجد لابن بشر وشعر الفناء الصنعاني للدكتور محمد

قليل من شظف العيش ، مما جعلهم أو بمبارة أدق جمل منهم عشاير تتعرض أحيانا للحجاج وتنهبهم ، وكانت بغداد ثم القاهرة تقاومانهم بصور كثيرة ، منها إرسال الحجاج في قوافل مع حاميات ، ومنها أن يعهد البغداديون لعرب البحرين أو لبني عُقِيل أو لبني أسد أن يحموا الحجاج ، وكانت القاهرة بدورها تعهد لآل الجراح في العهد الفاطمي وآل فضل في العهدين الأيوبي والمملوكي بأن يؤمنوا السبل للحجاج المصريين والإفريقيين .

وكان وراء مكة والمدينة في الحجاز مدن وقرى كثيرة على شيء من التحضر ، نجد ذلك في الطائف وفي جدة وفي بَنِّع وفي خَيْبَر وفي وادي القرى ، حيث يقيم الناس في دور شيدوها ويستقرون بها . وهذا الاستقرار أساس التحضر والعمران إذ يتجه الناس إلى عمل يُقيمون به أود حياتهم ، وكان الزراعة ، إذ نجدها في كل هذه المدن . وطبيعى أن ينشأ في المدن بجانب الزراعة صناعات ينهضون بالحرف المختلفة من صناعة وتجارة وحياكة ، وكذلك تجار يصدرون بعض ما يفيض عن حاجة مدنها كالتمر مثلا ، ويستوردون بعض ما يحتاجه سكانها من توابل وغير توابل . ونشهر المدينة بكثرة زروعها ، وكانت مصر منذ العصر الفاطمي ترسل إليها وإلى مكة بكيات كبيرة من القمح سنويا واستمر ذلك في زمن صلاح الدين والأيوبيين ثم في زمن المماليك . وكان يتزل المدينتين المقدستين كثير من الحجاج والزوار سنويا ، فيشيعون فيها الرخاء ، وأهل ذلك لقيام إمارة كبيرة للحسينيين في مكة وإمارة أخرى للحسينيين في المدينة .

وقد وصف القرآن الكريم اليمن بأنها (جَنَّاتٌ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ) . ومعروف أنه تهب عليها الرياح الموسمية صيفا ، فتَهطل بها أمطار غزيرة تغذى المروج والزروع والأشجار المتكاثفة ، ويزرع أهلها في الأودية والسهول الحنطة والشعير والذرة والأرز والسمسم ، ومن فواكهها العنب والرمان والتفاح والخروخ والموز والليمون والبطيخ والسفرجل ، ومن حيوانها الخيل العربية والبغال والإبل والبقر والغنم والغزلان والقردة . ومن أهم مصادر ثروتها التجارة وما يحمل إليها من إندونيسيا والهند وإفريقية الشرقية والحبشة والصين . وعدن مينأوها ، ويقول القدماء إنه ولم يكن يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار وادين عليها ويضائع شتى ومتاجر متنوعة ، والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجارة مربحة . ومر بنا في حديثنا عن دول اليمن ذكر أربع مدن ، هي زَبِيد وصنعاء وصَعْدَة وتَبَرُك ، وزَبِيد بنهامة اليمن في سهل من الأرض وبها نخيل كثير ، وكانت مسورة وبها قلعة ، وصنعاء في منطقة الجبال بوسط اليمن ، وهي كثيرة الزروع والفواكه ، وصعدة في منطقة جبلية وعرة شمالا ، أما تَبَرُك فحصن في الجبال جنوبي اليمن مطل على تهامة وأراضي زَبِيد . وكان الرسوليون يقيمون بها

صيفا وبزيد شتاء . واليمن بها قدمنا بلاد ذات ثراء عظيم ، وقد قامت بها قديما دول وحضارة باذخة ، فلا غرابة أن كان أهلها في هذا العصر يشتمون بغير قليل من نعم الدنيا وخاصة الحكام والوزراء والقادة وكبار التجار ، وينقل صبح الأعشى عن بعض الأقدمين قوله : « لا كابر اليمن حظ من رفاهية العيش والتنعم والتغنى في المأكّل : يُطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان .. وتطيب أوتانها بالاعطر والبخور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ، وفي بيته العدد الصالح من الإمام ، وعلى بابيه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش ، ولهم الدور الجلييلة والمباني الأنيقة ، إلا الرُخام ودهان الذهب واللازورد فإنه من خواص السلطان لا يشاركه فيه غيره من الرعايا . ويدل من بعض الوجوه على ما كان في اليمن من ثراء ما يذكر عن بعض وزراء بني نجاح في زيد من أنه كان جوادا وأن نفقة مطبخه في شهر رمضان كانت تبلغ كل يوم ألف دينار . ويبدو أن مجتمع اليمن كان يحفظ بكثير من الجوارى والإماء ، ويذكر عبارة اليمنى أنه كان لآل نجاح أكثر من ألف أمة ، وقد أشاع الإمام والجوارى في قصور آل نجاح وغيرهم الفناء والطرب . والفناء قديم في اليمن ، وأشار المسعودي إلى أنه كان باليمن لعصره صنفان من الفناء حميرى وحنى ، ولعله يريد صنفا قديما يرجع إلى عهد الدولة الحميرية قبل الإسلام وصنفا إسلاميا حنفيا أو حنبليا . ولا نسمع بعد زمن المسعودي المتطابق مع أول هذا العصر عن مفتين أو مفتيات إلا ما ذكره عبارة في زمن آل نجاح كما أسلفنا . ويبدو أن الأئمة الزيديين في صعدة لم يفسحوا للفناء بل حاربوه طوال عصورهم ، أما الدول الأخرى فلعلها فسحت له ، يدل على ذلك ما يذكر من غناء ورقص في بعض الاحتفالات ، ومن أهمها احتفال السلطان الرسول الأشرف لسنة ٧٩٤ بمخات أبنائه وهو احتفال له دلالات كثيرة ، ولا بأس من أن نوجزه نقلا عن الخزرجي في كتابه العقود اللؤلؤية إذ يذكر أن الإعداد لهذا الاحتفال بدأ في شهر شوال عقب عيد الفطر وأنهم أخذوا يحضرون الطير وأنواع الحيوان والأطعمة والبقول والتوابل والفواكه وأنواع الطيب والرياحين مما لا حصر له وألوان الحلوى . ويُعدّد الخزرجي أسماء الآتية وأنواعها الكثيرة ويذكر أن الأمراء وكبار رجال الدولة قدم كل منهم هدية ، وكان كل من يقدم هدية يحمل معها المغاني والرياحين والبواقين يزفونها إلى باب الدار . وأقيمت للناس أربعة سبّاطات : سبّاط الطعام وسبّاط الحلوى وسبّاط المكسرات من اللوز والجوز والفسق والبندق وسبّاط رابع خاص بالخطوط والمباخر ، ويشمل المسك والصندل والورد والبنفسج والصنبر والغالية وماء الورد . ويذكر الخزرجي أنه كان هناك من المغاني والراقصات ما أدهش الحاضرين ، وفي ذلك ما قد يدل

عل أن الرسولين لم يحاربوا الغناء في دولتهم ، بل لعلهم شجعوا عليه . ويذهب الدكتور محمد عبده غانم إلى أن الغناء الصناعى العربى الذى اشتهرت به صنعااء واليمن ربما بدأ فى أواسط العصر الرسولى أوفى أواخره . وفى رأى أنه على الرغم من محاربة الأئمة الزيدية له كانت هناك نهضة غنائية فى صنعااء وغيرها من مدن اليمن ، على الأقل منذ العهد الرسولى ، كما تدل على ذلك المغانى والراقصات فى الاحتفال السابق ، بل لعلها تتقدم هذا العهد متصلة بزمى النجاحيين فى القرن السادس ، إذ نجد لابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ وابن النيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ وابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ أشعارا يلحنها اليمينيون بألحان غنائهم الصناعى ، على نحو ما عرض ذلك الدكتور غانم فى كتابه ، وأيضا فإننا نجد للشاعر اليمنى ابن هتيم شاعر القرن السابع الهجرى أشعارا ملحنة بهذا الغناء ، وكذلك للبرعى الشاعر اليمنى الصوفى المشهور فى القرن الثامن ، وتتوالى بعد ذلك الأغانى فى شعر القاضى موسى بن يحيى بهران والأمير الزيدى محمد بن إسحق . وتكثر الأغانى الشعبية الصناعىة ، وكل ذلك دليل على نهضة غنائية باليمن .

وأشار الخزرجى فى الاحتفال السابق إلى أنه حضره كثيرات من النساء المخصنات (العفيفات) وكثيرات من نساء الأمراء المذممين . ولعل فى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على أن المرأة كانت تحظى فى اليمن بغير قليل من الحرية . ومربنا أن أسماء زوجة على ابن محمد الصليحي كانت من فضليات النساء ، وكان الناس من شراء وغير شراء يقصدونها فبرهم ، وكان ابنها المكرم يجلها إجلالا عظيما ، وكانت لا تستر وجهها من الحاضرين ، وكان زوجها بكل إليها تدبير بعض شئون الدولة .

وحين مرض ابنها المكرم بالفالج فوُض شئون الدولة إلى زوجته الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحي سنة ٤٦٧ فأحسن القيام عليها وتديرها إلى أن توفى سنة ٤٨٤ وتولت بعده شئون الحكم ، كما مربنا ، إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ وهى التى أمرت ببناء جامع جبلة والجناح الشرقى فى جامع صنعااء .

وكانت حفصة مومت من قديم متصلة باليمن ، بل كانت أحيانا تعد جزءا منها ، وكان واليا فى القديم هو نفس والى اليمن . وقد يعين عليها نائبا له ، وحدث ذلك كثيرا على نحو ما مربنا فى تاريخها السياسى . وما لا شك فيه أن اليمن تسبقها وتتفوق عليها أنشواطا فى الخصب وكثرة الزروع . وهى بلاد جبلية يشقها واد عظيم تنفرع منه أودية مختلفة ، كما مربنا . وأهم حاصلاتها اللبان (الكندر) والحنطة والذرة والتمر ، وأهلها يهبطون فى التحضر

درجات كثيرة عن أهل اليمن ، لشظف العيش بديارهم ، وهم ملاحون ممتازون وجعلت الملاحة شطراً كبيراً منهم تجاراً ، وإليهم يرجع الفضل الأكبر في نشر الإسلام بشرق إفريقيا وبالملايو وإندونيسيا والهند . وهم بحق أبناء المحيط الهندي ، جابوه شرقاً وغرباً ، ونزلوا في أقاليمه ، وعاشوا سكانها ، ولهم في كل إقليم نزلوه منزلة رفيعة وأموال وتجارات واسعة . ويجانب حَصْرَ مَوْت ظَفَّار ، وطبيعتها واحدة ، فهي الأخرى جبلية ، وأهلها يزرعون الموز والحنطة والذرة معتمدين في ذلك على مياه الأمطار ، وهم يرعون الأنعام والأغنام ، ويشتهرون بتربية نوع من الخيل الأصيلة وطبيعي أن يعنوا بصيد السمك لطول شواطئهم على المحيط الهندي أو بحر العرب . وسقطت إليهم بعض مظاهر الحضارة ، التي رأيناها في اليمن ، ويقول ابن بطوطة إنه شاهد الطبول والأبواق تضرب على أبواب أمراثهم بعد صلاة العصر من كل يوم .

وعُمان إقليم كبير في الجنوب الشرق من الجزيرة ، وهي تطل على بحر العرب من جهة وعلى الخليج العربي من جهة ثانية ، وترسو بها السفن من الزنج والهند وإندونيسيا ، ويتزها إيرانيون كثيرون من قديم ، وجعل ذلك أهلها يتألفون من عناصر كثيرة : عربية وإفريقية وإيرانية وهندية ، والغلبة للعنصر العربي . ويدخلها جبل عظيم الارتفاع تشعب منه تسعة أودية جميعها لبني رثام وبجنوبه مدينة تَزَوَى عاصمة الخوارج . ومن أهم موانئ عُمان صُحَار وكانت عاصمتها قديماً ، ومَسْقَط وهي عاصمتها الآن . وتكثر على سواحلها مفاصات اللؤلؤ ، وهي كثيرة التمور والفواكه والزروع من الحنطة والذرة والشعير . وقال ابن بطوطة عنها حين نزل بها سنة ٧٢٥ : إنها خصبة وبها أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة متنوعة ، ويصف تَزَوَى عاصمة الخوارج بأنها مدينة بنيت في سفح جبل ، تحفّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة ويذكر أن من عادات أهلها الأكل في صحون المساجد ، يأتي كل إنسان بما لديه من الأكل ، ويأكل معهم الوارد والصادر ، ويثنى على أهلها قائلاً : « لهم نجدة وشجاعة » . ثم يتحدث عن مدينة عمان وسلطانها أبي محمد بن نيهان ، ويقول إنه يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب عليه ولا وزير بين يديه ، ولا يمنع أحداً من الدخول عليه سواء أكان مواطناً أم غريباً ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، ويعين له مدة الضيافة ويعطيه حسب قدره . ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة عامة ، هي نقص الغيرة هناك على النساء وأكبر الظن أنه بالغ في تصويره وملاحظته . وكل شيء يؤكد أن هذا الإقليم كان على شيء غير قليل من الثراء ، وهو ثراء مكّن سلطان بن سيف اليماني في القرن الحادي

عشر من بناء أسطول ضخم سحق به أسطول البرتغاليين واستول على بعض شواطئ أفريقيا وجزر المحيط الهندي وبعض شواطئ الهند .

والبحرين شديدة الخصب ، وهي كثيرة الميون والفواكه والنخيل وبها من الثور أنواع لا تُحصى ومن زروعها الحنطة والأرز ، وكان يرد إلى موانئها وجزرها كثير من المراكب من الهند محملة بالمروض التجارية . وأخبار كثيرة تصور ما كان فيها من رواج وانتعاش اقتصادي ، من ذلك ما يروى من أن تجاراً غرقت سفينتهم بين جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقُطيف ، وسقط في الخليج كل ما كان معهم ، وعلم بذلك أمير البحرين الميوني الفضل بن عبد الله (٥٠٠ - ٥٠٧ هـ) فتقدم إليهم أن يكتب كل تاجر ما كان يحمله وقيمه نقداً ، وأعطى كلا منهم ما فقده كاملاً ، وكان بينهم جوهرى ، قال إنه كان يعمل عقوداً من اللؤلؤ قيمتها مائة ألف ، فأعطاهما له . وهي مائة جلييلة وتدل على حال الإمارة حينئذ ، وأنها كانت في يسر . ولم يكن مثل هذه المأثرة خاصاً بأمر البحرين وحده ، بل كانت تشمل حكام مدنها ، ويروى أنه في عهد أميرها غرير الذى تولى إمارتها سنة ٥٢٥ أصابت أهل الأحساء سنة مجدية ، فأمر حاكمها على بن عبد الله الميوني بفتح خزائن الغلال والتمر وأن يأخذ منها الناس كل حسب حاجته ، وأمر بحط الزكاة والضرائب عنهم ، وما زال يوالى فتح خزائنه لهم حتى دارت السنة وأخصبت ديارهم . وكان يحكم القطيف في نفس الفترة أبو الحسن بن عبد الله بن علي ، فلجأ إليه سبعون فارساً من قبيلة عبد القيس ، فأكرمهم ، وأمر لكل منهم بدار وما يلزمها من أمتعة وخدم ، سوى إقطاعات مختلفة .

وفي كل البلدان السالفة كانوا يفتنون في المطاعم ويكثرون فيها من التوابل وامتازت جميعاً بكثرة الأسماك ، ويكثر السردين في حضرموت ، ووراءه في شواطئ البحر واليمن وثمان والبحرين أنواع سمك لا تكاد تحصى ، ويكثر في الخليج الأمور (الوقار) والرَّيَّان (الجنبرى) . وكانت المرأة تنفن في زينتها وثيابها وفيها تتخذ من حلى . وكانوا يحفظون احتفالات كبيرة بعيدى الفطر والأضحى . وكان الغناء منتشرًا وخاصة في اليمن كما أسلفنا ، وكانوا يخرجون للصيد والطرْد في الصحراء من حولهم فرادى وجاعات .

التشيع^(١)

عرفت الجزيرة العربية كل نحل التشيع الأساسية ، وهى الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية ، وأطولها عمراً وأكثرها بقاءً وأوسعها انتشاراً نخلة الزيدية أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذى ثار بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ و قتل وصُلب ، وكان يرى أن الإمامة مقصورة على أبناء السيدة فاطمة ، ولا مانع من أن يكونوا من أبناء الحسن أو الحسين ، وكان يجوز إمامة المفضل مع وجود الأفضل ، وبذلك جُوز إمامة أبى بكر وعمر مع وجود على بن أبى طالب لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها . وخالف بذلك جميع مذاهب الشيعة وغلهم ، فكانت نخلة معتدلة ، لا تؤمن بفكرة النص على الإمام ، ولا بأن وحياً نزل بعين الأنبياء . وكان يشترط فى الإمام أربعة شروط : العلم والزهّد والشجاعة والسخاء ، وهو لا يكون إماماً إلا إذا ثار على الخليفة فى عصره وطالب بالخلافة ، والإمامة بذلك عند الزيدية لا تعرف فكرة الإمام المنور مثل الإسماعيلية ولا فكرة الإمام المخفى مثل الاثنى عشرية والكيسانية .

وكل من ثار على العباسيين من العلويين وحمل السيف ضدهم فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كان من هذه الفرقة ، وفى مقدمتهم محمد بن عبد الله « النفس الزكية » الذى أعلن ثورته فى المدينة على المنصور العباسى سنة ١٤٥ وكان قد أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة ، فاستثار أهلها ، وهبوا معه ثائرين ، وقضى المنصور على هذه الثورة . وظلت ثورات الزيديين بعد ذلك لا تهدأ إذ يخرج الحسين بن على الحسنى فى مكة والحجاز ، ويُهزَم هو ومن معه لعصر الهادى سنة ١٦٩ فى مكان يقال له « فَنَج » ويفرّ خاله إدريس بن عبد الله إلى فاس ويؤسس بها دولة الأدارسة . ويفرّ أخوه يحيى إلى خراسان ويُقبض عليه ، ويلقى به فى غياهب السجون حتى موته . ويثور محمد بن إبراهيم الحسنى المعروف بابن طباطبا فى الكوفة لعهد المأمون ، ويُقبض على ثورته . وينشط الزيديون فى طبرستان

للنزاع رسالة افتتاح الدعوة للقاضى النجاشى بن محمد تحقيق د. وداد القاضى (طبع بيروت) ومقدمة ابن خلدون وفجر الإسلام والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين والعقيدة والشرعية فى الإسلام لجرالد سبير .

(١) انظر فى التشيع ونخلة مقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبهادى وللثعلب والنحل للشهرستانى وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمى و فرق الشيعة للنوعمى والتبصير فى الدين للإسفرائينى وفضائح الباطنية

بالنصف الثاني من القرن الثالث ، وقد صورنا نشاطهم هناك في الجزء الرابع من هذه السلسلة الخاص بالعصر العباسي الثاني .

وأكبر نشاط للزيدية إنما كان في اليمن والحجاز ، أما اليمن فقد أسس فيها إمامة الزيدية الإمام يحيى بن الحسين بن القاسم الملقب بالهادي إلى الحق ، واتخذ مقراً له - كما مرّ بنا - «صعدة» في الجبال الشالية باليمن سنة ٢٨٤ وتوالى بعده في صعدة الأئمة من أبنائه ، حتى سنة ٤٣٧ إذ تولى الإمارة أبو الفتح الديلمي الحسني كما مرّ بنا ، ووليها بعده أصحاب الخلاف السليبي ، وتعود إلى الأسرة الرّسية : أسرة الإمام الهادي إلى الحق وتظل في أبناء المتوكل على الله الرّسي ، كما أسلفنا . وتمر أوقات رخاء على هذه الإمارة الزيدية ، فسمع رقعتها وتناول على صنعاء أحياناً . ولا يزال أئمتها صامدين طوال أزمنة الأيوبيين والرسوليين والطاهريين ، ثم يصبحون وحدهم وجها لوجه أمام العثمانيين ، ويستخلصون منهم اليمن على نحو ما مرّ بنا . أما الحجاز فكان مركز الزيديين فيه مكة ، وظلت إمارتهم قائمة فيها منذ أواسط القرن الرابع الهجري حتى العصر الحديث ، وإن أخذت تلك الإمارة في التضعف والضعف منذ استيلاء العثمانيين على الحجاز ومدينتيه في القرن العاشر الهجري .

ومرّ بنا في الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني حديث مفصل عن غلة الإسماعيلية وأن أصحاب هذه النحلة ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكانت قد أدركته النية في حياة أبيه ، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه ، لأنها - في رأيهم - تتوارث في الابن الأكبر حتى لو توفي قبل أبيه كما حدث لإسماعيل . ويخلفه - في عقيدتهم - ابنه محمد ، ويخلف محمد ثلاثاً أئمة مستوروون جاء في إثرهم عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس خلافتهم ، وتلقيه بالمهدي . يشير إلى عقيدتهم في المهدي المنتظر . وعرضنا في العصر العباسي الثاني تفصيلاً لتلك النحلة وأهم مبادئها وأن الذي نظّمها وكوّن حولها جمعية سرية عبد الله بن ميمون القداح ، وكان يتزل في سَكْمِيَة بقرب اللاذقية ، واتخذ له دعاة من أهمهم شخص يسمى حمدانا وبلقّب بقرمط ، وقد أرسل به إلى الكوفة وسوادها ، وإليه ينسب القرامطة ، وكان يدعو في جماعته إلى الأخذ بنظام الألفة ، وهي الشركة في الأموال . وزعم ، وزعم معه القرامطة ، كما يقول البغدادي «أن الأنبياء كانوا أصحاب نوايس وعاريق أجبروا الزعامة على العامة ، فخدعهم بتيّرات (ضروب من السحر) واستبدوهم بشرائعهم» وقالوا : «هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التبع والنصب في الصلاة والصيام والحج

والجهاد. ومن هنا كانوا يحملون أنفسهم من الفرائض ، واتخذوا بيت المقدس قبلتهم .
والقرامطة - بهذا التصوير للبغدادى - كانوا فرقة مارقة من فرق الشيعة الإسماعيلية ، وكان
من بين دعاة قرمط أبو سعيد الجنائى أرسل به إلى منطقة البحرين ، فاستجابت له هناك
قبيلة عبد القيس ، مما أتاح له أن يؤسس هناك دولة القرامطة التى ظلت نحو تسعين عاما .
وخلفه ابنه أبو طاهر وكان شريراً كبيراً ، وكثيراً ما قطع الطريق على الحجاج ونهبهم ، وكثيراً
ما أغار على البصرة والكوفة وأحرق مساجدهما وأعمل فيها السلب والنهب . وفى سنة
٣١٧ حدثت الكارثة الكبرى بهجومه الوحشى على الحجاج فى موسم الحج يوم التروية
وسفكه لدماء الآلاف منهم ورمى كثير من جنثهم فى بئر زمزم واقتلعه الحجر الأسود ونقله
إلى البحرين على نحو ما مر بنا ، وهو فى أثناء ذلك يشد أشعارا كافرة مارقة . ونرى
القرامطة فى سنة ٣٥٨ ينفضون أيديهم من الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، ومرتبا كيف أن
الأعصم (٣٥٩ - ٣٦٦ هـ) حارب الفاطميين تحت أُلوية الدولة العباسية سنة ٣٦٠
وظلت دولة القرامطة قائمة بعده - كما مر بنا - حتى سنة ٣٧٨ . وعلى الرغم من انتهاء
دولتهم ظلت عقيدتهم منبثة فى البحرين إلى أن قامت الدولة العيونية سنة ٤٦٦ وقد عنى
مؤسسها عبد الله بن على بالقضاء على تلك العقيدة وكان مما قضى عليه عادة سيئة لهم هى
عادة الماشوش ، إذ كان يجتمع رجالهم ونساؤهم فى الليلة العاشرة من شهر المحرم ،
ويشعلون الشموع والمصابيح ويفنون ويرقصون ، ثم يطفئون الشموع ويختلطون . ويبدو أن
عبد الله العيونى لم يستطع استئصال العقيدة القرمطية من نفوس أهل البحرين نهائياً ، فقد
ظلت منها بقايا بعده ، بل يقول فؤاد حمزة فى كتابه « قلب جزيرة العرب » ! إنها لا تعدم
فى الأحساء - إن صح ما يقول - من يعتنقونها إلى اليوم . وعُرفت الدعوة القرمطية فى
اليمن ، فقد أرسل إليها حمدان قرمط داعيتين من دعاته ، هما المنصور بن حوشب وعلى
ابن الفضل وكان على من أهل اليمن بينما كان المنصور من أهل الكوفة ، ونزلا على حافة
اليمن النجدية ، غير أن دعوتها اختلفت ، فكان المنصور يدعو للفاطميين قبل تحولهم من
إفريقيا إلى مصر منذ العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى ، وكأنما نفّض يده من
القرامطة ، وانتشرت دعوته فى بعض الجبال وبعض القبائل ، ويسميه الفاطميون منصور
اليمن ، وقد ظل أربعين عاما يدعو لهم ، إذ توفى سنة ٣٣١ وخلفه ابنه فى الدعوة وشركه
فيها بعض اليمنيين إلى أن تزعمها الصليحي ، كما سترى عما قليل . ونَفَّضَ على بن الفضل
يده ولسانه من الدعوة الفاطمية ، فلم يَدْعُ للفاطميين ، بل أخذ يدعو لنفسه ، واستطاع
الاستيلاء على صنعاء سنة ٢٩٣ وادعى أنه من بنى يعرب أوقحطان ، كما مر بنا ،

واستحلّ الحرام ، ودعا الناس إلى ارتكاب المآثم وانتهت دعوته بموته سنة ٣٠٣ كما قدمنا . وظل دعاء الفاطميين الإسماعيليين نشطين باليمن إلى أن استألوها على بن محمد الصليحي للدعوة الإسماعيلية ، واستطاع - كما رأينا في غير هذا الموضع - أن يؤسس الدولة الصليحية ، وأن يستولى على زبيد وصنعاء وعدن ، واتخذ صنعاء عاصمة له . وحرى بنا أن نتوقف قليلاً للحديث عن المذهب الفاطمي الإسماعيلي الذي كان يدين به هو وكثيرون من أهل إمارته . وقد ذكرنا آنفاً أن القرامطة كانوا فرعاً من المذهب الإسماعيلي ضلّ هذاه . وقد اتخذ هذا المذهب في أول أمره شكل جمعية سرية كَوْن مبادئها عبد الله بن ميمون القدّاح ، وهي مبادئ غُمست غمساً في نظرية الفيض الأفلاطونية التي سكبورها في نظرية الأدوار عندهم ، إذ يذهبون إلى أن الأئمة يتوالون في أدوار ، وكل دور يتألف من سبعة من هؤلاء الأئمة يتعاقبون والسابع هو العقل الكلي الناطق عن القوى الحارقة ، والأئمة الستة السابقون له نفوس كلية تمهد له وتدعم عمل الناطق قبل ظهوره . والإمام له نسبتان : نسبة إلى عالم القدس ، ونسبة إلى عالم الطبيعة . وفي مبادئهم أن قدرة الله تتنقل إلى العقل الكلي أو بعبارة أخرى إلى الإمام السابع في كل دور ، ولذلك يوصف - عندهم - بما توصف به الذات العلية من أسماء وصفات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفي عقيدتهم أن آيات القرآن الكريم ينبئ أن تفهم فهماً باطنياً مجازياً ، ولا تفهم فهماً ظاهراً أو ظاهرياً ، حتى يؤزّلوها كما يشاءون . والمتظم في سلك الدعوة - عندهم - يتدرّج في سبع مراتب وبلغت تسعاً . وظلت الدولة الصليحية قائمة - كما أسلفنا - حتى سنة ٥٣٢ ولم تنته الدعوة الإسماعيلية بانتهائها فقد كان بنو زُرَيْع حكام عدن إسماعيليين فاطميين ، وظلوا على عدن حتى تسلمها منهم توران شاه سنة ٥٦٩ . وتلاشت بذلك الدعوة نهائياً بقضاء الأيوبيين عليها في اليمن ومصر ، وبقيت فترة حية في المدينة بالحجاز لما ذكرناه من أن الأسرة الحسينية الحاكمة هناك كانت إسماعيلية ، ونظن ظناً أن هذه الأسرة لم تمض بعد القضاء على الدولة الفاطمية الإسماعيلية بمصر في اعتناق هذه العقيدة طويلاً وأنها اعتنقت نحلة الشيعة الإمامية الاثني عشرية .

ومعروف أن النحلة الإمامية تسربت إلى شرق الجزيرة ، وعند أصحاب هذه النحلة أن الإمامية تتوالى في اثني عشر إماماً . ولذلك يسمى أصحابها باسم الاثني عشرية ، وآخرهم المهدي المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه لم يمت وإنما غاب وسيجود بجلال الأرض عدلاً . ولم تقم للإمامية دولة في الجزيرة العربية ، غير أنها تسربت إلى بعض البيئات وبعض الأسرى في الخليج العربي ، وقد مربنا أنه غلب على البحرين بعد القرامطة ولادة كانوا يدينون

بالولاء للخليفة العباسي وبالتالي للبيهيين ، ومعروف أنهم كانوا إمامية اثني عشرية ، وفي نفس التاريخ يحدّثنا المؤرّخون أنه كان في عُمان بيت إمامي اثنا عشرى هو بيت بنى المكرم ، وأنهم ، كما مر بنا ، دفعوا البيهيين إلى غزو عُمان واستخلاصها من أيدي خوارج نَزَوَى ، وظلت هذه الأسرة الإمامية تحكم عُمان حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولم يكن الإمامية غلاة متطرفين في التشيع مثل الإسماعيلية وهم يؤمنون برجعة الإمام الثاني عشر المحتفى كما أسلفنا . ولا يزال يوجد إماميون في الخليج العربى وإماراته إلى اليوم .

والكيسانية أتباع محمد بن الحنفية ، وهو أخ ربيب للحسن والحسين ، وقد تبعته منذ حياته فرقة كانت تؤمن بالتناسخ وبالرجعة وكان ابن الحنفية يتبرأ منها أشد التبرؤ ، ويتوفى ، فيقول أتباعه إنه لم يمِت ، بل غاب في جبل رَضَوَى ، ويقول قواد حمزة في كتابه « قلب جزيرة العرب » يوجد في الوقت الحاضر أتباع لـ محمد بن الحنفية يقيمون في جبل رَضَوَى بالقرب من بَنَيْع وهم على شيء عظيم من البداوة والتوحش والبعد عن مخالطة أهل المدن .

٤

الخوارج : الإباضية^(١)

الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباح النخعي أحد أربعة كانوا رهوس الخوارج في منتصف القرن الأول الهجرى وحولهم تكونت فرقهم الأساسية : الأزارقة والتجدات والصفرية والإباضية ، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق وكان مسرح نشاطهم بلاد فارس وكرمان ، والتجدات أتباع نجدة بن عامر الحنفى وكان مسرح نشاطهم البهامة والبحرين ، والصفرية أتباع زياد بن الأصفر وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة . وكان مسرح نشاط الإباضية عُمان وحضرموت واليمن ، وقد انتهت الفرق الثلاث الأولى أوكادت بانتهاء العصر الأموى ، أما فرقة الإباضية فظلت حية لا فى بيئتها الأصلية عُمان وحضرموت فحسب ، بل أيضا فى بلاد المغرب ، فقد ذهب هناك دعاة مبكرون فى

(١) انظر فى الإباضية الكتب المذكورة فى تاريخ عُمان وأمرائها والملل والتحل للشهرستان ومقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى وفجر الإسلام البارونى (طبع الطبعة السليقة بالقاهرة) .

العصر الأموي أو بعبارة أدق في أواخره ، وما زالت الدعوة تنمو في المغرب ، حتى استطاع الدعاة أن يكونوا دولة للإباضية في تيبرت . ولا يزال الإباضية بالمغرب إلى اليوم وخاصة في جنوبي الجزائر وليبيا .

أما في عُمان وحضرموت فقد اتخذ الإباضية نزوى جنوبي الجبل الأخضر في داخل إقليم عمان مركزا وحاضرة لهم وتوالى أئمتهم فيها منذ أول العصر العباسي ، وكثيراً ما كانت تخرج عمان والسواحل من أيديهم إلى أيدي العباسيين . وقد تنلب القرامطة على عمان سنة ٣١٧ كما مر بنا وظلوا بها حتى سنة ٣٦٢ ويعود إليها الإباضية غير أن بني مكرم الإماميين يستخلصونها منهم سنة ٣٩٠ ويضعف بنومكرم فيعود إليها الإباضية من نزوى قبيل منتصف القرن الخامس . وتخرج من أيديهم في القرن السادس ويملكها بنو نيهان ، وتعود إلى الإباضية فترة في أول القرن العاشر الهجري ، ثم تعود إليهم نهائياً ويتولاهم أئمة الإباضية البعاري منذ سنة ١٠٢٤ . وتختلفهم أسرة إباضية أخرى هي أسرة البوسعيديين منذ سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م وتظل عليها إلى اليوم ، وترك السلطة الدينية لأئمة نزوى وتكتفي بالسلطة الزمنية . ومن قديم كان يغلب على ظفار وحضرموت مذهب الإباضية ، ومررنا أنه نزلها سنة ٣١٧ الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى وقد نشر فيها مذهب الشافعي ودعوة علوية تحولت إلى دعوة سنية كانت تحدث تعادلاً مع دعوة الخوارج ، ولأسرته نشاط علمي وأدبي كبير في حضرموت ، ومررنا أن أبا إسحق الخارجي الحضرمي استقل بها في القرن الخامس ، وكان خارجياً يدين بالولاء للإباضية نزوى وإمامهم الحليل ابن شاذان ، وكثيراً ما كانت تخضع حضرموت وظفار للإباضية في نزوى أو فيها وفي عُمان . وقد نشر العمانيون المذهب الإباضي في زنجبار والبلاد التي كانت تتبعهم في شرق إفريقيا مثل دار السلام ، ومعروف أنه أخذ يستقل بزنجبار فرع من أسرة البوسعيديين حكام عمان منذ الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري .

ومذهب الإباضية أكثر مذاهب الخوارج قرباً إلى أهل السنة ، وهم يذهبون إلى أن دار الخلاف من المسلمين دار توحيد ويسمون الموحد العاصي كافراً ، ولا يقصدون بذلك أنه مشرك بالله ، بل يقصدون بكفره أنه كافر بالنعمة ، والكفر بذلك عندهم نوعان : كفر نعمة وكفر شرك بالله . وأحلوا التزوج من مخالفيهم من المسلمين وأن يتوارث الإباضي معهم . ولم يستحلوا من أموال المسلمين إلا غنائم الحرب ، وحرموا قتل المسلمين غيلةً وكذلك سبيهم سراً . وقالوا إنه لا يجوز قتالهم إلا بعد دعوتهم إلى مذهبهم الإباضي وإقامة الحججة عليهم وإعلان الحرب . وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم وأتباعهم ، وقالوا

في مرتكبي الكبائر إنهم موحدون لا يؤمنون ، وهم كفار نعمة لا كفار ملة . وعندهم أن الإيمان لا يكفى فيه القول ولا الاعتقاد والتصديق ، بل لابد من العمل وأداء فروض الدين . ويتفقون مع المعتزلة في نفى رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة ويتزهون الذات العلية عن الشبه بالمخلوقات ، ويقولون إن القرآن مخلوق حادث ، وإذا صح ما يقوله الشهرستاني كانوا يتفقون مع الأشعرية في رأيهم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحدائاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً . ولا يسمى إمامهم باسم أمير المؤمنين ، ولا يسمون أنفسهم مهاجرين .

وهذا الاعتدال في مذهب الإباضية يجعلنا ننفي عنهم نفياً باتأدولة بنى مهدى الخارجية التي استولت على زيد باليمن سنة ٥٥٤ للهجرة كما مر بنا ، فقد تسمى مؤسساها بأمير المؤمنين كما تسمى بالمهدى ، وكأنه جمع بين فكرتي الشيعة الإسماعيلية والخوارج الفالين معاً مثل الأزارقة من جهة والقرامطة من جهة ثانية ، إذ كان - كما أسلفنا - يكفر بالمعاصي ويقتل من اقترف كبيرة وبالمثل كل من خالف عقيدته من المسلمين واستباح نسائهم وسعى دارهم دار حرب . وهو في ذلك كله غال غلوا شديداً حتى ليتقدم الأزارقة خطوة في الغلو ، ثم هو يدعى العصمة ويدعيها له أتباعه وهو في ذلك غال غلو الشيعة الإسماعيلية ، بل إنه لبعد نفسه المهدى المنتظر ، ولم يلبث توران شاه - كما مر بنا - أن قضى على من خلفه ودولتهم الخارجية الشيعة .

٥

الدعوة الوهابية السلفية^(١)

دعوة للرجوع إلى طريق السلف ونبد البدع التي شابت العقيدة الإسلامية ونبد تقديس الأولياء الصالحين والتوسل بهم إلى قضاء الحاجات ، كالبركة في الزروع أو في الأغنام والأنعام أو في بره المرضى وشفايتهم ، وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ للهجرة هو أكبر من حصل على البدع وما يتصل بها من تقديس بعض الأشجار

محمد بن عبد الوهاب للرعي وعنوان المجد في تاريخ نجد
لعثمان بن بشر وروضة الأفكار لحسين بن غنام وزعماء
الإصلاح لأحمد أمين والعقيدة الشريعة في الإسلام
لجونيد نسيير

(١) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (طبع دمشق) وقاعدة
جليلة في التوسل والوسيلة ومجموعة الرسائل الكبرى (طبع
القاهرة) وكتاب التوحيد وكشف الشبهات في التوحيد
لمحمد بن عبد الوهاب طبع القاهرة وبلغ الشهاب في سيرة

والأحجار ، وكان حنبلياً يؤمن بعقيدة الحنابلة السلفية ، وقد مضى يحمل حملات شعواء على الصوفية وعقيدتهم ، وأنكر زيارة قبور الأولياء والتوسل بهم . وكان الغزالي قد وصل بين التصوف والشرعة محاولاً تخليصه من نظريات الحلول وما يتصل بها وجعله تصوفاً سنياً . وقد سَنَّ ابن تيمية على التصوف بعض الحملات العنيفة . وناهض المذهب الأشعري وكل ما شاب العبادات والعقود والمعاملات مما رآه بدءاً جديدة .

وعلى هدى من هذه الدعوة التي وهب ابن تيمية نفسه ومؤلفاته لها انبرى محمد ابن عبد الوهاب المولود سنة ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م بالمدينة في إقليم سدير بأواسط نجد يدعو دعوة حارة إلى مبادئه ، وكان أبوه قاضياً للمدينة وعليه تلقى دروسه الأولى وكذلك على علمائها ثم على علماء المدينة فعلماء البصرة ، وأعجب بكتابات ابن تيمية فأكبَّ على قراءته ، وعاد إلى موطنه ، يدعو إلى مذهبه الحنبلي وإلى كل ما دعا إليه من عبادة الله دون استعانة بولي أو شفيع ونَبَذَ كل البدع المستحدثة بعد عصر الإسلام الأول وكل تقديس للأولياء وزيارة لقيورهم بقصد التيمن أو البركة أو طلب بعض الأغراض الدنيوية ، والرجوع إلى السنة والعمل على إحيائها ، واتباع السلف في ذلك كله ، ولذلك يسمى الوهابيون أنفسهم سلفية . وكُتِبَ لهذه الدعوة أن تم وتنتشر حين وضع محمد بن سعود أمير الدرعية (١١٣٧ - ١١٧٩ هـ) . يده في يد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وعاهده على أن ينشر دعوته السلفية وأن يقيم الحدود الشرعية ، وأن تصبح الدعوة عقيدة الدولة السعودية ، بحيث ينبذ التجديدون البدع والخرافات ويتمسكون بأهداب الدين وأصوله من القرآن والحديث .

وأخذ محمد بن سعود وخلفاؤه يعملون على نشر الدعوة ، وأدام ذلك إلى حروب طاحنة في الجزيرة انتهت بقيام المملكة العربية السعودية التي تُظِلُّ نجد والأحساء والحجاز اليوم . وفي الوقت نفسه أخذ محمد بن عبد الوهاب التوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م في الدرعية يث تعاليمه وينشرها في أتباعه بمحاضراته ومصنفاته الكثيرة ، وفي مقدمتها كتاب التوحيد وبمجموعة التوحيد إلى غير ذلك من كتب تنادى بمبادة الله وحده وأن زيارة قبور الأولياء لقضاء الحاجات ضرب من الشرك . وبالف اتباعه في هذا المبدأ فنموا الاحتفال بالموالد وهدموا القباب المقامة على قبور بعض الصحابة والصالحين ، وتشددوا في قمع كل عادة مستحدثة وعدوها بدعة حتى التذكير قبل الأذان وحتى استعمال المسابح وكذلك لبس الحرير والتخفم بالذهب . والدعوة الوهابية إنما كانت تريد أن يعود الإسلام إلى صورته الأولى ، كما كان في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم . ولذلك دَعَتْ إلى نبذ كل

ما اتخذ صفة شرعية على مر الزمن من عادات وسنن لم تعرف في العهد الإسلامي الأول . ونادت بأنه يجب إزالته . حتى لو كانت بعض المذاهب السنية الأخرى أباحه . بل حتى لو جذبه . وكان اعتناق الحكومة السعودية لهذه الدعوة اعتناقاً في الوقت نفسه للمذهب الحنبلي ، وتوفقت مع الزمن العلاقة بين أسرة السعوديين وأسرة محمد ابن عبد الوهاب عن طريق المصاهرة ، وظلت للأسرة السعودية السلطة الزمنية ، بينما ظلت لأسرة ابن عبد الوهاب السلطة الروحية ، فللأولين الحكم والسياسة ولللثانيين الإفتاء والتعليم والقضاء .

٦

الزهد والتصوف^(١)

لم تكن نجد تعرف شيئاً عن الترف والنعم ، إذ كانت حياتها تقوم على غير قليل من الشظف ، فطبيعى أن لا يمتلئ الناس بمتاع الحياة الدنيا ، وحققا كانت بعض القبائل النجدية تقطع الطرق على الحجاج في بعض السنوات طلباً لما في أيديهم من مال ومتاع ، ولكن كان وراءهم أقوام لا يفكرون في متاع الحياة العاجل انتظاراً لما عند الله من الثواب الآجل . ومعلوم أن الوهابيين منعوا التلصص وقطع الطرق على الحجاج ، كما منعوا التصوف والانتساب إلى الطرق الصوفية .

وكانت المدينتان المقدستان في الحجاز ، ولا تزالان ، موثلاً للنسك والعباد ، ومن قديم كان يحاور فيها وخاصة في مكة كبار الزهاد والمتصوفة ، فيقيمون فيها بضع سنوات ، وقد ينفقون فيها الميركله . ومعلوم أن الحج ركن من أركان الإسلام وأن قواد كل مسلم يهوى إلى مكة لأداء فريضة الحج فكان طبيعياً أن لا يوجد زاهد ولا متصوف مشهور في العالم الإسلامي دون أن يفد على مكة ، وقد يقرن حجه بالزيارة النبوية . ونذكر من كبار المتصوفة الذين ألما بمكة وجاوروا فيها الحلّاج المقتول سنة ٣٠٩ للهجرة ، جاور فيها سنة كاملة . ومربنا في العصر العباسي الثاني ترجمة له وعرض لشعره الصوفي وبيان لتصوفه وأنه كان نصوفاً فلسفياً ، إذ جرت على لسانه كلمات الاعتماد

الحصر لا ين معصوم وشعراء هجر لعبد الفتاح الحلوي (نشر مكتبة دار العروبة) .

(١) انظر العهد العيني في مواضع متفرقة وكتاب طبقات فقهاء اليمن للجمدي (طبع القاهرة) والمقود للزُلزُلِيَّة ، وتاريخ الشعراء الحضريين لعبد الله السقاف وسلافة

والحلول . ومن جاور في مكة بعده القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ وقد سمع بها الحديث ، وهو الذي رأب الصدع المتفاقم بين الفقهاء والمتصوفة ، ففتح عن التصوف أفكار الحلول والاتحاد والغناء ، وجعل من أول واجبات المتصوف أداء الفروض الدينية . وجاور بمكة بعده شهاب الدين السهروردي شيخ الصوفية ببغداد المتوفى سنة ٦٣٢ وبها لقي ابن الفارض المتصوف المصري المشهور الذي كان يحاور هناك ، وطالت مدة مجاورته إلى خمسة عشر عاما طويلا ، وهو يطوف الشاعر مبتلا إلى الله متغنيا بالحلب الصوفي الإلهي ناظيا أشعاره الرائعة . وإنشاد البوصيري لميمته أمام قبر الرسول ﷺ ذائع مشهور . ومن متسلفة المتصوفة الذين جاؤوا بمكة ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وفيها نظم ديوانه الصوفي «ترجمان الأشواق» سنة ٥٩٨ ووضع عليه بمكة أيضا سنة ٦١٠ شرحه المسمى : «الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأشواق» وجاور بها أيضا من متسلفة المتصوفة ابن سبعين الأندلسي المتوفى بها سنة ٦٦٩ بعد أن أقام بها سنين كثيرة . ومن ذكرناه من هؤلاء المتصوفة المجاورين بمكة إنما هم قليل من كثير ، وأكثر منهم من جاؤوا بمكة من الزهاد والعباد وهم لا يحصون كثرة . وكان يتعبد الله معهم أهل المدينتين ومن كان بها من النساك وإنهم ليفوتون المحصر والاستقصاء ، ولناخذ مثلا كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين «مكة» فإن من تصفح تراجمه في مجلداته الثمانية لا يزال ينتقل فيها من زاهد إلى زاهد ومن عابد إلى عابد .

وإذا ولينا وجوهنا نحو اليمن وجدنا كتاب طبقات فقهاء اليمن لعمر الجعدي لا يزال يتحدث عن زهد كبير من هؤلاء الفقهاء وإعراضهم عن متاع الدنيا الفاني ، وحقا أكثرهم من فقهاء زبيد الشافعية ، ولكن الزهد كان يحس في كل البيئات وفي كل المدن . وكان كثير من أئمة الزيدية في صعدة على جانب كبير من الورع والتقوى وكان لذلك أثره في إمارتهم ، فكتب فيها كثيرون على النسك والعبادة ، وبالمثل كان الرسوليون أو كانت كثرة حكمهم . ولم تكف اليمن بالزهد ، فقد عرفت التصوف السني وطرقه من شاذلية وجبلانية ورفاعية ، واشتهر عندهم صوفي كبير يسمى أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ للهجرة وله أتباع كثيرون أو بعبارة أدق دراويش يسمونهم في اليمن المجاذيب ، وهم بطوفون في البلدان اليمنية مرددين أغاني وأناشيد في مديح قطيع الرباني ، ويبدو أنه كان من كبار أتباع الطريقة الرفاعية العراقية التي شاعت منذ أواسط القرن السادس ، يدل على ذلك ما يرى عند أتباعه إلى اليوم من احتفال الآلام الجسدية ، مصورين بذلك مقدرتهم الحارقة . ومربنا في حديثنا عن المجتمع اليمني والغناء فيه أنهم كانوا يتفنون هناك بمقطوعة

لابن الفارض ، ولعل في ذلك ما يدل على صلة التصوف الجنى بالتصوف السنى المصرى عند ابن الفارض وأمثاله ، ولا يبعد أن تكون أشعار البوصيرى في مدائح الرسول ﷺ وصلّتهم ، وتغنوا بها إذ لا نصل إلى نهاية القرن الثامن الهجرى حتى يلقانا عندهم شاعر صوفى سنى هو عبد الرحيم البرعى المتوفى سنة ٨٠٣ للهجرة ، وأشعاره موزعة بين التصوف أو الحب الإلهى والمدائح النبوية . وعلى غرار محمد بن إبراهيم الوزير ، وله ديوان شعر كله ابتهالات وزهد وتصوف . ومن صوفية اليمن وزهادهم وراء من سميناهم عبد الله بن أسعد اليافعى صاحب كتاب مرآة الجنان المتوفى سنة ٧٦٨ وكان كثير العبادة والورع وجاور بمكة وقد تجرد للعبادة والنسك عشر سنوات يتردد فيها بين الحرمين ، وزار مصر ، وكان ابنه عبد الرحمن زاهداً صوفياً على شاكلته وصحب الصالحين ببلاد كثيرة . وما زالت موجنا الزهد والتصوف تنتشران في اليمن ، وإن كان يلاحظ أن موجة التصوف خفت في عهد الإمامة الزيدية حين أصبح لها زعامة اليمن في مواجهة العثمانيين ، ولم يكن العثمانيون يعارضون الطرق الصوفية ولا كانوا يتعرضون لأهلها ، بينما كان كثيرون من أئمة الزيديين وأتباعهم يحاربون حلقات الذكر المنتشرة في البلاد ، حتى نهاية هذا العصر .

وعلى نحو ما كان الزهد والتصوف منتشرين في اليمن كانا أيضاً منتشرين في حضرموت حتى لنجد عبد الله السقاف في كتابه عن شعرائها يقول في مقدمته : إنك ترى في شعرهم جميعاً طلاء صوفياً . وفي الكتاب شعر زاهد كثير وكذلك شعر صوفى كثير في محبة الله ومجبة رسوله ومدحيه . ويكثر عند السقاف وصف الشاعر بلقب الصوفى الزاهد التقي الورع . ومن الشعراء الصوفية الذين ترجم لهم أبو بكر العيدروس المتوفى سنة ٩١٤ وعمره باعزيمة المتوفى سنة ٩٥٢ وكان كلماً سار حفاً به يريدون يذكرون الله وقد يتغنون ويرقصون ، وكان له مجلس ذكر وسماع وغناء . ومن ترجم لهم أيضاً السقاف عبد الله الحداد العلوى المتوفى سنة ١١٣٢ وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس المتوفى سنة ١١٩٢ وبفيض كتاب السقاف بسيل من شعر الزهد والتصوف .

ولم تكن عُمان وإقليمها يوماً بيئة تصوف لغلبة الخوارج الإباضية عليها ، وهم بدون ريب أصحاب زهد وتقشف ، وقد وصف أبو حمزة الخارجى شبابهم قديماً بأنهم « غصيبة عن الشر أعينهم ، ثقلية عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح (أنضاء) سهر » وطبعى أن يتغنى شعراؤهم بالزهد والنسك والعبادة والتقشف ورفض عرض الحياة الزائلة ابتغاء ما عند الله من الثواب الآجل . ونجد عند شعراء بنى نهبان لمعة من الزهد والمديح النبوى .

وكانت البحرين بعيدة عن الزهد والتصوف في عصر القرامطة ، وفي ديوان ابن مقرب
 الميوني بعض أشعار قليلة زاهدة ، وهي تشيع في كتابي سلافة العصر لابن معصوم ونفحة
 الریحانة للمحبي ، وتشيع معها أو تكثر ابتهالات ومناجيات للذات العلية وبعض غزليات
 فيها روح الغزل الصوفي وما يشيع فيه من وجد . وتلقانا في كتاب شعراء هجر من القرن
 الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر مواعظ وبعض أشعار زاهدة .

الفضل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية^(١)

منذ ظهور الإسلام وإرسال الرسول ﷺ معلمين إلى القبائل والقرى في الجزيرة العربية يعلمون الناس شئون دينهم الحنيف اختطت الحركة العلمية لنفسها جداول ظلت تندفق في كل ركن من أركان الجزيرة ، وظلت تمتددا جداول من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والفسطاط والقاهرة وكل مدن العالم الإسلامي . ومعروف أنه من أهم ما يميز الحركة العلمية العربية في جميع ديار العرب وأقاليمهم أنها عامة ، وليست خاصة بإقليم معين ، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما يقد على الأقاليم الأخرى ، وسرعان ما تتمهده وتضيف إليه إضافات كثيرة .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن الحركة العلمية في الجزيرة العربية لهذا العصر لم يكن مؤدى ذلك أنه كان لها حركة علمية مستقلة ، فقد كانت حركتها العلمية فرعاً من فروع الشجرة الكبرى ، شجرة الحركة العلمية العربية العامة ، إذ نلتقي في كل مكان بأسماء الكتب العلمية المهمة المعروفة لنا في بغداد وغير بغداد ، وكأنه كان هناك نهر كبير للثقافة العربية كانت جداوله ونهراته تجري في كل مكان وفي كل دار من أقصى الشرق في خراسان إلى أقصى الغرب في الأندلس .

وتتغلغل جداول هذه الثقافة حتى في نجد : البيئة التي يُظن أنها كانت بعيدة عن الحركة

الحضريين للثقافة وصفحات من التاريخ الحضري لسعيد عوض باوزير ونخبة الأعيان لنور الدين السالي وعان تاريخ يتكلم لحمد السالي وعاصف وشعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر لجد الفتح الحلو وساحل الذهب الأسود لحمد سعيد المسلم .

(١) انظر في الحركة العلمية ترجمة ابن دريد والسيراف في ابن خلكان والمقدّم وتاريخ هامة اليمن والمقدّم التوثيقية وسلافة مصر لابن معصوم ونشر العرف لزيارة والبدر الطالع للشركاني والنور السافر للبهدروس وتاريخ مكة لأحمد السباحي (مطابع دار فريش بمكة) ونشر عدن لباخرمة والمفتل من تاريخ اليمن للجراف وتاريخ الشعراء

العلمية لما يحيط بها من أسوار الصحراء ، فقد كانت قراها لا تخلو من بعض المعلمين والوعاظ ، وكانت تتلى فيها كتب الشريعة وأيضاً كتب العربية بأخرة . وكانت القبيلة النجدية بمجرد أن تتحول قليلاً أو كثيراً من البداوة إلى التحضر تنهض فيها حركة علمية نشطة ، على نحو ما حدث في بني مزبد وقبيلتهم بني أسد حين أسسوا مدينة الحِجْلة بالقرب من الكوفة واستقروا فيها بعض الاستقرار ، وأيضاً على نحو ما حدث في بني عُقَيْل حين اتخذوا لهم إمارة في الموصل ، فإن القبيلتين جميعاً قادتاً حركة علمية في ديارهما ، وقد عادتاً جميعاً إلى نجد وحياة البداوة مع القرن السادس الهجري . ومن المؤكد أن قرى نجد مثل الإمامة (الرياض فيما بعد) وبريدة وحائل والميمنة والدُرعية لم تخلُ في أي عصر من شيوخ يختلف الشباب والشيوخ إليهم لتلقى كتب الفقه والتفسير والحديث النبوي . ومنذ ظهور محمد ابن عبد الوهاب استعالت نجد إلى دار كبيرة للدعوة الوهابية وللمدارسة كتب محمد بن عبد الوهاب نفسه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية .

وإذا تركنا نجداً إلى المدينتين المقدستين في الحجاز : مكة والمدينة وجدنا الحرمين المكي والمدني يتحولان في عصر مبكر إلى جامعتين كبيرتين ، بحيث يصبحان من أهم المراكز العلمية في البلاد العربية ، لسبب مهم سبق أن عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو أن كثرة كبيرة من العلماء الناجين بالأقطار العربية في كل عصر كانوا يتزلون مكة ويقيمون فيها سنوات طويلاً ، وقد يمضون فيها بقية حياتهم ، وبالمثل كانوا يتزلون المدينة ، غير من كان فيها وفي مكة من علماء الشريعة والعربية . وتفيض كتب التراجم بأسماء هؤلاء العلماء ، ويكفي أن تصفح مثلاً كتاب المقدّمين في تاريخ البلد الأمين : مكة ل ترى مبلغ من كان فيها من العلماء من كل صنف ، وكان لكل عالم حلقة ، فلمقرئ القرآن الكريم حلقة وكذلك للمفسر والمحدث والفقيه وعالم الكلام وعالم العربية وعالم المنطق وعالم الرياضيات وعالم التصوف . وتتعدد الحلقات بتعدد الشيوخ حتى تُعَدَّ بالعشرات . وأنشئت بجانب هاتين الجامعتين مدارس ، فقد بنى بمكة السلطان نور الدين رأس الدولة الرسولية مدرسة ، رتب لها مدرسين وإماماً ومؤذناً وطلاباً يتعلمون ، ووقف عليها أوقافاً دائمة . وتعاقب بعده بناء المدارس في مكة والمدينة ، بينها بعض السلاطين الرسوليين وبعض الأفراد وبعض سلاطين مصر على نحو ما هو معروف عن مدرسة السلطان قايتباي التي بناها بجوار الحرم المكي ورصد لها أوقافاً كثيرة . وعُني العثمانيون بعد استيلائهم على الحرمين ببناء المدارس ، من ذلك بناؤهم أربع مدارس بمكة سنة ٩٧٢ لتدريس مذاهب الفقه ، وتكاثر المدارس في المدينتين المقدستين وتكاثر الكتابات وخاصة منذ القرن الثالث عشر الهجري .

ونشطت الحركة العلمية في اليمن من قديم ، بسبب توزيعها بين إمارات كانت تتنافس فيها بينها علميا وأديبا مما جعل كلا منها تحاول جذب العلماء إلى دائرتها ومحيطها ، وكان كثير من الأمراء أنفسهم علماء ، فالأمير علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية كان عالما ، ويقول عنه عارة : « كان عالما وفقها مستبصرا في علم التأويل وعطيا بليغا » وكانت زوجة ابنه الأمير المكرم المسماة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية تتعمق علوم الدعوة الفاطمية ، ووقفت أوقافا كثيرة لتدريس صحيح البخاري مع أنها كانت إسماعيلية العقيدة . وكان جياش من آل نجاح أمراء زيد مؤرخا وصنف « المفيد في أخبار زيد » واختصره عارة اليمني ونشر مختصره ، ومن وزراء هذه الدولة سرور الفاتكي ، وكان يشجع العلماء وفرض لهم رواتب . ويقول عارة اليمني إنه رأى جريدة هذه الرواتب التي كانت تُدفعُ إلى الفقهاء والقضاة وعلماء الحديث والنحو واللغة ، فوجدها اثني عشر ألف دينار في كل سنة . وبالمثل عُرف بنو زريع أمراء عدن بإكرام العلماء والشعراء وإسباغ المطايا والجوائز عليهم . وحين تسلم الرسوليون زمام الأمور أخذوا ينهضون بالحركة العلمية نهضة واسعة يقدمهم في ذلك مؤسس دولتهم نور الدين إذ بنى في تعز عاصمته الصيفية مدرستين وفي عدن مدرسة وفي زيد عاصمته الشثرية ثلاث مدارس : مدرسة للشافعية ومدرسة للحنفية ومدرسة للحديث النبوي ، وربت في كل مدرسة مدرسا ومعيدا وطلابا وإماما ومقرئا ومؤذنا ، ورصد لكل مدرسة أوقافا تقوم بكفائها وتسد حاجتها . وخلفه ابنه السلطان المظفر وهو صاحب جامع المظفرية في تعز وجوامع أخرى في أنحاء إمارته وبنى مدرسة بتعز ، وأخرى بظفار وكانت تبغمه . وابنتي أحد رجاله المسمى بدرأ المظفرى يزيد مدرسة للشافعية ومدرسة للقراء بالقراءات السبع ومدرسة للحديث النبوي ووقف عليها جميعا أوقافا وفيرة . وخلفه ابنه السلطان الأشرف ، وكان عالما في فنون مختلفة وله عدة مصنفات ، منها كتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب وكتاب تحفة الآداب في التاريخ والأنساب وكتاب جواهر التيجان ، وتعمق في علوم الأوائل ، وله كتاب في الأسطرلاب وكتاب الجامع في الطب ، وولى بعده أخوه المؤيد ، وكان عالما أديبا ، ويقال إنه كان يحفظ مقدمة طاهر بن بشاذ النحوي المصري وكتاب الجمل في النحو للزجاجي وكفاية المتحفظ في اللغة ، ودرس كتاب التنبيه في الفقه الشافعي لأبي إسحق الشيرازي وسمع الحديث النبوي من حفاظه الأعلام وأجازه منهم أبو العباس أحمد بن محمد الطبري شيخ السنة بالحرم المكي وأذن له في رواية البخاري والترمذي عنه وتناوله صحيح مسلم ، وجمع من الكتب ما لا يكاد يُحصى ، واختصر كتاب الجمهرة في البيزرة وألف في الطب كتاب

العمدة . وأشهر بعده حفيده السلطان الأشرف إسماعيل بتشجيعه الحركة العلمية ، وحين علم في سنة ٧٨٨ بتأليف القاضي جمال الدين محمد بن عبد الله الرمي كتابه «التفقيہ فی شرح التنبیه» في أربعة وعشرين جزءاً أمر بحمل هذا الكتاب على رموس الفقهاء من بيت المصنف إلى مجلسه ، مزقوفاً بالطلبخانة ، وحين وصل الكتاب ومصفه منحة مكافأة لجهده العلمي : ثمانية وأربعين ألف درهم تعظيماً للعلم والعلماء ، ورُفْعاً لدرجة الشيخ . ويقول الخزرجي إنه طُرِّز كتبه التاريخية باسمه وإنه ألفها بناء على إشارته ، ويذكر عنه أنه رُتِبَ في سنة ٧٩١ بمجامع الملاح ستة مدرسين ومقرئاً للقراءات السبع ومعدّماً ومدرّسين : شافعياً وحنفياً ومدرسين : في النحو والفرائض ، ورتب فيه إماماً ومؤذنين وقيمين وخطيباً ومعلماً وأيتاماً يحفظون القرآن وشيخاً صوفيّاً . وكان الخزرجي نفسه أحد المرتبين لإقراء القرآن . وأمر السلطان الأشرف بعدُ للمساجد والمدارس في سنة ٧٩٥ بزييد فكانت مائتين وبضعا وثلاثين . ومعروف أن المساجد في العالم الإسلامي كانت مدارس تُعَقَّدُ فيها دائماً حلقات للطلاب والعلماء . ولعل في هذا ما يدل على مدى النهضة العلمية باليمن في عهد الرسولين ، وبلغ من عنايتهم بذلك أن اشترك معهم نساؤهم في بناء المدارس والجوامع والمساجد . وقصد اليمن حيث لكثير من العلماء ، ومن أهمهم الفيروزآبادي صاحب كتاب القاموس المحيط ، ألفه في زَيد ، ونوّه في مقدمته بالسلطان الأشرف ، وقد أنزله منزلة رفيعة ، ويقال إنه لما ألف كتابه الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الاجتهاد سنة ٨٠٠ للهجرة أمر السلطان الأشرف أن يُحْمَلَ الكتاب إلى بابه مزقوفاً بالطبول في موكب كبير حضره سائر الفقهاء والقضاة والطلبة ، وأمر للفيروزآبادي ثواب ثلاثة آلاف دينار ، إذ كان الكتاب في ثلاثة أجزاء ، فجعل لكل جزء ألفاً . ومن مآثر هذا السلطان بناء مدرسة كبيرة في تعز . وفي الحق أن دولة الرسولين عملت بكل ما استطاعت على إحداث نهضة علمية خصبة في اليمن ، ويقال إن بين سلاطينها من بلغت مكتبته مائتي ألف مجلد ، وكانوا يمنحون مكافآت كبيرة لمن يهديهم كتباً نفيسة أو نادرة . وأهم بنو طاهر الذين خلفوهم بهذه النهضة ولكن لم يبلغوا مبلغهم في العناية ببناء المدارس وبالعلم والعلماء .

ومنذ اتخذ الرسيون صَعْدَةَ مركزاً لدعوتهم في أواخر القرن الثالث الهجري ، وهم يعيشون فيها حركة علمية كانوا هم قادتها ، فكثيرون منهم ألفوا في الفقه الزيدي وفي علم الكلام وفي غير ذلك من مواد الثقافة العربية يتقدمهم الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم مؤسس الدعوة الزيدية في اليمن . وللإمام المهدي المتوفى سنة ٤٠٣ مؤلفات مختلفة وكذلك لأبي الفتح الديلمي المتوفى سنة ٤٤٤ وللإمام المنصور بالله المتوفى

سنة ٥٩٨ للإمام المهدي أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٦٥٦ وللإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين المتوفى سنة ٦٧٠ . وعلى هذا النحو شارك كثير من أئمة الزيدية باليمن في النهضة العلمية . ويشتهر الإمام شرف الدين يحيى المتوفى سنة ٩٦٥ بإنشائه المساجد المعروفة بالمدارس في صنعاء ودمار وكوكبان . ومُرَبَّنَا أن الإمارة الزيدية اتسعت في العصر العثماني وشملت صنعاء وغيرها من المدن ، وقد بثوا فيها بقوة الدعوة الزيدية وكتبهم وكتب أنصارهم من الفقهاء والعلماء الزيديين .

ويلقانا في حَضْرَمَوْت كثير من العلماء النابغين ، وهم منبثون في كتب التراجم ، ولهم دلائهم على ما كان وراءهم من حركة علمية ، وفي كتاب طبقات فقهاء اليمن وكذلك في كتاب المقدّمين فقهاء ومحدثون وقراء حضرميون كثيرون استوطنوا اليمن أو جاؤوا في مكة . وفي كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين وكتاب صفحات من التاريخ الحضرمي ما يصور من بعض الوجوه النشاط العلمي وازدهاره بحضرموت ومدنها : تريم وغير تريم . وكانت عُمان من قديم مركزاً لحركة علمية نشطة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن ابن دُرَيْد أكبر علماء اللغة في عصره أزدى عُمان وقد أمضى بعمان فترة طويلة من حياته كان لها أكبر الأثر في تكوينه اللغوي ، ومن آثارها في معجمه « الجمهرة » أنه يحمل كثيراً من لغة الأزديين وخصائص لهجته ، ومعروف أنه توفي قبيل هذا العصر مباشرة ببغداد سنة ٣٢٤ . وشهرة عُمان العلمية في القرن الرابع الهجري هي التي جعلت أبا سعيد السيرافي ، كما قال الرواة ، يخرج من بلدته سيراف في طلب العلم إلى عُمان ، وبتفقه بها ويتعلم العربية ، ثم يدخل بغداد بعد ذلك ، ويروى أنه تلمذ لابن دُرَيْد . وقد عُني حكام عُمان من بني مكرم وخلفائهم من بني نيهان بالحركة العلمية والأدبية بديارهم ، فكثُر في عمان الأدباء والعلماء والشعراء . وكان للخوارج في عاصمتهم زُرُوى ثم في عمان حين استولوا عليها نهائياً في العصور المتأخرة نشاطهم الخاص في مذهبيهم الإباضي والتأليف فيه مع العناية بالعربية .

ومنطقة البحرين هي منطقة قبائل عبد القيس ونعيم قديماً ، وكانت تقام بها أسواق للأدب مثل سوق هجر وسوق دارين ، وأنجبت عبد القيس في الجاهلية والعصر الإسلامي غير شاعر وخطيب ، وأُشاد بخطباتها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ونوه بهم طويلاً . ونشعرحين استولى القرامطة على البحرين بجمود الحركة العلمية فيها ، غير أنها أخذت تتعشش سريعاً في زمن العيونيين وبني عصفور وبني جبر ، فكان يقوم على الدراسات العلمية الدينية ودراسات العربية علماء وفقهاء أنفسهم على تلقين الشريعة والعلوم اللغوية للناشئة وتفقّيه

الناس بأمور دينهم ووعظهم . وتظل هذه الحركة العلمية نشطة حتى العصور الأخيرة ، على نحو ما يصور ذلك مثلاً كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم كتاب أنوار البدرين لطائفة منهم في القرن الحادى عشر والثانى عشر مثل الشيخ سلمان آل عبد الجبار وله رسائل متنوعة في المنطق وعلم الكلام . ومن يطلع على كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر يرى نشاطاً علمياً وأديباً واسعاً في أواخر هذا العصر كان يعم البحرين ، بمعناها العام : في الأحساء وقطر والقُطيف وجزيرة أوال (البحرين الحالية) .

٢

علوم الأوائل^(١)

من مفاخر جزيرة العرب وحَضْرَمَوْت خاصة أنها قدّمت إلى الفكر العربى في نهاية العصر العباسى الأول ومفتح العصر العباسى الثانى أول فيلسوف بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف ، وهو يعقوب بن إسحق الكندى الذى تمثل علوم الأوائل والفلسفة اليونانية تمثلاً رائماً ، فإذا هو لا يفقه ذلك كله فقهاً حسناً ، بل يشارك فيه ويضيف إليه إضافات باهرة ، سواء في العلوم الطبيعية أو الرياضية أو في المنطق والسياسة والأخلاق والطب . وقد أحصى ابن التديم في الفهرست له نحو مائتين وأربعين كتاباً ، وكثير منها ترجم إلى اللاتينية ، ويقول ألدومبيل إن كتابه في المنتسمة أثرٌ أثراً بعيداً في روجر بيكون . والكندى ثمرة الحركة العلمية في البصرة التى نشأ بها وفي بغداد التى عاش فيها ، وطبعى أن تكون بغداد مركز الحركة العلمية ، غير أن مراكز أخرى أخذت تتكون في هذا العصر بإيران وعصر والشام ، ولم تتحول الجزيرة ولا إقليم من أقاليمها إلى مركز يتنافس هذه المراكز ، وربما كانت اليمن الثرية بمواردها أكثر أقاليم الجزيرة استعداداً للمشاركة في علوم الأوائل أو على الأقل في تعلمها تعلماً حسناً . ونحن لا نصل إلى نهاية العصر العباسى الثانى حتى نجد أباً محمد الحسن الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ يتعمق علوم الأوائل ، ويتقنها فهماً وتحليلاً ، بل لقد ألف فيها مصنفات جيدة ، ومن أهمها كتابه « سرائر الحكمة » وفيه

(١) المعارف - المقدمة) وترجمة ابن سينا في ابن أبي أصيبعة
وترجمة زيد بن عطية في إنباء الرواة وكتاب الطود
التلويحية للخرزجى وتاريخ الشعراء الحضرميين وسلافة
العصر لابن معصوم .

(١) انظر العلم عند العرب لألدومبيل وترجمة الهمداني
في مختصر الزوزنى لكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء
للقلقلى (طبعة لينز) ص ١٦٣ وديوان السلطان
المخاطب بتحقيق إسماعيل قرهان حسين (طبع دار

عرض علم هيئة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب ، وبين علم أحكام النجوم واستوفى ضروبه ، وكذلك كتابه « القوى » فى الطب ، و كتابه « الإكليل » الذى ألفه فى ملوك حمير وأنسابها وهو فى عشرة أجزاء كبار ، وفيه مما يتصل بعلوم الأوائل « جمل من القرائن » فى النجوم وأوقاتها - كما يقول القفطى - ونجد من علم الطبيعة وأصول أحكام النجوم وآراء الأوائل فى قدم العالم وحدوده واختلافهم فى أدواره . ثم يقول القفطى : وله زيج المرفوف ، وعليه اعتماد أهل اليمن .

ونظن ظنا أن الدعوة الإسماعيلية فى عصر الدولة الصليحية (٤٣٩ - ٥٣٢ هـ) هبأت من بعض الوجوه للعناية بالفلسفة وعلوم الأوائل ، إذ كانت تتركز على المزج بين العقيدة الفاطمية ونظرية الفيض الأفلاطونية ، وكانت تتخذ من رسائل إخوان الصفا دعابة لها ، وهى من بعض الوجوه عرض للفلسفة اليونانية وخاصة لنظرية الفيض وما يتصل بها فى الأفلاطونية الحديثة وأيضاً عرض لعلوم الأوائل . ونجد أحد دعاة الفاطميين فى اليمن المسمى الداعى الذؤيب وكذلك السلطان الخطاب يؤلف كل منها رسالة فى النفس ، ومعروف أنها من الباحث الفلسفية ، ويحلل ناشر ديوان السلطان الخطاب مؤلفاته للفاطمية ، وهى تصطبغ بصبغة فلسفية واضحة كالبحت فى الطبائع الأربع والنفس الناطقة والكثائف واللطائف والمعتولات والمهوسات .

وفى ترجمة ابن سينا ذكر شخص همدانى يشدو الفلسفة وعلوم الأوائل ، وقد وجه رسالة إلى علماء بغداد يسألم فيها الإنصاف بينه وبين ابن سينا ولم نفع على اسم هذا الهمدانى . وفى الجزء الثانى من كتاب إنباء الرواة ترجمة لزيد بن عطية الصعدي اللغوى ، وفيها أنه « كان لغويا شاعرا منجما حاسبا هندسيا ، يسلم إليه المنجمون فى ديار صنعاء وصعدة النجوم والحساب ، وله تصانيف فى ذلك ، منها زيجان : كبير وصغير ، ومنها « أحكام نجومية » و « فصول » .

ويبدو أن الدولة الرسولية بعثت فى اليمن اهتماما بالفلسفة وعلوم الأوائل وخاصة فى عهد سلطانها المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤ هـ) . ولديه السلطانين الأشرف والمؤيد ، ولكل منها فى الطب كتاب وكان الأشرف أكثر براعة فى الطب ، يدل على ذلك كتاب أرسله أبوه المظفر إلى الظاهر بيبرس سلطان مصر يطلب منه طيبيا قائلا : « ولا يظن المقام العالى أننا نريد الطب لأنفسنا فإننا نعرف من الطب ما لا يعرفه غيرنا ، وقد اشتغلنا به من أيام الشيبة ، وولدتنا عمر - يقصد السلطان الأشرف - من العلماء بالطب ، وله كتاب جامع فيه ليس لأحد مثله » . ومربنا أن للسلطان المؤيد فيه كتابا سماه « العمدة » . ويذكر

صاحب سلافة العصر ممن نزلوا اليمن في القرن الحادى عشر طيبيا شيرازيا ، اسمه الحكيم أبو الحسين ويذكر له طائفة من أشعاره .

ويلقانا دائماً اهتمام واضح بالطب والرياضيات والهندسة والهيئة والنجوم ، ونقرأ عن ذلك أخباراً متناثرة هنا وهناك ، من ذلك ما نقرؤه في تاريخ الشعراء الحضرميين من أن الشيخ محمد بن عمر المتوفى سنة ٩٣٠ صنف أرجوزتين : إحداهما في الطب والثانية في علم الحساب وأن الشيخ عبد الله بن عمر باغمزة المتوفى سنة ٩٧٢ صنف رسالة في علم الجبر والمقابلة . ونستطيع أن نعمم هذه الترة في عمان والبحرين وفي مكة والمدينة . وما يدل على رغبة المثقفين في الجزيرة العربية على الاطلاع على علوم الأوائل أننا نجد في كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب أنه حين نزل البصرة عنى بالعلوم الرياضية وقرأ كتب أقليدس في الهندسة وكتاب المسطى في الهيئة ، كما قرأ الحكمة الإشرافية . وتؤمن بأن المنطق ظل يدرس في كل أنحاء الجزيرة ، لاقتناع العلماء في كل مكان بضرورة درسه .

ونترك الرياضيات والهندسة والطب والفلك والفلسفة إلى علم الجغرافية ، ومن أهم المصنفات الجغرافية كتاب صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمداني المتوفى مع أول هذا العصر ، كما مر بنا آنفاً ، ولأبى على المجرى كتاب النوادر والتعليقات وهو زاخر بأماكن الجزيرة ، وأهم من عناية أهل الجزيرة بالأماكن عنايتهم بالرحلات البحرية ، ومعروف أن الأمم القديمة في أفريقيا وآسيا وأوروبا اخترقت البحار والمحيطات من حولها ، وبنت سفناً حملت فيها تجارتها وبعض جيوشها للغزو ، حتى إذا أنشأ العرب دولتهم أخذوا يقتحمون البحر المتوسط وبحر القلزم أو البحر الأحمر ، كما اقتحموا المحيط الهندي إلى شواطئ إفريقيا الشرقية غرباً وإلى الهند شرقاً . وكان اقتحامهم له في أواخر القرن الأول الهجرى سبباً في أن تتغلغل تجارتهم إلى جزر الهند الشرقية وإندونيسيا ، بل لقد اقتحموا المحيط الهادى ونزلوا على شواطئ الصين ، واشتهر أحد تجارهم المسمى سليمان بكتابة رحلة له قام بها في سنة ٢١٧ للهجرة من البصرة ميمًا ديار الصين ، وقد تحدث فيها عما ركبته وخاضه من بحار بادئاً بالخليج العربى . وتوالى رحالة بعد سليمان يصفون رحلاتهم البحرية .

علم الملاحة البحرية^(١)

كان رابطة السفن في البحار المتصلة بالبلاد العربية يعنون بكتابة دفاتر تضم جداول

(١) انظر في هذا العلم وفي ابن ماجد وسليمان المهرى (الأنجلو) بالقاهرة . وراجع قران في مافى شهاب الدين أحمد بن ماجد والمهرى في دائرة المعارف الإسلامية وكتاب ثلاثه أزهار في معرفة البحار لأحمد بن ماجد - حورائى ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (نشر مكتبة

فلكية ومعلومات عن خطوط العرض والرياح والشواطئ والشعاب والجزر في المحيط الهندي وما يتصل به من المحيط الهادئ ، مما كان سبباً مباشراً في نشوء علم الملاحة عند العرب وازدهاره على مر السنين . وكان يشترك في هذه الملاحة سكان الخليج العربي وجنوبي الجزيرة العربية ، ونهض بها منهم ربانة كثيرون .

وأشهر ربانة الجزيرة العربية شهاب الدين أحمد بن ماجد المولود في عُمان حوالي سنة ٨٣٠ للهجرة ، وقد نشر له المستشرق جبريل فران في باريس سنة ١٩٢١ - ١٩٢٣ مجموعة كبيرة من أعماله الثرية والشعرية أنشأها في نحو ثلاثين عاماً بين سنتي ٨٦٥ و ٨٩٥ ولفران تحليل طريف لتلك الأعمال نشره في دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم شهاب الدين . ونشر المستشرق الروسي تيودور شوموفسكى في موسكو سنة ١٩٥٧ ثلاث أراجيز لأحمد بن ماجد مع دراسة وتعليقات ، وعنى الدكتور محمد منير مرسى بهذه الأراجيز الثلاث ونشرها في القاهرة بعنوان : « ثلاث أزهار في معرفة البحار » ونقل معها تعليقات تيودور شوموفسكى ، وردت الاقتباسات المترجمة عن المصادر العربية إلى أصولها المطبوعة والمخطوطة ، وشرح طائفة من المصطلحات البحرية عند ابن ماجد وبذل في ذلك كله جهداً محموداً .

والأعمال التي نشرها فران لابن ماجد إنما نشرها عن مخطوطة في باريس يبلغ عدد أوراقها ١٨١ ورقة ، وبها أراجيز وقصائد تبلغ نحو العشرين ، تتناول أصول علم البحار والفلك والملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر وخليج عدن وخليج العرب كما تتناول النجوم والبروج والشعاب . وجميعها أشعار تعليمية تصور علم الملاحة البحرية عند العرب . ويجمان هذه الأشعار في المخطوطة الباريسية كتاب ابن ماجد النفيس : « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » ألفه سنة ٨٩٥ للهجرة ، وهو في اثني عشر فصلاً ، ويتحدث ابن ماجد في الصفحات الأولى منه عن الأصول الأسطورية للملاحة والإبرة والبوصلة والإسطرلاب . ويعرض للكتابات في الملاحة قبله ويشيد بثلاثة من الربانة ، هم سهل بن أبان ومحمد بن شاذان وليث بن كهلان ، معتمداً في ذلك على دفتر كتبه حفيد لسهل بن أبان تاريخه سنة ٥٨٠ وأغلب الظن أنه يقصد السنة الهجرية ، وليس

= تحقيق تيودور شوموفسكى ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى والملاحة وعلم البحار عند العرب للدكتور أنور عبد الطيم (نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وانظر العلم عند العرب لألدوميل ص ٥٣٢ وما بعدها ومقالات الأستاذ حسن الصمدي في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد الرابع والعشرين بعنوان « علماء البحار العرب واصطلاحاتهم البحرية » .

بصحيح ماذهب إليه بعض الباحثين من أن هذا التاريخ تعيين للمدة الزمنية بين ابن ماجد وبين كاتب النسخة وأنه كتبها - كما يظن - سنة ٣١٥ للهجرة وكان هؤلاء الربابة الثلاثة - في رأيه - كانوا يعيشون في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهو ما نستبعده ونظن أنهم عاشوا في النصف الأول من القرن السادس. ويذكر ابن ماجد أن الدفتر كان يحمل معلومات الربابة الثلاثة ويقول إنهم لم يكونوا ملاحين بالمعنى الدقيق لكلمة ملاحين وأن معارفهم البحرية لم تتجاوز الخليج العربي ، ويذكر طائفة من الملاحين الذين كانوا يعاصرونهم وغيرهم ممن سبقوهم . ويؤكد أن كتابه ليس كتاباً نظرياً كالكتب السابقة له ، فهو كتاب أعلم الناس بالبحر ، ويقول إنه علم توارثه عن أبيه وجده ، فقد كانا ربابين كبيرين ، ويذكر أنه كان لأبيه أرجوزة بحرية في ألف بيت تُعَدُّ دليلاً ومرشداً هادياً للملاحة في البحر الأحمر . ومع أنه قلل من أهمية ما كتبه حفيد سهل بن أبان عن جده وصاحبه من معارف في الملاحة بسميم الليوث ، ويسمى نفسه رابع الليوث أو رابع الثلاثة . ويذكر في الكتاب منازل القمر الثمانية والعشرين والنجوم التي تطابق تقاسيم البوصلة الاثنتين والثلاثين والطرق البحرية في المحيط الهندي وخطوط العرض الخاصة بعدد من الموانئ في المحيطين : الهندي والمحادي والعلامات الدالة على مشارف السواحل الغربية للهند وجزائر المحيط الهندي والخليج العربي والرياح الموسمية المواتية للرحلات والبحر الأحمر ومراسيه وشطآنه وشعابه المرجانية ورياحه وأغواره . ويقول قرآن إن وصفه لكل ذلك لا يفوقه بل لا يدانيه أى وصف لكاتب آخر في الإرشادات والبيانات البحرية الهادية للسفن الشراعية . وهذا كله كان يصحب ببعض الخرائط . فكل رباب لابد أن تكون معه خريطة وبوصلة وإسطرلابات وحبال لقياس عمق المياه (واسمها عند ابن ماجد بُلد) ومزاوول لمعرفة ارتفاع الشمس والنجم القطبي .

ومن سوء طالع هذا العالم العربي الفذ في علم الملاحة البحرية وهو على وشك أن ينجم حياته وقد بلغ سبعين عاماً ونيفاً أن تعرف عليه في « مالندى » بشرقي إفريقيا فأسكودي جاما البرتغالي ، وكان قد يس من الوصول إلى الهند عن طريق البحر ، إذ كان يجهل هو وريابته البرتغاليون الطريق البحري إليها ، وكانت سفنهم كلما خرجت في المحيط الهندي وانجملت نحو الهند تحطمت ولم ينج منها أحد . ونعجب أن نرى ابن ماجد يتحول له مرشداً يهده الطريق في سنة ٩٠٦ للهجرة إلى كلكتا في الهند . وبذلك يكون - لفلته - أداة للاستثمار الخيضي : البرتغالي أولاً ، ثم الإنجليزي والفرنسي والهندي ، من شاطئ إفريقيا الشرق إلى جزر الهند الشرقية وبحر الصين . وسرعان ما شعر بسوء فعله ، وصوّر ذلك مراراً

في ألم ومرارة عن قاسكودي جاما وأصحابه البرتغاليين في الأرجوزة الأولى من « ثلاث أزهار في معرفة البحار » :

وجأ لكالبيكوتَ خُذْ ذى الفائده لعام تنغاية وست زائده
وسار فيها مبغضُ الإسلام والناسُ في خوفٍ وفي اهتمام
واشتروا البيوت ثم سكنوا وصاحبوا وللسوامر ركنوا

وهو يريد بالسوامر البرتغاليين نسبة إلى السامري الذي صنع العجل وعبدته بنو إسرائيل يريد أنهم كفار ، ومع ذلك صاحبهم حكام نغركالبيكوت في الهند . وكأنما عرف قصر نظره وشناعة عمله بعد فوات الأوان . ومع أنه أكثر من الأراجيز والقصائد مما يدل على أن نبع الشاعرية عنده كان فياضاً يجتزل الوزن عنده أحياناً .

وخلف ابن ماجد ريان من سدة البحر وملاحيه هو سليمان بن أحمد المهري من مهرة في الشَّحْر بين حضرموت وعان ، عاش في النصف الأول من القرن العاشر الهجري ، وله في الملاحة كتب لا تقل أهمية عن كتب ابن ماجد ، بل لعلها أوفى وأشمل في بيانها لأحوال الملاحة في المحيطين الهندي والهادي حتى بحر الصين ، ومن كتبه « تحفة الفحول » وه العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية ، وه المنهج الفاخر في علم البحر الزاخر ، وتاريخها جليلاً يرجع إلى النصف الأول من القرن العاشر، وقد درس قرآن أعمال سليمان المهري البحرية دراسة وافية .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

لا نبالغ إذا قلنا إن كل البلاد العربية كانت مشتركة في التراث اللغوي والنحوي والبلاغي والنقدي ، بحيث لم يكن يظهر كتاب مهم في بيئة من البيئات العربية إلا ونجدده قد نُقل إلى البيئات الأخرى ، ونعجب أننا اليوم مع سرعة المواصلات ونقل الكتب عن طريق البواخر والسيارات ، بل عن طريق الطائرات ، لا نبلغ مبلغ أسلافنا في سرعة التواصل بينهم في الكتب ، لا في مجالات الفقه والحديث وما إليها من الدراسات الدينية فحسب بل أيضاً في جميع المجالات لغوية وغير لغوية . وساعدت على ذلك الرحلات السنوية للحج والزيارة والتقاء العلماء ، وكان بعض العلماء إذا افتقد كتاباً ، ولم يستطع

الحصول عليه رغم تطوافه في البلدان لجأ إلى النداء عليه في الحج ، ليخبره عنه بعض من رآه في مكتبة من المكتبات المتناثرة بين الأندلس وأواسط آسيا حتى الهند . وكان العالم في أى علم أو فن يرى أن علمه فيه لا يكتمل إلا إذا رحل شرقا وغربا وأبعد في رحلته ليلقى العلماء ويقرأ كتب التراث الخاصة بالعلم أو الفن الذى يريد التعمق فيه . ونقلوا في أثناء ذلك إلى بلدانهم ما كبه الأسلاف ومعاصروهم ، وفتحت المكتبات في كل بلد صدرها لتستقبل الكتب وتجزئ حَمَلَتها خير الجزاء .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن النشاط في علم بأى بلد من البلدان العربية وسمينا فيه بعض علماء إنما نتخذهم رموزا للحركة العلمية الكبيرة ، وهى أكبر جدا من أسمائهم ، لأنها تعنى النشاط العلمى في العالم العربى جميعه ، إذ كانت كُتبه ومصنفاته تُصَبُّ في كل البلدان العربية ، وقام عليها علماء ومدرسون مختلفون يقدمونها للطلاب . وقد يضيفون إليها في كل علم مصنفات جديدة وكان يكون عيداً لطلاب العلم وأساتذته أن يقد عليهم عالم من البلاد العربية ، إذ كانت معرفتهم بكُتبه ومصنفاته تسبقه ، فكان بمجرد نزوله في بلد يتحول في التَّوَّعاضا ويتحلق حوله الطلاب يفيدون من علمه .

كانت هناك إذن بين البلاد العربية دورة علمية ، أشبه ما تكون بالدورة الدموية ، تدور فيها الكتب والمؤلفات من بلد إلى آخر ، ويدور العلماء أنفسهم . وكانت الجزيرة العربية تدخل في هذه الدورة ، تدخل فيها نجد بقراها التى أخذت تعنى بتعلم العربية منذ أن هَجَرَتْ أوكاد الإعراب في القرن السابع الهجرى وما بعده . أما الحجاز ومكة فكانا يعنيان باللغة من قديم ، كما كانا يعنيان بالنحو ، وكان يوجد لهما دائما مدرسون يهضون بهما سوى من كان يتزل مكة والمدينة من كبار علماء العربية ، ويكنى أن نذكر من بينهم عبد الله ابن طلحة (١) الأندلسى المتوفى بمكة سنة ٥٢٣ وقد اشتهر بإحسانه لتدريس كتاب سيويه على الطلاب في الحرم المكى ، مما جعل الزمخشري (٢) يرحل في شيبته إلى مكة من موطنه خوارزم ليأخذ عنه ، وقد جاور بمكة - بدوره - مدة طويلة ألف فيها كثيرا من كُتبه ، وكان لا يبارى في اللغة والنحو وألف فيها مؤلفات دَوَّتْ شهرتها في العالم العربى ، منها معجمه المشهور أساس البلاغة الذى رتب مواده بحسب الحرف الأول ، وأدخل فيها كثيرا

(١) انظره في التكملة لابن الأبار ٢/ ٨١٥ والعقد الاين ١٨٢/٥ وبني الوعاة والبحر المحيط لأبى حيان ٤/ ٣٧٧ .
 (٢) راجع في الزمخشري ابن علكان (طبعة دار صادر بيروت) ١٦٨/٥ وانظر بقية مصادر ترجمته في الفصل الثانى من القسم الخاص بإيران .

من الشواهد والأساليب الأدبية ، ويغلب أن يقول في ختام المادة : « ومن المجاز ، فيقرن الأساليب المجازية إلى الأساليب الحقيقية . وألف في غرب الحديث النبوي كتابه « الفائق » وهو معجم طريف للأحاديث المحتوية على بعض الألفاظ الغريبة ، وصنف في تفسير القرآن الكريم وألفاظه « الكشف » وشهرته تملأ الحافقين . ومن بحوثه اللغوية شرح لأبيات سيويه والمستقصى في أمثال العرب والقسطاس في العروض . ومن بحوثه النحوية كتابه المفصل ، جعله في أقسام أربعة : قسم للأسماء وقسم للأفعال وقسم للحروف وقسم للمشارك وأراد به الإمامة والوقف والإبدال والإعلال ، ولا ين يعيش شرح مطول على هذا الكتاب مشهور . ولزعمشري بجانبه في النحو كتاب سماه النموذج . ولا ريب في أن هذا العالم النحوي اللغوي العظيم بعث في مكة حركة علمية مباركة في فنون اللغة والنحو والتفسير ولا بد أن كثيرين شدوا الرحال إليه في مكة ليلتقوا عنه مصنفاته ، وليلحموا عنه الإجازات بروايتها سماعاً وإلقاء . ومن نزل بمكة وجاور بها سنين من كبار اللغويين الصغاني الحسن^(١) بن محمد المتوفى سنة ٦٥٠ هـ حياته تفصلاً ما قلناه من وحدة الثقافة في العالمين العربي والإسلامي ، فقد ولد سنة ٥٧٧ هـ في لاهور عاصمة إقليم بنجاب في الهند ، ونشأ في إقليم صغان كورة من بلاد السند ، ويذكر مترجموه شيخين له في الهند ، فالشيخ ومعلمو العربية والشرعة منبشون في أنحاء العالم الإسلامي ، حتى في أبعد دياره . ورحل في طلب العلم إلى بغداد ودخل مكة وجاور بها ستين ، ودخل اليمن ، واستطاع بمن لقيهم من الشيوخ في موطنه وغير موطنه ، وأهم من ذلك بما قرأ من كتب التراث ، أن يصبح إماماً من أئمة اللغة العربية ، مما جعله مؤثلاً للطلاب في كل مكان نزل به وخاصة في مكة . وعنى بوضع المعاجم والكتب في اللغة ، ومن أهمها : مجمع البحرين في اثني عشر مجلداً ويقول في مقدمته إنه جمع فيه بين معجم الصحاح للجوهري ومعجم له سماه « التكلية والذيل والصلة » . وعادة يفصل في مجمع البحرين بين ما ينقله من الصحاح وما ينقله من معجمه بوضع حرف ص لما ينقله من الصحاح وحرف التاء لما ينقله من التكلية وحرف الحاء لما ينقله من الذيل والصلة . ونشر مجمع اللغة العربية معجم « التكلية والذيل والصلة » المذكور في ستة مجلدات ، وقد ضمنه ما فات الجوهري في صحاحه من بعض مواد اللغة وما وقع فيه من أغلاط وأوهام . وله كتاب في الأضداد ، وكتاب سماه النوادر في اللغة روى فيه غرائب اللغة التي نص عليها علماء اللغة الأقدمون ، وفي دار الكتب المصرية منه مخطوطة . وحاول بأخرة من عمره أن

(١) انظره في العقد الثمين ١٧٦/٤ والجواهر المضية لابن تيمر يردى ٢٦/٧ .

٢٠١/١ وشذرات الذهب ٢٥٠/٥ والنجوم الزاهرة

يؤلف في اللغة معجماً كبيراً سماه الباب الزاخر ، غير أن المنية عاجلته قبل إتمامه . ولا شك في أن هذا الإنتاج الغزير يصور عالماً لغوياً كبيراً ، وهو لم ينشأ في الجزيرة ولا في بلد عربي ، وإنما نشأ في الهند ، ومع ذلك استطاع أن يصبح من الأفضاذ في العربية على مر العصور ، وهو شاهد على ما نقوله من أن العلم العربي كان ملقاً بكل مكان في العالم العربي والعالم الإسلامي الكبير . ومن نزل بمكة من كبار شيوخ العربية ابن عبد^(١) المعطى أحمد بن محمد الملقب بنحويّ الحجاز المتوفى بها سنة ٧٨٨ وهو مغربي مصري تلمذ في العربية على أبي حيان الغرناطي عالماً مشهور ، قرأ عليه كتاب التسهيل لابن مالك النحوي المعروف ، ثم جاور بمكة إلى أن توفى بها وانتصب فيها للتدريس والاشتغال بالعربية والعروض . ومن النحاة بعده محمد^(٢) بن أبي بكر المرجاني المكي المتوفى سنة ٨٢٧ . ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر محمد ابن معصوم يلقب غير شاعر بأنه من أئمة العربية . ولا ريب في أن دراستها ظلت نشطة في العصر العثماني وحتى نهايته ، فكان هناك معلمون مختلفون للعربية في مكة والمدينة وقرى الحجاز المختلفة .

وتنشط اليمن طوال هذا العصر في الدراسات اللغوية والنحوية ، وهو يفتتح في سنة ٣٣٤ للهجرة بوفاة عالم لغوي يميني مهم ، هو الهمداني^(٣) المذكور فيما مر ، وفيه يقول القفطي في إنباء الرواة : هو أحد عيون العلماء باللغة العربية وأشعار العرب وأيامها . وسبق أن نوهنا بكتابه الإكليل وهو في سيرة الملوك الحميريين وأخبار اليمنيين الأولين ، طبع منه الأجزاء : الأول والثاني والثامن ، وكذلك الجزء العاشر وهو في أنساب همدان قبيلته وأخبارها وبه أشعار كثيرة . وله كتاب يسمى : البصوب في فقه الصيد وحلاله وحرامه وكيفيته وما جاء فيه من أشعاره يقول القفطي عنه : إنه جيد جداً ومفيد للمتأدبين ، ومرتبنا ذكر كتابه صفة جزيرة العرب ، وهو يحمل مقداراً كبيراً من اللغة والشعر . وله القصيدة الدامغة اختصر فيها باليمن على مضر ، طبعت مشروحة بالقاهرة . وكان يكتب ابن الأنباري وغيره من لغوي بغداد ويعترفون بفضلته ، ومن أجله رحل العالم النحوي المعروف ابن خالويه إلى اليمن وعنى بجمع ديوانه وتخريجه ، إذ كان شاعراً مجيداً . وتمضى اليمن في نشاطها اللغوي والنحوي طوال أزمنة الدول التي مرت بنا في يزيد وصنماء وعدن وصعدة إذ كان أمراؤها يتنافسون في جمع العلماء بإماراتهم ومن حولهم : علماء العربية وغيرهم ، ويلقانا

(١) انظره في العقد الجيني ١٤٩/٣ والدرر الكاشفة (٣) إنباء الرواة ٢٧٩/١ وأخبار الحكماء ص ١٦٣ لابن حجر ٢٧٧/١ .
(٢) العقد الجيني ٤٢٩/١ .
(٣) ومعجم الأدياء ٢٣٠/٧ وروضات الجنات ٢٣٨ .

منهم في زبديلاط جباش بن نجاح زيد بن عطية الذي سبق أن تحدثنا عن حذفه لعلوم الأوائل ، وكان يعاصره في بلاط الصليبيين إسماعيل ^(١) بن إبراهيم الرهنى النحوى اللغوى الشاعر ، من أهل صنعاء ، وكان مؤدباً لأولاد الأمراء الصليبيين ، وله قصيدة في غرب اللغة جعل ترتيبها على ترتيب معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد وسماها « قَد الأوابد » وجعل لها شرحاً ضمنه نوادر وطرائف من الأخبار والأشعار . ومن نخاة اليمن القاضي أبو بكر الباقى المتوفى سنة ٥٥٢ هـ وله في النحو مختصر سماه المفتاح ، وسرعان ما تنجب اليمن نشوان ^(٢) بن سعيد المتوفى سنة ٥٨٠ هـ وله في اللغة كتب مختلفة ، أهمها « شمس ^(٣) العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم » في ثمانية مجلدات ، ورتبه على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات لا أواخرها متابعا في ذلك الزمخشري في معجمه أساس البلاغة ، وحرص فيه على دقة الضبط بالنقط والحركات ، وقسم كل باب فيه أو حروف قسمين : قسما للأسماء وقسما للأفعال . وعنى بأن يذكر فيه كثيرا من الكلمات اليمنية التي لم تسجلها المعاجم قبله ، وأكثر فيه من شواهد القرآن الكريم والحديث النبوى والشعر والأمثال . وكان يعاصره الحسن ^(٤) بن أبى عباد المتوفى سنة ٥٩٠ هـ ويقول القفطى إن له مختصراً في النحو مشهوراً في اليمن يقرؤه المبتدئون ، ويقول السيوطى في البنية عنه : « إمام النحاة في قطر اليمن كانت الرحلة في علم النحو إليه وإلى ابن أخيه إبراهيم » . وكان يعاصرها على ^(٥) بن سليمان اليمنى النحوى المتوفى سنة ٥٩٩ هـ وله مصنف في النحو سماه كشف المشكل في مجلدين ، وروى له ياقوت آياتاً يحصر فيها جموع التكسير .

وتنهض الدولة الرسولية بعلوم العربية نهضة واسعة ، وكانوا يميزون العطاء للعلماء فقصدوهم من كل فج ومربنا أن الفيروز ابادى ^(٦) مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٧ هـ يزيد وفد على السلطان الأشرف ، فأكرمه إكراماً عظيماً ، وكان قبل أن يفد عليه جاور بمكة من سنة ٧٧٠ إلى سنة ٧٧٥ وكان له فيها دار كثيراً ما عاد إليها ، وجعلها في سنة ٨٠٢ مدرسة باسم الملك الأشرف وقرر بها طلبة وثلاثة مدرسين : في الحديث وفقه مالك وفقه الشافعى ، وزار المدينة المنورة وقرر بها ما قرر بمكة ، وكان الأشرف قد ولاه وظيفة قاضى

(١) إنباه الرواة ١/١٩١ .

مصنفات .

(٢) انظر مصادره في ترجمته بالفضل الثالث .

(٣) راجعه في معجم الأدباء ١٣/٢٤٣ .

(٤) طبع الجزء الأول منه في بريل ثم طبع بالقاهرة .

(٥) راجعه في الضوء اللامع للسخاوى ١٠/٧٩١ و

(٦) انظره في معجم الأدباء ٨/٥٣ وإنباه الرواة

المقدّمين ٢/٣٩٢ وبنية الرواة والروض العاطر للنجاشى

١/٢٩٠ وبنية الرواة وروضات الجنات ٢٢٢ وانظر في

٢/٢٤٩ ولبدر الطالع للشوكاني ٢/٢٨٠ وفتايات

ابن أخيه الآتى ذكره معجم الأدباء ١/١٦٤ وله في النحر

النمابة على هامش ابن خلكان ١/٣٢ .

القضاء باليمن ، وظل يليها أكثر من عشرين سنة في عهده وعهد ابنه السلطان الناصر إلى أن أدرسته الوفاة . وكانت أكثر إقامته بزييد ، وأقام مدة بتر ، لما كان قروض إليه من التدريس بمدارس البلدتين . وله مصنفات كثيرة في الحديث وفي الفقه ، ومرت بنا المنحة التي أهداها إليه السلطان الأشرف حين ألف في الفقه كتابه الإسعاد ، وله في النحو كتاب سماه « مقصود ذوى الألباب في علم الإعراب » . أما اللغة فكان فيها بحر لا يسير غوره ، ومن مصنفاته فيها مصنف في الترادف سماه : « الروض المسلوب فيها له اسمان إلى ألوف » . وله كتاب في غريب الذكر الحكيم سماه « بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز » وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في عدة مجلدات . ومن أروع أعماله معجمه النفيس « القاموس المحيط » الذى ألفه في زييد ، ولا نفلو إذا قلنا إنه أروع المعاجم القديمة لجمعه بين الدقة والاختصار إذ هو في أربعة مجلدات فقط ، ولكن كلما قرأت مادة منه خيل إليك أنه حوفا إلى ما يشبه بحثاً قصيراً ، وقد اتبع في ترتيب مواده طريقة الصحاح للجوهري فرتب المواد حسب الحرف الأخير لا حسب الحرف الأول كما صنع الزغنى فى أساس البلاغة ، لأن الحرف الأخير في المادة لا يتغير بخلاف الحرف الأول إذ تدخله زيادات مختلفة . وحاول بعض القدماء نقده ببيان ما فاتته من بعض المواد أو ما سبق خطأ إلى وهمه ، وكان آخر من نهض بذلك أحمد فارس الشدياق في كتابه الجاسوس على القاموس ، ومع ذلك فالمعجم بحق مفخرة للفيروزابادى ، وقد ضمنه أسماء كثير من المواضع وأعلام الأشخاص وكثير من الكلمات الأعجمية المعربة ، وهى جديرة بأن تجمع ويخرج فيها كتاب مستقل ، ولنفاضة المعجم تعهده بمعى بصنع شرح مطول له هو السيد مرتضى^(١) الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م وقد اتخذ القاهرة مهاجراً له وموطناً منذ سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م وفيها ألف هذا الشرح الذى سماه « تاج العروس في شرح جواهر القاموس » وهو مطبوع في عشرة مجلدات ، ويتلافى نواقص القاموس في المادة اللغوية مستعيناً بلسان العرب لابن منظور وغيره من المعاجم المطولة ، ويتوسع في الحديث عن المواضع والأعلام بحيث يصبح دائرة معارف جغرافية تاريخية ، مع ما يعرضه من بعض الأحكام الشرعية والفوائد العلمية .

وهذه النهضة بعلوم العربية في اليمن كانت تتسع لتشمل إمامة الزيديين في صنعاء وفيما يتجهم أحياناً من البلدان مثل صنعاء وزييد حتى إذا دانت لهم اليمن بعد عهد الطاهريين

(١) انظره في فهرس الكتاني ١٩٨/١ والمجلد ١٩٦/٢ المكتبة السلفية ٢١/٢ .

والخطوط التوفيقية ٩٤/٣ ونشر الحرف لزبارة (طبع

نشروا هذه النهضة في كل مكان . وكان العثمانيون في أثناء احتلالهم لليمن يعنون بالمدارس وتعليم العربية ، وكان الزيدون ينافسونهم في هذا المضمار والزيدى نفسه من ثمرات هذا العصر المتأخر في اليمن وهو رمز قوى لما كانت تحظى به العربية حيثذ من نشاط خصب . ولم يكن هذا النشاط قاصرا على اليمن والحجاز بل كان عاما في حضرموت وعُمان والبحرين وكانت العناية تبدأ أولا بتحفظ القرآن الكريم وبعض الأشعار ، ثم يأخذ المتعلمون قسطا من العلوم اللغوية ليستعينوا به على ما يريدون أن يتعلموه من الدراسات الدينية ، وهل من شك في أن كل ما نقرأ من شعر وأدب في هذه البيئات المختلفة إنما هو ثمرة العناية بالعربية وعلومها اللغوية ، ونتخذ لهذه العناية مثالا هو الشيخ عبد الله البيهوشى ^(١) ، وأصله شهرزورى تنقف ببغداد واستوطن الأحياء حتى توفى سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م وله حاشية على شرح الفاكهى لقطر الندى تأليف ابن هشام ، وصرف العناية بكشف الكفاية وهو مطبوع بالقاهرة ، وله مؤلفات ومنظومات شعرية مختلفة في اللغة والنحو والدين . وكان في كل بلدة وقرية معلمون رصدوا أنفسهم لتعليم العربية حتى نجد وقراها المتوغلة في الصحراء لم تكن تخلو من هؤلاء المعلمين . ويدل على ذلك ما نجده في كتاب دلمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، من أنه تعلم العربية على شيخ لزم دروسه يسمى عبد الرحمن بن أحمد من أهل بريدة إحدى القرى المتعمقة في بوادى نجد . وإنه ليكنفى من نشاط الجزيرة العربية في هذا العصر بما يخص الدراسات اللغوية أنها أهدت إلى العربية معجم الجمهرة لابن دريد ، ثم أهدت مجموعة المعاجم التى خلفها الصفاتى والقاموس المحيط للفيروزابادى وتاج العروس للزيدى فنشاطها اللغوى كان نشاطا جما مشمرا .

وإذا انتقلنا إلى مباحث البلاغة كان ينبغي أن لا يبرح أذهاننا أن كل ما كانت تستجبه بيئة عربية في علم من العلوم يصبح حقاً مشاعاً لكل البيئات الأخرى ، ولذلك كنا نفاعجا من حين إلى حين بكتاب في بيئة يتصل مباشرة بمباحث البيئات المختلفة ، وما يصور ذلك من بعض الوجوه مقدمة في شرح نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب ، تلك التى قدم بها كمال الدين ميثم ^(٢) بن على بن ميثم البخرانى المتوفى سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠م شرحه الأكبر المطبوع على الحجر بتبريز إذ له وراءه شرحان ، وفيه تحدث عن البيان في النهج ووزع

(١) انظر في كتاب البيهوشى لهد الخال قاضى السلبانية (٢) راجع في ميثم كتاب سلبان البخرانى عنه باسم (طبع ببغداد) وكتاب شمراء هجر لعبد الفتاح الحلو السلافة البية و الترجمة الجيدة .

حديثه على ثلاث قواعد ، جعل الأولى لدراسة الألفاظ والثانية لدراسة المعاني ، والثالثة لدراسة الخطابة ، والصلة بين مباحثه ومباحث السابقين له واضحة .

ولعل خير كتاب يصور النشاط البلاغي في الجزيرة العربية لهذه العصور كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام الزيدى اليمنى يحيى^(١) بن حمزة العلوى ، المتوفى سنة ٧٠٥ وهو يقول في مقدمته إنه لم يطلع من كتب البلاغة إلا على أربعة كتب هي ، المثل السائر لابن الأثير والبيان في علم البيان لابن الزمكاني ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازى والمصباح في البيان والبديع لبدر الدين بن مالك ، ويشيد بمبدى القاهر وكتايبه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وفيه يقول : « أول من أسس في هذا العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانيته الشيخ العالم النحرير ، علم المحققين عبد القاهر الجرجاني » غير أنه يصرح بأنه لم يطلع على كتايب المذكورين آنفاً ، إنما اطلع على شذرات منها في كتابات البلاغيين . وقد ذكر السكاكى مراراً ، مما يدل على أنه اطلع على كتابه « المفتاح » ويقول إن الحافظ الذى دفعه إلى تأليف كتابه أنه حين حاول أن يقرأ مع طلابه تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف وفيه مسائل بلاغية كثيرة طلبوا منه أن يؤلف لهم في البلاغة كتاباً ، فاستجاب لهم ، وأثر ابن الأثير والفخر الرازى والسكاكى بين في الكتاب ، وقد وزعه على مقدمات ومقاصد وتكملات ، وسعى كل فرع من هذه الفروع فناً ، وفن المقدمات عنده يتناول علم البيان والبلاغة والفصاحة والحقيقة والمجاز ، وسلك في الفصاحة والبلاغة علمي المعاني والبيان . ويتأثر بابن الأثير فيما كتبه عن معرفة الآلات الضرورية لإنقان البيان كاللغة والنحو والتصريف وحفظ القرآن . ونصوص الشعر والنثر ، ويستوحى الفخر الرازى فيما كتبه عن أنواع الدلالات الوضعية والالزامية ، ويتحدث عن الحقيقة والمجاز ويذكر للحقيقة تعريفات مختلفة وينسب أحدها إلى ابن الأثير . وبطيل في الحديث عن الحقيقة العرفية والشرعية ، ويتضح هنا تأثيره بعلم أصول الفقه . ويعرض المجاز وماهية ويتحدث عن المجاز اللغوى أو المرسل وعلاقته ويسمى المجاز العقل باسم المجاز المركب وينقل عن الرازى بعض أحكام المجاز . وينتقل إلى الفصاحة ويقول إنها خلوص اللفظ من التعقيد وبطيل مستضيئاً بابن الأثير في بيان وجوه الحسن في أفراد الحروف والكلمات . ويتحدث عن البلاغة مهتدياً بابن الأثير مع الانتفاع بما ذكره الرازى من جمال الرصف لحروف منقوطة أو بعضها منقوطة وبعضها غير منقوطة ويذكر آراءه في معنى

(١) انظر في الجدر الطالع للشركانى ٣٣١/٢ وكتابه ١٩١٨ وراجع كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ (طبع

الطراز : نشرته دار الكتب المصرية في ثلاثة مجلدات سنة ١٩٢٠ دار المعارف) ص ٣٢٠ .

الفصاحة والبلاغة وأن الطرف الأعلى للأخيرة هو الإعجاز . ويخرج إلى بيان مواقع الغلط في اللفظ المفرد والمركب سواء من التصريف وفساده أو من النحو والغلط فيه . ويتركز الفن الأول وهو المقدمات إلى الفن الثاني في الكتاب ، وهو المقاصد ، ويعود إلى الحديث عن الدلالات الوضعية والعقلية أو الاتزامية ، ويعرض أبواب البيان مبتدئاً بالجاز وأنواعه من الاستعارة والكتابة والتمثيل ، ويفصل القول في الاستعارة وتعريفاتها عند الرماني والفخر الرازي وابن الأثير ، ويدخل فيها التشبيه البليغ ويمثل لها بشواهد كثيرة من القرآن الكريم والحديث ونصوص النثر والشعر ، ويتحدث عن أقسامها على هدى الرازي وبدر الدين بن مالك ، ويعملها عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، أما باعتبار ذاتها فتقسم إلى حقيقة وخيالية ، وباعتبار لازمتها تنقسم إلى مجردة ومرشحة ، وباعتبار حكمها تنقسم إلى حسنة وقبيحة ، وباعتبار استخدامها تنقسم إلى استعارة محسوس لمحسوس أو معقول لمعقول . ويخرج إلى التشبيه ، ويذكر أن ابن الأثير أدخله في الجاز ، ويفصل القول فيه ، متأثراً بالرازي وابن الأثير وبدر الدين بن مالك ، ويعمله أقساماً : قسماً يشترك فيه المشبه والمشبّه به في الأوصاف المحسوسة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبّه به في الأوصاف التابعة للمحسوسات كالشكل والاستدارة والقوام واللبونة والصلابة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبّه به في الأوصاف العقلية . ويؤكد أن مدار الجمال في التشبيه والاستعارة على الإتيان بالخيال الغريب غير المألوف . ويعود إلى تقسيمات أخرى في التشبيه باعتبارات مختلفة ، إذ ينقسم باعتبار ذاته إلى أربعة أقسام : مفرد بمركب ومركب بمفرد ومفرد بمفرد ومركب بمركب ، وينقسم باعتبار حكمه إلى قبيح وحسن وباعتبار صورته إلى ما يسميه طرداً وعكساً وباعتبار أدواته إلى مظهر ومضمر . ويعرض الكتابة وتعريفات عبد القاهر وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وبعض الأصوليين لها ، ويقف مع ابن الأثير في عدّها ضرباً من الجاز قائلاً إنها « اللفظ الدال على معنيين مختلفين : حقيقة وجزاز من غير واسطة لا على جهة التصريح » ويتحدث عن أقسامها وعن التعريض والتمثيل . ويتقل إلى الكلام عن علم المعاني ، مازجاً فيه بين مباحث الرازي وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وابن الزمكاني ، وقد ذكر فيه - على هدى الأخير - المعرفة والنكرة والأحرف الجارة وبعض صيغ الأفعال والأسماء والنفي ، وأيضاً ذكر على هداه وهدي ابن الأثير صور الالتفات . وتحدث عن الفصل والوصل والحذف والإيجاز وعنده أن الإيجاز قسمان : قسم بالقصر وقسم بالتقرير يريد به المساواة .

وعرض المبادئ والافتتاحات والتخلص وصوراً من المبالغة ، وهو في كل ذلك يستلهم

ابن الأثير . وفصل القول في علم البديع . على هدى بدر الدين بن مالك ، وجعله نوعين : نوعاً يتعلق بالفصاحة اللفظية ، ويتظم عشرين محسناً بلاغياً من مثل الجناس والترصيع والألغاز ، وعدّ من هذا النوع الطباق ومرّده إلى المعنى ، ونوعاً ثانياً يتعلق بالفصاحة المعنوية ويتظم خمسة وثلاثين محسناً بلاغياً . ويتقل إلى التكيلات الملحقة بالكتاب ، وهى الفن الثالث من فونه ، وهو فن خاص ببيان البلاغة في القرآن الكريم وآياته ، وهو يوضح روعة فصاحته في حروفه ومفرداته وتراكيبه ويطبّق على تعبيراته ومواطن الجبال فيها علوم المعاني والبيان البديع ، ويتحدث في إفاضة عن إعجازه البلاغى وجمال بيانه ونظمه وفصاحته ودقة معانيه الجمالية الإضافية .

وكانت قد نشطت منذ عصر يحيى بن حمزة العلوى البديعيات وهى قصائد في مديح الرسول ﷺ تتضمن أبياتها كل ألوان البديع ومحسناته ، ومن أجل ذلك توضع لها الشروح ، وتوزع على المحسنات البديعية في أبواب متلاحقة ، وأول من صنع ذلك على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ وتبعه صنى الدين الحلّى المتوفى سنة ٧٥٠ وتلاحقت بعده سيول من هذه البديعيات في جميع الأقطار العربية . ومن شارك في هذا الاتجاه من الجزيرة العربية ابن معصوم ^(١) الحسنى من أهل المدينة المتوفى سنة ١١١٧ وهو صاحب كتاب السلافة ومطلع بديعته :

حَسَنُ ابْتِدَائِي بِذِكْرِ جَبَرَةِ الْحَرَمِ لَهُ بَرَاةٌ شَوْقٌ تَسْهَلُ دُمِي
وَأَلَّفَ عَلَيْهَا شَرْحاً سَمَاءَ أَنْوَارِ الرِّبْعِ فِي أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ وَتَضَمَّنَ أَفْظَاذُ الْآيَاتِ أَسْمَاءَ
الْمَحْسَنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ ، وَذَكَرَ فِي مُقَدِّمَةِ شَرْحِهِ أَسْمَاءَ مِنْ سَبَقُوهُ إِلَى نَظْمِ الْبَدِيعِيَّاتِ وَالتَّأْلِيفِ
مَحَاكِياً بِذَلِكَ أَصْحَابَ الْبَدِيعِيَّاتِ وَشَرُوحَهَا قَبْلَهُ .

وعلى نحو ما كانت البحوث البلاغية والبديعية نشطة في الجزيرة العربية كذلك كانت البحوث النقدية ومن خير ما يصور ذلك كتاب تنبيه الأديب على ما في شرأى العلب من الحسن والمعيب لعبد ^(٢) الرحمن بن عبد الله باكتير الحضرمى المكى قاضى جده المتوفى حوالى سنة ٩٧٥ للهجرة وقد بدأ مؤلفه بالحديث عن الفصاحة ثم فتح باباً لمرض وجوه من النقد لنحو خمسين قصيدة للمتنى مرتبة على الحروف الهجائية وعادة يذكر مطلع القصيدة ثم يعرض الأبيات المسنجة فيها والمتحسنة ، ويعقد باباً ثانياً يتحدث فيه عن السرقات الشعرية وسرقات المتن من الشعراء وسرقات الشعراء منه . ثم يسوق خاتمة في

(١) انظره في البدر الطالع ١/ ٤٢٨ وأصل (٢) راجع مقدمة محقق الكتاب : الدكتور رشيد الأمل ص ٥٢ .
عبد الرحمن صالح ، وما بها من مصادر من المؤلف .

بيان وجوه من محاسن المتنبي في إرسال الأمثال والحكم وبنيه بالثناء عليه وعلى شعره .
والكتاب يدل على بصير جيد بمعرفة الشعر ونقده وفيه ما يصور ثقافة هذا الناقد الحفصري
المكي وأنه اطلع على كثير مما كتب عن المتنبي قبله وقد حاول أن يضيف إضافات جيدة في
بيان محاسن شعره ومعانيه ، وهو يشيد به في فواتح كتابه إشادة بالغة وكذلك في تضعيفه
وفي خاتمته ونهايته . ومن أطرف صحفه الصحف التي تحدث فيها عن السرقات إذ عرض
فيها أسماء شعراء متأخرين نابئين كثيرين مما يدل على ثقافته الواسعة بالشعر والشعراء حتى
زمنه .

٤

علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات والكلام .

ما قلناه عن التراث اللغوي والنحوي والبلاغي وأنه كان مشتركا بين البلدان العربية على
اختلاف أقطارها ينطبق أشد الانطباق على تراث الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم
الكلام ، فهو تراث مشترك يدرس في كل أنحاء الجزيرة العربية كما يدرس في كل أنحاء العالم
العربي ، لا فرق بين بلد وبلد ولا بين زمن وزمن . ولم يكن طلاب العلم حيثئذ يكتفون
بأخذهم عن علماء بلدهم ، بل كانوا يرحلون إلى لقاء العلماء النابئين في كل بلد وخاصة في
العراق والشام ومصر ، ليتلقوا العلم عنهم شفاها . ولا يكتفي الطالب بالرحلة مثلا إلى بغداد
ولقاء علمائها ، بل يرحل إلى بلاد أخرى طامعا في أن يجمع لنفسه كل ما يستطيع من مواد
المعرفة في علم بعينه أو في مجموعة من العلوم .

وجعل الحج والزيارة النبوية مكة والمدينة قبلتين للطلاب والعلماء جميعا ، على نحو
ما مررنا في علوم العربية فكان يغد عليها أنه العلماء في العالم الإسلامي ، وكثيرا ما يترلون
بها سنة أو سنوات ، وطلاب البلدتين ينهلون من ينابيع علومهم القرية . ونضرب مثلا في
الفقه بالجويني^(١) عبد الملك بن عبد الله النيسابوري شيخ الإسلام العلامة الأصولي الفقيه
التكلم المتوفى سنة ٤٧٨ وقد جاور بمكة أربع سنوات قضى منها شطرا في المدينة ولذلك
سمى إمام الحرمين ، وكان يدرس هناك وفقى ويجهد في نشر العلم بفقه الشافعي ، وكان
علمه بهذا الفقه قد أحدث دويا هائلا لاسمه في موطنه وحين نزل بغداد ولقى علماءها
وناظره ، ويقولون عنه : وقف علماء المشرق والمغرب معترفين بالعجز بين يديه ، ويقول

(١) انظر مصادر ترجمته في الفصل الثاني من القسم

السبكي : « لا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالفقه والأصول والكلام وأكثرهم تحقيقاً . وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيراً ، مما جعل اسمه يطير في الأقطار وذكره بملأ الديار » . ومن تصنيفه في الفقه الشافعي النهاية في الفقه ويقول السبكي : « لم يصنف في مذهب الشافعي مثلها فيما أجزم به » ويذكر له في أصول الدين أو علم الكلام كتاب الشامل وكتاب الإرشاد كما يذكر له في أصول الفقه كتاب البرهان غير كتب أخرى . ولم يكن يحضر مجلسه طلاب الفقه والأصول والكلام في مكة والمدينة فحسب ، بل كان يحضره أيضا الوافدون على البلدين من أقطار العالم الإسلامي ، مما جعل اسمه يسير ويشتهر وتضرب به الأمثال . وعاد إلى نيسابور ، فبقي له نظام الملك وزير آلب أرسلان السلجوقي مدرسة ليلقي بها محاضراته من مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية وكانت حلقته تضم نحواً من أربعائة طالب ، وحين توفي طافوا بيلده ينوحون عليه وكسروا المآثر والحناجر حزناً وجزعا . والفقهاء بمكة والمدينة كانوا كثيرين ، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب أحمد بن حنبل فقيه يمثله ، يسمى مثلاً إمام الحنابلة أو إمام المالكية بالحرم ويضم منهم كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للقماسي طائفة كبيرة . وكذلك غيره من كتب^(١) التراجم ومن أهم فقهاء مكة المتأخرين ابن حجر الميمني المتوفى سنة ٩٧٣ وله شرح كبير على المنهاج للنووي ومصنفات كثيرة .

ونلتقي في مكة بمحدث من كبار المحدثين في العالم الإسلامي هو محب^(٢) الدين الطبري المكي المتوفى سنة ٦٩٤ شيخ الحرم وحافظ الحجاز وعالمه الولود بمكة سنة ٦١٥ فهو من علماء مكة . وهي مسقط رأسه وموطنه ، نشأ بها ، وفيها طلب العلم وسمع الحديث على أستاذه أبي الحسن علي بن المقير ، ومما قرأه عليه سنن أبي داود عن أبي الفضل بن سهل الإسفراييني وعن الخطيب البغدادي وسنن النسائي أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي عن البرزدي عن عبد الرحمن بن محمد الدوني . وكانوا يذوقون فيمن يذكرونهم من الحفاظ فلا بد أن يكونوا حملوا كتب الحديث عن شيوخ نابهين على نحو ما حمل ابن المقير سنن أبي داود

الطباخ الحنبل .

(٢) انظره في طبقات الشافعية للسبكي ١٨/٨ والنيل الصافي ٣٧٠/١ وذاكرة الحفاظ ١٤٧٤/٤ وشارات الذهب ٤٢٦/٥ ومرآة الجنان ٢٢٤/٤ والنجوم الزاهرة ٧٤/٨ .

(١) راجع مثلاً في إمام للحنفية بالمسجد الحرام المنيل الصافي ٤٠٤/١ هو شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن يوسف ، وفي إمام للمالكية العقد الثمين ٣٢٤/٤ هو خليل بن عبد الرحمن القسطلاني المكي . وفي إمام للشافعية العقد الثمين ٢٨٠/١ وهو الرضي الطبري المكي ، وفي إمام للحنابلة العقد الثمين ١١٩/٧ وهو ابن

عن علمين من أعلام الحديث هما الإسفراييني والبغدادى ، فلا يذكرون فقط أخذ كتاب الحديث عن محدث كبير بل يحاولون أن يذكروا عن أخذ هذه لصحة السند ولثقة الرواية ، وينصون كما رأينا الآن على قراءة التلميذ على شيخه للكتاب كلمة كلمة ، وقد يقولون سمعنا من شيخه ، وكانوا عادة يسمعون الكتاب وفى أيديهم نسخ للمراجعة والمعارضة . وقد يسمعون الحسين من السماع على الشيخ للكتاب وقراءته أمامه مرة واحدة ، فيقولون : سماعاً وقراءة .

وقرأ حب الدين الطبرى صحيح البخارى على عبد الرحمن بن حرمى سبط السلفى الحافظ المشهور ، وقرأه أيضاً على عمين لأبيه وأخ له . وقرأ جامع الترمذى على يعقوب بن أبى بكر الطبرى وصحيح مسلم وصحيح ابن حبان على شرف الدين بن أبى الفضل المرسى ، وقرأ الأربعين للحافظ الثقفى على أبى الحسن بن الجُمَيزى وكذلك قرأ عليه الأربعين للسلفى ، وقرأ الأربعين البلدانية على شعب الزعفرانى ، وقرأ بعض الجمع بين الصحيحين للحميدى عن ابن البَلى ، وقرأ على ابن العديم وريحان السكىنى وشيخ الحرم نجم الدين التبريزى جزء الأنصارى . وكان يعنى بالفقه ، وقرأ كتاب التنبية المشهور فى الفقه الشافعى والذي ألفه أبو إسحق الشيرازى على ابن سكينه وتفقه عليه . وسمع بعض كتاب الغرب لأبى عبيدة عن شهدة ، وهى إحدى المحدثات الكبيرات . وكأنما تعب من يعدون كتب الحديث والفقه والغريب التى أخذها عن العلماء ، فيعقبون على ما سبق بقولهم : وأخذ العلم عن جماعة كثيرين من شيوخ مكة والقادمين إليها . والحرم المكى بذلك كان أشبه بجامعة كبيرة لعلوم الشريعة والعربية . ونفق قليلاً عند المشايخ والأعيان الذين تلمذوا له فمنهم القاضى جمال الدين الطبرى قاضى مكة قرأ عليه فى سنة ٦٤٩ بالروضة بالمسجد النبوى . وهذا يعنى أنه كان يدرس فى المدينة أحياناً .

ومن تلاميذه المحدث عبيد الله بن عبد العزيز المهدوى والقطب القسطلانى المصرى ثم المكى ونجم الدين بن عبد الحميد والحافظ الزاهد علاء الدين العطار وقاضى المدينة المنورة شمس الدين بن مسلم والحافظ الدمياطى المصرى المشهور وعلم الدين البرزالى الدمشقى المصرى وقاضى مكة نجم الدين الطبرى وقطب الدين الحلبي وأبو حبان الفرائضى وخلق كثير ، كما يقول مترجموه ، آخرهم وفاة حنّان بن الصنى الطبرى ، وآخر أصحابه بالإجازة الشهاب الحنفى . وأساتذته وتلاميذته هم أعلام الحديث فى عصره بالحجاز وبغداد وإيران ودمشق والقاهرة ، غير من انتفع به فى الفقه الشافعى ، واستدعاه المظفر السلطان الرسول مراراً ، وسمع عليه بعض مروياته وتأليفه ولا بد أنه كان يلقى فى أثناء ذلك محاضراته على الطلاب بزييد . ونفق مرة أخرى عند مؤلفاته الكثيرة ، منها فى الحديث كتاب الأحكام

الكبرى جمع فيه صحاح الأحاديث وحسانها ، وهو في خمسة أجزاء ، وكتاب الأحكام الوسطى مجلد كبير ، وكتاب الأحكام الصغرى يتضمن ألف حديث وخمسة عشر ، وكتاب المهر للملك المظفر جمع فيه أحكام الصحيحين ، واختصره في كتاب سماه العمدة ، وكتاب الرياض النضرة في فضائل العشرة المبشرين بمكة الرضوان مجلدان وهو مطبوع ، وكتاب ذخائر المعقى في مناقب ذوى القربى ، وكتاب السمت الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ، وتقرب المرام في غريب القاسم بن سلام ، وكتاب القربى من ساكن أم القرى جرد فيه أحاديث الناسك من الكتب الستة وغيرها ، وغاية بغية الناسك من أحكام الناسك ، وصفة حجة النى عليه السلام على اختلاف طرقها وجميع ألفاظها ، غير كتب أخرى .

ومن مصنفاته الفقهية شرحه على كتاب التنبية لأبى إسحق الشيرازى في عشرة أجزاء ونكت كبرى عليه في أربعة أجزاء وكتاب المسلك التنبية في تلخيص التنبية ، وكتاب مختصر المذهب ، مجلدان . وما يتصل بالقرآن الكريم : القيس الأسنى في كشف الغريب والمعنى ، والكافى في غريب القرآن ، وكتاب التحفة المدنية ، وكتاب مرسوم المصحف العثمانى المدنى . وله مختصر كتاب عوارف المعارف للسهورردى . ومحب الدين الطبرى ، بهذا كله ومز كبير لتلك الحركة العلمية التى كانت منبثة في الحجاز والتى كان شررها يتطاير إلى جميع البيئات في الجزيرة العربية . ومن الطريف أن المرأة كانت تشارك فيها ، وخاصة في رواية الحديث ، فكانت تأخذه عن شيوخه ويأخذه عنها الشيخ ، ومن يرجع إلى الجزء الثامن من كتاب العقد الثمين سيمى عشرات من النساء المحدثات من مكة أو النازلات بها يروى جلة العلماء عنهن الحديث النبوى .

وطبيعى أن تنشط دراسة التفسير في مكة مع دراسة الحديث ، وقد رأينا محب الدين الطبرى يمانب عمله في الحديث بخدم التفسير خدمات كبيرة ، ويقال إنه كان قد نشط لكتابة تفسير جامع غير أنه توفى قبل إتمامه . وقد صُنِّف بمكة تفسير من أعظم التفاسير ، صنفه الزمخشري في أثناء مجاورته بها وهو « الكشاف » ومع أنه ضمنه آراء الاعتزالية أقبل عليه علماء السنة وغيرهم لروعه ، ويلقبه الفاسى المالكي بأنه « الإمام الكبير في التفسير » . كان إمام عصره غير مدافع ، ويقول ابن خلكان عن الكشاف وتفسيره للقرآن العزيز بأنه لم يؤلف قبله مثله . وكان يمليه في مكة على الطلاب ، ومن رواه عنه قاضيا أبو المعالى بيجى ابن عبد الرحمن الشيباني ، أخذه عنه بالحرم للمكى الشريف ، وظل العلماء بعد الزمخشري يعنون بالكشاف في التفسير ، كما يعنون برواية كتب الزمخشري المشهورة وإلقائها على

الطلاب والطالبات بالحرم المكي ، ويقال إن أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن الشُّعْرية خاتمة الرواة عن الزمخشري وإن لها منه إجازة تفردت بها عنه ، ويقول الفاسي في العقد الثمين من طريقها وقع لنا حديثه .

ومنذ انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقراء الذكر الحكيم يعلمون تلاوته وقراءته في الحرمين المكي والمدني ، ويختار ابن مجاهد في القرن الرابع قراءة ابن كثير التي كان يقرأ بها أهل مكة وقراءة نافع التي كان يقرأ بها أهل المدينة بين القراءات السبع المشهورة لعصره ، وظلت قراءة كل منها تتداول في بلدته وينقلها جيل من القراء إلى جيل ، وتلقانا في كتاب طبقات القراء لابن الجزري أسماء طائفة منهم مثل أبي يحيى المكي المتوفى سنة ٣٤٤ وأبي عبد الله البلخي المولود بمكة المتوفى سنة ٣٧٢ ويكثف كتاب العقد الثمين بتراجم كثير من القراء في مكة والمدينة . وكاننا دارين للقراءات وعلوم الشريعة ، أما علم الكلام فلم يكن له بها كبير شأن .

وإذا ما تحولنا إلى اليمن وجدنا للفقه فيها نشاطاً من قديم منذ معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣ وإليه ارتحل سفيان الثوري وابن عيينة ، وخلفه تلميذه عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١٠ وعنه روى الحديث أحمد بن حنبل وغيره ، وخلفه أبو قرعة موسى بن طارق . وكان الغالب في اليمن حتى القرن الثالث مذهبي أبي حنيفة ومالك ، ثم أخذ العلماء يعنون بمذهب الشافعي ، وفي مقدمتهم موسى بن عمران المَعافِرِيُّ وآل زرقان إذ كان منهم عدة فقهاء عنوا بفقه الشافعي . ويقول الجعدي في كتابه « طبقات فقهاء اليمن » : وخلف هذا الجليل إمام أئمة الشافعية في صنعاء وعدن القاسم بن محمد القرشي المتوفى سنة ٤٣٧ وهو الذي نشر مذهب الشافعي في خلاص الجند وفي صنعاء وعدن وزيد ، وكان قد جمع مع الفقه والحديث وأصول الفقه علم القراءات . وكان يعاصره الصعبي أحمد بن عبد الله وقد شرح مختصر الزئي المصري صاحب الشافعي - كما يقول الجعدي - في أربع سنوات مقابلاً الكعبة الشريفة . ويخلف القاسم بن محمد مجموعة كبيرة من التلاميذ ينهضون بتعليم فقه الشافعي وبيان مذهبه . ولما ألف أبو إسحاق الشيرازي كتابه : المذهب والتنبيه في الفقه الشافعي ، وأخذها عنه حسين بن علي الطبري وأبونصر البندنجي وسكنا مكة حمل الفقهاء اليمنيون وغيرهم عنها الكتابين ، كما حملوها عن تلميذه محمد بن عبدويه الذي سكن عدن مدة ثم انتقل منها إلى زيد ، وكان ينفق على طلبة العلم ويكرمهم كما يقول الجعدي . وينشط الفقه الشافعي أو المذهب الشافعي في الفقه بتأеме وزيد نشاطاً واسعاً .

ويكثر فقهاؤه ، ومن أهمهم يحيى^(١) بن أبي الخير شيخ الشافعيين باليمن المتوفى سنة ٥٥٨ هـ وقد تفقه على جماعة ، منهم خاله أبو الفتح بن عثمان العدناني وزيد بن عبد الله اليقاعي ، وقد قرأ كتاب التنبية للشيرازي على موسى بن علي الصعبي ، وحفظ كتاب الشيرازي : «المهذب» على عبد الله بن أحمد الهمداني ، وكذلك كتابه «اللمع» وأخذ عن زيد ابن الحسن الفايشي تعليق الشيخ الشيرازي في أصول الفقة مع ملخصه ، وحضر دروس فقهاء كثيرين ، وقرأ على القاضي مسلم بن أبي بكر الصعبي كتاب الحروف السبعة في علم الكلام والتوحيد وأصول الدين لمؤلفة الحسين بن جعفر المراغي ، وسمع على الشيخ سالم ابن عبد الله كتاب الجامع للسنن للترمذي ، وما قرأه ونص عليه الجعدي شروح المزني والمجموع للمحامل والشامل لابن الصباغ والفروع لسلم وشروح المولدات لأبي الطيب والعدة للقاضي حسين بن علي الطبري تلميذ الشيرازي كما أسلفنا والإبانة وشرح التلخيص لأبي علي السنجي وكتاب البصرة لأبي الفتح على مذهب السلف الصالح .

وكان الفقهاء في اليمن منقسمين بين أشعرية وأهل سنة ينصرون مذهب الحنابلة مع أنهم شافعية ، وكان يحيى بن أبي الخير يختار مذهب أهل السنة وينظر الفقهاء في مذهب الأشعري المتكلم . وكان يذكر لطلابه خلاف الإمامين مالك وأبي حنيفة ، وله مصنفات مختلفة ، من أهمها في الفقه الشافعي كتابه الزوائد ألفه في أربع سنوات وكتابته البيان ألفه في ست ، وكتابته استخراج المسائل المشككة في المذهب .

ومن الطريف أن الجعدي في كتابه طبقات فقهاء اليمن يوالى ذكر أسماء جماعات من الفقهاء الشافعية نبغوا في بيت بعينه ، من ذلك أسرة بني أبي عقامة ، ويقول عنهم الجعدي : «وفضائل بني أبي عقامة مشهورة ، وهم الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعي في تمامة» ومن أهمهم أبو الفتح^(٢) عبد الله بن محمد بن علي بن أبي عقامة المتوفى سنة ٥٥٠ هـ تفقه على جده علي وعلى أبي الفنايم الفارقي ، وله مصنفات جيدة منها كتاب الحناني وفيه نفائس حسنة ، قال النووي : لم يسبق إلى تصنيف مثله . وعقد للمعاد الأصياني لهذه الأسرة فصلاً في الحريدة ، ويقول الجندى في كتابه السلوك عن أحدهم ، وهو القاضي أبو محمد الحسن بن أبي عقامة : «له كتاب نوادر مذهب أبي حنيفة التي يستشعنها أصحاب الشافعية» وقد صار هذا الكتاب في اليمن قليل الوجود ، لأن الحنفية

(١) طبقات فقهاء اليمن للجعدي (طبع القاهرة) (٢) انظر في طبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والبيكي ص ١٧٤ وطبقات الشافعية للبيكي (الطبعة الثانية) ١٣٠/٧ وتنبه الأسماء والثلاث ٢/٢٦٢ ولسم الثام ٣٣٦/٧ وشذرات الذهب ١٨٥/٤ .
من كتاب الحريدة للمعاد الأصياني ٢٤٦/٣ .

اجتهدت بتحصيله وإذها به ^(١) .

وكان للحنفية نشاطهم ومن أشهر علمائهم في القرن الخامس في اليمن القاضي محمد بن أبي عوف، ويعتقد لهم الجعدي فصلاً قصيراً في كتابه يذكر أسماء طائفة منهم ، ويقف عند القاضي المذكور ، ويقول إنه صنف كتاباً بعنوان « القاضي » وهو مشهور في اليمن والعراق عند الحنفية . واشتهر منهم في القرن السابع أبو بكر بن عيسى المعروف بابن حنكاش ^(٢) المتوفى سنة ٦٦٤ وإليه انتهت رئاسة الحنفية في اليمن ، ويقال : لو لم يوجد لماث مذهب أبي حنيفة هناك ، إذ حمل السلطان نور الدين الرضوي على بناء مدرسة للحنفية بزييد وكان قد بنى بها مدرسة للشافعية .

وكان يقابل فقه الشافعية في تهامة وزيد فقه الزيدية في صعدة من قديم ، وكان الأئمة الرسيون كلما غلبوا على بلد في اليمن حاولوا أن يشيعوا فيه مذهبهم ، حتى إذا تمت لهم الغلبة في العصر العثماني أشاعوا مذهب الزيدية ، غير أن مركز الشافعية في زيد وتهامة ظل ثابتاً إلى اليوم . ومعروف أن الفقه الزيدى نشأ مبكراً . فإن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين المتوفى سنة ١٢٢ بالكوفة هو الذي أرسى قواعده في كتاب فقهي له اشتهر باسم المجموع الفقهي ^(٣) ، وهو أساس الفتوى والأحكام القضائية عند الزيدية ، وقد طبع في القاهرة سنة ١٣٤٠ وطبع قبل ذلك مع شرح له باسم الروض النضير للحسين الحبسي في أربعة أجزاء سنة ١٣٣٧ وطبع أيضاً بشرح شرف الدين السباعي ، والشرحان مطبوعان في القاهرة . وعُي أئمة الزيدية في اليمن - منذ تأسيس الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين دعوتهم - بهذا الكتاب فهو عمدتهم في الفقه والتأليف فيه ، ولالإمام الهادي كتاب يسمى كتاب جامع ^(٤) الأحكام في الحلال والحرام . ويتكاثر تأليف أئمة الزيدية لكتب الفقه في اليمن ، ونذكر من كتبهم أطرافاً ، فمن ذلك المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، له فتاوى كثيرة مجموعة . ومن ذلك الإمام محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ له المناهج الجلى شرح مجموع الإمام زيد بن علي . ومن ذلك الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة صاحب الطراز الذي تحدثناعته في النشاط البلاغي له كتاب الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار في ثمانية عشر جزءاً . ومن ذلك الإمام المهدي أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ له البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار طبع مع تخريج أحاديثه في خمسة أجزاء ، وله أيضاً كتاب

(١) كتاب (المسلك - النكت) لجعدي ص ٦٢٢ . (المرية) ٣/٣٢٢ .

(٢) العقود الثمانية للخزرجي ١/١٥٥ . (٤) بروكلمان ٣/٣٢٨ .

(٣) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الطبعة

الأزهار في فقه الأئمة الأخيار وصنع عليه شرحا سماه « الفيث المدرار » . وهناك كثيرون من علماء الزيدية ، من الأمراء وغيرهم ، تعمقوا في الفقه الزيدي وألقوا فيه وحوله كتباً ومصنفات مختلفة ، ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد أن أحد أمراء الزيدية في القرن التاسع صنف رسالة استبعد فيها إمكان الاجتهاد حينئذ ، فرد عليه محمد بن إبراهيم الوزير بكتابه « العواصم والقواصم » في أربعة مجلدات ، واختصره في كتابه « الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم » وهو مطبوع .

وبجانب هذا النشاط الفقهي في اليمن كان هناك نشاط واسع في علم الحديث ، وهو يبدأ في الحديث كما بدأ في الفقه بمحمد بن راشد فله الجامع المشهور في السنن ، ونغصى بعده في كتاب طبقات فقهاء اليمن فتجد لمحمد بن عبد الأعلى الصنعاني كتاب المتقى في السنن ، وقلما يذكر فقيه إلا ويذكر معه أنه حُمل عنه الحديث ، وكثيرا ما يقول الجمعدى عن هذا أو ذاك إنه سمع صحيح البخارى ، أو سمع موطأ مالك أو جامع السنن للترمذى أو صحيح مسلم أو سنن أبى داود أو سنن النسائى . ومن حين لآخر نجد الجمعدى ينعت الفقيه الذى يترجم له بأنه الحافظ المحدث ، أو يقول سيف السنة . وبغنى النشاط في هذه الرواية للحديث كانت بيئة الزيديين نشط في روايته وللإمام المنصور باقر المتوفى سنة ٦٧٠ كتاب في الحديث يسمى الشفاء ، وللإمام القاسم المتوفى سنة ١٠٢٩ في الحديث كتاب الاعتصام .

وعُتبت اليمن بالتفسير والقراءات كما عتبت بالحديث والفقه ، وكان فيها من المفسرين قديما طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس . وهو باب هذه الحركة ، ومضى الجينيون بعده يعنون بكتب التفسير ، حتى إذا ظهر تفسير الطبرى أقبلوا على تداوله ، ولهم بحوث كثيرة تتصل بناسخ القرآن ومنسوخه وبشرح غريبه . ومر بنا نشاط الفيروزابادى لعهد الرسوليين في هذا الاتجاه . ونجد الزيديين يعنون بالتفسير وكل ما يتصل به ، وقد ذكر بروكلمان لإمامهم زيد مخطوطات مختلفة منها تفسير غرب القرآن المجيد ، ومدخل إلى القرآن وتفسير لمواضع منه ، وذكر للإمام الهادى مؤسس العقيدة في اليمن تفسيرا لبعض سور الذكر الحكيم . ولأبى الفتح الديلمى المتوفى سنة ٤٤٠ تفسير للقرآن المجيد ، وللإمام المهدي محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ كتاب عقود العقيان في الناسخ والمنسوخ من القرآن . ولعل أروع تفسير صنفته اليمن في عصورها جميعا على الإطلاق تفسير محمد^(١)

(١) انظر في كتابه البدر الطالع ٢١٤/٢ وترجم له ابن

زبارة في كتابه (نيل الوطر من ترجم اليمن في القرن

الثالث عشره وقال إنه أنساه .

ابن حل الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م سماه «فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية في التفسير» وكان قد بدأ حياته زديدا ونزع إلى الدعوة الوهابية ، وهو يعد إماما مجتهدا ، وله عشرات المصنفات في الفقه والأصول وعلم الكلام واللغة .

واهتم اليمن من قديم القراءات ، ويشتهر من قرائها الأولين أبو قره موسى بن طارق الذي حمل عن نافع أحد القراء السبعة قراءته التي كان يقرأ بها أهل المدينة ، وأذاعها في اليمن ، ومن أعلام القراء هناك زيد^(١) بن الحسن الفايشي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ وكان عالما بعلوم كثيرة ، منها التفسير . ومنها القراءات أخذها عن أبي معشر الطبري بمكة ، وكان شيخ الشافعية والفقهاء باليمن ، وعليه تفقه يحيى بن أبي الخير المار ذكره . ومن أعلام القراء أيضا ممن ترجم لهم الجزري في طبقاته ابن شداد البرعي على بن أبي بكر الزبيدي شيخ القراء ببلاد اليمن ، وكانت إقامته بزييد أقرأ بها زمنا وأسمع الحديث ، توفي سنة ٧٧٠ هـ وخلفه أحمد بن محمد الأشعري العبدل شيخ زيد في القراءات ، ويقول ابن الجزري : لما دخلت اليمن لازمني كثيرا وسمع مني نصف كتاب النشر وكتبا أخرى ، ويقول إنه أعطاه إجازة بالقراءات العشر^(٢) . ومعروف نشاط ابن الجزري في القراءات ، ولا شك أن اليمن أفادت منه كثيرا . وهذا النشاط في القراءات كان يمتد ليشمل البيئة الزيدية وجميع البلدان اليمنية .

وعنيت اليمن في هذا العصر بالمباحث الكلامية ، وظلت عنايتها بها متصلة ، وقد توزع فقهاءها من غير الزيديين مترعان : مترع أشعري ومترع أهل السنة ، وكانت الكثرة تنزع للمترع السني ، ونجد ذلك واضحا في تأليف الكتب التي تعنى بنقض آراء المعتزلة ، مثل «كتاب الحروف السبعة في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة» للمراغي^(٣) ومثل كتاب يحيى بن أبي الخير الذي تحدثنا عنه آنفا بين الفقهاء ، وقد جعل عنوانه : «الانتصار في الرد على المعتزلة القدورية الأشرار» وفي مقدمته أنه ألفه للرد على شمس الدين جعفر بن أحمد بن عبد السلام ، أحد علماء الزيدية ، وكان قد ألف كتابا انتصر فيه لرأى المعتزلة بأن الناس يخلقون أفعالهم ، وأيضا لرأيهم بأن القرآن مخلوق وغير ذلك من آرائهم . وحاول يحيى بن أبي الخير تفنيد آرائه الاعتزالية ، إذ رد عليه برسالة ذكر فيها الأخبار المروية عن الرسول ﷺ في التحذير من القدورية . ولم يكده يقرأ رسالته شمس

(١) راجع ترجمته في طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٥ ١٥٣/١ .

والسبكي ٨٥/٧ . (٣) طبقات فقهاء اليمن ص ٨٣ .

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري

الدين حتى نقضها بكتاب سماه « الدامغ للباطل من مذهب الخنابل » فأثار حفيظة يحيى ابن أبي الخير ، ورد عليه بهذا الكتاب ردا عنيفا ، وأضاف إلى المعتزلة في الكتاب الأشعرية وأجحف بهم ، مما جعل الشريف العناني الأشعري بناظره ويحاذله في مذهب الخنابلة أهل السنة ^(١) .

ومعروف أن زيد بن علي زين العابدين صاحب مذهب الزيدية ومؤسسه تلمذ لواصل ابن عطاء رأس المعتزلة ولذلك كان الزيدية جميعا يتظمون في المعتزلة ، مما جعل الاعتزال يستقر في مباهجهم ، كما جعلهم يكتثرون من هذه المباحث ، ومن يرجع إلى الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربي لبروكلمان سيجد للقاسم بن إبراهيم الرسي جد الإمام الهادي مؤسس مذهب الزيدية في اليمن كتاب أصول العدل والتوحيد ونقي الجبر والتشبيه ، وكتاب الأصول الخمسة وقد كتب فيها القاضي عبد الجبار أكبر معتزلي في نهاية القرن الرابع الهجري شرحا مطولا ، وللإمام الهادي كتاب المسترشد في التوحيد ، وللإمام المهدي للتوفى سنة ٤٠٣ كتاب الأدلة على الله ومختصر في التوحيد . وتتوالى كتب كلامية كثيرة في بيئة الزيدية ، من ذلك شرح الفلاذ في علم الكلام للإمام المهدي أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ وكتاب الأساس في علم الكلام للإمام القاسم المنصور بالله المتوفى سنة ١٠٢٩ . ولم تزل هذه البيئة في الاعتزال وحده ، بل ألقت أيضا كتباً في رجاله ، وكتاب ابن المرتضى في المعتزلة مشهور .

ولم تكن حَضَرَمَوْت بعيدة عن كل هذه الحركة الثقافية في اليمن والحجاز ، فقد كان طلاب العلم فيها والعلماء يقدون بصورة منتظمة على اليمن ومكة والمدينة لحمل العلم وتلقيته ، ويلقانا منهم كثيرون في كتب التراجم ، وعادوا أو عادت كثرتهم إلى موطنهم في تريم وشيخام وغيرها من بلدان حضرموت وسرعان ما أخذت في تلقيه للشباب . وبذلك كان هناك تواصل منظم بين حضرموت والعلماء اليمنيين والمكيين ، بل منهم من كان يرحل في طلب العلم إلى بغداد وغير بغداد ، ويعود محملاً بالكتب وبالإجازات العلمية التي تتيح له روايتها ونشرها . ويقول الرواة إن مجلس الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي اليمنى المتوفى سنة ٥١٤ كان يفتى بالفقهاء من حضرموت ^(٢) ، ويذكر الجعدي من تلاميذ الفقيه يحيى بن أبي الخير الذي مر بنا في الحديث عن فقهاء اليمن محمد ^(٣) بن عبد الله الحضرمي من تريم حاضرة حَضَرَمَوْت وأيضاً محمد بن مفلح الحضرمي وهو الذي طلب إليه تأليف كتابه

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ .

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٢ .

استخراج المسائل المشككة في المذهب ، لأبي إسحق الشيرازي وأجابه إلى طلبه ^(١) .
 ويذكر الجعدي من فقهاء حضرموت أبا زئبج وأبا جحوش وأبا أكدر قاضي تريم وقد جمع
 بين الفقه والقراءات السبع ^(٢) ، وفي كتاب الجعدي فقيهان من شبة بحضرموت هما عيسى بن
 مفلح وأحمد ^(٣) بن سليمان . ويقول المؤرخون إنه قُتل كثير من فقهاء حضرموت وقراءتها في
 الحملة التي وجهها نائب توران شاه من عدن إلى حضرموت . ويشيد السبكي بقطب ^(٤)
 الدين الحضرمي شارح المذهب المتوفى سنة ٦٧٦ ويقول : « تفقه به خلافتي » وله مصنفات
 كثيرة . وفي ذلك ما يدل على نشاط الفقهاء والقراء هناك . وكانوا يعنون إلى جانب ذلك
 بالحديث والتفسير . ومحدثا السقاف في كتابه تاريخ الشعراء الحضرميين عن فقهاء كثيرين
 ترجم لهم ، نذكر منهم ابن عقبة المتوفى في عدن سنة ٦٩٥ وعلى بن أبي بكر السقاف
 المتوفى سنة ٨٩٥ وعبد الله بن عمر باخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ وعلى بن عبد الرحيم بالكثير
 المتوفى سنة ١١٤٥ وعبد الله بن حسين بن طاهر المتوفى سنة ١٢٧٢ . ومن ذكرهم السقاف
 من المحدثين عمر بن عبد الرحمن المتوفى بتغر في سنة ٨٨٩ وقد رحل إلى اليمن ومكة وكان
 يقرأ للناس الصحيحين ، ومثله حسين بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩١٧ . وكثيرا
 ما ينعت السقاف أشخاصا بأنهم محدثون . ومن نعتهم بأنهم مفسرون ومحدثون عبد الرحمن
 ابن علي السقاف المتوفى سنة ٩٢٣ . ومن مقرئها العظام محمد ابن إبراهيم بن أبي مشيرح
 الحضرمي المجاور بمكة مقرئ الحرمين صاحب كتاب المفيد في القراءات الثمان ، وقد أشاد
 به وبكتابه ابن الجزري ، وقال إنه توفي في سنة ٥٦٠ وأنه قرأ بكتابه المذكور على الشيوخ
 المصريين ^(٥) . ومن ذكرهم السقاف من المقرئين محمد بن عمر بن مبارك المتوفى سنة ٩٢٢
 وقال : له مختصر نهاية الناصري في القراءات وشرح الجزرية . ويذكر السقاف ممن عونا بعلم
 الكلام شيخ بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩٩٠ ويذكر له مصنفات في علم التوحيد ،
 وكان المقرئ محمد بن عمر بن مبارك يهتم بعلم الكلام وينهج منهج أهل السنة .
 وهذه الصورة من النشاط العلمي لحضرموت هي صورة ظفائر وعمان والبحرين ، ونجد
 لظفار فقيها ينسب إلى ميثاتها مرباط هو مفتيها محمد بن علي القلمي ، ويقول الجعدي : له
 مصنفات حسنة ، منها قواعد المذهب وغيره ^(٦) . ولا ريب في أن النشاط العلمي في دراسة

(٥) انظر طبقات القراء لابن الجزري ٤٦/٢ وكتابه :

« النشر في القراءات المشرقة » ٩٣/١ .

(٦) الجعدي ص ٢٢٠ .

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص ٢٠٢ .

(٤) طبقات النافعية للسبكي ١٣٠/٨ .

الفقه والحديث والتفسير والقراءات ظل محتدماً في عُمان لزمن بنى مكرم وبني نبيان ، أما في نوى عاصمة الخوارج وحين أصبح لهم حكم عُمان في العصور المتأخرة فكانوا يعنون بالحديث وقراءات القرآن وتفسيره ، وقد عونا طويلاً بمسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدى الإباضى المتوفى سنة ١٧٠ وهو أقدم كتب المساند المعروفة في الحديث النبوى ، وانصبت عنايتهم الفقهية والكلامية على التأليف في عقيدتهم الإباضية . وفرقتهم ، كما قدمنا ، أكثر فرق الخوارج اعتدالا ، وأقربها إلى الجماعة ، ونصبُ إمام المسلمين عندهم واجب ، ونجب طاعته ما اتخذ الحق والعدل شعاره ، فإن جار ولم ينب وجبت الثورة عليه ، ومر بنا حديث عن عقيدتهم في الفصل الماضى .

وكانت البحرين مثل عُمان نشطة في دراسة علوم الدين الحنيف ، وكانت تدخل في دائرة بغداد ومدن العراق مثل البصرة والكوفة ، فكان طلابها وعلمائها لا يزالون ذاهبين آيين من العراق وإليه . وكان كثير من علماء العراق يرحل إلى البحرين ، ويتخذها مقاما له وموطنا ، وظلت هذه الصلة العلمية مستمرة حتى نهاية هذا العصر . وكانت علوم الشريعة مطروحة في كل مسجد ، وظلت حلقاتها قائمة ، واشتهر كثير من الأسر بتوارثها للعلوم الشرعية واللغوية مثل آل عبد الجبار وآل عمران وآل عبد القادر وآل مبارك ، وبرز من بينهم الشيخ سلمان آل عبد الجبار بأخرة من العصر وله مصنفات مختلفة في المباحث الكلامية وشروح على تهذيب المنطق للتفتازانى وكتاب إيساغوجى^(١) وشاع هناك مذهب مالك قبل دخول المذهب الحنبلى مع الوهابيين ، وكانوا يعنون دائما برواية كتب الحديث وخاصة الصحاح الستة . ومنذ دخلت الأحساء في المملكة السعودية سنة ١٣٣١ عمّت فيها كتب محمد بن عبد الوهاب وأهل السلف ، غير أن هذا لا يدخل في عصرنا إنما يدخل في العصر الحديث .

ولم تكن نجد طوال هذا العصر غائبة عن الحركة العلمية العامة في البلاد العربية ، فقد كانت كتب الفقه والتفسير تدرس في قرى نجد ، وظل ذلك إلى الأزمنة المتأخرة ، إذ نجد من ترجموا للشيخ محمد بن عبد الوهاب يذكرون أنه لزم الشيخ عبد الرحمن بن أحمد في قرينته تريم ست عشرة سنة ، وأنه قرأ عليه فيها صحيح البخارى ومسلم ومسند ابن حنبل وأنه تركه إلى الشيخ حسان التميمي في قرى القعيم حيث تتلمذ عليه في علم الفقه والتفسير سبع سنوات . ورحل بعد ذلك إلى المدينة وأخذ عن علمائها ، ثم رحل إلى العراق

(١) سائل اللهب الأسود لهد سعيد السلم ص

وتلمذ على بعض شيوخ البصرة وعاد إلى موطنه وتعاقد مع الأمير محمد بن سعود ، كما مر في الفصل الماضي ، على نشر عقيدته . وهى ليست عقيدة جديدة بل هى عقيدة أهل السنة من السلف وإمامهم ابن حنبل وأشهر من ساروا على دربه ابن تيمية . وكان ابن عبد الوهاب ينشر دعوته في محاضراته ومؤلفاته ، ومروا كتاب التوحيد ، وبمجموعة التوحيد ومنها رسالة كشف الشبهات ومختصر زاد المعاد لابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية وكتاب الكبائر ومعرفة العبد ربه ودينه ونيبه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكتاب المسائل وكتاب الثلاثة الأصول في معرفة الله ودين الإسلام والرسول إلى غير ذلك من مصنفات بث فيها دعوته الوهابية . وتوالت بعده فيها مصنفات كثيرة منها : جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية لعبد الله ابنه ، ولسلمان بن عبد الله تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد . واتسع التأليف في الدعوة مبكراً وراه نجد ، إذ نجد محمد بن علي الشوكاني اليمنى يؤلف فيها كتابه نيل الأوطار من أسرار متقى الأخبار .

٥

التاريخ

نشطت كتابة التاريخ في الجزيرة العربية كما نشطت في كل بلد عربي ، ونبدأ بالحديث عن هذا النشاط في الحجاز ، ومن أهم ما يلقانا عن مكة كتاب الأزرق « أخبار مكة » وهو كتاب مبكر . وأهم المصنفات التي تلقانا عنها في هذا العصر مصنفات الفاسي^(١) أبي الطيب محمد بن أحمد الحسنى المولود بمكة سنة ٧٧٥ وفيها نشأ وتكون عالماً حتى أصبح من علمائها الأفاضل ، وسرعان ما تحول مدرساً يفتد الطلاب من علمه . ونقلد منصب شيخ الحرم المكي إلى أن توفي سنة ٨٣٢ وعنى بتاريخ مكة ، فصنف فيها كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » في مجلدين ، وهو مطبوع ، وأهم منه كتابه « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين » الذي نرجع إليه ، وهو في ثمان مجلدات ، اقتتحها بالحديث عن مكة تاريخياً وجغرافياً ثم أجمل السيرة النبوية ، وأتبعها بالتراجم حتى عصره مبتدئاً بالحمدين ، ولم يترك حاكماً ولا عالماً ولا مؤذنًا ولا مجاوراً بمكة ولا شاعراً إلا أسهب في الترجمة له ،

(١) انظره في الضوء اللامع ١٨/٧ والفتاوى فيه انظر ٣٣١/١
ومقدمة كتابه « العقد الثمين » وقد ترجم لنفسه

وهو بذلك تاريخ كامل لمكة : سياسى وثقافى وأدبى وحضارى . وللدبار^(١) بكرى المكي المتوفى سنة ٩٩٠ سيرة نبوية بعنوان «الخميس فى أحوال أنفس نفيس» فى مجلدين كبيرين ، طبعت مراراً ، وفيها تفصيل طويل عن تاريخ الكعبة . وكان يعاصره قطب الدين^(٢) النهروالى المكي ، وكان مفتياً ومدرساً ، إلى أن توفى سنة ٩٩٠ وله «الإعلام بأعلام بلد الله الحرام» تحدث فيه عن تاريخ مكة وحكامها إلى زمنه فى عهد العثمانيين ، طبع مراراً . وللمكة مؤرخ عام هو عبد الحى^(٣) بن العماد الحنبلى المتوفى بمكة سنة ١٠٨٩ وله «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» وهو كتاب تراجم مرتب على السنوات حتى سنة ألف للهجرة . ومن مؤرخى مكة المتأخرين أحمد زينى دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م وله : «خلاصة الكلام فى أمراء البلد الحرام» .

وللمدينة بدورها مؤرخوها وفى مقدمتهم محمد بن الحسين بن زبالة الذى ألف كتاباً فى تاريخ المدينة سنة ١٩٩ للهجرة ومن مؤرخى العصر الذى نحن بصده ، بل قل من أشهرهم نور الدين السهمودى^(٤) المصرى المهاجر بالمدينة حتى وفاته سنة ٩١١ وهو صاحب كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، والكتاب دائرة معارف كبيرة فى جغرافية المدينة وتاريخها وأخبارها طبع بمصر فى مجلدين وطبع مختصر له باسم «خلاصة الوفا» . ومن مؤرخى المدينة ابن خضر المذنى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر ، وله مخطوطة فى طبقات الحنفية بدار الكتب المصرية . وجاء بعده جعفر البرزنجى^(٥) المتوفى سنة ١١٧٩ وله قصة المولد النبوى ، طبعت بمصر مراراً منفردة ومع شرح لحفيده جعفر بن إسماعيل .

وتكتظ العين بالمؤرخين ومصنفاتهم للتاريخية ومن أقدمهم على بن محمد بن عبيد الله العلوى الذى صنف كتاباً فى سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحىى بن الحسين مؤسس المذهب الزيدى باليمن عقب مبايعته بالإمامة سنة ٢٨٣ وصنف بعده بقرن الحسن بن أحمد بن يعقوب كتاباً فى أخبار المنصور بالله القاسم الرسى المتوفى سنة ٣٩٣ للهجرة . وتنشط الكتابة التاريخية باليمن ، ويلقانا من مؤرخيها جياش بن نجاح أمير زيد المتوفى سنة ٤٩٨ وله كتاب «المفيد فى أخبار زبيده» فقد ولم يصل إلينا ، غير أن عمارة اليمنى للمتوفى سنة ٥٦٩ اختصره فى

- (١) راجعه فى الثغرات ٤١٩/٨ ومائة المطاوع عشر للمحى ٣٤٠/٢ .
 (٢) انظره فى الضوئ اللاع ٢٤٥/٥ والشرارات الإسلامية .
 (٣) انظره فى الثغرات ٤٢٠/٨ والنور السافر ص ٣٨٣ واليدر الطالع ٥٧/٢ .
 (٤) راجعه فى سلك الدرر ٩/٢ والجلبقى ٣٦٣/١ .
 (٥) راجعه فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الهادى

كتاب سماه « مختصر للمفيد في أخبار زبيدة » وقد طبع في القاهرة . ويشتهر بحارة ^(١) بكتاب له في تاريخ اليمن نشره كاي ثم نشر في القاهرة ، وهو يؤرخ فيه لليمن وأحداثها حتى عصره ، وله كتاب سماه « النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية » تحدث فيه عن الوزراء في آخر العهد بالفاطميين ، وهم طلائع بن رزيك وشاور والكامل ابنه ، وطُبع هذا الكتاب بشالون في آخر القرن الماضي وطبع معه ديوانه . ومُرِّبنا ذكر طبقات فقهاء اليمن مراراً ، وهو لعمر ^(٢) بن علي بن سمرة الجعدي المتوفى لأواخر القرن السادس الهجري . وللقاضى حميد ^(٣) بن أحمد المثل المتوفى سنة ٦٥٢ مصنفان تاريخيان هما « الحدائق الوردية في سير الأنمة الزيدية » و « محاسن الأزهار في فضائل العترة الأخيار » ومن مؤرخي اليمن الجندى ^(٤) بهاء الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٣٢ وله « السلوك في طبقات العلماء والملوك » ويتضح من عنوانه أنه يؤرخ فيه لحكام اليمن وعلمائها من كل صنف ، ومُرِّبنا ذكر السلطان الأشرف الرسولى وكتبه ، وللسلطان الأفضل عباس ^(٥) الرسولى المتوفى سنة ٧٧٨ كتاب « العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية » . ومن مؤرخي اليمن الياغى عبد الله بن أسعد بن عفيف نزىل مكة المجاور بها حتى وفاته سنة ٧٦٨ وله كتاب مرآة الجنان في التراجم العامة وهو مطبوع . ويلقانا مؤرخ كبير هو أبو الحسن الخزرجى ^(٦) المتوفى سنة ٨١٢ وكتابه العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية كتاب نفيس وهو يؤرخ لتلك الدولة حتى وفاة السلطان الأشرف إسماعيل سنة ٨٠٣ وكان من كبار الفقهاء والقراء والمحدثين في عصره وقد رتب كتابه ترتيباً زمنياً محكماً ، وترجم للسلطين الرسولين ترجحات دقيقة . وهو لا يعرض في الكتاب التاريخ السياسى فحسب بل يعرض أيضاً التاريخ الثقافى والحضارى عرضاً مفصلاً ، وهو مطبوع في مجلدين كبيرين . وجاء بعده مؤرخ مهم هو ابن اللبيق ^(٧) أبو عبد الله عبد الرحمن الزيدى ، وكان محدثاً كبيراً درس الحديث في الجامع الأعظم بزبيدة وتوفى سنة ٩٤٤ وله مصنفات تاريخية متعددة ، منها قررة العيون بأخبار اليمن الميمون

(١) ٢٥٧/٦ وفى هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ص ٨٨ .

(٢) انظر ترجمته في الضوء اللامع ٢١٠/٥ والشفرات ٩٧/٧ .

(٣) انظر في ابن اللبيق ترجمته لنفسه في آخر كتابه بنبة المستفيد والنور الساطع ص ٢١٢ والشفرات ٢٥٥/٨ والبلد الطالع ٣٣٦/١ والكواكب السائرة ١٥٨/٢ .

(٤) انظره في ابن خلكان ٤٣١/٣ والخريدة قسم الشام ١٠١/٣ وستألف مصادر ترجمته بين الشراء .

(٥) انظر في التعريف به وكتابه مقدمة المحقق له : فزاد السيد .

(٦) تاريخ اليمن للبراقى ص ١٢١ .

(٧) انظره في إعلان التوبيخ للشهاوى ص ١٢٤ ويحشد عليه الخزرجى في كتابه العقود اللؤلؤية .

(٨) راجعه في العقود اللؤلؤية للخزرجى وفى الشفرات

حتى سنة ٩٢٣ وقد اعتمد على الخرجي في دولة الرسولين ، ثم أضاف إليه دولة بني طاهر التي خلفتهم ويعد أول من عُني بالتاريخ لها . ومن كتبه التاريخية بغية المستفيد في أخبار مدينة زيد وهو يعرض تاريخها مفصلاً حتى المائة التاسعة للهجرة . ومن الكتب الجيدة التي ألفت في القرن العاشر تاريخ ثغر عدن لبنا محرمه (طبع لندن) . وتلقانا بمسوده كتب كثيرة في أئمة اليمن وفي الحكام العثمانيين ، من ذلك ما كتبه الجرموزي المتوفى سنة ١٠٧٧ عن تاريخ الإمام المؤيد بالله بن القاسم ، وقد سماه « الجوهرة المضية في تاريخ الخلافة المؤيدية » وكتب عن تاريخ المنصور بالله القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩ كتاباً سماه « النبذ المشيرة إلى جمل من عيون السيرة » . وصنف يحيى بن الحسين بن المؤيد بالله اليمني في أواخر القرن الحادي عشر تاريخاً لليمن حتى سنة ١٠٤٥ باسم أبناء الزمن في أخبار اليمن . وليوسف بن يحيى الصنعاني المتوفى حوالي سنة ١١٢٠ كتاب مشهور لم يطبع هو كتاب « نسمة السحرفين تشيع وشعر » ويتضمن عشرات التراجم لشعراء شيعيين من حين ظهور الشيعة إلى عصره . ولمحمد بن علي الشوكاني العالم النابه كتاب في التراجم لمن يعد القرن السابع حتى عصره في القرن الثالث عشر سماه « البدر الطالع » وهو أحد المراجع التي يتكرر ذكرها في هذا الجزء . وهناك كتب أخرى كثيرة نفيسة مثل مستخبات في أخبار اليمن للهمداني ، ومثل النور السافر في تراجم القرن العاشر لعبد القادر العيدروس المتوفى سنة ١٠٣٨ وذيل عليه جبال الدين الشل الحضرمي بكتاب سماه « السناء الباهر بتكميل النور السافر » . ولنجد كتب تاريخية مختلفة في الحقب المتأخرة منها « روضة الأفكار والأفهام لمرناتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام » لحسين بن غنام الأحسائي المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م وفيه يوضح تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب ورسائله وآراءه والقتال في سبيل الدعوة ، وهو يكثر من السجع في كتابه . ويليه في الأهمية كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م وهو تاريخ على السنوات يتبدئ بسنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وينتهي بسنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م أي من حين نزول محمد بن عبد الوهاب في « الدرعية » ووضع الأمير محمد بن سعود يده في يده لنصرته حتى وفاة فيصل بن تركي . وضمن الكتاب أحداثاً سابقة للدعوة منذ تأسيس السعوديين لإمارتهم في الدرعية بمتصف القرن التاسع للهجرة ، وأسلوب الكتاب مرسل خال من السجع . ويلى الكتابين السالفين في الأهمية كتاب « عقد الدرر فيها وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر » لإبراهيم بن صالح بن عيسى وهو يتبدئ من حين انتهى ابن بشر سنة ١٢٦٨ ويستمر حتى سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ موزعاً حديثه التاريخي على السنوات .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر على كل لسان

ظل الشعر حياً يجرى على الألسنة في الجزيرة العربية طوال هذا العصر ، ومعروف أنه منها نبع قديماً وأن ينابيعه كانت تمتد في شمال الجزيرة وشرقها وغربها ، أو قل في الجزيرة جميعها ، باستثناء اليمن في العصر الجاهلي أو بعارة ادق باستثناء أعماقها ، إذ كانت اليمن الشمالية قد أخذت في التعرب واستخدام الفصحى ، ولم تبق إلا أنحاء قليلة تتكلم الحميرية ، بينما كانت العربية تنتشر في اليمن بإزاء الحجاز وفي نجران وفي حضرموت وبين أزد عمان . وتم تعرب اليمن سريعاً بعد الإسلام أو قل تم تعرب ما كان قد بقي منها يتحدث الحميرية .

ونحن لا نصل إلى هذا العصر الذي نؤرخ له والذي يتدنى بسنة ٣٣٤ للهجرة حتى نشعر بنشاط واضح للشعر والشعراء في كل أنحاء الجزيرة ، وكانت الحجاز - وخاصة مكة - داراً كبيرة للشعر والشعراء ، وتزخر كتب التراجم بأشعارهم لا أشعار من هاجروا إليها وأمضوا فيها بقية حياتهم أو من ظلوا بها أعواماً طويلة فحسب فإن ذلك أكثر من أن يحصى أو يستقصى ، بل أيضاً أشعار الشعراء من أهلها الذين ولدوا بها وأنفقوا حياتهم فيها . وكانوا يستمعون إلى من يقد عليها من الشعراء ويقم فيها بين ظهرانيهم . فكان ذلك غذاء سائناً لشاعرياتهم . وكانوا يقرءون دواوين الشعراء المشهورين ، وكثير منهم كانت لديه ملكة شعرية خصبة . ولا بد أن نلاحظ أن لغة شعرهم الفصحى لم تكن هي نفس لغتهم اليومية ، فمن قديم لم يأخذ علماء اللغة في القرنين الثاني والثالث للهجرة اللغة والشعر عن المدينة ومكة لتزول كثير من الموالى بها ومعيشتهم فيها ، وقد ذكرنا في كتاب العصر الإسلامي أن عدد القتل من الموالى في موقعة الحرة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية كان خمسة آلاف بينما كان عددهم من العرب ثلاثة آلاف مما يؤكد أن أكثر سكان المدينة حينئذ كانوا

من الأعاجم . ولابد أن الأعاجم بمكة كانوا أكثر من سكانها الأصليين في هذا التاريخ وهو منتصف القرن الأول للهجرة أو قل بعده بنحو ثلاثة عشر عاماً ، فما بالنا في هذا العصر؟ إن المعقول الذي يتفق مع حقائق الأشياء أن تكون نسبة الأعاجم إلى العرب في المدينتين المقدستين زادت زيادة كبيرة ، وهي زيادة أعدت في هذا العصر لشيوع لغة هامية متداولة على ألسنة العامة ، لغة تكثر فيها الألفاظ الأعجمية الدخيلة ، ويكثر فيها التحريف في مقاطع الكلمات ونبراتها . وعلى الرغم من ظهور هذه اللغة العامية كانت لا تزال الفصحى حية بفضل القرآن الكريم وحفظه واستظهاره ، وكان هنالك أساتذة كثيرون للعربية يعلمونها الناس ، وكان الحرمان جامعتين كبيرتين تدرس فيها جميع مولد الثقافتين الإسلامية والعربية ، وكان وراءهما مدارس وكتائب ، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة ، ويظل كثيرون ينظمون الشعر العربي الفصيح .

ولم تكن العناصر الأجنبية في اليمن كثيرة . ومع ذلك كان يتزلها الأحباش والافريقيون بكثرة ، ومرّبنا أن الأحباش كونوا لأنفسهم في حقبة إمارة في زيد ، وكان يتزل في عدن قليلون من الهنود الذين كانوا يتجرون مع اليمنيين ، ويبدو أن العناصر الإفريقية - وهي الكثيرة - كانت تتعرب سريعاً . وليس معنى ذلك أنه لم تتكون في اليمن على مر الزمن لغة عامية ، ولكن معناه أن هذه اللغة هناك تأخرت بالقياس إلى مكة والمدينة ، حتى القرن السادس الهجري على الأقل في بعض أنحائها ، فعمارة اليمن التوفى سنة ٥٦٩ للهجرة يحكى في كتاب المفيد في أخبار زيد أنه حين دخل من تهامة اليمن إلى مدينة زيد في سنة ٥٣٠ ليطلب الفقه وهو دون العشرين من عمره تعجب الفقهاء في جميع المدارس التي ألمّ بها في تلك البلدة من أنه لا يلحن في شيء من الكلام ، ومن قوله : « وجلا حكاكاد فوق (قرية) الزرائب (موطنه) أهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ولم تتغير لغتهم . . ولا زارني والدي وسبعة من إخوتي في زيد تحذّثوا مع الفقهاء فلا واقه مالحن واحد منهم لحنة واحدة أثبتها عليه^(١) . ويتضح من كلام عمارة أن المدن اليمنية مثل زيد كان أهلها يلحنون في لغتهم اليومية منذ القرن السادس الهجري ، أما تهامة والبوادي وأهل الجبال فكانوا لا يزالون ينطقون بالفصحى نطقاً سليماً . ويبدو أن أنحاء كثيرة من اليمن ظلت إلى عصور متأخرة تلفظ العربية لفظاً صحيحاً ، بل يقال إنه لا يزال إلى اليوم من يتحدثون بها في بعض تلك الأنحاء حديثاً غير ملحون ، إذ يقول صاحب الخلاف السلياني إن الفصحى لا تزال صحيحة لم تتغير في هذا الخلاف الذي يطلق عليه الآن اسم عسير ، وقد ضُمَّ إلى

المملكة العربية السعودية بأخرة ، ويصور ذلك تصويراً مسهباً فؤاد حمزة إذ يقول :
« أفصح اللهجات (في الجزيرة) وأقربها إلى الفصحى فيها نعتقد اللهجات الواقعة ما بين
جنوبي الحجاز وشمال اليمن (عسير) وكثيراً ما سمعنا أهل هذه البلاد يلفظون الكلمات من
مخارجها الصحيحة ويتكلمون بما هو أقرب إلى الفصحى من سواء . وبعض البدو من أهل
هذه المنطقة يخرجون جُملاً يظن منها الإنسان أنهم تمرنوا في المدارس على إخراجها على
ذلك النحو بينما أن الحقيقة هي بخلاف ذلك ، لأنهم يتكلمون بالسليقة وعلى البديهة ،
فيجىء كلامهم فصيحاً معرباً لا غبار عليه . ويستعملون ألفاظاً نظنها في الأقطار العربية
المتعددة مهملة متروكة ، ولكنهم هم يستعملونها على البداة »^(١) .

وليس معنى ذلك أن اليمن لم تعرف لنفسها لغة عامية كما عرفت الأقاليم العربية
الأخرى ، بل معناه أنها لم تسارع إلى إحداث هذه اللغة ، ولكنها على كل حال أخذت في
إحداثها بالمدن منذ القرن السادس الهجري ، كما يدل كلام حمزة السابق فقد عجب فقهاء
زيد من أنه يوجد في بعض أنحاء اليمن قوم يتكلمون الفصحى ولا يغطهم السداد فيها ، مما
يدل بوضوح على أن اللهجات كان قد فشا على ألسنة أهل المدن ، وأخذت تتكوّن بسرعة
هناك لغة بنية عامية . وكان ثراء اليمن عاملاً مهماً في أن يعنى حكامها بالعربية وبالعلوم
الإسلامية ومربّنا كيف أن دولة الرسوليين نهضت نهضة عظيمة بالثقافة والعلوم في اليمن ،
وقد أنشأت عشرات المساجد والمدارس وخاصة في زَيد وتمَرّ وصنعاء وعدن ، وكل ذلك
عمل على أن تظل العربية مزدهرة في اليمن وأن تظل الأشعار تجري على الألسنة . غير أنه
يلاحظ أنه أخذت تُنظَّم هناك ، كما كان الشأن في البلاد العربية الأخرى أشعار عامية .
ولا نعرف متى ظهرت بواكير هذه الأشعار بالضبط ، وإذا احتكنا إلى تاريخ أول أغنية
عامية سجلها الدكتور محمد عبده غانم في كتابه النفيس : « شعر الغناء الصنعائي » وجدنا
هذا التاريخ يرجع إلى القرن الثامن الهجري ، وهي للشاعر شهاب الدين أبي
محمد أحمد بن قَلْبَة ، وقد اشتهر زمن السلطان الرسول المجاهد على الذي حكم من سنة
٧٢١ حتى سنة ٧٦٤ وبسبب الدكتور غانم في بيان خصائص هذه الأغاني البنية العامة
من زمن ابن قَلْبَة إلى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري . ويقول إنها جميعاً
من الشعر الحمّتي وهو اسم خاص بالشعر العامي اليمني الذي لا يلتزم قواعد الفصحى
النحوية والاشتقاقية ، كما لا يلتزم عروضها . وتكثر فيه المسطّطات والموشحات ، وتبدو
المحاكاة واضحة بينه وبين الموشحات والأزجال الأندلسية . ويوضح الدكتور غانم

توضيحاً مفصلاً كيف أن هذا الشعر الحُمَيتي أو العامي الجيني يرتفع في لهجته عن اللغة الجينية العامة ويبسط في الوقت نفسه درجات عن اللغة الفصحى . وهو بذلك يُعدُّ فرعاً كبيراً من شجرة الشعر النبطي الذي أخذ يشيع في الجزيرة العربية منذ القرن الثامن الهجري ، بل لعله أخذ يشيع قبل ذلك بقرن أو يزيد . وهو شعر يلقانا في كل أنحاء الجزيرة لهذا العصر ، نلقاه في الحجاز وحضرموت وفي عمان والبحرين ونجده جنوباً وشمالاً . وجميعه شعر يطو درجات فوق العامة لكل تلك الأقاليم ويبسط درجات عن الفصحى . شعر بلغة بين العامة والفصحى ، ويسمونه باسم الشعر النبطي ، وهو كله غير معرب ، وكأنه يحلّ في الجزيرة محل الشعر الجاهلي فيها قديماً ، فقد كان شعر جميع القبائل تُشارك فيه ، وكانت لها لهجاتها المحلية الخاصة ، وكان الموقف في هذا الشعر يتعكس مع ما كان في الجاهلية ، فالجاهليون كانوا يحافظون على النظم بالفصحى وألحان عروضها وأنغامه ولم يكونوا ينفكّون عنها أبداً ، مع أنها ليست لغتهم اليومية تماماً . وشعراء الجزيرة مع هذا الشعر النبطي يريدون أن يقتربوا من لغتهم اليومية ، فيترك نفر منهم النظم بالفصحى ويتخذ هذه اللغة دتواً من قبيته ولغتها العامة ، ومع ذلك يظلون يرفدون بالعناصر البيانية والبديعية للشعر الفصيح ، وكأنما في دخائلهم إحساس أن الشعر ينبغي أن يظل مرتفعاً قليلاً أو كثيراً عن اللغة العامة اليومية ، وهو ما جعلهم ينفذون إلى لغتهم النبطية المستحدثة . ومما يكن فإن هذا الشعر العامي أو قل الحُمَيتي الجيني لم تَعَلُّ كَيْفَتَهُ يوماً على الشعر الفصيح الذي ظل صاحب الصولجان وظل له ازدهاره في اليمن إلى اليوم . وما يصدق على اليمن يصدق على حضرموت ، فقد كان فيها شعراء ينظمون الشعر الحُمَيتي العامي ، ولكن ظلت للشعر الفصيح السيطرة حتى على من ينظمون الشعر الحميني ونمّثل لذلك بأبي بكر العبدروس الحضرمي المتوفى سنة ٩١٤ فإن له شعراً وأغاني حُمَيتة عامة ولكن شعره الفصيح هو الذي ذاع وشاع أو قل هو الذي غلب عليه ، كما يصور ذلك ديوانه : «حجة السالك وحجة الناسك» . على أن شعره الحميني يقترب من الفصحى اقتراباً شديداً . وكانت تنزل عُمان عناصر أجنبية إفريقية وهندية وإيرانية ، وبما هي للأخيرة النزول كثيراً أن حاكم هرمز الإيرانية أو قل حكامها كانوا يغيرون من حين إلى حين على عمان ، وكانت أحياناً تبهم ، فكثرت نزول الإيرانيين بها ، وكثرت لذلك الكلمات الإيرانية الدخيلة في لغة العاميين اليومية ، وطبيعي أن يتبع ذلك تغيرات في الألفاظ العربية ذاتها في بعض مقاطعها وبعض ضروبها ونبراتها ، لذلك كان ابن بطوطة محقاً حين زار عمان ولاحظ على أهلها أن «كلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب ، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلاً لا تأكل ،

لا تمش ، لا تفعل كذا . فكلامهم دخلته رطانة الإيرانيين ودخلته ألفاظهم ، أما لا التي ذكر ابن بطوطة أنهم يصلون الأفعال بها دائماً حين يطلبون من شخص شيئاً فأكبر الظن أنها لام الأمر حُرِفَتْ ومُدَّت قليلاً أولعها لام التوكيد . وينبئ أن لا نظن من ذلك أن الهانين كانوا قد هجروا الفصحى في عهد ابن بطوطة ، فهو إنما يتحدث عن لهجتهم ولغتهم اليومية ، أما بعد ذلك فكانوا يهتمون بالفصحى اهتمام الأقاليم العربية بها جميعاً ، يتخفونها لغة العلم والشعر ، وكثيراً ما تقرأ في ترجمة من اشتهروا بالشعر هناك أنهم تلقوا العربية والعلوم الشرعية عن أربابها في عُمان ، وقل ذلك نفسه في نَزْوَى وفي صُحَار وغيرهما من المدن .

وهذا نفسه نلاحظه على البحرين فواجهتها لإيران جعلت عناصر إيرانية كثيرة تترلها ، وكان لذلك بعض التأثير في اللغة العامية التي نشأت هناك ، وإن كان لا يصل إلى تأثير الإيرانية في عامية عمان لأن الإيرانيين كثيراً ما نزلوا هناك وحكموها . وقد ظل البحرانيون يعكفون على العلوم الإسلامية وعلوم العربية وظلوا يروون الشعر وينهلون من موارده مما أعد لظهور شعراء مختلفين على مر الزمن طوال هذا العصر . وكأن سبيل الشر كان لا يمكن رَدُّه ولا صدّه في أى إقليم عرَبى ، فهو دائماً زاد للعرب وعدة وعناد .

ومعرفتنا بالحركة الشعرية في نجد قليلة ، ومع ذلك نستطيع أن نتعرف على أطراف منها من خلال من كانوا يرحلون عنها إلى الأقطار المجاورة . إذ لم تكن وسائل حفظ الشعر عندهم مهيأة ، ونقص وسائله الأولى من الأقلام والحبر والورق . وهؤلاء المهاجرون يَدُلُّوننا على ما كان من نشاط شعري ورائهم ، وقد نشط الشعر في عهد بنى مزيد الأسديين الذين شادوا الحِلَّة على حدود العراق وكذلك في عهد بنى عُقَيْل العامريين حين هاجروا إلى الموصل على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ونفاجأ بنشاط واسع للشعر في نجد مع دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجرى .

٢

كثرة الشعراء

بعثت دول الجزيرة العربية التي تحدثنا عنها في أقاليمها المختلفة نشاطاً واسعاً في الشعر ، فقد كان الحكام دائماً يعنون بأن تحف بهم جمهرة من الشعراء ، وخاصة في اليمن التي قامت فيها دويلات صغيرة تنافست في جذب الشعراء ونثر الأموال والعطايا عليهم . غير أن أخبار هؤلاء الشعراء في القرن الرابع الهجرى قليلة ، وكان المظنون أن يترجم التعالي في البيعة وتسميتها لطائفة

منهم ، غير أنه لم يُعْنَ بهم ، وإن كان قد ذكر أبا الحسن التهامي ، وسنترجم له في غير هذا الموضوع ، وجاء عنده ذكر شعراء قبايلين مغمورين خرجوا من الجزيرة إلى العراق وأبلى إيران مثل ابن أبي مرةً للمكي وينشد له قوله في أبي الفتح أمير مكة الآتي ذكره^(١) :

بِاسِيدَا قَدَيْتَهُ بِرُوحِي خَرَّكَ اللَّهُ أَبَا الْفَتْوحِ

مُلْكَ سُلَيْمَانَ وَعُمَرَ نُوْحٍ

وإذا كان الثعالبي قصر في الترجمة لشعراء الجزيرة العربية لعصره فإن أبا الحسن الباخري المتوفى سنة ٤٦٧ للهجرة عني بهم في قانحة كتابه «ثنية القصر وعصرة أهل العصر» إذ ترجم لطائفة كبيرة منهم ، مقدما لهم بقوله :

«إن أحسن أبيات الأشعار ما طلعت من أبيات الأشعار^(٢) ، ورعت مع الطباء الشيع ، وترؤدت مع الضباب^(٣) الريح ، مستغنية بحسنها عن التصنع والعمل ، حلوة إذا ذاقها الناظر بحسن التأمل . . وقد وقع لي من أشعار هذه الطبقة ما هو أعذب من الماء الزلال ، وأرق من الشمول صفقت بالشمال» .

وأول ما يلاحظ على مجموعة الباخري من الشعراء أنهم من مدن وقبائل شتى في الجزيرة العربية ، فمنهم المكي والمدني والطائفي والتقي واليهي ، ومنهم العامري والأسدي والبكري والطائي والقصاني والرثمي والشياني والهمداني . وهم بذلك يمثلون الجزيرة في جميع أنحائها غرباً وشرقاً ووسطاً وشمالاً وجنوباً . وفي ذلك ما يؤكد أن القصص كانت لا تزال مهيمنة على الجزيرة حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ولا تزال حية ناضرة على ألسنة العرب في نجد والحجاز واليمن ، كما توضح ذلك تراجم الباخري وما ساقه لأصحابها من أشعار ، وهو لم يدخل الجزيرة إذ لم يمد رحلاته إلى ما وراء البصرة وبغداد ، ومنهم من لقيه في هاتين المدينتين أو في مدينة الرّي حاضرة السلاجقة ووزيرهم العظيم نظام الملك الذي وفد عليه الشعراء من أنحاء الجزيرة العربية ليقدموا له مدائحهم . وجمهورهم لم يلقهم الباخري ، وقد روى أخبارهم وأشعارهم عن بعض الأدباء المكيين والمدنيين الذين ذكروهم له أو عن بعض الأدباء الإيرانيين وخاصة أبا عامر الفضل بن إسماعيل البسي الجرجاني ، وهو تارة ينقل عنه مشافهة وتارة ثانية ينقل عن كتاب له يسمى «قلائد الشرف» . وأول من ترجم له أبو الفتح^(٤) الحسن بن جعفر الحنفي أمير مكة المتوفى سنة

(١) (٣) القصب : من الزواحف في نجد وذنبه كسم

(١) ثنية البيتة للثعالبي ٨٣/١ .

(٢) أبيات الأشعار هنا يقصد بها الباخري الحجازي العقد .

(٣) انظره في العقد الثمين ٦٩/٤ .

المتخذة من أوبار الإبل رمزاً للبادية .

٤٣٠ للهجرة ، وقد أنشد له قوله :

وَصَلَّيْتُ الْمَهْمُومَ وَضَلَّ هَوَاكِ وَجَفَّانِي الرَّقَادُ مِثْلَ جَفَاكِ
وَحَكَى لِي الرَّسُولُ أَنَّكَ غَضَبِي يَا كَفَى اللَّهُ شَرًّا مَا هُوَ حَاكِ

والبيتان طريفان فكرة وصورة ، وقد نسبها العاد في الحريدة لابن أبي الفتح شكر^(١) الذي خلفه على إمارة مكة إلى أن توفي سنة ٤٥٣ وهو الذي حاك بعض بني هلال قصة له بين أقاصيصهم الهلالية إذ زعموا ، كما مر بنا ، أنه تزوج الجازية بنت الحسن بن سرحان الهلالي ، ثم حدثت بينه وبين عشيرتها مغاضبة ، فاحتالوا عليه بحجة أنهم يريدونها لزبارة أبويها ، وذهب معهم إلى نجوعهم في نجد ، فذكروا له أنهم سيخرجون إلى الصيد وهي معهم ، ومضوا في رحلتهم الكبرى إلى إفريقيا ، على نحو ما هو معروف عن رحلة بني هلال المشهورة ، وظل لها بين جوانحه حب دفين ، وظلت تكلف به إلى أن ماتت وهي هائمة بحبه عاشقة . ويبدو أن بني هلال نسجوا هذه القصة بعد رحلتهم من الجزيرة ، إذ يجري فيها خلل الإعراب كما يجري في بقية أقاصيص الهلالية ، وإنما نزع هذا الزعم ، لما رواه الباخري من أشعار النجديين في هذا التاريخ ، وهي تدل على أن الخلل الإعرابي لم يكن قد فشا على ألسنتهم حتى أواسط القرن الخامس الهجري ، وفي تقديرنا أن ذلك إنما حدث في القرون التالية مباشرة . ومن طريف ما ينسب إلى الأمير شكر قوله^(٢) :

قَوْضُ خِيَامِكَ عَنْ أَرْضِي تُضَامُ بِهَا وَجَانِبُ الذُّلِّ إِنْ الذُّلُّ يُجْتَنَبُ
وَارْحَلْ إِذَا كَانَ فِي الْأَوْطَانِ مَنْقَصَةً فَالْمَنْدَلُ الرُّطْبُ فِي أَوْطَانِهِ حَطْبُ

والبيتان بصوران إياه العرى وشعره بالكرامة ورفضه للضمم مها احتمل في هذا الرفض من العناء الشاق . ويترجم الباخري لشاعر يسمى الجاشعي ويلقبه بشاعر الحرمين ، ويسوق له مدحة في نظام الملك ، ويتلوه بأبي الحسن العنبري المكي ثم بأبي الفضل جعفر بن الحسين الشيباني ، ويسوق له أبياتاً سمعها منه في مديح بعض الوزراء ، كما يسوق له أبياتاً في النسب ، ويترجم لهم له يسمى جعفر بن يحيى الحكاك وشعره متوسط . ويترجم الباخري بجانب هؤلاء الشعراء للمكيين لشاعرين من المدينة : خزرجي وأوسى ، ثم لشاعر من الطائف يسمى سليمان بن خضر ، ونشد له غزلاً رقيقاً . ويضم إلى هؤلاء الشعراء الحجازيين شاعراً مبتأياً يسلكه فيهم هو علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية باليمن ، وكان فارساً ، وله أشعار جيدة في تصوير فروسيته وفنكه بأعدائه في القتال من مثل قوله^(٣) .

(١) الحريدة (قسم شعراء الشام) نشر المجمع العلمي (٢) القند اللين ١٦/٥ . وللتدل : حرد الطيب .
العرى بدمشق ١٩/٣ وانظر القند اللين ١٥/٥ (٣) الحريدة (قسم شعراء الشام) ٢٢٥/٣ .

زَوَّجْتُ بِبُخْرَى الْهِنْدِ سُرَّ رِمَاحَهُمْ فَرَهُ وَسُهُمْ هَوَّضَ الثَّارِ نِثَارُ
وَكَذَا الْعَلَا لَا يُسْتَبَاحُ زَوَاجُهَا إِلَّا بِحَيْثُ تَطْلُقُ الْأَعْمَارُ

والثار ما ينثر على العروسين في الزفاف من الدراهم والدنانير والورود ، وهو يتصور معاركه مع أعدائه أفراساً ، تارها رموس خصومه التي تطيح بها سيوفه وسيوف جنوده ، ويقول إن هذا دائماً مهر العلا وصداقها .

ويترك الباخريزي شعراء غزلى الجزيرة إلى شرقها مصعداً إلى أقصى الشمال حيث إمارة بنى عُقَيْلِ العامريين الذين أسسوها في الموصل وبادى نجد العراقية في القرن الرابع الهجرى ، وترجم الباخريزي لأمر منهم هو قُيُرواش بن المقلد الذى ولى الإمارة سنة ٣٩١ وظل أميراً نحو خمسين عاماً إلى أن غلبه على إمارته أخوه بركة وسجنه وتوفى في سجنه ، كما مرّبنا ، سنة ٤٤٤ ويقول المؤرخون : « كان كريماً وهاباً نهياً » وكان يحسن صوغ الشعر وحوكة . من مثل قوله الذى أنشده الباخريزي :

لِي أَشْفَرُ سَمَحُ الْعِيَانِ مَغَاوِرُ يُغَطِّيكِ مَا يُرْضِيكِ مِنْ مَجْهُودِهِ
وَمَهْنَدُ عَضْبُ إِذَا جَرَّدَتْهُ خَلَّتِ الْهَوَقُ فَمُوجُ فِي تَجْرِيدِهِ
وَمُتَقَفُ لَدُنُ السَّنَانِ كَأَمَّا أُمُّ الْمَنَابِ رُكِبَتْ فِي عَوْدِهِ
وَبِذَا حَوَيْتُ لِمَالٍ إِلَّا أَنْتِ سَلَطْتُ جَوْدُ يَدِي عَلَى تَبْدِيدِهِ

وهو يفتخر بأن ماله ليس ميراثاً عن آبائه ، وإنما هو ما أنعم به عليه فرسه الذى لا يُشَنُّ غباره في الغارات ، وصفه القاطع المسلول دائماً للترال ورمحه الذى يفتك بالرجال ، وتلك أدوات جلبه للمال وسرعان ما تبدده بداه في الناس . وترجم الباخريزي لابن عم له يسمى أبا جَوْثَةَ ، ثم يهبط من الموصل ويواديها إلى بواى الحيلة بالقرب من الكوفة حيث إمارة بنى مزيد الأسديين التى أسسها قبيلتهم بنو أسد في أواخر القرن الرابع الهجرى ، وترجم للئيس بن على بن مُزَيْدِ الذى ولى إمارتها سنة ٤٠٨ حتى وفاته سنة ٤٧٧ وله حروب كثيرة مع بنى خفاجة ، واستجده بقرواش ضد القُرَّحين أغاروا على بلاده ، فنَجَّه . وينشد له الباخريزي يثين بدلان على شاعرية متوسطة بل على شاعرية ضعيفة

ويأخذ الباخريزي بعد ذلك في الترجمة لطائفة من شعراء نجد ، يتدثم بمحمد بن الجراح من قبيلة بكر ، وما أنشده له في كرم الضيافة الذى يشتهر به العرب من قديم قوله :
لَا يَرْضَعُ الضَّبَبُ عَيْتًا فِي مَنَازِلِنَا إِلَّا إِلَى ضَاحِكٍ مِنَّا وَمُبَسِّمٍ
وعطيل الباخريزي في الوقوف عند شاعر طائى ، هو أبو كامل تميم بن القفرج ، وفيه يقول :
« كَامِلٌ » وَبِالْكَامِلِ قَدْ كُنْتُ ، وَإِذَا وَصَفَ تَمَامَ الْفَضْلِ قَصِمَ غُيٌّ ، وَنَاهَيْكَ بِذَلِكَ الْأَمْلَى .

ويذكر الباهرزى أنه مدح الوزراء في إيران ونال جوائزهم ، وأنه أبعد في الرحلة حتى غُرّة . ولم
يبيض مدامحه وخمراته ، ويشد له أشعاراً في الغزل تدوب رقة ، من مثل قوله :
وَدْعَبْنَا - إِنْ كُنْتَ أَرْمَعَتِ - جَارَهُ قَبْلَ أَنْ يَمْنَعَ الْفِرَاقُ الزَّيَارَةَ
زَوْدِيْ وَأَمَقًا أَحَدًا ارْتَحَالًا مَا قَصَى فِي مُقَامِهِ أَوَطَارَةَ
لَمْ يَزَلْ يَحْدَرُ التَّفَرُّقَ حَتَّى حَفَقُوا يَوْمَ رَامَتَيْنِ حِذَارَهُ
كَانَ يَكْفِيهِ - وَالْهَبُّ قَنُوعٌ - وَقَفَّةٌ أَوْ نَحْيَةٌ أَوْ إِشَارَةُ
كَاعْبُ فِي الْحِجَالِ يَمْنَعُهَا الزُّو رَ حَيَاءُ يَصُونُهَا وَغَرَارَةُ
ذَاتُ نَغْرٍ كَأَنَّهُ حِينَ يَبْدُو عِقْدُ دُرٍّ أَوْ أَفْحُوَانُ قَرَارُهُ

والآيات نسيب عذوبة ورشاقة ، والألفاظ فيها ملتحة أوتى النحام ، وكلما قرأنا بيتاً فيها ،
بل شطراً ، أحسنا بجمال اتساقه ، وأنه يتصل بسابقه اتصال ذوى الرحم والقرابة ، وما أجمل
قوله : « والحب قنوع » فأى شيء يقنعه : وقفة أو نحوه أو إشارة من بعيد . وقد عبر عن حجابها
وأنها لا تستطيع أن تراه تعبيراً ظريفاً ، إذ ذكر أنها في الحجال والأستار داخل بيتها ، ولا يصونها
الحجاب وحده ، بل يصونها أيضاً حياؤها ونجلها . والمعاني رقيقة رقة بالغة ، والصور جميلة
وطبيعية ، ولا تكلف ، ولا تصنع ، بل شاعر واثق يعبر عن حبه وهيامه تعبيراً حافلاً بالوجد
والصباة دون أى أثر للعب الحسى المادى وأقرانه ، بل هو حبيب غنوى طاهر يخلو من كل إلم
وزر يسوى اللوعة . وترجم الباهرزى لشاعر من غسان ولشاعر ثان بدوى ، ثم لشاعر ثالث
همداني يسمى النج ، ويشد له قطعة غزلية في ابنة عم له تسمى ذؤابة شغفت قلبه حبا ،
ولها يقول :

كَأَنَّ ذُؤَابَةَ فِي الْفَرِّ تَمْشِي رَيْبُ مَهَا تَرْتَدِي بِالظَّلَالِ

وهي صورة بديعة ، إذ يصور صاحبة وثوبها المصفاه بمهابة في يوم قبض شديد الحرارة ،
وقد أوتت إلى ظلال شجرة وسط الصحراء تتخذ منها غلالة تقيها حمأة القيط . ويمضى
الباهرزى ، فيترجم لشاعر من ربيعة ثم لشاعر عامري يسمى قيساً ، وكأنما بعد لنا ذكرى قيس
بحنون ليل ، وهو يكثر من الحديث عن ديار صاحبة ومعاهدنا من مثل قوله :

قَبَا صَاحِبِي قَلِيلاً عَابَا وَلَا تُعْجَلَانِي يَا صَاحِبِيَا
وَعُوجَا عَلَى طَلَلٍ دَائِرٍ لِرِّيَا وَأَيْنَ مِنَ الْعَيْنِ رِيَا
مَعَاهِدُ لَمْ يَبْقَ صَرَفُ الزَّمَا نَ مِنْهَا وَمَتَى إِلَّا شَوِيَا

« وشوياً » تصغير شيء بمعنى بقية قليلة ، بالضبط كما تستعملها في عاميتنا المصرية ، وكأن لها
أصلاً صحيحاً في العربية ، والآيات تفيض بالوجد والحنين . وترجم الباهرزى لشاعر شياني

من مدّاح نظام الملك الوزير السلجوقي ولشاعر من بنى عجل من شيبان من مدّاحه أيضاً ،
ويبدأ مدحته فيه بوصف الخمر . ويتبعها الباخريزي بثلاثة من الشعراء النجديين ، ويقف
وقفة طويلة عند شاعر من الإمامة يسمى على بن الأزهر ، ويقول : «عما سحر لبي من لب»
كلامه قوله :

ديارهم بالرفقتين سقيت سحاباً من الوسمى ثم وليت^(١)
وما لك في رى السحاب حاجة فقد طالما من مقلتي رويت
وكم قد سبتى فيك من ذات برقع بأحسن عين للمهاة وليت^(٢)
أيا بأبي الفوران طبت فيها وأرض من الفورين كنت وطيت^(٣)
وماء حلتبه وإن كان آجناً وروض رعت العشب فيه رعت

والصورة في البيت الثاني بديعة ، إذ ذكر ، بعد أن دعا للديار بالسقيا ، أنها ليست في حاجة
إلى رى السحاب فقد طالما رويت من مقلتيه ، وقد سبه صاحبه بعينها وصفحة جيدها .
ويذكر في البيت الرابع الفورين ، وهما موضعان بالإمامة كثيراً ما التقيا فيها ، ويهتف مقدما
الأرض التي وطنها قدماءها وكل مامرت به أو نزلت عنده من مياه ورياض . وفي البيت الخامس
يشع الكسرة في كلمة «حلتبه» فتند تاء التأنيث على نحو ما تمتد في عاميتا المصرية . والكلمات
محبوكة ، وكل بيت يستدعي ما يليه في سلامة وعذوبة ، ويستطيب الماء الذي حلت به وإن
كان آجناً متغيراً ، كما يستطيب الروض والعشب مع الدعاء لها ، ويقول الباخريزي :
«ما أحسن ما جمع بين قوله : «رعت العشب» على الإخبار «ورعت» على الدعاء» .
ويستعجل الشاعر الركب معه في السير ، وينشأ بينه وبين صاحبه حوار طريف على هذا
النمط :

فقلت لهم سبروا ولا تزروحو فليس لنا وادي القضا بميت
فقلت : ولم أسبت نظوى بلادنا فقلت أمرتني غداة نهيت
وقد كنت لا ترضين منهم بما أرى من الضيم لي فاليوم كيف رضيت
وأقسمت أن لا تقبل قول كاشع كذوب فكم أقسمت ثم نسيت
والحوار مع صاحبه طبعي ، ولكل بيت رفته وعذوبته ودقته ، فلم يعد الغضائبيتاً صالحاً
لها ، وقد أمرته بالمسير غداة نهته ، ولم تكن ترضى له بالضيم والموان فرضيت ، وكم أقسمت
له وعاهدته أن لا تقبل فيه قول كاشع كاذب ، ولم يقل لها - كما لاحظ الباخريزي - نقضت

(١) الرقة : جانب الوادي والروضة . الوسمى : أول (٢) اللب : صفحة العلق .
(٣) طبت : ألت . وطيت : سرت فيها . مطر الريح .

المعهد وحثت في يمينك ، بل قال لها متلفظاً : نسيت القسم والمعهد بل الأقسام والمعهود . وهو لطف ورقة حسنٌ ما بعدها رقة ، وترجم الباخريزى بعده لشاعر بدوى نجدى يسمى على بن حسان ، ويشد له قوله :

سَقِيًّا لِأَيَّامِ التَّصَابِي مع كُلِّ خَرَجَةٍ كَمَا ب^(١)
إِذْ نَحْنُ تَرْتَعُ فِي الْهَوَى وَنَجْرُ أُرْدِيَةِ الشَّبَابِ
وَالدَّهْرُ عَنَا غَافِلٌ كَالسَّيْفِ يَوْمُنُ فِي الْقِرَابِ

والآيات سلسلة سائفة . والصور والأخيلة فيها طريفة ، وخاصة الصورة الأخيرة التى صور فيها الدهر وكأنه سيف احتواه غمده ، فلم يعد يخيفهم ولا يرهيبهم ، فالسيف فى غمده ، والدهر يهيموه يغشاه حجاب من الغفلة إلى حين . ويشد له الباخريزى من قصيدة قافية :

وَحَقُّ لِي وَجَدِي عَلَى شَادِنٍ أَدَقُّ جِنْسِي مِنْهُ خَصَرٌ دَقِيقٌ
وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ فِي خَدِّهِ أَنَّ لَيْسَ فِي الْحَسَنِ لِهَذَا رَفِيقٌ
فَكَلِمًا عَزَبْنِي هَجْرَةٌ صَحَتْ مِنَ الرَّجْدِ الْحَرِيقِ الْحَرِيقِ

فخصر الشادن الدقيق أنحل جسمه ، وكأنما أعداه نحولاً بضئى ، وما أجمل البيت الثانى الذى جعل فيه من الخد شاهداً يشهد بحسنه وجماله بل بتفوقه على كل حسن وجمال . والحب يكوى فؤاده ويلذعه ، وكأنه جمرات نار يصل بها قلبه بل يحترق ، وهو يتادى ، الحريق الحريق . وترجم الباخريزى بعده لشاعر أسدى من شعراء المديح ولغنية بدوية تسمى أم كلثوم . وإنما أطلنا عرض شعراء البدو فى الدفعة لأنها تكاد تكون المصدر الوحيد لشعراء نجد عامة فى الحقب الأولى من هذا العصر ، فلولاها ما اتضح لنا شعر البدو فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ولا أن البوادرى كانت لا تزال تكتظ بالشعر والشعراء . ومن الغريب أن العماد الأصمباني وزير صلاح الدين الأيوبي وشاعره الذى عُني مثل الباخريزى بالترجمة لشعر العالم العربى جميعه لم يمن بشعراء نجد ولا أفرد لهم صحفاً فى خبريته إلا ما ذكره عن شعراء عُقَيْل أصحاب إمارة الموصل وبواديه ، أودعهم فى قسم الشام والجزيرة ، وكذلك ما ذكره من شعراء بنى مزيد الأسديين أصحاب الحلة وبواديها أودعهم قسم العراق ، وبالمثل أودع شعراء الحجاز واليمن فى القسم الخاص بالشام ، أو قل ألحقهم به ، ولم يمن أى عناية بشعراء عُمان والبحرين . وكتابه يُعدُّ المصدر العام الثانى بعد الدمية لشعراء الجزيرة العربية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين . وقد صنفه فى مطالع العقد الثامن من القرن السادس ، وهو يصرِّح بذلك مراراً فى تضاعيفه .

ولم يذكر العادلي بن عُمَيْل أصحاب الموصل وبوادي الجزيرة سوى مسلم^(١) بن قريش ابن أخي قرواش الذي مر ذكره ، وهو أعظم أمراء هذه الأسرة سلطاناً ، إذ كان يستولى على ديار ربيعة ومضر في نجد . وملك حلب من بني مرداس ، وبذلك قضى على إمارتهم فيها نهائياً ، وأخذ الإتاوة من الروم . وكانت سيرته منذ ولى سنة ٤٥٣ من أحسن السير وأعدلها ، وعمّ الأمن دياره ، وكان بصرف الجزيرة في جميع بلاده إلى الطالبين من أبناء علي بن أبي طالب . وكان هو وأهله شيعة إسماعيلية على مذهب الفاطميين ، وبما يدل على ذلك أن قرواشاً عمه خطب في بلاده للحاكم صاحب مصر ، كما يقول المؤرخون ، ثم رجع عن ذلك خوفاً من حُكّام بغداد السلاجقة . وعُنِيَ هو وأفراد أسرته بنثر الأموال على الشعراء فأتوهم من بغداد وغير بغداد . وكان مسلم يحرل العطايا للشعراء ، وحين قصده ابن حيّوس شاعر الشام وأنشده مدائح في بالغ في إكرامه . ويقول العاد الأصبهاني إنه أقطعته الموصل ، غير أن ابن حيّوس لم يلبث أن توفى ، وخلف أكثر من عشرة آلاف دينار ، فحمل ذلك إلى خزنة مسلم فردّه ، وقال : لا يتحدّث الناس عنى أنني أعطيت شاعراً مالاً ، ثم شرعت فيه وأخذته ، ويروى أنه لما ملك حلب هجاء بعض شعرائها ، فسأل عنه ، فقيل له : إنه من أهل قرية المعرة رعينك ، فقال : أوصوا به الوالى ليحسن إليه ، وحذّروه أن يحنى عليه ، فهذا لا يعرفنا ، ولو لم تكن له شكاية من والينا ما قال هذا القول^(٢) . وفي ذلك ما يدل على حصافته وبعد نظره وحسن سياسته وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر ورصفه ، وله مكاتبات شعرية مع منصور بن دُبَيْس المزيدي أمير بوادي الحلة وأنشد له العاد إحدى هذه المكاتبات ، كما أنشد له شعراً شيعياً ، أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات شيعية . ويروى له^(٣) :

وما كنتُ مِجْزَاعُ الفُؤَادِ وإنما قَوَادِي عَلَى يَتَنِ الحَيْبِ جَزُوعُ
وكانتُ سَلِيمِي لِلْمَحِينِ رَوْضَةً وَوَصَلْتُ سَلِيمِي رَوْضَةً وَرِيمُ

والصورة في البيت الثاني بدعية وتدلّ على شاعرية جيدة . وكان طموحاً كريم النفس يطلب العلا مهما يكن مطلبها باهظاً ، وله في ذلك مهوؤاً من أهل عصره ومصرّفاً :
وإني لأَحْقِرُ هذا الزمانَ ولا سيما أهل هذا الزمانَ
يريدون كَيْلَ العلا بالتمنى وتَيْلُ الثُلَا برغيبِ الثمنِ
وكانت وقفة العاد عند بني مزيد الأسديين أكثر طولاً ، وأول من ترجم له منهم بهاء الدولة

(١) انظر في ترجمة مسلم الحريدة (قسم الشام) (٢) الحريدة قسم الشام ١٢٨/٢ .

٢٥٥/٢ وابن خلكان ٢٦٧/٥ والنجوم الزاهرة (٣) انظر في هذين البيتين وما بعدهما هامش الحريدة في ترجمة مسلم فلا جن الواقع للصفي . ١١٩/٥ .

منصور^(١) بن دُبَيْس الذى خلف أباه على رياسة القبيلة سنة ٤٧٤ وكان إسماعيلياً رافضياً مثل آبائه ، وله - كما ذكرنا آنفاً - مكاتبات شعرية مع مسلم بن قريش صاحب الموصل وبواديه ، وظل على رياسة قبيلته الأسدية حتى توفى سنة ٤٧٩ وبعث هو وأبوه دبيس نشاطاً أدبياً في بيئتهما ، فقصدهما الشعراء بالمديح . وكان منصور يحيد الشعر وله في رثاء صاحب له يَكْنَى أبا مالك :

فَإِنْ كَانَ لَوْدَى خَدْنَا وَنَدِيمَنَا أَبُو مَالِكٍ فَالْثَابِتُ تَنْوِبُ
وَكُلُّ ابْنِ أُنْتَى لَا مَحَالَةَ مَيِّتُ وَفِي كُلِّ خَىٍّ لِلْمُنُونِ نَصِيبُ
وَلَوْ رَدُّ حَزْنُ أَوْبِكَاءَ لَهَالِكُ بِكِبَاهِ مَا هَبْتُ صَبَاً وَجَنُوبُ

وله فخر جيد . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة^(٢) ، وهو الذى بنى مدينة الحلة لقبيلته ، كى تنتقل من حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، وفيه يقول العباد : « كان جليل القدر ، جميل الذكر . له دار الضيافة التى يفتق عليها الأموال الألوف . المعروف بإسداء المعروف ، وإغاثة لللهوف ، وقد قصده الشعراء من كل فج ، وله قدم ابن الهبارية - كما مر بنا - كتابه الصادح والبالغم ، الذى نظمته في عشرين سنوات على غرار كيلة ودمنة . ونازل محمد بن ملكشاه السلجوق سنة ٥٠١ وقتل في المعركة ، ولا سمع نظام الملك وزير السلجوقيين في الرى خبر موته قال : مات أجل صاحب عمامة . وكان فارساً شجاعاً عادلاً في رعيته ، كما كان محسناً للآداب حافظاً لأشعار الجاهليين والإسلاميين والعباسيين . ويقول العباد : كان يقبل على الشعراء ، ويمدهم بحسن الإصغاء وجزيل العطاء ، وكان يرتب لهم سنوياً مكافآت ، كل حسب طبقة . واستطاع ابنه دُبَيْس^(٣) أبو الأغر سيف الدولة أن يلم شتات إمارته ، غير أنه خرج على المسترشد مراراً وتفرق عنه جنده تكراراً إلى أن قتله السلطان المسعودى السلجوقى صبراً سنة ٥٢٩ وهو الذى يشير إليه الحريرى - كما مر بنا - في مقامته « العمانية » واصفاً كيف أقبل الناس يشنون على أبى زيد ، حين سمعوا فصاحته ، يقول : « حتى كأنه الأسدى دُبَيْس » في إقبال الناس وتزاحمهم على رؤيته لشجاعته ، وكان شاعراً ، وأنشد له العباد محاورات شعرية مع أخيه بدران وكان ينشد :

حُبُّ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلنَّاسِ مِقْيَاسٌ وَمِغْيَاؤُ
يُخْرِجُ مَا فِي أَصْلِهِمْ مِثْلًا تُخْرِجُ غِشَّ الذَّهَبِ النَّارُ

(١) ترجمته في الخريدة (قسم العراق) ١٥٧/١/٤ . ١٩٦/٥ .

وابن خلكان ٤٩١/٢ والنجوم الزاهرة ١٢٢/٥ . (٣) راجع في الخريدة ١٧٠/١/٤ والنظم ١٠/١٠ .

(٢) انظر في صدقة بن منصور الخريدة (قسم العراق) وابن خلكان ١٦٣/١/٤ والنجوم الزاهرة ٢٩٣/٢ . ٢٥٦/٥ .

وابن خلكان ٤٩٠/٢ والنجوم الزاهرة

ولم يستقم لآل يزيد بعد تيسر سلطان ، وأبدلت العزة بالذلة ، كما يقول العماد . وترجم لأخيه بدران (١) ، ويقول إنه تغرب عن الحلة ، وقصد الشام ثم توجه إلى مصر وبها توفى سنة ٥٣٠ وروى له العماد أشعاراً يحنُّ فيها إلى الحلة باكياً مجد آبائه ، وأخرى غزلية ، أوشعية ، أويديب فيها بعض أمانيه الضائعة من مثل قوله :

لا والذي قصد الحبيب على بُرْلٍ وما يَقْطَعْنَ من جَدَدٍ (٢)
لا كنتُ بالراضى بمنقصة يوماً وإلا لستُ من أسدٍ
لأَقْلَنْ العيسَ داميةً الـ أخفاف من بلدٍ إلى بلدٍ (٣)

ولم يستطع أن يبعث الإبل ولا غير الإبل لرد إمارته . ولا يلقانا بعده شاعر لبني يزيد في الحلة ، وأغلب الظن أن قبيلة بني أسد عادت أو عاد معظمها إلى البوادي ، وكأنما كان ذلك كله دوراً نهضت به وانتهى بانتهاء بني يزيد وانتقاض سلطانهم .

وترجم العماد لشعراء الحجاز وتامة ويريد بها مكة ، إذ يطلق عليها اسم تامة أحياناً ، وأول من يترجم لهم شكر بن أبي الفتح ، وقد مرّت بنا ترجمته عند الباخريزي . وتلاه بترجمة الجعفر (٤) بن محمد بن إساعيل الحسني ، وقال إنه كان عارفاً بالنحو واللغة ، شاعراً يمدح الأكابر طلباً لرغبتهم وعطائهم ، وقال نقلاً عن السمعاني إنه كانت في رأسه دعاوى عريضة خارجة عن الحد ، لا يرى أحداً في علم اللغة فوقه . رحل من الحجاز إلى العراق ، ثم دخل خراسان وأقام بها ، ثم عاد إلى بغداد وألّف بواسط والبصرة في سنة ثيف وثلاثين وخمسمائة على عزم للسمر إلى بلاد فارس ، وأنشد له العماد قطعتين : حاثية ولامية ، ومن قوله في أولاهما :

أما لظلام ليلى من صباح أما للنجم فيه من براح
كان الأفق سُدَّ فليس يَرَجَى له نَهْجٌ إلى كل النواحي
كان الصبح منقً طريدُ كان الليل بات صريح راح

ويتلوه العماد بأبي عبد الله (٥) محمد بن إبراهيم الأسدي الحجازي ، ويقول إن مولده بمكة ومنشأه بالحجاز ، وإنه لقي أبا الحسن التهامي شاعر مكة المشهور في صباه ، ويبدو أنه عُمّر طويلاً ، إذ يقال إنه ولد سنة ٤٠١ وتوفى سنة ٥٠٠ وقد رحل إلى العراق واتصلت رحلاته إلى غزته ، وينسب له البيتان المشهوران :

(١) الحريدة ١٧٧/١/٤ وابن خلكان ٢٦٤/٢ . والقند العين ٤٢٨/٣ وإنباه الرواة للقفطي ٢٦٦/١ .

(٢) البزل : جمع بازل وهو البعير القوى المتين ، (٥) انظر في الحريدة (قسم الشام) ٢٣/٣ والوافي

والجديد : الأرض المنوية . بالولبات للصفدي ٣٥٦/١ والقند العين ٣٩٨/٣

(٣) العيس : الإبل . والمتظم لابن الجوزي ١٥٣/٩ .

(٤) انظر ترجمته في الحريدة (قسم الشام) ٢٠/٣ .

قلت : ثَقُلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مَرَارًا قال : ثَقُلْتُ كَاهِلُ بِالْأَبَادِي
 قلت : طَوَّلْتُ قَالَ : لَا بِلْ طَوَّلْتُ ست . وَأَبْرَمْتُ قَالَ : حَبْلُ الْوِدَادِ
 وتتداول اليتيم كتب البلاغة . إذ بصوران لوناً من ألوان البديع وهو القول بالموجب .
 وهو توجيه الكلام في الحوار وجهة طريفة . تنفي ظاهره المراد . ويترجم المهاد عقبه لشاعر
 يسمى أبابكر^(١) محمد بن عتيق السَّوَارِقِي الذي توفي بطوس سنة ٥٣٨ . وأنشد له المهاد
 أشعاراً منها قوله :

أَبَا سَاكِنِي نَجِدْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرْجُو إِيَابَا إِلَيْكُمْ
 وَإِنْ كَانَ جَسْمِي فِي خُرَاسَانَ ثَاوِيًا فَقَلْبِي بِنَجْدٍ لَا يَزَالُ لَدَيْكُمْ
 ويترجم المهاد بعده لشاعر من خُدَّامِ سُلَّةِ المصطفى ﷺ يسمى كافوراً النَبَوِي . ويقول إنه
 رحل أيضاً عن المدينة ، وأوغل في رحلته حتى بُخَارَى ، وينشد له المهاد بعض شعره ، ثم
 يترجم لشريف سَلْيَانِي هو عَلِيُّ^(٢) بن عيسى كان أبوه عيسى أميراً على الخلاف السلياني
 وقتله أخوه أَبُو غَانَمٍ يَحْيَى ، فقرأ ابنه على إلى مكة ، وظل فيها إلى وفاته سنة ٥٥٦ يقول
 المهاد : « وله تصانيف مفيدة وقرمحة في النظم والنثر مجيدة » ويقول القفطى : « لما نزل
 الزعفراني مكة وجد بها الشريف علي بن عيسى بن حمزة الحسني فعرف قدره ، ورفع أمره
 وتلمذ عليه ، ونشطه لتصنيف ما صنف ، وقد ألف له تفسيره الكشاف المشهور ، وفيه
 يقول على مادحاً ومثوفاً :

جَمِيعُ قَرَى الدُّنْيَا سِوَى الْقَرْيَةِ الَّتِي تَبَوَّأَهَا دَارًا فِدَاءً زَمَخْشَرًا
 وَأَخِرَ بِأَنْ تَزْهَى زَعْمَشَرٌ بِأَمْرِي إِذَا عُدْتُ فِي أَسَدِ الشَّرَى زَمَخَ الشَّرَا^(٣)
 وينشد له المهاد طائفة من أشعاره تدل على شاعرية خصبة وأنه كان يملك زمام اللغة
 ويعرف أساليبها السوية الموقنة ، وله أبيات فخر كثيرة تصور عزة نفسه وإباهه الضمير
 ومروته ، ومن قوله في رثاء بعض آباءه :

غَاضَ النَّيْمُ الْمَذْبُوبُ يَا وَارِدًا وَحَالَ عَنْ عَهْدِكَ ذَاكَ الزَّلَالُ
 ويترجم المهاد عقبه لابن عم له يسمى دَهْمَش^(٤) بن وَهَّاس ، يظهر أنه فارق الخلاف
 السلياني مثله وأقام بمكة ، فترجم له المهاد بين أبنائها ، ويقول إنه وفد على صلاح الدين في

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٦/٣ .
 (٢) راجع ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٣٢/٣ .
 (٣) والقديمان ٢١٧/٦ . ومادة زعمش في معجم البلدان
 (٤) الشري : مأسدة . زمخ : زرع عليها وتكم .
 (٥) راجع في الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٣ . والقديمان
 (٦) ٣٦١/٤ .

ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ، وهو على باب حلب ، ثم يملوه بآبن الریحاني (١) على
بن الحسن المكي الذي وفد على صلاح الدين في سنة سبعين ، ويذكر له قطعة في مدح أمير
المدينة قاسم الحسيني ، وفيه يقول :

سماً بكرام من ذؤابة هاشم غطاريف صبيد ماجدين جحاجيع
ويلقانا بعد ذلك في مكة القائد سالم بن أبي سليمان ، وهو مغربي الأصل ، وينشد له الهاد
قصيدة في المديح لعيسى بن فكيمة أمير مكة ، ترخر بالعقيدة الزيدية ، وسنعرض لها في موضع
آخر ، حين نتحدث في الفصل التالي عن شعر العقيدة الزيدية . ويتنقل الهاد من شعراء الحجاز إلى
شعراء اليمن ، وترجم لأكثر من أربعين شاعراً منهم ، وهم بصورون ما بثت دولات اليمن من
نهضة شعرية في بلدانها ، وكان كثير من أمراء هذه الدولات شاعراً ، وترجم الهاد لأربعة
منهم ، هم علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية ، وجياش أمير آل نجاح حكام
زبيد ومحاتم بن أحمد الحمداني أمير صنعاء والمهدي بن علي بن مهدي أمير زبيد الذي قضى
على دولة آل نجاح . ومربنا حديث عن الصليحي عند الباخريزي ، وكان جياش شاعراً
مجيداً ، ويروى أن ابن القيم شاعر اليمن في عصره أرسل إليه عاتياً (٢) .

يأبها الملك الذي خرت له غلبُ للملك نواكس الأذنان
أترى الذي وسع الخلائق كلها يابن النصير بضيق عن إنسان
فأجابه جياش :

لا ، والذي أرسى الجبال قواعداً ذي القوة الباقي ، وكلُّ قانٍ
ما إن يضيق برحمتنا لك متزلُّ ولو أنه في باطن الأجفانِ
ويشيد الشعراء طويلاً بما كان يصلهم من عطايا الأمراء وأضرابهم من مثل أمراء بني
زُريع والأمراء الزيديين وأنتمهم . ومن ترجم له الهاد من شعراء الصليحيين ابن القيم وعارة
البنمي وسنخصص كلا منها بكلمة في حديثنا عن شعراء الإسماعيلية . وبالمثل ترجم لشاعر
إسماعيلي ثالث من شعراء الصليحيين هو عمرو بن يحيى الميشي شاعر الداعي علي بن محمد
الصليحي . ومعروف أن آل زُريع حكام عدن خلقوا الصليحيين حين انتهت دولتهم بموت
للملكة الحرة أروى سنة ٥٣٢ هـ وصارت إليهم حصونهم ومعاقلهم وأموالهم ، كما صاروا هم
القائمين على الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، وترجم الهاد لشاعرهم أبي بكر العيذي وسنخصصه
بكلمة بين شعراء المديح . وشعراء زبيد ودولة آل نجاح كثيرون ، وعلى رأسهم جياش كما

(١) انظره في الحريدة (قسم الشام) ٣٢/٣ والعقد (٢) الحريدة (قسم الشام) ٢٢٤/٣ .

أسلفنا ، وله فضل تخليد أسماهم في كتابه «الفيد في أخبار زبيدة» والكتاب مفقود ، غير أن حارة اليمن كتب له مختصراً كما مرّ بنا وهو الذي رجع إليه العماد في الترجمة لجمهور شعراء اليمن ، وأول شاعر بارع بلفغانا منهم زكري^(١) بن شكيل وله مدائح بديعة في جياش ، ويستهل إحداها بوصف طريف للخمر والمرأة الفاتنة ، وفيه يقول :

اسْتَفْنَى الرَّاحُ إِنَّمَا تَجْلِبُ الرُّوحَ وَرِعَانَهَا إِلَى الْأُرُوحِ
بَزَلُهَا فَاغْتَدَّ مِنْهَا لَجُوءُ اللَّهِ حَيْلُ نُوْرٍ اغْنَى عَنِ الْمَصْبَاحِ^(٢)
مَا يُزِيلُ الْمَحْمُومَ مِثْلُ اصْطِبَاحٍ فِي صَبَاحٍ لَدَى وَجُوهِ صِبَاحٍ
إِذْ تَرَى الدَّبِكَ كَالْبَعِيرِ ، وَكَالْأَزْوَاجِ مِنَ السَّمَوَاتِ ، أَوْ قَانِكَ صَاحٍ
وَأَزْوَاجِ عَيْنِكَ فِي عَيُونٍ مِنَ الزُّهْرِ بِرِجْلَاهَا نُوْرٌ كَنُورِ الْأَقَاحِي
تَفْتَاها نَقْلَى وَمَاءُ ثَنَابَا هَا عَفَارِي وَخَدَّهَا تَفَاحِي^(٣)
هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ وَمَا عَنْ نَيْمِهَا مِنْ بَرَّاحٍ

والآيات تسيل عذوبة ورشاقة وخفة وتكاد تطير عن الأفواه طيراناً ، والألفاظ تتداخل فيما بينها تداخل أفراد الأسرة المتشابهين في الرحم ، وما أجمل الجناس بين الاصطباح والصباح بفتح الصاد والصباح بكسرها أى الوجوه المشرقة المضيئة . وصور خدر الخنزير في البيت الرابع تصويراً جيداً ، وأحكم مراعاة النظير في البيتين الخامس والسادس ، إذ قرن العيون والثغر إلى الزهر ونور الأقاحي ، كما قرن الشفاه والرصاب والخلدود إلى الثقل من الفستق وغيره والخمر والتفاح ، وسمى ذلك كله الجنة ، مبعداً في الخيال . ويلقانا بعده من شعراء آل نجاح القاضي العماني^(٤) ، وله في الصليحي حين فتك به سعيد بن نجاح هجاء مرير ، وساق له العماد خمريتين ، يتاجن فيها ، أما الأولى فيقول إنه شرب حتى حسب المهر أربنا ، وأما الثانية فيستوفى فيها ما سبقه إليه أبو نواس من فكرة العفو الإلهي عن الكبائر كما كان يزعم ذلك المرجئة ، يقول متاجناً :

قَمِ فَاسْتَفْنَى بِالْكَأْسِ مِنْ تِلْكَ النَّقَى أَهْلُ النَّهَى فِي وَصْفِهَا قَدْ حَارُوا
وَأَشْرَبْتُ وَلَا يَلْحَقُكَ خَوْفٌ عَقُوبَةٍ فِيهَا قَرَبٌ جَسَابِهَا غَفَّارٌ

ويترجم العماد لإسماعيل بن البوقا وزير جياش ، وأهم من ترجمته ترجماته لبني أبي عقامة قصاصة زبيد في عهد آل نجاح ، وفي مقدمتهم القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي عقامة

(١) الحريدة (قسم الشام) ٢١٨/٣ .

(٢) انظر الحريدة (قسم الشام) ٢٣١/٣ ولعله

(٢) بزل الدن : تقيبه .

(٣) العفار : الخمر . النقل : ما وافق الشراب من الشريف العماني المذكور في طبقات شعراء اليمن ص ١٧٧

الحفائلى^(١) الذى قتله على بن مهدي حين دانت له زبيد سنة ٥٥٤ وينشد له الهامد أشعاراً رائعة ، منها قوله فى مديح قوم راحلين :

للمجد عنكم روايات وأخبار ولللأل نحوم حجاج وأوطار
نشأتكم . كل أرض تزلون بها كأنكم لبقاع الأرض أمطار
فحيث كنتم ففتر الروض مبسم وأين سيزم فدمع الزمن مذرار
لله قوم إذا حلوا بمتزلة حلّ التذى وسير الجود إن ساروا
لا يتعجب الناس منكم فى مسيركم كذلك الفلك العلوى دوار
والبدن مذ صيغ لا يرضى بمتزلة فيها يجيم فهو الدهر سيار

وهو مديح رائع ، فالجد لا يزال يروى أخبارهم ، ولا يزال للاملا منهم أمانى موصولة ، وكل أرض تشأفهم وتلهف عليهم ، كأنهم غيث جذبا الممحل ، وكل مكان يتزلون بصبح روضاً مشرقاً ، وكلما ساروا عن مكان بكاهم الناس بدمع هتون ، بكوا شأفهم وكرمهم الذى يتبعهم أبنا حلوا وساروا . وتصوره فى البيت الأخرين لهم فى رحيلهم بالفلك الدوار والبدن السيار تصوير دقيق يارع . ومن شعره فى الحداثة قوله يصف روضة :

وروضة مارأى الراون مشبهها كأنما سرقت سيرا من الزمن
غيم وظل وروض موتق وهوى يجرى من الروح مجرى الروح فى البدن
غنت بها الطير ألحانا وساعدها رقص الغصون على إيقاعها الحسن
لقد سكرت وما الصهاء دائرة فيها ولا نغفات العود فى أذن

وتصوير فنته بالروضة تصوير جيد ، فقد تصور كأنها سرقت من الزمن سرا دون أن يدري لما يرى فيها من اجتماع جمال الطبيعة وجمال صاحبة التى تأسر له ، وينخيل الروض كله من حوله بتغنى ويرقص ، تغنى فيه الطير وترقص الأغصان على ألحانها متعانة مرة ومنفرجة مرة ، وهو مسلوب الحس فنة وجالاً ، حتى لكأنما هو فى مشهد غناء ورقص حقيق . وكل شىء من حوله يأخذ بعقله . ويترجم الهامد لابن مكرمان ، وهو شاعر زيدى ، سنعرض له فى حديثنا عن الدعوة الزيدية وشعرائها ، كما يترجم لشاعر خارجى من شعراء على بن مهدي هو ابن الهيثبى ، وسلم به فى حديثنا عن شعراء الخوارج ، ويترجم أيضاً لشوان بن سعيد وشعره يكتظ بفخر عفيف بأصوله اليمنية ، وستحدث عنه بين شعراء الفخر والمجاء . ووراء من سميناهم من شعراء اليمن فى الخريدة كثيرون لم نعرض لهم ، لأن شعرهم متوسط

(١) راجع فى ترجمة محمد بن أبى حفصة القرينة والنجم الزاهرة ٣٣٠/٥ .

(قسم الشام) ٢٤٠/٣ . وطلقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠

أودون المتوسط . ولعل القارئ لاحظ أننا اكتفينا بالخريدة عن عرض المختصر في أخبار زبيد لعمارة اليمنى الذى أشرنا إليه آنفاً ، لأن الخريدة تستغرقه .

ونترك العماد ومصدره العام أو خريدته عن اليمن والحجاز وشعرائها حتى منتصف القرن السادس الهجرى ، وبعد ذلك فالحجاز أهم مصدر له من منتصف هذا القرن حتى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى وبه شعراء من جاوروا بمكة كثيرون ، وبه مكِّيون ، ولدوا فى مكة ونشأوا بها واستيقظت مواهبهم الشعرية فيها ، وأكثر أشعارهم مدائح زيدية فى حكام مكة وأمرائها الزيديين . وتكثر المدائح النبوية فى هذا الكتاب سواء لشعراء مكة أو لمن نزلوها وأنفقوا بقية حياتهم فيها أو فى المدينة ، ولهم غزل رقيق نحس فيه نفحات الوجد الصوفى . ولى هذا المصدر فى الأهمية من الترجمة لشعراء الحجاز كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم فى مكة لأكثر من ثلاثين شاعراً من شعراء القرن العاشر والحادى عشر الهجريين ، وأكثر أشعارهم مدائح لأمراء مكة ، وكثير منها معارضة لقصائد الشعراء السابقين التابعين ويلاحظ ذلك ابن معصوم فى غير موضع من كتابه ، كما يلاحظ كثرة تصنعهم لألوان البديع والتعبير عن التواريخ . وتكثر فى أشعارهم المدائح النبوية (والمناجيات) الإلهية . ومثلهم شعراء المدينة الذين ترجم لهم ابن معصوم ، وهم أربعة عشر شاعراً ونجد عندهم الألوان الشعرية المتأخرة مثل الدوييت . وعلقانا بعض شعراء الحجاز فى كتاب رحمة الألباء للخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ وبه قسم عن مكة والمدينة ، وألف ذيل له المحبى سماه نفحة الرحمة ، وبه قسم عن نبغاء الحجاز وألف المحبى أيضاً كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وبه تراجم لبعض شعراء مكة والمدينة ومثله كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى وكتاب تاريخ الجبرى ، فقيها بعض تراجم لمكيين ومدنيين .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن بعد من ترجم لهم العماد فى خريدته وجدنا توران شاه الأيوبرى بفتحها سنة ٥٦٩ ويزيل منها الدويلات التى تحدثنا عنها آنفاً ، ويتحول شعراء اليمن إلى مديحه وفى مقلتهم أبو بكر العبدى شاعر دولة الزرعيين . ويتولاها بعده أمراء من أسرته ، لعل أهمهم الأمير المسعود بن الملك الكامل صاحب مصر ، وقد دخلها سنة ٦١٢ وكان يصحبه بعض الشعراء والأدباء وفى مقلتهم أبو الفناهم الشيزرى ، ولخزاته وباسمه ألف فى اليمن كتابه « جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام » وقد قسمه إلى أكثر من عشرة كتب ، ونظم كل كتاب ببعض أشعاره فى مديح المسعود . وكان قد حج الأمير المسعود فى سنة ٦٢٥ وأناب عنه عمر بن على بن رسول ، وتوفى بمكة ، فانتبه الفرصة وعمر واستقل باليمن وأسس فيها دولة بنى رسول التى ظل

لواؤها مرفوعاً على اليمن من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨ وقد أُرُخ على بن الحسن الخزرجي تاريخاً بديعاً لهذه الدولة من منشئها إلى سنة ٨٠٣ وهي السنة التي توفي فيها السلطان الأشرف ، وتاريخه في مجلدين ، وهو كما قلنا في غير هذا الموضع تاريخ حضارى وسياسى وأدبى ، إذ عُنِيَ بوصف احتفالات الرسولين وبأحداثهم ووقائعهم الحربية وما نُظِم فيها من أشعار ، ويذكر مع كل سلطان شعراءه وتهنئتهم له بالجلوس على أريكة الحكم وبالأعياد الإسلامية وبانتصاراته على أعدائه ، فعمربن على بن رسول الذى تلقب بالملك المتصور معه شاعره محمد بن حمير الذى لم يكن يترك مناسبة إلا ويقدم له فيها مدائحهم ، ومع ابنه المظفر شعراؤه : ابن حمير وابن هُتَيْمَل وأضرابها ، وبالمثل من خلفها من السلاطين . ويلقانا بعد الخزرجى وكتابه العقود الثلوثية في تاريخ الدولة الرسولية ابن الدَّبِيع وكتابه قرّة العيون ، وفيه حديث مفصل عن دولة آل طاهر وشعرائهم ، وقد ظلت من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٢٢ وكان زوالها على يد الجراكسة جنود قانصوه الغورى ، على نحو ما مرّ بنا في الفصل الأول ، فقد نازلوا آخر سلاطينها عامراً وقتلوه وقتلوا أخاه ، وفي رثائهما يقول عبد الرحمن الدَّبِيع :

أخلاقى ضاع الدين من بعد عامر وبعد أخيه أعدل الناس بالناس
ويتزها العثمانيون سنة ٩٤٥ ويظنون بها نحو قرن. ويتحول اليمن إلى الرُسَيْن أصحاب
صَعْدَة ، ويتزها العثمانيون ثانية سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م ويظنون بها حتى سنة ١٣٣٦ هـ /
١٩١٧ م . وكل المصادر العامة التي ذكرناها للشعراء في الحجاز تفرد فصولاً طويلة لشعراء
اليمن ، ومرّ بنا ذكر كتاب «نسمة السحر فيمن تشيع وشعره» وهو كتاب نفيس غير أنه لم
يطبع . ومن الكتب التي تحمل معلومات قيمة عن الشعر والشعراء في اليمن كتاب سلافة
العصر لابن معصوم وكتاب نفحة الرحانة للمحجى وكتاب البدر الطالع للشوكاني وكتاب
نشر العرف لنبلأه اليمن بعد الألف حتى سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م لابن زبارة الصنعاني
وكتاب الخلاف السلياني لمحمد بن أحمد العقيلي ، وشعر الغناء الصنعاني لمحمد عبده غانم ،
غير الدواوين المطبوعة مثل ديوان ابن هُتَيْمَل وديوان البرعي وديوان مدائح إلمية لمحمد بن
إبراهيم الوزير وديوان الأمير الصنعاني محمد بن إسماعيل .

ولحضرموت نشاط شعري غزير . وقد استطاع السيد عبد الله السقاف أن يؤلف
كتاباً من ثلاثة أجزاء في تاريخ الشعراء الحضرميين ، وهو يشتمل من شعراء هذا العصر
الذى تؤرخ له على نحو مائة وعشرين شاعراً ، ويقول في مقدمته : «لا أكتم أن شعراء
حضرموت ليسوا في رتبة المجيدين من الشعراء ولا المقلين . . ولما كانت حضرموت تسودها
الروح الصوفية والترعة الفقهية فإنك ترى على شعرهم طلاء صوفيا ومسحة فقهية ، ومع هذا

الغلاء وتلك المسحة فإنهم لا يخرجون عن كونهم شعراء ، وإن لم يكونوا من المجيدين غالباً . ولعل السيد السقاف بالغ في حكمه حين جعله عاماً ، وما لا ريب فيه أن بين من ترجم لهم شعراء نابهين يمكن أن يُعدّوا في رتبة المجيدين ، مثل أبي بكر العيدروس وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس التصوفين ، ومثل عبد الصمد بن عبد الله باكثير وهو يعد من الشعراء الممتازين في الجزيرة العربية لهذا العصر بعامه وستترجم له بين شعراء المديح . ولم يترجم السيد عبد الله السقاف لأحد من شعراء المذهب الإباضي الخارجي في حضرموت ، ومن أهمهم أبو إسحق الهمداني وستترجم له في الحديث عن شعراء الإباضية .

ولم يكن للشعراء في عمان هذا النشاط جميعه الذي رأيناه في حضرموت ، ولكن لا ريب في أن الشعراء كانوا كثيرين في هذا الإقليم كثرتهم في الأقاليم الأخرى ، ومن يلقانا منهم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري أبو علي أبرزون الهجسي الملقب بالكافي العماني ، وقد ترجم له البخاريزي في دمية القصر (١) ، وأنشد طائفة جيدة من شعره ، ويذكر من ترجمته عن الفارسية قوله :

وصَحْرَاءُ رَدَّتْهَا الظُّبَاءُ حَقَائِرًا بِأَظْلَافِهَا أَحْبَبُ بِهَا مِنْ حَقَائِرِ
فَهَيْتُ رِيَّاحُ لِلصَّبَا فَلَانَهَا بِمِسْكٍ فَعَادَتْ نَزْهَةً لِلنَّوَاطِرِ

وقد عني نور الدين السالمي في كتابه تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان بعرض نماذج من أشعارهم على مر الحقب ، وخاصة الحقب الأخيرة من هذا العصر . وكان للخوارج في نزوى شعراؤهم وأيضاً للدول النسيئة حين كانت قاعة في عمان ومسقط شعراؤهم ، فقد شجع بنو مكرم وبنو نبهان الذين خلفوهم الشعراء ، واشتهر للأخيرين شاعر عني بمدحهم هو أحمد بن سعيد الخروصي السنالي وستترجم له بين شعراء المديح واشتهر من الأسرة نفسها بأنخرة من زمنها شاعر هوسليان النبهاني ، وستترجم له بين شعراء الفخر ، ومن شعراء الخوارج الهجسي شاعر الأمير سيف بن سلطان الإباضي (١١٠٤ - ١١٢٣) ومن الشعراء بين الأئمة الإباضية المتأخرين بلعرب بن سلطان الذي خلف الإمام السابق ، ومن شعره (٢) :

ولما بلوتُ الناسَ لم أرَ صاحباً أنا ثقةٌ في النابياتِ العظامِ

وتحولت مقاليد الحكم إلى أسرة البوسعيديين إذ خلصوها من أيدي اليعاربة سنة ١١٥٤ هـ وظلوا في دست الحكم إلى اليوم ، ومن أهم أئمتهم سعيد بن سلطان ، وكان شاعراً مجيداً ، وله يتنزل (٣) :

(١) دمية القصر ١/٩٨ .

الطيفي الجزائري ١/٩٣ .

(٢) تحفة الأعيان (طبع مطبعة الشباب) بناية إبراهيم (٣) الصفحة ١٦٦/٢ .

يا من هواه أعزّه وأذلّني كيف السيلُ إلى وصالك ذلّني
وتركتني حيرانَ صَبًا هائمًا أرعى النجوم وأنت في نومٍ مَمَيٍّ
عاهدتني أن لا تميلَ عن الهوى وحلفتَ لي يا عُصْنُ أن لا تنسى
جاذَ الزمانُ وأنت ما واصلتني يا باخلًا بالوصل أنت تقتلني
واصلتني حتى ملكتَ حُشاشني ورجعتَ من بعد الوصال هجرتني
لا ملكتَ قيادَ سِرِّي بالهوى وعلمتَ أني عاشقٌ لك خُشيتني

والأبيات جيدة والألفاظ فيها تتماق في خفة والمقابلات بارعة ، والصور دقيقة ، وقد أكمل صورة الغُصْنِ بانثائه كناية عن جفاء صاحبه وإقبالها على غيره . وهو يأسي لنفسه أنها هجرت بعد وصالها وبعد أن ملكت عليه شغاف قلبه ، وإنه ليتعثر في شباك حبها ، بينما انصرفت عنه إلى غير مآب ، وعلى هذا النحو كان الشعر ناشطاً في عهد البوسعيدين وبلغنا من شعرهم بأخرة من العصر أبو الصوفى سعيد بن مسلم .

وكانت البحرين تكتظ بالشعر والشعراء طوال حقب هذا العصر ، ومن أوائل من تلقاهم بها الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم الذي ولي أمر القرامطة سنة ٣٥٩ ومربنا حديث عنه وكيف أتمه حارب الفاطميين تحت أُلوية الخلافة العباسية ، وكان شاعراً مجيداً ، ومن شعره قوله :

إني امرؤ ليس من شائى ولا أدبى طَلُّ يَرِنُ ولا نائى ولا عودُ
ولا اعتكافُ على خَيْرٍ وَمَحْمَرٍ وذاتِ دَلٍّ لها بالدَّلِّ تَأْوِدُ^(١)

وتوفى بالرملة في فلسطين سنة ٣٦٦ وكان يتخذ أبا نصر^(٢) بن أبي الفتح كشاجم كاتباً بين يديه ، وكان شاعراً محسناً ، وأُنشد له الثعالبي في البيعة طائفة من أشعاره في الأطمعة وألوانها المختلفة لعصره ، ومن قوله في وصف كتاب :

وصاحب مؤنيس إذا حَضَرَ جالسني بـالمُلوكة والكُبرا
جسمٌ مَوَاتٌ تَحْيَا النفوسُ به يَجِلُّ معنى وإن دَنَا خطراً
أظَلُّ منه في مجلسِ حَقيلٍ بالناس طَرًّا ولا أرى بشرًا

وسرعان ما انتهى عصر القرامطة وخطفهم بنو الأصغر ، ولا يظنون طويلاً ، ويعقبهم بنو العيوني منذ سنة ٤٦٦ ويحصلون على النهوض بالبحرين علمياً وأديباً ، وتكون ثمرة ذلك ظهور شاعر نابه من الأسرة هو علي بن مقرب العيوني ، وسنترجم له بين شعراء المديح . ويخلف

(١) تأويد : انطلاف . وانظر في الأعصم وشعره ابن (٢) انظر ترجمته في البيعة ٢٨٥/١ .

الأثير (تحقيق إحسان عباس) ٦١٤/٨ وما بعدها .

العيونين - كما مر بنا - بنو عصفور وبنو جبر العقبليون ، وتظل النهضة الشعرية مستمرة ويستولى البرتغاليون بأخرة على البلاد في سنة ٩٢٧ ويخرجهم منها العثمانيون في سنة ٩٤٣ ويلقانا للبحرين غير شاعر في كتب التراجم الأدبية التي ذكرناها في حديثنا عن شعراء الحجاز ، وخاصة في «سلافة العصر» و«نفحة الريحانة» . ويسترجع بنو خالد البحرين من العثمانيين سنة ١٠٨١ ويظلون يحكمون الأحساء حتى يستولى عليها السعديون في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، ومن الكتب التي تصور نشاط الشعر بعد خروج العثمانيين من البحرين كتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلوي ، وقد أنشد شعراً كثيراً من منظومات لهم نغوية وفقهية . ومن الشعراء في أواخر العصر على نقي الأحسائي وهو شيعي إمامي وله ديوان مطبوع ومؤلفات مختلفة في العقيدة الإمامية .

٣

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح كثرة مفرطة في جميع أقاليم الجزيرة ، وقد عرض الباخريزي في دمية القصر طائفة من مدائح شعراء نجد في الوزير نظام الملك السلجوقي ، وكثرتهم إنما رحلوا إلى العراق وإيران طلباً للنوال ، وخاصة من هذا الوزير الذي غمر الشعراء بجوائز وعطاياه ، ولهذا بن دَفَعَم الشيباني من قصيدة في مديحه^(١) :

ما خلق الله تعالى وجلاً مثلَ وزيرِ الوزراء الأجلِّ
أروعُ كالنُصْل ولكنَّهُ أمضى من النُصْل إذا ما بُلِّ

وقد بحث بنو عقيل في الموصل وبواديها حركة أدبية ظلت مزدهرة طوال حكمهم ، مما جعل شعراء إقليمهم يديحون القصائد في مديحهم ، وقصدهم الشعراء من العراق والشام ، وفي مقدمتهم أبو علي بن الشبل البغدادي ماحد قرواش والمشيّد بنصره على الفرّ بمثل قوله^(٢) :

رَفَعْتَ أَرْضَكَ عَنْ قُبُورِ جُؤْجُؤِهِمْ فَفَدَتْ قُبُورَهُمْ بَطُونُ الْأَنْسَرِ

ومن شعراء قرواش الطاهر^(٣) الجزري . وكان مسلم بن قريش - ابن أخيه - ينثر الأموال نثراً على الشعراء فجاءه من كل فجّ وفي مقدمتهم ابن خيوس شاعر الشام ، وبلغ من إعجابه بمدائحهم فيه أن أقطعهم - فيما قيل - الموصل على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وله يقول من قصيدة طويلة^(٤) :

(١) دمية القصر ٦٠/١ .

(٢) انظره في دمية القصر ١٢٦/١ .

(٣) ابن خلكان ٢٦٣/٥ - ٢٦٤ .

(٤) خريدة القصر للهاد (قسم الشام) ٢٥٧/٢ .

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استجمعتَ بَقَى الزمانُ وذكرها لم يَهْرَمَ
 كرمًا يُسَبِّحُ حَمِيَّ الْغَنَى وَمَا زَا وَصَحًا يُسَبِّحُ بِلَاغَةً لِلْمُفْتَحِمْ
 ولم يكن بنو مزيد الأسديون في الحلة وبواديها أقل اهتماماً بالأدب والأدباء من بني عُقَيْل في
 الموصل وبواديها ، وكانوا قريين من بغداد ، فكثرت إلام الشعراء بدبارهم لأخذ جوائزهم ، غير
 من كانوا يَشْتَوْن بينهم وفي مقدمتهم علي ^(١) بن أفلح العبسي الشاعر ، ويقال إنه
 كتب بين يدي دُبَيْس بن مَزِيد في شبيبته . وكان ابنه منصور ممدحاً ، ومن ممدّحه
 البندنجي ^(٢) الشاعر البغدادي ، ومحمد ^(٣) بن خليفة أبو عبد الله السبسي ، وكان
 ابنه سيف الدولة صدقة مفزعةً للشعراء . وكان السبسي شاعره الأثير وله فيه مدائح مختلفة ،
 ومن ممدّحه أيضاً المطاميري ^(٤) وأبو طاهر ^(٥) البغدادي وأمين أبي الجبر ^(٦) . ومن زار الحلة عاصمة
 الزيديين ومدح أمراءها الأبيوردي الشاعر الإيراني المشهور . وبغمر نجداء وراء دولتي الزيديين
 والعقيلين الظل ، فلانكاد نشئت شيئاً من أخبار شعرائها ، حتى تلقانا دعوة محمد بن
 عبد الوهاب وأصدائها في الشعر والشعراء .

ومن يرجع إلى كتاب العقد اللين يجد مدائح كثيرة طوال هذا العصر موجهة إلى أمراء مكة
 والمدينة وبالمثل تلقاه هذه المدائح في سلافة العصر لابن معصوم و«نفحة الريحانة» وفي
 كتب التراجم المتأخرة ، وكانت الإمارة في مكة زيدية شيعية وفي المدينة إسماعيلية على
 الأقل في الحقب الأولى وسنفرّد لشعراء هاتين النحلتين في الجزيرة دراسة خاصة في الفصل
 التالي :

أما اليمن فقد نشط فيها الشعر طوال هذا العصر ، وكان لتنافس الإمارات والدويلات
 الكثيرة في أوائله أثر بعيد في ذلك ، فإن كل إمارة عملت على أن تجمع حولها الشعراء ليكونوا
 دعاء لها ، وفي سبيل هذه الغاية كانت تجزل لهم في العطاء ، وتلقانا فيه إمارة الزيديين في
 صنعاء ، وستحدث عن شعرائها في الفصل التالي . وبالمثل إمارة الصليحيين الإسماعيلية
 كان لها شعراء كثيرون سنعرض لهم في الفصل التالي أيضاً . وقل ذلك نفسه في إمارة بني
 مهدي الخوارج فستحدث عنهم مع الإباضية وشعرائهم . وربما كانت أهم إمارة عُتِيت
 بالشعر في القرن الخامس إمارة آل نجاح في زيد ، وكان جياش (٤٨٢ - ٤٩٨ هـ) أهم
 أمراء هذه الدولة وأكثرهم عناية بالشعراء حتى لقد صنف فيهم كتابه «المقيده» الذي مرّ بنا

(١) انظر في الخريدة القسم المرقق ٥٢/٢ .

(٢) الخريدة ، الجزء الرابع ، المجلد الأول ص ١٣٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٠٩ .

(٥) نفس المصدر ٥٢٥/٢/٤ .

(٦) الخريدة ، القسم المرقق ١٩٥/٢ .

ذكره ، ويدكر عمارة في المختصر الذي صنعه لهذا الكتاب أنه كان لجياش ديوان ضخمة
وعدة مجلدات تجمع نثرًا ونظمًا ، ومن أهم شعرائه زكري بن شكيل الماز ذكره ، وفيه
يقول من مدحة طويلة (١) :

المُشْتَرَى حَلَّلَ النَّاءَ بِمَا حَوَتْ كَفَّاهُ وَالْحَامِي لَهَا أَنْ تُشْتَرَى
والموقدُ الثَّارِينَ : نَارًا لِلزُّغَى لَا تَطْفِئُ أَبَدًا وَنَارًا لِلْقِرَا

وكان بنوزدفع في عدن مودعاً عذباً للشعراء ، وكانوا إسماعيلية ، وكان كل من تولى منهم يسمى
نفسه الداعي أي للمذهب الفاطمي ، ولذلك ستؤخر شعراءهم إلى حديثنا عن شعراء
المذهب الإسماعيلي في اليمن . وقد تحول كثير من شعراء اليمن إلى مديح الأيوبيين منذ استولى
توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ هـ على اليمن إلى أن تخلوا عنها وملكها قائدهم نور الدين عمر بن
علي بن رسول وأسس فيها الدولة الرسولية ، ومن طريف ما نقرأ لهؤلاء الشعراء قصيدة لأبي
بكر العياضي يمدح بها توران شاه حين فتح اليمن وفيها يقول (٢) .

أَعْسَاكَرًا سَيَّرْتَهَا وَجُنُودًا أَمْ أَنْجَمًا أَطْلَعْتَهُنَّ سَعُودًا
أَمْ تِلْكَ مَاضِيَةُ الْعِزَامِ أَزْهَقَتْ بِالرَّأْيِ مِنْكَ وَجُرِّدَتْ تَجْرِيدًا
أَمْ تِلْكَ أَعْدَاؤُ الْإِلَهِ وَنَصَرَهُ رَفَعَتْ عَلَيْكَ لَوَاهَا الْمُعْقُودَا

ومن أهم الحكام الأيوبيين هناك الملك المسعود ، وهو آخر من حكمها منهم ، وكان يصحبه
أمين الدولة أبو الفناهم الشيرازي وصنف له كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» كما مر ،
وهو متخبات شعرية ونثرية ، وكان شاعرًا . ويؤسس نور الدين عمر بن علي بن رسول منذ سنة
٦٢٦ دولة أسرته الرسولية ، ويبحث هو وأسرته في اليمن نهضة شعرية ، بجانب ما بعثوا من
النهضة العلمية على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ويكثر مادحوه من الشعراء في الأعياد وفي
المناسبات المختلفة حين يتصرف في بعض المعارك ، وحين يفضي إلى بعض مجالس أنه وشرا به ،
ولأبي الفناهم الشيرازي فيه مديح (٣) يدل على أنه عاش إلى ما بعد سنة ٦٢٣ وكان شاعره الأثير
عنده محمد (٤) بن حمير ، وكان لا يترك مناسبة دون أن ينشد فيها بين يديه بعض مدائحهم من
مثل قوله (٥) :

قَدْ قِيلَ جَارِدٌ - لَتَقَى - الْبَحْرَ أَوْ مَلَكًا أَنْتَ لِلْمَلِكِ وَأَنْتَ الْبَحْرُ يَا عَمْرُ
مَاحِظٌ مَا حَزَّتْ لَا عَرَبٌ وَلَا عَجَمٌ مَا شَادَ مَا شِئْتَ لَا جِنَّ وَلَا بَشَرٌ

(١) الحريدة قسم الثامن ٢/٢١٩ .

(٢) تاريخ نثر عدن لباقر ٢/٣٧ .

(٣) العقود الموقوتة ١/٣٦ .

(٤) الحزبي ١/١١٠ وفي مواضع منقوطة .

(٥) الحزبي ١/٨٧ .

إذا الجدود بهم أبتأؤهم شرفوا أوفأخروا فبك الأجداد تفتخر
عزوا بيزك أولاهم وآخروهم كما بأحمد عزت كلها مضر
ويقول الخرجي : كان ابن حمير أوحده شعراء عصره وقد توفي سنة ٦٥١ وبذلك لحق
عصر المظفر الرسولى (٦٤٧-٦٩٤ هـ). وشاعره غير مدافع القاسم بن هتيمل ، وسنخصه
بكلمة ، وتكثر تهتات الشعراء له منذ استيلائه على صولجان الحكم بعد أبيه ، وكان كلما أهل
عليه عبد أو انتصر فى موقعة حرية أكثروا من مدبجه وتهتاته ، ومن الحق أن كثيرين منهم
كانوا يرددون معانى الشعراء العباسيين التابعين من أمثال أبى تمام والبحترى وللتنبى ، ومن
الطريف فى هذا الصدد أن أحد شعراء المظفر البارزين - وهوابن دغاس - كان معاصروه من
أهل زيد يرمونه بسرقة الشعر ، ويقولون - متدبرين عليه - إذا حوسب الشعراء يوم القيامة يؤتى
بابن دغاس للحساب ، فيعترف بسرقاته من سابقه ، ويقول هذا البيت لفلان وهذا الصدر
لفلان وهذا المعجز لفلان ، وبذلك يخرج بريئاً . وبذكر له الخرجي مدحة فى المظفر يصفها
بأنها باهرة ، ومع ذلك يلاحظ هو نفسه أنه اقتحها بقوله :

ليس فى قدرة ولا إمكان كَيْلُ ما نلتَ يا مليكَ الزمان
ويقول إنه لابن الحجاج البغدادي (١) ، ومعرض الخرجي فى أثناء حديثه عن السلطان المؤيد
(٦٩٦-٧٢١ هـ) أسماء جماعة من شعرائه ومدائحهم فيه ، وفى مقدمتهم العنسى والحفيف
عبد الله بن جعفر من مثل قول الأخير (٢) :

ساد الملوك فلا تكون مثاله أبدَ الزمان ولا يكون مثالها
وحوى الخلافة لم تكن إلا له طولَ الزمان ولم يكن إلا لها

ومن الرسولين الملتحين الأشرف إسماعيل (٧٧٨-٨٠٣ هـ) ومن مدائحه الخرجي
صاحب العقود اللؤلؤة ، وله فيه مدحتان أولاهما فى بيان (٣) ازدهار الدراسات الدينية التى
أقامها السلطان الأشرف فى الجامع المبارك الأشرفى ، وقد مضى الخرجي يسمي
القائمين على هذه الدراسات وغيرها من القراء والمحدثين والفقهاء والنحاة وأصحاب الحساب
والجبر ، والثانية (٤) فى وصف الاحتفال بختان أبناء الأشرف وتهته والإشادة بملكه وفتوحاته
وأبجاده . ونمضى إلى عصرينى طاهر غير أنهم لا يُقْنون بالشعر والشعراء على نحو ما كان يعنى
الرسوليون ، وبانتهاه دولتهم ، يُقَالُ اليهن حكم الزيديين أصحاب ضعة ، وسنخصهم بحديث
مستقل .

(٣) الخرجي ٢٠٢/٢ .

(٤) الخرجي ٢٣٦/٢ .

(١) الخرجي ٢٨٣/١ .

(٢) الخرجي ٣٣٤/١ .

وتكثر في حضرموت مدائح العلماء والصوفية وهذا طبيعي لأن كثرة الشعراء من الزهاد والفقهاء ، ويمتلى كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهذه المدائح كقول أحمد السقاف العلوي في شيخه محمد بن عبد الرحمن الأسقع^(١) :

فقيهٌ شريفٌ حازَ فضلاً ورفعةً له نِسْبَةٌ تَعْلُو على كل نِسْبَةٍ

وأكبر الشعراء المذاهبين في حضرموت عبد الصمد بن عبد الله باكثير ، وسنخصه بكلمة . ويكثر شعراء المديح أيضاً في عمان ودائماً يتجه الشعراء بأشعارهم إلى مديح الأمراء النبهانيين ، وسنقف قليلاً عند شاعرهم السَّالِي . وبالمثل كان الشعراء في البحرين لا يزالون بمدحون أمراءها من العيويين وغيرهم وفي مقدمتهم شاعر البحرين غير مدافع علي بن مقرب العيوني :

وواضح مما سبق أننا سنقف قليلاً عند أربعة من شعراء المديح في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين يصورون لنا ازدهار هذا الفن في بلدانهم في حقب مختلفة ، وهم القاسم بن هَيْتَمِلَ اليمنى وأحمد بن سعيد الخروصي السَّالِي العُماني وعلي بن مقرب العيوني البَحْراني وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحضرمي .

القاسم بن هَيْتَمِلَ^(٢)

هو القاسم بن علي بن هَيْتَمِلَ أكبر شعراء اليمن في القرن السابع الهجري ، وهو من نَجْرَان بوادى ضِمْد في المخلاف السلياني وهي غير نجران المشهورة وبها نشأ . وقد تيقظت مولهبة الشعرية مبكرة ، وله ديوان شعر كبير يدل على أنه وجه شعره منذ شبابه إلى مديح أمراء المخلاف السلياني وكانوا يتبعون الدولة الرُّسُولِيَّة ، كما وجهه إلى الرسولين وأمراتهم وولاتهم وإلى الأمراء الزيديين في جهة صَنْعَاء وصَعْدَة . ولا تُعرَف سنة ميلاده ، والمظنون أنه ولد في العقد الثاني أو أوائل العقد الثالث من القرن السابع ، وإن كان هناك من يظن أنه ولد في أوائل هذا القرن ، غير أننا لا نجد له شعراً في السلطان عمر بن علي بن رسول نور الدين المتوفى سنة ٦٤٧ يبيناً يُعد بحق شاعر ابنه السلطان المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤ هـ) وحفيده السلطان الأشرف (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ) . ويبدو أنه توفي لزمته إذ لا نجد له مديحاً في أخيه المؤيد (٦٩٦ - ٧٢١ هـ) الذي استولى على صولحان الحكم بعده . وكان يتخذ شعره

للخزرجي في مواضع متفرقة (راجع الفهرس) والديوان مطبوع بدار الكتاب العربي بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٤٤/١ .
(٢) راجع في ترجمة ابن هَيْتَمِلَ مقدمة تحقيق ديوانه لعمد بن أحمد عيسى العقبيل ، وانظر العقود الزلَّزَلِيَّة

منجراً ، فهو يمدح به المظفر وأسرته وعاله ، كما يمدح أمراء الخلفاء السليمانى وأعيانه ، والأئمة الزيديين وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن الحسين ، وأمراء طُفَّار ، وأمراء قبائل حلى بن يعقوب ، ويروى أنه قال في أميرهم أحمد بن على الحرامى الكنانى من مدحة طويلة :

إن الملوك بنو يعقوبَ قاطبةً قطعاً وكلُّ ملوكٍ بعدهم سوقُ
والسوق جمع سوقة وهى الرعجة وبلغت المدحة سَمْعَ المظفر الرسول ، فاستشاط غضباً حين سمع
هذا البيت وطلب ابن هتيمل لطيره به طيرة بطيئاً سقطها حتى إذا مثل بين يديه وأنشده
البيت حقيقاً ، تخلَّص تخلصاً لطيفاً ، قائلاً : أطال الله عمر السلطان ! إنما قلت :
« وكل ملوك غيرهم سبق » فاستحسن تخلصه ^(١) ، وله فيه كثير من المدائح البديعة من
مثل قوله

أغرَّ رسولِي بِزُرٍّ قيصَهْ على القمر التَّمَّ الخِصَمُ الغَضَنَفِرْ
أعمَّ سماحاً من سماحةِ حاتم وأعظم بأساً من بَسَالَةِ عَتِرْ
وقوله ^(٢) :

هَذِي كَهَذِي رَسُولِ اللَّهِ مَتَّبِعْ ما سار آلُ رسولِ الله في السيرِ
وعزماً كلُّ حَدٍّ من صَرامَتِها أمضى من الموت أو أمضى من القَدَرِ
لو أن هَيْتَه أو بعضَ هَيْتِه تُلقَى على الفلكِ الدُّوَارِ لم يَدُرْ

ونسجه اللفظي متين قوى ، وكمالاته تروق السمع يجرسها وبحسن انتقائها ، إذ كان
يعرف كيف يصطفى لفظه وكيف يلائم بين كلماته ملاءمات تلذ الأذن حين تصيخ إليها وتلذ
اللسان حين ينطق بها وهو بحق صانع ماهر . وممدوحه الثانى بعد المظفر فى ديوانه الإمام
الزيدى أحمد بن الحسين ، وفيه يقول فى إحدى مدائحه ^(٣)

حفظ الله أحمداً حيناً كما نَ وجادته ديمةً مِدرارُ
الشریفُ الشریفُ والجوهرُ الجوهر هر والخالص الثَّصارِ الثَّصارُ
سَيِّدُ أُمِّه البَتُولُ وجَدُّهُ هُ المثنى وأحمد المختارُ

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء . والمثنى : الحسن بن الحسن بن على جد المدوح
وأحمد المختار الرسول ^(٤) ، وواضح ما فى لفظ ابن هتيمل من سهولة وعدوبة : وهو
عادة يقدم لمدائحه بغزليات تسيل رقة وخفة . كقوله فى مقدمة هذه القصيدة :

(٣) الديوان ص ١٥٥ وشعر النساء الصنعاني للدكتور

محمد عبده غانم ص ١٧٩ .

(١) انظر فى هذا الخبر مقدمة الديوان .

(٢) الخزرجى ١٥٩/١ .

بِاقْضِيَّاءٍ مِنْ فِصَّةٍ يُقَطِّفُ النَّرَّ جِسٌّ مِنْ وَجَّتَبِهِ وَالْجَلُنَّارُ
 قَرَّ طَوُّهُ الْهَلَالُ وَمِنْ شَمْسٍ الدِّبَاجِيُّ فِي سَاعِدَيْهِ سَوَارُ
 عَجَبًا مِنْكَ تَحْتَ بَرْقَمِكَ النَّارُ فِيهِ الْجَنَّاتُ وَالْأَزْهَارُ
 وَاللَّيَالِي الطُّوَالُ تَحْتَهُ مِنْ جَسَدٍ حَيٍّ مَا أَبَقَتْ اللَّيَالِي الْقَصَارُ
 وَيَبْنِي مَا يَتَضَمَّنُ هَذَا الْغَزَلَ مِنْ رَوْعَةِ التَّصَاوِيرِ ، فَالْقَدِّ الرَّشِيقُ لَصَاحِبَتِهِ قَضِيبُ
 أَوْغَاصٍ مِنْ فِصَّةٍ يَقَطِّفُ مِنَ النَّرْجِسِ وَالْجَلُنَّارِ إِشَارَةً إِلَى جِوَالِ عَيْنَيْهَا وَخُدُودِهَا ، وَقِلَادَةُ الْفُضَّةِ
 تَطْلُقُ جِيدَهَا ، يَبْنِي نَوْرَ الشَّمْسِ يَلْتَفُّ حَوْلَ سَاعِدَيْهَا سَوَارًا ، وَيَعْجَبُ أَنْ تَتَوَهَّجَ النَّارُ نَارَ
 وَجَّتَبِهَا تَحْتَ بَرْقَمِهَا يَبْنِي بِجَانِبِهَا الْجَنَّاتُ مِنَ النَّرْجِسِ وَالْجَلُنَّارِ وَالْأَزْهَارِ . وَتَطْلُقُ بِهِ اللَّيَالِي سَهْرًا
 وَسَهَادًا ، حَتَّى لُتْضِيَهُ ، بَلْ حَتَّى كَأَنَّمَا تَحْتَهُ جِسْمُهُ ، مَخْلُفَةٌ لَهُ الْأَلَمُ وَالشُّحُوبُ . وَدَائِمًا يَلْقَانَا
 هَذَا الْغَزَلَ وَالنِّيبَ الرَّائِعَ فِي مَقْدَمَاتِهِ لِمَدَامِهِ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ فِي اسْتِهْلَالِ مِلْحَةٍ ثَانِيَةِ
 لِأَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ :

إِذَا جِئْتَ الْغَضَا - وَلَكَ السَّلَامَةُ فَصَارِحُ بِالنَّحِيَةِ رِيَمَ رَامَةً (١)
 وَقُلْ لِلْوَالِدَةِ هَلْ لِرَوْحِي وَمَا أَتْلَفْتِ مِنْ جَسَدِي غَرَامَهُ
 حَلَلْتِ نَهَامَةً وَحَلَلْتُ نَجْدًا فَأَيْنَ وَأَيْنَ نَجْدُ مِنْ زِيَاهَتِهِ
 وَسَارَتِ الْقَصِيدَةُ مَسِيرَةً أَخْتَارَهَا السَّابِقَةَ وَعَارَضَهَا كَثِيرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ كَانَ
 يَفْنَى بِهَا كَمَا كَانَ يَفْنَى بِأَخْتَارِهَا الرَّائِيَةِ السَّالِفَةِ . وَمِنْ طَرِيفِ نَبِيهِ :

أَرَاكَ تَرْوَحُ مَا وَدَّعْتَ نَجْدًا وَلَا أَحَدْتِ بِالْعَلَمَيْنِ عَهْدًا
 وَلَا صَافَحْتَ أَهْلَ الرَّمْلِ كَفًّا فَكَفًّا فِيهِ أَوْ خَدًّا فَخَدًّا
 ضَلَّالًا مَا أَتَيْتِ مِنَ التَّجَافِي الْأَبْعَدَا لِمَا أَضْمَرْتَ بَعْدًا
 وَكَيْفَ سَلَوْتَ عَنْ أَرْضِي بِأَرْضِي يَقُوحُ تُرَابُهَا مِسْكًَا وَنَدَا (٢)
 وَالْأَيَّاتُ تَسِيلُ رِقَّةً وَعَذُوبَةً ، وَيُرَوَّى أَنَّ بَعْضَ الْوُجْهَاءِ فِي الْيَمَنِ جَاءَهُ طَلَبٌ عَاجِلٌ مِنْ
 أَحَدِ الْأَمْرَاءِ بِأَنْ يَفْدِيَ عَلَيْهِ لِأَمْرِهِمْ ، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ زَيْنَتًا لَهُ أَوْشِيًا مِنْ زَيْنَتِهَا ، فَلَمَّا
 رَأَتْهُ بِهِمْ بِالْخُرُوجِ تَعَرَّضَتْ لَهُ مَنَشْدَةً قَوْلُ ابْنِ هَتَمِلَ .

أَرَاكَ تَرْوَحُ مَا وَدَّعْتَ نَجْدًا وَلَا جَدَّدْتَ بِالْعَلَمَيْنِ عَهْدًا
 فَابْتَسَمَ الزَّوْجُ وَأَجَّلَ زِيَارَةَ الْأَمِيرِ (٣) . وَفِي هَذَا الْخَمِيرِ مَا يَشِيرُ بِوَضُوحٍ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ
 رَجَالًا وَنِسَاءً كَانُوا يَتَدَاوَلُونَ شِعْرَابِنَ هَتَمِلَ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ . وَكَانَ الْمَغْنُونُ يَتَغَنَّى فِي بَعْضِ

(١) الغضا : من شجر نجد وجرادها . الرم : الظباء . (٢) الد : حود يطيب به ، طيب الرائحة .

(٣) مقدمة الديوان ص ٨ .

ودامة : موضع بنجد .

أشعاره بل قد يغنون له بعض مدائحه بما يتقدمها من غزل ونسب وما تذيب من ثناء ومديح .
وله مراثٍ لزوجته وبعض أهله تفيض بالأسى واللوعة المضة كقوله في أخ وأخت له ماتا في
أسبوع واحد :

مضت ما ابيضت الضفائرُ منها ومات وما بدا شعرُ العذارِ
فأثبها على الخطوات أبكى أبدرُ التَّم أم شمسُ النهارِ

وفي الحق أن ابن هنيئيل كان شاعراً مجيداً سواء في مراثيه أوفى غزله ونسيه أوفى مدائحه ،
وهو في المدائح يسجل أحداث عصره وما كان فيه من وقائع حربية ، وخاصة حروب السلطان
المظفر ، مما جعل الخزرجي ينشد كثيراً من أشعاره في العقود اللؤلؤة .

أحمد بن سعيد الخروصي الستالي^(١)

عُثِّي من وادي خروص ، ومن قرية منه تسمى ستال ، وفيها ولد سنة ٥٨٤ هـ وبها نشأ وتلقن
الشعر واللغة والنحو والبلاغة وفي هذا دليل واضح على ما نقول من أن الثقافة العربية كانت
متشرة في كل ركن من أركان الجزيرة ، بل في كل قرية ، مثلها الثقافة الإسلامية ، فقد كان
الناشئة يمدون بحفظ القرآن ، ويقعدون في حلقات بعض الشيوخ لسماع لسماع العظات وشيء من
التفسير للذكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية . ولما شب الستالي عن الطوق غادر قريته إلى
عُثان ، وأخذ فيها ينهل من موارد العلم والعلماء في عصره . وحين أنس من نفسه تدييع المدائح
قصد بها حكام عُثان السنين من بني نيهان ، وسجل شعره كثيراً من أحداث زمنه ، وخاصة
ما كان بين بني نيهان وبين الفرس من حروب ، فقد كانوا يكثرون من الإغارة على ديارهم ،
غير أنهم كانوا يعودون دائماً مدحورين على نحو ما بصور ذلك الستالي في مديحه للأمير النيهاني
كهلان سنة ٦٥٠ وكذلك في مديحه للأمير النيهاني عُمر بن نيهان بن عمر بن محمد بن عمر بن
نيهان سنة ٦٧٤ وهو وأبوه نيهان وعمه أبو القاسم على وكذلك عمه محمد تتردد أسأؤهم في
مدائحه ومراثيه في الديوان ، من ذلك قوله في أبي القاسم على مادحاً ومهتأ بالبعد :

أبا القاسم الميمون أوتيت في الدني من الفضل ما لم يؤت عجم ولا عرب^(٢)
لك الشيمُ القراء والمهم العلأ وأنت السنُّ الصدق والمرمف العصب^(٣)
أبا القاسم اسلم وأبني للمجد وادعاً وحل بشانك الحافة والرعب

(٢) اللقي : جمع دنيا .

(١) انظره في تحفة الأحيان بسيرة أهل عمان لنور الدين

(٣) المرمف : السيف . العصب : القاطع .

الستالي ٣٠٣ / ١ وراجع مقدمة ديوانه .

وعَيْدٌ سَعِيداً في علاه وورغمه وطول يدٍ مالاحتِ السَّيِّئَةُ الشُّهْبُ^(١)
وواضح أن صوت الشاعر يحمل غير قليل من الجزالة والرصانة ، وفيه استواء وتناسق
وما يدل على أن الشاعر كان يُحْكَمُ كلمه ويصوغها صياغة جيدة دون أى نبؤ والتواء ، وله
بمدح نيهان بن عمر من قصيدة طويلة :

أَنبَهَانُ إِنَّكَ مِنْ عَصِيَّةٍ نَهَاها إِلَى الْمَجْدِ قَحْطَانُهَا
هُمْ الْعَيْنُ فِي يَعْزَبٍ كُلُّهَا وَأَنْتَ مِنَ الْعَيْنِ إِنْسَانُهَا
إِذَا طَلَيْتَ مَكْرَمَاتِ الْعَلَا بَدَا فِي جَبِينِكَ عَنَوَانُهَا
فَعَمَتْ وَبُلُغَتْ مِنْ سَيْدٍ مُسَاكَ وَسُرْكَ لُقْيَانُهَا
وَلَا زَالَ يَفْدُوكَ فِي نَعْمَةٍ شَبَابُ الْحَيَاةِ وَرَبْعَانُهَا

والأبيات تصافح الآذان في خفة ، وهى نموذج بالحركة ، وكأنما أعدّها لكي تغنى وتغلا
الحلوق بحلاوة رنانها ، وانظر إلى تكلة البيت الرابع : « وسرك لقيانها » فإنك تحس القدرة
على تكلة البيت بقافية تروعك ، إذ لم تكن تتوقعها ، وكنت تحار كيف يأتي بها .
ويبدو أنه كان يكثر من الرحلات إلى العراق ، ففي أشعاره ذكر لبعض بلدانها مثل
تكريت وهيت والجزيرة ، وكان يمد رحلاته إلى جزيرة زنجبار شرق تنزانيا ، ونراه يمدح
سبخت وغيره من أعيانها ، وفيه يقول :

إِذَا أَنْتَ أَبْصَرْتَ فِي الدُّسْتِ سُبْحَ سَتَ كَالشَّمْسِ أَنْكَرْتَ خَلْقَ الْعِبَادِ
سَمَا بِمَعَالٍ وَفَضْلٍ كَمَا لِي وَحَسَنَ فَعَالٍ وَصَفْوٍ أَعْتَقَادِ
جَرَى الْقَتَالِ غَدَاةَ التَّرَالِ بِيضِ النُّصَالِ وَسُمْرِ الصَّعَادِ^(٢)

ويكثر من تقديمه لمداخمه بالنسب ، وهو - كغيره من شعراء الجزيرة العربية يكثر من
التغزل بالأعرابيات ووصف جمالهن وسحرهن وكيف يشغفن القلوب ، وخاصة حين
يرحلن ، فتبهمن الأفئدة ، من مثل قوله :

لَمِنْ الطَّامِنُ ظَلَعُ الْأَحْدَاجِ وَقَفْتُ لِشَانٍ وَانْتَبْتُ لِمَاعِ^(٣)
رَفَعُوا هَوَادِجَ كَالسَّفِينِ وَكِلَّةٌ مَحْفُوفَةٌ بِالْوُشَى وَالْدِّيَاكِ^(٤)
فَبَيْنَ كُلِّ مَعِيْدَةٍ عُلِقَ الْهَوَى بِجَاهِلَا وَدَلَاهَا الْخَلَاجِ^(٥)

وهو يبدئ ويبعد في وصف هذا الترحال الذي يقف أسباب المودة والحب ، والذي

(١) السيئة الشهب : الكواكب السيئة الباردة .

(٤) الكلة : ستارة المروج .

(٢) الصعاد : جمع صعدة وهى القنطرة .

(٥) علن : جمع خلفه وهى الخلق . الخلاج :

(٣) الأحداج : المروج معاج : انعطاف

الخلاج .

بملاً قلوبَ العشاق في البوادي فتنه وإغراء وصباية . ويذيبها أسي وحسرة . فذكر العهود والأطلال والربوع وأكتاف الحمى ، وقد غابت الأبقار وأظلمت الدنيا ، وعم المحبين اليأس ونعمتهم الحزن . وقد يجعل الساتلي المقدمة لقاءً بهيجاً على شاكلة قوله :

قَصْرُنَ المَخْطَا وَهَزَزْنَ العُصُونَا وَزَقَرْنَ تَحْتَ القُنَابِ المَيُونَا
وَوَشَّيْنَ بِالتَّبَرِ بَيْضَ التَّرَاقِي وَغَشَّيْنَ سَوْدَ الفُرُوعِ المَتُونَا
وَأَقْبَلْنَ بِحُطَيْرُنَ مَشَى الهَوَيْتِي وَيُبْدِينَ مِنْ كُلِّ حَسَنِ فَنُونَا
فَلَمَّا عَرَضْنَ لَنَا سَافِرَاتِ أَعَدْنَ الهَوَى وَبَعَثْنَ الشُّجُونَا

والآيات تصور فرحة الساتلي باللقاء وبرؤية صاحبة تسمير وسط صواحبا ، وقد تفرقت عيونهن بالدموع ولكن دموع الابتهاج وإنهن لبيدين زينتهن ، ويخطرن دلالاً ، ويسفرن عن وجوههن ، فتتألأ الدنيا بجمالهن من حول الساتلي ، ويعود الحب كما كان فتنه لا يستطيع إفلتاً منه ولا خلاصاً . وللساتلي خمريات ، يجمع فيها بين وصف الرباض والغزل ونعت الخمر والغناء من مثل قوله :

هَاتِ اسْقِي الرَّاحَ فِي رَاووقهَا عَلَلَا وَعَاطِفِي فِي الحَدِيثِ اللُّهُو وَالغَزَلَا
أَمَا تَرَى نَفَحَاتِ الصَّيْفِ قَدْ نَشَرَتْ مِنْ النِّيَابِ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى حَلَلَا
وَالرَّوْضُ يَخْتَالُ فِي زَهْرِ البِهَاءِ وَقَدْ غَدَا الثَّرَى بِفَنُونِ الوَشَى مُشْتَمَلَا
وَشَادِنِ يَتَهَادَى فِي الصَّبَا غَبْدَاً مَيْسَ القَضِيبِ تَتَّى تُمَتْ اَعْتَدَلَا^(١)
يَسْمَى عَلَيْنَا بَنُورٍ فِي زَجَاجَتِهِ لَوْلَا حَدُوثُ مَزَاجِ المَاءِ لَاشْتَمَلَا
وَقِيْنَةُ أَنْطَقَتْ صَوْتَ الكِرَانِ وَقَدْ غَتَّتْ بِسَيْطَا عَلَى الْأَوْتَارِ أَوْرَمَلَا^(٢)
وَالشُّرْبُ قَدْ مَزَجُوا صَفْوَ خِلَافَتِهِمْ كَمَا مَزَجَتْ بِمَاءِ المَرْئَةِ العَسَلَا

ونحس بروح أبي نواس تطل علينا من خلال هذه الخمرية التي تصور مجلس أنس في بستان وساقية تتنى جبالاً ، تسمى على الشرب يدن الخمر أو دنائها ، وقية تشد أوتار العود وتغنى عليه ألواناً من الغناء . وكأننا في مجلس من مجالس أبي نواس التي كانت ترعر باللهو والقصف . وهذا الجانب في ديوان الشاعر يلتقي بجانب آخر من الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، ويتضح ذلك في مراثيه إذ يتحدث فيها عن الحياة والموت وأن الدنيا ومتاعها إلى فناء ، وله ميمية كلها ثناء على الله وآلائه ، وقد ختمها بدعوة حارة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل .

والصنح . والبسط والرمل من أوزان الشعر .

(١) غبدا : لبنا وتتنا . ميس : تمائل .

(٢) الكيران : من أدوات العزب ويسمى به العود

وتكثر في أشعاره الحكم وربما كان يأتسى فيها وفي غزله بالأعرايات البدويات بالمتنبي .
وربما كان يأتسى به أيضاً في شكواه الكثيرة من الدهر وما يصبه عليه وعلى الناس من
فواجع وكوارث . وفي ديوانه بعض مخمسات طريفة ، وله لامية كلامية كثير يلتزم في نهايتها
أوقافيتها اللام قبل التاء ، ولكن من الحق أنه لم يكن متصنعاً في أشعاره ولا متكلفاً ،
وكان ما وجبه من ملكة شعرية أصيلة حال بينه وبين التكلف والتصنع ودفعه دفعاً إلى أن
تكون أشعاره سلسلة سائغة .

علي بن المقرب العميري^(١)

شاعر من أسرة العميريين حكام الأحساء والبحرين من سنة ٤٦٦ إلى سنة ٦٣٣ وقد
ولد سنة ٥٧٢ وعاش نحو ستين عاماً إذ توفي سنة ٦٣١ وديوانه بصور ثقافة لغوية وأدبية
وإسلامية ، وهو يمتلئ بإشارات تاريخية ، إذ كثيراً ما يذكر تاريخ العرب القديم وأيامهم
وملوكلهم وملوك الفرس الأولين . وبما يدل على ثقافته الأدبية واتساعها كثرة معارضاته
لقصائد المتنبي والشرىف الرضى ومهيار ، مما يؤكد أنه أكب على دواوين الشعراء النابيين
وخاصة هؤلاء الثلاثة يتروء منها ويتخلق فيها . ويبدو أن الشعر جرى على لسانه في باكورة
حياته ، وسرعان ما قدمه إلى أمير أسرته محمد بن أبى الحسين (٥٨٤ - ٦٠٣) وهو أهم
أمرء الأسرة العميرية جميعاً ، وقد شمل سلطانه البحرين بمدنها مثل القطيف والأحساء
وجزرها مثل أوال التى يطلق عليها الآن اسم البحرين . ودانت له قبائل نجد الشرقية ،
ولعل ذلك ما جعل الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحجاج
من العراق إلى مكة ذهاباً وإياباً مع رسم سنئى قرصه له . وفيه يقول على بن المقرب :

رِمَاحُ الأعادى عن حِماكَ قِصارُ وفي حَدِّها عَمَّا تروم عِثارُ
وكلُّ امرئٍ لَيسَ له منك ذِمةٌ بِضامٍ على رَغَمٍ له وَيُصارُ
فَيشُ في عَظِيمِ المَلِكِ مالِاحِ كوكبُ وأظلمَ لَيلُ أو أضاءَ نهارُ

ويحدث أن تفكر طيبى فى قطع الطريق على الحجاج سنة ٥٩٨ فينكل بها تنكيلاً
شديداً ، ويشيد ابن المقرب ببسالته فى الحرب وانتصاره . وتضع بعض قبائل الشام يدها
فى يد طيبى وتحاول الإغارة على الحجاج ، فيسزقههم محمد بن أبى الحسين شرمزق . وبعم
الأمن ربوع البحرين ونجد الشرقية جميعاً ، غير أن بدأ آتمة تمتد إلى هذا الأمير الشجاع .

(١) انظر ترجمته فى ساحل الذهب الأسود ص ٢٣٢ والقاهرة . وراجع مقالاتنا عنه فى مجلة مجمع اللغة العربية
بالقاهرة . الجزء الثامن والثلاثين .
ونخبة السعيد بتاريخ الأحساء فى القديم والحديث
ومقدمات طبقات ديوانه وقد طبع فى الهند ودمشق

فتنثاله ، .ويكيه شاعره ويندبه ندباً حاراً بمثل قوله :

لَيْسَ الْعُلَا والمجد والبأسُ والثَدَى لقد صَلَّ وادبها وَجَعْتُ مَسَابِلَهُ (١)
وتَنَدَّبُهُ الْبَيْضُ الصَّوَارِمُ والقَنَا لا أَنهَلْتُهَا كَفَّهُ وَأَنَا مِلَهُ
لقد مَيَّتْ مِنْهُ الْأَعَادَى بِثَائِرِ هَامٍ أَبَى أَنْ يَحْمِلَ الضَّيْمَ كَاهِلَهُ
وطبى أن لا تفتح أبواب قاتليه الذين خلفوه في دست الحكم لابن المقرب . بل لقد
زَجُّوا به في السجن وصادروا أمواله ، ورُدَّتْ إليه حرته وخرج من السجن فرحل إلى
العراق ، ونزل البصرة ومدح حاكمها باتكين بن عبد الله الرومي في سنة ٦٠٥ ودخل
بغداد ومدح الخليفة الناصر ، وتعرَّفَ على بعض علمائها وأدبائها . ورأى العودة إلى موطنه
وأن يحمل معه طائفة من أعمدة الحديد للأنجار فيها . وألَّم بواسط في طريقه فطالبه ابن
الديبشي ضامن المكوس بضريبة كبيرة بلغت نصف ثمن بضاعته . فصبَّ عليه جام هجائه
بمثل قوله :

يَا بْنَ الدَّيْبِشِيِّ اللَّعِينُ رَمَتْ أَمْحَالُ فَفُصَّتْ فِي بَحْرِ
خُنَّتِ الْخَلِيفَةُ فِي رَعِيَّتِهِ وَعَصَبَتْهُ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ
ومر بالبصرة فطالبه ضامن المكس بها ببعض الضرائب ، أو بالضريبة المقررة ،
فاستجار منه بممدوحه باتكين أمير البصرة ، وينشده مدحة طويلة يقول فيها :
يَا شَمْسَ دِينِ اللَّهِ كَمْ لَكَ مِنْ يَدٍ يَشْتِي بِهَا بَادٍ وَيَشْهَدُ حَاضِرُ
ادْفَعْ بِجَاهِكَ أَوْ بِمَالِكَ مُنْعَمًا عَنِّي فَسَالُكَ لِلْعُقَا ذَخَائِرُ
ويعود إلى موطنه ويقدم مدائحه إلى أمير الأحساء محمد بن علي بن عبد الله الذي ردَّ
إليه حرته ، ويأمل أن يرد عليه أمواله وبساتينه ، ولكنه لا يرد عليه شيئاً . ويحدث أن
ينهض الفضل بن الأمير محمد بن أبي الحسين بأخذ الثأر لأبيه من قتله ، ويصبح الحاكم
العام للبحرين ، ويقدمُ إليه علي بن المقرب مدائح كثيرة ، ولا يحظى منه بشيء أو بما كان
يأمله . وسرعان ما يثور عليه ابن أخيه علي بن ماجد ، وتثور معه البحرين لتوقيعه معاهدة
بينه وبين أمير جزيرة كيش تنازل له فيها عن بعض جزر البحرين ، مع تقديم خمسمائة
دينار له سنوياً ، ويفرح الشاعر بهذه الثورة ويدبج في علي بن ماجد مدائح كثيرة من مثل
قوله :

أَضَحَتْ بِكَ الْأَحْسَاءُ سَاكِنَةً رَجَفَتْ بَيْنَ فِيهَا وَكَادَتْ تُقَلِّبُ
وَمَلَأَتْهَا عَدْلًا وَكَانَتْ عُمَمَتْ جَوْرًا تَغْوَرُ بِهِ الدِّيَارُ وَتَحْرَبُ

ويثور مقدم بن غرير الميوني ، ويستخلص حكم البحرين لنفسه بمساعدة بعض عشائر عبد القيس النجدية . ويش ابن المقرب لما صارت إليه أداة الحكم . فأبناء الأسرة يتحاربون ، والحكم يفسد ويضعف . ويولّى وجهه نحو العراق ويمتدح باتكين إلى البصرة والخليفة ببغداد في سنتي ٦١٣ و ٦١٤ . ويعود إلى موطنه ، وقد أصبح زمام الحكم بيد محمد بن مسعود ، ويمتدحه ويمتدح أخاه الفضل على بن مسعود الذي تحولت إليه مقابله الأمور بعده ، بمثل قوله :

رَفَعَتْ عَادَ المجد من بعد ما وَهَى وَرَثَتْ وَأَضْحَى رُكْنَهُ وَهُوَ مَائِلُ
وَقَتَّ بِأحكام الشريعة فاستوتْ لَدَيْكَ ذُوو الأَجْبَالِ : طَيُّ وَوَائِلُ

ويترك البحرين إلى العراق في سنة ٦١٧ ويمتدح باتكين في طريقه إلى بغداد ويمتدح الخليفة الناصر ، ويوغل في رحلته إلى الشمال حتى الموصل وديار بكر ويمتدح بدر الدين لؤلؤا مدير الحكم فيها لسلطانها الفاهرين نور الدين أرسلان شاه ، وفيه يقول :

أرْسَى قَوَاعِدَ ملكٍ لو يَدِيرُهُ كَسْرَى وإِسْكَندَرُ أَعْيَنُهَا الحَيْلُ
وَيَمِدَ رَحْلَاتِهِ إِلَى الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي صاحب حَرَّان وديار الجزيرة ، ويشيد ببلاته مع أخيه سلطان مصر الكامل في قتال الصليبيين بدمياط وسحقهم سحقاً ذريعاً حين أغاروا عليها في السنوات ٦١٥ - ٦١٨ وفيه يقول من مدحة طويلة :

سَلِ الكُفْرَ من أَوْهَى بدمياط كَفَرُهُ وَقَصَّرَ أَعْلَى فِرْعَهِ وَهُوَ بَاسِقُ
وَقَدْ جَاءَتِ الإفْرِنجُ من كُلِّ وَجْهَةٍ كَأَنَّ تَدَاعِيَهَا السَّيُولُ الدَّوَاقِقُ
فَوَلُّوا فَكَبُوبُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ لَدُنْ ذَلِكَ لَمْ يَنْقُضْ وَآخِرُ نَاقِقِ^(١)

يعود ابن المقرب إلى موطنه ، فيجد أداة الحكم قد أصابها فساد لا صلاح لها بعده ، إذ وضع أمير البحرين الفضل البلاد تحت تصرف البدو من بني عُقَيْل ، فأفسدوا زروعها وثمارها ، حتى أصبح البستان الذي تبلغ قيمته مائتي دينار يباع بدينار واحد أو يوثب أو يشاة ، ويأسى لذلك في شعره أنسى عميقاً . وشعر ابن المقرب بعد بحق سجللاً تاريخياً لأسرته وحكمها البحرين ، فكل من عاصرهم صوّر حكمهم وأحوال البلاد في أيامهم ، وله قصيدة ميمية سجل فيها تاريخ أسرته منذ مؤسسها الأول حتى زمنه ، مفخرة مباحياً ، وفيها يفخر بأن جده عبد الله بن علي قضى على القرامطة وما أذاعوا في البلاد من عقيدتهم الفاسدة ، يقول :

سَلَى القَرَامِطُ من شَطَى جَهَاجِمِهِم فَلَقَا وَغَادَرَهُم بَعْدَ العُلَا خَدَمَا^(٢)

ويسترسل مبيناً أنهم كانوا أبطلوا الصيام والصلاة وهدموا المساجد ، فظهر البلاد منهم ، ويمضى في القصيدة مسجلاً مآثر أبنائه وأحفاده لمدة قرن من الزمان . والدويان يمتلىء بفخر عنيف . وإذا كانت مدائح ابن المقرب سجلت تاريخ أمراء أسرته وأعمالهم ومآثرهم فإنها سجلت أيضاً جوانب من أعمال الخليفة الناصر ، وكذلك واليه بانكبن حاكم البصرة فقد ضمن مدائحه له أعماله بمثل قوله :

بنى بالبصرة الفيحاء سوراً يضاهى السدَّ سبْكَاً وانعقاداً
وزينها بأسواقٍ أَرَانَا بها كُلَّ البلادِ لها سواداً^(١)
وكم من مشهدٍ ورباطٍ زُهِدٍ ومدرسةٍ بَنَى وهْدَى أفاداً

ويردد في مدائحه بجانب ذلك أنه بنى المدارس وأقام فيها علماء الفقه والحديث والتفسير وألحق بها المكتبات النفيسة ، ومدائح ابن المقرب بذلك تعد وثائق ذات أهمية بعيدة في تاريخ عصره ، ولا نبعد إذا قلنا إنها هي الوثائق الوحيدة في تاريخ الدولة المملوكية ، لأن تاريخ حكامها لم يعن به المؤرخون .

عبد الصمد بن عبد الله باكتير^(٢)

الشراء الثلاثة السابقون من شعراء القرن السابع الهجري ، أما عبد الصمد بن عبد الله باكتير فمن شعراء القرن الحادى عشر وهو حضرمى ، ولد في تَريس سنة ٩٥٥ للهجرة وتوفى بحَضْرَمَوْت في سنة ١٠٢٥ . تلقن علومه وحفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه ، واختلف إلى العلماء في المدن الحضرمية . وحين سأل الشعر على لسانه اتجه به أولاً اتجاهاً صوفياً على عادة أهل إقليعه ، وأخذ يستغله في مديح بعض الحكام والأعيان ، حتى إذا تحول صولجان الحكم في حضرموت إلى عمر بن بدر أبى طويرق المتوفى سنة ١٠٢١ للهجرة أصبح شاعره المفضل ، وليس ذلك فقط ، بل أصبح أيضاً منشئ الرسائل في عهده ، وكذلك في عهد ابنه عبد الله (١٠٢١ - ١٠٢٤) . حتى إذا تنازل عن الحكم لأخيه بدر طلب الشاعر إعفاءه من العمل بديوان الرسائل ، ولم يكد يدور العام حتى لبي نداء ربه . وجمهور مدائحه في عمر بن بدر من مثل قوله :

الطالع ص ١٢١ وسلافة العصر ص ٤٦١ وتاريخ

حضرموت السبسى ١/ ١٣٣ . ١٧١/ ٢ وتاريخ

الشراء الحضرميين ١/ ١٩٠ وله ديوان كبير لم يطبع .

(١) السواد : الريف بزروعة وقراء .

(٢) انظر في ترجمة عبد الصمد خلاصة الأثر للمحبي

٤١٨/ ٢ وكتابه نفحة الريانة ٣/ ٥٤٦ وملحق البدر

عُمِّرَ الذى أَحْيَا المَكَارِمَ وَابْتَنَى للمجد بيتاً دونه الجوزاء
 فِيهِ الزَّمَانُ تَفَاخَرَتْ أَيْامُهُ وَتَعَطَّرَتْ بوجوده الأحياء
 مَلِكٌ تَفَجَّرَ مِنْ مَنَاجِيعِ مَجْدِهِ كَرَمٌ وَحِلْمٌ وَاسِعٌ وَوَفَاءٌ
 وَكَانَ لَا يَزَالُ يَرْوِحُ وَيَغْدُو عَلَيْهِ بِمَدَائِحِهِ وَخَاصَّةً فِي أَعْيَادِهِ وَفِي الْإِحْتِفَالِ بِإِتِّصَارَاتِهِ .
 مُرَدِّدًا دَائِمًا الثَّنَاءَ عَلَى خِصَالِهِ وَشَجَاعَتِهِ وَكِرَمِهِ ، وَمِنْ مَدْحَةٍ لَهُ فِيهِ :

إِذَا نَابَنِي خَطْبُ الزَّمَانِ قَانِي إِلَى عُمَرِ الْخَيْرَاتِ لِي يَنْهِيَ السَّيْرَ
 مَوَاهِبُهُ مَوْصُولَةٌ بِمَوَاهِبِ إِذَا ضُتَّتِ الْأَنْوَاءُ وَاحْتَسِ الْقَطَرُ ^(١)
 لَهُ فِي الثَّنَاءِ أَيْدٍ تَسُحُّ بَنَاتُهَا لُجَيْنًا وَإِبْرِيضًا وَنَائِلُهُ عَمَرُ ^(٢)

وَمِنْ مَدْحِهِ الرِّصِينَ فِي عَمْرٍ مِنْ بَدْرِ نَهْتَةٍ لَهُ بِإِتِّصَارِهِ عَلَى بَعْضِ أَعْدَائِهِ مِنْ رِجَالِ
 الْقِبَالِ الثَّالِثِينَ عَلَيْهِ وَعَلَى حَكَمِهِ ، وَفِيهَا يَقُولُ مَهْتَأً :

نَصْرٌ عَزِيزٌ مِنَ الرَّحْمَنِ قَارَنَهُ فَتَحُ وَطَالِعُهُ بِالسَّعْدِ يَتَنَدَّرُ
 مِنْ كَانَ مَعْتَصِمًا بِاللَّهِ كَانَ لَهُ عَوْنًا وَسَارَ بِمَا يَخْتَارُهُ الْقَدَرُ
 لَمَّا تَأَلَّيْتُ الْأَعْدَاءَ وَاعْتَصَمُوا يَحْبِلُ غَدْرُهُمْ بِأَعْوَا بِمَا غَدَرُوا
 فَأَمَكَّنَ اللَّهُ مِنْهُمْ فَانْتَرَوْا هَرَبًا كَمَثَلِ مَاغَرَتْ مِنْ قَسَوْرِ حُمُرٍ ^(٣)

وَكَانَ يَخْلُصُ لِلسُّلْطَانِ عَمْرٍ مِنْ بَدْرِ إِخْلَاصاً مُصَنًى ، وَلِذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ مَدِيحِهِ ، حَتَّى
 إِذَا تَوَقَّى أَحْسَنَ بِحِزْنٍ بِالْبَلْعِ وَلَوْعَةٍ مَحْمُضَةٍ ، مِمَّا جَعَلَهُ يَرْثِيهِ مِرَائِي حَارَةً يَبْكِي فِيهَا خِصَالَهُ
 الْكَرِيمَةَ وَمَا فَقَدْتُهُ رَعِيَّتِهِ فِيهِ وَعِجْبَهُ مِنْ جُودٍ وَعَوْنٍ وَعَفْوٍ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :
 هَوَى مِنْ سَمَاءِ الْمَجْدِ كَوَكْبِهَا الْقُطْبُ فَأَظْلَمَ فِي أَقْطَارِنَا الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ
 تَضَعُضِعُ طَوْدُ الْمَجْدِ وَانْهَدُ رُكْنُهُ فَيَالِكَ رُكْنًا قَدْ تَضَمَّنَهُ التُّرْبُ
 قَوَّى عُمَرُ الْخَيْرَاتِ أَكْرَمُ مِنْ سَعْيِ إِلَى سَاحِيهِ تَطْلُو سَبَابِيهَا التُّجْبُ ^(١)
 لَقَدْ كَانَ لِلْعَافِينَ ظِلًّا وَمُلْجَأً وَلِلْجَاهِلِ الْإِعْضَاءُ وَالصَّفْعُ وَالْعَتَبُ ^(٢)

وَلَهُ مَرْثِيَةٌ ثَانِيَةٌ فِيهِ تَكْتِظُ بِزَفَرَاتِهِ وَلَوْعَاتِهِ . وَلَهُ غَزَلٌ رَفِيقٌ يَزْغُرُ بِمَشَاهِرِ فَيَاضَةٍ ،
 تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَحْدُ أَحْيَانًا وَجَدًّا شَدِيدًا ، حَتَّى لَيَقَعُ فِي شَبَاكِ بَعْضِ النِّسَاءِ ،

(٣) لسور : أسد . الحمر : حمر الوحش .

(١) الأنواء : الأمطار .

(٤) ساح : جمع ساحة . السبب : القصور .

(٢) تسح : تهلل . اللجين : القضة وهريد النرام .

التجب : الإبل الكريمة .

الإبريز : الذهب ، وهريد المنانير . والنائل : السلا .

(٥) العافون : طلاب المروء .

حمر : كثير .

ويطول تمره فيها ، وقد انقطعت به الحيل في الخلاص فيفزع إلى دموعه ، على شاكلة قوله :

يا ظَبْيَ وادى الأَجْرَعِ رِفْقاً بصبٍ مَوْلَعِ
ييكى نَسَى وَصَابَةً بِكَـآبَةٍ وَنَوْجَعِ
ودموعه فوق المحَا جِر كالغيث الهُمُجُ (١)
ويقول من وجدٍ ومن كَمَدٍ بقلبٍ مَوْجَعِ
حبًا المَراجِعَ والرُّبَا غِثٌ كفافِضٍ أَدْمَى
يَهْمِي على تلك الدُّبَا رِ بوابِلٍ لا يُقْلَعِ

فهو ييكى بدموع غزار لا تزال تنهم كأنها أمطار ، ولا يزال يلتاع لوعات شديدة ، كلها أوجاع وأوصاب وآلام . ويكثر غزله الرقيق من مثل قوله :

ولى من العَرَبِ ظَبْيٌ مارأى بَصَرِي شَيْهَا لَه فى الورى بَدَوًا وِلاخْصَرَا
الوردُ فى خَدَّه المَحمَرُّ من خَجَلِي بدعو إلى حُسْنِه الفَتَانِ مَنْ نَظَرَا
كم ليلَةٍ زارنى فيها على وَجَلِي مستعجلاً خائفاً مستوفزاً حَلِيراً (٢)

وتصوره لحوف المحبوبة فى البيت الأخير من أن يراها أحد معه رائع ، فهى عجلة حلزة لا تكاد تطمئن ، واختار بدقة شاعريته كلمة « مستوفزاً » ليصور فيها هذه الحركة النفسية ، فكانها دائماً مستوفزة تنياً لفرقه وتأهب لوداعه . وله بعض خمريات طريفة يجمع فيها بين الروض والخمر والغناء والصحب ، مصوراً بذلك بعض مجالس أنه كقوله :

تلاعبت مَرَحاً فى روضها القُصْبُ كشارى خَتَدَيسِ هَزْهَم طَرَبُ (٣)
قُم يا نديمى فقد نادى الهَزْأُ إلى صَهْبَا مُشْعَمَةٍ تُجَلِّى بها الكَرْبُ (٤)
يديرها رَشْأً كالشمس طَلَعَتْ وكَفَّهُ بِدَمِ الصَّهْبَاءِ مَحْتَضِبُ
فى روضةٍ أخذتْ بالزُّهر زُخْرُفَهَا وَالزَّيْنُ وَتَجَلَّتْ كُلُّهَا عَجَبُ

ولم يكن اللهو غالباً على حياته ، فتل هذه الحمرة وبِضْ كان يلعب حيناً فى سماتها وسرعان ما يجنو ، وقد أمضى شطراً كبيراً من حياته بائساً يشكو الفاقة قبل اتصاله بصمر بن بدر أميره ، ولذلك نجد عنده قطعاً يشكو فيها من حظه العائر ، نذكر منها قوله :

(١) المزار : طائر صغير الحجم حسن الصوت .

(٢) الصهباء : الخمر . المشعمة : المزوجة بالهـ .

(٣) المصح : الماطلة السائلة .

(٤) مستوفزاً : متحفزاً للقيام .

(٥) القصب : الأغصان . الختدريس : الخمر .

أراني إذا ما الليلُ جاشتُ كُتَّابُهُ أبيتُ وقلبي حائرُ الفكرِ ذاهِبُهُ
تبيتُ أفاعيُ المم في غَيْهَبِ الدُّجَى تُساورُ قلبي بالعنا وتُؤايبُهُ^(١)
وماليَ فيها قد دهانِي حيلةُ أداري بها دهرى إذا ازورَّ جانبُهُ^(٢)
فياربُ! يا ذا المَنِّ والفضلِ والعطا أغثنى فوجُ المم فاضتْ غَوَارِيهِ^(٣)

وتصوير عبد الصمد المم بأفاع لا تزال توابه طوال الليل تصوير طريف ، وشعره فيه سهولة وعذوبة ويمتخ كثيراً إلى استخدام ألفاظ اللغة اليومية ، ولعل ذلك ما جعله ينظم بهامية موطنه بعض أشعاره ، وكان يستخدم الموشحات أحياناً فيجيد فيها لسلاسة ألفاظه وكلماته .

٤

شعراء المراتي

بجانب مجرى المديح الذي كان يتدفق بالشعر من قديم كان يتدفق بمجرى الرثاء ، فلم يمت حاكم ولا قائد ولا وال ولا قاض في أقاليم الجزيرة العربية إلا رثاه الشعراء وأبنوه تأييناً يفيض بالأسى والحزن ، وكثر في هذا العصر تأيين الشيوخ والفقهاء والمعلمين ، يؤينهم تلاميذهم وزملائهم ويكون فيهم خصالهم ونسابة العلم والعلماء فيهم ، من ذلك تأيين شهاب الدين محمود بن مسكن القرشي القهري لشيخه نجم الدين الطبري قاضي مكة ، وفيه يقول^(٤) :

ما للجبون بها التَّسْهِدُ قد نرلا وما لطيب الكرى عن مُقْلَى رَحلا
ما بالُ قلبي بتذكُّار المموم له شغلٌ ودُمى إن كَفَفْتَهُ هَملا
نجمُ أضاء علينا صُنِّعَ طَرَبُهُ حتى إذا ما انجلتْ أيامه أَقْلا
مفتاحُ كثرِ علوم الدين كم فُتِحَتْ بِرِ بصائر قومٍ للورى ذُللاً

وراء مراني الشيوخ والعلماء في الحجاز مراث كثيرة في أمراء مكة الزيديين حين يلبون نداء ربهم ، وبالمثل تلقانا مراث كثيرة للأئمة الزيديين في اليمن ، كما تلقانا مراث أخرى لدعاة النحلة الإسماعيلية الفاطمية من الصليبيين وآل زريع ، وسنعرض لها في حديثنا عن

(١) تساور : توالب .

(٢) ازور : مال وانحرف .

(٣) غواريه : أعاليه .

(٤) القنداقين ٣ / ٣٢ .

شعراء الدعوة الإسماعيلية .

وفى كل زمن وكل دولة تلقانا مرثى الشعراء ، ونفس من ترجمنا لهم من شعراء المديح نجد بجانب مدائحهم مرثى كثيرة على نحو ما نجد فى ديوان ابن هتيمل فقيه باب خاص بالمرثى ، وهى تتردد عنده بين النذب والتأبين ، أما النذب فعلى أبنائه وإخوته ، وزوجته وقد بكاهها فى مرثيتين ، يقول فى إحداها^(١) :

يعزّ على أن عَظُمَ المصابُ ولا صَبِرَ لَدَى ولا احتسابُ
بنفسى عَصَرَ يَوْمَ السَّبْتِ نَفْسُ تداولُهُ المناكبُ والرَّقابُ
من الخَفِرَاتِ يُخْفِي اللَّيْلُ منها إذا ما جَنَ مالا يُسْتَرَابُ
تَكْفُنُ فى الثَّيَابِ فليت جُلْدَى لها كَفَنُ ولبت دُمى خَضَابُ

والمرثية تمتلئ بمشاعر صادقة ، مشاعر شخص اكوى قلبه بالحزن على زوجته ، ولم يعد أمامه إلا أن ينظم فيها أشعاراً تعبر عن لوعته وما يكتظ به فؤاده لما من وجد وصيابة . وله تأبين لبعض أمراء المخلاف السليمانى وحكام مسقط رأسه «نجران» بوادى «ضند» من ذلك تأيينه لحاكمها «سلطان» صاحب ضند جميعها بمثل قوله^(٢) :

الرُّزْمُ أكبر أن يقوم بيومه جَزَعُ الرجالِ وَرَنَةُ النِّسوانِ
ويلُ لَأْمُ الأرضِ ماذا ضُمُنَتْ من أعْظَمِ أَدْرَجَنَ فى الأكفانِ
ذاك التُّدَى والبأسُ بين حَفِيرَةٍ أطباقها طَوَّيَتْ على تَهْلانِ
إن التمسكُ بالسلاحِ وبالوفا من بعده ضَرْبُ من الهَذيانِ

ولم يكن يموت سلطان من سلاطين الرُسُوليين إلا ويكثر الشعراء من تأيينه وذكر خصاله وأعماله وما نهض به فى دولته ، وربما بالغوا فى بيان الحزن فجعلوا الدين والدنيا والكواكب السماوية محزونة تبكيه ، على شاكلة افتتاح الخزرجى لراثته السلطان الأفضل المتوفى سنة ٧٧٨ يقول^(٣) :

بَكَتِ الخِلافةُ والمقامُ الأعْظَمُ والمُلْكُ والدينُ الحَنِيفُ القِيمُ
والشمسُ والقمرُ المنيرُ كلاهما والأَرْضُ تبكى والسما والأَنْجَمُ
والنَّيْتُ والحَرَمُ الشريفُ بِمَكَّةَ والحِجْرُ والحَجَرُ البَمانِى الأَسْجَمُ^(٤)

(١) الحجر بكسر الحاء : ماحواه الحطم بالكسبة .
الأسعم : الأسود .

(١) الديوان ص ٨٣ .

(٢) الديوان ص ٩٧ .

(٣) المقفود القزلية ١٦٠ / ٢ .

ومدارسُ العلم الشريف وأهلُه والمسلمون فصيحهم والأعجمُ
فالعالم كله ييكي الأفضل والحرَم الشريف وكل ما فيه من مقدسات والأرض والسماء
والنجوم ومدارس العلم وأساتذته وطلابه . ومضى بصور مجده وحروبه وكرمه وبأسه
وانصباع أمراء اليمن له وعدله الذى عمَّ به رعيته . ولم يلبث أن جعل الشمس عليه كاسفة
تنوح وتلطم والأرض راجفة تميد وتهتر والجو مغبراً مظلماً وبكل ركن من بلاده حسرة وبكل
بيت مأتم . وكل هذا إسرار في التأبين ومبالغات مفرطة . ويتولى الحكم بعده ابنه
الأشرف ، وله مآثر كثيرة ، وتتوفى زوجه في سنة ٧٩٦ فيريها جماعة من الشعراء ، وهى
ظاهرة كانت تشيع في اليمن منذ عصر الصليبيين ، إذ تؤن سيدات الأمراء ، وتُعقد لتأبينها
الاحتفالات ، ويتبارى الشعراء في وصف فضائلها ويكاثروا نديها ندباً حاراً ، بمثل قول
الحرزجى ^(١) :

بكنها السما والأرضُ يومَ وفاتها وأمسى سحابُ الأفق أدمعهُ تَسرى
على وجهكِ الميمون حياً وميتاً سلامٌ يزيد العطرَ عطراً إلى العطرِ
سلامٌ على ذاك الجبينِ ورحمةً على شخصك المدفون في ذلك القبرِ

ويتوفى الأشرف سنة ٨٠٣ ولإسماعيل بن أبى بكر المقرئ فيه مربيةً بديعة ^(٢) .
ويموج كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بمراثٍ كثيرة ، وهى تتردد بين النذب والتأبين
والعزاء ، أما النذب فإننا نجد في الكتاب شعراء كثيرين يكون آباءهم مشيدين بتقواهم
وعلمهم الفياض ، كقول محمد بن عبد العليم الحولاني في رثاء والده ^(٣) :

تبكى عليه متابراً ومحابراً تبكى عليه محاجرٌ بدماء
فاقه يسكنه الجنان بفضله ويعمه بسوايح النعماء

وقد أطلال في وصف خسارة العلم والعلماء بفقده ، إذ يجعله مفسراً كالواحدى وقتادة
وعطاء بن أبى رباح ، ومتصوفاً كمكى والغزالي ، ومحدثاً يدرس لطلابه صحيحى
البخارى وسلم وموطأ مالك ، وفقياً شافعياً يتقن درس أمهات الفقه الشافعى من مثل
الوسيط في المذهب للغزالي والمهذب للشيرازى والروضة للنوى . ويكثر تأبين التلاميذ
لشيوخهم من الفقهاء والمتصوفة ، وقد يخلطونه بالعزاء كقول عبد الله بن جعفر العلوى في
شيخه عبد الله بن أبى بكر باحسن ^(٤) :

(٣) تاريخ الشعراء الحضرميين ٢/ ١٤٤

(٤) نفس المصدر ٢/ ١١٣ .

(١) المقرد الزوتية ٢/ ٢٥٤ .

(٢) نفس المصدر ٢/ ٣١٨ .

خُطِبُ أَلَمْ وَهَوْلُ هَائِلُ وَرَدَا وَنَازِلُ قَتَّ الْأَحْشَاءُ وَالْكَيْدَا
 وَقَدْ شَغَفْنَا بَدَارَ لَا وَفَاءَ لَهَا وَشَمْلُ سَكَانِهَا أَضْحَى بِهَا بَدَدَا (١)
 وَالْمَرْءُ فِيهَا كَظْلُ زَاتِلِ نَسَحَتْ أَفْيَاهُ ظَلَمْتُ اللَّيْلُ إِذْ وَقَدَا (٢)
 وَالطَّرْفُ بِالْكَ وَإِنْ الْأَرْضُ تَبْكِي أَسَى كِلَاهُمَا يَتَدُبَانِ السَّيْدُ السَّنْدَا
 تَاجُ الْكَرَامِ شَرِيفُ طَابَ عُنْصَرُهُ لِمَطْلَبِ الْمَجْدِ فِي الْأَقَافِي كَمْ وَرَدَا
 نَسْلُ الْأَفَاضِلِ يَنْبُوعُ الْفَضَائِلِ بَلْ كَثُرَ الْأَمْثَالُ خَيْرُ الْأَكْرَمِينَ نَدَا
 وَلِلشَّاعِرِ نَفْسُهُ مَرِيئَةٌ ثَانِيَةٌ فِي شَيْخٍ آخَرَ جَعَلَهَا عِزَاءً وَدَعَا إِلَى الْإِذْهَانِ لِلْقَضَاءِ فَالِدُنْيَا
 دَارُ زَوَالٍ وَانْتِقَالٍ ، وَالْأَيَّامُ تَمُضِي بِالنَّاسِ جَمِيعًا إِلَى وَادِي الْفَنَاءِ وَالْعَدَمِ ، وَالسَّعِيدُ مِنْ
 سَارِعٍ إِلَى الْمَتَابِ وَاعْتَبِرْ مِنْ يَمُوتُونَ كُلِّ يَوْمٍ ، وَانْجِبْ إِلَى رَبِّهِ وَعَمَلْ لآخِرَتِهِ . وَهَذِهِ الصُّورَةُ
 مِنَ الْمَرَاتِي كَانَتْ تَمُضُ فِي كُلِّ مَكَانٍ : فِي عَمَانَ وَالْبَحْرَيْنِ وَنَجْدٍ ، فَالْمَرَاتِي دَائِمًا نَدْبٌ أَوْ تَأْيِينَ
 أَوْ عِزَاءً ، وَقَدْ تَمْتَرَجُ الصُّورُ الثَّلَاثَةُ ، وَمِنْ طَرِيفٍ مَا نَقَرُوهُ لِلشَّاعِرِ عَمَانَ مِنْ رِثَاءِ قَوْلِهِ
 فِي أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ نِيَّانِ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٦٧٤ لِلْهِجْرَةِ يَوْمُهُ :

رَزَيْنَا هُمَامًا يَعْطَمُ الْأَرْذُ أَنَّهُ إِذَا خَطَرْتُ حَيْدُ الْمَلُوكِ خَطِيرُهَا (٣)
 تَبَوُّا مِنْ قَحْطَانٍ يَتَنَا ثِقْلُهُ قَوَاعِدُ بِنَائِهِ التَّيَكِّ وَسُورُهَا (٤)
 فِطَالٌ بِهِ أَصْلُ الْمَعَالِي وَفَرَعُهَا وَطَابَ لَهُ خَيْرُ الْمَسَامِي وَخَيْرُهَا (٥)

وَلَا يَنْ الْقَرَبِ الْعِيُونِ مَرَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي بَعْضِ الْقَضَاءِ وَبَعْضِ أَهْلِهِ ، وَلَعَلَّ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ
 نَخْصُ بِالْحَدِيثِ شَاعِرَيْنِ مِنْ شُعْرَاءِ الْمَرَاتِي هُمَا : مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التَّهَامِيُّ وَجَعْفَرُ الْخَطَّيْ
 الْبَحْرَانِيُّ .

التَّهَامِيُّ (٦)

هُوَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ بِلِقَبِهِ التَّهَامِيُّ أَيْ الْمَكِّيُّ ، إِذْ تَسْمَى مَكَّةُ
 بِاسْمِ تَهَامَةٍ . وَلِلذَلِكَ يَقَالُ الرَّسُولُ ﷺ تَهَامِي . لِأَنَّهُ مِنْ مَكَّةَ . وَتَطْلُقُ تَهَامَةُ عَلَى السَّاحِلِ
 الْمُسْتَدِّ عَلَى طُولِ الْجَزِيرَةِ شَرْقَ الْحِجَازِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ ، وَلَكِنْ نِسْبَةُ الشَّاعِرِ إِنَّمَا هِيَ إِلَى مَكَّةَ

(٦) انظر ترجمة التهامي في تمة البيهجة ٣٧/١ ودية

القصر ١١٠/١ والنجوم الزاهرة ٢٦٣/٤ وشذرات

الذهب ٢٠٤/٣ وابن خلكان ٣٧٨/٣ وغيره الكثير

١٢٢/٣ وديوانه مطبوع بمطبعة الأهرام بالإسكندرية

سنة ١٨٩٣ .

(١) بددا : متفرقا .

(٢) أفياه : ظلاله .

(٣) السيد : السادة .

(٤) التيك : عشرة ابن نبيان الأزدي .

(٥) غيرها بكسر الحاء : غيرها .

إذ ينسب نفسه إليها في بعض شعره حين نزلت به كارثة السجن في آخر حياته كما سيأتي قائلًا
عن نفسه :

وهذا التهاميُّ من مَكَّةَ برجليه يَسْتَمِي إلى حَتْفِهِ
ولا يُعْرِفُ زمن مولده ، وتدل مدائحه في الديوان على أنه ارتحل من موطنه إلى العراق
والموصل وديار بكر ، إذ بين ممدوحيه أناس من الكوفة وبغداد ومبًا فارقين وآمِدُونَصِييين ،
وأيضاً بينهم قُرَواش (٣٩١ - ٤٤١ هـ) صاحب الموصل وبواديه . ويلاحظ أن ديوانه
يخلو من مدائح أمراء مَكَّةَ ، مما يدل على أنه غادرها مبكراً . ويبدو أنه بارح كل تلك
الأثناء إلى الشام كما يذكر صاحب دمية القصر ، وبها ألقى عصاه في الرملة عند آل الجراح
أمراء طَبِيسَ ، وقد عينوه خطيباً لبلدتهم . وفي ديوانه مدائح مختلفة لأُميرهم المَرْجَ
دَغُفَل المتوفى سنة ٤٠٤ ولعله أول من استقبله من آل الجراح أصحاب فلسطين ، وعاش
في رحابه ورحاب ابنه حسان (٤٠٤ - ٤٦٧ هـ) . وكانت نفسه حدثه بالشغب على
الفاطميين - على عادة آبائه - فرأى أن يرسل التهامي إلى بني قُرَّة في صعيد مصر كي يحدثوا
شغباً عليهم ، وأرسل معه كتباً كثيرة إليهم . فقدم القاهرة مستخفياً في سنة ٤١٦ غير أن
الفاطميين ظفروا به ، فاعتقلوه في سجن خزانة البنود في السادس والعشرين من شهر ربيع
الآخر ، وظل به إلى أن توفى - أو قُتل - في تاسع جمادى الأولى من نفس السنة .
والتهامي يُعَدُّ في الذروة من شعراء الجزيرة في هذا العصر ، وفيه يقول صاحب
الدمية : « له شعر أدقُّ من دين الفاسق ، وأرقُّ من دمع العاشق ، كأنما رُوحُ بالشَّال
(الريح) أو عُلِّلَ بالشُّمول (الخمر) فجاء كتيلُ البنية ودرك المأمول » وقال ابن تغري
بردي : « كان من الشعراء المجيدين وشعره في غاية الحسن » ونقل ابن خلكان عن ابن بسام
قوله عنه في كتابه الذخيرة : « كان مشتهراً بالإحسان ، ذوب اللسان ، مخلي بينه وبين
ضروب البيان ، يدل شعره على فوز القِدْح ، دلالة بَرْدِ النسيم على الصبح ، ويُعْرَبُ عن
مكانه من العلوم ، إعراب الدمع عن سر الهوى المكتوم » . وقد اشتهر بمرثيات له في ابنه أبي
الفضل الذي هصرت المتون غصنه النضير تحت عينه ، وأهم تلك المراثي رائيته ، وهو
يستلها واعظاً ، بقوله :

حُكْمُ النِّيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي	ما هذه الدنيا بدارٍ قَرَارٍ
طَبِيعَتُ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا	صَفَوُا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
وَمَكَلْتُ الْأَيَّامَ خَيْدُ طَبَاعِهَا	مَتَطَلَّبُ فِي الْمَاءِ جِنْدُوةَ نَارِ
وَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالنِّيَّةُ بَقْظَةٌ	وَالْمَرْءُ بَيْنَهَا خِيَالٌ سَارِي

فاقضوا مآربكم عجباًلأ إنما أعماركم سقر من الأسفار
ليس الزمان وإن حرصت مسالماً خلق الزمان عدواة الأحرار
ويمثل هذه المعطات التي تمس دخائل القلوب وأعماق النفوس بفتح التهامي مرثية
لفلذة كبده ، مصوراً الدنيا وكتوسها الملبية بالأقضاء وأيامها التي تدنى الآجال وتقطع
الآمال ، وتجعل الإنسان دائماً بين يومين : يوم مضى بنكده ويومه ويوم بقى لا بدري
الإنسان هل سيقطعه إلى نهايته أو أن أنفاسه مستقطع دون غايته ، فتخرج منه النفس ويحل
في الرمس ويتجه بعد هذا العزاء الذي يذيب قواده حشرات إلى بكاء ابنه الذي اختطفه
الموت منه وهو لا يزال غصاً في كفه :

يا كوكباً ما كان أقصر عمره وكذلك عمر كواكب الأشرار
وهلال أيام مضى لم يستبذ بذراً ولم يمهّل لوقت سيرار^(١)
جأورت أعدائي وجاور ربه شأن بين جواره وجواري
أخفى من الرقياء ناراً مثلاً يخفى من النار الزناد الواري
وتلهب الأحشاء شيب مفرق هذا الضياء شعاع تلك النار

ومضى في وصف زفراته وعبراته ونيران الأسى تلذع قواده ، وقلبه يمتلئ حسرة وشقاء
ونفسه تمتلئ لوعة وعناء ممحاً ، وما الحياة ؟ إنها لم تعطه ما كان يريد من ابتسام بل أعطته
كل ما أمكن من أذى وآلام ، وإن ذكرى ابنه لمى نفس هذه الآلام الثقيل ، وإنه ليحس
إزاءها بحرق لا يزال يأخذ بسويداء قواده . والمرثية تمتد إلى مائة بيت ، ومثلها في الطول
مرثية رائية لابنه تبلغ ٧٨ بيتاً وفيها يقول محزوناً :

حماك الردى من رأي عيني وما يحا خيالك من قلبي وذكرك من ذكرى
وهو من شعراء المديح المبدعين ، ويكاد المديح يستنفذ شعره جميعه ، وهو فيه طويل
النفس ، ومن خير مدائمه ما قدمه للمفرج الطائي وابنه حسان ، وفيه يقول :
فقي جبّلت بداه على العطايا كما جبّل اللسان على الكلام
ويسراه لتبلى أو عنان ويُسناه لرنح أو حُسام^(٢)
لقد أحيا المكارم بعد موت وشاد بناءها بعد انهدام
بصفحة خذّه للبشر ماء كمثل الماء في صفح الحُسام^(٣)

(١) السرار : ليل آخر الشهر التي لا يظهر فيها القمر . (٢) لاه : هاء : الروق .

(٣) النيل : العطاء . والحسان : حسان القوس .

سواء عنده قولُ المنادي هَلُمَّ إلى الطَّعامِ أو الطعامِ
وواضح في مديحه سهولة الشعر عليه وأنه يُطلق نفسه على سجينها ، فبأنى بكثير من
المعاني الطريفة والصور البديعة ، على نحو ما يلاحظ في صورة البيت الأول ، فهي صورة
بسيطة ، فالمعطاي في يد مفرج كالكلام في لسانه لا يزال يرسلها ، ومثل هذه الصورة في
الطرافة صورة البيت الأخير ، فمدوحه لا يزال في حشد من جوده وبأسه على طعامه
وطعامه . وفيه يقول في مدحة ثانية :

هو السَّالبُ الأعداء في ساحة الوغَى وَسَلْبُهُ في ساعة السَّلَمِ زائِرُهُ
يَجْبُرُنَا عن جوده بِشَرٍّ وَجَهْدٍ وَقَبْلَ انصداعِ القَجَرِ تبدو بِشائِرُهُ
وَيَصْدُقُ فيه المَدْحُ حتَّى كأنما بِسَبْحٍ مِنْ صِدْقِ المقالة شاعِرُهُ
والبيتان الأخيران تنضح فيهما الفكرة التي أشرنا إليها آنفاً وهي سهولة كلمه مع طرافة
صوره ، مما يدل على فطرة شعرية أصيلة عند الشاعر ، ومن قوله في مديح حسان بن الفرج
من مدحة طويلة :

هو المَلِكُ يَبْلِي بُسْطُهُ قَبْلَ وقتها سَجُودُ ملوكٍ فوقها وقيامُها
بعيدٌ مداه ليس تألف كُفُّهُ من المكرمات القَرِّ إلا جسامُها
ولو أن للأفكار ضوءَ جَبِينِهِ لما زال عنها نُورُها . وَتَعَامُها
وليس بمشغولو البَنانِ عن التَّدْيِ إذا شَقَلَ الكَفُّ العَيْنَ حُسامُها
وواضح تخلصه في البيت الأخير من أن تكون بنان الممدوح مشغولة دائماً بالسيف ،
فَتَشْغَلَ عن المعطاي والكرم ، وتكثر في أشعاره مثل هذه التخلصات والصور الدقيقة . وله
نسب بالدبار وغزل رقيقان ، وكثير منها يقدم به مدامحه ، على شاكلة قوله في إحدى
مقدمات مدحة دالية :

أَتَرَوْمُ تَغْطِيَةُ الهوى بِمَحْوِدِهِ وَنَحْوُ جِسْمِكَ من أدلُّ شهودِهِ
كَمْ قَلْتُ إياك الحِجَازَ فَإِنَّهُ ضَرَبَتْ جَاذِرُهُ بِصَيْدٍ أَسْوَدِهِ
وَأَرَدْتُ صَبَدَ مَهَا الحِجَازَ فلم يُسَا عندك القضاء فصرَتْ بعضُ صُيُودِهِ
أَخْفَى هَواءَ وَهُوَ نارٌ مثلاً يُخْفِي الزنادُ ضيرامه في عودِهِ
والصورة في البيت الثاني بديعة فظاء الحِجَازَ أو جاذره تصيد أسوده ، ويحاول صيد
لها فيصبح من صيوده ، ونار الحب كامنة في قواده كمن نار الزناد في عوده . ونحس
دائماً بأن الصور والمعاني طبيعية ، وكذلك الألفاظ فهي سلسلة سائلة عذبة . وفي أشعاره
حكم وزهد ورفض للدنيا ومتاعها ، ومن طريف حكمه قوله :

وإذا جفاك الدهر وهو أبو الوري طراً فلا تنيب على أولاده
فن جفاه الدهر أو قلب له ظهر الجنب ينبى أن لا يتزل جام غضبه على الناس ، لأن
ما أصابه إنما هو من أيهم الدهر وليس منهم ، وما كان الابن ليسأل عما قدمته يد أبيه .
والحق أنه كان شاعراً مبدعاً . وكان الشعر طوع لسانه ومدّ خيالاته ومشاعره .

جفر الخطي^(١)

من قبيلة عبد القيس التي نزلت في الأحساء والقُطيف ويواديها منذ العصر الجاهلي ،
والخطي نسبة إلى الخط وكان يطلق على مدينة القطيف وعلى ساحل الإقليم كله ،
ولا يُعرف زمن مولده ، ويبدو أنه نشأ في القطيف ، وفيها حفظ القرآن وتلقن على الشيخ
مبادئ الكتابة والقراءة والعرية ، وسال يتنوع الشعر على لسانه ، واتخذ - مثل لداته -
حرفة يتكسب بها منذ أواخر القرن العاشر الهجري ولم يلبث أن غادر مسقط رأسه إلى جزيرة
أوال التي تسمى في عصرنا باسم البحرين ، حاملاً مدانعه إلى بعض أمراتها وقضاتها
وعلمائها ، واستقبلوه استقبلاً حسناً ، وأسهبوا عليه بعض عطاياهم ، وخاصة وزير أمير
البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين وقاضيا عبد الرؤوف البحراني . ولا توافى سنة
١٠١٢ للهجرة حتى يرحل إلى إيران ويتزل شيراز ، ويتردد بينها وبين أصفهان ، ويلتقي في
الأخيرة ببياء الدين العامل صاحب كتاب الكشكول ، ويعارض بعض قصائده ويعجب
بياء الدين به ويشعره ، وكان يقدمه هناك لبعض ممدوحيه ويجزلون له في العطاء مما جعله
يفضل الإقامة في إيران حتى وفاته سنة ١٠٢٨ للهجرة . وقد أشاد به وشعره ابن معصوم
في كتابه «سلافة المعصره» قائلاً في نعت : «البدیع الأثر والعبان ، الحكيم الشعر الساحر
البيان ، أتى بكل مبتدع مطرب ، وعترت في حنة مغرب . وقد وقفت على فرائده التي
لمعت ، فرأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت . ومن محاسن مراثيه مراثيه في الشيخ
أبي محمد حسين البحراني سنة إحدى وألف ، وفيها يقول :

جَدُّ الرَّدَى سببُ الإسلام فأنجَلُما وهُدًى شامخٌ دين الله فانهدما
نبكى قَتَى لم يحمل الضمُّ ساحته ولا أباح له غير الحمام جَمَى
ذا منظرٍ يَبصرُ الأعْمى برؤيته هُدًى وذا منطِقٍ يستنطق البُكَا

(١) وساحل الذهب الأسود لعبد سعيد السلم ص ٢٣٥
وديرانه طبع في إيران سنة ١٣٣٧ هـ .

(١) انظر في ترجمة جفر الخطي سلافة المعصر لابن
معصوم ص ٥٣٢ وغلالة الأثر في أمهات القرن
الحادي عشر للمهي ١/ ٤٨٣ وقلمة الريانة ٣/ ٢٠٤

لو علم الوحش ما ينشبه من حكمٍ لراح الوحش من تعليمه علماً
ما راح حتى حشا أسنانها دُراً من لفظه وسق أذنانا حِكماً
والتكلف في هذا الرثاء واضح ، ويكشفه ما يحمل من مبالغات على نحو ما نرى في
البيت الأول والثالث والرابع ، وكان يكنى الشاعر أن يطم صاحبه الناس فيصبحوا
علماء ، أما أن يطم الوحش فتتحول علماء على يديه ، فهذه مبالغة مفرطة . ويتوفى في نفس
السنة الشيخ أبو علي عبد الله بن ناصر الخطي ، فيشيعه بمرثية ، يقول في تضاعيفها :

ففي كرم آباؤه وجُدوده وطابت مساعيه فتم له الفخر
جواد له في كل أنملة مجد بصير له في كل جارة فكر
ويا بلد الخط اعتراك لفقدته مدى الدهر كسر لا يُرام له جبر
من الآن بدء الشر فيك وإنه لتصل باقي وآخره الحشر
ولو خلد المعروف في الناس واحدا لخلد عبد الله نائله القمر

وفرق بعيد بين لغة هذه الأبيات ومعانيها وصورها ولغة الأبيات السابقة وما تحمل من
معان وصور ، فهنا طواحية ومرونة في التعبير ، فالألفاظ يشع فيها الناس كما يشع في
الأفكار والأخيلة . وقد يكون السبب في ذلك أن الشاعر لم يصدر في المرثية الأولى عن تأثر
حقيقي بخلاف الثانية التي رثى فيها مواطنه الخطي . وطبيعي أن تكون أكثر أشعاره مدائح ،
مثله في ذلك مثل معاصريه ومن سلفوا قبلهم ، من ذلك قوله في وزير أمير البحرين ركن
الدين محمد بن نور الدين من مدحة طويلة نظمها في سنة إحدى وألف للهجرة .

ملك رقي درج الفخار ظم يدغ فيها لراق بعده من مطمع
وتناول كفاه أشرف رتبة لو قام يلجسها الشها كم يسطم^(١)
أندى من الغيث المثلث إذا اجتلى أحى من الليث الهزبر إذا دهم^(٢)
حييت يا كسرى الملوك نحية تربي على كسرى الملوك وتبع

والتكلف واضح في هذا المديح ، وتبدو في الأسلوب رقع غير ملائمة ، ككلمة «قام
يلجسها» وكلمة «اجتلى» أي طلبت جداوه وقائده ، بالإضافة إلى كلمة «كسرى»
المكررة في البيت الأخير . وهو يستهل هذا المديح بنفحة أي نواس المعروفة من الدعوة إلى
الانصراف عن ذكر الأطلال إلى ذكر الحمر ، وله بعض خمريات . لعل أطرفها خمرة
حالية يقول فيها :

(١) الشها : كوكب صغير من نبات نضج الصغرى . القري .

(٢) الليث : النائم الملح . الهزبر : الأسد الضخم

عاطيتها قبل ابتسام الصباح فهي تُفنيك عن سنا المصباح
 أنت تدري أن المدامة نَارُ فالتضحها بالصَّبُّ في الأقداح
 فهي تمحو بضوئها صِبْغَةَ اللَّيْلِ مل فيفقدو وَجْهَ الدُّجَى وهو ضاح
 أزيلتها وروية كدم الكَبِّ شرو أسائه مُبَيَّنة اللَّبَاح
 وواضح أن التكلف يسرى في هذه الأبيات ، وأن كلمة : «أنت تدري» في البيت
 الثاني أفسدت النسق فيه . والشرط الثاني في البيت الثالث تكرار للشرط الأول ، وكان
 يكفيه أن يشبه الحمر بدم الكباش ولا يضيف كلمة «أسائه مدية اللبّاح» . ومع ذلك كله
 يعد جعفر الخطي أهم شاعر ظهر في زمنه بالقطف والأحساء أو بعبارة أخرى بالبحرين ،
 وهو بلاريب أشهر من ترجم له ابن معصوم في سلافة العصر والهمي في نضحة الرخانة
 بالقياس إلى مواطنه .

٥

شعراء الفخر والمجاء

ظل الفخر والمجاء نشطين في هذا العصر نشاطها في العصور السابقة ، ولكن يلاحظ
 أن المصادر احتفظت بشعر الفخر أكثر من احتفاظها بشعر المجاء ، ومررنا أن الطاهر
 الجزري كان من شعراء قُرَواش صاحب الموصل وبواديه ، وله ثلاث أبيات يصف في أولها
 وثانيها الليل وظلماته وفي الثالث فرسه ، واستطرد من وصفه في كل بيت إلى هجاء شخص
 يقول (١) :

وليل كوجه البرقيدي ظلمة ويرد أغانيه وطول قرونه (٢)
 قطعت دجاجه بنوم مشرد كعقل سليمان بن قهز دينه
 على أولتي فيه التفات كأنه أبو جابر في خبطه وجنونه (٣)

ويبدو أن البرقيدي كان مغتبا ويصفه ببرودة غنائه وسوء خلقه إذا كان قوادا ، والمجاء
 في البيتين التاليين مقلد كما هو واضح . ومن المجانين المقلدين القاضي العثماني الجنبي وله
 مدائح في أمراء زبيد آل نجاح وفي غيرهم من أمراء الدول العثمانية ، ومن أقلع هجائه
 قصيدته في الداعي علي بن محمد الصليحي حين قتل سعيد بن نجاح أمير زبيد ، وفيها

(٣) الفرس الأولي : شديد السرعة إلى درجة الجنون .

(١) الدية ١ / ١٢٨ .

(٢) البرقيدي : نسبة إلى برقيد قرية بالموصل .

يصف مظلته التي كان يحمي بها من حرارة الشمس ، وكيف أن سعيداً رفع على عمودها رأسه ، يقول ^(١) :

بكرت مِظْلَتُهُ عليه فلم تُرْخِ إلا على الملك الأجل سعيدها
ما كان أتبع شخصه في ظلها ما كان أحسن رأسه في عودها
وأراد ملك الأرض قاطبة فلم يظفر بغير الباع من ملحودها
سود الأرقام قاتلت أسد الشرى يا رحمة لأسودها من سودها
وكان آل نجاح إفريقيين من الحبشة كما مر بنا ، ولذلك كفى عنهم بسود الأرقام أي
الأفامى ، والقصيدة مليئة بالثنى على الصليحي وبهجاه مرير . وللشيخ محمد بن سعيد
المكي في هجاء بعض أهل عصره ^(٢) :

اترك العُجْبَ فإ أنت سوى رجلٍ إما لضحكٍ أو لنغمٍ
كغراب السوء ينشئ مريحاً مُعْجِباً وهو أخو الشؤم الأذم
يَقِيلُ الثوبَ وفي أكثافه وسخ العِرض والآث التهم
ويلقانا الفخر في كل مكان من الجزيرة على ألسنة الأمراء والشعراء ، ومر بنا فخر عارم
لقرواش أمير الموصل وبوادي . ولياء الدولة منصور بن ديبس المزبدى (٤٧٤-٤٧٩ هـ)
أمير بوادي الحلة قصيدة يفتخر فيها بمثل قوله ^(٣) :

أولئك قومي إن أعدّ الذي لهم أكرم وإن أفرج بهم لا أكذب
هم ملجأ الجاني إذا كان خائفاً وماوى الضريك والفقير المعصب ^(٤)
بطاء عن الفعشاء لا يحضرونها سراع إلى داعي الصباح المثوب ^(٥)
مناعيش للمولى مساميح بالقرى مصاليت تحت العارض المثلهب ^(٦)
وهو يفتخر بقومه ، ويقول إنهم ملجأ الجاني يلوذ بجاههم ، فلا تمتد إليه يد ، وسأوى
الفقراء والبؤساء ، مع اجتناب للمحرمات لا يقرّفونها ، ومع مسارعة إلى الصلاة في الفجر
وطوال النهار ، ومع إنعاش للصحاب وكرم مدرار ونفاذ في الشدائد . ومن طريف
ما للرسوليين من فخر موشحاً للسلطان المجاهد الرسول يستله بقوله ^(٧) :

(١) الحريدة (قسم الشام) ٢٣٣/٣ ، ٣٧٧ .
(٢) سلافة العصر ص ٢٢٥ .
(٣) الحريدة (قسم العراق) ١٥٨/١/٤ .
(٤) الضريك : البأس . المعصب : الذي لا يبد
(٥) مناعيش : يمنون من الملوك . القرى : الضيافة .
(٦) مصاليت : ناقدون في الأمور .
(٧) الحزرجي ١٢٤/٢ .
قوله .

نلت أنا المرُّ بأطراف القنا
ليس بالعجز المَعَالى تُجَنِّي
نحن بالسيف ملكنا اليمنا

كلُّ فخر تَدعى الناسُ لنا أَعرق العالم في الملك أنا
وهو يفاخر بأسرته فخرًا شديدًا ، ويمضي فيسمى آباءه متحدًا أو مفاخرًا بشجاعته
وجوده وبذله للمال وانتجاع العُفاة السائلين له وَصَفحه الجميل وعفوه . والفخر كثير في
اليمن ، غير أننا تركناها إلى حضرموت وشاعرها ابن عقبة المتوفى سنة ٦٩٥ وشعره بموج
بالفخر من مثل قوله ^(١) :

إني امرؤ عَفُ الإزار عن الحنا لم أَغشَ منذ نشأتُ بابَ المنكرِ
إني على كَسْبِ العلومِ محيِّمٌ وبُكَايَ في طلبِ العُلا وعُمرى
إني من العربِ الذينِ يجارهم من خالصِ اليَقينِ لبَّ الجَهرِ
وتخذتُ أصحابًا إذا نادمتهم لم أَغشَ منهم من يثمُّ ويَقترى
عِلْمِي وحِلْمِي والحِصانُ وصارمِي ونَدَى يميني والعِفافُ ودَفَرِي
وابن عقبة يفتخر بسجاياء الكريمة من العفة والارتفاع عن المنكر والتحلُّ بالعلم فهو
حيه الذي يقف نفسه عليه ويكيه بكاء المحبين لصواحيبهم ، ويفاخر بأصله العربي ،
ويحدثنا عن صحابه وندمائهم من العلم والحلم والفروسة والبأس والجلود والعفاف ودقاتر
الدراسة ، ويطلِّع في الفخر بقومه من خولان وكهلان وكتلة وملوكها الأقدمين . ويكسِّط
ديوان ابن مقرب العيوني بالفخر بآبائه والأمراء من أسرته حكام البحرين وبيان ما لهم من
أعجاد ومآثر ، ويفخر كثيراً بنفسه وبشعره ، وقد يخلط فخره بالشكوى من الدهر ، على
شاكلة قوله :

تجاهلَ هذا الدهرُ في فتكَّتْ عليَّ بأنواعِ اليلايا كتابتهُ
وإني وإن أبديتُ اضْطِرَّاراً بَعْدَهُ وَأَوْجَفَ في وازورٍ للْبغضِ جانبهِ ^(٢)
لأَغْضِي على بَغْضائِهِ وازورِايرِو وأعجبُ من حُرِّ كَرِيمِ يعاتبهِ
وأستقبلُ الخطبَ الجليلَ بثاقبِ من العزمِ يعلو لاهبَ النارِ لاهبُهُ
وكأنه يحس نفسه صخرة عاتية لا يستطيع الدهر مها ألح عليه ييلاياه أن ينال منه
شيئاً ، مها أبْدَى من تكبر واستعلاء ومها عدا عليه بكوارثه ، ومها انحرف عنه وأظهر من

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٦٧/١ وتاريخ (٢) اصراراً بَعْدَهُ : ميلا ، كتابة عن الكير . لوجب
بالحليل : عدا بها للقتال . ازور : مال وانحرف .
حضرموت الباسي ١٦٩/٢ .

بفضائه . وإنه ليلقاه بعزم كالشهاب الثاقب تملو ناره على نيرانه وتحمدها فلا تشتعل ضده أبداً . ونقف عند شاعرين من شعراء الفخر والمجاء ، هما نَشَوَان بن سعيد الحميري وسليمان التيهاني التهامي .

نَشَوَان بن سعيد الحميري^(١)

من أهل جبل شامخ مطلق على « نيزه » اسمه صَبر ، ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده ، وتدل نسبته إلى حمير أنه من سلالتها ، وكان ملوكها يسمون بالأقبال والأذواء ، ونراه ينسب نفسه في قصيدته الحميرية إلى قَبَل يُدْعَى ذا سَحَر ، يقول :

أو ذو مرشد جَدْنَا القَبَل ابن ذِي سَحَرِ أبو الأذواء رَحْبُ الساحِ
ويبدو أنه أكب منذ نشأته على العلوم المختلفة ينهل منها ، حتى أصبح عالماً في اللغة والتاريخ والنحو والفقه والأصول وعلوم الأوائل وعلم الكلام ، وينص من ترجموا له على أنه كان معتزلاً . وذكروا أنه اشتغل بالقضاء في بعض محاليف اليمن وأنه كانت له في الفرائض (الموارث) وقسمتها يد . وله مصنفات مختلفة ، أشهرها « شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم » في نحو ثمانية مجلدات ، وذكرنا في الفصل الثاني أنه معجم لغوي ، وهو فيه لا يكتفى بالحديث عن اللغة بل يتبع بالحديث عن المعادن والحيوانات والنباتات والتاريخ وبعض مسائل الطب والفلسفة . وبذلك حوِّله إلى دائرة معارف لغوية وجغرافية وتاريخية ونباتية وحيوانية وطبية وقد طبع من القسم الأول إلى آخر حرف التاء في ليدن ، ثم طبع منه جزآن في القاهرة إلى آخر حرف الشين ، ويتخلل الكتاب فخر عارم باليمن وفضائلها وملوكها الأولين . وله رسالة الحور العين وقد طبعت مع شرحها طبعة سقيمة . وطبعت له بالقاهرة القصيدة الحميرية مع شرحها المسمى « خلاصة السيرة الجامعة لمعجائب أخبار الملوك التابعة » ، وهي في أكثر من مائة وثلاثين بيتاً ، استهلها بقوله :

الأمرُ جدُّ وهو غيرُ مزاحٍ فاعْمَلْ لنفسك صالحاً باصاحِ
ومضى قليلاً في الوعظ ثم خرج إلى تعداد ملوك التابعة والأقبال والأذواء ، والقصيدة بذلك من الشعر التعليمي التاريخي . وقد نال شهرة مدوية في وطنه

(١) انظر في ترجمة نَشَوَان معجم الأدباء ٢١٧/١٩ كنه ومقالة المشرق شريعتين عنه في الجزء الأول من وإنباء الرولة للنفطى ٣٤٢/٣ والخريدة (قسم الشام) كتاب المتن من دراسات المشرقين (طبع القاهرة) ٢٦٨/٣ و ٣٨٥ ونبذة الرواة للسيوطي ومقدمات هفنى ص ٧٥ .

لعمره ، لمعارفه الواسعة ، ويبدو أنه لم يكتب بالمجد العلمى فقد رأى أن يضيف إليه مجد الحكم والسلطان ، واستطاع فعلاً أن يستقل بجبل صَبَر موطنه وقلاعه وحصونه وأن يظل ممسكاً بصولجان الحكم فيه حتى وفاته سنة ٥٧٣ للهجرة . وما تأليفه القصيدة الحميرية إلا صورة من صور اعتزازه واعتزازاً لا حد له بقخطائته . وهو يسوق أشعاره جميعها في هذه العصية المفرقة لقحطان من مثل قوله :

منا التَّابِعَةُ الْإِيمَانُونَ الْأَكْبَى مَلَكُوا الْبَيْطَةَ ، سَلْ بِذَلِكَ تُخْبِرْ
من كُلِّ مَرْهُوبِ الْفَقَاءِ مُعْصِبِ بِالتَّاجِ غَازٍ بِالْجِيُوشِ مَظْفَرٌ
تَعَثَّرَ الْوُجُوهُ لِسِفِهِ وَلِرَمْحِهِ بَعْدَ السَّجُودِ لِتَاجِهِ وَالْمَقَرِّ^(١)
فَافْتَحَرَّ بِقَحْطَانٍ عَلَى كُلِّ الْوَرَى فَالنَّاسُ مِنْ صَدَفٍ وَهُمْ مِنْ جَوْهَرِ
وَإِذَا غَضَبْنَا غَضِبَةً بَيْنَةً قَطَرَتْ صَوَارِئُنَا بِمَوْتٍ أَحْمَرِ
فَقَدَّتْ وَهَادَ الْأَرْضُ مَتَرَعَةً دُمَاً وَغَدَتْ شِيَاعاً جَائِعَاتُ الْأَنْسَرِ

والآيات تحمل عصية عنيفة ، وهى عصية لا يشيد فيها بالملوك والتبابعة الأولين من قومه ، بل أيضاً لا تزال الهامة تشتد به وتتأجج في صدره ، حتى يجعل قحطان فوق الورى والناس جميعاً ، بل حتى يجعلهم من معدن غير معدنهم ، فهم من جوهر والناس من صدف ، ولاكتفصيم ، ففضيهم بملأ الوهاد دماً وأشلاء ما تزال تحط عليها النصور والصقور ، تملأ بطونها الجائعة . ولم يكتب بهذه العصية الجائعة لقومه ضد مضر والعالم جميعه ، فقد اندفع في نقائص مع الأشراف الرسيين أصحاب صَعْدَةِ ، وشاع أنه قال :

أما الحسينُ فقد حواه المُلْحَدُ واغتاله الزَّمَنُ الحَتُونُ الْأَنَكْدُ
فَتَبَصَّرُوا بِأَغَافِلِينَ فَإِنَّهُ فِي ذِي عَرَارٍ وَبِحَكْمٍ مُسْتَهْدُ^(٢)

وحين وصل البيتان إلى أسماع الرسيين غضبوا غضباً شديداً ، وعظم هياجهم ، وردوا عليه بنصف ، مهديين متوعدين بمثل قول عبد الله بن قاسم الزيدى :

أما الصحيحُ فَإِنْ أَصْلَكَ فَاسِدُ وَجَزَاكَ مِنَّا ذَابِلُ وَمُهْدُ^(٣)

في قصيدة طويلة . ووصلت أسماع نشوان ، فلم يخلد إلى الصمت والسكوت ، بل مضى يردُّ بقصيدة دالية يقول فيها :

من أين يَأْتِنِي الْفَسَادُ وَلَيْسَ لِي نَسَبٌ خَيْثُ فِي الْأَعَاجِمِ يَوْجَدُ
لا فِي عُلُوجِ الرُّومِ جَدُّ أَزْرَقُ أَبْدَأُ وَلَا فِي السُّودِ خَالٌ أَسْوَدُ

(١) تضرع : تقادح الخضر : زرد بضعه الحار بحت القنوسة .

(٢) العرار : زهر بلوى ويقصد بلوى العرار أن الحسين

استشهد بالقلاة قرب الكوفة مكان التجف الحالية

(٣) ذابيل : رمح . مهتا : سب .

ومضى يتصل من البيتين السابقين . غير أنه ساق تتصله في تهكم وسخرية لاذعة من تهديده بسفك دمه ، قاللاً :

لَدَعِ التَّهْدِيَّ بِالْحَسَامِ جِهَالَةً فَحُصَاكَ الْقَطَاعَ لَيْسَ لَهُ يَدٌ
مَنْ قَدْ تَرَكْتَ بِهِ قَتِيلًا ؟ ! أَتَيْتُ ، مِنْ نَوْعُهُ وَمَنْ تَهْدِي
إِنْ لَمْ أَمْتُ إِلَّا بِسِفْكَ إِنِّي لَقَرِيرٌ هِينٌ بِالْبَقَاءِ عَقْدُ
وَكُلُّ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْتَمِلَ مِنْ نَشْوَانٍ فِي سَبِيلِ دِفَاعِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ
وَصَمَّ جَبِينَهُ وَصَمَّةً لَا تَحْمِي بِالْآيَاتِ التَّالِيَةِ :

مَوْبَى قَرِيشُ فَكُلُّ حَيٍّ مَيِّتٌ لِلْمَوْتِ مَنَا كُلُّ حَيٍّ يَوْلَدُ
قَلَمٌ لَكُمْ إِرْثُ النَّبِوةِ دُونَنَا أَزْعَمْتُمْ أَنْ النَّبِوةَ سَرَّمْتُ
مَنْكُمْ نَبِيٌّ قَدْ مَضَى لِسَيْلِهِ قَلَمًا فَهَلْ مِنْكُمْ نَبِيٌّ يُعْبَدُ
وهذه سفاهة وخرق وحاقة ، ويقول العباد الأصفياء تعليقاً على هذه الآيات : « قالته
الله ولعنه وأخزاه ، ما أشد افتراءه على الله وأجراه ، وأبى فضيحة فوق هذا ولولا النهي
المصطفى الذي اختاره الله واجباه ، وجعله الوسيلة إلى نيل رضا ، صلوات الله عليه
وسلامه ، ما سعدوا ولا فازوا ولا حازوا من الشرف والفضيلة ما حازوا » وحققاً إنها كلمات
خيصة كلها نكد وخزى ووبار ، ولو أن الشاعر وجه شره وجهة أخرى غير وجهة هذه
العصية الحرقاء لكان ذلك له أفضل وأجدى .

سليمان النباهي^(١)

آخر سلاطين بني نيبان الممانيين ولا يُعرف تاريخ مولده ، وقد عاش حتى سنة ٩١٥
للهجرة وكانت حياته في الحكم سلسلة من الحروب بينه وبين أخيه وبين خوارج
زُزوى ، منها وقعة « حَمَت » بينه وبين خوارج زُزوى لعهده إمامهم عمر بن الخطاب ، وفيها
انهزم عمر ، ودارت الأيام واتصر عمر عليه ، وسرعان ما توفى فتتفّس سليمان الصعداء
وعاد إلى عاصمته وأخرج منها شيوخ الخوارج المقيمين بها . وحارب الخوارج في واقعة أَرْزُكِي ،
ودارت الدوائر عليه . وما زال به أبو الحسن بن عبد السلام الذي ولي أمر الخوارج بعد
عمر بن الخطاب ، حتى غادر الديار إلى هَرَمُز في أرض فارس ومات أبو الحسن فعاد
واسترد سلطانه ، غير أن الممانيين بايعوا إمام الخوارج محمد بن إسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦

(١) انظر في ترجمة سليمان النباهي نخبة الأعيان ديوانه عز الدين التتري ، وهي مقدمة بدية . والديوان
لنور الدين السلي ٣٧١/١ وما بعدها ومقدمة صق طبع بمطبع .

ونشبت بينها موقعة الحمة وهزم فيها سليمان ولم تقم له بعدها قائمة . وبذلك ضعفت دولة
التيانيين وكاد يقضى عليها قضاء نهائياً . وديوانه يفيض بثقافة لغوية وأدبية جيدة ، وهي
ثقافة تتضح بجلاء خلال معارضاته الكثيرة للشعراء ، إذ كان يعارض أشعار الجاهليين
من أمثال امرئ القيس وطرفة وعنترة وزهير وعمرو بن معد يكرب والثبابة والأعشى وأشعار
الإسلاميين من أمثال جرير والفرزدق وذو الرمة وكثير وقطرب بن القُجاعة وأشعار
العباسيين من أمثال أبي نواس وأبي العتاهية وأبي تمام والبحتري وابن دريد والتهني
وأبي العلاء . وقد تتبع محقق الديوان الأستاذ عز الدين التنوخي ذكره للمواطن والأماكن
التي نثرها امرؤ القيس في أشعاره ، كما تتبع أخذه من عنترة ومعارضته لطرفة في معلقته
وعمر بن معد يكرب في داليته وابن دريد في مقصودته وأبي نواس في خمرياته وما تطوى
من معان وصور وأوزان وقواف ، ولاحظ معارضته لأبي العلاء في قصيدته (ألا في سبيل
الهدى) وأنه استعار منه المعاني وكثيراً من الألفاظ كما استعار الوزن والقافية ، على شاكلة
قوله :

ألا في سبيل المجدي ما أنا صانعُ فَنُفُوعُ وَضَرَارُ وَمُغْطِئُ وَمَانِعُ
وَإِنِّي لَنُو طَعْمَيْنِ شَهْدُ يَشُوهُ رَحِيقُ وَسَمٌ دُونَهُ السُّمُّ نَاعِ

ولكن من الحق أنه مع هذه المعارضات الكثيرة في ديوانه وإغاراته على معاني
الأسلاف وأغلبتهم وأفكارهم شاعر مجيد يحسن رصف الكلم . والموضوع الأساسي في
ديوانه هو الفخر ، وهو شيء طبعي ، لأنه كان سلطاناً وصاحب دولة ومن فخره الذي
يصور فيه بساطه وشجاعته :

يَمِيناً بِالصُّورِمْ وَالْحِرَابِ وَبِالْحَقْلِ الْمُسَوِّمَةِ الْعِرَابِ^(١)
وَكُلُّ مُفَاضَةٍ كَالْتَهْنِ سَرْدُ قَرْدُ الْمَضَبِ مَقْلُولِ اللَّبَابِ^(٢)
أَنَا ابْنُ السَّابِقِينَ إِلَى الْمَعَالِ وَرَغْمُ الصَّبْدِ وَالشُّوسِ الْفِضَابِ^(٣)
أَنَا الْمَلِكُ الَّذِي سَادَ الْبَرَايَا مَقَرُّ الْفَخْرِ وَالْحَبِّ اللَّبَابِ
وَلِي يَوْمَانِ مِنْ نَعَمَى وَيُوسَى وَلِي طَعْمَانِ مِنْ أَرْيِ وَصَابِ^(٤)

ويتضح لنا من هذه الأبيات صوته في الفخر ، فهو يقسم بأدوات الحرب والبأس أنه

(١) السومة : اللطمة . العرب : الجبهة .
(٢) اللقاعة : النزع . التهنى : التدمير . والشعراء :
يشير النذوع وغفلتها بجاء الألفاظ حين ترجمها الريح
تحدثت فيها حركات وغضوات . سرد . منسوجة .
(٣) الصبد : السيف . اللباب : الحد .
(٤) الأري : حمل التحل . الصاب : الر .

سبليل السابقين إلى الشرف : شرف النسب وشرف الفعال ، ويتمدح بأنه كالمندرين ماء السماء الذى كان يتخذ له يومين كل عام يوم نعى ويوم يؤسى وأن له طعمين حلواً ومرّاً . وهو يلتقى مع نشوان بن سعيد فى الإكثار من الفخر بقحطان وملوك اليمن وأقيالها بمثل قوله :

ونحن ملكنا الجبّتين بمأرب ودُسنا برغم أنف كبرى وقبصر
ويكثر من تعداد أسماء هؤلاء الأقيال والملوك ، ولكنه لا يبلغ من التيه بهم والزهو مبلغ نشوان ، وإن كنا نحس عنده أيضاً نغمة الفخر على تزار حين يردّد ما قدمه الأنصار للرسول ﷺ وما أدوه من جهاد فى سبيل إعلاء الإسلام وما بذلوا من الأرواح والأموال ، على نحو ما نرى فى قوله :

ولولا الملوك الصيّد قومى لم يُقيمَ لعمرى قومُ قبلة الصلوات
ضربنا على الإسلام أبناء هاجر فدانوا وأدوا واجبَ الزكوات
ويقصد بأبناء هاجر قريشاً ، وهى أم إسماعيل عليه السلام كما هو معروف . وكثيراً ما يبلغ مبالغت مفرطة فى فخره تتجاوز الحدود كقوله :

وهبَ الإله لى الفضائل مثلاً أعطى الكليم الصُحفَ والألواح
والكليم هو موسى عليه السلام ، وما كان أغناه عن مثل هذه المبالغة . ويكثر فى ديوانه من ذكر الأبطال والغزل ، وهو فيها مقلد يحتذى على معانى الأسلاف وصورهم . ويتعرض كثيراً لوصف الناقة ، وأهم من وصفه لها وصفه للفرس لأنه يتصل بشجاعته وحروبه ، غير أنه لا يأتى فى الوصفين بجديد ، ويكثر من ذكر الصيد وهو طبيعى لأمر يجد فراغاً كثيراً . وله قصيدة ميمية يصف فيها حمار الوحش وأتته ومسيرته معها فى الصحراء بحثاً عن ماء حتى إذا ألمّ به أرسل عليه وعلى الأنثى صائدٌ متربص وراء الأشجار سهامه ، فأخطأت الصيد ومضى الحمار وأتته عبر الصحراء . ويتلو هذا المشهد بمشهد ثانٍ لمعركة بين ثور وكلاب صائد ، ويذكر لنا لون الثور وميته بين أشجار تقيه صوب الغمام ، حتى إذا أسفر الفجر وخرج الثور من كئاسه أرسل الصائد عليه خمسة كلاب ، فقتل منها اثنين ، ومضى يشق طريقه فى الفلوات مثيراً للغبار من حوله . والشهيدان متقولان حرقاً من بائنة ذى الرمة المشهورة التى عرضنا لها فى كتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأُموى ولم يتمس الشاعر منه الشهيدين فعسب ، بل التمس أيضاً بعض عباراته ومعانيه ، حتى وصف ذى الرمة لثوره بأنفته من الفرار من المعركة نجده عند النيهان إذ يقول :

واعتاده أنفُ الكريء سر فكر كالبطل المحامى

وللخمر حيز كبير في الديوان ، ويستظهر الأستاذ عز الدين التنوخى أنه كان يطلق
 لنفسه العنان في مطالع حياته ، ويقرن إحدى خمرياته إلى خمرية لأبي نواس ، وبين
 مدى إغارته على معانيها وصورها وعلى الوزن والقافية ، ومن شعره في الخمر قوله :
 وكم جنة في الأرض دان قطوفها بها عُرقاتُ أما عُرقاتِ
 قضينا بها أيامنا بمدامة لدى قاصرات الطرف بين سقا
 وحور كأمثال الدُمى وبراغز بطرقتنا بالثاني والنفاتِ
 وواضح أنه لكي يحمّل صورة الجنة جاء بقاصرات الطرف اللاتي يقصرن عيونهن على
 صواحين ولا يلتفتن إلى غيرهم ، كما جاء بالخور العين وأضاف إليهن أولادهن من البراغز
 وهن بطرنتهم بالضرب والعزف والغناء على الآلات الموسيقية . ويبدو أنه كثيراً ما كان يفكر
 في الدنيا ونوائها إذ نرى له بعض مواعظ في ديوانه - وله رثاء حار لأخ ثار عليه وقته -
 ولعل من الطريف أن نجد بعض قصائده بالصلاة على الرسول ﷺ ، على شاكلة
 قوله في خاتمة إحدى قصائده :

وأختمُ شعري بذكر الرسولِ نبيُّ البرية نورِ الظلامِ
 وفي الحق أنه كان شاعراً مجيداً ، وتكثر معارضاته واقتباساته من الشعراء السابقين : غير
 أن ملكته الشعرية كانت ملكة خصبة .

الفصل الرابع طوائف من الشعراء

١

شعراء الدعوة الإسماعيلية

كان أول ظهور للدعوة الإسماعيلية في الجزيرة العربية على يد حمدان قرمط الذي ينسب إليه القرامطة ، وقد أخذ يدعو دعوته القرمطية الإسماعيلية منذ فواتح الربيع الأخير من القرن الثالث للهجرة في سواد الكوفة والبصرة . وأرسل أحد دعائه المسمى أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنائي إلى البحرين ، فنشر الدعوة فيها واستطاع في سنة ٢٨٦ أن يؤسس بها لنفسه وأبنائه دولة هناك ، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . وظلت دولته قائمة يتناوب عليها أبنائه وأحفاده حتى سنة ٣٥٨ إذ قطعوا علاقتهم بالفاطميين نهائياً - ودخلوا في طاعة الخليفة العباسي وخطبوا له على المنابر ، وبذلك يتضح كيف أن الأعصم أميرهم حارب الفاطميين - كما مر بنا - تحت راية العباسيين سنة ٣٦٠ . وقد أرسل حمدان قرمط داعيين من دعائه إلى اليمن أحدهما يميني هو علي بن الفضل والثاني كوفي هو منصور بن حوشب ، واستطاع علي أن يستولى على صنعاء ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، غير أنه قلب للقرامطة وللفاطميين ظهر المجن ، فأخذ يدعو لنفسه ، وزعم لأتباعه أنه نبي وأنه جاءهم بشريعة جديدة تحمل لهم المحارم والمآثم وترفع عنهم الصلاة والصيام والحج ، ويروى أنه صعد يوماً المنبر وأنتد له أول بعض شعرائه (١) .

خُلِدَى العَرْدُ يَا هَلِهُ وَاضْرِبِي	تَقِيمُ شَرَائِعَ هَذَا النَّبِيِّ
تَوَلَّى نَبِيٌّ بَنِي هَاشِمٍ	وَجَاءَ نَبِيٌّ بَنِي يَعْرَبٍ
أَحْلَى الْبَيَاتِ مَعَ الْأُمَهَاتِ	وَمِنْ فَضْلِهِ زَادَ حِلَّ الْعَصِيِّ
وَقَدْ حَطَّ عَنَّا فُرُوسَ الصَّلَاةِ	وَحَطَّ الصِّيَامَ فَلَمْ نَتَّبِعْ

(١) الفصول السليمانية ١/ ١٤٢ .

ولا نطلب السقي عند الصفا ولا زورة القبر في يثرب
فهو نبي يثرب أو قحطان كما يزعم زورا وبهتانا بل كفرا وضلالا . ولم يلبث عبد الله
والإسلام أن لقي حتفه - كما مر بنا - في سنة ٣٠٣ بمشروط حسنى متطلب ظل يترصده حتى
وجد الفرصة سانحة . أما منصور بن حوشب فنفض يده من القرامطة واتصل مباشرة
بالفاطميين حين كانوا لا يزالون في المهديّة بالقرب من تونس ، واتخلوه داعية لهم في اليمن
فاستولى على بعض الحصون ، وتوفى سنة ٣٣١ فخلفه ابنه حسن على الدعوة . وتوفى
وظلت الدعوة قائمة وظل لها دعاة مختلفون ، وتولاها الداعي الكبير على بن محمد الصليحي
(٤٣٩ - ٤٥٩ هـ) مؤسس الدولة الصليحية باليمن كما مر بنا ، وكان قد تلمذ على داع
فاطمى يبنى يسمى سليمان بن عبد الله الزواحى ، حتى إذا مات خلفه عليها ، وكان يستغل
الحج إلى بيت الله الحرام وسيلة لنشر دعوته في اليمنيين الذين يتجمعون هناك من أنحاء
مختلفة . وبإيعامه رؤساء قبيلة همدان على نصرته ، ولم يلبث أصحابه أن تكاثروا فاستولى بهم
على صنعاء وعدن وزيد ودانت له البلاد من مكة إلى حضرموت ، وكان شاعرا ، وتنسب
إليه أشعار جيدة ذكرنا منها بيتين في مسهل حديثنا عن كثرة الشعراء في الفصل الماضى ،
ويشك بعض القدماء فيما ينسب إليه من شعر أحيانا ، ويقولون إنه كان ينظمه بعض
الشعراء على لسانه ^(١) . ويذكرون أنه لما قطع الشريف شكر أمير مكة ذكر اسم المستنصر
الفاطمى من خطبة الجمعة سنة ٤٥٣ تبادل معه رسائل تحمل تهديداً ووعيداً ، وكان مما
أجابه به الشريف شكر قصيدة سينية ينذر فيها بحرب مبيدة فأمر شاعره عمرو بن يحيى الهيمى
أن يرد عليه بقصيدة تنقض قصيدته نقضاً ، فردّ بقصيدة طويلة يقول فيها على لسانه ^(٢) :

دَمُ الأبطال في اليوم العَبَوسِ مَدَامى لاشرابُ الخندريسِ
وكم ملكُ أمِرتُ وكم خميسِ أباد سرائهُ قَلأُ نخيسِ ^(٣)

وكان الهيمى مائني يشيد بعلى الصليحي وحروبه وماسجّل فيها من انتصارات . وكان
لا يهنض بعمل دون أن ينشده بعض مدائمه ، من ذلك أنه لما عزم على الحج في سنة ٤٥٩
وأناّب عنه ابنه أحمد المكرم انبرى الهيمى ينشد ^(٤) :

إِنَّ سَيْفَ الإمامِ كالْبَحْرِ ذى المَوْجِ جَرَّ له في البلادِ مَدًى وجَزْرُ
ولئن ساءنا فرائقُ على فيحْمَدُ ابنه لنا ما يَسْرُ

ولم نكتب لعل الصليحي العودة إلى عاصمته ودياره من الحج ، إذ كان قد استولى من

(٣) الحميس : الجيش . السراة : السادة .

(٤) الحميدة (قسم الشام) ٢٢٧/٣ .

(١) الحميدة (قسم الشام) ٢٢٦/٣ .

(٢) الخلاص سليمان ٢٧/٢ .

آل نجاح على زيد ، فرصده سعيد بن نجاح - وكان معه أخوه جياش - في عودته ، وكانت برفقته زوجته أسماء ، فاغتاله ، واقتاد زوجته أسيرة ، وأخذ الثمراء يعزّون فيه ابنة المكرم ويرثونه ، من ذلك قول الهشبي (١) :

وَأَنشَأَ الْحَجَّ إِلَى مَكَّةَ يَبْنِي رِضَا اللَّهِ وَأَجْرًا جَزِيلًا
وَارْتَجَتْ الْأَرْضُ لَهُ هَيْئَةً بَيْنَ بَيْنِ فُرَاتٍ وَنِيلٍ
فَإِنْ يَكُنْ نِيلٌ عَلَى غُرْفَةٍ فَالْبَدْرُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَقُولِ

وظلت السيدة أسماء في الأسر ثمانية أشهر إلى أن استطاع ابنها المكرم في سنة ٤٦٠ أن يستخلصها من الأسر ويرد إليها حريتها . وفي العام التالي قتل سعيد وهرب أخوه جياش إلى الهند . وكانت للسيدة أسماء أعمال بكثيرة ، وكان يُحطَّبُ لها على المنابر بعد الخليفة المستنصر وزوجها على الصليحي (٢) ، وفيها يقول الهشبي (٣) :

رَسَمْتُ فِي السَّاحِ سَنَةَ جُودٍ لَمْ تَدْعُ مِنْ مَعَالِمِ الْيُحْلِ رَسْمًا
قُلْتُ إِذْ عَظُمُوا لِلْقَيْسِ عَرْشًا دَسْتُ أَسْمَاءَ مِنْ دُرَى النُّجُمِ أَسْمَى

وكانت السيدة أروى بنت أحمد زوجة السلطان المكرم لانتقل عنها فضلا ، وقد نشأت في حجر السيدة أسماء وعُتبت بزينتها وأحضرت لها الدعاة كي يعلموها أصول الدعوة الإسماعيلية الفاطمية . وتوفى زوجها سنة ٤٧٧ فأسند الفاطميون إليها الدعوة وتدير شئون الدولة الصليحية ، فكان يُحطَّبُ لها على منابر اليمن . واستطاع جياش بن نجاح أن يسرد زيد سنة ٤٧٨ وكان مما أعانته على ذلك نشوب نزاع شديد بين أسعد بن شهاب واليها الصليحي ووزيره على بن القيم ، ويقال ان ابن القيم أحسن استقبال جياش حين دخل زيد ، وتزوجت السيدة أروى بالداعي سبأ بن أحمد الصليحي وأشركه معها في الحكم وكان شاعرا جواداً ، وفيه يقول ابن القاسم من قصيدة (٤)

وَلَا مَدَحْتُ الْهَيْزَرِيَّ ابْنَ أَحْمَدٍ أَجَازَ وَكَافَانِي عَلَى الْمَدْحِ بِالْمَدْحِ
فَعَرَضَنِي شِعْرًا بِشِعْرِ وَزَادَنِي عَطَاءَ فَهَذَا رَأْسُ مَالِي وَذَا رِيشِي

وتوفى سبأ سنة ٤٩١ وظلت أزمّة الأمور بيدها إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ . وبوفاتها انتهت هذه الدولة الإسماعيلية ، وترغم الدعوة في اليمن بعدها آل زُرَّيْع أصحاب عدن وكانوا يُجْزَلون العطايا للشعراء حتى عُدُّوا عند بعض أمراءهم بالعشرات ، وأكبر

(١) المحدثان ص ١٠٣ والخلاف السلطاني ٣٢/٢ . خطأ أسعد بن يحيى . انظر المحدثان ص ٦٧ .

(٢) المحدثان ص ٦٧ . (٤) ابن خلكان (طبع دار الثقافة بيروت) ٣٣٧/٢ .

(٣) تاريخ اليمن لمبارة طه كاي ١٦ والشاعر يسي فيه والمهزبي : الأسد .

شعراتهم غير منازع أبو بكر الميذى . وله مدائح طنانة في الداعي الزريعي عمران بن محمد ابن سبأ من مثل قوله (١) :

مَا إِنْ تَحَطَّ يَدُ الْمَلِكِ أَوْصَافُهُ إِلَّا بِسُرِّ الْخَطِّ لَا بِيَرَاعٍ (٢)
لَوْ أَنَّ تَبِعَ كَانَ أَدْرَكَ عَصْرَهُ أَضْحَى لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَتْبَاعِ
خَضَعَتْ لَهُ غَلْبُ الْمُلُوكِ وَإِنَّمَا خَضَعَتْ لَضَرَارٍ لَهَا نَقَاعِ
وَعَنْتْ لِعَالِي الْقَدْرِ مِنْهُ مُؤَيَّدٍ مَاضَى الْأَوَامِرِ فِي الزَّمَانِ مَطَاعِ
وَالْمَالُ مَقْتَسَمٌ مُشَاعٌ عِنْدَهُ يَدُ الْتَدْيِ وَالْجُدُّ غَيْرُ مَشَاعِ

وروى له العباد في الحريرة مدائح كثيرة مُعْجَبًا بها ، وذكر أنه كان وزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء بها ، وينقل عن عمارة الجني إشادة قوية ببيانه وبلاغته . ومع كثرة ما أنشده العباد من مدائحه للداعي الزريعي لانجده فيها إشارات للمذهب الإسماعيلي ، وبالمثل ما أنشده لشعراء الصليحيين ، والعباد في خريدته يتحاشى مثل هذه الإشارات إلا ما جاء عفوا على نحو ما يلاحظ في القسم الخاص بشعراء الدولة الفاطمية في مصر ، واتخذت موقفه أكثر كسب التراجم في عصره وبعد عصره ، وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من الشعراء الإسماعيليين الجنيين في العصر ، وهم ابن القم ، والسلطان الخطاب ، وعمارة الجني .

ابن القم (٣)

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن القم ، وُلِدَ بِزَيْد ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، واستبقت موهبته الأدبية مبكرة على ما يظهر ، وكان أبوه علي من أنصار علي بن محمد الصليحي وشيعته ، فحين وُلِّيَ الْأَسَدُ بْنُ شِهَابٍ عَلَى زَيْدٍ وَتِهَامَةَ بَعْدَ اسْتِثْلَائِهِ عَلَيْهَا سَنَةَ ٤٥٢ جُمِلَهُ وَزِيْرَهُ . ويبدو أن الأب ألحق ابنه بدواوين علي الصليحي في صنعاء منذ سنة ٤٥٨ على الأقل إذ نجده يهني المكرم ابنه بزواجه من السيدة أروى الملقبة بالملكة الحرّة في هذه السنة منشداً :

وَكَرِيمَةُ الْحُسَيْنِ تَكْنَفُ قَصْرَهَا أَسَدٌ تَخَافُ الْأَسَدُ مِنْ صَوْلَاتِهَا
ظَفَرَتْ بِدَاكِهَا فَبَغَّ إِنَّمَا لَكَ تَلَذُّرُ الْعُلَيَاءِ مَضْنُونَاتِهَا

أنشج وكتاب «الصليحيون» للهمداني في صفحات مختلفة (انظر القهرس) والحلائل السلطاني ٤١/٢ . وداجع أيضاً في ترجمته وشعره للقيد في أخبار صنعاء وزيد لعمارة الجني تحقيق محمد بن علي الأحمري .

(١) الحريرة (قسم الشام) ١٨٢/٣ .
(٢) سحر الخط : الرماح . الميراج : القلم .
(٣) انظر ترجمته وأنشاده في الحريرة (قسم الشام) ٧٤/٣ ومجموع الأدباء ١٠/١٣٢ وفوات الوفيات (نشر مكتبة النهضة المصرية) ١/٢٧٨ ومجموع البلدان : مادة

ولا توفى على الصليحي رثاء على لسان أخته السيدة تحفة . وسرعان ما أخذ الشعراء يحرّضون ابنه السلطان المكرم على الأخذ بثأره والانتقام من سعيد بن نجاح وأخيه وكانوا حبّشانا ودولتهم حبشية كما مر بنا . وانبرى الحسين بن علي بن القم يخشع هو وقومه على الانتقام لعلى الصليحي بمثل قوله :

أَفْخَطَانُ هَزَى الْبَيْضَ وَاعْتَقَلَ السُّرَا وَرَدَّى الْعَوَالِي مِنْ دِمَاءِ الْعِدَا حُمْرَا ^(١)
وَلَا تُهْدِرِي ثَارَ الْمَقْتَرِ إِنَّهُ بَنَى لَكُمْ مَجْدًا وَشَادَ لَكُمْ فَخْرَا ^(٢)

وليس في المصادر التي بين أيدينا مدائح له في المكرم ، ولكن أثرت له بعض رسائل وجهها على لسانه إلى المستنصر الخليفة الفاطمي ، مما يدل بوضوح على أنه كان كاتب الإنشاء في عهده ، بينما كان أبوه وزير أسعد بن شهاب في زيد . كما أسلفنا ، ويبدو أنه استقبل جيتاش بن نجاح استقبالا حسنا حين استولى على زيد ، وربما كان من أسباب استيلائه على زيد . وأكبر الظن أن الحسين لم يشارك أباه في خروجه على الصليحيين ، على كل حال شعره يدل على أنه ظل يخدم الملكة الحرة أروى وزوجها سبأ ، وله فيها قصيدة دالية بديعة يقول في تضاعفها :

أَعْلَمْتُ أَنَّ مِنَ الرِّمَاحِ قُلُودًا وَمِنَ الصَّفَاحِ عَاجِرًا وَنُهُودًا
أَعْلَى الْأَنَامِ أَبَا وَأَكْرَمُ طِينَةً وَأَنْتُمْ أَعْرَاقًا وَأَصْلُبُ عُودًا
لَوْ كَانَ يُعْبَدُ لِلْجَلَالَةِ فِي الْوَرَى بَشَرٌ لَكَانَتْ ذَلِكَ الْمَعْبُودَا
هِيَ نِعْمَةُ اللَّهِ الَّتِي مَا مَآؤُهَا تُمْدَدُ وَلَا مَعْرُوفُهَا بِمَحْجُودَا ^(٣)

والبيت الأول رائع في تصوير حزم هذه السيدة وقدرتها على تصريف شئون الحرب ، إنها ذات بأس وجلال وجمال ، ومن المؤكد أنه ظل على كتابة الإنشاء لما بعد وفاة السلطان المكرم ^(٤) وكذلك لزوجها سبأ بن أحمد حتى توفي سنة ٤٩١ إذ ينص القدماء على أنه كان يقيم معه في حصن أشيخ حتى وفاته ، وفيه يقول من مدحة بائية :

إِنْ ضَامَكَ الدَّهْرُ فَاسْتَعَصِمْ بِأَشِيخٍ أَوْ أَزْرَى بِكَ الْفَقْرُ فَاسْتَعِظْ بِنَانَ سَبَا
تَخَالُ صَارِمَهُ يَوْمَ الْوَعَى نَهْرًا تَضُرْمَتْ حَاقَاتُهُ مِنْ دَمٍ لَهَا

والصورة في البيت الثاني طريفة ، وكان يحسن اجتلاب الصور والمعاني ، مع جزالة الأسلوب ونصاعته ، وفي سبأ يقول من قصيدة ثانية :

(١) البيض : السيوف . السر : الرماح . العوالي : قلاباً .

(٢) أنة السيوف والرماح .

(٣) في القيد لمادة أنه (كان شاعراً ومترسلاً بكعب من

السيدة الحرة إلى الديار المصرية) .

(٤) المقتدر : لقب على الصليحي .

كريمٌ إذا جادت فواضلُ كفو
وما كنت أدري قبل قطعِ هباته
تَبَقَّتْ أَنَّ الْبُحْلَ مَاتَقَمَلُ السُّحْبِ
إِلَى الْغِيَايِ أَنَّ أَنْعَمَهُ رَكْبُ

والصورتان طرفتان ، ويروى أنه سمع بيتا لابن سنان الخفاجي معاصره ابتكر معناه
كما يقول العاد- نقلا عن نجم الدين بن مَصال- وقد أحسن صياغة مغزاه ، وهو :

طَوَيْتُ إِلَيْكَ الْبَاخِلِينَ كَأَنِّي سَرَّيْتُ إِلَى شَمْسِ الصُّحَى فِي الْغِيَاهِبِ

وهو بيت من قصيدة له في ناصر الدولة أبي علي بن ناصر الدولة بن حمدان ،
فأعجب به إعجابا شديدا وقال : واقعه لآخذن هذا البيت منه ، وما هي إلا أن مدح سبأ
ابن أحمد فقال فيه :

لَفَظْتُ مُلُوكَ الْأَرْضِ حَتَّى رَأَيْتُهُ فَكَنتُ كَمَنْ شَقَّ الظَّلَامَ إِلَى الصُّبْحِ

يقول العاد : « ولم يقصر في هذا المعنى لكنه لم يبلغ رتبة ابن سنان فيه » . وربما لم
تعجبه كلمة « لفظت » عند ابن القم وربما فضل شمس الضحى في بيت ابن سنان على
الصبح في بيت ابن القم ، ولكن هذا تشریح أكثر مما ينبغي ، ومن المؤكد أن بيت ابن
القم بدیع . ولاحظ الدكتور شكرى فيصل في تعليقاته على أبياته في الحريدة أنه كان يتأثر
غير شاعر ، من ذلك أنه ردَّ قوله في جَبَّاش بن نجاح :

وَمَأْنَتْ إِلَّا الْبَدْرُ أَظْلَمَ مَتَرَلُ وَكَلُّ مَكَانٍ نَوْرُهُ فِيهِ سَاطِعُ

إلى قول البحرى في مديح الفتح بن خاقان :

وَيَدْرُ أَضَاءَ الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَجُلٍ مِنْهُ أَسْوَدُ مَظْلُمُ

والصلة بين اليتين واضحة ، ولكن ابن القم مع ذلك حاول أن يحدث تحويرا في
الصورة بحيث تُنسب إليه ، ويدل هذا البيت من قصيدة في عتاب جبَّاش وقصائد أخرى
في عتابه على أنه حاول الاتصال - أو اتصال - به فعلا مما جعل سبأ بن أحمد يسخط
عليه ، وكأنما أنضم ذلك إلى صنيع أبيه الذي أسلفناه مما جعله يكتب إلى سبأ بن أحمد
معتذرا مستعظما . ويرد الدكتور شكرى فيصل أيضا أبياتا مختلفة له في ملحمة ميمية إلى
المنهى ، من ذلك قوله فيها :

كَأَنَّ مَوَاضِيَهُ طُمِئِنَ مِنَ الشَّجَا فَهَنْ مِنَ الْأَعْدَاءِ بَيْنَ الْقَلَاصِمِ

فقد ردَّه إلى قول المنهى في مديح علي بن إبراهيم التنوخي :

وَقَدْ صُنَّتِ الْأَسَنَةُ مِنْ هَوَمٍ فَهَا يَخْطُرُنْ إِلَّا فِي الْقَوَادِ

وبت انتهى أروع إذ أين الشجا والهموم من الغلاصم التي تصل بين الرأس والعتق .
بينما موضعها القلب والفؤاد . وردّ قوله في نفس القصيدة يصف الإبل التي ركبوها إلى
المدوح :

قَصْدُنْ بِنَا مَنْ لَوْ نَجَّيْنَا قَصْدَهُ سَرَتْ نَحُونَا جَدَّوَاهُ مَسْرَى النَّهَامِ
إلى قول أبي تمام :

كالغيث إن جتته وأفاك ريقه وإن ترحلت عنه لَجَّ في الطلبِ
وأبضا بيت أبي تمام أكثر روعة . وقد ردّ الهاد قديما قوله في تصوير بأس البطل
المحارب الذي يبلغ من شجاعته أن يُشغَفَ بسيفه شغفَ الصَّيْنِ فيقبله ، ولا يزال يعاقبه :
يظن هَيْدِيَهُ هَيْدَاً فَيَلْتِمُهُ فَا يَزَالُ بَلِيلُ مُعْرِسِ الضَّرْبِ (١)
إلى قول أبي العلاء في تصويره البطولة :

يَقْبَلُ الرُّمَحَ حَبًّا لِلطَّعَانِ بِوَ كَأَنَّمَا هُوَ مَجْمُوعٌ مِنَ اللَّعْسِ (٢)
وبيت أبي العلاء أجمل وأكثر روعة وإبداعا وهو فرق ما بين كبار الشعراء وشاعر مثل
ابن القم : ويدون شك يُشكر ابن القم لمحاولة متافسة الشعراء السالفين البارعين وتفوّذه
إلى صور إن لم تكن لما روعة صورهم فإنها جيدة وتدل على لون من المهارة . وله أشعار
مختلفة في الهجاء والثناء والفرل ، ونسب إليه ياقوت البتتين التاليتين في تحمل مشقات الحب
والمنازع بلذاته :

تَشَكَّى المحبون الصبابة ليتنى تحملت ما بلقون من بئهم وخلي
فكانت لنفسى لذّة الحب كلّها فلم يَذْرِهَا قبل محب ولا بعدى
ولأبعر تاريخ مولده ولاتاريخ وفاته ، وزعم ياقوت أنه ولد سنة ٥٣٠ وتوفى سنة
٥٨١ وهو خطأ واضح ، فإنه من شعراء القرن الخامس الهجري لا القرن السادس ، وقد
أشدنا له أشعارا نظمها في سنة ٤٥٨ وفيها تبعها من السنوات حتى وفاة سبأ بن أحمد
الصلحي سنة ٤٩١ ، وربما رجع إلى مسقط رأسه زييد بعد وفاة سبأ ، وقد حاول أن ينال
شيئا من صلات جياش حاكمها كما تدل على ذلك أشعاره في الخزينة . والجزء الأخير من
حياته أوقل نهايته أوبعبارة أدق تاريخ وفاته غير واضح ، وربما أدرك أوائل القرن
السادس .

(٢) اللعس : سيرة في الشفة .

(١) هيديه : سبه . الضرب : حمل النحل .

السلطان الخطّاب^(١) :

هو الخطّاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحَجَوِيّ الهَمْدَانِي ، كان أبوه الحسن حاكما لوادي الجَرِّيب ومدينته في إقليم الحَجُور ، وكان فيما يبدو من رجال الدولة الصليحية إذ يقال إن ابنه الخطّاب كان أخا في الرضاة للملكة الحرة أروى . وتوفى الحسن لأوائل القرن السادس وخلفه ابنه سليمان في حكم الجريب ، ودان له أخوه الخطّاب بالطاعة ، ثم لم يلبث التزاع أن دبَّ بين الأخوين ، ونشبت بينهما حروب انتهت في سنة ٥١٤ بغلبة الخطّاب على أخيه ، بفضل مساعدة الملكة أروى له . وظل الخطّاب يستدرج أخاه ، حتى أمّن جانبه وعاد إليه ، غير أنه قتله غيلة سنة ٥٣٠ ولم يمضِ عليه القدر طويلا ، فقد عاجلته المنية في سنة ٥٣٣ . وكان الأخوان شاعرين ، ولكل منهما ديوان ، وكان أحدهما سنيا وهو سليمان والثاني وهو الخطّاب فاطميا إسماعيليا ، بل لقد كان الساعد الأيمن لداعي اليمن الفاطمي في عصره النُّؤب بن إسماعيل ، وكان من مريديه وتلاميذه القريبين من نفسه ، فجعله نائبا له ومؤازرا ومعينا في نشر الدعوة الفاطمية الإسماعيلية باليمن . وقد أخذ عنه علومها مثل الفقه والتأويل والعقيدة أوكما يقولون علم الحقائق . وحدث أن قتل الأمر الخليفة الفاطمي في سنة ٥٢٤ وتولى بعده عبد المجيد ، أحد أبناء الأسرة ، الخلافة والإمامة وتلقب بالحافظ ، وأحدث ذلك انقسامًا ، فإن من أسس الدعوة الفاطمية عند كثيرين أن يعقب الخليفة في إمامته وخلافته ابنه الأكبر ، وكانت زوجة الأمر حاملا ، فرأى بعض المتسبين إلى الدعوة أن خلافة الحافظ غير صحيحة وأن صاحبها هو الإمام المستور أبو القاسم الطيب بن الخليفة الأمر . وأعلنت الملكة الحرة أروى تمسكها بخلافة هذا الإمام المستور ، وبذلك انفصلت الدعوة الفاطمية في اليمن عن مركزها في مصر ، وانفصل معها داعيها النُّؤب ونائبه السلطان الخطّاب حاكم الجريب .

وقد نشر إسماعيل قربان حسين ديوان السلطان الخطّاب وألحقه بتعنيقات تفسر إشارات للعقيدة الفاطمية ، ويكاد القسم الأول منه يكون قسما عقائديا خالصا ، وكل من يقرؤه ويقرأ التعليقات يحس بالصلة الوثيقة بين السلطان الخطّاب وابن هانيّ شاعر المعز الفاطمي وأكبر من استظهروا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية في أشعارهم لأوائل الحقبة الفاطمية بمصر . وسنقف قليلا عند المبادئ الإسماعيلية في الديوان من خلال مديح السلطان

(١) انظر في ترجمة السلطان الخطّاب الحزينة (قسم إسماعيل قربان حسين لديوانه المطبوع بدار المعارف بالقاهرة وما بها من مراجع إسماعيلية فاطمية .
النام) ٢٧/٣ وكتاب الصليحيون للهمداني ومقدمة

الخطاب للأمر الخليفة الفاطمي ، من ذلك قوله في قصيدته الأولى التي يمدح بها الأمر :
يَا مَنْ أَسْمَهُ بِالْأَلْفَاظِ مَعْرِفًا أَنَّ الْمَعَانِي فِيهَا عَنْهُ تَقْصِيرُ
وَمَا ظَهَرَتْ مِنَ النَّاسُوتِ أَنْتَ بِهَا تَجَلُّبًا لِهَدَانَا فَهُوَ مَشْكُورُ
صَفَوْ مِنَ الصُّفُوفِ شَفَافٌ تَقْدُسَ أَنْ يَشُوبَ جَوْهَرَهُ الشُّقَافُ تَكْدِيرُ
وهو يصرح في الآيات بأن الأمر فوق الحدود المروفة لعقول البشر ، ويقول إنه في
الظاهر ناسوت أي جسم ويشير إلى ما كان يردده دعاة الفاطميين من أن جسم الإمام ليس
جسمًا ماديًا ، هو شيخ يمكن فيه اللاهوت وهو الجانب النوراني . وفكرة
الناسوت واللاهوت مأخوذة عن عقيدة المسيحيين في المسيح . ويقول الخطاب عن الأمر
إنه صفو شفاف لا تشوبه الأكدار أي أنه نوراني خالص . ونغضى معه إلى القصيدة
الثالثة ، وهي أيضا في الأمر :

يَا مَنْ نَسَبِهِ تَعْرِيفًا نَقَرُّهُ بِشَخْصِهِ فِي نَفُوسِ الْقَوْمِ تَقْرِيرَا
وَلَوْ نَشَاءُ لَقَلْنَا فِي النَّدَاءِ لَهُ بِالصُّدُقِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومَ مَشْهُورَا
يَا عَالِمَ الْغَيْبِ مِنَّا وَالشَّهَادَةِ يَا بَارِي الْبَرِيَّةِ تَرْكِيبًا وَتَصْوِيرَا
شَهِدْتُ أَنَّكَ فَرْدٌ وَاحِدٌ صَمَدٌ شَهَادَةً لَمْ تَكُنْ مَيِّتًا وَلَا زُورَا

والخطاب يشير في الآيات إلى مازعهه الفاطميون ودعاتهم من أن الله لا يجوز أن يسمى
باسم لأنه أنسى من كل اسم ، ومن ثم يَصْفُونُ أسماءه الحسنى في القرآن الكريم على أنهم ،
غلوا مذمومًا ، زاعمين أنهم ربانيون لهم ألقاب الله وصفاته ، على نحو ما نرى الآن عند
الخطاب ، إذ لا يجد بأسًا من أن ينادى على الأمر بأنه الحى القيوم وأنه الفرد الواحد
الصمد ، كبرت كلمات تخرج من فم وفم أصرا به من دعاة الفاطميين المارقين . ويزعم أنه
عالم الغيب والشهادة . ويمضى في هذا الغلو الشنيع قائلًا للأمر :

أَنْتَ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ نَحْنُ نَعْلَمُهُ فَإِنْ سَوَى وَجْهِهِ عَكْسًا وَتَغْيِيرَا
أَنْتَ الَّذِي قَطَّرَ الْأَشْيَاءَ قَاطِبَةً خَلَقًا وَأَمْرًا وَإِيجَارًا وَمَأْمُورَا
أَنْتَ الَّذِي سَمَكَ السَّحَابَ الشَّدَادَ عَلَى عِلْمِ أَدَارِهَا بِهَا الْأَفْلَاكَ تَذْوِيرَا
أَنْتَ الَّذِي سَطَعَ الْأَرْضَ الْيَهَادَ لَنَا فَرَشًا وَقَدَّرَ فِيهَا الرِّزْقَ تَقْدِيرَا

وهو يزعم أن الأمر سرمدى الحياة ، لا يلحقه فناء ، وكأنه إلهى الذات ، ويشير في
البيت الثاني إلى وصف القرآن للذات العلية في مثل قوله : (فاطر السموات والأرض)
وقوله : (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) . ويحمله في البيت الثالث رافع السموات السبع ومدبر الأفلak
فيها . والبيت الرابع مأخوذ من مثل قوله تعالى : (وَالْأَرْضُ فَرْشَتَاهَا فَيَنْفَعُ الْمَاهِدُونَ)

وقوله : (قُلْ إِنْ رَأَى السُّلْطَانُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) . ويقول أيضا في مديح الأمر :
يا عِلَّةَ لوجود الشيء من عَدَمٍ وكاشفًا عنه بالأَنْوَارِ للظُّلُمِ
وعالمًا بِخَفِيَّاتِ الْأُمُورِ غَدَاً لِلنَّاسِ أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمِ
شهدتُ أَنَّكَ فَرَدُّ وَاحِدٌ نَطَقْتَ بِفَضْلِهِ سُورَ الْقُرْآنِ عَنْ أَمَمِ
وَجْهَتُ وَجْهِي فِي سِرِّي وَفِي عِلِّيِّ إِلَيْكَ إِذْ أَنْتَ مَعْنَى الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ

وهكذا يردد الخطاب ما كان يزعمه دعاة الفاطميين من أن الإمام يمثل العقل الأول
الفعال وأن قدرة الله تعالى فيه ، بحيث يصبح العقل الكلي وجوهر الملكوت وعنه تصدر
جميع المخلوقات ، فهو العلة الأولى ، علة لوجود كل ماسواه . ويزعم الخطاب أنه : (يعلم
السر وأخفى) وأن آيات القرآن الكريم نطقت بفضلته من أمم أى قريب ، يشير إلى مثل
قوله تعالى : (إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) . وكلمة
« البيت والحرم » مصطلحان إسماعيليان ، أما البيت فيريد به الإمام وأنه بيت معرفة الله
ومستقر التوحيد وحقيقته . وأما الحرم فهو جسمى الإمام وعقيدته الفاطمية . وللخطاب رثاء
في الملكة الحرة أروى حين توفيت سنة ٥٣٢ يصدّر فيه عن عقيدته الفاطمية منشداً مثل
قوله :

أُمُولاَتُنَا يَا مَنْ بِيَاهِرِ نَوْرِهَا تَجَلَّيْنِ عَنْ أَبْصَارِنَا الظُّلُمَاتُ
وَيَا حُجَّةَ الْمُؤَلَّى الَّتِي بَيَّانِهَا هَدَى اللَّهُ مَنْ حَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِينُ
أَجَلُّكَ عَنْ مَوْتٍ يَرُوحُكَ نَازِلٍ وَأَنْتَ لِأَرْوَاحِ الْأَنَامِ حَيَاةُ

وهو يصفها في البيت الثاني بأنها حُجَّةُ الإمام ، والحجة في الدعوة الفاطمية
الإسماعيلية مرتبة تلي مرتبة داعي الدعوة في المركز الأم مصر ، وصاحبها يتولى الدعوة في
إقليمه والنيابة عن الإمام . وكانت الملكة الحرة حجة المستنصر والأمر في اليمن وزعيمة الدعوة
الفاطمية فيها . ويزعم الخطاب في البيت الأخير أنها لم تمت ، وكأن حياتها سرمدية كحياة
الأئمة . وكل ما قلنا غلو ومروق واضح . ووراء هذا القسم من الديوان قسم ثان يتصل
بأحداث حياة الخطاب وحروبه وصلاته بأمراء الدول من حوله . وفيه كثير من المديح
والمهجاء والفخر . وأجود مدائحه فيه ما قدمه للملكة الحرة أروى . وجمله تعمقه في العقيدة
الفاطمية الإسماعيلية يكتب رسائل مختلفة في بعض قضاياها وأصولها ومبادئها الكلية :
وعرض إسماعيل قربان حسن لطائفة منها بالتحليل والتعريف .

عمارة اليمن^(١)

هو أبو حمزة عمارة بن أبي الحسن اليمنى ، من أهل الجبال في نامة . من قرية يقال لها مَرَّطَان في وادي وَسَاع ، وهو قحطاني مَذْحِجِي من سلالة الحكم بن سعد العشرة . ولد في سنة ٥١٥ في أسرة تنتم بالعلم والثقافة ، ولم تكد توافي سنة ٥٣١ حتى أرسله أبوه إلى زيد فتتف فيها الفقه الشافعي ، وقرأ عليه مدة ، وله في الفرائض مصنف مشهور في اليمن . واتصل بآل نجاح حكام زيد ووزرائهم ، كما اتصل بآل زُرَيْع حكام عدن وبعل بن مهدي الذي خلف آل نجاح على زيد ، وكان الأولون سِتِّين والثانيون إِسْمَاعِيلِيين والثالث كان خارجيا . حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ توجه إلى حج بيت الله الحرام ، وتعرف إلى أمير مكة قاسم بن هاشم بن قُليْبة الزيدى ، وكلفه بمحمل رسالة إلى الخليفة الفاتح الفاطمي ، فقدم القاهرة سنة ٥٥٠ واستقبله طلائع بن رُزَيْك ووزير الفاتح في قاعة الذهب بقصر الخلافة ، وأنشده عمارة مبيعة طويلة يقول في نضاعيفها :

قَدْ رَحْتُ مِنْ كَعْبَةِ الْبَلْعَاءِ وَالْحَرَمِ وَقَدْأُ إِلَى كَعْبَةِ الْمَعْرُوفِ وَالْكَرَمِ
فَهَلْ دَرَى الْبَيْتِ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ مَاسِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمِ
وَلَمْ يَكْدُ يَفْرُغُ مِنْ إِنْشَادِ الْقَصِيدَةِ حَتَّى أَفِيضَتْ عَلَيْهِ الْخَلْعُ ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ طَلَائِعُ
خِصْمَائِهِ دِينَارَ . وصنعت مثله سيدة القصر بنت الخليفة الحافظ . وتهاذاه أمراء الدولة وموظفوها الكبار . وقفل راجعا إلى مكة ، فإلى زيد . وعاد إلى الحج سنة ٥٥١ فكلفه أمير مكة برسالة ثانية إلى الخليفة بمصر ، فقدم إليها واستوطنها حتى آخر حياته . وبالغ طلائع وبنوه في إكرامه ، وله فيهم مدائح كثيرة . وقُتِل طلائع بعد قدومه الثاني بأربع سنوات سنة ٥٥٦ . وحظي بعده بجوائز الوزيرين شاور وضرغام ، وله في شاور وطلايع مراث بدعية ، وكان قريبا من نفس الكامل بن شاور قبل وزارة أبيه ، فلما وُزِرَ أعرض عنه ، فعاتبه عتابا رقيقا . وما زالت العطايا تُسَبِّغ عليه ، حتى إذا ملك مصر السلطان صلاح الدين مدحه ومدح جماعة من بيته ، وخاصة توران شاه الأيوبي ، وله مبيعة حرَّضه فيها على أخذ اليمن أولها :

(١) انظر في عمارة وترجمته ونشأته الحريدة (قسم الشام) ١٠١/٣ وابن خلكان ٤٣١/٣ والروستين ٥٧٢/٢/١ ومفرج الكرب ٢١٢/١ ، ٢٣٨ والسلوك للمقريزي ٥٣/١/١ والنجوم الزاهرة ٧٠/٦ والسلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي وتاريخ لفر عدن لباعثرة والشرحات ٢٣٤/٤ وتاريخ ابن الأثير ٣٩٨/١١ وصبح الأعشى ٥٢٦/٣ والانتصار لواسطة عقد الانتصار لابن دلفاي ص ٩٤ وكتابه النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية ، وذيل النكت وبه ديوانه .

العلمُ مذ كان محتاجاً إلى العلمِ وشَفَرَةُ السيفِ تَسْفِي عن القلمِ
ويقول ابن خلكان إنه كان فقيها شافعياً شديداً التعصب للسنة ، ويبدو أن ذلك إنما
يصدق على أوائل حياته حين كان يدرس مذهب الشافعي في زيد . أما بعد ذلك فإننا نراه
يتصل بال زُرَيْجِ الإسماعيليين وأمير مكة الزيدى . ولعل السبب في أن ابن خلكان أطلق
كلامه عليه وعُصِمَ أنه وجده في كتابه « النكت العصرية » يتبرأ من التشيع ويذكر أن
طلّاح بن رزّيك عرض عليه أن يدخل في العقيدة الإسماعيلية ، فأجابه بأن يمنّ عليه بسدّ
هذا الباب . ولكن كتاب النكت - فيما يبدو - ألّف في عصر الأيوبيين ، فكان طبعياً أن
يُحْفَى إسماعيليته أو تشيعه ، وأن يعلن براءته في تصانيفه وقصائده من التشيع وآله . ونراه في
قصيدة له كتب بها إلى صلاح الدين وسماها « شكاية للمتظلم ونكاية المتألم » يصف كثرة
ما كان يصله من عطايا الفاتر والعاقد ووزرائها بمثل قوله :

مذاهبهم في الجود مذهبُ سَنَةٍ وإن خالفوني في اعتقاد التشيعِ
وهذا وأمثاله كان - في رأينا - سبب ضلال ابن خلكان في الحكم عليه ، فإن من
يرجع إلى ديوانه ومدائح في الخليفة الفاطمي العاضد وطلّاح وزيره وابنه العادل لا يشك
في أنه اعتنق المذهب الفاطمي الإسماعيلي ، من ذلك قوله من قصيدة في مدح العاضد
وطلّاح :

لا يبلغ البلاء وَصَفَ مناقِبِ أَتَيْ على إحسانها التّزِيلُ
شَيْمٌ لَكُمْ غَرُّ أَتَى بمدحها الدَّ غُرُّقانِ والتَّوراةُ والإنجيلُ
سَيَرَّ نَسَحْنَاهَا من السُّورِ التي ما شأنا نَسَخُ ولا تَبْدِيلُ

وهو يشير إلى ما جاء في الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم
الرّجسَ أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ويمد ذلك إلى التوراة والإنجيل وما جاء فيها من
ذكر الرسول على لسان موسى وعيسى ، وكأن ذكره يتضمن ذكر ذريته ، وقد جاء في
سورة الصفّ على لسان عيسى : (ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) وهذه
الفكرة التي تصل بين الرسول والأئمة الفاطميين في التوراة والإنجيل كان يرددها شعراؤهم
من مثل قول السلطان الخطّاب في الخليفة الأمر :

هو الذي كَتَبَ التَّوراةَ عَنهُ وفي الإنجيل ما ضُمَّتْ فيه الزمائرُ
ودائماً يقرّر حمارة حق العاضد الثابت بالمعقول والمنقول كما يقول في نفس اللامية
السالفة ، ونراه يقول في دالية مدح بها العاضد ووزيره العادل بن طلّاح بن رزّيك :

أغنى عن التّقليد نصراً إمامةً والنصرُ يَهْلُ عنده التّقليدُ

لأشياء من حَلٍّ وَعَقْدٍ فِي الْوَرَى إِلَّا إِلَى تَدْبِيرِهِ مُرَدُّ
مَلِكٌ أَغَاثٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَحَاطَهُمْ مِنْهُ وَجُودٌ فِي الزَّمَانِ وَجُودٌ

وهو يردُّ ما يزعمه الشيعة من أن الإمامة في الأمة إنما تورث بالنص عن الإمام السابق ، فهي ليست مفوضة للأمة ، بل هي من حق الأئمة وحدهم يتوارثونها خالفا عن سالف . ويشير عمارة في البيت الثاني إلى نظرية العقل الفعال التي يمثلها الإمام والتي نجملها - كما مر بنا عند السلطان الخطاب - يدبّر الكون وشئون الورى وكل ما يتصل بها من حَلٍّ وَعَقْدٍ . أما البيت الثالث فيصور فيه فكرة القَبْضِ الأفلاطوني المعروفة عند الإسماعيليين والتي تجعل الأئمة مائتين في كل وجود إنساني . ويقول في مديح العاضد من قصيدة طويلة :

كَمْ آتَيْهِ رُويَتْ لَكُمْ أَسْرَارُهَا آلَ الْوَصَى وَالْوَرَى إِعْلَانُهَا
فَكَأَنَّمَا تَأْوِيلُكُمْ أَرْوَاحُهَا وَكَأَنَّمَا تَفْسِيرُكُمْ أَبْدَانُهَا
وَكَأَنَّمَا عِلْمُ الكَائِنَاتِ وَدِيعةٌ وَمَصْدُورُكُمْ خَزَائِنُهَا

وهو هنا يردُّ ما يؤمن به الشيعة الإسماعيلية الفاطميون من أن للقرآن الكريم وآياته ظاهرا وباطنا ، والباطن لا يعلمه إلا الأئمة ، فهم الذين يعلمون أسرار الآيات القرآنية وحدهم دون غيرهم ، وهم الذين يعلمون تفسيرها وتأويلها علما حقيقيا . وليس ذلك فحسب ، بل هم يعلمون كل علم ، وما صدورهم إلا خزائن لهذا العلم : علم الحاضر وعلم الغيب . وكل هذه شواهد بينة على أن عمارة تحول في مصر فاطميا إسماعيليا . وكان حزنه لا يحد ولا يوصف حين دالت دولة الفاطميين ، وثُ هذا الحزن الغاضب غضبا عنيفا في لامية له مشهورة استهلها بقوله :

رَمَيْتَ - يَا دَهْرٌ - كَفَّ الْمَجْدَ بِالشَّلَلِ وَجِئِدَهُ بَعْدَ حُسْنِ الْحَلَى بِالْمَعْلَلِ
هَلُمَّتْ قَاعِدَةُ الْمُرُوفِ عَنْ عَجَلٍ سَقِيَتْ مُهْلًا أَمَا تَعْمَشِي عَلَى مَهَلِ
يَا حَاذِلُ فِي هَوَى أُنْبَاءِ فَاطِمَةٍ لَكَ الْمَلَامَةُ إِنْ قَصُرَتْ فِي عَدَلِ

وهو في هذا الاستهلال ملتاح لوعة شديدة على زوال الدولة الفاطمية ، وإنه ليسب الدهر الذي أطاح بها ويدعو عليه أن يستقى المهمل شراب أهل الجحيم . ويدعو هذلا على حب الأئمة الفاطميين أن يظفروا في عذلم ولومهم وكأنه يجد فيه شفاء لقليل نفسه . ويمضى فيدعو رفيقه أن ييكى معه على ساحة القصرين لا على ساحات معارك صفين وواقعة الجمل ، وكأن النكبة هنا أكثر أسمى وفجعية ، ويقول إن الجرح الذي أصاب فزاده بزوال الدولة الفاطمية لا يندمل ، وما يلبث أن يقول عجباً يتزل كل هذا بالفاطميين لا من الصليبيين ولكن من إخوان لهم في الدين ، ويقول :

لربما عادت الدنيا لمَعْقِلِهَا منكم وأضحت بكم محولة المَعْقِلِ^(١) والله لا فاز يوم الحشر مَبْغُضُكُمْ ولا نجا من عذاب النار غير ولى وهو فى البيت الأول يعلن الثورة صريحة على صلاح الدين زاعما أنه ربما عادت الدنيا لمَعْقِلِهَا ، وكأنما غاب عن صوابه ورشده أن أداة الحكم فى هذا المعقل كانت قد فسدت فساداً لا حد له ، وبلغ من فسادها أن استلب الصليبيون فلسطين من مصر وأغاروا على القاهرة . وأراد الله لمصر بل للعرب أن تَرُدَّ القَوْسُ إلى بارئها ، وأن يبدأ صلاح الدين حكمه بالقضاء على هذا المعقل الفاطمى إلى الأبد . وكأنما أصابت العقيدة بَصَرٌ عمارة بنشأوة ، فلم ير الحقيقة ، وقد مضى يتوعد مبغض الفاطميين بالنار وسوء المصير ، وتماذى فى هذا النفى والضلال ملوحاً بيده فى وجه صلاح الدين زاعما أن الأئمة الفاطميين باب النجاة وأن حليم أصل الدين ، يقول :

أئمةٌ خلَقُوا نوراً فنورُهُم من نور خالص نور الله لم يَظَلْ^(٢)
والله لا زُلْتُ عن حُبِّى لهم أبداً ما أنخر الله لى فى مدَّة الأجل

فالأئمة الفاطميون نور خالص ، نور شفاف ، وهوفيض من نور الله ، لا تشوبه أى مادة ، وهو غلو واضح فى تصور الأئمة كان يردده شعراؤهم . وكُتِبَ لعامة أن يظل يردده حتى بعد زوال دولتهم ، بل إنه ليعلم أنه سيظل على حليم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وكأنه كان يظن أن دولتهم ستعود إذ تسوَّل له نفسه أن يشترك مع ثمانية من أعوان الفاطميين ، فى مؤامرة كبيرة ضد صلاح الدين وكتابتوا الفرنج الصليبين طالعين منهم مددا ، وعُرفت نيتهم ومؤامرتهم ، فأحيط بهم ، وأُعدِموا فى يوم السبت ثانى شهر رمضان سنة ٥٦٩م بالقاهرة . وكان لابد لعامة أن ينتهى هذه النهاية المفجعة بعد أن كاد لدولة صلاح الدين بلسانه وهم أن يكيد بيده ، وكأنما غطى القدر - كما يقول الهادى - على بصره . وقد طُبعت له مصنفات مختلفة ، منها أخبار اليمن نشركاى ، ومنها مختصر المفيد فى أخبار صنعاء وزيد ، ومنها النكت المصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

٢

شعراء الدعوة الزيدية

تحدثنا فى الفصل الأول عن النحلة الزيدية وأنها كانت أكثر نحل الشيعة اعتدالا ،

(٢) يظل : بأقل : يفرج .

(١) المقل : جمع عقلا .

وهي تُنسبُ إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين الذي ثار على الأمويين بالكوفة سنة ١٢١ وانتهت ثورته بالقضاء عليه ، غير أن دعوته ظلت قائمة بعده ، ومرت بنا أن كل العلويين الذين ثاروا على العباسيين في القرنين الثاني والثالث للهجرة كانوا زيديين ، إذ لا تعرف لمثلهم التستر والتخفي للإمام في الدعوة ، وهي لا تشارك غلظة الإسماعيلية والإمامية في العلم الباطني ، ولا تتغلغل في فكرة العقل الفعال التي مرت بنا عند الإسماعيلية والتي تعطى الإمام صفات الله وأسماءه الحسنى والتي تستند إليه تدبير الكون وأن الوجود بل كل موجود إنما هو بفضل منه . وهي لا تأخذ بفكرة النص على الإمام وأن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الوراثة ، بل يكفي أن يكون الإمام الكفء الداعي لنفسه من أبناء السيدة فاطمة الزهراء وأن يكون عادلاً عالماً بالشريعة ورعاً شجاعاً جواداً ، وتنبؤ هذه النحلة إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك صُحِّحت خلافة أبي بكر وعمر مع وجود علي ، ولم تنبؤ القَدَحَ فيها كما تصنع الإسماعيلية والشيعية الغالبة . وارتبطت نخلة الزيدية ارتباطاً وثيقاً بمدرسة المعتزلة ومبادئها إذ كان إمامها زيد تلميذاً لواصل بن عطاء ، وقوى هذا الارتباط مع الزمن . وإذا كانت ثورات الزيديين في الحجاز والعراق وإيران أخفقت في القرن الثاني للهجرة فإنها نجحت في المغرب على نحو ما هو معروف عن دولة الأدارسة التي أسسها إدريس بن عبد الله الحسني بفاس في عهد الرشيد ، وظلت نحو مائة وأربعين عاماً . ونجحت كذلك في طبرستان في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة ، فقامت هناك دولة زيدية ظلت نحو سبعين عاماً . واستطاعت أسرة بني سليمان أو بني موسى الرسيين أن يقيموا دولة لهم في مكة منذ سنة ٣٥٦ على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وظلت فيهم حتى اضطرتهم الهواشم من أسرته أن يغادروا مكة إلى الخلفاء السلياني ، وهناك ظل هذا الفرع يدعو للنحلة الزيدية حتى ذاب في دولة الرسوليين ، وقد أسلفنا أن محمد بن جعفر الحسني عاد إلى مكة وأعاد الإمارة إلى أسرته الحسنية .

وقامت في صعدة باليمن دولة زيدية أقدم من الدولتين السالفتين ، إذ أسسها هناك الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم في سنة ٢٨٤ واستطاعت هذه الدولة أن تستولى على صنعاء في حقب كثيرة ، حتى إذا كان القرن العاشر الهجري انضوى اليمن جميعه تحت لوائها ، وإذن كانت للزيدية في الجزيرة العربية لهذا العصر ثلاثة مراكز ، هي مكة والخلفاء السلياني وصعدة وكان المركز الأخير كثيراً ما يشع ، وشمل بأخرة ديار اليمن جميعها . وهي الأمراء والأئمة في كل مركز من هذه المراكز بالشعر وأصحابه ، لأنهم قلام

الدعاية للدولة ، وكثير من الأئمة كانوا شعراء فكان طبيعيا أن يعنوا بالشعر والشعراء . وأول من يلقانا من أئمة مكة الشعراء الأمير أبو الفتح وقد أنشدنا له أبياتا طريفة في غير هذا الموضع ، وكان عيسى بن قلبية أمير مكة المتوفى سنة ٥٧٠ هـ يميز العطايا لشعرائه وفي مقدمتهم قائده النوفى الأصل سالم بن أبي سليمان ، وفيه يقول من مدحة طويلة ^(١) :

هو نورُ ربِّ العرش بين عبادِهِ فليعلموا والحجةُ البيضاءُ
للهُ يأمرُ باطنا أو ظاهراً فخصرُفُ الأقدارِ كيف يشاءُ
يوماه يومُ اللّوالِ وآخرُ تزدى بسطوةِ بأسِ الأعداءِ
إن الثناء عليك من ربِّ السَّاءِ أغناكَ عما قالت الشعراءُ

وهو يغلو في مديحه لهذا الإمام الزيدى ، وكأنتا نقرأ عنده ما تقرؤه عند السلطان الخطاب من الغلو في مديح الأمير الخليفة الفاطمى ، فإمامه نور خالص هو نفس نور الله ، وهو الحجة القائم على رعيته ، وتجري الأقدار بما يشاء وكيف يشاء ، أما ثناء الله عليه فمريد به ثناءه على أهل البيت فى القرآن الكريم وأنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . ومن أئمة مكة الحسن بن على بن قتادة المتوفى سنة ٦٥١ وكان شاعرا ، ومن قوله ^(٢) :

وأذنتُ حينَ نَجَلَى الصَّباحُ بحى على خَيْرِ هذا العَمَلِ

وكان الزيدية فى الجزيرة بمكة وفى اليمن والخلاف السليمانى يتادون فى الأذان : بحى على خير العمل . ويمتلى كتاب المقد الثمين بمدايح أمراء مكة ، ويمكن أن نستشهد ببعض الأمثلة ، فمن ذلك قول موفق الدين على بن محمد الحنيدى فى حبيضة أمير مكة المتوفى سنة ٧٢٠ للهجرة ^(٣) :

خليفةٌ لا يُخلفُ الوَعْدَ ولا يَفْسُنُ عن سائله بما اقْتضى
إمامٌ حقٌّ جدُّ فى اللهِ فما فى اللهِ مُدٌّ جدُّ وهى ولاؤنى
أخاف فى الله تعالى مَنْ بَقَى وأمن الخائفَ حقى أمينا
هو ابنُ مَنْ أُسرى به الله وَمَنْ مِنْ قابِرِ قوسينِ ندلى ودنا

وليس فى مديحه غلو ، بل هو مديح لإمام زيدى بالكرم والتقوى والعدل ورفع البنى والظلم ونشر الأمن ، ويشير فى البيت الأخير إلى الإسراء بالرسول ومعرجه إلى السموات وما جاء فى سورة النجم : (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) . وللحنيدى فى مديح

(٣) المقد الثمين ٢٤٨/٤ .

(١) الحريدة (قسم الشام) ٤٦/٣ .

(٢) المقد الثمين ١٦٢/٤ .

أنه رُمِيَتْ أمير مكة المتوفى سنة ٧٤٦ للهجرة^(١) :

نَسَبَ كَمَشْتَقُ الشَّمْسِ وَمَفْخَرُ بَاغُ الْكَوَاكِبِ قَاصِرٌ عَنْ طَوْلِهِ
أَمَّا الْفُرُوعُ فَلَيْسَ مِثْلُ فُرُوعِهِ وَكَذَا الْأَصُولُ فَلَيْسَ مِثْلُ أَصُولِهِ
يَابِنَ الْمَظَلِّ بِالْغَامَةِ وَالَّذِي قَدْ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ فِي تَفْضِيلِهِ
مَاذَا عَسَى مَدْحِي وَقَدْ نَزَلَ الثَّنَا فَيَكُمُ مِنَ الرَّحْمَنِ فِي تَتْرِيلِهِ

ووراء الحنديدى كثيرون من الشعراء كانوا يمدحون أمراء مكة الزيديين لا في زمنه
فحب ، بل في جميع الأزمنة ، وفي سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الرحانة للمحبي
طائفة كبيرة من مدائح الشعراء لهؤلاء الأمراء في القرن العاشر الهجرى ، من ذلك قول
عبد الرحمن بن وجيه الدين المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة في حسن بن أبى نعيم أمير مكة من
مدحة طويلة ، عارض بها راتبة ابن هانئ المشهورة^(٢) :

مَلِكٌ إِذَا مَا جَالَ يَوْمَ كَرِيمِهِ لَمْ تَلَقَ غَيْرَ مُجَدِّلٍ وَمُعَرِّمٍ
مَلِكٌ نَدَاهُ الْبَحْرُ إِلَّا أَنَّهُ عَذَبُ أَهْذَا الْبَحْرِ نَهْرُ الْكُوَيْرِ
ذُو الْهَمَةِ الْعَلِيَّ الَّذِي قَدْ نَالَ مَا عَنْهُ تَقْصُرُ هَمَّةُ الْإِسْكَدَرِ
أَعْظَمَ بِهَا مِنْ نِسْبَةِ نَبْوِيَّةٍ عَلَوِيَّةٍ تَتَنَّى لِأَصْلِ أَطْهَرِ

وكثيرون من أمراء الخلاف السليمانى وأشرفه كانوا شعراء مثل ابن وهّاس ودعشمش
وهما شاعران مجيدان ، ومن أمرائهم الممدحين غانم بن يحيى بن حمزة السليمانى المتوفى سنة
٥٩٠ ويروى أن ابن مكرمّان مدحه بقصيدة لامية أعطاه عليها ألف دينار ، وفيها
يقول^(٣) :

هَلْوَى مَسْجُوحَ هَاشِمِيٍّ حَسْبُ نَوَالِهِ مَبْذُولُ
يَا سَلِيلَ الْبَطِينِ وَالْحَرَّةِ الزَّهْدِ رَا هِيَ الطَّهْرُ وَالْحَصَانُ الْبَثُولُ^(٤)
خَمْسَةٌ خَصَّصَهُمُ بِتَخْصِيصِهِ الْخَا لِقُ رَبِّى وَهُوَ اللَّطِيفُ الْجَلِيلُ
مَالِهِمْ سَادِسُ غَدَاةٍ الَّذِي مَرَّ لَدُّ عَلَيْهِمْ كَسَاءَهُ جَبْرِيلُ

وهو يشير في البيتين الثالث والرابع إلى ما تذكره الشيعة من أن الرسول ﷺ تلقى عليه
وعلى عليٍّ وفاطمة الزهراء والحسن والحسين كساء وقال : نحن أهل البيت إيمان إلى قوله
تعالى : (إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) . ومعروف

(١) الحزبية (قسم الشام) ٣ / ٢٦٢ وما بعدها .

(٢) العقد القين ٤ / ٤١٩ .

(٣) الحصان البتول : الضيفة الطاهرة .

(٤) سلافة العصر ص ٧٩ .

أن الخلاف السلباني أصبح جزءاً من أرض الدولة الرسولية غير أنه اشتمل على إقطاعات كثيرة للسلبانيين ، وكانوا يصلون الشعراء ، ويقدمون لهم مدائحهم ، على نحو ما نجد عند ابن هتّيل في مدحه للأمير قاسم بن علي صاحب صُيا ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله ^(١) :

حسنيّ للسائلين وللمُحَدِّ روم فيها حوتُ بدها نَعِيبُ
ساحةٌ لا يزال فيها رئيسُ مستجيرٍ وسائلٌ لا يَخِيبُ
عَرٌّ في ظلِّ رحك القاسميّ نَ ومنهم قبائلُ وشعوبُ
ومِنانُ القناة لولاه في طَ حى العوالى لم ينفع الأتوبُ ^(٢)

والمركز الثالث للزيدية في الجزيرة أهم مراكزهم ، وكانت صعدة نقطة الدائرة فيه ، فيها انبعثت النحلة ، وظلت فيها ثابتة وظل شأنها ينسج ، حتى انفضت اليمن جميعها منذ القرن العاشر الهجري تحت رايتها . ومؤسس هذه الإمامة الزيدية - كما أسلفنا - يحيى بن الحسين بن القاسم ، وله مصنفات مختلفة في الفقه والعقيدة والتفسير ، ويقول فيه ابن حزم : « له رأى في الفقه وقد رأيت ، ولم يبعد فيه عن الجماعة » وكان شاعراً ، وله وصية شعرية ذكرها في كتابه الأحكام عند ذكر الجهاد ، ومن شعره ^(٣) :

بني حَسَنِ إِنِّي نَهَضْتُ بِثَارِكُمْ وَثَارَ كِتَابِ اللَّهِ وَالْحَقِّ وَالسُّنَنِ
وَصَبِرْتُ نَفْسِي لِلْحَوَادِثِ عَرَضَةً وَغَبْتُ عَنِ الْإِخْوَانِ وَالْأَهْلِ وَالْوَطَنِ
ويتوالى أبنائه على صعدة من بعده ، حتى يقدم أبو الفتح الدبلي الحسني في القرن الخامس فيسترعها منهم ، وينسحبون إلى جبل قطاية ، ويتوالى أئمتهم هناك ، ثم يعودون إلى حاضرتهم صعدة . ومن أهم أئمتهم وأشهرهم في القرن السادس المتوكل على الله أحمد بن سليمان (٥٣٢ - ٥٦٦ هـ) وكان شاعراً مجيداً وله مكاتبات ومحاورات مع نشوان بن سعيد الحميري الذي مرت بنا ترجمته بين شعراء الفخر والمجاء ، ومما كتبه إليه قصيدة مطلعها ^(٤) :

دعيني أَطْلُقْ عِزِّي مابداً لباً وَأَبْكِي دُنُوِي الْيَوْمِ إِنْ كُنْتُ بِأَكْيَا
واستطرد فيها يتحدث عن الملوك ومآثرهم ومصيرهم ، ولم يكد بقرؤها نشوان بن سعيد حتى ردّ عليه بقصيدة وعظيمة ماثلة مطلعها :

ذَكَرْتُ دِيَاراً دَارِسَاتِ خَوَالِيَا رُسُوماً عَفَتْ عَنْ أَهْلِهَا وَمَغَانِيَا

(١) ديوان ابن هتّيل ص ٣٥ .

(٢) صبح الأعشى ٤٧/٥ .

(٣) العوالى : جميع عالية وهي النصف الذي على السان (٤) انظر في هذا البيت والبيتين التاليين الجرائد

من القناة . الأتوب ما بين الكمين من القناة .

ص ١١٥ .

وهي قصيدة تاريخية طريفة لما ذكر فيها من الملوك الماضية والقرون الخالية ، ومحاكبه إلى المتوكل قوله في أبيات :

وَأَنْتَ تَصْلُحُ لِلزَّيَاةِ تَعْقِدُهَا وَفِي الْمَوَاكِبِ تُحْيِي الدِّينَ وَالسُّنَّةَ
ومن الأئمة الذين عاصروا دولة بني أيوب في اليمن المنصور بالله عبد الله بن حمزة . أما في عهد الرسولين فأشهر الأئمة الذين عاصروهم الإمام المهدي أحمد بن الحسين المكنى بأبي طير (٦٤٦ - ٦٥٦) وله حروب كثيرة مع المظفر الرسولي ، انتهت بمقتله في معركة الحُصْبَات . وكان أحمد بن الحسين جوادا ، مدحه كثير من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن هتيميل ، ويقال إنه أجازه على إحدى قصائده خمسين فرسا ، وقد عرضنا في ترجمته طرفا من مدائحه الرائعة فيه ، ومن أشهر الأئمة الزيدية في عهد أسرة آل طاهر الإمام المتوكل على الله شرف الدين (٩١٢ - ٩٦٥ هـ) ، وهو ممدوح موسى بن يحيى بهران ، وسنترجم له . أما أئمتهم في عهد الاحتلال العثماني الأول (٩٤٥ - ١٠٤٥ هـ) فأشهرهم المؤيد بالله محمد بن القاسم (١٠٢٩ - ١٠٥٤) وهو الذي قاوم العثمانيين مقاومة عنيفة حتى اضطروا إلى الجلاء عن البلاد ، ولشاعره محمد بن علي بن شمس الدين قصيدة يذكر فيها وقائعه معهم وانتصاراته ، مطلعها ^(١) :

بَلَفْتُ بَنُو الزُّهْرَا بِكَ الْمَأْمُولَا وَبَطُولُ سَيْفِ عَلَاكَ زَادُوا طَوْلَا
وخلفه المتوكل على الله إسماعيل (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ) وقد استولى على عدن وحضر موت وظفار ودانت له جميع الديار اليمنية ، وفيه يقول إبراهيم بن صالح المهندي من ميمية طويلة ^(٢) :

إِمَامٌ عَظِيمُ السَّرِّ أَمَّا نَهَارُهُ فَصَوْمٌ وَأَمَّا لَيْلُهُ فِقِيَامٌ
رِيَاضُ الْأَمَانِي فِي حِمَاهِ نَفِيرَةٌ وَسُحُبُ الثُّدَى مِنْ رَاحَتَيْهِ سِبْجَامٌ ^(٣)
تَحْمِلُ سِرَّ الْمَصْطَفَى بِسِرِيرَةٍ وَسِيرَةٌ عَذَلٍ لَا تَكَادُ تَرَامُ
تَدْفُقُ بَحْرَ الْعِلْمِ فِي طَلْقِ صَدْرِهِ أَوَاذِي لُجٍّ دُرُهْنٍ تُوَامُ ^(٤)

ويوجد كتاب « نشر العرف لنبله اليمن بعد الألف » وهو في مجلدين ضخمين بشرى زيدى كثير . واشتهرت قصيدة تاريخية في نحو ٢٤٠ بيتا لصارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير الحسني اليمني المتوفى بصنعاء سنة ٩١٤ وتسمى البسامة ، عرض فيها لأئمة العلويين على مر التاريخ بالحجاز والعراق واليمن والمغرب حتى زمنه ، ومع مر الأزمنة أخذت تضاف

(١) الجرائر من ١٤٨ .

(٢) سبجاء : سائلة كثيرة والانصباب .

(٣) أواذي : أنواج . توام : مزدوج .

(٤) سلاطة مصر ص ٤٧٩ .

لها ذبول كثيرة تشير إلى الأئمة التاليين في اليمن^(١) . وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء الزيدية ، أحدهم مكى هو يحيى بن يوسف الملقب بالنشوء ، والآخران بمينان ، هما موسى ابن يحيى بهران وعلى بن محمد العنسى الصنعاني .

يحيى بن يوسف النشوء^(٢)

مكى مولدا ومنشأ وحياة ، ولد سنة ٧١٢ للهجرة ولم يلبث أن حفظ القرآن الكريم واختلف إلى دروس ابن عمه شيخ العربية أبي العباس النحوى وأخذ كل ما عنده ، واستمع إلى غير محدث ، ونال في الحديث إجازات مختلفة . وعُنى بالشعر والرسائل ، فكتب الإنشاء لأمرأى مكة في زمنه : عَظِيفَة وابنيه مبارك ومحمد وابن عمها عَجَلَان بن رُمَيْثَة . وكانت ملكته الشعرية خصبة ، ويقول مترجموه : « له شعر كثير سائر مدح وهجابه جماعة من الأعيان » . وتوفى سنة ٧٨٢ . ونجده بكثُر من مدائح أمرأى مكة الزيديين وفي مقدمتهم من سبناهم آفا ، وفي عَظِيفَة المتوفى سنة ٧٤٣ يقول في بعض مدائحه له :

له هِمَّةٌ تَسْمُو إلى كُلِّ غَايَةٍ هو الطَّاهِرُ الْأَنْسَابِ وَالْعَلَمُ الْفَرْدُ
هو الْمَلِكُ الْمَاحِي لِمَنْ كَانَ قَبْلَهُ فَا فِي مَلُوكِ الْأَرْضِ طُرًّا لَهُ يَدُ
هو الْمَنِمُ الْمَوْلُ الْجَمِيلُ تَفَضُّلاً فَن سَيِّبِهِ قَدْ أَوْرَقَ الْحَجَرُ الصَّلْدُ^(٣)
تَحَرُّرٌ لَهُ كُلُّ الْمُلُوكِ مَهَابَةً وَتَحَرُّسٌ مِنْ إِجْلَالِهِ الْأَلْسُنُ اللَّدُّ^(٤)

وواضح أنه يبالغ في مديح عطيفة ، ودائما يصفه بأنه سيف دين الله وأن المقادير تجري بما يشاء ، وينمته بالكرم والعدل ، وبشيد بنسبه من الرسول ﷺ ، وهو فخر ما وراءه فخر ، ويمدح ابنه مباركا المتوفى سنة ٧٥١ بنفس الشاكلة ، وفيه يقول :

وَرِثَ الْفَخْرَ عَنْ جَدِّهِ كِرَامٍ قَدْ بَنَى فَوْقَ مَا بَنَى أَمثالُهُ
شَرَفٌ مَا اسْتَفَادَهُ مِنْ بَعِيدٍ مَلِكٌ أَرْفَعُ الْمُلُوكِ جَلالُهُ
نَسَبٌ بَيْنَ أَحْمَدٍ وَعَلِيٍّ فَهُوَ مِنْ خَيْرِ [أَلَوْ] تِلْكَ السُّلَالَةِ
وَهُوَ كَالشَّمْسِ مُذْرِكُ أَمَالَةٍ وَجَمِيعُ الْبِلَادِ تَهْوَى وَصَالَهُ

(١) انظر في السُّلَّة وذويها نشر العرف لزيارة ١١٣/٢ ١٢٤/٧ وابنه محمد في ١٤٤/٢ وابن أخيه عجلان في ٧٢/٦ .

(٣) الب : المطاء . الصلد : الصلب .

(٤) اللد : شديدة العدواة .

(٢) انظر في السُّلَّة وذويها نشر العرف لزيارة ١١٣/٢ ١٢٤/٧ وابنه محمد في ١٤٤/٢ وابن أخيه عجلان في ٧٢/٦ .

(٣) راجع في ترجمة يحيى وأندلسه العبد العبد ٤٥٢/٧ وكذلك ترجمة عطيفة في ١٠٢/٦ وابنه مبارك في

وواضح أنه سلس اللغة ، فالكلمات خفيفة الوقع على الآذان . وهى شديدة الاستواء والتناسق يلائم بعضها بعضا ، ويشعر الإنسان إزاءها بجمال الجرس جمالا بديعا ، جمالا يلد الألسنة والآذان والقلوب ، وله من قصيدة فى عهد بن عطفة مدحه بها سنة ٧٣٩ للهجرة :

إمامٌ له فَضْلٌ عَظِيمٌ على الوَرَى كريمُ الأباذى بالسَّاحةِ أُوْحِدُ
يُحَوِّدُ بما تَحَوَّى بدها تَكْرُمًا ويعلمُ أن المال ليس يُخْلَدُ
ففى لم يَرِ الرامون مثل صفاته إذا قيل هذا حاتمٌ فهو أجود
أجلُ الوَرَى جَهاً وَقَدْرًا ورفعةً وأكرمُ مَنْ يَرْجى عطاءهُ ويُقْصَدُ

وعلى هذا النحو يشيع الانسجام فى كلماته ، إذ يلائم بينها موسيقيا ملامح دقيقة ، بحيث لا تجد فيها قصورا ولا انحرافا ، وإنما تجد صفاء فى الجرس ، سواء عمد إلى الأسلوب الرصين الجزل كما فى هذه الأبيات أو عمد إلى الأسلوب الرقيق كما فى الأبيات السالفة . ومن قوله فى مديح عجلان بن رُمَيْة المتوفى سنة ٧٧٧ للهجرة :

ماذا يقول المدحُ فيه وما عسى إذ كان يخدم جدَّهُ جَبْرِيلُ
أما الملوك فكلهم من دونهِ كالبر فى أفق السماء حلُولُ
سلطانُ مكةَ والمشارِ والصفا من لا يخاف من الزمان نَزِيلُ
لو حاول التَّجَمُّعُ العظيمَ لَنالَهُ تُنْيِكَ عنه رِماحُهُ ونُصُولُ
سكنتُ بحبِّهِ القلوبَ جميعها لما تقارَنَ سَمَدُهُ وَقَبُولُ

وكان عجلان محبوبا حقا للقريب والبعيد إذ كان دون أمراء مكة الحسينيين من آباءه وأقاربه يجبُ أهل السنة وينصرهم على الشيعة ، ويقال إنه كان شافعى المذهب ^(١) . وقصيدة النشو فيه بديعة ، وقد افتتاحها بغزل رائع ، إذ يقول :

لولا الغرامُ وَوَجَدُهُ وَنَحْوُهُ ما كنت تَرْحمه وأنت عَدُوُّهُ
إن كنتَ تَكْرهُ فَسَلِّ عن حالهِ فالحبُّ داءٌ لا يُفِيقُ عَليهِ
يا مَنْ يَلومُ على الهوى أهلَ الهوى دَعِ لَوْمَهُمْ فالصِّبرُ مات جَمِيلُ

وأشده صاحب المقد الثمين فى ترجمته للنشود مدائح له جيدة فى الشريف طُفَيْل بن منصور الحسينى أمير المدينة ، استلها بغزل بديع ، يتحدث فيه عن الغرام وأنه يجد بحبوت وجدا لا يشبه وجد ، إذ نزلت مع صواحبا بالمنحنى لا من الأودية والتلال ، ولكن من أضلعه ، ومن غزله الرقيق :

أَيْنَ الْفَرْ لِمَنْ هَوَاكَ طَلِيئُهُ رِسْهَامُ لَحْظِكَ بِالسَّقَامِ نُصِيئُهُ
يَشْكُو وَلَا أَحَدٌ يَرِيءُ لِمَا بِهِ وَارْحَمَتُهُ لِمَنْ جَفَاهُ حَيِيئُهُ
وَجَمِيعُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْكَ عَرَفْتُهُ أَنْتَ كَوْنُ سَاكِنَتِهِ وَأَنْتَ تُذَيِّبُهُ
حَنُّ الْعَذُولُ عَلَيْهِ حِينَ هَجَرْتُهُ وَرَنَّا لَهُ الْوَاشِي وَرَقُّ رَقِيئُهُ
بِأَوْجَعٍ مِنْ يَرِيءُ لَهُ أَعْدَاؤُهُ فَشَجُونُهُ لَا تَقْضِي وَغِيئُهُ

وهو غزل كله وجد ولوعة وهيام ، غزل يترقق فيه الشوق واللهافة والحنان ، حتى ليحزن على الحب العذول والواشي الرقيب ، فكلهم بأسى له ، وهو يلتاع بحبه وشجونته ، ولا يكف عن النحيب ، إذ يجب صاحبه كما لم يجب فتاة قط ، ويحتمل في ذلك آلاما نقالا . وله مدائح نبوية كثيرة بديعة ، يستلها بنسب رائع ، من مثل قوله :

عَرَّجَ بِمَنْتَرَجِ اللَّوَى وَالْمُنْتَحَى فَمَسَاكَ تَقَفَّرَ مِنْ لِقَاهِمِ بِالْمُنَى
أَهْوَاهُمْ وَهَوَاهُمْ لَا يَنْقُضِي أَبَدًا وَإِنْ شَطَّ التَّيَاعُدُ بَيْنَنَا
فَلَنْ ظَفِرْتُ بِزُورَةٍ أَحَبَّأَ بِهَا عَلَى السَّعَادَةِ وَالْمُسْرَةِ وَالْهِنَا
يَا أَهْلَ طَيِّئَةٍ إِنْ لِي فِي حَبِّكُمْ قَرَأَ لَهُ كُلُّ الْهَامِسِ وَالسَّنَا
أَنْوَارُهُ مِنْهَا الدِّيَابِجِي أَشْرَفْتُ بَدَرْتُ بِهِ قَدْ تَوَرَّتْ كُلُّ الدُّنَا
وَلَهُ الْفَضَائِلُ وَالْمَائِثُ وَالْعُلَا وَلَهُ الْمَفَاخِرُ وَالْمُحَامِدُ وَالْثَنَا

والنسب كالمدبح النبوي يلذوب رقة وخفة ورشاقة ، مما يدل بوضوح على قدرة الشاعر الموسيقية وأن أذنه كانت من رهاقة الحس بحيث تحسن اختبار القوافي واصطفاء الألفاظ إحسانا بعيدا .

موسى بن يحيى بَهْرَان^(١)

شاعر الإمام شرف الدين (٩١٢ - ٩٦٥ هـ) . وليس بين أيدينا معلزمات واضحة عن زمن مولده ووفاته . وكان شرف الدين مدَّ يده إلى المصريين مُعِينًا حين أرسل قانصوه الغوري طائفة من الجراكسة في سنة ٩٢١ إلى جنوبي البحر الأحمر لرد عدوان البرتغاليين ونزلت في جزيرة كَمَرَان ، وطلبت من السلطان عامر آخر أسرة بني طاهر أن يعينها ضدهم ، ولكنه رفض عونها ومنع عنها الميرة ، وكان شرف الدين قد أرسل إليها شيئا من

(١) انظر في ترجمة موسى بن يحيى بهران ونشأته كتاب شعر النناء الصنعاني لمحمد عبده خانم ص ١٨٤ - ١٨٧ ، ١٩٩ - ٢٠٠ وتاريخ اليمن لعبد الواسع (طبع المطبعة

السلفية) ص ٤٩ . وللشاعر ديوان نظمته في مدح الإمام شرف الدين .

العون والمؤن ، وشكا من السلطان عامر ، فتعاون قائدهما معه على حربه ، وقضيا عليه وحل حكم أسرته سنة ٩٢٢ . ودخل شرف الدين صنعاء ، ودخلت البلاد جميعها في طاعته وأكثرت الشعراء من نهته بهذا النصر المبين ، وفي مقدمتهم موسى بن يحيى بهران إذ هنأ بقصيدة رائعة ، فيها يقول :

خليفة الرحمن في أرضه مبارك الوجه كريم الجود
بر كريم من بنى المصطفى إمام حق ساعده الجود
قالت له الأيام إذ أقبلت ما أحسن الوصل عقب الصدود
وأهلك الباغي حتى توارى واستبدلوا بعد القصور اللود
واستبشر العدل بأيامه فامتلا القور به والتجود
وأصبحت صنعاء من عجبيها ترقل في مستحسنت البرود

وقد ورى الشاعر في البيت الثاني بكلمة الجودود وهو لا يريد بها الآباء كما في البيت الأول - وكما قد يتبادر - وإنما يريد بها الحلوذ . وهو يذكر نسب شرف الدين من الرسول ﷺ ، إذ هو من سلالة الحسن بن السيدة فاطمة الزهراء . ولا يلبث أن يمدحه برفع أعباء الظلم عن كواهل الشعب وإحلاله في كل مكان للعدل الذى لا تصلح حباة الأمم بدونه ، ويشير في البيت الأخير إلى فتح شرف الدين لصنعاء وكيف اتخذت زينتها ابتهاجا به وفرحا . ويسترسل في القصيدة منشدا :

يا شرف الدين وقيت الردى ودمت تحمى بالحداد الحدود
لا غرو أن سدت جميع الورى مثلك يا بحر الندى من يسود
علمك بحر ماله ساحل زنذك أورى من جميع الزنود^(١)
وجودك كعبك إذا ما همى غبت مئيت ما له من رعود

وقى البيت الأول جناس واضح بين الحداد أى السيوف والحدود . ومنذ هذا التاريخ بل ربما قبله بحقب يكثر الجناس في شعر اليمنيين ، وقد مضوا أيضا يكثر من التورية محاكاة للمصريين . والشاعر يمدح شرف الدين بالكرم والشجاعة والعلم بالشريعة . وفي الأبيات السالفة مدحه بالعدل . وكل هذه مبادئ أساسية في الإمامة الزيدية كما مر بنا في صدر هذا الكلام . ومضى في القصيدة مبالغا في مديحه خاتما لما بالدعاء له ، ولموسى قصيدة بائنة بديعة يهنئ فيها شرف الدين بأحد أعياد الفطر ، وفيها يقول :

حوى شرف الهدى والدين مجدا ربيعاً وابتنى شرفاً علياً

(١) لورى : من ودى الزند إذا خرجت ناره .

بَرَاهُ إِلَهُنَا بَرًّا صَفِيًّا وَلَمْ يَخْلُقْ جَبَّارًا عَصِيًّا
سَرَى سِرَّ النُّبُوَّةِ بِهِ حَتَّى حَكَى عَنْ جَدِّهِ خَلْقًا سَيِّئًا
حَوَى عِلْمَ الَّذِينَ مَضَوْا جَمِيعًا وَأَصْبَحَ وَارثًا لَهُمْ وَلِيًّا
تَأَزَّرَ وَارْتَدَّى بِالْحُكْمِ كَهَلَا وَأَوْنَى حُكْمٍ خَالِقِهِ صَيًّا

وواضح أن قوافي الأبيات مأخوذة من فواصل سورة مريم ، وأن الشاعر لم يكف بذلك ، بل حاول أن يسبق على شرف الدين بعض ما جاء في السورة من نعوت للنبي يحيى ، وقارن بين البيت الثانى وقوله تعالى في نعت يحيى بن زكريا : (وبرأ بالدين ولم يكن جبّاراً عصياً) . ويشير الشاعر في البيت الثالث إلى فكرة ميراث النبوة التى جاءت في السورة على لسان زكريا إذ يدعو ربه أن يهبه غلاما : (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْزُقْهُ وَهُوَ مِنَ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) . ويكمل الفكرة في البيت الرابع . ولا يلبث أن يسلك في البيت الأخيرة نهاية الآية الكريمة : (يا يحيى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) . وهو غلو واضح . ويمضى في القصيدة قائلا :

وَقُلْ يَا بَنِي الْآكَارِمِ مِنْ قَرِيبٍ وَأُخْسَتَهُمْ - إِذَا ذُكِرُوا - نَدِيًّا
وَمَنْ دَنَتْ الْمُلُوكُ لَهُ وَذَلَّتْ وَغَرَّتْ مِنْ مَهَابَةِ جَبِّيَّا
بِفَضْلِكَ تَتَّقَى تَوْبُ اللَّيَالِي - فَكُنْ فِي النَّاتِلَاتِ بِنَا حَفِيًّا

والشطر الثانى في البيت الأول مستمد من قوله تعالى في السورة : (أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) أى مجلسا وجماعة . والبيت الثانى يستضىء بالفاصلة (جبيّا) الواردة في السورة أى تَخِرُّ الملوك على ركبها ولا تستطيع الحراك هية له وإجلالا . وقافية البيت الثالث مأخوذة من قول إبراهيم في السورة لأبيه : (سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ لِي حَفِيًّا) أى رموفاً يرعاني . ويختم الشاعر القصيدة بالدعاء لشرف الدين والصلاة على رسول الله ﷺ ، بقول :

عَلَيْكَ سَلَامُ رَبِّكَ مَا تَغَنَّتْ حَامُ الْأَيْكِ صُبْحًا أَوْ عَشِيًّا
وَصَلَّى اللَّهُ خَالِقَنَا عَلَى مَنْ تَحَبَّرَهُ نَسِيبًا هَاشِمِيًّا
مُحَمَّدٍ الْمُشَفَّعِ فِي الْبَرَايَا صَلَاةً تُبْلِغُ الْأُمَدَ الْقَصِيًّا

وتكثر هذه الخاتمة عند شعراء الجزيرة وخاصة في القرون الأخيرة من هذا العصر ، وكثيرا ما يضمنونها كما صنع الشاعر الإشارة إلى شفاعته رسول الله ﷺ لأمنته يوم القيامة . ولهذا القصيدة وسابقتها مقدمتان غزليتان بديعتان ، ومن قوله في مقدمة القصيدة الأولى :
لَمَقَى فِي خَدِّهِ جَنَّةٌ مَحْفُوقَةٌ بِالنَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ

له سيفٌ طالما سلَّها من لحظه يحسى ورود الخلدود
سبحان من صورهِ فتنةً خلقتهُ وهو الرحيمُ الودود
لم أدرِ أين الثمر من عِفدِهِ لا تساوى نَفَرُهُ والعقود
وفى المَها ضِدَانٌ لم يَبرحا قساوة القلبِ ولينُ القدود

والآيات تكثُر بالصور وبعنصر المفاجأة الذى يجعلها طريفة كل الطرافة ، فالورود فى خَدِّ صاحبه جنة عفوفة بحمرة شديدة كأنها النار الحامية ، وما لحظها إلا حام بسيفه لورود الحدود ، وإنها لفتنة لا تُحاكيها فتنة . ويعود إلى التصوير وعنصر المفاجأة ، فلا يدري أين ثمرها ولآتى أسنانها وأين العقود ولآلتها فقد اختلط عليه الأمر . ويجالها تحمل من المَها قساوة قلبه ولين قَدِّه وقامته . أما مقدمة القصيدة الثانية فجعلها حواراً بينه وبين محبوبته فقطعت منه هذه الآيات :

فقلتُ له ونحن بخير حالٍ أنفقُد من جنان الخلدُ شيئاً
فقال وقد تعجَّب من مقالٍ جنانُ الخلدُ قد جُيعتُ لدنيا
فقلت : فيسرُ بابلُ أين أضحى فقال : أما تراه بِمُقلَّتِي
فقلتُ : الوردُ أين يكون ؟ قل لى فقال : أما تراه بوجَّيَّتِي
فقلتُ الشَّهدُ أين ؟ فقال : ههْوى شِفاهى قد حوتُ شَهداً جَيِّناً

ويستمر فى حوارهِ مع صاحبه سائلاً عن البرق ، فتذكر له أنه يطلُّ من مبسمها الوضىء ويسألها عن المرأة وجيد الغزال والثريا فتبدى له خدَّها الباهى وجيدها الفاتن وقد استدار من حوله عقد جواهر أنيقة . ولولا خوف الإطالة لنقلنا الحوار جميعه ، وفى الحق أن شعره بحفل بما يملأ النفس إعجاباً بتساويره وأخيلته ولفظه العذب السائغ ونغمه الموسيقى المصفى ، ولعل ذلك ما دفع المُنغنين فى اليمن منذ عصره إلى أن يتغنوا بهاتين القصيدتين ، وخاصة بمقدمتيها الغزليتين البديعتين .

على بن محمد العنسى^(١)

يعنى صنعانى ، نشأ بمدينة صنعاء فى بيت علم وفصل ، وبدأ بحفظ القرآن واستظهار الأَشعار ثم اختلف إلى مجالس النحاة والفقهاء وعلماء المنطق ، حتى إذا تزود من كل ذلك

(١) الحسنى والسيّد عبد الله بن على الوزير ومصطفى الحسنى وأحمد بن عبد الله الجربى وصلاح بن الحسنى .

(١) انظر فى ترجمة العنسى وأشعاره البدر الطالع للشوكاني ١ / ٤٧٥ وكتاب نشر العرف لزيارة ٢ / ٢٨٠ وراجع فيه تراجم شرف الدين القاسم والمتوكل القاسم بن

زاداكافيا قُلْد القضاء ببلاد المدين من اليمن الأسفل لعهد الإمام الزيدى محمد بن أحمد ابن الحسن (١٠٩٧ - ١١٢٨ هـ) ومازال يتولى هذا المنصب حتى عهد إليه الإمام الزيدى التالى المتوكل القاسم بن الحسين (١١٢٨ - ١١٣٩ هـ) بالقضاء فى بلاده وفى وصاب غررى زَيد. وفى سنة ١١٣٦ وُثِّى إلى القاسم أنه يسمى ضده مع بعض الثائرين وأنه صاحب القصيدة : «سماعا عباد الله أهل البصائر» وهى قصيدة تصور ظلمه وتدعو للثورة عليه . فقبض عليه القاسم وألْقَى به فى غياهب السجون ، وأخذ العنسى يرسل إليه قصائد مستعظما بمثل قوله :

إِمَامَ الْوَرَى عَطْفًا عَلَى خَائِفٍ عَطْفًا بِحَقِّ الَّذِى أَبْطَاكَ فى خَلْقِهِ كَهْنًا
فَوَ اللَّهِ مَالِى قَطُّ ذَنْبٌ عَرَفْتُهُ وَهَذَا الَّذِى أَبْدَى وَفِّهِ مَا يَنْجَى
إِمَامَ الْهَدَى مَتْنِى جَنَيْتُ جَنَايَةً فَهَبْنِى لِأَطْفَالِ كَطِيرِ الْقَطَا صَمًّا
وَنَحْقُ الْقَاسِمِ مِنْ بَرَاءَتِهِ ، فَرَدَّ إِلَيْهِ حَرِيئَةً ، وَعَيْنُهُ حَاكِمَا بِالْحَبَمَةِ مِنْ بِلَادِ صَنْعَاءَ ، وَظَلَّ بِهَا إِلَى أَنْ لَبِىَّ نَدَاءَهُ رُبَّه سَنَةَ ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م . وَيَكْتِظُ كِتَابَ نَشْرِ الْعَرَفِ بِأَشْعَارِ إِخْوَانِيَّةٍ مُتَبَادِلَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ الْأُمَرَاءِ وَالْأَدْبَاءِ فى تَرْجُمَتِهِ وَتَرَاجُمِهِمْ . وَلَهُ قِصَائِدٌ مُخْتَلَفَةٌ تَتَّصِلُ بِالْأَحْدَاثِ فى عَهْدِ الْمُتَوَكِّلِ الْقَاسِمِ بْنِ الْحُسَيْنِ ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَكْمَلَ بِنَاءَ السُّورِ عَلَى بَسْتَانِ بَابِ السَّبْحَةِ فى صَنْعَاءَ سَنَةَ ١١٣٤ مَدَحَهُ بِنُوبَةٍ يَقُولُ فِيهَا :

أَمَّا قَبْلُ فى الْبَسْتَانِ وَهُوَ بِأَهْلِهِ وَبِالْمُلْكِ سَامٍ لَا يَدَانِيهِ عُمْدَانُ^(١)
وَيَعْمُرُهُ مِنْ يَغْمُرُ الدِّينَ عَدْلُهُ وَيَحْيَى بِهِ مَعْنَى الْفَخَارِ وَيزْدَانُ
وَمِنْ ذَلِكَ إِيقَاعُ الْمُتَوَكِّلِ الْقَاسِمِ فى صَنْعَاءَ بِقِبَالِئِلِ أَرْحَبَ سَنَةَ ١١٣٨ حِينَ اعْتَدَلُوا عَلَى بَعْضِ فَرَسَانِهِ ، فَفَتَكَ بِهِمْ فَتَكَ ذَرِيعًا . وَصَوَّرَ ذَلِكَ الْعُنْسَى فى مِمْبِيَّةٍ عَارِضٍ بِهَا مِمْبِيَّةَ الْمُتَنَبِّئِ فى سَيْفِ الدَّوْلَةِ الَّتِى وَصَفَ فِيهَا وَاقِعَةَ الْحَدَثِ وَهَزِيمَتَهُ لِلرُّومِ هَزِيمَةً سَاحِقَةً . وَقَدْ اسْتَعَارَ مِنْهَا كَثِيرًا مِنْ قَوَائِمِهِ وَمَعَانِيهِ وَصُورِهِ وَأَلْفَاظِهِ ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

نَثَرْتَ دَنَانِيرَ الْوُجُوهِ عَلَى الثَّرَى كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ
هَبْنِى لَصَرْبِ الْهَامِ وَالْجِدِّ وَالنَّدَى وَرَاجِبِكَ وَالْإِسْلَامِ أَنْكَ سَالِمُ
وَقَوْفُكَ مَا بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ بَاسِحًا وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَكَ الْمُتَلَاطِمُ
وَلَسْتُ مَلِكًا هَازِمًا لِنَظِيرِهِ وَلَكِنَّكَ الْإِسْلَامَ لِلشَّرِكِ هَازِمُ
وَالْأَيَّاتُ شَدِيدَةُ الصَّلَةِ بِقَصِيدَةِ الْمُتَنَبِّئِ : « عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِى الْعَزَائِمُ » . وَهِيَ ظَاهِرَةٌ تَلَاخُظُ فى شِعْرَاءِ الْيَمَنِ الْمُتَأَخِّرِينَ إِذْ يَكْثُرُونَ مِنْ مَعَارِضَةِ الشُّعْرَاءِ النَّاجِبِينَ لَا فى الْمَدِينِ

فحب ، بل في كل الأغراض الشرعية . ونرى العنسى يقول في افتتاح قصيدة روضية :
يا سَمِيرِي وَلِلْفَتَاةِ قَوْمٌ خَلَقُوا مِنْ سُلَالَةِ الْإِنْسَانِ
بَطْرَازِ الرِّقَا بِتَشْيِيبِ مَهْيَا رِ بِلُطْفِ الْبَهَا بِطَبِيعِ السَّلَامِ

وهو يصرح في البيتين بأنه من قوم يعنون في شعرهم بالانسجام الموسيقى على شاكلة السري الرفاء المشهور بمذوبة ألفاظه ومهيار الذي يمتاز بالسلاسة والبهاء زهير المشهور بالركة والسلامي المعروف بجمال نغمه . وطبعاً هؤلاء إنما هم بعض من قرأ لهم العنسى وحكاكهم وعارضهم في شعره . وله قصيدة تاريخية شيعية في نحو سبعين بيتاً استعرض فيها نحو أربعين إماماً بادئاً بعلي بن أبي طالب الذي اقتلع باب الحصن في خيبر ، فاستوصلت شاة الكفر ، اويذكر قتله لعمر بن ود فارس قريش يوم الخندق ويُشيد بفاطمة الزهراء وبابنها الحسن والحسين ريماني أهل الجنة وبعلي زين العابدين ، ثم بإمامهم زيد منشداً :

وَبَا خَيْرٍ مِنْ سَلِّ الْحُسَامِ وَقَدْ طَعَنِي لَيْمُ بْنُ مَرْوَانَ أَشَقُّ بَنِي الدُّهْرِ
فَأَصْبَحَ مِنْهُ الْجَذَعُ قَدْ عَاتَى الْعُلَا وَلَكِنَّا فِي الدِّينِ قَاصِمَةُ الظُّهْرِ

وهو يشير إلى ثورة زيد بن علي زين العابدين على هشام بن عبد الملك في الكوفة ومقتله هناك وصلبه ، ويذكر أخاه محمداً الباقر وابنه جعفر الصادق . ويذكر ثورات الحسين مبتدئاً بثورة النفس الزكية على المنصور وسفك دمه ، ويذكر ثورة الحسين بن علي الحنسي على الخليفة العباسي المهدي في الحجاز ومقتله بفتح بالقرب من مكة ، كما يذكر وقوع يحيى أخى النفس الزكية في يد الرشيد وإلقائه به في غياهب السجون حتى مات . ويذكر الزيدية في طبرستان وآمل . ثم يتحدث عن المهدي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الحنسي مؤسس مذهب الزيدية في اليمن ، ويستعرض الأئمة الثالين له منها بهم ومشيداً بأجسادهم ، حتى يصل إلى المؤيد بالله محمد بن القاسم الذي تغلب على العثمانيين وردهم عن البلاد سنة ١٠٤٥ وفيه يقول :

وَبَا حُجَّةَ اللَّهِ الَّذِي قَامَ دَاعِياً إِلَى اللَّهِ فَرْداً لَا يَزِيدُ وَلَا عَمَرُو
وَبَشَّرَتِ النَّاسَ الْهَوَاتِفُ بِاسْمِهِ كَمَا بَشَّرَتْ بِالْمُصْطَفَى مَبْدَأُ الْأَمْرِ
فَأَخْلَا حُلُوجَ التُّرْكِ عَنْ يَمَنِ الْهُدَى بِضَرْبِ كَمَا هَاجَ الْوَهْجُ مِنَ الْجَمْرِ

ويلاحظ أن العنسى لا يقف عند مبادئ الزيدية في مديحه ، إذ يضيف إليها بعض اعتقادات الشيعة الغالية في أئمتهم . وقد ساق في أوائل القصيدة وصفا لجعفر الصادق بأنه يكشف أسرار الحق من علم الجفر ، وهو كتابات تكشف طلائعها عن أنباء المستقبل وأحداثه ، ويقولون إن الرسول أودعها علياً وتناقلها الأئمة بعده من جيل إلى جيل ،

والزيدية لا يؤمنون في إمامهم بمعرفته لهذا العلم وما يجر إليه من الاعتقادات الباطلة ، ومع ذلك نرى العنسي يشيد بمعرفة جعفر الصادق له ، وكأنه أحد الإسماعيلية الذين كانوا يؤمنون به . وقد يكون في هذا دليل على ما دخل مذهب الزيدية مع الزمن من اعتقادات لا تعرفها تلمذتهم ، ومن ذلك وصفه محمد بن القاسم بأنه حجة الله . ومربنا أنه اصطلاح إسماعيلي وأن المراد به أنه الداعي للمذهب في بلاده . ويزعم أن المواقف من الجن كانت تبشر به الناس كما بشرت قديما بالمصطفى ، وكل ذلك غلو مفرط يخرج عن حدود المذهب الزيدى الشيعى المعروف باعتداله وأنه لا يبالغ في تصور الأئمة وإسباغ الصفات الربانية عليهم ، كما يفعل الإسماعيلية . وربما كتب العنسي هذه القصيدة في سجنه تقربا إلى القاسم بن الحسين حتى يفك عنه أغلاله ، فخرج إلى هذه المبالغات المسرفة . وقبل أن نغتم كلامنا عنه نشير إلى قصيدتين متبادلتين بينه وبين عبد الله بن علي الوزير الذي التزم في جميع أبيات قصيدته التورية وسماها أهرام مصر . ودفع ذلك العنسي إلى القاسم التورية بدوره في كثير من أبيات قصيدته . وواضح من تسمية عبد الله الوزير لقصيدته بأهرام مصر أنه كان يعرف بوضوح أن شعراء مصر هم الذين اتخذوا التورية مذهبا أداروا عليه كثيرا من أشعارهم . والقصيدتان من وزن الطويل ، وقد ضمن العنسي قصيدته بعض شطور من قصيدة مجنون ليلي مثل : (قضاها لغيري وابتلاني بحبا) وأيضا بعض شطور من قصيدة المتنبي في كافور مثل : (كنى بك داء أن ترى الموت شافيا) وكان هذا التضمن في الحقب المتأخرة من ذلك العصر بعد من الطرف البديعة .

٣

شعراء الخوارج

مربنا في الفصل الأول حديث عن الإباضية وأنها كانت إحدى فرق الخوارج الأساسية بجانب الأزارقة والتجدات والصُفْرية ، وكان نشاط الأزارقة في فارس وكرمان والصُفْرية في الموصل والنجدات في اليمامة ، وانتهت هذه الفرق الثلاث أو كادت بانتهاء العصر الأموي . أما فرقة الإباضية المنسوبة إلى إمامها عبد الله بن إباض التميمي فقد ظلت حية طوال عصر بني أمية والعصور التالية ، واتخذت مركز نشاطها في مدينة تَزَوَى داخل إقليم عُمان جنوبي الجبل الأخضر ، وظلت مدينة عمان طويلا تخضع لدول سنية أو شيعية كما مربنا في غير هذا الموضع ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى أظلت البلاد جميعها

راية الإباضية إلى اليوم . وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بينهم وبين دول مدينة عُمان ، وكانت تقع أحيانا في أيديهم ، واستطاعوا في حقب مختلفة أن يمدوا دولتهم إلى ظفار وحضرموت ، ومن أهم أئمتهم القدامى الخليل بن شاذان ، وكان يمد سلطانه ومذهبه الخارجي الإباضي على حضرموت ، واتخذ عاملا له عليا أبا إسحق الحضرمي ، وكان شاعرا ، وله في الخليل إمامه أشعار كثيرة بصور فيها عونه المال والحري ضد خصومه ، وفيه يقول ^(١) .

هذا الخليلُ إمامُ المسلمين حَكَّتْ أنوارُ سيرته في العَدْل نيرانا
ويكسُطُ ديوانه بمدانحه ، ولا تكاد تمر حادثة أو يمر له انتصار حري إلا ويرسل إليه
القصاصد مهتتا . وخلفه راشد بن سعيد على إمامة الخوارج فأبق على أبي إسحق عاملا له
على حضرموت ، ويُعدُّ راشد أهم إمام خارجي في الحقب الأول لهذا العصر ، إذ استولى
على عُمان ، وأصبحت البلاد جميعها يُظَلُّها لواء الإباضية إلى أن استطاع بنونيهان في القرن
السادس أن يستخلصوا منهم عمان . وتستم الحروب بين الطرفين إلى أن يفرض الخوارج
سلطانهم على البلاد جميعها ، وتعود عمان إلى النبهانيين فترة في القرن العاشر ، ثم يستولى
عليها نهائيا ناصر بن مرشد البرعي (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وتظل منذ هذا التاريخ في أيدي
الخوارج ، وكان البرتغاليون قد نزّلوا في شواطئها ، فأخذ ينازلهم وظلت مدينتا صُحار
ومسقط في أيديهم واستطاع خلفه سلطان بن سيف البرعي (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) أن
يطردهم من البلاد نهائيا وتبعهم أسطولهم بكنل بهم وبأسطولهم في شرق إفريقيا وغربي
الهند . وفي ذلك يقول شاعره خلف بن سنان الغافري مجدداً ^(٢) .

ثُمَّ أَوْرَى لِمَسْقَطٍ سِقْطَ عَزَمٍ أَسْقَطَ الظَّالِمِينَ مِنْهُ خَيْرًا^(٣)
وَعَدَتْ مِنْ عُمانَ كَفُّ بَنِي الْأَصَدِّ خَرَّ صِفْرًا قَدْ هَرَّهَا الْإِهْزَامُ^(٤)
وَبِمِيسْبَايَةِ أَذَاقِهِمْ بَأْ سَأَ بَيْتًا سَيْتَ بِوِ الْأَصْنَامِ
وَلَدَى زَنْجِبَارَ زَمْجَرٍ فِيهِمْ وَعَدُّ زَجَرٍ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ اعْتِصَامُ
وَبِئْسَبَائِ نَابِهِمْ مِنْهُ نَابٌ لَمْ يَشُبْهُ عَنِ الْمَضَى انْتِهَامُ^(٥)
وهو يشير إلى انتصارات أسطول سلطان علي الأسطول البرتغالي في مجابهة
وزنجبار وفي بحري بالهند . وهي انتصارات جديرة بكل تمجيد وإشادة . وخلفه ابنه

(١) تحفة الأعيان ١ / ٢٥٨ وما بعدها .

(٤) يريد بني الأصفر البرتغاليين .

(٢) التحفة ٢ / ٦٠ .

(٥) انتقام : تكسر ثيابا الأستان من أصولها .

(٣) أوردى : أسقط النار : شرارة أو شحنة منة .

بَلْعَرَب ، وكان شاعرا . وقد تروى في كنفه شاعر خارجي مهم يسمى القُبَيْسِي ، وله ديوان استهل بمدايح نبوية على عدد حروف المعجم ، وفيه مدائح كثيرة في بلعرب بن سلطان ، وفيه يقول ^(١) :

يَا مَنْ إِذَا ثَارَ فِي الْهَيْجَاءِ يَفْعَلُ فِي أَعْدَائِهِ فِعْلَةَ الْجَزَارِ فِي الْبُدُنِ ^(٢)
وَمَنْ إِذَا فَاخَرِ الْأَشْرَافِ فِي مَلَأْ شَاعَتْ مَفَاخِرُهُ فِي الشَّامِ وَالْيَمَنِ
هَذَا الْكَرِيمَ الَّذِي تَشْفِيكَ رُؤْيَتُهُ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَمِنْ هَمٍّ وَمِنْ حَزَنِ
بَلْعَرَبِ نَجَلٌ لِسُلْطَانَ الَّذِي حَسَنَتْ أَخْلَاقُهُ وَهُوَ رَبُّ الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ
وواضح أن شعره متوسط . وأجود شعراء عُمان في أواخر هذا العصر أبو مسلم ناصر بن سالم الرُّوَاحِي الْعُمَانِي . وهو شاعر بارع ، توفي سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠ م ولذلك نرى أن توخره إلى العصر الحديث في عُمان .

ولابد أن نعرض لدولة بني مهدي الخارجية التي استولت على زُيَيد من يد بني نجاح ، وقد ظلت نحو خمسة عشر عاما ، وكان مؤسسها على بن مهدي الحميري يعتنق مذهب الأزارقة من الخوارج ، وهو أكثر مذاهبهم تشددا ، وكان يقتل على الكبيرة ويستحل دماء المسلمين من مخالفيه ، ويسترق ذراريهم . ولم يقف عند مبادئ الأزارقة ، فقد استباح نساء المسلمين . وخلط آراءه بشيء من مبادئ الإسماعيلية ، فادّعى كما مر بنا العصمة وتسمى باسم الإمام المهدي . واستطاع الاستيلاء على زُيَيد سنة ٥٥٤ ، وعاجله الموت بعد ثلاثة أشهر ، وتولى بعده ابنه المهدي ، وسار سيرة أبيه في سفك الدماء وسبب المسلمين ، واستولى على تعز والجنبد ، ويقول العماد الأصبهاني إنه ادعى الإمامة وأقبل على شرب الخمر . توفي سنة ٥٥٩ ، وخلفه أخوه عبد النبي ، وكان مثل أخيه وأبيه سفاكا للدماء ، قتله توران شاه حين استولى على اليمن سنة ٥٦٩ . ومن شعراء هذه الدولة القصيرة الأجل ابن المسبح ^(٣) وعبد الله ^(٤) بن أبي الفتوح الحرازي ومحمد بن عمر العمراني وله من قصيدة يمدح بها عبد النبي ^(٥) :

وَضَحَتْ شَمْسُ الْحَقِّ بَعْدَ أَقْوَلِهِ وَرَسَتْ هُنَالِكَ قَاعِدَاتُ أَصُولِهِ
وَنَقَفَ قَبِيلًا عِنْدَ شَاعِرٍ مِنْ شِعْرَاءِ الْإِبَاضِيَةِ ، هُوَ أَبُو إِسْحَاقِ الْخَضِرِيِّ ، وشاعر من شعراء دولة بني مهدي الخارجية ، هو ابن الهيثمي .

(٤) نفس المصدر ٢٧٣/٣ .

(٥) طبقات فقهاء اليمن للجدي ص ١٩٣ .

(١) النسخة ٨٧/٢ .

(٢) البدين : الترق والبرق للملأ للنجب .

(٣) الحريدة قسم للشام ٢٧٢/٣ .

أبو إسحق الحضرمي^(١)

هو أبو إسحق إبراهيم بن قيس الهمداني الحضرمي ، وُلد بحضر موت ولا يُعرف بالضبط تاريخ مولده ولكن يغلب أن يكون وُلد في مستهل القرن الخامس الهجري أو في أواخر القرن الرابع . وهو من بيت علم وفضل ، كان أبوه - كما يقول مقدم ديوانه - عالما ورعا زاهدا متقشفا . ويبدو أنه كان يعتنق عقيدة الإباضية مثله ، ومثل كثيرين من أهل حضر موت ، ونشأ ابنه على عقيدته ، حتى إذا شب أخذ يتحمس لها ويحاول أن ينشرها في الناس من حوله ، وفي نسبه وإباضيته يقول :

فَإِنْ تَسَّأَلْنِي عَنِ وَعَنِ أَهْلِ مَذْهَبِي وَمَنْ أَيْنَ دَارِي أَنْتَ يَا أُمَّ حَازِمٍ
فَإِنِّي مِنْ هَمْدَانَ أَصْلِي وَقُدُونِي فَرْدَاسُ وَالْأَوْطَانِ أَرْضُ الْحَضَارِمِ
أَنَا الرَّجُلُ الدَّاعِي إِلَى الْحَقِّ وَالَّذِي أَبَتْ نَفْسُهُ تَشْتَمُ الطُّغَاةَ الْأَشَانِمِ
أَنَا الرَّجُلُ الشَّارِبُ الَّذِي بَاعَ نَفْسَهُ وَأَصْبَحَ يَرْجُو الْمَوْتَ عِنْدَ التَّصَادِمِ

وهو في الأبيات بصرح بأنه حضرمي من همدان ، وأنه أخلص نفسه للدعوة الإباضية ، ويصف نفسه بأنه من الثُّرَاة ، وقد سُمي الخوارج أنفسهم بهذا الاسم إشارة إلى قوله تعالى : (ومن الناس من يَشْرِي نفسه ابتغاء مرضاة الله) وهو يعلن أنه باع نفسه لربه والدعوة لنحلته ، وأصبح يطلب الموت والاستشهاد في سبيلها حتى يفوز برضوان الله ، ويبدو أن الشعر سال على لسانه مبكرا ، مما جملة يخلف ديوانا ، وهو يصور فيه حياته وأحداثها تصويرا تاما ، وهي حياة وأحداث متصلة بأئمة الإباضية في زَوَى إذ نراه على رأس حملة للخليل بن شاذان إمام الإباضية استطاع بها أن يضم حضر موت إلى سلطانه وقد ظل واليا له عليها إلى وفاته ثم خلفه راشد بن سعيد الذي مَدَّ جناح سلطانه إلى عُمان ، ونجده يشيد بإمامه الخليل بن شاذان في قصائد كثيرة ، بمثل قوله :

يَا أَيُّهَا الْعَلَمُ الْعَدْلُ الَّذِي كَمَلَتْ لَهُ الْخِصَالُ مُرُودَاتٍ وَإِيمَانَا
إِنِّي أَحْبَبْتُكَ وَالرَّحْمَنُ يَطْمَسُهُ حُبُّ احْتِسَابٍ إِلَى ذِي الطُّوْلِ قُرْبَانَا
ويطلب في القصيدة منه معونة ليحطم الغواة الضالين . وكانت لاثزال تأتية المعونات ولا يزال يحارب أعداء عقيدته في حضر موت ، ويبدو أن كثيرين كانوا ينقضون طاعته بين

(١) انظر في ترجمة أبي إسحق الحضرمي ولشعاره كتاب ص ٦٦ ونخبة الأعيان ٢٥١/١ وفي مواضع متفرقة . صفحات من التاريخ الحضرمي لمحمد عوض باوزير وقد طبع ديوانه مع مقدمة سليمان الباروني .

البدو وفي المدن الحضرية ، فكان لا يزال يرسل إليهم الحملات ، ولا يزال بهم حتى يلقوا له عن يديهم صاغرون ، وصوّر ذلك في قصائد كثيرة ذاكرة نشره للدعوة الإباضية وكيف أن خطباء يوم الجمعة يخطبون باسم إمامه في كل مكان بحضر موت ، وكيف أن البلاد والقبائل دانت له مدعنة مستسلمة ، يقول للخليل في إحدى قصائده :

سَلِّ الْخُطْبَا لِمَا دَعَاكَ جَهْرَةً عَلَى رَغَمِ أَهْلِ الْجَوْرِ بَعْدَ التَّصَادُمِ
وَسَلِّ عَرَبَ الْيَدَاءِ لِمَا أَذَقْتَهُمْ عَشِيَّةَ خَانَوِا الْعَهْدَ سُمْ الْأَرَامِ
وَأَمَّا نَوَاحِي حَضْرَمَوْتَ فَإِنَّا بِحَقْوِ الْإِمْنِ طَوَّعَ أَسْرَى كَخَانِمِي
وَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا الصَّلَاحُ قَانِمَا وَهِيَ هِيَ أَيْضًا سَمْعُهُ غَيْرُ قَانِمِ
وَنَحْنُ إِلَيْهِ وَارِدُونَ بِمِيشِنَا فَإِنَّهُ هُوَ أَدَهَى مِنْ مُلُوكِ الدِّيَالِمِ

وهو في البيتين الأخيرين يشير إلى أنه عازم على حرب الصليحي مؤسس الدولة الصليحية في اليمن وكان قد أخذ يدعوه لنفسه ويبدو أن كلا منهما كان يتحرّش بصاحبه ، ويهدده بأنه سيستعين بإمامه ، وكان الصليحي يهدده بالخليفة الفاطمي وجنوده ، وإلى ذلك يشير أبو إسحق بقوله :

يَحْرِقُنِي أَنَّ الْمَعْرُ مَلَاذُهُ بِمَصْرِ وَمَا خَوْفِي لِأَهْلِ الْمَظَالِمِ
إِذَا وَقَدَهُ وَلِيَّ إِلَى مَصْرٍ رَائِدًا مَضَى وَقَدْ نَا قَصْدًا لَحْمِ الْمَالِمِ
لِيَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبِ أَسْبَقُ نُصْرَةً وَأَيُّهَا أَوْلَى بِفَعْلِ الْمَكَارِمِ

وواضح أنه سمي المستنصر خليفة مصر حيث أن المعز كان لا يعرف لقبه الحقيقي . وخرج هو وخصمه الصليحي من التهديد والوعيد إلى إشعال الحرب ، ونرى أبا إسحق يوجه قصيدة أشبه بنداء إلى إمامه الخليل بن شاذان كى يفيثه وينصره ضد الصليحي ، قبل أن تتفاقم المارك وتقع الكارثة ، يقول له من قصيدته تونية :

انْصَرَّ أَنْتَ أَنْتَ فَإِنَّ الْحَرْبَ قَائِمَةٌ وَالْحَقُّ يَطْلُبُ مِنْ أَهْلِهِ أَرْكَانَا
اجْعَلْهُ أَوَّلَ مَا تَحِيَا الْبِلَادُ بِهِ إِنَّا تَوَلَّيْ جَيْشًا مِنْكَ بِغُلَانَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ قَدْ أَثْرَتْ مَائِرَةً فَارْقَعْ لَهَا شَرْقًا فَالْأَمْرُ قَدْ هَانَا

ويبدو من البيت الأخير أن الخليل بن شاذان كان قد أرسل إليه معونة مالية ، وهو يريد معونة حربية . واستطاع فعلا أن يرد جيوش الصليحي وأن يتزل بها خسائر فادحة . ويتوفى الخليل بن شاذان إمامه ويخلفه راشد بن سعيد ، ويقيه والياً له على حضر موت . وبظن يرسل له بقصائد المديح ، وكان قد استولى على حمان كما أسلفنا ، وله يقول :
أَيَا رَاشِدَ إِنَّا لَعَمْرُكَ تَزْدَهِي بِذِكْرِكُمْ فِي حَضْرَمَوْتَ تَعَاظَا

إذا ما عُماني أَلَمْ بأَرْضنا أَحَطْنا به نَسألُه عنكم تَراحِما
وله فيه قصيدة دالية يشيد فيها بالإباضية ، وأخلاقهم الفاضلة ، ومناقبهم الكريمة ،
وكيف أنه أصبح إماما لهم وقبائلا عليهم . يصلح أمرهم ، ويدفع عنهم الخطوب ، يقول :
إِباضِيَّةٌ زَهَرُ كَرَامٍ أَفاضِلُ مناقِبِهم في كل سَامي عَلا تَبْدُو
وأنت لنا من بعدهم حِصْرَتَ قَبْأٍ حَمَولا لِنَقُلَ الحُطْبُ يُوْرِي بك الرُّزْدُ^(١)

ونراه في نفس القصيدة يطلب إلى إمامه راشد أن يبعث إليه بنجدة تعينه في حربه مع
قيليق تَهْدِ وعَقِيلُ إن هُما لم تَسْتَكِينا نَهاثِيا ، ولم تُلقِيا السَّلاحَ وهما صاغرتان ، يقول :

وإن عدلوا عن بَقِيمٍ وتراجعوا إلى عَسْكَرِ الإسلامِ والحَقِّ وارْتَدُّوا
فأَهْلًا وَسَهْلًا بالعِشيرةِ إِنْهم إِلَيْكم بِإِخلاصٍ لِرَبِّ السَّاءِ أَدُوا
وإن هم أَبَوْا فَاسْتَصْرِخُوا فإِنَّا قَريبٌ وما لِلْقَوْمِ من صَحْبِهم بَدُ
وما بين وادى حَضْرَمَوْتٍ وبينكم إذا سَرُكَمِ إِيْتائُنَا نَحُوكُم بَعْدُ

وهو يسمى عسكر الخوارج عسكر الإسلام والحق ، ومن قدِم كانوا يقولون إن
معسكرهم هو معسكر الإسلام وحده ، وَيَصِفُون خصومهم بالبني والجور وأنهم خرجوا
على حدود الدين . ومن الحق أن الإباضية معتدلون ويؤمنون بأن غيرهم من المسلمين أهل
توحيد ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع . وليس في الديوان ما يدل على أنه
ظل عاملا لأنَّه تَرَوِي بعد راشد ، وظن بعض من عرضوا له أنه ربما استقل ودعا لنفسه
بالإمامة ونسبجد ذلك ، ونظن أنه ظل على ولائه لأنَّه الإباضية في نزوى ، وحقا نراه في
بعض شعره بصرح بأنه وهب نفسه لنشر الهدى وإحيائه في كل مكان ، على شاكلة قوله :

عَلَيْكَ الفُؤَادُ بأن أَكونَ أنا الذي يُحْيِي الهُدَى بِقَواضِيهِ وِرمَاحِ
وعلى السِيفِ يموت كلُّ مَكْرَمٍ وَعَلَى السِيفِ قِيادُ كلِّ فِلاحِ
وعلى السِيفِ يَنالُ من طَلَبِ العِلا عَرَفَ الجَنانَ وَقَصْدُهُنَّ كَفاحِ

وهو يقصد بالهدى نخلة الإباضية ، ويقول إنه بشر في أعماقه أن عليه نشر دعوتها
وإنشائها في كل بقعة ، ويردد ما يذكره شعراء الخوارج قديما من عجبهم للاستشهاد في
سبيل الله ، وكأنه أصبح شعارا لهم ، حتى يلحقوا بمن سبقوهم من رفاقهم إلى جنات ربهم
ونعيمه . ولنا نعرف سنة وفاته وأكبر الظن أنه توفي حوالي منتصف القرن الخامس
الهجري .

ابن الهيثمي^(١)

من شعراء نهامة في القرن السادس الهجري ، تَبَعَ على بن مهدي حين استولى على زَيد سنة ٥٥٤ وأصبح شاعره وشاعر ولديه من بعده . وكان يحمل شعره شركة بينه وبين علي بن مهدي ولديه المهدي وعبد النبي ، فثارة ينظمه مستقلا ، وثارة ينظمه بلسانهم ، ونصَّ على ذلك القدماء . وقد وصفه عمارة البجلي فقال : « هو أمثل كلاما ، وأقوى نظاما من كثير ممن سمعت به من شعراء اليمن » . وشعره على لسان أمرائه تهديد شديد ووعيد عنيف لخصومهم من القبائل والأمراء وأصحاب الحصون ، من ذلك قوله على لسان ابن مهدي يهدد قبائل خولان وجنَّب وسنحان وهمدان :

ما بالُ خولانَ لا توفى بما تعدُّ يدنو أبو حسنٍ منها وتبتعدُ
وما ليجنَّبِ وسنحانٍ وأختها همدان تلك الأعرابُ التي حشدا
وتسميت لهم بالأعراب كأنه يشير إلى شطر في خمرية لأنى نواس يبرأ فيها بالأعراب
قائلا : « ليس الأعراب عند الله من أحده » . وابن الهيثمي يحمل الكلمة نفس المعنى . وله قصيدة ميمية طويلة على لسان علي بن مهدي وجه بها إلى أهل حصن تمكر وقيلة خولان منذرا لما نفيرا شديدا ، وهو يفتحها بقوله :

أبلغ قرى تمكر ولا جرما	أن الذي تكرون قد دهما
وقل لجناتها سابدلها	سبلا كأيام مارب عرما
ظنت خويلان أن سخطي	عنى لما ظنت اللثام عنى
هل تنقص البحر كف غارفي	أو يحمي الناز قايس ضرما
نسا لخولان لا أبا لهم	أمنوا وجودا وأصبحوا عدما
إذ نفخوا من صوامي ضرما	واستمنوا من ظنونهم ورما
وشمرت ساقها الحروب وما	ألفها الليل سائقا حطما

وهو يهدد في أول قصيدته قرى تمكر بأنه سيزل بها ما أنزله الله بقرى سبأ ومدنها من سبيل عريم ، يقول جل شأنه : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جثمان عن يمن وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سبيل العريم وبذلناهم بحشيش جنتين ذوات أكل حُمطٍ وأثل وشيء من سدر قليل) (الأيات ندل على براعة شعرية حقيقية في الصياغة والفكرة ونسج الأسلوب . وهو يتأثر في البيت الأخير

(١) انظر في ترجمة ابن الهيثمي وشعره الخريدة (قسم الشام) ٦٥/٣ وما بعدها و ٢٨٤/٣ وما بعدها .

بشطين وردا في خطبة الحجاج المشهورة التي خطبها في الكوفة أول قدمه واليا على العراق ، وقد حملها كل ما استطاع من عبارات الوعيد قائلا : « إني لأنظر إلى الدماء تفرق بين العائم واللحي » ثم أشد هذا الشطر في وصف الحرب وشدها : « قد شمرت عن ساقها فشمروا وتلاه بيت عاصف من الشعر :

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدَّى زَيْمٌ قد لَفَّها الليلُ بسواقٍ حَطَمَ
والشد : العدو . وزيم : اسم فرس أو ناقة . واللف : الجمع . والحطم : الظالم للماشية . وواضح أن ابن الهيثمي كَوَّن بينه من الشطر السالف ، ثم من الشطر الثاني في البيت ، ليصور ما سبَّرت له بخولان من معارك مدمرة ساحقة . ويستمر في وصف جنوده ووجده .

إِنْ نَسَرَ الْوَحَى إِذَا وَقَعَتْ بِأَرْضِ قَوْمِ أَطَارَتْ الرُّنْجَا (١)
تَرْمِي بَنِيَانَهَا قَرَى عَدْنٍ صُبْحًا فَيَنْسِي شَرَّهَا الْحَرْمَا
أَيْشَرُّبُ الْخَمْرِ فِي ذُرَى عَدْنٍ وَالْمَشْرِفَاتُ بِالْحَصْبِ ظَا
وَيُلْجِمُ الدِّينُ فِي مَحَاطِلِهَا وَالْخَيْلُ مِنْ حَوْلِي تَمْلِكُ اللَّجْمَا

وما جنوده إلا نسور أما جنود خصومه فرخم وطير مأكول ، ويضيف إلى تهديد خولان تهديد عدن وأمراتها من آل زُرَيْع ، وكانت تَعَزُّ والجند وَتَمَكَّرُ في حوزتهم ، فكان طبيعيا أن يصطلم بهم . والشاعر يزعم على لسان ابن مهدي أن أهل عدن غارقون في الخمر إلى آذانهم ، ويقول إن السيوف في الحصب وادي زَيْد ظامئة إلى دماهم وأن الخيل من حوله تَمْلِكُ اللحم ، تريد أن تهم بالمسير إليهم وقتالهم . وكان طبيعيا والحرب العسكرية قائمة بين ابن مهدي وولديه من جهة وعدن وأمراتها بنى زُرَيْع من جهة ثانية أن يصطلم ابن الميمني شاعر بني مهدي بأبي بكر الميمني شاعر الزريميين ، وأن يأخذ في التهاجي وما يتصل به من التهديد بالقوة والقهر ، وقد احتفظ المهاد في غريدته للشاعرين بتقيضتين من هذا الطراز ، أولاها لابن الهيثمي ونراه يستلها بالإشادة بجنود علي بن مهدي إمامه ، يقول :

أَسَدٌ إِذَا مَا أَبْصَرْتَ أَسَدَ الشَّرَى وَرَأَتْ حَيَاضَ الْمَوْتِ لَمْ تَتَجَهَّجْ (٢)
تَعْدُو أَمَامَ مَتَوَجِّعٍ مَتَلَجٍّ مَتَبَقِّظٍ مَتَوَقِّدٍ مَتَنَبِّئٍ
مُتَضَفٍّ فِي الدِّينِ لَكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ بِالْمُتَضَفِّ
مَلِكٌ إِذَا اشْتَبَهَ الْمَلُوكُ فَالَهُ فِي مَلِكِهِ وَصَلَاحِهِ مِنْ مُشْبِئٍ

(١) الرخم : طائر غزير الريش كبير الجناح طويل . (٢) تتجهجه : تردد .

ومنزّه الدين الخفيف الذي لولا الإمام القطب لم ينته
 بصورهم ولما دهم وضراغم وملاحم بلغت به ما ينهى^(١)
 ووضح أنه يشيد بجنود هذا الإمام في رأيه وشدة بأسهم ، ويسبغ عليه صفات التفقه
 في الدين وحمايته بسيوف قاطعة وأسود ضاربة وملاحم ساحقة . ويمجد انتصارات على بن
 مهدي على آل نجاح الأحباش أو الذين يعودون إلى أصل حبشي ، ويعود إلى الإشادة به .
 قائلا :

أخبار أيام الإمام فواكه فاصبح بِسَمِّكَ نعوها وتفكّه
 سير الإمام قديمها وحديثها فرح القلوب وروضة المتشرّ
 أشهى من الماء الزلال على الظأ وألذ من عصر الشباب الأموة^(٢)

ولا شك أن ابن الهيثمي يحور جورا فظيما على الحقيقة ، فقد عرضنا لابن مهدي
 ومبادئه ، وأنه خرج فيها حتى على غلاة الخوارج ، ويكنى وصمة لا تفارق جبينه أنه
 استباح نساء المسلمين واسترق الداراري ، فكان ينبغي على ابن الهيثمي أن لا يسخر شعره في
 مدحيه هذا المدح المفرط في الثناء . وتنسب لابن مهدي دالية لا شك أنها من نظم ابن
 الهيثمي ، وفيها يقول على لسانه :

قسمت الردي والجلود قسمين في الردي فلمعتدي حدي وللمجتدي ردي^(٣)
 ومال من مالي الذي كبت يدي ثراث أبقي سوى الشكر والحمد
 تخوفني جنب بكتر عديدها وما لجنود الله حولي من عدو
 نفعني نحوي بالشان وهل ترى حوا الكلب يخفي زارة الأسد الوردي^(٤)

والبيت الرابع يشهد بأن القصيدة من نظم ابن الهيثمي ، إذ جلب فيه عبارة من
 عبارات المجاج في خطبته التي أشرنا إليها آنفا فقد قال في تضاعفها : إني لا أغتر نغاز
 التين ولا يقمق لي بالشان ، وهي القرب البالية ، وكانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل على
 السير لتفزع تسرع . وابن الهيثمي مثل أبي إسحق الحضرمي لا يعرف زمن مولده ولا زمن
 وفاته ، ولكن من المؤكد أنه عاش في زمن دولة بني مهدي ، وربما لم تمتد به الحياة بعدها
 أو ربما فارق الحياة قبل قضاء توران شاه عليها في نهاية العقد السابع من القرن السادس .

(١) الصورم والهازم : السيف . الضراغم : جمع
 ضراغم :
 (٢) الأموة هنا : الناضر .
 (٣) ردي : عطاف .
 (٤) الوردي : الشجاع الجري .

شعراء الدعوة الوهابية السلفية

مرتباً أن الدعوة الوهابية السلفية قامت على الرجوع بالإسلام إلى صورته البسيطة الأولى وتحليصه من كل ما دخل عليه من شوائب ، كتقديس الأولياء ، والاعتقاد فيهم أنهم - كما يقولون - ينفعون الناس حتى في قوتهم ، مما جعلهم يزورون أضرحتهم ويتوسلون إليهم أن يباركوا زروعهم وإبلهم وأنعامهم وشاءهم . وينبئ - في رأى ابن عبد الوهاب - أن يكف المسلمون عن مثل هذه الاعتقادات . وأن يعودوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية ، فها المصدران الأساسيان للإسلام وأحكامه ، والمدار في الدين إنما هو على النقل ، أما العقل فيتخذ شاهداً ولا يستخدم حكماً . وهذه الدعوة - كما قلنا - تستقى بأفكار ابن تيمية وإمامه أحمد بن حنبل الذي كان يقدم المنقول على المعقول ، فالمنقول من الكتاب والسنة أولاً ، والمعقول يليه ويأتي ثانياً ، ولا يصح التقرب إلى الله بزيارة الولي الصالح ، فضلاً عن زيارة جدته ورفاته . وتشدد ابن عبد الوهاب قائلاً إن ذلك يعنى الشرك بالله أن يزور شخص قبور الأولياء ويدعو عندها ، طالباً جلب منفعة أو دفع أذى ، إذ يظن أن الولي من شأنه أن يمينه على ذلك ، والله يقول لرسوله ﷺ في كتابه : (قل لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله) . وعلى هذا النحو تشدد محمد بن عبد الوهاب في أنه لا يجوز إشراك غير الله معه في الدعاء ، كأن يقول القاتل المتوجه إلى ربه : أسألك بحق فلان من الصالحين ، بينا الله عز وجل يقول : (فلا تدعوا مع الله أحداً) . وبالمثل لا يجوز طلب الشفاعة من ولي أو غيره ، لمثل قوله تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) . وينبئ أن تلغى النذور للأولياء جملة ، إذ النذور إنما تكون لله ولا يصح إشراك أحد معه فيها ، ومن أكبر صور الشرك - في رأى محمد بن عبد الوهاب - الإيمان بأن هناك من يعلمون الغيب من النجمين أو أصحاب السحر والشعوذة ، والله يقول : (والله غيب السموات والأرض) ويقول : (فلا يظهر على غيبه أحداً) فن ظن أن هناك من يعلم الغيب فقد جعل لله مثيلاً في صفة علم الغيب المقصور على الله جل شأنه . ومد حملته إلى المتصوفة والطرق الصوفية ، فأنكرها ودعا إلى إلغائها بإلغاء كل ما اتصل بها من حلقات ذكر وأوراد ودلائل خيرات ، فكل هذه - في رأيه - يدع لم يعرفها الإسلام في عهد الرسول ﷺ وعهود أصحابه ، وينبئ أن يعود الإسلام كما كان مع التمسك بالسنة

وإحيائها والاعتناء بالسلف الصالح . ولذلك يسمى الوهابيون سلفية . وما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب الإيمان بالقدر وأن لا يفزع أحد إلى التأويل في آيات القرآن الكريم . وإنما عرضنا ذلك كله لتبين الأسس التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب والتي صدر عنها بالتالي شعراء الدعوة الوهابية ، ولعل القارئ لا يعجب إذا عرف أنه من أوائل الشعراء الذين تصلوا بقوة لرفع علمها وتمثل مبادئها شاعر يعنى من الأسرة الزيدية ، هو محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعاني ، وأن أربع الشعراء الوهابيين الذين خلفوه في هذا العصر هو ابن مشرف الأجاسي . ويتكاثر بعده شعراء الدعوة وفي مقدمتهم سليمان بن سحان وابن عثيمين ، ولن نعرض لها لأنها يدخلان في العصر الحديث ، ومن شعراء الدعوة المبكرين حسين بن غنام الأحساني المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م ، وله مرثية في ابن عبد الوهاب حين لى نداء ربه افتتحها بقوله ^(١) :

إلى الله في كشف الشدائد نفزعُ وليس إلى غير المهيمن مَفْرَعُ
وقصائد كثيرة نظمت في الإشادة بابن عبد الوهاب ومبادئه ، ومن أهمها قصيدة للإمام محمد بن علي الشوكاني اليمنى المار ذكره . ونقف قليلا عند محمد بن إسماعيل وابن مشرف .

محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعاني ^(٢)

ولد بحصن كحلان باليمن سنة ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م وانتقل مع أبيه إلى صنعاء سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م فأنتم بها حفظ القرآن ، وسرعان ما أخذ يختلف إلى العلماء ينهل من حلقاتهم ودروسهم ، فتعلم النحو وعلوم البلاغة والفقه والمنطق وعلم الكلام والأصول ، وعكف على أمهات الكتب الكبيرة يقرأ ويدرس في الفقه وفي النحو وفي غيرها ، وأخذ يدرس كتب الحديث الكبرى على كبار الحفاظ المحدثين من مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود ، ونال في ذلك إجازات مختلفة لا في صنعاء فحسب ، بل أيضا على كبار المحدثين في مكة والمدينة ، وعنى بالتبحر في فقه الشافعي وفي الأصول . ودرس للناس بصنعاء الحديث سنوات طويلة ، وله فيه على الجامع الصغير شرح في أربعة مجلدات ، وله في الفقه كتاب العدة على شرح العدة لابن دقيق العيد ، وله شرح في علوم الحديث

و ٢ / ٧٦٤ وفي مواضع مختلفة. وديوانه طبع بمطبعة المدني

(١) شعراء حبر ص ٥٠ .

بالقاهرة سنة ١٩٦٤ باسم ديوان الأمير الصنعاني . وراجع

(٢) انظر في ترجمة محمد بن إسماعيل ولشعاره البدر

مقدمة على السبد صبح المدني للديوان .

الطالع للشوكاني ١٣٣ / ٢ ونشر المعروف لزيارة ٥٠٥ / ٢

والآثار في مجلدين ، غير كتب كثيرة في الأصول وفي النحو وفي بعض الفتاوى . ومن كتبه « إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة » ويبدو أنه كتبه في الاحتجاج للدعوة الوهابية لأن مترجميه يقولون إنه ترك فيه مقالة الأصحاب ورجّح أدلة السنة والكتاب . وكان يشتغل بالتدريس ويجمع إليه أحياناً الخطابة . ويُجمع كل من كتبوا عنه أنه كان يجتهد بنفر من التقليد ومن كل رأى فقهي لا دليل عليه ، ويقول الشوكاني إنه كان « من الأئمة المجددين لعالم الدين » وكان الشوكاني مثله يعجب بالدعوة الوهابية ، ومربنا أن هذه الدعوة أعلنت سنة ١١٥٨ للهجرة حين وضع محمد بن سعود يده في يد محمد بن عبد الوهاب وعاهده على نصرته ، على أن تكون للأول وذريته السلطة الزمنية والثاني وذريته السلطة الروحية . وما تقدم مع هذا العهد والإعلان للدعوة أكثر من خمس سنين . حتى نجد صوتاً مدروباً ينطلق من صنعاء باليمن ، هو صوت محمد بن إسماعيل إذ يرسل بقصيدة دالية طنانة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب مشيداً وممجداً لدعوته استلهاها بقوله :
 سلامٌ على نُجْدٍ وَمَنْ حَلَّ في نُجْدٍ وإن كان تسليمي على البُعْد لا يُجْدِي
 وقد مضى فيها يعلن إعجابه بمبادئ الدعوة الوهابية ، وهاجم الصوفية وما يزعم غلاتهم من القول بالحلول ، كما هاجم المتصوفة والطرق الصوفية وأورادها ، وأظهر استحسانه لما قيل من حرق الوهابيين لدلائل الحيرات ، يقول مبرراً صنيعهم :

غُلِّمَ نَهَى عَنْهُ الرُّسُولُ وَفِرَّةٌ بَلَا مَرْيَةَ فَاتَرَكَهُ إِنْ كُنْتَ تُسْتَهْدِي
 أَحَادِيثُ لَا تُعْزَى إِلَى عَالَمٍ وَلَا تُسَاوَى لِقَلَسٍ إِنْ رَجَعْتَ إِلَى التُّقْدِ
 وهو يضع بذلك دليلين يجوز أن حرقها في رأيه : ما بها من غلو ومن أحاديث ضعيفة واهية ، ويقول إنها من البدع المستحدثة . وكان ما بين ينصح قومه بالانصراف عن مثل هذه الأوراد . وكان يؤذيه أشد الأيذاء تصديقهم للنجمين وإيمانهم بأنهم يطلعون على الغيب . ويكتب إلى الإمام المهدي العباس سنة ١١٧٠ قصيدة دالية ينهيه عن الاستماع إلى النجمين واقتراءاتهم الكاذبة ، وفيها يقول :

وَلَا تَسْمَعْ مِنْ عَابِدٍ لِنَجْمِهِ نِقَاوِيمُ زُورٍ لَيْسَ تُفْنَى وَلَا تُجْدَى
 أَكَاذِيبُ يُبْلِيهَا لِكُلِّ مَغْفَلٍ بِصَدْقِهَا مِنْ ضَلٍّ عَنْ طُرُقِ الرُّشْدِ
 وَوَاللَّهِ مَا عِنْدَ النُّجُومِ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْسِينِ يَوْمٍ فِي الزَّمَانِ وَلَا سَعْدٌ
 وَوَاللَّهِ مَا غَيْرُ الْإِلَهِ بِعَالَمٍ بِمَا فِي غَدٍّ مِمَّا يُبِيرُ وَمَا يُبْدِي
 وصدق رسول الله ﷺ في قوله : « كذب النجمون ولو صدقوا » . وله قصيدة جعل مقدمتها في ديوانه على هذا النمط : « هذه نفثة مصدور ، وكلمة صادرة عن قلب

من ضياع الشريعة محرور ، وفيها تفاؤل بمن يقوم بالدين ، ويخفي شريعة سيد المرسلين ، وفيها إيفاظ للهمم لو كانت نائمة ، ولكنها ميتة لا ترحى لما قائمة . والجهاد باللسان أحد الأقسام . نسال الله قبول الأعمال وحسن الختام . وفيها يصور جهاد المصلح الديني المنتظر هو وأنصاره في سبيل دعوته ، وكيف يخوضون إليها غار الحروب ، حتى تبسط سلطاتها على الناس ، يقول :

يَحْفُ به قومٌ على كلِّ سابعٍ تُعَدُّ المنايا في الحروب مُناها
ولا جمعوا مالاَ ولا كسبوا لهم قُصُورا ولا باهوا برفعِ بُناها
وما ادَّخروا إلا حُساما وذابلاً ومُهراً يباري الرِّيحَ عند سُرَّها
وما قصدوا من سَفْكَهم لدمِ العدا وتَطْلُقهم بالسيفِ يَبْضَ طُلاها^(١)
سوى أنهم يُحيون شِرْعَةَ أحمدٍ وَيَنفون عنها داءها يَدبُوها
سيفل عنها السيفُ أذْراً بِدَعَةٍ فَيُشْرِقُ في الآفاقِ نورُ سَنَّاها

ويذكر بعض مترجميه أن الشاعر نظم هذه القصيدة في سن مبكرة ، ولكن مقدمتها وما ترسمه من الجهاد لمصلح ديني وأنصاره يريدون إحياء السنة المحمدية وغسلها من أدران البدع المستحدثة في الحياة اليومية ، وأنهم لا يريدون بذلك مالا ولا قصورا مشيدة ، إنما يريدون درء المنكرات ، وإنهم ليجملون في سبيل ذلك السيوف حتى يكف الناس عن هذا النقي والضلال . كل ذلك يشهد بأن المقصود في القصيدة محمد بن عبد الوهاب وأنصاره بزعامته محمد بن سعود الذين جردوا سيوفهم ورماحهم لحمل الناس في الجزيرة العربية على الدعوة الوهابية . وفي الديوان دالية يعلن فيها تبرؤه من ابن عبد الوهاب ودعوته ، وأكبر الظن أنها موضوعة على لسانه أفحمت من قديم على الديوان تقرباً للأمراء الزيديين من بيته ، وفي الحق أنه كان يحمل نفساً نائرة تحب الحق وتؤثره ولو كان فيه خصومة لأهله ويبدو أن بعض خصومه استغلوا موقفه مع الوهابيين فكانوا يَشُون به لأنتمته مما أدى أحيانا إلى سجنه على نحو ما نرى في قوله سنة ١١٦٦ للهجرة :

وما حبسوني أنني جئتُ مُنْكَراً ولا أنني نافستُ في الملك والكرسي
ولكنني أحببتُ سَنَةَ أحمدٍ وأبرزتُها شمساً على العربِ والفرسِ
وكان أهل بيته من الأئمة يتلقبون ألقابا كثيرة ، وقد لا يكتفى الإمام بلقب واحد بل يتخذ لقبين أو أكثر مثل الإمام المتوكل على الله شرف الدين والإمام الأعظم المهدي لدين

الله ، وكأنما كان ذلك يؤذى نفسه أن يسمع تلك الألقاب ولا يرى لأصحابها أعمالاً حميدة ، بل يرى أعمالاً ذميمة فقال :

تسَى بنور الدين وهو ظَلامُهُ وهذا بشمس الدين وهو له خَفْضُ
 وذا شرفُ الإسلام بدعوه قومُهُ وقد نالهم من جورهِ كلُّهم عَفْ
 رُوَيْدُكَ يا مسكينُ سوف ترى غداً إذا نُصب الميزانُ وانتشر الصُّحُفُ
 بماذا تُسَى هل سعيدٌ فحبذا أو اسمٌ شقيٌّ يَشْ ذاك الوصفُ

وهو نقد شديد بل تجريح للأئمة من بيته في عصره وقبل عصره . وكان لا يَحْشَى في الله لومة لائم . وديوانه يحفظ بالمواظ والادعية والابتهالات إلى الذات العلية ، وله قصيدة في التقوى ختم جميع أبياتها بشهادة : لا إله إلا الله ، وله غير مدحة نبوية وأيضاً له قصيدة في مديح علي سماها « التحفة العلوية » وكسب عليها شرحاً سماه « الروضة الندية » . وله أشعار في فنون البديع المختلفة وخاصة في التورية وهو يكثر من التضمين في أشعاره وخاصة من شعر المتنبي . وطالت حياته حتى سنة ١١٨٢ للهجرة وبذلك يكون قد سبق محمد بن عبد الوهاب في الوفاة بنحو ربع قرن تقريباً .

ابن مشرف الأحصاني^(١)

هو أحمد بن علي بن حسين بن مشرف الوهبي التيمي الأحصاني ، وُلد وعاش في الأحساء ولا يُعرف تاريخ مولده . وبدأ في نعمة أظفاره بحفظ القرآن الكريم على شاكلة لداته ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء في موطنه ، والتهم كل ما وجدته في هذه الحلقات من معارف وخاصة ما اتصل بالفقه والعربية ، واعتنق المذهب المالكي مثل آبائه . وليس في ديوانه ما ينبئنا عن أحواله في فواتح حياته أو في شبابه المبكر ، وقصائده فيه مؤرخة على السنوات ، وهي تمتد من سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م إلى سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م وأكثرها أو قل جمهورها في مديح فيصل بن تركي ، والسنة الأولى هي نفس السنة التي استولى فيها السعوديون على الأحساء ، وكان شعره جميعه تظله الدولة السعودية إذ توفي سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م . وهو في ديوانه يعتنق الدعوة الوهابية وكأنما يعيش لها وبها ، فهي كل حياته وكل أفكاره وكل مشاعره ولا نعرف هل تاريخ اعتناقه لها يسبق امتداد الدولة السعودية إلى الأحساء في سنة ١٢٤٥ أو أنه يقرن بتلك السنة ، على كل حال الديوان كله

(١) انظر في ابن مشرف وحياته وأشعاره شعراء مخرج ص ٧٧ ومقدمة الناشر للمبتدع (طبع الرياض) .

مستوحى من الدعوة الوهابية بل قل إنه صادر عنها ، أو قل إنها مادته سواء تفتى بآبى عبد الوهاب وأفكاره أو تفتى بفصيل وأعماله أو بغيره من قواده . فالدعوة الوهابية مادة الديوان وابن مشرف ليس متضامنا معها فحسب ، بل هو أداة من أدواتها يذبحها ويناضل عنها خصومه ويؤيدها بكل ما استطاع من حجة وبرهان . وقد سمي أول قصيدة فى الديوان باسم جوهره التوحيد وهو يستضىء فيها بما كتبه محمد بن عبد الوهاب عن التوحيد ، ويستلها بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأزواجه وأصحابه ثم تتوالى فصولها وأولها فصل عن الإيمان وفيه يقول :

الحَيْرُ والشرُّ جميعهُ صَدَرَ من أمرِ ربنا وذا هو القَدَرُ
ومرَّبنا أن محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى الإيمان بالقضاء والقدر وأن كل شيء
مقدر على الإنسان منذ الأزل ولا صحة لما يقوله المعتزلة من أن الإنسان كامل الحرية فى
تصرفاته يأتي ويترك من الأفعال ما يريد فهو خالق أفعاله باختياره . ويرد على ذلك ابن
مشرف بعبارة أوضح فى موضع آخر منشدا :

وكلَّ شيء قضاءُ الله فى أزلٍ طرأ وفى لوحهِ المحفوظ قد سَطُرَا
واقه خالقُ أفعالِ العبادِ وما يَجْرى عليهم فعنَّ أمرِ الإله جَرَى
فليس فى مُلكِهِ شيء يكون سِوَى ماشاءه الله تَقَعاً كان أو ضَرَرَا
ويعقد فصلا لأنواع التوحيد . ويقول كما قال محمد بن عبد الوهاب ، إن أضرب
الوحدانية ثلاثة وبعدها على هذا القطب :

توحيدُ ربِّ الناس فى الملُك وفى صفاتِهِ وفى العبادة اقتصر
فالأولى وحدانية الربوبية وهى اعتقاد كون الملك لله وحده لا شريك له ، فهو
المتصرف فيه بالخلق والتكوين والرزق والحياة والموت . والثانية وحدانية الأسماء
والصفات ، من مثل الحى الباقي القديم الأول الآخر الصمد الواحد الفرد السميع العالم
البصير المريد القدير والثالثة وحدانية العبادة لله وأنه لا شريك له ولا معبود سواه .

ويشير ابن مشرف فيما ل محمد بن عبد الوهاب المشكلة القديمة لعصر المأمون والمعتمد
والواثق مشكلة خلق القرآن وعدم خلقه أو مشكلة حدوثه وعدم حدوثه ، وهى المشكلة
التي ورط المعتزلة فيها هؤلاء الخلفاء وجعلوهم يحاولون أن يحاكموا على أساسها بعض
الفقهاء ممن لا يقولون بخلق القرآن وفى مقدمتهم ابن حنبل إمام الوهابية . ويقول ابن
مشرف إن القرآن الكريم عين كلام الله لفظا ومعنى والمخلوق إنما هو نطق الناس به يقول :

الصوتُ للقارئ والكلامُ لله ذا به قد استقاموا
فالفلفظ والمعنى من القرآن قد نَزَلَا من ربنا الرحمن
ومن يَقُلْ بخلقِهِ أو سَطَرِهِ فهو مُضِلٌّ فاستَيْذِ من شَرِّهِ
وكان المعترلة بترهون الذات العلية عن مشابهة المخلوقات فهو ليس جسدا ولا عرضا
ولا مادة ولا جوهرًا ولا يحيط به مكان ولا زمان ، وأولوا الآيات التي قد تفيد مشابهة مثل
(ثم استوى على العرش) بأن الاستواء في الآية بمعنى القدرة . ونفوا الصفات عن الله لأنها من عوارض الأجسام في
رأيهم وقالوا إنها عين الذات . وكل ذلك ردّه محمد بن عبد الوهاب متابعاً ابن تيمية وابن
حنبل ، وأخذ مثلها في الآيات التي تفيد التشبيه بفكرة التثريب مع الإيمان بما جاء منها في
القرآن ، وعلى ضوء من ذلك كله يقول ابن مشرف :

الله ذو العرش على العرش استوى وعلمه لكل شيء قد حوى
وما اقضى التشبيه مثل العين والوجه والإصبع واليدين
تؤمن به لكن مع التثريب له عن التمثيل والتشبيه
من شبه الله بخلقهِ كَفَرَ ومن نفى صفاته أَصْلَى سَفَرَ

وهو في البيت الأخير يحكم على من ينفي الصفات وهم المعترلة كما أسلفنا بالكفر ويقول
إن الله يخلق أفعال العباد ولكن لهم كسب وكل امرئ بمحاسب على ما كسب يده ،
ويتحدث عن إرسال الرسل ورسالة النبي ﷺ ومعجزاته من القرآن كالمعراج ويشيد
بأبي بكر وعمر وعثمان وعلى وباقي العشرة المبشرين بالجنة وبأصحاب المذاهب الأربعة
وبسفيان الثوري وداود الظاهري . ويطلب في الحديث عن البعث والمعاد والحساب .
وبذلك ينجم الحديث عن النوع الثاني من أنواع الوجدانية وهي وجدانية الأسماء والصفات
ويأخذ في الحديث عن النوع الثالث من أنواع الوجدانية وهو وجدانية العبادة ، فالله وحده
هو الذي يُعْبَدُ دون سواه ، وهو وحده الذي تقدم إليه التلويح ، ومن الشرك تقديمها لسواه
وأيضاً من الشرك القَسَمُ بغيره يقول :

الْحَلْفُ مَطْلَقٌ بغيرِ الله شِرْكٌ بلاشك ولا اشتباه
ويهاجم زيارة القبور : قبور الأولياء والصالحين وما بُني عليها وشيد من قُبب والطواف
حول تلك القبور تقرباً ، وسؤال الناس أصحابها أن يدفعوا عنهم الأذى ويعجلوا لهم
النفع ، بل إنهم ليتوجهون إليهم بالدعاء ، كلما أحاط بهم كرب ، طلباً للنجاة ، يقول :
ألم تنظر الشرك الذي فيهم فشا فكم قبيحاً قد شيدوها على قبر

وطافوا عليها خاضعين تقرباً إلى ذلك المقبور بالذئب والنذر
وكم سألوا الأموات كَشَفَ كروبيهم ولا سيما في القلْكَ في لُججِ البَحر
فزادوا على شريك الأوائِل إِذ دعوا سيوى الله في حالِ الرُخاء وفي السُمر
وعلى هدى من الدعوة الوهاية مضى يهاجم كل ما هاجمته ، وكان مما استحدث في
الجزيرة التذكير قبل الأذان للصلاة ، وعُنت الدعوة الوهاية المؤذنين على هذا التذكير ،
ورأت منه متعاً باتا ، واصفة له بأنه بدعة وينبئ الكف عنها ، وفي إثرها يقول ابن
مشرف :

وصلَ فاعلَ التذكير عند أذانِهِ أَهَذَا هُدًى أَمْ أَنْتَ بِالذَّيْنِ تَلْعَبُ
وهل سَنَ هذا المصْطَلَقُ في زمانِهِ أو الخلقُ أو بعضُ من كان يصحِبُ
واستمر يتساءل هل سَنَ التابعون أو سَنَ أحد أصحاب المذاهب الفقهية ، وانتهى إلى
أنه من الأمور المحدثات التي ينبغي أن تجتنب ، قائلا إن العلم ينبغي أن لا يؤخذ إلا من
الكتاب والسنة . وينص هذه الفكرة بقصيدة بحث فيها على الأخذ بنصوص الحديث
النوى وآيات الذكر الحكيم ، ويسميتها وحين ، وتسميته الذكر الحكيم وحيا واضحة ،
أما تسميته الحديث بالوحي فلأنه إلهام وهدى رباني ، يقول :

وقدَّمَ أحاديثَ الرُّسولِ ونَصَّهُ على كُلِّ قولٍ قد أتى بإزائه
وإن جاء رأيٌ للحديث معارضٌ فلرأى فاطرح واسترح من عنائه
ومن يكنِ الوَحْيُ المظهر علمه فلا ريب في توفيقه واحتدائه
وكلُّ قبيحٍ في الحقيقة مُدْعٍ وثبت بالوحيين صدقُ ادَّعائه

فالكتاب والحديث هما مدار الفقه والفتوى ، فما يرسم القرآن ويبينه الحديث هو الدين
الحنيف ، وعلى العقل أن يسير وراءهما شارحا ومفسرا ومبيناً ، لا موجها ولا متحكما
ولا مؤولا . . وعلى هذا النحو تتجلى في شعر ابن مشرف دائما الدعوة الوهاية بكل ما
اتصل بها من مبادئ وتعاليم .

٥

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

لعل أكبر بيئة عربية شهدت شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية هي بيئة مكة
والمدينة ، فلم يكن هناك زاهد ناسك ولا متصوف عابد إلا ويحج البيت الحرام ولم يكن

هناك مَادِحُ للرسول ﷺ . إلا ويسمى إلى زيارة ضريحه العطر . وإنشاده مديحه ، غير من كان يقيم في البلدتين المقدستين من أهلها النساك . وقد ذكرنا في غير هذا الموضع كيف أن كبار المتصوفة المتخلفة منذ الحلاج كانوا يترلون في مكة ويجاورون فيها ، وقلنا إنه نزلها ابن عرى وجاور فيها سنوات ، وفيها ألف الفتوحات المكية وديوانه الصوفي « ترجان الأشواق » وفيه يقول :

مَرَضِي مِنْ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ عِلَّانِي . بِذِكْرِهَا عِلَّانِي
هَفَّتِ الْوَرَقُ بِالرِّيَاضِ وَنَاحَتْ شَجْوُ هَذَا الْحَامِ مِمَّا شَجَانِي ^(١)

وشاع الديوان في مكة والمدينة وفي اليمن وتناقله الحجاج . ومن متخلفة المتصوفة وشعرائهم الذين جاؤوا في مكة ابن سبعين ، أقام بها سنوات طويلة حتى توفى سنة ٦٦٩ وكان يقول بالاتحاد والحلول ، ومن شعره ^(٢) :

مَنْ كَانَ يُنْصَرِّشَانِ اللَّهَ فِي الصُّورِ فَإِنَّهُ شَاخِصٌ فِي أَكْمَلِ الصُّورِ
بَلْ شَأْنُهُ كَوْنُهُ بَلْ كَوْنُهُ كُنْهُهُ فَإِنَّهُ جَمْلَةٌ مِنْ بَعْضِهَا وَطَرَى

وراء ابن سبعين وابن عرى والحلاج كان يترنل بمكة والمدينة المتصوفون السنيون وفي مقدمتهم القشيري الذي لم يثقل الفرقة بين الصوفية وأهل السنة كما مرُّ بنا في غير هذا الموضع . ونزلها الغزالي وشهاب الدين السهروردي العراقي وأقام بها ابن الفارض خمسة عشر عاما نظم فيها كثيرا من أشعاره الصوفية الوجدانية من مثل قوله :

هُوَ الْحَبُّ فَاسْتَلِمْ بِالْحَشَا مَا الْمَوَى سَهْلٌ لَمَّا اخْتَارَهُ مُضْنَى بِيْ وَلَهُ عَقْلٌ
وَعِشْ خَالِيَا فَالْحُبُّ رَاحَتُهُ عَنَّا وَأَوَّلُهُ سَقَمٌ وَآخِرُهُ قَتْلٌ
وَإِنْ شِئْتَ أَنْ نَحْيَا سَعِيداً فَمَتِّ بِيْ شَهِيداً وَإِلَّا فَالْفَرَامُ لَهُ أَهْلٌ

ولم يبق مَادِحُ للرسول ﷺ إلا زار المدينة ، لتأرجح روحه بغير قبره ، وقد زارها البوصيري أكبر مداح الرسول ، وفيه نظم هزئته في نحو أربعائة وخمسين بيتا ، وسماها « أم القرى في مدح خير الورى » وكذلك ميمبته المشهورة باسم البردة ، وقد تناقلها الناس في مشارق العالم الإسلامي ومغاريه إعجاباً والتثاناً . ومديح الرسول قديم منذ ابن دريد في مطلع القرن الرابع الهجري . ولكن لم تنل قصيدة في مديح الرسول حطوة هاتين القصيدتين .

وبجانب المدائح النبوية وأشعار التصوف المهاجرة إلى المدينتين المقدستين هاجرت إليهما أشعار زهد كثيرة ، كان يرددوها النساك والعباد والمجاورون بمكة والمدينة ، على نحو ما نجد في

(١) هفت الورق : خفق الحام بأجنحه . (٢) المقدم : ٣٣٩ / ٥ .

ديوان الزمخشري الذي جاور في مكة طويلا ، حتى لُقِبَ «جار الله» . وكان هؤلاء الجاورون الكثيرون يضمّنون الزهديات مصفاتهم التي يؤلفونها في مكة أو المدينة ، ومن يقرأ تفسير الزمخشري الذي ألف بمكة والذي سماه الكشاف يجدّه عند تفسير الآية الكرّمة : (إن الله لا يستجيب أن يضرب مثلاً مبعوضةً فما فوقها) ^(١) بشدّة وسلاطيفاً لشاعر حل هذه الصورة :

يا من يرى مدّ البعوض جَنَاحَهَا في ظِلْمَةِ الليل اليميم الأَكْبَلِ ^(٢)
ويرى عروقَ نياطها في نَحْرها وللخ في تلك العظام النَحْل
اغفر لعبدٍ تاب من قُرطاته ما كان منه في الزمان الأوّل

ومن الجاورين بالحرّمين الشريفين ابن ظفر المولود بصقلية في شعبان سنة ٤٩٧ رحل من بلده يافعا في طلب العلم إلى مكة وتهل من حلقات علمائها، وارتحل إلى مصر ثم إلى المهديّة بتونس، وعاد إلى موطنه صقلية، وبها ألف لحاكمها في سنة ٥٥٤ كتابه «سلوان المطاع في عدوان الأتباع» وهو كتاب نفيس ترجمه المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية، ويمتلئ بأشعاره، وهي تصور زهده وتقشفه مع براعة في نسج الشعر ونظمه من مثل قوله ^(٣) :

يا مُتَبَّأ كَدُّه الحِرْ صُ في الفُضُول وكادّة
لو حَزَّتْ ما حاز كَسْرِي وما حَوَى وأفادّة
ما كنت إلا مُعْتَى ومُغْرَمًا بالزُّيادّة
لم يَصِفُ في الأرض عَيْشُ إلا لأهل الزُّهادّة

ولم يكن يقول ذلك عظة أو تمثلا ولكن كان يقوله عن اقتناع ، فقد كان أحد من رفضوا الدنيا وعاشوا فقراء زاهدين ، تكفيم الكسرة . وكان يتحول واعظا كلما نزل بلدة ، ونزل بلادا كثيرة ، نزل مصر وبلاد المغرب وعاد إلى المشرق ، فألم بينداد ودمشق ثم نزل حماة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٦٧ ومن زهدياته ^(٤) :

راَقَلْ الزُّهْدُ إِنَّمَا الزُّهْدُ رَفَضُ لِفُضُولِ تَلْهَى وتُفْنِي وترْدِي ^(٥)
مَرَحَبًا بالكفاف عيشا هنيئًا ثم لا مرحبا بحرصو وكَدّ
لا يزال الحريصُ يَسْتَامُه الحِرْ صُ بِنُصْبٍ من الشقاء ونَكْدِ ^(٦)

(١) الخريدة (قسم الثام) ٥٥/٣ .

(٢) نفس المصدر ٥٦/٣ .

(٣) تردى : تهل .

(٤) يستامه : يذاه ويصره .

(١) سورة البقرة : الآية رقم ٢٦ .

(٢) الأكيل : شديد السواد .

(٣) انظر في ابن ظفر الخريدة (قسم الثام) ٤٩/٣ وابن

خلكان ٣٩٥/٤ ومجمع الأدباء ٤٨/١٩ والوافي

١٤١/١ والشد الثاني ٣٤٤/٢ .

ثم لا يستطيع أن يتعدى قدرا ما لحكمه من مردّ
فهو ينصح بميش الكفاف وبالزهد في كل ما وراء ذلك من فضول ومنع لا تقيد إلا
الله والطغيان والهلاك إن كان يمكن أن يفيد الطغيان والهلاك أحدا . ولا يزال الحريص
يدفعه حرصه إلى غير قليل من الشقاء والتكد والتعب ، ومع ذلك لن يعدو ما كبه له
القضاء .

ولشراء مكة والمدينة مدائع نبوية كثيرة ، على نحو ما نجد عند النشو ، وقد سقنا
له في ترجمته مثالا ، ولحب الدين الطبرى المكي المتوفى سنة ٦٩٤ مدحة نبوية استلها
بقوله : « رحلت إلى المختار خير البرية » ذكر فيها المنازل بين مكة والمدينة ، ولابنه محمد
مدحة نبوية بارعة يقول في أولها ^(١) :

أَتَيْتُ أَيُّهَا الصَّادِى الشَّدِيدُ ظَاهِرُهُ وَرِدُّ مَتَهَلًّا أَحَلَّى مِنْ الشَّهْدِ مَائِدُهُ
وَسَلُّ عِنْدَ بَابِ الْمُصْطَفَى أَيْ حَاجَةٍ أُرِدْتُ وَمَا تَهْوَى فَرَحْبُ فَنَائِدُهُ
وراء هاتين المديحتين عشرات من المدائح يكفى أن نشير إليها ، ولشاعر متأخر يسمى
عبد العزيز الزمزمى المكي ديوان مديح في الرسول والصحابه .

وكثر بجانب ذلك الغزلُ الصوفي في مكة والمدينة ، من مثل قول أبى إسحق المكي
المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة ^(٢) :

مُعَذِّبِيْ كَمْ ذَا الصُّدُودِ إِلَى مَنِي مَضَى عُمْرِي وَالْوَصْلُ مِنْكَ أَرُومُ
فَجُودِي وَرَقِي أَوْ فَجُورِي وَعَذِّي فَمَا الْقَلْبُ إِلَّا فِي هَوَالِكُ مُقِيمُ
وفي كتابي سلافة العصر ونفحة الرحمة لشراء مكة والمدينة في القرن الحادى عشر
المجرى مدائح ومناجيات وتوسلات مختلفة ^(٣) .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن لقينا قصيدة بديعة لأبى بكر العيذى ابتدأها بوصف غرام
له بالحجاز ليس يدفعه ، وينقاد له قلبه ويتبعه ، ويأخذ في وصف مكة ويذكر مناسك
الحج منسكا منسكا ، ثم ينتقل إلى وصف يثرب بمثل قوله ^(٤) :

وَفِي رَأْيِي يَثْرِبُ غَايَاتُ كُلِّ هَوَى يَجِلُّ عَنِ مَوْقِعِ الْأَشْوَاقِ مَوْقِعُهُ
حَيْثُ النَّبُوَّةُ مَضْرُوبُ سَرَادِقِهَا وَالْفَضْلُ شَامِخُ طَوْدِ الْفَخْرِ أَفْرَعُهُ
وَنَحَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُصْطَفَى شَرْفًا مُحَمَّدٌ بَاهِرُ الْإِشْرَاقِ مَضْجَعُهُ
صَلَّى الْإِلَهِ عَلَيْهِ مَا تَكَرَّرَ بِالْعَدِّ لَئِلَّةٍ قَرَضُ مُصَلٍّ أَوْ تَطْلُوعُهُ

(٣) انظر مثلاً سلافة العصر ص ١٤٧ ، ٢٥٤ .

(٤) الحريدة (قسم الشام) ٣ / ١٨٤ .

(١) العقد الطين ١ / ٢٩٥ .

(٢) العقد الطين ٣ / ٢٤٥ .

والقصبدة تكتظ بالحنين إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، حينما يشمل كل المواضع هناك ، وكأننا يريد أن يمانقها ، فهي هواء وجهه وأماكن اختانه وصباته . وتكثر في اليمن كما كثرت في مكة والمدينة الأدعية والابتهالات كما يكثر الشعر الصوفي والمديح النبوي ، ومن أشهرهما عبد الله^(١) بن أسعد الياقبي اليمنى نزير مكة وشيخ الحرم ، ولد سنة ٦٩٨ ونشأ بـمدن واختلف إلى العلماء فيها ، وحج في سنة ٧١٢ وعاد فأحب الخلوة والاعتطاع عن الناس والسياحة في الجبال ، ولزم شيخا صوفيا يسمى الشيخ الطواشي ، فسلكه في الطريق . وعاد إلى مكة وجاور بها ملازما للعلماء نحو عشر سنوات ، ورحل إلى الشام ، كما رحل إلى مصر وكانت أكثر إقامته بها في القرافة في مشهد ذى النون المصرى . وعاد إلى الحجاز وجاور بالمدينة مدة ثم تركها إلى مكة ، وعاد إلى اليمن سنة ٧٣٨ لزيارة شيخه الطواشي . وألقى عصاه بمكة وتوفى بها سنة ٧٦٨ وله في الصوفية وتراجمهم كما مر بنا كتاب « روض الرياحين وحكايات الصالحين » ومن غزله الصوفي قوله^(٢) :

قَمَّا حَدَّثَانِي فَالْفَوَادُ عَلِيلُ عَسَى مِنْهُ يُشْفَى بِالْحَدِيثِ غَلِيلُ
أَحَادِيثُ نَجْدٍ عَلَّلَانِي بِذِكْرهَا فَقَلْبِي إِلَى نَجْدٍ أَرَاهُ يَمِيلُ
وَلَا تَذْكُرَانِي الْعَامِرَةُ إِنَّمَا يَوْمُهُ عَقْلِي ذَكَّرَهَا وَبُزِيلُ
وَلَكِنْ بِذِكْرِي عَرَضًا عِنْدَهَا فَإِنْ تَقَلَّ كَيْفَ هُوَ قَوْلًا بِذَاكَ غَلِيلُ
فَإِنْ تَغَطَّى يُشْفَى وَإِنْ تُرَضَى فَقِ هَوَاكِ الْمَعْنَى الْمَسْتَهَامُ قَتِيلُ

وهو يصور حبه ووجدته وهيامه بليلى العامرية رانما بها إلى الذات الإلهية دون تغفل في حلول أو اتحاد أو فناء ، فتصوفه تصوف سنى ، يقف عند إعلان المحبة الإلهية ولا يعدوها ، فهو محب موله ، وحسبه أن يصور موله وجهه . وله بجانب هذا الغزل الصوفي مدائح نبوية كثيرة ، من مثل قوله في إحدى مدائحه^(٣) :

نَبِيٌّ عَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ مَنصِبًا بَدَا نُورُهُ مِنْ قَبْلِ نَشْأَةِ آدَمِ
بِهِ الدَّهْرُ أَضْحَى ضَاكِحًا مَتَبِّسًا عَيَّوسًا عَلَى أَعْدَائِهِ غَيْرَ بِاسْمِ
عَلَا فَوْقَ كُلِّ الْمُسْتَطَفِّينَ مُقَرَّبًا بِأَعْلَى مَقَامٍ مَالَهُ مِنْ مُرَاحِمِ
وهو في البيت الأول يستلهم فكرة الحقيقة الحمديدية المعروفة عند الصوفيين وما يتصل

بها من فكرة أزلية النور الحمديدى . وابنه عبد الرحمن يماكيه في الجانبين من شعر التصوف

(١) انظر في العقد الثمين ١٠٤/٥ والنجم الزاهرة
٩٣/١١ والندى لابن حجر (طبع دار الكتب الحديثية)
٣٥٢/٢ والبدع الطالع ٣٧٨/١ وتاريخ ثغر مدن
(٢) العقد الثمين ١١١/٥ .
(٣) العقد الثمين ١١٤/٥ .

لباغمة ١٠٩/٢ .

ثم المديح النبوى . ومن شعراء التصوف اليمين محمد بن إبراهيم بن الوزير ^(١) ، وله ديوان سماه «مجمع الحقائق والرقائق في عماد رب الخلائق» . وقد نشر في القاهرة باسم مديح الهبة ، وعُني محمد بن إسماعيل الصنعاني الذي ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية بشرحه وسعى الشرح : «فتح الحقائق في شرح مجمع الحقائق» . وقد ترجم له الشوكاني في كتابه البدر الطالع ترجمة ضافية ذكر فيها أنه ولد سنة ٧٧٥ وقال إنه عُني بالتأليف وذكر بعض مؤلفاته ، وقال إنه لم يلبث أن أقبل على العبادة وانقطع عن الناس حتى وافاه أجله سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م . والديوان جميعه شعر صوفي سني ، ولكنه لا يتخذ الغزل وسيلة في التعبير ، بل يسلك إلى ذلك مسالك العبادة النساك من التوجه إلى الله بالتضرع والرجاء وحسن التوكل والشكر والتخويف من غضب الله وطلب العفو منه والغفران ، على شاكلة قوله في التضرع والرجاء والتوكل :

أَرْجُبُكَ إِذْ كُنْتَ أَهْلَ الرَّجَاءِ وَأَخْشَاكَ إِذْ بِنِي مِنَ الظَّالِمِينَ
وَأَسْأَلُكَ الْعَفْوَ إِذْ كُنْتَ قَدْ عَلِمْتُ بِجَبِّكَ لِلْسَّائِلِينَ
وَفُوضْتُ أَمْرِي بَعْدَ الدُّعَاءِ بِحَقٍّ إِلَى أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ
إِذَا شِئْتَ أَغْفِرَنِي مِنْ ذُنُوبِي وَسَاعَمْتَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ
وَهَذَا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ وَأَنْتَ تَحْتُّ بِهِ الْمُحْسِنِينَ
وَأَنْتَ الَّذِي قُلْتَ لَا تَقْنَطُوا خِطَابًا خَصَصْتَ بِهِ الْمُسْرِفِينَ

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) . وهو يكثر من نظم الآيات القرآنية في الديوان ، وهذه الأبيات من أعذب ما فيه لغة وأسلوبا . وتبدو الكثرة وكأنها شعر وعظ مرصوف أو مركوم بعضه فوق بعض . وربما كان الذي دفع محمد بن إبراهيم بن الوزير إلى هذه الطريقة في شعر التصوف معاصره إسماعيل ^(٢) بن أبي بكر المعروف بالقرئ الشافعي شيخ الفقهاء في زَيد وتهامة ، فإنه حين رأى جماعة من صوفية زَيد أو هووا من ليس له كثير نباهة علو مرتبة ابن عربي ونفى الملب عن كلامه هاجمه وهاجم طريقته وكل ما اتصل بها من فناء في الله جل شأنه ومن حلول واتحاد ، وأودع ذلك قصائد طنانة كان لها دوى بعيد في اليمن فانصرف الشعراء أو كثير منهم في عصره - كما يبدو - عن الشعر الصوفي القائم على تصوير

(١) انظر البدر الطالع ٨١ / ٢ وراجع ديوانه ومديح (٢) انظر في ترجمته البدر الطالع ١٤٢ / ١ .
إليه طبع الطبعة السلفية بالقاهرة .

المحبة الإلهية ، تصويرا ينتهى إلى الإيمان بالانحداد بالذات العلية وما إلى ذلك مما يردده أصحاب المترع الصوفى الفلسفى .

ويفيض كتاب نشر العرف بشعر وعظ وزهد كثير فى الحقب المتأخرة على أنه يبنى أن نذكر أنه شاع فى اليمن شعر صوفى متجول بأخرة من العصر كان الملاحون يفتون على نقر الطار والطبل ، وأكثره فى المديح النبوى لأكبر صوفية اليمن عبد الرحيم البرعى ، وسنخصه بكلمة مفردة .

ويكثر المديح النبوى والشعر الصوفى فى حضرموت ويفيض كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بها وبزهديات كثيرة ، حتى ليقن الإنسان أنه لم يوجد شاعر هناك إلا وتغنى بمديح الرسول ﷺ ويبيض غزليات صوفية وأشعار زهدية ، ولأبى بكر العبدروس^(١) المتوفى سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م ديوان صوفى سماه محجة السالك وحجة الناسك وهو يزخر بالشعر الصوفى ، وكثير منه بالعناية الجنية ، فهو - كما يسمونه - شعر حُسينى . وهو صوفى سنى وجميع صوفية حضرموت سنيون ومن قوله :

نم لوصح^٢ نَحْقِي شَهْدَى لأشغلى الشَّهْدُ عَنْ الْمَقَالِ
وَلَوْحَلُ الْبَقِينُ صَبِيحَ قَلْبِي لَكُنْتُ هَجَرْتُ فِي الْمَوَالِ
وَلَوْ كَانَ الْحَضُورُ تَزِيلَ صَدْرِي لَمْ بِالْغَيْرِ لَدُّ لِي اتِّصَالِ
وهو يصرح بأنه لم يصل إلى مرتبة الشهود للحضرة الإلهية فضلا عن القناء فى الذات العلية وانفصاله عن وجوده البشرى ، حتى لا يكون هناك موجود ولا مشهود سوى الله . وهو بذلك صوفى سنى ، ويناجى ربه مناجيات كثيرة خاشعا متضرعا ، ويمدح الرسول ﷺ وهو يُعَدُّ من كبار الصوفية الحضارمة . وللمر^(٣) باعزيمة المتوفى سنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م شعر صوفى تكثر فيه المناجيات والاستغاثات والتوسلات والمدائح النبوية ومن قوله فى أحد توسلاته :

اللَّهُ يَا مَنْ لَا إِلَهَ تَوَهُُّ إِلَّا هُوَ انظُرْنِي بِعَيْنِ تَفَضُّلِ
يَا مَنْ هُوَ اللَّهُ الْعَظِيمُ وَمَنْ لَهُ الْحَرَشُ الْعَظِيمُ وَمَنْ عَلَيْهِ تَوَكُّلِ
يَا مَنْ يُبَيِّثُ الْمُسْتَنِيثَ بِفَوْثِهِ غَوَاةَ أَذْرِكُنِي حِلْمَتُ تَحْمِلِ
ومن متصوفة حضرموت عبد الله^(٤) الحداد العلوى . وقد أنشد له الثقاف أشعارا كثيرة فى التصوف والزهد والمديح النبوى والرجاء والصبر على الشدائد وفى الأشواق والمواعظ وفى

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١٠٥ وما بعدها (٣) نفس المصدر ٢ / ٢٤ .

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١٣٠ .

للمناجاة والاستغاثة بالله ، ومن قوله في استغاثة نبوية :

يا رسولَ الله يا أهلَ الوفا يا عظيمَ الخلق يا بحرَ الصفا
أنت بعدَ الله نعمَ المرتجى واللجأ يا مُجْتَبَى يا مصطفى
يا خِتامَ الرُّسُلِ يا خيرَ الورى يا سَرِيعَ القَوْتِ أدركَ من هَما
وفي كتاب السقاف مالا يكاد يحصى من أشعار صوفية وزهدية ونبوية ، وسنخصر أحد
من ترجم لهم وهو عبد الرحمن بن مصطفى الميبروس بكلمة مجملة .

وإذا تركنا حضرموت إلى عُمان لاحظنا ما ذكرناه في غير هذا الموضع من أن الشعر
الصوفي لم يشع في هذه البيئة لغلبة الخوارج عليها ، إذ المقول أن يشيع هناك شعر الزهد
والتقشف لا شعر التصوف بفرجه السني والفلسفي . ونفس مدينة عُمان الإمامية حيناً والسنية
حيناً آخر لم تمن بالشعر الصوفي الخالص . ونجد لشاعر النيناين السنين حكام عمان أحمد
ابن سعيد السالي الذي ترجمنا له بين شعراء المديح ميمية كلها ثناء على الله وعلى آلائه ،
ويختتمها بدعوة حارة إلى الزهد والتقشف . ومن متأخري الشعراء هناك الحبسي وقد ذكرنا
أن له ديواناً افتتحه بقصائد نبوية بعدد حروف الهجاء .

ونتحول إلى البحرين وطبيعي أن تسهم في شعر الزهد ، ومن يرجع إلى كتاب سلافة
العصر يجد فيه لشعراء البحرين مناجيات ربانية ، ومواعظ مؤثرة ، وبعض أشعار صوفية
من مثل قول أبي عبد الله محمد بن أبي شَبابة البحراني ^(١) :

لعمري لقد ضلّ الدليلُ عن القَصْدِ وما لاح لي برقٌ يدلُّ على نَجْدِ
فَيْتُ بليلٍ لا ينأى ومهجةٌ تقلّب في نارٍ من الهمِّ والوجدِ
وقلتُ عسى أن أهتدى لسيّلتها بِنَفْحَةِ طيّبٍ من عَرَارٍ ومن رَنَدٍ ^(٢)
وكم طامعٍ في حُبِّهم مات غُصَّةً وقد كان يرضى بالحال من الرَعْدِ
ولابن مشرف الأحاسني الذي ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية أشعار في الدعوة
إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، إذ تُفْضَحُكُ وسرعان ما تُبْكِي ، وما سرورها إلا أضياف
أحلام ، وحرى بالإنسان أن لا يبرح الموت خياله ، وأن يظل رافعا له يديه نصب عينيه ،
فكل من عليها فان ، ولن يتفق المرء إلا ما قدمت يده . وله مدحة نبوية بشيد فيها بالرسول
ورسالته الربانية . وحرى بنا أن نقف الآن عند عبد الرحيم البرعي اليمنى وعبد الرحيم بن
مصطفى الميبروس الحضرمي .

(٢) العرار والرند : من أزهار اللبادية .

(١) سلافة العصر ص ٥١٣ . وضحة الرخانة ٣ / ١٨٩ .

عبد الرحيم البرعى^(١)

شاعر صوفي سني يمني ، وليس لدينا معلومات واضحة عن مولده ونشأته ، ويقول ابن زبارة : « هو عبد الرحيم بن علي البرعى المهاجري اليمني سكن في النابتين من جبل برع باليمن ، حيث اشتهر بالعلم والشعر ، وتوفي سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١ م . وخطأ ما يقوله بروكلمان من أنه من شعراء القرن الخامس الهجري وما يقوله نيكلسون من أنه من شعراء القرن الثاني عشر الميلادي . والديوان في جمهوره مقسوم بين تسيحات وتحميدات لله ومناجيات واستغاثات له وبيان وحدانيته ونعمه ولطفه ودلائل قدرته وبين مدح الرسول ﷺ والاستغاثات به والتوسل وبيان فضائله ومعجزاته وخصائصه وصفاته . وهو في القسم الأول يعبر تعبيراً حاراً عن تعلقه بربه ، ولا يتخذ لذلك صيغة الغزل الصوفي بالذات الإلهية وما يتبع ذلك من مجاهداته الروحية في المحبة الصوفية ونشوته بشهود الجمال الرباني وما يبعث فيه من لوعة ووجد وهيام على نحو مانجد عند ابن الفارض مثلاً ، إذ نجده يحاول بكل ما استطاع التخلص من عالمه المادي ليستغرق في العالم الرباني بل ليُمَحِّمَ فيه عمو وليفنى فيه فناء مطلقاً . وكأنما قُتِيت فيه أو مُحِيت كل إرادة وكل شعور ولم يعد يحس شيئاً إلا الذات العلية وجالها الذي تفيض أشعته على الوجود .

عبد الرحيم البرعى إذن ليس شاعراً صوفياً بهذا المعنى وإنما بمعنى آخر هو تمجيد الذات العلية دون اتخاذ رموز الحب الصوفي ، وهو تمجيد يصور فيه عجائب الخلق الإلهي وعلم الله الذي وسع كل شيء وقدرته التي تسيطر على كل ذرة في الكون ، مع حَمْدِهِ على آلائه ، ومع بسط بعض ما جاء في القرآن من صفاته الربانية ، ومع المناجيات والدعاء والوعظ الجميل والحض على التوبة والعمل الصالح ، ومن بديع ماله قوله :

قِفْ بِالْخَضُوعِ وَنَادِ رَبِّكَ يَا هُوَ إِنَّ الْكَرِيمَ يُجِيبُ مَنْ نَادَاهُ
وَأَقْصِدْهُ مِنْقَطَعاً إِلَيْهِ فَكُلَّ مَنْ يَرْجُوهُ مِنْقَطَعاً إِلَيْهِ كَفَاهُ
هُوَ أَوَّلُ هُوَ آخِرُ هُوَ ظَاهِرُ هُوَ بَاطِنُ لَيْسَ الْعَبْدُ تَرَاهُ
سَكَّنَ عَنْهُ ذَرَّاتِ الْوُجُودِ فَإِنَّا نَدْعُوهُ مَعْبُوداً لَهَا رَبَّاهُ

وهو يستخدم كلمة « هو » في التعبير عن الذات الإلهية ، وهو استعمال مألوف عند

(١) نيكلسون (ترجمة حقيق) ص ١٦٥ وشعر الغناء الصنفاقي لمحمد عبده لعام ٥٥ و ١٨١ و ١٩٨ وديوانه طبع مراراً بالقاهرة .

(١) انظر في البرعى وأشعاره ملحق البدر الطالع لابن زبارة ص ١٢٠ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان . (طبع دار المعارف) ٥ / ٥٨ وقد أخطأ في اسمه واسم أبيه نسياء عبد الرحمن بن أحمد وانظر : « في التصوف الإسلامي »

الصوفية وخاصة في شعر الذكر ، إذ يهتفون : « هو هو » بسكون الواو وكأن كل ما في الوجود يغيب عنهم ما عدا الله ، وهم يصيحون بكلمة هو وكأنها تبعته وحده دون سواء مع عرفانهم به وبربوبيته . والقصيدة من أهم قصائد الغناء في اليمن ^(١) . ويستمر البرعى في القصيدة بمثل قوله :

أَبْدَى بِمُحْكَمِ صُنْعِهِ مِنْ نُظْفَةِ بَشَرًا سَوِيًّا جَلَّ مَنْ سَوَاهُ
وَبَيْنَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى وَالْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ نَمَّ عَلَا الْجَمِيعِ عِلَاهُ
وَدَحَا بَسِطَ الْأَرْضِ قَرَشًا مُبْتَنًى بِالرَّاسِيَاتِ وَبِالنَّبَاتِ حَلَاهُ ^(٢)
تَجْرَى الرِّيحُ عَلَى اخْتِلَافِ هَبِّهَا عَنْ إِذْنِهِ وَالْقَلْبُ وَالْأَمْوَاهُ
وهو هنا يتحدث عن قدرة الله العظيمة وخلق الإنسان وصنعه للكون وبسطه للأرض

وتثبيتها برواسي من الجبال وترتيبها بنات بهيج ، وتسخير الرياح بين السماء والأرض وإجراء القلب في البحر بريح طيبة ، وكل هذا يستمد من الذكر الحكيم لبيان قدرة الله التي تبسط سلطانها على كل ما في العالم كما قال جَلَّ شأنه : (وسع كرسيه السموات والأرض) فقد رثه لا تحدها حدود . ويغتم القصيدة بالتوسل إلى الله برسوله أن يشمل برحمته وكرمه وغفرانه ورعايته ورضاه ، يقول :

بِإِذَا الْجَلَالِ وَإِذَا الْجَبَالِ وَإِذَا الْكَرَمِ يَأْمُنُهَا عَمَّ الْأَنَامِ نَدَاهُ
أَقْبَلْ تَوَسَّلْنَا بِفَضْلِ مُحَمَّدٍ وَعَيْنُ لَهْ فَضْلٌ لَدَيْكَ وَجَاهُ
وَأَشْدُّ عَرَى عَبْدِ الرَّحِيمِ بِرَحْمَةٍ إِنْ الْحَوَادِثُ قَدْ فَصَّمْنَ عَرَاهُ
وَأَنْبَلُهُ فِي دُنْيَاهُ كُلِّ كَرَامَةٍ وَقَدْ الَّذِي يَنْشَاهُ فِي أُخْرَاهُ
وَأَذْفُهُ بِرَدِّ رِضَاكَ عَنْهُ فَلَمْ يَخِبْ مَنْ كَانَ عَيْنَكَ بِالرَّضَا قَرَاهُ

وتكثر هذه التوسلات في الديوان مع إعلان الطاعة والخضوع والتذلل لرب العالمين تذلل النفوس الخالصة المحبة لربها حبا يستأثر منها بمشاعرهما وعواطفهما فلا تستطيع عن تعجيد ربا انصرافا ولا حيولا . ويقابل هذا القسم في الديوان قسم ثان يمكن أن نطلق عليه اسم المديح النبوي ولكنه مديح من نوع خاص مديح كله شغف وحب وتوله وهيام ووجد وبيان لمعجزات الرسول وفضائله وشيمه الكريمة . ولا تخلو مدحة من التوسل والتضرع إليه ليكون له شفيعا عند ربه ، فيشمله بغفوه ويرعاه في دنياه وأخراه ، ونسوق بعض أبيات من مدحة نونية له :

وَاللَّهِ مَا حَمَلْتُ أُتَيْتِي وَلَا رَضَعْتُ كَمَثَلِ أَحْمَدَ مِنْ قَاصِي وَلَا دَانِي

(٢) دحا : بسط ووسع . الراسيات : الجبال .

(١) انظر شعر الغناء الصنعاني ص ١٨١ .

مهذبٌ شرف الله الوجودَ به وخصه ببدالاتٍ وُزْهَانٍ
ومعجزاتٍ بعدَ الرُّملِ لو كُتِبَتْ لم يُحصَها ماءُ سِيحَانٍ وجِبَاحِنِ
عَمْدٍ سَيِّدِ الكَوْنِيْنِ والثَّقَلَيْنِ من والفريقين من عُجْجٍ وعُرْيَانِ
وسِيحَانٍ وجِبَاحِنِ نَهْرَانِ في آسِيَا الصَّغْرَى . والأبياتُ عذبةٌ ، ومدائحُ البرهي للرسول
ﷺ من أسلس للدائح النبوية وأخفها وقماً على الآذان ، بل إنها تمتع الأصمحين
تُصْنِئِي إليها كما تمتع الألسنة حين تنطق بها لما تمتاز به من صفاء وحلاوة موسيقية . ومن
روائع توسلاته قوله في خواتيم هذه المدحة :

يَا سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللهِ يَا أَمْلِي يَا مَوْتِي يَا مَلَاذِي يَوْمَ يَلْقَانِي
مَتْنِي بِجَاهِكَ مَا قَدَّمْتُ مِنْ زَلَلٍ جَوْداً وَرَجَّعْتُ بِفَضْلِكَ مِنْكَ مِيزَانِي
وَأَسْتَمِعُ دُعَائِي وَآكْشِفْ مَا يُسَارِفُنِي مِنَ الْخَطُوبِ وَنَفْسُ كُلِّ أَحْزَانِي
وَأَمْنُ حَيَايَ وَأَكْرَمُنِي وَصِلْ نَسَبِي بِرَحْمَةٍ وَكَرَامَاتٍ وَغُفْرَانِي
وكل أمله في هذا التوسل برسول الله ﷺ أن يتقبله في ساحته وأن يكون ملاذه وأن
يغفر له زلله وعثراته ، وأن يحمله من ثقلت موازين حسناته ، حتى يستحق رضوان ربه
ونعيمة وفردوسه ، وأن يكشف عنه كل ما يورثه من الخطوب وينال به ، وأن يدفع عنه كل
أحزانه وهمومه ، وأن يحمي حياته . وأن يسبح عليه كرمه ورحمته وغفرانه . والرسول ﷺ
بذلك هو الشفيع المشفع لأفراد أمته ، ممن يمنحهم الغفران والإقالة من الخطيئات والفوز
بالجنان ، كما يمنحهم العون في الكوارث والخطوب وينقذهم من الضلال ويفرج عنهم
المحوم ، إنه الإنسان الكامل الذي يتقبل الله منه شفاعاته ، وهو كمال في الحقائق والشيم لا
يزال البرعي يتفنى به وما أجرى الله على يديه من معجزات ، بل إنه يقول :

كَانَتْ نَبُوَّتُهُ وَآدَمُ صُورَةٌ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ الْمَصُورِ مِنْهَا
وَبِهِ وَجُودُ الْكَوْنِ مِنْ عَدَمٍ فَقَدْ مَلَأَ الزَّمَانَ تَفَضُّلاً وَتَكْرُماً
ونحس في البيتين إيمانه بالحقيقة الحمديدية التي تنفي بها البوصيري وغيره ، إذ يستلهمون
الأثر المشهور : «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» وكأن حقيقة آدم من خلق آدم ، وإن
الكون كله ليستمد وجوده منه كما يقول البرهي في البيت الثاني ، وكأنه مبدأ الحياة ، الذي
يسرى في كيان الوجود كله . ويقول فيه مادحاً :

مِنْ نَوْرِ ذِي الرَّشِّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ وَمِنْشَأُ النُّورِ مِنْ نَوْرِ نَحْسِهِ
فهو من نور الله ، وكل نور في الوجود ناشئ من نوره ، فنوره يشاهد في كل نور .
ويردد البرهي دائماً فضائل الرسول المثالية الرفيعة . وله غمسان بديعان في وصف تلك

الفضائل ، استهل أولها بقوله :

بِمَحْمَدٍ خَطَرَ الْهَامِدِ يَعْظُمُ وَعُقُودُ تَبْجَانِ الْعُقُودِ تَنْظُمُ
وَلَهُ الشَّفَاعَةُ وَالْمَقَامُ الْأَعْظَمُ يَوْمَ الْقُلُوبِ لَدَى الْخَانَجِرِ كُظُمُ
فَبِحَقِّهِ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا

ويدور الشطر الأخير مع كل بيتين تالين ، وبذلك جعل الخمس صالحا لأن يشده
مشد وترد عليه جماعة بالشطر الخامس . وعلى شاكلة هذا الخمس نمسه الثاني ، وقد
جعل الشطر المكرر فيه : « صلوا عليه وسلموا تسليما » . ونبوياته بحق رائحة وقد شُغِفَ بها
المفنون الجوالون في اليمن يغنونها ويوقعون أشعارها على الطَّارَاتِ أزمته متطاولة .

عبد الرحمن المعبودوس^(١)

حَضَرِيٌّ مِنْ بَيْتِ عِلْمٍ وَفَضْلٍ ، وَلَدَ بِمَدِينَةِ تَرِيمٍ فِي سَنَةِ ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م ، وَبِهَا
نَشَأَ فِي رِعَايَةِ أَبِيهِ وَجَدَهُ فَحَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَشَدَّ الْعَرَبِيَّةَ ، وَتَفَقَّهُ عَلَى الشَّيْخِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بَلْفَقِيهِ . وَسَافَرَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى الْهِنْدِ ، وَكَثُرَتْ رَحَلَاتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ،
فَقَدْ حَادَ مِنْهَا ، بَعْدَ أَنْ تَزَوَّدَ مِنْ عِلْمِهَا زَادًا حَسَنًا ، وَذَهَبَ إِلَى مَكَّةَ لِلْحَجِّ وَأَخَذَ عَنْ
شَيْخِ الْحَبَازِ ، وَزَارَ مِصْرَ سَنَةِ ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ وَسَكَنَ الطَّائِفَ ، ثُمَّ
زَارَ مِصْرَ سَنَةِ ١١٦٢ هـ / ١٧٤٨ م فَكَثَّ بِهَا عَامًا وَاحِدًا وَعَادَ إِلَى الطَّائِفَ ، ثُمَّ رَأَى أَخِيرًا
أَنْ يَسْتَوْطِنَ مِصْرَ فَرَفَعَهَا بِأَمْرِهِ سَنَةِ ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م وَفِي أَثْنَاءِ اسْتِطْلَاقِهِ مِصْرَ زَارَ دِمَشْقَ
سَنَةِ ١١٨٢ هـ وَزَارَ الْأَسْثَانَةَ سَنَةِ ١١٩١ هـ وَعَادَ إِلَى مِصْرَ وَتَوَفَّى بِهَا سَنَةِ ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م
وَدُفِنَ فِي مَقَامِ الْعَتْرِيسِ إِلَى جَانِبِ مَسْجِدِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ . وَكَانَتْ قَدْ طَارَتْ شَهْرَتُهُ
بِالصَّلَاحِ وَالنَّسْكِ فِي حَيَاتِهِ . وَتَعَلَّقَ بِهِ شَيْخُ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ . وَلَهُ مَصْنُوعَاتٌ كَثِيرَةٌ ، تَغْلِبُ
عَلَيْهِ فِيهَا التَّرْعَةُ الصُّوفِيَّةُ ، وَيَذْكُرُونَ لَهُ شَرْحًا عَلَى بَيْتِي ابْنِ الْعَرَبِيِّ :

إِنَّمَا الْكَوْنُ خَبَالٌ وَهُوَ حَقٌّ فِي الْحَقِيقَةِ
كُلُّ مَنْ يَلْهَمُ هَذَا حَازَ أَسْرَارَ الطَّرِيقَةِ

وهو لا يفلو غلوه في التصوف الفلسفي ، فليس في أشعاره حلول ولا اتحاد بالذات
العلية ولا شعور بأن فيه قيسا من الحقيقة الإلهية ولا أنه ينم برؤية النور الرياني . وحقا نجد

(١) انظر في عبد الرحمن المعبودوس وشعره تاريخ
الجبلي ٢٧ / ٢ وسلك الدبور للرامدي وتاريخ الشعراء
الحضريين ١٨٩ / ٢ ونشر العرف لزبارة ٥٠ / ٧ وشعر

الفناء الصنطاني ص ١٩١ وديوانه تنسيق الأسفار مطبع
القاهرة .

عنده بعض أحاديث عن الفناء وعن المَحْوِ والصَّحْوِ ، ولكن لا تظن أنه يستغرق في ذلك استغراق ابن عربي ، أو حتى استغراق ابن الفارض ، كأنه يلم بظاهر من ذلك دون توغل فيه ، كما يلم بالمترو ونشوتها على طريقة الصوفيين ، ولكن دون أن تسلبه حواسه على شاكلة قوله :

أَتَمَشَّتْ خَمْرَةَ الْغَيْرِ تَمَحُّو فَاغْتَلَالِي بِالْمَوَى الْقُدْسِي شَطْعُ
عَازِلُ كُنْ عَازِرِي أَوْ عَازِلُ أَنَا مِنْ خَمْرِ التَّجَلَّى لَسْتُ أَصَحُّ
أَنَا قَانٍ وَالْفَنَاءُ عَيْنُ الْبَقَا فِي رَشَاءٍ مِنْ دُونِهِ سَيْفٌ وَرُمَحُ
هَامَ شَخْصُ الْقَلْبِ مِنْ خَمْرِ الْفَنَاءِ فَهَوٍ مِنْ تِلْكَ الْحُبِّيَّاءِ لَيْسَ يَصْحَوُ
أَنَا فِي مَحْوٍ وَصَحْوٍ دَائِمًا حَيْثُ لِي فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ سَبْحُ

وكل ما يمكن أن يقال عن تصوفه هو أن فكرة الفناء الصوفية وما يتصل بها من فكرة المحو حتى لتزول في المتصوف جميع الصفات البشرية ليكون على استعداد لشهود ربه ، وأيضاً فكرة الصحو وأنه يظل له القرب والشهود للذات العلية دون سكر ، كل ذلك نجد ظاهراً منه عند العبدروس ، ولكن لا نجد حرارة ولا استغراقاً في لفظة الفناء المسكرة كما يقول المتصوفة ، ومن خير غزلياته غزلية يشدو بها البينون ويتغنون بها إلى اليوم يستلها بقوله :

شَرَحَ الدَّمْعُ عَلَى مَتْنِ الْخُدُودِ مَا الْأَقْبِ مِنْ الظُّبَيْرِ الشُّرُودِ
بِالْقَوْمِ مِنْ غَزَالٍ صَادِقٍ وَعَجِيبُ رَشَاءٍ صَادِ الْأَسُودِ
أَهَيْتُ الْقَامَةَ فِي وَجْهِهِ جَنَّةُ الْخُلْدِ وَنِيرَانُ الْخُلُودِ
غُصْنُ حُسْنٍ قَدْ سَقَى مَاءَ الْبَهَا ثَمَرًا - أَضْحَى بِرُمَانِ التُّهُودِ

وواضح أن هذا الغزل الإلهي لا يفتقر في شيء عن غزل الحب الإنساني ، حتى ليؤمن من يقرؤه لأول وهلة أنه غزل في فتاة حبيبة صَبَتْ قلب العبدروس بجبالها المغرى . وكأنني به يتأثر في هذا الغزل المادي بديوان ابن عربي : « ترجان الأشواق » الذي يكتظ بالوصف الحسي لجمال محبوبته ، حتى ليظن قارؤه أنه يتغزل غزلاً إنسانياً ، وهو إنما يرمز به إلى حبه الرباني . ويمضي العبدروس منشداً :

أَيُّهَا الظُّبَيْرُ أَتَقَاتِ نَحْوَ الْحَشَا أَيُّهَا الشَّمْسُ أَزَلْ نَارَ الصَّدُودِ
عَطْفَةً بِالْقَدِّ مِنْ هَذَا الْجَفَا وَأَيُّكَ الْعَطْفُ مِنْ شَأْنِ الْقُدُودِ
كَمْ أَرَى بَارِقَ وَغَدٍ أَوْ مَضَا قَدْ مَضَى وَقْتُ الْمَعْنَى فِي وَعُودِ
وَصَلَاةُ اللَّهِ تَنْشَى الْمُصْطَفَى مَاتِلَالاً الْبَرَقِ مِنْ أَقْصَى التُّجُودِ

وهو يتمنى لفظة من الظبي الشرود أو قبسا من الشمس الهادية يطفى غليل ظمته ،

ويأمل في حلقه نحوه أو في وصل طالما رأى بروق وعوده ، وكأنه دائما في هجر وفراق
ومطل وبين وبينه ليتوصل إلى ربه ضارعا أن يمنحه القرب والشهود ، وإنه ليشكو دائما من
الضن بالوصال ، يقول :

أَسْأَلُ عَنْ عَيْبِي لِمَا هِيَ تَدْمَعُ وَجِسْمِي نَحِيلُ وَالْحَسَا بَقَطْعُ
وَلَوْ كَيْتِبُ وَالْفَوَادُ بِحَسْرَةٍ وَمَالِي سَهْمُ الطَّرْفِ وَالْقَلْبُ مَوْجِعُ
فَا نَالِي هَذَا سِوَى مِنْ فِرَاقٍ مَنْ لَهُ الثُّورُ يَتَدَوُّ فِي الْبَقَاعِ وَيَلْمَعُ

فهو دائم البكاء ، حتى لقد شحب جسمه وضؤل ، وحتى لقد تقطعت أحشائه
واكتأب لونه والتاع فؤاده ، ودائما مسهد الطرف ساهره ، وقلبه مكتظ بالأوجاع
واللوعات لهجر محبوه الذي يملأ العالم بنوره ، وهو ما يني يذكره ويرسل دموعه ، لعل
محبوه - كما يقول - يعطف عليه ويخلصه من عذاب المهجر وأوصابه ومن قوله :

أَلْهَيْتَنِي عَنْ جِهَاتِي يَا رَاحَتِي يَا حَيَاتِي
مَا ضُرُّ يَا مَنْ سَبَانِي لَوْ جُدَّتْ لِي بِالْثِقَاتِ
بَاقِهِ يَا مَنْ رَمَانِي بِأَسْهُمِ صَائِبَاتِ
عَطْفًا عَلَى الْعُصْبِ عَطْفًا مِنْ قَبْلِ كَاسِرِ الْمَاتِ

وهو بصريح في الشطر الأول من هذه الأبيات بأنه لم يعد يشعر بمكانه ولا بما حول
مكانه ، وكأنما غاب عن وجوده ، وتأنب لكي يتحدث لنا عن وجوده الإنساني وفنائه
في الوجود الرباني ، وكأنما لم يعد له وجود ذاتي ، وكأنه يدخل عالم الفناء الصوفي أوعالم
الشهود الإلهي ، ولكنه لا يستمر في بيان ذلك ، وكأنه استعار الشطر من ابن عربي وأمثاله ،
ولم يفكر في الشهود ولا في الفناء . ولا نريد أن ننفي بذلك عنه صفة التصوف ، فهو
متصوف سني ، لا يتعمق في تصوفه تعمقا من شأنه أن يجعله يتجرد من حواسه ومن
وجوده ومن كيانه المادي . وله يائية يعارض بها يائية ابن الفارض يقول في فوائدها :
صاحي عَرَجْ عَلَى تَجْدِيدِ وَحْيِي أَهْلَ حَيٍّ لَمْ يَكُنْ يَحْكِيهِ حَيٌّ
وهو إنما يعارض بيائته ظاهرا من يائية ابن الفارض ، فليس عند وجده ولا التياحه
ولا مجاهداته في الوصول إلى مرتبة الشهود ولا شغفه بالجهال المطلق وفروضاته الإلهية . لم
يكن العبدروس يتعمق في تصوفه هذا التعمق ، فتصوفه إنما كان تصوفا سطحيا نجد عنده
لغة الصوفية ومصطلحاتهم ولكن دون حرارة ودون ولع جارف .

الفضل المختار

الشعر وأنواعه

١

تنوع الكتابة

كانت نجد أقل نباتات الجزيرة عنابة بالكتابة لصعوبة حصولها على الورق والخبر وغيرهما من وسائلها المادية ، وأغلب الظن أن الإماراتين اللتين تأسستا في شرقها لأوائل هذا العصر : إمارة بنى مزيد في الحِلَّة وبنى عُقيل في الموصل كانتا تعنيان بالكتابة ، فابن خلكان يذكر أن علي بن أفلح الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥٣٧ للهجرة كان يكتب بين يدي أمير من أمراء بنى مزيد في شببته ^(١) ونظن أنه كان لأمراء بنى عقيل كتاب يكتبون بين أيديهم على شاكلة ابن أفلح كاتب بنى مزيد . غير أنه ليس بين أيدينا رسائل للإمارتين جميعاً ، مما يدل على أن هذا النشاط الكتابي فيها كان محدوداً . ومرتبنا في غير هذا الموضوع أنه نشأت في الشمال الغربي للجزيرة إمارات بدوية لآك فضل وآل مرا وآل علي ، كانت تدين بالولاء لحكام مصر من الأيوبيين والمماليك ، وفي صبح الأعشى مراسيم كثيرة صادرة من مصر بإمرة أمرائهم ، وكذلك لآك مهدي في البلقاء ، غير أننا لا نعتز برؤ من أحدهم أو بعبارة أدق برسالة موجهة إلى مصر أو أحد حكامها المختلفين ، وبالمثل لا نجد كتابات أو كتباً موجهة من أواسط نجد إلى خارجها ، فقد كانت بعيدة عن الحضارة وأكثر بداءة من أطرافها الشرقية والغربية ، ولعل ذلك ما جعل القلقشندي يقول : « إنه لا اعتناء لأهل البادية بفن الإنشاء جملة ، وإنما يكتبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقننا من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يقول ^(٢) » . وهو قول دقيق وصحيح .

وإذا تركنا نجدنا إلى الحجاز وخاصة مكة وجدنا أمراءها يتخذون كتاباً للإنشاء ، أو بعبارة أدق ليكتبوا ما يريدون من رسائل في مخاطبة سلاطين مصر وحكام اليمن والعراق .

(٢) صبح الأعشى ٧٦/٨ .

(١) وفیات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٤٩١ .

وفي صبح الأعشى عهد في صورة يمين لأبي نُعمى أمير مكة حلف بها لقلاوون . وفيه صور مختلفة لتنصيب أمراء مكة والمدينة وما كان يكتبه لهم سلاطين الماليك في هذا التنصيب ^(١) ، إذ كان لهم أمر توليتهم وعزلهم ، فقد كانتا تبعا من مصر منذ عصر الأيوبيين ، بل في حقب كثيرة منذ عصر الفاطميين . وكانت مصر في أثناء ذلك هي التي تعين أصحاب الوظائف الكبرى في البلدين ، وخاصة في القضاء وفي مشيخة الحرم النبوي ، وفي صبح الأعشى غاذج مختلفة لهذا التعيين ، تُذكر فيها واجبات الوظيفة ^(٢) . ويكثر تبادل الرسائل الشخصية بين العلماء والأدباء في مكة والمدينة والطائف على نحو ما يلقانا في كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وتلقانا فيه خُطَبَ زواج طريفة إذ ظلوا يحفظون في عَقْد الزواج بهذا التقليد القديم ، وهي خطب منمقة يشيع فيها السجع ، على نحو ما نقرأ لأحد القضاة ، وهو تاج الدين بن أحمد إمام المالكية بالمسجد الحرام من قوله في خطبة زواج : « إن الزواج جنة تُتقى بها الفتنة ، وجنة يُتلى على متفبئى ظلالمها : (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) تُثمر رياضه الرحمة بين الزوجين والوداد ، وتطلع زينة الحياة الدنيا إذا احتملت غرائسه ثمرة الفؤاد ، وتُسفر ليك عن طرّة صبح تحت أذيال الدُّجى ، وبتلُج يومه عن شمس توارى بمجباب الحِجَال ^(٣) والحِجَا ، وهو الغرض الذى لا يغطى قاصده الإصابة ، والعرض الذى لا يقوم إلا بجوهر أفسر عصابة ، والحصن الذى يُعْتَصَمُ به عن الوقوع في حمى الحرج ، ويُحتَمَى به من مصارع الرجال التى هي ما بين معترك الأحداق والمهج ، والوسيلة التى يتوسل بها الآخذ بزمام التقوى إلى مطلوبه ، ويُشده بلبل الأفراح هنيئا لمن أسمى سمير حبيبه ، وناهيك في فضله ما ورد فيه من الآيات ، والأحاديث الثابتة في صحيح الروايات ^(٤) » والتتميم في الخطبة واضح .

ومرّ بنا في الحديث عن الثقافة كيف تحول الحرّمان : المكي والمدني إلى ما يشبه جامعتين كبيرتين لكثرة العلماء من كل صنف في البلدين المقدستين ولكثرة المجاورين بهما من كبار علماء العالم الإسلامى . وشاعت منذ القرن الخامس الهجرى كتابة الإجازات العلمية ، فالعالم الكبير يكتب لبعض طلابه النابهين إجازات بمجربياته ومصنفاته ، وعادة يذكر من أخذ عنهم المرويات من شيوخه ، ويكتب في صدر الإجازة تنويها بالعلم وفضله وبالتلميذ ونباهته ، ثم يسرد المؤلفات والمرويات . ويجانب هذه الإجازات أخذ يتكاثر تقريب

(١) صبح الأعشى ١٢ / ٢٣٣ ، ٢٤٢ وما بعدها . البيت : الحجا : العقل .

(٢) صبح الأعشى ١٢ / ٢٤٠ ، ٢٥٨ وما بعدها . (٤) سلافة العصر ص ١٤٢ .

(٣) الحجال : ستر أو أستر تغرب للعروس في جوف

الكتب المصنفة ، وعادة كان المصنف لكتاب يعرضه على عالم كبير إما من علماء الحرمين المقيمين وإما من العلماء المجاورين بالمدينتين . وقد ساق مؤلف كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين طائفة من التقریظات لمصنفاته في ترجمته بالجزء الأول من كتابه ^(١) ، وهي تصور مدى ما كان يأخذ به المقرطون لكتاب أنفسهم بتتبع كلامهم أو شهاداتهم وبنائها على السجع وما يشيع فيه من جهال في الجرس والأداء .

ولعل قطعاً في الجزيرة العربية لم تزد به الكتابة كما ازدهرت في اليمن ، ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة الصليحية الإسماعيلية (٤٣٩ - ٥٣٢ هـ) إذ كانت تتخذ لنفسها ديواناً للإنشاء ، ومن كبار الكتاب فيه الحسين بن علي بن القيم الشاعر النابه الذي ترجمنا له بين الشعراء وله ديوان رسائل لما ينشر ، وسنعرض لرسالة سياسية له وأخرى شخصية . وقد ذيل السيد حسين بن فيض الله الهمداني كتابه « الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن » بطائفة من الرسائل المتبادلة بين الحكام الصليحيين والخلفاء الفاطميين ، وهي رسائل فنية لا لما تصور من شئون السياسة فحسب ، بل أيضاً لما تصور من نشاط الكتابة الفنية وازدهارها في اليمن منذ القرن الخامس الهجري . وكان يعاصر الصليحيين دولة آل نجاح في زيد ، ونجد بين أمرائها أدبياً نابها هو جياش بن نجاح صاحب كتاب المفيد في أخبار زيد الذي اختصره عمارة اليمنى ، وكان يضم شعراء زيد وأدباءها ، وقد وضع للكتاب مقدمة مسجوعة احتفظ عمارة بكثير منها . وأهم من ذلك أن عمارة يقول إنه كان له ترسل جيد بعيد من الكلفة وإنه رأى منه عدة مجلدات ، ويقول إنه عمل بمنع ، مقدماً بذلك لترجمته في المختصر . ومن فقهاء هذه الدولة الحسن بن أبي عمارة كما مر بنا . وكان شاعراً قتل جياش بن نجاح ، ويقول الجندي عنه « إليه تنسب الخطب العقامية ، وله شعر فائق ، وترسل رائق » ^(٢) . وبالمثل بعث بنو زريع بعدن (٤٧٦ - ٥٦٩ هـ) حركة أدبية قوية وكان لهم ديوان إنشاء اشتهر فيه غير كاتب مثل أبي بكر العيذى ، وفيه يقول عمارة اليمنى في صدر ترجمته بكتابه مختصر المفيد : « سمعت الشيخ الموفق أبا الحلال في الأيام الفاترية (أيام الخليفة الفائق الفاطمي) والقاضي الجليلس أبا المعالي عبد العزيز ، وهما يومئذ صاحباً ديوان الإنشاء للدولة العلوية (الفاطمية) وما منها إلا من يقول : لم يصل إلينا من الآفاق ، ولا رأينا لكاتب الشام والعراق ، أحسن من مكاتبات ترد علينا من جزيرة اليمن من إنشاء الشيخ الأديب الفاضل أبي العتيق أبي بكر بن محمد العيذى بعدن فإن له بلاغة تشهد عذوبة مطبووعها بكرم ينبوعها ، وألفاظاً تدل معانيها على فضل معانيها » وكان شاعراً

(٢) انظر الجندي في السلوك - النكت ٦٣٧ .

(١) العقد اليمن ٣٤٧ / ١ وما بعدها .

بارعاً ، ومربناً بعض شعره . ولما فتح توران شاه اليمن حاول أن يتخذ كاتباً له ، فامتنع . وليس بين أبنائنا شيء من رسائله لا هو ولا ابن أبي عقامة ولا جياش ، ولكن على كل حال فيها قدمنا ما يدل على ازدهار الكتابة باليمن . وتدخل في عهد جديد هو عهد الأيوبيين ، وسرعان ما تقوم بها الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ) وتُمتنى بالكتابة الدبوانية ، ويحفظ كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي ببعض عهود من الأمراء إلى أولياء عهودهم وبعض رسائل سياسية ، ويتبادل الرسوليون الكتب والرسائل بينهم وبين سلاطين الممالك ، وفي صبح الأعشى رسائل كثيرة موجهة من هؤلاء السلاطين إلى الرسوليين^(١) . ويبدو أن الكتابة كانت نشطة في بيئة الأئمة الزيدية ، وفي صبح الأعشى ما يدل على كثرة المكاتب بينهم وبين سلاطين الممالك ، إذ ينص على رسم المكاتب إليهم وأنها كانت ، وأدام الله تعالى - أو ضاعف الله تعالى - نعمة - أو جلال - الجانب الكريم العالي السيدى الإمامى الشريف النسيبى الحسنى العلماى سليل الأطهار ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، بقية البيت النبوى ، فخر النسب العلوى ، مؤيد أمور الدين ، خليفة الأئمة ، رأس العلما ، صالح الأولياء ، علم الهداة ، زعيم المؤمنين ، ذخر المسلمين ، منجد الملوك والسلاطين ، ولا زال زمانه مرمياً ، وغله مُسبغاً ، وقراه مُسبغاً ، وكرمه لفيض نداء مُتبغاً ، وهذه حيث أم بالصفوف مُتبغاً^(٢) . . . وفي ذلك ما يدل على أن المراسلة بين هؤلاء الأئمة الزيديين وسلاطين مصر كانت لا تنقطع .

وطبيعى أن تكثر الإجازات في اليمن كما كثرت في المدينتين المقدستين بالحجاز . وتكثر تقارير الكتب ، من مثل تقرير القاضى شرف الدين إسماعيل بن أبى بكر المعروف بالمقرئ اليمنى لأحد مصنفات صاحب العقد الثمين إذ يقول : «وقفت على هذا التأليف التالى فرائد العبر ، والآتى بأحاديث المواعظ الحسان بأصح خبر ، فله در مصنفه من إمام حافظ ، وبحر بواهر العلوم لافظ ، ولاحق ، برز على السابق ، وبذل في علو مرتبة الأعلام الحفاظ موافق ، بلغه الله غاية الأمانة ، وأجزل ثوابه على هذا المقرون بحسن النية» .

وطبيعى أن تكثر المواعظ باليمن ، واشتهر فيها وعاظ كثيرون من أهمهم الشيخ الصالح أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ وله في الوعظ كتاب نحى فيه نحو ابن الجوزى ، وله في التصوف فصول كثيرة وكلمات مأثورة بديعة^(٣) . وامتازت اليمن بأخرة من هذا العصر

(١) انظر صبح الأعشى ٣١٤/٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ . (٢) صبح الأعشى ٣٣٤/٧

(٣) العقود اللؤلؤية ١/ ١٦٠ - ١٦٢ . ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .

بكتابات أدبية فكهة سنعتقد لها حديثاً مستقلاً في غير هذا الموضع .

وكل ما لقيه في اليمن من نشاط كتابي نلتقي به في حضرموت . فهناك الرسائل السياسية والشخصية وهناك الإجازات ، من مثل إجازة الشيخ الحسن بن صالح البحر لتلميذه السيد عيروس بن عمر ، وقد جاء في صدرها : « الحمد لله جامع الظواهر والسرائر ، على ما يحبه ويرضاه الأول والآخر ، حتى ترتفع عنها السائر ، وتسجل لها من ظلمات الأغيار البصائر ، وتقبل بكلبيتها على من هو الباطن والظاهر ، لترتقي بعين عنايته ورعايته إلى تلك الحظائر ، ولم تزل تعلى بعجالة ظواهرها وسرائرها بما تشاهده تلك النواظر ، وتسجلى وراء ما هو آفل وغابر ، حتى تشاهد الجبال المطلق بقيومية مَنْ هو فوق عباده قاهر ، حتى يأتيها النداء : إن هذا جمال لا أول له ولا آخر ^(١) » . ويظل طويلاً في هذه النعمة الروحية الصوفية ، وكأنه يريد أن يصل تلميذه مع أخذه عنه لمصنفاته بنور الذات العلية المطلق الذي تم الوجود أصواؤه .

وظلت عُمان تحفظ بنشاط كتابي طوال العصر ، وقد عُنى نور الدين السالمي بعرضه في كتابه « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » . وفي طليعة ما نجد عنده كتاب كتب به الإمام راشد ابن سعيد الإباضي الذي دانت له عُمان جميعها سنة ٤٤٢ للهجرة بعد قضائه على ملك بنى مكرم الشيعة الإماميين ولاية البوييين هناك . والكتاب موجه إلى أحد ولاته وهو يستله على هذا النمط : « إني أوصيك بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ والانتهاء عما حرم الله عليك في زواجه ، والعمل بما أمرك الله به من أوامره ، فيما ساءك أو سرك ، ونفمك أو ضررك ، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به ، وتنهى عن المنكر وتكف [الناس] عن فعله ، وتحتذر من خدائع الشيطان ، ومن يؤازره على ذلك من الأخوان ^(٢) » . وواضح أن الكتاب يحفل بالسجع . ومن الأئمة بعد هذا الإمام الإباضي راشد بن علي المتوفى سنة ٥١٣ للهجرة ، ونرى قاضيه محمد بن عيسى السري يكتب له شروطاً بها أسجاع ^(٣) . ويغلفه محمد بن أبي غسان ويكتب إليه أهل إحدى الولايات العمانية كتاباً مسجوعاً من مثل قولهم : « الله تعالى بحرس علينا شريف بقاله ، ويزيد في رفعة وارتقائه ، ويدبم عليه ما اتسع من نعمائه ، وينعم علينا عاجلاً بكرم لقاؤه ^(٤) » : ويتولى بعده موسى بن أبي المعالي بن نجاد سنة ٥٤٩ ونقرأ كتاباً إلى بعض من تحذتهم أنفسهم بالخروج وهو كتاب

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١٥٤ / ٣ .

(٢) تحفة الأعيان ١ / ٢٧٥ .

(٣) تحفة الأعيان ١ / ٢٦٤ وما بعدها .

(٤) تحفة الأعيان ١ / ٢٩٢ .

مسجوع^(١). وقلاً يورد نور الدين السالمى فى كتابه «تحفة الأعيان» شيئاً من رسائل بنى مكرم الشيعة الإماميين الذين حكموا مدينة عان من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٤٤٢ وكذلك قلاً يورد شيئاً من رسائل بنى نبهان السنيين الذين حكموها من القرن السادس الهجرى إلى القرن التاسع . حتى إذا رجع الحكم بعدهم إلى أئمة الإباضيين أخذ يورد رسائلهم ، وهى رسائل متنوعة إذ يقلب عليها السجع والترصيع . ويشيع هذا الترصيع والسجع فى رسائل موجهة من بعض شيوخ الطوارىخ إلى أنفسهم فى شكل نصائح ووصايا أو موجهة إليهم من بعض أشياعهم أو من أهل نزوى ابتغاء إحقاق العدل ونشر الرأفة والعفو عند المقدرة . وليس بين أيدينا نشاط كتابى كثير لأهل البحرين ، غير أننا نجد فى صبح الأعشى فى رسم المكاتبة إليهم فصلاً^(٢) طريفاً مما يدل على تبادل الرسائل بينهم وبين حكام مصر وخاصة فى عهد المالك . ودون ابن معصوم فى كتابه «سلافة العصر» بعض رسائل شخصية لأدبائها . وفى كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر بعض رسائل أخرى . وجميعها يشيع فيها السجع وقد يسود بعضها نصنع شديد .

٢

رسائل ديوانية

مرَّبنا أن الرسائل الديوانية بين المدينتين المقدستين بالحجاز وبين مصر كانت متصلة فى العصرين الأيووى والملوكى بل لا شك فى أن تاريخها يرجع إلى ما قبل ذلك فى العصر الفاطمى ، غير أن ما بقى من هذه الرسائل فى المصادر التاريخية وغيرها قليل جداً من ذلك ما كتب به الظاهر بيبرس إلى أبى نُمى أمير مكة سنة ٦٧٥ بجزره عن الظلم^(٣) : «من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحبيب النسيب أبى نُمى محمد بن أبى سعد : أما بعد فإن الحسنة فى نفسها حسنة ، وهى من بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة ، وهى من بيت النبوة أوحش . وقد بلغنى عنك أبى السيد : أنك آويت الجرم ، واستحللت دم المحرم ، ومن يُهن الله فما له من مُكرم ، فإن لم تقف عند حدك ، وإلا أغمدنا فىك سيف جدك ، والسلام . فكتب إليه أبو نُمى : «من محمد بن أبى سعد إلى بيبرس سلطان مصر : أما بعد فإن الملوك معترف بذنبه ،

(١) التحفة ٢٩٥/١ . (٢) صبح الأعشى ١/٦٥٠ .

(٣) التحفة ٢٩٥/١ . (٢) صبح الأعشى ١/٣٧٠ .

تائب إلى ربه ، فإن تأخذ فيك الأقوى ، وإن تَعَفُ فهو أقرب للتقوى . والسلام .
 وكان سلاطين الممالك حتى يتوقعون من أحد أمراء المدينتين المقدستين اعرجاجا في
 حكمه أو جورا يأخذون عليه العهود والأيمان أن يسير مسيرة قديمة ملتزما فيها بما عاهدهم
 عليه من شأن رعية بلدته وشأن الحجيج ، مع ذكرهم في الخطبة ، ومع ضرب السكة أو
 النقود بأسمائهم ، وفيما يلي عهد أُنِيَ للسلطان قلاوون سنة ٦٨١ أن ينقل السياسة
 المرسومة له وهو يعضى على هذا النقط ^(١) :

«أخلصت يقينى وأصفيت طويتى وسأويت بين باطنى وظاهرى فى طاعة مولانا
 السلطان الملك المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما . . وإني
 عدو لمن عاداهم ، صديق لمن صادقهم ، حرب لمن حاربهم ، سلم لمن سالمهم . . وإني
 ألتزم ما اشترطته لمولانا السلطان وولده فى أمر الكسوة الشريفة المنصورية الواصلة من مصر
 المحروسة وتعليقها على الكعبة المشرفة فى كل موسم وأن لا يتقدم علمه علم غيره ، وإني
 أسبل زيارته البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين
 اللاتذنين بحرمه والحاجين والواقفين ، وإني أجتهد فى حراستهم من كل عاد بقلعه وقوله ،
 وإني أؤمنهم فى شربهم ، وأعذب لهم مناهل شربهم ، وأنى أستر - والله - بتفرد الخطبة
 والسكة بالاسم الشريف المنصورى ، وأفعل فى الخدمة فعل المخلص الولي . وإني - والله -
 أمثل مراسيمه امتثال التائب للمستتيب ، وأكون لداعى أمره أول سميع مجيب .
 وواضح أن أبانمى لم يستخدم فى هذا العهد السجع كما استخدمه فى الخطاب الذى رد
 به على بيبرس ، وكأنه عنى هنا بالمفصّل أكثر من عنايته بالأسلوب ، ولذلك لم يستخدم
 السجع ، أو لعل الخطاب السابق من صنع كاتب الإنشاء لعهد ، أما العهد فن صنعه هو
 وإملائه ، ولذلك جاء خاليا من التنيق .

والرسائل الدبلوماسية فى اليمن كثيرة منذ الدولة الصليحية ، ومن أبلغها بياناً رسالة الحسين
 ابن على بن القيم كاتب الإنشاء للدولة الصليحية على لسان الملك المكرم أحمد بن على
 الصليحي سنة ٤٦٠ وهى موجهة إلى الخليفة المستنصر الفاطمي يخبره فيها باختيال سعيد بن
 نجاح وأخيه جيش لعل بن محمد الصليحي فى طريقه إلى الحج فى ذى القعدة لسنة ٤٥٩
 وما كان من استردادها لزيد وكيف مضى الملك المكرم يستعد للأخذ بثأر أبيه ، مما مكنته
 أن ينقض على آل نجاح فى السنة التالية ، ويسحق جموعهم . ويفتك بسعيد ويهرب أخوه
 جيش إلى الهند ، وتدخل زبيد فى طاعته . ويصور ابن القيم فى الرسالة انتصارات الملك

المكرم على جيوش الزيدية والخارجين وكيف محققاً . والرسالة تفتتح بالبسملة والحمد لله والصلاة على رسوله ، ويتوالى الثناء على الخلفاء الفاطميين وغمسه أو صبغه بالمقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ونحن نسوق منها أطرافاً تصور روحها البينانية ^(١) :

«الملوك ينجى حضرة الإمامة ، وينهاى سدة الخلافة ، جعل الله عزها باقيا على الأيام ، ومجدها غير متقطع الدوام ، علماً أنه يَلِكْسُ بذلك شرف الدارين ، ويستولى به على الحسنيين ، شامخاً (متعلماً) من مولاه برقاً مُفِيئاً ، ومستظلاً من سحاب الإكرام وذفا (غيثاً) رويًا ، ومتبوّناً من رتب الاختصاص مكاناً عليًا ، ومتعرضاً لمترلة من أدناه وقربه نجياً . إنه قد كان قدّم خدمة بطالع بها بأنباء جزيرته ، وينهى أخبار دعوته ، وما جرى عليه أمرها من الفتن ، ودارت فيه من دوائر الهن ، التي ملأت قلوب أعداء الدين سروراً ، وازداد بها الكافر طغياناً وكفوراً ، وأظهر كل منافق ما كان من الغدر كامناً مستورا ، وقال الذين في قلوبهم مرض (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) . . . وجدّ عزم الملوك (الملك المكرم) بعد خيرة الله تعالى وخيرة وليه صلوات الله عليه على المسير للعبيد (يريد آل نجاح الأحباش قتلة أبيه) إلى مدينة زيد . . . فوردوا في التاسع والعشرين من صفر سنة ٤٦٠ وقد سبق التذير إلى العبد (يريد سعيد بن نجاح أمير زيد) وألفاء الملوك صافاً على أحد أبواب المدينة ، وقد نفخ الشيطان ريح الطغيان في أنفه ، وأراه الحياة في حتفه ، قد عصب برأسه من الكبر تاجاً ظن أن الله لا يستطيع له زعماً ، وتجلّب من الجبروت بثوب لا يروم له ما عاش خلعا . . . (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) . فدكّف إليه الملوك في جماعة من المؤمنين قاموا لله أنصاراً ، واتخذوا الصبر شعاراً ، والله - عز وجل - جارّ المتسكين بسبب الله الذي لا ينقطع من تمسك بسببه ، جائدين بأنفسهم في ابتغاء رضاه وطلبه ، وخوف سخطه وغضبه . . . فلما تراءى الجمعان وتدانى الفريقان ، ماجت الصفوف ، وسالت الزحوف ، ولعت السيوف ، ووكفت (سالت) الحنوف ، وتزلزلت الأقدام ، وصال الحمام ، واغبرّ القتام (الغبار) وتداعت الأبطال ، وتدانت الآجال ، واكتأبت الرجال ، وانقطعت الآمال . . . وشخصت الأبصار ، والتحمت الشفار (السيوف) وطلّبت الأوتار ، وأعوز الفرار . . . وطفقت سيوف الحق تلتهمهم ، وأيدى المؤمنين تقتسمهم ، فتركوهم بين ضريح بدمه ، وهاو ليديه وفه ، وشارد لم ينجه سوى قلعه ، ونادم لم يستغ بنده . . . ومعفور نطيع ، ومطمون جريح ، قد عادوا فرصة لكل واثب ، وأكّلة لكل ناهب ، مصرّعين

(١) انظر الرسالة في كتاب «المليحيين والحركة الفاطمية» في اليمن للدكتور حسن المصطفى ص ٣٠٨ .

مصارع أمثالهم الكافرين ، وواردين موارد أعمالهم خاسرين ، قد قطع الله أوصالهم ، وبث من حبله حبالمهم .

والرسالة طويلة وابن القيم يلتم فيها السجع ، وواضح أنه يعنى باصطفاء ألفاظه ، والملاءمة بينها حتى يحكم ما يريد من الجرس لكلامه وحسنه واستوائه بحيث لا نحس نبواً ولا نشازاً في عبارة من عباراته . وما يصور عنانيه بنغم كلامه أن الآيات القرآنية التي يقتبسها تلتقي فواصلها مع قوافيه التقاء طبيعياً ، وهو التقاء كان يقصد إليه قصداً حتى يلتحم جرس النغم في الرسالة التحاماً تاماً .

وكان ابن القيم كان استهلالاً قوياً لأن تأخذ العين منذ عصره في العناية برسائلها الديوانية عناية يعم فيها غير قليل من التتميق ورصف السجع وتديبجه . ويلاحظ ذلك بوضوح في الرسائل والعهود المكتوبة في الدولة الرسولية ، على نحو ما يلاحظ في العهد الذي قُوض فيه السلطان المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤) الحكم من بعده لابنه السلطان الأشرف عمر ، وهو يستهله بقوله بعد الحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺ والدعاء (١) : «أما بعد فقد ملكنا عليكم مَنْ لا تؤثر فيه - واقه - داعي التقريب ، على باعث التجريب ، ولا عاجل التخصيص ، على آجل التحجيص ، ولا ملازمة الهوى والإيثار ، على مداومة البلوى والاختبار . وهو سليلنا الخطير ، وشهابنا المنير ، وذخيرتنا على المراد ، وبصيرنا الذي نرجو به صلاح البلاد والعباد ، وتوكل فيه من الله الفوز والنجاة في المعاد ، وقد رحمانه من وجوب الذب والحماية ، ومعالم الرفق والرعاية ، ما قد التزم بوفاء عهده . والمستول في إعانته مَنْ لا عون إلا من عنده . ولن نعرفكم من حميد خصاله ، وسديد فعاله إلا بما قد بدا للعيان ، وزكا مع الامتحان ، وفنا من قيلكم في كل لسان » وواضح ما في العهد من ميل شديد إلى تصفية اللفظ وأن يكون سلساً سلاسة الماء النعيم ، وواضح أيضاً ما فيه من موازنة دقيقة بين سجعاته ، فكلمة «داعي التقريب » توضع على وزنها كلمة «باعث التجريب » وكلمة «عاجل التخصيص » تليها موازنة لها كلمة «آجل التحجيص » وكلمة «ملازمة الهوى والإيثار » توازنها كلمة «مداومة البلوى والاختبار » وكل ذلك إرضاء لأذن السامع . ومثله محاولة الإتيان بالترادفات في نهاية السجعة مثل «الذب والحماية » و «الرفق والرعاية » و «حميد خصاله » و «سديد فعاله » مما يدل بوضوح على الرغبة في اكتمال نغم الكلام .

وتلقانا في عهد السلطان الأشرف وربما كان في عهد أخيه المزيد (٦٩٦ - ٧٢٠ هـ)

رسالة موجهة من الأمير الزيدى محمد بن المطهر إلى السلطان المملوكى . الناصر محمد بن قلاوون يستنصره فيها على السلطان الرسول الذى طالت بينها الحروب ، معددا قبائمه ، مؤملا أن يسعفه يحمش لإجلاته عن دياره ، وإجرائه بجرى الذين ظلموا فى تعجيل دماره . وقال فى رسالته : إنه إذا حضرت الجيوش المؤيدة قام معها ، وقاد الأشراف والعرب أجمعها ، ثم إذا استنقذ منه ما بيده أنتم عليه ببعضه ، وأعطى منه ما هو إلى جانب أرضه . ثم قال : « وكتبى إلى السلطان مؤذناً بالإجابة ، مؤذياً إليه ما يقتضى إعجابه . . ولا رغبة لى فى السلب ، وأن النصره تكون لله خالصةً وله كل البلاد لا قدر ما طلب » . واقتطف القلقشندى قطعة من الرسالة مسجوعة ^(١) ، وكان السجع أصبح منذ ابن القم صفة عامة فى الرسائل والمعهود البنية . ونمضى إلى زمن السلطان الرسول الأشراف إسماعيل (٧٧٨ - ٨٠٣ هـ) فبرسل السلطان المملوكى برقوق إليه برسالة معها هدية ، يحملها القاضى برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى لتسهيل متجره وما يحمله من عدن من عروض التجارة ، ويبادلها الأشراف إسماعيل هدية بهدية ، وكتاباً بكتاب أو رسالة برسالة . وبطلب فى رسالته أن يرعى السلطان برقوق من يقد على مصر من رعيته البنية تاجراً وغير تاجر ، وأن يأذن له فى حج البيت الحرام ، لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام . ويشكو من ارتفاع النفقات فى مكة على حاج اليمن لعله يتوسط لدى أميرها كى يخفضها ، لأنه تابعه ، وإن كان لم يصرح بذلك . ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة يتحدث فيها الأشراف إسماعيل عن هديته إلى السلطان برقوق وأنها دون مقامه ومكانته ، يقول ^(٢) :

« لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهرى ، أعز الله أنصاره ، بمقدار همة الشريفة العلية ، ورتبه النيفة السامية ، لاستصغرت الأفلاك الدائرة ، والشهب السائرة ، واستثقلت السبعة الأقاليم تحفة ، والأرض وما أقلت طرفة ، ولم نرض أن نبعث إليه الأنعام ممالك وخولا (عبيدا) ، ونجى إليه ثمرات كل شئ قبلاً ، ولورام حب المقام (يقصد نفسه) هذه القضية لقصر عنها حوله ، ولم يصل إليها طوله (قدرته) ولكنه يرجع إلى المشهور ، بين الجمهور ، فيجد العمل يقوم مقامه الاعتقاد ، وليس على المستر على الطاعة سوى الاجتهاد ، والمخلص فى الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد » .

والرسالة كلها من هذا الأسلوب الذى يمتاز بانتخاب ألفاظه والسجع فى عباراته ، حتى يروق الأسماع ، بل حتى يبرها ، بحسن تنسيقه وجمال رصفه ونسجه . وكان كتاب الإنشاء فى كل دولة عربية يتبارون فى تلك الحقب بما يصوغون من هذا الأسلوب

الموسيقى ، حتى تُلذ ألفاظه الألسنة ، وحتى تقع موقفاً حسناً من القارئ لها والسامعين .
ومرئنا في عُمان أن الأئمة الإباضيين كانوا يوجهون بكتب إلى عاملهم ، يأمرهم فيها
بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف وأن يسيروا في الرعية سيرة عادلة ، وكانت الرعية كثيراً
ما ترسل إليهم برسائل تطلب فيها العدل والحكم الصالح . ومضوا على ذلك طويلاً حتى
إذا كنا في القرن الحادى عشر الهجرى وجدنا الإمام الإباضى ناصر بن مرشد (١٠٢٤ -
١٠٥٠ هـ) يكتب إلى عماله عهوداً كثيرة يشيع فيها السجيع من مثل قوله لأحد عماله في
الباطنة (١) :

«إني قد وليتكَ على قرية لوى من الباطنة . . على أن تأمر أهلها بالعدل والمعروف ،
وتنهاهم عن المنكر المحرف ، وأن تعمل فيهم بكتاب الله المستبين ، وتُحَي فيهم سنة النبي
الأمين ، وآثار الأئمة المهتدين ، وسيرة القادة المخلصين ، الذين جعلهم الله منار الهدى ،
وقادة الناس إلى التقوى ، وأورثهم الكتاب والسنة ، يدعون إلى طريق الجنة . . ولا تخف
في الله لومة لائم ، ولا عذل مجرم آثم ، وأن تخلط الشدة باللين ، وأن تخفض جناحك لمن
اتبعتك من المؤمنين . . فاقه ! الله يا أبا الحسن في اكتساب الحسنات ، وإنكار المنكرات ،
بغير تجاوز منك إلى غير واجب أوجبه الله في الجد والتشمير ، وترك الهوان والتقصير .
ولا يطرد السجيع دائماً في عهود ناصر بن مرشد ، وحتى في العهد الواحد يستعمله حيناً
وحيناً لا يستعمله . ويغلب في سجمه وسجيع غيره من الأئمة الإباضية أن لا يكون
متكلفاً ، وكذلك ألفاظهم لا يبدو فيها شيء من الرث في اختيارها إلا قليلاً ، وكأنهم
يقبلون ما ينفذ عليهم عفو الحاطر . وولى سلطان بن سيف (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) ويفتح
ولايته بعهد منه إلى جميع عماله يستهله بهذه الصورة (٢) :

«الحمد لله العزيز عز أن تعوم في بحور صفاته جوارى (سفن) الفِكَر ، وأن تروم تنظر
كواكب نكيته بصائر أولى البصر ، أو أن تشاهده بمخارق البيان والنظر ، العالم بديب
الغلة والذر . . الذى (لا يَعبُ عنه مثقالُ ذرة في السموات ولا في الأرض) ولا (في
ظلمات البر والبحر) الجليل قدره عن مشاكلة صفات البشر ، أو أن يدرك الأشياء بالسمع
والخير ، أو أن تجرى عليه أحداث القضاء والقدر . أحمدته على ما صاب برياض قلوبنا من
سلسال العبر ، وحسم عنا من أوصاب الكدر . وأشكره على ما خولنا من بايع نعمه وقدر ،
وسقانا من عصير كرم كرمه وعز وتكبر . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
أعدها جنة ليوم المحشر ، يوم لا ملجأ لنا من الله ولا وِزر . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

دعا إلى الله وأندّر ، وقاد الناس إلى الخيرات وبشّر ، ونصب أنموذج الهداية لمن خاف الله من ذات نفسه وفكره .

وأكبر الظن أن كاتب هذا العهد ليس سلطان بن سيف نفسه ، بل هو كاتب أدیب من الإباضية كان يكتب بين يديه ، بل لقد كان أديباً عالماً ، فهو يصدر في أول العهد عن عقيدة الإباضية التي نعدثنا عنها في الفصل الأول وأنهم كانوا يؤمنون بما آمن به المعتزلة من نفي التجسيم عن الله بكل صورة من صوره وتزييه تزيها مطلقاً عن الشبه بال مخلوقات وأن يلحق ذاته العلية كيف أو جهة أو أى صفة من صفات البشر . والكاتب أدیب بارع ، فقد التزم في نحو صحيفة كبيرة صدر بها الرسالة قافية الرأى ، وطاوعته دون أى عسر أو التواء ، مما يدل على تملكه لناسبة الكلام . وهو يعنى بالتنميق في عباراته ، إذ يضيف إليها وشى الجناس والتساوير والانتباس من الذكر الحكيم ، على نحو ما يتضح في اقتباسه لقوله جلّ شأنه : (لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) وقوله (في ظلمات البر والبحر) . وتكثر الاقتباسات والجناسات في العهد بعد تلك المقدمة . وقد ذكرنا في الفصل الأول أن سلطان بن سيف أهم سلاطين اليربيين الإباضيين قبض على صولجان الحكم في دياره ومدينته صحار وسقط في أيدي البرتغاليين ، فطردهم كما مر بنا منها ومن سواحل بلاده شر طردة مستعينة في ذلك بأسطول ضخم حطم به أسطول البرتغال وسيطر به على الهند وشواطئها الغربية ، كما سيطر به على شواطئ إفريقيا الشرقية وتغلب أسطولهم في كل موقع ، ويبدو أن سفنا منه حاولت الإلام باليمن ، فدمرها تدميراً . ونعجب أن يغضب من صنيعه أمير اليمن الزيدى إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٧٩ هـ) ويعجب سلطان بن سيف أشد العجب ، ويتبادلان رسالتين ، في أولاهما يقول سيف بن سلطان لصاحبه (١) :

«إنكم علينا عاتبون ، ومنا واجدون ، لأجل قطع جنودنا في العام الماضي رقاب المشركين على بابكم ، وأخذهم لسفهم الواردة لجنابكم . ولعمري إنا لنندرى أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء ، وزائدٌ مخصّص المودة الصادقة والوفاء ، غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم ، وانتهاك المحارم . ونحن لم نقصد إلى انتهاك دارك سبيلاً ، ولا نعد لك على إلزامنا فعل ذلك دليلاً ، إذ كنا لم نجهز مراكبنا ، ونتخذ محالينا ، لمشارّة (لخاصمة) رهيتك ، ولا لاستباحة دم أهل حُكْمِكَ وأقْبَسَتِكَ (أقايملك) ولكن جهزنا الجيوش والعساكر ، وأعدنا للهازم والبواتر ، لتدمير عبدة الأوثان ، وأعداء الملك الديان

تعرضاً منا لرضا رب العالمين ، وإحياء لسنة نبيه الأمين ، ورغبة في إدراك أجر الصابرين
المجاهدين . وحاشا لملك أن يغضب لقتال عبدة الأصنام ، وأعداء الله والإسلام ، ألسنت
من سلالة علي بن أبي طالب ، الساقى المشركين وبيء المشارب ، وأنت تدرى ما جرى
بيننا وإياهم من قبل في سواحل عُمان ، وفي سائر الأماكن والبلدان من سفك الدماء وكثرة
الصَّيَال ، وتناهب الأملاك والأموال ، وإنا لتأخذهم في كل موضع تحمل به مراكبهم
وتغشاه ، حتى من كنتج وجميرون يتدري الشاه (ملك فارس) ولم يظهر لنا من
أجل ذلك عناباً ولا نكيراً ، وإن كنت في شك من ذلك فاستقل به خبيراً .

ويذكر سيف بن سلطان لإسماعيل بن القاسم أنه ترك في نعقب البرتغاليين مدافع في
ظفار التابعة له وأنه حرى أن يردها عليه . وتمتلى قلوبنا أسمى حين نقرأ رسالة إسماعيل بن
القاسم التي رد بها على سيف بن سلطان إذ بدلا من أن يطلب منه الصفع عن كبوته وعثرته
المردية ، ويرجع إليه مدافعه وأسلحته ، يبرق له ويرعد ، ويهدد ويتوعد ، إذ تحصى
رسائله على هذه الشاكلة (١) .

وهصل كتابك الذي شحتة بالإبراق والإرعاد وعدلت به من تحسين العتاب ، إلى
تحسين الخطاب ، ظنا منك إن هذيان وعيدك ، وطنين ذباب تهديدك ، يزعزع من بأسنا
صخرة صماء ، أو يحرّك من وقارنا جبلاً شماء ، وكيف يكون ذلك :

وأسيافنا في كل شرقٍ ومغربٍ بها من قراع الدارعين فلول
أين ذهب حجاجك حتى طلبت منا المدافع ، بهذه الأراجيف والفقاقع ، وإنما تقطع
أعناق الرجال المطامع . أما علمت أن اللبث إذا هيج على فرسة كان أشد إقداماً ، وأعظم
جرأة واعتزاماً ، لا جرم أنها لما نأت بنا ولك الديار ، وحالت دوننا ودونك الأمصار ،
استرسلت في لفظك ، وجاوزت في سوء المقدار حدك ، وانفردت بأرضك ، فطلبت
الظعن والترحال وحدك :

يا سالكا بين الصوارم والقنا إني أنشئ عليك راحة الدّم
فاقطع عرى آمالك عن هذه المدافع ، فهي أول غنيمة - إن شاء الله - من قطرك
الشام .

والكتاب حقاً محزن ، إذ كان المستظر أن يضع إسماعيل بن القاسم يده في يد سلطان بن
سيف حين جاءه كتابه ، ويعود إليه صوابه ، ويعلن نصرته له ضد البرتغاليين الآتمين .
وعلى العكس من ذلك مضى في غيّه يتوعد سلطان بن سيف بمعركة كمعركة النهروان التي

تعقب فيها على بن أبي طالب الخوارج ومزق جموعهم ، وكان حرباً أن يجبى فيه جهاده للبرغالين ويشد أزره ، لا برد المدافع والأسلحة التي تركها في ظفار فحب بل أيضاً بإمداده بالأموال ، إن لم يستطع أن يمد بالفرسان والرجال ١ . والرسالتان تتخذان السجع قراراً لها ، فهو اللغة العامة للرسائل الديوانية مها شرقنا أو غربنا في الجزيرة العربية .

٣

رسائل شخصية

طبيعى أن نجد رسائل شخصية متنوعة لأدباء مكة والمدينة ، إذ كان يلم بهما كثير من العلماء والأدباء ، وكانوا يتكاثرون ويتراسلون مع علماء البلدين وأدباها ، وقد أثبتت كتب التراجم طائفة من رسائل القوم ، من ذلك رسالة كتب بها مفتى مكة الحنفى وأحد أعلامها العلماء في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادى عشر للهجرة الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى العمري إلى أبى المواهب البكرى مفتى الديار المصرية ، وذلك في سنة ١٠٢٢ وفيها تحدث عن مواقف مشرفة له حين حج في السنة المذكورة ، وهو يستهل رسالته على هذا النمط ^(١) :

«إِنَّ أَشْرَفَ مَا تَوَجَّعَ بِهِ الْفَارِقُ وَالرَّهْوَسُ ، وَأَبْرَ مَا تَبْتَهِجُ بِهِ الْمَهَارِقُ وَالطَّرُوسُ ، وَأَجْبَى مَا يُنْظَمُ فِي سِلْكِ السُّطُورِ ، مِنْ الدُّرَرِ الْبَاهِرَةِ لِدُرِّرِ النَّحُورِ ، وَأَنْهَى مَا يَرْقَمُ (يَكْتُبُ) فِي صِكُوكِ الصَّدُورِ ، مِنْ الْقُرْرِ الْمَضَاهِيَةِ لِلْأَلَى الْبُحُورِ ، نَحْبَاتُ نُظْمَتِ بَأَنَامِلِ الْإِخْلَاصِ عَقُودُهَا ، وَتَسْلِيَمَاتُ رُقَّتْ بِطَرَاظِ الْإِخْتِصَاصِ بِرُودِهَا ، تَشْفَعُهَا الْأَدْعِيَةُ الَّتِي عَلَى أَلْسِنِ الْمُقْرِبِينَ تُتْلَى . صادرة من قلب منيب آوَاه ، نَازِلَةٌ أَنْ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ ، فَهِيَ مَلَائِكَةُ الْإِجَابَةِ ، تَحْفُفُهَا بِالْقَبُولِ وَالْإِثَابَةِ ، بَأَنْ يَدِيمَ اللَّهُ لِلْعِلْمِ وَأَهْلِهِ ، وَيُنْقِىَ لِلْفِرْعِ وَأَصْلِهِ ، بَقَاءَ مَوْلَانَا الْأَسْتَاذِ الْأَعْظَمِ ، وَالْمَلَاذِ الْأَعْصَمِ ، وَالْجُهَيْزِ النَّقَادِ ، وَالْكُوكِبِ الْوَقَادِ ، وَالْبَحْرِ الزَّخَارِ ، وَاللَّيْلِ الزَّهَارِ ، عَالِمِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، الْجَامِعِ لِلشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ ، كَشَافِ مَشْكَلَاتِ الْعُلُومِ ، حَلَالِ مَعْضَلَاتِ الْفُهُومِ :

عَلَامَةُ الْعُلَمَاءِ وَاللُّجُ الَّذِي لَا يَنْتَهَى وَلِكُلِّ لُجٍّ سَاحِلٌ
الإمام العلامة ، المام الفهامة ، شيخ الإسلام ، ملجأ الأنام ، مفتى المسلمين ، صدر المدرسين ، الحبر التحرير ، إمام الفقه والتفسير . مفتى السلطنة الشريفة (يريد السلطنة

العثمانية) بالقاهرة الزاهرة المنيفة. وإذا تساءلنا ماذا قرأنا في الرسالة حتى الآن لاحظنا أننا أنما لم نقرأ إلا سلاماً وتحية ودعاء وثناء. وهذه المعاني البسيطة تحول إلى ما يشبه خيطاً تنشر عليه عبارات منمقة تستمد من مبالغات مفرطة، صيغت في أسجاع تحفّ بها استعارات تلمع، ولكنها سرهان ما تلاشى دون أن تترك وراءها مضموناً واضحاً، على شاكلة ما نقرأ للشيخ حنيف الدين المكي من رسالة كتب بها إلى صديق له في الطائف رداً على رسالة كان بعث بها إليه، وهو يفيض فيها على هذا النحو^(١):

«ما روضة غنّاء تدفقت أنهارها، وما حديقة حسناء تصادحت أطيارها، وما دوحه أمال أغصانها النسيم، وما سرحه (شجرة) غرّدت بأفنانها الطير فأسجعت بصوتها الرخيم، وما هيفاء قد برزت متلثمة بالجمال، وطلعت بأفق الحسن كالللال، وما الخزامى والمندل (العود) الرطب، وما العنبر والعبير إذا فاح وشبّ (سطع). وما الدر المكنون في الصدف، وما ساعات السرور المعلومه من الصدف، بأجل من كتاب ورد فبرّد بوروده غليل مشتاق، وأخجل بوروده وعوده روائح الزرجس القصّ وما يثتر في الأطباق، قد نظمت فلانده عقيانه أنامل مولى نسّم ذروة المجد، وأبرزته أفكار مخدوم حاز من الفضائل ما فاق به السعد، تحتال في رياضه النضرة فرسان البلاغة فلا تلحق جواده، وترشف حياضه العذبة أرباب الفصاحة والبراعة مفتقيه آثاره كى لا تفصل جاذة الإصابة والإجادة، قد هب من خلال سطوره نسيمة الرطب فأشنى الليل، وجرى من بحر مثوره شهده العذب، فبرّد اللوعة وأطفأ الغليل»

وهذه القطعة من الرسالة تحمل مبالغات مكررة واضحة، وكأن ليس الغرض أن تؤدى الرسالة طائفة من المعاني، إنما هي تؤدى طائفة من الألفاظ والأساليب المنمقة المسجوعة المليئة بالتكرار وبيان القدرة على جلب العبارات المحشوة بضروب الاستعارات والمجازات وألوان الجناس. وحاول الشيخ أن يظهر تفتته في صنع العبارة المسجوعة، فأطالها في آخر هذه القطعة، ولكن بعد أن جعلها توازن داخلياً، فكلمة «فرسان البلاغة» في عبارة يقابلها «أرباب الفصاحة والبراعة» في العبارة التالية، وكذلك كلمة «نسيمة الرطب» في عبارة يتلوها في العبارة التالية «شهده العذب» وليس وراء ذلك كله إلا التكلف الشديد.

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن استقبلتنا فيه رسالة استعطاف بديعة للحسين بن علي بن القمّ وجهت بها إلى السلطان سبأ بن أحمد الصليحي (٤٨٦ - ٤٩١ هـ) يستعطفه،

ولا ندرى بالفصيح ما سبب هذا الاستعفاف وخاصة أنه كان - كما مر بنا في ترجمته بين الشعراء - القائم على ديوان الإنشاء للدولة وكتاب رسائلها . وتذكر المصادر أن أباه وضع يده في يد جياش بن نجاح حين استولى على زيد من الدولة الصليحية . وربما حدثت نبوة بينه وبين سبأ فألم يزيد فأغضب ذلك منه ، والرسالة تمضي على هذا الخط ^(١) :

كتب عبدُ حضرة السلطان الأجل مولاي ربيع المُجدين ، وقرع التأديبين ، جلوة المتبس ، وجذوة المقتبس ، شهاب المجد الثاقب ، ونقيب ذوى الرشد والمتاقب ، أطال الله بقاءه ، وأدام علوه وارتقاه ، ما قُدِّمت العارية للمستعير ، ولزمت البياء للتصغير ، وجعل رتبته في الأولوية عالية المقام كحرف الاستفهام ، وكالمبتدأ إن تأخر في البنية ، فإنه مقدم في النية . ولا زالت حضرته من الحادثات حمى ، وللوفود مَزْدَحماً وملترماً ، حتى يكون في العلأ ، بمنزلة حرف الاستعلاء . ولا زال علوه كالآلف ، حالها يختلف ، تسقط في صلة الكلام ، ولا سببا مع اللام ، فإنه - أدام الله علوه - أحسن إلى ابتداء ، ونشر على من فضله رداء ، أراد أن يخفى ، وكيف يخفى ؟ لأن من شرف الإحسان ، سقوط ذكره عن اللسان - كالمفعول رُفِعَ رُفَعُ الفاعل الكامل لما حُدِفَ من الكلام ذكرُ الفاعل - وأنا أهدي إليه سلاماً ما الروض ضاحكه التوض ^(٢) ، غُرس ، وحرُس ، وسقى ، ووقى ، وغيب ، وصيب ^(٣) ، فأخذ من كل قوة ^(٤) ينصب ، زهاء الزهر ، وسقاء النهر ، جاور الأضا ^(٥) فحسُن وأضا ، رقع فيه الشُخُور ^(٦) ، ومرح المصغور ، فنظر إلى أفاحيه ، تفرُّ في نواحيه ، وإلى البهار ، يضاحك شمس النهار ، فجعل يُلْثِم من ورده خدوداً ، ويضم من أغصانه قدوداً ، ويقتبس النار ، من الجَلَنار ^(٧) ، ويتمس العقيق من الشقيق ^(٨) فتشئ نَمِلاً ، وغنى خفياً ورَملاً ، بأطيب من نفحة المسكية ، وأعطر من رائحته الذكية ، وإني وإن أهديته في كل أوان ، من أداء ما يجب غير وان ، أعد نفسي السكيت ^(٩) في السبق ، لتقصيري لما وجب على من الحق .

وكل من يقرأ رسائل أبي العلاء المعري يحس بوضوح صلة هذه الرسالة بها ، ومر بنا في حديثنا عن شعره أنه كان يستوحيه في بعض آياته ، ومعروف أن أبا العلاء كان يتصنع في

(١) مجمع الأدباء ١٠ / ١٣٢ .

(٢) التوض : يجري الماء ، ويريد الماء نفسه .

(٣) غيب : غاب بلمره في الأرض . وصيب : أمطر .

(٤) غنى : الغزوة : المطر .

(٥) الأضا : الغدير .

(٦) الشخُور : طائر كالصغور رخم الصوت .

(٧) الجَلَنار : زهر الزمان .

(٨) الشقيق : ورد كبير أحمر .

(٩) السكيت : آخر غيل الحلية .

رسائله تصنعاً واسماً لجلب مصطلحات العلوم اللغوية ، وهو أول من نهج بقوة هذه السبيل ومهدّها لمن جاءوا بعده ^(١) ، وتأثره فيها شرقاً وغرباً الكتاب ، وها هو ابن القيم الجينى الذى يوشك أن يكون معاصراً له يتأثره فى هذا الأسلوب الجديد ، فإذا هو يدعو لسيا بن أحمد بدوام علوه وارثاقه دوام لزوم الياء عند الصرفين للتصغير ، ويدعو له بدوام تقدم رتبته على الأمراء والسلاطين من حوله كدوام تقدم حرف الاستفهام على جملة أو عبارته ، وكدوام تقدم المبتدأ على الخبر ، وحتى إن هو تأخر عنه كان متقدماً عليه فى النية . وإنه ليشتمى له أن يظل دائماً متسماً ذروة العلا ، مثله مثل حروف الاستعلاء عند أصحاب التجويد والقراءات وهى سبعة : ق ، ظ ، خ ، ص ، ض ، غ ، ط ، وهى دائماً تفخم فى النطق ، فلا يدخل عليها ترقيق . ويجعل عدوه كالألف ، حاله دائماً مختلفة ، إذ هى تأتى للوصل وللقطع ، ولا ينطق بها فى مثل الشمس والنور والصلاة .

ولا ريب فى أن ذلك تعقيد وتصنع شديد ، إذ لا يستطيع أن يفهم عبارات الرسالة إلا من عرف علوم الصرف والنحو والتجويد والقراءات . وظاهرة ثانية فى الرسالة اندفع فيها ابن القيم وراء أى العلاء وإن لم يبعد إبعاده ، وهى ظاهرة التصنع للفظ الغرب ، فقد وشأها به ، وكأنما أصبح غاية من غايات الكتاب البارعين أن يحلبوا الألفاظ الغريبة إلى رسائلهم ، حتى يثبتوا مهارتهم ، وهى مهارة لغوية خالصة . ونحمد لابن القيم أنه لم يسرف فى هذه المهارة . والرسالة تصور براعة حقيقية فى استخدام السجع ، فقد كان يستطيع أن يأتى به قصيراً ، بل مفرطاً فى القصر ، حتى لتكون السجعة أحياناً كلمة واحدة . والجناس كثير فى العبارات ، من مثل قوله : « جَلْوَةُ الملتبس » و« جَدْوَةُ المقتبس » و« البيار » و« النهار » إلى غير ذلك من جناسات ناقصة تكتظ بها الرسالة ، وهو يفيض فيها مستعظفاً محاولاً بكل ما فى وسعه أن يستل الضخينة من صدر سبأ بمثل قوله :

« وأما حال عبده ، بعد فراقه فى الجلد ، فحال أم تسعة من الولد ، ذكور ، كأنهم عِقبان وصقور ، كَوُوا ^(٢) فى وَكُور ، اختُرْم ^(٣) منهم ثمانية ، وهى على التاسع حانية . نادى النذير ، العُربان فى البادية ، للعادية ، بالَّلَعادية ^(٤) ، فلما سمعت الدَّاعى ، ورأت الخيل وهى سراع ، جملت تنادى ولدها : الأناة ! الأناة ! وهو ينادى العُداة ! العُداة :

(١) انظر كتابات ابن قيم وملاحقه فى التخرى (نشر دار

العلم : مات .

المعارف - الطبعة الثالثة) ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٤) العادية الأولى : العادية ، والثانية : الخيل .

(٢) كَوُوا : استنوا وأقنوا .

بَطْلُ كَانَ ثِيَابَهُ فِي سَرَحَةٍ يُحْدَى نِمَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوْعَمٍ ^(١)
 فَمِنْ رَأَيْتُهُ يَمْتَالُ فِي غُضُونِ الزُّرْدِ الْمُصُونِ ^(٢) أَنْشَأْتُ قَوْلَ :
 نَشَدْتُ أَضْبَطًا يَمِبُ لُ بَيْنَ طَرَفَاهُ وَغِيلٍ ^(٣)
 لِبَاسُهُ مِنْ نَسِجٍ دَا وَدَ كَفَصَحْضَاحٍ بَيْلٍ ^(٤)
 فَعَرَضَ لَهُ فِي الْبَادِيَةِ أَسَدٌ مَهْصُورٌ ، كَانَ ذَرَعُهُ مَسَدٌ ^(٥) مَضْفُورٌ :
 فَطَاعَتَا وَتَوَاقَفَتْ خِيَلَاهُمَا وَكَلَامُهُمَا بَطْلُ الْلِقَاءِ مَقْنَعُ
 فَلَمَّا سَمِعْتُ صِيَاحَ الرَّعِيلِ ^(٦) ، بَرَزْتُ مِنَ الْخِدْرِ بِصَبْرٍ قَدْ عِيلَ ^(٧) . فَسَأَلْتُ عَنْ
 الْوَاحِدِ ، فَقِيلَ لَهَا : لِحَدِّهِ الْلَا حِدَ :

فَكُرْتُ نَجْتِيهِ فَمَاصِدَتْهُ عَلَى دَمِي وَمَصْرَعُهُ السَّبَا
 عَيْنِي بِهِ فَلَمْ يَرْكُنْ إِلَّا أَدِيمًا قَدْ تَمَزَّقَ أَوْ كُرَاعًا ^(٨)
 وَمَا هَذِهِ الْأُمُّ الشَّكْلِي بِأَشَدِّ مِنْ عِبْدِكَ تَأْسَفًا ، وَلَا أَعْظَمُ كَمْدًا وَتَلَهْفًا ، وَإِنَّهُ لِيَعْنَفُ
 نَفْسَهُ دَائِمًا ، وَيَقُولُ لَهَا لَا تَمُتِي : لَوْ فَطِنْتُ لَفَطِنْتُ ^(٩) وَلَوْ عَقَلْتُ لَمَا انْتَقَلْتُ ، وَلَوْ قِيَمْتُ
 لَرَجَعْتُ ، وَمَا هَجَعْتُ :

يَقِيمُ الرِّجَالُ الْمَوْبِرُونَ بِأَرْضِهِمْ وَتَرْمِي النَّوَى بِالْمَقْتَرِينَ الْمَرَامِيَا ^(١٠)
 وَمَا تَرَكُوا أَوْطَانَهُمْ عَنْ مِلَالَةٍ وَلَكِنْ حُدَارًا مِنْ شَهَاتِ الْأَحَادِيَا
 أَيُّهَا السَّيِّدُ ! أَمِنْ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، وَحَسَنِ الشَّيْمِ وَالْأَوْصَافِ ، إِكْرَامَ لِمَهَانَ ،
 وَإِذْلَالَ جَوَادِ الرِّهَانِ ، يَشْبَعُ فِي سَاجُورَةٍ كَلْبُ الرُّبُلِ ، وَيَسْتَقْبُ فِي خَيْبَةِ أَبُو الشَّيْلِ ^(١١) :
 إِذَا حَلَّ ذُو نَقْصٍ مَكَانَةً فَاضِلٍ وَأَصْبَحَ رَبُّ الْجَاهِ غَيْرَ وَجِيهِ
 فَإِنْ حَيَاةَ الْحَرِّ غَيْرُ شَهِيَةٍ إِلَيْهِ وَطَعْمُ الْمَوْتِ غَيْرُ كَرِيهِ

(١) البيت لعنترة والسرحة : شجرة طويلة . يصف عليها .
 خصمه بالبطولة والطول كأنه سرحة أو شجرة سامقة .
 ويصفه بالترف إذ يتصل بنمالة السبت الجليدة ، كما يصفه
 بالقوة إذ ليس تروما شركه غيره في بطن أمه .
 (٢) غُضُونُ : ثَنَاءٌ . وَيُرِيدُ بِالزُّرْدِ الْمُصُونِ الدَّرْعَ .
 (٣) الْأَضْبَطُ : الْعَامِلُ أَوْ الْمُقَاتِلُ يَمِينُهُ وَيَسَارُهُ .
 (٤) الْكِرَاعُ : السَّاقُ .
 (٥) قَطْنَتْ : أَقْبَتَ .
 (٦) الرِّعِيلُ : الْقَطِيعَةُ مِنَ الْخَيْلِ .
 (٧) عِيلَ : نَفَذَ .
 (٨) الْمُقَاتِلُونَ : أَصْحَابُ الْعِيْشِ الضَّعِيفِ .
 (٩) السَّاجُورُ : خَشَبَةٌ صَلْبَةٌ تَعْلَقُ فِي عِقْقِ الْكَلْبِ .
 (١٠) الشَّيْلُ : شَجَرٌ . الْبَيْتُ : الْخَلِيَّةُ .
 (١١) تَصِفُ دَرْعَهُ وَأَنَّهُ مَتْنٌ مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ ، وَيَشِيرُ
 كَثِيرَ الدَّرْعِ وَثَنَابَهَا بِتَدْرَانِ الْمَاءِ حِينَ هَبَّ الرِّيحُ (١٢) يَسْبُجُ : يَمْرُغُ . الْحَيْسُ : غَيْلُ الْأَسَدِ .

أقول لنفسي الدنية هبى طال نَوْمُكَ ، واستيقظي لاهز قومك ، أرضبتي بالعطاء المتزور^(١) وقمتي بالمواعيد الزور ، بقطعة فإن الجِدَّ قد هَجَعَ ، ونُجْمَةٌ فمن أُجْدَب انتجع .

ويشبه ابن القم في هذه القطعة بأبي العلاء من ناحية وبيديع الزمان الهمداني من ناحية أخرى ، أما تشبيه بأبي العلاء أو محاكاته له فتتضح في الألفاظ الغريبة التي يحشدتها في نثره ، وحتى الشعر يرى أن يختار أبياته من ذوات اللفظ الغريب ، على الأقل إلى حد ما . وكان بديع الزمان يزين رسائله بالأشعار ، وقد حاكاه في ذلك وفي تضمين رسائله بعض الحكايات القصصية ، حين شبه نفسه وتحسره على ما فقدته من قرب سبأ وقيامه على ديوانه بأمر تسعة فقدت ثمانية منهم ، وبقى لها ولد واحد ، هو كل أملها في الحياة ، فإذا غارة على الحى ، وركب ولدها فيمن ركبوا للدفاع والذود عن الحرم . وهي تصبح به من ورائه خائفة جزعة تريد أن ترده ، ويرأى لها في بطولته وبأسه وسلاحه ، وجبنا نحاول رده . ويلقاه من الأعداء فارس ، بل أسد هصور ، وتدور عليه الدوائر ، وتسمع صياح الخيل حين عودتها ، فتبرز من بيتها تسأل عن فلذة كبدها ، وتعرف أنه سفك دمه ، فتخرج إلى العراء باحثة عنه ، وتجدّه أشلاء ممزقة . فياللهول ويا للكارثة المفضة للمضاجع . ويقول إنه ليس أشد أسفاً منها ولا كمداً وتلهفاً على فقدته لعمله عند سبأ ولعطفه ورعايته . ويلوم نفسه أن ترك العمل بديوانه بل إنه ليعاتب سبأ عتاباً رقيقاً ، كله لطف ، ملوفاً له بحقه عليه ، وأنه قُرب إليه واصطنى من هم دونه في المرتلة الأدبية ، وكأنه يَعرّض عليه الصفح عنه والعفو ، آملاً في العودة ، إلى سابق مكاته ، وإنه ليصرح بأنه أُجْدَب ، وخلق به أن يتجع ، وأن يجد الوادى ممرعاً كمهده .

وإذا كنا قد وجدنا في اليمن كاتباً مبكراً يحاكي أبا العلاء وبيديع الزمان في بعض رسائلها فإننا نجد في حضرموت كاتباً يحاكي الحريري لا في مقاماته ، ولكن في بعض رسائله ، وكان الحريري قد اشتهر برسالة سينية جميع كلماتها من ذوات السين كتبها على لسان بعض أصدقائه يماثل فيها صديقاً أُخِلَّ به في دعوة دعا غيره إليها . وعلى غرار هذه الرسالة كتب السيد عمر السقاف الحضرمي رسالة سينية طويلة تقتطف من مطلعها قوله^(٢) :

« باسم السلام^(٣) أستبدى ، وبإسعافه أستهدى ، وبأسمائه أستنجد ، ولنفثات سره

(٣) السلام : من أسماء الله .

(١) المتزور : القليل .

(٢) تلخيص الشعراء الحضرميين ١٤ / ٣ .

استنشد، وبإسبال ستره أستظل، وبإسدال أستاره أستقل... تقدس سبحانه، وسما إحسانه، واستطال سلطانه، وأستعينه وأستصره، وأستقبله وأستغفره، وأستعيذه من دسائس إبليس، وسائر التلايس، وسطوة النفوس، وسؤال المنحوس... وأسأله التيسير، وسكون الفردوس لا السعير، وأسلم سلاما مستحرا، يلمس سيد السادات سنى السيرة، حسن السريرة، المحرس بلسنه المكنين، السالك سبيل أسلافه السائدين. وتغضى الرسالة فى ألفاظ مبعدة فى الغرابة، كى يدل الكاتب على مهارته، وهى ليست مهارة أدبية، ولكنها مهارة لغوية، وكانوا يعدونها زخرفاً وتنميقاً، ونحس كأن الكلمات يحرص بعضها بحوار بعض فى الرسالة، فهى صفوف سينية، أو هى صناديق سينية، نقرأ فيها سينيات، ولكن لا نقرأ فكراً ولا شعوراً، وقد كثرت فيها الجناس كثرة مفرطة. وكل ذلك محاكاة للحريرى ومحاولة للدنو من طريقته فى رسالته السينية وبيان القدرة على جمع الكلمات ذوات السين، مع ما يطوى فى ذلك من التصعب والتعقيد. ويقول من ترجموا له وكتبوا عن هذه الرسالة إنه كان لها دوى بعيد فى الأوساط الأدبية الحضرية، إذ عدوها طريقة غريبة وظلوا يتداولونها طويلاً. على أن الكثرة من رسائل الأدباء الحضرميين لم تكن تُقرب هذا الإغراب، بل كانت تكنى بالجمع، وقلما اصطفت الألفاظ الغريبة الآبدة.

ونترك حضرموت إلى البحرين، ونلتقى فى كتاب سلافة العصر ببعض رسائل لأدبائها، من ذلك رسالة كتب بها ابن أبى شابة البحرانى إلى ابن معصوم صاحب الكتاب، ونحس فيها بالتكلف الشديد منذ فواتحها، يقول (١):

«أنهى أبهى سلام، شدت بنجات السرور أطياره، وبدت على صفحات الدهور أنواره، وأصلح دعاو تماضدت شرائط إجابته، وترادفت وسائط إصابته، وسمت مصاعد قبوله، ونمت فوائد فروعه وأصوله، وأنفس ثناء ثببت بالوفاء وسائده ومسانده، وثبتت على الولاء قواعده ومقاعده، وخالص إخلاص حديث خلوصه قديم، وحظ خصوصه مستقيم، أخدم به... شمس سماء المحامد والفضائل، وغرة سماء الأماجد والأفاضل، ديباجة صفحتى الشرف والفتوة، ونتيجة مقدمتى الولاية والنوبة، صاحب ذبول العز الشامخ، وصاحب أصول المحدث الباذخ، مربع الكرم والجود، ومرتع الآمال والمقصود، الذى نيطت أعمدة فضائل أحبابه الفائقة بسلاسل أنسابه السامقة، وأصبحت كمرب أعراقه فى الكرم متناسقة، وشعوب أخلاقه فى المهتم متوافقة».

وتطرد الرسالة على هذه الصورة من الجناسات المتلاحقة ، وأكثرها يظهر فيه التصنع وأنه مجلوب لا لأداء معنى وإنما لأداء وَشْيُ الجناس ، إن صح أن يسمى هذا وشياً ، وما هو بوشى ، بل هو ألفاظ مترصّة ، قد وضعت متقابلة فكل عبارة تقابلها أخرى بعدد ألفاظها ، والعدد ليس كافياً ، بل لابد أن تكون موازنة لها موازنة تامة ، فكلمة « شدت بنغمت السرور أطيّاره » توازنها كلمة « بدت على صفحات الدهور أنواره » وكلمة « تعاضدت شرائط إجابته » توازنها كلمة « ترادفت وسائل إصابته » وفى أثناء ذلك ترصّ الجناسات رصاً ، فالوسائل تليها المساند ، والقواعد تليها المقاعد ، وعلى ذلك خالص وإخلاص وخلوص وخصوص . وكلمة « شمس سماء المهادم والفضائل » توازنها كلمة « غرة سماء الأماجد والأفاضل » وكلمة « ديباجة صفحتى الشرف والفتوة » توازنها كلمة « نتيجة مقدمتى الولاية والنبوة ». وناهيك بقدرة الكاتب على استخدام المثنى فى الكلمتين السالفتين واستخراج هذا التقسيم . ونحس وكأننا لسنا بإزاء عبارات طبيعية أو شبه طبيعية ، بل نحن بإزاء عبارات هندسية تقاس بالمسطرة والفرجار ، وقد حُشد الجناس بجميع صوره : جناس الاشتقاق والجناس الناقص ، وحُشد كثير من الاستعارات ، ولكنها متكلفة غاية التكلف على نحو ما يلاحظ فى وسائل الثناء ومسائده وكعوب الأعراف وشعوب الأخلاق . وهذه الصورة التى يسودها التصنع كانت شائعة فى البلاد العربية وخاصة فى حقب هذا العصر المتأخرة .

٤

مواظ وعظب دينية

لا ريب فى أن المواظ كانت مزدهرة فى مكة والمدينة طوال هذا العصر بحكم من كان فيها من الوعاظ الذين يخطبون الناس ، أو يلقون عليهم المحاضرات ، واعظين مذكّرين بالتقوى والعمل الصالح والاستعداد لليوم الآخر ، فالناس كأنهم سَفَرٌ وقوف ، وكل منهم ينتظر أجله ، ولن ينفع أحداً إلا ما قدمت بداه . وكان يفد على المدينتين المقدستين كثير من وعاظ العالم الإسلامى ، بل كاد أن لا يفوت واعظ منهم إلا بالمدينتين أو على الأقل بمكة حتى يؤدى فريضة الحج ، وكان كثير منهم يحاور بها أو بالمدينة ، ويتحول واعظاً فى الحرم المكي أو الحرم المدني . وكما كان الأدب العربى يترى ويَفْنَى لو أن الوعظ فى المدينتين سُجِّلَ فى الكتب وعُنى به من يحفظ عيونه . ولعله من الطبيعى أن نجد ابن ظفر الذى

مَرَبْنَا ذَكَرَهُ بَيْنَ شِعْرَاءِ الزَّهْدِ وَالتَّصَوُّفِ وَالمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ . يَتَحَوَّلُ بِكُتَابِهِ « سُلْوَانُ المَطَاعِ فِي عُدْوَانِ الْإِتْبَاعِ » وَاعْظَا ، وَعَادَةً يَذْكَرُ المَعْنَى ثُمَّ يَتْلُوهُ بِمَوْعِظَةٍ مُسْجُوعَةٍ ، تَمُتُّ بِهَا أحياناً آيَاتُ حِكْمَةٍ .

وَالْمَعْنَى الَّذِي يَلِمُ بِهِ « سُلْوَانُهُ » أَوْ سُلُوءُهُ وَمِنْ هُنَا جَاءَ اسْمُ الْكِتَابِ . وَكثيراً مَا نَجْرِي سُلْوَانَاتِهِ فِي شَكْلِ حُكْمٍ ، كَقَوْلِهِ فِي سُلْوَانَةِ النَّاسِ : « النَّاسُ جَنَّةُ البَلَاءِ ، وَسُنَّةُ الثَّلَاةِ . النَّاسُ دَرَجَ الاَصْطِبَارِ ، كَمَا أَنَّ الجَزَعَ دَرَكُ الثَّيَّارِ (الهلاك) . وَمِنْ قَوْلِهِ فِي سُلْوَانَةِ الرُّضَا : مَنْ رَضِيَ ، حَظَّيْ . مَنْ تَرَكَ الاِقْتِرَاحَ ، أَفْلَحَ وَاسْتَرَحَ . كُنْ بِالرُّضَا عَامِلًا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ لَهُ مَعْمُولًا ، وَسِرٌّ إِلَيْهِ عَادِلًا وَإِلَّا صَرْتَ نَحْوَهُ مَعْدُولًا . وَالكِتَابُ يَفِضُ بِالحُكْمِ الوَاعِظَةِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ : « مَا أُحْرَى المُلُولُ ، بَأَنَّ يُحَرَّمَ المَأْمُولُ . مِنْ لَزِمَ الرُّقَادَ ، حُرِّمَ المَرَادُ . التَّسَمُّ فِي الدُّنْيَا يَضَاعِفُ حَسْرَةَ زِيَالِهَا (مفارقتها) وَيُؤَكِّدُ غُصَّةَ اغْتِيَالِهَا . الهَوَى طَافِيَةٌ فَنَ مَلِكَةٍ ، أَهْلُكِهِ . الهَوَى كَالنَّارِ إِذَا اسْتَحْكَمَ انْقَادَها عَسَرَ انْخِدَادُها . الْغَرِيبُ مِيتَ الْأَحْيَاءِ قَدْ أَعَادَهُ السَّيْنُ ، أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ » .

وَتَحَوَّلَ مِنَ الْحِجَازِ إِلَى الْبَلَدِ ، وَتَلَقَّانَا فِيهَا المَوَاعِظُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ وَنَجِدُهَا فِي الرِّسَالِ وَفِي الوَصَايَا عَلَى شَاكِلَةٍ مَا نَقْرَأُ فِي وَصِيَّةِ الْمَلِكَةِ الحُرَّةِ الصَّالِحَةِ أَرْوَى بِنْتِ أَحْمَدَ ، وَهِيَ لَا شَكَّ مِنْ عَمَلِ بَعْضِ الوَعَاظِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي فَوَائِحِهَا ^(١) :

« لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى مُبْدِعُ الْمُبْدِعَاتِ ، وَخَالِقُ المَخْلُوقَاتِ ، جَلُّ وَعَلَا أَنْ تَنَالَهُ صِفَةٌ ، أَوْ تَدْرِكَهُ مَرَقَةٌ ، المَخْلَاقُ فِي قَبْضَتِهِ ، وَالْأَشْيَاءُ صَادِرَةٌ عَنْ أَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ ، لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا رَادَّ لِأَمْرِهِ ، إِنَّهُ العَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، وَالحُكْمُ الَّذِي لَا يَحِيفُ ، وَالصَّادِقُ الَّذِي لَا يُخْلَفُ ، وَالعَفْوُ الَّذِي لَا يُؤَاخِذُ ، خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَيْنِ ، وَإِلَهُ الأَوَّلِينَ وَالأَآخِرِينَ ، ذُو الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، وَالكَلِمَاتِ التَّامَّةِ صِدْقًا وَعَدْلًا . لَهُ مَلَائِكَةٌ انْتَخِبَهُمْ مِنْ بَرِيَّتِهِ ، وَانْتَخِبَهُمْ لِلْغَفَارَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المَصْطَفِينَ مِنْ أُمَّتِهِ (يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ) وَ(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفَعُونَ) . وَإِنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ ، خَلَقَهَا اللَّهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْ بَرِيَّتِهِ ، الخَافِضِينَ مِنْ سَطْوَتِهِ ، الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، المَصْدِقِينَ لوعْدِهِ ، المُوَفِّينَ بِمَهْدِهِ ، التَّابِعِينَ لِرِسْلِهِ ، الْعَامِلِينَ بِمَقْتَضَى آيَاتِهِ وَكِتَابِهِ . وَإِنَّ النَّارَ حَقٌّ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ جَحَدَ أَنْبِيَاءَهُ ، وَخَالَفَ أَوْلِيَاءَهُ . . وَتَمَادَى فِي غَيْبِهِ وَأَسْرَفَ فِي أَمْرِهِ ، وَأَصْرَعَ عَلَى كُفْرِهِ » .

وَهَذِهِ المَوْعِظَةُ فِي مَطْلَعِ الرُّسُومَةِ كَانَ وِرَاءَهَا مَوَاعِظُ كَثِيرَةٌ ، لَا فِي بَيْتَةِ الدُّوَلَةِ الصَّالِحَةِ

وحدها ، بل في بيئات كل الدول والإمارات التي كانت تعاصرها ، وأيضاً في الدول التي جاءت بعد ذلك ، ونقصد إمارة الزيديين ودولتي الرسولين والطاهريين ، حتى إذا أصبح الصولجاني في اليمن بيد الزيديين ظل الوعظ مزدهراً . وكانت ترفده دائماً خطابة الجمعة في المساجد والجوامع أسبوعياً ، كما كان يرفده المتصوفة ، ومن أشهرهم في عهد الرسولين أبو الغيث^(١) بن جميل الملقب بشمس الشمس المتوفى سنة ٦٥١ للهجرة ، وسئل عن الصوفي من هو ؟ فقال : « هو مَنْ صَفَّاهُ من الكدر ، وامتلأ قلبه من الخير ، وانقطع إلى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر^(٢) » . ومن دعائه : « اللهم إني أسألك يا روح روح الروح ، وبالبُّ لبُّ اللبِّ ، وبيا قلب قلب القلب ، هَبْ لي قلباً أعيش به معك ، فقد خلقت كلَّ ما هو دونك لأجلك ، فاجعلني ممن شئت من هذه الجملة » . وكان يعاصره أحمد بن علوان الذي مر ذكره وله في الوعظ كتاب نَحَى فيه منحى ابن الجوزي فلذلك يقال له جَوَزَى اليمن وله في التصوف فصول كثيرة^(٣) ، وله أتباع من الدراويش المعروفين في اليمن بالهذيب ، كانوا ينشرون هناك كلامه ومواعظه . ومر بنا في غير هذا الموضع حديث عن عبد الله بن أسعد اليافعي نزول مكة وشيخ الحرم بها وله شعر صوفي ومواعظ كثيرة . وصنف في الصوفية وتراجمهم - كما مر بنا - كتاباً سماه « روض الرياحين وحكايات الصالحين » .

وكان الوعظ مزدهراً في حضرموت ، إذ اشتهر فيها صوفيون كثيرون بمواعظهم ، غير من كانوا يعظون الناس وراءهم في المساجد وفي خطابة الجمع ، ومن أشهر متصوفيا أبو بكر العبدروس ، ومر بنا ذكره وبعض أشعاره الصوفية في حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وله نثر صوفي ووعظ كثير ، ومن قوله في الفرق بين الشريعة والحقيقة^(٤) :

« الحمد لله وهو الحامد لنفسه والمحمود ، ومنه انبثات القصد للقاصدين وهو المقصود ، خلق لعبده إرادة بإرادته وأثبتته ، حتى أقام عليه حجته ، وبإثباته له قام عليه أمره ونبيه وجازاه ، على مقتضى سعيه فتاداه : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَمَى) وتارة أقام نفسه وأخفاه ، فقال : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) فحصلت الحيرة ، وعميت الأبصار والبصيرة . فوفق من شاء من عباده للوقوف عند مكنون علمه ، فوقف مع الشريعة بحسبه ومع الحقيقة بقلبه ، فالعلم المتجلى على الجسم علم ظاهر ، وهو علم

(١) الفوائد اللزوية ١/ ١٠٧ .

(٣) الفوائد اللزوية ١/ ١٦٠ .

(٢) المدر : القطعة من الطين .

(٤) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١١٨ .

الشريعة ، والعلم المتجلى على القلب علم باطن ، وهو علم الحقيقة . فأقام ظاهر الإسلام على أركان ، القائم بها جوارح الأبدان ، وأقام حقيقة الإيمان والإحسان على يقين وبيان ، القائم بها صميم الجنان ، ولكن لما خفى عن الأسماع الحسية ما بالقلب جعل له ترجان وهو اللسان ، فارتبطت الشريعة بالحقيقة ، والحقيقة بالشريعة .

وأبو بكر العيدروس يشير في أول كلمته إلى الخلاف بين الجبرية القائلين بأن كل شيء قدر مقدور ولا مفر منه ، ولا حول ولا قوة للإنسان إزاءه ، وبين القدرية القائلين بأن كل عمل للإنسان إنما هو بإرادته وحرية وأن كل شيء إنما هو بمشيئته . ويقول إنها جميعاً حائزان ، ويضع فوقها أهل الحقيقة من الصوفية القائمين بأداء فرائض الإسلام وأحكامه ويسمى ذلك عمل الجوارح ، ويقول إنهم يجمعون بين هذا العمل وعمل القلوب وصدق شعورها الباطن الذي لا يفتش معينه إذ يستمد من المحبة الإلهية ورحيقها الصافي . ونصوفه بذلك تصوف سني كتصوف الغزالي وأضرابه ، ممن يقيمون تصوفهم على الجمع بين علم الشريعة الظاهر وعلم الحقيقة الباطن .

وطبيعي أن يكثر الوعظ في خطابة الخوارج الإباضية بعمان ، وقد وقف الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مراراً عند خطابة الخوارج من جميع فرقهم ، ونوّه بين الإباضية خاصة بخطابة أبي حمزة قائد عبد الله بن يحيى الكندي ، وروى بعض خطبه ، وهي تمتاز بألفاظها الطليّة ومعانيها القوية . ولا شك في أنه ظلت شاعات من خطابته وخطابة عبد الله بن يحيى وعبد الله بن إباض تدور في ألسنة خطباء الإباضيين بعدهم ، وتلقانا خطبة جمعة متأخرة في عصر إمامهم ناصر بن مرشد (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وهي تفضي على هذا النمط (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار ، وحكم بالقضاء على أهل هذه الدار ، وجعلهم أفراساً لسهام الأقدار ، ووكل بهم أفراساً ترعجهم من القرار ، وتجري منهم مجرى الدماء في الأبدان ، لا يعتصم منهم معتصم بالحديد ، ولا ينجس بها الفقراء دون ذوى اليسار ، بل هي آيات حديد عدل الله بها في البادين والحفّار ، أحمده على نعمه المسبلة الغزار ، وأعوذ به من العتو والاستكبار ، وأستغفره للذنوب والأوزار ، من الكبائر والإصرار . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منجية من عذاب النار ، مبرّئة من شهد بها دار القرار ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المختار ، أرسله بأعين شيعار ، وأبين فخار ، وأنور منار ، وأظهر إعلان وإسرار ، وأظهر

برهان وإنذار ، من صميم العرب في النصار^(١) ، وأكرمها في الفخار ، مؤيدا بالمهاجرين والأنصار ، منصورا بالملائكة الأبرار ، وعلى آله الأطهار ، آناه الليل وأطراف النهار : أيها الناس ! إن قوارع الأيام خاطبة فهل أذن لعظمتها واعية ، وإن فجائع الأحكام صائبة فهل نفس لعجائبتها مراعية ، وإن مطامع الآمال كاذبة فهل همه إلى التتره عنها داعية ، وإن طوابع الآجال واجبة فهل قدام إلى التردد من الدنيا ساعية .

وتستمر الخطبة في الوعظ بالموت وأنه لا ينجو منه الآباء الكبار ولا الأبناء الصغار بل الجميع بترت أعمارهم الدهور الغواير ، وابتلعتهم الحفر والمقابر . ومثل السلف الخلف ، فهم دائماً هدف للتلف . عظة ينهى أن يتعظ بها العاقل ، فينقذ ساعاته في التقوى والعمل الصالح . وتعود الخطبة إلى الصلاة على الرسول ﷺ وعلى آله قائلة : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما ذكر شارق^(٢) ، وأومض بارق ، وفاه ناطق ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد بعدد أنفاس الخلائق ، وبعدد ما في السموات السبع الطرائق ، وبعدد ما خلقت وما أنت خالق » . ثم تسترل الخطبة الرضوان على صاحب الرسول في الغار ورفيقه في الأسفار ، معدن الجود والفخار ، سيد المهاجرين والأنصار . أول ساع إلى شرف الصديق ، أبي بكر الصديق ، وأيضاً على جميع المؤمنين من الأولين والآخرين . والخطبة مبنية على السجع ، وليس ذلك فحسب ، فإن منشأها تكلف في الأسجاع الأولى أن يلترم فيها الرأء دلالة على مقدرته البلاغية ، حتى إذا انتهى من التحميد والشهادة والتحميد لله ولرسوله وأخذ في الوعظ بنى قوافي أسجاعه على الألف والعين والتاء ، فواعية تليها مراعية وداعية وساعية ، ورأى أن يضيف إلى ذلك قافية داخلية في العبارات أو السجعات ، فكلمة خاطبة في السجعة بأعلى هذه الصفحة تقابلها في السجعات التالية كلمات صائبة وكاذبة وواجبة ، فكانت السجعات المتوالية لا تتوازن خارجياً في القوافي النهائية فحسب ، بل تتوازن أيضاً داخلياً ، إذ تتقابل فيها قوافي تتوسط العبارات ، وكأن كل قافية متوسطة تطلب قرينتها في العبارة أو العبارات التالية .

وإذا كانت المصادر لم تسفنا بمواعظ أو خطب دينية في البحرين فإنه مما لا شك فيه أنه دُبِجت هناك خطب ومواعظ كثيرة شأن البحرين في ذلك شأن نجد وشأن جميع البلاد العربية في الجزيرة ووراء الجزيرة إذ كان الوعظ دائماً قائماً ، كما كانت الخطابة في المساجد يوم الجمعة قائمة لأنها جزء لا يتجزأ من الصلاة وكانت في جملتها مواعظ خالصة .

(٢) الشارق : الشمس .

(١) النصار : الذهب والفضة من كل شيء .

معاورات ورسائل فكاهية ومقامات

تلقانا في الحقب المتأخرة من هذا العصر باليمن معاورات ورسائل فكاهية متنوعة ، من ذلك معاورة لعل بن صالح بن أبي الرجال جعل تاريخها سنة ١٠٨٥ للهجرة بين مسجد المذهب والمدرسة المرادية ^(١) ، وكان المسجد قد بناه العثمانيون قبل مغادرتهم الأولى لليمن سنة ١٠٤٥ وأصبح في حال رثة فلا فراش ولا سراج ، فشكا حاله لمسجد جناح ، فأشار عليه من باب النصيحة ، لما بينهما من المودة الصحيحة ، أن يتزوج بمدرسة من مدارس الأتراك ، إذ النساء مصاييح البيوت ، وفوض له مسجد المذهب اختيار المدرسة التي يراها كفوًّا له ، وأشار عليه بإحدى مدرستين : البكيرية فريدة العصر ، أو المرادية خريدة القصر . وذهب معه إلى البكيرية ، فلما عرض عليها مسجد جناح الأمر أعرضت مدلةً ، وقالت له : اخرج يا جناح أنت والمذهب ، قبل أن تُصَفَّع وتُضْرَب . وخرجنا ، وجناح يمثل بقول ذى الرمة :

على وجه مئى مسحة من ملاحه وتحت الثياب الغزى لو كان باديا
ونفصا إلى المدرسة المرادية ، وأفهمها جناح أن المذهب جاء معه لخطبتها ، وأنه نم الرجل الصالح ، العاقل الراجح ، فقبلت واشترطت على المذهب مفرشتين (سجادتين) تستر بهما وتجميل ، وقنديلاً تتنفع به ليلة تتأهل . ويمضى على بن صالح قائلاً :

« فقال المذهب : من هذا كنت أحاذر ، فلت على تمصيلها بقادر ، فالمفارش غالية ، وليس عندي غير بسط بالية . فقال له جناح : أشهد أنك رجل وقاح . أما علمت أن المفارش كسوة أمثالا ، وأنه لا يخطر البساط بيالها ، وسأشير عليك بما بأسو جراحك ، وبريش جناحك ، فقال : سمعاً لأمرك ، وطوعاً لحكك . فأمرنى بما تراه ، فإني لا أتمدأه ، فقال : قد علمت أن البكيرية طردتك ، وتهددتك بالضرب وتوعدتك ، فإذا كان جثع الظلام ، وقد هجع النّوام ، انسلت انسلال الخائف الدليل ، وأخذت منها مفرشتين وقنديل ^(٢) فقال : قد أشرت بما فى النفس ، فإني مُهَمِّمٌ به من أمس . فلما نشر الظلام ثيابه ، ومدّ على الأنام جلبابه ، خرج من محله وانسل ، وسقط عليها سقوط الطل ، فأخذ المفرشتين والقنديل ، وعاد إلى منزله فرحاً بالتحصيل ، ولما أسفر ضوء

(١) نشر العرف لنيلاء اليمن بعد الألف لابن زبارة (٢) الكلمة منصوبة وترك نصباً للصح .

الصباح أشار إلى مسجد جناح ، بأن المطلوب قد حصل ، فانهض بنا لنمّ العمل . فحملا إلى المرادية ما اشترطته . . .

ونمضي المحاور ، فذكر أن بعض الدواوين المجاورة للمدرسة المرادية توصل إليها بماله من حق الجوار أن يحمل مسجد المذهب له مفرشةً وتديلاً . يقول علي بن صالح : « فقال له جناح : عاودُ ذلك المثل ، فلملك تظفر بالأمل . وقد كانت البكيرة جمعت من حولها من المساجد القريبة ، وطلبت منها الرأي في دفع هذه المصيبة ، فأجمع رأى المساجد والمدارس ، على أن يستأجروا لها حارس^(١) » فقالت : على تحصيل الأجرة ، وعليكم تحصيل رجل من أهل الخبرة ، فاختاروا لها مسجد عقيل ، وقالوا لها : هذا نعم الحارس والتزيل . فلما جئنا الظلام وجمع التوام ، أقبل مسجد المذهب ، وهو خائف يتربّص ، فخرج عقيل ومن حوله من المساجد ، وحمّلوا عليه حملة رجل واحد ، فهرب من بينهم وفرّ ، فما قعد في مجلسه ولا استقرّ ، حتى وصلت إليه المساجد على الأثر وهتف بها أن عقيلاً ومن معه يغيرون عليه ، فأقبلوا يهزّعون إليه ، واشتد بينه وبين المساجد الخصام وكثر الكلام والزحام ، فقال : اعلّموا يا جيران ، أني راقد بمكاني ، فأت المساجد في جنح الدياجي ، تريد^(٢) تسرق بساطي وسراجي ، فأعينوني على الحق ، وأدركوني ولما أمزق ، فرجع كل مسجد إلى مكانه . واجتمعت المساجد عند البكيرة في الليلة الثانية ، ليتفاوضوا في دفع هذه الداهية ، فأجمعوا على أن يحفروا للمذهب حفرة في أرض ، بقدر طوله والعرض ، وأن يربطوا الشباك إلى جانب المثذنة والشباك . فسكت عنهم أيام^(٣) ، ثم أقبل على حين غفلة من الأنام . . فوقع في تلك الشباك ، وكاد أن يشرف على الهلاك .

ونمضي على بن صالح في المحاوره ذاكراً أن المساجد تجمعت من حوله ، وكل منها يشكو حاله وكيف أنه صابر على ما صار إليه من الشدة ، منتظراً انقضاء المدة ، وأخذت المساجد تضربه وتركه ، وافدة عليه رعيلا في إثر رعييل ، وهو بينهم كالأسير ، قد غلبه البكاء والزفير . وبعد محاورات ومداورات يحن عليه مسجد الإمام ويرق لشكواه ، ويدعو له المدرسة المرادية في الحال . وأقبلت تبخر في ثيابها تائهة على أترابها . ويهجم عليها في غير حياء . فتغضب المساجد ، وتقدمه إلى الجامع الكبير ليعظه . ويعزم على الرحيل ، وبأسي مسجد الإمام له . لافتتانه بالمرادية ويطلب إلى مساجد الأبرز وطلحة والأبهر أن تتوسط له

(١) ترك النصب للسمع .

(٢) لم ينصب كلمة حارس للسمع .

(٣) حذف أن بين الفعلين كما تحذفها العامة .

لدى المرادية ، فنهضوا إليها . وعرضوا الكلام عليها ، فرفعت النقاب ، وقالت : ما أشار به مسجد الإمام فهو الصواب ، وتقول : « على أن ما عند المذهب من الغرام إلا بعض ما عندي ، وكاد الهوى أن يخرجني عن جلدي . . وإني كنت لا أصلح لثله ، ولم أكن قد تزوجت من قبله ، فقد أردت معرفة هذا الأمر ومعرفة الشيء خير من جهله ، واشهدوا بأنني قد وكلت مسجد الإمام ، يعقد لي بالمذهب ، قبل أن يتبع هواه أو يترهب . . وعقد لها مسجد الإمام بعد ما سمع شهادة الحاضرين وقال : بالرفاء والبنين . »

والمحاورة طريفة في فكاهتها خفيفة في ألفاظها وأسجاعها ، وهي تمتد إلى نحو اثنتي عشرة صحيفة ، ولها قيمة تاريخية ، لأنها تصور ما أصاب مساجد صنعاء في عصر الكاتب من عدم العناية بفرضها ومصاييحها وتجهيزها أو طلائها بالجير وترميم جدرانها وما تأكل من حيطانها ، ولعل بن محمد العنسي المترجم له بين الشعراء رسالة فكهة ، كتبها على إثر أمر للإمام الزيدى القاسم بن الحسين (١١٢٨ - ١١٣٩ هـ) الملقب بالمتوكل أمر به الفقيه الزهوانى أن يعطيه عشرين قلدحاً من الشعر ، وقد سماها : الروض الأقحوانى في الشعر الزهوانى . وكان قد أعطاه أربعة أقداح وأخذ يطله ويؤجله في البقية فكتب إلى القاسم بن الحسين متفكها^(١) :

« مولاي حامى حمى الدين ، وحافظ يثضة المسلمين ، خلد الله إقباله ، وضاعف جلاله ، حوّلتم للمملوك بعشرين قلدحاً على الفقيه الزهوانى ، الذى لا تقبض الحوالة منه إلا بالأمانى ، فسلم للمملوك منها أربعة أقداح شعير كان قد سها عنها خازن الإمام صلاح الدين فى ذلك العصر ، فتركها فى زاوية من زوايا القصر ، ثم مرّت عليها الأعوام والدهور . . وغمرها التراب إلى كعب الشراك^(٢) . لما استولت على اليمن علوج الأتراك . ثم لاحت أنوار الدولة القاسمية التى لبس الدهر بها شبابها ، وزان جبينه بأشرف عيصابه . وقد صار ذلك الشعر دفيناً تحت ترابه . وقد ذهب لجه لطلول المدة فلم يبق غير إهابه . ثم تعاقبت على المهنز أيدى الخزان ولكنهم لم يبلغوا فى التحرى والتفتيش ما بلغه هذا الرجل النصيح ، ذو الطبع المرمى والخلق الشحيح ، فإنه لفرط الأمانة لم يترك التلفت على الزوايا ، ولا أهمل المثل السائر : كم فى الزوايا من الخبايا ، فعثر فى بعض لفئاته على تلك الزاوية التى اشتد ظلامها ، وخفيت أعلامها ، فرأى شيئاً مجموعاً ، وتلاً مرفوعاً . . فلاحته له منه شعيرة بغير شعوره ، أسرف لأجلها فى حُبوره ، وتصحيف سروره^(٣) ، فأمر بإثارة ذلك الكتر

(١) تصحيف سروره : يقصد سروره .

(٢) نشر العرف ٢ / ٢٩٥ .

(٣) الشراك : الخداء .

المدفون ، والدفين المخزون . ثم غير^(١) ، فحصل منه أربعة أقذاح ، فجاءت وفق الاقتراح ، واتفق لواء الحفظ حضور الرسول الغريب^(٢) ، حال بُعث من مرقده ذلك الشعر ، فكيل له في الفراش^(٣) على غيرة ، وقبل له : خُذها ، واحذر العود بعد هذه المرة .

والفكاهة واضحة في الرسالة ، وهي تلعب ولا تخرج ولا تدمي ، فكاهة تحمل حيناً دعابة وحيناً سخرية خفيفة ، دون أن تؤذي ، وقد أنهاها بقطعة شعرية بديعة . وكانوا يُلبسون أحياناً الفكاهة ثياب قضية طريفة كأن نجد يحيى بن إبراهيم الجحّاف يسوق سؤالاً^(٤) عن صديق عاهده على التعاون ، وخاصة حين تبسم له هو الدنيا ، وتعبس في وجه صديقه ، فإنه حينئذ يد يد العون ولا يتركه لمن الدهر تعصف به ، غير أن هذا الصديق لم يف بهمه : وإنه لسأل علماء العدل وقضاة الإحسان وحكام الإنصاف ومشايخ المروءة ما يقولون في صديقين نفذيا بلبان المحبة واستظللا بظلال الصداقة جمعتهما أخوة الأدب التي هي أوثق من أخوة النسب ، وأقبلت الدنيا على أحدهما وأدبرت عن صاحبه ، فتناساه وأهمله ، فما حكمه ؟ يقول : « فهبت لأحدهما ريح الإقبال ، ولمت له لعة سعد ، وأمطرته سحابة خير . . . وثق الثاني في ظل العفو وروض العافية . . . يسبح من حسن الظن في غير ماء ، ويطير مع طول الأمل بغير جناح . . . إن التفت بمئة وجد محنة . أو نظريسة رأى حسرة ، أو حاول به اللحاق . احتاج إلى البراق . وقد كان يقسم بالله الذي وسعت العباد رحمته ، وشملتهم نعمته أنه إذا أثبت له الوسادة ، ولاحظته عين السعادة ، وخرج من زاوية الخمول ، وطلع نجمه بعد الأقول . . . ليبلغته من الخيرات ما لا قلبٌ فكّر فيه ، ولا لسان نطق به ، ولا جارحة تكلفته ولا عين رآته ولا أذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر قط . فافتونا مأجورين مثابين إن شاء الله تعالى : ما الذي يجب في شريعة المودة ، وُسْنٌ في دين الفتوة ، ويُنْدَب في ملة الوفاء ، وبياح في فقه الرف . . . وهل من قوة تعلمونها لهذا الصاحب . . . »

والقضية طريفة ، وهي قضية اجتماعية ، فكم من صديق تعاهد مع صديقه على البر والتعاون ، وخاصة حين يرزق السعادة ، فإنه لن يترك صديقه يعاني بؤس الحياة ومرارتها ،

(١) غير : كال من الكيل .

فيه الشعر ونحوه .

(٢) الغريب : الغر الذي لا تجربة له .

(٣) الفراش : جمع فراشة . وهي وعاء من الخشب يحمل

بل سيأخذ بيده ، ويكون عند وعده له بالتكافل والتضامن . حتى إذا أقبلت الدنيا عليه لم يذكر صديقه ، وكأن لم يكن بينها عهد ولا وعد ولا أخوة ولا مودة وثيقة .

وتلقانا - من حين إلى حين - مقامات فكهة ولكن لا بالصورة التي تركها الحريري وإنما بالصورة التي تطورت إليها فيما بعد من المناظرات بين الموضوعات المتقابلة كالصيف والشتاء ، قصداً لبيان القدرة الأدبية ، وفي الجزء الرابع من نفحة الرحمة مقامة طريفة للسيد محمد بن حيدر على لسان الفقر والغنى جعل فيها الفقر يتفوق على الغنى في العلم ونخصيله .

القسم الثاني
العِراق

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

البويهون والسلاجقة والخلفاء العباسيون

البويهون^(١) أسرة فارسية تنسب إلى بويه ، وهو فارسي ديلمى ، ويقال إنه كان صياداً على بحر قزوين ، وكان أبناؤه على والحسن وأحمد من حوله يَحْتَطِيون . ونراهم حين صار إليهم الملك بنسبهم المؤرخون - مَلَقًا لهم فيما يبدو - إلى الملك الساساني بهرام جور . ومهما يكن فقد التحق بويه وأبناؤه بخدمة ما كان بن كاكى ، حتى إذا انتصر عليه مرداويج الزيارى صاحب جرجان تحولوا إليه ، وأيدوه في حروبه ضد الدولة العلوية الزيدية بطبرستان ، فولّى عليها الكَرَج في الجنوب الشرقى من هَمْدَان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث على أن استولى على فارس وأرجان واتخذ شيراز مقراً له . وقُتل مرداويج في سنة ٣٢٣ فاستولى هو وأخوه الحسن على أَصْفَهَان والرِّى اللّتين كانتا تابعتين له ونولى الحسن شتونها وشئون بلاد الجبل ، واستولى أخوها أحمد على كَرْمَان ، وظل يتقدم تدريجاً نحو الغرب حتى استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ ومضى يتقدم حتى استولى على واسط ، وفي هذه الأثناء كانت الجاعة تهدد بغداد ، وكان الجند الأتراك ثائرين على الخليفة وقواده لمجزة عن دفع رواتبهم ، فوجد أحمد الأبواب جميعها مفتوحة إلى بغداد فدخلها في جمادى الأولى سنة ٣٣٤ . ورحَّب به الخليفة المستكنى منفذاً ومُغْلَصاً ، ومنحه إمرة الأمراء ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه علياً صاحب فارس وشيراز عماد الدولة والحسن صاحب بلاد

القرن الرابع الهجرى لآدم ميتر (طبعة القاهرة) ص ٢٧ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٤٤ وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشوارى ومادة بويه في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في الدولة البويهية مجارب الأمم لمسكويه وذيله لأبى شجاع والمتنظم لأبى الجوزى وتاريخ أبى الأثير وابن خلدون والنجم الزاهرة لأبى نحرى يردى وأحسن التقاسيم للمقدسى في مواضع متفرقة وابن خلدون في تراجم أمراءها وكذلك الجزء الثانى من كتاب البهجة للضاللى وابن طباطبا (النحرى في الآداب السلطانية) والحضارة الإسلامية في

الجبل ركن الدولة ، وضربت ألقابهم على السكّة ، وذكرت أسمائهم وألقابهم مع الخليفة في خطبة الجمعة . ومن حيثذ بالغ البويهيون في الألقاب الفخمة يُصفونها على أنفسهم وعلى وزراءهم . . ولم يكد الشهر التالى لدخول معز الدولة بغداد يتقدم حتى خلع المستكنى وسُبلت عيناه ، وولى الخلافة بعده ابن عمه المطيع لله ، ولم يكن له ولا لمن تلاه من الخلفاء العباسيين في عهد البويهيين حَوْل ولا طَوْل ولا سلطان إلا ما كان من ذكر أسمائهم في خطبة الجمعة وعلى السكّة المضروبة . وكأنما أصبحوا مجرد صنائع في أبدى البويهيين يسبقون عليهم الرواتب بالمقدار الذى يريدون .

وظل معز الدولة بلى شئون بغداد والعراق والأهواز وكرمان إلى أن توفى سنة ٣٥٦ وخلفه ابنه عز الدولة بِخُتْيَار ، وكان شديد البأس شجاعاً يملك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك ، وتزوج الخليفة الطائع ابنته شاه زمان فى سنة ٣٦٤ على صداق قدره مائة ألف دينار . وكانت ولاية فارس قد صارت إلى ابن عمه عضد الدولة ابن ركن الدولة منذ وفاة عمه عماد الدولة سنة ٣٣٨ للهجرة إذ لم يترك ولداً . قالت ولايته إلى أخيه ركن الدولة ، فنحها ابنه عضد الدولة . وتوفى ركن الدولة سنة ٣٦٥ وجعل لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرجان وشيراز ، ولأخيه مؤيد الدولة الرى وأصفهان ، ولأخيهما فخر الدولة هَمْدَان والدَبَّيْر ، وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، ولم تلبث الأمور أن سامت بينه وبين بختيار ابن عمه معز الدولة ، فاشتبك في حروب ، قُتل فيها بختيار في شوال سنة ٣٦٧ . وبذلك دخلت بغداد وما تبعها من العراق فى حوزة عضد الدولة منذ هذا التاريخ .

وعضد الدولة هو أعظم ملوك بنى بويه ، إذ بلغ سلطانه من سعة الملك ما لم يبلغه أحد من أسرته وهو أول من خطب له - فيما يقال - على منابر بغداد بعد الخلفاء وأول من لُقّب بشاهنشاه (ملك الملوك) فى الإسلام وأصبح البويهيون بعده يلقَّبون بهذا اللقب ، وكلنت فيه قسوة شديدة ، وما يصور ذلك رمية بابن بقية الوزير تحت أرجل الفيلة حين سلّمه إليه بختيار لأمر سأمته ، فقتلته بأرجلها شر قتلة . وقد قضى على لصوص الطرق قضاء مبرما وأعاد الأمن إلى نصابه فى صحراء كرمان وصحراء جزيرة العرب ، ورفع عن قوافل الحجاج الجباية واحترمهم الآبار فى سبلهم إلى مكة وأدار على مدينة الرسول ﷺ سوراً حصينا ، وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها وابتدأ بعمارة المساجد ، وألزم أصحاب العقارات تشييد بيوتهم وأقرض من قصرته يده من بيت المال وخاصة من كانت بيوتهم تقع على شاطئ دجلة ، وعنى بالبساتين فامتلأت خرابات بغداد بالزهر والخصرة ، وجلب

إلى بغداد الفروس في سائر البلاد ، وعُني بجداولها وجسورها ، وأنشأ سوقاً للبرازين . وبني مارستاناً كبيراً ببغداد ، وأجرى الرواتب على العلماء من كل صنف ، وكان عادلاً سيّوساً يحسن اختيار ولائه وعمله ، وكانت جريباته متصلة على الفقراء والمساكين . غير أن مدة حكمه لبغداد والعراق لم تطل ، فقد توفي سنة ٣٧٢ ، وكانها لم تنمأ بحكمه إلا خمس سنوات متصلة . وكان قد قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة : شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة ، وهو تقسيم أثبت الأيام دائماً أنه نذير بضياع الدولة واختلال شئونها ، وتولى شئون بغداد والعراق صمصام الدولة يعاونه وزيره أبو عبد الله بن سعدان صاحب أبي حيان ، ولم ينجح أمر صمصام الدولة وغلب عليه أخوه شرف الدولة سنة ٣٧٦ وقهره وحبه وأخذ بغداد منه ، ويتوفى شرف الدولة سنة ٣٧٩ بعد أن عهد بالملك لأخيه بهاء الدولة وضياء الملة الذي ظل حاكماً لبغداد والعراق حتى وفاته سنة ٤٠٣ وكان - كما يقول المؤرخون - ظالماً غشوماً سفاكاً للدماء ، وقد قبض على الخليفة الطائع سنة ٣٨١ وخطمه من الخلافة ، وولاه القادر بالله ، ولم يكن في ملوك بني بويه أعظم منه ولا أقبح سيرة ، ويقال إنه جمع من المال ما لم يحصيه أحد . وتوزعت الدولة بعده بين أبنائه الأربعة : مشرف الدولة وقوام الدولة وجلال الدولة وأبي شجاع سلطان الدولة وهو الذي ولي بغداد بعد أبيه بعهد منه ، وظل على شئون ولايته حتى سنة ٤١٢ حين عظم أمر أخيه مشرف الدولة وعلت كفته ، فخطب له ببغداد في الحرم وخوطف بشاهنشاه . ويدور العام ، فيتم الصلح بين الأخوين ، ويعود ذكر سلطان الدولة إلى الخطبة ، ويتوفى سلطان الدولة في سنة ٤١٥ ولا يلبث أخوه مشرف الدولة أن يتوفى بعده في سنة ٤١٦ وتصبح بغداد خالصة هي والعراق لأخيهما جلال الدولة ، ويستورز أباسعيد بن ماكولا ، ويلقبه علم الدين سعد الدولة أمين الملة شرف الملك ، مما يصور مدى تغالي البويهيين في الألقاب . ويطول حكم جلال الدولة حتى وفاته سنة ٤٣٥ ويختل الحكم في أيامه ويختل السلطان حتى يبلغ من ذلك أن يستولى العيارون والصوص على بغداد سنة ٤٢٦ ويفعلون بها أفعالا قبيحة ، واختلت الشئون المالية ، وبلغ من سوء اختلالها أن باع جلال الدولة ثيابه وماعونه بيته وآلاته في الأسواق ، وخلت داره - كما يقول ابن الجوزي - من الحجاب والفراشين والبوابين . وخلفه أبو كاليجار بن سلطان الدولة حاكم فارس والأهواز ، وكان شجاعاً فانتكا مشغولاً باللهو ، وفي عهده أخذ المذللون يزداد حتى شمل أكثر إيران ، مما جعله يموت غماً سنة ٤٤٠ ويخلفه ابنه أبو نصر الملقب بالملك الرحيم ، وبلغ من ضعفه أن جرّده أحد قواده الأتراك ، ويسمى البساسيري ، من سلطانه

كله ، وأحسن الخليفة العباسي القائم بأمر الله بخطره ، وعرف أنه يكتب سراً الخليفة المستنصر الفاطمي بمصر ، وأنه يدبر أمراً خطيراً . وكانت الدولة السلجوقية قد أخذت يعظم شأنها في خراسان بقيادة طغرل بك ، ودانت لها خراسان وشطر كبير من إيران ، فكتب إليه الخليفة يستنصه إلى السير إلى بغداد سنة ٤٤٦ ، وأمر أن يذكر اسم طغرل في الخطبة وعلى النقود قبل اسم الملك الرحيم . ولم يلبث أن دخل بغداد وقضى نهائياً على الدولة البيهقية . والسلاجقة^(١) شعبة من الأتراك الغز الذين أخذوا يُغيرون بقيادة زعيمهم سلجوق منذ سنة ٤٢٠ للهجرة على حدود إيران الشمالية والشرقية ، جاءوا من التركستان إلى بلاد ما وراء النهر ، وكانوا يقضون مشاتهم بالقرب من بخارى ومصيفهم بالقرب من سمرقند . وقد اعتنق سلجوق الإسلام السني وتبعته قبيلته . ويقال إن السلطان محمود الغزنوي دعاهم إلى الإقامة في الأقاليم المحيطة ببخارى ، غير أنه عاد فوجس منهم شراً ، مما جعله يأمر بالقبض على إسرائيل بن سلجوق ، وحجبه في قلعة بيلاد الهند ، ظل بها حتى مات . وتوفي محمود . وفكر السلاجقة في الثأر فانقضوا على بخارى . وهزموا جيوش مسعود بن محمود . وأعلن طغرل بك نفسه ملكاً على خراسان في صيف سنة ٤٣٠ للهجرة ، ودانت له مرو ونيسابور ، ولم يلبث مسعود أن توفي سنة ٤٣٢ فتمكنوا من الاستيلاء على بقية خراسان واستولوا على طبرستان وسجستان وهرات وبُست وأخذ طغرل يولّي أبناء أسرته وعمومته على البلاد ، واتخذ الرئي حاضرة له . واستنجد به الخليفة القائم بأمر الله كي يضبط بغداد على نحو ما أسلفنا ، فدخلها في سنة ٤٤٧ وهرب منها الباسيري ، وخلع عليه الخليفة خلعاً سنياً وأجلسه على العرش إلى جواره ، وألبسه حلة فاخرة ، وكان الباسيري قد قرأ إلى الشمال فتعقبه طغرل بك حتى الموصل ، واضطر أن يتركه إلى حرب أخ لأمه يسمى إبراهيم بن يتال خرج عليه في همدان ، وعرف الباسيري كيف يستغل الفرصة ، فوضع يده في يد أحد أمراء بني عُقيل ، وهو قريش بن بدران ، واستولوا على بغداد وأمر الخطباء على منابرها بذكر اسم المستنصر الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة ، وكذلك صنعا بما استولوا عليه من

(١) لابن خلكان في تراجم سلاطينهم وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السطرى (ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشولري) وسلاجقة إيران والعراق للدكتور عبد النعم حسن (طبع القاهرة) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٧١ ومادة السلاجقة في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في السلاجقة تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن خلدون وابن تلي بردي في مواضع متفرقة وكتاب راحة الصدور في تاريخ الدولة السلجوقية للراوندي ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشولري والدكتور عبد النعم حسن (طبع القاهرة) ومجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة نشر حرتسا بلدين وتاريخ دولة آل سلجوق للهاد الأصيلاني (مختصر البنداري) وولايات الأحيان

المدن . وأخرج الباسمى الخليفة من بغداد إلى عانة من مدن الجزيرة ، ولكن طفرل لم يلبث أن عاد إلى بغداد وأعاد إليها الخليفة وقضى على هذه الفتنة قضاء مبرماً ، مما جعل الخليفة يلقبه بلقب ملك الشرق والغرب .

وطُفُرُل هو أول ملوك الدولة السلجوقية العظام ، وكان شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازماً حريصاً على أداء واجباته الدينية ، وتوفى بمدينة الرى سنة ٤٥٥ فخلفه ابن أخيه ألب أرسلان بن جُفْرِى بك ، كان اسمه بالعربية عمداً ، ولُقِّبَ بالملك العادل ، ويقال إنه أول من لُقِّبَ بالسلطان من بنى سلجوق ، وذكر على منابر بغداد ، وكان شجاعاً مطاعاً ، وهو أعدل بنى سلجوق في الرعية ، وقد وسع حدود مملكته من الصين شرقاً إلى الشام غرباً ، وقد استولى على ما بيد الفاطميين من البلاد حتى دمشق ، وقاد حملات مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ في موقعة دمر فيها الجيش الرومى تدميراً . ويقال إن جيشه لم يكن يزيد على خمسة عشر ألف محارب بينما كان الجيش الرومى في تلك الموقعة يتألف من مائتى ألف رجل من يونان وأرمين وقوقاز وروس وغيرهم . وقضى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، وعقد معه ألب أرسلان معاهدة لمدة خمسين سنة ، على أن تلبى جنود الروم إذا طلبها ، وأن تُرَدَّ إلى أسرى المسلمين حرياتهم . وكان مدبر مملكته وزيره نظام الملك ، وكان حصيفاً وافر العقل ، وسياسياً حكيماً بصيراً بتدبير الأمور ، محبا للعلم ، وقد بعث في دولته نهضة علمية أسس لها مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية ، أقامها في كثير من البلدان ، وعنى خاصة بمدرسته النظامية ببغداد واستقدم لها العلماء من نيسابور وغيرها وفي مقدمتهم أبو إسحق الشيرازى والغزالي وغيرها من كبار العلماء . وخلف ألب أرسلان حين توفى سنة ٤٦٥ ملكشاه ابنه ، وكان شاباً في الثامنة عشرة من عمره ، فأحكم له نظام الملك شئون دولته وقرق البلاد على أولاده ، وجعل مرجعهم إلى ملكشاه . وكان مظفراً ، استولت جيوشه على كثير من البلاد ، حتى قبل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين ، فكانت مملكته تشمل على جميع بلاد ماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الروم والجزيرة والشام ، وكان ملكه يمتد من مدينة كاشغر - وهى أقصى مدينة للترك - إلى بيت المقدس طولاً - كما يقول ابن تغرى بردى - ومن بحر قزوين والقسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً .

وكان من أحسن الملوك سمة ، وبالمثل كان وزيره نظام الملك ، ويروى أنه لما تسلمن خرج عليه همه « قاورد بك » صاحب كَرَمَان ، فحاربه وأخذه أسيراً فلما مثل بين يديه قال له : أمراك كاتبون وأبرز له مكاتبات ، فأخذها ملكشاه وأعطاها إلى وزيره نظام

الملك ، فتناولها منه وألقاها في موقد نار كان بين يدي ملكشاه فاحترقت . فسكنت قلوب الأمراء وبذلوا الطاعة ، وثبت ملكه بهذا الصنيع الجميل لنظام الملك . وكان ملكشاه مولعاً بالعمائر ، فعمّر الأسوار والقناطر وحفر الأنهار ، وأبطل المكوس في جميع بلاده ، وأقام مصانع الماء بطريق مكة وأنفق عليها أموالاً طائلة ، وهو الذي عمّر جامع السلطان ببغداد سنة ٤٨٥ وكانت الطرق في أيامه آمنة ، تسير القوافل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في مملكته وليس معها خفيـر .

وتزوج الخليفة المقتدى بآبته سنة ٤٨٠ . ويقول ابن خلـكان : كان اليمن والبركة مقرونين بناصيته ، وكان إذا دخل بغداد أو أصبهان أو أى بلد من البلاد دخل مع عدد لا يحصى لكثرته ، فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله . ويتكسب المتعشون مع عسكره الكسب الكثير . وكان ينفق الأموال الكثيرة على المدارس والرباطات . وتوفى ببغداد في شوال سنة ٤٨٥ وحُمل تابوته إلى أصبهان ودفن في مدرسة موقوفة على الشافعية والحنفية . وبه ينتهى عهد السلاجقة العظام ، وخلفه ابنه بركياروق ، وكان أخوه السلطان سينجرنائبه على خراسان ، ودخل في حروب مع أخيه محمد صاحب أذربيجان ، وكانت كفته دائماً الراجحة ، وحاربه عمه تئش صاحب دمشق ، وقُتل في بعض المعارك . ودوّخ الإسماعيلية الباطنية في إيران ، وقتل منهم كثيرين ، وكان على المهمة إلا أنه كان مولعاً بالشراب والإدمان عليه وتوفى سنة ٤٩٨ . وخلفه أخوه محمد ، وله وقائع مع الإسماعيلية وانتصارات متوالية استولى فيها على بعض حصونهم ، ويقول ابن خلـكان : « له الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة والبر بالفقراء والأيتام والحرب للطائفة الملحدة (بريد الإسماعيلية) والنظر في أمور الرعية » . وتوفى سنة ٥١١ . وقام بالملك بعده ابنه محمود وهو يومئذ في سن الحلم ، وكان قوى المعرفة بالعربية حافظاً للأشعار والأمثال عارفاً بالتواريخ والسير شديداً الميل إلى أهل العلم والخير ، وهو ممدوح حتى يصير الشاعر المشهور ، ويقول ابن خلـكان إن السلطنة ضحفت في أواخر أيامه وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقّاعى أو الشراى ، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها في حاجته .

وتوفى سنة ٥٢٥ بعد أن عهد لابنه داود وهو صغير في المهد ، ولما كان لا يصلح لصغره تولى السلطنة عمه طغرل ، وتوفى سنة ٥٢٧ فصارت إلى أخيه مسعود . وكان قد سلمه أبوه إلى أتابكة الموصل : مودود ثم آق سقر ثم جوش بك ، وكان شجاعاً ، غير أنه أقبل على

الاشتغال بالذات ، وطالت أيامه حتى سنة ٥٤٧ هـ وقتل من الأمراء خلقاً كثيراً ، ومن قتلهم الخليفةان لعهده المسترشد باقّه والراشد . وفي هذا ما يدل على أن السلاجقة استأنوا بخلفاء بني العباس ولم يدعوا لهم حولا ولا طولا ، إذ استخلصوا منهم كل شيء حتى حق الحياة . ويقول ابن خلكان لم تقم للسلاجقة بعد مسعود راية ، وكأنه ينتم دولتهم في العراق ، أو قل كأن قتله للخليفتين المسترشد والراشد كان إيذانا بانتهاء الدولة السلجوقية ، وأقيم بعده في الملك ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، ولم يلبث أن توفي بعد خمسة أشهر من حكمه .

ولابد أن نلاحظ أنه منذ انتهاء عهد السلاجقة العظام بموت ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ أخذ البيت السلجوقي يضمف لصغر السلاطين الذين كانوا يعتلون العرش وهم أحداث . وابتدع السلاجقة نظام الأتابكة ، وهم قواد يتولون تربية أبنائهم ، وكانوا يعملونهم معهم حين يولونهم بعض الإمارات فيصبحون هم الحكام الحقيقيين ، وليس ذلك فحسب ، فكثيراً ما تنافسوا فيما بينهم ، فكان كل منهم يريد أن يفوز لأمره الذي في رعايته بالسلطنة ، وبذلك حمل الإخوة وأبناء الأعمام السيوف وشهرها بعضهم في وجوه بعض ، مما جعل عهود بركياروق ومحمد وابنه محمود ومسعود حروباً متصلة ، وبذلك ضحفت للدولة أو أخذت في الضعف سريعاً .

وكانت تُمنح لبعض هؤلاء الأتابكة بلدان وإقطاعات تقطعها الدولة لهم ، حتى يساعدوها بما تحتاج إليه من مال وجنّد . وانتهر بعض هؤلاء الأتابكة الفرصة فاستقلوا ببلدانهم وجعلوها وراثية في أسرهم . نذكر منهم الأرتقيين أو الدولة الأرتقية في ديار بكر والجزيرة وبلدانها ميافارقين وآمِد وحصن كَيْفَا وحرّان وماردين ، كما نذكر منهم بنى زنكى في الموصل ولهم الفضل الأكبر في القضاء على الصليبيين فإن « زنكى » الملقب بعماد الدين هو الذي افتتح سلسلة دَحْرهم وطردهم من ديارنا باستيلائه على « الرُّمّا » من جوسلين الصليبي ، وبذلك سقطت أول ممالكهم ، وتبعه ابنه نور الدين بمحققهم محمّداً في الشام ، وحين علا نجم صلاح الدين وتبعته الشام ترك للأسرة الموصل وبلدانها سنجار وغيرها .

على كل حال كان طبيعياً أن تهيط الدولة السلجوقية بعد صعود وبأقل نجمها ، وقد حاول محمد شاه بن محمود السلجوقي في سنة ٥٥٢ هـ الاستيلاء على بغداد غير أنه أرغم على فك الحصار ، أرغمه الخليفة المقتى وجنوده ، ولم يستطع السلاجقة بعد ذلك العودة إلى بغداد ، بل انحازوا إلى هَمْدان حيث توالى فيها سلاطينهم إلى حين . وعاد إلى بغداد وما يتبعها من البلدان جنوى الموصل استقلالها ، ورُدّت إلى الخلفاء حرياتهم وسلطانهم

وللمقتنى^(١) (٥٣٢ - ٥٥٥ هـ) الفضل في عودة صولجان الحكم إلى أبدي الخلفاء العباسيين . وظلوا قابضين عليه حتى الغزو المغولي أو التتاري سنة ٦٥٦ وكان التقي عالماً أدبياً دمث الأخلاق .

وخلفه ابنه المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وكان عادلاً محبوباً في الرعية أزال المظالم والمكوس . وولى الخلافة بعده ابنه المستضيء (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) وكان حسن السيرة أسقط المكوس والضرائب في أيام خلافته . وفي أيامه أعاد صلاح الدين الخطبة باسمه في مصر والثغور الشامية ، وانقطعت دولة الفاطميين من مصر وأعمالها ، وبذلك عاد للأمة اجتماعها على خليفة واحد . وخلفه ابنه الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وفي عهده سحق صلاح الدين الصليبيين في الشام واستولى منهم على بيت المقدس وغيره من البلدان والحصون . واستطاع عبد الجبار البغدادي في أيامه أن يحول جماعة الفتن الذين كانوا يربهون الناس في بغداد وينهون الأموال إلى جماعة كبيرة للفتنة والبسالة ، واتخذ لهم سراويل مخصوصة ، وبذلك أحالهم إلى جماعة حربية ، واستغرف ثلث منهم كثيرة للجهاد الصليبيين في الشام مع الأيوبيين ، ودعى الناصر الجماعة خير رعاية ، وانضم إليها ولبس سراويلها ، وأرسل بها إلى ولاته كي يلبسوها ويصبحوا من فتيان الأمة المجاهدين . ومن أرسلها إليهم الملك العادل أخو صلاح الدين وأبناءؤه ، فلبسوها ، ولبسها شهاب الدين صاحب غزنه والهند .

ويتولى الخلافة بعد الناصر ابنه الظاهر ، ولا بدور العام حتى يتوفى ، ويخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) وكان شغوفاً بالعلم فأسس مدرسته المستنصرية المشهورة . ونشر السنن وكفّ الفتن . وأخذ سبل المغول أو التتار يتعاضد في عهده ويكسح خوارزم وإيران وتمتد بعض سيوله إلى ديار بكر والجزيرة . وولى الخلافة بعده ابنه المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) وكان ضميئاً جاهلاً بتدبير الملك ، استوزر مؤيد الدين بن العلقمي ، وكان رافضياً حريصاً على زوال الدولة ، فكاتب هولاكو وأرسل إليه أخاه وغلामه ، وسهّل عليه فتح العراق وأخذ بغداد .

وسارع هولاكو ، وهاجم بغداد ، ولقيه العسكر والبغداديون على مرحلتين من بغداد ،

(١) انظر في لفتن والخلفاء العباسيين الثالث تاريخ ابن الأثير وابن طيطبا وابن تقي بردي وابن خلدون والبدابة والنهاية لابن كثير والعمري في خبر من غير اللهجي (طبع الكويت) وخلاصة الذهب المسبوك للإبريل (طبع بغداد) ومآثر الإنابة في سبيل الخلافة للعلفندي وتاريخ الخلفاء للسيوطي (طبع القاهرة) وجامع التواريخ لرشد الدين المصطفائي ترجمه إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هندوازي وقراد عبد اللطيف الصياد (طبع القاهرة) وتاريخ العراق في العصر العباسي الأخير للدكتور بصرى محمد نهد (طبع بغداد) .

وسرعان ما انكسروا وأخذتهم السيوف ، وأشار ابن العلقمي على المستعصم أن يخرج للقاء هولاءكو ومفاوضته ، فقتله خنقاً ، ودخل التار بغداد وظلوا يعملون السيف في أهلها أربعة وثلاثين يوماً ، حتى بلغ عدد القتل نحو ثمانمائة ألف ، وخربت بغداد خراباً لا حد له ، وأحرقت بها كتب العلم والأدب . وانقضت الخلافة العباسية منها وزالت أيامها ، ورثاها الشعراء مرثي كثيرة من مثل مرثية الشيخ تقي الدين التنوخي ، وفيها يقول :

يا زائرين إلى الزُّوراء لا تَقْدُوا فما بذاك الجِمي والدارِ دُبَّارُ
وذاق ابن العلقمي الذل والهوان من التار ، كما ذاقها أيضاً مَنْ مَلاَها من حكام الموصل والجزيرة ، وفي مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ . وكان الأمير الزنكي أستاذه الملقب بالملك القاهر صاحب الموصل قد توفي سنة ٦١٥ وخلفه ابنه نور الدين وسنه عشر سنوات ، وكان قد جعل بدر الدين لؤلؤاً أتابكاً له ، ولم يلبث نور الدين أن توفي ، فأقام لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين ، وله من العمر ثلاث سنوات ، وما زال يعمل على تثبيت سلطانه ، حتى ملك الموصل في سنة ٦٣٠ وأزال منها الأسرة الزنكية . وما إن تدافعت أمواج التار نحو أذربيجان حتى أخذ يمددهم بما يحتاجون إليه من الزاد والعتاد منذ سنة ٦٣٤ وما إن علم بتقدم هولاءكو نحو بغداد حتى أعد جيشاً لمساعدته بقيادة ابنه إسماعيل إلا أن الجيش تأخر قليلاً ، فإكان من هولاءكو إلا أن حَزَّ رأس إسماعيل وأرسل بها إلى أبيه ، فذهب إليه هلعاً فرعاً يحمل الهدايا ، وتوفي بدر الدين في سنة ٦٥٧ . ولم يلبث هولاءكو أن اجتاحت الموصل بيموشه ، وقتل حاكمها الصالح بن بدر الدين لؤلؤ ، فلم تنفعه لا هو ولا أبوه خياناتها المتكررة ، وأصبحت العراق كلها في حوزة التار .

٢

الدول : المغولية والتركانية والصفوية والعثمانية

المغول أو التار قبائل رُحَّل كانت تستوطن منغوليا على حدود الصين ، واستطاع أحد أبنائها وهو جنكيز خان أن يجمعها تحت لوائه ، وأن يفتح بها الصين وبكين ، حتى إذا تم له ذلك وجه جموعه نحو فارس فاستولت على بخارى وملكة خوارزم وزحفت سيولها إلى الرمي وهمدان ، مستولية على شبال فارس فيما بين سنتي ٦١٦ و ٦٢٥ للهجرة وتوفي في السنة الأخيرة بالصين . وخلفه ابنه أوكدي (٦٢٥ - ٦٣٩) الذي استطاع أن يُخضع روسيا وبولندة لحكمه ، وخلفه ابنه كيوك حتى وفاته سنة ٦٤٦ وولى بعده ابن عمه منكو ، وهو

الذى أرسل بأخيه هولاكو إلى إيران ، فقفى فيها على الإسماعيلية الحشاشين ، وأخذ يعمل على الاستقلال بإيران مع تبعيته لأخيه ، ولم يكف بها ، فقد امتدت مطامعه إلى العراق وبغداد ، ولم يلبث أن خرب بغداد المدينة التاريخية العظيمة كما أسلفنا سنة ٦٥٦ ، واتخذ هولاكو لقب (إيل خان) أو تابع الخان وهو لقب ورثه عنه خلفاؤه على إيران والعراق مما جعل دولتهم تسمى الدولة الإيلخانية ، بينما انتسب المد المغولي الثاني في إيران والعراق إلى تيمورلنك ، مما جعل دولته هو وأبنائه تسمى الدولة التيمورية ، وبذلك تنقسم الدولة المغولية إلى دولتين : الدولة الإيلخانية والدولة التيمورية .

الدولة المغولية الإيلخانية^(١)

تنسب هذه الدولة إلى هولاكو (إيلخان) الذى أطبق جموعه على بغداد والعراق في سنة ٦٥٦ ومضت إلى الشمال فاستولت على ديار بكر والجزيرة وأخذت تعد العدة للاستيلاء على الديار الشامية والمصرية . ومضوا في سنة ٦٥٨ يستولون على حلب وبلدان الشام ، وسلمت لهم دمشق ، وسقطوا إلى فلسطين في الجنوب ، فلقبهم الجيش المصرى بقيادة قطز والظاهر بيبرس في عين جالوت بالقرب من نابلس ، فزق جموعهم تمزيقا ، وقتل قائدهم ، وكانت مجزرة عظيمة لهم حتى إنه لم يسلم منهم إلا فلول قليلة ولت الأدبار ، وتبعها الظاهر بيبرس إلى أطراف الشام في الشمال . وبذلك رد سيلهم عن الشام ومصر إلى غير مآب . ولم يملك هولاكو - كما قدمنا - ملكاً مستقلاً فقد كان نائباً عن أخيه منكو ، ولم يضرب باسمه مستقلاً سكة درهم ولا دينار ، بل كانت تضرب باسم أخيه . وكان وثناً كأجداده وقومه ، غير أنه كان يعطف على النصارى إرضاء لزوجته النصرانية : « دُفوز خاتون » ومات سنة ٦٦٣ وقبل سنة ٦٦٤ وخلفه على العراق وإيران ابنه « أبغا » . ولما ملك أضاف اسمه إلى اسم الخان الأكبر في يكنى ووجه أخاه منكوتر بالعساكر إلى الشام للاستيلاء عليها ، فالتقى مع الجيوش المصرية الشامية عند حمص ، بقيادة قلاوون وهزم هزيمة منكرة فلما بلغت الهزيمة أبغا سنة ٦٨٠ رجع إلى همدان فات بها غماً وكمدماً . وخلفه منكوتر ، وكان نصرانياً ، ولم يلبث أن مات بنفس الكد والغم . وملك بعدها

الأدب في إيران من الفردوسي إلى السمدي ليراون (ترجمة الشراوى) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالد ليفر ص ٦٥ والعراق في عهد المغول الإيلخانيين لجعفر نصيبك (طبع ببغداد) .

(١) انظر في هذه الدولة تاريخ ابن كثير وابن خلدون والتبريزم الزاهرة والجزء الثانى من دول الإسلام للنجاشى (طبع حيدرآباد) وجامع التواريخ لرشيده الدين المسداني (الترجمة العربية) ومسالك الأبحصار لابن فضل الله المصري والجزء الرابع من صحيح الأحمش وتاريخ

أخوها بوكدار بن هولاكو سنة ٦٨١ وأسلم وحسن إسلامه ، وتسمى أحمد ، وبني بمالكة الجوامع والمساجد وصالح السلطان الملك المنصور قلاوون الذى فرح بإسلامه . وحاول أن يحمل عسكره على الإسلام فقتلوه سنة ٦٨٣ وملك بعده ابن أخيه « أرغون بن أبقا » حتى سنة ٦٩٠ وكان سفاكاً للدماء شديد الوطأة ، وولى الملك بعده أخوه « كيخسرو » فأفحش فى الفسق بنساء المغول وبناتهم فوثب عليه ابن عمه بييدو بن طرغاي بن هولاكو وقتله سنة ٦٩٣ ولم يلبث أن قُتل بدوره فى أواخر هذه السنة ، وملك بعده غازان بن أرغون بن أبقا بن هولاكو ، وأسلم فى سنة أربع وتسعين ، وتسمى محموداً . واحتفل بإسلامه ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤس الناس ، وأسلم غالب جنده وعساكره ، وفشا الدين الحنيف بإسلامه فى ممالك التار . وقد اختار المذهب السنى .

وهو أجل ملوك المغول من بيت هولاكو ، ودخلت جيوشه الشام فى سنة ٦٩٩ وتمت لها الغلبة على جيوش الناصر محمد بن قلاوون ، وملك الشام ، ولا تخفى إلى سنة ٧٠٢ حتى يكبل له الناصر محمد بن قلاوون الصاع صاعين ، إذ تشب بينهما الحرب بالقرب من دمشق ، ويدمر فيها جيش المغول أو التار تدميراً ، وظلت الصرخات والنياحات فى ديارهم - حين بلغهم الخبر - شهرين . واغتم غازان غما عظيماً ، ويقال إنه لم يصل إليه من جيشه إلا واحد من كل عشرة انتخبهم للحرب . وكان من قبله منذ هولاكو يحكون باسم الخان الكبير فى بكين ، فاتخذ لنفسه صفة الحاكم بإرادة الله ، وكان الخراج يُقرض قبله حسب أهواء الجباة من حكام المغول فأمر بأن تُمسح الأراضى وأن يتخذ ذلك أساساً فى فرض الضرائب حتى لا يُظلم أحد ، وأصلح النظام التقدى فى الدولة وجعله نقداً معدنياً صحيح الوزن والقيمة ، وأعاد للشريعة الإسلامية سلطانها وقوتها .

وكان يتخذ تبريز حاضرة له فزينا بالمساجد ودور العلم وشيد بها مرصداً فلعباً عظيماً . وتوفى سنة ٧٠٣ وولى الملك بعده أخوه « خدابندا » والعامه تسمية « خرتندا » وكان سنياً ثم أصبح شيعياً غالباً وأظهر الرفض فى بلاده سنة ٧٠٩ وأمر الخطباء أن لا يذكروا فى خطبهم إلا على بن أبى طالب وولديه وأهل البيت ، وتوفى سنة ٧١٦ .

وخلفه بو سعيد ابنه ، وكان يعتنق المذهب الحنفى وكان ملكاً جليلاً مهاباً حصيفاً ، وكان يجيد ضرب العود والموسيقى وصُنف فى ذلك ، وكان حسن السمة ، أبطل عدة مكوس فى مملكته وأراق الخمرور فى بلاده ومنع الناس من شربها وهدم الكنائس . وكانت بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مودة بعد وحشة ، ومكاتبات ومراسلات ، توفى سنة ٧٣٦ . وهو آخر ملوك المغول المهمين من بيت هولاكو ، وبوقاته تفرقت المملكة بأيدي حكام

عختلفين ، وأصبحوا شبيبين بملوك الطوائف من الفرس . وفي مسالك الأبصار بعد ذكر بوسعيد : « ثم هم (أى التار في إيران والعراق) بعده في دهباء مظلمة وعمياء مقمتة ، لا يُنفِضُ ليلهم إلى صباح ، ولا فرقتهم إلى اجتماع ، ولا فسادهم إلى صلاح ، وفي كل ناحية هائف ، يُدعى باسمه ، وخائف أخذ جانباً إلى قسمه ، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً تقول من أبناء الحان أو القان ، وتنسب إلى فلان ، ثم يضمحل أمره عن قريب ، ولا تتحقق دعوته حتى يُدعى فلا يجيب ، وما ذلك من الدهر بعجيب » . وفي سنة ٧٤٠ صارت بغداد والعراق بيد الشيخ حسن الكبير ، وهو الحسن بن الحسين بن أقيفا ، كان جده رفيقاً لهولاكو . وتوفي سنة ٧٥٧ .

وملك بغداد والعراق بعده ابنه أويس ، وهو سينط أرغسون بن أبغا أو ابن ابنته ، وكان حسن السيرة عادلاً محباً للفقراء والعلماء توفي سنة ٧٧٦ وخلفه ابنه السلطان الملك المعز حسين . وكان قد ولاه مكانه في أواخر أيامه ، وكانت العراق في عهده مطمئنة معمورة . وقتله أخوه أحمد سنة ٧٨٤ وتولى الملك بعده ، وتلقب بالسلطان غياث الدين ، وكان ظالماً سفاكاً للدماء أسرف في قتل أمرائه وبالغ في ظلم الرعية وأهمل في الفجور والفساد ، فكتب أهل بغداد تيمورلنك بعد استيلائه على مدينة تبريز يحثونه على المسير إلى بغداد ، فتوجه إليها بعساكره سنة ٧٩٥ واستولى عليها وفر أحمد بن أويس إلى الديار الشامية ، مستغيثاً بالسلطان برقوق صاحب الشام ومصر وكان تيمور قد فارقه فأعانه على استردادها في السنة التالية . وسرى في حديثنا عن تيمورلنك وأسرته ما كان من أمره .

الدولتان : المغولية التيمورية^(١) والتركانية

قاد للوجه المغولية الثانية تيمورلنك المولود في « كشر » من بلدان ما وراء النهر ، وهو ينحدر من سلالة جينكز خان ، وكانت ولادته سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان أبوه والياً لكشر وأعمالها ، وكان طموحه واسعاً ، فعمل على جمع زمام الأمور في يده لا في كشر وحدها ، بل في كل بلاد ما وراء النهر بحيث أصبحت لسنة ٧٧١ جميعاً في قبضته ، ثم أخذ يُعَدُّ العدة للانقضاض على خراسان واستولى عليها سنة ٧٨٢ ومضى في سنة ٧٨٤ يستولى على مازندران وسجستان وجرججان ، ولم يلبث أن استولى على فارس وأذربيجان سنة

ترجمة في المجلد السابق ٢٣٧/١ ، وراجع تاريخ ابن خلدون والفقه اللاعن في أعيان القرن التاسع وتاريخ الشعوب الإسلامية ليوكان ودائرة المعارف الإسلامية في تيمور وأوزون حسن التركاني ، وإيران : ماضيها وحاضرها للدونالدويلر .

(١) انظر في تيمور وحكام بغداد بعده أحمد بن أويس والتركمان ابن عريشا في كتابه « عجائب المقدور في نواب تيمور » وابن تغري بردي في الجزء من الثاني عشر والثالث عشر وخاصة في ٢٥٤/١٢ حيث عقد لتيمورلنك ترجمة طويلة وبالمثل عقد لأحمد بن أويس

٧٨٨ وأخذ بفتح البلدان في شأى العراق ، حتى إذا كان شهر شوال سنة ٧٩٥ حاصر بغداد ، وهرب منه أحمد بن أويس إلى السلطان برقوق في الشام وخرب تيمور غالب العراق ومدنه : بغداد والبصرة والكوفة ، وقصد الشام في سنة ٧٩٨ ورجع خائفاً من الظاهر برقوق إلى سمرقند عاصمته وكانت جيوشه قد تغلغت في روسيا واستولت على موسكو ، وسار إلى الهند في سنة ٨٠٠ وعبر نهر السند واستولى على دلهى بعد أن قتل من أهلها ثمانين ألفاً . وكان أحمد بن أويس قد عاد إلى بغداد بمعونة المصريين ، ومثله قرأ يوسف عاد إلى نيابته على الرها في الجزيرة . وبلغ تيمور موت السلطان الظاهر برقوق صاحب مصر والشام وموت برهان الدين أحمد صاحب سيواس بالجنوب الغربى من آسيا الصغرى ، فرأى أن الظفر بمملكيتها أصبح قريباً ، وكاد أن يطير بموتها فرحاً ، فاستتاب بالهند من يثق به من أمرائه ، وعاد إلى سمرقند . ثم خرج منها مسرعاً في أوائل سنة ٨٠٢ ومضى إلى تبريز فاستخلف فيها ابنه ميران شاه . وكان أحمد بن أويس قد سار مع أمرائه ورعيته سيرة سيئة ، فقاتلوه وخرج منهزماً واستنجد بالأمير قرا يوسف التركمانى صاحب تبريز والرها وديار بكر . وعاد معه إلى بغداد . وصيف تيمور في بلاده ثم مضى إلى سيواس فاستولى عليها أول سنة ٨٠٣ وخربها ومحا رسومها . ثم قصد الديار الشامية ، واستولى على حلب بعد أن أعمل السيف في جنودها وأهلها حتى امتلأت الجوامع والطرق بالقتلى ، وعمل تيمور - فيما يقال - من رهوس القتل منائر عدة ترتفع عن الأرض عشرة أذرع تهديداً ووعيداً . ورحل عن حلب بعد أن تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها ، وكان ابنه ميران شاه قد أخذ حماة وأشعل النار بها وأصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون ، وقتلوا الأطفال على صدور الأمهات ، واتجه إلى دمشق وواقمته جنود السلطان فرج بن برقوق ولم تثبت طويلاً ، ولم يلبث أن وقع مع أهل دمشق صلحاً ، ودخلها هو وجنوده وغدريهم فأشعل جنوده بها النار ، فاحترقت وسقطت بعض سقوف الجامع الأموى ، وصارت أطلالاً بالية ورسوماً دائرة كما يقول المؤرخون . وأقام هو وجنوده عليها ثمانين يوماً ، ثم رحل عنها في شعبان سنة ٨٠٣ وظل في انسحابه مع جنوده من الشام ، وأوهم أنه يريد سمرقند وهو إنما يريد بغداد ، وكان أحمد بن أويس قد استتاب عنه فيها أميراً يسمى فرجاً ، واتجه هو وقرايوسف صاحب الرها نحو آسيا الصغرى ، فندب تيمور بعض قواده لأخذ بغداد ، ثم تبعه وحاصر بغداد حتى أخذها عنوة في يوم عيد النحر أو العيد الأضحى من نفس السنة ، ووضع السيف في البغداديين ، حتى سالت الدماء أنهاراً ، ويقال إنه قتل من أهلها نحو مائة ألف إنسان ، وبني من رهوسهم - على عادته كلما دخل

مدينة هنوة - مآذن كثيرة .

ثم رحل من بغداد إلى الشمال متجهاً إلى آسيا الصغرى وحرب بايزيد العثماني ، وانضم إلى جيشه التركمان في قيسارية وسيواس وتقدم نحو سهل أنقرة وكاتب من مع بايزيد من التار وأنه أولى بأن ينضموا إليه لأنهم من أبناء جلدته ، فوعده أن ينضموا إليه حين تدور رحى الحرب بينه وبين بايزيد ، وكان بايزيد قد نكل ببعض أمراء السلاجقة واستولى على بلدانهم ، فانضموا إلى تيمورلنك . والتقى الجيشان في الشمال الشرق من أنقرة في التاسع عشر من ذي الحجة عام ٨٠٤ وانفض عن بايزيد جنوده التار منضمين إلى تيمور كما وعدوه وكانوا معظم عسكره ، وتلاههم ولده عثمان الذي عاد يحنده إلى مدينة بروسه ، ولم يبق مع بايزيد إلا نحو خمسة آلاف فارس ، فثبت بهم إلى أن أخذ أسيراً على بعد ميل من أنقرة وكان قد حاول الفرار ، وأكرمه تيمور ، وأسف لموته في شعبان سنة ٨٠٥ وأذن بدفنه تكريماً له في جامع بروسه .

وعاد تيمور إلى سمرقند عاصمته ، واستقبل فيها كثيراً من السفراء من بينهم سفير ملك قشتالة . وزين عاصمته بالقصور الفخمة مستعيناً بمن جلبهم إليها من بتاني القرس وغيرهم ، وكان يعطف بوصفه مسلماً على العلماء ورجال الدين من الصوفية وخاصة دراويش الطريقة النقشبندية وقد استطاع فعلاً أن يستعيد مملكة جنكيزخان من موسكو إلى نهر الكنج ومن حدود الصين حتى سوريا ورأى مقتدياً بسلفه أن يستولى على الصين ، فأرسل إليها حملة في سنة ٨٠٧ غير أنه لم يلبث أن مرض وتوفي في شعبان من نفس السنة بإحدى المدن في وراء النهر ، ونُقل إلى عاصمته ودفن بها في ضريح فخم لا يزال قائماً بها إلى اليوم .

وتوزعت إمبراطوريته بين ولديه : شاه رخ وميران شاه ، وكان للأول النصيب الأكبر فتحكم خراسان وسجستان وما وراء النهر وإيران ، وحكم ميران شاه العراق وأذربيجان والكرج أو جورجيا ، وكان يخضع لسلطان أخيه ، ولم يلبث أن قُتل في حربه مع قرايوسف التركاني صاحب تبريز سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م فدخلت بلاده في حوزة أخيه ، فأصبح يحكم كل مملكة أبيه تيمورلنك ما عدا الشام والعراق وعربستان ، وقد بسط سلطانه على الصين والهند ، وعاش طويلاً حتى سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٧ م وكان يرعى العلوم والآداب في مملكته الواسعة .

وخلفه ابنه ألغ بك وكان عالماً فليسيا واهتم برعاية الأدبين الفارسي والتركي غير أنه قتل بعد ستين يوم ابنه عبد اللطيف . ويتأب الدولة التيمورية اخمحلل سريح ، ويتقاتل

الإخوة وأبناء العم ، ويستولى على صولجان الحكم بوسعيد سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م ويستقر زمام الحكم في يده ويقتل في حرب طاحنة مع أوزون حسن صاحب ديار بكر وأرمينية في سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م وتعود المملكة إلى الاضطراب . وقد استطاع شيباني زعيم الأوزبك في سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م خلع بابر حفيد أبي سعيد عن عرشه في سمرقند ، فهاجر إلى الهند وأسس بها دولة المغول العظام .

وأما العراق وبغداد فعادتا بعد وفاة تيمور إلى أحمد بن أويس وتنشب حرب بينه وبين قرايوسف التركاني صاحب تبريز ويختر في ميدانها صريحا سنة ٨١٣ وتقع العراق وبغداد في قبضة التركمانين بزعامه قرايوسف حتى وفاته سنة ٨٢٣ ويتوارثها عنه أبنائه وأحفاده ، وفي أيامهم ودولتهم عظم الحراب لفساد حكمهم حتى يقول ابن تغري بردي : لا أعلم في طوائف التركمان أقيع طريقة ولا أسوأ سيرة من أولاد قرايوسف ويسرعهما منهم في سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م أوزون حسن المارد ذكره وكان تركمانيا واسع الطموح ، فوضع نصب عينيه إنشاء دولة قوية لا يكتفي فيها بمقر حكمه وهو ديار بكر ، بل تتسع لتشمل أرمينية وإيران والعراق ، ودخل في حروب طويلة مع العثمانيين . وفي هذه الأثناء كانت أسرة صوفية في أردبيل قد أخذ نفوذها يتسع منذ عهد مؤسسها الشيخ إسحق صفي الدين ، وبلغ حفيده خوجا علي من الشهرة بالتقوى ما جعل تيمورلنك بعد انتصاره على بايزيد العثماني يقف أردبيل وضواحيها عليه وعلى عقبه . وسرعان ما تحولت إلى ما يشبه إقطاعاً لهم ، وعقد أحد أحفاده المسمى حيدراً صلة وثيقة بينه وبين أوزون حسن ، وزوجه أوزون ابنته مارثا وأنجب منها ابنه إسماعيل الذي أتيح له أن ينشئ لأسرته الصوفية دولة وطيدة في إيران .

الدولة الصفوية^(١)

كان حيدر بعيد النظر ، فأعاد تنظيم طريقة آباءه الصوفية الشيعية على أسس جديدة ، متخذاً لها شعاراً للرأس ، أو بعبارة أخرى عامة سُميت تاج حيدر الأحمر ، وهي عامة ذات اثنتي عشرة ذؤابة رمزاً إلى أن صاحبها شيعي إمامي اثني عشري . وما وافق سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م حتى بدأ حملاته الحربية ، فقاتل الجراكسة واشتبك في سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م في حرب مع صهره يعقوب بن أوزون حسن وسقط قتيلًا في المعركة ،

(١) انظر في الدولة الصفوية تاريخ المرحل لصاغي لونكرنك ترجمة جعفر خباط (طبع بيروت) وتاريخ بغداد وتاريخ الدولة الفارسية في العراق لزمان الشرب الإسلامية لهوركان . وإيران : ماضيها وحاضرها الأحمدي وأربعة قرون من تاريخ العراق لشيفن لدونالدولير .

وتوفى يعقوب بعده بنحو ستين وتصارع أولاده واشتبكوا في حروب دامية ، مما أتاح الفرصة لأبناء حيدر كى يعود لهم نفوذهم من جديد .

وتطورت الظروف سريعاً ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن العاشر الهجرى حتى نجد إسماعيل بن حيدر يخرج بعد وفاة أخوين له كانا أكبر منه للمطالبة بآرائيه ، ويمد سلطانه تدريجاً على شيوان وأذربيجان ويأخذ في تأسيس دولة فارسية وطنية ويستولى على تبريز في سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م ويروج فيها ملكاً (شاه) على إيران . وأعلن أن العقيدة الشيعية الإمامية الاثني عشرية مذهب الدولة الرسمي . ولم يكتف بذلك فقد أكره الرعية على سب أبى بكر وعمر وعثمان . وأخذ يُعدّ العدة لمنازلة مراد خان التركمانى صاحب بغداد والعراق ، وكان قد هزم أخاه ألوند هزيمة ساحقة في أذربيجان واستولى منه على فارس ، وما توفى سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م حتى يستولى من مراد على بغداد والعراق ، ويفرّ مراد آخر سلاطين التركمان إلى السلطان سليم العثماني . ومضى في سنة ٩١٦ هـ / ١٥١١ إلى الشرق لمحاربة شيباني زعيم الأوزبك والتقى قرب مرو ، ودارت الدوائر على شيباني وجنده وسقط صريعاً في الحرب ، وبذلك اتسعت مملكة إسماعيل ، حتى امتدت من هراة شرقاً إلى بغداد غرباً ، ووضح للعيان أنه لابد من الاصطدام بين دولة الشاه إسماعيل الصفوى الشيعى الإمامى وبين دولة السلطان سليم العثماني السنى ، وخاصة أن الشاه إسماعيل كان قد بالغ في اضطهاد أهل السنة ، مما جعل السلطان سليماً يدعو إلى الجهاد ضد الشاه والشيعية . والتقى الجيشان الصفوى والعثماني بالقرب من تبريز بوادى جالداران في المحرم سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ومنى الشاه بهزيمة منكرة ، وقنحت عاصمته «تبريز» أبوابها للسلطان سليم ، واضطرّ الشاه إسماعيل إلى أن يعقد معه صلحاً ، ولم يفكر بعد ذلك في حرب العثمانيين إلى أن توفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م وخلفه ابنه طهاسب وهو في العاشرة من عمره ، وطالت مدته في الحكم اثنين وخمسين عاماً امتلأت بالحروب المتصلة ضد أعدائه الشيبانيين في الشرق والعمانيين في الغرب . واستطاع ذو الفقار خان رئيس قبيلة كردية أن يزحف على بغداد ويقتل حاكمها من قبل طهاسب سنة ٩٣٠ وتظل في حوزته حتى سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م إذ استعادها طهاسب ومضى في اضطهاد أهل السنة مما جعل السلطان سليمان العثماني يوجه في أواخر سنة ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م حملة إلى تبريز ، فتسولى عليها ، ويتجه هو إلى بغداد فيدخلها في أول المحرم سنة ٩٤١ . وبذلك ينتهى عهد الدولة الصفوية في العراق .

الدولة العثمانية (١)

تم للسultan سليمان العثماني الاستيلاء على العراق وبغداد في سنة ٩٤١ وورف العلم العثماني على البصرة في سنة ٩٤٦ وبذلك أصبح العراق جميعه ولاية عثمانية ، بل قل ولايات عثمانية ، إذ قُسم إلى أربع ولايات . ولاية البصرة ، وولاية بغداد ، وولاية شَهْرزور ، وولاية الموصل . وفي حقب متفاوتة عُدَّت الأحساء والبحرين ولاية خابسة ، وارتبطتا بالبصرة حيناً وببغداد حيناً آخر . وقسمت كل ولاية إلى ألوية ، على رأس كل لواء سنجق أو أمير لواء . وكان الوالي يُعَدُّ الرئيس للسلطة التنفيذية مع الإشراف على الشؤون الإدارية ، وكان يعاونه عدد من الموظفين ، في مقدمتهم « الكتخدا » وهو مدير مكتبة الخاص وكثيراً ما كان يخلفه بعد وفاته ، و« الدفتر دار » وهو مدير الخزانة ومدير الشؤون المالية . وكانت هناك دواوين مختلفة ، أهمها ديوان الروزنامة أى ديوان الدفتر اليومي ، وكان به كثير من الكتّاب أو كما كانوا يسمونهم أصحاب الأقلام .

وكان يوجد بجانب الوالي قاض كبير يتبع قاضي القضاة في الأناضول ، وكان للقاضي نواب كثيرون في كل ولاية يضطلعون بمهمة القضاء . ويشرف القاضي على تنفيذ القوانين حسب الشريعة الإسلامية كما يشرف على تنفيذ أوامر الدولة العثمانية .

وكانت توجد بجانب الوالي قوة عسكرية أساسية تحمي المدن والقلاع ، وتُعَدُّ فرعاً من الإنكشارية جند الدولة العثمانية الذين كانت تأمرهم في حروبها بأوربا ، وهم لا يزالون علماناً وتربيتهم تربية عسكرية ، وكانوا يُمنَحون إقطاعيات ، وكثيراً ما توارثوها أو وقفوها ، فلم تُردَّ إلى الدولة . وكانوا كثيراً ما يؤذون الناس في بغداد والعراق ويتعدون عليهم . وكان يوجد بجانبهم للولاية جند يحصلون عليهم بطريق الأسر أو الشراء .

وغير حكم الدولة العثمانية للعراق بثلاثة أحوال : الدور الأول يبتدئ من سنة ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م إلى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م وأهم الأحداث في هذا العهد فن الجند كما حدث في عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م فقد ثاروا على والي بغداد بزعماء ضابط يسمى بكراً برتبة

عل الصوفي (طبع الموصل) والعراق : دراسة في تطوره
السبائي لقيلب إيرلند ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت)
وإمارة العاقبة للمملوكي (طبع الموصل) ومقدمة تاريخ
العرب الحديث ١٥٠٠ - ١٩١٨ الجزء الأول - للتذكور
عبد الكريم محمود هراية (طبع دمشق) .

(١) انظر في الدولة العثمانية بالعراق تاريخ بغداد وتاريخ
البصرة لثمان الأعظمي وحشائر العراق لباس الزاوي
(طبع بغداد) والبلاد العربية والدولة العثمانية للحصري
(طبع القاهرة) وأربعة قرون من تاريخ العراق لسيفز
لونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ
الشعراب الإسلامية لبيوكهان . والماليك في العراق لأحمد

سوبايشي وقتلوا الوالي يوسف باشا وتولى بكر مقاليد الحكم وحاربه الدولة ، فاستعان ضدها بشاه إيران عباس الصفوى ، وسرعان ما احتل هذا الشاه بغداد سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وقتل بكرًا ونكل بأهل السنة واعتقل الألوف منهم ، وحاول شيعة بغداد مخلصين إنقاذ مواطنيهم فشهدوا لكثيرين منهم بأنهم شيعة .

وسارع الشاه إلى احتلال بقية العراق ، غير أن البصرة استمعت عليه ، إذ دافع عنها حكامها من آل أفراسياب وكانوا قد أتاحوا لها استقلالاً ذاتياً عن العثمانيين من ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٧ م إلى ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٨ م للهجرة وقد دافعوا عن مدينتهم أمام جيوش عباس الصفوى دفاعاً مجيداً فارتدت عنها .

وظلت بغداد وبقية العراق مع الإيرانيين نحو خمسة عشر عاماً إلى أن استرجعها العثمانيون بقيادة السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨ م وفي هذه الأثناء سمح حكام البصرة للبرغاليين بتأسيس وكالة تجارية لهم فيها سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م وبالمثل سمحوا للإنجليز في سنة ١٠٤٩ هـ / ١٦٣٩ م بتأسيس وكالة تجارية لهم ، وأغلقت سنة ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ . وينتهي الدور الأول لحكم العثمانيين العراق سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م كما مرّ بنا ، ويتبدئ دور ثان سُمي دور المالك ، وفيه تعرّضت العراق لخطر إيراني كبير ، أدّى إلى أن يتسلّم صولجان الحكم فيها حسن باشا وابنه أحمد باشا ومماليكها الذين أخذوها بضرب من الترية يشبه صنيع الدولة في إستانبول بالإنكشارية ، وكان حسن باشا قد تدرّج في مناصب الدولة إلى أن أصبح وزيراً ، وولى بعض الولايات ، ثم نُقل إلى بغداد في سنة ١١١٦ فعمل على الاستقلال بها واتّخاذ هؤلاء المالك سنداً له . وكانت الدولة حينئذ مشغولة بمجربوها في أوروبا مع الروس والبلقان ، فترك لحسن باشا وابنه أحمد ومماليكها إدارة بغداد والعراق .

وطبيعى أن تصبح المناصب العليا فيها وفقاً على المالك . وقد آل إليهم حكمها بعد وفاة حسن باشا وابنه ، وكان الوالي منهم إذا وثق بأحد المالك زوجته ابنته واتّخذها (كتخذاً) أو أميراً للأمرء ، حتى إذا توفى خلفه في الحكم . وإذا عرفنا أنه حكم بغداد حينئذ عشرة من الولاة كان سبعة منهم من هؤلاء المالك عرفنا أنه جدير بهذا الدور حقاً أن يسمى دور المالك ، وآخرهم داود باشا . وكانوا في سبيل الوصول إلى أريكة الحكم يكترون من التآمر ، مما زاد الأمن في بغداد والعراق اضطراباً على اضطراب وفساداً على فساد . ولما ساءت الأمور وتفاقم سوءها رأى الباب العالي في سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م أنه لا بد من ردّ الأمور إلى نصابها في العراق ، فأرسل حملة تأديبية أسرت داود باشا وقضت

على حكم هؤلاء المالك قضاء نهائياً . وبذلك تدخل بغداد والعراق في الدور الثالث من أدوار الحكم العثماني الذي أظل البلاد حتى سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م . ويمكن أن ندخل الشطر الأكبر من هذا الدور في حقب العصر الحديث في العراق ، إذ هب جماعة من المصلحين في تركيا يحاولون إصلاح أداة الحكم الفاسدة ، واضطر السلطان عبد المجيد أن يصدر أمراً بإلغاء الاحتكارات والمصادرات وتحديد الضرائب على أسس قومية من العدالة . وكان ذلك إيذاناً بعصر جديد في تركيا والولايات التابعة لها في العراق وغير العراق ، غير أن الولاة الذين تعاقبوا على العراق حتى سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م لم يصدروا عن ذلك في حكمهم ، فظل الظلام والفساد يحيم على العراق إلى أن وليها مدحت باشا في السنة آتفة الذكر ، وكان معروفاً بترعته الإصلاحية وما قام به من خدمات عظيمة في ولايته على بلغاريا . ولم يكد يستلم مقاليد الولاية في العراق حتى نهض فيها بإصلاحات كثيرة في إدارة الحكم ، فألغى نظام الالتزام ورد الأرض على الفلاحين العراقيين نظير أقساط محدودة ، وأنشأ مطبعة لطبع الجريدة الرسمية وطبع الكتب ، كما أنشأ طائفة من المدارس المهنية والعلمية النظرية ، وبنى مستشفى كبيراً ، ومدّها بخطا للبرق ، وأصلح نظام الموازين والنفود بحيث تعد ولايته بحق البلده الحقيقي للعصر الحديث في العراق . وقد ظل العثمانيون في العراق وبغداد قبله نحو ثلاثة قرون ونصف لم يعتنوا فيها أي عناية بإصلاحات اجتماعية أو تعليمية أو اقتصادية .

٣

المجتمع

كان المجتمع في بغداد والعراق يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أروستقراطية ، على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم وبتلوها حواشيها من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين والإقطاعيين ، ويدخل في هذه الطبقة بعض التجار الرأسماليين . وطبقة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والصناع والقضاة والعلماء ورجال الحسبة ، وطبقة دنيا هي طبقة العامة من الزراع والخدم والرقيق وأصحاب الحرف . ويُسلّك أهل الذمة في الطبقتين الأخيرتين عادة ، إلا من ارتفع منهم إلى الوزارة ، وكان ذلك يحدث نادراً كما حدث في عهد حُضد الدولة ، فقد اتخذ له وزيراً نصرانياً ، هو نصر بن هرون ، الذي ترك له تدبير شئون فارس بينما كان وزيره المدبر لشئون بغداد والعراق المطهر بن عبد الله .

وكانت الطبقة الأولى تعيش في رخاء بل في ترف ، لكثرة ما كان يُصَبُّ في حجورها من الأموال ، عن طريق الضرائب التي كانت تؤخذ من الناس وكانت متعددة ، فهناك ضرائب الزكاة على الزروع ، وهناك ضرائب الصادرات والواردات التي نجبي على البضائع المنقولة وتسمى المكوس ، وهناك ضرائب على الأسواق والحوانيت . وأهم من ذلك الضرائب أو الأموال التي كانت تؤخذ من أصحاب الإقطاعات وقد توسع فيها البوييون ثم من خلفهم من السلاجقة والمسلولين على البلاد ، إذ منحوها لكبار القواد ، حتى قد يمنحونهم قرى برمتها . وهذه الإقطاعات العسكرية هي التي كانت شائعة ، وإحدى اثنين إما أن تكون إقطاع تمليك يورث وعلى أصحابه دفع العُشْر للدولة ، وإما إقطاع يُسْتَقْلُ طالما كان صاحبه حياً ، وكأنه كان منحة تُعْطَى للقواد بدلاً من رواتبهم . وكان كبار الموظفين والأثرياء من التجار وغيرهم يمتلكون الضياع ويدفعون عنها العُشْر ويكْرُمُون بإصلاح القنوات التي تُغْرِ بأرضهم . وطبيعي أن كانت هناك ضياعاً سلطانية للخليفة وللأمير البويهي وللحاكم لبغداد . وكانت هناك أراضٍ موقوفة لأغراض دينية كالإنفاق على المساجد أو على الجهاد أو على الفقراء أو على الحرمين . وكان القاضي هو الذي يشرف على إدارة الأراضي الموقوفة . وحدث أن صادر عضد الدولة أراضي السواد الموقوفة ^(١) ، غير أن من بعده أعادوها إلى الوقف . وكان الوزراء كثيراً ما تصادر أموالهم حتى بعد وفاتهم كما حدث للمهلبى ^(٢) وزير معز الدولة البويهي . وكانوا يصادرون أحياناً تركة بعض الإقطاعيين ذوى الثراء . ويروى أنه في سنة ٣٥١ توفي رجل اسمه دَعْلَج تاركاً ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب فاستولى عليها معز الدولة ، ولم يمسّ أى مسٍّ ما خلفه من أوقاف .

على كل حال كانت موارد الدولة كثيرة ، ومن أجل ذلك تعددت الدواوين التي يُخَزَنُ فيها المال أو يجلب إليها مثل ديوان الإقطاع ، وديوان الخراج ، وديوان الأوقاف ، وديوان الجوالى أو الجزية التي كانت مفروضة على أهل الذمة ، وديوان الخلافة الذى كان يُتَنَفَق على القصر ومماليكه وحجابه وخدمه وحرسه وكانوا يُعَدُّون بالمئات ، وديوان التركات وكانت تؤخذ عليها ضريبة ، ومن ليس له وارث كانت الدولة تستولى على تركته . ثم ديوان الزمام وهو الذى يشرف على مالية الدولة ونفقاتها وكل ما يتصل بشئونها المالية من رواتب ومن إعداد للجيش . وكان الخلفاء العباسيون يثرون الأموال نثراً على حواشيهم وفى أعراسهم ، كما حدث في زواج الخليفة الطائع لابنة بختيار ، وكان صداقها مائة ^(٣) ألف

(٣) ابن خلكان (طبع دار صادر بيروت) ١/ ٢٦٧ .

(١) أبو شجاع ص ٧١ .

(٢) مسكويه ٦/ ٢٥٨ .

دينار. واتسع هذا الاحتفال بزواج الخلفاء من بنات الأمراء السلاجقة ، ويروى أنه حين تروج الخليفة المتقدي بتاً للسلطان ملكشاه نُقل جهازها على ١٣٠ بعيراً في موكب كبير كانت تُتَقَف فيهِ الطبول والبوقات وتنتثر الأموال على الرعية^(١). وبالمثل حين زُفَّت الحاتون ابنة ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله سنة ٥٠٤ زُيِّنَتْ ببغداد ، وقد حَمَلَ جهازها ١٦٢ بعيراً و ٢٧ بغلاً^(٢) سارت في شوارع بغداد بينما جماهير الناس رجالاً ونساء يرقصون ويغنون مبهجين. وكانت قصور الخلفاء تكتظ بالتحف وأواني الذهب والفضة ، ويروى أنه حدث حريق في أواخر سنة ٦٥١ بدار الخلافة ، فاستُخرج بعد إطفائه من تلك الأواني ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار ، وسبقه حريق في سنة ٦٠١ فبلغ ما احترق بالدار فيه أكثر من نصف مليون دينار^(٣).

وكانت نساء الخلفاء وجواربهن يبالغن في زينتهن ، حتى يقال إن زوجة الخليفة المستضيء كانت تزين نعالها باللآلئ الكبار^(٤) ، فإبانا بما كانت تتخذة وراء ذلك من الحلى والجواهر. ويقال أيضاً إن جارية للمستنصر بالله بلغ من عنايتها بشبابها وزينتها أن صاحب ديوانها رصد ما أنفقت في شهر للزراكية والصاغة والبرازين (تجار الملابس) والجوهرين ، فإذا هو مائة ألف دينار ونحو خمسمائة ألف درهم^(٥). ويروى عن هذا الخليفة أنه نفع كبير حرسه علاء الدين الطبرسي ليلة زفافه على ابنة الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مائة ألف دينار غير إقطاع كبير أهدها إليه^(٦) ، ويقال إنه أحصيت في عيد الفطر سنة ٦٢٦ الخلع التي وهبها الطبرسي لماليكه وأتباعه فبلغت ١٧٠٠ خلعة^(٧). فقصرُ الخلافة بل كل حواشي القصر كانوا يعيشون في ترف شديد. وقل ذلك نفسه عن السلاطين وحواشيهم من البويهيين والسلاجقة والإيلخانيين ومن جاء بعدهم ، وكانت الأموال تُصَبُّ في حجورهم وينفقون منها كثيراً على ترفهم وبذخهم. ويقال إن ميزانية الدولة بلغت في عهد عضد الدولة نحو اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير . وكان يُعَيَّن ببناء القصور وعمارتها ، ويروى أن ميزانية الدولة في عهد ملكشاه السلجوقي بلغت عشرين مليوناً من الدنانير^(٨) ، وكثير من الملايين المذكورة كان يتحول في قصورهم إلى ترف ما بعده ترف ،

(١) المتظم لابن الجوزي ٣٦/٩ وانظر كتاب السادة البدرى فهد ص ٢١٣ .
البدرى فهد ص ٢٨٢ .

(٢) المتظم ١٦٥/٩ .
(٣) مضار الحقائق ١٨٣ وبدرى فهد ص ٢٨٢ .

(٤) دول الإسلام للذهبي (طبع حيدرآباد) ٨٠/٢ .
(٥) بدرى فهد ص ٢٥٢ .

(٦) بدرى فهد ص ٢٨٣ .
(٧) انظر مضار الحقائق وسر الخلائق لحد بن تقى

الدين الأيوبي ١٢٣- وراجع تاريخ العراق في العصر
(٨) المتظم ٧/٩ .

وظل ذلك بقصور الخلفاء في العهد الأخير من الدولة العباسية كما مر بنا آنفاً . ولا شك في أن شيئاً كثيراً من التدهور أصاب بغداد بعد الغزو المغولي ، إذ أصبحت مع ما يتبعها من المراق ولاية ضمن ولايات متعددة يدبر شئونها الإيلخانيون ثم التيموريون ومن جاء بعدهم . ومعروف أن الإيلخانيين لم يتخذوا بغداد عاصمة لهم ، بل كانت عاصمتهم تبريز ومدينة بنوها سموها السلطانية ، وعاد حقاً إلى بغداد شيء من النشاط في عهد الشيخ حسن الكبير وأبنائه ، بل قبل ذلك في عهد بوسعيد ، ولكن على كل حال لم يعد لها مجدها القديم ، بل سرعان ما تردت في هوة من فساد الحكم . وغزاها تيمورلنك وتولاها بعده أحمد بن أويس ثم قرايوسف وأبنائه ثم أوزون حسن كما أسلفنا ، وأصبحت إحدى الولايات في الدولتين الصفوية والعثمانية . وإذا كان ابن جبير زارها سنة ٥٨٠ هـ وقال إنه ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهر اسمها وإنها أصبحت كالطلل المدارس والأثر الطامس^(١) فإن ابن بطوطة حين زارها سنة ٧٢٨ في عهد بوسعيد الإيلخاني أعاد إلى الأذهان كلام ابن جبير ، وعلق عليه بقول أبي تمام . قائلًا كأنه اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بغداد ناعيا فليكنها لخراب الدهر باكيا^(٢)
وبدون شك كانت حيوية بغداد أقوى من الخراب الذي أصابها مع غزو هولاكو ومع خروج صولجان الحكم منها فقد ظلت لها مسحة غير قليلة من عراقها ، وظلت متراً للعلم والعلماء ، بفضل ما كان يحميه حكامها من حوض دجلة والفرات وما به من أشجار وزروع وثمار . وإذا كنا قد رأينا الخلفاء والحكام وحواشيهم يتنفسون حياة مترقة ، فقد كان يتنفسها معهم الأشراف وكبار الموظفين والإقطاعيين والوزراء . وكان الأخيرون خاصة يدبرون شئون الدولة وتصير إليهم أموالها ، فأثرى منهم كثير ثراء فاحشاً ، وغرقوا في الترف والنعيم . ويلقانا في أول العصر المهلهلي وزير البويهي ، وكان يشتر بمآدبه وكثرة ما كان يقدم فيها من أصناف الطعام والحلوى ، وقالوا إنه كان إذا أراد أن يأكل شيئاً بمعلقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين معلقة زجاجاً مجروحاً ، فيأخذ منه معلقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى ، حتى ينال الكفاية ، لتلا يعيد المعلقة إلى فيه دفعة

ثانية^(١) . وفي هذا الخبر ما يدل على مدى الترف وما دخله من تعقيد في الوسائل ، فاللون من الطعام لا يؤكل بملعقة واحدة وإنما يؤكل بملاعق كثيرة . وأبعد من هذا الخبر دلالة على الترف الذي غرق فيه بعض الناس وكثرة ما كانوا ينفقون فيه ما يروى عن المهلبى أيضاً من أنه « ابتاع له في ثلاثة أيام وَرْدٌ بألف دينار فُرشت به مجالسه وطُرح منه كمية كبيرة في بركة عظيمة كانت في داره ، ولها فُوارات عجيبة يطرح الورد في مائها وينفضه^(٢) » وإذا كان يشتري من الورد وحده في ثلاثة أيام بألف دينار كى يزين به مجلسه وبركة قصره ، فإذا اشترى لهذا القصر من السجاجيد والبسط والطنافس والستور وأنواع الوسائل والديباج والتحف . لابد أنه اشترى من ذلك كله بمئات الألوف . ولم يكن هذا شأنه وحده ، بل كان أيضاً شأن الوزراء جميعاً وكبار الإقطاعيين والتجار . واشتهر بمجالس أنه التي كان يعقدها بقصره ليلتين في كل أسبوع ، ويقول ابن خلكان : « كان يجتمع فيها عنده ندماءه من الفقهاء والقضاة على اطراح الحشمة والتبسط في القصص والحلاعة ، وهم القاضي أبو بكر ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذَّ سماع الغناء وأخذ الطرب منهم مأخذة وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقبلوا في أعطاف العيش ، بين الحقة والطيش ، ووضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب فيه ألف مثقال ، مملوء شرباً قُطْرِيّاً أو عُكْبَرِيّاً ، فينمَس لحبته فيه ، بل يتقمعها حتى تشرب أكثره ويرش بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم الثياب المصبغات وحنائق المشور ، فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التورق والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء^(٣) . »

وظل هذا الترف طويلاً في مجالس الوزراء والسلاطين والأمراء ، واشتهر عضد الدولة بمجالس أنه في بغداد وغير بغداد وما كان بها من السماع وغناء الجوارى والمغنين والرقاص والفاكهة والرياحين وأنداح الشراب ، ويقال إنه غنى يوماً بأبيات للخليفة المطيع لله وكان قد لحنها ، فلم يعجبه لحنه^(٤) . وكان الخلفاء وأبناء الخلفاء كانوا لا يزالون يضمنون الألحان لبعض الأغاني كما مر بنا في العصر العباسي الأول . وبدون ريب كان يعيش هذه المعيشة المترفعة التي لا تخلو من خمر وغير خمر كبار القواد ورؤساء الدواوين والإقطاعيون وكبار التجار والموظفون . ويعرض محمد بن أحمد أبي المطهر الأزدرى - في حكايته الطريقة من

(١) معجم الأديباء ١٥٣/٥ وانظر الفن ومذاهبه في (٣) ابن خلكان ٣٦٦/٣ .

الشعر العربي ص ٢٧٩ . (٤) معجم الأديباء ١٧/١٠١ وما بعدها .

(٢) معجم الأديباء ١٣٨/٩ .

أبي القاسم البغدادى التى تقص حياة شيخ طفلى بغدادى فى يوم ببغداد فى القرن الخامس للهجرة - ما كانت تلبسه الطبقة المترفة من ملابس أنيقة مجلوبة من جميع البلدان العربية موشاة بدبياج الذهب المنسوج وكأنما نُسجت من أزهار الربيع ، كما يقول ، يفوح منها العنبر والطيب . ويذكر بيوت هذه الطبقة فيقول إن سقفوها غُشيت بالساج وزُيّنت تعاريجها بالآبنوس والعاج ، مع الأروقة المليحة والأبهاء المشرفة العالية ومع الأواوين (جمع إيوان) وقد فُرشت بالطنافس والمخادذ المذهبة والأبسطة والمقاعد المموهة بالذهب والمطارج المحشوة بربيش العصافير المندبة والدبياج التستريّ المقصبّ الذهبى . ثم يُقبض فى القول فى الأطعمة من كل صنف والأفواه والطور وأنواع المسك والعنبر والعود المطيب وأدوات الزينة من الأمشاط وغير الأمشاط . ويوازن بين هذه الحياة المترفة وحياة الطبقة الوسطى والدنيا الخشنة ، واصفاً أطعمتها ودورها . ويبدو أنهم كانوا يضيفون إلى كثير من الأطعمة أنواع الطيب وماء الورد والتفاح وحبّ الرمان والزعفران ، ويعرض أصنافاً كثيرة للحلوى ، وطبيعى أن تكثر فيها العطور . ويقول إنه حين يرفعُ الطعام يأتى فراش مهتل الوجه نظيف الثياب خفيف الروح يده خلال سلطانى مطيب ، ويفسل الضيوف أيديهم ، ويناولهم الفرائش متاديل ألين من القُرّ وأنعم من الحُرّ . وبطيل الوصف للوز والجوز المقشورين وأنواع الفواكه وما كانت تزيّن به الموائد من الأزهار والأنوار ، ويتحدث عن الخمر وكثرتها وبناتها مطبياً مطبلاً . ويذكر ما فى مجالس السُراة من الغنى الذين يأخذون بمجامع القلوب ، إذ يملأون الآذان سروراً ويقدهون فى القلوب نوراً^(١)

وكانت المغنيات يغنين فى مجالس السلاطين والحلفاء من وراء ستارة ، أما فى مجالس السراة وعلية القوم والنوادى فكان يغنين دون ستارة غالباً ، وبطيل ابن أبى المطهر الأزدي فى الإشادة بمغنيات بغداد ووزماراتها وطبائنها وصناعاتها ورقاصاتها وضاربات العود بها ، ويصف إحداهن ممن يضرين على العود قائلاً : تدخل المجلس تطهره من نسيهما بالمسك والكافور والعنبر وتجري عليها غلالة جريّ الماء ورداء قصب مزين مرصع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر وفى عنقها سبحة (عقد) من الحب الكبار بما يعادل ألف دينار ، والجوارى يحملن ذبول ثوبها . وتجلس وعلى وجهها إزار قصب أبيض رقيق ، وتبدو متقبّة لا يرى منها إلا المهاجر وأطراف الذوائب ، وتلقى بحديث كثره الجنان أو صوب الفقام أعذب من الماء الزلال ، وأعلق بالنفوس من السحر الحلال ، ثم تحسر

(١) حكاية أبى القاسم البغدادى (نشر ستر فى

النقاب وتناول عوداً من ساج منقوشاً بالعاج ونجس أوتاره وتفتح غناه - كما يقول أبو القاسم - أعذب من تيار الفرات وتفتت في مجارى الحلق وتكسر في مجارى النفس . يقول : وهناك لا تسمع إلا شهقة عالية ، ومقلة باكية ، وجيأ مشقوقاً ، وفؤاداً يطير خفوقاً^(١) .

ولم نلم إلا بكلمات قليلة من وصف أبى القاسم لهذه الجارية المغنية ، لتدل على أن الغناء كان لا يزال مزدهراً ببغداد حتى القرن الخامس ، ونظن ظناً أن هذا الازدهار ظل له طويلاً . وغاية ما فى الأمر أنه لم يتح له عالم يؤلف فيه على نحو ما ألف أبو الفرج الأصفهاني كتابه الأغاني عن المغنين والمغنيات فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وفى كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدي فى أوائل هذا العصر نص طويل^(٢) يصور ازدهاراً عظيماً للغناء فى زمنه ومدى تأثير الناس به وطربهم عند سماعه على لسان المغنيات والمغنين ، ويحكى لنا كيف كان شخص يسمى البرداني يطرب طرباً شديداً حين يستمع إلى علوة جارية ابن علوية ، وهى تغنى بأبيات للسروى يقول فيها :

بِالْوَرْدِ فى وَجْهِكَ مَنْ لَطَمَكَ وَمَنْ سَقَاكَ الدَّمَامَ لِمَ ظَلَمَكَ

ويستمر أبو حيان فى وصف انفعال السامعين إزاء الغناء ببغداد فى عصره ، من مثل ابن فهم ، وكان يطرب إذا اندفعت « نهاية » جارية ابن السلى يشدوها :
أستودع الله فى بغداد لى قمرأ بالكرخ من فلك الأزرار مطلقه
ودعته ويودى لو يودعنى صفو الحياة وأنى لأودعه

والبيان من قصيدة أبى محمد على بن زريق وستشيد منها أبياتاً أخرى فى الفصل الثالث . ولما سمعها منها ضرب بنفسه الأرض وتحرغ فى الزراب وهاج وأزبد وتغمر شعره ، وهبات من الرجال من يضبطه ويُسكبه ومن يجسر على الدنونه ، فإنه يعص بنابه ، ويخمش بظفره ، ويركل برجله ويمرّق للرمة (رداء الصوفية) قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لكمة ، كأنه عبد الرازق المجنون بباب الطاق . وكثيرون كانوا يظربون طرب هذا الصوفى ، فتقلب حاملق عيونهم ، ويسقطون مغشياً عليهم ، ويرشون عليهم الكافور وماء الورد - كما يقول أبو حيان - ويقراءون فى آذانهم آية الكرسي والمعوذتين ، ويرقونهم رقى مختلفة ، حتى يفيقوا من سكرتهم ، منهم أبو الحسن الجراحى قاضى الكرخ ، فإنه كان إذا سمع الجارية « شملة » وهى تغنى أغنيها :

لابد للمشتاق من ذكر الوطن واليأس والسلوة من بعد الحزن

ابتلت شيبته بالدموع ، مع شجن قد تقب القلب وأوهن الروح وثقت الصخر وأذاب الحديد ، يقول أبو حيان : « وهناك ترى - والله - أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحللة ، وشهيقهم قد علا رحمة له ، ورقة عليه ، ومساعدة لحاله . وهذه صورة إذا استولت على أهل المجلس وجدت لها عدوى لا تُملك ، وغاية لا تُدرك ، لأنه قلما يخلو إنسان من صبرة أو صباية ، أو حسرة على قالت ، أو فكر في تمتنى ، أو خوف من قطيعة ، أو رجاء لمستظر ، أو حزن على حاله . ويسوق أبو حيان لنا صورا من طرب الشعراء حين سماع بعض الجوارى أو المغنين ، فهذا ابن نباتة يطرب على صوت جارية تسمى «خاطف» وهذا ابن حجاج يطرب على غناء فتوة البصرية ، وهى جارته وعشيقته . ويذكر أبو حيان أن الطرب كان يأخذ بآبن صبر القاضى كل مأخذ ، حين يستمع إلى «درة» جارية أبى بكر الجراحى وهى تغنى :

لست أنسى تلك الزيارة لا طرقتنا وأقبلت تنبتى
كم ليل ليلايتنا نلذ ونلهو ونسقى شرابنا ونغنى
هجرتنا فما إليها سبيل غير أنا نقول : كانت وكنا

يقول أبو حيان : « وإذا بلغت : « كانت وكنا » رأيت الجيب مشقوقا ، والذبل مخروقا ، والدمع منهلا ، والبال منخللا ، ومكروم السر فى الهوى باديا ، ودليل العشق على صاحبه ناديا . ويعرض علينا أبو حيان صورا مختلفة من طرب الصوفية مثل المعلم غلام الحضرى شيخ الصوفية ، ومثل ابن سمعون أكبر واعظ شهدته بغداد فى زمنه ، فإن الطرب كان يقيمه ويقمده حين يستمع إلى ابن بهلول ، وهو يزلزل الدنيا بصوته الناعم وغنى الرخيمة وظرفه البارع ودمائه الحلوة . ويذكر أبو حيان جارية كانت تنوح تسمى حبابه كانت فى الترح واحدة لا أخت لها وقد تهالك الناس بالعراق على نوحها ، يقول : ورأيت لها أختا يقال لها « صباية » كانت فى الحسن والجمال فوقها . . وزلزلت هذه بغداد فى وقتها ، ولم يكن للناس غير حديثها لتوادرها وحاضر جوابها . ثم يقول أبو حيان فى ختام هذا الفصل الطريف .

« ولو ذكرت هذه الأطراف من المستمعين والأغاني من الرجال والصبيان والجوارى والحرائر لأطلت وأملت وزاحمت كل من صنف كتابا فى الأغاني والألحان . وعهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة . وقد أحصيت - أنا وجامعة فى الكرخ - أربعائة وستين جارية فى الجانبين (جانبى بغداد الغربى والشرقى) ومائة وعشرين حرة يجمعن بين الحسن والحذق والظرف والعشرة . وهذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لمرته وحرسه

ورقبائه ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالفناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت أو تئيل (سكير) في حال ، وخلق العذار في هوى قد حالقه وأضناه .

ولاريب في أنه كان يجوار أولئك اللثات من المغنيات لثات من المغنين ، وكما كنا تمنى لو أن أبا حيان أطال وأمل وصنف في أغاني عصره كتاباً ككتاب أبي الفرج الأصبهاني ، ولكنه لم يُعَنَ بذلك فحَسَر الشعر والفناء خسارة كبرى لأن معاصريه ومن جاءوا بعده لم يحاولوا التأليف في الأغاني والمغنيات والمغنين على غرار صنيع الأصبهاني . وأكبر الظن أن هذا الازدهار للفناء ظل حتى غزو التتار لبغداد ، وبقيت منه أسراب في الحقب المغولية ، إذ نجد ابن بطوطة حين زار بغداد سنة ٧٢٧ يذكر أنه رأى السلطان الإيلخاني بوسعيد في سفينة بدجلة ينتزه ، وعن يمينه وشماله قوارب وسفن لأهل الطرب والفناء ، ويذكر أيضاً أنه رأى هذا السلطان في أحد مواكب تنقله ، ومع كل أمير من أمرائه عسكريه وطبولة ، وكان يتقدم الموكب الحجاب والنقباء ثم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل ، كانوا يغنون في مجموعات بالتناوب ، ولا يزالون يتداولون الغناء بينهم ، حتى يتزل بوسعيد ، فإذا ركب عادت الجماهير إلى الطرب والفناء^(١) .

ولم تكن الطبقة الدنيا تتم بالفناء نعم الطبقة الأرستقراطية ، والمظنون أن الطبقة الوسطى كانت تتم به بعض الشيء ، أما من وراءهم من عامة الناس فلم يكن لديهم من المال ما يعملهم بأخذون بنصيب من هذا النعم ، إلا ما قد ينعمون به في الأعياد العامة ، وعادة كانت بغداد تزين بالأعلام ذات الألوان الزاهية في عيدي الفطر والأضحى ، ومع مواكب الحج في رحيلها وقدمها ، وظل الاحتفال بذلك كله حتى نهاية هذا العصر ، وكانوا يحتفلون بأعياد الفرس ويخرجون فيها للمنتزهات وسماح المغنين والمغنيات ، وأهمها عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر ، ويستمر ستة أيام ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر ، ويأتي بعده عيد السُنُق ، وهو يوافق عيد الميلاد ، وفيه تُشعل النار في السفن والزوارق بدجلة ، وتخرج العامة للفرجة عليها وبأيديهم الشموع ، ويلى هذا العيد عيد النيروز في أول الربيع ، ويتبدئ في الحادى والعشرين من مارس ويستمر ستة أيام مثل عيد المهرجان . وبجانب ذلك كانوا يحتفلون بأعياد النصرى ويخرجون فيها للمنتزهات والأديرة ، وكان لكل دير عيده .

ومن المحقق أن العامة كانت تعاني كثيراً من الضنك والضيق لكثرة الضرائب التي كانت تُجسبى منها وقلة ما كان يعود عليها من الكسب ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه أن

(١) ابن بطوطة ١٤٣/١ وما بعدها .

الطيب حين كان يدور من بيت إلى آخر لمعالجة العامة كان يأخذ أجراً له عن كل مريض ربع درهم^(١) ، ويذكر الترخي أن رجلاً كان يستأجر حانوتاً بنصف درهم وزيدت إلى درهم^(٢) . والخبران من أخبار أوائل العصر في القرن الرابع الهجري ، فبالنما بصارت إليه العامة بعد ذلك من يؤس وتعامه ، وهذا هو السبب في كثرة العيَّارين ببغداد طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ومن يقرأ أخبارهم يحس أنهم كانوا يستشعرون بفكرة العدالة الاجتماعية ، إذ يرون طائفة قليلة من الوزراء والقواد وكبار الموظفين والإقطاعيين والتجار الموسرين يتمتعون بل يتحرفون في الترف والتعميم وهم محرومون بتجرعون البؤس والمسغبة ، وقد أشعلوا في شهر المحرم لسنة ٣٦٤ للهجرة ببغداد حريقاً عظيماً ، واستفحل أمرهم حتى خافهم الجند وتلقبوا بالقواد وتسلطوا على بغداد وأخذوا الضرائب من الأسواق^(٣) ، ويذكر أبو حيان من قوادهم ابن كبرويه وأبا الدرد وأبا الذباب وأسود الزيد^(٤) . وعادوا إلى التسلط على بغداد سنة ٣٨٠ فبهوا وعينوا عريقاً لهم في كل محلة^(٥) . وأخذ يتنظم مع الزمن في صفوفهم كثير من العلويين والعباسيين كما حدث في فتنهم سنة ٣٩٢ مما يدل على أنهم كانوا ساخطين سخطاً شديداً على الأغنياء المترفين من رجال الدولة وغيرهم ، وأنهم كانوا ينادون بفكرة العدالة الدينية . ونحصى في القرن السادس الهجري فوجد فتنهم تشتمل ببغداد من حين إلى حين ، ويعظم شأنهم في عهد السلطان مسعود السلجوقي (٥٢٧ - ٥٤٧ هـ) وينهبون بغداد مراراً . وما زالت فتنهم تشب فيها طوال القرن السادس ، حتى إذا كنا في عصر الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وجدناه في سنة ٥٧٨ يستدعي شيخاً من بينهم عرف بأن له أتباعاً كثيرين ، ففرض عليه أن يتنظم معه ومع أتباعه في الفتوة ، على أن تتجه وجهة صالحة ، فلا تكون للإفساد ولا للهب ولا للفتن ، بل تكون فتوة فاضلة تقوم على المروءة وشرف النفس . وشرب الناصر من يد الشيخ عبد الجبار ماء الفتوة وهو ماء مملوح ، وكأنه يشير عندهم إلى أنهم لا يشربون الخمر وأيضاً لبس الناصر سراويلها كما أسلفت وأخذ في تنظم هذه الفتوة الشريفة ، فدخل فيها أهل بغداد أفواجا ، وعمد إلى نشرها في الآفاق وطلب إلى الحكام أن يدخلوا فيها ، ودخل كثير منهم ، على هدى منشور فيها ، أرسله إلى الآفاق يحض على الانتظام في سلوكها ، وكان ممن انتظم فيها شهاب الدين الغوري سلطان غزنة والهند ، كما ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٦٠٢ وانتظم فيها السلطان

(١) سكويه ١٩٨/٢ .

وابن تغري بردي .

(٢) الفرج بعد الشدة للتخري ١٥٥/٢ .

(٤) الإنتاج والمؤنة ١٦٠/٣ .

(٣) انظر حوادث سنة ٣٦٤ في المتظم وابن الأثير (٥) راجع في السنة المذكورة المتظم وابن الأثير .

المعادل الأيسرى وأبناؤه كما مرّ بنا. وكان هذا عملاً جليلاً، لأنه أنقذ بغداد من العيارين والنهب والسلب المسترف حسب، بل لأنه وجّه شباب بغداد بل شباب الأمة إلى اتخاذ الفتوة الفاضلة درعاً في حروبهم مع أعدائهم من الصليبيين، وقد تحولت إلى نظام عظيم، كتب فيه العلماء كتباً، من أهمها كتاب الفتوة لابن المهار البغدادي المتوفى سنة ٦٤٢ وهو يوضح فيه حقيقتها ومنشأها ومترئها من الشريعة الإسلامية وشرائعها ومصطلحاتها على السنة القتيان النبيلة^(١). غير أن بغداد لم تلبث أن اكتسحت أوج التار هي والعراق، وحكمها الإيلخانيون ومن جاء بعدهم من التيموريين والركان والصفويين والعثمانيين، وأخذت أحوال أهلها هي والعراق عامة تزداد سوءاً من عصر إلى عصر، لكثرة ما كان يفرض على الناس في المدن والريف من الضرائب الفادحة.

ولم نتحدث عن أهل الذمة من الجوس والنصارى والصابئة واليهود، وكانوا يتمتعون بتسامح واسع نظير ما يدفعونه من الجزية، وكانت لا تتجاوز ديناراً للعامّة ودينارين للطبقة الوسطى وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء، وكانت أشبه بضريبة تؤخذ للدفاع الوطني، إذ لم يكن يؤديها إلاّ من يقدر على حمل السلاح، فلا يؤديها النساء ولا الرهبان ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس ولا ذوو العاهات. وكانت الدولة وخاصة في الحقبة البويية تستخدم بعض النصارى في الدواوين واتخذ منهم عضد الدولة وزيراً - كما مرّ بنا - وكان منهم أطباء كثيرون في مختلف الحقب، أما اليهود فكانوا يشتغلون بأهون المهن، فكان منهم الصباغون والخزّازون وأمثالها كالأساكفة.

وكان الرقيق كثيراً أكثر مفرطاً، وكان من أجناس مختلفة، فنه الإفريق ومنه التركي الآسيوي ومنه الأوربي وخاصة الصقلي والرومي. وكانت له سوق رائجة في بغداد من قديم، وكانت التجارة فيه تدرّ أرباحاً طائلة على النخاسين، وكانت لهم حيل كثيرة يخدعون بها الناس عند شراء الجوارى والرقيق بعماء، ومن أجل ذلك ألف ابن بطلان المتوفى بعد سنة ٤٥٥ للهجرة رسالة سماها «شراء الرقيق وتقليب العبيد» وفيها بصور حيل النخاسين في تحسين الجوارى وطرق خداعهم في إزالة آثار الجدري والوشم والشمس من أجسادهن وصبغهن بألوان تحفى ما قد يكون من آثار البرص أو البهق وصبغ عيونهن بألوان تجعلها كحلّاء أو زرقاء، ويصور بعض مقاييس الحسن في الجارية من أخصص قدمها إلى

للمشرق الألماني فرانز شيرن في كتاب المتقن من دراسات
المشتقين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر).

(١) انظر الفتوة وتنظيم الناصر لما كتب الفتوة لابن
المهار (طبع بغداد) والمقدمة الطويلة التي كتبها الدكتور
مصطفى جواد لهذا الكتاب. وانظر الفتوة والمتلقة الناصر

مفروق شعرها^(١) وكانت المخطوطات منهن تُجَلَّبُ إلى دور الخلفاء والسلاطين ، وكثير من الخلفاء كانوا من أبنائهن ، فالقائم بأمره (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) كانت أمه قطر الندى جارية رومية^(٢) ، وابنه المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) كانت أمه جارية أرمينية^(٣) . وكذلك كانت أم المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) من الجوارى^(٤) . وكان منهن كثيرات في قصر الخلافة يخدمن زوجات الخلفاء أو يكنن وصيفات لهن^(٥) .

وكانت الجارية المغنية تباع بأعلى الأثمان ، وكان في بغداد بعض نوادرها جوار مغنيات يختلف إليهن الشباب لسماع الغناء واللهو^(٦) . واشتهر كثيرات منهن باللطف والظرف والبدية الحاضرة ونظم الشعر^(٧) وحب الأزهار ونقش الأبيات الرقيقة على الأردية والأكماء والمصائب والمناويل ، وكان لذلك تأثير في رقى الأذواق ببغداد من قديم . وكان شرب الخمر معتاداً في كثير من مجالس السلاطين والوزراء وسراة القوم ، على نحو ما مرّ بنا عن المهلبى وزير معز الدولة البويهى ، وحكوا عن ابنه عز الدولة بختيار أنه كان يجب أن يقضى أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالزرد ونحريش الكلاب والديكة والفتاح (العقبان)^(٨) . ومرّ حديثنا عن عقد الدولة البويهى ومجالس أنسه وطربه وشربه . وكان السلطان مسعود السلجوق منهمكاً في اللذات والانمكاف على الخمر والراحات^(٩) . ويكثر وصف الخمر على ألسنة الشعراء وفي حكاية أبي القاسم البغدادي وصف كثير لها في غير موضع ، وفيه تساق بعض أشعار الماجنين الكبارين ببغداد في القرن الرابع الهجرى : ابن حجاج وابن سكرة ، وهما أكبر مجان بغداد - إن لم يكن كل البلدان العربية - على مرّ التاريخ .

وكان الصيد هواً عاماً للسلاطين والناس ، وكان من أكبر هواته ملكشاه السلجوق ، ويقول ابن خلكان : وكان لهجاً بالصيد ، حتى قيل إنه ضُبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف فصديق بعشرة آلاف دينار . وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار . . . وخرج مرة من الكوفة لتوديع الحجاج . . . وصاد في طريقه وحشاً كثيراً ، وبني هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء مما صاده^(١٠) . وكانت العامة تلهج بالصيد مما دفع

(١) انظر رسالة شراء الرقيق وتقليب العيد بين الرسائل (٦) أخبار الطراف والماجنين لابن الجوزى (طبع دمشق) ص ٩٧ .

(٢) للتظم ٥٨/٨ . نفس المصدر ص ٩٧ وتاريخ بغداد للخطيب

(٣) للتظم ٢٩١/٨ و ٢٠٠/٩ . البغدادي ٣١/٨ .

(٤) للتظم ٨١/٩ . (٨) مسكويه ٣٨٦/٦ .

(٥) للتظم ٢٣٠/٨ وللتباعد من فترات الأجساد (٩) ابن خلكان ٢٠٢/٥ .

(١٠) ابن خلكان ٢٨٤/٥ . للتزنى ٢٣ .

الناصر إلى أن يجعله جزءاً من الفتوة ، إذ اشترط فيها إحسان المتسب إليها الرمي بالبندق ، وكأنه كان يريد أن يبرهن الشباب لا على الصيد من حيث هو وإنما على صيد أعداء العرب والإسلام ، ولما صره الفتى عمر بن السفت غمض طويل في وصف قوس البندق وإحكام الصيد^(١) .

واستمر من هواياتهم في هذا العصر اللعب بالترد وكذلك اللعب بالشطرنج وفي حكاية أبي القاسم وصف طويل للشطرنج واللعب به . وكان من تسليةهم القديمة مهارشة الديكة ولعبة خيال الظل ، وكانوا يلعبون بالحمام ويتخذون له أبراجاً كبيرة ، وكانوا يقامرون عليه ، فيرسل كل حمامه ، ومن جاء حمامه أولاً كسب الرهان ، ومن أهم أنواعه الزاجل ، وكانت الحكومات تستخدمه في البريد أو التراسل . وكان من ألعابهم سباق الخيل . وكانت الفروسية مهوى أفئدة الشباب ، وخاصة أصحاب الفتوة فكانوا يمترون على استخدام السلاح سواء أكان ضرباً بالسيف أو رمياً بالنبل . وكان من العادات الشائعة الاحتفال بالختان ويحتم القرآن وبالأزواج وكان الفقراء يستعمرون لفتياتهم ولأنفسهم الملابس والحل للظهور بالمظهر الكريم في حفل الزفاف . ومن المؤكد أنه ظل يحتم على صدر بغداد حزن كتيب منذ غزاها المغول حتى العصر الحديث .

٤

الشيعة

يقوم التشيع على أساس نظرية في إمامة المسلمين يؤمن بها الشيعة جميعاً ، وهي نظرية تعتمد على أن هذه الإمامة وراثية في علي بن أبي طالب وأبنائه المختارين للنهوض بالخلافة الشرعية للمسلمين من الوجهتين الدينية والدنيوية . ولذلك لا يسمون الحاكم الأعلى للمسلمين في رأيهم خليفة كما يسميه أهل السنة ، وإنما يسمونه إماماً ليدل هذا اللقب على مكانته الدينية . والإمام الأول عندهم هو علي الذي اختاره الرسول ﷺ في اعتقادهم ، ليكون إمام المسلمين بعده ، ويسمون ذلك وصية ، إذ يقولون إن الرسول أوصى لعلي بالإمامة بجوار غدير خم بين مكة والمدينة . فهو وصي النبي وكل إمام بعده وصي لسلفه ، عني بعده صراحة وفقاً لترتيب إلهي . ويضيف الشيعة إلى ذلك أن الرسول ﷺ بثَّ علماً علوماً خصه بها ، وهي علوم تجعل له - في عقيدتهم - قدسية وصفات روحية خاصة ،

وهي صفات وعلوم يرثها كل إمام عن سالفه .

والشيعة فرق كثيرة ، ونقصر حديثنا على ثلاث منها عُرِفَت بالعراق لهذا العصر ، هي الإمامية الاثنا عشرية والزيدية والثَّصِيرِيَّة . والأولى^(١) هي التي يدين بها جمهور الشيعة في العراق حتى اليوم ، أما الفرقتان الثانية والثالثة فَعُرِفَتَا في بعض البِلدات والمدن ، ولم تَعْمَأ في العراق إنما التي عَمَّت الإمامية الاثنا عشرية ، ولذلك ينبغي أن نَفْصِلَ القول فيها بعض التفصيل . وعندهم أن إمامة علي وأبنائه من السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ جزء لا يتجزأ من صحة العقيدة الإسلامية ، يقول الكليني المتوفى سنة ٣٢٨ في كتابه الأصول من الجامع الكافي : « ليس بمسلم حقا من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً وإمام عصره وَمَنْ لَا يَفُوضُ أمره للإمام ويبدل نفسه في سبيله ، والإمامية بذلك يعملون من أركان الإسلام الأساسية - في عقيدتهم - الإيمان بالأئمة والانضواء تحت لواء إمام العصر^(٢) » وبضنى الإمامية على الإمام صفات روحية قدسية أودعها الله فيه مع ما أودع من العلوم ، وهي صفات يعلو بها على المستوى البشري للناس ، بها يكون هادياً لهم وموجهاً ، إذ ورثها عن الأئمة قبله ، وورث معها المعارف والأحكام الإلهية ، وكل ما يحدِّد يعرفه عن طريق الإلهام بالقوة القدسية والمشية الإلهية . فكل علم له إنما هو من لدن الله وكل أمر إنما هو بتوجيه الله^(٣) . وطاعة الأئمة لذلك واجبة ، إذ هم أبواب الله والسبل إليه والإدلاء عليه ، وهم ذخيرة علمه وتزاجمة وحيه وأركان توحيده وتزآن معرفته . أمرهم أمر الله ، ونهيهم نهى ، وطاعتهم طاعة ، ومعصيتهم معصية^(٤) . ومما يستدلون به على وجوب طاعتهم قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأولو الأمر ليسوا هم - كما يدل ظاهر الآية - علماء الأمة المجتهدين ، وإنما هم الأئمة . ويقولون إن الله أوجب طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله . وعلى هذا النحو يرتفع الشيعة الإمامية بأنتمهم عن الطبيعة البشرية إذ يعملونهم معصومين عن الخطأ واقتراف الذنوب والآثام . وتعد هذه العصمة للأئمة من المبادئ الأساسية في العقيدة الإمامية ، ويستدلون عليها باختيار الله لهم - على نحو ما تصور ذلك عقيدتهم - والله لا يختار لعباده

ص ١٨١ وفي مواضع مختلفة

(٣) راجع عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر

(طبع القاهرة) ص ٧٢ والكليني ص ١٤٦ - ١٤٨

(٤) انظر المظفر ص ٧٤

(١) انظر في الإمامية للعل والنحل للشهرستاني وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمي والعقيدة والشرعية في الإسلام لجولد تسيير والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) راجع الكليني ص ١٠٥ و٣٦٨ وجولد تسيير

في رأيهم إلا المعصومين^(١) .

ويؤمن الإمامية الاثنا عشرية بأن الأئمة اثنا عشر ، ولذلك يسمون الاثني عشرية ، وهم - على الترتيب - علي بن أبي طالب ، فابنه الحسن ، فأخوه الحسين ، فابنه علي زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، فابنه موسى الكاظم ، فابنه علي الرضا ، فابنه محمد الجواد ، فابنه علي الهادي ، فابنه الحسن العسكري ، فابنه محمد المهدي المولود سنة ٢٥٦ للهجرة ، وقد اخفى عندما كان طفلاً . ويؤمن الإمامية بأن هذا الإمام حي وأنه سيعود ليعلا الأرض عدلاً بعد أن مُلكت جوراً ، وبعد سنن الرسول ﷺ ويسترد حق أسرته في الولاية على الأمة في يوم موعود به من الله ، هو سر من الأسرار الإلهية . ويقولون إن هذا حقاً مخالف للمألوف أن يكون إماماً وهو قد رحل وعمره خمس سنوات وأن يظل قروناً متوالية حياً ، ولكنها - كما يعتقدون - معجزة ستحقق ، إذ يعود إليهم هذا المهدي المنتظر الذي يمرر - في عقيدتهم - العالم من مفسده وشروره ، ويُشيع في الناس العدالة . وهو بذلك حيّ ، وكل ما في الأمر أنه غائب خفي عن الأعين^(٢) . وهو عندهم في أثناء غيابه واختفائه قائم الزمان يسير بين الأحياء ولا يرويه ، ويرعى شئونهم ، ويدبر مصالحهم^(٣) .

وتؤمن الإمامية الاثنا عشرية بنظرية الرحمة ، إذ يعبد الله بعض الأموات إلى الدنيا ليقرأوا بين البشر نواميس العدالة الإلهية ، ثم يعودون بعد ذلك إلى الموت ، وكأنها بعث موقوت في الدنيا ، وهي طبعاً غير التناسخ ، فالتناسخ انتقال الروح من بدن إلى بدن ، أما الرحمة فعاد جسماني في الدنيا بنفس الصورة والشخصية . ويستدلون على هذه الرحمة بما جاء على لسان عيسى عليه السلام في الذكر الحكيم : (وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْبِصِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ) وما جاء عن قصة أهل الكهف في القرآن الكريم ، وأيضاً عن صاحب القصة في قوله تعالى : (فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) . غير أن فكرة الرحمة اختلطت بفكرة المهدي الذي سيأتي آخر الزمان ويتم على يديه الإصلاح المأمول ، ويقول الشيخ المظفر : «على كل حال الرحمة ليست من الأصول التي يجب الاعتقاد بها ، وإنما اعتقادنا بها كان تبعاً للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت عليهم السلام^(٤) » . وهو يلفتنا بذلك إلى أهمية

(١) انظر في عصمة الإمام لدى الاثني عشرية (٣) انظر جولدسيير ص ١٩٦ .

جولدسيير ص ١٨٨ . (٤) عقيدة الإمامية للمظفر ص ٨٣ وما بعدها وراجع

(٢) انظر في نظرية المهدي الكتب الشجرة السابقة في عقيدة الرحمة لدى الاثني عشرية جولدسيير ص ١٩١ وما بعدها وراجع في الغيبة عقائد جولدسيير ص ٨٠ .

الإمامية للمظفر ص ٨٠ .

الروايات المنسوبة إلى الأئمة في البيعة الإمامية فهي أقوى عندهم من كل برهان لأنهم في رأيهم معصومون مترهون عن الخطأ .

وتلحق العقيدة الإمامية مع الاعتزال في كثير من الأصول ، فالإمامية كالمعتزلة يرون أن صفات الله قائمة بذاته ، فهو عالم بذاته لا يعلم : وكذلك بقية صفاته ، ويروون عن جعفر الصادق : « العلم ذات الله ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، والبصر ذاته ولا مبصر ، والقدرة ذاته ولا مقدور »^(١) . وهم كالمعتزلة ينفون التشبيه عن الله ، فهو متره عن المكان والزمان والشبه بالمخلوقات ، إذ ليس جسماً ولا عرضاً ولا جوهرأ ، وقد سلكوا مسلك المعتزلة في تأويل الآيات القرآنية التي قد تفيد مشابهة الذات العلية للمخلوقات في مثل (يد الله فوق أيديهم) ففنى اليد القدرة . وهم كالمعتزلة في إثبات العدل على الله ، أما أفعال العباد فيقفون فيها موقفاً وسطاً بين المعتزلة والقائلين بالجبر ، فهي بين بين ، أو هي بين الاستطاعة والجبر . وظلت الصلة قوية بين الإمامية والاعتزال طوال العصر .

وقد أخذ المذهب الإمامي الاثنا عشرى يتشر في العراق منذ أوائل هذا العصر ، إذ تحول صولجان الحكم إلى البويهيين وكانوا إمامية ، ونرى حاكمهم الأول معز الدولة يأمر في سنة ٣٥١ بلمن معاوية وكبار الصحابة وكتب بعض الشيعة ذلك على حيطان المساجد ، فحما الكتابة أهل السنة^(٢) . ولم يلبث معز الدولة أن أمر أهل بغداد بالاحتفال بيوم عاشوراء في سنة ٣٥٢ وهو اليوم الذي استشهد فيه الحسين ، وقد أصبح منذ هذا التاريخ أكبر عيد للشيعة ، وفيه أمر معز الدولة أن تُغلق الأسواق ويعطل البيع والشراء ولا يُذبح القصابون ولا يطبخ الطبّاخون وأصحاب الحلوى ، والجميع ينوحون ويكون الحسين وينصبون القباب ويتخذون المسوح وتخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه مشقوقات الثياب ويذرن في بغداد ناخعات لاطحات وجوههن على الحسين^(٣) . وفي هذا اليوم يُزار قبر الحسين بكربلاء ، ويقام فيها عليه مأتم كبير كما تم في بغداد ، ويقام أيضاً في المدن العراقية الأخرى . ولا يزال يقام هذا المأتم إلى اليوم . وفيه يقام موكب كبير للنائحين ببغداد ، وتلك سيرة الحسين في البيوت والنوادي وتنشد مراث كثيرة فيه وفي أبيه وفي الأئمة المشهدين ، يصور فيها الشراء محن آل البيت على مر التاريخ . وبجانب هذا العيد الحزين عيد فرح

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة للعامل (طبع النجف) ص ٥٣ وانظر جولدنيهر ص ١٩٨ وما بعدها . حوادث عام ٣٥٢ .
(٢) لتظر ابن الأثير وأبا الفدا في حوادث عام ٣٥١ .
(٣) المنتظم ١٥/٧ وابن الأثير وابن تقي بردي في حوادث عام ٣٥٢ .

وسرور قرّضه أيضاً معز الدولة البويهى فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥٢ وهو عيد الغدير : غدير خمّ الذى يذهب الشيعة - كما أسلفنا - إلى أن الرسول ﷺ عهد إلى على بالخلافة قريباً منه وأنه قال : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلَى مَوْلاَهُ ، اللهم وال مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه . وقد أمر معز الدولة أن يستشر الناس فى الفرج ومظاهرة من اتخذ الرِّبّة ونَصَب القباب وتعليق الثياب ، وأشعلت النيران ليلاً وضربت الدبابدب والبوقات ^(١) . ولم يلبث أهل السنة ببغداد أن اتخذوا لهم عيدين يازاء العيدين السالفين ، فجعلوا لهم عيداً بعد عيد الغدير بيّانية أيام ، سموه عيد الغار ، أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى دخل فيه النّبي ﷺ وأبو بكر الصديق فى غار حراء ، وبالمثل جعلوا لهم عيداً بعد يوم عاشوراء بيّانية أيام أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى قُتل فيه مصعب بن الزبير ^(٢) .

واشتهر الكرخ فى غربى بغداد بأنه كان حى الشيعة الإمامية ^(٣) ، ويقول هلال الصائى إنهم لم يحتلوا باب الطاق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى ^(٤) ، وكان يقابلهم فى القسم المواجه من بغداد أهل السنة وكان أكثرهم من الحنابلة ، ولهم فتن كثيرة مع الشيعة تقصصها كتب التاريخ . ويذكر ابن بطوطة فى رحلته مدينة الجَلّة ويقول إن أهلها لزمته فى القرن الثامن إمامية اثنا عشرية ^(٥) ، ومرّ بنا فى حديثنا عن بنى مزيد فى الجزيرة العربية أنهم كانوا لمعهدهم بالجَلّة فى القرن الخامس رافضة ، وقد يكون فى ذلك ما يدل على اكساح مذهب الإمامية للمذهب الإسماعيلية فى العراق . ووصف ابن بطوطة كربلاء ومشهد الحسين بها ، وقال إن الروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر ، وعلى باب الروضة الحجاب والقومة ، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبل العتبة الشريفة وهى من الفضة ، وعلى الضريح المقدس قتاديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب أستار الحرير ^(٦) . وهى أول مرة يوصف فيها مشهد الحسين من داخله . وهو تحفة من التحف النفسية بما يغنى الضريح ومثلثة المشهد من صفائح الذهب ، وبالمثل مشهد أبيه على فى الكوفة . وتحضّر العقيدة الإمامية على زيارتها وزيارة قبور الأئمة بالعراق وإيران . وقد أتيج تلك العقيدة فى عهد إسماعيل الصفوى ودولته أن تصبح المذهب الرسمى للدولة فى العراق وإيران . غير أن تلك الدولة لم تدم فى العراق طويلاً .

(١) ابن الأثير والمتنظم فى حوادث عام ٣٥٢ . (٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ وانظر المتنظم فى حوادث

(٢) كتاب الوزراء للهلال بن الحسن الصائى ص ٣٨٩ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ١/ ١٣٨ .

(٤) ابن بطوطة ١/ ١٣٩ .

(٥) ابن بطوطة ١/ ١٣٩ .

(٦) ابن بطوطة ١/ ١٣٩ .

وكان بجانب العقيدة الاثني عشرية في العراق عقيدتان أخريان شيعتان، إحداهما متطرفة غاية التطرف حتى لابتدأ منها الشيعة الاثنا عشرية ، والثانية معتدلة غاية الاعتدال ، أما المتطرفة ففرقة النصيرية كان لها أتباع في مدينتي عانة والحديثة ، وهم في الحق مسلمون اسماً فحسب ، أما بعد ذلك فهم خارجون على الإسلام إذ عَدُّوا على بن أبي طالب وأبناءه آلهة وعبدوهم من دون الله ، واتخذوا لأنفسهم كتاباً عَدُّوا القرآن ثانوياً بالقياس إليه . وطبيعي ، أن يرفضوا بعض أركان الشريعة الإسلامية ، وقد أنزلوا الرسول ﷺ منزلة دون منزلة علي ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم الآتمة ، ويقول جولدتسيهر إن عقيدتهم تحمل كثيراً من عناصر الوثنية الآسيوية القديمة ^(١) . وحرى بنا أن نلاحظ أنه كان يندس بين الإمامية بعض النصيرية وبعض الشيعة الغالين أو بعبارة أدق الرافضة ، وخاصة من يرفعون علياً إلى مرتبة ربانية . ونجد أحد خطباء الشيعة ببغداد في عام ٤٢٠ للهجرة يدعو في خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبي ﷺ فيقول : «وعلى أخيه أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب مكلم الجمجمة ، ومعي الأموات ، البشري ، الإلهي ، مكلم فتية أصحاب الكهف ^(٢) » . وكأنه يؤمن بأن علياً صورة جديدة لعيسى عليه السلام ، اجتمع فيه اللاهوت والناسوت مما يتيح له في رأيه إحياء الموتى والخلود من أول الزمان . وهي نفس عقيدة النصيرية فيه إذ ذهبت إلى أن فيه جزءاً إلهياً وأنه كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه ^(٣) إلى غير ذلك من كثير ما وراءه كفر .

وعلى عكس النصيرية كانت هناك فرقة معتدلة أشد الاعتدال ، هي فرقة الزيدية التي نشأت في الكوفة على يد زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ، وقد ظل لها في هذا العصر أنصار عديدون في تلك المدينة ، وكانوا لا يَقْصُرُونَ الإمامة على أشخاص معينين من أبناء الحسين كما ذهب الإمامية ، بل يرونها حق كل علوي فاطمي ما دام له من الاستعداد الروحي ما يؤهله للإمامة ، وكانوا ينكرون فكرة الإمام الغائب التي آمنت بها الإمامية وما يُطَوَّرُ فيها من نظرية الرجعة وأيضاً فكرة العصمة ، وأيضاً لم يضيفوا إلى الإمام فكرة العلم الباطني المتوارث وما يطوى فيها من صفات روحية قدسية تُضَفَّى على الإمام ، فيكنى

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر الإسلامية لآدم مير (طبعة القاهرة) ١/٨٢ .

ص ١٨٤ ، ٢٢١ . (٢) المال والنحل للشهرستاني بتحقيق محمد سيد

(٣) للتظم في حوادث سنة ٤٢٠ وانظر الإشارة كبلاني (نشر مكتبة مصطفی الحلبي) ١/١٨٨ وما بعدها .

فيه أو قل يشترط فيه أن يكون فقياً ، ولكن دون تصور علم لدنى يهبط عليه . واشتروا في الإمام أن يكون كريماً سمحاً عادلاً شجاعاً . ونهوا عن ذم الصحابة وأبي بكر وعمر ، لأنهم لم يبايعوا علياً بالخلافة ، وجوّزوا إمامة المفضول من غير ذرية علي بن أبي طالب على الأفضل من ذريته . وعقيدتهم بذلك لا تبعد كثيراً عن عقيدة أهل السنة ولذلك كان يقال من قديم إنهم أكثر الفرق الشيعية إنصافاً واعتدالاً^(١) .

٥

الزهد والتصوف

كانت موجة الزهد في هذا العصر لا تقل حدة واتساعاً عنها في العصور السابقة ، ومعلوم أن القرآن دعا إليه مراراً كما دعا الرسول في أحاديثه النبوية إلى الزهد في عرض الحياة الدنيا وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة ، وبذلك كان الزهد من طوابع الحياة الإسلامية المستقرة في الأمة . وأخذت تتكون منذ عهد الرسول ﷺ طبقات كثيرة من الزهاد المتقشفين الذين يبنذون وراء ظهورهم مباحج الحياة ويتجردون لعبادة ربهم . ونزاهم في هذا العصر بكل بلد من بلدان العالم الإسلامي يُعدّون بالمشرات بل بالملات ، ويمكن أن نسلك فيهم بصفة عامة طبقات الفقهاء ، فمن يقرأ في طبقات الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة يجد المترجمين لهم يسوقون أخباراً كثيرة عن مدى ما كان يأخذ به الفقهاء من كل مذهب أنفسهم من التقشف وطمانينة النفس القائمة مع ما يُذكر من أن هذا الفقيه أو ذاك اعتكف في بيت الله خمسين سنة أو أنه صام حياته أو أنه صام خمساً وسبعين سنة . وتسوق كتب التاريخ أسماء زهاد كثيرين ومن يرجع إلى المتظم لابن الجوزي وابن الأثير وابن تفرى بردي سيرهم يذكرهم في وفيات السنوات أسماء كثيرة من الزهاد ، فثلاً في سنة ٣٤٨ توفي جعفر بن حرب وكان في نعمة كبيرة ، فاجتاز يوماً بموكبه ، فسمع قارئاً يقرأ : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) فصاح : بل والله قد آن . ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتى مات . وفي نفس السنة توفي عالم زاهد كان يصوم الدهر ويُفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التي استفضلها . وفي سنة ٣٨٤ توفي

أبو العباس عبد الله بن محمد ، وكان قد ظل سبعين سنة ناسكاً هادئاً لا يستند إلى حائط ولا إلى وسادة أو غيرها . وكانوا يكرهون في الزاهد أن يتولى عملاً للسلطان يكسب منه مالاً^(١) ، وكانوا إذا عرفوا أن طعام شخص من مال أخذه من السلطان امتنعوا من أكله^(٢) . وكانت موجة الزهد عامة فكثيراً ما تقرأ من هذا الخليفة أو ذاك أنه كان زاهداً ، وبذلك اشتهر الخلفاء القادر والمسترشد والقائم ، ويقال عن الأخير إنه كان في وجهه أثر صُفرة من قيام الليل^(٣) . وكان من الوزراء وأبنائهم من يرجعون إلى أنفسهم فيصرفون عن الدنيا ومتاعها الزائل إلى عبادة الله وما عنده من الثواب الآجل ، ويروى عن سليمان بن الوزير نظام الملك ، وكان يتولى المدرسة النظامية التي بناها أبوه ببغداد ، كما مر بنا ، أنه كان يحضر مواعظ ابن الجوزي واحظ ببغداد المشهور ، فأخذه الوجد يوماً . فقام وأشهد ابن الجوزي والناس من حوله أنه قد اعتق جميع ما يملك من الرقيق ، ووقف ما يملك على أعمال البر^(٤) . ويبدو أن كثيرين كانوا يبالغون في الزهد ، حتى ليفرضون على أنفسهم العبادة ليل نهار ، بل حتى لينصرفون عن الحياة الزوجية ويمتنعون منها . وكل ذلك مغالاة في الزهد لا يرضاها الإسلام ، الذي لا يريد للزاهد أن يفصل عن المجتمع والحياة ، وقد روى أن جماعة من الصحابة كانوا في سفر أثنوا للرسول عليه السلام على رفيق لهم كان لا يزال داعياً ربه في ركوبه مصلياً له في نزوله فقال لهم : « فن كان يكفيه علف بعيه وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا ، قال : فكلكم خير منه^(٥) » . فالزهد الإسلامي ينكر إهمال الشخص لشئونه الدنيوية ، كما ينكر بقوة فكرة العزوة المعروفة عند رهبان النصارى^(٦) . ونرى ابن الجوزي يحمل حملة شعواء على الزهاد الذين يمتنعون عن الزواج ونظرائهم الذين يمضون الليل والنهار في العبادة والنسك وقد نخلت أجسامهم وشجبت ألوانهم ودقت عظامهم ، حتى إنهم لا يستطيعون الصلاة واقفين ، بل يصلون من قعود . ويقول إن هذا كله مخالف للشريعة والسنة^(٧) .

(١) النجوم الزاهرة ١١٧/٥ .

(٢) النجوم ٥٧/٥ .

(٣) النجوم ٩٨/٥ .

(٤) الحوادث الجامعة والتجارب النادرة في ثلاثة

السبحة (طبع ببغداد) ص ١٢٤ وانظر تاريخ العراق في

النصر العباسي الأخير لبيدي عهد ص ٣٩٧ .

(٥) أعلام النبوة للذهبي (طبع القاهرة) ص ١٥٣

١٢٨ .

روابع طبقات ابن سعد ج ١ ق ١ ص ٢٨٧ وج

٢ ق ٤ ص ٩ .

(٦) انظر عين الأخبار لابن قتيبة (طبع دار الكتب

المصرية) ١٨/٤ وروى الرازيين لثياصي (طبع

القاهرة) ص ٣٨ .

(٧) صيد الخاطر لابن الجوزي (طبع القاهرة) ص

وكان طبيعياً أن يتحول كثير من الزهاد إلى متصوفة ، لا يكتفون بالإعراض عن ملاذ الدنيا وطيباتها قانعين من الطعام بالكثرة ومن الثياب بالخرقة ، لا يشغلهم مال ولا زوجات ولا أولاد . وقد أخذت تبنى لهم الرِّبَاطات والحقائق في العالم الإسلامي ، تبنيها الدولة أحياناً ، وبينها ذوو اليسار ابتغاء وجه الله أحياناً أخرى . وكان ما بها من طعام يأتي عن طريق الصدقات أو عن طريق ما يُحبسُ عليها من الأوقاف ، ولم يكن يُسمح بالأكل من هذا الطعام إلا للعابد التارك نسكاً لا يستطيع معه كسب قوته أو إذا أصبح من الشيوخة بحيث تُفَعِّده عن العمل ، وبذلك لم يكن يؤذن لعاطل بالأكل من هذا الطعام . وكان في الأربطة والحقائق مجاميع من الشيخ والشباب أصحاب الخلوة . وعادة كان لكل رباط شيخ كبير يصبح كل من فيه من أتباعه . والهور الأساسي للتصوف هو محبة الله محبة يغنى فيها الصوفي الحب في الحقيقة المطلقة حقيقة الكائن الإلهي ، وقد أخذ يتداخل غلو كثير في هذه العقيدة . ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أنه بلغ من غلو الحلّاج في هذه العقيدة أن جرى على لسانه كلمات وأشعار كثيرة تصرّح بفكرة الحلول من مثل قوله : « أنا الله وأنا الحق » مما جعل الفقهاء يفتنون بزندقته وقتله . غير أن هذا الغلو لم يمت بموت الحلّاج ، بل لقد رافقه غلو آخر عند بعض الصوفية لعله أكثر عتاً إذ ذهب فريق منهم إلى أنه ينبغي أن يُظهروا للناس أنهم لا يعملون بشرائع الإسلام وإن كانوا يعملون بها فعلاً ، وهم المسمون باللامتية أي المستحقين للوم ، مبتغين من ذلك أن يكونوا محل احتقار وازدراء حتى يبلغوا مرتبة عليا من التصوف والانصراف عن الدنيا . وكثير من الصوفية أخذوا يعلنون أنه لا عبرة بأداء الفرائض الدينية أو كما يسمونها عمل الجوارح ، إنما العبرة بعمل القلب . وكل هذا انحراف بالتصوف عن منهجه الصحيح . وكان ذلك سبباً في أن تنشأ حرب عاصفة منذ أوائل هذا العصر بين الفقهاء من جانب والمتصوفة من جانب آخر ، فكان الفقهاء يرونهم خارجين على الإسلام بما يشيرون من أفكار الحلول وما يتصل بها وما يأخذ بعضهم به أنفسهم من القعود عن أداء فرائض الإسلام ، قاطعين بذلك كل سبب بينهم وبين دينهم الخنيف . وتفاقت الحرب بين الطرفين بحيث أصبحت هناك ضرورة أن يوجد بعض المتصوفة المصلحين الذين يعيدون الأمر إلى نصابه ، حتى لا يخرج التصوف عن حدود الشريعة . ومرعان ما ظهر أبو نصر السراج الصوفي الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ وألف كتابه «اللمع» وفيه ينكر على الصوفية كل انحراف فلسفي وشطح صوفي يؤدي إلى نظرية الحلول ، كما ينكر تعطيل الفرائض الدينية ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من التصوف ، فبدونها لا يتحقق له وجود . وحمل أفكاره تلميذه أبو عبد

الرحمن السَّليّ صاحب طبقات الصوفية ، ولَقَّنَا بدوره تلميذه عبد الكريم القُشَيْرِي المتوفى سنة ٤٦٥ وقد ألف رسالة طويلة مشهورة رَأَبَ بها هذا الصدع الذي حدث بين الفقهاء والمتصوفة . ودَوَّت الرسالة منذ عصره في العالم الإسلامي ، وهو فيها يرسم مبادئ التصوف مبيناً أنها لا تناقض الدين الحنيف بل تتحد معه في وثام ، ويعرض أعلام الصوفية مع طائفة من أئوالهم التي تربط بين التصوف والنهوض بفرائض الإسلام مع حملة شعواء على من يستخفون بالصوم والصلاة وأداء الفروض الدينية وعلى من لا يميّزون بين الحلال والحرام مدّعين أنه زالت عنهم أحكام الدين . وخلفه أبو حامد الغزالي حجة الإسلام المتوفى سنة ٥٠٥ فوصل بين التصوف والشرعية وصلاً وثيقاً لم يعبه وَهْنُ بعده ، بحيث أصبح التصوف في صورته العامة سَبِيّاً ، وحقا انفصلت عنه بعض أسراب فلسفية استمرت فيها فكرة الحلول ، ولكنها أسراب فردية على نحو ما هو معروف عن ابن عربي وابن سبعين الأندلسيين . أما بعد ذلك فقد عم التصوف السني على نحو ما رسمه الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » وهو في النصف الأول منه يتحدث عن الفرائض الدينية والتوافل من مثل الذكر وتلاوة القرآن والتهجد والأدعية . ويبدأ الحديث في النصف الثاني بما ينبئ من صفاء القلب صفاء تقهر فيه النفس شهواتها وملأذاها . ثم يتحدث عن صفات الكمال الروحي الذي يتطلبه الصوفي وما ينبئ له من التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والتوكل والحب والإخلاص والمحاسبة والتفكير وتذكر الموت وما وراءه . وسنعود إلى الكتابة عن الغزالي والقشيري وأبي نصر السراج الطوسي في القسم الخاص بإيران . وسرعان ما أصبح هذا التصوف السني القائم على أعمال الجوارح من الفرائض الدينية وأعمال القلب من الإخلاص وصدق المحبة الإلهية مطلباً كثرة من الناس في العالم الإسلامي جميعه . والغزالي لا يضع أصوله فحسب ، بل يُبَعِّدُ العدة لكي تشيع الطرق الصوفية فيه ، فقد تحدث في الجزء الثالث من الإحياء عن الشيخ الصوفي وتلميذه أومريده ، وقال إنه ينبئ أن يلزم شيخه لزوم الأعمى الماشي على شاطئ النهر لمن يقوده ، ويقول : على الشيخ أن يدفعه إلى الخلوة والصمت والصوم والأرق مع دوام الذكر ومع التخلص من كل الشهوات . وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية في الظهور ، ومن أقدمها الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ عمي الدين أبي محمد عبد القادر^(١) الجيلاني مولداً الحسيني نسباً للمتوفى سنة ٥٦١ وقد ولد بجبلان سنة ٤٧١ وجاء إلى بغداد في شبابه ولزم حلقات الفقهاء والمحدثين ، ثم أخذ يعظ

(١) انظر في الجيلاني الذيل على طبقات المتأهله لابن لابن القوطي (طبع لاهور) ٣٨١/٥ .

رجب والنجوم الزاهرة ٣٧١/٥ وتلخيص جميع الآداب

الناس بعد سنة ٥٢٠ هـ وبُنيت له مدرسة فلزمها وتكاثر الناس على سماع وعظه إلى أن لبى نداء ربه ، ويقول عنه ابن تَفَرى بِرْدَى : « كان ممن جمع بين العلم والعمل أفقً ودرُس وعظ سنين ، وكان محققاً صاحب لسان في التحقيق وبيان في الطريق ، وهو أحد المشايخ الذين طُنَّ ذِكْرهم في الشرق والغرب » . وله كتابان مطبوعان يصوران طريقته هما سر الأسرار والغنية لطالبي طريق الحق ، وهو فيها يدعو إلى التمسك بالشريعة الإسلامية وأداء الفرائض الدينية مع الخلوص للمحبة الإلهية . وقد وُضعت في مناقبه كتب كثيرة ، منها كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الرباني سيدي محيى الدين أنى محمد عبد القادر الجيلاني ، وهو مطبوع بالقاهرة .

ومن الطرق الصوفية العراقية التي ذاعت في العالم الإسلامي الطريقة الرفاعية المنسوبة إلى الشيخ الصالح العربي الأصل أنى العباس أحمد^(١) بن أنى الحسن على المعروف بالرفاعي وإمام وقته في الزهد والصلاح والعبادة ، وقد شاعت طريقته في عصره وكثر أتباعه . ويُقال إن شخصاً زاره في ليلة النصف من شعبان ، فوجد عنده نحو مائة ألف إنسان ، وكان متواضعاً مجرداً من الدنيا . وكان مولده سنة ٥٠٠ هـ ووفاته سنة ٥٧٨ هـ . ومن قوله : « سلكت كل طريق ، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله والاعتداء بِسُنة سيدي رسول الله ﷺ » . وله كتاب سماه « حالة أهل الحقيقة مع الله » حققه وقدم له محمد نجيب خباطة ، وهو مطبوع بجلب ، وقد بناه الرفاعي على أحاديث نبوية ، وكثير منها يتصل بالمحبة الربانية ومعرفة الله ووُصِف المتصوفة أهل الحقيقة ، وقد سئل أحد أتباعه عن ورثته ، فقال : كان يصلى أربع ركعات بألف (قل هو الله أحد) ويستغفر كل يوم ألف مرة ، واستغفاره أن يقول : (لا إله إلا أنت سُبْحانَكَ إني كنت من الظالمين) عملت سوءاً وظلمت نفسي وأسرفت في أمري ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفروا ، وثُبَّ على ، إنك أنت الثواب الرحيم ، يا حي ، يا قيوم ، لا إله إلا أنت - ويقول ابن خلكان : لأتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حية والتزول في التناير وهي تتفرم ناراً فيطفئونها ، ومثل هذا وأشباهه .

وبجانب هاتين الطريقتين العراقيتين : الرفاعية والقادرية كان هناك أقطاب للصوفية

(١) راجع في الرفاعي مرآة الزمان ٣٧٠/٨ والفتنات (طبعة عيسى البابي الحلبي) ٢٢/٦ وابن خلكان ٢٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ٩٢/٦ وطبقت السبكي ١٧١/١ وطبقت الشترقي ١٤٠/١ .

كثيرون من أمثال المرتضى الشهرزورى ، وشهاب الدين أبو حفص ^(١) عمر السهروردى البغدادى ، وهو تلميذ عبد القادر الجيلانى ، وله كتاب يسمى عوارف المعارف يوضح فيه ما يجب على المتصوف من أداء الفرائض الدينية ومتابعة السنة النبوية ، ومن أطرف ما فيه الحديث عن المريد وشيخه وأنه يتزل منه منزلة الولد من أبيه . ويتحدث عن المدة التى يقطعها المريد حتى يتأهلاً لانتظامه فى طريقة شيخه ويصبح مُعَدَّاً أو مُهَيَّأً لأن يُلَاحَظَ عليه «الخِرْقَة» شعار الصوفية وهى ترمز رمزين : رمزاً إلى أن المريد تلاشت إرادته فى إرادة شيخه ، ورمزاً ثانياً إلى أنه قد تسلم منه الخِرْقَة ويد الله ورسوله فوق يد شيخه وأنه قد تم له الإذن بانتظامه فى الطريقة . ويقول السهروردى إن «المريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بأدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقبس من سراج ، وكلام الشيخ يلقح بباطن المريد» . ويتحدث السهروردى عن آداب الخلوة اللازمة للمتصوف ، ويقول إن الخلوة تستغرق أربعين يوماً من كل عام ، تُقَضَّى فى الصلاة والصيام ، ويذكر أن الغرض منها تصفية النفس وإزالة الحجب البدنية ، ولذلك يبنى على المريد إذا أراد الخلوة أن يجرد نفسه من العالم ومن كل ملكه ، ويصلى ركعتين ويتوب إلى الله توبة نصوحاً ، ويبكى ويتضرع إليه ولا ينقطع عن ذكره طوال خلوته ^(٢) . وكان على المريد أن ينشر طريقة شيخه فى المدن والقرى بكل ما يستطيع ، وبذلك أمكن للطريقتين القادرية والرفاعية أن يتشرا لا فى العراق فحسب بل أيضاً فى كل العالم الإسلامى .

ومنذ القرن الخامس الهجرى أخذ بشيخ فى التصوف وبين المتصوفة ما سُمى بالذكر ، وهو أن يتقابل الصوفية فى صفين ذاكرين الله مع التمايل يميناً وشمالاً ، ويقوم بين الصفين منشد ينشد بعض الأشعار الصوفية أو الغزلية الوجدانية التى تدلح المحبة الإلهية فى القلوب ، وقد عَمَّ هذا الذكر عند القادرية والرفاعية وما نشأ بعدها من طرق صوفية . ولابد أن نلاحظ أنه أخذت تنشأ فى الحقب المتأخرة من هذا العصر أو قبل منذ أواسطه جماعات الدراويش ، وهم صوفيون متجولون كانوا يطوفون العالم الإسلامى ، وأخذت تظهر بينهم

(١) انظر فى ترجمته ابن خلكان ٤٤٦/٣ وغيره الذمى

١٢٩/٥ وطبقات الشافعية ٣٣٨/٨ ورواة الزمان

٦٧٩/٨ والنجوم الزاهرة ٢٨٤/٦

(٢) انظر كتابه عوارف المعارف (طبع دار الكتاب

المرى ببغوت) ص ٩٦ ، وينسب الكتاب خطأ إلى

عبد القادر بن عبد الله السهروردى .

(٣) عوارف المعارف ص ٢٢١ .

في القرن الثامن الهجري وما بعده فرقتان اشتهرتا ، هما النَّقشبندية ، وقد رعاها تيمورلنك في دولته ، والبكتاشية ، وقد نشأت في جو الشيعة الإمامية ، بدلالة تقديسها للأئمة العلويين ، وهي تمتد إلى حد ما نظرية الحلول ، ويقال إن بعض معتقبيها لم يكونوا يهتمون بالشعائر الدينية ، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت طريقة صوفية تقوم على التقشف ، واشتهر عنها تقديس الأولياء .

وفرق صوفية كثيرة أو قل طرق صوفية كثيرة أخذت تنزع عن الرفاعية والقادرية بجانب طرق جديدة نشأت بدورها ، وكان لهذه الطرق وأتباعها من الدراويش السامعين أو الجوالين أثر بعيد في نشر الإسلام بشرق إفريقيا وغربها ووسطها ، وأيضاً بالهند والملايو وجزر الهند الشرقية ، وكان لهم دور عظيم في أن تظل للعالم الإسلامي وحدته على الرغم من توزيعه بين دول شتى ، وكذلك كان لهم دور عظيم في بث الروح الدينية في نفوس العامة على مر الحقب حتى اليوم .

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظلت الحركة العلمية ناشطة وخاصة في أوائل العصر وقبل الغزو التتارى ، فكانت هناك الكنائس للصبي يتعلمون فيها القراءة وشيئا من القرآن الكريم والشعر والحساب ، وكان الصبي لا يبلغ التاسعة إلا وقد حفظ القرآن واستظهر بعض مقامات بديع الزمان المهداني ، وحلت محلها منذ أوائل القرن الخامس مقامات الحريري . وكان يستظهر أيضا بعض قصائد الشعراء المشهورين وخاصة أبا تمام والبحتري والمنشئ . وكان الناشئة يتحولون من الكنائس إلى المساجد ، حيث حلقات العلماء من القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين واللغويين والنحويين والمؤرخين ومن يشدون بعض علوم الأوائل ، فكانت المساجد في بغداد تحمل محل التعليم الثانوى والجامعات في عصرنا ، وبالمثل في البصرة والموصل وغيرها من بلدان العراق . وكان الأستاذ عادة يستند في المسجد إلى أسطوانة ، ويقعد الطلاب من حوله ، وقد يجلس على مقعد عالٍ والطلاب يستديرون حوله . وكان يملئ على الطلاب محاضراته ، وهم يكتبون ، وإذا تكاثروا اتخذ مستمليا يردّد كلامه حتى تسمعه الصفوف الخلفية . وكان المؤلف أو المحاضر بعيد أحيانا ما ألّفه على طلابه ، وهم يعارضون نسخهم على قراءته . وقد بمنّ له أن يدخل في القراءة الثانية شيئا من التصحيح أو التهذيب على ما صنّفه ، فكان الطلاب يدخلونه على نسخهم ، ومن خير ما يصور ذلك ما يروى عن عالم لغوى يسمى أبا عمر المظفرّ من أنه أملّى كتابه الباقوت في اللغة على الطلاب بمسجد النصور ببغداد سنة ٣٢٦ ثم عاد فقرأه على طلابه مضيقا بعض التصحيحات والزيادات . وعاد مرة ثانية ، فأدخل عليه زيادات وتصحيحات جديدة ، واعتمد العرضة الأخيرة للكتاب سنة ٣٣١ - وبها نشره تلاميذه^(١) . وكان جامع

(١) الفهرست لابن النديم (طبع القاهرة) ص ١١٩ .

وراجع إنباء الرواة ١٧٥/٣ .

النصور ببغداد يشبه جامعة كبيرة ، وكان كل أستاذ تابع يشمى أن تكون له فيه حلقة ، وبصور ذلك من بعض الوجوه ما يروى عن الحطيط البغدادى حافظ بغداد - المتوفى سنة ٤٦٣ - من أنه حين حج شرب من ماء زمزم ثلاث مرات ، وسأل الله ثلاث حاجات : الأولى أن يحدث بكتابه تاريخ بغداد ، والثانية أن يسئل على الطلاب بجامع النصور ، والثالثة أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي . وتحققت له الأمنيات الثلاث^(١) . وكان الأساتذة والشيخ في المساجد أحيانا لا يملكون مؤلفات لهم ، بل يشرحون بعض كتب مشهورة للطلاب وقد يعمدون إلى إملاء شروح لهم على بعض المختصرات . واتسع ذلك منذ القرن السابع الهجرى بحيث نستطيع أن نسمى القرون التالية في العصور قرون الشروح ، وقد تشرح الشروح بما يسمى حاشية ، وقد توضع على الحواشى ملاحظات تسمى تقارير .

وأخذت تظهر منذ أواخر القرن الرابع الهجرى بجانب المساجد دور للعلم ، عادة يكون فيها مقاعد للطلاب ، وقد يحاضرهم العلماء ، وتلحق بها مكاتب ضخمة على نحو ما يحدثنا المؤرخون عن دار للعلم ، أسسها الوزير سابور بن أردشير في سنة ٣٨٣ للهجرة بالكرخ غربي بغداد ، ووقفها على العلماء واشترى لها كتب كثيرة ، بلغت عشرة آلاف وأربعمائة مجلد كان معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الموقوفة التي كان يملكها علماء وثقات مشهورون ، وكان بها مائة مصحف نفيس^(٢) . وأسس الشريف الرضى الشاعر المشهور نقيب العلويين المتوفى ببغداد سنة ٤٠٦ داراً للعلم فتحها للطلاب ورصد لهم جميع ما يحتاجون إليه^(٣)

وحين خلفت الدولة السلجوقية دولة بنى بويه وأصبح الوزير نظام الملك مدبر لحكم في زمن آل أرسلان السلجوقي عُنى ببناء طائفة من المدارس في بلدان مختلفة في العراق وإيران ، لحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر مذهب الشافعى في الفقه ومذهب الأشعرى في علم الكلام ، وكان منها ثلاث بناها في بغداد والموصل والبصرة^(٤) وقف عليها أوقافا كثيرة ، وبني فيها للأساتذة مساكن ، وجعل لهم رواتب ثابتة ، كما جعل لطلابها نفقات معيشة ، وألحق بها مكاتب نفيسة . وكان في هذه المدارس أساتذة مختلفون يحاضرون - بجانب

(١) طبقات النافعية للسبكي (الطبعة الثانية بتحقيق عبد الفتاح الحلو وعصود الطنحى) ٣٥/٤ .
(٢) للتظم وابن الأثير والتجزم الزاهرة في حوادث سنة ٣٨٣ وأشار أبو الملاء إلى هذه الدار في قصيدة
(٣) ديوان الشريف الرضى طبعة سنة ١٣٠٧ ببيروت
(٤) طبقات النافعية للسبكي ٣١٣/٤ .

أساتذة علم الكلام والفقه - في علوم الحديث والتفسير واللغة والرياضيات والأدب . وأخذ الوزراء بعد نظام الملك يبنون مدارس على غرار مدرسته النظامية ببغداد ، فبنى أبو الفتح الملقب بتاج الملك سنة ٤٨٠ باباً أبرز إحدى محال ببغداد وأحياناً مدرسة سميت التاجية ضاهى بها النظامية ^(١) ، وأخذ بعض الموسرين يعنون ببناء المدارس ببغداد ، فابن المستوفى الخوارزمي - وكان متعصباً لأبي حنيفة - المدرسة الكبيرة بباب الطاق ^(٢) . وأخذت المدارس تتكاثر في بغداد حتى إذا زارها ابن جبير سنة ٥٨٠ قال إن ببغداد ثلاثين مدرسة ، وكلها بالجانب الشرق وما منها مدرسة إلا ويغمرها القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وقد جُددت سنة أربع وخمسمائة ، وهذه المدارس أوقاف عظيمة محبوسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها ، ويخرجون منها على الطلبة ما يقوم بهم . وهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمؤسسات شرف عظيم وفخر مخلد ، فرحم الله واضعها الأول ، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح ^(٣) .

وكانت المدرسة النظامية أشبه بجامعة كبيرة ، ويتوقف ابن خلكان في وفيات الأعيان وكذلك المؤرخون مراراً ، ليقولوا إن هذا الشيخ أو ذاك دُرِّس في النظامية . وقل مثل ذلك في نظامية البصرة ونظامية الموصل . وذكر ابن خلكان أنه بُني بحوار النظامية الأخيرة في الموصل تسع مدارس ، هي : القاهرة والأتابكية والعتيقة والنورية والعزمية والبقيشة والعلاجية والكنالية والبدرية ^(٤) . وبُنيت مدارس كثيرة في المدن العراقية الأخرى ، ذكر ابن خلكان منها في إربل ثلاثاً هي المظفرية والقلعة والعقيلية ^(٥) . وبني الخليفة المستنصر ببغداد جامعة كبيرة أو قل مدرسة كبيرة ، هي المستنصرية ، وقد كتب فيها الأستاذ ناجي معروف كتاباً ، عرض فيه أسانذتها ونشاطها العلمي وهو يعطينا معارف كثيرة عنها حين فتحت أبوابها للطلاب ، وقد كان بها للفقه وحده عشرون فقيهاً ، يتقاضى كل منهم اثني عشر ديناراً في كل شهر ، وكان بها للفقهاء ستة معيدين لكل منهم ثلاثة دنائير شهرياً . وكان هناك فروع أخرى للقراءات والحديث لها شيوخها ومعيدوها ، وكان بها مئات من الطلاب لكل منهم ديناران شهرياً . وكان لها موظفون مختلفون من مشرفين وخزنة وفراشين من كل لون . وكانت تقدّم للشيخ والطلاب يومياً جرابات أو قل كان يقدم لهم طعام كامل غير

(٤) انظر ابن خلكان ١/١٠٨ ، ١٩٣ ، ٤/٤ .

٣١٣ ، ٣١١/٥ ، ٢٥٣ .

(٥) ابن خلكان ١/١٠٨ ، ٨٧/٧ ، ٣٣٨ .

(١) النجوم الزاهرة ٥/١٢٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥/١٦٧ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩ .

ما يقدم للطلاب من الخبر والورق والأقلام^(١). وعاد إلى هذه المدرسة، أو قل الجامعة، نشاطها بعد الغزو التتاري، وقد وصفها ابن بطوطة لما زارها سنة ٧٢٧ بقوله: «بها المذاهب الأربعة» - يقصد مذاهب المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية - ولكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلس المدرس في قبة خشب، صغيرة على كرسي عليه البسط، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار، لابساً ثياب السواد، معتماً، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه. وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة، وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء^(٢).

ويبدو أن ما شاع من أن الحركة العلمية في بغداد خمدت عموداً تاماً بعد الغزو التتاري غير صحيح، يمكن أن يصدق ذلك على العهد التتاري الوثني أما منذ دخول غازان والتتار في الإسلام فيبدو أن بغداد استعادت نشاطها العلمي، وإن لم يبلغ مبلغه أيام ازدهارها في العصر العباسي والمعروف أن هولاكو دمر كثيراً من مدارسها وقد أعيد بناء بعض هذه المدارس، وعُني غازان - كما أشرنا - وخلفاؤه الإيلخانيون بها.

ولاشك في أنه ران على الحركة العلمية غير قليل من الظلام في المهددين التركاني والمغياي، غير أن النشاط أخذ يدب فيها أواخر الحقبة المغيانية منذ ولي العراق مدحت باشا فإنه أسس بها مطبعة كان لها أثر بعيد في نهضة العراق وأسّس بها أيضاً مدارس نظرية وفنية.

ولابد أن نلاحظ أن مساجد بغداد الكبرى ظل لها نشاطها العلمي بعد الغزو التتاري، وكان من أهمها لعهد ابن بطوطة جامع الخليفة المتصل بقصور الخلفاء، ويقول إنه سمع فيه على مُسند العراق - سراج الدين أبي حفص عمر القزويني - جميع مسند الدرامي^(٣). وكانت الدراسة في مساجد بغداد ومدارسها بالبحان، بل كان الطلاب في المدارس خاصة يأخذون رواتب كما مر بنا. وربما كانت المساجد أهم من المدارس في نشر العلم، فقد كانت أبوابها مفتوحة دائماً لكل قاصد، وكان الناس من مختلف المهن والصناعات والحرف يختلفون إلى حلقات الشيوخ فيها يتعلمون ما شاء لهم أن يتعلموا، مما جعل العلم يحق شعبياً لجميع أفراد الشعب، يصيبون منه ما يوافق أمزجتهم وميولهم. وكثيراً ما كان يحدث أن يشعر صاحب مهنة أو تجارة بقصوره في علم من العلوم، فإذا هو يترك مهنته أو تجارته ويتفرغ للعلم الذي يريده حتى يصبح من أقطابه، وتلقانا من ذلك أخبار كثيرة في ابن خلكان وغيره.

(١) انظر تاريخ علماء التنصيرية لتاجي معروف (٢) ابن بطوطة ١/ ١٤١.

(٣) ابن بطوطة ١/ ١٤٢. وفي مواضع متفرقة. ٥٧/١، ٧١-٨٢.

وعلى هذا النحو لم يكن العلم في بغداد احتكاراً لطبقة بعينها ، بل كان متاحاً لجميع الناس ، ويُنْبَغِلُ إلى الإنسان كأنما كان كل أهل بغداد على حظ من العلم والثقافة قليل أو كثير ، ومن غير ما يصور ذلك قصة المزين الثرثار الطريفة في كتاب ألف ليلة وليلة ، فقد ذُكِرَ فيها أنه قال لشاب ببغدادى في تضاعيف حديث وجهه إليه : « قدَمَنُ الله عليك بمزين منجم عالم بصناعة الكيمياء والسيماياء والنحو والصرف واللغة وعلم المعاني والبيان وعلم المنطق والحساب والهيئة والمهندسة والفقه والحديث والتفسير . . . وقد قرأت الكتب ودرستها ومارست الأمور وعرفتها ، وحفظت العلوم وأتقنتها ، وعلمت الصنعة (الكيمياء) وأحكمتها ، ودبرت جميع الأشياء وركبتها . . . ولم تكن العامة من الرجال فقط هي التي تحسن هذه الثقافة وحدها ، فقد كانت تحسنها أيضا الجوارى على نحو ما تصور ذلك قصة الجارية تودد في ألف ليلة وليلة وفيها تناظر رحلة العلماء في مختلف العلوم والفنون وتُظهِر براعة فائقة في ليال كثيرة ما تزال فيها نحاوّر محاورات علمية بديعة . وكانت النساء تحضر مع الرجال مجالس العلماء ، وتعمل عندهم كثيراً من كتب الحديث ، وعنه يحملها كثير من الحفاظ المشهورين ، على نحو ما هو معروف عن الخطيب البغدادي وحمله أو أخذه صحيح البخاري عن كريمة الروزية ^(١) .

وطبيعى أن تنشط الوراقة في هذا العصر الذي كان مكثظاً بالعلوم والفنون من كل صنف وعلى كل لون ، وقد بلغ من ازدهار نسخ الكتب والأجور التي كانت تدفع للناسخ أن وجدنا بعض كبار العلماء والأدباء يتخذونه وسيلة لعيشه هو وأسرته ، مثل يحيى بن عدى المتوفى سنة ٣٦٤ و يروى عنه أنه كتب بخطه نسختين من تفسير الطبري ^(٢) ، ومثل أبى حيان التوحيدى أكبر أدباء عصره ، فقد اشتهر بنسخ الكتب ودقته في هذا النسخ ، مما جعل الصاحب بن عباد يستخدمه لنفس الغاية ^(٣) . وكان للوراقين سوق معروفة في بغداد تباع فيها الكتب ، وكانوا يقومون في هذا العصر مقام أصحاب المطابع في عصرنا ، إذ كانوا ينسخون الكتب أو يكلفون من ينسخها ويصححها ويحللها ، وكانت من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها والوقوف عليها في كل فن . ومع ذلك فقد اضطلع ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ بهذا العمل الخطير في كتابه «الفهرست» وقد وزع فيه الكتب على جميع أنواع العلوم والفنون مترجماً لأصحابها ، ولم يترك كتاباً إلا ذكره ، وأفرد لكتب الفرس والهند واليونان صحفاً كثيرة . والكتاب طريقة من أروع الطرق ، وهو يروج

(٢) سجع الأدباء ٢٦/١٥ .

(١) البكى ٣٠/٤ .

(٢) تاريخ الحكماء للنفطى (طبعة ليزج) ص ٣٦١ .

بآلاف الكتب ، مما يدل بقوة على النهضة العلمية في هذا العصر .

وكان من آثار هذه النهضة أن كثُر عدد العلماء في كل علم وفن كثرة مفرطة ، أهلت فيها بعد لتأليف كتب في تراجم كل مجموعة على حدة ، فكتب للفقهاء وكتب للمفسرين وكتب للقراء وكتب للنحاة وكتب للأطباء إلى غير ذلك من الأصناف . ووضعت كتب عامة مثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان لابن خلكان . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن شخص في بغداد - مددا متطاولة من هذا العصر الذي امتد قرونا متعاقبة - إلا وهو يعلم بأحوال أوطان من العلوم . وكان هناك كثيرون يشبهون الصحفيين في عصرنا ، فهم يستطيعون أن يتحدثوا في كل موضوع ويناقشوا كل فكرة ، وهباً ذلك لندوات كثيرة كانت تُعقد أحيانا في قصور السلاطين والوزراء وعجلة القوم ، وكثيرا ما دارت في هذه الندوات مناظرات خصبية ، على نحو ما نسمع عن مجلس عز الدولة بختيار وما أثر فيه من مناظرات في مسائل كلامية أو تتصل ببعض قراءات الذكر الحكيم ^(١) . ولعل مجلسا لم نستخدم فيه المناظرات كما احتدمت في مجلس الوزير ابن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ وقد قصر علينا منها أطرافا كثيرة أبو حيان في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» وكان هذا المجلس يضم بعض الشعراء وبعض المتفلسفة وبعض المترجمين وبعض المهندسين وبعض الأخلاقيين وبعض إخوان الصفا وبعض الكتاب والأدباء . كان مجلسا حافلا ، وكانت تُعرض فيه كل جوانب الثقافة من لغة وشعر وإلهيات وأفكار فلسفية وخلقية ، ويتحاور هؤلاء المفكرون في كل ذلك محاورات بديعة . وكانت تثار مناظرات كثيرة في المساجد بين الفقهاء بعضهم وبعض ، وكذلك بين المتكلمين واللغويين . وبلغ من اتساع المناظرات حيثئذ أنهم نقلوها أحيانا إلى الأسواق ، فأبو حيان يعرض مناظرة طويلة ثارت في سوق الوراقين بين طائفة من المفكرين المتخلفين وبين أحد إخوان الصفا المسمى المقدسي ، وكان موضوعها ما يزعمه المقدسي وزملاؤه من الصلة بين الفلسفة والدين ^(٢) . ومن الندوات المشهورة في القرن الرابع ندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني صاحب صنوان الحكمة المتوفى بعد سنة تسعين وثلاثمائة وهو من تلامذة الفارابي وامتاز بمقل خصب نادر ، وقد سجل أبو حيان في كتابه «المقابس» كثيرا مما كان يدور في ندوته من شعب الفكر في الإلهيات والطبيعيات والنفس والروح والأخلاق . ونذهل حين نقرأ الحوار في المسائل الكثيرة التي كانت تدار في هذه الندوة وكذلك في ندوة ابن سعدان ، وكأننا بإزاء مصانع مستحدثة كانت تصنع الأفكار المتفلسفة صناعة غريبة

(١) مثالب الزمزميين لأبي حيان التوحيدي (طبع) (٢) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢ وما بعدها .

عجبية ، مما أتاح بحق لبغداد أن تعظم منزلتها العلمية وأن يحج إليها العلماء وخاصة في أوائل هذا العصر ، يريدون أن يتزودوا منها زادا علميا رفيعا .

٢

علوم الأوائل : فلسف ومشاركة

رأينا في كتاب العصر العباسي الثاني كيف ازدهرت الترجمة خاصة عن اليونانية ، وكيف تحول المترجمون من الترجمة الحرفية إلى ترجمة المعنى الكلي للفقر ترجمة أكثر دقة ، وكادوا لا يتركون كتابا يونانيا مها في أصله اليوناني أو في ترجمته السريانية إلا نقلوه إلى العربية ، وكانت الدولة حينئذ تغدق على المترجمين إغذاقا واسعا ، ومن يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم أو أخبار الحكماء للقفطي أو طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة يبره كثرة ما نقلوه من المأثورات الإغريقية في الفلسفة والعلوم . ومنذ العصر العباسي الأول لا يكفى النقلة بما يترجمون ، بل يضيفون إليه ، وكذلك يضيف إليه معهم من استوعبوا من الناطقين بالضاد علوم الأوائل إضافات لا تكاد تحصى في كل فروع الفلسفة والعلم على هدى ما قرهوه وجرّبوه بأنفسهم ونفذوا إليه بفطنهم . وقد افتتح العصر العباسي الثاني بعالم رياضي عظيم هو الخوارزمي مؤسس علم الجبر وفيلسوف عربي هو الكندي . ومضت الترجمة في النشاط والازدهار ، ومضت معها الحركة العلمية والفلسفية تؤتي ثمارها حتى ظهر الفارابي الفيلسوف الكبير الملقب بالمعلم الثاني .

وتبلغ الحركة الفلسفية والعلمية أوجها في القرن الأول من هذا العصر قرن ابن سينا والبيروني في إيران وابن الهيثم في العراق ، وقد ظلت الترجمة حية ناشطة فيه ، وانصب عمل المترجمين حينئذ على تصحيح بعض الترجمات القديمة ومن أهمهم يحيى ^(١) بن عدى النضراني البغوي المتوفى سنة ٣٦٤ وهو من تكرت على غير دجلة ، تلمذ على الفارابي ومثى بن يونس ، ويقول القفطي : «إليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه» ويذكر له كتابا عدة ترجمها لأرسطاطاليس وشرّاحه اليونانيين ، ويقول أبو حيان التوحيدي «تخرج

(١) انظر في صوان الحكمة لأبي سليمان المنطق السجستاني (طبع طهران) ص ٣٢٧ والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (طبع القاهرة) ٣٧/١ والفهرست لابن النديم (المطبعة الثانية بالقاهرة) ص ٣٨٣ وأخبار الحكماء للقفطي (طبعة ليزن) ص ٣٦١ وطبقات

الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٣١٧ والعلم عند العرب لألدوسيلي (الترجمة العربية طبع القاهرة) ص ١٨٣ وتاريخ الأدب العربي لميخائيل (طبع دار المعارف) ١٢٠/٤

عليه كثير من المترجمين والفلاسفة^(١) مثل عيسى^(٢) بن علي بن عيسى المتوفى سنة ٣٩١ وكان حاذقاً في الترجمة فيما بعلم الأوائل ، ويقول القفطي : رأيت نسخه من السماع الطبيعي التي قرأها على يحيى بن عدى بشرح يحيى النحوى وهى فى غاية الجودة والحسن والتحقيق . ومن تلامذة يحيى بن عدى عيسى^(٣) بن زُرْعة ، وكان نصرانياً يعقوبياً مثله توفى سنة ٣٩٨ يقول القفطي عنه : «أحد المتقدمين فى علم المنطق والفلسفة وأحد الثقله المجودين» ويشيد به أبو سليمان المنطقى السجستانى وبنوه بما ينقله إلى العربية تنويراً كبيراً ومن تلامذة يحيى بن عدى أيضاً أبو الخير الحسن^(٤) بن سَوار النصراني المعروف بابن الحُجَّار البغدادي وقد نقل عدة مؤلفات يونانية من السريانية إلى العربية ، وكان متفلسفاً وطبيباً ومن علماء الطبيعة ، وكان فصيحاً متمكناً فى العربية ، وهناك مترجمون مختلفون سوى يحيى بن عدى وتلاميذه ، منهم من شطَّت به الدار فى إيران ، ومنهم من نزل بغداد مثل نظيف^(٥) الرومى الشيرازى القسّ ، وله ترجمة المقالة العاشرة لأفليس ، وكان طبيباً حاذقاً .

وميجل إلى الإنسان أنه لم يبق فى العراق وإيران مدينة إلا اهتمت بالفلسفة وعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ظهور إخوان الصفا فى البصرة أوائل هذا العصر ، وهى جماعة سرية متفلسفة ، دانت بالمذهب الإسماعيلى الشيعى ورأت أن تدعوا له دعوة مستترة فى رسائل فلسفية وعلمية ، وهى عصابة - كما وصفها أبو حيان - تألفت بالمشرة وتضافت بالصدقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دُنِّست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غَسْلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية : وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة : علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرستا وسعوها «رسائل إخوان الصفا

١٦٤ وابن أبى أصيبعة ص ٤٢٨ وروكبان ١٥٨/٤ .

(٤) انظره فى صون الحكمة ص ٣٣٨ وفى الإمتاع

والمؤانسة ٣٧/١ والقياسات لأبى حيان التوحيدى (طبع

بغداد) ص ٤٢٤ والفهرست ص ٣٨٥ وابن أبى أصيبعة

ص ٣٢٢ ويقول إنه كان ينقل من اليونانية إلى العربية

وراجع القفطي ص ٣٣٧ وروكبان ١٨٣/٤ .

(١) راجعه فى صون الحكمة ص ٣٣٢ والإمتاع والمؤانسة ٣٦/١ والقفطي ص ٢٤٤ .

(٢) انظره فى صون الحكمة ص ٣٣٣ والإمتاع

والمؤانسة ٣٣/١ والفهرست ص ٢٨٣ والقفطي ص

٢٤٥ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٨ وروكبان ١٢٢/٤ .

(٣) راجعه فى صون الحكمة ص ٣٣٥ ، ٣٥٣ والإمتاع

والمؤانسة ٣٣/١ والفهرست ص ٤٨٤ والقفطي ص

وخلان الرفا ، وكتبوا أسماءهم وبشوها في الوراقين^(١) . ويسمى أبو حيان طائفة من مؤلفي هذه الرسائل هم زيد بن رفاة وأبو سليمان المقدسي وأبو الحسن علي بن هرون الريماني وأبو أحمد المهرجاني والعوفي ، ويشير إلى أنه شركهم آخرون غيرهم^(٢) . ويبدو أن هؤلاء المتلفسة الكثيرين كانوا يُعَدُّون مادة هذه الرسائل وأن أبا سليمان المقدسي هو الذي أخرجها وأعطاه صورتها النهائية ، ولذلك ينسبها إليه معاصره أبو سليمان المنطقي السجستاني أكبر متلفسة بغداد حينئذ ، إذ يقول عنه : « له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة رسائل إخوان الصفا^(٣) » . والمظنون أنه أضيف إليها فيما بعد رسالة ، فأصبحت اثنتين وخمسين رسالة ، منها ١٤ رسالة في الرياضيات والمنطق و ١٧ في العلوم الطبيعية وعلم النفس و ١٠ في الميتافيزيقا والإلهيات و ١١ في التصوف والتنجيم والسحر . وهي مقنونة في الأفلاطونية ، وتشوبها نزعات أرسططاليسية وأفكار مانوية وإسماعيلية ، وتهبط درجات عن مستوى الفلسفة والعلم المعاصرين لها ، ولعل ذلك ما جعل أبا حيان يقول عنها إنها تُنفُ من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكتابات وتلفيقات وتزيينات ، وقد عُرِّ الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها . ويقول إنه عرض منها عدة رسائل على شيخه أبي سليمان المنطقي السجستاني فنظر فيها أياما ، واختبرها طويلا ، وردّها عليه قائلا : « تمعوا وما أغنوا .. وحاموا وما وردوا » . ويردّ أبو سليمان على نظريتهم في وصل الدين أو الشريعة بالفلسفة ردا طويلاً سألخصه في الفصل الخامس ومن قوله : إن الدين وحى من السماء والفلسفة من عمل العقل ، ولا حاجة للدين بالفلسفة بكل فروعها من رياضيات وطبيعيات ومنطق وموسيقى^(٤) .

على كل حال توضح لنا هذه الرسائل لإخوان الصفا كيف أن الثقافة الفلسفية كانت شائعة في كل الأوساط ، حتى لتلجأ جمعية سرية إسماعيلية لاتخاذها وسيلة لنشر مذهبها . وظن بعض المعاصرين حين رأوا في هذه الرسائل إنكاراً لفكرة الإمام المهدي الخفني أن العصابة التي اجتمعت لتأليفها لم تكن شيعة وهو ظن خاطئ . حقا يؤيد هذا الإنكار أنهم لم يكونوا إماميين يؤيدون فكرة الإمام المهدي الخفني ، ولكنهم كانوا أكثر إيمالا في التشيع إذ كانوا يعتقدون المذهب الإسماعيلي . يدل على ذلك مثل قولهم في أهل البيت : « هذه الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة لا يحتاجون فيها إلى مدبرين غيرهم وإلى علماء سواهم ، ولا يطلع الناس على أسرارهم .. إن هو إلا علم إلهي وتزليل رباني ، تنزل به

(٣) صوان الحكمة ص ٣٦١ .

(٤) الإمتاع والقناعة ٦/٢ .

(١) الإمتاع والقناعة ٥/٢ .

(٢) الإمتاع والقناعة ٤/٢ .

ملائكة كرام كاتبون ، وحفظة حاسبون ، يُلقونه بأمر الله على من اصطفاه من خلقه وارضاءه لخلائفه في أرضه^(١) . والإسماعيلية معروفون بترتيب أتباعهم في طبقات ، ونرى أبا سليمان المنطقي السجستاني حين يقتبس نصاً من الرسائل لأبي سليمان المقدسي يقتبس له النص الذي رتب فيه جماعتهم ، وقد جعلهم في أربع مراتب حسب أعمارهم وقواهم ، أما المرتبة الأولى فلمن بلغوا خمس عشرة سنة وهم أصحاب القوة العقلية والنفوس الصافية . والمرتبة الثانية لمن بلغوا الثلاثين سنة وهم أصحاب القوة الحكيمة الرؤساء ذوو السياسة . والمرتبة الثالثة لمن بلغوا الأربعين وهم أصحاب القوة الناموسية أولو الأمر والنهي . والمرتبة الرابعة لمن بلغوا خمسين سنة وهي مرتبة التبليغ ومشاهدة الحق عياناً . ونراهم يطلبون إلى إخوانهم في كل قطر أن يعقدوا اجتماعات دورية يتذكرون فيها العلم وشئون الإخوان . وكل ذلك دليل على أنهم كانوا يريدون برسائلهم تنظيم الدعوة الإسماعيلية ، أما لماذا أخفوا أسماءهم فلأنهم كانوا يعيشون في العراق وسط أصحاب المذهب الإمامي الاتقي عسرى ، فخافوا على أنفسهم وخاصة أنهم هاجموا هذا المذهب الشيعة كما قدمنا . ومع ذلك فيبدو أنهم حاولوا نشر مذهبهم في بغداد ، إذ نجدنا أبو حيان عن لقاءه المتكرر لاحدهم ، وهو زيد بن رفاعة . وينقل مناقشة طويلة بين أبي سليمان المقدسي والحريري في وصل إخوان الصفا بين الشريعة والدين . ويبدو أن استيلاء عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ هـ ألهم هذه الفرصة ، فقد كان يقرب القرامطة الإسماعيليين منه . وكان يتخذ أحياناً نفسه منهم وزيراً أو نائباً ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان يشيع ويكرم جانب الرافضة^(٢) . على كل حال يبدو أن دعوة المقدسي وزيد بن رفاعة باءت بالإخفاق والخذلان في بغداد خذلانا إلى أقصى حد .

وتشير هذه الرسائل - كما مر بنا - إلى أن الفلسفة وعلوم الأوائل كانتا من مدارك الطبقة العامة المثقفة في مطالع هذا العصر ، عصر الدول والإمارات ، وخاصة في بغداد . ولعل أكبر شخصية متفلسفة كانت بها حينئذ شخصية أبي سليمان^(٣) المنطقي السجستاني ، الذي نشأ بسجستان وشدا فيها علوم الأوائل ، ويبدو أنه أراد منها زادا أكبر ، فرحل إلى بغداد في شبابه ، ولزم يحيى بن عدى وأخذ عنه كل ما عنده ، وسرهان

(١) رسائل إخوان الصفا ١٠٣/٤ وما بعدها . وكذلك المقابلات ، وراجع ابن أبي أصيبعة ص ٤٢٧

(٢) النجوم الزاهرة ١٤٢/٤ . والفهرست ص ٢٨٣ وروكاكان ص ١٥١ ومقدمة

(٣) انظر في أبي سليمان المنطقي القطيفي ص ٢٨٢ عبد الرحمن بدوي لصنوان الحكمة .

والإمتاع والمقامة في مواضع متفرقة (انظر الفهرست)

ما عُرف فضله وتألق نجمه ، وكان دميم الحلقة وبه وضح ظاهر فلزم داره ، وتحولت هذه الدار إلى منتدى كبير يختلف إليه الفلاسفة والعلماء والمتقنون من حوله ، ينهلون من ينابيع فكره ما يمتعون به عقولهم ونفوسهم . وكانوا يختلئ المشارب ، فنهج المسلم وغير المسلم ومنهم المتخلف ، مثل الطبيب الجوسى المعروف بفيروز^(١) وأبى إسحق^(٢) الصائى الكاتب وابن زرع^(٣) النصرانى ومثل أبى زكريا الصيمرى وأبى الفتح التوشجاني وأبى محمد العروضى المتخلفين ، ومثل أبى القاسم عبيد الله بن الحسن المعروف بفلام زحل النجم ، ومثل على بن عيسى الرمانى مفلس النحو ومباحثه ومثل القومسى الكاتب والمقدسى صاحب رسائل إخوان الصفا وقد ترجم له أبو سليمان فى نهاية كتابه صوان الحكمة كما أشرنا إلى ذلك آنفا . يقول أبو حيان : « وكل واحد من هؤلاء إمام فى شأنه وفرد فى صناعته ، سوى طائفة دون هؤلاء فى الرتبة^(٤) » . وهذا المنتدى الكبير ظل عشرات السنين تثار فيه مشاكل الميتافيزيقا والإلهيات والطبيعات والرياضيات والأخلاق والنفس والروح والجسم والعقل وعلم التنجيم والكهانة وأطراف من اللغة والبلاغة والأدب . ويُلقي كل فيلسوف بدلوه ، ثم يردُّ الرأى النهاى إلى أبى سليمان ، فيسمعه الجميع خاشعين مُكبرين ، وبلسانهم يقول له فيروز : « حينَ الله عليك أيها السيد ، فواقه ما نجد شفاء لداء الجهل إلا عندك ، ولا ننظر بقوت النفس إلا على لسانك ، ولا نعلم يقينا أننا لا نخس شيئاً إلا إذا فاجأناك ، ولا يحمل ظننا بأنفسنا إلا إذا بعدنا عن مجلسك ، ولو كانت هذه الفائدة (يريد ما سمعه منه فى المسألة المطروحة) بعينها عندنا متى كنا نأتى بها على هذه الطلاوة والحسن ، أمتع الله الأرواح برؤيتك ، والعقول بهدايتك^(٥) » . ولأبى حيان التوحيدى يدٌ لا تجحد ، لتسجيله ما كان يدور فى مجالس أبى سليمان من حوار يتناول كل وجوه الفكر والتفلسف فى عصره ، على نحو ما صنع فى كتابه النفيس « المقابسات » وهى تُقنّى مجالس أبى سليمان وما كان يُقبَسُ منها من أضواء المعرفة . ويصرح أبو حيان مراراً بعمله فيها وأنه هو الذى أخرجهما فى صورتها المكتوبة^(٦) ، وينبئ أن لا نبالغ فى هذا التصور وخاصة بالقياس إلى أبى سليمان وإن قال إنه كان مصاباً « بلكنة ناشئة من المعجمة^(٧) » واللكنة شىء والتعبير الفصيح شىء

(١) المقابسات (طبع بئداد) ص ٤٢٧ . الكتاب وفى الإمتاع والمؤانسة ليوسف بن (انظر

لهوسيبيا) .

(٢) المقابسات ص ٢٧٢ .

(٣) المقابسات ص ٢٤٢ وما أيضاً يذكر أن موسى

(٤) المقابسات ص ٤٢٩ .

ابن على بن عيسى كان حاضراً . (٥) انظر المقابستين : الثانية والرابعة .

(٦) المقابسات ص ٥٧ وقد ترفف أبو حيان فى هذا (٧) الإمتاع والمؤانسة ٣٣/١ .

آخر ، ومرت بنا آنفاً كلمة فيروز الطيب ووصفه لما على كلامه من الطلاوة والحسن ، وقد نقل أبو حيان بعض المقابسات البديعة عن صوان الحكمة دون أن يحزم حرفاً من كلام أبي سليمان^(١) . على أن بين المقابسات مقابسات لبعض المتخلفة من ندوة أبي سليمان مثل عيسى بن علي بن عيسى وأبي الحسن العامري وغيرهما .

ومتدى ثان بغداد لم يكن عاما مثل المتدى السابق ، فقد كان خاصا بوزير من وزراء الدولة البويهية وكان يعقده ليلا بداره ، هو ابن سعدان الذي وزر لاصصام الدولة في سنة ٣٧٣ ولم يكده بدور عامان حتى قتله سنة ٣٧٥ . وكانتا ستين غنيتين بالفكر والفلسفة والأدب ، إذ كان يختلف إلى ندوته صفوة من المتخلفة المفكرين مثل ابن زُرعة النصراني المتخلف ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق وأبي الوفاء الرياضى الفلكى المهندس وبهرام بن أردشير الجوسى وابن عبيد وأبي بكر القومسى الكاتبين وابن الحجاج الشاعر وزيد بن رفاعة أحد إخوان الصفا وقرمطى يسمى ابن شاهويه^(٢) . وكان ابن سعدان يباهى برفاقه ويفخر بهم على رفاق غيره من الوزراء قائلا : « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل^(٣) . وكان أبو الوفاء قريبا من ابن سعدان فوصله بأبي حيان التوحيدى ، ليعرض عليه ثمار الفكر والفلسفة في عصره ، واستقبله ابن سعدان استقبالا حسنا ، وأخذ يُلقَى عليه في ليال متصلة أسئلة في مختلف فروع الفكر واللغة والأدب ، ويتلقى من أبي حيان إجاباته ، ويتشقق الحوار والحديث في مسائل فلسفية وإلمية وطبيعية وأخلاقية ونفسية وروحية وسياسية وأدبية ولغوية . وقد يحكى له مناظرة طويلة كمناظرة السريانى ومضى بن يونس في النحو والمنطق وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسى الثانى ، ويروى له أحيانا أخبار بعض المتصوفة ، ويذكر له بعض جوانب الحياة في بغداد . ويحكى يقول القفطى عن الكتاب إنه « كتاب ممنوع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم فإنه خاض كل بحر وغاص في كل لُجّة^(٤) . ولم يَرَوْ أبو حيان في الكتاب الذى يقع في ثلاث مجلدات كبل الليالى التى قضاهَا محاورا مناقشا في متدى ابن سعدان ، فقد اقتصَر منها على سبع وثلاثين ليلة وزع عليها الكتاب وقد ألفه لأبي الوفاء المهندس ، ذكرى عزيزة لابن سعدان . وربما صنفه لأبي الوفاء في

(١) ٣/٢ وراجع التخرىم الزاهرة ١٢٥/٤ .

(٢) الصدقة والصديق ص ٨٣ .

(٣) القفطى ص ٢٨٣ .

(٤) لآرن للمقابلة السابعة والثلاثين بصوان الحكمة ص

٣٣٣ وما بعدها .

(٥) انظر في هؤلاء الجلساء الصدقة والصديق

لأبي حيان (طبع القاهرة) ص ٧٧ والإبناح والمؤانسة

حياة صديقه ، ويبدو أنه كان قد كتب مسودات هذه الليالي ، حتى إذا رأى إهداءها لأبي الوفاء حتى أحياناً يقوم بعض عباراتها مع شرح الغامض وصلة المهنوف وإتمام النقوص ، ومع سبكها بتناصح اللفظ^(١) وما عُرف من ميله في كتابته إلى الأزواج .

وكان وراء هذين المتدينين الفلاسفة العليين متدييات كثيرة في دور العلماء والمفلسفة مثل دار يحيى بن عدى وفي المكتبات الكبيرة مثل مكتبة سابورين أردشير . ونذكر نفرا من الرياضيين والفلكيين في القرن الرابع الهجرى لدل على النهضة العلمية حيثند ، وأول من نفع عنده أبو القاسم على بن الحسن المعروف بابن الأعلم^(٢) المتوفى سنة ٣٧٥ وكان عضد الدولة يرعاه واشتهر بزيجه الذى ظل به العمل حتى زمن القفطى . وكان يعاصره وَيَجُنَّ^(٣) بن رُسْتَم الكوهى وكان رئيساً للمرصد الذى أسسه شرف الدولة البويهى فى حديقة القصر ببغداد ، وقد أمره فى سنة ٣٧٨ برصد الكواكب السبعة وعاونه فى ذلك فلكيون ورياضيون أهمهم أبو الوفاء^(٤) محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني صديق أبي حيان التوحيدى الذى توفى سنة ٣٨٨ وفيه يقول ابن خلكان : أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس ، نعمده الله برحمته وهو القيم بهذا الفن ، يبالغ فى وصف كنهه ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله ، وكان عنده من تواليفه عدة كتب وله فى استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع . ويقول عنه ألدوميل : « كان أحد المترجمين العظام الأواخر من اليونانية ، وشارح أقليدس وديوفانتوس وبطليموس وهو كذلك عالم أصيل رفيع المتزلة ، ويقترن اسمه على وجه الخصوص بتنمية حساب المثلثات ، والمسائل الهندسية التى عاجلها بحجرة جد كبيرة ، وكان له تأثير قوى فى الفلكيين المحدثين . وبالمثل كانت العلوم الطليجية ناهضة ناشطة ، ولعل خير ما يصور ذلك ظهور أبى على الحسن^(٥) بن الهيثم البصرى المتوفى حوالى سنة ٤٣٢ للهجرة ، وقد ذكر له ابن أبى أصيبعة ثلاثة وأربعين كتابا فى الفلسفة والعلم الطليعى وخمسة وعشرين كتابا فى الرياضيات

١/ ٢٠٩ وتمة البيهق ٧٦ وديروكلان ٤/ ٢٢٢ وألدوميل

ص ٢١١ ، ٢١٥ .

(١) الإطاع والقراءة ١/ ٢ .

(٢) انظر فى ابن الأعلم القفطى ص ٢٣٥ .

(٣) راجع فى ابن الهيثم القفطى ص ١٦٥ وابن

(٣) راجعه فى الفهرست ص ٤٠٩ والقفطى ص ٣٥١

أبى أصيبعة ص ٥٥٠ وألدوميل ص ٢٠٦ وما به من

ديروكلان ٢١٩/٤ وألدوميل ص ٢١٢ .

مراجع وانظر كتاب ابن الهيثم لمصطفى نظيف ودائرة

(٤) انظره فى الفهرست ص ٤٠٨ والقفطى ص ٢٨٧

المعارف الإسلامية وما بها من مرجع .

واين خلكان ١٦٧/٥ والوفاء بالوفيات للصفدى

والهندسة . وهو يُعَدُّ بحق من علماء الطبيعة العالميين ، يشهد له بذلك كتابه « المناظير » في البصريات وانعكاس الضوء والعلامات فقد ترك تأثيراً عميقاً في كل من روجر بيكون ووايتلو عن طريق ترجمته قديماً إلى اللاتينية ، واتسع تأثيره في كثيرين من علماء الغرب كما يحدثنا بذلك ألدومبيل . وسمع الخليفة الحاكم الفاطمي بذكائه وقدرته الهندسية وشاع عنه أنه يقول لو نزل مصر لوضع مشروعا ينظم المياه في النيل ، واستقدمه الحاكم ، غير أنه رأى صعوبة تطبيق مشروعه . ويقول ابن أبي أصيبعة : إنه لخص كثيرا من كتب أرسططاليس وشرحها وكثيرا من كتب جالينوس في الطب . وحين نزل مصر أقام بقية على باب الجامع الأزهر . وكان يقات من نسخة سنوية أفقليدس والجسطي . ويضيف إليها القفطي كتابا ثالثا ، ويقول إنه كان يبيعها جميعا بمائة وخمسين دينارا مصريا ، وصار ذلك كالرسم المعتاد له .

وكان الطب والعلوم الطبية بالمثل ناهضين ، وساعد على ذلك منذ العصر العباسي إنشاء البيارستانات في بغداد ، ومن البيارستانات المهمة التي أنشئت في القرن الرابع الهجري البيارستان المضدى نسبة إلى عضد الدولة ، أنشأه في الجانب الغربي لبغداد وأُفتق عليه أموالا عظيمة ، ويقول ابن خلكان : « ليس في الدنيا مثل تربيته وبه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه » ولما فرغ من بنائه سنة ٣٦٨ عيّن به أربعة وعشرين طبيا ورئيسهم فيه لمعالجة المرضى ، منهم نظيف القس الرومي وأبو الحسن بن كشكرايا وأبو الخير الجرائحي وأبو يعقوب الأهوازي وابن مندويه^(١) .

وهذه النهضة العلمية الفلسفية في القرن الرابع الطردت في القرنين التاليين إذ بلغنا بها متفلسفة ورياضيون وفلكيون وطبيعيون وأطباء مختلفون في كتابي القفطي وابن أبي أصيبعة ، نذكر منهم أبا الفرج عبد الله^(٢) بن الطيب المتوفى سنة ٤٣٥ وليه يقول القفطي « فيلسوف فاضل . . اعنى بشرح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسططاليس وبشرح كتب جالينوس في الطب ، ويقال إنه بقى عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة . وأهم تلاميذه ابن بطلان^(٣) النصراني المتوفى بعد سنة ٤٥٥ وكان حاذقا في الطب واشتهر برحلته إلى القاهرة حيث لقي الفيلسوف المصري ابن رضوان ، ونشبت بينها مناظرات حادة ، وأشهر مؤلفاته كتاب تقويم الصحة ، ولا يوجد منه إلا

(١) انظر القفطي ص ٣٣٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ . (٢) القفطي ص ٢٩٤ وابن أبي أصيبعة ص ٣٢٥

٤٣٦ ، ٤٣٨ . وراجع ابن خلكان ٥٤٤/٥ . وقلدومبيل ص ٢٤١ ، ٢٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) القفطي ص ٢٢٣ .

ترجمة لاتينية وأخرى ألمانية في عصر النهضة . ومن الأطباء النابهن بعده أبو الحسن سعيد^(١) بن هبة الله طبيب الخليفةين المقتدى والمستظهر ، وكان لا يزال على قيد الحياة في سنة ٤٨٩ ويظن أنه توفي سنة ٤٩٦ وقد اشتهر بكتاب كبير في الطب صفه للمقتدى ، سماه المغنى في تدبير الأمراض وتعريف العلل والأعراض . وكان يعاصره يحيى بن عيسى^(٢) بن جرلة المتوفى سنة ٤٧٣ وكان نصرانيا ثم اعتنق الإسلام ، وصنف كثيرا من الكتب باسم الخليفة المقتدى أهمها كتاب تقويم الأبدان في تدبير الإنسان ، وقد ترجم إلى اللاتينية ثم الألمانية ، ويشتمل على ٤٤ لوحة ، وبه وصف لنحو ٣٥٠ مرضا . وأنبه الأطباء في القرن السادس هـ^(٣) الله بن التلميذ النصراني المتوفى سنة ٥٦٠ وكان طبيب الخليفة المقتنى ، ويقول ألدوميل إن كتبه خالية من كل أصالة ، وهي صفة تشتمل أطباء العراق بعامة بعده . وليس معنى ذلك أن العناية قلت بالبيارستان وأطبائه ، فقد زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ وشاهد البيارستان ووصفه بقوله : إنه « على دجلة وتتفقد الأطباء كل يوم اثنين وخميس وبطالون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية »^(٤) .

ونعفى الحركة العلمية والفلسفية في نشاطها بالعراق إلى أن يكسحه قُطعان المغول في منتصف القرن السابع الهجرى . إذ قُوضوا صرحها في بغداد وغير بغداد ، وربما كان أنه المشتغلين بعلوم الأوائل قبل هذا الانحيار الفظيع أنير الدين الأبهري^(٥) الموصلى المتوفى سنة ٦٦٣ وله مختصر في علم الهيئة ورسالة في الإسطرلاب وشرح لإيساغوجي وكتاب هداية الحكمة في المنطق والطبيعات والإلهيات . ويَصْنَعُ الاشتغال بعلوم الأوائل أو يأخذ في الضمف ، ومن المؤكد أنه ظل ، ولكن لم تعد له نفس القوة القديمة ، وبلقانا من حين إلى آخر بعض المتخلفين أو العلماء مثل أبي القاسم محمد بن أحمد السياوى^(٦) العراقي الذى عاش في النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وله كتب كثيرة في الكيمياء أشهرها كتاب العلم المكتسب في زراعة الذهب ، ومن تلقى بهم في القرن التاسع الهجرى بدر

(١) راجع ابن أبى أصحمة ص ٣٤٢ وألدوميل ص (٤) ابن جبير ص ٢٢٥ .

٢٥٤ ، ٢٤٢ . (٥) راجع فيه ابن خلكان ٣١٣/٥ في ترجمة كمال

(٦) ابن أبى أصحمة ص ٣٤٣ والقفطى ٣٦٥ الدين بن يونس ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من

وألدوميل ص ٢٤١ ، ٢٥٣ . مراجع وبروكلمان (في الطبعة الألمانية) ١/٤٤٤ .

(٣) ابن أبى أصحمة ص ٣٤٩ والقفطى ص ٣٤٠ (٦) انظر ألدوميل ص ٣٠٨ .

وألدوميل ص ٣٢١ .

الدين محمد سبط المارديني^(١) المتوفى سنة ٨٩١ وله كتب مختلفة في الحساب والهندسة . وتأخذ المعرفة بعلوم الأوائل في الضعف مع الحقبة العثمانية إذ لم تعد هناك عناية بها ولا رعاية لها .

ولابد أن نقف قليلا عند مصنفاتهم في السياسة على هدى كتابات أفلاطون وأرسطو وما ترجمه ابن المقفع عن الفارسية هو وغيره من آداب الحكم والسياسة ، وقد افتح ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار بباب طويل عن السلطان والسياسة والحكم ، وتناول هذا الموضوع كثيرون بعده مثل الوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن علي المتوفى سنة ٤١٨ فإنه ألف في السياسة رسالة طريفة . ومن خير الكتب التي ألفت في هذا الموضوع كتاب الأحكام السلطانية للإمام^(٢) أبي الحسن علي بن محمد البصري البغدادي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة ، وكان فقيها شافعيًا ، وتولى القضاء في بلدان كثيرة بالعراق ، وهو في كتابه يصل بين السياسة والمسائل الشرعية في النظم الإسلامية ، وبذلك يصيح الكتاب في سياسة الحكم الإسلامي ، وهو يستله بالحديث عن إمامة المسلمين ثم يتحدث عن تقليد الوزارة وقيادة الجيوش المجاهدة في سبيل الله ، ويتحدث عن ولاية القضاء والمظالم والولاية على الصلاة والحج والصدقات وأحكام النوى والغنيمة والجزية والخراج وأحكام الإقطاع والدواوين وبيت المال .

وقد نشط العراقيون لهذا العصر في الكتابات الجغرافية ، وأول من يلقانا منهم أبو إسحاق الفارسي الإصطخري^(٣) الكرخي المتوفى حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، ويبدو أنه عاش طويلاً في بغداد ، كما يدل على ذلك لقبه الكرخي ، وله كتاب جغرافى سماه « المسالك والممالك » تحدث فيه عن مملكة الإسلام وصور أقاليم الأرض ومدنها وبما رها وأنهارها وسُويها وجبالها ، وقد نقل إلى كتابه صور الأقاليم التي بنها أبو يزيد البلخي في كتابه المعروف بهذا الاسم ، ولابن حوقل البغدادي^(٤) معاصره كتاب باسم المسالك والممالك أيضاً هو تهذيب لكتاب الإصطخري . وكان شيعياً إسماعيلياً ، واستغل الفاطميون في الدعوة لهم على ما يظهر وقد زار الأندلس وإفريقيا الشمالية وبلدان إيران وجزءاً من الهند .

- (١) راجع فيه بروكلمان (الطبعة الألمانية) ٣٥٧/٢ . (٣) انظره في إسطخر بمجمع باقوت وفي دائرة المعارف الإسلامية . وتاريخ الأدب الجغرافى العربى .
(٢) انظره في ابن خلكان ٢٨٧/٣ والمتنظم ١٩٩/٨ .
وطبقات الشافعية ٢٦٧/٥ وتاريخ بغداد ١٠٢/١٧ .
ومعجم الأدباء ٥٢/١٥ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها .
(٤) راجعه في الفهرست ص ٢٢٧ وفي دائرة المعارف الإسلامية . وفي كراتشكوفسكى ٢٠٠/١ .

وأهم جغرافي ظهر بالعراق لهذا العصر هو ياقوت الحموي البغدادى ^(١) المتوفى سنة ٦٢٦ وكتابه معجم البلدان أنفس كتب الجغرافية العربية ، وهو فى ست مجلدات ضخام ، ونراه يذكر فى مقدمته مصادره اليونانية والعربية وكاد أن لا يترك كتابا فى المكتبة الجغرافية العربية إلا ذكر أنه اطلع عليه ونقل عنه ، ولم يكف بذلك الكتب التى كَوَّن منها مادة كتابه ، فقد رجع إلى دواوين الشعراء ينقل عنها ، وألَّم فى كل بلدة بأهم من عاش فيها من العلماء والأدباء كتاباً وشعراء ، مما يضيف قيمة واسعة للكتاب إذ يصبح مصدرا من مصادر العلم والأدب ورجالهما حتى عصره . وله أيضا فى الجغرافيا كتاب ثان بعنوان «المشارك وضما المختلف صقما» . ويمكن أن نلحق بكتب الجغرافية كتب الرحلات ، وربما كان أهمها كتاب الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار لعبد اللطيف ^(٢) البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ وقد وصف فيه وصفا بديعا آثار مصر ، وصوّر كثيرا من شئونها الاجتماعية . وترجم الكتاب إلى اللاتينية ، كما تُرجم إلى الفرنسية ، وطُبِع مرارا .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

تظل بغداد ومدن العراق ناشطة فى المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، ومن الصعب أن تفصل بين اللغويين والنحويين ، وبالتالي أن تفصل بين مباحثها ، إذ يكثر أن ينهض اللغوى بمباحث نحوية ، وبالمثل يكثر أن ينهض النحوى بمباحث لغوية . ويلقانا ابن ^(٣) دُرستويه المتوفى سنة ٣٤٧ معنيا بشرح فصيح ثعلب ، وبالمثل ابن ناظيا والعكبرى وغيرهما كثيرون ، ويضع له عبد اللطيف البغدادى بعدها ذيلًا . وتكثر العناية بكتاب لغوى ثان ، هو إصلاح المنطق لابن السكيت ، فيضع السيرافى ^(٤) الحسن بن عبد الله

(٣) انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ٤٢٨/٩ ونبأه الرواة ١١٣/٢ وابن خلكان ٤٤/٣ .

(٤) راجعه فى تاريخ بغداد ٣٤١/٧ ومعجم الأدباء ١٤٥/٨ ونبأه الرواة ٣١٣/١ ورحمة الألباء لابن

الأثيرى (طبعة آى الفضل إبراهيم) ص ٣٠٧ والفهرست ص ٩٩ وطلباب ٥٨٦/١ وشنوات القهب

٦٥/٢ ومرآة الجنان ٣٩٠/٢ . وابن خلكان ٧٨/٢ .

(١) انظره فى النجوم الزاهرة ٢٨٣/٦ وشنوات الذهب ١٢١/٥ وابن خلكان ١٢٧/٦ ومرآة الجنان ٥٩/٤ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ٣٣٥/١ .

(٢) ترجم له ابن نى نصيحة فى طبقاته ص ٦٨٣ ترجمة شاملة نقلها عن كتاب له ، تحدث فيه عن سيرة ، وقد خصه هذه السيرة فى كتابته لترجمة الشخصية طبع دار المعارف ص ٣٢ .

المتوفى سنة ٣٦٨ شرحا لشواهد ، وتتوالى مختصرات هذا الكتاب وتهدياته ، منها مختصر يسمى المنخل لأبي القاسم الوزير المقرئ المار ذكره ، ومنها تهذيب للمخطيب التبريزي^(١) يحيى بن حل المتوفى سنة ٥٠٢ للهجرة .

ومن الكتب اللغوية المهمة كتاب التنبينات على أغلاط الرواة لعل^(٢) بن حمزة البصري المتوفى بصقلية سنة ٣٧٥ ويشتهر بتزول المتنبي عليه حين قدم إلى بغداد من الكوفة وهو في كتابه يصحح الأغلاط التي وردت في طائفة من كتب لغوية مهمة ، هي نوادر أبي زياد الأعرابي ، ونوادر أبي عمرو الشيباني ، وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب فصيح ثعلب ، وكتاب الغرب المصنف لأبي عبيد القاسم ابن سلام ، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وكتاب خلق الإنسان لأبي ثابت ، وكتاب المقصود والممدود لابن ولاد وقد ذكر مع نقده لهذا الكتاب ما أملاه المتنبي عليه من نقد بالقسط . وتكثر الكتابة في الأسماء المقصورة والممدودة ، منذ ابن دستورية وابن جني في القرن الرابع .

وتتكاثر شروح الشعر والنثر في العصر منذ أوائله ، وشرح ابن جني لديوان المتنبي مشهور وقد سماه القسّر ، ويعد التبريزي المذكور آنفاً - وكان يدرس الأدب في المدرسة النظامية - من أكثر شراح الشعر آثاراً ، وله شروح مطولة على مجموعة القصائد المسماة بالمفضليات للمفضل الضبي ، وعلى المعلقات أو القصائد العشر ، وعلى حاسة أبي تمام وديوانه وعلى سقط الزند لأبي العلاء المروى . وله شروح موجزة على لامية العرب للشنفرى ، وقصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير ، ومقصورة ابن دريد . وإذا كان التبريزي وضع شرحاً مطولاً لديوان أبي تمام فإن المكبرى أبا البقاء في القرن السادس الهجري وضع شرحاً مطولاً بدوره للمتنبي . وعنه ابن المستوفى الإربلي^(٣) المتوفى سنة ٦٣٧ يوضع شرح مطول لديوان أبي تمام والمتنبي سماه النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام في عشر مجلدات . ومنذ وضع الحريري مقاماته أخذت شروحها تتكاثر . ومن شروحها في القرن السادس بالعراق شرح القاسم^(٤) بن القاسم الواسطي ، وشرح المكبرى النحوى شارح المتنبي ، ولابن

(١) انظره في مجسم الأدباء ٢٨٦/٧ وفيه الرواة والأنساب للسماحى الورقة ١٠٣ وزعمه الألباء ص ٣٧٢ وللشظم ١٦٦/٩ وورقة الجبان ١٧٣/٣ والفتلرات ٥/٤ وابن خلكان ١٩١/٦ ودية القصر ٣٣٧/١ .
(٢) راجعه في بنية الرواة ومجسم الأدباء ٢٠٨/١٣ .
(٣) انظره في ابن خلكان ١٤٧/٤ وفيه الرواة والفتلرات ١٨٦/٥ . وفيه اللمى ١٥٥/٥ .
(٤) راجعه في إنباء الرواة ٣١/٣ وقد ذكر القنطلى أنه صنف شرحين للمقامات وأن له شرحاً لديوان المتنبي اختاره من شرح الواحدى وأضاف إليه من كتاب المصنف لابن وكيع .

الختاب ^(١) البغدادى المتوفى سنة ٦٧٠ هـ مبحث لغوى فى أغلاط الحريرى فى مقاماته ورد عليه ابن برى العالم المصرى اللغوى المتوفى سنة ٨٢٠ هـ بمبحث لغوى دقيق انتصر فيه للحريرى ، والمبحثان ملحقان بطبعة مقامات الحريرى نشر مكتبة ومطبعة الحلبي بالقاهرة ومنذ جمع الشريف الرضى خطب الإمام على بن أبى طالب وأخرجها باسم نهج البلاغة أخذ كثيرون يعنون بشرحها ، حتى بلغوا نحو أربعين شارحاً وربما كان شرح ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ هـ أكبر هذه الشروح وهو مطبوع ، ولابن السامى ^(٢) على بن أنجب المتوفى سنة ٦٧٤ هـ شرح على نهج البلاغة وشرح لفصيح ثعلب ، وثلاثة شروح لمقامات الحريرى : كبير ومتوسط وصغير ، والمتوسط فى خمس مجلدات . وقد عني محمود ^(٣) بن أحمد الزنجاني المتوفى سنة ٦٥٦ هـ بوضع مختصر لصحاح الجوهري سماه «ترويح الأرواح فى تهذيب الصحاح» . ومنذ السيراني تكثر الشروح لشواهد الشعر فى كتب النحو على غرار كتابه فى شرح شواهد سيويه ، بل إننا نجد عبد القادر ^(٤) البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ يحول شرحه لشواهد كتاب الكافية لابن الحاجب إلى موسوعة لغوية تاريخية ، ويحق سماه «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» وقد ذكر فى مقدمته مصادره من شروح الشواهد واللغة وأشعار العرب . وما ذكره من كتب اللغة : الجوهرة لابن دريد ، والصحاح للجوهري والعياب للصاغاني والقاموس المحيط للفيروزابادى والبرقيات للمطرز وكتاب ليس لابن خالويه ، والنهاية لابن الأثير والزاهر لابن الأنبارى وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى وإصلاح المنطق لابن السكيت وتهذيبه وشروحها وفصيح ثعلب وذيله وشروحه وأدب الكاتب لابن قتيبة وشروحه والأضداد لغبر مؤلف والفروق لأبى هلال العسكري وخلق الإنسان للزجاج والمغرب للبرقي والمثلثات لابن السيد البطليوسى والمرصع لابن الأثير والمزهر للسيوطي .

وإنما سقنا هذه الكتب اللغوية ، لندل على أن ما كان يكتب فى اللغة بأى بلدة من البلدان كان ينقل إلى بغداد وغيرها من الحواضر ، فالعالم العربى واحد ، وكل ما يستجه بلد

(١) انظره فى مجمع الأدباء ٤٧/١٢ وإتياء الرواة ٩٩/٢ ونية الوعاة والمنظم ٢٣٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٦٥/٦ وابن خلكان ١٠٧/٣ .

(٢) انظره فى تذكرة الحفاظ ٢٥٠/٤ وشرحات اللامع معروف .

(٣) ٣٤٣/٥ ومقدمة مصطفى جواد لكتاب نساء المتفاه (٤) انظره فى خلاصة الأثر للمصطفى ٥٥١/٢ ودائرة المعارف (طبع دار المعارف) وما ذكره من مصادر .

المعارف الإسلامية فى كلمة البغدادى .

في علم من العلوم تتناقله البلدان الأخرى ، وهؤلاء الذين رجع إليهم عبد القادر البغدادي منهم من عاش في أقصى الشرق من العالم العربي ، ومنهم من عاش في أقصى الغرب منه أوفى وأوسطه ، ولذلك يكون من الخطأ أن نعد إنتاج أي بلد إنتاجاً مستقلاً هو مدار الحكم عليه ، فقد كان يروج بإنتاج البلدان الأخرى في كل علم وكل فن ، وتظل شروح الشعر ناشطة لا الشروح المأثورة فقط ، بل تضاف إليها شروح كثيرة ، ولملح لم تظهر قصيدة مهمة دون أن تشرح شروحاً عدة ، نذكر من ذلك رشف الضرب في شرح لامية العرب للشيخ عبد الله^(١) السويدي المتوفى سنة ١١٧٤ للهجرة وشرح بانث سعاد للسيد^(٢) عبد الله الفخري المتوفى سنة ١١٨٨ . وهناك شروح لعلماء مختلفين شرحوا قصائد عاصرتهم أو شرحوا قصائد لابن الفارض . وعنى الشيخ حسن^(٣) القفطان المتوفى سنة ١٢٧٥ بوضع تعليقات على القاموس والمصباح في رسائل مختلفة . ولشهاب الدين الألوسي^(٤) المتوفى سنة ١٢٧٠ شرح على درة الغواص للحريزي باسم كشف الطفرة عن الغرة وللشيخ إبراهيم^(٥) الحيدري المتوفى سنة ١٣٠٠ شرح مختلفة على ديوان أبي تمام ومقامات الحريري وسقط الزند لأبي العلاء . وكان النشاط اللغوي لم يتوقف بالعراق في حقبة من حقبة هذا العصر حتى أواخره وقد عنى العلماء بجانب مجتهدهم في لغة الفصحى أن يحيطوها بأسوار من الصحة ، حتى ينقوها من أوسار العامية التي أخذت تنتشر بقوة منذ مطلع العصر ، ونجد القاضي أبا الحسن عليا المؤيدى يضع سنة ٤٢٠ كتاباً في الأمثال البغدادية العامية^(٦) وأهم من ذلك كتاب الحريري : « درة الغواص في أوهام الخواص » وهو في أغلاط المثقفين ، ووضع له أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي^(٧) المتوفى سنة ٥٣٩ تكللة أو تمة سماها « التكللة فيما تلحن فيه العامة » . وأهم من هذا الصنيع كتابه « المغرب »

-
- (١) راجعه في المسك الأذخر في نشر مزيابا القرن الثاني عشر والثالث عشر لعمود شكري الألوسي (طبع بغداد) ص ٦٠ .
 (٢) راجعه في تاريخ الأدب العربي في العراق للعزوي ٣٨/٢ .
 (٣) العزوي ٥٧/٢ وماضي النجف وحاضرها ج ٣ ق ٢ ص ١٠٩ .
 (٤) انظر في الشهاب أعلام العراق لعمد بهجت الأثري والأدب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ٨٩/١ ونهضة العراق لعمد مهدي الجسر ٢١٩ ومقدمة نفسه
- والعزوي ٥٢/٢ وفي مواضع مختلفة .
 (٥) العزوي ٥٨/٢ .
 (٦) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكليان (الترجمة العربية) ١٦٠/٥ وقد نشر ماسينيون كتابه في القاهرة سنة ١٩١١ .
 (٧) انظر ترجمته في إنباه الرواة ٣٣٥/٣ ومجمع الأدباء ٢٠٥/١٩ والأنساب الورقة ١٣٩ واللباب ٢٤٤/١ وابن خلكان ٣٤٢/٥ ورواة الجبان ٢٧١/٣ وبنية الرواة وشذرات الذهب ١٢٧/٤ .

وهو معجم نفيس للألفاظ الأعجمية الدخيلة على العربية ، ولم يؤلف في موضوعه أكبر منه . وفيه يقول ابن خلكان : إنه من مفاخر بغداد .

وكانوا يعنون من حين إلى حين بجمع مختارات شعرية ، ولابن الشجرى ^(١) هبة الله بن علي المتوفى سنة ٤٥٠ كتاب سماه الحماسة ضاهى به حماسة أبي تمام ، وهو مطبوع في حيدر آباد . وله كتاب الأمل وهو أيضاً مطبوع في حيدر آباد ، وهو أكثر تأليفه إفادة ، ويقول ابن خلكان إنه من الكتب الممتعة لروعة أشعاره المختارة . ومن كتب المختارات الشعرية كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب ل محمد بن المبارك بن ميمون ^(٢) ، وهو مجموعة كبيرة من قصائد الجاهليين والإسلاميين ، وقد جمعه أو صنفه ببغداد سنة ٥٨٩ وهو في الستين من عمره ، ومنه بعض مجلدات بدار الكتب المصرية . وصنّف علي بن أبي الفرج البصري في القرن السابع الهجري الحماسة البصرية ، وقد حُققت وأعدت للطبع . .

ولعل نشاط بغداد في النحول هذا العصر كان أكبر من نشاطها في اللغة ، فقد استحدثت فيه المذهب النحوي البغدادي على نحو ماصورنا ذلك في كتابنا المدارس النحوية ، وهو مذهب كان أصحابه يتخبون من المذهبين البصري والكوفي آراءهم ، ويضيفون إلى ما يتخبون آراء جديدة ينفذون إليها . وأهم نحوي بغدادي تلقاه في القرن الرابع الهجري هو ابن جني ^(٣) المتوفى سنة ٣٩٢ وكان اهتمامه بعلم الصرف عظيماً ، فصنع فيه شرحاً نفيساً لكتاب التصريف للزاني سماه المنصف ، وهو في ثلاثة أجزاء ، شرح فيه مادة الكتاب شرحاً وافياً ، وأضاف إليها كثيراً من ملاحظاته كملاحظته أن الأفعال تشتق من أسماء الأعيان ومن الحروف . وله سر صناعة الإعراب وهو دراسة صوتية واسعة لحروف المعجم ومخارجها وأصواتها ، وله أيضاً في الصرف كتاب التصريف الملوكي ، وأهم كتبه فيه كتاب الخصائص ، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء ، وفيه وضع للصرف قضاياها الكلية ، وذكر فيه مائتة الاشتقاق الأكبر وهو يقوم على فكرة خاصة ، هي أن كل كلمة ومقلوباتها تشترك في معنى واحد ، فكلمة قول . ومتقلباتها : قلو ، ووقل ، وولقي ، ولقي ، ولوق ، جميعها تفيد أوتعن الحقة والحركة . وبجانب وضعه لأصول علم الصرف نراه في النحو يختار من الآراء البصرية والكوفية جميعاً ، ويضيف باجتهاده آراء جديدة ، وكان يكثر من متابعتها لأستاذة

(١) نظره في زهرة الألباء ص ٤٠٤ ومعجم الأدباء (٣) انظر في ترجمة ابن جني زهرة الألباء ص ٣٣٢

٢٨٢/١٩ وإنباء الرواة ٣٥٦/٣ ونية الرحلة وابن خلكان ٤٥/٦ ومرتة الجنان ٢٧٥/٣ وشذرات

الذهب ١٣٢/٤ . ومرتة الجنان ٤٤٥/٢ والشذرات ١٤٠/٣ وروضات

الجنات ص ٤٦٦ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٦٥ .

(٢) انظر بركهان ١٦٩/٥ .

أبى على الفارسي ، وهو من طرازه بغدادى فى مذهب النحوى ، وكل ذلك مصور فى كتابنا المدارس النحوية . وكان يعاصره نحويان كبيران هما السيرافى شارح كتاب سيويه والرمافى وهو مثله شرح الكتاب ، غير أنهما لا يتفقان فى المدرسة النحوية البغدادية الجديدة ، إذ كانا لا يخرجان عن المذهب البصرى ، فعاداهما فى المدرسة البصرية لا البغدادية ، وفى كتاب المدارس النحوية حديث مفصل عن السيرافى وكثرة تعليقاته وتخرجاته النحوية . ويقتضى النحاة بشرح كتاب الإيضاح لأبى على الفارسي ، وبشرحه ابن جنى . ويشرحه غير واحد من بعده مثل المكبرى ، ويعنون بشرح اللع فى النحو لابن جنى ، ومن شرحوه عمر بن ثابت الثاقفى ^(١) تلميذه ، وشرحه عذوط بدار الكتب المصرية ، ومن شرحه المكبرى ، وهم كثيرون . ومن نحاة مدرسة بغداد للمهين أبو البركات بن الأنبارى ^(٢) المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وهو تلميذ ابن الشجرى الذى تلمذ بدوره لأبى على الفارسي ، وبذلك يتصل به . وكان يدرس كتبه لتلاميذه فى المدرسة النظامية ، يدل على ذلك حاشيته على كتاب الإيضاح . وقد عني بدراسة وجوه الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية فى مسائل النحو ، وألف فى ذلك كتابين هما : الإنصاف المطبوع بمصر ، وقد طبعه فابل لأول مرة وقدم له بمقدمة طويلة ، والكتاب الثانى أسرار العربية المطبوع بدمشق ولاحظ فابل أنه رجح آراء الكوفيين بكتابيه الإنصاف فى سبع مسائل ، وكان يتخبط آراءه من المدرستين البصرية والكوفية جميعا . وكان يقف مع الفارسي أستاذ شيخه ابن الشجرى فى كثير من المسائل فهو بغدادى المذهب . وله فى أصول النحو كتاب سماه لمع الأدلة وهو مطبوع بدمشق وطبع له مع الكتاب السابق كتاب الإعراب فى جدل الأعراب ، وله فى تراجم النحاة كتاب نزعة الألباء . وكان يجرى على غراره فى اتباع المذهب البغدادى فى النحو أبو البقاء المكبرى ^(٣) الضرير ، المتوفى سنة ٦١٦ وتدل مصنفاته على توفره على كتب أبى على الفارسي وابن جنى وله كما أسلفنا شرح للإيضاح وكذلك للمع ، وأيضا « الإفصاح عن معانى آيات الإيضاح » وه تلخيص آيات الشعر لأبى على الفارسي « وتلخيص التنبيه لابن جنى » وه المنتخب من كتاب المحتسب فى

الديشى (طبع بغداد) ص ٢٠٩ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٧٨ .

(٣) راجعه فى إنباء الرواة ١١٦/٢ وبغية الرواة وابن

خلكان ١٠٠/٣ والشفرات ٦٧/٥ وابن الديشى ص

١٤٠ ونكت المهيان ص ١٧٨ وكتابنا المدارس النحوية

ص ٢٧٩ .

(١) راجع فى الثاقفى مصمم الألباء ٥٧/١٦ وابن

خلكان ٤٤٣/٣ ونزعة الألباء ص ٣٥٠ ونكت المهيان

ص ٢٢٠ والشفرات ٢٦٩/٣ .

(٢) انظر فى ابن الأنبارى إنباء الرواة ١٦٩/٢ وبغية

الرواة وابن خلكان ١٣٩/٣ والبكى ١٥٥/٧ ومرة

المهيان ٤٠٨/٣ والفتنصر المحتاج إليه من تاريخ ابن

شواذ القراءات » لابن جنى أيضا ، ومن كتبه « إملأه مامن » به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن . وله كتاب اللباب في علل البناء والإعراب . وقد حققه بعض الطلاب وأعدّه للنشر . وله أيضاً إعراب مشكل الحديث . ذُبل به كتاب جامع المسانيد لابن الجوزي . ومن كتبه المسائل الخلافية في النحو وعنى بنشره بعض المستشرقين . وقد صورنا في كتابنا المدارس النحوية كيف كان يعول على الاختيار من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين . ومن نخاة بغداد في القرن السابع الهجري عز الدين عبد الوهاب^(١) ابن إبراهيم الزنجاني وله كتاب باسم نصريف الزنجاني أو العزى أو مبادئ التصريف ، وقد طارت شهرته في الآفاق وصنعت له شروح وحواش كثيرة ، عددها بروكلمان في تاريخه ، ومنها طائفة كبيرة في دار الكتب المصرية . وقد طُبع في روما مع ترجمته إلى اللاتينية ، وطُبع في الآستانة والقاهرة ودلّى بالهند ومع ترجمة إلى الفارسية لمحمد بركة الله اللكنوي في لكنو . ومن نخاة القرن السابع أيضا جلال الدين الحسين بن بدر الدين بن أبياز^(٢) البغدادى المتوفى سنة ٦٨١ وكان يتولى مشيخة النحو في المدرسة المستنصرية ، وله كتاب القواعد في النحو ، ولا توجد منه سوى مخطوطة بدار الكتب المصرية كتبت سنة ٦٧٨ في حياته ، وله أيضا المحصول شرح الفصول لابن معطى وشرح التصريف لابن مالك ومسائل الخلاف في النحو . ومن النخاة المهمة ببغداد بدر الدين^(٣) الإربلى المتوفى سنة ٧٥٥ وله حواش على كتاب التسهيل لابن مالك وشرح على الكافية لابن الحاجب وآخر على كتابه الشافية . وللشيخ عبد الله السويدي المار ذكره كتاب إتحاف الحبيب على مغنى اللبيب^(٤) . ويكثر الشارحون للألفية ولقطر ابن هشام وغيرهما من متون النحو كما يكثر من يصنعون الحواشى . ونكتي بذكر مثال هو إبراهيم الحيدري المار ذكره في النشاط اللغوى ، فله حاشية على كتاب سيويه وأخرى على شرح ألفية ابن مالك للسيوطى وحاشية على شرح الشافية لابن الحاجب للجاربردى وتقرير على حاشية عبد الحكيم الهندى على حاشية عبد الغفور اللارى على شرح الجامى لكافية ابن الحاجب ، وشرح على كتاب الاقتراح للسيوطى^(٥) .

وكان للنشاط في الدراسات البلاغية دوره في العصر ، ومن خير هذه الدراسات كتاب

(١) انظره في بنية الوعاة للسيوطى وق تاريخ الأدب (٣) هدية المعارف ١٣٥/٢ والزواوى ١٧١/١ .

المهر لبزركان ١٧٩/٦ . (٤) المسك الأذخر ص ٦٠ والزواوى ١٢٨/٢ .

(٢) راجعه في بنية الوعاة للسيوطى وبروكلمان ١٨٥/٥ (٥) هدية المعارف ٤٢/١ والزواوى ١٢٢/٢ .

والزواوى ١٦١/١ .

النكت في إعجاز القرآن للرماني^(١) شارح كتاب سيويه ، كما أسلفنا ، وقد توفي سنة ٣٨٤ للهجرة ، وبهنا من الكتاب حديثه عن البلاغة وقد جعلها في ثلاث طبقات^(٢) : عليا ووسطى ودنيا ، والعليا بلاغة القرآن للمعجز والوسطى بلاغة الأدباء حسب تفاوتهم في البلاغة . ويوزعها على عشرة أقسام هي الإيماز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصرف والتضمن والمبالغة وحسن البيان ، ويفصل القول في كل قسم من هذه الأقسام بادئا بتعريفه ثم باسطاً تفريعاته . وللحائمي^(٣) أبن علي محمد بن الحسن البغدادي المتوفى سنة ٣٨٨ كتاب في البلاغة وأنواع البديع سماه حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، وقد اعتمد عليه ابن رشيقي اعتيادا واسما في كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده أثناء عرضه لألوان البديع ، وقد تحدث فيه عن الاستعارة والتجانس والطباق والمقابلة والتسيم والتشبيه والإغراق والإشارة والوحي والتصدير والتسهم والترصيع والتوشيح والمائلة والمبالغة والاتصاف والمساواة إلى غير ذلك من فنون البديع ومحسناته . ويكتب الباقلائي الذي استحدث عنه في علم الكلام المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه « إعجاز القرآن » وبهنا فيه حديثه عن وجوه البديع ، وهو يستهلها بالكلام عن الاستعارة ، ويتلوها بالإرداف ثم للمائلة فالمطابقة فالتجانس فالوازنة ، فالساواة ، فالإشارة ، فالمبالغة ، فالغلو ، فالإفغال ، فالتوشيح ، فصحة التقسيم ، فصحة التفسير ، فالترصيع والتسيم ، فالتكاثر والتعطف إلى غير ذلك^(٤) . وهو يتفق مع ابن المعتز وصاحب الصنائع في كثير من مصطلحاته ، وتلتقي بالشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ وله كتابان : أحدهما في مجازات القرآن ، والثاني في المجازات النبوية ، وهو يعرض في الكتاب الأول مجازات الآيات القرآنية مرتبة على السور وفقا لترتيب آياتها مبينا ما فيها من استعارة أو مجاز أو كناية . وبالمثل علق في الكتاب الثاني على نحو ثلاثمائة وستين حديثا ، والكتابان بحث تطبيقي عام ، وإن كان يلاحظ أن الفروق عنده بين الاستعارة والمجاز والكناية غير دقيقة ، لأنها لم تكن قد حررت حتى زمنه^(٥) .

وعُيِّت طائفة من البلاغيين بالكتابة في بعض جوانب من البلاغة مثل كتاب التشبيهات لابن أبي عون المتوفى سنة ٣٢٢ . وقد نشره عبد المعيد خان في سلسلة جب التذكارية

(١) انظر في حل بن عيسى الرماني تاريخ بغداد ١٠٣/٣ والأنساب ١٤٨ وابن خلكان ٣٦٢/٤ ومجموع

١٦/١٢/مجموع الأدباء ٧٣/١٤ وإنباء الرواة ٢٩٤/٢

والأنساب الورقة ٢٥٨ وشرحات الذهب ١٠٩/٣ . ١٢٩/٣ . والنبية ١٠٣/٣

(٢) انظر تحليل هذا الكتاب في كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٣ .

(٣) انظر في تحليل هذا الكتاب في كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٧ .

(٤) انظر في الحائمي تاريخ بغداد ٢١٤/٢ وإنباء الرواة (٥) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٩ .

بلندن ، وهو في التشبيهات عامة من الشعر القديم والحديث ومن الذكر الحكيم . وأهم منه كتاب «الجهان في تشبيهات القرآن» لابن نايقا^(١) البغدادى المتوفى سنة ٤٨٥ والنهاية بالتشبيه قديمة نجدها في كتابات الجاحظ وابن المعتز^(٢) . وقد نُشر كتاب الجهان في دمشق بتحقيق عدنان زرزور ومحمد رضوان الداية ، والكتاب مرتب حسب السور القرآنية والآيات الواردة في تضاعفها وعادة يفسر الآية الكريمة بإيجاز ، ثم يذكر ما فيها من تشبيه ، وإذا كان له نظير في القرآن ذكره ، ودائماً يذكر الأشعار التي اقتبست ، وكثيراً ما يعرض المحسن لهذا الاقتباس والمقصرين ، موضحاً ببلاغة القرآن المعجز وأنه لا يبلغ مبلغه شاعر . يقول : «وكذلك كل ما ينقله الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن ، لا يبلغون شأوه ولا يدركون مثاله إعجازاً وإبداعاً وإباءً وامتناعاً» .

ويعتني بعض البلاغيين بوضع كتب مستقلة في الجناس ، مثل شُجيم^(٣) الحلبي المتوفى سنة ٦٠١ فله فيه كتاب باسم الأنيس الجليس في التجنيس كما جاء في معجم الأدياء ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه باسم الأنيس في غرر التجنيس .

ولانلبث أن نستقبل كتاب المثل السائر لفضياء الدين نصرالله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى ببغداد سنة ٦٣٧ وكان قد توجه إليها رسولا من لدن صاحب الموصل ، وكان كاتب إنشائه . وقد بينى كتابه على مقدمة^(٤) ومقاتلين ، أما المقدمة فجعلها لعلم البيان ومباحثه المتصلة بالمعاني والبدیع ، ويقول إن موضوع هذا العلم البلاغة والفصاحة ، ويعرض لأدواته التي لا بد من إتقانها لمن يتصدى للكتابة والشعر ويعقد فصلين للمعاني يتحدث في أولها عن حمل الكلام على ظاهره والتأويل فيه بحيث يمكن أن يفهم البيت أفعالها كثيرة . وفي الفصل الثاني يتحدث عن احتمالات النصوص والترجيح بين المعنيين المتقابلين . ونحسرُ صلته في هذين الفصلين بعلماء الأصول وكلامهم عن دلالات العبارات وما يداخلها من الاحتمالات . ويتحدث بعد ذلك عن الفصاحة والبلاغة

معجم الأدياء ٥٠/١٣ وإنهاء الرواة ٢٤٣/٢ وبلغة الرواة والشرحات ٤/٥ وميزان الاحتفال ٨٢/٢ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢٨٣/١ وابن خلكان ٣٣٩/٣ .

(١) راجع في تحليل كتاب المثل السائر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٢٢ .

(١) راجع في عبد الله بن محمد بن نايقا إنهاء الرواة ١٣٣/٢ وابن خلكان ٩٨/٣ والجواهر المضية ٢٨٣/١ وميزان الاحتفال ٥٣٣/٢ ولسان الميزان ٣٨٤/٣ والحريدة (نظم العراق) ١٤٢/١ ومقدمة المحققين لكتابه .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٥ ، ٧٣ .

(٣) انظر في حل بن الحسن بن عثر الملقب بشجيم الحل

وأدوات الكتابة وأركانها . ويخرج إلى المقالة الأولى ، وقد جعلها للصناعة اللفظية وقسمها قسمين : قسما خاصا باللفظة المفردة ، وقسما خاصا بالألفاظ المركبة ، ويُطَبِّع في بيان حسن الألفاظ وصفاته ، متأثرا في وضوح بابين سنان الخفاجي في كتابه « سر الفصاحة » . وبالمثل يتأثر به في حديثه عن صفات الحسن في الألفاظ المركبة مفصلا القول في السجع والتصريح والتجنيس والترصيع ولزوم مالا يلزم والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ وتكرار الحروف . ويستقل إلى المقالة الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية ، ويعرض للسرقات ، ثم يتحدث عن الاستعارة والجاز والتشبيه والتمثيل ، ويعرض الالتفات وصوره وبعض الصيغ النحوية ، ثم يتحدث عن التقديم والتأخير وبعض صيغ الاختصاص والإيجاز والإطناب والكتابة والتعريض ، ولجَّ في بعض مسائل نقدية ، ثم تناول الجناس والاكتباس ، وقطع فصلا للسرقات ، ونغم الكتاب بكلمة عن فضل الفصاحة والبلاغة ذكر فيها الفرق بين الشعر والنثر .

ونلتقي في أواخر القرن السابع بكتاب « الأقصى القريب في علم البيان » المطبوع بالقاهرة من نسخة قرئت على المؤلف محمد بن محمد التنوخي ^(١) سنة ٦٩٢ ويسمى صاحب كشف الظنون الكتاب باسم « أقصى القرب في صناعة الأدب » ويقول إن مؤلفه توفي سنة ٧٤٩ للهجرة ، ولعله أخطأ في سنة وفاته ولا يُعرف موطنه ، وقد ضمّمناه إلى العراق لغلبة الترجمة المنطقية عليه وأصداتها الواضحة في مباحته . وواضح من عنوان الكتاب ^(٢) أن مؤلفه أطلق على مباحث البلاغة اسم البيان متابعا في ذلك ابن الأنثير ، وهو يفتح الكتاب يبحث منطق في التصور والتصديق وفي القضية المنطقية وصورها المختلفة ، ثم يتحدث عن الجملة النحوية ويفيض في مباحث الحروف والأسماء والأفعال . ثم يستقل إلى علم البيان ومباحث الفصاحة والبلاغة فيه والحقيقة والجاز وحسن المفردات وقبحها وصفاتها . ويخرج إلى الحديث عن المعاني ويتدبّر حديثه فيها بالكلام عن الاستعارة ، ثم يتحدث عن التشبيه والالتفات والنثى والاعتراض والإيجاز والإطناب والكتابة والتعريض والتقديم والتأخير والاشتقاق والتكرار وبعض ألوان البديع ، وهو شديد التأثر في كل ذلك بابن الأنثير في كتابه المثل السائر . ويلقانا جلال الدين القزويني صاحب كتاب التلخيص المولود بالموصل ، ويبدو أنه غادره في مطالع شبابه ، وأنه أتم ثقافته في بلاد الروم وديار الشام ، ولذلك سرّجى الحديث عنه إلى الجزء الخاص بالشام ومصر .

(١) انظر في التنوخي بروكلمان ١٨٥/٥ وكشف
الظنون لحاجي خليفة (طبع إسطنبول) ١/ ١٣٧ وكتابه
نشرته مكتبة المخطوطات بالقاهرة .
(٢) راجع في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطوّر
وتاريخ ص ٣١٦ .

وتُسهم العراق في نظم القصائد المعروفة بالبديعيات. وعلى ^(١) بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ هو أول من فتح الطريق إلى هذا الاتجاه ، فقد نظم قصيدة في مديح بعض معاصريه وضمن كل بيت فيها لوناً من ألوان البديع ، وذكر بإزاء كل بيت اللون الذي يطوى فيه ، ولم تصل إلينا القصيدة غير أن صاحب فوات الوفيات ذكر منها ستة وثلاثين بيتاً . وإذا مضينا إلى القرن الثامن التقينا بصنى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة ورأيناه ينظم قصيدة في مديح الرسول ﷺ على شاكلة برودة البوصيري مفتحاً لها بقوله :

إِنْ جِئْتَ سَلْعاً فَسَلِّ عَنْ جِيْرَةِ الْعَلَمِ وَأَقْرِ السَّلَامَ عَلَى عَرَبٍ بِلَذَى سَلَمٍ
وهي مائة وخمسة وأربعون بيتاً من وزن البسيط ، وكل بيت فيها يحمل محسناً من محسنات البديع ، وهي تضم نحو مائة وخمسين محسناً ، إذ جعل للجناس فيها اثني عشر لوناً صورها في الأبيات الخمسة الأولى ، وأوضح أن مطلعها يشتمل على المحسن المعروف باسم براءة الاستهلال ، كما يشتمل على لونين من الجناس بين سلام وسلم وبين العَلَمِ وسلم . وقد سماها الكافية البديعية في المدائح النبوية وصنف لها شرحاً سماه النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية . ويذكر في مقدمته للشرح أنه قرأ ثلاثين كتاباً قبل تأليفه لبديعيته وأنه زاد على ما قرأ محسنات جديدة . وتلقانا بعد صنى الدين بديعيات أخرى وشرح وتلخيصات لكعب البلاغة ، ويستمر العلماء في صنع هذه التلخيصات والشرح لافى أزمان المغول والتركمان فحسب ، بل أيضاً في زمن العثمانيين ، وللشيخ عبد الله السويدي المار ذكره كتاب في الاستعارة ولحمد أمين الخطيب العمري بديعية وشرح لها ، وللشيخ إبراهيم الحيدري كتاب في البديع ولشهاب الدين الألوسي أبي التناء شرح وحاشية على كتاب الاستعارات لابن عمام .

وإذا تركنا النشاط البلاغي إلى النشاط النقدي وجدناه على أتمه في مطالع هذا العصر ، وأول ما يلقانا منه كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحرئى للآمدى ^(٢) الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ وقد استهل الكتاب ^(٣) بالحديث عن مذهبين مختلفين في فهم الشعر ونقده وصنعه وعمله ، وهما مذهب المجددين من أنصار أبي تمام أصحاب المعاني والفلسفة والبديع ، ومذهب المحافظين من أنصار البحرئى الذين يتمسكون بعمود الشعر العربي

(١) انظر في ترجمة علي بن عثمان كتاب فوات الوفيات ٢٨٥/١ وما به من مراجع وروايات الجنات ٢١٩ .

(٢) راجع في تحليل كتاب الموازنة كتابنا النقد (طبع دار المعارف) ص ٦٤ وما بعدها وكتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٨ .

(٣) انظر في ترجمة علي بن عثمان كتاب فوات الوفيات

(طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) ١١٨/٢ والنجوم الزاهرة ٢٣٦/٧ .

(٢) انظر في الآمدى معجم الأدباء ٧٥/٨ وإنباء الرواة

وتفاليده مؤثرين حسن العبارة وحلاوة اللفظ وزجبال أنغامه . ويمضى الآمدى فيصور جدلا بين أصحاب المذهبين في فن الشاعرين وأيهما يتفوق على صاحبه ، عارضا احتجاجات أصحاب أى تمام وردود أصحاب البحرى عليهم ، ومن أطرف مااحتجوا به أن أبا تمام صاحب مذهب جديد في الشعر وصناعته ونوقش مذهبه مناقشة واسعة . ويتحدث الآمدى بعد ذلك عن سرقات الشاعرين وأخطائهما ، وهو يتحيز في الموازنة للبحرئى تحيزاً واضحاً .

وكان يعاصره المرزبانى ^(١) محمد بن عمران المتوفى سنة ٣٨٤ وهو خراسانى الأصل بغدادى المولد والموطن ، وله كتاب الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، وهو سجل لنقد اللغوين من القرن الثانى حتى القرن الرابع لشعراء الجاهلية والإسلام والعصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث ، متخللاً ذلك بنظرات نقدية كثيرة له ولسابقيه . ومن أطرف فصوله الفصل الخاص بأبى نواس ، وكذلك الفصل الخاص بأبى تمام ، وقد دُون فيه رسالة ابن المعتز في بيان محاسن شعر أبى تمام ومساويه ومنها استمد كل من نقدوا أبا تمام بعده ، مثل ابن عمار القطر بلى المتوفى سنة ٣١٩ في رسالته التى كتبها في أخطاء أبى تمام ، وكذلك الآمدى في موازته السالفة . وفي رأينا أن هذه الرسالة هى التى دفعت الصولى للانتصار للشاعر وكتابة مصنفه عنه المعروف باسم أخبار أبى تمام . وحينما يتحدث الآمدى عن أنصار أبى تمام إنما يريد . ونلتقى بتأقده مهم للمتنبى سبق أن عرضنا له في حديثنا عن النشاط البلاغى وهو أبو على الحاتمى البغدادى الذى تصدى للشاعر الكبير يتقده نقداً مجحفاً في كثير من الأحوال ، وله فيه رسالة عما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو . حاول فيها أن يرد كثيراً من حجة إلى أقوال الفيلسوف ، وبمجرد أن نطلع عليها نعرف أن المتنبى على فرض أنه استعار بعض حكمة من أرسطو أعطاها صياغة جديدة باهرة ، وفي الحق أن جمهور حكمة إنما هو من تجاربه ومن خبرته بالحياة الإنسانية . وللحاتمى فيه رسالة ثانية أوكتاب ثان هو الموضحة ^(٢) وفيها يذكر أن الوزير المهلبى هو الذى دفعه إلى نقد المتنبى ، ويقول إن معارك نشبت بينه وبين المتنبى حين لقبه ، ويصور في الكتاب هذه المعارك وأنها امتدت في عدة مجالس ، كان أولها في الدار التى نزل فيها المتنبى ، أمام طائفة من العلماء الأدباء . وقد أخرج الحاتمى الكتاب بعد وفاة صاحبه ولعله تزيد فيه ، وهو

(١) انظر في المرزبانى تاريخ بغداد ١٣٥/٣ ومجمع ٢٣/٤ وعبر الذهبي ٢٧/٣ ولسان الميزان ٢٣٦/٥ .
 (٢) حقق الدكتور محمد يوسف نجم هذا الكتاب ونشره ١١١/٣ وميزان الاعتدال ٦٧٢/٣ والوافى بالوفيات في بيروت .

يذكر حدود الشعر ويتحدث عن سرقات المتنبي وعيوبه ويوازن بين معانيه ومعاني أبي تمام والبحرني . والتجني على المتنبي واضح في الكتاب ، فلم يكن يمسك في يده بمعايير نقدية منصفة . ومع ذلك فإن كثيرين من نقاد المتنبي بعده حملوا عنه نقده وأذاعوه في كتبهم ودراساتهم . ويشتغل كثيرون بالمتنبي في جميع البلدان العربية ، وسنرى في إيران مباحث كثيرة عنه وعن شعره .

ويلقانا في العراق ابن الدهان^(١) سعيد بن المبارك المتوفى سنة ٥٦٩ وله رسالة في سرقات المتنبي سماها « الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية » وقد وقف فيها طويلاً عند سرقاته من أب تمام الطائي ، وعنى ببيان سرقاته من البحرني الطائي أيضاً ، ولذلك قد تسمى في بعض المصادر باسم « المآخذ الكندية من المعاني الطائية » ولابن الأثير كتاب يرد فيه على هذه المآخذ سماه « الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية » عنى فيها بالرد على ابن الدهان في مآخذه على المتنبي وقد وزع أكثرها على جانبين هما : مآخذه على ابن الدهان فيما زعمه من مآخذ المتنبي من أبي تمام ، واستدراكه على ما فات ابن الدهان من مآخذ المتنبي أو سرقاته من أبي تمام . وهو يستهل الرسالة ببيان عيوب ابن الدهان في مبحثه ، ذاكراً أنه ترك من سرقات المتنبي من أبي تمام مثلاً أخذ ، وأنه قد يعدُّ بيتاً للمتنبي مسروقاً من صاحبه ، ويتأمله يلاحظ أنه غير مسروق ، وأنه قد يعزو إلى المتنبي وأبي تمام والبحرني أبياتاً ليست لهم ، وأنه أطال مقدمة كتابه أو رسالته فكان كمن بنى داراً فجعل دهليزها ذراعاً وعرضها شبراً ، على أنها لا تناسب الكتاب ولا تشاكله . ولابن الأثير في الكتاب - شأنه في كتاب المثل السائر - نظرات نقدية كثيرة جيدة . ولابن أبي الحديد رسالة في نقد المثل السائر لابن الأثير سماها « الفلك الدائر على المثل السائر » وهي إلى أن تكون نقداً لغوياً أقرب منها إلى أي نقد آخر ، ورد عليه كثيرون متصرين لابن الأثير مثل محمود بن الحسين السنجاري المتوفى سنة ٦٤٠ في كتابه « نشر المثل السائر وطى الفلك الدائر » .

ولصنى الدين الحلبي المار ذكره في البديعيات كتاب نفيس في الأشعار العامية الشعبية سماه « العاقل الخالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي » عرض فيه فنون الشعر العامي من الزجل والموالي والقوما والكان وكان موضعاً نشأتها وتاريخها وأوزانها وقوافيها وما يجوز فيها وما لا يجوز . ويلاحظ أنه سبق الأزجال في الأندلس قصائد عامية ذات قافية واحدة

(١) انظر في ابن الدهان مجسم الأدباء ٢١٩/١١ خلكان ٣٨٢/٢ والشذرات ٢٢٣/٤ .

ونكت المعبان ص ١٥٨ وإنهاء الرواة ٤٧/٢ وابن

كتصانده الشعر الفصيح ، كانت تسمى بالقصائد الزوجية ، ثم نوهوا فيها الأوزان والقوافي على شاكلة الموشح . وهو يقوم في ضبط أوزان الأشعار العامة مقام ابن سناء الملك المصري في ضبطه للموشحات بكتابه المعروف « دار الطراز » . وتعرض حتى الدين الخليل لبعض أشعار ابن سناء الملك بنقد لغوي ذاهبا إلى أنه لما قلده الأندلسيين في موشحاته وجعل خرجاتها عامة كثر في نظمه استخدام اللفظ العامي ، وبضرب لذلك بعض الأمثلة - في رأيه - من شعره . وقد صحح هذه الأمثلة وردّها الصفدي في شرحه للامية العجم الذي سماه « الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم » . ولانعود نسمع عن كتاب مهم في النقد بالعراق بعد كتاب العاقل الخليلي ، فقد انصرف الباحثون إلى الدراسات البلاغية بين شروح وتلخيصات كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني نشاط العراق في روايته لقراءات الذكر الحكيم وكيف أن ابن مجاهد استخلص منها سبعا ، هي قراءات الأئمة : نافع في المدينة وعبد الله ابن كثير في مكة وعاصم وحزمة والكسائي في الكوفة وأبي عمرو بن العلاء في البصرة وعبد الله بن عامر في دمشق ، وشاعت في العالم الإسلامي إلى اليوم مدونة بكتابه السبعة الذي مضى العلماء منذ عصره يتدارسون^(١) وألف كتابا ثانيا في شواذ القراءات عني بالتعليق عليه ابن جني مسميا تعليقه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . وذهب كثيرون بعد ابن مجاهد إلى أنه لا تنقل عن القراءات السبع التي دونها بكتابه قراءة أبي جعفر يزيد ابن القعقاع شيخ نافع المتوفى سنة ١٣٠ للهجرة ويعقوب بن إسحق الحضرمي البصري المتوفى سنة ٢٠٥ وخلف بن هشام البغدادي المتوفى سنة ٢٢٩ . ويضم هذه القراءات إلى قراءات ابن مجاهد تصبح القراءات عشرا وتؤلف فيها الكتب . ويضم إليها كثيرون أربع قراءات هي قراءة ابن مُحَبِّين المكي معاصر ابن كثير وقراءة الأعمش الكوفي وقراءة الزبيدي البصري تلميذ أبي عمرو بن العلاء وقراءة الحسن البصري . وبذلك تصبح القراءات أربع عشرة . وتنشط العراق في التأليف فيها ، تارة يؤلف العلماء في السبع وتارة يؤلفون في العشر أو في الأربع عشرة . فن ذلك كتاب الجامع في القراءات العشر لعل بن محمد الخطاط المتوفى سنة ٤٠٥ وكتاب الروضة للحسن البغدادي في إحدى عشرة قراءة وقد توفي

(١) حُفَّتْ ونشرت في دار الكتاب هذا الكتاب .

سنة ٤٣٨ وكتاب المفيد في القراءات العشر لأبي نصر البغدادي المتوفى سنة ٤٤٢ وكتاب التذكار في القراءات العشر لابن شيطا البغدادي المتوفى سنة ٤٤٥ وكتاب المستنير لأحمد ابن علي بن سوار البغدادي المتوفى سنة ٤٩٦ وهو أيضا في القراءات العشر وكتاب المهذب في القراءات العشر لمحمد بن أحمد بن الحياط البغدادي المتوفى سنة ٤٩٩ وكتاب الإرشاد في العشر للواسطي المتوفى سنة ٥٢١ وكتاب الموضح والمفتاح في القراءات العشر لابن خيمون البغدادي المتوفى سنة ٥٣٩ وكتاب المبيج في القراءات الثمان لسبط الحياط البغدادي المتوفى سنة ٥٤١ وله كتاب الكفاية في القراءات الست ، وكتاب المصباح في القراءات العشر لأبي الكرم البغدادي المتوفى سنة ٥٥١ وكتاب الكثر في القراءات العشر لأبي محمد عبد الله الواسطي المتوفى سنة ٧٤٠ وله كتاب الكفاية وهي قصيدة في القراءات العشر على وزن القصيدة المشهورة باسم الشاطبية ورويا ، وكذلك لمعاصره أبي الحسن علي الديواني الواسطي المتوفى سنة ٧٤٣ قصيدة ماثلة للشاطبية . وكل هذه الكتب عرّف بها ابن الجزري في كتابه «النشر»^(١) في القراءات العشر ، وترجم لأصحابها في كتابه غاية النهاية في طبقات القراء .

وإذا انتقلنا إلى التفسير والمفسرين وجدنا العراق تنشط في التفسير الفقهي والاعتزالي والسني والشيعي ، وقلما عنت بالتفسير الصوفي ، وكأنما تركته متصوفة خراسان وإيران من أمثال أبي عبد الرحمن السلمي والقشيري ومتصوفة الأندلس من أمثال ابن عربي . وقد عنت مبكرة بالتفسير الفقهي ، على نحو ما نرى عند ابن الجصاص^(٢) أحمد بن علي المتوفى سنة ٣٧٠ في كتابه أحكام القرآن ، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء بالقاهرة ، ومثله كتاب أحكام القرآن للكيكا^(٣) المرأسي المتوفى سنة ٤٥٤ وأصله مثل ابن الجصاص إیراني ، ولكنها نزلت ببغداد ، واستقر فيها أما ابن الجصاص فقد نزلها سنة ٣٢٥ وتلقى بها العلم ، ثم أصبح مدرسا للفقه الحنفي وتركها بأخرة إلى نيسابور حيث توفي فيها . وأما الكيكا المرأسي فقد درس في نيسابور وعلم في إحدى قرأها المسماة بيهق . ثم خرج إلى العراق وتولى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد حتى توفي ، وكان في خدمته بها الشاعر الفزري المشهور . وألفت في أحكام القرآن كتب أخرى ليس لها شهرة الكاتبين السابقين . وقد ذكرنا في المعصر

(١) انظر في الكتب السابقة وأصحابها النشر في رقم ١١ وستان المحدثين لبيد العزيز الدهلوي ١٢٦

القرنات العشر لابن الجزري (طبع القاهرة) و«النجوم الزاهرة» ١٣٨/٤ والقواعد البنية ص ٢٧

(٢) انظر في الكيكا المرأسي المتظم ١٧/٩ وتبين ٩٥-٧٤/١

(٣) راجع في ترجمة ابن الجصاص الجواهر للفضية كلب القنري ٢٨٨ والبكي ٢٣١/٧ و«الذهبي» ٨/٤

والشذرات ٨/٤ وابن خلكان ٢٨٦/٣

العباسي الثاني تفسيرات المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، ويستمر نشاط المعتزلة في تفسير الذكر الحكيم لهذا العصر وخاصة في أوائله ، وبلغنا فيه تفسير لعلي بن عيسى الرمانى المعتزلى ، ومربنا أنه توفى سنة ٣٨٤ وكان يقول : تفسيرى بستان بُجْتْنى منه ما يشتهى . وقيل للصاحب بن عباد معاصره هلا تصنف تفسيرا ؟ فقال : وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئا^(١) ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « له كتاب التفسير الكبير وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال ، وسلك الزمخشري سبيله وزاد عليه^(٢) . ومن هذا الاتجاه الاعتزالى كتاب التفسير الكبير لعبد السلام^(٣) بن محمد القزوينى نزىل ببغداد وشيخ المعتزلة المتوفى سنة ٤٨٨ ويقول السمعاني إنه مزج تفسيره بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو فى ثلاثمائة مجلد ، منها سبع مجلدات فى سورة الفاتحة ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إن الكتاب كان وقفا فى مشهد أئى حنيفة ببغداد . ويبدو أن المعتزلة اكثفوا فيها بعد بتفسير الزمخشري المسمى بالكشاف ، إذ لم ينشطوا بعده للتأليف فى تفسير القرآن .

ويظل التفسير السنى مزدهرا بعد تفسير الطبرى الذى عرضنا له فى العصر العباسى الثانى ، ومن التفسيرات السنية المهمة فى العصر تفسير القاش^(٤) البغدادي محمد بن الحسن المتوفى سنة ٣٥٠ كان إمام أهل العراق فى القراءات والتفسير ، وقد سمي تفسيره شفاء الصدور ، وطُوف من مصر إلى ما وراء النهر فى لقاء المشايخ ولكنهم ضغفوا أحاديثه ، وقالوا إنه ليس بثقة على جلالته ونبله . ولأئى الحسن الماوردى إمام الشافعية فى عصره المتوفى كما مربنا سنة ٤٥٠ تفسير من أجل الطالبين . وبلغنا تفسير سنى لا يزال مخطوطا بدار الكتب المصرية وهو لأحمد^(٥) بن محمد الغزالي أنهى الإمام الغزالي مدرسى النظامية ببغداد المتوفى سنة ٥٢٠ . واشتهر ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ بتفسيره الذى سماه « زاد المسير فى علم التفسير » . ومن أصحاب التفسيرات السنية الرُسَعي^(٦) عبد الرزاق المتوفى سنة ٦٦١ وفيه يقول السيوطى : « صنف تفسيراً حسناً يروى فيه بأسانيده » . ومنهم علاء الدين على بن محمد البغدادي صاحب التفسير المعروف بتفسير الحائزان^(٧) المتوفى سنة ٧٤١ ، وهو ملهى

(١) التبة والأمل لابن الرنضى ص ١١٥

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٨/٤

(٣) انظر طبقات المفسرين ١٩ والنجوم الزاهرة

(٤) ١٥٦/٥ وتذكرة الحفاظ ٨/٤ ولسان الميزان ١١/٤

والبكى ١٢١/٥ والشلوات ٣٨٥/٣

(٥) راجعه فى تاريخ بغداد ٢٠١/٢ ومجموع الأدباء

(٦) ١٤٦/١٨ وتذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد)

(٧) انظر فى طبقات المفسرين للدوادى والحدود الكاتبة

١١٥/٣ وطبقات القراء لابن الجوزى ١١٩/٢ وميزان

الاعتزال ٥٢١/٣ وابن خطكان ٢٩٨/٤ والبكى

١٤٥/٣

(٥) انظره فى المتظم ٢٦٠/٩ وميزان الاعتزال

(٦) ١٥٠/١ وابن خطكان ٩٧/١ والبكى ٦٠/٦ والفتاوى

٦٠/٤ ومرة الجنان ٢٢٤/٣ ولسان الميزان ٢٩٣/١

(٦) راجعه فى طبقات المفسرين للسيوطى ولم ٥٦

(٧) انظره فى طبقات المفسرين للدوادى والحدود الكاتبة

١٧١/٣

بالإسرائيليات . ومن غير التفسيرات السنية تفسير ذاع وشاع منذ تأليفه في القرن الماضي ، وهو كتاب «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» لشهاب الدين محمود الألوسي الذي مر ذكره والمتوفى سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م ، وهو يعنى في تفسيره ببيان أسباب النزول وبتفسير آتى القرآن بعضها ببعض ، وتفسيرها بالحديث النبوى ، ويعنى باللغة ومسائل النحو والبلاغة ، وقد اعتمد على كثير من مصادر التفسير في القديم ، وخاصة على الكشاف والبيضاوى والفخر الرازى ، وهو يخوض مثل الفخر في مباحث فلسفية ورياضية وطبيعية كثيرة . وقد عُنِيَ عناية واسعة بالرد على الطبرسى الشيعى في تفسيره ، وخاصة في مسائل الإمامية الاعتقادية . ونراه يعنى بالرد في مسائل كثيرة على حجج الشافعية ، وخاصة تلك التى يشيرها المفسر الشافعى الكبير الفخر الرازى في تفسيره . ومع أنه كان حنفياً . والحنفية غالباً كانوا معتزلة أو ماتريدية ، نراه في تفسيره أشعرياً ، وهو بذلك يلتقى مع الفخر الرازى في نصرته للمذهب الأشعرى . ويذكر ابن عرى مراراً في تفسيره ، ويتضح تأثره به ويتفاسر الصوفية عامة حين نراه في كثير من الآيات بعد أن يوضح المراد منها بتغلغل في معان باطنة لا يدل عليها ظاهرها أى دلالة ، ومن الغريب أنه يذكر مراراً أن قَصْرُ مراد الله على التأويلات البعيدة كفر صريح ومع ذلك نراه أحياناً ينادى فيها ، وكان حرياً أن يحلّ تفسيره منها ومن شوائبها إخلاء تاماً .

وقد ذكرنا في العصر العباسى الثانى للتفسير الشيعى بعض التفاسير التى نسبها الشيعة إلى أئمتهم ، مثل تفسير الإمام الحسن العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ وهو الإمام الحادى عشر في ترتيب الإمامية ، وبمجرد اطلاعنا عليه نستبعد أن يكون من صنعه حقاً لركاكة أساليبه ولما فيه من تأويلات باطنية بعيدة . ويأتى بعده تفسير القمى ^(١) على بن إبراهيم المتوفى لأوائل القرن الرابع الهجرى ، وهو في جملته نقول عن أئمة الإمامية وكثير منها يبعد عن ظاهر النص القرآنى ومراده ، مما يدل على أن نسبها إليهم غير صحيحة . وما نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نلتقى بالشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ . وبتفسيره الذى سماه «حقائق التأويل في متشابه التنزيل» وقد نشرته في بيروت الجزء الخامس ، ومن يطلع عليه يجد له فيه عمليتين كبيرتين : أولها البعد عن التفسير الباطنى الشيعى لآيات الذكر الحكيم ، وثانيها ترك الروايات عن الأئمة والاحتكام إلى العقل ، وهو احتكام وصلّ تفسيره بتفسير المعتزلة ،

(١) انظره في طبقات القسرين للعلوى ٣٨٥/١ مطبع بالجلف .

والقريبة إلى تصانيف الشيعة لأغايزررك ٣٠٢/٤ وتفسيره

والصلة بين المعتزلة والشيعة الإمامية قديمة ومعروفة ، وتتردد في التفسير أسماء بعض أعلامهم مثل أنى على الجبائي وعلى بن عيسى الرمائي والقاضي عبد الجبار . وانجبه نفس الوجهة أخوه الشريف المرتضى^(١) في كتابه «الأمالى» إذ نراه فيه يقف إزاء الآيات التي قد يفيد ظاهرها التشبيه على الذات العلية أو الجبر ليؤولها على طريقة المعتزلة ، وفي الوقت نفسه لا يروى فيها نقولاً عن الأئمة . وبذلك يُعَدُّان للتفسير بالرأى والعقل في بيئة الإمامية ، واستضاء بعملهما في هذا الاتجاه الطوسي^(٢) أبو جعفر محمد بن الحسن تلميذ الشريف المرتضى ، وقد توفي سنة ٤٦٠ هـ واشتهر بتفسيره للذكر الحكيم سماه «التيان» في تفسير القرآن وهو مطبوع بالنجف في عشرة أجزاء ، وقد عُني في تفسيره بالتقريب بين تفسيرات الشيعة وتفسيرات أهل السنة . إذ روى في تفسيره عن الصحابة من أمثال أنى بكر الصديق وعمر . وكذلك عن التابعين دون تمصّب مذهبي ، ووضع بجانبهم ما نقله عن الأئمة في عقيدته الإمامية ، واتخذ تفسير الطبري السني هادياً له في تفسيره ، وكما نقل عن كتب الحديث الشيعة مثل الأمالى لابن بابويه القمي وأمالى ابن النعمان المفيد نقل عن كتب الحديث المشهورة لأهل السنة مثل مسند ابن حنبل وكتب الصحاح السنة . وعلى ضوء دراسات الشريفين المرتضى والرضي عُني بالتفسير العقلي وفسح للتأثر بالمعتزلة في نقى التشبيه عن الذات العلية . وليس معنى ذلك كله أنه تخلّص في تفسيره من عقيدته الإمامية ، بل لقد نصرها في مواطن كثيرة وخاصة عقيدتهم في الإمام وأنه معصوم وحجة الله في أرضه وصاحب علم باطني متوارث إلى غير ذلك من أصول العقيدة الإمامية ، وقد تأثر به الطبرسي في تفسيره تأثراً واسعاً .

وكانت بغداد داراً قديمة للحديث ، وظلت شديدة العناية به وبمخاطفه طوال هذا العصر ، وأول من تلقاه من أعلامه البرّاز محمد^(٣) بن عبد الله المتوفى سنة ٣٥٤ وله كتاب العوالى في الحديث وهي مجموعة يمتاز سندها بقوة رواته ، وكان يعاصره الآجروني^(٤) أبو بكر محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب يضم أربعين حديثاً مختارة ،

(١) راجع في الشريف المرتضى تاريخ بغداد ودائرة المعارف الإسلامية .
 (٢) انظره في تذكرة الحفاظ ٩٦/٣ وطبقت الحفاظ للسيرى ١٢١ . ودرر كلان ٢٠٧٣ .
 (٣) راجع في تذكرة الحفاظ ١٣٩/٣ وتاريخ بغداد من مراجع
 (٤) انظر في الطوسي المنتظم ٢٥٢/٨ والنجف الزاهرة ٨٢/٥ ولسان الميزان ١٣٥/٥ وروضات الجنات ٥٨٠
 (٥) انظره في تذكرة الحفاظ ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢٩٦/٤ والشرحات ٣٥/٣ والمنتظم ٥٥/٧ والوافى ٣٧٣/٢ .

ويختلفها الدارقطني^(١) على بن عمر المتوفى سنة ٣٨٥ وهو منسوب إلى محلة ببغداد تسمى دارقطن ، وله كتاب السنن وقد نُشر قديماً في دلهي ، واشتهر الدارقطني بأنه تعقب في كتابه الاستدراكات وجوه الضعف في بعض أحاديث رواها الشيخان : البخاري ومسلم ، وله كتاب في الضعفاء والمتروكين من الرواة وكتاب في العلل ، وآخر في غريب الحديث . وكان يعاصره الكلاباذي^(٢) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٣٩٨ وله كتاب في رجال البخاري ، وجاء بعده اللالكائي^(٣) هبة الله بن الحسن محدث بغداد المتوفى سنة ٤١٨ وله كتاب في رجال الصحيحين وكتاب في السنن ، وكان يعاصره البرقاني^(٤) أحمد بن محمد شيخ بغداد المتوفى سنة ٤٢٥ وله مصنفات مختلفة في الحديث ، منها مسند ضمنه ما اشتمل عليه صحيح البخاري ومسلم . ثم يلقانا الخطيب^(٥) البغدادى أحمد بن علي بن ثابت المتوفى سنة ٤٦٣ وكان في وقته حافظ المشرق الذي لا يدافع ، وله مصنفات كثيرة في الحديث ورجاله ، ومن أطرف ماله كتاب تقييد العلم ، وفيه يتحدث عن تدوين الحديث وأوائل من دونه . وكان يعاصره ابن ماكولا^(٦) المتوفى سنة ٤٧٥ وهو صاحب الإكمال تتبع فيه الألفاظ المشبهة في أسماء رواة الحديث ، يقول ابن خلكان : هو في غاية الإفادة في رفع الالتباس والاضبط والتقييد وعليه اعتماد المحدثين وأرباب هذا الشأن فإنه لم يوضع مثله ولقد أحسن فيه غاية الإحسان . ومن محدثي القرن السادس ابن الجوزي عبد الرحمن ابن علي المتوفى سنة ٥٩٧ ، وله عدة مصنفات في الحديث من أهمها كتابه «الموضوعات» في أربعة أجزاء ذكر فيه الأحاديث الموضوعة . وكان يعاصره مجد الدين المبارك بن محمد المعروف بابن^(٧) الأثير الجزري الموصل المتوفى سنة ٦٠٦ وله جامع الأصول في أحاديث الرسول جمع فيه بين الصحاح الستة ، وله أيضاً كتاب النهاية في

- (١) انظره في تاريخ بغداد ٣٤/١٢ والمتمم ١٨٣/٧
أو الأسانيب ٢١٧ وطبقات القراء ٥٥٨/١ والسبكي
٤٦٢/٣ وتذكرة الحفاظ ١٨٦/٣ وابن خلكان ٢٩٧/٣
وعبر للذهبي ٢٨/٣ والباب ٤٠٤/١ .
(٢) انظره في تذكرة الحفاظ ٢١٦/٣ وتاريخ بغداد
٤٣٤/٤ وبيروكيان ٢٢٨/٣ .
(٣) تذكرة الحفاظ ٢١٧/٣ وتاريخ بغداد ٧٠/١٤
(٤) تذكرة الحفاظ ٢٥٩/٣ وتاريخ بغداد ٣٧٣/٤
والسبكي ٤٧/٤ وللمتمم ٧٩/٨ .
(٥) انظره في تذكرة الحفاظ ٣١٢/٣ وتهذيب ابن
حساكر ٣٩٨/١ ومعجم الأديباء ١٣/٤ والمتمم ٢٦٥/٨
والعبر ٢٥٣/٣ والنفوس ٣١١/٣ والسبكي ٢٩/٤ وابن
خلكان ٩٢/١ وكتاب الخطيب البغدادى مؤرخ بغداد
ومحدثنا ليوسف العش .
(٦) راجعه في تذكرة الحفاظ ١/٤ والمتمم ٥/٩
ومعجم الأديباء ١٠٢/١٥ وابن خلكان ٣٠٥/٣ وعبر
الذهبي ٣١٧/٣ والنفوس ٣١٨/٢ وفوت الوفيات
١٨٥/٢ .
(٧) انظره في تذكرة الحفاظ ١٨٥/٤ وابن خلكان
١٤١/٤ ومعجم الأديباء ٧١/١٧ وإنباء الرواة ٢٥٧/٣
ومرآة الجنان ١١/٤ والسبكي ٣٦٦/٨ والعبر ١٩/٥
ودرويات الجنات ٥٨٥ .

غرب الحديث . وجاء بعده ابن نقطة ^(١) محمد بن عبد الغنى الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٩ وله ذيل على الإكمال لابن ماكولا فى مجلدين ، وله كتاب التصيد لمعرفة رواة السنن والمسائيد . وكان يعاصره ابن الدينى وابن النجار وسنخض لهما فى حديثنا عن علم التاريخ . وجاء بعدهما من كبار الحفاظ ابن القوطى المتوفى سنة ٧٢٣ وسنذكره معها . وجاء بعده صنى الدين الحسين ^(٢) بن بدران مدرس الحديث بالمستصرية المتوفى سنة ٧٤٩ وخلفه الكرماني شمس الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٨٦ وله الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى ، وهو مطبوع بالقاهرة . وتلاه ابنه تقي الدين ^(٣) يحيى البقداوى المتوفى سنة ٨٣٣ وله شرح على صحيح البخارى ومسلم .

وحق الآن لم نعرض لكتب الحديث عند الشيعة الإمامية ، ومن أهمها عندهم كتاب الأمال لابن بابويه القمى المتوفى سنة ٣٨١ ولا يقل عنه أهمية كتاب الأمالى للمفيد ^(٤) محمد بن محمد بن النعمان المتوفى سنة ٤١٣ وهو أستاذ الطوسى المفسر الذى مر ذكره ، وأماله مطبوعة بالنجف ، وهى تشتمل على اثنين وأربعين مجلداً تقتصر على أحاديث مروية عن الرسول ﷺ وآل بيته . وللطوسى كتب مختلفة فى الحديث مطبوعة بالنجف وأهمها الاستبصار فيها اختلف من الأخبار ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية فى العقيدة الإمامية . ودائماً كتب الشيعة الإمامية فى العقيدة مشحونة بالأحاديث ، وظل ذلك طوال هذا العصر على نحو ما نجد عند المظهر ^(٥) الحلى الحسين بن يوسف المتوفى سنة ٧٢٦ وكان رأس الشيعة الإمامية الاثنى عشرية بالحلة ، ولأزم النصير الطوسى مدة واشتغل فى العلوم العقلية - كما يقول ابن حجر - فهر فيها ، وله مصنفات كثيرة فى الإمامة والشرعية ، رد عليه فيها ابن تيمية وأظهر - كما يقول ابن حجر - أن كثيراً من الأحاديث عنده غير صحيحة .

وكما كانت بغداد داراً للحديث وحفاظه كانت أيضاً داراً للفقهاء والفقهاء ، وأول مذهب فقهى نقف عنده مذهب أبى حنيفة ، ولعل أول فقيه حتى جدير بالوقوف عنده فى هذا العصر القدورى ^(٦) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢٨ وله مختصر مشهور فى الفقه الحنفى لا يزال

(١) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١٩٧/٤ والمير ١١٧/٥

وابن خلكان ٣٩٢/٤ والشرحات ١٣٢/٥ .

(٢) انظره فى الدرر الكامنة ١٣٩/٢ والشرحات

١١٣/١ .

(٣) راجعه فى الفهرست اللاعن ٢٥/١٠ والزواوى ٦٧/١

(٤) انظره فى كتاب الرجال للناش ٢٨٣ وشرح

المقال للاستزادى ٣١٧ وروضات الجنات ٥٦٣

ديروكلان ٣٤٩/٣ .

(٥) راجعه فى الدرر الكامنة لابن حجر (طبعة دار

الكتب الحديثية) ١٥٨/٢ والزواوى ١٦٦/١ .

(٦) انظره فى تاريخ بغداد ٣٧٧/٤ وابن خلكان

٧٨/١ والمير ١٦٤/٣ وتاج التراجم رقم ١٣ والجواهر

الفنية ٩٣/١ ولفوائده اليه للكنزى ١٧ وديروكلان

٢٦٩/٢ .

يُدرس إلى اليوم وقد طُبِعَ طبعات مختلفة واهتم به العلماء الأحناف بعده وصنعوا له شروحاً مطولة وموجزة . وكان يعاصره أبو زيد الديوبسي ^(١) عبد الله بن عمر المتوفى سنة : ٤٣٠ وله تأسيس النظر في الخلاف ، وهو مطبوع في القاهرة ، ويقال إنه أول من أنس علم الخلاف بين الفقهاء ومذاهبهم المتقابلة . ومنذ أبي يوسف في عهد الرشيد وعنايته بأن يجعل على القضاء فقهاء الأحناف في بغداد وغيرها نشط الفقه الحنفي في العراق ، وكان مما ساعد على ذلك المدرسة التي بناها المستوفى الخوارزمي في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي للحنفية ^(٢) عند مشهد الإمام أبي حنيفة . وحين بنى المستنصر مدرسته المستنصرية - كما مر بنا - جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة : الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي إيواناً فيه المسجد وموضع التدريس . وبذلك ظل لفقهاء الحنفية نشاطهم . ومنهم مظفر ^(٣) الدين بن الساعاتي المدرس بالمستنصرية المتوفى ببغداد سنة ٦٩٦ وله كتاب مجمع البحرين شرحه في مجلدين . ومنهم أبو البركات ^(٤) النسفي ، المتوفى سنة ٧٠١ وله مصنفات مختلفة في الفقه الحنفي ، من أهمها الكتر وله شهرة كبيرة في تدريس المذهب ، وعليه شروح كثيرة ونلتقى منذ هذا التاريخ بشروح ومتون مختلفة في الفقه الحنفي . وكان البغداديون أقل عناية بالفقه المالكي ، وأكثر من كانوا يعتنقون هذا المذهب وفدوا على بغداد ، ومع ذلك نجد من حين إلى حين فقيهاً مالكياً كبيراً ببغدادياً أو عراقياً مثل الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ وكان شيخه ابن مجاهد محمد بن أحمد الطائي مالكياً مثله ^(٥) . ومن وفدوا على العراق أبو العباس المالكي أحمد ^(٦) بن محمد المتوفى سنة ٥٠٧ . وكانت حلقة المذهب في المدرسة المستنصرية كما ذكرنا آنفاً سبباً في أن يظل حياً بالعراق ، ويظل له شيوخه وفقهائه .

وكان الفقه الشافعي أكثر نشاطاً من فقه المذهبين المالكي والحنفي ، ومن أهم فقهاء أبو ^(٧) حامد المروزي أستاذ أبي حيان التوحيدى ، وعنه حمل المذهب فقهاء البصرة ، وقد توفى سنة ٣٦٢ ويلقبنا بعده في بغداد أبو حامد الإسفرائيلي ^(٨) المتوفى سنة ٤٠٦ وله في

(١) راجع في الديوبسي الفتاوى البيية ٢٥ والمجاهر لمصنفه (٥) البيهقي ٣٦٨/٣

(٢) وابن خلكان ٤٨/٣ وتاج التراجم رقم ١٠٧ (٦) للمتظم ١٧٥/٩

ويروكلان ٢٧٣/٣ . (٧) انظره في البيهقي ١٢/٣ وابن خلكان ١٦٩/١

(٨) ابن خلكان ٤١٤/٥ . والعمر ٣٢٦/٢ والفتاوى ٤٠/٣

(٩) انظره في تاج التراجم ص ٦ والمجاهر لمصنفه ٨٠/١ (٨) راجعه في البيهقي ٦١/٤ وتاريخ بغداد ٣٦٨/٤

والفتاوى البيية ١٦ . ويروكلان ٣٥٧/٦ . وابن خلكان ٧٧/١ والعمر ٩٢/٣ والفتاوى ١٧٨/٣

(٤) مذكر مصادر ترجمته في قسم الخاص بدمشق

المذهب التعليقية الكبرى ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة فقيه . ومن نابهي فقهاء المذهب ببغداد المحاميل ^(١) الضببي المتوفى سنة ٤١٥ وله كتاب اللباب في الفقه الشافعي واختصره أبو زرعة العراق المتوفى سنة ٨٢٦ واختصر هذا المختصر شيخ الإسلام المصري زكريا الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦ . ومربنا حديث عن الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ وكتابه الأحكام السلطانية ، وقد درس المذهب في البصرة وبغداد ، وله في الفقه كتابان هما الحاوي والإقناع ونشرله في العراق كتاب أدب القاضي في مجلدين ، وقد ذكرنا له كتاباً في التفسير . ويزدهر المذهب الشافعي في العراق منذ تأسيس نظام الملك لمدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٥٨ وأسس لها أختين في البصرة والموصل ، ووقف عليها جميعاً أوقافاً كثيرة ، وجعل التدريس فيها خاصاً بفقهاء الشافعية لا في الفقه وحده بل في مختلف العلوم ، وقد أسند تدريس المذهب في نظامية بغداد لأبي إسحق الشيرازي أحد أئمة المشهورين ، ويظل يتداول وظائفها كبار الفقهاء في المذهب ، مما أحدث فيه ازدهاراً حقيقياً لا في بغداد وحدها بل أيضاً في البصرة والموصل ، ويعني السبكي في طبقاته بالترجمة لأعلام الشافعية في العراق وإحصاء مصنفاتهم ولن نستطيع أن نتابعه ، ونكتفي بأن نذكر من بين من ترجم لهم الشهرزوري ^(٢) قاضي القضاة محمد بن محمد المدرس بنظامية الموصل المتوفى سنة ٥٨٦ وابن فضلان ^(٣) محمد بن واثق مدرس المستنصرية المتوفى سنة ٦٣١ وابن يونس ^(٤) الموصل عبد الرحيم ابن محمد المتوفى سنة ٦٧١ ، وله التعجيز : مختصر الوجيز والنبية في اختصار التنبية ومختصر المحصول في أصول الفقه . ويقول السبكي : « كان آية في القدرة على الاختصار ، ومن أحسن مختصراته في الفقه كتاب سماه « نهاية النفاة » قل أن رأيت مثله في عذوبة منطقته وكثرة المعنى وصغر الحجم ، وسأله الحنفية أن يختصر لهم مختصر القدوري أو موجزه فاختصره اختصاراً حسناً . وعلى هذا النحو ظل الفقه الشافعي ناشطاً في العراق بفضل مدارسه وقهاته . وكان للمدرستين النظامية والمستنصرية في ذلك حظ موفور .

ولعل المذهب الحنبلي كان أكثر المذاهب الفقهية أشياء وأنصاراً في بغداد ، منذ التف الناس حول مؤسسة أحمد بن حنبل ، وقد جعله موقفه من الدولة في إنكار الفكرة القائلة

-
- (١) انظر في السبكي ٤٨/٤ وتاريخ بغداد ٣٧٢/٤ (٣) انظر في السبكي ١٠٧/٨ والفتاوى ١٢٦/٥
والعبر ١١٩/٣ والنظم ١٧/٨ وابن خلكان ٧٤/١ والعبر ١٢٦/٥
والفتاوى ٢٠٢/٣ .
(٢) راجعه في السبكي ١٨٥/٦ والعبر ٢٥٩/٤ ورجاء الجنان ١٧١/٤ وذيل مرة الزمان ١٤/٣ .
(٣) راجعه في السبكي ١٨٥/٦ والعبر ٢٥٩/٤ ورجاء الجنان ١٧١/٤ وذيل مرة الزمان ١٤/٣ .
والنجوم الزاهرة ١١٢/٦

بأن القرآن مخلوق زعيماً شعبياً ، وكان ذلك من أسباب ازدهار مذهبه طوال هذا العصر ، ويكنى أن تمثل بطائفة من فقهاءه ، وعن يلقانا منهم في مطالع العصر ابن^(١) بطة عبيد الله بن محمد العكبري المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب الإبانة بأصول الديانة ، وهو شرح لعقيدة ابن حنبل السنية . ومن تلاميذه في القرن الخامس الشريف أبو^(٢) جعفر المتوفى سنة ٤٧٠ كان إمام الحنابلة في عصره ، وله رموس المسائل وشرح للمذهب ، وجزء في أدب الفقه . ومنهم في القرن السادس أبو الخطاب محفوظ^(٣) الكلواذاني المتوفى سنة ٥١٠ أحد أئمة المذهب ومن تصانيفه الهداية في الفقه والخلاف الكبير المسمى بالانتصار في المسائل الكبار ، والخلاف الصغير المسمى برموس المسائل ، وكان يعاصره يحيى^(٤) بن منده المتوفى سنة ٥١٢ صنّف مناقب الإمام أحمد بن حنبل في مجلد كبير ، وكان يعاصرها أبو^(٥) الوفاء ابن عقيل ، المتوفى أيضاً سنة ٥١٢ ، وله في الفقه الحنبلي كتاب الفصول ويسمى كفاية المفتي ، في عشرة مجلدات وكتاب صمدية الأدلة ، وأكبر كتبه كتاب الفنون وهو كبير جداً ، يقال إنه كان في مائتي مجلد ، وهو في الوعظ والتفسير والفقه والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات ، وفيه مناظراته ومجاليه ، وقال الحافظ الذهبي في تاريخه : لم يصنّف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب . وكان يعاصره ابن أبي يعلى القراء^(٦) المتوفى سنة ٥٢٦ وله تصانيف كثيرة في الفقه والأصول ، منها المجموع في الفقه ، ورموس المسائل ، والمفردات في الفقه ، وأيضاً المفردات في أصول الفقه . وتلت في أواخر القرن السادس يعلم حنبلي كبير هو ابن الجوزي . وظل الفقه الحنبلي مزدهراً في العراق طوال العصر ، ومن فقهاءه ابن^(٧) البرزالي الحنبلي المدرس بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٣٤ وكان يعاصره صفي^(٨) الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩ ودرس معه في المستنصرية ، وعن درسوا فيها ابن العاقولي^(٩) محمد بن محمد المتوفى سنة ٧٩٧ . ويجانب هذه المدرسة كان

- (١) انظره في تاريخ بغداد ٣٧١/١ وطبقات الحنابلة لابن أبي عجل ٣٤٦ .
 (٢) راجعه في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة المعهد الفرنسي بدمشق) ٢٠/١
 (٣) انظره في ابن رجب ١٨٣/١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/٥
 (٤) راجعه في ابن رجب ١٥٤/١ وابن علكان ١٦٨/٦ والفتاوى ٣٢/٤ والعبر ٢٥/٤ ومرتبة الجنان ٢٠٢/٣ .
 (٥) انظره في ابن رجب ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٢١٩/٥ .
 (٦) راجعه في ابن رجب ٣٥١/٦ والفتاوى ٣٢/٣ أنه كان شيخ العراق على الإطلاق ، وعد له مصنفات كثيرة وقال : أخذ عنه عمر بن علي سعيد الحنابلة
 (٧) انظره في الفتاوى ٣٥١/٦ والفتاوى ٣١٨/٤ وراجع ابن حجر في إنباء الفهر بأبناء العصر (طبع المجلس الأعلى للثقافة الإسلامية بالقاهرة) ٥٠٤/١ حيث يقول إنه انتهت إليه رئاسة للمذهب الحنبلي ببغداد ، ويذكر له كتاب شرح المصاييح وأربعين حديثاً عن أربعين شخصاً .

كثير من الحنابلة يدرسون في جامع المنصور وفي بعض مدارس بغداد المتفرقة .

وكان مذهب داود الظاهري في الفقه الذي تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني لا يزال له أنصار في القرنين الأولين من هذا العصر ، وهو مذهب كان ينكر القياس والرأي في الفقه ، وتبعه كثيرون في المائتين الرابعة والخامسة في الأندلس ، إذ عمل هناك ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ على إزاعته ، وألف كتباً كثيرة لنصرتة ، ونجد أحد تلاميذه وهو الحميدي^(١) محمد بن قنوح المتوفى سنة ٤٩١ يستوطن بغداد منذ أواسط القرن الخامس وفيها أذاع كثيراً مما كان يحمله عن أستاذه ابن حزم . ولا تزال نسع في العراق وبغداد عن أتباع المذهب الظاهري حتى أوائل القرن السابع الهجري ، إذ نجد من معتقيه أبا سليمان^(٢) الداودي الضرير المتوفى سنة ٦١٥ . وكان الطبري مفسر القرآن العظيم قد اتخذ لنفسه مذهباً فقهاً يقوم على الاجتهاد ، ولكن مذهبه لم ينجح نجاح المذهب الظاهري ، ومع ذلك نجد من أتباعه في أواخر القرن الرابع الهجري المعاف^(٣) بن زكريا النهرواني المتوفى سنة ٣٩٠ وهو من قضاة بغداد ، ويقول ابن خلكان في ترجمته : إنه كان للطبري أتباع وأخذ بمذهبه جماعة ، منهم المعاف المذكور . وعلى كل حال لم يعيش هذا المذهب الفقهي طويلاً ، وعاش مدة أطول منه المذهب الظاهري في بغداد ، غير أننا لا نعود نسع به بعد إنشاء المدرسة المستنصرية ، إذ كانت العناية فيها فقط بالمذاهب الفقهية الأربعة : مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأبي حنبل .

وكان الفقه الشيعي يقابل كل هذه المذاهب ، وكان هناك فقهاء : فقه الزيدية وفقه الإمامية ، وكانت الكوفة مركز الفقه الأول في القرن الرابع الهجري ، وانقسم فقهاؤها إلى أربعة مذاهب على نحو ما يوضح ذلك كتاب الجامع^(٤) الكافي في فقه الزيدية لأبي عبد الله محمد بن علي الحسيني المتوفى سنة ٤٤٥ . ويبدو أن نشاط الفقه الزيدي هناك توقف منذ القرن الخامس ، إذ استغرق الكوفة وبغداد المذهب الإمامي عند الشيعة ، وكان نشاط الفقه الزيدي انسحب إلى اليمن : أما الفقه الإمامي فيأخذ في النشاط طوال العصر ، منذ ألف الكليني^(٥) الرازي محمد بن يعقوب كتابه الكافي في علم الدين ، وقد توفي ببغداد

(٤) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (طبع دار المعارف) ٣/٣٣٤

(٥) راجعه في الأسانيد ٤٨٦ والرجال للنجاشي ٢٦٦ وروضات الجنات ٥٥٠ وولقة البحرين ليويسف الجبراني

٣١٤ وروكلمان ٣/٣٣٩

(١) انظره في ابن خلكان ٢٨٢/٤ وتذكرة الحفاظ

١٧/٤ وللتظلم ٩٦/٩ وفضل لاين بشكوال (طبع القاهرة) ٥٣٠ والواق ٣١٧/٤ .

(٢) راجعه في طبقات القراء ٢٧٨/١ .

(٣) انظره في ابن خلكان ٢٢١/٥ وسابغ من مراجع

سنة ٣٢٨ وكتابه أحد الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية . وهو يتناول فيه عقيدة الإمامية وأسسا وبه أكثر من ستة عشر ألف حديث . وجاء بعده ابن ^(١) بابويه القمي نزيل بغداد الذي ذكرناه في غير هذا الموضع وله كتاب من لا يحضره الفقيه في تطبيق أحكام الفقه ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية ، وهو مطبوع ، وللشيخ المفيد الرسالة المقتنة في أسس التشريع ، وهي مطبوعة مع شرح لتلميذه الطوسي في تبريز ، وللطوسي كما مر بنا في الحديث كتاب الاستبصار ، وهو كتاب فقهي ويتمثلون عليه اعتماداً كلياً في استنباط الأحكام الشرعية ، وله أيضاً كتاب تهذيب الأحكام ، وهو أيضاً من المصادر الأربعة الأساسية عند الإمامية ، وأحاديثه مرتبة على أبواب الفقه الأساسية . ومن كتبه في الفقه «المبسوط» وهو مطبوع بإيران ، وكتاب النهاية في مجرد الفقه والفتاوى ، وهو مطبوع ، وقد اتخذته الشيعة الإمامية محوراً لدراساتهم الفقهية منذ عصره ، وله في العبادات كتاب مصباح المتجهد جعله في عشرة أبواب ، وزاد عليه في القرن الثامن المطهر الحلبي المار ذكره باباً سماه الباب الحادي عشر ، جعله مكملاً له ، والكتاب مطبوع ومعه شرح للمقداد بن عبد الله الحلبي .

ومررنا في العصر العباسي الثاني حديث مفصل عن الاعتزال وأئمنه وانثاق مذهب الأشعري منه مع بيان وجوه الخلاف بينه وبين المعتزلة ووجوه الصلة بينه وبين أهل السنة ، وقد طار مذهبه في هذا العصر كل مطار ، فكان الشافعية في خراسان وبغداد وأكثر بلدان العالم الإسلامي يعتنقونه طوال العصر . وبالمثل اعتنقه المالكية حتى قبل إنهم أخص الفقهاء به . واعتنقه أكثر الحنفية في بغداد ، أما في خراسان فقد اعتنقت كثيرهم العقيدة الماتريدية لمحمد بن محمد الماتريدي السمرقندي المتوفى سنة ٣٣٣ وهو يقترب في عقيدته اقتراباً شديداً من الأشعري معاصره ، وكل ما يمكن أن يقال إنه أخذ بفكرة الاختيار في خلق الناس لأفعالهم ، بينما كان الأشعري يقول - كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني - إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وللإنسان كسباً وإرادة ، فهو يريد ما وافقه يخلقها فيه . ولم يكن ذلك معارضة شديدة لمذهب الأشعري فإن بعض الأشاعرة ممن جاءوا بعده أوشكوا أن يأخذوا برأى الماتريدي ، ومن المؤكد أن عقيدته سنية كعقيدة الأشعري . ويروى السبكي أن فضلاء الحنابلة كانوا أشاعرة ، إلا من جنح منهم إلى تشييه ^(٢) أخذاً

(١) انظر عند النجاشي ٢٧٦ وفي توبة البحرين

٣٠٠ وروضات الجنات ٥٥٧ وروايات ٣٨٢/٢ وما

من مراجع

(٢) السبكي ٣٦٥/٢ - ٣٧١ وما بعدها .

بظاهر القرآن . ومعنى ذلك أن مذهب الاعتزال أخذ يتضاءل خاصة بعد القرن الرابع الهجرى ، حقا نسع من حين إلى حين ببعض المعتزلة مثل الزعشرى ولكن كثرة الفقهاء والعلماء انضوت تحت راية الأشعرى . ومن كبار الأشعرية فى القرن الرابع أبو بكر الباقلانى ^(١) محمد بن الطيب البصرى المتوفى سنة ٤٠٣ يقول ابن خلكان : كان على مذهب أبى الحسن الأشعرى ومؤيدا اعتقاده وناصراً طريقته سكن بغداد وتولى بها القضاء وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة فى علم الكلام ، انتهت إليه الرياسة فى مذهبه ، وكان كثير التطويل فى المناظرة والجدل قوى الحجة والبرهنة على آرائه ^(٢) ، ومن مصنفاته فى عقيدته البيان والتهديد فى الرد على الملحدين وأضرابهم ، وهو منشور ومثله كتابه الاستبصار ، وخالف الأشعرى فى مسائل ، منها ما ذهب إليه الأشعرى من أن الكافر لا تُسبغ عليه نعمة ، إذ كل ما يتقلب فيه استدراج ، وكان أبو حنيفة يذهب إلى أن النعمة تُسبغ عليه وواقعه الباقلانى ^(٣) . وكان الأشعرى كما مر بنا أنفاً يبنى الاختيار عن أعمال الإنسان ويمطه كسباً ، بينما كان الماترىدى يجعله اختياراً ، ويفهم من كلام الباقلانى أنه يأخذ برأى الماترىدى أو يتقدم نحوه خطوة ، ويقول السبكي : «ولامام الحرمين والغزالي فى ذلك مذهب يزيد على مذهب الباقلانى والأشعرى ويدنوكل الفنو من الاعتزال» أو بعبارة أدق من رأى الماترىدى ^(٤) . وعلى ضوء ما ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى من أنه لا بد من اقتران الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من الكتاب والسنة كان الباقلانى ينكر على بعض الفقهاء الشافعية من الأشعرية قولهم بأنه : «يجب شكر النعم حلقاً» ^(٥) . إذ كان يبنى أن يقولوا : يجب شكر النعم عقلاً وشرعاً . ويكثر علماء العقيدة الأشعرية فى القرن الخامس وما بعده ، ويمكن أن نعد منهم أباً حامد الإسفرائين وإمام الحرمين الجوينى والقشيرى والغزالي ، وعدّ منهم السبكي فى ترجمته للأشعرى خمس طبقات ، وكل طبقة تكسب بأئمة العقيدة وأعلامها فى الوطن الإسلامى ^(٦) . وألف أهل السنة من المناهضة كتباً كثيرة فى

والعقائد وأن العرش لا يلزم بالعرش (مقدمة ابن خلدون : فصل علم الكلام) ونظر فى بقية آراء الباقلانى فى نقل ونقل للشهرستانى : الفصل الخامس بالأشعرية . (٣) السبكي ٣٨٤/٣ .

(٤) السبكي ٣٨٦/٣ ونظر فى نقل ونقل للشهرستانى (تجويد محمد سيد كيلانى نشر مكتبة مصطفى المطهى) ٩٧/١

(٥) السبكي ٢٠٢/٣

(٦) السبكي ٣٦٨/٣ وما بعدها

(١) راجع فى ترجمة الباقلانى تاريخ بغداد ٣٧٩/٥ وابن خلكان ٢٦٩/٤ والأنساب للسمانى ٦١ وتبيين كذب لقبرى لابن حساكر ٢١٧ وللتنظيم ٢٦٥/٧ والوفاء ١٧٧/٣ والدياج للذهب لابن فرحون ٢٦٧ والنسبوات ١٦٨/٣ و ترجمة القاضي حسان له للحملة بكتابه «التهديد فى الرد على الحملة للحطه والرافضة والحولج والفرقة» تحقيق الدكتور أبو ريدة (نشر دار الفكر العربى بالقاهرة)

(٢) ما كان يذهب إليه الباقلانى إثبات الجرم القدر

عقيدتهم السنية ، وهى منبثة فى تراجم فقهاهم مثل كتاب عمدة الأدلة لأبى الوفاء بن عقيل وله أيضاً كتاب الإرشاد فى أصول الدين والانتصار لأهل الحديث ونفى التشبيه ، ومرتبنا بين فقهاء الحنابلة ابن أبى يعلى الفراء ، وله إيضاح الأدلة فى الرد على الفرق الضالة المضلة ، وشرف الاتباع وسرف الابتداع .

وكان للشعبة مباحثهم فى العقيدة وعلم الكلام ، وكتبهم الأساسية التى يعدونها أصول عقيدتهم الإمامية هى - كما أسلفنا - كتاب الكافى فى علم الدين للكلينى وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمى وكتابا الاستبصار ونهذيب الأحكام للطوسى .

٥

التاريخ

ظلت كتابة التاريخ ناشطة فى بغداد على نحو ما رأينا فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى ، وقد مضت تتناول التاريخ العام أو التاريخ الخاص أو تاريخ المدن أو تاريخ الرجال فى الحديث أو الأعيان عامة أو العلماء من كل صنف أو الشعراء أو الأدباء أو سير رجال بذاتهم . وكتب التاريخ العام منها ما هو ذيل على كتب سابقة ، ومنها ما هو مستقل ويشتهر فى أوائل العصر كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه وهو تاريخ عام ، وستقف عنده فى حديثنا فى الفصل الأخير من هذا القسم ويشتهر أبو^(١) شجاع وزير الخليفة المقتدى المتوفى سنة ٤٨٨ بذيلى له على هذا الكتاب وهو مطبوع . ويلقانا فى القرن السادس كتاب المتظم فى تاريخ الأمم لابن^(٢) الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وهو تاريخ عام يتبدئ بأول الخليفة حتى آخر أيام المستنصر باقى العباسى ، وهو مرتب على السنوات مثل الطبرى ، وعادة يذكر فى كل سنة أحداثها ثم من قصى نخبه فيها مرتبين على حروف الهجاء ، وهو يعنى خاصة ببغداد وأخبارها ، مما يتيح لتصور تاريخها الساسى والاجتماعى تصوراً يتيماً . وجاء بعده كتاب الكامل فى التاريخ لعز^(٣) الدين بن الأثير على

(١) انظره فى المتظم ٩٠/٩ والحريرة قسم العراق وابن خلكان ١٤٠/٣ والنجوم الزاهرة فى سنة ٥٩٧ والفتاوى ٧٧/١ والوفاء ٣/٣ والسبكي ١٣٦/٤ وابن خلكان والفتاوى ٣٢٩/٤ وغير الذمى ٢٩٧/٤ وكتابتها الترجمة الشخصية ص ٤٥ .

(٢) ترجم ابن الجوزى نفسه فى سابق رسالة نصح فيها ابنه صامداً : « لفتة الكبد إلى نصيحة الولد » وهى مطبوعة ، وانظر فيه ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب

(٣) ولجسه فى ابن خلكان ٣٤٨/٣ وغير الذمى ١٧٠/٥ والفتاوى ١٣٧/٥ والسبكي ٢٩٩/٨ والنجوم الزاهرة ٢٨١/٦ .

ابن محمد المتوفى سنة ٦٣٠ وهو أنفس كتاب في التاريخ الإسلامي حتى سنة ٦٢٨ وهو مرتب على السنوات ، وقدم له بتمهيد طويل عن تاريخ الفرس والروم وحرب الجاهلية ، وتحدث حديثاً مُسهباً عن أيام العرب القديمة ووقائعهم قبل الإسلام . وجروءه من السند ، ودعاه ذلك إلى أن يقرأ روايات الخبر الواحد في تاريخ الطبرى ويقارن بينها ويستخلص الحقيقة التاريخية منها استخلاصاً رائعاً . ومضى بحسب التاريخ الدقيق يعرض أحداث التاريخ إلى منتهى الكتاب ، وبذلك أدى خدمة جليلة للتاريخ الإسلامى ، بل خدمة راقية . وله كتاب تاريخ دولة أتابكة الموصل وهو مطبوع . وخلفه سبط ^(١) ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ صاحب كتاب «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» وهو كتاب ضخم كان يقع في أربعين مجلداً ، واشتهر بذكره لتأكيد الأخبار ، ويقول الذهبي إنه يترفض في تاريخه وقد نشر منه بمجلد آباد قسمان من الجزء الثامن طبعا بمطبعة دائرة المعارف العثمانية .

ومن كتب التاريخ العام تاريخ مختصر الدول لابن العبري ^(٢) المتوفى سنة ٦٨٥ كبه بالسرانية ثم ترجمه إلى العربية وهو مطبوع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت . ومن هذه الكتب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقي ^(٣) المتوفى سنة ٧٠٩ وقد سماه الفخرى نسبة إلى لقبه ، جعل له مقدمة في السياسة والسلطان ، ثم أخذ يتابع تاريخ الدولة الإسلامية حتى غزو التتار لبغداد ، ويعنى فيه عناية خاصة بوزراء كل خليفة وهو مطبوع مراراً .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نلتقى في أواسط القرن الرابع الهجرى بكتاب التاجى في تاريخ الدولة البويهية ، وقد بُنى على السجع ، وبذلك سن مؤلفه أبو إسحق الصائى المتوفى سنة ٣٨٤ لبعض المؤرخين سنة سيئة أن يهتموا بتنميق العبارات لا بتحليل التاريخ كما صنع معاصره ابن مسكويه . ويصنف بعده الهاد الأصبهاني كتاباً في تاريخ السلاجقة يسميه نُصرة القطرة وسنترجم له في مصر . ويعنى ابن السامى المار ذكره المتوفى سنة ٦٧٤ بكتابة تاريخ الدولة العباسية ويؤلف في ذلك تاريخاً جامعاً ثم يجعل له ملخصاً باسم الجامع المختصر وقد نشره الدكتور مصطفى جواد ببغداد الجزء التاسع من هذا الجامع المختصر ، ونشر له بدار المعارف بالقاهرة كتابه «نساء الخلفاء» ويمكن أن نلتحق بهله

(١) انظر في ابن خلكان في ترجمة جده ١٤٢/٣ (٢) انظر فيه الزواوى ٢٦٤/١ ودائرة المعارف والجرم القاهرة ٣٩/٧ والثلوث ٢٦٦/٥ والجواهر الذهبية ٢٣٠/٢ والقواعد البية ٩٦ .
(٣) انظر فيه كتاباً مطبوعاً باسمه في بيروت وروكلان .

الكتب الخاصة بالتاريخ السياسي كتاب الوزراء لـ هلال^(١) بن الحسن الصائغ المتوفى سنة ٤٤٨ وقد طُبعت منه قطعة في مجلد كبير خاصة بوزارة المقنن ، وهي حافلة بالأخبار السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وأيضاً يمكن أن نلحق بكتب التاريخ السياسي ترجمة بهاء^(٢) الدين ابن شداد لصلاح الدين بطل حطّين وقد سماها النوادر السلطانية والحامض اليوسفية ، وهو موصل تعلم في بغداد وعين معيداً بها في المدرسة النظامية ، ثم تركها إلى نظامية الموصل ، والتحق بخدمة صلاح الدين ، وظل يتولى القضاء في بعض مدن الشام حتى توفي سنة ٦٣٢ . وعلى غرار سيرته صنع بعض المؤرخين العراقيين سيرة للخليفة الناصر معاصر صلاح الدين .

وهو بعض المؤرخين بتاريخ المدن ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي السابق ذكره والمتوفى سنة ٤٦٣ تحفة نفيسة ، وقد جعل مقدمتها في مجلد يشتمل على اسم بغداد وتاريخ بنائها وأحيائها الغربية والشرقية وقصورها ومساجدها وكل ما يتصل بها وأفراد بعد ذلك ثلاثة عشر جزءاً لكل من عاش فيها من الأعيان والعلماء والأدباء . كتاب لا نظير له بين كتب التاريخ الخاصة بالمدن . ولابن النجار^(٣) المتوفى سنة ٦٤٣ ذيل عليه في ٣٠ مجلداً واختصره ابن الدماطي باسم المستفاد من ذيل تاريخ بغداد وفي دار الكتب المصرية نسخة من هذا الذيل بخط مؤلفه . ويذكر ابن خلكان أن لابن^(٤) الديلمي المتوفى سنة ٦٣٧ تاريخاً لمدينة واسط ، وأهم من ذلك أن له ذيلاً على تاريخ بغداد للسمعاني ترجم فيه للمتوفين ببغداد بعد سنة ٥٥٠ إلى أيامه . وللذهبي انتقاء من هذا الذيل باسم المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الديلمي نشره الدكتور مصطفى جواد جزء من ببغداد . ولابن المستوفى المبارك بن أحمد المار ذكره بين شراح المتن تاريخ إربل .

وتلقانا كتب مختلفة للصحابة ورجال الحديث ، من أهمها أسد الغابة في معرفة الصحابة لـ ابن الدين بن الأثير الجزري المار ذكره ، وهو معجم أيمى لتراجمهم ، وهو مطبوع في خمسة مجلدات . وله كتاب اللباب مختصر كتاب الأنساب للسمعاني وهو مطبوع . وألف الدارقطني كتاباً سماه «المختلف والمؤتلف» وقد جمع بينه الخطيب البغدادي

(١) راجعه في تاريخ بغداد ٧٦/١٤ وللتنظيم (٣) راجعه في تذكرة الحفاظ ٢١٢/٤ ومعجم الأدباء ١٧٦/٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٩ وابن خلكان ١٠١/٦

(٢) انظره في ابن خلكان ٨٤/٧ وغيره الديلمي ١٣٧/٥ ومرتة الجنان ٨٢/٤ والنشرات ١٥٨/٥ والسبكي ٣٦٠/٨

(٣) انظره في ابن خلكان ٣٩٤/٤ وغيره الديلمي ١٥٤/٥ والسبكي ٦١/٨ والوافي ١٠٧/٣ وطبقات القراء ١٤٥/٢ والنشرات ١٨٥/٥ ومرتة الجنان ٩٥/٤

وبين مشبه النسبة لعبد الغنى بن سعيد ، وزاد عليها وسمى كتابه «المؤتلف تكملة المختطف» . ثم جاء بعده أبو نصر بن مأكولا - كما مر بنا - وزاد على هذا الكتاب زيادات في كتاب مستقل سماه الإكمال ، ومر بنا مديح ابن خلكان له وثناؤه عليه وأن ابن نقطة جعل له ذنباً لم يقصر فيه . ولابن التجار كتب مختلفة في الرجال ، منها : المؤتلف والمختطف ، والمختف والمفرق في نسبة المحدثين إلى الآباء والبلدان وكتاب جنة الناظرين في معرفة التابعين . وللزبير العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ ذيل طويل على الذهبي في الرجال .

وهناك كتب كثيرة وضعت في تراجم الطماء والأدياء من كل صنف . ومن الكتب الجامعة لكل فروع الحركة العلمية والأدبية والفلسفية والمأثورات المترجمة عن الهند والفرس واليونان كتاب الفهرست لابن التديم وسبق أن تحدثنا عنه في غير هذا الموضع ، وتحدث الآن عن كتب التراجم العلمية والأدبية ونبدأ بما وضع في الفقهاء بعامة مثل كتاب أبي إسحق الشيرازي أول المدرسين في نظامية بغداد المتوفى سنة ٤٧٦ وقد ضم في كتابه إلى فقهاء المذاهب الأربعة فقهاء المذهب الظاهري . وأول من وضع كتاباً في طبقات الشافعية أبو حفص عمر المطوعي المتوفى سنة ٤٤٠ سماه «المذهب في فقهاء المذهب» ، ووضع فيه أبو النجيب السهروردي البغدادي المتوفى سنة ٦٣٢ مختصراً ، ثم ألف فيه إسماعيل بن هبة الله بن سعيد بن ياطيش ^(١) للوصل المتوفى سنة ٦٥٥ وهو أحد مصادر السبكي في طبقات الشافعية . واهتم الحنابلة بالكتابة في تراجم فقهاءهم ، من ذلك كتاب طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى الفراء الذي مر ذكره ، ووضع له ابن رجب ^(٢) البغدادي ذنباً طويلاً في مجلدين ، وقد توفى سنة ٧٩٥ . وعنى الشيعة بالكتابة في رجالهم ، وكتاب الرجال للنجاشي أحمد بن علي المتوفى سنة ٤٥٠ مشهور وهو مطبوع .

ووضع أحمد بن بختيار الواسطي المتوفى سنة ٥٥٢ كتاباً ^(٣) في القضاة . وبما وضع في اللغويين والنحاة كتاب أخبار النحويين البصريين للسرياني وكتاب نزهة الآباء لابن الأنباري وهما منشوران . ومن كتب التراجم المبكرة كتاب صوان الحكمة لأبي سلمان المنطقي السجستاني المار ذكره وهو في تاريخ الأطباء والفلاسفة وقد نُشر مستخف له في طهران حققه الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وهو موزع على قسمين : قسم خاص بفلاسفة اليونان وأطبائهم وقسم خاص بالمشتغلين بالفلسفة في الإسلام ، وهو كتاب نفيس . ووضعت في الشعر والشعراء كتب كثيرة منها كتاب المختطف والمؤتلف في أسماء الشعراء

(١) انظر في السبكي ١٣١/٨ والفتاوى ٢٦٧/٥ (٢) راجعه في التمدد لابن حجر ٤٢٨/٢

(٣) انظر في معجم الأدياء ٢٣١/٢ والسبكي ١٤/٦

للآمدى المارّ ذكره ، وكتاب معجم الشعراء للمريزاني معاصره صاحب كتاب الموشح ، وقد نشرت منه قطعة ، ووضع أبو المعالي ^(١) الخطيرى المتوفى سنة ٥٦٨ كتاباً في الشعراء على غرار دمية القصر للباخرزى وبيتمة الدهر للشمالي سماه زينة الدهر وعصرة أهل العصر في ذكر لطائف الشعراء ، ووضع بعده الهاد الأصبهاني دائرة معارف كبرى في شعراء العالم العربي سماها خريدة القصر وخريدة العصر . ويشتهر ابن الجوزي بكتابه في الصوفية و صفة الصفوة ، وهو مطبوع في أربع مجلدات وله كتاب في الأذكياء وكتاب في الظرفاء وكتاب في أخبار المخلين . ولباقوت الحموي البغدادى المارّ ذكره كتاب معجم الأديباء وهو مطبوع في عشرين جزءاً ذكر فيه أخبار اللغويين والنحويين والقراء والمؤرخين والكتاب والمؤلفين ولابن الشعار ^(٢) الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ كتاب في شعراء القرن السابع سماه عقود الجمان في شعراء الزمان . ولابن القوطى المارّ ذكره ^(٣) المتوفى سنة ٧٢٣ كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، وله معجم رتبته حسب الألقاب ، نشر منه مصطفى جواد الجزء الرابع الأقسام (١ - ٤) ونشر القاسمى في لاهور الجزء الخامس . واشتهر ابن ^(٤) خلكان للموصل المتوفى سنة ٦٨١ بكتابه وفيات الأعيان ، وهو غاية في الدقة والتحري .

-
- (١) راجعه في معجم الأديباء ١٩٤/١١ وابن خلكان ٣٦٦/٢ وخريدة القصر (قسم العراق) ٢٨/١/٤ .
 (٢) من كتابه مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .
 (٣) انظر في تذكرة الحفاظ ٢٧٤/٤ والدرر الكامنة ٤٧٤/٢ .
 (٤) انظر في ابن خلكان المبر ٣٣٤/٥ وفيات الوفيات ١٠٠/١ والسبكي ٣٣/٨ والشفوات ٣٧١/٥ ورواة الجمان ١٩٣/٤ والنجوم الزاهرة ٣٥٣/٧ والوفات بالوفيات ٣٠٨/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي (طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم) ٥٥٥/١ والنداء في تاريخ المدارس للشمسي (طبع دمشق) ١٩١/١ وروايات الجمان ٨٧ وراجع ترجمته في أول الجزء السابع من كتابه وفيات الأعيان .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

كثرة الشعراء

ظلت موجة الشعر التي مرت بنا في العصرين العباسي الأول والثاني حادة طوال القرن الرابع الهجري ، بل لعلها ازدادت حدة ، ويكنى للدلالة على ذلك أن يبرز في مستهلته المتن في أواخره الشريف الرضي ومهيار ، غير شعراء كثيرين ، فتح لهم التعالي في كتابة البيعة ثم في تمة البيعة الفصول تلو الفصول ، وقد بلغ عددهم في العراق عنده أكثر من سبعين شاعراً مما يصور ازدهار الشعر حينئذ ، وهو ازدهار هبات له عوامل مختلفة ، من رعاية الخلفاء وأمرأ بنى بويه ولانهم ووزرائهم للشعراء ، فقد أغدقوا عليهم المكافآت والجوائز ، وليس ذلك فحسب . فقد استقبلوهم في مجالسهم وحولوها أو حولها بعضهم مثل عضد الدولة البويهى إلى نواد أدبية .

وربما كان الجيل الأول من البويهيين لا يحسن العربية ، فقد روى أن معز الدولة أول حاكم منهم لبغداد حين دخلها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى ^(١) ، غير أن الجيل التالى له أكْبُ على الثقافة العربية والتميز على نظم الشعر ، حتى لنجد صاحب البيعة يسلك في الشعراء ابنه بختيار ، غير أمراء آخرين من بيته ^(٢) . وكان وزراء بنى بويه يتنافسون في جذب الأدباء والشعراء إليهم ، حتى غدت مجالسهم نوادى شعرية حقيقية ، وأول من اشتهر بذلك من وزرائهم في العراق المهلبى وزير معز الدولة ، وكان غيثاً مدراراً للشعراء ، فأكبوا على مجالسه بمدحونه ، ويفيض كتاب البيعة بمدائحه . وكان لا يقل عنه رعاية للشعراء سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ، وقد عقد صاحب البيعة لمداحه باباً مستقلاً عرّض فيه خمس عشرة مدحة لتأجيلهم ^(٣) . وكان يرمى

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم (٢) البيعة ٢١٦/٢

(٣) البيعة ١٢٤/٣

مير (طبعة القاهرة) ٢٨/١

الشراء بجانب ذلك كثير من ذوى البيوتات ، وفي مقدمتهم الشريف الرضى ورعايته لمهيار مشهورة . ولا بد أن نلاحظ أن الثعالبي فاته الوقوف عند بعض الشراء ، في عصر البويهيين مثل مُذْرَك بن محمد الشيباني ، وهو بدوى قدم بغداد في شبابه وتولى بها القضاء وتوفى سنة ٣٩٠ واشتهر بأرجوزة ماجة نظمها في غلام نصراني في نحو خمسين دوراً ذكر فيها شاعتر الديانة المسيحية وطقوسها وحواريها ذكراً مفصلاً^(١) ، ومثل أبي الحسن محمد بن عمر الأتباري ، وكان صديقاً للوزير ابن بنية ، فلما صلبه عضد الدولة البويهى رثاه بحرثية رائعة . وتلقانا بعد اليتيمة وتتبعها موجه ثانية من الشراء في كتاب دمية القصر للباخرزى ، وقد توفى بعد الثعالبي بنحو ثلاثين عاماً سنة ٤٦٧ للهجرة ، مما جعلها يتواردان أحياناً في الحديث عن بعض الشراء . وفي الحق أن شراء الدمية مخضرمون لحقوا عصر بنى بويه وامتد بهم الأجل في عصر السلاجقة .

وبذلك كانت الدمية لا تصور تماماً الحركة الشعرية في العصر السلجوقي ، لسبب طبيعى ، وهوانها إنما أُلْمِتْ بأوائله . ومرّ بنا في الفصل الثانى ما دفع إليه وزير ألب أرسلان نظام الملك (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) من نهضة علمية وأدبية مباركة ، فقد فتح أبوابه للشراء وأغدق عليهم نوالاً غمراً ، فجاءوه بمدحونه من كل أنحاء العراق ، وينشد الباخرزى في مواضع كثيرة بعض مدائحهم . وتلقانا بعد الباخرزى ثغرة أو فجوة نحو خمسين عاماً ، لو أن ذيل الدمية المسمى كتاب زينة الدهر وعُصْرَة أهل العصر للحظيرى نُشِر لسدّ هذه الثغرة ، فإن الحظيرى توفى سنة ٥٦٧ وكان قد جمع طائفة كبيرة من شعراء أهل عصره ومُنْ تَقْدِمهم ، وذكر لكل شاعر طرفاً من أحواله وشيئاً من أشعاره . وحرى بنا أن نذكر صُرْدَر (على بن الحسن) الشاعر المشهور ببغداد في أواسط القرن الخامس ، وقد توفى سنة ٤٦٥ وله ترجمة في ابن خلكان ، وبالمثل ابن السراج البغدادي (جعفر بن أحمد) صاحب مصارع العشاق المتوفى سنة ٥١٠ وله ترجمة في ابن خلكان وغيره . وقد تلا الحظيرى مباشرة العماد الأصهباني بكتابه الخريدة التي ترجم فيها لشراء العالم العربى على طريقة الدمية واليتيمة ، غير أن ترجماته مستفيضة ، وهو ينقل فيها مراراً عن الحظيرى ، مما يدل على أنه يتلاقى كثيرين ممن سقطوا في الثغرة التي نحدثنا عنها آنفاً . والنشور حتى الآن من قسم العراق في الخريدة أربعة مجلدات ضخمة . وهى تتناول في العراق ، كما في الأقاليم الأخرى ، شعراء القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ ، وقد تعرضت لبعض شعراء

(١) معجم الأدباء ١٩/١٣٥ وانظر تاريخ بغداد

القرن الخامس . والهاد فيها يجمع بين فترتين : فترة سلجوقية تبدئ من القرن السادس حتى سنة ٥٥١ هـ ثم فترة الخلافة العباسية إذ رُدَّ إلى الخلفاء صولجان الحكم منذ هذا التاريخ ، وانتهى بذلك عهد السلاجقة في بغداد والعراق . والهاد يفتح المجلد الأول من الخريدة بعرض تراجم للخلفاء العباسيين منذ القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) حتى المستنصر بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) ومع كل خليفة ماله من أشعار . ثم يفتح باباً يذكر فيه محاسن الوزراء والكتاب منذ أواسط القرن الخامس حتى زمن المستنصر ، منشداً ما عرف من أشعارهم ، وقد يذكر بعض ما قيل من مدائح ، ويُعفى في ذلك كله نحو مائتي صفحة من القطع الكبير من المجلد الأول ، ويترجم للشاعر المعروف باسم الحَيْص يَصُّ ترجمة ضافية ، يَعرِّض فيها أشعاراً كثيرة من ديوانه مرتبة على الحروف في نحو مائة وخمسين صحيفة ، ويتبعه في المجلد الثاني بالترجمة لستة وثلاثين شاعراً ، لعل أهمهم علي بن أطلح وابن الهبارية وابن جَلِّتا . ونلتقي في المجلد الثالث بجماعة من شعراء الحِلَّة والكوفة وهيت والأنبار . لعل أهمهم الحَظيرى والبَندنجي ، ثم يذكر جماعة من شعراء الحِلَّة والكوفة وهيت والأنبار . وقد عرضنا لشعراء الحلة عند الهاد في القسم الأول من هذا الكتاب في تضايف حديثنا عن شعراء البصرة ، وينتهي المجلد الثالث بالحديث عن شعراء واسط ، وربما كان أهمهم ابن السوادي ، وهو ماجن من طراز ابن سَكْرَةَ وابن حجاج . ويستمر المجلد الرابع في عرض شعراء من واسط أهمهم ابن المعلم ، ثم يذكر طائفة من شعراء البصرة وأدبائها ، أهمهم الحريري ويحيى بن سعيد بن ماري النصراني ، وله ستون مقامة حاكمي فيها الحريري ولكنها دون مقاماته . ونظل بعد سنة ٥٧٠ دون مرشد هاد ، إلا ما اشتمل عليه كتابا معجم الأدياء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان من شعراء بغداد . مما يكاد يشغل المائة التالية للخريدة . ولو أن كتاب عقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلي المتوفى سنة ٦٥٤ نُشر لسد الفراغ الشاغر من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجري في العراق وغير العراق ، ولكنه لما ينشر . وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية مصورة منه ، والأعلام فيه ليست مرتبة على الأقاليم والبلدان مثل الخريدة والدمية واليتمية ، وإنما على حروف المعجم ، كترتيب المعاجم ، وهو كتاب نفيس . على كل حال يسد ابن خلكان وياقوت وأيضاً فوات الوفيات هذه الثغرة التي تمتد حتى اكتساح التتار لبغداد سنة ٦٥٦ . ونستطيع أن نتعرف على بعض الشعراء النابهين في تلك الحقبة مثل ابن التلميذ هبة الله بن صاعد المتوفى سنة ٦١٠ وسبط ابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ ولعل الهاد الأصهباني ترجم لها في المجلدين اللذين لا ينشرا من القسم العراقي بالخريدة ، ومثلها الأبله الشاعر المتوفى سنة

٥٧٩ . وتلقانا في النصف الأول من القرن السابع طائفة من الشعراء ، من أهمهم أبو حفص عمر الشَّهْرَوَرْدِيُّ البغدادي الصوفي والحاجري المتوفيان سنة ٦٣٢ والصَّرَصَرِيُّ وابن أبي الحديد المتوفيان سنة ٦٥٦ .

ويكسح التار بغداد والعراق ، ويحرف كثير من يتابع الفكر والحضارة والعلم والأدب ، ويظل للشعر شيء من نشاطه في زمن المغول الإيلخانيين ، ويلقانا ابن رشيد البغدادي المتوفى سنة ٦٦٢ والشهاب التلعفري والواعظ الكوفي البغدادي المتوفيان سنة ٦٧٥ . ونغصى إلى القرن الثامن ونلتقي بشعراء عراقيين مختلفين ترجم لهم ابن حجر في الدرر الكامنة ، ويظهر كوكب شعري كبير وسط الدياجى التي أخذت تطبق على الحياة الأدبية في العراق ونقصد صنى الدين الجَلِّيَّ المتوفى سنة ٧٥٠ وهو خاتمة شعراء العراق العظام قبل العصر الحديث . وكان يعاصره محمد بن القاسم الملقب بالمليحي الواسطي المتوفى سنة ٧٤٤ وله ترجمة في الدرر الكامنة ، ومثله على بن الرُّدة المتوفى سنة ٧٥٠ . ولا نكاد نلتقي بشاعر مهم في زمن التركان ، بين من ترجم لهم السخاوى في كتابه « الفصوة اللامع في أعيان القرن التاسع » وبالمثل لا يلقانا شاعرنا به في زمن الممانيين سواء في دورة حكمهم الأولى أو في دورة المالك . وحقا يوجد بعض شعراء عراقيين في كتب التراجم مثل « سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر » لابن معصوم و « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشره للمحمى » وكتاب « نفحة الريحانة » ومثل « سلك الدرر في أعيان القرن الثانی عشره للمرادى . ومن لمع اسمه في الدوريتين المذكورتين شهاب الدين الموسوى المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م وديوانه مطبوع وشعره فيه متوسط : ومثله الشيخ محمد كاظم الأزرى المتوفى سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م وقد طبع ديوانه في بومباى . وقد يكون من الطريف أن نقرأ من الشعراء كانوا يقدمون لدواوينهم ^(١) ، ولكن على كل حال كانوا جميعا نظامين أكثر منهم شعراء بالمعنى الحقيقي لكلمة شعراء .

٢

رُبَائِعِيَّاتٌ وَتَعْقِيدَاتٌ وَمَوْشَحَاتٌ

مرُّ بنا في كتاب العصر العباسى الأول مانهض به الشعراء من تجديد في الأوزان وكيف أن هذا التجديد رافقه تجديد آخر في القوافى ^(٢) ، ولعل أول ما شاع من صورته اللونُ

(١) راجع تاريخ الأدب العربى فى العراق لعباسى (٢) انظر فى أرباب هذا التجديد كتاب العصر العباسى المزوى (طبع بغداد) ٢٨٤/٢ . ٢٨٥ . ٣٠٣ الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ وما بعدها .

المسمى بالمزدوج ، إذ استخدمه الوليد بن يزيد وأخذ استخدامه بعده يتسع في الشعر التعليمي منذ أبان بن عبد الحميد ، وتبعه الشعراء ينظمون فيه التاريخ والعلوم والفلسفة . وهو الذي سماه الفرس فيما بعد باسم المتنوى مختارين له وزناً معيناً وفيه تتحد القافية بين شطري كل بيت مع تغيرها من بيت إلى بيت . وبذلك لم تعد الوحدة فيه البيت ، وإنما الشطر ، وأكبر الظن أن ذلك هو الذي ألهم الوشاحين فيما بعد أن تقوم الوحدة في موشحاتهم على الشطر لا على البيت . وقد اتسع استخدام هذا اللون للمزدوج في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، إذ لم يترك العلماء علماً دون أن يودعوه في أرجوزة مزدوجة ، وتزوج للكلمات العربية بهذه المزدوجات في كل علم وكل فن .

وقد ظهرت المسططات منذ فترات العصر العباسي الأول ، وهي قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتألف من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور في قافيتها ما عدا الشطر الأخير فإنه يتغرد بقافية مفارقة يلتزمها الشاعر في جميع الشطور الأخيرة من الأدوار . والمسّط مشتق من السّط ، وهو قلادة تتنظم فيها عدة سلوك تلتقي عند جوهرة كبيرة ، وكأن كل دور في المسّط الشعري سلك يلتقي مع الأدوار أو الأسلاك الشعرية الأخرى في قافية الشطر الأخير . وقد مثلنا في كتاب العصر العباسي الأول بمسّطين لأبي نواس يتألف الدور في أحدهما من أربعة شطور وفي الثاني من خمسة . ونظّل للمسططات طوال عصر الدول والإمارات قائمة بجوار القصيدة ، وينظم الشعراء فيها من حين إلى حين إظهاراً للبراعة ، وعُني كثير منهم أشد العناية بتصفية ألفاظه وخضنها على اللسان ورشاقها على نحو ما نجد في هذه الأدوار من مسّط^(١) أنشده المهاد الأصماني في الحريدة لأبي المعالي بن مسلم :

يَارِيمُ كَمْ نَجَّيْتُ ؟	لِمَ قَدْ صَدَدْتَ عَنَّا	حِيلُ عَاشِقًا مَعْنَى
	بِالْوَصْلِ مَا تَهْتَا	
السَّيْلُ رِيْقُ	وَالشَّهْدُ وَالرَّحِيقُ	وَالْوَرْدُ وَالشَّقِيقُ
	مِنْ وَجَّيْتِي يُجَنَّا	
قَدْ غَيَّرُوا وَلَامُوا	مَنْ شَفَّهَ السَّقَامُ	مَا يَنْفَعُ الْمَلَامُ
	مَنْ فِي هَوَاكَ جَنَّا	

والدور في هذا المسط يتألف من أربعة شطور ، والرابع قطبها الذي تدور عليه ، ومثله المسطّات ذات الشطور الخمسة وتسمى الخمسات ، ومثلها ذات الشطور الستة

والسبعة وتسمى المسلمات والمُسَبَّعات . وشاع في الحقب المتأخرة تخميس بعض القصائد المشهورة مثل هزمية البوصيري وُزِّدته

وتظهر الرباعيات مع المسططات والشعر المزدوج ، وقد ذكرنا في كتاب المعصر العباسي الأول أنها بدأت مع بشار وحداد عجرد وأنها كثرت عند أبي نواس وأبي العتاهية ، وضررنا لها بعض الأمثلة ، والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، ولأنها تتكوّن من أربعة شطور سميت رباعية ، وعادة يتحد الشطر الأول والثاني والرابع في القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد يختلف . وتلقانا هذه الرباعيات كثيراً في البيعة والدمية والخريدة ، وفي كتب الأدب مثل معجم الأدباء ، ومرّبنا أنه ترجم لشاعر يسمى مدرك بن علي الشيباني ، وذكر له أرجوزة تشتمل على خمسين دوراً كل دور رباعية منفردة . وبذلك أعد نمط الرباعية من قديم لظهور الشعر الدوري في العربية . ولم يكن شعراء العصرين : العباسي الأول والثاني يَحْصُونَ الرباعية بوزن معين ، بل كانوا ينظمونها في جميع أوزان الشعر حتى إذا كان هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يَشْرِكُونَ العرب في استخدامها متخذين لها اسم « دويت » و « دو » عندهم اثنان . وأيضاً فإن الفرس والعرب جميعاً أخذوا يستخدمون فيها وزناً جديداً هو : « فَعْلُنْ مَتَّاعِلنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ » وهو الذي ضبطه العروضيون ، وأهم منه وزن ثان هو « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مستفعلن مستفعلن » . ونصور ذلك رسالتان ^(١) فريدتان في عروض الدويت « نشرها هلال ناجي ببغداد ، وهما لمالك بن المرحّل المتوفى سنة ٦٩٩ وأولاهما تُعْنَى بالوزن الأول للدويت ، والثانية تعنى بالوزن الثاني ، ومن أجل ذلك رجح هلال ناجي أن لا تكون الرسالة الثانية من صنع مالك . ويبدو أن الفرس في القرن الخامس كانوا أكثر شغفاً بالرباعيات من العرب على نحو ما هو معروف عن الحجاج في رباعياته ، وتلقانا في الخريدة ورباعيات كثيرة ، ويترجم العماد فيها لشاعر من موطني الخلافة العباسية وعملها في السنينيات من القرن السادس المجري ، يسمى أبا المحاسن ^(٢) بن البوشنجي ، ويقول إنه كان لهجاً بنظم الرباعيات ، ويسوق له طائفة منها في الغزليات والحمريات من مثل قوله متفرلاً :

ما أطيبَ ما زارَ بلامِعادٍ يَحْتَالُ كَحُصْنٍ بَانَةٍ مَيَادٍ

(١) انظر الرسالتين في العدد الرابع من المجلد الثالث من (٢) انظر ترجمته في الخريدة ٢٥٧/٢ .

مجلة المورد ببغداد .

ماطلٌ ، ولا بَلَّ غَلِيلَ الصَّادِي حَتَّى قَرَّبَ الْيَنُّ ونَادَى الحَادِي
فصاحبه زارته دون موعد ، مختالة بيمالها كخضن متمايل ، ويقول إنها ماطلت
وزارت ، ولا بَلَّتْ غليله المتقد الظامئ للقاء ، حتى كان الفراق ونادى حادى الركب ،
فجاءت تودعه من وقوف أو كما يقال : ما سلّمت حتى ودّعت . ومن رُباعياته الحمرة
قوله :

بَرَقَتْ وَصَفَتْ وَاسْتَرَقَتْ أَلْيَابَا رَاحُ لَيْسَتْ مِنَ الْفُتَا جُلْبَابَا
يَا بَذْرُ أَيْزٍ وَعَدُّ حَمْنٍ بَايَا كَأَسَا ، طَرِدَ الهمُّ بِهَا فَانْجَابَا

والرابعة فيها شيء من روح رباعيات الخيام وما فيها من دعوة إلى المكوف على شرب
الخمر ، أو بعبارة أدق الفرار إليها من الهم والغم ، حتى تتمش النفس ، كما يقول ، وتطرح
عنها يؤس الحياة بما تُعَبُّ من دنان الخمر وما تجد في مجلسها من أنس وطرب . ويسوق
صاحب رسالة الدوييت الثانية تسع رباعيات قائلاً إنه مما أنشده أبو عبد الله عماد بن حامد
الأصبهاني صاحب الخريدة ، ويستهلها بالرباعية التالية :

الرَّوْدُ عَلَى خَدِّكَ مَنْ أَيْتَهُ وَالْمَسْكُ عَلَى وَرْدِكَ مَنْ قَتَهُ
وَالْقَلْبُ عَلَى تَأْيِكَ مَنْ قَيْتَهُ اجْمَعُ شَمْلًا هَوَاكَ قَدْ شَتَّهُ

وهي رباعية بديعة بما اشتملت عليه من تصوير يحمل غير قليل من المفاجأة ، حين
يحمل صاحبها الخلد ورداً حقيقياً ، ويعود فيجعله ناشراً لأريجٍ عطرٍ حوله ، وكأن
مسكاً ذُرَّ عليه ونثر ، ويعجب أن تنأى صاحبه وقلبه لا يزال في صدره . وإن فواده
ليتوزع فرقاً ، ويضرع لصاحبه أن تجمع شمله المشتت ، لعل صوابه يردُّ إليه . ويسوق
صاحب رسالة الدوييت الثانية أيضاً طائفة من رباعيات أنشدها ابن الجوزي يُفَتِّ على
عشر ، وموضوعها غزل ولكنه غزل صوفي ، فقد كان ابن الجوزي من كبار الوعاظ وكان
سني التصوف ، وما أنشده :

الْحَبِيبُ يَقُولُ لَا تُشِيعْ أَسْرَارِي وَالدمع يسيلُ هَاتِكَا نَسْتَارِي
وَالشُّوقُ يَزِيدُ ، لَا عَلَى الْمَقْدَارِ وَأَنَا رَايَ مِنْ هَذَا الْهَوَى وَأَنَا رَايَ

فحبيه يطلب إليه أن يكتم حبه ، وهو لا يستطيع له كتماناً ، إذ دائماً ييكى طالباً
الوصال ، ملحاً في طلبه وفي بكائه ، والدموع تسيل مدراراً كسحب منهلة ، والشوق
بلذعه ويكويه وهو يتوجع من نيرانه . إنه حب الذات العلية الذي يُضَنَّى ويسقم
والحب يتألم آلاماً لا يطيقها إلا الصابرون المولعون بوصال الذات الربانية . وما أنشده

ابن الجوزي في تلك الرباعيات :

ما أصنع ؟ هكذا جرى المقدورُ الجبرُ لغيري وأنا المكسورُ
مأسورُ هوى متيمٌ مهجورُ هل يمكن أن يغيرَ السطورُ

والرباعية تفيض بياس حب مهجور ، يقول ما أصنع والحجاب يقوم بيني وبين
عجوبي ، هكذا جرى القلم ولا يسعه إلا أن يمثل ويدعن ، وإنه لبأسى أسى عميقاً
لنفسه ، فغيره يُجبر ويوصل وهو يُحرّم ويَعُدُّ ويُكسر كرجاج مصدوع لا يُشعبُ ،
وإنه لأسير هذا الهوى الذي يبرّح به والذي يتعثر في شبابه ، قدر أزل كُتب عليه ،
لا مفرّ منه ولا مهرب . وابن الجوزي توفي سنة ٥٩٧ هـ وتوفي العاد في نفس السنة ، وفي
كثرة إنشادهما للرباعيات ما يدل على أنها قد شاعت في عصرهما وانتشرت انتشاراً
واسعاً . وهى تلقانا عند الحاجري وغيره من شعراء القرن السابع . ويقول مالك بن
الرحل إنها تستعذب في الغناء ، وأكبر الظن أنها لم تكن تستعذب في الغناء فحسب بل
كانت تستعذب أيضاً في أناشيد المتصوفة بحلقات الذكر ، وقد جمع كامل الشبي
طائفة كبيرة منها على مر العصور ونشرها باسم ديوان الدويبة :

وأخذ يرم منذ أوائل هذا العصر مذهب التصنع والتعقيد الذي صورناه بالتفصيل
في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » وقد أوضحنا كيف أن المحسنات البدعية في
مذهب التصنع والتنميق السابق له كأنما أخذت تزايلها أو تفارقها بمض أصابها عند
العراقيين وغيرهم من شعراء العصر ، ومثلنا لذلك باستخدام المتنبي للطباق والاستعارة
واستخدام غيره للجناس . وقد أولع الشعراء في هذا العصر باللون الأخير ، وأخذوا
يطلبون فيه صعوبات مختلفة ، ومن أخف صورها قول أبي الجواز الواسطي ^(١) المتوفى
سنة ٤٦٢ :

واحترق من قولها خانَ عهدى ولها
وحنّ من صيرني وقفاً عليها ولها
ما خطرت بخاطري إلا كسني ولها

ولها في نهاية البيت الأول من اللهو ، وقد جانس بينها وبين الجار والمجرور في نهاية
البيت الثاني ثم جانس بينهما وبين كلمة « وله » أى شدة الوجد في نهاية البيت الثالث .
وقد يقبل هذا الجناس المعقد في تلك الأبيات لحفته ، غير أننا لا نكاد نمضى بعد

(١) انظر في أبي الجواز ابن خلكان ١١١/٢ وتاريخ

بغداد ٣٩٣/٧ والدمية ٣٤٢/١ والحرية ٣٤٣/١/٤ والمتنظم ٢٥٨/٨ وميزان الاعتدال ٢٣٨/١ .

صاحبه حتى نلتقى بالحسن^(١) بن أسد الفارقي المتوفى سنة ٤٨٧ وكان يكثر من التجنيس ، كما لاحظت الهاد الأصماني وياقوت ، وله قصيدة تجمع خمسة عشر بيتاً ، وكل بيت فيها مخنوم بكلمة «عين» طلباً للجناس الكامل ، فهي تتوالى بمعنى عين الإنسان وبمعنى رقيب وبمعنى عين الماء إلى غير ذلك من معانيها . وهو تكلف شديد . ونظن ظناً أنه أحد من أشاعوا فكرة تكون الجناس بين كلمة وكلمتين يؤديانها لفظاً في مثل قوله :

تُرَاك يا متلفَ جِسمي وبِأَ مُكثِرٍ إعلالي وأمرأسي
من بعد ما أَصْنَيْتَنِي سَاخِطاً عَلَيَّ في حِكِّ أُمِّ رَاضِي
وواضح أن كلمتي «أم راضي» في البيت الثاني تقابلان أو تجانسان كلمة «أمرأسي» في البيت الأول . ويلاحظ أن مثل هذه الجناسات في نهايات الأبيات لم تكن تحقق فكرة الجناس فحسب ، بل كانت تحقق أيضاً فكرة لزوم ما لا يلزم في القوافي إذ تصبح القافية أكثر من حرف أو روى ، ولذلك يقول الهاد إنه كان يلتزم ما لا يلزم في قوافيه . وفي الحق أن أبا العلاء هو الذي فتح في لزومياته لمثل هذه الكلف في الجناس على نحو ما يوضح ذلك كتابنا «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» وكان يطلبه أحياناً بين أول كلمة أو كلمتين في البيت وآخر كلمة ، مما جعل الحريري يستلهم صنيعة في المقامة الحلبية قائلاً :

سِيمَ سِيمَةٍ تَحْسُنُ آثَارَهَا وَاشْكُرْ لِمَن أَعْطَى وَلَوْ سِيمِيَّةً
وَالْمَكْرُمَهَا اسْطَفَتْ لَا تَأْتِيهِ لَتَقْنَى السُّؤْدُدَ وَالْمَكْرُمَةَ

والجناس واضح بين أول البيتين وآخرهما وهو في البيت الثاني جانس بين اللفظة الأولى وجزء من تاليها وبين اللفظة الأخيرة . وكل ذلك تصعب وتعقيد في التماس الجناس . ويغلف الحريري يحيى بن سلامة الحَصَكِيُّ نزيل مِيفَارِقَيْنِ المتوفى سنة ٥٥٣ فراه ينظم بعض قصائد قاصداً بها إلى التجنيس منها قصيدة بناها على التجنيس الناقص انتحها بقوله^(٢) :

أَطْعِ الْهَوَى فَاَلْعَلَّ خَاخَ خَاخِمْ وَالْجَهْلُ يُغَيِّرِي وَهُوَ هَا زِ هَازِمٌ
وَحَا زِ : قَا هِر . وَهَازِ : سَا خِر . وَيَمَضِي فِي الْقَصِيدَةِ مَجَانِساً بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مَتَوَالِيَتَيْنِ عَلَى
هَذِهِ الصُّورَةِ الْمُتَكَلِّفَةِ وَكَأَنَّهُ لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ حَاجَةٌ وَجَدَانِيَّةٌ لِنَظْمِ الشَّعْرِ ، إِذْ حَلَّتْ مَحَلُّهَا

(١) راجع في الحسن بن أسد الفارقي الحريدة (قسم ٢٢٩/١ .

الثام) ٤١٦/٢ ومجمع الأدباء ٥٤/٨ وإنباه الرواة (٧) الحريدة (قسم الثام) ٥٠٨/٢ .

٢٩٤/١ وشموات اللهب ٣٨/٣ وفوات القريات

حاجة إلى التعقيد في الشعر وتصعب ممراته التي يسلكها الشاعر إلى صناعته .
 وإذا رجعنا إلى البديعيات منذ بديعية صنى الدين الحلي وجدنا الشعراء دائماً يعقدون
 فيها ، وقد يضيفون ألواناً جديدة ولكن ينقصها الحسن والرونق والبهاء . وقد أكثروا من
 الاقتباس ، وحسن أن يقتبس الشاعر بعض ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف فإنها تلذ
 النفس ، غير أن الشعراء أكثروا من اقتباس أشعار الأسلاف يضمونها قصائدهم ،
 مما يعطل الحركة الوجدانية في أشعارهم ، وبلغ من تكلفهم في هذا اللون أن نجد شاعراً
 يسمى الشيخ أحمد النجني الجلي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/ ١٧٦٩ م يضمن إحدى مدائحه
 شطراً من ألفية ابن مالك المشهورة في النحو ، فله شطر ولابن مالك شطر^(١) .
 ودفع المتنبي الشعراء منذ أوائل هذا العصر إلى التصنع للثقافات المختلفة ، وقد
 أوضحنا ذلك في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » فصورنا تصنعه لبعض
 مصطلحات التصوف وسمات العبارة الصوفية وللفكر والصيغ الفلسفية ولألفاظ
 اللغة الفرية وبعض اشتقاقاتها النادرة وأساليب النحوية الكوفية الشاذة . وتبعه أبو
 العلاء يكثر في لزومياته من التصنع لألفاظ العلوم اللغوية والإسلامية . ومضى الشعراء
 في العراق وغير العراق بعد الشاعرين الكبيرين يلتمسون أحياناً التجديد في الأساليب
 بما يطوى فيها من مصطلحات علمية . وكل ذلك كان تعقيداً وقيداً ، حتى يصعب
 الشعراء عملهم ، وحتى يظهروا مهارتهم في السلوك إليه من أضييق الممرات والدروب .
 وأخذت تظهر سريعاً صور من القارين الهندسية في الشعر ، وكأن الشاعرية لم تعد
 تقاس بالأثر الوجداني الذي يحده الكلام في نفوس الناس ، بل غدت تقاس بما يمكن
 أن يستحدثه الشاعر من عقد ، وربما كان الحريري أهم من فتح هذه الأبواب ، إذ
 نراه في مقاماته لا يزال يغرب بأفانين لفظية كثيرة ، فمن ذلك أن تُقرأ الأبيات طرداً
 وعكساً كما جاء في المقامة المغربية من مثل قوله :

اسلُ جنابَ غاشمٍ مشاغِبٍ إن جلسا

فإن البيت يُقرأ من آخره كما يقرأ من أوله دون أي اختلاف في لفظ أو حرف ،
 ومن الغريب أن من جاموا بعده جعلوا ذلك لوناً من المهنات البديعية وسموه
 « ما لا يستعيل بالانعكاس » . وتضمن هندسي ثان عرضه في المقامة الشعرية ، وهي
 أبيات التزم في داخلها قافية غير قافيتها الخارجية على هذه الصورة :

يا خاطبَ الدنيا الدنيَّةِ إنها شَرَكُ الرَّدَى وقرارةُ الأَمُحْدَارِ

دار منى ما أضحكك في يومها أبكت غداً بُعْداً لها من دار
فإننا إذ اوقفنا عند الكلمة الدالية في الشطر الثاني أصبح اليتان من مجزوه الكامل
على هذا النحو :

يا خاطب الدنيا الدنيءة إنها شرك الردى
دار منى ما أضحكك في يومها أبكت غداً
وبجانب هذا التمرين الهندسى الذى لا يضيف معنى نجده في مقامته التى سماها
بالرقاء يتكرر تمريناً أحد حروف كلماته منقوط وتاليه غير منقوط من مثل قوله :
مخلفٌ متلفٌ أغرٌ فريدٌ نابٌ فاضلٌ ذكىٌ أنوفٌ
ويتلو هذا التمرين بتمرين مماثل في نفس المقامة ، وكرر ذلك في المقامتين المروية
والبكرية . ونراه في المقامة الحليية يتبدع تمريناً شعرياً من طراز خطى آخر ، هو طراز
الحروف الخالية من النقط في مثل قوله :

أعذدُ لحسادك حدَّ السَّلاحِ وأوردُ الآملَ ورْدَ السَّاحِ
ولا يكفى بهذا التمرين ، بل يضيف إليه تمريناً شعرياً خطياً ثانياً ، كل كلماته مؤلفة
من حروف معجمة أو منقوطة من مثل قوله :

فَتَسْنَى فَجَسْنَى (تَجَسْنَى) بَتَجَنُّ يَفْتَنُّ غِبُّ تَجَنَّى
وكان هذين التمرينين الهندسين في تلك المقامة لم يُفْعَها ، أو كأنه أحسن أنه من
الممكن محاكاتها فجاء بتمرين خطى ثالث ، لا يتعلق هذه المرة بالنقط وعدمه ، بل
يتعلق بشكل الحروف ، إذ يظن من ينظر إلى كلماتها نظرة سريعة أنها متماثلة مثل :
زَيْتٌ زَيْتٌ بَقْدٌ بَقْدٌ وتلاه - وتلاه - نَهْدٌ يَهْدٌ

وواضح أن بين كل لفظين متوالين تجنيساً خطياً واضحاً . وكل ذلك ليس شعراً
وإنما هو تمرين أو لعبٌ هندسية ^(١) ، غير أنهم كانوا يعجبون بها ، ولذلك نرى
الشعراء - وخاصة المتأخرين - ينظمون منها كثيراً . ومن تمة هذه التمارين الهندسية في
العصر كثرة الألفاظ والأحاجى في الشعر وقد خصوها بالتأليف اهتماماً بها ، من ذلك
كتاب الإعجاز في الأحاجى والألفاظ للحظيرى وعنه ينقل المهاد في الخريدة ^(٢) ، ولا
يلبث أن يترجم لشاعر شُغِف بها هو الحكيم ^(٣) النلى الطيب ، ويذكر له طائفة من

(١) من هذه اللعب ما رواه المهاد من قصائد أولها تاه

وتأخرها تاه أولها جيم وتأخرها جيم أولها ذال وتأخرها

ذال انظر الخريدة (قسم العراق) ٧٤٩/٢/٤ وقسم الشام (٢) الخريدة (قسم العراق) ٤٩٨ وماهدها

ألفازة الشعرية في العقل والرمانة وكيزان الفخار والثأى وفيه يقول :

له رأسٌ يخالف منه جسماً بلا رِجلٍ فقيسُ فيها تقيسُ
بشئٍ أنينَ صَبٍّ مستهامٍ مشوقٍ قد نأى عنه أنيسُ
وليس بذي صَباباتٍ فيهِوى ولكنَّ الهوى فيه حَييسُ

غير ألفاز أخرى ذكرها العاد ، وألفازة طريفة ، غير أن من جاء وابعده حشدوا فيها شعراً رديئاً معقداً . وقد أكثر الشعراء في الحقب المتأخرة من التواريخ في الشعر ، إذ يحبون بيتاً أو نصف بيت بحساب الجمل مؤرخين للسنه التي نظموا فيها قصائدهم أو لسنة العرس الذي هنأوا به أو للسنه التي ولد فيها غلام إلى غير ذلك مما لا يفيد معنى . ومع ذلك فقد كان هناك شعراء مجيدون دائماً ، كانوا أعلاماً نابهن ، وسنفرد لهم بعض الصحف التالية .

ومن أهم ما يمتاز به أقالمتنا في العصور الوسطى أنه كانت تسود بينها في الأدب وفي العلم وحدة ، جعلت كل شاعرنا به في إقليم كأنه شاعر البلاد العربية جميعها ، كما جعلت كل لون جديد يظهر في إقليم لا يلبث أن تنظم فيه الأقاليم الأخرى ، ومن غير الأمثلة الدالة على ذلك الموشحات ، إذ نجدتها تظهر في الأندلس ويضع لها قوانينها في القرن السادس شاعر مصري هو ابن سناء الملك ، ونراها على ألسنة الشعراء في الشام والعراق وغيرها من البلدان العربية ، ومن أمثلتها في الحريدة موشحة ^(١) لشاعر موصل هو التاج البلطي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ . ويلقانا في القرن السابع وشاح عراقي كبير ترجم له ابن تغرى بردى في المنهل الصافي باسم شهاب الدين الموصل ^(٢) أحمد بن الحسن صاحب الموشحات ، وكان يستخدمها في المديح وغير المديح ، وينشد ابن تغرى بردى موشحة له عارض بها موشحة للقاضي الفاضل عبد الرحيم ، تجري على هذا النحو :

في مَنْ حَوَى الحَسَنَ كُلَّهُ وفاق غَيْدَ الأَكْلَةِ ^(٣)
بَسْرٌ تَمَامٌ مَصْصُورٌ ما فيه تَقْصُ الأَهْلَةُ
فَشَعْرُهُ لِلْيَالِ وَفَرَقُهُ لِلصَبَاحِ
وَجَفْنُهُ لِلتَّصَالِ وَقَدُّهُ لِلرَّمَاحِ
وَرِيقُهُ لِلزُّلَالِ وَفَقْرُهُ لِلْأَقَاخِ

(٣) الأكلة هنا : جمع كلة ومى السرة أولها جمع

(١) الحريدة (نعم الشام) ٢/٣٨٩

(٢) انظر ترجمته في المنهل الصافي لابن تغرى بردى إكليل ومى عصاة تردان بالجواهر

(طبع دار الكتب المصرية) ١/٢٥١

وقد بدأ موشحته بالقفل ونلاه بالدور ، ثم تابعت الأقفال والأدوار ، وكان يعرف كيف يتخبط كلماته عذبة رشيقة ، كما كان يعرف أنه لكي تتكامل رشاقة الموشح بحسن أن تكون الشطور في الأدوار قصيرة وأن يَسْرَى فيها صفاء موسيقى بديع . وأنشد له ابن تَقْرَى بردى موشحة يعارض بها موشحة مظفر الأعشى المصرى :

كَلَّمَلِي يَا سَحْبُ يُجَانِ الرُّبَى بِالْحَلَى

وظن بعض الأسلاف أن هذا الموشح لابن سناء الملك ، لروعة موسيقاه ، وهو ظن خاطئ . وكان مظفر يعاصره تقريباً ، فقد توفى بعده بنحو خمس عشرة سنة . وتمضى موشحة الموصلي في هذه الصورة :

جَلَّمَلِي	يَارَاحُ كَأَسَى وَلَمَّا كَلَّمَلِي
بِالْحَلَى	سِيَوَارَهَا ثُمَّ لَمَّا خَلَّجَلِي
	مِنْ غَرَزَ حَتَابِكَ الْمَنْظُومِ مِثْلَ الدَّرِّ
	بِالْخَمَرِ كَأَنَّهُ الْبَاقُوتُ فَوْقَ الْجَمْرِ
	وَالزُّهَرِ فِي الرُّوضِ أَمْثَالُ النُّجُومِ الزُّهَرِ

ومهارته واضحة في انتخاب الألفاظ والملازمة بينها في الجرس والنغمة ، ويحق يصف ابن تَقْرَى بردى موشحاته بأنها بديعة وأنها ذات نظم رائع . ويقول إن له موشحات كثيرة . وربما كان أهم الوشاحين العراقيين بعده صفى الدين الحلّى ، وثلثي في ديوانه يائس عشرة موشحة منها ست في مديح الملوك والأمراء وخمس في الغزل وموشحة صوفية . ومع أنه أجمل صوت يلقانا بعد القرن السابع فإنه يهبط في موشحاته درجة أو درجات عن الموصلي وربما كان أخف مطلع لموشحاته قوله في فائحة موشحة عارض بها أبا بكر بن بِنِي الأندلسي المشهور في موشحة بديعة له :

صَاحِبَ السِّيفِ الصَّقِيلِ الْهَلَلِي	جَرَّدَ اللَّحْظَ وَالَّتِي السَّلَاحَا
لَكَ يَارَبُّ الْعِيُونِ	الْقَوَاتِلِ
مَا كُنِي عَنْ حَمَلِ سِيفِي	وَذَايِلِ ^(١)
أَعْيُنٌ تَبْدُو لَدِيهَا	الْمُقَاتِلِ

ما سرى في جَفَنُهَا الْحَسَنُ إِلَّا أَوْتَقْتُ مَنَا قُلُوبًا جِرَاحَا
وربما كانت المعارضة هي التي جعلته يتفوق في هذه المرشحة ، كما جعلته يصفى لفظه تصفية ، شديدة بحيث أصبح يشبه الماء المذهب السلسيل ، وخاصة في هذا المطلع البديع .

شراء المديح

لا نبالغ إذا قلنا إن كل من تلقاهم من عشرات الشعراء - إلا من ندر - عند أصحاب البيتة والدمية والخريدة ومن جاءوا بعدهم كانوا شعراء مديح ، وينبئ أن لا نقل من أهميتهم وأهمية شعرهم ذاهبين مع من يذهبون إلى أن هذا الشعر كان في مجموعه نفاقاً وملقاً ، وهى فكرة عظيمة ، فقد ظهر العرب على مسرح التاريخ منذ العصر الجاهلى وهم يتفنون بمديح شيوخهم وأبطالهم راسمين فيهم الأجداد الحربية لقبائلهم ومثالياتهم الخلقية الكريمة ، مُدْكِين بذلك الحماسة في نفوس الشباب . وبذلك كان الشعر ديوان مفاخرهم أو بعارة أدق كان المديح هو هذا الديوان ، وأيضاً كان ديوان مثلهم الخلقية من الجود وعزة النفس والكرامة . وانضمت إلى ذلك إشاعات إسلامية منذ ظهر الدين الحنيف ، إذ مضى شعراء المديح حين يمدحون خليفة أو والياً يتحدثون عن العدل أو العدالة التى لا تصلح حياة الناس بدونها ، كما يتحدثون عن تقواهم وصدورهم في الحكم عن روح الإسلام وتعاليمه . ولم يتركوا معركة بينهم وبين أعدائهم من الأجانب إلا سجلوا مجداً الحروب فيها ليدفعوا الشباب إلى سلك السيوف وقطع رقاب الأعداء ومحققهم محققاً . وبذلك كله كان المديح طوال العصور السابقة لهذا العصر صحيفة تربية ، يمدح فيها الشباب القدوة الحسنة في العمل المجيد وفى الخلق الحميد . وظلت لها هذه الغاية طوال عصر الدول والإمارات ، فالشعراء يصورون فيها رجال الأمة العربية وكل ما يتحلون به من خصال رفيعة وكل ما يحققونه لدولهم وإماراتهم من أعمال حربية ، وكأنهم يريدون أن يرضوهم نُصَبَ عيون الشباب شعارات تعبر عن آمال الأمة التى حقوقها والأخرى التى تأمل منهم أن يحققوها ، مما جعلهم أحياناً يبالغون في تصويرهم كأنما يريدون أن يملوهم على النهج الصحيح الذى تريده الأمة ، ولذلك يكثر أن لا يكتفوا بتصويرهم في صورهم الحقيقية ، بل يصورهم كما تريد لهم ومنهم الأمة أو الإمارة .

وأول موجة تلقانا من شعراء المديح في العصر شعراء البيتة وتضمنها الذين عاصروا الدولة البويهية ، وفى الحق أن البويهيين ووزاءهم - كما مر بنا - بشوا في هذا العصر نهضة شعرية قوية ، بما أسبقوا على الشعراء من عطايا وما فتحوا لهم من مجالسهم ، ولن نستطيع أن نعرضهم جميعاً ، غير أننا سنقف قليلاً عند ثلاثة من أفذاذهم ، هم أبو الحسن محمد

ابن عبد الله السلمي وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر المعروف باسم البيهقي وأبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نباتة المعروف باسم ابن نباتة السعدي . والثلاثة من مداح سيف الدولة بحلب وحكام العراق جميعاً . وقد ولد السلمي بكرخ بغداد^(١) وتوفي سنة ٣٩٣ وله مديح رائع في عضد الدولة البويهى يقول فيه من قصيدة طويلة :

إليك طوى عَرْضَ البَسِيطَةِ جاعِلُ قُصَارَى المطايا أن يلوح لها القَصْرُ
فكنت وعزى في الظلام وصارمى ثلاثة أشباه كما اجتمع النُورُ
وشرتُ آمالي بملكٍ هو الوري ودار هي الدنيا ويوم هو الدهرُ
وأبو الفرج البيهقي^(٢) من نصيبين في الموصل ، توفي سنة ٣٩٨ وذكر له الثعالبي طائفة من أشعاره كان يتقن بها في عصره ، وله مدائح مختلفة في سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البرهسي ، ومن مدحه لسعيد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان :

لَا فَيْتُ نَهَاهُ فِي الْوَرَى خَلْبُ الْبَرْقِ وَلَا وَرْدُ جُودِهِ وَشَلْ^(٣)
جَادَ إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ نَائِلُهُ مَالاً وَلَمْ يَبْقَ لِلْوَرَى أَمْلُ
وابن نباتة السعدي^(٤) من شعراء بغداد وأفرادهم المبدعين ، توفي سنة ٤٠٥ وهو من مداح عضد الدولة ، وله فيه قصائد مختلفة يصف في إحداها نار السدق ، وكان عبدا مشهورا للنار عند الفرس في الإسلام كما مر بنا في غير هذا الموضع ، وله في سيف الدولة قصائد بديعة ، منها قصيدة في وصف فرس أغر محجل أهداه إليه ، وفيها يقول :

نَحْتَالُ مِنْهُ عَلَى أَغْرٍ مَحْجَلٍ مَاءَ الدِّيَابِجِي قَطْرَةٌ مِنْ مَالِهِ
فَكَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ فَاقْتَصَرَ مِنْ لِحَاضٍ فِي أَحْشَائِهِ
وهو تعليل بديع لياض الفرة والساقين معاً ، وكفى عن شدة سواده كناية رائعة إذ جعل الديابجي قطرة من ماله
لم يبق جودك لي شياً أَوْلَمُهُ تَرَكَتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ
وكان يحذو حذو المتنبي في كثرة الفخر والحلمة والشكوى من الدهر والزمن ، وإيضاً كان يحاكيه في نثر الحكم بشعره من مثل قوله :

(١) انظر في ترجمة السلمي البيهقي ٣٩٥/٢ . وابن خلكان ١٩٩/٢ .
١٢٤/٣ وابن خلكان ٤٠٣/٤ وتاريخ بغداد ٣٣٥/٢ (٢) وشل : ضحل
والتنظيم ٢٢٥/٧ والوفاء ٣١٧/٣ (٣) انظر في ترجمة ابن نباتة السعدي البيهقي ٣٧٩/٢
وتاريخ بغداد ٤٦٦/١٠ وابن خلكان ١٩٠/٣ وعبر
الهمي ٩١/٣ وفتوحات ١٧٥/٢ .
١١/١١ والتنظيم ٢٤١/٧ وفتوحات ١٥٢/٣ (٤) راجع في ترجمة البيهقي البيهقي ٢٣٦/١ وتاريخ
بغداد ١١/١١ والتنظيم ٢٤١/٧ وفتوحات ١٥٢/٣ .

وَمَنْ لَمْ يَمْتَ بِالسُّبُوحَاتِ بغيره تَوَعَّتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

وسنعرض لشاعرين كبيرين من شعراء العصر البويهي بن شعراء التشيع هما الشريف الرضي ومهيار . ولا يلقانا في اللمبة شاعر كبير ولعل من الغريب أنها لم تترجم لأكبر شعراء القرن الخامس : علي ^(١) بن الحسن الرئيس أبي منصور المشهور بلقبه صُرْدَرُ التوفى سنة ٤٦٥ ودبوانه مطبوع بدار الكتب المصرية ، ويقول ابن خلكان : جمع شعره بين جودة السبك وحسن المعنى ، وعليه طلاوة رائعة وبهجة فائقة . ودبوانه يمجج بالمذائع البديعة ، ومن قوله في الخليفة القائم :

كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَلْقَى رِداًه من « القائم » الهادي على جَبَلٍ راسي
زَمَانُ الْوَرَى فِي ظِلِّهِ وَجَنَابِهِ كَأَيَّامِ تَشْرِيقِ وَلِيَّاتِ أَعْرَاسِ
هو المصطفى التَّقْوَى متاعاً لِنَفْسِهِ يَجُوهَرُهَا حَالِ بِسْتَنْسَها كَاسِ
من الخلفاء الراشدين بناءهم بأطول أَعْيَارٍ وَأَثْبَتِ آسَاسِ
وواضح أن لفته رصينة وصورة بديعة ، وقد جعل زمان الناس في أيام القائم أعراساً وأيام تشریق وهي أيام عيد الأضحى بعد يوم النحر ، فأيامه أعياد وأعراس وأفراح لما أنشاع فيها من عدل وأمن . وله في فخر الدولة محمد بن محمد بن جهم حين تولى الوزارة سنة ٤٥٥ قصيدة من مشاهير القصائد كما يقول ابن خلكان في ترجمة ابن جهم ، ويستشهد بعض غزلها في حديثنا عن شعراء الغزل ، وفيها يقول له :

أَعْدَتِ إِلَى جِسْمِ الْوِزَارَةِ رُوحَهُ وما كَانَ يَرْجَى بَعْثَهَا وَنُشُورَهَا
وهي قصيدة بديعة ، ولا يقل عنها إبداً قصيدة ثانية للشاعر مدح بها ابن جهم حين أعاده الخليفة القائم إلى الوزارة سنة ٤٦١ بعد عزله ، وفيها يقول :

قَدْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ وَأَنْتَ مِنْ كُلِّ الْوَرَى أَوَّلُ بِي
مَا كُنْتَ إِلَّا السِّيفَ سَلَّتْهُ يَدُ ثُمَّ أَعَادَتْهُ إِلَى قِرَابِهِ
أَكْرَمَ بِهَا وَزَارَةً مَا سَلَّمْتُ مَا اسْتَوْدَعْتُ إِلَّا إِلَى أَرْبَابِهِ
مَشُوقَةً إِلَيْكَ مَذْ فَارَقْتُهَا شَوْقِي أَخِي الشَّيْبِ إِلَى شَبَابِهِ
وقراب السيف : غمده . والقصيدة كأخها رائعة . ويمجج كتاب الحريدة بشعراء كثيرين ومدائحهم ، نذكر من بينهم الحِصَى ^(٢) يحيى أبا الفوارس سعد بن محمد التميمي

(١) انظر في صُرْدَرُ المنتظم ٧٨١/٨ وابن خلكان (المراق) ٢٠٢/١ ومجموع الأدباء ١٩٩/١١ والمنتظم ٢٨٨/١٠ وابن خلكان ٣٦٢/٢ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (طبع مكتبة الحياة ببيروت) ، ص ٣٨٠ والبيكني ٩١/٧ وقد نشر دبوانه ببغداد .

(٢) انظر في صُرْدَرُ المنتظم ٧٨١/٨ وابن خلكان (المراق) ٢٠٢/١ ومجموع الأدباء ١٩٩/١١ والمنتظم ٢٨٨/١٠ وابن خلكان ٣٦٢/٢ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (طبع مكتبة الحياة ببيروت) ، ص ٣٨٠ والبيكني ٩١/٧ وقد نشر دبوانه ببغداد .

المتوفى ببغداد سنة ٥٧٤ هـ عُرف باسم الحبيص يّص لأنه رأى الناس يوما في حركة شديدة فقال : ما للناس في حبيص يّص ، فلصقت به الكلمة لقبا له ، وهو يشغل في المجلد الأول من القسم العراقي في الخريدة نحو مائة وستين صحيفة ، استهلها العماد بأنه من سلالة أكرم ابن صبيّ الحكيم الجاهلي ، وذكر أنه قرأ عليه ديوانه واقتطف قطعة من خطبته للديوان يفضل فيها الشعر على النثر ، وقطعة أخرى يتحدث فيها عن اشتغاله في أول شبابه بالفقه ومسائل الخلاف فيه ، ثم اتجه إلى الشعر فبرع في نظمه . ويستعرض العماد ديوانه على ترتيب الحروف في الاختصار والمديح ، وبذكر له ثلاثة أبيات هنا بها الخليفة المستضيء بأمر الله حين اعتلى عرش الخلافة سنة ٥٦٦ هـ تجرى على هذا النمط :

سألنا الله أن نَعْمَلْهُ إماما نعيش به فأعطانا نَجِيًّا
بَلَّغْنَا فوق ما كنا نَرْجَى هِنًا يا بني الدنيا هِنًا
وقد كُشِفَ الظلامُ بمسْتَضِيٍّ غَدًا بالناس كلهم حَقِيًّا

وسر المستضيء حين سمع منه ذلك فأعطاه ثلاثمائة دينار وخلمة ودارا ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ولعل في ذلك ما يدل على أن سوق المديح ظلت رائجة طوال أزمنة الخلافة العباسية ببغداد . وخلف المستضيء الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) فعمل على رواج سوق المديح بكل ماوسعه ، حتى لقد أنشأ له ديوانا خاصا وسمى الشعراء المدونة أمحازهم فيه باسم شعراء الديوان ^(١) ، وأكبر الظن أنه كان يُجرى عليهم رواتب ، وكانت لهم مواسم كثيرة يلقون فيها الشعر حين يتولى خليفة وحين يُقبل عيد أو يُولَدُ ولد أو يُعْتَنُ ، وكذلك حين يسترد الخليفة صحته من مرض ألمّ به . وبالمثل كان للوزراء وذوي البيوتات شعراؤهم ، وشاعر الناصر الفذ سبط ابن التّعاوذي ، وسنترجم له . ويقال إن يحيى الدين بن الجوزي كان ينظم في كل أسبوع قصيدة يمدح بها الناصر ^(٢) ، فبالنا بغيره من شعراء الديوان الذين كانوا يلتصقون بالمناسبات لنظم مدائحهم . ومنذ احتدمت الحروب بين صلاح الدين والصليبيين وأعلنت انتصاراته توالى أخذ كثيرون من شعراء العراق ينظمون مدائحهم فيه ، من مثل العلم الشافعي ^(٣) الموصلى المتوفى سنة ٥٧٩ هـ وله فيه مدحة استهلها بقوله :

(١) انظر نشاء الخلفاء لابن السامى تحقيق د. مصطفى جواد (طبع دار المعارف) ص ٩ وراجع الجامع المختصر لابن السامى (طبع بغداد) ٦٩/٩ ، ١٥٣ ، والرافى ١٠١/٢ و ٣٧٩/٤ .
(٢) انظر في ترجمة الشافعي الخريدة (قسم الثام) ٣٦١/٢ وابن خلكان ١١٣/٢ وتبليغ ابن صاكر ١٧٧/٤ وحبكى ٦١/٧ .
(٣) ذيل مرآة الزمان لليوناني (طبع حيدر آباد)

أرى النُصْرَ معقوداً برابك الصُّفْرَا فَمِرْ وانفتح الدنيا فأنْت بها أُخْرَى
 وثوّه صاحب النجوم الزاهرة بآبن الشُّحْنَة الموصل أبنى حفص عمر بن محمد لمحذ
 قافية له في صلاح الدين^(١) . ومن مداحه بالموصل أيضاً ابن الدهان^(٢) أبو الفرج عبد الله
 ابن أسعد المتوفى سنة ٥٨١ هـ ، وقد نشر ديوانه ببغداد أخيراً ، وقصد مصر زمن الوزير
 الفاطمي طلائع بن رُزَيْك وأنشده في مديحه قصيدة كافية بديعة ، ويقال : بل أرسلها إليه
 فكافأه عليها بجماعة سَيِّء وفي مخلصه بها من الغزل إلى المديح يقول :

لأنْتُ وصلك إن كان الذي زعموا ولاسقى ظمئى جودُ ابني رُزَيْكا
 القاتلُ الألف بلقاهم فيلهم والواهبُ الألف تلقاه فيُنْيكا

ونعني في القرن السابع الهجري ، فلتنى يراجع^(٣) الحلي المتوفى سنة ٦٢٧ هـ وتهنئة أنشدها
 الكامل سلطان مصر حين استخلص دمياط من الصليبيين سنة ٦١٨ هـ وردهم مدحورين إلى
 البحر المتوسط وما وراءه ، وكان قد عاونه في دُخْرهم أنخواه المعظم عيسى والأشرف
 موسى ، وإلى ذلك يشير راجع في قصيدته مستخدماً للتورية إذ يقول :

تَهْلُ وَجْهَ الدهر بعد قُطوبِهِ وأصبح وَجْهَ الشُّرْكَ بالظلم أسوداً
 أَهْبَادَ عيسى إنَّ عيسى وحزبه وموسى جميعاً يَخْدُمون محمداً
 . وواضح أنه قصد إلى التورية حين جعل المعظم عيسى والأشرف موسى يقفان في خدمة
 أنحبيها الكامل محمد ، وهى تورية بديعة . ويتوفى الخليفة الناصر ، ويخلفه ابنه الظاهر
 لنحو سنة ، ويتوفى ، فيخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) ومن أهم شعرائه ابن أبي
 الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ هـ وقد نظم فيه مجموعة من المدايح طبعت باسم المستنصرات ،
 وسنعرض له بين شعراء الشيعة ، ومن شعرائه أيضاً مجد الدين النشائي^(٤) أسعد بن إبراهيم
 الإربلي المتوفى سنة ٦٥٧ هـ وكان يكثر من مديحه بمثل قوله :

وَرثَ النبوة طاهراً عن طاهرٍ إرثاً بَرَّةً عن مقالة مُفْتَرى
 وإذا رأى الرامون نورَ جلاله لم تَلَقَ غير مهلِّو ومُكَبِّر

(١) النجوم الزاهرة ٥٨١/٦

شاعر الكهفي ١/٦١٨ والشرحات ٥/١٢٣ .

(٢) راجع ترجمته في القريدة (قسم الثام) ٢٧٩/٢

(٤) راجع في لغات الوفيات ١/١٧ وقد روى له

وابن حنكآن ٥٧/٣ والبكي ١٢٠/٧ ونهلب ابن

مروايا وانظره في ذيل مرآة الزمان ١/١١١ - ١٢٣

صاكر ٢٩٢/٧ والشرحات ٤/٢٧٠

وتلخيص جميع الأدب لابن الفوطى (طبعة الهند)

(٣) انظر ترجمة راجع وشعره في ابن حنكآن ٧/٤

. ١٠٢/٥

والنجوم الزاهرة ٦/٢٤٢ ، ٢٧٣ ولغات الوفيات لابن

ويكثر مثل هذا الغلو في المديح منذ أوائل العصر ، وأكبر الظن أنه من أصداء مدائح الشيعة لأنتمهم وما أحاطوهم به من حالة قدسية ومن مبالغات مفرطة . وطبعاً ألّف ديوان الشعراء بعد الغزو التتارى وركدت سوق الشعر . ونخصى في القرن السابع فلتقى بفخر الدين مظفر بن الطّراح المتوفى سنة ٦٩٤ وله مدائح كثيرة في علاء الدين عطا ملك الجوينى صاحب ديوان بغداد ^(١) . وكان يعاصره ابن نعم الحلى ، وله ديوان ^(٢) سماه « شرف المزية في المدائح العزّية » مدح به صدر الحلة عز الدين أبا محمد حسن بن الحسين الأسدى الحلى ، ويكنى القرن الثامن فخراً ظهور صنّى الدين الحلى فيه . ومرت بنا في فوائح الفصل اسم شهاب الدين الموسوى في العصر العثماني الأول واسم محمد كاظم الأزرى في العهد العثماني الأوسط أو عهد المالك ، ولها ديوانان يطفحان بالمديح ، ولعل من الخير أن نخص بالحديث كبار شعراء المديح في العصر : المتنى ، وسبط ابن التعاوىذى ، وصنّى الدين الحلى .

المتنى ^(٣)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من عشيرة جُفَيّ الملاحية اليمنية ، ولد سنة ٣٠٣ بحى كِنْدَةَ في الكوفة ، ولذلك قد يقال له الكندى . أما أمه فكانت هَمْدَانِيَّة ، فهو يحنّ أبا وأما . وذكر بعض خصومه وهجائيّه أن أباه كان سَقَاء ، وأضاف بعضهم أن اسمه

بغداد) والواسطة بين المتنى وخصومه لعل بن عبد العزيز الجرجاني (طبع دار إحياء الكتب بالقاهرة) والصحيح المتنى في الكشف عن حقيقته المتنى الليدي (طبع دار المعارف) وذكرى أنى الطيب للذكور عبد الوهاب عزام ومع المتنى لطف حسن والمتنى لعمود محمد شاعر وكاتب الفن ومناجيه في الشعر المرقى (الطبعة العاشرة) ص ٣٠٣ وكاتبه لوصول في الشعر ونقله : ما كتب فيه بعنوان المروية في شعر المتنى وكتاب بلاشير عن أنى الطيب المتنى . ويذكر ابن خلكان أنه وقف حتى عصره على أكثر من أربعين شرحاً لديوانه ، وأهم شروحه المطبوعة شرح ابن جنى وبينه وبين المتنى مراسلات كثيرة وشرحه تقيس ، ومن شروحه شرح المكيوى وشرح الواحدى وما مطبوعان . وشرحه أبو العلاء بشرح مطول سماه معجز أحمد ، يقصد ديوانه .

(١) الغزوى ١/٣١٦ .

(٢) الغزوى ١/٣١٧ .

(٣) انظر في ترجمة المتنى القيمة الثمالي ١/١١٠ وتاريخ بغداد ١٠٢/٢ ورمّة الألبا لآين الأتبارى (طبعة دار نهضة مصر) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٩٤ والأنساب للسعدي ورقة ٥٠٦ ووليات الأعيان ١/١٢٠ . وألفت قدما كتب كثيرة حول شعره ، منها الموضحة للحامى (نشر د . محمد يوسف نجم ببيروت) والرسالة الخاتمة فيها والحق فيه المتنى كلام أرسطو ورسالة الكشف عن سلوة المتنى للصابغ ابن حماد والرائح في مشكلات شعر المتنى للاصفهاني (طبع تونس) والفتح الرومى على مشكلات المتنى لآين جنى تحقيق د . حسن غياض (طبع بغداد) والفتح على فتح أنى الفتح لآين لورجه تحقيق د . حسن غياض (طبع

«عبدان» . ولم يُبرأ ابن خلكان هذه الدعوى اهتماماً ، وهى دعوى ملفقة كيدا للشاعر الفدّ وحسداً . وكل شىء فى سيرة الشاعر يؤكد بطلانها ، فقد ذكروا أن أباه ألحقه بكتاب أبناء الأشراف ، ويُمَعَّد أن يتظم فى سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سقاء يحمل الماء لأهل الحى القاطن به . وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكّرة ، وهو فى نحو الثامنة من عمره ، واتفق أن قال له بعض رفاقه من الصبية : يَا أَحْسَنَ وَفَرَّتْكَ وَشَمْرُكَ ، وفوجئ الصبى برده :

لَا تَحْسُنُ الْوَفْرَةَ حَتَّى تَرَى منشورة الصّغرين يوم القتال
عَلَى فَتَى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعْلِمُهَا مِنْ كُلِّ وَاقٍ السَّبَالِ

فالوفرة - أو الشعر المجتمع على الرأس - لا يحسن منظره إلا يوم القتال حين تشتت ذوائبه على رأس فتى باسل يَعْتَقِلُ صعدة أورعاً يُعْلِمُهَا أويروبيا من دماء الرجال ، فتى لا يبرح ميادين النضال والقتال . وفى ذلك ما يدل على أنه كان يستشعر منذ نعومة أظفاره نفساً كبيرة بين جنبيه ، نفساً تستعیش للفتوة والإقدام ، ولن يجذبها أى جمال حسى أو متاع مادى فى الحياة ، مما جعله ينصرف عن الخمر بل ينهى عن احتسابها ، أما ما قبل من حبه للعبة الشطرنج فلأنها تمثل مواقع الحرب واليرك . وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره ، حتى يغزو القرامطة الكوفة ويسفكوا الدماء وَيَسْبُوا النساء ، ويفر الناس منها جزعاً وفرعاً ، ويفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام ويظل المتنبي نحو عامين أو ثلاثة يتردد فى القبائل ويتغذى بلغتها ، وتتغذى فتوته الجماعة بين ضلوعه . ويعود إلى الكوفة فى سنه الستة الثانية عشرة ، ولا ندري هل كان أبوه لا يزال حياً أو أنه توفى قبيل عودته أو بعد عودته بقليل ، ونظن ظناً أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه ، بل لعلها فارقتها وهو لا يزال رضيعاً . وإنما يجعلنا على ذلك أننا لا نجد لأمه ولا لأبيه ذكراً فى ديوانه ، بينما نجد بركه جدته وهو فى نحو الثلاثين من عمره رثاء حاراً قائلاً :

ولو لم تكن بِنْتُ أَكْرَمِ وَالِدٍ لكان أباك الضخم كَوْنَكَ لى أمّا

وفى تسميته لها بأنها أمه ما قد يشهد بوفاة أمه فى باكورة حياته وأن جدته هى التى قامت على تربيته . وحاول بعض المعاصرين أن يُلْقَى شيئا من ظلال الشك على نسه ، لأنه لم يذكر فى شعره أباه ولا أمه مما قد يؤكد أنه كان يشعر بشعور الضمة من ناحية أسرته وأهله الأذنين ، وجعله ذلك ييغض الناس . والنتيجة ومقدمتها غير صحيحتين ، فإن كثيراً من شعراء العرب لم يذكرُوا فى أشعارهم آباءهم ولا أمهاتهم ، وليس فى ذلك أى دليل على

أن أسرهم كانت وضيفة ، بل إننا نجد سيد بنى عامر وفارسهم فى الجاهلية عامر ابن الطفيل يقول :

وما سودنى عامر عن وراثتي أبى الله أن أسمر بأبى ولا أبى

فهو يفخر بأن سيادته لقومه ليست وراثه عن آبائه ، مع أنهم كانوا سادة بنى عامر فعلا ، ويريد أن يقول إنه ساد بنى عامر بآسائه وأعماله المجهدة ، بالضغط كما قال المتنبي :
لا بقوى شرفت بل شرفوا بى وبفسى فخرت لا يجودى
وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوذ الجاني وعوث الطريد

عل أن المتنبي يعود فيفخر بقومه ، أما عامر فيطلق فخره بنفسه إطلاقا . ولعل فى ذلك ما يدل على أن كل ما رتبته بعض المعاصرين على هذين البيتين للمتنبي وما حاولوا أن يسوقوا من شك فى نسه غير صحيح . ومن المؤكد الذى لا يرق إليه شك أن المتنبي كان عربيا صعبا وأن العرب لم يثبت بينهم شاعر قبله ولا بعده استشر العروبة استشعاره حتى لو أردنا أن نقم للعروبة والعرب تمثالا لكان المتنبي هو الشاعر الخلق بأن يقام له هذا التمثال ، وقد لبس درعا ، وشد فى وسطه منطقة وسيفا ، وفى إحدى يديه رمح مصوب وفى الأخرى ريشة الشاعر ، وهو يمتطى حصانا وكأنه يطلب القتال والزال . فهو هذا التمثال الذى يرمز أروع رمز إلى العرب واستصغارهم لذوى الحكم والسلطان وصياحهم فى وجوه أعدائهم ، وإنه ليصيح بكل قوته هادرا عاصفا ، يريد أن يوقظ من حوله من العرب ويستفهم عما تورطوا فيه من هوان وتواكل واستسلام لحكامهم العاتين ، ومن أجل ذلك يصور نقائصهم بمثل قوله :

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جث ضخام

وليس ذلك عن بغض للناس كما قال بعض المعاصرين وإنما محاولة صارمة لتخليصهم من أخلاقهم الذميمة التى جعلتهم يخضعون لحكامهم الأعاجم الذين كانوا يرهقونهم من أمرهم عسرا .

ومستفح شخصية المتنبي حين تابعه فى حياته ، وقد رأيناه يخرج إلى البادية فى سن التاسعة ويعود فى الثانية عشرة من سنه ، ويكب على كل ماكان فى الكوفة من ثقافات ، فإذا هويلتهم كعب اللغة الهاما ويلتهم أيضا كتب النحو . ويتعرف على كتب الفلسفة عن طريق ممدوح كوفى له يسمى أبا الفضل وعن طريقه يتعرف على التصوف . وبكل ما قدمنا نستطيع أن نعرف العناصر التى أسهمت فى تكوين شخصيته ، فهو عربى للحاودما ، وتشتأثر

به العروبة إلى أقصى حد حتى لتجمله لسانها الناطق بها طوال حياته . وهو قد تغذى بلبان
البادية ، وأفادته صفلا في لغة ووقوفها على الغريب والشواذ اللغوية ، كما أفادته صفلا في
فترته وإحساسه بعرويته ، ثم هو قد تغف كل أنواع الثقافات في عصره ، واقترض منها في
شعره صيغا من النحو الكوفي الشاذ ومن الغرائب اللغوية ومن الأفكار والألفاظ والعبارات
الفلسفية ، ومن مصطلحات التصوف وشارات عباراته . وكل ذلك فصلنا الحديث عنه في
كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » .

وكان أبواه قد توفيا ، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة في سنوات ٣١٥ و ٣١٦
و ٣١٩ فرأى الفقى أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد ، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفاً
يسمى هرون بن علي الأوراجي ، ولا نراه يمدح خليفته ولا حاكمها الأعجمي ولا أحداً من
ذوى السلطان ، وكأنما وقف حاللاً بينه وبينهم ما رآه بأمر عينه من فساد الحكم وتسلط
الحكام الأعاجم على العرب ، ويتألم لما أصابهم من ذل وهوان ، ويُفهم صدره بمشاعر
العروبة ، وتثور نفسه ثورة عاصفة ويصيح من أعماقه :

إلى أي حين أنت في زِي مُعْرِمٍ وحق متى في شِقْوَةٍ وإلى كم ؟
وإلا تَمُتْ تحت السيوف مَكْرَمًا تَمُتْ ونُقاسِ الدُّلَّ غير مَكْرَمٍ
فَبِثِّبْ وثقاً في الله وثبةً ماجدٍ يَرَى الموتَ في الهَيْبَةِ جَنَى النُّحُلِ في القَمَرِ

وهو يستحث نفسه والعرب من حوله أن يجلّوا زِيَّ المهزومين بالهج ، يريد زِيَّ
الاستسلام إزاء حكام بغداد الأعاجم الفاسدين ، ويلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلتهم
منازلة لا تُبقي منهم ولا تَدْرُ . ويشس من حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان
ويؤلّى وجهه نحو بوادي الشام وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب في
طرابلس واللاذقية ، وهو لا يكف عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائرين الذين
لا يراعون للعرب حرمة ولا عهداً ولا ذمة ، ويصيح في قومه :

وإنما الناسُ بالملوك وما تُفْلِحُ عَرَبٌ ملوكُها عَجَمٌ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ولا عِهدٌ لهم ولا فِئَمٌ

وهو يقول إنه لن يكتب للعرب فلاح طالما كانوا مستذلين للحكام الأعاجم راضخين
لسلطاتهم مع ما يسومونهم به من العسف والقهر . ويمضي في دعوته وثورته في بوادي الشام
من اللاذقية إلى بعلبك ، ويمسُّ في أهل « نخلة » بالقرب من بعلبك تواكلاً وتحاذلاً وأنهم
لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهترة ، فيستثيرهم بقصيدة ملتهبة يقول فيها :

ما مُقَامِي بِأَرْضِ نَحْلَةٍ إِلَّا كَمَقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ
عِشْرَ عَزِيزًا أَوْتِ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَغْرِي الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ
وَاطْلُبِ الْبِرَّ فِي لَقَى وَدَعِ الذِّلَّ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ
أَنَا رُبُّ الشَّدَا وَرَبُّ الْقَوَانِي وَسَيِّمُ الْعِدَا وَغِيْطُ الْحُسُودِ
أَنَا فِي أَمَةٍ تَتَارَكُهَا اللَّهُ غُ غَرِبُ كَصَالِحٍ فِي تَمُودِ

وكان تشبيه نفسه في القصبدة بالمسيح وبالنبي صالح سببا في أن يتهمه بعض معاصريه
بإدعائه النبوة ، وبالنسبة فرحموا أنه أذى نفسه قرآنا ذكروا بعض فقرته ، وكل ذلك غير
صحيح ، فقد كانت ثورته سياسية قومية لا دينية ولا قمرية كما توهم بعض الباحثين . أما
لقبه المنتهى فهو الذي لقب نفسه به ، أولل بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به ، رمزا
لمعرفته الشعرية وأنه باقى في أشعاره بالمعجز الذي ليس له سابقة . وهو يضع في البيتين
الثاني والثالث دستور العرب على مر التاريخ فإما العيش العزيز وإما الموت الكريم في ساحة
الشرف والنضال ، ولا حياة بدون العزة والكرامة . وإن العربي الحر ليفضل العز في الجحيم
على الذل في الفردوس . ويترك قرية نَحْلَةٍ إلى بادية اللاذقية ويتبعه كثيرون لأواخر سنة
إحدى وعشرين وثلاثمائة ، ويقود ثورة ضارية ، وكان لا يزال في العشرين من عمره .
ويقضى ثلثه والى حمص من قِل الإخشيد على ثورته ويترج به في غياهب السجن . ويظل
به نحو ستين ، وترد إليه حريته ، ويعود إلى توقيع أشعاره على قيثارته في مديح ولاية
البلدان الشامية ، وخاصة بدمر عمار الأسدى صاحب دمشق من قبل بغداد ، ووجد فيه
المتنبي أميته في فارس عري ، فلدحه ونوه بفروسته في تصويره الرائع لفتكه بأسد ،
مستحلا له بقوله :

أَمْعَرُ اللَّيْلِ الْهَزِيرِ بِسَوَطِهِ لَمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْفُولا
يقول له إنك صرعت الأسد بسوطك فلن أبقيت سيفك ، ومضى يشيد بيأسه
ومضاته . وظل لا ينسى دعوته إلى الثورة مستنهما هم قومه ضد حكامهم الأعاجم بمثل
قوله :

لَا يُعْجِبُنِي مَضِيًّا حَسَنُ بَرِّيهِ وَهَلْ يَرُوقُ دَفِينًا جُودَةُ الْكَفَرِ
وقوله :

ذَلَّ مَنْ يَغِيْطُ الدَّلِيلَ بِعَيْشِهِ رَبُّ عِشْرِ أَنْفٍ مَنِ الْحَامِ
مَنْ يَهْنُ بِسَهْلِ الْهَوَانِ عَلَيْهِ مَا لِحُسْرِ بَيْتِهِ يِلَامُ
وفي أواخر هذا الاضطراب بين ولاية الشام التابعين لبغداد والآخرين التابعين لمصر جاءه

نمي جدته ، فحزن عليها حزنا شديدا ورثاها رثاء حارا بميمته التي يقول فيها مفاخرها بقومه وأهله :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظم
فلا عبرت في ساعة لا تُعزى ولا صحتي مهجة تقبل الظلما
وهما يتان رائعان بصوران الأنفة والعزة إلى أبعد حد ، وهو جانب في شعر المتنبي جعله
عجبا لكل عربي ، إذ توهج أشعاره بنخصال العربي الكريم وما يشعر به من العزة والأنفة
والإباء والشعور بالكرامة والترفع عن الدنيا إلى أقصى حد ، وكأنه ترجمان العرب عن
فضائلهم العليا الوطيدة كالصخر . وهذه النفس العاتية كان المتنبي ينظم شعره منذ سال
على لسانه في الكتاب معبرا عن الروح العربية التي لا تقهر ، مها نزل بها من الكواثر
والخطوب . وهو نفسه قد نزلت به كارثة أو محنة إخفاق ثورته ، ومع ذلك لا يزال يقدر
ويزجر ويؤزر ، ولا يحد سميما ولا يجيأ . وتحذنه نفسه في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أن
يقدم مدائحه لولاة سيف الدولة الحمداني ، وكان أميرا لحلب واتسع إمارته إلى حمص
وأنطاكية مترعا لما من يد الإخشيديين ، فقدم المتنبي مدائحه إلى واليه على أنطاكية أبي
العشائر الحمداني ابن عمه ، فأجزل له في العطاء . ومضى في مديحه ، ويقدم سيف الدولة
إلى أنطاكية في جبادى الأولى من سنة سبع وثلاثين ، فيمدحه المتنبي ، ويغضب كل منها
بصاحبه . ويطلب سيف الدولة منه أن يصطحبه إلى حلب ويترل عنده ، ويقول الرواة
إن المتنبي اشترط عليه أن لا يقبل الأرض بين يديه وأن لا يشده مدائحه إلا قاعدا ، ويحييه
سيف الدولة إلى شرطه ، ولعل فيها ما يشير إلى شعور المتنبي بالعزة والكرامة شأن العربي
الأصيل . ويظل المتنبي عنده تسع سنوات ، ينظم فيها مدائح وأشعارا في أمره ، تولى
ديوانا ، وهو ديوان من أنفس دواوين الشعر العربي ، لا من حيث كثرة قصائده
فحسب ، بل أيضا من حيث روعتها ، وقد بلغت نحو أربعين قصيدة وإحدى وثلاثين
مقطوعة ، واستقر حيثن في نفسه أنه لقي أمل العرب وحاميهم وفارسهم الذي يمزق جموع
الروم شر ممزق في الشمال ، وغدا يمزق جموع الحكام الأعاجم من البويهيين في بغداد ،
ويرد للعرب دولتهم المفقودة . وكان سيف الدولة يثق بطلا مغوارا وشجاعا مقداما ،
حطّم جيوش الروم مرارا واستنقذ منهم غير ثغر وحصن ، وكان المتنبي يصحبه في غزواته ،
حتى إذا عاد معه أنشده بلبل ما نظم في بطولته وبطولة جنوده . وكانت أول موقعة
حضرها الشاعر مع البطل موقعة الحدث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة . وكان الروم قد
استولوا على هذا الحصن ، فرأى سيف الدولة أن يسترده ويعيد بناءه . وأعد جيشا جرّارا

زحف به من حلب ، ولقيه الروم وهزموا هزيمة ساحقة ، قُتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد برداس فوكاس وصهره ، وأسر منهم آلاف ، وُضعت في أرجلهم الأغلال والسلاسل ، وبقي سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم ، وسجل المنتهى الموقعة في ميمية رائعة خاطبه فيها مبتهجا بقوله :

وقفتَ وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ
تمرُّ بك الأبطالُ كلَّمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وتتركُ باسمٍ
ضمتَ جناحيهم على القلب ضمةً تموتُ الخوافي تحتها والقوادمُ
بضربِ أنى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ وصارَ إلى اللبّاتِ والنصرُ قادمٌ
تترنّهُمُ فوق الأحيدِبِ نكرةً كما تترنُّ فوق العروس الدراهيمُ
وهو يصور سيف الدولة في المعركة رابط الجأش ثابت الجنان والرهوس تتطاير والأشلاء
تتناثر ، والموت يحرق من كل جانب ، وكأنه في جفنه وهو نائم عنه ، مهابة ليس وراءها
مهابة . وتمر به جنود الروم جرحى مهزومة هولا ورعبا ، ولم يلبث أن لفّ جناحى جيشهم
على القلب لفةً سريعة وحطم رموسهم حطاً إلى اللبّات والنحور . وولوا الأدبار مندحرين
وسيف الدولة وجوده يثرونهم على جبل الأحيدِب كما تترنُّ الدراهيم على العروس ابتهاجا ،
وكانه لم يكن يوم حرب ، إنما كان يوم زفاف لنصر عظيم . والنتهى لا يبارى في وصفه
لوقائع سيف الدولة مع الروم ، حتى لكأنما نسمع في قصائده السيفية قعقة السلاح ،
وهى لا شك القطع الأرجوانية الرائعة في ديوانه ، وبحق قال ابن الأثير : « اختصّ المنتهى
بالإبداع في مواقع القتال . . وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من
نصاها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يُظنُّ أن الفريقين قد
تقابلا والسلاحين قد تواصلوا » . وتوفيت في نفس هذا العام عام سبعة وثلاثين أم سيف
الدولة فرناها بقصيدة بديعة ، وفيها يقول يتيه المشهورين :

رماى الدهرُ بالأرزاء حتى فزادى في غشاؤه من نبالٍ
فصرتُ إذا أصابنى سهامٌ تكسرتِ التّصالُ على التّصالِ
ونفيس عليه كثيرون من حاشية سيف الدولة - وفي مقدمتهم أبو فراس الحمداني
الشاعر - منزله ، فأغلوا يكيدون له عنده ، وأحسّ المنتهى بكيدهم ، وأن سيف الدولة
يُرهب سمعه إليهم ، فأنشده قصيدة ميمية يعاتبه فيها عتاباً مرّاً بمثل قوله :

يا أعدلَ الناسِ إلا في معاملتى فيمَ الخصامُ وأنتَ الخنصمُ والحكمُ
إذا ترحلتَ عن قومٍ وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

وبحاول سيف الدولة مرضاته ولكن حاشيته تظل تكيد له ، وعجيب أمر الناس فإنهم يظنون يحسدون الأديب ، حتى لو كانت ملكاته من الخصب مثل المتنبي ، بل هم يحسدونه لهذه الملكات ويحاولون أن يقصدوا بينه وبين راعيه . ومن عجب أن يسمع سيف الدولة لحساد المتنبي ، وهو لم يكن يقدم له مدائح المعجب فحسب ، بل مدائح المحب المفتون ، وإنه ليعلم ذلك في غير قصيدة من مثل قوله :

مَالِي أَكْتُمُ حَبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِي وَتَدْعِي حَبَّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْأُمِّ
ولعله أول من خلط المديح بالحب بل إنه ليخلط به وصف الماعم ، إذ يسوق فيه ألفاظ النسيب والتشبيب والغزل كقوله :

أَعْلَى الْمَالِكِ مَا يَنْتَى عَلَى الْأَسَلِ وَالْعَطْنُ عِنْدَ مُحِيطِينَ كَالْقَبْلِ
ويصمم على الرحيل ، ويرحل إلى دمشق ، ويلتقي فيها بأصحاب كافور وأوليائه ، فيُفَرِّقونه بلفائه في الفسطاط وأنه لابد أن يسيقه واليا على صيداء ، أو ما يماثلها من بلدان الشام ، وكأنما زينت نفسه له حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأمر دونه ويحقق أمانيه القديمة في إقامة الدولة العربية المنشودة . ويتزل بساحته على ضفاف النيل سنة ٣٤٦ وينثر عليه كافور أمواله ، فيصارحه بمثل قوله :

وَمَا رَغِبِي فِي عَسَجِدٍ أَسْتَفِيدُ وَلَكِنِّي فِي مَفْخِرٍ أَسْتَجِدُهُ
ويُلَوِّح في غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية ، ولكن دون جدوى ، فيستقم منه شر انتقام إذ استطاع بخبرته في الصياغة الشعرية أن يوجه له مدائح هي في ظاهرها ثناء ولكنها في باطنها هجاء مر من مثل قوله :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلَمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا لِمَنْ بَاتَ فِي نَفْسِهِ بِقَلْبُ
والبيت يمكن أن يُحمل على من يُسَبِّحُ عليه العطاء فلا يعترف بالجمل ، وبذلك يكون من الظلم بمكان . ويمكن أن يحمل على كافور وأنه يحسد من يُسَدِّدُ إليه العطاء ، وبذلك يصفه بدناءة لا تدانها ذناة . ويقول بعض الباحثين إن المتنبي استدل نفسه حين رضى بمدح كافور الأعجمي الحبشي ، وهو الذي طالما هجا الأعاجم ، ويستطردون فيقولون إنه تحلى عن مسئولية الأديبة . وليس هناك نخل من التنهي ولا ما يشبه التخلي ، فقد مدح كافورا في سبيل أن يصبح صاحب ولاية وسلطان ، فلما ما طله ، سل عليه لسانه ، وظل له عنده شعوره الجامع بكرامته وقوة نفسه ، حتى كأن نفسه من طبيعة فوق طبيعة نفوس الناس ، فهي لا تضعف ولا تهزم ، بها تقدمت بالمتنبي السن ومها اشتمل عذاره شيئا ، بل لكان شعرات شبيهة البيضاء حراب مشرعة لتزال أعدائه ، حراب كن

وراثها نفس ترجم ، لها أنياب الأسد وغالبه ، وبصور ذلك تصويراً رائعاً في قصيدة مدح بها كافورا سنة تسع وأربعين إذ يقول :

وفي الجسم نفس لا تشبُّ بشيء ولو أنَّ ما في الوجه منه حِرَابُ
لها ظفرٌ إن كلَّ ظفرٍ أعدُّه وتابُّ إذا لم يبق في القم نابُ
فالأنس المرير الذي ذاقه طوال أربع سنوات مجدبة لم يمس نفسه ، بل ظلت فتوة خليقة بكل إكبار . وفي أواخر مقامه بمصر أُلِّت به حُمى ، فوصف نزولها به في الظلام وميئها في عظامه وأثرها في جسمه وصفا رائعاً ، ولها يقول يته البديع :

أُنْتُ الدَّهرُ عندى كلِّ بنتٍ فكيف وصلتِ أنتِ من الرِّحامِ
وعرَّض في القصيدة برحله ، فقد أحسُّ بإخفاق رحلته إلى مصر وارتحل بليل ، وهو يرمى كافورا بشواظ من هجائه على نحو ما نرى في داليه ، وقد مرَّق فيها أديمه تمزيقاً بمثل قوله :

لا تُشترِ العبدَ إلا والعصا معه إن العبدَ لأنجاسٌ متأكِّدٌ
وسقط بعض شرر من هجائه على مصر ، ولكنه لم يكن بقصدتها لضها ، إنما كان يقصد كافورا بهجائه وذمه . وقد بارحها في أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين ، وانجه إلى الكوفة مسقط رأسه ، واشترك مع أهلها في الدفاع عنها حين هاجمها القرامطة ، ولعل في ذلك ما يقطع بأنه لم يكن قرمطياً يوماً . ويرسل إليه سيف الدولة بهدية ومعها كتاب بخطه ويرد عليه بلاية بديعة يستحثه على منازلة البويهيين الأعاجم ببغداد ويرثها في سنة إحدى وخمسين ، وفيها يجتمع له كثيرون يأخذون عنه ديوانه ، ويتعرض له الحاتمي - بإيعاز من الوزير المهلبى - ينقد بعض أشعاره ، وتكون في ذلك قطيعة بينه وبين الوزير فلا يمدحه ، ويعود إلى الكوفة بعد أشهر ، ويكاتبه ابن العميد في سنة ثلاث وخمسين متودداً إليه آملاً في زيارته ويقدم عليه في « أَرْجان » سنة أربع وخمسين ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلاً في وصفه :

عربيُّ لسانُهُ فلسفيُّ رأيُهُ فارسيُّ أعيادُهُ
ففخرة ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروبة بيانه ، ويستقدمه عضد الدولة إلى « شيراز » ويُرِّبستان يسمى « شَغَبْ بَوَّان » ويروعه جماله ، غير أنه مع روعته كثر نفسه أن لا يرى أثراً للمروية فيه وفيما حوله من ديار ، مما جعله يفتح قصيدته بقوله :
مَنَّاى الشَّعبِ طيباً في المغانى بمترلة الربيع من الزمانِ
ولكنَّ الفقى العربيُّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

وأروع مداعبه في عضد الدولة هائيته ، وهو يستلها بنصوير حنينه إلى منازل حبيبته
العربيات في الشام ، وتطغى عليه حرارة هذا الحنين وما يلبث أن يجسسه في فتاة عربية
شامية خلبت له ، ويصور جمالها وعفتها بمثل قوله :

كلُّ جريحٍ تُرَجِّى سَلامَتَهُ إِلَّا قَوَاداً دَهَتْ عَيْنَاهَا
فِي بَلَدٍ تُضْرَبُ الْحِجَالُ بِهِ عَلَى حِسانٍ وَلَسْنَ أَشْيَاهَا
فِيهِنَّ مَنْ تَقَطَّرَ السَّيْفُ دَمًا إِذَا لَسَانُ الْمَحَبِّ سَمَّاهَا

إنهن عربيات دونهن الموت الزَّوَام . وعلى هذا النحو ظلت العروبة تختلط بدمائه ،
حتى أنفاسه الأخيرة فقد بارح شيراز سريعا ، وفي طريقه بالقرب من بغداد خرج عليه
في أواخر شهر رمضان من سنة ٣٥٤ فأتك بن أبي جهل في بعض الشذاذ من قطاع
الطرق ، وصرعه هو وابنه وغلامه ، وبذلك أحال أعراس الشعر مآتم على شاعر العروبة
المبقرى : مآتم حداد وسواد . وقد بكاه كثير من معاصريه بكاء حاراً .

ولعل فيما قدمنا ما بصور الموضوعات الاساسية التي تغنى بها المتنبي ، وهي المديح
والهجاء والفخر والثناء ، وأروع مداعبه كما قدمنا ما نظمه في سيف الدولة وتصوير
معاركه ، وهجائه ينبث في مداعبه ونقصه هجاءه لأعاجم بغداد ، وفيهم يقول :
فِي كُلِّ أَرْضٍ وَطِئَتْهَا أُمَمٌ تُرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّهُمْ غَنَمٌ
يَسْتَحْشِنُ الْخَرَّ حِينَ يَلْبِسُهُ وَكَانَ يُبْرِى بِظُفْرِهِ الْقَلَمُ
والبيت الثاني يحمل سخرية قاتلة فقد كانوا - كما يقول - عيدا غلاظا لا يعرفون إلا
الملابس الحشنة ، وقد طالت أظفارهم ، وإذا هم يعيشون في النعيم ، يلبسون الإستبرق
بل يستخشنونه ، ويمثلون ديار العرب بئياً وظلماً . وممرت بنا أبيات أخرى في هجائهم ،
وأشرنا إلى هجائه لكافور وهو هجاء مرير . ويكثر الفخر في شعر المتنبي ، وهو طبيعي لمن
ينصف بالأس والشجاعة واحتمال المكاره والطموح والثقة بالنفس ثقة تدفعه إلى مغالبة
الزمن حتى ليقول :

أَمْثَلُ تَأَخُّدُ النُّكَبَاتِ مِنْهُ وَيَنْزِعُ مِنْ مَلَاةِ الْحَمَامِ
لَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَى شَخْصٍ لَخُتِبَ شَعْرَ مَقْرِقٍ حُسَامِي

وفي ديوانه مراث مختلفة ، ولكن أهمها مراثيه في جدته والأخرى التي نظمها في أم
سيف الدولة ، وقد مرت الإشارة إليها ، والمراثية الأولى تطفح بالفخر بينما تطفح الثانية
بالتشكيم في الحياة والموت ، وفيها يقول :

يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمُوتُ أَوَاغِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَّلَى

وفي رأينا أن هذا البيت هو الذي ألهم أبا العلاء قصيدته : « غير مجد في ملهى واعتقادي » . وتَسْرَى فيه روح تشاؤم جعلته ثائراً على الزمن والدهر والناس ، وهي روح نَجَبَ أشعاره إلى قارله ، من مثل قوله :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانِ وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا
وَتَوَلَّوْا بِفَضَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانَا

وتكرر في شعره الحكم والأمثال ، حتى ليصبح جُلُّ ما يدور من خواطر في أذهان الناس أمثالاً أو حكماً ينطق بها في شعره ، ولفت ذلك القدماء وحاولوا أن يصلوا بينه وبين أرسطو فيه ، ولكن من المؤكد أن حِكْمَهُ وليدة عقله الكبير وخبرته الواسعة بالحياة والناس ، وقد أنشدنا منها أطرافاً فيما مر من الحديث . وله غزل طريف ، وهو فيه مفتون دائماً بالبديوات للجهان الفطرى وفي ذلك بقول :

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِطَبَرِيَّةٍ وَفِي الْبَادَاةِ حُسْنٌ غَيْرٌ مَجْلُوبٍ
أَقْدَى ظِلَاءَ فَلَاحٍ مَا عَرَفْنَا بِهَا مَضْغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِبِ

وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يحلو بعض الجلاء شخصية المتنبى الفذة ويرد عنها جملة أشبهم التي نسجها بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين حول نسبه وصحة وحول قرمطية وعقيدته ، وهو قد قُرِعَ من أبيه من وجه القرامطة حديثاً ورحل بسبيهم عن الكوفة في باكورة شبابه ، وحاربهم بأخرة من عمره ، ومع ذلك يقال إنه قرمطي ، ويُلقَى ظل من الشك على عرويته ، مع أن الرواية لم نجد من يُفَضِّلُهُ لتخاره ترجيحاً لها أروع ما يكون الترجمان .

سِيْطُ (١) ابن التماويذى .

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله ، كان أبوه مولى لبنى المظفر واسمه نُشْكَيْنُ ، فسماه ابنه عبيد الله وسعى جده عبد الله ، وقد وُلِدَ لأبيه ببغداد سنة ٥١٩ ويبدو أنه توفي وابنه لا يزال صغيراً ، فكلّله جده لأمه أبو محمد المبارك الزاهد المعروف بابن التماويذى وكان صالحاً ، فقام على تربيته خير قيام ، إذ ألحقه بكتاب ، ثم بمحلفات العلماء

التماويذى : حياته وشعره لنورى شاکر الأتوسى (طبع بغداد) ودروانه طبع قديماً بالقاهرة في مطبعة القلنط بتحقين مرجليوت .

(١) انظر في ترجمة سبط ابن التماويذى معجم الأدباء ٢٣٥/١٨ وابن خلكان ٤٦٦/٤ ونكت المبيان ص ٢٥٩ والوافى بالوفيات ١١/٤ وغير الذمى ٢٥٣/٤ والشفرات ٢٨١/٤ والنجوم الزاهرة ١٠٥/٦ وسبط ابن

فى المساجد ، ولم يلبث أن استيقظت موته الشعرية ، ولم تشمله عناية جده فحسب ،
 فقد عُنى به أيضاً بنو المظفر مواليه ، إذ أسبغوا عليه وعلى جده من أفضالهم الكثير ، وكان
 لهم شأن كبير فى الدولة ، إذ كان منهم وزراء وكتاب مختلفون ، فالخوّه بدواوين
 الخلافة ، واختاروا له الكتابة بديوان الإقطاع ، وجعلته وظيفته فى هذا الديوان يتصل
 بكبار رجال الدولة وموظفيا المختلفين من غير بنى المظفر ، وله مدائح فى الحلفاء وفى
 غير وزير ، وخاصة ابن هبيرة . ويظهر أنه كان من جملة من فصلهم وزير الديوان أبو جعفر
 أحمد بن محمد التميمى المعروف بابن البلدى لعهد الخليفة المستجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) إذ
 نراه يهجوه هجاء مرا ، وكان هذا الوزير قد عزل أرباب الدواوين وحسبهم وحاسيم
 وصادرهم وعاقبهم ونكّل بهم ، وفيه يقول :

يا قاصدا بغداد حيدً عن بلدٍ للجرور فيها زخرةٌ وعبابُ
 إن كنت طالبَ حاجةٍ فارجعْ فقد سُدَّتْ على الرّاجى بها الأبوابُ
 بادتْ وأهلوها معاً فيوثقهم بقاء مولانا الوزير خرابُ
 وارتهمُ الأجداتُ أحياءُ ثُها لُ جنادلُ من فوقهم وثرابُ

ونراه فى قصيدة أخرى يشكو من ابن البلدى ومن ضافته وعطلة مما يدل دلالة قاطعة
 على أنه كان قد فصل مع من فصلهم . ولم يلبث أن عاد إلى وظيفته ، وأكبر الظن أن
 الخليفة المستجد هو الذى أعاده ، وكان جده لأمه ابن التعاويذى قد توفى وورثاه مريّة
 جيدة ، استلها بقوله :

لكلّ ما طال به الدهرُ أمدٌ لا والدأ يتي الرّدى ولا ولَدُ

وليس فى الديوان بعد ذلك ما يدل على أن أحداثاً خطيرة مرت به . وقد ظل فى ديوان
 الإقطاع حتى سنة ٥٧٩ هـ إذ كُفّ بصره ، ولم يعد يستطيع العمل فيه ، ويلتمس حيثنذ
 من الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) أن ينقل راتبه فى الديوان إلى أبنائه ، وكانوا كثيرين
 كما يبدو من إحدى قصائده . ويحميه إلى ملتسه ، غير أنه يعود فيطلب إليه أن يُجَدِّدَ له
 راتباً خاصاً به مدة حياته ، ويحقق له طلبه ، ويكثر حيثنذ من نَدْب بصره بمثل قوله :
 ألا مَنْ لِمَسْجُونٍ بغيرِ جَنَابَةٍ يُعَدُّ من الموتى وما حانَ يومُهُ
 يروُّهُ عند الصباح انتباهُهُ فطُوقُ له لو طالَ وامتدَّ نَوْمُهُ

ولم يعيش طويلاً وهو مكفوف ، فقد توفى بعد نحو أربع سنوات سنة ٥٨٣ هـ وقيل بل
 سنة ٥٨٤ . وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل كُفّ بصره ، وعمل له خطبة طريفة ، كما يقول
 ابن خلكان ، ورتبه فى أربعة فصول ، وكل ما نظمه بعد هذا الترتيب سماه الزيادات ،

والفصل الأول في مدائح الخلفاء ، والفصل الثاني في مدائح جماعة من الوزراء والأكابر كما يقول في مقدمته ، والفصل الثالث في مدائح بنى المظفر . يقول : « لأننى نشأت فيهم ، وصحبتهم أنا وجدى لأمى ، وكنت منقطعاً إليهم لأنشيم (أنظر) غير سائهم ، فنظمت فيهم جُلَّ شمرى ، وأنفقت معهم طائفة من عمرى » . والفصل الرابع منوعات من مرث وزهد وغزل وعتاب وهجاء . والزهد عنده قليل مما يدل على أن أثر جده لأمه الورع فيه كان ضعيفاً . وواضح أن جمهور الشعر في الديوان مدائح ، ومع ذلك نرى له قصيدة ينصح فيها الشعراء أن يهجروا المديح إلى الهجاء ، ويبدو أنه قالها في لحظة عارضة في حياته . وقد نوه به وشاعريته ابن خلكان تنوياً عظيماً قالاً : « كان شاعروقه ، لم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها ، وهو في غابة الحسن والحلاوة ، وفيها اعتقده لم يكن قبله بمائتى سنة من بضاهيه » .

وأول خليفة مدحه سيّط ابن التعاوىدى الخليفة المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وليس لأبيه المقتنى ذكر في الديوان ، وليس له في المستنجد نفسه سوى قصيدة ، وكأنه كان بعيداً عنه لعهده وزير الديوان ابن البلدى . حتى إذا ولي المستنضى (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) رأيناه يكثر من مدائحه ، كما أكثر من مدائح ابنه الناصر ، وظاهرة مهمة تلاحظ في هذه المدائح ، هى أن الشاعر يقتصر من بيئة الإمامية الشيعة وغيرها من الغلاة بعض الأوصاف التى يصفون بها أئمتهم ، ويصف بها المستنضى وابنه الناصر ، وكأنه لم يعد هناك فرق بين مدح الشيعة لأئمتهم ومدح الشعراء لخلفاء بنى العباس ، وأقرأ هذا الاستهلال لمُدحة لسيّط ابن التعاوىدى في المستنضى :

لك النهى بعد الله فى الخلق والأمر وفى يدك المبسوطة النفع والضر
وطاعتك الإيمان بالله والهدى وعصيانك الإلحاد فى الدين والكفر
ولولاك ما صحت حقيقة مؤمن نعى ولم يقبل دعاة ولا نذر
مر الدهر بفعل ما تشاء فإنه بأمرك يجرى فى تصرفه الدهر

والغلط واضح فى البيتين الأخيرين ، بل فى الآيات كلها ، حتى ليجمله بصرف الدهر كما يشاء . ويمضى فى القصيدة فيصفه بأنه أمين الله ووارث النبي وإمام هدى عمّ عدله الرعية ، وقد نظمت بفضل آى الذكر الحكيم يقصد قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) . ودائماً يردّد في مدائحه له أنه جار على سنّ الرسول ﷺ ، وأن مديحه له سيّعة يوم القيامة من حسناته . ويخطو الشاعر في مديحه لناصر خطوات أكثر غلواً على شاكلة قوله :

أنت الإمام المهديّ ليس لنا إمام حقّ سيّواك يُستظرّ
يا صاحبَ العصر والزمان ومن في يده النفع بعد الضرر
ومن له الليل والنهار وما كرا عليه والشمس والقمر
والبر والبحر والشواقي والد خرّ القواصي والتجم والشجر

ولو لم نعرف اسم المدّوح لظنناه إماماً شيعياً فهو المهديّ الذي تنتظره الشيعة لينقذ العالم من مفاسده وشروره ، وهو صاحب العصر والزمان الذي ينجي عن الأعين ومع ذلك يرمي أمور رعيته ويدير شئوننا ، بل إنه ليدير الكون كله بلبه ونهاره وأفلاكه وكواكبه وأرضه وسماؤه وبره وبحره . وعلى نحو ما يضيف الشيعة إلى أئمتهم العلم وأنهم خزنة وذخائره كذلك يكرر الشاعر بأن العباسيين علماء الدين الحنيف وأعلام الهدى ، ولا يمل من تكرار نشرهم للعدل . وكان الشيعة يرددون أن أئمتهم حجج الله في أرضه على عباده ، ويقتبس الشاعر هذه الفكرة في ملحه للناصر قائلاً :

حُجَّةُ اللهِ أَنْتَ وَالسَّبَبُ الْمَمْدُودُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ

ولعل في ذلك كله ما يدل على أن من الخطأ أن يُسلَكَ سبيل ابن التعاويذي بين شعراء الشيعة كما ظن بعض المعاصرين ، فهو شاعر عباسي ، متعصب للحلفاء بني العباس أشد التعصب ، ولذلك أمثلة كثيرة في شعره ، وهو يقرر دائماً أنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة ، ولذلك كنت أشك في أنه نظم مرثية الحسين .

أَرَقْتُ لِلْمَمْنَعِ بِرَقِي حَاجِرِي تَالِقَ كَالْمَانِي الْمَشْرِفِي

ويطلب أن تكون المرثية أضيفت إلى الديوان في زمن مبكر .

وحين كاد العباد الأصهباني يعمل في دواوين الخلافة يبتغاد انعقدت بينه وبين الشاعر صلة مودة ، فلما بارح العباد العراق إلى الشام واتصل بصلاح الدين كان الشاعر يرأسله ، ويقول ياقوت إن العباد ذكر في ترجمته بعض ما كان بينها من مراسلات ، وفي ابن خلكان رسالة بديعة للشاعر أرسل بها إلى العباد يطلب منه قُرْوة . ويبدو أن العباد حمل على أن يصل بينه وبين صلاح الدين من جهة ووزيره القاضي من جهة ثانية ، وفي ديوانه أربعة مدائح وجه بها إلى صلاح الدين بين سنتي ٦٧٠ و ٦٨٠ كافأه عليها مكافآت سنية ، لعل أهمها التونية ، وفيها يقول :

قَادَ الْجِيَادَ مَعَاقِلًا وَإِنْ اكْتَنَى بِمَعَاقِلٍ مِنْ رَأْيِهِ وَحُصُونٍ
سَهَرَتْ جَفُونُ عِدَاهُ خَيْفَةَ مَاجِدٍ خُلِقَتْ صَوَارِمُهُ بِغَيْرِ جَفُونٍ

لو أن إِلَيْتِ الهَزِيرِ سَطَاهُ لم يلبجاً إلى غَابٍ له وعَرِينِ
وغزله في مفتاح هذه المدحة رائع ، وله في القاضى الفاضل ثلاث مدائح أروعها رائية
يشكو فيها فقد بصره شكوى مرة ، إذ يقول :

ناه عن الأحياء في بَرْزَخٍ منقطعٍ من بَيْنِهِم ذِكْرِي
ليلُ حِجَابٍ لا أرى فَجْرَهُ با مَنْ رَأَى لَيْلاً بلا فجر
وفي الحق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد وقَّاه ابن خلكان حقه من الثناء ، ونحس
عنده كأن نبأ سائفاً شرابه يتدفق عذباً عنوبة حلوة .

صلى^(١) الدين الجلي

هو عبد العزيز بن سريّا الجلي الطائي ، ولد بالحلّة القريبة من الكوفة سنة ٦٧٧ لأسرة
على شيء من اليسار وسعة الحال ، فكان طبيعياً أن تُلحقه بكتاب يتعلم فيه القراءة وحفظ
القرآن الكريم وبعض الأشعار . وكان الغلمان من لداته يتدربون على ركوب الخيل
فحاكاهم في هذا التدرب . وأحسّ في نفسه ميلاً شديداً إلى الشعر ، فأكبّ على حفظ
نصوصه العباسية والإسلامية والجاهلية ، مما جعله فيما بعد يعنى بتضمن كثير من هذه النصوص
في شعره وبعض موشحاته . ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت فيه مبكرة ، إذ يقول في
المقدمة التي صنعها لديوانه : « إني كنت قبل أن أشبّ عن الطوق ، وأعلم ما دواعي
الشوق ، لهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنى ولفظاً » . وهو يقصد بالعلوم علوم
العربية وعلوم البيان والمعاني والبدیع ، ونراه فيما بعد يؤلف في الجناس كتاباً سماه « الدر
النفيس في أجناس التجنيس » . ومرّبنا في غير هذا الموضع أنه ألف قصيدة بدعية هي
مدحة نبوية تضم أبياتها نحو مائة وخمسين محناً من محسنات البديع . ومن مؤلفاته كتاب
الأوزان المستحدثة مثل الدوييت وغيره ، وأيضاً كتاب العاقل الحالى ، وهو - كما مرّ
بنا - في فنون الأشعار العامة . ويصرح في مقدمة ديوانه بأنه لم يفكر في بدء حياته أن يمدح
أحدًا أو يهجو أحدًا ، بل لقد كان يرى أن يتعد بأشعاره عن هذين الجدولين ، وجعله
ذلك لا ينظم إلا في موضوعين هما مدح الرسول ﷺ وآله ، والفخر بآبائه . ولم يكد

(١) أحمد علوش (طبع بغداد) . وديوانه طبع في القرن
الماضي طبعين : طبعة في دمشق وطبعة في بيروت وكتاتبا
طبع بالأخطاء وفي دار الكتب المصرية من أربع
مخطوطات

(١) انظر في ترجمة صلي الدين الدور الكاشفة لابن
حبر ٤٧٩/٢ وروايات الوفيات لابن شاکر الكشي
٥٧٩/١ والبلد الطالع للشوكاني ٣٥٨/١ والجمرة الزاهرة
٢٣٨/١ وكتاب شعر صلي الدين الحلل للكتوب جواد

يتجاوز العشرين من عمره حتى تعاطلت الحزازات والثارات بين عشيرته وأسرته وبعض الأسر أو المشائر في الحيلة ، وقُتل خاله ، وبكاه في غير قصيدة وأخذ يدعو للثأر له ، فنشبت معارك وسفكت دماء . وهاله أن يرى ذلك تحت بصره ، فلم تدخل سنة سبعمائة حتى خرج عن الحيلة ، ولم يكثف بالبعد عنها في بغداد ، فقد أبعد في ارتحالته حتى نزل عند ملوك ماردين في الموصل من آل أرثق أصحابها وأحسن لقاءه واستقبله ملكها المنصور نجم الدين غازي بن أرثق ، وهو يشيد به وبعطاياه وعطايا ابنه الملك الصالح في مقدمته للديوان ، وفي استقبال المنصور له يقول :

لَا يَتَيْنَا مَلَقَى الْكَرِيمِ لَصِيفِهِ وَضَمْنَتُنَا ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسِيفِهِ

وقد أنزله في دار فخمة توه بها في شعره ، وظل يصحبه في حيله وترحاله ونزهاته ، وفيه نظم مدائح كثيرة في الأعياد وفي بعض انتصاراته . ولم يكثف بذلك فقد رأى أن ينظم فيه ديواناً مستقلاً سماه « دُرر النُحُور » في مدائح الملك المنصور ، وهو ملحق بديوانه المطبوع في دمشق ، ويحتوي على تسع وعشرين قصيدة اشترط فيها على نفسه أن تكون كل قصيدة منها حل حرف من حروف المعجم التسعة والعشرين ، وأن يكون عدد أبيات كل منها تسعة وعشرين ، وأن يبدأ في كل بيت منها ، ويختمه بنفس الحرف ، وفي إحداها يقول :

رَبُّ الثَّوَالِ وَمَحْمُودُ الْخِصَالِ وَمَقْدُودُ الثَّرَالِ وَأَمْنُ الْخَالِفِ الْحَذِرِ
رَاعَى الْأَنَامَ بِعَيْنٍ غَيْرِ رَاقِدَةٍ قَدْ وَكَّلْتُ فِي أُمُورِ الْمَلِكِ بِالسَّهْرِ
رَاضٍ مَعَ السَّخَطِ يَتَلَبَّى عَزَمَ مَقِيمٍ لِلْمَذْنُونِ وَيَغْفُو عَفْوُ مَقْتَدِرِ
رَاحَتَهُ مَدَّ تَشَافَى الْمَلِكُ قَدْ عَاهَدَتْ يَوْمَ الثَّدْيِ وَالرَّدَى بِالْفُتُوحِ وَالضَّرِ

ولا ريب في أن هذا الصنيع ضرب من التكلف الشديد ، ولذلك حين نقرأ قصائد هذا الديوان نشعر كأننا بإزاء لون من الشعر التعليمي الذي يراد به إظهار المهارة اللغوية . ويتروى للملك المنصور سنة ٧١٢ ويخلفه ابنه الملك الصالح وتظل له مترته ، ويظل له راتبه الذي كان يأخذه في عهد أبيه ، ويصحبه في نزهاته وغروجه للصيد ، ويتخذة أنيساً له في مجالس شرابه . وتراه في أواخر العقد الثاني من هذا القرن الثامن وقد مرَّ به نحو عشرين عاماً في ظلال الدولة الأرتقية يفكر في زيارة الشام بحجة وغبته في التجارة ، وكانت تجارته الدائرة شعره ، فترل بحجة ومدح سلطانه الموقد وابنه الأفضل ، وفي أثناء مقامه عندهما يُرسل بمدائحه إلى الملك الصالح . ويفكر في قضاء فريضة الحج ، ويحج إلى بيت الله الحرام في سنة ٧٢٣ ويوزر قبر الرسول ﷺ ، ويفكر في العودة ولا يعود إلى الموصل ولا إلى الشام ولا إلى بغداد ، إذ ينتجه إلى القاهرة ويتزل بساحة سلطانه الناصر محمد بن قلاوون ،

ويستقبله أدياء مصر استقبالاً حافلاً ، ويمجد الناصر بقصيدتين ، ربما كانا أروع مدائحه جميعاً ، أما أولاهما فعارض بها قصيدة المتنبي :

بأبي الشمس الجانحات غواريا اللابسات من الحرير جلّاليا
واختياره لمعارضة المتنبي شاعر العربية الفذ دليل قوى على ثقته بنفسه ، وقد أظهر في معارضته براعة فائقة ، وهو يستهل معارضته بقوله :

أَسْبَلَنُ من فوق الثُّهود ذَوَابِيا فجعلن حَبَاتِ القلوب ذَوَابِيا
والجناس في كلمتي ذواب بديع ، فالأولى بمعنى الضفائر ، والثانية من الدويان ، والجناس كثير في شعره ، وكان يعرف بمقدرته الشعرية كيف يجعله سائفاً . ويمضي في مديح الناصر قائلاً :

الناصرُ الملك الذي خضعتْ له صيدُ الملوك مشارقاً ومغاريا
لم تَحُلْ أرضٌ من ثَناء وإنْ خَلتْ من ذكره مُلْكٌ قَنًا وقُوَانِيا
تَرْجِي مواهبه وَوَرَبُّهُ بَطْشُهُ مثل الزمانِ مسالماً ومغاريا
فَإِذَا سَطَا مَلَأَ القلوبَ مَهَابَةً وإذا سَخَا مَلَأَ العيونَ مواهباً
ولم يفتح القصيدة الثانية بالنسب أو الغزل . وكأنما سحر الطبيعة المصرية وجمال رياضها وبساتينها ملأ عينيه وقلبه ، فرأى أن يعدل عن النسب إلى وصف الجبال الماجع على ضفاف النيل وجداوله من مثل قوله :

خَلَعَ الرِّيحُ على غُصُونِ البَانِ حَلَّأَ فَوَاضِلُهَا على الكَبَابِ
وَالظِّلُّ يَسْرِقُ في الحِمَائِلِ خَطْوَهُ وَالغُصْنُ يَحْطِرُ خَطَرَةَ الشُّوَانِ
وَكأنما الْأَغْصَانُ سَوَقُ رَوَاقِصِ قَدْ قِيدَتْ بِسِلَاسِلِ الرِّيحَانِ
وَالشَّمْسُ تَنْظُرُ من خِلَالِ فُرُوعِهَا نَحْوَ الحِدَاتِ نَفْرَةَ الْغَيْرَانِ
وَالطَّلُحُ في خَلَلِ الكِجَامِ كَأَنَّهُ حَلَّلَ تَفْتُقَ عن نُحُورِ غَوَانِ
وصفى الدين بحيل الطبيعة المصرية نشوى بما يترامى له فيها من غناء ورقص وغواي وجمال فاتن يأخذ بالألباب . ويمضي مخفواً بهذا الجمال من كل جانب ، مادحاً للناصر محمد بن قلاوون بمثل قوله :

ملكٌ إِذَا اكْتَحَلَ الملوكُ بنورو خَرُّوا لِهَيْتِهِ إِلَى الْأَذْقَانِ
شَاهِدُهُ فَشَهِدْتُ لِقَائِهِ الحِجْبِي وَنَظَرْتُ كَيْتَرَى الْعَذْلَى في الْإِيوَانِ
وَإِنِّي وَقَدْ عَادَ السَّاحَ وَأَهْلُهُ مَوْتِي فَكَانَ لَهُ الْمَسِجَ الثَّانِي
لَا عَيْبَ في نَعَاهِ إِلَّا أَنَّهُمَا يَسْلُو الْغَرِيبُ بِهَا عَنِ الْأُوطَانِ

ويُشيد بإنعام الناصر عليه في مقدمة ديوانه ، وأن رئيس وزرائه أبلغه رغبته في أن يجمع شعره في ديوان ويوبه ويرثه . ولبنى صفى الدين رغبة الناصر ، فجمع ديوانه ، وجعله في اثني عشر باباً تشتمل على ثلاثين فصلاً ، والأبواب في الفخر والحماة والمدح والطردبات والإخوانيات والمراني والغزل والخمرات والشكوى والهدايا والألغاز والزهد والمجاء ومعه الملح والأحماض . وكأنما أريد. لـديوان صفى الدين أن يشيع من مصر ، على نحو ما تطبع في عصرنا بمصر دواوين كثيرة لشعراء البلاد العربية . وفي الديوان مدائح مختلفة للرسول عليه السلام ولعل بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وقد درسها الدكتور جواد علوش وانتهى من درسها إلى أنه كان شيعياً إمامياً ، وكل ما جاء به من أدلة على ذلك إشارته في بعض تلك المدائح إلى أن الرسول جعله وصياً له وأنه عهد له بهذه الوصاية حين نزل بِتقدير خُصِّم بين مكة والمدينة ، يقول في مديح على :

إمامٌ له عَقْدُ يَوْمِ الْقَدِيرِ بنصِّ النَّبِيِّ وأقواله
وذكر صفى الدين لهذا العهد لا يثبت أنه شيعي إمامي ، إذ لا نجد في شعره شيئاً من عقيدة الإمامية : ومعروف أن الزيدية مثل الإمامية يؤمنون بهذا العهد ، ونجده في نفس باب مديحه للرسول ولعل يرى نفسه من تفضيل بعض الصحابة على بعض ، يقول :
ولاني لآل المصطفى عَقْدُ مَذْهَبِي وقلبي من حُبِّ الصَّابَةِ مُفْعَمٌ
وما أنا ممن يستَجِزُ بِحَبِّهِمْ مَسَبَّةُ أَقْوَامٍ عَلَيْهِمْ تَقَدُّمُوا
ولكنني أعطى الفريقين حَقَّهُمْ ورأيي بحال الأفضلية أعلمُ
والبيتان الثاني والثالث يخرجه من العقيدة الإمامية التي تُفَضِّلُ على عليٍّ وأبنائه من الأئمة صفات روحية قديمة لا توجد في غيرهم من أفراد الأمة ، والبيت الثالث يخرجه من الزيدية ، هم حقاً يصححون خلافة أبي بكر وعمر ولكن مع الإيمان بأن علياً أفضل منها وأنه تجوز إمامة المفضل مع وجود الأفضل . وإذن فصنى الدين لا إمامي ولا زيدي ، ومن قوله :

قيل لي : تعشق الصحابة طُرّاً أم تَفَرَّدْتَ منهمُ بفريقي
فإلى من تَمِيلُ ؟ قلتُ إلى الأَزْرِ بع لا سِماً إلى الفاروقي
ويكنى أن يقول إنه يميل إلى الفاروقي عمر أكثر من علي ، ليخرج من كل أبواب التشيع ، أما ورود عهد القدير في بعض شعره فلملح قال ذلك عفواً في حديثه ، وخاصة أنه نشأ في الحلة ، وهي بيئة قديمة من بيئات التشيع ، وهو نفسه يقول في مقدمة الديوان إن شعره في الرسول وآله نظمه في باكورة حياته .

وفى الديوان ظواهر مهمة يحسن أن نشير إليها ، فقبه اثنا عشرة موشحة وفيه ثلاثة مسطّات وسبعة مخمّسات وبعض رباعيات كقوله :

لا نخبُ زورَةَ الكرى أجفاني من بعدك من شواهد السُّلوان
ما أرسلت الرقاد إلا شركاً تصطاد به شوارد الغزلان
وتكثر في شعره المحسنات البديعة ، وخاصة الجناس بجميع صورهِ الممكنة ، ومربناً أن له كتاباً مستقلاً فيه ، وفي شعره كل ألوانه : التام والتاقص والمقلوب والملقق ، وله قصيدة بنى كل شطر من شطورها على ثلاثة جناسات مثل :

سَلَّ سَلَّ الرِّيقِ لِمَ لَمْ يَرَوْ حَرَّ ظِلِّ بِلْ بَلَّ الْقَلْبَ لِمَا زَادَ آلَمَا
وواضح أن حرفي « سَلَّ » كُرِّرَا ثلاث مرات في الشطر الأول وكُرِّرَ حرفا « بِلْ » في الشطر الثاني ثلاث مرات . وقد يلجأ إلى جناس آخر لا يقل تعقيداً إذ يجانس بين ختامي الشطرين في قصيدة على هذه الصورة :

شديدُ البأس ذو أمرٍ مطاعٍ مُضاربٌ كلُّ قَرَمٍ أو مطاعنٍ
ومضى في القصيدة يضيف نوناً إلى الكلمة المنونة في آخر الشطر الأول ليحدث هذا الجناس المتكلف . وأكثر من التضمين في قصائده ، بحيث يصبح له في القصيدة شطر وبعض السابقين من مثل امرئ القيس والنتهى وغيرهما شطران . وليس هذا فحسب فقد تبع الحريري في نظم قصائد مهملة غير منقوطة وأخرى معجمة منقوطة أو يستقل فيها بيت أو شطر بالإعجام وبيت أو شطر بالإهمال أو تتوالى الكلمات فيها كلمة معجمة وكلمة مهملة . وقد تتكون الأبيات من حروف مقطعة غير موصولة أو من حروف موصولة بحيث لا يكون فيها حرف مفصول ، وله قصيدة كل كلماتها مصنّرة ، إلى غير ذلك من هذه التقرينات الهندسية التي لا تحوى شعراً ، وإنما تحوى مهارات لغوية . وصفى الدين بذلك وباستخدامه الواسع للتضمينات والجناسات يفتح الأبواب على مصاريحها لشعراء العراق بعده كى نحمد شاعريهم وتجف بنايعها ، مع أن ملكاته الشعرية كانت من الخصب بحيث لو اتجه بها نحو وصف الطبيعة وكان يحبده لأضاف إضافات رائعة إلى الشعر العربي .

٤

شعراء المراتي والهجاء والشكوى

لا نبالغ إذا قلنا إنه قلما وُجد شاعر من الشعراء ، وخاصة شعراء المديح ، إلا وقد نظم مرثى مختلفة فيمن سبق إليه الموت من كبار محدّوحيه أو من أهله أو من أصدقائه ، ونكتفي

بالإشارة إلى بعض المرائي البدعة ، فن ذلك مرثية أبي الحسن محمد بن عمر الأباري
الصوفي الواعظ لصديقه الوزير ابن بقية حين قتل عضد الدولة البويهى وصلبه في بغداد
لسنة ٣٦٧ وقد استهلها بقوله (١) :

عَلُّوْا فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَاتِ لِحَقِّ أَنْتِ إِحْدَى الْمَعْجَزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وَقَدْ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيباً وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ
مَدَدَتْ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ أَحْضَاءَ كَمَدَّهَا إِلَيْهِمْ بِالْهَيَاتِ

ويشبه صلبه بصلب زيد بن علي زين العابدين في أواخر العصر الأموي ، ويتصور
الجذع المصلوب إليه كأنه يعاقب المكرمات ، ويظن كأن الكوارث التي طالما رَدَّها عن
الناس ثارت لنفسها منه ، ويقول إن باطن الأرض حين ضاق عن أن يضم علاه جعلوا
الجوفية كما جعلوا أكفانه غبار الرياح ، ويستتر على أويستطر شاطئ الرحمة والرضوان .
ويكثر في العصر رثاء الشعراء ، وفي مقدمتهم المتنبي ، وفي كتاب الدمية للباخرزي مرات
مختلفة له ، ومن رثاه أبو القاسم المظفر بن علي الطوسي ، وفيه يقول (٢) :

لَا رَمَى اللَّهُ سِرْبَ هَذَا الزَّمَانِ إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ اللَّسَانِ
مَا رَأَى النَّاسُ ثَانِيَ النَّبِيِّ أَيْ ثَانِي يَرَى لِيَكْرِ الزَّمَانِ
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي جَيْءٍ شَرٍّ وَفِي كَيْرِيَاهُ ذِي سُلْطَانِ
هُوَ فِي شَعْرِهِ نَبِيٌّ وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مُعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِ

وكان الشريف الرضي يكثر من رثاء أصدقائه من الكتاب والشعراء ، وقد رثى
أبا إسحق الصائغ بقصيدته الدالية مفتحا لها بقوله :

أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَحْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي
وعاتبه الناس في ذلك لكونه شريفاً من سلالة الرسول ورثى صابئاً ، فقال : إِنَّمَا رَأَيْتُ
فضله . وتوفي الرضي فرثاه مهيار بلامية تأثر في مطلعها بمطلع دالته آنفة الذكر إذ يقول :
حَمْلُوكَ لَوْ عَلِمُوا مِنَ الْحَمُولِ فَارْتَاخَ مَعْتَصِرٌ وَخَفَّ ثَقِيلُ

وهذا باب بطول . ونكتفي بأن نقول إنه لم يمت خليفة ولا وزير ولا حاكم إلا وأكثر
الشعراء من رثائه . وأهم من هذه المرائي لأشخاص رثاه بغداد حين اكتسحها التتار
وخربوها ودمروها تدميراً فقد بكأها الشعراء بكاء حاراً ، بكوا أهلها الذين سُفِكَتْ

(١) انظر النجوم الزاهرة ١٣٠/٤ وابن خلكان (٢) ابن خلكان ١٢٤/١ وانظر الدمية ١٠٥/١ .

دماؤهم وقتلوا تفتيلاً ، وبكرو تاريخها ومدنيها وماكان بها من علوم وعلماء ، وقد أشرنا في الفصل الأول إلى مرتبة الشيخ تقى الدين التنوخى لما ، وقد أكثر من رثائها شمس الدين الكوفي الواعظ المتوفى سنة ٦٧٥ واحفظ ابن شاكرو في كتابه فوات الوفيات بطائفة من مراتبه في ترجمته للخليفة المستنصر ، وفي إحداها يقول (١) :

أين الذين عهدتهم ولعزمهم ذلاً تخرُّ معاهدُ النيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهم يبكي الهدى وشعائر الإيمان
لما رأيتُ الدارَ بعد فراغهم أضحت معطلةً من السكان
مازلتُ أبكيهم وليلهم وحشةً للجالم ستهيم الأركان

وكان لهذه النكبة صداها المدوي في جميع البلدان العربية وفي إيران ، حتى لنرى الشيخ سعدى الشيرازي وغيره من شعرائها يندوبونها ندباً كله لوعة وحسرة على ما أصابها من دمار ونكال .

ولعل المهجاء كان أكثر ذيوها وانتشاراً من الرثاء ، ومرّبنا أن انتهى هجاء كثير الأعاجم كما هجاء كافوراً الإخشيدي ، وتلقانا في البيضة والدمية والحريدة أهاج كثيرة ، بل بلغنا شعراء وقفوا حياتهم أو كادوا على المهجاء مثل محمد بن محمد بن جعفر البصري المعروف باسم ابن (٢) لتلك التوفى سنة ٣٦٠ وكان قد قصّره جهده عن بلوغ الغاية أو المتزلة التي يأملها لنفسه ، فسلّ لسانه على معاصره من الشعراء حتى انتهى فإنه هجاء ، وهو الذي زعم أنه ابن سقاء بالكوفة ، كما لاحظ ياقوت في ترجمته له . وكان يتهاجى مع شاعر معاصر له يسمى أبا رياش ، وفيه يقول :

على القبح القطيع أبو رياش يعاشرنا بأخلاق ملاح
يُبيح أكنحتنا أبداً قفاه فنصفقه على جهة المراح

وهما من أنظف ما قال فيه ، وكأنه كان يريد أن يتشفى من الزمن بهجوه وهجو غيره من الشعراء لكساد شعره وهوان شأنه على الناس . ومن كبار المهجائين في العصر ابن الهبّارية المتوفى سنة ٥٠٤ وسنترجم له في غير هذا الموضع ، وقد ذكر الهماد في الحريدة أن له قصيدة (٣) في هجو أرباب الدولة في عهد ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ - ٤٨٥) وساق منها قطعتين طويلتين ، وفيهم يقول :

وفوات الوفيات ٥٤/١ وشعر ابن لتلك البصري بتحقيق

(١) فوات الوفيات ١/ ٥٠٠ .

(٢) انظر في ابن لتلك البيضة ٣٤٨/٢ وتاريخ بغداد زهير غازي زاهد (طبع البصرة)

٢٩٩/٣ ومعجم الأدباء ٧٨/٧ والرائق بالوفيات ١٥٦/١ (٣) الحريّة (قسم العراق) ٨١/٢ .

لى مائتم من سوء فيعلمهم ولم يحسن مدائمي عرس
ولقد غرست المدح عندهم طمعا فحفظل ذلك الفرس
ويمضي في تليهم واحداً واحداً أقيج ثلب وأنشئه . وعلى شاكلة هذه القصيدة
سينة^(١) للشريف أبي نزار عبد الله بن محمد الكوفي ذم فيها سادات بني عمه من الكوفة
والهجرة . ومربنا تعرض سيظ ابن التعاويذي للوزير ابن البلدي ، وفيه يقول ابن لثكك :
يلو لراجيه على وجهه غلظة لبث بالشري مخدر^(٢)
لو أنها بالأرض ما انحصبت أو بالسحاب الجون لم يظير
وفي ديوان صفي الدين الحلبي باب للهجاء كما أسلفنا ، وإنما تمثل فقط ببعض
النصوص .

وطبيعي أن تكثر في العصر الشكوى من الزمان ، ونكاد نلتقي بها بعد المنتهى على
لسان كل شاعر ، ولا يختلف اثنان في أن أروع قصيدة في الشكوى من الدهر وتصاريفه
قبلت في العصر قصيدة أبي محمد^(٣) على بن زريق الكاتب الكوفي وهو من شعراء
البيضة ، ويقال إنه ألت به أيام عميرة ، فرأى الارتحال إلى الغرب ، وارغى تاركاً وراهه
في بغداد زوجة كان صبا بها مغرماً ، غير أن الأيام لم تسفه ، وبيالغ بعض الرواة
فيجمعون أنه ظل راحلاً حتى وصل إلى الأندلس وامتدح أحد أمراتها ، فلم يعطه ماكان
يتمناه ، فبكى أمه الضائع في هذه القصيدة ، وفيها يقول مخاطباً زوجته وبكياً نفسه :
لا تغذبه فإن العذل يؤلمه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
فاستعمل الرفق في تأنيبه بدلاً من عنته فهو مضى القلب موجعه
تأني المطالب إلا أن تكلفه للرزق سقياً ولكن ليس يجمعه
والحرص في المرء - والأرزاق قد قسيت - بقى ألا إن بقى المرء يصرعه
أعطيت ملكاً فلم أحمين سياسته وكل من لا يسوس الملك يحلمه
ويصور في القصيدة لوحة الفراق وسوء الحظ وأنه لا يزال في حل وترحال وراه
الرزق ، وهو يلمع له كسراب يحبه الظمان ماء ، حتى إذا انتهى إليه لم يجده شيئاً .
والقصيدة كلها شكوى وأنين ولوعة عمضة . وستقف قليلاً عند شاعرين من شعراء المهجاء ،
أحدهما من شعراء البيضة والثاني من شعراء الخريدة ، وهما السرى الرفاء الموصلي وابن
القطان البغدادي .

(١) انظر في ابن زريق البيضة ٣٧٦/٢ وابن خلكان

(١) الخريدة ١/١/٣٦٢ .

(٢) الشري : النيل . مختار : في غدره أو غيله . ٣٣٨/٥ وبسبب هذا . وراجع بروكلمان ٦٦/٢ .

السرى (١) الرقاء

هو أبو الحسن السرى بن أحمد الكندى الموصل ، ولد لأسرة متواضعة ، يدل على ذلك أننا نجد أباه يسلمه صبياً للرقاتين ، فكان يرفو ويطرز ، ويبدو أنه تعلم القراءة والكتابة في صباه وحفظ القرآن أو بعضاً منه واستظهر بعض الشعر ، إذ يقول مترجموه عنه إنه بينما كان يعمل رقاء في باكورة شبابه كان ينظم الشعر ويمجده . ويبدو أنه أخذ يكب على دواوين الشعراء ، وخاصة شعراء العصر العباسى المشهورين من أمثال أبى تمام والبحرئى وابن المعتز وابن الرومى والمنشى ، يدل على ذلك بوضوح الفصل الذى عقده الثعالى لسرقاته . وكأنه أحس أنه إنما خلق لكى يكون شاعراً لا لكى يكون رقاء ، ولم تكن حرفته تدرك عليه إلا كفافاً من العيش يسد به رمقه ، وإلى ذلك يشير قائلاً :

قد كانت الإبرة فيما مضى صائنةً وجهي وأشعاري
فأصبح الرزقُ بها ضيقاً كأنه من ثقبها جارِ

واجتمع عزمه على أن يهجر حرفة الرفو والتطريز إلى حرفة الأدب والشعر ، واشتغل بالوراقة فكان ينسخ ديوان شر كُشاجم ، إذ كان معاصروه يقبلون عليه إقبالاً شديداً ، ويعيش بما يأخذ من أجرة نسّخه .

وكان معه في الموصل فتيان أخوان ينظمان الشعر ويمجدانه ، هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان فحدثت بينه وبينهما منافسة ، وكانا يحسمان الشعر ، فرأى أن يكيد لهما بإضافة أجود ما ينظمانه إلى ديوان كُشاجم ، ليزيد حجمه ويتفق سوقه من جهة ، وليشنع عليها بأنها يسرقان شعره كما يسرقان شعر غيره من جهة ثانية ، مما أشعل نار الهجاء بينه وبينهما ، وظلت لا تخمد أبداً . وسمع بما ينثره سيف الدولة الحمداني في حلب من عطايا وأموال على الشعراء ، فشدّ رحاله إليه ، وقد أكرم وفادته عليه ، فأقام بمحضرتة ، فاشهر وطلع سعدته بعد الأفول ، وبعد صيته بعد التحول ، وله فيه مدائح بديعة كقوله في تصوير فرار الروم بين يديه ومقتلته فيهم مقتلة عظيمة :

تركهم بين مصبوغ ترائيه من الدماء وغضوب ذوائيه
فحادث وشهاب الرمح لاجئه وهارب وذباب السيف طالئه

ذباب السيف : طرفه الحاد . ولما توفى سيف الدولة انتقل السرى إلى بغداد ومدح

(١) انظر في ترجمة السرى الرقاء البيتة ١١٧/٢ الأدهاء ١٨٢/١١ وابن خلكان ٣٥٩/٢ والنجوم الزاهرة وتاريخ بغداد ١٩٨/٩ والأنساب للسمازي ٢٥٥ ومجموع ٦٧/٤ وديوانه مطبوع بالقاهرة .

الوزراء وغيرهم من الرؤساء وحسنت حاله ، إذ نفق شعره وراج وسار في الآفاق ،
وتهاداه الأدياء في خراسان وسائر البلدان . ويقول ابن خلكان إنه جمع شعره قبل وفاته في
نحو ثلاثمائة ورقة ثم زاد فيه ، ويذكر من تصانيفه كتاب الدِّيَرَة وكتاب الحب والمحروب
والمشوم والمشروب . وقد أشاد الثعالبي من شعره في البيتجة نحو ستين صحيفة وزعها على
سرقاته وما تكرر من معانيه وأماجه ومدحيه ولهوه ومجونه ورِيعياته وأوصافه وفزلياته
وما يفتنى به من أشعاره . ويسوق له الثعالبي طائفة من أماجه في الخالدين مدحياً عليها
أنها يسرقان أشعاره ، من ذلك قوله :

أَنْ كُلَّ يَوْمٍ لِلغَيْبِ غَارَةٌ تَرُوعُ أَلْفَاظِي الْمُهْجَلَةِ النَّرَا
فَهَلَّا أَبَا عَمَّانٍ مَهْلًا طَائِمًا يَغَارُ عَلَى الْأَشْعَارِ مَنْ حَشَقَ الشَّرَا
لَأَطْفَانًا تِلْكَ النُّجُومَ بِأَسْرِهَا وَدُنُسْنَا تِلْكَ الْمَطَارِفَ وَالْأَزْرَا
فَرِيحُكَهَا مَلَأَ بِشَطْرِ قِنَعِنَا وَأَبْقَيْنَا لِي مِنْ عَاسَةِ شَطْرَا

ويكثر من اتهام الخالدين بتلك السرقة ، ويردد ذلك في مدائحه وأنها يبيعان أشعاره
في العراق ، وليتها يبيعانها لمن يستحقها ، فإنها يبيعانها بشن بنس لكل من لقيه ، غير
مقدرين لقيمتها ، ولا واعين لقدرها ، ويزعمن أن غارتها على شعره غارة عامة للمديح
وغير المديح ، يقول :

ذُلِّبَانِ لَوْ ظَفَرَا بِالشَّرِّ فِي حَرَمٍ لَمُرَّاهُ بِأَنْبَابٍ وَأُظْفَارٍ
بَاعَا عِرَالِسَ شَعْرَى بِالْعِرَاقِ فَلَا تَبْعُدُ سِبَايَاهُ مِنْ عُونٍ وَأُبْكَارٍ
وَمَا رَأَى النَّاسَ سَيِّئًا مِثْلَ سَيِّئِهَا يَبْعَثُ نَفْسَتُهُ ظِلْمًا بِدِينَارٍ
وَأَقَّةً مَا مَدَحَا حَبًّا وَلَا رَبِّيًّا مَيَّنَا وَلَا افْتَخَرَا إِلَّا بِأَشْعَارِي

ولا يزال يصف هذا السئي الشعري من عُونٍ أو ثِيَابٍ وأُبْكَارٍ ، وكيف أن من هذا
السئي جرّحى لم تُضْرَبْ بِحَدِّ سَيْفٍ ، وأسرى لم تُحْمَلْ عَلَى ظَهْرٍ خَيْلٍ . ويكيّ تبعه في
نظم أشعاره وبشبهها بالرياض ويصور إشتاقها على أنفسها من هذين اللصين وسبوفها
التي تفتك بها فتكاً ذريعاً . ويعقد الثعالبي فصلاً لأماجه لابن العصب الملحي الشاعر
وكان يتعصب للخالدين عليه ، وهو في هجائه له يقلد إقذاعاً شديداً زاعماً مشاهدة
أهل الرِّيب في مترله بين اللهو والخمر والقصف ، وكأنه لا يبعش في منزل إنما يبعش في
حانة ، يقول في وصف دعوة دعاه فيها سائراً :

وَطَافَ الشَّيْخُ بِالذَّنِّ إِلَى أَنْ زَرَفَ الدُّنَا
فَأَذِنَ كَدَرَ الْعَيْشِ بِهَا لَا كَانَ مَا أَذِنَ

مُدَامَ تَجْلِبُ الِهْمُ وَلَا تَطْرُدُهُ عَنَّا
فَلَا النَّفْسُ بِهَا سَرَتْ وَلَا الْقَلْبُ لَهَا حَسَا

وهي سخرية قاتلة من الشيخ ، ولم نسق ما أضافه إلى الخمر من التبذل والتهنك
وطراح الخشعة في صراحة ، لأن الهجاء بذلك يتحول سباً يؤذى النفوس . وفي رأينا
أن هجاءه يتزل درجات عن بقية فنونه الشعرية ، وخاصة في فني المديح والغزل ،
وكان يتغنى بشعره في بغداد لعصره وبعد عصره بمثل قوله متغزلاً :

بِنَفْسِي مَنَ أَجُودُ لَهُ بِنَفْسِي وَيَسْخُلُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ
وَحَتَّى كَامِنٌ فِي مُقَلَّتِي كُمُونُ الْمَوْتِ فِي حَدِّ الْحَسَامِ

والصورة في البيت الثاني بديعة . ولا يُعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت في
بغداد سنة ٣٦٠ وقبل سنة ٣٦٢ وقبل بل سنة ٣٦٦ إذ اتخذها دار مقام له في أغريات
حياته .

ابن القطان^(١) البغدادي

هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان ، ولد ببغداد سنة ٤٧٨ وأكب على
دراسة الحديث النبوي في نشأته ، ثم اتجه إلى دراسة الطب فأقبحها ، حتى عُذَّ من أطباء
بغداد ، وكان كثير النوادر ، وغلب عليه الشعر ، وكان خبيث اللسان هجاء ، كما كان
غاية في الجون والحلاعة وكثرة المزاح والدعابة ، وقد هجا جماعة من الأعيان وكبار رجال
الدولة ، وكاد لا يسلم منه أحد لا خليفة ولا غيره ، وعوقب مرة على هجائه إذ هجا قاضي
القضاة الزينبي بقصيدة كافية أولها :

يَا أَخِي الشَّرْطُ أَمَلُكَ . لَسْتُ لِلْغُلْبِ أَتْرُكُ

وهي طويلة عدد أبياتها مائة وثمانية عشر بيتاً ، وتناقلتها الرواة واشتهرت ولاكتها
الألسنة ، فبلغ ذلك القاضي الزينبي ، فأحضر ابن القطان وصفه وحبه مدة ، ثم ردَّ
إليه حرته . وكان يعرف كيف يجز في هجائه ونَحَرَ الإبر ، من مثل قوله في الوزير أنوشروان
دائماً له بالتواضع :

هَذَا تَوَاضَعُكَ الْمَشْهُورُ عَنْ ضَمَعِي
قَعَدْتُ عَنْ أَمَلِ الرَّاجِي وَقَلَّتْ لَهُ

فصرت من أجله بالكبير تتهم
فذا وثوب على الطلاب لا لهم

١٨٩/٦ ومرة الجبان ٣/٣١٥ والمقربة (نجم العراق)
٣٧٠/٢ وروايت الروايات ٦١٧/٢ .

(١) انظر في ترجمة ابن القطان المنتظم ٢٠٧/١٠
وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة
ببيروت) ص ٣٨٠ وابن خلكان ٥٣/٦ ولسان اللؤلؤ

ويكثر مثل هذا الوخر وما يحصل من سخرية في هجوه ، مما يدل على قدرة حقيقية في الهجاء ، إذ لم يكن يعتمد إلى السب والشتم ، إنما يعتمد إلى سموم تفنك بمن تسلط عليه كقوله في ابن المرحم قاضي القضاة ببغداد :

يا ابن المرحم صرتَ فينا قاضياً خَرَفَ الزمانُ تَراه أَمْ جُنُّ الفَلَكِ
إِنْ كُنْتَ تَحْكُمُ بالنجوم فرما أَمَّا بِشَرِّعِ محمدٍ مِنْ أَيْنَ لَكَ
وهو يُعَدُّ في الهجاء وهزه ما بعده هزه بقاضي القضاة في عصره . وله قصيدة طويلة في هجاء كُتَّاب الديوان لزمته ، وكان بينهم عباسيون ، فتمرض لأحدهم بضمزه في نسب إلى العباس بن عبد المطلب جدّه ، قائلاً :

نسبُ إلى العباس ليس نظيرُهُ في الضَّعْفِ غَيْرَ الباقِلَاءِ الأخضرِ
وضعف عود الباقلاء الأخضر معروف . وله قصيدة طويلة يسخر فيها من واعظ ووعظه وأنه يعظ الناس بما لا ينهى عنه نفسه ، وله يقول :

وَأَنْتَ تَنْهَى النَّاسَ عَنْ غِيَةٍ فِي مِثْلِهَا تَأْتِرُ بِالرُّدِّ
إِذَا بَتَخَوِيفٍ مِنَ النَّارِ أَوْ بِنُوعِ تَشْوِيقٍ إِلَى الْخُلْدِ
وبعد ذا ففعلُ في هكذا زِنهَارُ مِنْ سَالُوسِكَ السَّرْدِ
وهذه المعجمة مِنْ عِنْدِكَ أَفْ تَسْبَحُهَا مَا هِيَ مِنْ عِنْدِي
ارْجِعْ إِلَى اللَّهِ وَدَعْنِي وَلَا تَرْمِ بِسَهْمِ الطَّبِيرِ مِنْ بَعْدِ
فهو ينهى الناس عن الغيبة ويفتبه ، مع أنه كثيراً ما يلوح للناس بأنها قد تدخلهم النار وأن تركهم لها قد يدخلهم الفردوس ، والشطر الثاني في البيت الثالث عبارة فارسية يشير بها إلى أصل هذا الراعظ الأعجمي ، وكلمة زنهارة كلمة استغاثة بالفارسية . والسالوس السرد : الكلام الموصول البارد . وهو يستغث بذلك من وعظه ، ويقول له ساخراً إنما اتبست هذه الصيغة الأعجمية من عندك فأت أعجمي اللسان لا تكاد تفصح في البيان ، ويناديه هازئاً به ارجع إلى ربك واستغفر لذنبك . وتكثر في القصيدة الألفاظ والمبارات الفارسية ، مما يدل على معرفته التامة لتلك اللغة . وعلى هذا النحو كان ابن القطان لا يزال يسخر سخریات لاذعة بمن حوله ، كقوله في وزير كان يستقل وزارته وظلّه :

يا معشر الناسِ الضَّعِيفِ الضَّعِيفِ قد جلس الِهُرْدَبُ فوق السَّرِيرِ
وصارَ فينا أَمْرًا نَاهِيًا وكنت أرجو أنه لا يَصِيرُ
فكلما قَلْتُ قَلْدِي يَتَجَلَّى وظلمةُ عما قليل تَنْتِيرُ

تحت عيني فإذا الدولة الـ سدولة والشيخ الوزير الوزير
والهردب : العجوز الغليظ ، يريد أنه لا يستطيع حراكاً فكيف يحرك دواليب دولة ، وإنه
ليطلب إلى الناس أن تنفر للقاء هذا الأمر الخطير ، وبراهها غمة على صدر الأمة
لا تنجل ، ويفتح عينه في كل يوم أو في كل صباح فيراها جامحة لا تريم . ولعله كان
يريد القاضي الزينبي الذي زج به في السجن كما مر بنا ، فإنه تولى الوزارة ، ويقال إنه
لما وليها دخل عليه ابن القطان والمجلس خاص بأعيان الرؤساء وقد اجتمعوا لتهنئته ،
فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح والسرور ، ورقص . فلما رآه الزينبي يرقص أسر
إلى بعض خواصه : قبح الله هذا الشيخ ، فإنه يشير برقصه إلى ما تقول العامة في
أمثاله : « ارقص للقرود في زمانه » . وبحق ما قاله الزينبي إذ نراه يقول في هجائه لبعض
الرؤساء :

كلُّ من صفَّقَ الزمانَ نَ له قَتُّ أَرَقَصُ
وكان بينه وبين الحبص بيّص الشاعر بغض ومهاترة ، وكانا يصطلمان وقتاً ثم
يعودان إلى ما كانا فيه من التناذب والتهاجي تماجنا وتطرظاً ودعابة ، فمن ذلك أن الحبص
بيّص خرج ليلة من دار الوزير الزينبي ، فنبح عليه جروؤ كلبية ، وكان متقلداً سيفاً ،
فوكزه بعقب السيف ، فأت . وعلم بذلك ابن القطان ، فنظم أبياتاً ، وأضاف إليها
بيتين من أبيات ديوان الحماسة لأحرار قتل أخوه ابنه له ، فقدم إليه ليأثر منه وكان يده
سيف ، فألقاه من يده وأنشد البيتين . وكتب ابن القطان الأبيات في ورقة وعلقها في
عتق كلبية لها جِراء ، ورُتب معها مَنْ طردها هي وجِراءها أو أولادها إلى باب دار
الوزير كالمستغنية ، فألحقت الورقة من عتقها ، وعُرضت على الوزير ، فإذا فيها :
يا أهل بغداد إن الحبص بيّص أنى بفعله أكسبه الخزى في البلد
هو الجبان الذى أبدى شجاعته على جرى ضعيف البطش والجلد
فأنشدت أنه من بعد ما احتسبت : دَم الأيلقي عند الواحد الصمد
« أقول للنفس تأساء وتغزاة إحدى بدى أصابنى ولم تُرد
كلامها خَلَف من فقد صاحبه هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى »

وجلب ابن القطان البيتين الآخرين من ديوان الحماسة من أروع أمثلة التضمين ،
فقد بلغ بها كل ما أراد من سخرية بالحبص بيص ، إذ جعل الكلبة تقول بلسان حالها
إن أخى الحبص بيّص الذى موقعه منى موقع إحدى بدى جتى على سهواً وخطأً
لا حمداً ولا قصداً سوء ، وإن كلا من الأخ القاتل سهواً والابن المفقود يعرض عن

فقدان صاحبه ، وبذلك جعله من فصيلة الكلاب ، متسللاً إليه من تضمين البيتين في مقطوعته ، فضلاً عما صورّه به من الجبن والمهمل إزاء جرّو مستضعف لا حول له ولا قوة . وكانت في ابن القطان دعابة وميل شديد إلى النادرة ، وروى ابن خلكان طائفة من نوادره ، من ذلك أنه دخل على الوزير ابن هبيرة وعنده نقيب للأشراف يشتر ببيخله وكان دخوله عليه في يوم حر شديد في شهر رمضان ، فقال له الوزير : أين كنت ؟ فقال على البديهة : في مطبخ سيدى النقيب أتبرد ، يريد أنه ليس فيه نار ولا طيبخ في رمضان ، فضحك الحاضرون وخجل النقيب . ومازال يُطَرّف البغداديين بنوادره حتى توفّي عن سن عالية ببغداد في عيد الفطر سنة ٥٥٨ هـ .

٥

شعراء الشيعة

مر بنا في الفصل الأول كيف أن مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية أخذ يعم في العراق منذ فواتح هذا العصر إذ كان البويهيون شيعة إمامية ، فأخذ المذهب يتشرف عصرهم ، وأخذ أتباعه يتكاثرون ، وتكاثر معهم الشعراء ، ومضوا ينظمون في موضوعين أساسيين هما : مناقب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، متحدثين عن سيرته وانتصاراته على مشركي قريش وغيرهم وما فتح الله على يديه من حصون خيبر ، مضيفين إلى ذلك كل ما يروى له من فضائل منذ اعتنق الدين الخفيف وجاهد في سبيله إلى وفاته . أما الموضوع الثاني فهو بكاء الحسين وندبه ، واتسع ذلك حتى أصبح يوم مصرعه مأتماً عاماً في كربلاء وبغداد ، وهياً لذلك أن حاكم بغداد البويهي معز الدولة أقرم الناس - كما نُسفتنا - في سنة ٣٥٢ بخلق الأسواق في يوم عاشوراء ، يوم مقتل الحسين ، وأن ينصبوا القباب ويرفعوا فوقها المسوح السوداء ، كما ألزمهم بأن تخرج النساء منشورات الشعور يندبن ويلطمئن على الحسين . وأقيم مأتم مماثل في كربلاء . ومنذ هذا التاريخ يتكرر هذا المأتم كل عام . وكان الإمامية لا يكتفون بهذا اليوم فكانوا يندبون الحسين في أيام أخرى طوال العام ، وإن لم يأخذ نديهم فيها شكل هذا المأتم الكبير . على كل حال أعدت هذه المأتم لأن يصبح بكاء الحسين وندبه موضوعاً أساسياً في شعر الشيعة الإمامية ، وكثيراً ما تبارى الشعراء فيه يوم الاحتفال الكبير بذكرى مصرعه ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . ولن نستطيع أن نتحدث بالتفصيل عن شعراء الشيعة الإمامية في العصر ،

إنما حسبنا أن نشر إلى بعض مشاهيرهم ، ويمكن القارئ أن يعود إلى كتاب أدب الطف (كربلاء) لجواد شبر المطبوع في بيروت ، ويقرأ فيه الجزء الثاني الخاص بشراء القرنين الرابع والخامس فسيرى كثيرين من شراء الشيعة الإمامية ، وفي مقدمتهم الزاهي^(١) الشاعر البغدادي التوفي سنة ٣٦١ وقد أنشد له المؤلف مجموعة من القصائد في بيان مناقب الإمام علي بن أبي طالب ، واستهل إحدى قصائده بقوله :

تَوَلَّيْتُ خَيْرَ الْخَلْقِ بِذَلِكَ وَأَخْرَأُ وَأَلْقَيْتُ رَحْلِي فِي حِمَامٍ مُجَاوِرَا
أَنْعَمَ حَقٌّ خَاتَمَ الرُّسُلِ جَدَّهُمْ وَوَالِدَهُمْ مِنْ كَانَ لِلْعَقْرِ نَاصِرَا

ومضى يذكر الأنعة الاثني عشر واحداً واحداً مشيداً بهم إلى أن انتهى إلى مهديهم ، ويبيحهم ، وبمضى نفسه بظهور المهدي قائم الزمان ، حتى ينشر بين الناس العدل الذي لا تصلح حياتهم بدونه . ويبدو أنه كانت في السري الرفاء نزعة شيعية ، وقد أنشد له صاحب أدب الطف قصيدة موجودة في ديوانه يمدح فيها آل البيت ويكي الحسين قالاً :

كَأَنَّ أَحْشَاءَنَا مِنْ ذِكْرِهِ أَبَدًا نَطْلُو عَلَى الْجَمْرِ أَوْ نُخْشَى السَّكَاكِينَا
ومثله أبو بكر محمد الخالدي الموصل ، ومر بنا أنه كانت بينه وبين السري منازعة في الشعر ومهاجاة وأكبر الظن أنه كان شيعياً إمامياً مثله ، فقد ترجم له صاحب أدب الطف ، ونرى التعلالي في البيتمة ينشد له قطعة في نذب الحسين يقول فيها^(٢) :

عَفَرْتُمْ بِالْثَرَى جَبِينِي فَتَى جَبْرِيلُ بَعْدَ النَّبِيِّ مَاسِعُهُ
سَيَانُ عِنْدَ الْأَنَامِ كُلِّهِمْ خَاذِلُهُ مِنْكُمْ وَذَاجِعُهُ

وهو يُسَوِّي في الإثم بين من خذلوه من أهل الكوفة ومن ذبحوه ، فجنابيتهم واحدة في رأيه . وكان طبعياً أن تتكون مع هذا النذب والنواح في بغداد والكوفة وكربلاء طائفة من الناحية ، ينوحون على الحسين في يوم عاشوراء وغيره من الأيام^(٣) ، واشتهر من بينهم ببغداد حوالى منتصف القرن الرابع الهجري أحمد الزوق ، وكان يمدح أكبر

مرجلو١ ٢١٩/١ أن رجلاً يسمى ابن أصدق وامرأة تسمى غلب كانتا من الناحية على الحسين ، وما كانتا يترجحن به قصيدة لشاعر كوفي أوفى :

أَيُّهَا الْهَيْتَانِ لَيْسَا وَاسْتَبْلَا لَا تَقْبِضَا

(١) انظر في ترجمة الزاهي البيتمة ٢٣٣/١ وابن خلكان ٣٧١/٣ والنجوم الزاهرة ٦٣/٤ وتاريخ بغداد ٣٥٠/١١ والمتلزم ٥٩/٧ وأدب الطف ٥٠/٢ .

(٢) البيتمة ١٨٧/٢

(٣) في تنوار المحاضرة للتوحي (طبعة مندبة) بتحقيق

مدد لنواجه في شعر الناشئ^(١) الأصغر على بن عبد الله بن وصيف المتوفى سنة ٣٦٦
ويقول ابن خلكان : هو من الشعراء المحسنين ، وكان متكلماً بارعاً وله في أهل البيت
قصائد كثيرة ، ويقول باقوت : « كان يمتد الإمامية وينظر عليها بأجود عبارة واستفد
عمره في مديح أهل البيت حتى عُرف بهم » وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة . وكثير من هذه
الأشعار كان يتاح بها في مساجد بغداد ، ينوح بها أحمد المروقي وغيره ، ويروى أنه نوح
يوماً في أحد هذه المساجد بقصيدة ملتاعة للناشي الأصغر ، وفيها يقول :

بنی أحمدی قلبی لكم یقطعُ بمثل مصابی فیکم لبس یسمعُ
عجبُ لكم تفتنون قتلاً بسیفکم ویسطو علیکم منْ لكم كان یخضعُ
كانَ رسولُ اللهِ أوصی بقتلکم فأجسامکم فی کل أرضٍ توزعُ
فما بُقعةٌ فی الأرضِ شرقاً ومغرباً ولیس لكم فیها قتلٌ ومصرعُ

وكان الشاعر حاضراً ، فظل يلطم وجهه ، وتبعه الناح والحاخرون يلطمون وجوههم
وينوحون بأبيات القصيدة من الضحى حتى صلاة الظهر . وللناشي قصيدة بالية يدعو فيها
للأنخذ بشأر الحسين كان الناس ينوحون بها في أيامه ببغداد وفي مشهد الحسين بكريلاء ،
وفيها يقول :

مَنی تأخذون التارَ من نألبوا علیکم وشبوا الحربَ وهی ضروبُ
شهید توزعن الصوارمُ جسمه فخرٌ بأرض الطُفِّ وهو قریبُ
قتیل على نهر القراتِ على ظمًا تطوف به الأعداءُ وهو غریبُ
وأرض الطُفِّ : كربلاء . وتریب : مغرّ بالتراب . والناشي الأصغر يشير إلى سفك دم

الحسين بكريلاء ، ويمضي فيشيد بالأئمة الأولين : علي والحسن والحسين الذين حووا - في
رأيه - علم كل ما قد كان أو هو كائن أو يكون ويقول :

حوّوا علمَ ما قد كان أو هو كائنٌ وكلُّ رشادٍ یتنبیه طلبُ
وقد حفظتُ غیبَ العلومِ صدورهم فما الغیبُ عن تلك الصدور یغیبُ

ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من الشعراء بكوا الحسين ، ولم يكونوا شيعة مثل سبط ابن
التماويني ، وهو أكبر مداح للخلفاء العباسيين في القرن السادس ، حتى إنه ليخلع عليهم
صفات أئمة الشيعة كما مربنا في غير هذا الموضع ، ومع ذلك رأينا له مرثية بالية للحسين ،
إن صح أنها له كما مرّ بنا . وكأنما أصبح رثاؤه موضوعاً عاماً يشترك فيه الشيعة وغير الشيعة ،

(١) انظر في الناشئ الأصغر البيعة ٢٣٢/١ ومجموع

الأدياء ٢٨٠/١٣ وابن خلكان ٣٦٩/٣ ولسان الميزان

لعظم الهمة فيه . ولعل فيها قلعتنا ما يصور من بعض الوجوه نشاط الشعر الشيعي في فواتح العصر ، وظل ذلك سارياً طوال حقبة ، وهو جانب يطول عرضه ، ولذلك نكتفي بالحديث عن ثلاثة ، لعل أولهم وثانيهم يعدان أنه شعراء العراق بعد المنتهى ، وهم الشريف الرضي ومهيار وابن أبي الحديد .

الشريف الرضي^(١)

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر أبي أحمد الحسين من سلالة جعفر الصادق المعروف بالموسوي ، كان أبوه أبو أحمد عظيم المترلة عند خلفاء بني العباس والبويعيين ، وتولى نقابة الطالبين مرات ، وتولى المظالم والحج بالناس دفعات ، وقد وُلد له أولاً الشريف المرتضى سنة ٣٥٥ ثم وُلد له الشريف الرضي سنة ٣٥٩ ولما شبَّا كانا بنويان عن أبيهما في النقابة ، منذ سنة ٣٨٠ وخُلع عليهما من دار الخلافة واختص أبوهما بالنظر في المظالم وأمور المساجد والحج بالناس ، وكتب أبو إسحق الصائغ عهداً بذلك . وكانت تربط الشريف الرضي بالخليفة الطائع مودة وثيقة . ويُقبض على الخليفة في سنة ٣٨١ ويتولى الخلافة القادر ، ويعني والد الشريف الرضي من وظائفه في سنة ٣٨٤ وتُرد إلى الشريف الرضي تلك الوظائف جميعاً سنة ٣٨٨ وأبوه حي .

وقد تلمذ الشريف لعلماء عصره في بغداد من رجال الشيعة وغيرهم ، مثل أبي علي الفارسي وابن جني والمرزباني في اللغة والنحو ، والقاضي عبد الجبار في الاعتزال ، والشيخ المفيد في الفقه وأصول العقيدة الإمامية . وأكبر الظن أنه لم يترك مفسراً لعصره إلا اختلف إلى دروسه ، بل لقد أقبل على كتب التفسير السابقة بعُـب منها ، يدل على ذلك كتابه في التفسير الذي ذكرناه في غير هذا الموضع والذي سماه حقائق التأويل في متشابه التزيل ، وبالمثل أقبل على كتب الحديث النبوي يتَهَلُّ منها ، على نحو ما يتضح في كتابه المجازات النبوية . ومعروف أنه هو الذي جمع خطب الإمام علي في الكتاب المعروف باسم نهج البلاغة ، وعرضنا في كتابنا « العصر الإسلامي » لما داخله من وضع .

ص ٥٧٣ ولتجريد الزاهرة ٢٤٠/٤ وجزان الاحتفال ٥٢٣/٢ وراجع له جفيرة الشريف الرضي لركي مبارك والشريف الرضي لإحسان عيسى . والديوان مطبوع طبعت مكتبة في بجاي والقاهرة ومصر .

(١) انظر في ترجمة الشريف الرضي البيهية ١٣١/٣ وابن خلكان ٤١٤/٤ والذبية ٢٧٣/١ وتاريخ بغداد ٢٤٦/٢ ولبقاء الرواة ١١٤/٣ وللتكملة ٢٧٩/٧ والوفاء بالوفاء ٣٧٤/٢ ولسان الميزان ١٤١/٥ والشمس ١٨٢/٣ ومرة المجلد ١٨/٣ وروضة المجلد

وكان ذكياً ذكاه نادراً مع حضور البديهة ورهافة الحس ، ويروى أنه أحضر إلى يوسف بن أبي سعيد السمراني النحوي وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنوات ، فلقته النحو ، وقعد معه يوماً في حلقة - كما يقول مترجموه - فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم ، فقال له : إذا قلنا « ضرب زيداً عمراً » فما علامة النصب في عمرو ؟ فقال : بغض على (يشير إلى عمرو بن العاص) . فعجب أستاذه والحاضرون من حدة خاطره . وهو زعيم شعراء العراق في عصره غير مدفع ، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة بعد العاشرة من عمره بقليل كما يقول الثعالبي ، ويمضي مشيداً به وبشعره قائلاً : « هو اليوم أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق ، يتحلّى مع محتندة الشريف ، ومفخره اللئيف ، بأدب ظاهر ، وفضل باهر ، وحظ من جميع الحسن وافر ، ثم هو أشعر الطالبين : من مضى منهم ومن خبر ، ولو قلت إنه أشعر قرش لم أبعد عن الصدق ، وسيشهد بما أجره من ذكره شاهد عدل من شعره العالي القدح ، الممتنع عن القدح ، الذي يجمع إلى السلامة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، ويشتمل على معان يقرب جناها ، ويبعد مداها » . ويقول صاحب الدمية : « أنا إذا مدحته كنت كمن قال للشمس : ما أنورك . . . وله شعر إذا اقتخر به أدرك من المجد أقاصيه ، وعقد بالنجم نواصيه » . وقد توفى ببغداد ودفن في الكرخ سنة ٤٠٦ وهو في السابعة والأربعين من عمره ، ويقال إن رفاقه نُقل إلى مشهد الحسين في كربلاء .

وبدل شعر الشريف الرضي على أنه تأثر أشد التأثر بالمتنبي فقد أكب عليه يقرؤه المرة والمرات ، محباً له متاعفاً معه ، متمثلاً لكل ما يقول من شكوى الزمان وأنه لا يعطيه ما يستحقه ، وكان المتنبي كما مر بنا يريد أن يكون دولة عربية ، والدهر يناهضه ، وكان الرضي يشعر في أعماقه بأنه خليق أن يكون هو الخليفة دون أبناء عمه العباسيين ، وتدفعه الضرورة إلى مصانعتهم بمديح لا يزال يزخر - مثل مديح المتنبي - بالفخر والشكوى من الأيام التي لا تبلى مبتغاه ، حتى ليقول للقادر :

عطفاً أمير المؤمنين فإننا في دوحه الملباء لا نفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً كِلانا في المعالي مَعْرِق
إلا الخلافة ميرثك فإنني أنا عاطلٌ منها وأنت مطوق

وظل شعوره بأحقية في الخلافة لا يفارقه طوال حياته ، مما جعل أشعاره تُطبع - كما طبعت أشعار المتنبي - بالتلمز من الدهر ، بل بالثورة عليه دون أن يلزم به شيء من بأس أو قنوط . وليس هذا ما يجمعه بالمتنبي فقط ، فإنه يجمعه به أيضاً شعور عارم بالفتنة وقوة النفس والكبرياء والكرامة والأففة والعزة ، ولذلك كان شعرها من خير ما يُرثى به

الشباب ، إذ يدلج في أنفسهم الشعور الطاغى بالقوة وتغل الأَخلاق الرفيعة ، على نحو ما نرى في هذه الأبيات من قصيدة :

لغير المُلا منى القلبي والتجُنبُ ولولا المُلا ما كنت في الحب أرغبُ
وإن تكُ سببى ما تطاول بأعها قل من وراء المجد قلبٌ مُدربُ
وحسبى أنى في الأعداى مبغضُ وأنى إلى غرِّ المعال محبُ
وللجلم أوقاتٌ وللجهل مثلها ولكن أوقانى إلى الحلم أقربُ (١)
ولا أعرف الفخشاء إلا بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مُغضبُ (٢)

وتعرج أشعاره بمثل هذا الفخر الذى يُضرم جلوة النفس ويوقدها إيقاداً ويدفعها دفعاً إلى النهوض بجلال الأعمال . وجامعة ثالثة تجمعه بالمتى هى امتشاع البادية وروحها ، إحساساً منه بأنه عربى أصيل ، نفس إحساس المتنى الذى دفعه إلى أن يجعل البدويات موضع نسيه ، كذلك صنع صنبه الرضى ، فهو دائم التفرل بالبدويات ، دائم الافتتان بين والتغنى بجمالهن وحسنهن الطيبي ، وله في ذلك أشعار بديعة من مثل قوله :

يا ظيعة البانِ ترعى في خالكِ ليهنك اليوم أن القلب مرعكِ
الماء عندك مبلولٌ لشاربِ وليس يرويك إلا ممتع الباكِ
سهمٌ أصاب وراميه بذى سلمٍ من العراق لقد أبعدت مرمالكِ (٣)
حككت لحاظك ما في الرِّيم من ملحٍ يوم اللقاء فكان الفضل للحاكِ
أنتِ النعيم لقلبي والجهيمُ له فإ امرئكِ في قلبي وأحللكِ

وهو نسب رقيق كسب العذرين ، بل ربما كان أكثر رقة ، إذ تجرى فيه نغمة من لأمى والحزن واللوعة وكأنما يث فيه يأسه من آماله في الخلافة ، وكأنما يراها نفس هؤلاء البدويات اللاتي يتعثر في شباك هواهن ، دون أن يطف شتاً من أزهار حبه . وإنما استوردنا كل هذا الاستطراد في الشريف الرضى ليطلع القارئ على روعة أشعاره ، قبل أن نعرض لراثه جده الحسين ، وفي الديوان مراث كثيرة لأُم الرضى وأبيه ولبعض أساتذته وأصدقائه مثل ابن جنى وأنى إسحق الصائى ، وله في جده الحسين خمس مراث ، وهو ينسج أحياناً في بعضها فيجعلها مرثية عامة لآل البيت ، ونكتي بأن نعرض أهمها في رأينا ، وهى آخر مراثيه لجده ، واعتقد أنه أراد بها التواح عليه وأن ينشدها الناحة في بغداد وكربلاء ، وهو يستهلها بقوله :

(٣) فوسل : موضع بالحجاز . والسلم : شجر من
الغضاء .

(١) الجول هنا : الضرب
(٢) العوراء : الكلمة القبيحة

كَرَبًا لَا زَلَّ كَرَبًا وَلَا مَا لَقِيَ عِنْدَكَ أَلَّ الْمُصْطَفَى
وَيَصُورُ الْمُوقِفَةَ وَمَا سَالَ فِيهَا مِنْ دَمَاءٍ طَاهِرَةٍ وَدُمُوعٍ جَارِيَةٍ ، وَالنِّسَاءَ اللَّائِي كُنَّ مَعَ
الْحُسَيْنِ بِمَسْحِنِ الرَّمْلِ عَنْ نَحْوِهِ الْمَطْلُخِ بِالدَّمَاءِ ، وَلَمْ تَلْبِثِ الْوَحُوشُ أَنْ طَعَمَتْ مِنْ أَشْلَاءِ
الْقَتْلِ أَرْجُلًا طَالَمَا قَامَتْ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَيْمَانًا طَالَمَا رُفِعَتْ إِلَى السَّمَاءِ وَوَجُوهًا طَالَمَا تَبَيَّنَتْ إِلَى
اللهِ ، وَنَشَدُ :

يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ عَابَتْهُمْ وَهُمْ مَا بَيْنَ قَتْلِي وَبَيْنَا
لَرَأَتْ عَيْنَاكَ مِنْهُمْ مَنَظَرًا لِلْحَنَاءِ شَجْوًا وَلِلْعَيْنِ قَدَى
لَيْسَ هَذَا لِرَسُولِ اللهِ يَا أُمَّةَ الطُّقْيَانِ وَالْبَغْيِ جَزَا
غَارِسُ لَمْ يَأَلُ فِي الْقَرَسِ لَهُمْ فَادَّاقُوا أَهْلَهُ مَرَّ الْجَنَّا
جَزَرُوا - جَزَرُ الْأَصْحَى - نَلَّهُ نَحْمُ سَاقُوا أَهْلَهُ سَوَى الْإِمَا^(١)

وَهُوَ بِصُورِ رَكَبِ الْحُسَيْنِ ، أَمَّا الرِّجَالُ فَسُفِكَتْ دِمَاؤُهُمِ الذِّكْيَةُ ، وَأَمَّا النِّسَاءُ
فَسِيقُوا سَيِّاتٍ مَحْمُولَاتٍ عَلَى ظُهُورِ الْإِبِلِ دُونَ مَهَادٍ أَوْ كِسَاءٍ يَسْتَرْحِنُ عَلَيْهِ ، فَيَا لِلظَّلَمِ
وَيَا لِلْقَسْوَةِ ، وَهِنَّ مَشْعَتَاتُ الشُّعُورِ مَكْشُوفَاتُ الْوُجُوهِ وَالْأَعْنَاقِ يَهْتَغْنَ بِاسْمِ رَسُولِ اللهِ ،
وَلَا مِنْ يُشْفِقُ عَلَيْهِنَّ أَوْ يَرْحَمُ . وَيَقُولُ الرِّضَى : أَهَكَذَا يَكُونُ جَزَاءُ رَسُولِ اللهِ فِي سَبْطِهِ
وَأَلَّهُ ؟ يَفْرَسُ وَتُفْتَحُ لَدَيْهِ الْخَفِيفُ الْأَرْضِ وَلَا يَنْفُوقُ أَهْلُهُ سِوَى الْخَنْظَلِ ، بَلْ إِنَّهُمْ
لَيُذْبَحُونَ ذَبِيحَ الْأَصْحَى ، يُذْبِحُ الرِّجَالُ ، وَتَسَاقُ النِّسَاءُ سَيِّاتٍ ، وَيَتَجَهَّزُ الرِّضَى إِلَى جَدِّهِ
الْحُسَيْنِ مُنْشِدًا :

يَا قَتِيلًا قُوْضَ الدَّهْرُ بِهِ عَمَدَ الدِّينِ وَأَعْلَامَ الْهُدَى
قَتَلُوهُ بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ خَامِسُ أَصْحَابِ الْكِسَا^(٢)
مَرْهَقًا يَدْعُو وَلَا غَوْتَ لَهُ بِأَبٍ بَرٍّ وَجَدُّ مُصْطَفَى
وَبِأُمٍّ رَفَعَ اللهُ لَهَا عِلْمًا مَا بَيْنَ نِسْوَانِ الْوَرَى
مَيِّتٌ تَبْكِي لَهُ فَاطِمَةُ وَأَبُوهَا وَعَلِيُّ ذُو الْعَلَا
لَوْ رَسُولُ اللهِ يَحْيَا بَعْدَهُ قَمَدَ الْيَوْمِ عَلَيْهِ لِلْعَزَا

وَالْقَصْبَةُ كُلُّهَا لَوَاعَاتٍ وَأَنَاتٍ عَلَى هَذَا النِّحْوِ ، وَهُوَ الرِّضَى بِرُصْفِ كَلِمَاتِهَا بِمِثْلِ
لَا تَعْلُو عَلَى أَفْهَامِ الْعَامَةِ ، وَلَتَكُونُ صَالِحَةً لِكُلِّ يَرُدُّهَا النَّاحَةُ . وَجَعَلَتْ هَذِهِ السَّهْوَةَ

(١) الْأَصْحَى : ذَبَابُ عَبْدِ الْأَعْمَى . الْإِمَا : الرَّسُولُ ﷺ لَقِيَ كِسَاءً عَلَيْهِ وَعَلِ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الْكِرَامِ
وَعَلَى وَابْنَيْهِ الْحُسَيْنِ وَالْحُسَيْنِ ، وَقَالَ : هَذَا جَزَاءُ جَزَاءٍ وَأَمَلِ الْإِمَامِ .

(٢) يُشِيرُ إِلَى حَدِيثٍ تَرْوِيهِ الشُّعْبَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ : يَقُولُونَ بَنِي هَاشِمٍ ، وَلِلَّهِ سَمَاءُ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ .

هو الذي رماه أديبا ، وخاصة أنه رأى عنده استعداداً حسناً ، ففضى معه بثقفه ويدرّبه ، حتى خرّجه شاعراً بارعاً . والرضى بذلك يُعَدُّ أستاذه الفنى ، فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه ، وهو نسج يلاحظ من جهتين : جهة معارضته لكثير من قصائد الرضى ، يأخذ منه الوزن والقافية ، وينظم على غرارهِ . وجهة ثانية لعلها أهم هي تمثُلُ اتجاهاته الشعرية ، ونقص اتجاهات الشكوى من الزمن والفخر والتروع إلى التبدى أو النسب والغزل بالبديوات ، أما الشكوى فإنه يشكو كثيراً سوء بخته وأن الزمن لا ينيله ما يتمنى ، بل يقف حجر عثرة دون أمانيه .

وكان الرضى يفخر بمحمّده الشريف وعرويته العريقة ، فهاذا يفخر بهيار ؟ لقد اتجه بفخره في بواكير حياته نحو قومه ، وبذلك استحال فخره شعورياً فصيلاً ، على نحو ما بلغنا في مثل قوله :

أَفْجَيْتُ بِي بَيْنَ نَادَى قَوْمِهَا أَمْ سَعَدَ لَفَضْتُ نَسْلُ بِي
قَوْمِي اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّهْرِ فَتَيَّ وَمَشَوْا فَوْقَ رُمُوسِ الْحَبَبِ
عَمَّمُوا بِالشَّمْسِ هَامَاتِهِمْ وَبَنَوْا أَبْيَاتِهِم بِالشُّهُبِ
قَدْ قَبَسْتُ الْمَجْدَ مِنْ خَيْمِ أَبِي وَقَبَسْتُ الدِّينَ مِنْ خَيْرِ نَهْيِ
وَضَمَمْتُ الْفَخْرَ مِنْ أَطْرَافِهِ سَوَّدَدَ الْقُرْسُو وَدِينَ الْعَرَبِ

وقد التقينا بهذا الصوت المنكر في كتاب العصر العباسي الأول عند بشار ، وأخذ يَخْفُتُ غير أنه كان يظهر من حين إلى حين ، حتى إذا كان ابن قتيبة وجدناه يمزج بين الثقافة الإسلامية العربية - كما أشرنا إلى ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني - وبين الثقافات الأجنبية ، حتى يزيل الحواجز والفروق بين النوعين من الثقافات والحضارات ، وحتى يقطع الطريق على الشعبيين وما يدَّعونهُ من تفوق الفرس والروم على العرب في الحضارة والمدنية . ومع ذلك ظلت أصوات ضعيفة ترتفع من حين إلى حين ، كصوت أبي عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجبَّهاني وزير السامانيين وكان يُظْهِرُ الإسلام ويطعن الزندقة ، فألف كتاباً حمل فيه على العرب وتبذيرهم حملات شعواء ، صورها أبو حيان في كتابه الإمتاع واللؤاسة ، ناقضاً لها نقضاً شديداً . وكأنما وجد الجبَّهاني الفارسي في مهيأ مستجيباً له ، لافى هذه البالية وحدها ، بل أيضاً في قصائد أخرى . ونراه مع الزمن يتخلص من هذه النزعة الشعبية ، ويملاً شعره بالحنين إلى نجد وبديواتها الفاتنات ، مستلهماً في ذلك أستاذه الرضى ، بمثل قوله :

يا نسيم الصَّبْع من كاظِمة شدَّ ما هَجَّتْ الجوى والبرحا^(١)
 الصبا ! إن كان لأبد الصبا إنها كانت لقلبي أروحا
 يا تدامي يسلم هل أرى ذلك المفق والمضطجعا^(٢)
 اذكرونا مثل ذكرنا لكم ربُّ ذكرى قرئت من زحرا
 واذكروا صبا إذا غنى بكم شرب اللعَم وعاف القلحا
 قد عرفتمُ الهَم من بعدكم فكأنى ما عرفتُ الفرحا

وهذه القطعة وسابقتها من أروع شعر مهيار في البناء اللفظي ، وهما لذلك لا توضحان خصائصه الفنية التي تحدثت عنها بالتفصيل في كتاب « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » حيث أوضحت أثر نشأته الأعجمية في شعره وأن اللفظة الحادة كانت تفضل منه ، فكان يدور حول الفكرة دورانا يصيب شعره أحيانا بغير قليل من الركافة والإسفاف ، وكان مع ذلك يطيل قصائده طولاً مسرفاً ، مما جعل رُفعتها تسع أو قل رُفعتها ، فيتضح فيها التلفيق وكثرة التكرار للكلمات وما يدخل في ذلك من الحشو والاعتراض . ونحن أسلم أخذ يكثر في شعره من ذكر مناقب أهل البيت وثناء الحسين ، ولم يكتف بذلك ، كما كان يصنع أستاذه ، بل أكثر أيضاً من سب الصحابة رضوان الله عليهم ، ويروى أن أبا القاسم بن برهان النحوي قال له : يا أبا الحسن ! انتقلت بإسلامك في النار من زاوية إلى زاوية ، فقال له : وكيف ذلك ؟ قال أبو القاسم : لأنك كنت مجوسياً وصيرت نسب أصحاب رسول الله ﷺ ، والمجوسى والرافضى في النار . وله من قصيدة يمدح فيها آل البيت ، وقد بث في مطلعها شكواه من الزمن :

لئن نامَ دهرى دون المني فلي أسوةً ببني أحمد
 بأكرم حتى على الأرض قام وبنت تومند في ملحد
 أناكم على قرة فاستقام بكم جائرين عن المقيد
 وولي حبيداً إلى ربِّي ومن سن ما سنه يُحمد
 وقد جعل الأمر من بعده ليحذر بالخبر المُسند
 وسماه مولى يافرا من لو أتبع الحق لم يجحد

وواضح أن تعبيره عن حرمان الدهر له ما يتمناه بنومه عنه غير دقيق ، وهو تعبیر قاتر إن صح هذا التعبير ، والأبيات الأربعة التالية في مديح الرسول عليه السلام ، وهي تخلو

(١) كاظِمة : موضع على الخلق العربي جنوبي العراق (٢) سلح : جبل متصل بالبيشة .

في الكويت .

من أى حرارة ، وكأنها نثر لُقِّقت ألفاظه وهو في البيتين الأخيرين يشير إلى ما تذهب إليه الشيعة من أن الرسول عليه السلام أوصى لعل أو كما يسميه حيدرًا بالخلافة يوم غد يرخم ، إذ آتاه قائلاً - كما يروون - : على من كهرون من موسى ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله . والآيات تخلو من العاطفة ومن اللذع والحدة ، ولذلك لا تكاد تؤثر في قارئها أى تأثير . وله في رثاء علي والحسين قصائد أخرى من أروعها لاميته ، وفيها يقول :

وشهيدٍ بالعطف أبكى السَّمَوَاتِ وكادتْ له تَرَوُّ الجبالُ
يا غليلي له وقد حرمَ المَالُ عليه وهو الشرابُ الحلالُ
قُطِعَتْ وَصْلَةُ النَّبِيِّ بَأَن تَفْدَ حَلَّجَ من آلِ بيتِهِ الأوصالُ
لَمْ تَنْجُ الكَهُولَ سَنٌ ولا الشُّبَّانَ زُهْدٌ ولا نَجْمَ الأَطْفَالِ
لَهْفَ نَفْسِي بِأَلِ آلِ طَهٍ عَلَيْكُمْ لَهْفَةٌ كُلُّهَا جَوَى وَخَيْالِ
وهو رثاء حار يمتلي باللوعة والحسرة والنواح على الحسين ومن قُتل معه من آل بيته .
ولم يمار مرث أخرى في الحسين وآله تجمد فيها العاطفة فلا نار تنقد في الأحشاء ولا لب يستقر في الأفئدة . وليس معنى ذلك أن مهيار لم يكن مخلصاً لعقيدته الإمامية ، ولكن معناه ما قلته من أنه كان يعثر على ضالته من التعبير اللاذع أحياناً ، وأحياناً يفضل منه هذا التعبير ، لأنه لم ينشأ في مهد عرى يمكنه دائماً من تملك السليقة العرية في التعبير والصياغة .

ابن أبي (١) الحديد

هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعروف بابن أبي الحديد ، ولد في ١٠ المداين سنة ٥٨٦ لقاضياً وأحد المدول فيها ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، ويقول ابن خلكان عنه وعن أخ له يسمى موفق الدين إنها كانا فقيهين أدبيين ، لها أشعار مليحة . ويبدو أنه شبَّ على الاعتزال والتشيع جميعاً ، وكان لا يزال يفتد ويروح إلى بغداد وإلى حى الكرخ الشيعي

طبعت قصائده السبع الطويات في إيران وطُبعت مشروحة في صيدا بلبنان وطُبعت قصائده للتصريحات ببغداد . وله مؤلفات عظيمة ، من أشهرها شرح نهج البلاغة للإمام علي ولفظك للذكر على لعل السائر

(١) انظر في ترجمة ابن أبي الحديد وفيات الأعيان ٣٩١/٥ وفيات الرقيات لابن شاکر الكشي ٥١٩/١ ومعجم الألقاب لابن القوطي ج ٤ ق ١ ص ١٩٠ وقيل مرآة الزمان (طبع سهر آباد) ٦٢/١ والفتكلة لوليات الثقة للمطري (طبع النجف) ٢٤٥/٤ وقد

خاصة ، ثم لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه ، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره نظم قصائده السبع الطويات ، وهي في مديح علي بن أبي طالب وبيان فضائله ، وفيها لا يبدو شيئا إماميا في هذه الحقبة من حياته ، بل يبدو رافضيا غالبا في الرفض ، إذ يخلع على الإمام علي صفات الله جل شأنه ، وكأنه حل فيه وامترج بذاته ، تعالى الله علوا كبيرا عما يُلحَق فيه من مثل قوله في علي أو كما يسميه حيدر^(١) :

والله لولا حيدر ما كانت الـ حُدُنَا ولا جَمَعَ الرِيَّةَ مَجْمَعُ
من أجله خُلِقَ الزمانُ وضوءُ شُهْبُ كَسَنَ وَجَنُ لَيْلٍ أَدْرَعُ^(٢)
عِلْمُ الْغُيُوبِ إِلَهَ غَيْرِ مَدَافِعِ وَالصُّبْحُ أَيْضُ مُسَيَّرٍ لَا يُدْفَعُ
وَالِهَ فِي يَوْمِ الْمَادِ حَسَابُ وَهُوَ الْمَلَأَ لَنَا غَدَاً وَالْفَزَعُ

فعلى علة الوجود من أجله خُلِقَ الكون والزمان وأضاءت الشمس والكواكب وأظلم الليل وانتشرت دُجَّتُهُ ، وهو علام الغيوب أو عالمها ، وهو - يوم البعث - الذي سيحاسب الناس على ما قدمت أيديهم من خير أو شر . وكل هذا تجديف في حق الذات العلية ، فعل ليس علة الكون والوجود ، فله مثل البشر جميعا ، حقا هو صحابي جليل ، ولكن ذلك لا يرضه على بشرته ولا يجعله سر الوجود ولا علة له ، ومعاذ الله أن يكون علام الغيوب ، وقد استأثر الله بعلم الغيب كما نصت على ذلك آيات الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) وقوله : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً) . وبالمثل زعم ابن أبي الحديد أن الناس يمرضون على الإمام علي ابن أبي طالب يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ، والحساب إنما هو لله وحده جل شأنه .

ويتمادى في علوياته الرافضة ، فيتمرض بالبهتان على أول من صدق بالرسول ﷺ من الرجال وأوثق الصحابة صلة به ورفيقه في الهجرة ، على الصديق أبي بكر ، ومعروف أن الرسول ﷺ ولاه أمور دين المسلمين من الحج بهم في السنة التاسعة للهجرة والصلاة بهم في مرضه ونرى ابن أبي الحديد يزعم افتراءً وبهتاناً أن الرسول أناب أبا بكر كى يقم للناس الحج ثم عزله^(٣) ، وهو لم يُعزل إذ أقام الحج فعلا للناس . ومعروف أنه حين اشتد المرض بالرسول ﷺ قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أمر أبا بكر أن يصلي بالناس ، فصل بهم سبع

(١) القصائد السبع الطويات مع شرحها (طبع صيدا - ٢) كَسَنَ : سَرَدَ ، جَنَ : دَجَا . أَدْرَعُ : مَقَّم .

(٣) القصائد السبع الطويات مع شرحها ص ٤٦ .

عشرة صلاة ، وصل الرسول عليه السلام مؤتمناً به ركعة ثانية من صلاة الصبح ، ثم قضى الركعة الباقية وقال : « لم يَقْبُضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَوْمَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ » . ومع تواتر هذه الولاية من الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق على أمور المسلمين في الصلاة والحج وثبوتها ثبوتاً قاطعاً يزعم ابن أبي الحديد زعماً باطلاً أن الرسول عزل أبا بكر عن الصلاة ^(١) . كما عزله عن الحج . وكل هذا غلو في البيتان والرفض . ويترك المدائن إلى بغداد نهائياً في تاريخ غير معروف تماماً ، ويبدو أنه تحلّى عن رفضه ورجع إلى صوابه ، إذ نراه يمدح الناصر ، ثم يلزم الخليفة المستنصر العباسي ويدبج فيه مدائح عُرفت بالمستنصريات ، وقد بلغت خمس عشرة قصيدة نظمها في السنوات من ٦٢٩ إلى ٦٣١ وكان ألحق بدواوين الدولة وأصبح من موظفيها ، وإنه لينقلب عباسياً ضد العلويين يخطب في جبل العباسيين ويدعو لهم ، بمثل قوله في المستنصر :

يا بني هاشم بكم بغر الله هُ الخطايا وقيل الأهل
أتمم بالنبي أولى لأن شـ ك جهول ظليراً الأنفال
واليكم إرث النبي تنامي واليكم سرُ الإله تعال
وقد يقال إن البيت الأول عام في بني هاشم جميعاً علويين وعباسيين ، غير أنه لا يلبث في البيت الثاني أن يصرح بأن العباسيين أحق بإرث الخلافة عن الرسول ﷺ لقوله تعال في سورة الأنفال : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) مشيراً بذلك إلى حكم الإسلام في الميراث وأن المم وهو العباسي يحجب ابن المم وهو علي بن أبي طالب كما يحجب أبناء بنت الرسول ، والعباسيون كما يقول في البيت الأخير الورثة الحقيقيون للخلافة . وبمثل هذه الآيات ، بل بمستنصرياته جميعاً نقض رفضه ، بل تشييعه عامة ، حتى نراه يقول في المستنصر :

وأنت الدهر ينقض كل عالٍ بقوة وبمسك كل هاري ^(٢)
ويبرم ما يشاء بلا اعتصاف وينقض ما يشاء بلا اقتدار
وكانه تمثل فيه ثانية غلو السالف في علي بن أبي طالب ، فجعله الدهر ينقض ويرفع ويعصم من السقوط ويبرم الأمور ويتقضيها نقضاً .

ولا يزال يعمل في دواوين الخلافة حتى يتوفى المستنصر ويخلفه ابنه المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) . ويعزل من وظيفته سنة ٦٤٢ ويتولى أمهالاً مختلفة حتى يتوفى سنة ٦٥٦ وقيل بل سنة ٦٥٥ وكانت قد توفت صلته بابن العلقمي وزير المستعصم وكان شيعياً فيستحى علي

(٢) هاري : مصدع يوفك أن ينهم .

(١) نرس المصدر والصفحة .

شرح نهج البلاغة ويصدق رأيه ، وهو في هذا الشرح يتردد بين مذهب أهل السنة حتى يقول إنه ليس هناك أى نص صريح على خلافة علي للرسول عليه السلام ^(١) ومذهب الزيدية إذ يذهب مثلهم إلى صحة إمامة المفضل مع وجود الأفضل ^(٢) ومذهب الشيعة الرافضة الذين يحاولون الغرض من الشيخين العظيمين أبي بكر وعمر ^(٣) . ومعروف أن لها عند الله الدرجة العظمى بما أديا للدين الحنيف من خدمات جليلة ، كُتبت - ولا تزال تكتب - ليها المجلدات الضخام .

.

(١) شرح نهج البلاغة ١٥٦/١ .

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ٢٢٦/١٠ .

(٣) راجع شرح نهج البلاغة طبعه أمير القليل لمعجم

بدر إسماعيل الكتب العربية بالقاهرة ٢/ ٥٩٧ .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم يحلُّ شاعر من شعراء البيعة والذمية والخريدة ومن تلاهم على مر الحقب من بعض قصائد أو مقطوعات تُقنَى فيها بالحب ، مصورا هذه العاطفة الإنسانية التي تملك على النفوس أهواءها وأحاسيسها ومشاعرها . ويمتلى تاريخ الشعر العربي بأبطال لهذه العاطفة ، يعيشون للحب وآماله وآلامه ، يتجرعون غصصه في صبر ، مها ألم بهم اليأس وما يطوى فيه من حزن . ومن أطرف الأشياء حقا أن نقرأ شعر أحد هؤلاء الأبطال وما يعانون من وجْد لا يشبه وجد وخطوب لا تدانيها خطوب . وهم دائما من العشاق المذريين الذين يتعمقهم الحب ويستأثر بقلوبهم ، ويفتنهم فتنة لا يستطيعون الخلاص منها ، حتى لتصبح المحبوبة كأنها معبودة ، فهم يحبونها ، بل يقلسونها ، ويقدمون لها الأشعار ، بل التراتيل التي يتغنون فيها بحرها سحرًا يشغلهم عن كل شيء وعن كل متاع في الحياة إلا ما يكون من الغرام العنيف وما ينسج فيه العاشق بشعره من شباك الأمل والتضرع والاستعطاف . وهذا اللون من الحب المذرى العفيف الذي يتحول في قلب صاحبه إلى ما يشبه جذوة من النار لا تنطفئ أبدا قديم في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، وأصبح ظاهرة عامة في بوادي نجد والحجاز طوال العصر الأموي ، وظل حيا بقوة في العصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني ، وكانت ترافقه من قديم موجة من الغزل المادى اتسعت مع العصر العباسي الأول وما كان به من فنون اللهو والجهون على نحو ما يصور ذلك بشارو أبو نواس . غير أن الشعراء التاليين حاولوا أن يخففوا من حدة هذا الجهون والمبت ، بما أشاعوا في غزلهم من حفة ومن نقاء وطهارة ، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام والبحرئى وابن الرومى وأضرابهم ، ومع ذلك كانت لا تزال تظهر في بغداد وغير بغداد جماعات من الغزلين الماجنين . ولعل ذلك هو الذى دفع المتنئى في أوائل هذا

العصر إلى أن يهجر في غزله المرأة المتحضرة ، وكأنه رآها أو رأى كثيرات من الجوارى
 ببغداد في أوائل شبابه يتهاكن على اللهو ويُترفن فيه ، فصمم - كما مر بنا - أن يتخذ
 البدويات الأعرايات موضوعا لغزله ، حتى يردّ إلى الغزل في أيامه العفة والسمو والتبل
 والارتفاع عن الجسد والغريزة التي يشترك فيها الإنسان والحيران ، وحتى يذيع فيه أريج
 الوجدان التي الأغلاطوني البريء ، كما يذيع فيه شذأ الحنان الذي يكتظ به الغزل العنرى
 عند العرب وما يطوى فيه من حرارة ولوعة . وهذا الوتر من الغزل البدوى الطاهر المتناح
 الذي شدّه المنهى إلى قيثارته ، تبعه فيه الشريف الرضى يشده بدوره إلى قيثارة شعره
 مستخرجا منه ما لا يكاد يحصى من الأنغام كما أشرنا إلى ذلك في ترجمته ، على شاكلة
 قوله :

خُلِّدَى نَفْسِي يَارَيْحُ مِنْ جَانِبِ الْحَمَى وَلَا تَقِ بِهِ لَيْلًا نَسِيمَ رُؤْيَى نَجْدِي
 فَإِنَّ بِذَلِكَ الْجَوَّ حَيًّا عَهْدَتُهُ وبالرغم مَنِ أَنْ يَطُولَ بِهِ عَهْدِي
 وَلَوْلَا تَذَاوَى الْقَلْبِ مِنْ أَلَمِ الْجَوَى بِذِكْرِ تَلَاقِنَا قَضَيْتُ مِنَ الْوَجْدِ
 وَمَا شَرِبَ الْعُشَاقُ إِلَّا بِقَيْتِي وَلَا وَرَدُوا فِي الْحَبِّ إِلَّا عَلَى وَرْدِي

فقد انقطعت الأسباب بينه وبين محبوبته التجديبة ، ولم يبق من أمل إلا أن تلتقي نفسه
 من جانب الحمى يقطع من النسيم المعطر بشذأ صاحبة ، نسيم روى نجد الذكى ، وإنه
 ليشعر بالآلام فقال بقلبه من أثر الحب وعذابه وأوصابه ، آلام ليس لها من دواء إلا دواء
 ذكريات لقاءها ، ولولا هذا الدواء لمات أسمى واليتاما . وباله من عاشق شرب كأس
 الحب ، حتى لم يبق لغيره منها سوى الخالة ، وكأنه أب العشاق أو كبيرهم ، فجميعهم إنما
 يردّ على ورويه وينهل من بقية شربه . وتبعه تلميذه مهيار يشدّ إلى قيثارته نفس هذا الوتر ،
 كما مرّنا في ترجمته ، صابًا في أشعاره من ألحانا كثيرة من مثل قوله :

قُلْ لِحَيْرَانِ الْغَضَا أَوْ عَلَى طِيبِ عَيْشٍ بِالْغَضَا لَوْ كَانَ دَامَا
 نَعْمِلُ الْعَامَ وَلَا نَسَاكُمُ وَقُصَارَى الْوَجْدِ أَنْ نَسْلُخَ حَامَا
 حَمَلُوا رِيحَ الصَّبَا نَشْرُكُمُ قَبْلَ أَنْ نَحْمَلَ شَيْحًا وَثَامَا
 وَابْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِي فِي الْكَرَى إِنْ أَذِنْتُمْ لِحَفْوِي أَنْ تَنَامَا

والغضا من أشجار نجد ، وكذلك الشيخ والنام من نباتاتها ذات الرائحة الطيبة .
 والقطعة تفيض بالحنين لصاحبه وأهلها من حيران الغضا أو أهل نجد ، فإنه لا ينساهم
 ولا يسلوهم ، ولا يزال يأمل في أن تحمل ربيع الصبا نثرهم المطر حتى يردّ إليه روحه ،

وتمنى أن يرى صاحبه ولو خيالا أو شبحا في النوم حتى تغلأ نفسه بهجة وغبطة . ولصرد
أشعار نجدية أو في نجد وعجوباتها بديعة ، من مثل قوله في مطلع قصيدته الهائية التي
أشرنا إليها في حديثنا عن شعراء المديح :

وقضنا صفوفاً في الديار كأنها صحائفُ ملقاةً ونحن سطورها
يقول خللي والظباء سوانعُ أهذى التي تهوى ؟ فقلتُ نظيرها
ويا صجي منها يصعدُ أنيسها ويدنو على دُعرِ إلينا نفورها
وواقه ما أدري غداةَ نظرنا أتلک سهامُ أم كتوسُ تُديرها
فإن كنُ من نبلِ فأين خفيها وإن كنُ من خمرِ فأين سرورها
أراك الحمى قل لي بأيّ وسيلةٍ وصلت إلى أن قبلك ثورها

وتصوير صرد نفسه وصحبه وهم وقوف بأطلال الديار كأنهم سطور بديع ، ولا نكاد
نخفى معه حتى نشر بروعة التصوير ودقة المشاعر . فصواجه والظباء جنس واحد يدنو
وحشيه مذعورا ويصعد أنيسه نفورا ، ولا يدري ما الذي أودعته ظباء الإنس - حين نظرن
الهمم - قلوبهم وأقدستهم ، هل أودعتها نبلا قاتلا ، أو كتوسا من خمر تلذ الشاربين .
وينظر في حيرته ويتساءل إنها إن كانت نبلا فأين خفيها ودويها ؟ وإن كانت كتوسا فأين
سرورها ومتاعها . ويلتفت إلى شجر الأراك وبراهن يتخذن منه للسواك ، فيسأله مذهولا
كيف وصل إلى ثورهن . وكلها حيرات تصور لوحات هذا العاشق المفتون ، ومن بديع
غزلياته قوله :

نسائل عن ثلماتٍ يحزوي وإن الرُّمل يعلم من عينا
وقد كُشف الغطاء فما نبأ أصرحتا بذكركِ أم كيتنا
بنفسى رامياتٍ ليس تغنى نصولُ سهامهن إذا رمينا
وأميننا كأننا ما افترقنا وأصبحنا كأننا ما التقينا

إنه يمشي على استحياء في ديار صواجه يحزوي يسأل عن نبات الثمام ، وكل شيء في
الديار حتى ما بها من أشجار البان تعلم حقيقة أمره وخبيته سره ، فقد كشف الغطاء وذاع
السر المخبوء . وإنه ليفقدى بروحه من رمت بهامها ، ويقول إن سهامها لا تغنى أبدا ، فهي
ما تنى ترسلها على المعجبين والمهين . والبيت الأخير حكمة بديعة تصدق على كل شيء في
الدنيا وكل أمل ضائع أو سيضيع .

وهذا الوجد في شعر الغزل البدوي وما يشير في النفس من حنين ومن ظمأ لا يرتوي إلى رؤية المحبوبة استغله المتصوفة منذ ظهوره للتعبير عن حبيب للذات الإلهية بما فيه من مواجد ومن لوعات ، لوعات تلذع في الفؤاد كأنها نيران محرقة ، فإنهم وجدوا فيه خير مبرر عن تشوقهم لرؤية الذات الإلهية ، وأنى لهم ! ، ففضوا يتغنون به في حفلات الذكر المعروفة حين ينشد الذاكرون قه في صفين متقابلين ، ويقف منشد بينها ، يرثل أشعار الوجد والهيام تارة مما نظمته الصوفية وتارة مما نظمته الشريف الرضي ومهيار وغيرهما ممن تلاهما واستلهم طريقتها البدوية النجدية في الغزل ، لما أحسوا في هذه الطريقة من الوجد والصبابة ، بل من سعة النداء فيها . وهي سعة تلاحظ أيضا في الغزل الصوفي ، وكأن هذين الصريين من الغزل يلتقيان ، وهو التقاء هيا لأن يتأثر الغزل عامة بالشعر الصوفي ، وأن يتيح ذلك الفرصة لظهور ما يمكن أن نسميه الشعر الوجداني الصافي ، على نحو ما سنرى عند الحاجري والتخفيري .

ولا بد أن نلاحظ أن وتر الغزل البدوي الذي شدّه المنتهى إلى فيثارته ظل الشعراء بعده لافى العراق وحده بل في جميع الأقاليم العربية يشدونه إلى فيثاراتهم حتى العصر الحديث ، إذ وجدوا فيه فسحة للتعبير عن حبيب ووجدتهم وما يثيران في القلوب من العواطف والأهواء . وقد تفجرت بتاييمه تفجرا في مقدمات المادائح النبوية التي أخذت تجري على كل لسان منذ القرن السابع الهجري . ومرّ بنا في الفصل الأول من هذا القسم حديث طويل عن تغنى الجوارى والحرائر في بغداد لزمان أبي حيان التوحيدي ، وما ذكره من أنه كان يبغداد أربعمائة وستون جارية ومائة وعشرون حرة يتغنن بأشعار غزلية تُدلع الوجد والحنين واللوعة في قلوب الناس من المتصوفة وغير المتصوفة ، فتشتت قلوبهم وتحدرد دموعهم ويعلو نحيبهم ، ومنهم من يسقط مغشبا عليه ، ومن يلعطم وجهه ويمرّق ثيابه أو يمزقها ، ومن يضرب الأرض بقلعه أو يمسده ويغضى ويؤيد . وكان وراء هؤلاء المغنيات مغنون يُعدّون أو قل لا شك أنهم كانوا يُعدّون بالعشرات إن لم يكن بالمئات ، كانوا يززلون الأرض - كما يقول أبو حيان - بأصواتهم الناهمة وألحانهم الرخيمة ودماثهم الحلوة . وكل ذلك عمل على ازدهار شعر الحب وأغانيه .

وطبيعي أن يتكاثر شعراء الغزل في هذا العصر كما تكاثروا في العصور السابقة ، وأن لا يقف ذلك عند شعراء القرنين الرابع والخامس وأن يتعدّاهم إلى شعراء القرنين السادس والسابع ومن جاء بعدهم ، ومن أهم الشعراء الذين عاشوا للغزل وشعر الصبابة في القرن

السادس الشاعر الملقب بالأبله ^(١) لُقِّبَ بذلك لأنه كان فيه طَرَفٌ بليٌ ، وقيل بل لأنه كان غاية في الذكاء فلُقِّبَ بذلك على طريقة الأضداد ، واسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار ابن عبد الله المولّد أي الهائم صباية وعشقا ، وحُرِّفَت الكلمة في بعض الكتب فقبل المولد بدلا من الموله ، وهو تحريف واضح . وذكره الهاد الأصبهاني في كتاب الخريدة ، فقال : « هو شاب ظريف بترى بترى الجند ، رقيق أسلوب الشعر حلو الصناعة ، رائق البراعة ، عذب اللفظ ، أرق من النسيم . وكل ما ينظمه ، ولو أنه يسير ، يسير ، والمغنون يغنون برائقات أبياته (مؤثرين لها) عن أصوات (أغاني) القدماء ، فهم يتهاثون على نظمه المطرب ، تهافت الطير الحورم على عَذْب المشرب » . ثم قال أنشدني لنفسه من قصيدة سنة ٥٥٥ ببغداد :

زَارَ مَنْ أَحْبَبَا بِزُورَتِهِ وَاللَّجَى فِي لَوْنِ طَرَّتِهِ
يَا لَهَا مِنْ زُورَةٍ قَصُرَتْ فَأَسَاتَتْ طُولَ جَفَوَتِهِ
أَوْ مِنْ خَصِيرٍ لَهُ وَعَلَى رَشَقَةٍ مِنْ بَرْدِ رِيْقَتِهِ
بَالَهُ فِي الْحَسَنِ مِنْ صَمٍّ كُنْصَا مِنْ جَاهِلِيَّتِهِ

والكلمات محكمة ، وتكاد تطير عن الشفاه طيرانا لحظتها ، والدقة واضحة في تشبيهاته وطباقاته ، وأيضا في مراعاته للنظائر في الكلمات كما في البيتين الأخيرين : وقد جعل محبته صنما يريد أنها معبودة لفتنتها وسحر جمالها وكأنها أعادت الناس إلى زمن الجاهلية ، فكلهم عابدها مسحور . والكلمات والأبيات معدة حقا للغناء ، إذ كان أستاذًا في زمنه من أستاذة الأغاني ، ولذلك كان يتخاطف المغنون والمغنيات غزلياته . ويقول ابن خلكان : « جمع الأبله البغدادى في شعره بين الصناعة والرقه وله ديوان شعر بأيدي الناس » وقال ابن الجوزى في المنتظم كانت وفاته ببغداد سنة ٥٧٩ وقال غيره بل سنة ٥٨٠ ومن غزله البديع قوله في مطالع إحدى قصائده :

يَا بَرِّقْ إِنْ تَجَفُّ الْمَقِيْقَ فَطَالَمَا أَغْتَه عَنْكَ سَحَابُ الْأَجْفَانِ
هِيَا أَنْ أُنْسَى رُبَاكَ وَوَقْفَةً فِيهَا أُغَيِّرُ بِهَا عَلَى الْفَيْرَانِ
وَمُهْمُفُهُنِ سَاجِي اللَّحَاظِ حَفَظْتُ فَأُضَاعِفُ وَأَطْمَعُ فَمُصَانِي
يُصْصِي قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ بِمَقْلَةٍ طَرَفُ السَّانِ وَطَرَفُهَا سِيَّانِ

ما قام معتدلاً بهزّ قوامه إلا وبانت خجلة في البان
وفي الأبيات انساب مع جمال التصوير ، بل مع التصوير المفاجئ ، إذ نراه يخاطب
البرق الخفى مع السحاب عن ديار صاحبه بأن سحاب الأجنان ودموع العيون حرة أن
ترويا ويقول إنه حفظ صاحبه فأضاعته ، وأطاعها فمضته ، ويعقد صلة بين طرفها
وطرف السنان ، فكلاهما يصحى ويقتل ، ويذكر أن قوام صاحبه لا يشبه قوام شجر البان
في اعتداله فحسب ، بل إنه حين يبصره شجر البان يسرى فيه خجل وحياء شديد لحسن
قوامه بالقياس إليه وجمال استوائه ومن أبياته السائرة قوله من قصيدة :
لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يُعانيها

ولن نستطيع أن نمضى في عرض أشعار الغزلين لكثرتهم ونكتفى بالحديث عن ابن المعلم
والحاجرى والتلعفري ، إذ هم أهم من نظم الغزل في العصر ، وقد استطاعوا التفوذ فيه إلى
ضرب جديد من الشعر الوجداني يكتظ بالشوق والوجد والحب المبرح الذى يستأثر بالقلوب
والأفئدة .

ابن المعلم^(١)

هو أبو الفثانم نجم الدين محمد بن علي المعروف بابن المعلم ، ولد بقرية الهّث من
أعمال واسط جنوب العراق سنة ٥٠١ وتوفى بها سنة ٥٩٢ واستيقظت موهبته الشعرية
مبكراً ، فقصده شعره حكام بغداد وبها اصطدم بشاعر هاشم بن التعاويذى بعامل التنافس .
وكان كلما ألم ببغداد لا يلبث أن يفارقها إلى مسقط رأسه ، وفيه يقول العماد الأصماني في
الخرزدة : « متقدم الهّث شعره الديباج الملمع المعلم ، طرازه المعنى المنع المحكم ، فلفظه
السوار ومعناه المصمم . كلامه خلّو حال ، عالي غالي ، صفو من الرّفق خالو . فآين
مهيّار من أسلوه ! لو عاش شرب من كويه . » ويقول ابن خلكان : « كان شاعراً رقيق
الشعر لطيف حاشية الطبع يكاد شعره يذوب من رقة . » وأكثر القول في الغزل والمدح
وفنون المقاصد ، وكان سهل الألفاظ صحيح المعاني ، يغلب على شعره وصف الشوق
والحب وذكر الصبابة والغرام ، فعلق بالقلوب واستشهد به الوعاظ واستحلّاه
السامعون . وأتاحت له رقة شعره الوجداني صلة وثقى بينه وبين أصحاب الشيخ أحمد

(١) انظر في ترجمة ابن المعلم وأشعاره الخريدة قسم بالوفيات ١٦٥/٤ وعبر الذمى ٢٧٩/٤ والشذرات
العراق ٤٣٠/٢/٤ وابن خلكان ٥/٥ والوافى ٣١٠/٤ والنجوم الزاهرة ١٤٠/٦ وانظر ص ١٠٢ .

الرفاعي ، فكانوا يتفننوا بغزلياته ، ويرونها معينا لا ينضب لاستثارة حبيهم الصوفي ، ويقول ابن خلكان : « سمعت جماعة من مشايخ البطائع (يريد أصحاب الرفاعي) يقولون : ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء (المتصوفة) المتسبون إلى الشيخ أحمد الرفاعي وغنوا بها في سماعاتهم (يريد أذكارهم) وطابوا عليها ، فعادت عليه بركة أنفاسهم . . وبالجملة فشعره يشبه التّوح ، ولا يسمعه من عنده أدنى هوى إلا فتنه وهاج غرامه . . وملاحظة ابن خلكان أن شعر ابن المعلم يشبه التّوح ملاحظة دقيقة توضح السبب الحقيقي في تعلق طائفة الرفاعيين به ، لما يحمل من كثرة الوجد ولوحاته وحرارته التي لا تنطفئ في قزاده أبدا ، فهو دائما يريد الوصال ، ولا وصال على طريقة الصوفية ، بل فراق متصل ، يشق به الحب ويكي وينوح ولا مغيث ولا محلّص ولا معين ولا أمل في لقاء أو ما يشبه اللقاء ، يقول :

لو قَضَى من أَهْلِ نَجْدٍ أَرَبَةٌ	لَمْ يَهَيِّجْ نَشْرَ الْخَزَامِي طَرَّةَ
عَلَّلُوا الصَّبَّ بِأَنْفَاسِ الصَّبَا	إِنَّمَا تَشْفِي النَفْسَ الْوَصْبَةَ
فَهِيَ إِنْ مَرَّتْ عَلَيْهِ نَشْرَتْ	مَا انطوى عَنْهُ وَجَلَّتْ كَرَّةَ
كَلَنِي فِيكُمْ قَدِيمٌ عَهْدُهُ	مَا صَبَابَانِي بِكُمْ مُكْتَسَبَةُ
عَنْ جَفَوْنِي الزَّمَنَ مِنْ بَعْدِهِ	وَالِي جَسَمِي الضَّنَا مَنَ قَرْنُهُ
فَصِلُوا الطَّيْفَ إِذَا لَمْ تَصِلُوا	مُسْتَهَامًا قَدْ قَطَعْتُمْ سَبِيلَهُ

فهو لم يقض أربا من صاحبه ، وذلك هو مصدر لحفته ولوحته ، وإنه لينى أن تمر به أنفاس الصبا محملة بنشرها عليها تشفيه من أوصابه وأوجاعه وتنقذه من كربه العظيم ، وإنه ليكلف بها أشد الكلف ، كلفاً كأنما فطر عليه ، فهو يعذبه ويشقيه ويسهده ويضنيه ، وإنه لينى أقل التنى : أن يرى طيف المحبوبة ولكن أتى له ، وهو لا ينال ، بل يظل ليله - مثل ناره - يحتمل مالا يستطيع تحمله من آلام الحب الذي أصبح محنة ، لا يستطيع قلبه أن يحد إلى التخلص منه سبيلا . وينشد له الهاد قطعة من كلمة له سارت وأنجحت وغارت حتى شدا بها الشادى ، وحدّا بها الحادى ، ووجد بها أرباب الغناء الغنى والوجد ^(١) وأصحاب القلوب الهوى والوجد ، وهى مطلق لإحدى مداعمه وفيها يقول :

تَنْبِيهِ يَا عَذَبَاتِ الرَّئِدِ كَمْ ذَا الْكَرَى ؟ هَبْ نَسِيمُ نَجْدِ
مَرٌّ عَلَى الرُّوضِ وَجَاءَ سَحْرًا يَسْتَحَبُّ بَرْدَى أَرْجٍ وَرَدِ

حتى إذا عانقتُ منه نَفْحَهُ عاد سَومًا والغرامُ يُعْذِي
واعجبًا مني أَسْتَشِي الصَّبَا وما تَزِيدُ النَّارَ غَيْرَ وَقْدِ
أَعْلَلُ الْقَلْبَ بِبَانٍ رَامِيٍّ وما يَنْوِبُ غُصْنٌ عَنْ قَدْ
وَأَسْأَلُ الرِّيحَ وَمَنْ لِي لَوْ وَعَى رَجَعَ الْكَلَامُ أَوْ سَخَا بِرَدِّ
أَتَقْضَى التَّوَحُّ حَامَاتِ اللَّوَى هَيْهَاتَ مَا عِنْدَ اللَّوَى مَا عِنْدِي
بَانُوا فَلَا دَارُ الْعَقِيقِ بَعْدَهُمْ دَارُ وَلَا عَهْدَ الْحَمَى بِعَهْدِ

والقطعة تكثف بحب محروم يلذع قواد صاحبه لذهاب بنيرانه ، وبينما هو في آلامه وغصصه التي يتجرعها عزونا إذا نسيم نهد يبُّ عملاً بشذى عطر ، يرد الروح ، وكأنه رحيق الحياة ، غير أنه لا يكاد يعانق منه نفحة حتى يحس كأنما فارق كل ما كان به من برد ولطف وعاد سَومًا ، بل سَمًا . وبألهول نسيم أرج بارد يصيح ريحًا صومًا ساخنًا ، وإنه ليزيد نار حبه وَقْدًا واشتعالًا . ويتلفت يسأل الريح عن عجبوته ، وليس عند الريح من جواب ، وإنه ليسَ وينوح ويطلب من حامات اللوى أن تتوح وتن معه ، فهو أول من اللوى بالأنين والنواح ، إنه ليس عندها ما عنده من تبايرح الغرام ، فقد رحلت صاحبه ، ولم تعد دار العقيق دارها ولا عهد الحمى بعهد لها . لقد ذهب منه كل شيء ولم يعد له إلا النواح والبكاء . وله من أخرى في قَنَّا وحلاوتها وحسنها كما يقول المهاد الأصعياني :

أَرْقَى وَهُوَ الْمَهْبُ الْمَسْتَهْمُ مَا يُدَاوِي بِالتَّعَاوِيدِ الْغُصْرَامُ
قَصَّرَتْ عَنْ بَرِّهِ أَيْدَى الْأَسَا كَيْفَ حَسَمَ الدَّاءَ وَالْدَّاءَ عَقَامُ^(١)
يَا لَكَيْفَ الْحَقِيقِ التَّجَلُّ مِنْ تَجِدُ الْبَرِّ وَحَامِيهِ الْحُسَامُ
ودواء الحب في شَوْكِ الْقَنَا مَتَّ لَدَيْكَ كُلُّ دِرْيَاقِي سِيَامُ
قُلْ لَتَوَامِ الْغَضَا عَنْ سَاهِرٍ مَنْ تَجَافَاهُ الْمَوَى كَيْفَ بَنَامُ
غَيْثُ الشَّمْسِ عَنْ نَازِرٍ وَالضُّعَى مِثْلُ الدُّجَى كُلُّ ظَلَامُ

فجبه مرض عضال لا يداوى بالتعاويد والرقى ، وقد عجزت عن برِّه وشفائه أبدى الأسا والطب والعلاج ، إنه داء لا يمكن الخلاص منه ، وإنه للدغ الحقيق التجل الساهرة ، وكل درياق له أو دواء إنما هو رسم فلا يَنْدِرِي المصاب به أبشرب رَحِيقًا شافيا أم سَمًا قاتلا . وينتجبه إلى أهل الغضا يشكو سهادة وجفاء محبوبه ، فقد غابوا بشمسه عن

بصره ، وأصبح ضحاه مثل دجاء ، وأظلمت الدنيا في عينيه ، وأصبح كل شيء قِطْعاً من الظلام بعضها فوق بعض ، وعثا يرى نور محبوبته فقد أُرْخِيَ الظلام من حوله سُدُوله ولم يعد هناك أمل في انقراجه ، وهو يشق وينوح نواحاً لا ينقطع كما يقول ابن خلكان . ولعل في ذلك كله ما يصور كيف أن غزله الوجداني كان خليقاً أن تتداوله طائفة الرفاعية الصوفية ، لتعبر به عما يختلج في حنايا صدورهم وقلوبها من الحب الإلهي وكل ما يطوى فيه من وجد ولهفة ولوعة وظلم لا ينتهي إلى رؤية الذات العلية ، وكأنما مسته - كما تصور شيوخهم - بركة أنفاسهم ، أو كما تقول كأنما مسته أنفاس وجدهم الرباني الحار ، مما جعلهم يحفظون شعره ويتناشدونه ، وينشده معهم الوعاظ في وعظهم . ويروى ابن خلكان أن الشاعر مر يوماً على ابن الجوزي وهو يعظ الناس وهم مزدحمون في مجلسه ، وكان صعبه شديداً حين سمعه يستشهد على بعض إشاراته ببيت من شعره منها به .

الحاجري^(١)

هو أبو الفضل حسام الدين عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمار يكنى بن طاشيكن الإربلي المعروف بلقبه الحاجري نسبة إلى الحاجر بلدة كانت بالحجاز أكثر من ذكرها في شعره ، فُتِسب إليها . وهو إربلي الأصل والمولد والنشأ ، ويقول ابن خلكان إنه كان صاحبه ، ومع ذلك لا يذكر لنا شيئاً عن زمن مولده ولا عن أسرته ونشأته ، وكل ما يقول إنه جندى من أولاد الأجناد الأتراك ، ويبدو أنه كان على شيء من اليسار ، إذ لا نراه في ديوانه مشغولاً بممدوحين مختلفين يهددهم أشعاره ، إلا ما كان من مدحة يستهل بها ديوانه مدح بها الأمير ركن الدين أحمد بن الأمير شهاب الدين قراطاي بإربل ، ولعله أراد أن يستل من نفسه ضغينة عليه ، إذ جاء في مقدمة مدحته إنه كان السبب في مقتله ، ويقول ابن خلكان إنه خرج من إربل في سنة ٦٢٦ بينا كان الحاجري معتقلاً في قلعتها لأمر يطول شرحه ولعل الأمير السالف هو الذي دبر له هذا الاعتقال ، وله في ذلك أشعار يشكو فيها من حبسه مثل قوله :

قَيْدُ أَكْبَادُهُ وَسِجْنُ ضَيْقُ
يا ربَّ شابٍّ من المومِ المَفْرِقِ
ويذكر ابن خلكان أنه بلغه بعد ذلك خروجه من الاعتقال وأنه اتصل بخدمة الملك

(١) انظر في ترجمة الحاجري ابن خلكان ٥٠١/٣ منه مخطوطات كثيرة ، وهو حري بأن يفتقر والنجم الزاهرة ٢٩٠/٦ والشذرات ١٥٦/٥ ومجموعه طبع طبعة سقيمة بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وذكر بروكلمان

المعظم مظفر الدين كوكبوردى والى إربل من قبل صلاح الدين منذ سنة ٥٨٦ هـ وتقدم عنده وتزيراً بزي الصوفية . وتوفى مظفر الدين سنة ٦٣٠ فغادر الحاجرى إربل ، وكأنه كان لا يزال ينشئ بأس غريمه المذكور آنفاً ، غير أنه سرعان ما عاد إليها حين صارت فى مملكة الخليفة المستنصر بالله وتولاها عنه الأمير شمس الدين أبو الفضائل بانكين ، فأقام مدة قصيرة وهو لا يدرى أن وراءه من يقصده واتفق أن خرج يوماً من بيته قبل الظهر ، فوثب عليه شخص وضربه بسكين ضربة قاتلة توفى على إثرها فى شوال سنة ٦٣٢ ويقدر ابن خلكان عمره بخمسين سنة . ويقول : وله ديوان شعر تغلب عليه الرقة ، وفيه معان جيدة ، وهو مشتمل على الشعر والدوبيت والمواليا ، وقد أحسن فيها جميعاً مع أنه قل من يحميد فى مجموع هذه الثلاثة ، بل من غلب عليه واحد منها قصر فى الباقى ، وله أيضاً وكان وكان ، واتفقت له فيه مقاصد حسان وهو شعر عامى ، سنعرض له فى غير هذا الموضع . وأول ما نقرأ فى ديوانه مطلع مدحته لابن قراطايا « وفيه يقول :

ما للدموع نسلٌ سبيلَ الوادى	أَحَدًا يَرْكَبِ العامريةَ حادى
نعم استقلوا ظاهنين وخلفوا	ناراً لها فى القلب قَدْحُ زناد ^(١)
ما كان أطيّبَ للوداع عناقاً	لو لم يكن منا عناقٌ يَعاد
يا سائقَ الوجناء غيرَ مقصّر	بطوى المفاوز من رُبى ووهاد ^(٢)
مالى إليك سوى التحية حاجة	تلقى سعادَها ودَارَ سعاد
عَرَجُ برامةٍ إنْ رامةً منتهى	أملى وغايةً بُغْيى ومرادى ^(٣)
يا أيها الرشا الذى بلحاظه	دَعَجُ يصول به على الآساد ^(٤)
لقد فى كبدى التى أحرقتها	عَبَثًا يجمرة خَسَدُك الوقاد

وبلى هذا الاستهلال غزل من هذا الطراز يكاد يستفد الديوان جميعه بما فيه من مخمسات ودوبيات أو رباعيات ، وواضح أنه مرحلة جديدة للغزل بالبدويات الذى قرأناه عند اللتى والشريف الرضى ومهيار ، وكان الحاجرى استوعب غزلهم وتمثله تمثلاً نادراً ، فإذا هو ينفذ مثل ابن الملم إلى هذا الغزل الجديد الذى سميناه بحق شعراً وجدانياً ، شعراً ينساب من معين قُر لا يزال يتدفق حاراً دون أى تكلف أو تصنع . وإن نار الحب لتتقد فى قلبه وتسيل دموعه أنهاراً فقد فارقت صاحبه إلى رامة ، وهو لا يملك إلا أن يرسل إليها

(١) قَدَحُ الزناد : استخراج النار منه بضرب حجرين . (٢) رامة : موضع بالبادية .

(٣) الوجناء : الفتاة الشديدة . (٤) الدعج : اشتداد البرد واليباس فى العين .

بتحية رقيقة ، وإنه ليدكر سهام عينيها الفاتنين ويضع إليها مستطفاً لكبدته التي أحرقتها
بجمرة خدّها الوقاد ، ونفس دائماً كأنما بتوجع حقاً من حريق فكل شيء من صاحبه
يلهب صدره وقلبه بنار لا تخمد أبداً حتى الرضاب أو اللريق ، يقول :

ويلاه من بَرْدِ رَضَابٍ لها أشكو إلى العُدَالِ منه الحريقُ

وهو في أثناء هذا الحريق الذي يأخذ فواده من كل جانب يلتاع لوحات ممضة ، كان
يرجّح منها دائماً ، فيهتف منشداً أشعاره الوجدانية التي تكتظ بالحنين إلى رؤية صاحبه في
رامة وغير رامة من منازل نجد والحجاز ، مثل قوله :

إِنَّ الْأَلَمَى رَحَلُوا غَدَاةَ مُحَجَّرٍ ملئوا القلوبَ لواعجَ الأحزانِ
نزّلوا برامةَ قاطنينَ فلا تُكَلِّ ما حلَّ بالأغصانِ والنُزُلانِ
فلا يَمُتُّنَ مع النسيمِ - إليهمُ شكوى تَميلُ لها غُصُونُ البانِ
يا عاذِلُ فيمن أحبُّ جهالةً عني إليك فليس شأنك شافي
لَمْ لا أَحِزْ إلى الحجازِ صباةً ويحودُ دمعُ العينِ بالهملانِ

فقد رحلت صاحبه عنه وتركته بمحاجر يشكو آلام حبه ولواعج حزنه وأوجاعه ، ونزلت
رامة فأخطت بقدّها وجمال عينيها الأغصان والنزّالان ، ولم يعد له إلا أن ييمت إليها
بالسلام مع النسيم ، لعلها ترقّ له وتذكّره ، ويلتفت إلى عدّوله بنهاء أن يتعرض له فليس
من دبره ، وليس ذلك من شأنه ، ويتسامد إن كل محب ليصبر قلبه إلى الحجاز ونازله ،
ويذرف الدمع مدراراً . لغة سهلة هي لغة الشعر الوجداني الذي ينساب في النفس
انسياً . وله قصيدة تفيض بحنين رائع صوّد فيها تصويراً بديعاً حزنه لفراق صاحبه كأقوى
ما عرف الناس من الحزن للفراق بين المحبين قاللاً :

أَحِبَّائِي بِشَمِّ عَنِ الْحَتَفِ فَاشْتَكْتِ لُبْدُكُمْ أَصَالَهَا وَضَحَاها
كَأَنَّكُمْ يَوْمَ الرَّحِيلِ رَحَلْتُمْ بنومي فمضى لا نُصِيبُ كَرَاهَا^(١)
رعى الله ليلاتي بطيب حديثكم تَقَضَّتْ وَحْيَهَا الْحَيَا وَسَقَاها
فأ قلتُ إِيَّاهُ بعدها لمسائر من الناسِ إِلَّا قالَ قَلْبِي آما
مَنْ تَقْضَى أَيْامُ ذُلِّي وَأَجْتَنِي ثَمَارَ وَصَالٍ قَدْ حُرْمَتْ جَتَاها
وَأَسْتَصْبُ الْقَوْمَ الَّذِينَ بِمَهْجَتِي لَفَقْدَهُمْ نَارٌ يَشِيبُ كَلَامَاها

فهو لا يشكو فراقهم بل تشكوه معه الطبيعة ، وإنه ليشكو من سهاده ، فالنوم لا يلُمُّ لئلا بطرفه ، وهو يذكر ليلاّت سمره مع صاحبتة ويدعوها مذيّا في دعائه حينئذ حاراً ، ويصور نفسه ، فهو مع سمره أحياناً لا يزال قلبه يتوجع ، وهو مع ابتساماته تملأُ المصوم أحشاه ، وإنه ليتمنى أن يجمع بصاحبتة ويفتطف ثمار وصاله ويطفئ النار التي تستمر بفؤاده .

وله بجانب هذه الأشعار الوجدانية البديعة مخمسات بنفس الروح ونفس المعاني والوجد والصبابة كقوله في فاتحة مخمس :

خَلِيلِيْ عَوْجًا بِالْقَوَيْرِ وَكُتْبِيْ وَلَا تَمْنَعُ الْمَشَاقَّ مِنْ لِّكْمِ تَرْبِيْ
هُوَ الصَّبُّ يُضِيهِ الْهَوَى دُونَ صَحْبِيْ خُذْهُ مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَانًا لِّقَلْبِيْ
فَقَدْ كَادَ رِيَّاهَا يَطِيرُ بَلْبِيْ

والقوير : ماء في بادية الشام ، والديوان يطفح بأسماء المواضع والمنازل في نجد والحجاز . وفي ديوانه رابعة يُذِيب فيها وجدّه وحبه قائلاً :

حَيًّا وَسَقَى الْجَمِيَّ سَحَابٌ هَامِي مَا كَانَ اللَّهُ عَامَةً مِنْ عَامِ
يَا عُلُوَّةُ مَا ذَكَرْتُ أَيْامَكُمْ إِلَّا وَتَظَلَّمْتُ عَلَى الْأَيَّامِ

وقد نوه القدماء طويلاً بما في شعره من انسياب موسيقى رائع : وبلغ من إعجابهم به أن سموا ديوانه « بلبل الغرام الكاشف عن لثام الانسجام » وفي دار الكتب المصرية مخطوطة شعرية له باسم : « القصائد الحجازيات في مدح خير البريات » وهي مجموعة من المدائح النبوية ، لم يضمن ديوانه منها شيئاً .

التَّظَنُّرِيُّ (١)

هو شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالتَّظَنُّرِيُّ نسبة إلى « تل أعقر » بين سنجار والموصل ، ويروى ابن خلكان عنه أنه ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ . وبها كانت نشأته وتربيته الأدبية . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرأى أن يمدح الحكّام والأمراء على عادة الشعراء في عصره ، ولم يكتف بأمراء موطنه ، فقد انجبه بمدحهم أيضاً إلى أمراء الشام ،

(١) انظر في ترجمة الظنري ابن خلكان ٤٠/٧ ، ٤٥ . وشذرات الذهب لابن المهدي ٧٤٩/٥ . ويهزّ طبع قديماً وفوات الوفيات لابن شاذكر ٥٤٦/٢ . والجمهر الزاهرة في القاهرة وبيروت .
٢٦٥/٧ ، ٣٧٢ . والفلاحة والفتوكون ص ٢٦٥

ولزم كثيرين منهم وخاصة الملك الأشرف موسى الأيوبي الذي ظل مستولياً على صولجان الحكم في دمشق من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٦٣٥ وكان يسبق عليه كثيرا من العطاء الجزل ، غير أن التلعفري كان مقرئ بشرب الخمر والقمار ، وكان الأشرف موسى يراجع في ذلك كثيرا ، ولم يكن يصبر عليها أو يستطيع شيئا من الصبر ، وفي ذلك يقول :

أَقْلَعْتُ إِلَّا عَنِ الْعُقَارِ وَتَبْتُ إِلَّا مِنَ الْقَارِ
فَالْكَأْسُ وَالْقَمَرُ لَيْسَ يَخْلُو مِنْهَا يَمِينِي وَلَا بَسَارِي

ولا أعيت الحليل الأشرف موسى معه أمره بمغادرة دمشق ، فتركها إلى حلب وصاحبها الملك الناصر الأيوبي ، فقرّبه منه ، وجعله من جلسائه ، وقرّر له راتباً ، راجياً أن ينوب ويتوب ، غير أنه سرعان ما عاد إلى سيرته السيئة في دمشق ، فكان يشرب ويقامر بكل ما يحصل عليه من مال ، حتى قيل إنه قامر بشيابه ونعليه . وعرف ذلك الملك الناصر ، فأمر أن ينادى في حلب من قِبَل السلطان : « مَنْ قَامَرَ مَعَ الشَّهَابِ التَّلْعَفَرِيِّ قَطَعْنَا يَدَهُ » فضاقت عليه حلب وأرضها بما رحبت وعاد إلى دمشق ، وكان الملك الأشرف موسى قد توفى ، وظل بها يستجدي ويقامر حتى ساءت حاله سوءاً شديداً . ورحل إلى مصر في هذه الأثناء إذ يقول ابن خلكان إنه لقيه بها سنة ٦٣٨ وعاد منها لا إلى دمشق ولا إلى حلب ، بل إلى حياة وصاحبها الملك المنصور ، فاحتج به وأضنى عليه عطاء وفيرا أتاح له بأخرة من حياته عيشا كريما . وظل بحماة حتى وفاته سنة ٦٧٥ وكان آخر ما تلفظ به من شعره قبيل موته .

إِذَا مَا بَاتَ مِنْ تَرْبٍ فِرَاشِي وَبْتُ بِجَاوِرِ الرَّبِّ الْكَرِيمِ
فَهَنُونِي أَصْحَابِي وَقُولُوا لَكَ الْبُشْرَى قَدِمَتْ عَلَى رَحِيمِ

وليس في الديوان مدحة من مدائحه ، إلا ما قد يشير إلى بعضها في الأبيات التي يخنم بها ما احتفظ به من بعض مطالعها ، وبذلك يصبح الديوان كله غزلا ، وهو غزل من طراز غزل الحاجري ، أو هو بعبارة أدق شعر وجداني يسيل رقة وعذوبة وسلاسة ، وكأنه الماء الخمر حلاوة وصفاء ورشاقة ونعومة حتى ليشفع له فيما أثبتل به من القمار ، وهو فيه يجرى على هذا النمط الوجداني الرائع :

أَيَّ دَمْعٍ مِنَ الْهَيْفُونَ أَسْأَلُ إِذْ أَتَيْتُهُ مَعَ النِّسَمِ رِسَالَةً
سَلَّ عَقِيْقَ الْحَيِّ وَقُلْ إِذْ تَرَاهُ خَالِيًا مِنْ ظِيَامِهِ الْهَنْتَالَةَ

أين تلك المرافئ الصَّلَا ت تلك المعاطف الصَّلَا (١)
 وليالٍ قضيتها كلالٍ بنزالي تغار منه الغزاة (٢)
 بابلي الألفاظ والريق والأل غاظ كل مدامة سَلَا
 وسقم الجفون والخصر والعهد لي فكل تراه يشكو اعتلاله
 أوقع الوهم حين يرمى فلم ند ر يده أم عينه النبالة

والقصيدة كلها تنوح بهذه الرقة والعذوبة مع الانسياب والتدفق ، وكأننا بإزاء جدول يسيل شعرا ووجداء وهياما ، مع جمال القافية وحسن الألفاظ وطواعيتها للشاعر ، وكأن كلا منها تجذب صاحبها تريد أن تعانقها عناق ذوى الرحم والقرابة . وتلك الألفاظ والريق والألفاظ لصاحبه جميعا كأنها رحيق مسكر ، وما أجمل جمعه بين سقم الجفون وفنورها وهو جمال وحسن فيها ، وبين الخصر وسقمه أو نحوله وهو يستحب فيه ، وأخيرا بين هذين السقمين وسقم عهد صاحبه فهي تدل عليه ولا تنى بوعدا ، وهكذا يشكو كل سقمه واعتلاله . ودائما يذكر الشراء سهام العيون وكيف تصفى الأفتدة ، وهو يضم إليها سهام الأيدي الفاتنة ، فلا يدري أحد من أين يأتي النبل أمن الأيدي أم من العيون ، ويكرر كثيرا أن حاجبي صاحبه قوسان كبيران لا يزالان يرسلان النبل والسهام ويصوبانها إلى العاشقين المقتونين . وله بصور ألم الفراق .

إني لأعجب من محبٍ مُشْفَقٍ عيشا له من بعد حث الأيتي
 بأبها الحادى يعزوك سالما ألا رثيت لشمنا المتزقي
 أرح المطى وها فزادى فاقبس . وامتن على وها دموى فاستني
 ليس التعجب من رقادى - إذ مضى - فيه ولكن من جميعي إذ بقى
 لدلاله ذللى به ولجبه وهواه ما يلتقى الفؤاد وما لنى

فهو يعجب من أن يعيش العاشق الولهان بعد فراق صاحبه ، وإنه ليهتف بالحادى أن يريح مطيه ، وإذا كان يريد نارا فليقتبسها من فؤاده ، أو ماء فليستق من دمعه التى تتدافع سيلاً مدرارا . ويأسى لبخته أو حظه إزاء صاحبه ولا يعجب من سهاده فيها ، بل يعجب من أن يظل جميعه حيا يتنفس ، وإنه ليتذلل ويضرع أمى ووجداء . وكل ذلك شعر وجداني وقف عليه التلعفري - مثل أستاذة الحاجرى موطنه - حياته وشعره ، وله موشحة وحيدة مدح بها العزازى الشاعر الوشاح المصرى احتفظ الديوان بها تامة وهى من

(١) الصلوات : النسبة إلى الصل ، ولأرواء بالمعطف (٢) الغزاة : الشمس .

القوام . الصللة : الية .

نفس المعين الذى يستمد منه شعره الوجداني ، على نحو ما يتضح من قوله في مطلعها :
 ليس يَرَوِي ما بقلبي من ظَمًا غَيْرَ بَرَقٍ لائِحٍ من إَصَمٍ^(١)
 إِنْ تَبَدَّى لك بَأْنُ الْأَجَرِ^(٢)
 وَأَثِيْلَاتُ النَّفْسِ من لَمَعٍ^(٣)
 يا خليلي قِفْ على الدار معي
 وتأملْ كم بها من مَضَرَعٍ
 واحترِزْ واحترِزْ فأحداقُ اللَّيْلِ كم أَرَأَيْتْ في رُبَاهَا من دَمٍ

وللحاجري موشح في ديوانه ، ولكنه لا يبلغ جمال هذا الموشح في موسيقاه ورصف ألفاظه . وليس معنى ذلك أن التلعفري يتفوق على الحاجري في روعة شعره ، فالحاجري هو الأستاذ وهو الذى مهد الطريق وعبدها للتلعفري ، وهما جميعا يميلان في غزلها تجلية بديعة . ويقول ابن تَنَرِي يَرَدِي عن التلعفري إنه كان يتشيع ، ولكنه لم يفسح لنحلته في شعره .

٢

شعراء اللهور والمجون

مررنا في حديثنا عن المجتمع في الفصل الأول كيف أن الطبقة المترفة من الحكام والوزراء وعلية القوم كانت تنغمس في الترف ، وكيف كان كثيرون منها يقبلون على اللهور واحتساء الخمر في مجالس أنس كانت لا تزال تتخذ في بغداد ، وذكرنا من بين هذه المجالس مجلس الوزير المهلبى ومن كان يحضره من القضاة والفقهاء وكيف كانوا يطرحون الحشمة والوقار ويقبلون على القصف والملاعبة والرقص ، وفي يد كل منهم طاس مملوه خمرًا يعبُّ منه عبًّا . ولم يكن جميع الوزراء مثل المهلبى ، ولكن كثيرين منهم كانوا يقيمون هذه المجالس وإن لم يتسعوا مثله في اللهور والمعبث ، وبصور محمد بن أبى المطهر الأزدي في كتابه « حكاية أبى القاسم البغدادى » - الذى عرضنا له في غير هذا الموضع - بعض هذه المجالس في القرن الخامس الهجرى وكيف كانت تعمق بالطيب على بساط الرياحين

(١) إصم : الرادى الذى فيه اللبنة المنزوعة . (٢) أثيلات : شجر . (٣) أثيرات : القطعة من الرمل .

(٤) أثير : شجر . والأجرج : الرملة الطيبة للثب . لعل : ماء بالبادية .

والورود وكيف كانت نهباً للأنس رياح ، سحابها الأقداح ، ويرقها الراح ، وقد نطقت
 ألسنة العبدان والنباتات تسند غناء الجوارى والمغنين بألحانها الشجية ، وبطيل في وصف
 الحمر وأن منها ما كأنه حُصر من غَدَّ الشمس ، وما هو أصنى من الماء ، وأرقى من دَمعة
 العاشق المهجور^(١) . والكتاب إنما كتب في وصف الجون ببغداد لمصر مؤلفه ، وينبئ أن
 لا نظن أنه يمثل صورة الحياة العامة ، إنما هي صورة حياة طبقة خاصة هي الطبقة المترقة ،
 وكان وراءها الشعب يكدح وينصبُ جبينه هرقاً كي تملأ هذه الطبقة بطونها وتغلا مجالسها
 بالشرب من الطاس والكاس . وحقا كانت للشعب مواسم للهو والمث ، غير أنها قلما
 تعدت أعياد الجوس والنصارى مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

على كل حال ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما كان ببغداد من اللهو والجون ، وأن نقصر
 ذلك على الفتنة الأرستقراطية أما الشعب فحسبه منها ما كان يستمتع به من هو في بعض
 الأعياد وخاصة أعياد الربيع ، وظل ذلك طوال العصر ومن خير ما يصوره مقامة لظهر
 الدين الكازرونى المتوفى سنة ٦٩٧ عرض فيها لهذا الجانب من هو البغداديين وخروجهم إلى
 الرياض وترتهم في الحدائق والأنهار قائلا : « أما زمان الربيع وأيام الوشى البديع فإنهم
 كانوا يصلحون ويتجمعون ويتألون (كأنهم إلى نُصَب يؤفصون) فيترلون الجوارى
 (السفن) في رهط من الجوارى ، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون إلى قَصده . . . ويجترقون
 أشجاره ويقطفون ثماره وتؤاره ، ويفترشون رياضه وأزهاره ويترلون فيطانه وأنهاره ، ثم
 ترمز القيان وتصطبغ الميدان ، وتصفُق القُدران ، وترقص الأغصان ، وتعيد
 الأفنان ، وكلما دَمَع (امتلأ) الرأووقُ (دَنَ الحمر وطاسه) طاب المشوق . . . وكلما طرب
 العود ، زبحرت الزهود ، وقد انتظمو في سلك الراحة ، واجتمعوا للاستراحة ، كذلك
 أياما لا يطعمون مناما^(٢) » ولم تكن حانات بغداد في الكرخ ولا حانات المتزهات وحدها
 هما اللتان يجد فيها عشاق الجون ما يصبون إليه من الحمر بل كانوا يجدونها أيضا في
 الأديرة .

وبذلك كله ظلت الحمرية تزدد على ألسنة الشعراء ، وظلوا يصوغونها ، وكل منهم
 يحاول أن يأتي فيها بمقطوعة أو قصيدة بديعة ، وقد نُظمت كثير من الحمريات في مجالس
 الوزير المهلبى ، ولعل جليلة القاضى أبا القاسم التنوحي كان الجهلى بين ناظميها يمثل قوله في

(١) حكاية أبي القاسم البغدادى ص ٤٥ وما بعدها . ص ٢٧ .

(٢) انظر مقامة ظهور الدين الكازرونى (طبع بغداد)

إحدى خمرياته^(١) .

وراح من الشمس مخلوقةً بدت لك في قدح من نهار
هواء ولكنّه جامدٌ وماء ولكنه غير جارٍ
وهو تصوير بديع أن يجعل الخمر شمساً أو قطعة منها وماء غير جارٍ والكأس نهاراً وهواء
جامداً . وكان كثيرون من أهل بغداد رجالاً ونساء يحفظون الخمرية لجمال تصويرها ، يدل
على ذلك ما حكاه ابن خلكان - في ترجمة صاحبيا - عن الحسن بن عسكر الصوفي
الواسطي قال : كنت ببغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة جالساً على دكة بباب أيرز
للفرجة إذ جاء ثلاث نساء فجلسن إلى جانبي ، فأشدتُ تمثلاً :

هواء ولكنّه جامدٌ وماء ولكنه غير جارٍ
وسكت ، فقالت إحداهن : هل تحفظ لهذا البيت تماماً ؟ قلت : ما أحفظ سواه ،
فقالت : إن أشدك أحدٌ تمامه وما قبله ماذا تعطيه ؟ قلت ليس لي شيء أعطيه ،
فأنشدتني الخمرية وزادت بعد البيت السابق :

إذا ما تأملتُها وهي فيه تأملت نورا مُحيطاً بنارٍ
فهذا النهاية في الايضاض وهذا النهاية في الاحمرار

فحفظت البيتين منها . وإنما رويتنا ذلك لدل على ظرف الجوارى في بغداد وأن سوق
الخمريات كانت رائجة ، ولذلك كان الشعراء يحاولون الإبداع فيها والإنبان بالمعاني المتكررة
الطريقة كقول البيهقي في عتق الخمر^(٢) :

وعريقة الأنساب والشيم موجودةً والمخلق في القدم
هي آدم الكرم المولد في الـ مدنياً وحوّاً الخمر في القدم
ظهرت ونور الشمس في فلكٍ من قبل خلق الصبح والظلم
واشتق معنى اسم السلاف لها من كونها في سالف الأم

ويون بعيد بين هذه الخمرية وخمرية التنوخي في بعد الخيال والتصوير . ومن قديم يمزج
الشعراء في الخمرية بين الحب ونشوة الخمر . ومن طريف ما كان يطرب الناس ببغداد لعهد
أبي حيان التوحيدي غناء سندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد ، وهي تشاجي
وتدلل وتنايل وتكسر متغنية بهذه الخمرية^(٣) .

(١) انظر ترجمة القاضي التنوخي في ابن خلكان (٢) البنية ٢٦٢/١ .

٣٦٦/٣ والجواهر للضبي ومجمع الأدباء ١٦٢/١٤ . (٣) الإمتاع والمؤانسة ١٧٣/٢ .

جَلَسُ صَبِينُ عَمِيدَيْنِ لَيْسَا مِنَ الْحُبِّ بِخَلَوَيْنِ
 قَدْ صَبَرَا رُوحِيهَا وَاحِدَا وَاقْتِسَامَا بَيْنَ جِسْمَيْنِ
 تَنَازَعَا كَأَسَا عَلَى لَذَّةٍ قَدْ مَرَّجَاهَا بَيْنَ دَمْعَيْنِ
 وَالْكَأْسُ لَا تَحْسُنُ إِلَّا إِذَا أَدْرَجَتْهَا بَيْنَ مُحِبَّيْنِ

ومن قديم أيضا يمزج الشعراء بين النشوة والخمر والنشوة بالطبيعة ، إذ كانوا فعلا كما مر بنا يشربونها على أبسطة الريح وبين آسه وورده وزهره ، ونقلوا الأزهار إلى مجالسها ، حتى تعمق بواطنها أو قل نقلوا الريح بكل ما فيه نقلا يأخذ بمجامع القلوب ويمتزج بالنفوس . فكان طبيعيا أن يتحدث الشعراء في خمرياتهم عن جمال الطبيعة وجمال الورود والرياحين في الريح ، وقرنوا إلى ذلك سقوط الثلج في الشتاء كقول الوزير المهلب في إحدى خمرياته ^(١) :

الوردُ بين مضمضٍ ومضرجٍ والزهرُ بين مكلولٍ ومتوجٍ ^(٢)
 والثلجُ يهبطُ كالنثارِ فقمُ بنا نلتذُّ بابه كزمةٍ لم تمزج ^(٣)

وكان الغناء يرافق الخمر ، كما أشرنا إلى ذلك ، فعرضت خمريات كثيرة للغناء والخمر معا ، كما عرضت أخرى للغزل بالسقاة من الغلمان ، وكثير منه كان يقصدُ به إلى التندر والدعابة في أثناء السكر . وكان الغزل بالغلمان لونا من ألوان التماجن في العصر ، وهو - لاشك - وصمة معيبة في جبين أصحابه .

ودفع التماجن إلى ظهور أشعار لا يستحي أصحابها من ذكر العورات والإسراف في القمض ، ونعجب الآن أن يتخذ ذلك ضريا من الهزل والتسرية عن الناس ، وكأنما أعيانهم أن يُسرَّوا عن أنفسهم ، فالتمس بعض الشعراء هذه التسرية التي تؤذى النفوس الكريمة . وكان شعراء هذا الهزل المماجن يمزجونه بفكاهات ونواذر ودعابات كثيرة ، وكأنهم أحسوا أنه يجب تخفيف حدثه ، وأنى لهم ؟ ! فقد كان يمتلئ بسخف كثير ، وسخفه ليس ناشئا عن التورط في الخمر فحسب وإنما أيضا عن التورط في وصف الفواحش والتصريح بالآثام في غير استحياء . وكان الذي دفع إلى ذلك ابن سكرة وابن الحجاج في القرن الرابع ، غير أن شعراء الخمر أنفسهم من حولها ومن بعدهما كانوا يترفعون عن هذا الدرك

(٣) النثر : ما يثر في خلات القرس والسرود من

(١) البنية ٢/ ٢٣٧ .

(٢) مضمض : ملطخ بالطيب ، مضرج : ملطخ بقود أو حلوى .

بالخمر .

الأسفل من التصريح بالآثم على نحو ما نرى في خمريات عبد الصمد^(١) بن بابك المتوفى
بعدها سنة ٤١٠ وله من خمرية :

عَقَارٌ عَلَيْهَا مِنْ دَمِ الصَّبِّ نَفْضَةٌ وَمِنْ عِبَرَاتِ الْمُسْتَهَامِ فَوَاقِعُ
مَعْرُودَةٌ غَضَبٌ الْعُقُولِ كَأَنَّمَا لَهَا عِنْدَ أَلْبَابِ الرِّجَالِ وَدَائِعُ
تَحْيِيرِ دَمْعِ الْمُزْنِ فِي كَأْسِهَا كَمَا تَحْيَرُ فِي وَرْدِ الْخُدُودِ الْمَدَامِعُ

وقد أبدع في تصوير فواقمها في كأسها بأنها عبرات شاربها العاشق الوهّان ، ويقول إنها
استردت منه ودبعتها ، ففارق عقله . ويصل بين امتزاج الماء بالخمرة الحمرة في كأسها وبين
الدموع وتحددها على حدود الهبوية الموردة ، وله من أخرى :

يَا صَاحِبِي إِمْرُجَا كَأْسَ الْمُدَامِ لَنَا كَمَا يُقْصَى لَنَا مِنْ نُورِهَا الْقَسَقُ
خَمْرًا إِذَا مَا نَدِيمِي هُمْ بِشْرُهَا أَخْشَى عَلَيْهِ مِنَ اللَّأْلَاءِ يَحْتَرِقُ
لَوْ رَامَ يَحْلِفُ أَنَّ الشَّمْسَ مَا غَرَبَتْ فِي فِيهِ كَذْبُهُ فِي وَجْهِهِ الشَّقَقُ
وخوفه على نديمه من الاحتراق في لألاء الخمر غريب ، وأغرب منه دعواه أن الشمس
غربت في فيه بدليل ما تضرع به حدوده من حمرتها ، وكأنها تركت عليها شفقها أو
بصابتها الحمراء . ويظل الشعراء بعد ابن بابك ينظمون في الخمر متفتنين في معانيها يحاولين
بكل جهدهم أن ينفذوا فيها إلى طرائف جديدة ، على نحو ما يلقانا عند سبط ابن
التعاويذى والهاجرى والثقفري وصلى الدين الجلي . وانحصرت موجة الجون والفحش
بذلك عند ابن سكرة وابن الحجاج وتراجعت عند خالفهم وكادت تنحصر في شعر هزل
مضحك على نحو ما هو معروف عند صريع^(٢) الدّلاء المتوفى بمصر سنة ٤١٢ من مثل
قوله :

مَنْ مَضَعَ الْأَحْجَارَ أَدَمْتُ فَكَّهُ فَالْفُرْسُ لَمْ تُحْلَقْ لِتَلِينِ الْحَصَى
مَنْ قَطَعَ النَّحْلَ وَظَلَّ رَاجِيًا ثَمَارَهَا فَذَلِكَ مَقْطُوعُ الرَّجَا
وقد يحاول شاعر من باب الدّعابة محاكاة ابن حجاج أو ابن سكرة ، غير أنه يخفف
جدا من تراجته وتماشه بحيث لا يستخدم شيئا من ألفاظ الفحش ، إنما يكتفى ببيان عكوفه
على الخمر وأنها كل لدنه في دنياه ، حتى إنه لا يستطيع أن يهجرها في ليالي رمضان

(١) انظر في ترجمة عبد الصمد البنية ٣٧٤/٣ وابن خلكان ١٩٦/٣ وغيره في ١٠٢/٣ والنجم الزاهرة ٢٤٥/٤ والثلوث ١٩١/٣ . وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان مخطوط . ٢٥/٥ .
(٢) انظر في ترجمة صريع الدلاء حصة البنية للنايلي ١٤/١ وابن خلكان ٣٨٣/٣ وغيره في ١١٠/٣ والثلوث ١٩٧/٣ وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان مخطوط . ٦٥/٢ .

قبل سحوره ، وفي ذلك يقول ابن السَّوَادِي (١) من شعراء القرن السادس مَاجَنَا :
الصُّبُوحَ الصُّبُوحَ فِي شِعَابِنِ لَا تُخْلُوا بِهِ مَعَ الْإِمَّاكِينِ
وَأَسْتَبِيهَا يَوْمَ الثَّلَاثِينَ فِي الشُّكْرِ وَبَعْدَ السُّحُورِ قَبْلَ الْأُذَانِ

وبعد أن تَاجَن طَوِيلًا فِي الْقَصِيدَةِ رَاجِعَ نَفْسَهُ وَعَادَ يَعلنُ حَسْنَ إِسْلَامِهِ وَطَاعَةَ رَبِّهِ
وَأَنَّهُ بَرَاءٌ مِنْ كُلِّ مَا يَصِفُ بِهِ نَفْسَهُ ، قَائِلًا :

نُتِّىَ غَيْرَ مَا سَمِعْتُ وَمَا كَانَتْ لِسَانِي عَنْ نُتِّىَ تُرْجَانِي

ومضى يذكر أن عُدَّتَهُ فِي مَعَادِهِ شَفَاعَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَلَى وَفَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ
وَالْحُسَيْنِ ، وَبِذَلِكَ مَحَاطِلَ مَا جَاءَ بِهِ فِي قَصِيدَتِهِ مِنْ تَاجَنٍ ، مَصْرُوحًا بِعَقِيدَتِهِ الشَّيعِيَّةِ
وَمَا يَعتقدُهُ الشَّيْخَةُ فِي شَفَاعَةِ عَلِيٍّ وَالسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ وَالْحُسَيْنِ وَالْحُسَيْنِ . وَمَا دَعَا بِصَدَدِ التَّاجَنِ
فَحَرَى بَنَا أَنْ تَتَوَقَّفَ قَلِيلًا عِنْدَ عِلْمِيهِ فِي الْعَصْرِ : ابْنُ سَكْرَةَ وَابْنُ الْحَجَّاجِ .

ابن سَكْرَةَ (٢)

هو أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ سَكْرَةَ الْبَغْدَادِيُّ الْهَاشِمِيُّ ، وَهُوَ مِنْ
سَلَالَةِ عَلِيِّ بْنِ الْمُهَدِيِّ بْنِ أَبِي جَعْفَرِ النَّصُورِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمَشْهُورِ ، وَيُبدُو أَنَّهُ كَانَ فِي
يَسَارِ وَسْعَةٍ مِنَ الْمَالِ وَأَنَّهُ عَاشَ لِلْمَجُونِ وَالْمُتَلَاعَةِ . وَلَسْنَا نَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ نَشَأَتِهِ وَتَرْبِيَتِهِ
وَحَيَاتِهِ إِلَّا مَا يَصِفُهُ بِهِ التَّعَالَى فِي الْبَيْتَةِ مِنْ قَوْلِهِ : « هُوَ شَاعِرٌ مَنُوعٌ الْبَاعِ ، فِي أَنْوَاعِ
الْإِبْدَاعِ ، فَاتَّقِ فِي قَوْلِ الْمَلِيحِ وَالْعُطُوفِ ، أَحَدَ الْفُحُولِ الْأَفْرَادِ . جَارٍ فِي مِيدَانِ الْمَجُونِ
وَالسَّخَفِ مَا أَرَادَ . » وَيَقَالُ إِنَّ دِيْوَانَهُ يَرُوبُو عَلَى خَمْسِينَ أَلْفَ بَيْتٍ ، مِنْهَا فِي قَبْنَةِ سَوْدَاءَ
يَقَالُ لَهَا خَمْرَةٌ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرَةِ آلَافِ بَيْتٍ ، وَكَانَتْ عُرْضَةً نَوَادِرِهِ وَمُلَحِّهِ . وَحَكَى بَعْضُ
مُعَاصِرِيهِ أَنَّهُ حَلَفَ بِطَلَاقِ امْرَأَتِهِ - وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّهِ - أَنَّهُ لَا يَجْعَلُ يَبَاضُ يَوْمَ مِنْ سَوَادِ شَعْرِهِ
فِي هِجَاءِ خَمْرَةٍ ، وَلَمَّا عَلِمَتْ امْرَأَتُهُ بِالْقِصَّةِ كَانَتْ كُلَّ يَوْمٍ إِذَا اتَّخَلَّتْ زَوْجَهَا مِنْ صَلَاةِ
الصُّبْحِ تَجِيءُ بِالدَّوَاةِ وَالْقِرْطَاسِ وَتَلْزِمُ مَصْلَاهُ لِرُؤْمِ الْغَرِيمِ غَيْرِ الْكَرِيمِ ، فَلَا تَفَارِقُهُ مَالَمْ
يَقْرُضُ وَلَوْ يَتَنَاقَى ذِكْرُهَا وَهَجَاتُهَا . وَتَدُلُّ الْأَشْعَارُ الَّتِي أَنْشَدَهَا لَهُ التَّعَالَى عَلَى شَاعَرِيَّةِ
خَصْبَةٍ فِي الْغَزْلِ وَغَيْرِ الْغَزْلِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

(١) رَاجِعْ فِي تَرْجُمَةِ ابْنِ السَّوَادِي وَشِعْرِهِ الْخَرِيدَةِ
(قِسْمُ الْعِرَاقِ) ٣٩٩/١/٤ وَابْنُ خُلِّكَانَ ٤٨١/٣ .
(٢) انْظُرْ فِي تَرْجُمَةِ ابْنِ سَكْرَةَ وَأَشْعَارِهِ الْبَيْتِيَّةِ ٣/٣
وَتَارِيخُ بَغْدَادٍ ٤٦٥/٥ وَلِلْمُتَّظِمِ ١٨٦/٧ وَغَيْرِ الْعَمِيِّ
٣٠/٣ وَابْنُ خُلِّكَانَ ٤١٠/٤ وَالشَّافِرَاتِ ١١٧/٣ وَمِرَّةَ
الْمِجَانِ لِلْيَافِيِّ ٤٢٧/٢ وَالرَّوَالِ ٢٠٨/٣ .

حَذَارٍ مَنْ وَضِلَ مَنْ بَلَيْتُ بِهِ فَقَدْ لَقِيتُ الرَّدَى بِجَفَوْنِهِ
 دَنُوتٌ مِنْهُ كَمَا أَقْبَلُهُ فَلَمْ تَدَعْنِي نِيَانُ وَجَنَّتِهِ
 فقد جعل النيران المشتعلة في وجنات محبته وخدودها تدفعه دفعا وترده ردا عني ،
 ومن هذا النمط قوله متغزلا :

مَنْعَتْنِي مِنْ مُقْبِلِهِ حِينَ أَذْنُو مِنْهُ عَقْرُهُ
 وَاسْتَدَارَتْ فَهِيَ تَحْرُسُهُ مِنْ فِي بُخْلًا وَتَرْقُبُهُ
 وكانت النساء تلوى على أصداعها خصلة من شعرها في شكل عقرب تزينا ونجملا ،
 فاستغل ذلك حتى النهاية ، إذ الخصلة مثل العقرب تستدير وترتفع في طرفها ، وكأنها تراقب
 صاحبها وتستعد للدغ من يقرب من خدودها . ولن نستطيع أن نروى شيئا من فحشه في
 الغزل ، ونكتفي بذكر بعض آيات تصور مجونه دون أن تؤذي الذوق ، من ذلك قوله :

وَيَوْمٍ لَا يَبْقَاسُ إِلَيْهِ يَوْمٌ بِلَوْحٍ ضِيَازُهُ مِنْ غَيْرِ نَارِ
 أَقْنَا فِيهِ لِلذَّاتِ سَوْقًا نَبِيعَ الْعَقْلِ فِيهَا بِالْعُقَارِ
 فهو يعيش للإكباب على اللذات والانهاك في المجون والعب من الخمر وإنه ليقم
 للمجون سوقا يبيع فيه عقله ببيع وَكَسْرٍ يَدْنُ زَهِيدٍ من الخمر يفقده رشده ، ومن قوله :
 اشْرَبْ فَلْيَوْمٍ فَضْلٌ لَوْ عَلِمْتَ بِهِ بَادَرْتُ بِاللَّهْوِ وَاسْتَعْمَلْتُ بِالطَّرِبِ
 ورد الحدود وورد الروض قد جُمعا وَالغِيمِ مَبْتَسَمٌ وَالشَّمْسُ فِي الْحُجْبِ
 لَا تَحْبِسُ الْكَأْسَ وَاشْرَبْنَهَا مُشْعِشَةً حَتَّى تَمُوتَ بِهَا مَوْتًا بِلَا سَبَبِ

وقد جعل كل شيء في الزمان والمكان بحث على اللهو والطرب ، فقد اجتمعت الخمر
 وورد الحدود كما يقول وورود الرياض في يوم من أيام الشتاء الغائمة الباسمة . ويذكر أن
 ذلك كله يدعو لاحتماء الخمر حتى الموت موتا بلا سبب ، دعاة مقصودة ، ومن قوله :
 قَدْ بَدَأَ الصَّبْحُ مُؤَذِّنًا بِسُفُورِ وَفَرَى الْفَجْرُ حُلَّةَ الدَّبْجُورِ^(١)
 فاستغنى قهوة تترجم بالرؤد عَنِ دَمْعِ عَاشِقٍ مَهْجُورِ

فالخمر رقيقة رقة العاشق لكثرة حياته المتساقطة من مآقيه . ولو عرف قيمة الملكة
 الشعرية التي رزقها لحفظ لها حقها ولم يسقط في شعر الفحش والمآثم ، ولا لطنح أشعاره
 بهذا الدنس . وله هجاء كله سخرة ووخز كوخز الإبر . وكان واسع الخيال إلى درجة
 الوهم على نحو ما نرى في قوله :

(١) فرى : شق . الدبجور : الظلمة .

قيل ما أعددت للبرِّ قد فقد جاء بشده
قلت : دراعة عري تحمها جُبَّة رِعده

والدراعة : ثوب من صوف ، وبلغ من وهم خياله أن جعل للعري دراعة وللرعدة من برد الشتاء جبة . وما أظنه كان يصور شيئاً من حقيقة حياته ، فقد كان على غير قليل من اليسار . وكأنه في البيتين استعار من معاصريه هذا اللون من التفاخر وإظهار الخصاصة ، وكان لها شعراء معروفون هم شعراء الكُذبة ، فجاراها في بيتيه نظراً ودعابة . وقد توفي سنة ٣٨٥ للهجرة .

ابن الحجاج^(١)

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، نسب إلى جدِّ له يسمى الحجاج ، ويبدو أن أباه كان من المال ، وعُني بترية ابنه ، فاختلف إلى مجالس الفقهاء والعلماء فضلاً عن مجالس الأدب ، والتحق بالدواوين كاتباً ثم أصبح ضامناً لقرائض الصدقات يسقى الفترات مدة ، ثم تولى حجة بغداد فترة إلى أن عزل بأبي سعيد الإصطخرى الفقيه الشافعي . وكان أكبر شعراء زمانه في التهاجن والتعابث ، وهو يخطو فيها خطوات بعيدة بالقياس إلى ابن سكرة ، حتى زعم الرواة والنقاد أنه « فرد زمانه في فته الذي شهر به وأنه لم يسبق إلى طريقته ، ولم يلحق شأوه في نخطه وفيه يقول أبو حيان : « سخيف الطريقة بعيد من الجد ، قريع (فحل) في المزل ، ليس للعقل من شعره مثال ، ولا له في قرصه مثال ، على أنه قويم اللفظ سهل الكلام ، وشأله نائية بالوقار ، عن عادته الجارية في الحسار ، وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة ، وإذا جدَّ أقمي^(٢) ، وإذا هزل حكى الأنبي » ويقول صاحب اليتيمة : « هو وإن كان في أكثر شعره لا يستمر من العقل يسجف^(٣) ، ولا يبنى جلُّ قوله إلا على سُخْف ، فإنه من سحرة الشعر ، وهجائب العصر . وأشعاره مشوبة بلغات الخُلديين (أصحاب الحرف) والمكذبين (أدبائية العامة) والسطار . وكلامه يمدُّ يد الجون فيعرك بها أذن الحرِّم ، ويفتح جراب السخف فيصنع قفا العقل ، ولكنه على علاقته تنفكه الفضلاء بئار شعره ، وتستلح الكبراء بنات طبعه . . . ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء . . . وهوعندهم مقبول الجملة غالي مهر الكلام ، موفور

(١) انظر في ترجمة ابن الحجاج وأشعاره اليتيمة ٣٠/٣ والشرحات ١٣٦/٣ .

وتاريخ بغداد ١٤/٨ ومجم الأدباء ٢٠٦/٩ والإمتاع (٢) أقمي هنا : قد ولم يتم جده .

والمرآة لأبي حيان ١٣٧/١ وابن حلكان ١٦٨/٢ سجف : ستر . (٣)

الحفظ من الإكرام والإنعام ، مجاب إلى مقترحه من الصَّلَات الجِسام . . وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر . تحكم الصبي على أهله ، ويمش في أكتافهم عبثة راضية ، ويستثمر نعمة صافية ضافية . وإلى ذلك بشير في شعره مرارا ، وأنه بناء على التهاجن والفحش للضحك والدعابة طلبا للكسب به ، يقول :

لَوْ جَدُّ شَعْرِي رَأَيْتَ فِيهِ كَوَاكِبَ اللَّيْلِ كَيْفَ تَشْرِي
وَإِنَّمَا هَزُلُّهُ بِجَوْنٍ يَمْشِي بِهِ فِي الْمَعَاشِ أَمْرِي

وقد عاش عبثة رفةً ويسار حتى توفي سنة ٣٩١ . وكان يكثر من نظم هذا الشعر الماجن حتى قالوا إن ديوانه يبلغ عشرة مجلدات ، وكان يباع في حياته بخمسين دينارا إلى سبعين ، ولكثرة ما ملأه به من ذكر العورات والمقاذير قال فيه ابن سكرة الماجن حين سئل عن قيمته إن « قيمته بربخ » أي بالوعة تحمل القاذورات وما ينضاف إليها . وإذا كان هذا حكم ابن سكرة فما بالنا نجحكم الناس وراءه في عصره وبعد عصره : وقد دعا بعض أصحاب الحشبة في كتيم إلى منع الغلمان والصبيان من حفظ أشعاره وأخذهم بالضرب إن هم حاولوا ذلك . وينبغي أن نشير إلى ما ذكره أبو حيان من أنه كان فيه وقار يخالف هذا الإغراق في التهاجن ، وكأنه كان تاجنا مقصودا به إلى الإضحاك : إضحاك الرؤساء والكبراء ، غير أنه تجاوز فيه حده . وكان حسيه ما لديه من القدرة على الفكاهة ليضحك الناس دون الردى في بالوعات الفحش وقاذوراته ، ويصور تماجنه من بعض الوجوه قوله في مديحه لبختيار الحاكم البوسى لبغداد في عصره :

قَدَيْتُ وَجْهَ الْأَمِيرِ مِنْ قَبْرِ يَمْلُو الْقَدَى نَوْرُهُ عَنِ الْبَصْرِ
قَدَيْتُ مَنْ وَجْهَهُ يُشْكِكُنِي فِي أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ الْبَشْرِ
إِنْ زُلَيْخَا لَوْ أَبْصَرْتُكَ لَمَا مَلَّتْ إِلَى الْحَشْرِ لَذَّةَ النَّظَرِ

ويستمر في مثل هذا التماجن . وهو لا يطبق الصبر حتى مع بختيار في تماجنه ، إذ يمضى فيلطح المذحة في أواخرها بشيء من قاذوراته . وكان شيئا إماميا ، وكان يشوب تشبیه أحيانا بشيء من القلو ، وكان قريبا من نفس الشريف الرضى ، فاختر من شعره قطعة تخلو من قدره وسخفه . ورثاه حين توفي رثاء حارا ، ومن خمرياته التي تخلو من فحشه وبذاءته قوله :

بِأَصْحَابِي اسْتَبْقَظَا مِنْ رَفْدِي قُرْزَى عَلَى عَقْلِ اللَّيْبِ الْأَكْبَسِ

هذى الجفرة والنجوم كأنها نهر تدفق في حديقة نرجس
 قوما اسقياني قهوة رومية من عهد قيصر دنها لم يُسسى
 صيفاً تُصيف إذا تسلط حكمها موت العقول إلى حياة الأنفس

والصورة في البيت الثاني جيدة إذ جعل نهر الجفرة يتدفق في حديقة نرجس ، وجعل
 الخمر في البيت الأخير تمت العقول في رأيه ، ولكنها نهي النفوس . وله خمرية قالها في
 عيد المهرجان ، وهي تخلو من مقاذره غير أن فيها تبجحاً شديداً باعترافه بعصيانه لربه لشربه
 الخمر مع ما جاء من تحريمها في الذكر الحكيم .

وكل ذلك كان يريد به التماجن والتعابث والإضحاك ، وقد عاد في هذه القصيدة أو
 الخمرية يعلن أن رأس ماله كله خسران إلا ما كان من حبه لآل البيت وللرسول عليه
 السلام والإمام عل وقاطمة الزهراء والحسن والحسين : وتكثر في أشعاره الكذبة أو
 الشحاذة الأدبية ، فهو يكثر من بيان فقره وحاجته ، وأنه لا يجد المرق فضلاً عن اللحم ،
 وأنه دائماً يأكل الخبز بالملح دون إدام فيجرح حلقه من خشوته ، ودائماً لا يجد صوفاً يقيه
 برد الشتاء ولا خيشاً يقيه حر الصيف . وكل ذلك دعاية وفكاهة ، فقد كانت الدنانير
 والدرهم تسكب عليه من كل جانب .

٣

شراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

منذ ظهور الإسلام بُعد الزهد والتقص من صميم حياة المسلم ، زهد في طيبات الحياة
 ومتاعها وإقبال على ما عند الله من ثواب الآخرة ، وهو إقبال يوازن فيه المسلم بين نسكه
 وتعبد لربه وبين السعي لرزقه ، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخريته كأنه
 يموت غداً . وهو يضع ثقته في الله ويتوكل عليه حق التوكل ، ولا يرى في سعيه لكسب
 قوته ما يقلل من هذا التوكل أو تلك الثقة . وتلقانا في العراق مع العصر الأموي طوائف
 من النساك والعباد الزهاد ، فالزهد والنسك قد يمان في هذه البيئة ، وأخذت تسع موجة
 الزهد مع العصرين العباسي الأول والثاني . وظلت حادة في هذا العصر ، ولا شك في أنها
 كانت أحد أكثر اتساعاً وجمهوراً بل جماهير من موجة اللهو والجون ، فقد كانت هذه

تكاد تكون خاصة بالطبقة المترفة في الأمة ومن حَفَّ بها من المغنين والمغنيات والشعراء وأهل العبث . وكان الشعب لا يشترك في اللهو إلا في مواسم خاصة كأعياد الجيوس والنصارى . أما موجة التقشف والنسك فكانت عامة يشترك فيها كثير من الطبقة العامة وجمهور أو جماهير الأمة ، إذ كانت تغدو صباح مساء إلى المساجد تتلو القرآن وتسبح الله وتذكره ليلاً ونهاراً . وكان يغذى هذه الروح في المساجد وعاظ يزدحم الناس على مجالسهم .

ومن كبار الوعاظ ابن سمعون ^(١) المتوفى سنة ٣٨٧ ويقول ابن خلكان : كان وحيداً دهره في الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة . ومن قوله : « سبحان من أنطق باللحم ، وبصر بالشحم ، وأسمع بالعظم » إشارة إلى اللسان والعين والأذن ، وإياه عتَى الحريري في المقامة الرازية الحادية والعشرين بقوله في أوائلها : « رأيت بالزُّرى ذات بُكرة ، زمرّة في إثر زمرة ، وهم متشرون انتشار الجراد ، ومستنون ^(٢) استنان الجياد ، ومتواصفون واعظا يقصدونه ، ويحلّون ابن سمعون دونه » ولم يكن له نظير في زمنه . وكانت تعاصره ميمونة ^(٣) بنت ساقولة البغدادية المتوفاة سنة ٣٩٣ وكان لها لسان حلو في الوعظ . وكان قبلها وبعدها كثيرات زاهدات ، وكان بعضهم يعظن وبعضهن يُحمَلُ عنهن الحديث وقد ترجم ابن الجوزي في كتابه « صفة الصفوة » لطائفة كبيرة منهن . وفي سنة ٤٩٦ توفى ببغداد واعظ كبير هو أردشير بن منصور « وبوعظه حلّقَ أكثر الصبيان رهوسهم ولزموا المساجد وبددوا الخمرور وكسروا الملاهي » ^(٤) ومن كبار الوعاظ الزهاد أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي المارّ ذكره ويقول ابن رجب : « من معاني كلامه يستمد أبو الفرج بن الجوزي » . وفي كل بلدان العراق نلتقي بأخبار هؤلاء الوعاظ مثل محمد بن عبد الملك الفارقي ^(٥) المتوفى سنة ٥٦٤ وقد ترجم له العماد ترجمة ضافية ، ذكر فيها مواعظه ومناجياته لربه ، وكان يضمّن أشعاراً في الزهد والوجد مثل قوله :

(١) انظر في ترجمة ابن سمعون ابن خلكان ٣٠٤/٤ وتاريخ بغداد ٢٧٤/١ وطبقات الحنابلة لابن أبي بلى ١٥٥/٢ وصفة الصفوة ٢٦٦/٢ والوفاء ٥١/٢ .
(٢) مستنون من استن : جرى .
(٣) النجوم الزاهرة ٢٠٩/٤ .
(٤) النجوم الزاهرة ١٨٦/٥ .
(٥) انظر ترجمة محمد بن عبد الملك في الحريرة (نجم الشام) ٤٣١/٢ وما بعدها والمتنظم ٢٢٩/١٠ والوفاء ٤٤/٤ .

مَنْ كَانَ فِي ظِلِّهِ لَيْلٍ سَارِيًّا رَصَدَ النُّجُومَ وَأَوْقَدَ الْمِصْبَاحَ
حَتَّى إِذَا مَا الْبَدْرُ أَشْرَقَ نَوْرُهُ تَرَكَ السَّرَاجَ وَرَاقَبَ الْإِصْبَاحَ
حَتَّى إِذَا انْجَابَ الظَّلَامُ جَمِيعَهُ وَرَأَى الضِّيَاءَ بِأَفْقِهِ قَدْ لَاحَا
هَجَرَ الْمَسَارِجَ وَالْكَوَاكِبَ كُلَّهَا وَالْبَدْرَ وَارْتَقَبَ السَّنَا الْوُضَاحَا

وهي قطعة صوفية رمزية إذ يشير إلى أن من أظلمت عليه الدنيا في مطلبه الأسنى من
الاتصال بربه ، يلجأ إلى نجوم فهمه ومصباح قريحته وسراجها ، حتى إذا بَدُرُ الدُّرَايةِ
والمعرفة أَشْرَقَ على نفسه هجر ذلك السراج وتلك النجوم وانتظر الإصباح والسَّنا الوضاح
فرأى عين اليقين . ونهل من معين الحب الإلهي ورحيقه المصنئ . وربما كان أكبر واعظ
عرفته العراق في هذا العصر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وقد وصف مجلس وعظه ابن
جبير سنة ٥٨٠ هـ وصفا مسهباً قائلاً : شاهدنا صبيحة يوم السبت الثالث عشر من شهر صفر
مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحـد جمال الدين أبي الفضائل عبد الرحمن بن علي الجوزي
بإزاء داره على الشطِّ بالجانب الشرق في آخره على اتصال من قصور الخليفة . . وهو
يجلس به كل يوم سبت ، فشاهدنا مجلس رجل . . آية الزمان وقرّة عين الإيمان رئيس
الحنبلية والمختص في العلوم بالربِّ العليا إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة
(يريد الوعظ) والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام في
النظم والنثر ، والفائز في بحر فكره على نفائس الدر ، فأما نظمه فرضى الطباع مهيّارى
الانطباع ، وأما نثره فيصعد بسحر البيان ، ويعطل المثل بقسِّ وسحبان ، ومن أبهـر آياته
وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويتدبّر القراء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئا ،
فيستريح الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا
ثلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات . .
فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلا مبتدرا ، وأفرغ في
أصداف الأسماع من ألفاظه دررا ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته
فقرأ . . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . . وحَدَّثَ ولا حرج عن البحر ، وهبـات
ليس الخبر عنه كالخبر . ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات
من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس احتراقا ، إلى أن علا الضجيج
وتردد النشيج ، وأعلن الثائبن بالصباح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ،
كل يلقى ناصيته بيده فيجزّئها ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يُشَتَّى عليه ، فيرفَعُ
في الأذرع إليه ، فشاهدنا هولا بملأ النفوس إنابة وندامة ، وبذكرها هول يوم القيامة ،

فلو لم نركب نَجَجَ (وسط) البحر ، ونعتسف مفايزات القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفة الرابعة ، والوجهة المفلحة الناجحة . فالحمد لله على أن مَنْ بقاء مَنْ تشهد الجمادات بفضلها ، ويضيق الوجود عن مثله ^(١) .

وطبعي أن ينتهي هذا الوعظ الذي كانت تتدفق جداوله في المساجد الناس عن ارتكاب المعاصي وأن يدفع كثيرين دفعا إلى الزهد في متاع الحياة وخيراتها فضلا عن قمع النفس عن الشهوات وارتكاب المآثم . وكما كان للوعاظ فضل كبير في سريان هذه الروح كذلك كان لفتحها الحنابلة نفس الفضل ، فقد كانوا يؤلفون جمهورا كبيرا ببغداد ، وكثيرا ما كانوا يثرون طالبين إلى الدولة قلع المواخير وتتبع المفسدين ومن يبيع النيذ . وكثيرا ما نهضوا بأنفسهم فكسوا الدور وأراقوا الأنبذة ^(٢) وكانت الدولة لا ترى بدا من التزول على إرادتهم ، وسيروهم كما يمثلها كتاب طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى وذيله لابن رجب تفوح دائما بشذى الزهد والتشفي والإعراض عن الدنيا وملذاتها ، ويستحيل ذلك عند كثيرين منهم إلى أشعار زاهدة وأخرى تغضى بوجد ملتح . وكان هذا الوجد يصل بين الزهاد والمتصوفة على نحو ما مر بنا آنفا في مقطوعة واعظ مياقارقين وزاهدها محمد بن عبد الملك . وتمتلي كتب طبقات المتصوفة بأشعارهم الصوفية الخالصة التي يصورون فيها عشقهم الإلهي ومكابدتهم معطلين لحواسهم وعقولهم بينا يتجلى الله في كل الموجودات ، وهم ساجدون في بحار الوجد وبين أمواجه ، غارقون في آلام حبيبهم وأشجانه ودموعه ، على نحو ما يصور ذلك الشيخ أحمد الرفاعي صاحب الطريقة الرفاعية المشهورة في قوله : ^(٣)

إذا جنَّ ليل هَامَ قلبي بذكركم أنوحُ كما نوحَ الحمام المطوقُ
وقوفي سحابٌ يُنْطرُ همُّ والأسَى ونحني بحارُ بالأسَى تتدفقُ
وسبق أن عرضنا لشهاب الدين السهرورديّ البغدادي في الفصل الأول . وهو إمام صوفية بغداد ومقدمهم في القرن السابع الهجري ، وولّى عدة رُبط للصوفية ، وكان قريبا عالما واعظا ، عقد مجلس الوعظ سنين ، ويروى أنه أنشد يوما في تضاعيف وعظه ^(٤) :

لا تسقى وحدي فا عودتي أني أشيحُ بها على جلّاسي
أنت الكريم ولا يليقُ تكْرُماً أن يعبّرَ التّماءُ دورَ الكاسي

(١) انظر رحلة ابن جبير وزيارته فيها لبغداد (طبع

لبن) ص ٢٢٠ ومصادر ترجمة ابن الجوزي مذكورة

في صفحة ٣١٨ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢٤١/١ .

(٣) ابن علكان ١٧٢/١ .

(٤) ابن علكان ٤١٦/٣ .

فتواجد الناس بذلك ، وقُطعت شعور كثيرة وتاب جمع كبير ، وواضح أنه عبر بالخمر عن النشوة بالعشق الإلهي ، ومن غزله الصوفي :

تَصَرَّمْتُ وَخَشْتُ اللَّيَالِي وَأَقْبَلْتُ دَوْلَةَ الْوِصَالِ
نَقَصَرْتُ عَنْكُمْ قُلُوبُ فَيَالَهُ مُورِدًا حَلَا لِي

وهو يعبر عن فرحته الهنيئة بصلته أو اتصاله بربه ، وكأنه تحقق له عالم الشهود أو عالم الفناء ، فانجذاب عنه الحجاب ، وأضاعت مشكاة قلبه بنور ربه . وانبثقت من الشعر الصوفي منذ ابن دريد في أوائل القرن الرابع الهجري مدائح نبوية عطرة بالسيرة الذكية ، وما نصل إلى القرنين السادس والسابع حتى يتكاثر هذا المديح ويزدهر ، ونظن ظنا أنه كان للحروب الصليبية أثر في ذلك ، فقد رأى المسلمون تعظيم الصليبيين ليعسى عليه السلام واهتمامهم بمولده وحربهم للدين الحنيف وصاحبه ، وعرف الشعراء أنها حرب دينية يشنها الغرب على الرسالة النبوية ورسولها الكريم ، فاستحثوا الناس للدفاع عن دينهم ، بل لقد مضوا يستصرخونهم للذود عن وطنهم الإسلامي محاولين - بكل ما وسعهم - أن يميلوهم شعلا آدمية تشوى وجوه الصليبيين وتأتى عليهم كأن لم يكونوا شيئا مذكورا . وفي الوقت نفسه مضوا يمدحون النبي الكريم بعرض سيرته وشذاها العطر ورفعوها شعارات بل لواءات ، ليتجمع من حولها أبطال الإسلام والعرب ويقضوا على الصليبيين قضاء مريما . ولم يكتف بعض الشعراء بمدحتين أو مدائح معدودة للرسول ، بل نظم في ذلك ديوانا مثل محمد بن أبي بكر بن رشيد الواعظ البغدادي فقد نظم في مديح الرسول عليه السلام ديوانا سماه القصائد الوثرية في مدح خير البرية وهي تسع وعشرون قصيدة مقفاة على حروف المعجم : وغنّار ثلاثة من الشعراء يمثلون الزهاد والمتصوفة ومداح الرسول عليه السلام ، وهم على الترتيب ابن السراج البغدادي والمرتضى الشهرزوري والعصرصرى .

ابن السراج البغدادي^(١)

هو جعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي المقرئ المحدث الأديب ، ولد ببغداد سنة ٤١٧ أو في أول سنة ٤١٨ وقرأ القرآن وتلقن قراءاتهم وأقرأه سنين ، وعنى بالحديث النبوي ورحل في طلبه إلى مكة والشام ومصر ، وخرّج له الخطيب البغدادي خمسة أجزاء تسمى

(١) انظر في ترجمة ابن السراج وشعره كتاب الدليل على

طبقات المتأصلة لابن رجب ١٢٣/١ والمنظم ١١١/٩

ومعجم الأديباء ١٥٣/٧ وابن خلكان ١/٣٥٧ .

السَّراجيات ، وله مصنفات مختلفة وكان شاعرا مطبوعا . واستفحل موهبته الشعرية في نظم كتب الفقه مثل كتاب المتبدي وكتاب مناسك الحج وكتاب الخرق وكتاب التنبيه . وأهم كتبه وأشهرها كتاب مصارع العشاق ، وهو في أخبار البُعاد والناسك ، وبه أشعار كثيرة تفيض بوجد مبرج . وكان حنبلية حُمل عنه الحديث كما حملت القراءات ويقول ابن الجوزي « حدثنا عنه أشياءنا ، وآخر من حدثنا عنه شهدة بنت الإبري » ، قال : وقرأت عليها كتابه المسمى بمصارع العشاق بسماعها منه » ويقول ابن خلكان عن شهدة : « بغدادية المولد والوفاة كانت من العلماء ، وسمع عليها خلق كثير ، واشتهر ذكرها وبعد صيتها ^(١) » . وقد جعل السراج كتابه « مصارع العشاق أجزاء » ، وكتب على كل جزء أبياتا ، من ذلك قوله على الجزء الأول :

هذا كتابُ مصارعِ العشاقِ صرَّعَتْهُمْ أَيْدِي نَوَى وَفراقِ
تصنيفُ مَنْ لدَغَ الفِراقُ فَوادَهُ وتطلَّبَ الراقِ فَعَزَّ الراقِي

وكان تقيا ورعا يغلب عليه الزهد مع حسن الطريقة ومع الظرف ولطف الأخلاق . وأكثر أشعاره في نظم كتب الفقه كما مرَّ بنا وفي الزهد ، والتخلص من درك الهوى إلى ذُرَى الهدى ، والترفع عن اللذات البدنية ، والشهوات الدنيئة ، ومن قوله :

أفلحَ عبدٌ عصى هواهُ وفاقَ في دينِهِ وكاسا ^(٢)
ولم يَمُحْ مُدْمِنًا لِحِمْرِ يَنْهَلُ طاساً يَمَلُّ كاسا ^(٣)

فهو يدعو الإنسان إلى عصيان هواه وأن يكون كَيْسًا فلا يقع في الخطايا والزلات ويحفظ نفسه من الحمر أو المنكرات ، وبذلك يرتقي في درجات الهدى بقمعه لشيطانه وأمانه من غائلته . وله شعر وجداني من مثل قوله يصوِّرُ حنين ناغته لمنازلها في نجد والحجاز :

قُفِضَتْ وَطَرًا مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ وَأُمْتُ عَقِيقَ الْجَمِيٍّ مَرَّخَى لَهَا فِي الْأَزْمَةِ ^(٤)
وخبَّرَهَا الرِّوَادُ أَنَّ لِحَاجِرَ حَيًّا نَوَزَتْ مِنْهُ الرِّيَاضُ فَحُجَّتِ ^(٥)
ولاح لها بَرَقٌ مِنَ الْقَوْرِ مَوْهِنًا كَشَمَلَةٍ نَارٍ لِلطَّوَارِقِ شُبَّتِ ^(٦)

(١) ابن خلكان ٤٧٧/٢ .

(٢) أمت : قصصت .

(٣) كاس : أصبح كَيْسًا حكيمًا حسيبًا .

(٤) حاجر : من منازل الحجاز . حيا : حيَّة .

(٥) النبل : الشرب الأول . الطاس : إناء

(٦) القور : غورثامة وهو ما يحد منها غربا . موهنة :

لحمر ومطعم الكاس . النبل : الشرب الثاني .

بعد نصف الليل . الطوارق : الفسيف .

وَعَنَى لَهَا الْحَادَى فَأَذْكُرَهَا الْحَيَى وَأَبَامَهَا فِيهِ وَسَاعَاتٍ وَجَرَّةٌ (١)
 وَقَدْ شَرِكْنِي فِي الْحَنِينِ رَكَائِي وَزِدْنِ عَلَيْنَا رَنَةً بَعْدَ رَنَةٍ (٢)
 أَلَا لَيْتَ شَعْرَى هَلْ تَعُودُ رَوَاجِمًا لِيَالِي الصَّبَا مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ تَوَلَّتْ

والحنين يجرى فى الآيات كما يجرى الماء والخضرة فى الأغصان النضرة ، وقد جعل ناقته
 أودابته نفسها تحمُّ حنيناً لا ينقطع إلى منازلها ، وهو حنين يضاعفه فى نفسها ما يلوح لها من
 برق ليلا صادرا من جانب القور ، وكأنه شعلة نار تستدعيها وتناديها من بعيد .
 كما يضاعف هذا الحنين شدو الحادى وغناؤه ، فتذكر أيامها فى وجرة وغير وجرة . ويصرح
 بأن ناقته وركابه تشركه فى الحنين ، بل تزيد عليه رنة بعد رنة ، فيأسى لها ولنفسه ،
 ويتمنى لو عادت ليالى الصبا وكيف تعود وقد تولت إلى غير مآب ، ولم يبق إلا الوجد
 والحنين الذى يتجدد فى قواده بمثل قوله :

حَبْدًا نَجْدًا بِلَادًا لَمْ نَجِدْ رَاحَةً لِلْقَلْبِ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا
 فَإِذَا مَالَا حَ مِنْهَا بَارِقٌ هَاجَ أَشْوَاقِي أَوْ هَبَتْ صَبَاها
 لَسْتُ أَتَى إِذْ سَلَبَتْنِي جَارَةٌ تَبْذِلُ الْوَدَّ وَتُصَفِّنَا هَوَاهَا
 أَرْسَلَتْ طَيْفَ كَرَى لَكُنْ زَارِنَا وَالْعَيْنُ قَدْ زَالَتْ كَرَاهَا (٣)

فَتَجَدُّ راحة نفسه ومسرة قلبه ، وإنه ليذكر أيامها وما كان يغمره فيها من متاع
 وسعادة ، حتى إذا لاح برق أو هب نسيم صبا هاجت به أشواقه ، وأعادت إليه ذكرى
 حبه لسلمي حين كانت تبادل الهوى والود . وقد ضاع كل هذا الحلم منه وضاع منه
 النوم ، فلم يعد يستطيع أن يراها أو يرى طيفها ، وهو يتجشم أهوال وجدده ويحتمل آلامه ،
 باكيا ذارفا دموعه كما يقول :

بَانَ الْخَلِيطُ فَأَذْمَى وَجَدًا عَلَيْهِم تَسْتَلُ (٤)
 وَحَدَا بِهِمْ حَادَى الْفِرَا قِي عَنِ الْمَنَازِلِ فَاسْتَقْلُوا (٥)
 قُلْ لِلَّذِينَ تَرَحَّلُوا عَنْ نَاطِرِي وَالْقَلْبُ حَلَا
 مَا ضَرَّهْمُ لَوْ أَنَّهُلُوا مِنْ مَاءٍ وَصَلَّهُمْ وَعَلُوا

فأحبابه رحلوا وحبات دموعه لا تزال تساقط على خدوده ، وهل يملك سوى البكاء

(١) وجرة : موضع بنجد .

(٢) الركاب : الإبل .

(٣) الكرى : النوم .

(٤) تستل : تصب .

(٥) استقلوا : ارحلوا .

والدموع الغزيرة ، لقد كان في حلم غمره وملأ عليه فؤاده ، وأفاق منه على فراق أحبابه ، وإنه ليعلم إن كانوا قد رحلوا وبعدوا عن مرأى عينه فسيظل وقفا للمهد ، وسيظلون يحلّون في سويداء قلبه . وبنفى إلى البأس قائلا : ما ضرهم لو أذاقوه وصلهم وجعلوه ينعم به مرارا . ومع ذلك فسيظل يذكّرهم بل سيظل حبيم في قلبه قويا حارا . وله وراء ذلك أشعار مختلفة في مديح إمامه أحمد بن حنبل وأصحابه . توفى ببغداد سنة ٥٠٠ للهجرة .

المرتضى الشهرزُورِي^(١)

هو أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر الشهرزوري الملقب بالمرتضى ، وُلد بالموصل سنة ٤٦٥ وتوفى بها سنة ٥١١ في أرجح الأقوال ، أقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه ، ورجع إلى الموصل وتولى بها القضاء بجانب ما كان ينهض به من الوعظ والتذكير . وكان صالحا تقيا ناسكا متعبدا ، ولم يلبس خرقه الصوفية ولا لزم رباطا من رُبطهم ، ومع ذلك كان صوفيا كبيرا ، صوفيا سنيا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما نبتى من أشعاره واحتفظت به الخريدة للهاد ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وروى له الأخير قصيدة صوفية رائعة ، يقول في تضاعيفها :

لمتْ نارهم وقد عَمَسَ اللَّيْلُ ملُْ وملُْ الحادى وحارَ الدليلُ^(٢)
فنامَلْتُها وقلتُ لصَحْبِي هذه النارُ نارُ ليلٍ فيملوا
ومنى تعلو ونحن نَدْنُوْهُ إلى أن حَجَزْتُ دونها طولُ مُحُولِ^(٣)
فدوننا من الطلول فحالتُ زفراتُ من دونها وغَلِيلُ
قلت : منْ بالديار؟ قالوا جريحُ وأسيرُ مكْبَلُ وقَتِيلُ^(٤)
فحَطَطْنَا إلى منازلِ قومٍ صرَعْتَهُمْ قبل المذاقِ الشَمُولِ^(٥)
قلت : أهلَ الهوى سَلامٌ عليكم لى قَوَادُ عنكم بكم مشغولُ
جئتُ كى أضطَلَّ فهل لى إلى نا رِكْمُ هذه الغداة سَبِيلُ

إنه لا يزال ساريا طوال الليالى يبحث عن نار الذات الإلهية ، أو قل إنه يتخذ النار رمزا للمنازل على عادة الشعراء الغزلين ، ويراه من بعيد في الظلام الدامس وقد كلَّ الحادى

(١) انظر في ترجمة المرتضى وأشعاره الخريدة (قسم (٣) محول : مجدة .

الشم (٣٠٨/٢ وابن خلكان ٤٩/٣ والثلوات ١٢٤/٤ (٤) مكبل : مفيد .

ومرأة الزمان ١٢١/٨ والنجوم الزاهرة ٢٣١/٥ . (٥) الشمول : اتمر .

(٢) عمس : أظلم .

لطلول السرى وحار الدليل المرشد ، وإذا النار أو قَبَسٌ منها يظهر فجأة ، فينادى صاحبه : رأيت نار ليل فيلوا ، وكلما جد في السرى إليها ودنا منها علت وارتفعت إلى أن امتدت بينه وبينها طول محول ، ويحاول الدنو من الطلول وتحول بينه وبينها دموعه وزفراته الحارة . ولا يحمد في الديار سوى العشاق ، وهم كثيرون بين جريح ومفلول في القيود وقَتيل . ويتزل بين قوم شغفهم الحب الرباني ، بل لقد صرعهم قبل أن يتشوا به ويذوقوا خمره . ويسلم ، ويقول إنه جاء بصطلى بالنار : نار الحب المشتعل ، ويقولون له إن أحدا لا يبلغها ولا يصل إليها ، فدونها أهوال وأمواج تجرفهم إلى طولها . إنها نار نضيبه للسارى بالليل ولا تُنال ، ومنتهى الحظ أن يترود اللحظ منها ، وهم حيارى وقوف قد أصبحوا أشباحا ناحلة وأنفاسا متلاشية ، وكلما ذاقوا كأس يأس مريرة لمت لهم كأس رجاء حلوة ، فيقولون : صبر جميل .

والقصيدة من أروع ما خلف الصوفية على مر الحقب ، وقد أنشدتها بكاملها ابن خلكان ، وقال إنما أثبتُّها كاملة ، لأنها قليلة الوجود وهى مطلوبة ، ويقول العباد في الخريدة : « وجدت من كلام القاضى المرتضى أبى محمد الشهرزورى رسالة سلك بها مسلك الحقيقة ، وسبق أهل الطريقة ، مشحونة بأبيات في رقة السلسال والشُّول ، وكأنه لم ينظم في التصوف فحسب ، بل كتب أيضا ، غير أن العباد لم يُعْنَ بأن يروى شيئا مما كتبه ، إنما عُنِيَ بما جاء في الرسالة من رقائق الغزل الصوفى من مثل قوله :
وعاودتُ قلبي أسأل الصبرَ وقفةً عليها فلا قلبي وجدتُ ولا صبري
وغابتُ شحوسُ الوصل عني وأظلمتُ مسالكهُ حتى نَحِمْتُ في أمرى

والبيتان طريفان ، فقد وقف بالديار فضاخ منه قلبه وعزَّ صبره ، وغربت شمس الوصل وأصبحت جميع المسالك حوله مظلمة ، وهو حائر لا يبتدى ولا يحمد من يتقده . إنه محب مهجور قد حُرِّم وصله وخُطِفَ منه أو أُسر قلبه ، ويقول :
بِالْبَيْلِ ما جشنتكم زائراً إلا وجدتُ الأرض تُطوى لى
ولا ثبتُ العزم عن بابكم إلا تَهَمَّرتُ بأذيالى

فهو دائما على عتبات الباب لا يدخل ولا يتم بوصل ولا لقاء ، ويعمل الوقوف والانتظار ، ولكنه لا يستطيع الاياب ، كأنما شيء يمسك بتلايه ، فكلمة حاول الانصراف وأعياء الانتظار ورغب في الرجوع تعثر في أذياله فتسبَّر في مكانه ، ومن قوله : شكوتُ إليها ما بقلبي من الجوى فقالتُ : وهل أبنى الفراقُ له قلباً

قلت : فهل لي في وصالك مطعمُ فقالت : إذا ما شمسنا طلعت غربا
قلت : فهل من زورة يجتنى بها ثمار المني ظمآن قد مُنِعَ الشربا
فقلت إذا ما غاب عن كلِّ مشهدٍ وخاضَ حياضَ الموت واستهلَّ الضعبا
وأصبحَ فينا حائرا ذا ضلالةٍ يواصلنا بُعداً ونهجره قُرْباً
وهي عاورة بديعة بينه وبين محبوبته رمز بها إلى حبه الرباني ، فن يحب الذات العلية
يفقد قلبه ولا يصبح له مطعم حقيق في وصال ولا في زورة يقتطف فيها ثمار المني وينهل
مها من الماء ما يطفى ظمأه إلا إن غاب عن كل مشهد في الوجود واقتحم حياض الردى
لا يزال ، وحتى إن فعل فسيصبح حيران ضالاً الطريق يواصل من بعيد ويهجر من قريب .
ومن قوله بشكو آلامه وعذابه في حبه الإلهي .

بقلي منهم حرقُ لها الأحشاء تحرقُ
ولا وصلُ ولا هجرُ ولا نومُ ولا أرقُ
فليتهمُ وقد قطعوا ولم يتقوا على بقوا
فأنفى في محبتهم وبيع محبي عبي
كمثل الشمع يُنمِج من ينادمه ويمنجي

فأحشاؤه تحرق ، ولا وصل ولا هجر ، ولا بأس ولا طمع ، ولا نوم ولا أرق ،
ولا صبر ولا جزع ، وإنه ليكون بنيران هذا الحب مؤملاً - على طريقه الصوفيين - أن
تنمحي حواسه وأحاسيسه ، حتى يفنى فناء مطلقاً في الذات العلية ، فناء ينعدم فيه وجوده
البشري انعداماً تاماً ، كما ينعدم الشمع المضيء ، وينمحي انمحاءاً خالصاً .

المرصري^(١)

هو جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف المرصري ، نسبة إلى صرصر : قرية قريبة
من بغداد ، ولد سنة ٥٨٨ وحفظ القرآن واختلف إلى دروس العلماء والفقهاء والمحدثين ،
وكان حنبلياً ، ويصفه ابن تقي بردي في كتابه النجوم الزاهرة بالإمام الأديب الرباني ،
ويقول كان من العلماء الفضلاء الزهاد العبّاد ، كانت له اليد الطولى في النظم وشعره في
غاية الجودة ، ويقول الصفدي عنه : صاحب المدائح النبوية السائرة في الآفاق ، ولا أعلم

(١) انظر في ترجمة المرصري ومدائحه النبوية ذيل مرآة الزمان للقطب البويني (طبع حيدر آباد) ١٢٥٧/١ - ٢٨٤ / ٥ والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب
٣٣٢ ونكت الحيدان للصفدي ص ٣٠٨ والنجوم الزاهرة

شاعرا أكثر من مدائح النبی ﷺ أشعر منه ، وشعره طبقة عليا . . يدخل شعره في ثمان مجلدات وكله جيد ، ويقول القطب اليوناني وابن تفری بردی : إن مدائحه في النبی ﷺ تقارب عشرين مجلدا . ولا يزال الديوان غير منشور وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه . ويذكر الصفدى أن بين مدائحه النبوة قصيدة الترم في كل حرف منها طاء وثانية الترم في كل حرف منها ضادا وثالثة الترم في كل حرف منها زاي ، وبالمثل بقية الحروف الصعبة ، وقصيدة كل بيت منها يشتمل على حروف المعجم أو بعبارة أخرى الحروف الهجائية يقول الصفدى : وهذا دليل القدرة والاطلاع والتمكن .

والصرصرى في المدائح النبوية يعرض السيرة النبوية العطرة مع بيان معجزات الرسول عليه السلام وانتصاراته على أعدائه ويشيد بصحابته وخدماتهم للإسلام وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ويتوّه بزوجاته أمهات المؤمنين وفي مقدمتهم السيدة خديجة والسيدة عائشة والسيدة حفصة . وهو يترأى في نبوياته سنياً حنبلياً حتى ليعرض في بعضها لمديح ابن حنبل وأتباعه ، ويروى له ابن تفری بردی أبياتا من هزمية نبوية يقول فيها :
يا هلال السرور يا قرّ الأنس سرى ونجم الهدى وشمس البهاء
ياربيع القلوب يا قرّة العيّن سري وباب الإحسان والنعماء

وهو يصدر في القصيدة عن محبة للرسول عليه السلام شغقت قلبه : حتى ليراه كل جمال في الوجود فهو الهلال والقمر والنجم والشمس والريج وقرّة العيون ومسرة النفوس وياب الإحسان والعطاء وكل نعماء ، ويروى له الصفدى قطعة طويلة من مدحة خائية يقول في نضاعيفها :

يا خاتم الرسل الكرام وفاتح ال	خيرات يا متواضعا شامخا
يا من رست وسعت قواعد دينه	وبه هوى أس الفلال وساخا
يا خير من شدّ الرحال لقصديه	حادي المطى وفي هواه أناخا
عظفاً على عبّ تعلق حبكم	طفلا وفي صدق الهبة شاخا

وهو يكثر من المناجاة للرسول عليه السلام مستعطفاً ومتشفعاً به . ويبدو من القطعة الطويلة من أشعاره التي رواها القطب اليوناني أنه كان يصدر أحياناً عن نظرية الحقيقة المحمدية المعروفة ، إذ ذهب إلى أزلية وجود الرسول وأنه مبدأ الوجود ومركزه . وليس في يدنا الديوان لتحكم على الصرصرى حكماً دقيقاً في هذا الجانب غير أن هناك بعض إشاعات من الفكرة نلتقي بها عند اليوناني مثل قول الصرصرى عن الرسول :

هو سابق الأعيان إذ كُتِبَ اسمه بالعرش ثم استودع الألواح
 فإذا كان قد أراد بسبقه الأعيان أن نوره يسبق الموجودات جميعاً من قبل أن تخلق
 أو تخرج إلى الوجود فإنه يكون مستمداً حيث تد من نظرية الحقيقة الحمديدية ، وبالمثل ما نجد
 عنده من الحديث عن قدم نور الرسول عليه السلام ، وأنه تنقل في صلب آدم والأنبياء من
 بعده ، إذ يقول :

حَلَلَتْ صُلبَ آيتنا عند مَهبطِهِ وَصُلبَ نوحٍ وقد غَشى الوَرى الزُّبدُ^(١)
 وَكُنْتُ في صلبِ إِبْراهيمَ مستتراً وَنارُ نُمرودَ أَشقى الخَلقِ تَتَقَدُّ^(٢)
 وَحاز نوركَ إسماعيلُ يُوَدِّعُهُ أبناءُهُ الفَرَّ حتى حازَهُ أَدَدُ^(٣)
 ويمضى الصرصرى فيذكر أن عدنان نال بهذا النور المترلة الرفيدة ، وما زال النور يتنقل
 حتى انمقد به على رأس هاشم إكليل فخر لا يشبهه إكليل . واتصل النور بعدد المطلب
 وابنه عبد الله ، ولم تلبث أضواء النور أن انبثقت في المشرق والمغرب . .
 وكانت وفاة الصرصرى سنة ٦٥٦ دخل عليه التتارف اكتساحهم لبغداد ، وكان
 ضريرا ، فطعن بـمكازره بطن واحد منهم فقتله ، وقُتل شهيدا .

٤

شعراء الفلسفة والشعر التعليمي .

يكثر الشعر على ألسنة المتفلسفة منذ الكيندى ، وفي الكتب الخاصة بتراجمهم من ذلك
 أسراب غير قليلة ، وكثيرا ما كانوا ينظمون بعض معارفهم الفلسفية أو الطبية . وتلقانا في
 كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة بعض وصايا طبية طريفة^(٤) ،
 وكثيرا ما كانوا يعرضون للنفس والجسم والعلاقة بينها في الحياة وبعد المات ، على شاكلة
 ما أنشدته أبو النيفس^(٥) أحد متفلسفة القرن الرابع الهجرى :

في النفس والجسم إن فكرت معتبرٌ بل دون ذلك ضلُّ الرأي والفكر
 وحرار كلُّ كيبٍ في اتحادها وتلك عينٌ وهذا حكمه الأثر

(١) غشى الورى الزبد : ابن أبي أصيبعة ص ٣٩٠ .

(٥) صرنا الحكمة لأن سليمان النطق الجستانى

(٢) الورد : الملك الوثنى الذى ألقى بإبراهيم الجليل

(٣) أدد : أبو قبيلة عربية ، رمزه إلى العرب .

(١) غشى الورى الزبد : يشير إلى الطوفان المشهور

زمن نوح عليه السلام .

(٢) الورد : الملك الوثنى الذى ألقى بإبراهيم الجليل

في النار فكانت عليه برداً وسلاماً .

(٣) أدد : أبو قبيلة عربية ، رمزه إلى العرب .

بالبت شعري إذا الأبدان أضمرها يدُ اليلَى وحَواها التُّربُ والمدَرُ
 هل للنفوس التفاتٌ نحو عالمها كما تَلَفَتْ نحوَ المركزِ الحجرُ
 ليحصل الفوزُ في دار الخلود لها وتنتفى دونها الآفات والفيَرُ
 أم تضمحلُّ كما قد بانَ هيكلُها ولا يُحسُّ لها وِردٌ ولا صَدَرُ
 هذا الذي صَدِيقْتُ منه خواطِرُنا وليس يخلو صدأها العِلْمُ والخبرُ

والآيات تعرض مشكلة خلود النفس بعد الموت ، فهل تنفى كما ينفى الجسد ، أو تفصل عنه إلى عالمها : عالم الخلود ، وهي مشكلة حارت فيها من قديم العقول ، فهذا الجسم مادي محسوس ينفى بموت صاحبه ، وهذه لا تُحسُّ ولا تُرى إلا بأثرها ويَبُتُّ الحياة في الجسم ، حتى إذا فارقه انتقل إلى عالم العدم والقناء ، فهل يكون مصيرها نفس مصيره ، أو أنها نعيمًا حياة جديدة خالدة في الملأ الأعلى . إنها مشكلة عميقة في رأى أبى النفيس يطبقُ عليها ظلام غامر لا يرفقه عِلْمٌ ولا خبرة ، والآيات تمضى فتجعل عِلْمَ الحقيقة بذلك للواحد الأحد . وإذا تصفحنا كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لأبن أبى أصيعة وجدنا به متغلفين عراقيين كثيرين يبيدون نظم الشعر ، مثل ابن التلميذ^(١) المتوفى سنة ٥٦٠ ومن شعره في ابنه سعيد :

حُبِّي سعيًا جوهراً ثابتٌ وحبُّه لي عَرَضٌ زائلُ
 يو جهاني السُّ مشغولةٌ وهو إلى غيري بها مائلُ

والجهات الست هي اليمن واليسار والأمام والخلف والأعلى والأسفل ؛ يريد أنه مشغول بآبائه بكل كيانه وكل حواطفه ومشاعره ، وقد جعل حبه له جوهراً ثابتاً بينما حب سعيد ابنه له عرض زائل ، ومن قوله :

كانتْ بِلَهْنِيَّةِ الشَّيْبةِ سَكْرَةٌ فصحوتُ واستأنفتُ سيرةً مُجْمِلُ
 وقعدتُ أرتقبُ القناء كراكِبِ عَرَفِ المَحلِّ فبات دون المَرَلِ

والصورة في اليتيم بديعة ، فقد صحا من سكرة الشباب واستأنف سيرة معتدل فاضل ، وقعد يتظر دوره وجماله ، وكأنما هو راكب يعرف منزله ويبيت دونه بقليل ، ولا بد من الوصول . وكان ابن التلميذ يكثر من الشعر ومثله البديع الإصطرلاوي وهبة الله ابن الفضل ومحمد بن الجبلي المعروف بالعتري وابن هبيل .

(١) انظر في ابن التلميذ وشعره معجم الأديب . ٦٩/٦ .

٢٧٦/١٩ وابن أبى أصيعة ص ٣٤٩ وابن حلكان

ومرّبنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن كثيرين من شعراء بغداد عثروا باستحداث نظم شعري جديد هو الشعر التعليمي ، في مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذي ترجم كيلة ودمنة شعرا ونظم قصائد طويلة في الفقه والمطلق والتاريخ ومبدأ الخلق . ويستمر هذا النمط الجديد في العصر العباسي الثاني على لسان ابن الجهم وابن المعتز وابن دُرَيْد ، حتى إذا كنا في هذا العصر اتسمت موجهة وشملت جميع أنواع المعارف والعلوم . ومرّبنا في ترجمة ابن السراج أنه نظم أربعة كتب فقهية . ويذكر ابن الجزري في كتابه طبقات القراء أن أبا الخطاب بن الجراح على بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٤٩٧ نظم كتابا في القراءات ^(١) ، ونظم الحريري صاحب المقامات ملحمة الإعراب في النحو وأبوابه وقواعده وهي مطبوعة . ونظم ابن أبي الحديد فصيح ثعلب وهو مطبوع ، ونظم فخر الدين بن الفصيح مدرس العربية في المستنصرية المتوفى سنة ٧٥٥ كتاب الكثر في الفقه والسراجة في الفرائض وقصيدة طويلة في القراءات ^(٢) ، وهو باب يطول ويتسع إن نحن حاولنا حصر ما نظم من العلوم والمعارف على مرّ الحقب لهذا العصر ، ونقف قليلاً عند شاعر متفلس وشاعر تعليمي ، وهما على الترتيب ابن الشبل البغدادي وابن الهبارية .

ابن الشبل البغدادي ^(٣)

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن الشبل ، مولده ومنشؤه ببغداد وبها توفي سنة ٤٧٤ ومن المؤكد أنه اختلف إلى مجالس المتفلسين في زمنه ، من أمثال يحيى ابن عدي ، وأخذ عنهم كل ما كانوا يعرفونه من فلسفة وطب وفلك وتنجيم ، ويقول باقوت : « كان متميزا بالحكمة والفلسفة خبيراً بصناعة الطب أديباً فاضلاً وشاعراً مجيداً . » وهو صاحب القصيدة الرائية التي نسبت إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وليست له ، وقد دلت على علو كعبه في الحكمة والاطلاع على مكتوباتها وقد سارت بها الركبان ، وتداولتها الرواة ، وهو يستلها بقوله :

يُرِيكَ أَيُّهَا الْفَلَكُ الْمُدَارُ أَقْصَدُ ذَا الْمَسِيرِ أَمْ اضْطَرَارُ
مَدَارُكَ قُلْ لَنَا فِي أَيِّ شَيْءٍ فَنِي أَقْهَانَا مِنْكَ أَنْبَهَارُ

الوفيات ٣٩٢/٢ وسماه محمد بن الحسن بن عبد الله
ابن الشبل وذكر أن وفاته كانت في سنة ٤٧٣ وراجع
الوفات بالوفيات ١١/٣ .

(١) غاية النهاية في طبقات القراء ٥٤٨/١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٧٧/١٠ والذواقي ٣٢٧/١

(٣) انظر في ترجمة ابن الشبل وشعره النسخة ٣٥٢/١
ومعجم الأديباء ٢٣/١٠ وابن أبي أصيبعة ٣٣٣ . وطولات

وفيك تَرَى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تُدَارُ
وعندك تَرْفَعُ الأرواحُ أم هل مع الأجساد يُذَكِّكها البوارُ
وموجُ ذى الجُرَّةُ أم فِرْنْدُ على لُجَجِ الدروع له مَدَارُ
وَطَوْقُ النجوم إذا تَبَدَّى هَلَاكَ أم يَدُ فيها سِوَارُ
وأفلاذُ نجومك أم حَبَابُ تَوَلَّفَ يَهِ لُجَجُ غِرَارُ
وتُنَشِّرُ في الفضا ليلًا وتُطَوِّى نهارًا مثلًا يُطَوِّى الإزارُ

ومعروف أن من الفلاسفة من كانوا يذهبون إلى أن العالم بديره الفلك دورة مقصودة له . وكان هناك من يذهبون إلى أن للكواكب تأثيرا بعيدا في حياة الناس وكل أحوال العالم . وواضح أن ابن الشبل يصور حيرة لا قرار لها حول الفلك وحركته ، فهل هي اضطرارية من قبل الذات العلية أو هي اختيارية ، ويتساءل في أى شيء مداره وحركته . وهل تَرْفَعُ الأرواح إلى عَالَمِ العلوى أو تَغْفَى مع الأجساد في العالم السفلى ، وهذه الجرة التي تتدفق ليلًا في السماء بالنور هل هي موج من الأضواء كموج البحر أو هي أثر تجمعات ضوئية تَلْمَحُ كما يلمح تجمج الضوء في صفحة الفرند أو السيف ، وهل الهلال طوق معلق للنجوم أو سوار يلمع في يد على صفحة السماء ، والنجوم هل هي أفلاذ وأرواح أو هي حَبَابُ طاف على سطح السماء كحباب الماء ، إنها تَنْشُرُ ليلًا وتُطَوِّى نهارًا . فما أعظم ذلك من لغز كبير ، بل ألفاظ كبيرة ، يقف الإنسان إزاءها مبهوتا بملكه الدَّهْشُ وتملكه الحيرة ، حيرة يضل بين لججها ولا يمكنه أن يرسو على شاطئ ، لأن أحداً لا يملك الجواب ولا يعرفه ، ويمضى ابن الشبل في عرض هذه الألفاظ:

ودهرٌ بترُ الأعمارَ نَترَأُ كما للوردِ في الروضِ انتثارُ
ودنيا كلها وضعتُ جَنِينًا غَذَّتُهُ من نوائبها ظُورُ^(١)
هي العِشْوَاءُ ما خَبِطَتْ هَشِيمُ هي العِجْمَاءُ ما جَرَحَتْ جَبَّارُ^(٢)
فن يومٍ بلا أمسٍ ويومٍ بغير غَدٍ إليه بنا يُسَارُ
فهذا الدهر . يُسْقِطُ الأعمارَ كما تَسْقِطُ الورود في الروض وتذبل وتفارقها النضرة والحياة . وهذه الدنيا كلها وضعت جنينا لم تُرَضِّعْهُ ، بل تركه لظُورٍ أو مرضعة ترضعه النوائب والمحطوب ، وما الدنيا ؟ إنها عِشْوَاءُ لا تبصر ، وكل ما تحبَّطه من الأنفس يصبح هَشِيًا ، إنها لعجماء خرساء كل ما تجرحه يُهْتَدِرُ ولا يَصْلَحُ أبدًا . وما الحياة في رأى ابن الشبل إلا يوم بدون أمسٍ يسبقه ويوم بدون غدٍ يلحقه ، إنها مأساة كبرى ، سببها ذنب آدم

(١) ظور: المرضعة لاين غيرها .

(٢) جبار: حذر لاصاص فيه ولا غرم .

وعصيانه ربه وأكله من الشجرة . فأخرج من الفردوس ثم أهبط إلى الأرض ، وبصوّر ذلك ابن السبيل قائلا :

لقد بلغَ المدوُّ بنا مُناهُ وحلَّ بآدم وبنا الصَّغارُ ^(١)
 فيالكِ أكلَةً ما زال منها علينا نَقَمَةٌ وعليه عارُ
 نُعاقِبُ في الظهور وما وُلدنا ويُدْبِعُ في حِشَا الأُمِّ الحَوَارُ ^(٢)
 ونخرُجُ كارهين كما دَخَلنا خروجَ الضَّبِّ أخرجَه الوِجَارُ ^(٣)
 وكان وجودنا خيراً لو أنا نُخَيِّرُ قلبه أو نَسْتَشَارُ
 أهذا الداء ليس له دواء وهذا الكسر ليس له انجبارُ

وهو يقصد بالمدو إبليس وأنه بلغ في بنى الإنسان كل مناه من الغواية والضلال فعلى آدم وهم الهوان والصغار ، فيالها أكلة إثم وباله ذنب جرم ! . ويعود ابن السبيل إلى أساءه وحزنه على أبناء جنسه ، فقد يعاقبون وهم أجنة في أحشاء أمهاتهم فيموتون ، ومن يولد وتمتد به الحياة يخرج منها كرها خروج الضب من جحره . وهكذا نجى ونخرج دون اختيار ، وإن هذه الحياة كلها بأسرارها وألغازها لداء يمز دواؤه ، وهذا الموت إنه لكسر لا يمكن انجباره . وبعضى فيتحدث عن انقضاء الحياة الدنيا وتطمعها كما يصور ذلك القرآن الكريم إذ تتكور الشمس وتتناثر الكواكب وتنفطر السموات وتذهل كل مرضعة عن ابنها وتسير الجبال وتسجر البحار ، ويقول إن في ذلك كله لعبرة وعظة لأولى الألباب . وله مرثية بديعة في أخيه أحمد يقول في نضاعيفها :

يا أخى عاد بعدك المآء سُمًّا وسموماً ذاك النسيمُ الرِّخاءُ
 كيف أرجو شفاء ما في وما في دون سَكْنائِي في تَرَاك شِفَاءُ
 شَطْرُ نَفْسِي دَفَنْتُ وَالشُّطْرُ بَاقِي يَتَمَنَّى ومن مُناه الفَنَاءُ
 إن تكن قَدَمَتُهُ أَيْدَى النّايَا قَالِ السَّابِقِينَ تَمْضِي البِطَاءُ
 إنما الناس قادمٌ إثرَ ماضٍ يَدُهُ قَوْمٍ لِلْآخِرِينَ انْتِهَاءُ

والمرثية كلها بكاء وأنين ، وتفكير في الموت ، موت الأحباب واندلاع الحزن بعدهم والبيكاء ، مع ما يجلفون من غُصَصٍ تعترض بالشجى في الملوقة . ويقول إنما نحن بين ظفر وناب من خطوط كأنها سباع ضاربة ، ويأسى للإنسان وغدر الدنيا به واستردادها في المساء ما وهبت في الصباح ، وكأن الإنسان يعيش في حلم أو كأنما يعيش بدون عقل ،

(١) الصغار : الذل والهوان . (٢) الوجار : جحر الضب وغيره . والضب : من

(٣) الحوار : ولد الناقة لحظة وضعه ويريد الجنين .

جنس الثور والحمى ، يكثر في صحراء الجزيرة العربية .

فلست تُغفل الدنيا إزاء هذا الفساد الذى يعم كل شيء فى الكون من أحياء وغير أحياء . وفى الحق أن الفلسفة عمقت تفكيره ، وقد جمع إليها شاعرية خصبة وحجاً دقيقاً مرهفاً .

ابن الهيثمية^(١)

هو أبو يعقوب محمد بن محمد بن صالح بن الهيثمية العباسى ، نسب إلى هبار جده لأمه ، ولد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وكان خيث اللسان ، فلم يكذب بلسان من هجائه أحد ، وفيه يقول المهاد الأصهبانى : « من شعراء نظام الملك (وزير ألب أرسلان وابنه ملكشاه) غلب على شعره الهجاء والمزل والسخف ، وسبك في قالب ابن الحجاج وسلوك أسلوبه وفاقه فى الخلاعة والمجون . والتنظيف من شعره فى نهاية الحسن » ويقول ابن تغرى بردى : « كان فيه إقدام بالهجو على أرباب المناصب . ومرت بنا فى حديثنا عن الهجاء فى الفصل السابق إشارة إلى قصيدة له فى هجاء أرباب الدولة فى عهد ملكشاه السلجوق . وحتى رابعه نظام الملك لم يسلم من لسانه ، ويقال إنه حين سمع هجاءه له أمر بأن يُصرف رسمه أو راتبه مضاعفاً ، وعُدَّت تلك مئة من نظام الملك دالة على مكارم أخلاقه وسعة حلمه . وأشعاره مليئة بالهجو إلى حد الإقذاع ، حتى ليهجو الإنسانية جميعاً قائلا :

خَذْ جَمْلَةَ الْبَكْوَى وَدَعْ تَفْصِيلَهَا مَافِى الْبَرِيَّةِ كُلُّهَا إِنْسَانٌ

وجعلته صلاته بنظام الملك يقيم بحواره مدة طويلة فى أصفهان عاصمة ألب أرسلان وملكشاه ، ويبدو أن مقامه لم يستمر بها طويلاً بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٥ . ولم يعد إلى بغداد ، بل اتجه إلى كرمان وأقام بها إلى أن توفى سنة ٥٠٤ .

ولسنا نريد الحديث عن ابن الهبارية وهجائه ومدىحه ، وإنما نريد الحديث عن شعره التعليمى فقد نهض بعمليتين كبيرتين فيه : أولهما نظمها لقصص كليلية ودمنة ، وقد سماها « نتائج القطنة فى نظم كليلية ودمنة » وهو على غرار نظم أبيان من وزن الرجز المزدوج ، فكل بيت فيه يتفق شطراهما فى قافية واحدة . وفى فوائده ما يدل على أنه نظمها فى كرمان ، وقد نوه بنظم أبيان للقصص ، وأبان يتفوق عليه فى جودة شعره وإن كان عمله سقط من يد الزمن إلا ما رواه منه الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق . ونتائج القطنة مطبوع فى بومباى من قديم .

(١) انظر فى ترجمة ابن الهبارية وأشعاره كتاب خريدة القصر (لحم العراق) ٧٠/٢ وابن خلكان ٤٥٣/٤ ٣٦٧/٥ والشذرات ٢٤/٤ .
والنجم الزاهرة ٢١٠/٥ والواقى ١٣٠/١ ولسان الميزان

والعمل الثاني من شعره التعليمي ديوان الصادح والباغم ، والصادح : رافع صوته بالطرب والباغم خافض الصوت في لين . والديوان أراجيز قصصية مزدوجة . أو قل كثرت قصصٌ ثم يليها وعظ خلق وحكمٌ متعاقبة . وقد طُبع الديوان في القاهرة وبيروت ولكن في الهند . وهو يستهل بالحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ ، ويقول :

هذا كتابٌ فيه علمٌ وأدبٌ يفوق أنواع القريض والخُطْبُ
عملتهُ لسيد الملوك وموئل اللهوف والعُملوك
فجاء مثل الذهب المسبوك سلكتُ نهجا ليس بالمسوك
وضعتُه مختعراً معناه للملك ماخاب من رجاء

ويصرح باسم الملك وهو صدقة بن منصور الأسدي صاحب الحلة المتوفى سنة ٥٠١ هـ وقد مضى بمدحه طويلاً ، حتى إذا تمَّ الديوان سُرَّه إليه من كَرَمَان مع ولده فأجزل صلته وأسنى جاثرتَه . ويمضى ابن الهبارية في الديوان بعد تقديمه لصدقة ومدحه فيذكر مناظرة بين هندي وقارسي استمع إليها في أحد أسفاره ، وفيها يقتخر كل منهما لوطنه ، أما الهندي فافتخر باختراع بلاده للشرنج ووضعها لكليلة ودمته ، وأما القارسي فافتخر باختراع بلاده للترد . وتوالى القصص ، وقليل منها الذي يشبه كليله . ودمته في جريانه على ألسنة الحيوانات والطير . ونقرأ قصة الناسك واللص الفاتك ، والبعير والجمال والتاجر ، وامرأة الراعي ، وامرأة التاجر ، والذئب والغزالة ، إلى غير ذلك من قصص تعليمية أراد بها ابن الهبارية العظة والعبرة . غير أن هذا الصوت القصصي في الديوان لا يلبث أن ينقطع ، ويحل محله صوت آخر ، ليس فيه شيء من القصص ، إذ يتحول ابن الهبارية مرئياً يقدم النصائح في السياسة ومعاملة الناس وفي الزهد وعلو الهمة والنهي عن الظلم والأمر بالعدل ، وكان ابن الهبارية نفسه فقد إيمانه بعمله القصصي الأدبي ، ولعل ذلك ما جعل الأدباء بعده ينصرفون عن مجاراته في هذا العمل الفني ، وكان حرياً أن تأخذ القصص مجرى كبرياء في الشعر العربي ، غير أن النموذج الذي وضعه ابن الهبارية كان من الضعف - في رأيي - بحيث لم يمهّد تمهيداً حسناً لهذا الاتجاه الكبير . ونراه يختم الديوان بقوله :

هذا كتابٌ حسنٌ نَحَرَ فيه الفِطْرُنُ
أنفقتُ فيه مَدَّةَ عَشْرَ سِنِينَ عِدَّةَ
يسيرته ألساناً جميعها معاني

ولعل ابن الهبارية بالغ في قصة السنوات العشر . ومع ذلك كله لا بد أن نبقى له على

شىء من الإحسان : فقد كانت ملكته الشعرية خصبة . وساق له العماد وابن خلكان كثيرا من الأشعار البديعة . وحقا ليست من الأشعار التعليمية . ولكنها تدل على براعته الشعرية .

٥

شعراء شعبيون

قد يُظنُّ من هذا العنوان أن من شعراء العصر من كانوا شعبيين ومن كانوا غير شعبيين ، والحق أن صفة الشعبية هذه تشمل كل فنون الشعر وكثرة الشعراء ، أما فنون الشعر فإنها جميعا كانت تصوِّر حياة الشعب : فالمدح يصوِّر انتصاراته ويصور مطامحه في الحاكم العادل ، ويصور المهجاء الأخلاق الذميمة التي يرى الشعب تنحيتها عن المجتمع وأفراده . وشعر الغزل كان يصوِّر في كثير من جوانبه العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة ، بينما شعر الزهد كان يصور من بعض جوانبه حياة الشظف والحرمان ، وحتى شعر اللهو كان يصور أيضا من بعض جوانبه قَصف الشعب في أعياده .

فليس هناك انفصال بين فنون الشعر العربي والشعب ، وكذلك ليس هناك انفصال بين الشعراء والشعب ، فقد كان جمهورهم من طبقاته الدنيا ، وكانوا يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرهما ، ويَصُدِّرون عنها في أشعارهم . ولابد أن نلاحظ أنه كانت هناك عوامل مهمة عملت على وصل الشعر العربي بشعريه في بغداد وغير بغداد وفي مقدمتها أن الثقافة كانت عامة ، وكانت حقا للجميع ، إذ كانت تُلقَى في المساجد يوميا ، يلقبها كبار العلماء ، والناسُ يتحلَّقون من حولهم ، وكلُّ يمد ما يريد من لغة ونحو ومن فقه ومن قراءات ومن حديث نبوي ومن دروس أدبية يروى فيها الشعر ويعرض العلماء لما فيه من فنون البلاغة والنقد .

لم تكن هناك حواجز ولا أسوار تفصل بين أى فرد من أفراد الشعب وبين الغذاء بكل ما يريد من ألوان الثقافات شعرا وغير شعر . وقد أتاح ذلك لكثيرين في مراحل متأخرة من حياتهم أن يصبحوا علماء في هذا الفن أو ذاك . ولم يكن يشترطُ حين يحضر حلقات العلماء والأدباء أى شرط ، ولذلك كان يحضرها كثير من الأميين . وأتاح ذلك لغيرهم أن يصبحوا شعراء . ومن يرجع إلى كتب التراجم يصادفه من حين إلى آخر شاعر أمي أو شاعر من أصحاب الحرف والصناعات ، نذكر منهم الحباب الموصلي . وله ترجمة في كتاب

البيتة^(١) للثعالبي ، وفيه يقول : « من عجيب شأنه أنه كان أميا . وشعره كله ملح ونحف وغرر وطرف » . وانتظامه في البيتة يدل على أنه كان من شعراء القرن الرابع للهجرة . وقد أشار إلى أميته في بعض شعره قائلا لبعض خصومه :

بالت في شئني وفي ذمّي وما خشيت الشاعر الأُمّي
جربت في نفسك سؤا فإأحمدت تجريبك للسم

وكان يحفظ القرآن الكريم ، فاقبّس من آياته مرارا وتكرارا . وكأنما جعل ذلك خاصة فنية له تميزه من نظرائه : كقوله متزلا :

كأنّ يمّني حين حاولت بسطها لتوديع إني والهمي يذرف الدّما
يمين ابن عمران وقد حالت العصا وقد جعلت تلك العصا حية تسمى
وقائلة هل تملك الصبر بعدهم فقلت لها : لا (والذي أخرج المرحي)

وهو في البيت الثاني يقبّس قوله تعالى في سورة طه عن عصا موسى بن عمران عليه السلام حين ألقاها فعالت أو تحولت : « فإذا هي حية تسمى » واقبّس في البيت الثالث آية سورة الأعلى : (والذي أخرج المرحي) . ويقول الثعالبي إنه « كان يشيع ويشتمل في شعره بما يدل على مذهبه » وينشد طائفة من أشعاره الشيعة . ويلقانا في الخريدة شاعر أمي ثان هو نباته^(٢) الأعور الأبري ، وكان هجاء خبيث اللسان شغوبا بهجو أحد العلويين وفيه يقول :

شريف أصله أصل حميد ولكن فعله غير الحميد
ولم يحلفه ربّ العرش إلا لتحتلف القلوب على يزيد

وهو يزيد بن معاوية عدو العلويين والشيعة . ويلقانا كثيرون من أصحاب الحرف يشغفون بالشعر ويصادف فيهم ملكات خصبة فيصبحون من شعرائه النابهن مثل السري الرفاء الذي تقدمت ترجمته في الفصل الماضي ، ومثل الزاهي أبي القاسم علي بن إسحق بن خلف البغدادي وكان قاطنا وكانت دكانه في قطيعة الربيع . وقد عرضنا له بين شعراء التشيع في الفصل الماضي ، وأنشد له ابن خلكان البيتين التاليين للمعروفين في كتب البلاغة وفيها يصف البنفسج^(٣) :

ولا زوروية تزهر بزوريتها بين الرياض على زروق اليواقيت

(١) انظر ترجمة الخازن البلدي وأشعاره في البيتة .

(٢) ٢٠٨/٢ وله حق شعره ونشره ببغداد صحيح وجميل .

(٣) ٣٧٢/٣ ابن خلكان .

(٤) راجع ترجمة نبات الأعور وأشعاره في الخريدة .

كأنها فوق قاماتٍ ضَعُفْنَ بها أوائلُ النارِ في أطرافِ كِبَرِيَةٍ
وَقَرْنُ البنسجِ الذى ترفُّ أوراقه الرطبة ويتفرق الماء في غصنه بلهب نار في أعواد
كبرت جافة يدل على قدرة خيالية بديعة . وما أنشده له ابن خلكان قوله :

وبيضٍ بألحاظِ العيون كأنما هَزَزْنَ سيوفاً واستَلَّيْنَ خَنَاجِراً
سَفَرْنَ بدوراً وانتَبَهْنَ أهْلَهُ وَمِسْنَ غصونا والتَفَتْنَ جَازِيراً^(١)
وأطلعنَ في الأجياد بالدرِّ أنجماً جِطَلْنَ لِحَبَاتِ القلوب ضَرَايراً

والقسيم في البيت الثاني بديع فقد جعلهن حين سفرن عن وجوههن بدورا وحين انتبهن وظهرت جباههن أهلة ، وحين تبخرتن غصونا وحين التفتن جاذرا ، وبذلك ومثله عدُّ شاعراً مبدعاً . ولا ريب في أن مشاركة ذوى الحرف والأمين في شعر العصر دليل قوى على صلته بالشعب ، فأبتأوه جميعاً يشاركون فيه حتى الأميون الذين لا يقرءون ولا يكتبون .

ولم تنف مشاركة العامة في الشعر عند هذا الحد ، فقد أخذ يظهر بينهم شعراء لا ينظمون شعرا فصيحاً ، وإنما ينظمون شعرا ملحونا بلغتهم العامة ، وأخذ ذلك يظهر بوضوح منذ القرن السادس الهجرى ، وغير كتاب يصور هذا الجانب كتاب العاقل الحالى والمرخص الغالى لصنى الدين الحلى ، وفيه يتحدث صنى الدين بالتفصيل عن الفنون العامة ، المواليا والزجل والقوما والكان وكان ، ويقول إن الثلاثة الأخيرة ملحونة أبداً ، أما المواليا فقد تكون معربة وقد تكون ملحونة ، ويقول إن أول من اخترعها أهل واسط اقتطعوها من بحر البسيط وجعلوها معربة مثله ، ومعروف أن وزنها « مستغفلن فاعلن مستغفلن فَعْلَنه » وهى أربعة شطور بقافية واحدة ، ويقول صنى الدين إن أهل واسط تنزلوا بها وملحوا وهجوا ، والجميع معرب ، إلى أن وصل إلى البغدادية فلتطوره ولحنوه وسلكوا فيه غاية لا تدرك ، ويذكر من أمثلة المواليا المعربة قول الحنبلز البغدادى فى مديح

الصاحب بن الدِّبَاهِي (أحد متولَّى الخراج فما يبدو) :

يَكُم قُرَى نَهْرٍ عِيسَى أَصْبَحَتْ كَالْمُدُنِ أَيْ بِأَذْلَيْنِ الْقِرَى أَيْ عَاقِرَيْنِ الْبُدُنِ^(٢)
وَلَوْ تَشَامَوْا بِأَطْرَافِ الرَّمَاحِ اللَّدُنِ صَيْرْتُمُ الْأَسَدَ نَحْرَتْ فِي مَكَانِ الْفُدُنِ^(٣)

والبحر الذى تلجح قريباً أو للضيوف .

(٣) اللدن : البنية : كتابة من حدة قطعها . الفدن . الثيران .

(١) سفرن : كشفن عن وجوههن - انتبهن : لبسن الثياب . مسن : تبخرتن . الجاذر جمع جؤنر وهو ولد البقرة الوحشية .

(٢) أى : يا . القرى : الضيافة . البدن : الترقى

ومع أن صنّى الدين بعد هذه المواليا من الجزل المبرح إلا أنها لم تخل من اللحن كما هو واضح في جزم الفعلين المضارعين « تشاموا ونحرت » . ويتحدث صنّى الدين بالتفصيل عن الزجل وظهوره في الأندلس وكبار أعلامه ويطيل في بيان ما يدخله من اللحن عادة أو ضرورة ، ويقول لأهل بغداد خاصة أرجال رقيقة بألفاظ لطيفة على اصطلاح لغتهم وجارى ألسنتهم على قاعدة اللحن المختص بهم ، ويذكر طائفة من زجالي بغداد على رأسها على بن المراضى ، ويذكر مطلع زجل له على هذا النمط :

لما أسرتم فؤادى أطلقتُ دمعى المصُون
وصرتُ فيكم أغالى جهدى ولى ترخصُون

وواضح أن المطلع غير ملحون . والفن العامى الثالث الذى نتحدث عنه صنّى الدين فن الكان وكان ، وهو يتكون من أدوار كل دور أربعة شطور ، وتشارك شطور المنظومة الثانية والرابعة بكل دور في قافية واحدة مرّدة قبل حرف الروى بأحد حروف العلة ودائماً الشطر الأول في كل بيت أطول من الثانى . اخترعه البغداديون كما يقول صنّى الدين ثم تداوله الناس في البلاد . ويذكر أنه سُمى بذلك لأن البغداديين أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه سوى الحكايات والحرفات ، فكان قائله يحكى ما كان وكان . واتسع طريق النظم فيه على يد كبار الوعاظ من أمثال ابن الجوزى في أواخر القرن السادس وشمس الدين محمد بن أبى بكرين رشيد صاحب القصائد الوترية وشمس الدين محمد بن أحمد الكوفى في القرن السابع . ويقول صنّى الدين إنهم نظموا فيه المواعظ والرقائق والزهديات والأمثال والحكم فتداولها الناس وصارت حتى عصره تُستَحْضَرُ في المفاكرات ويذكر بها في المحاضرات ، ويتشد من الكان وكان غزلية موجّهة في الطيور ، وفي تضاعيفها :

طَيرى الذى كانَ إلفى لو رِدّتْ يثَلُو ما حَصَلَ
وهو علىَّ معوّدٌ وأنا عليه معتادٌ
إذا قلّج من عندى فما ترال عبنى معو
واعرِفْ مطارو واقعد فى البرج بالمرصاد

والمنظومة طويلة والشاعر يتخذ لغزله رمزا : طَيراً نصب له شبكا فصاده وفرح واتخذته إلفاً له . ويمضى فيصور كيف أن طيره أو طائره إذا حطّ في بَرَجٍ لغيره لا يزال يرقبه ، ومع أنه يعرف من يتزل عندهم كما يعرف جميع رفاقه يسامحه ، وحين يأتيه يرضى عنه وينسى خصاله ، ويقول إن الماضى : ماضى الناس جميعا لا يعود . وربما شرد منه أسبوحا بطوله ، ثم أتاه ليلة الجمعة فاستقبله خير استقبال . والمنظومة طريفة كما هو واضح .

والفن العامى الرابع القوما ، ويقول صنى الدين إن له وزنن : وزناً مثل الرباعية يتكون من أربعة شطور ، يتحد أولها وثانيها ورابعها فى القافية ويختلف الثالث ، ومعروف أن هذا الوزن يخرج من بحر البسيط ، وأن الشطر فيه إما مستعلن فعلن وإما مستعلن فاعلن . أما الوزن الثانى فيقول صنى الدين إن الدور فيه يتكون من ثلاثة شطور أو كما يسميها ثلاثة أفعال مختلفة الوزن متفقة القافية ، والشطر الأول أقصر من الثانى ، والثانى أقصر من الثالث ، ويذكر أن البغداديين اخترعوه فى دولة العباسيين برسم السحور فى شهر رمضان واشتقاق اسمه من قول المسحورين في آخر كل دور منه : « قوما للسحور » يبهون بذلك رب المتزل ويمدحونه ويدعون له ، فأطلق عليه اسم « قوما » وصار علماً له . ويذكر صنى الدين إنه قيل إن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) ويعود فيقول : الصحيح أنه اخترع من قبله وكان الناصر يطرب له وجعل لابن نقطة رسماً فى كل سنة وحدث أن توفى وكان له ابن يحسن القوما ، فأخذ أتباع والده فى أول ليلة من ليالى رمضان وتغنّى على مسمع من الناصر :

ياسيد السادات لك بالكرم عادات
أنا بنى ابن نقطة وأنى تعيش انت مات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار واستحضره وخلع عليه وفرض له ضمنى ما كان لأبيه . والقوما هنا من الوزن الأول الذى ذكره صنى الدين ، وقد ذكر منه منظومات تحوى أكثر من عشرين دوراً . ومثل للنوع الثانى من القوما بقوله .
داوى حُضَّاكَ^(١) بَعْدْنَا وَاتْرَكْ نَضَّاكَ بِالرَّغْمِ كَانَ تَرَكَ لَنَا لَا بِالرَّضَا لَكَ
دَامَ الْعَنَا لَكَ إِشْ تَرَى فِي الْعَشَقِ نَالَكَ مَا نَالَ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ أَحِبَّائِهِ تَنَالَكَ

وينبغى أن نعرف أن هذه الفنون الأربعة العامة لم يكتب لها أن تكون الترجمان الدقيق عن مشاعر الشعوب العربية فى بغداد وغير بغداد ، فقد ظلت فى مرتبة دانية ، وظل يُنظر إليها على أنها إنما تصلح للهزل أكثر منها للجد ، وبذلك ظل الصولجان للشعر الفصيح وظل مهوى أفئدة العرب فى كل مكان ، كما ظل ترجاناً صادقاً عن كل ما يأملون ويأملون وكل ما يلهم بهم من ابتهاج وإبتاس ، حتى لنجد أصحاب الكدبة والشحاذة الأدبية يؤثرونه على الشعر العامى ، لما له من تأثير بعيد فى نفوس السامعين ، ونقف قليلاً عند الأحنف المكبرى كبيرهم فى بغداد .

(١) الداء المضال : الذى لا طب له ولا دواء .

الأحفف العكبىرى^(١)

هو أبو الحسن عقیل بن محمد الملقب بالأحفف العكبىرى ، ظریف الشعراء المكذبن ببغداد وهم شعراء كانوا یسبون أنفسهم إلى بنى ساسان الفارسیین نظرفا ، وبعیثون على الكذبىة أو الشحاذة الأدبىة ، یطوفون من بلدة إلى بلدة . وفيه یقول الصاحب بن عباد :
 « لو أنشدتك ما أنشد به الأحفف العكبىرى لنفسه ، وهو فرد بنى ساسان الیوم بمبدينة السلام (بغداد) لامتلات عجباً من ظرفه وإعجاباً بنظمه » . ومن قوله یفتخر بمهته وما اختاره لنفسه من الكذبىة والشحاذة :

ألا إنی بحمد اللہ	ه فی بیت من المجد
یاخوانی بنی ساسا	ن أهل الجد والجذ ^(٢)
لم أرض خراسان	ققاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج	إلى البغار والسند
قطعتا ذلك التهج	بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعادیه	بنا فی الرزع يستعدی

وهو یفتخر بانتسابه إلى هذا البیت الكبیر بیت بنى ساسان أو بیت الشحاذة الأدبىة ویصور تطوافه وتطواف إخوانه الساسانیین ، فقد قطعوا البلدان من خراسان وقاشان فی ایران إلى الهند ، ومن أرض الروم والبغار إلى أرض الزنج والسند ، كل ذلك بدون أى عدة حرية ، لأن أحداً لا یعترضهم ، إذ هم شحاذون لا یملكون شیئاً . وتنبه الصاحب بن عباد إلى ما یشیر إليه البیت الآخر ، فقال : لهذا البیت معنى بدیع : یرید أن ذوی الثروة وأهل الفضل والمروءة إذا وقع أحدهم فی أیدی قطاع الطريق وأحب التخلص قال : أنا مكذبی (أى لا یملك شروى تقیم) فانظر كيف خاص ، وأبرز هذا المعنى المتعاص . ویشکو الأحفف الفقر وتطوافه فی الأرض مراراً فی شعره بمثل قوله :

عشت فی ذلّة وقلة مال
 وبالأمانى أقول لا بالمعانى
 واغتراب فی معشر أنذال
 فینذانى حلالة الآمال

وطبیعى أن تمر علیه أوقات رخاء وتعقبها أوقات شدة حین یقلّ ماله ولا یجد حوله من یسغه فیشر بالقرية ونكدھا ومرارتھا وما یداخلها من حرمان ، ویمس كأنه یعیش ویتنفذ

(١) انظر فی ترجمة الأحفف وأشعاره تاریخ بغداد (٢) للجد یفتح المیم : الخط .

والهبة ١١٧/٣ والتهجم الزاهرة ١٧٣/٤ .

بالآمال ، وقد ضُيِّقَ عليه الخناق . وكثيراً ما يشكو هم وبؤسه وتعامته حتى ليقول :
 العنكبوتُ بَنَتْ بَيْتاً على وَهْنٍ تأوى إليه ومالى مثله وَطَنُ
 والخنفساء لها من جنبها سَكَنُ وليس لى مثلها إلفٌ ولا سَكَنُ
 فليس له بَيْتٌ حتى ولا بَيْتُ واه كبيت العنكبوت ، بيت يحمله يشعر أن له وطناً يأوى
 إليه ، فهو شريد ، وحتى الخنفساء لما سكن ولما إلف ، وهو لا إلف له ولا سكن . وهذه
 الأبيات وما يماثلها كان يتخذها وسيلة لفرقٍ له القلوب وتُمدِّ إليه الأبدى بالعطاء . وشعره
 كشمع أمثاله من هذه الطائفة يخلو من التتميق والمحسنات البديعية ، إذ هو شعر الطبيعة
 والفطرة ولذلك لا يلقانا فيه أى حلية أو زينة . وقد توفى سنة ٣٨٥ . وفى رأى أن شعر
 الكُذْبِيَّة والشحاذة الأدبية هبط بعد زمنه ، إذ شغلت مكانه المقاماتُ عند بليغ الزمان
 والحريرى .

الفضل المختار

النثر وكتابه

أ

تنوع النثر :

وأينا في العصرين العباسي الأول والثاني كيف تنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فكان هناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر الأدبي ، وكانت هناك المناظرات والمواظع والقصص وكتب الأدب التهذيب ، وكانت هناك الرسائل الشخصية والسياسة ، وكل هذه الأنواع مفتتة تزدهر في عصر الدول والإمارات بالعراق وخاصة في القرنين الرابع والخامس للهجرة . ولا نبالغ إذا قلنا إنها كانت أزهى القرون في العصر بالقياس إلى النثر وفنونه ، فقد بلغ العقل العربي كل ما كان يرجى له من نصيح ، إذ ظل المترجمون ينقلون إليه قبل ذلك كل ما كان عند الأمم القديمة من معارف ، وظل يتغذى بها وينمو . ولم يلبث أن شارك فيها وأصبح للعرب علماءهم ومفلسفهم ، وظل يقطع أشواطاً ومراحل حتى بلغ القمة في مطالع هذا العصر .

وكانت قد بقيت للترجمة بقية ، وهي تدل بوضوح على ما نقوله ، فقد كانت انتقلت من الترجمة الحرفية إلى الترجمة بالمعنى على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني ، وإذا رجعنا إليها وإلى أصحابها في هذا العصر لاحظنا أنهم انتقلوا بها نقلة واسعة نحو العناية بالأداء والصياغة ، حتى لكان المترجمات توضع في العريخ ابتداء ، فلا عرج ولا أنت في صيغة ، بل مع الروق وحسن الأداء ، ونفصب مثلاً للمترجمين عيسى بن زُرْعَةَ البغدادي المتوفى سنة ٣٩٨ وفيه يقول أبو سليمان المنطقي السجستاني : « هو آخر من يرتقى نقله لكتب الحكم أرسططاليس : الباسط والجوامع . . وكتاب جالينوس « منافع الأعضاء وغيره من الكتب » . ويذكر مثلاً لما ترجمه من كلام أرسططاليس على هذا النمط (١) :

(١) انظر في الفقرة التالية للترجمة كتاب منتخب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي السجستاني (طبع طهران) ص ٣٣٣

والإنسانية أفتى ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائر إلى مركزه ، إلا أن يكون مؤوقاً (معلولاً) في طبيعته ، مخلوقاً بأغلاق بيضية . ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسبب هواء في مرعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعوه إليه طبيعته ، وكان لبن العريكة لاتباع الشهوات الرديئة ، فقد خرج عن أفقه ، وصار أزدل من البيمة بسوء إثارته .

ولو أننا لم نعرف أن هذه الفقرة مترجمة عن أرسططاليس ما تنبينا إلى ذلك لصياغتها العربية المحككة ، وما يجرى فيها من روتق الصياغة الأدبية كما هو واضح في مثل قوله : « ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسبب هواء في مرعاه » . وهي استعارات وكتابات بيانية . وأرسططاليس في الفقرة يشير إلى ما ذهب إليه من أن الإنسان مكون من طبيعة هي البدن وما يتصل به من اللذات ، وهي تصلح وتفسد ، وأيضاً من النفس التي لا تبلى والتي يترقى بها الإنسان ويكمل . وابن زرعة يترجم حقاً ، ولكنها ترجمة أشبه بأن تكون من إنشائه ابتداء ، ولذلك تصبح الفقرة ، وكأنها وصية أو نصيحة لواعظ - كما لاحظ أبو سليمان المنطقي السجستاني - يريد بها للإنسان أن يصلح من طبيعته الأمارة بالسوء ولا يستجيب إلى شهواتها ومآربها المادية . ولم ينقلها مترجم يعرف العربية فحسب ، بل ترجمها أديب يتذوق أساليب العربية ويفقه دقائقها وخصائصها البيانية . ويشيد ابن أبي أصيمة في كتابه طبقات الأطباء ببلافة كثيرين منهم ومن العلماء بالرياضيات والطبيعات ، ويسوق لهم أشعاراً كثيرة .

وشملت هذه الصياغة المحككة الفلسفة ، ويجيل إلى الإنسان أنها كانت قد أصبحت في القرنين الرابع والخامس للهجرة قوتاً أو غذاء عاماً للشعب ، بحيث لم تقتصر على الطوائف العليا والوسطى في المثقفين ، بل اتسعت حتى احتوت الطوائف الدنيا ، وذكرنا في الفصل الثاني دليلاً قوياً على ذلك هو أن جماعة إخوان الصفا السريّة التي كانت تدعو في البصرة إلى المذهب الإسماعيلي لجأت إلى الفلسفة والعلوم في صنع رسائل اتخذتها وسيلة لنشر هذا المذهب ، ولو أنه استقر في نفسها أن العلوم والفلسفة معاً يرتفعان عن مدارك العامة ما لجأت إلى هذه الوسيلة ولعلت منذ أول الأمر أنها وسيلة قاصرة فكفّت عنها ، أما وقد تهادى إخوان الصفا فيها ومضوا يندسون رسائلهم في دكاكين الوراقين ببغداد والبصرة فإن ذلك دليل على أن تلك العامة بمعرفة الفلسفة ، وسنرى عما قليل مناظرة بين زعيمهم المقدسي والحريري في دكان حمزة الوراق بشارع الوراقين في بغداد ، تتناول الأسس

والغابات التي من أجلها كُتبت رسائل إخوان الصفا ، وقد عمل المقدسي ورفيقه زيد بن رفاعه على إذاعتها ونشرها ببغداد .

وأخرى ألفتها في فصل الثقافة وهي تدل على أن الفلسفة أصبحت في القرن الرابع الهجري شائعة مشتركة بين الناس أو قل بين البغداديين ، وهي كثرة المتديات التي كانت تثار فيها مسائلها ، ومثلنا لذلك بدعوة أبي سليمان المنطقي السجستاني ، وذكرنا من كان يؤمها من عليّة المتفلسفة ، وكان وراءهم آخرون دونهم في الرتبة ، يؤمون داره كل يوم . وكان كثيراً ما يُلقي سؤال وتدور حوله محاوره كبيرة ، كل متفلسف يرى فيها رأياً يُدلى به ، ثم يكون الرأي الأخير لأبي سليمان ، وكأنه المنارة الهادية . وقد استطاع أحد تلاميذه وهو أبو حيان التوحيدى - كما مرّ بنا - أن يجمع طائفة كبيرة من هذه المحاورات الفلسفية ، وسماها المقابسات أى المحاورات ، وكأنما ارتضى لها كلمة المقابلة لتدل على أن كل من كان يحضر الندوة ومحاور فيها كان يقتبس من فكر صاحبه . وكأنما استحال بينهم الفكر الفلسفى إلى ما يشبه ناراً كل يقبس منه حسب استطاعته . وقد بلغت المقابسات مائة وستة وستين وأربعاً صفحة كبيرة ، وهي أشبه بدائرة معارف فلسفية تضم مباحث عميقة في الإلهيات والطبيعات والنفس والعقل والأخلاق والأدب والبلاغة . ويمكن أن ندخل متفلسفة القرن الرابع في هذه الندوة وغيرها في دائرة القارائى وتلاميذه ، فقد مضوا جميعاً في إثراء يُعتَمَدُ بالإلهيات وبمنطق أرسطو وبالنفس والعقل متأثرين بنظرية الفيض التي بُشّتها الأفلاطونية الحديثة ، وهي مبثوثة في كلام أبي سليمان وتلميذه التّوشجاني ، وقد عرض لها الأخير في المقابلة السادسة والثلاثين ولا نرى أحداً يراجعها مما يدل على إيمانهم بها جميعاً . وفي مواضع كثيرة من المقابسات نرى أبا سليمان وغيره من تلاميذه يرفعون من شأن الدين ، وقد حاول هو وبعض مرديه مراراً وتكراراً أن يدفعوا الفكرة أو النظرية التي قامت عليها رسائل إخوان الصفا ، وهي الوصل بين الفلسفة والشريعة ، كما مرّ بنا في فصل الثقافة ونقضوها عليهم نقضاً ، وصوّر أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة ردّ أبي سليمان عليهم^(١) ، وهو رد مفحم رائع أوضح فيه أن مرد الشريعة إلى الله والوحى ومرد الفلسفة إلى الرأى والعقل ، ونعرض جانباً من رده لنرى قدرته البليغة ، يقول :

« الشريعة مأخوذة عن الله عزّ وجلّ بواسطة السّفير بينه وبين الخلق من طريق الوحى وباب المناجاة ، وشهادة الآيات وظهور المعجزات ، على ما يوجب العقل تارة ، ويحجّزه

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/٦ - ١٨ ونظر في أبي سليمان ص ٢٨٥ السابقة .

تارة ، لمصالح عامة متضنة ، ومراشد تامة مبيّنة ، وفي أثنائها مالا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه (كالبعث) ولا بد من التسليم للداعى إليه والنبه عليه ، وهناك يسقط لِمَ ؟ ويبطل كيف ؟ ويزول : هَلْأ ، وبذهب لو وليت في الريح ، لأن هذه المواد عنها محسومة واعتراضات المعترضين عليها مردودة ، وارتباب المرتابين فيها ضار ، وسكون الساكنين إليها نافع .. وأساسها على الورع والتقوى ، ومنتهاها إلى العبادة وطلب الزلى . ليس فيها حديث النجم في تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك .. ولا حديث صاحب الطيعة الناظر في آثارها .. ولا فيها حديث المهندس .. ولا فيها حديث المنطقى .. فعل هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشريعة .. وكما لم نجد في هذه الأمة من يفرغ إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها ، كذلك أمة عيسى عليه السلام ، وهى النصارى ، وكذلك الجوس .. فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحى النازل من الشيء المأخوذ بالرأى الزائل ؟ .. وبالجملّة النهى فوق الفيلسوف والفيلسوف دون النهى ، وعلى الفيلسوف أن يتبع النهى وليس على النهى أن يتبع الفيلسوف ، لأن النهى مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه . ولو كان العقل يُكْتَفَى به لم يكن للوحى فائدة ولا غناء ، على أن منازل الناس متفاوتة في العقل وأنصاءهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغنى عن الوحى بالعقل كيف كنا نصنع ؟ وليس العقل بأسره لواحد منا وإنما هو لجميع الناس .. والنهى يقول أمرت وعلمت وقيل لى وما أقول شيئاً من تلقاء نفسى ، والفيلسوف يقول رأيت ونظرت واستحسنست واستبجحت ، والنهى يقول : مى نور خالق الخلق أمشى بضياته ، وهذا يقول مى نور العقل أهتدى به ، والنهى يقول : قال الله تعالى وقال الملكُ ، وهذا يقول قال أفلاطون وسقراط ..

وواضح أن أسلحة أبى سليمان من المنطق والتفلسف أسلحة حادة ، فقد فصل بوضوح بين الدين أو الشريعة وبين الفلسفة ، فالدين مرجعه الوحى والفلسفة مرجعها العقل ، والدين مرجعه الله والفلسفة مرجعها آراء الفلاسفة ، وهى تتفاوت وتختلف باختلافهم ، والشريعة مستغنية عن الفلسفة بكل فروعها . والنهى فوق الفيلسوف ، والشريعة تدعو إلى التقوى والورع ولا شأن للفلسفة بذلك . ولعل وصل إخوان الصفا بين الشريعة والفلسفة هو الذى دفع أباً سليمان وغيره من أفراد مدرسته إلى مهاجمة المتكلمين ، لأنهم صدروا في مباحثهم الكلامية كثيراً عن هذا الوصل وما يتصل به من التوفيق ، وكأن أباً سليمان أحس أنهم هم المسؤولون عن هذا العمل المخرض الذى يراد به الدعوة إلى المذهب الإسماعيلى الشيعى الغالى غلواً شديداً ، ولذلك مضى يهاجمهم مهاجمة عنيفة - كما نقل عنه أبو حيان

في المقابسات - قائلاً إنهم يعتمدون على الجدل والمغالطة ومحاولة إسكات الخصم والإيهام مع قلة تأمله وسوء ديانته . ومن المؤكد أن وصفهم بقلة التأمل وسوء الديانة فيه مبالغة ، وقد يكون اتفق له منهم من رأى فيه انحرافاً عن الدين ، وكان ينبغي أن لا يعصم حكمه . على كل حال إنما أردنا بما اقتبسناه من كلامه عن إخوان الصفا والوصل بين الشريعة والفلسفة أن ندل على أن لغة المتفلسفة في العصر صُبغت بأصباغ أدبية واضحة ، إذ يعرف أبو سليمان كيف يصطنى ألفاظه ، وكيف يجرى فيها ترادفاً بديعاً يجعل لوقعها على الأذان جمالاً ، وكيف ينسق عباراته ويأتي بها قصيرة متلاحقة . ونقرأ في المقابسات قطعاً فلسفية أدبية للكثيرين من تلاميذه ورفاقه مثل التوشجاني الذي نراه يستدل على الحياة بعد الموت على هذا النمط ^(١) :

« إذا كان صنف من أصناف الموجود في حكم المعلوم لحساسته ، ونقصه ونهايته ، وفساد طبيعته ، وطموس ضيائه ، وقيح صورته ، وانمحاء بهجته ، وخمود شعاعه ، وفقد تمامه ، وتقطع نظامه ، واستيلاء رذيلته ، وبطلان فضيلته ، فلا تنكر أن يكون في مقابلته وبازائه صنف آخر من المعلوم في حكم الموجود لصحة صورته ، ونفاضة جوهره ، وكمال فضيلته ، وظاهر عفته ، وبهاء هيئته ، وغلبة عدالته ، ونقاء سينه ، وصفاء سويبه ^(٢) ، وطهارة ذاته ، وظاهر زيتته ، ودوام نصرته ، وتناسب جملة وتفصيله ، وسائر ما لا يحيط القول به . فإنك متى حوت هذه المعاني . . اكتفتك الخيرات عاجلاً ، والسعادات آجلاً . فتكون حيثئذ موجوداً وإن عدمت ، وباقياً وإن فنيته ، وحاصلاً وإن فقدت ، وثابتاً وإن نُفيت ، وحياً وإن مت ، وظاهراً وإن بطنت ، وجلياً وإن خفيت ، وواضحاً وإن أشكلت ، وشاهداً وإن غبت ، وقادراً وإن عجزت . . هنالك تصل إلى غنى بلا قنية ^(٣) ، وتنطق بلا عبارة ، وتفعل بلا آلة ، وتصيب بلا مشورة ، وتعقل بلا مقدمة ، وتبنى بلا آفة . . وتسعد بلا شوب . إلهية ورثتها من البشرية ، ووربوية وصلت إليها بالعبودية . »

ويمضي التوشجاني فيقول لمنكر الحياة بعد الموت إنك إنما تنكرها حين تنظر إلى شخص في إفسار الحس وقشور البدن مع فساد العقيدة والمكوف على الشهوات المهلكة ، فتقول متى يكون لهذا رجوع وحياة بعد الموت ؟ وكان حرياً به أن يبين هواه ويختار الحق ويؤثر الخير إذ أن تكون السعادة غايته ، والأبد نعت ونهايته . وصياغة التوشجاني رائعة بما فيها من

(١) المقابسات (طبعة بغداد) : للقائمة الخامسة (٢) السرس والسنخ : الأصل .
والأربعون والنظر في التوشجاني للمقابسات ٢٩ ، ٣٦ . (٣) القنية : ما يكسب من المال وينفق .

جمال الجرس في الأداء الناشئ عن قصر العبارات وحسن انتخاب الألفاظ وما يجري فيها من ترادف بديع وقدرة على التناسق في الكلمات والصيغ وسيلانها ، بل تدفقها ، بالفكر الصافي الخالي من الشوائب . وهو ما نقوله إن النثر الفلسفي في هذا العصر التقي بالأدب والتمح في أثنائه وعلى حواشيه ، فغدا يروع السمع كما يروع الفكر والذهن .

وطبيعى في هذه الأثناء أن تزدهر المناظرات ، وأن تشيع في كل مجلس وبين العلماء والأدباء ، وقد اشتهر مجلس المهلبى ببعض مناظرات بين الحائمي والتمني على نحو ما يوضح ذلك الحائمي في رسالته « الموضحة » واشتهر عضد الدولة البرهسي بما كان يُفقد من مناظرات بين العلماء في مجالسه ، وبمحدثنا القاضي عياض في ترجمته^(١) للباقلاني عن مناظرته بمحضرة عضد الدولة للأحدب رئيس معتزلة بغداد حول تكليف مالا بطاق ، ومناظرته بمحضرة أيضاً لأبي إسحق التميمي رئيس معتزلة البصرة حول رؤية الذات العلية . وكانت المناظرات لاتزال ناشئة بين أصحاب الطب وغيره من علوم الأوائل حتى لنجد طيباً ببغدادياً في القرن الخامس الهجري هو ابن بطلان يرحل إلى مصر لمناظرة ابن رضوان الطيب المصري والحوار معه^(٢) . ومالنا نذهب بعيداً ومتدى أو ندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني في القرن الرابع الهجري كانت تعج بالحوار والجدال في كل فروع الفلسفة ومساثلها الدقيقة . ولم تكن المناظرات تقتصر على الندوات أو على المساجد ، بل كانت أيضاً تجري في الأسواق وخاصة سوق الوراقين حيث يلتقي أصحاب المذاهب والآراء ، فتنب بينهم معارك الجدل والمناظرة ، من ذلك المناظرة الطريفة التي حكها أبو حيان بين شخص يسمى الحريري كان يأخذ بشيء من الفلسفة والفكر الدقيق وبين المقدسي أبي سليمان محمد بن معشر اليبسي الرازي مخرج رسائل إخوان الصفا كما أسلفنا في فصل الثقافة ، ولذلك نسبها إليه أبو سليمان المنطقي السجستاني كما مرُّبنا ، وكان لا يزال يرى ببغداد في ندوته ، وفي شارع الوراقين . وكان الرأي العام السائد هناك يعارض نظريته في التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، ولعلمهم كانوا يعرفون مقصده الذي نهى إليه مراراً ، وكانوا يتعرضون له فلا يراهم أهلاً للجواب ، حتى كان يوم - وهو يتجول في الوراقين - تعرض له فيه الحريري غلام ابن طرارة وهيجه بما أورد عليه من أدلة ، مما جعله يندفع قائلاً^(٣) للشريعة طيب المرضي والفلسفة طب الأصحاء ، فالأنبياء يُطَوَّن للرضى حتى

(١) انظر هذه الترجمة في نهاية كتاب الإلهيد للباقلاني

(نشر دار الفكر العربي بالقاهرة) ص ٧٤٦ .

(٢) راجع القفطي ص ٢٩٨ ، ٤٤٤ وابن أبي أصيبعة

ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٣) الإمتاع واللؤانة ١١/٢ وما بعدها .

لا يتزايد مرضهم أو حتى يزول بالعافية ولا شيء وراء العافية ، وأما الفلاسفة فيطرون للأصحاء وبذلك يفيدونهم كَسَبَ الفضائل التي تؤهلهم للحياة الإلهية . وإن كَسَبَ المريض بعض الفضائل فليست فضائله من جنس فضائل الصحيح ، إذ الأولى (فضائل المريض) تقليدية والثانية برهانية ، والأولى مظنونة والثانية مستبقة ، والأولى جسمية والثانية روحانية ، والأولى دهرية والثانية زمانية . وقال إننا جمعنا بينها لأن الشريعة لا تعترف بالفلسفة بينما الفلسفة تعترف بها لأن الشريعة عامة والفلسفة خاصة فجمعنا بينها لأن العامة قوامها بالخاصة ، كما أن الخاصة تمامها بالعامة .

وأخذ الحريري ينقض أفكاره فكرة فكرة مبيناً ما فيها من فساد ، فقال له إن كلامك يخالف الواقع ، إذ لا يوجد طبيبان : طبيب للمرض وطبيب للصحة ، بل ذلك شيء خارج عن العادة ، فدائماً الطبيب يُعْتَى بحفظ الصحة ودفع المرض ، وإذن سقطت تلك الفكرة المضلّة . ونقّص عليه ما زعمه من أن الفضيلة الدينية تقليدية والفلسفة برهانية ، فقال له إن الدينية برهانية لأنها صادرة عن الوحي ولذلك تستقيم مع أي برهان ، أما الفضيلة الفلسفية فهي التقليدية ، لأن مدارها على رأى الشخص فيوافقه أو يخالفه آخر ، فهي لا تثبت ولا تستقر بحال . ويعجب الحريري أشد العجب من جعل المقدسى الشريعة من باب الظن وهي بالوحي ، والفلسفة من باب اليقين وهي من الرأى . ويقول له : إنك غالطت وموتّه إذ زعمت أن الفضيلة الدينية جسمية والفضيلة الفلسفية روحانية ، إذ الصحيح العكس لأن الشريعة وحى من الله والفلسفة من قبل أشخاص ذوى أجسام ، وهي تناقش الأجسام والأعراض . ويسأله إنك تقول إن الفلسفة للخاصة فلماذا تحاولون جمع العامة لها ، بينما تقولون الشريعة للعامة ، فلم تجمعون بين متفرقين ؟ إنه لجهل أى جهل . وبالمثل يقول له إنك تذكر أن الشريعة تجمّد الفلسفة ، فلماذا تريدون حملها عليها قسراً . وبذلك أخرسه . وقد عاد يسأله أى شريعة تريدون وصلها بالفلسفة ، ولماذا تعتون بالتوفيق بينها وبين الدين الحنيف ، بينما فى المتفلسفة نصارى ومجوس ويهود . ويصارحه بأنه لا يرى من إخوان الصفا من يقوم بأركان الدين ويتقيد بالكتاب والسنة ويراعى معالم الفريضة ووظائف النافلة ، ويتساءل أين كان الصحابة والتابعون من الفلسفة ؟ ويعلم إليه أن هذه المحاولة من التوفيق بين الشريعة والفلسفة إنما هى كيد للدين القوم ، حاوله من قبلهم كثيرون فبأموا بالخذلان والخسران المبين . ويذكر له طائفة كبيرة من معجزات الرسل ، ويدعو المقدسى وصحبه إلى الإيمان بالشريعة دون تأويل ولا تدليس ولا تعليل ولا تلبيس .

والحريري إنما هو شخص أشبه بأن يكون من العامة ، ولذلك عرضنا مناظرته مع المقدسي لتدل على مدى ما حظي به العقل العربي في القرن الرابع من قدرة على الاستنباط والتحليل وتحليل الأفكار وتشعبها ونقضها من أساسها نقضاً . واستمرت هذه الحركة الفكرية الفلسفية خصبة مثمرة حتى منتصف القرن الخامس ، ثم أخذت تتراجع موجاتها إلى الوراء ، أو قل أخذت حِدَّتْها تخف ، بسببين : أولاً لانتشار التصوف وتعلق العامة به ، وخاصة بعد أن وجهه أبو نصر السراج الطوسي والقشيري نحو التصوف السني ، وبم هذا التصوف منذ القرن السادس الهجري بعد ظهور الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ الرفاعي ، ولا يلبث الدراويش أن يتشروا في العراق وغير العراق . وثانياً لأنه أتيح للسنّة ونصرتها على الفلسفة عالم كبير هو النزالي الذي كان لحملاته العنيفة على الفلسفة والمتفلسفة أكبر الأثر في انصراف الناس عنها ، وكان هو نفسه صوفيّاً سنياً ، فدعم التصوف السني إلى أقصى حد ، وأصبحت كفته هي الراجحة طوال قرون متطاولة .

وقد مضت خطابة الوعظ تزدهر في العصر على نحو ما مرّ بنا في حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وأخذت تكثر أدعية ومناجيات مختلفة للذات العلية ، ويكنى أن نذكر من كتبها كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي ، وهو مطبوع ، وجميعه دعاء واستغفار وتضرع إلى الله وتوبة وطلب للهداية واتباع سبيل الرشاد . وتلقانا من حين إلى آخر أدعية ومناجيات بدعية ، من ذلك دعاء^(١) لمحمد بن عبد الملك الفاروق المار ذكره في الفصل الماضي . وأخذت توضع كتب كثيرة في التصوف وفي القصص والحكايات عن أصحابه ، من أهمها كتاب اللع في التصوف لأبي نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء المذكور آنفاً المتوفى سنة ٣٧٨ وهو من طوس وحين ورد على بغداد أفردت له غرفة خاصة في جامع الشونيزية وأعطى رياسة الدراويش ، وكتاب قوت القلوب لأبي طالب^(٢) المكي الوافد على بغداد المتوفى بها سنة ٣٨٦ . ويلقانا من كتب القصص كتاب حكايات المشايخ الجعفر^(٣) الحلي المتوفى سنة ٣٤٨ ومرّ بنا في حديثنا عن ابن السراج البغدادي بين شعراء الصوفية كتابه « مصارع العشاق » وهو يزخر بأخبار وأقاصيص عن العباد والنسك .

(١) محمّدة القصر (قسم الشام) ٤٣٣/٢ .

الجنان ٢/ ٤٣٠ .

(٢) راجع في أبي طالب تاريخ بغداد ٨٩/٢ وابن خلكان ٣٠٣/٤ والوافي ١١٦/٤ وميزان الاعتدال ٧٥/٤ .

٦٥٥/٣ والشرحات ١٣٠/٣ ولسان الميزان ٣٠/٥ ومروّاة

وأخذت تؤلف كتب قصص عامة ، على نحو ما نرى عند أبي على المحسن^(١) التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ وله ثلاثة كتب قصصية ، هي : كتاب «المستجد من فملات الأجواد» وهو أقاصيص عن مجموعة كبيرة من الأجواد أو الكرماء الماضين ، وهو مطبوع ، وهـ نشوار المخاضرة وأخبار المذاكرة» وهو أقاصيص وأخبار عن معاصره وهو أيضاً مطبوع ، ثم كتاب الفرج بعد الشدة وهو مطبوع ، وهو أقاصيص ونوادر وأخبار وأمثال ولابن مسكويه كتاب أقاصيص سماه «أنس الفريد» سقط من يد الزمن . وأخذ بعض الكتاب يحاولون تقليد بديع الزمان الهمذاني في مقاماته ، وفي مقدمتهم أبو القاسم عبد الله بن محمد بن نايقا الذي ذكرناه في فصل الثقافة بين علماء البلاغة في القرن الخامس الهجري ، وهو سابق للحري ، وقد ألف تسع مقامات بطلها واحد وهو اليشكري ، ورواها متعددون ، وتندور على الكدية أو الشحاذة الأدبية ، وهي مطبوعة من قديم في إستانبول مع ثلاثين مقامة لأبي العلاء أحمد بن أبي بكر بن أحمد الرازي من أدباء القرن السادس وقد حاكى بها مقامات الحريري وأهداها إلى أبي حامد الشهرزوري المتوفى سنة ٥٨٦ ، وكان يعاصره ابن الجوزي الذي مر ذكره في غير موضع ، وله خمسون مقامة ، غير أنه لم يعمل لها بطلاً من الأدباء الشحاذين أصحاب الكدية ، وإنما نحا بها نحو الوعظ ، على طريقة الزمخشري في مقاماته الوعظية . وربما كانت أهم المقامات التي ألقت في القرن السادس بعد مقامات الحريري مقامات يحيى بن سعيد بن ماري النصراني البغدادي المتوفى سنة ٥٨٩ وتسمى المقامات المسيحية لنصرانيته ، وهي ستون مقامة ضاهى بها مقامات الحريري . وتلت في أواخر القرن السابع بالمقامات الزينية لمعد بن نصر الله ابن رجب الجزري المعروف بابن الصيقل المتوفى سنة ٧٠١ وهي خمسون مقامة ، فرغ من تأليفها سنة ٦٧٢ . ويخلفه كثيرون يؤلفون مقامات مفردة أو بضع مقامات مجموعة . وتظل مقامات الحريري في الذروة ، لا يبلغ شأوه فيها أي أديب بعده ، وسنفرد له كلمة نعرض فيها لمقاماته .

وتكثر في العصر كعب الأدب التهذيبي ، وتتخذ مجريتين : مجرى فلسفياً فكرياً على نحو ما نرى في كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه ، ومجراً عملياً تربوياً مثل كتاب أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي المار ذكره وهو مقسم إلى خمسة أبواب : باب في فضل العقل وذم الهوى ، وباب في أدب العلم ، وباب في أدب الدين . وباب في

(١) راجع ترجمته في البنية ٣٤٥/٢ وتاريخ بغداد وابن خلكان ١٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ١٦٨/٤ ١٥٥/١٣ وصحاح الأدباء ٩٢/١٧ والتلخيص ١٧٨/٧ والشرحات ١١٢/٣ .

أدب الدنيا ، وباب في أدب النفس ، وكل باب ينقسم إلى فصول ، وفي كل فصل تذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار التي تحت على الفضائل وتنتهي عن الرذائل . وكان هذا الكتاب مقرأً للمطالعة في المدارس الثانوية وما أجدره أن يعود إليها لتربية النشء على الأخلاق القويمة . وتكثر كتب الأدب التهذيبي بعد هذا الكتاب ولكنها لا تبلغ مبلغه في النفع والفائدة .

وتعرج البيعة والخريدة بالرسائل الشخصية أو الإخوانية ، وتتكاثر كثرة مفرطة ، في الشكر والثناء والتهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتهادى والتعزية ، وعادة تدور حول معان محدودة ، ولكن الكتاب يفتنون في تطويلها ، وبذلك يستحيل المعنى الضئيل التحيل إلى ما يشبه خيطاً أو حبلاً تعلق عليه سجوف من السجع والجناس وفنون البديع تكدس فيها أكداًساً ، وتكدس معها تعقيدات بصور كثيرة تارة يجلب بعض المصطلحات العلمية وخاصة منذ القرن الخامس وما بعده ، وتارة باتخاذ حرف واحد بُنيت عليه الرسالة . وللحريري رسالتان إحداها سبينة كل كلماتها من ذوات السين ، والثانية شينية كل كلماتها من ذوات الشين ، وقد قلده الحَصَكْنِي^(١) يحيى بن سلامة خطيب مياً فارقين المتوفى سنة ٥٥١ فصنع رسالة سبينة ، وحاول الإغراب أكثر فصنع رسالة من الحروف المهملة وخطبة ليس في حروفها حرف منقوط ، وكان شغوقاً بالجناس وصنع المنعكس منه بحيث تشتق كل كلمة من أختها على هذه الشاكلة :

« النفس بعقود التذرع حالية ، ولعمود التعذر حائلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعي المزعجة مائلة ، وفي بحار الحمد راسية ، وفي رحاب المدح سارية . »

ويستمر بهذه الصورة ، فكل كلمة في السجعة الأولى تعود في السجعة الثانية مقلوبة معكوسة في هيئتها وبنيتها وصورتها ، فعمود تتحول إلى قعود والتذرع إلى التعذر وحالية إلى حائلة . وهي مهارة تحيل الرسالة إلى ما يشبه العمل المطبوع الذي يؤدبه عمال المطابع من جمع الحروف بعضها إلى بعض من أول الكلمة إلى آخرها تارة ومن آخرها إلى أولها تارة ثانية جمعاً يصور مهارة ، ولكنها مهارة لفظية أشبه باللعب . ولتلق بمعاصر للحصكني ، هو الحبص بيص البغدادى المار ذكره بين الشعراء وفيه يقول العماد الأصبهاني : « له رسائل ومكاتبات معدول بها عن الفن المعتاد والأسلوب المعروف » يقول : وهي كثيرة ، وسأورد

(١) انظر في الحصكني الخريدة (قسم الشام) ٤٧١ / ٢ ومذاهبه في النثر العربي (الطبعة الثامنة بدار المعارف) ص ٣٠٤ وبيدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من رسائله .
خلكان ٦ / ٢٠٥ ومعجم الأدباء ٢٠ / ١٨ وكتابتها الفن

منها نبدأ يستدلّ بها على الباقيات . وتدلّ التبدُّل على أنه كان يحشد فيها أوايد اللغة وشواردها وشواذها متقراً فيها أبعد تقمّر ، وهو تقمّر لا يفيد حسناً ولا جلالاً ، وإنما يضيف صعوبات لغوية ، وكان الرسالة مجموعة من الألفاظ ، وكلما فك القارئ فيها لغزاً لقيه لغز جديد ، لا يقل عنه تكلفاً وإغراباً . وقد استطاع أبو السّمح^(١) سعيد بن سمرّة أن يؤلف على نمط الحريري لا رسالة سينية أو شينية ، بل أن يؤلف رسائل كل رسالة منها كلماتها على حرف من حروف المعجم . ونصيح منذ القرن السادس حقاً يإزاء رسائل شخصية معقدة غاية التعقيد ، وحتى المحسنات البديعية مثل الجناس استحالت بدورها عقداً ، وكأنما فارقت كل ما كانت تزdan به من حسن وجمال . وحرى بنا أن نتحول إلى الحديث عن كتاب الرسائل الديوانية .

٢

كتاب الرسائل الديوانية

كانت الدواوين طوال هذا العصر كثيرة ومتنوعة ، فكان هناك ديوان الخليفة وديوان الزمام الخاص بالشئون المالية وديوان الضياع والعقار وديوان الجيش وديوان النفقات وديوان الأوقاف وديوان التركات وديوان الجوالى أو الجزية الخاص بأهل الزمة وديوان السّلة الذى تحفظ فيه الكتابات الديوانية ، وأهم من هذه الدواوين جميعاً ديوان الإنشاء الخاص بالرسائل الصادرة عن الخليفة وحاكم بغداد العام ، وعُنى البويهيون بهذا الديوان منذ استيلائهم على بغداد فانخذلوا له بعض النابهين من الأدباء ، وكثيراً ما كان يقوم عليه وزيرهم ، وأول من نهض بأعبائه فى عهدهم وكان له ذكر حسن أبو محمد المهلبى^(٢) الذى وُزِلَ لمعا الدولة البويهى منذ سنة ٣٣٩ وكان شاعراً كاتباً وأُنشد الثعالبى فى بيتته طائفة من شعره ، أما نثره فاكفى فيه بفصول قصيرة تدل على أنه كان يسجع فى كتاباته ، والسجع فى ديوان بغداد قديم منذ عصر المقتدر كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وقد مضى كتاب الدواوين بعد عصره جميعاً يسجعون . ويظل المهلبى ناهضاً بالوزارة والكتابة حتى وفاته سنة ٣٥٢ . وأهم كتاب البويهيين ببغداد بعده أبو القاسم عبد العزيز^(٣) بن يوسف ،

(١) انظر فى ترجمته الحميدة (قسم العراق) ٩/٧ ومجموع الأدباء ١١٨/٩ والشرحات ٩/٣ وكتب التاريخ العامة فى سنة وفاته . ٢٦٣/٢ .

(٢) انظر فى المهلبى وترجمته البيهية ٢٢٣/٢ وللتظم (٣) راجعه فى البيهية ٣١٢/٢ .

وفيه يقول تعالى : « كان أحد القلمين في الآداب والكتابة والبراعة والكفاية وجميع أدوات الرياسة ، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعصد الدولة طول أيامه معدوداً في وزرائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده » . ويورد تعالى مقاطع من رسائله السلطانية يشج فيها السجع على عادة كتاب الدواوين في عصره . وبدون ريب أكبر كاتب للرسائل الديوانية زمن البويهيين أبو إسحاق الصائغ وسنخصه بكلمة عما قليل . وعنى السلجوقيون مثل البويهيين بديوان الإنشاء وحين دخلوا بغداد وجدوا عليه العلاء ابن الموصل يافتد كان كاتب الديوان العزيز أو ديوان الخلافة منذ سنة ٤٣٢ ورأوا أن يظل عليه ، ومضت عشرات من السنين وهو على ديوان الإنشاء حتى قضى نحبه ، وسنخصه هو الآخر بكلمة مفردة . وأهم من تولوا الديوان بعده في العصر السلجوقي سديد الدولة أبو عبد الله محمد ^(١) بن عبد الكريم الأنباري منشئ ديوان الخلافة لعصر خمسة من الخلفاء هم المستظهر والمسترشد والراشد والمقتنى والمستنجد الذين تولوا الخلافة من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٥٨ وهي سنة وفاة سديد الدولة ، وبذلك ظل كاتب الإنشاء نيحاً وخمسين سنة ويقال إنه عُمُر حتى قارب التسعين ، ولم يسجل العباد ولا صُحُحُ الأعشى للقلقشندي شيئاً من نثره . وخلفه على ديوان الإنشاء ابنه محمد ^(٢) بن محمد بن عبد الكريم ، وظل قائماً عليه حتى توفي بدوره سنة ٥٧٥ . وربما كان أهم من ولوا هذا الديوان في عهد الخليفة الناصر لدين الله بجي ^(٣) بن زيادة المتوفى سنة ٥٩٤ وقد أشاد به ابن خلكان ونثره طويلاً قائلاً : « انتهت إليه المعرفة بأمر الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك . . . وخدم الديوان من صباه إلى أن توفي عدة خدمات ، وكان مليح العبارة في الإنشاء جيد الفكرة حلو الترتيب لطيف الإشارة ، وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب التسجيع ، وله رسائل بليغة » . وقد احتفظ القلقشندي برسالة ^(٤) له كتب بها عن الخليفة الناصر إلى الطواشي طفرل صاحب إقطاع البصرة ، وقد بلغ الخليفة أنه نزع عنها مفارقاً لطاعته عندما طلب من ديوانه بعض المال ، وهو في الرسالة يحاول إثناؤه عن خلخ الطاعة ويذكر أن الخليفة سيتلقاه بالصفح والقبول ، وفيها يقول :

(٣) انظر ترجمة ابن زيادة في معجم الأدباء ١٦/٢٠

وابن خلكان ٦/٢٤٤ ومرآة الجنان ٦/٢٤٤ والشذرات

٣١٨/٤

(٤) صح الأعشى (طبع دار الكتب المصرية)

٢٩٩/٨

(١) انظر الخريدة (قسم العراق) ١٤٠/١ وللتعظيم

٢٠٦/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٦٤/٥ والشذرات

١٨٤/٤

(٢) انظر في الخريدة (قسم العراق) ١٤١/١ وابن

الثير في وفيات سنة ٥٧٥

«ولولا أن الأيام صحائفُ المعائب . ولا يأنس بمنجدُاتها إلا من حنَّكه التجارب ، لم أصدَّق هذه الحركة ، وإنَّ ما أراها إلا عثرة من جواد وعورة على كماله ، وإلا فن أبن يدخل الزلل على ذلك الرأى السديد والعقل الراجح والفكر الصائب . . والفائت لا كلام فيه ، غير أن العقل يقضى باستدراك الممكن وتلافيه ، بالانحراف عن الحموى إلى الرأى الصادق ، والرجوع عن تأويل النفس إلى مراجعة الفكر الناصح . .
وتغضى الرسالة على هذا النحو ، لا يدخل السجع فيها عن تكلف أو تعمل ، بل لا بأس بما يأتي منه عفواً دون تعمد الإتيان به ومحاولة جلبه مع كل عبارة وصيغة . وأكبر الظن أن ابن زبادة كان شذوذاً بين كتاب الإنشاء قبله وبعده ، فقد كانوا غرق في السجع ومحسنات البديع إلى آذانهم . ولم نعرض للعناد الأصهباني ، وكان كاتباً بليغاً ، لأن حياته الأدبية إنما تتكامل له في ظل نور الدين وصلاح الدين ، إذ عمل في دواوينها ، فعزى أن يوضع بين كتاب الرسائل الديوانية في الشام ومصر ، مع من عاشوا في ظل هذين البطالين العظمين . ونغضى إلى أيام المغول ويلقانا عطا ملك الجويني المتوفى سنة ٦٨١ وكان رئيس الديوان ببغداد ، وقد اهتم به ، فوظف فيه طائفة من الكتاب المجيدين ، منهم بهاء^(١) الدين الإربلي المتوفى سنة ٦٩٢ وشرف^(٢) الدين علي بن أميران المتوفى سنة ٦٩٣ . ويلقانا في صبح الأعشى كاتبان يكتب كل منهما رسالة باسم بوكدار بن هولكو الذي مررنا في الفصل الأول أنه أسلم في سنة ٦٨١ وحسن إسلامه ، وتسمى باسم أحمد . أما الرسالة الأولى فكتبها الفخر بن عيسى الموصل عن السلطان أحمد إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية في جمادى الأولى سنة ٦٨١ يخبره فيها بما أتم الله عليه من نعمة الإسلام ، وهو يفتتحها على هذا النمط^(٣) :

«إلى سلطان مصر ، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عتقوان الصبا ورِّيعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبرِّيته (فن يُردُّ الله أن يَهْدِيَه يَشْرَحَ صَدْرَه للإسلام) فلم نزل نتميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أئينا الجليل وأخينا الكبير نوبةُ الملك ، فأضنى علينا من جلايب أطلافه ولطائفه ،

(١) انظر ترجمته في لوات الوفيات ١٣٤/٢ وعند الزاوي ٢٦٠/١ .
الزاوي ٢٥٩/١ .
(٢) جواد - طبع ببغداد ص ٤٨٠ وعند الزاوي ٢٦٠/١ .
(٣) صبح الأعشى ٦٥/٨ .

(٢) راجعه في الحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى

ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه .

وعرض الرسالة بهذه الصورة من السجع والصياغة الجيدة . والرسالة مؤرخة بأواسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستائة وكتب الرد في رمضان سنة ٦٨١ ناصراً^(١) الدين شافع بن علي بن عباس كاتب الإنشاء عن السلطان المنصور قلاوون . وقد ذكر السلطان أحمد بن هولاكو في رسالته - كما هو واضح - إسلامه وأيضاً أنه حرّم على عساكره الغارات على البلاد ، وتقول الرسالة إن في اتفاق السلاطين صلاح العالم . ومن كتاب الإنشاء في القرن الثامن بمجي^(٢) بن عبد الرحمن الجبيري الملقب بنظام الدين المتوفى سنة ٧٦٠ وكان يكتب عن السلطان بوسعيد (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) . ويبدو أنه رحل إلى مصر ودمشق بعد وفاة السلطان ، ثم عاد إلى بغداد ، وأعيد إلى وظيفته في كتابة الإنشاء عن حكامها إلى وفاته . ويلقانا في أواخر القرن التاسع الغياث^(٣) البغدادى عبد الله بن فتح الله كاتب الإنشاء ببغداد ، ولا نعود نسمع عن كاتب مهم في هذا العصر ، فصرعان ما دخلت العراق في حكم الدولة العثمانية ، وكانت لا تتم بديوان الإنشاء في بغداد ، فضعف شأنه إلى أبعد حد . ولعل من الخير أن نتوقف قليلاً عند أهم كتاب الدواوين في العصر : أبي إسحاق الصائى والملاء بن الموصلايا وضياء الدين بن الأثير .

أبو إسحاق^(٤) الصائى

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصائى المكنى بأبي إسحاق ، أصل آبائه من حرّان ، وُلد ببغداد سنة نيف وعشرين وثلثمائة ، وبها نشأ وتلق وتأدّب ، ولزم فيها مواطنيه الحرّانيين وأخذ ما عندهم من الطب والرياضة والهندسة وعلم الفلك ، ويقول القفطى : له مؤلف في المثلثات . ويبدو أنه أحسن في نفسه مبكراً بتروع شديد نحو الأدب وأن يصبح من كتاب الدواوين ، فأخذ يكتب على النصوص الشعرية والنثرية ، وحفظ القرآن الكريم ، وكان شاعراً ففتحت له الأبواب وتعرّف عليه الوزير المهلبى ، وأعجب به ، فاصطنعه لنفسه ، وأحضره مجالس أئمة ، ولم يلبث أن قلّده ديوان الرسائل سنة ٣٤٩

وصنوان الحكمة ص ٣٤٢ وتاريخ الحكماء للقفطى

(١) صبح الأمل ٧/ ٢٣٧ .

(٢) ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر ١٩٢/٥ . ص ٧٥ والثلثون ١٠٦/٣ والإمتاع والمؤانسة ٦٨/١

(٣) المقابسات لأبي حيان (انظر القهرس) وصبح الأمل (٤) انظر في ترجمة الصائى النبية ٢٤١/٢ وما بعدها

(٥) العزوى ١/ ٢٧٧ .

(٦) ٤٨٣ و ١٤/ ٣٦٠ (راجع القهرس) وكتابنا الفن ومذهبه في النثر العربى (الطبعة الثالثة) ص ٢١٧ .

وصحبه الأدباء ٢٠/٢ وابن علكان ١/ ٥٢ ، ٤٤٥

حتى إذا توفي المهلب سنة ٣٥٢ وصادر مزر الدولة البيهقي أمواله قبض على أبي إسحاق الصائغ فبمن قبض عليه من أصحابه وخلصائه . واستعطف مزر الدولة بقصائده جملة يعفو عنه وبعبده إلى عمله في ديوان الرسائل . وظل قائماً عليه طوال عهد ابنه عز الدولة بختيار ، وكان قد نشب خلاف بينه وبين ابن عمه عضد الدولة البيهقي ، وكان الصائغ في أثناء ذلك يكتب باسمه مكاتبات إلى عضد الدولة تؤله ، وحدث أن تقرّر الصلح بينها ذات مرة ، فطلب بختيار إلى الصائغ أن يكتب نسخة يمين يستوفى فيه الشروط على عضد الدولة حتى الاستيفاء ، ولم يجد عضد الدولة حينذاك بداً من حلف اليمين ، وعرف أن أبا إسحاق الصائغ كاتبه ، فحقد ذلك عليه . وتطورت الظروف ، ونشبت حرب بين بختيار وعضد الدولة سنة ٣٦٧ وسقط بختيار في مبدائها صريعاً واستولى عضد الدولة على بغداد والعراق : وسرعان ما اعتقل الصائغ وزج به في غياهب السجون . ومازال بعض كبار رجال الدولة يشفعون له ، فقال عضد الدولة : ليصنف كتاباً في أخبار آل بويه ، فأخذ في تصنيف كتاب «التاجي» وهو في السجن ، ونقل إلى عضد الدولة أنه سئل عما يصنع ، فقال : أباطيل أنعمها وأكاذيب ألّفها ، فحتق عليه حنقاً شديداً ، وصمم أن يرميه تحت أرجل الفيلة ليقتل أشنع قتلة ، وعاد كبار رجال الدولة يشفعون له ، ففعا عنه إلا أنه ظل مبعداً في أيامه : حتى إذا توفي عضد الدولة سنة ٣٧٢ عاد إلى تولي ديوان الإنشاء وظل بليه إلى وفاته سنة ٣٨٤ . وقالوا إنه كان يتولى نقابة الصائبة في بغداد وإنه كان شديد الإيمان بدينه الوثني ، وحاول عز الدولة مراراً أن يدخله في الدين الحنيف فكان يعتذر . وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين . وظل الحكام البويهيون ووزرائهم يرتضون أن يكون على رأس الديوان أحد الصائبة عبدة الكواكب والنجوم ، وكأنهم تسامحوا معه لتفوقه في الكتابة ، يقول التتالي إنه «أوحد العراق في البلاغة ومن به تفتى الخناصر في الكتابة ، وبتفق الشهادات له ببلوغ الغاية في البراعة والصناعة» ويقول أبو حيان التوحيدي : «نظمه مثوره ، ومثوره منظومه ، إنما هو ذهب إبريز كيفما سُبِك فهو واحد . وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد ، وما مثاله فيها إنسان» وقد نشر شكيب أرسلان مختارات من رسائله بلبتان في مجلدين ، وهي مطبوعة بطوايع السجع والمسنات البديعية ، وفيها يقتبس كثيراً من آي القرآن الكريم ، ويضمنها أحياناً بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار القديمة والحديثة ، وكان يطيل في التحميدات أول الرسائل حتى ليظن قارؤه أنه من جلة المسلمين ، كقوله في مطلع إحدى رسائله :

«الحمد لله العليّ العظيم ، الأزلي القديم ، المتفرد بالكبرياء والملوكوت ، المتوحد

بالعظمة والجبروت ، الذى لا تحده الصفات ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصره قرارة مكان ، ولا يغيره مرور زمان ، ولا تتمثله العيون بنواظرها ، ولا تخيله القلوب بنواظرها ، فاطر السموات وما تظلل ، وخالق الأرض وما تُقِلّ .

وهو يستمر فى هذا التحميد طويلاً ، ولولم نعرف أن الصائى كاتبه لفتناه أحد الكتاب المسلمين المثقفين بثقافة الاعتزال ، المؤمنين بوحداية الله وتثريبه عن الشبه بال مخلوقات ، فلا يحصره مكان ولا زمان ولا تحده جهات ولا صفات ، إذ ليس يحسم ولا عرض ، فالعيون لا تتمثله والنواظر لا تخيله ، مبدع السموات والأرض . وفى هذه السطور من التحميد ما يوضح قدرته على السجع ، وهو لا يكتفى فيه بالروى الذى يجمع بين نهائى السجعتين ، بل يحاول أن يوازن بين ألفاظ كل سجتين فى عدد حروفها وحركاتها وسكناتها ، وكأن الرسالة صفوف موسيقية متقابلة ، فكلمة «العمل العظيم» يليها «الأزلى القديم» وكلمة «المتفرد بالكبرياء» والملكوت» يليها «المتوحد بالعظمة والجبروت» وتتوالى السجعات ، فكل سجمة تسمع فى تاليتها جرسها الموسيقى ، مع المهارة فى اصطفاء الألفاظ . وقرأ له هذه القطعة من رسالة على لسان عز الدولة . . حاول فيها أن يستعطف عضد الدولة وأن يرده إلى ما بينها من صلة الرحيم :

« إن من أعظم محن هذا البيت أن تزول منابت فروعه عن منابت أصوله ، وأن تؤثى مراسى أوتاده من ذوائب عروش ، وأن تدبّ بينهم عقارب المشاحنة ، وتسرى إليهم أرقام المناقشة ، وتتبثّ الدواهي فيهم من ذاتهم ، وقد كانت محسومة من أضدادهم وعدائهم . وإنما غمطنا بهذه القطعة لشعر إلى أنه كان فى أحيان قليلة لا يلترم السجع بين كل عبارة وتاليتها ، ومع ذلك كان يلترم فيها الموازنة الصوتية الدقيقة بين كلمات المصيحيتين المتجاورتين حتى يتلافى ما نقصهما من تماثل الروى فى نهايتها . ومرّ بنا أن أبا حيان أشار إلى أن له فنوناً من الكلام لم يسبقه إليها أحد ، ولعله يشير بذلك إلى بعض رسائل هزلية له ، وهى ليست رسائل سلطانية ولا إغرائية جادة ، إنما هى رسائل أراد بها إلى الإضحاك وإدخال شئ من السرور والسعادة على قارعه ، من ذلك رسالة رواها ابن خلكان كتباً رداً على رقعة وصلت إليه من شخص ، كان أمّيتي إليه جَمَلًا ، وذكر ذلك فى رقعته ، وفيها يقول : « ذكرت حَمَلًا (كَبْشًا) جعلته جَمَلًا ، . . فلما إن حضر رأيت كَبْشًا متقادماً الميلاد ، من تاج قوم عاد ، قد أفته الدهور ، وتماقبت عليه العصور . . فبانت دماسته ، وقصرت قامته ، وعاد ناحلاً ضئيلاً ، باليا هزيلًا ، بادىء الأسقام ، عارى العظام . . لا نجد فوق عظامه سلبًا ، ولا تلقى يدك منه إلا خشبًا ، قد طال للكلاّ فقهه ، وبَعْدَ بالمرعى عهده ،

لم ير القَتَّ إلا ناعماً ، ولا الشَّعير إلا حالماً . . . وقلت أذبحه ليكون وظيفة للعبال . . . فأنشدني وقد أضرمت النار ، وحُدَّت الشُّفَار :

أُعِيدُهَا نِظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّعْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمٌ^(١)
ثم قال : وما الفائدة من ذمِّي ، ولست بذى لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمي ، ولا ذى جلد يصلح للدِّبَاغ لأن الأيام قد مزقت أدمي ، ولا ذى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حَصَّت (أذهبت) وَبَرَّى .

ولست الفكاهة شيئاً سهلاً ، فقليلون هم الذين يحملون هذه الروح ، وهى تدل على ظرفه وأنه كان لطيف المخضر حلو الحديث ، ولذلك قرب من نفوس معاصريه . وسجته فى هذه الرسالة التى يجدر بنا أن ندخلها فى حيز الرسائل الأدبية مكمل الأداء الموسيقى ، وهو قصير قصراً تُرى فيه العذوبة والرشاقة . وقد تطول السجعة كما فى السجعات الثلاث الأخيرة ، ولكنه يحتال عليها باكتمال الملامة الصوتية بين كلمات كل سجعة وتاليها وكأننا بإزاء معادلات موسيقية تامة . وللصائغ رسالة أدبية هزلية أخرى تحتل فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ست^(٢) صفحات كبيرة ، وهى صورة عهد بالتطفل كتبه على لسان متطفل بغدادى كبير فى عصره كان يسمى عليكاً إلى متطفل ناشئ ، يسمى على بن عرس الموصل ، وهو يستله بأن عليكاً عهد إلى تلميذه بإحياء سته وحفظ رسومه من التطفل على أهل بغداد وما يتصل بها من أرباضها (ضواحيها) وأكتافها فى سوادها وأطرافها لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقَم ، وجودة المضم ، ويأخذ فى سرد وصاياه فى شكل أوامر وفرائض يجب أن يتبناها ابن عرس ، من ذلك أنه :

«أمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياء ، وسُمَطُ الأمراء والوزراء بسراياه . . وأمره أن يتبع ما يعرض لموسرى التجار ، ويجھزى الأمصار ، من ببيان الدار ، والعرس والإعذار (الختان) . . وربما صبروا على تطفل المتطفلين ، وأغضوا على تهجم الواعلين (الممّنين فى التطفل) ليتحدثوا بذلك فى محافلهم الرَّذلة ، ويعُدُّوه فى مكارم أخلاقهم الثَّنَّة . . وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها ، ويرافق وكلاء المطايخ وحَمَّالها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمّة مطاعهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يجنون من أهل موداتهم ومعارفهم . . وأمره أن يتمهد أسواق المُوقِن ، ومواسم المتبايعين ، فإذا رأى

(١) البيت للستى من قصيدته التى عاتب فيها سيف الدولة الحمداني . والقصير فى أعيدها يعود إلى نظرات يقول له : أعيد نظراتك البصيرة أن تحذرك فلا تحرق بين شاعرك وغيره من حاشيته الذين ينظرون لك بمثل مودته نحوياً وخطاباً .
(٢) صبح الأعشى ٣٦٠/١٤

وظيفةً قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشربها ، أثبمها إلى المقعّد بها ، وشيعها إلى المنزل المحاوى لها ، واستعلم ميقات الدعوة . . وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل الغنيمات والمغنين ، فإذا أتاه خبر لجميع يعضهم ، ومأذبة تعمهم . . حمل عليها حملة الحوت المتلثم ، والذئبان الملتهم ، والليث المهاصر ، والعقاب الكاسر . . وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حشّه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً ، ويطويّ دونه كشحاً ، فإن أتته اللكرة في حلقة ، صبر عليها في الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصفعة في راسه ، صبر عليها لموقع أضراره ، وإن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء .

والعهد بديع ، وهو يصور حياة المتطفلين المتسكمين ببغداد ، وكانت قد نشأت منهم طبقة كبيرة احترفت الأدب واتخذته وسيلة للشحاذة الأدبية ، وهم أهل الكدبة ، وقد تحدثنا عنهم في غير هذا الموضع مصورين كيف كانوا يتخذون الشعر الفكه لتصوير إفلاسهم وبؤسهم تصويراً يبعث السرور في نفوس سامعيهم . ولا ريب في أن أهل بغداد ظلوا يصحكون طويلاً كلما قرءوا عهد أبي إسحق الصائى السالف أو تذكروه ، وسجعه فيه مكتمل الأداء الموسيقي ، سواء قصّره أو طوّله ، إذ ينبغي به دائماً أن يلدّ الأذان ، حين نصت إليه لذة موسيقية بديعة .

العلاء^(١) بن الموصليّ

هو أمين الدولة أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصليّ البغدادي ، ولد سنة ٤١٢ ببغداد وبها كان منشؤه ومرباه ، ونشأ نصرانياً ، وأقبل على دراسة الأدب وحفظ نصوصه من الشعر والنثر ، كما أقبل على حفظ القرآن الكريم حتى بعد نفسه مثل أبي إسحاق الصائى ليكون موظفاً بالدواوين ، وسرعان ما بهر الناس بأدبه ، ولم يلبث الخليفة القائم (٤٢٢-٤٦٧ هـ) أن جعله كاتب الإنشاء بدار الخلافة سنة ٤٣٢ وظلت له هذه الوظيفة في عهد المقتدى (٤٦٧-٤٨٧ هـ) والمستظهر (٤٨٧-٥١٢ هـ) حتى توفي سنة ٤٩٧ وبذلك شغلها خمسا وستين سنة . وأتم الله عليه في أثناء ذلك نعمته ، فلم يحسن إسلامه ، واختلف من ترجموا له في زمن إسلامه ، فالهاد الأصيباني يقول إنه كان في زمن القائم ، ويقول ابن خلكان إنه كان في زمن المقتدى ويعين السنة بأنها كانت سنة ٤٨٤ .

خلكان ٤٨٠/٣ وصح الأصبهني ٤٠٤/٦ ، ٤١٥ ، ٤٥٣ ، ٣١/١٠ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ .

(١) انظر في ترجمته وما استشهدنا به من نصوصه الحريدة (قسم العراق) ١٢٣/١ وللتلثم ١٤١/٩ ونكت المعيان ص ٢٠١ ولتجرم الزاهرة ١٨٩/٥ وابن

ونُحِل إلى الأخذ برأى العماد لأنه ظل طويلاً ببغداد . وقد كُتِّفَ بصر العماد في آخر حياته فكان ابن أخته هبة الله بن الحسن يكتب الرسائل عنه . وظل جاحه يزيد عند المقتدى كل يوم حتى غَسَمَ إلى رياسته لديوان الرسائل النيابية في الوزارة وظل يضمها في عهد المستظهر . ويقول العماد عنه : « كان بليغ الإنشاء ، شديد الآراء ، رسائله تعبر عن غزارة فضله ووفور علمه » ويقول الصفدي : « أحد الكتاب المعروفين الذين يُضْرَبُ بهم المثل » . وقد احتفظ كتابُ صبيح الأعشى للعماد في جزئه السادس بثلاث رسائل : رسالة بشارة بالنصر على الباسيري في منتصف القرن الخامس حين قضى عليه طُغْرُكُك ، وهي موجهة من الخليفة القائم إلى صاحب غَزَّة ، ورسالة ثانية موجهة من الخليفة القائم أيضاً إلى شخص عِيَنَ وزيراً له ورسالة ثالثة موجهة منه إلى أُنَـز . وبالمثل احتفظ صبيح الأعشى في جزئه العاشر بثلاث رسائل أخرى ، أولاها عهد ليوسف بن تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب ، وهو موجه إليه من الخليفة القائم ، ومعروف أن يوسف ابن تاشفين إنما تسلطن على الأندلس في سنة ٤٨٥ بعد وفاة القائم بنحو ثمانية عشر عاماً ، فإما أن يكون العهد خاصاً بسلطته على بلاد المغرب ، وإما أن يكون موجهاً إلى يوسف من الخليفة المقتدى الذي تسلطن يوسف على الأندلس في عهده أو من الخليفة المستظهر تاليه في الخلافة منذ سنة ٤٨٧ والعهد طويل ، إذ يقع في نحو أربع عشرة صفحة ، ويشتمل على عشرين آية قرآنية ، مما يدل بوضوح على حفظ ابن الموصلايا للقرآن وأنه كان يقبس من أصوله في رسائله مثل الصائى . والرسالة الثانية موجهة من القائم إلى ابن جهير حين استوزره وأُرْخَ القلقشندى الرسالة بسنة ٤٧٢ وكان القائم قد توفى منذ خمس سنوات ، ومعروف أن القائم استوزر ابن جهير مرتين : مرة سنة ٤٥٥ ومرة سنة ٤٦١ وظل في الوزارة حتى توفى القائم ، وأقره الخليفة المقتدى على الوزارة سنتين ، ثم عزله . وبذلك يكون التاريخ الذى أرخ به القلقشندى هذه الرسالة الثانية غير دقيق . والرسالة الثالثة موجهة من القائم إلى جاثليق النصارى النسطوريين في صورة عهد بمباطه هو وأهل ملته في نفوسهم وأموالهم ويبيعهم وديارهم ومقارَ صلاتهم ، على أن تؤخذ الجزية - وكانت أشبه بفريضة دفاع - من رجالهم ذوى القدرة دون النساء ومن لم يبلغ الحلم ، ولا تؤخذ إلا مرة واحدة في السنة . والعهد يجعل الجاثليق النسطورى لا رئيساً للنساطرة المسيحيين الشرقيين فحسب ، بل أيضاً للروم واليعاقبة في بغداد وسائر البلدان الإسلامية ، فهو بطرك النصارى العام . ويلفتنا في العهد لابن تاشفين وفي الرسالة الموجهة إلى ابن جهير وكذلك في الرسالة التى تبشر بالنصر على الباسيري أن ابن الموصلايا بطل

في الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، وتجرى الصلاة في رسالة الباسمى على هذا النمط :

والحمد لله الذى اختص محمداً ﷺ برسائه وحباؤه ، وأولاده من كرامته ما حاز له به الفضل وحرّاه ، وبعثه على حين فقرة من الرسل ، وخلاء من واضح السبل ، فجاهد بمن أطاعه مَنْ عصاه ، وبلغ في الإرشاد أقصى غاية ومداه . . إلى أن دخل الناس في الدين أفواجا ، وسلوكوا في نصرته جدداً (طريقاً) واضحاً ومنهاجاً ، وغدت أنوار الشريعة ضاحكة الياصم ، وآثار الشرك واهية الدعائم ، ومتاهل الهدى عذبة صافية ، فصلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المتحبين ، وخلفائه الأئمة الراشدين ، وسلم تسليماء .

ولعل لا أخطئ إذا قلت إنه أسلم مبكراً على الأقل في منتصف القرن الخامس حين كتبت هذه الصلاة في رسالة الباسمى لا كما ذهب ابن خلكان إلى أنه أسلم سنة ٤٨٤ .
وواضح أن السجع كان يسيل على قلمه ، وكان يعنى فيه باصطفاء ألفاظه وأن تروى بحرسها الأصناف على نحو ما نرى في الفقرة التالية من عهد يوسف بن تاشفين :

« وأمره الخليفة أن يعدل في الرعايا فيكده ، ويؤجلهم من الأمن فيضاهيه وقلة ، ويمنحهم من الاشتغال ، ما يحمي به أمورهم من الاختلال . . ويؤضى على المسلم منهم والمعاقد (اللى) من ظل رعايته ما يساوى فيه بين القوى والضعيف ، ويُلحق التليد منهم بالطريف ، ليكون الكل وادعين في كنف الصّون ، راجعين إلى الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن الطاعة والعون ، وأن ينظر في مظللمهم نظراً ينصر الحق فيه ، وينشر حلم العدل في مطاويه . . مُليناً لهم في ذلك جانبه ، ومُيئناً ما يظل به كاسب الأجر وجالبه ، جامعاً لهم بين العدل والإحسان ، وجاعلاً أمر الله تعالى في ذلك متلقياً بالطاعة الواضحة الدليلي والبرهان ، قال الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .

وهو يلتزم السجع على هذا النحو في رسائله ، محاولاً بكل ما استطاع أن يصفى ألفاظه من الشوائب ، ويغلبها من جميع الأدراخ حتى تروق السامع ، وحتى يبلغ من التأثير فيه كل ما يريد ، وهو يستم تأثيره بما ينجم به فقره في هذا العهد وفي غيره من رسائله بما يورد من آيات الذكر الحكيم التي تضىء بأشعتها الكلام وتجذب إليه القلوب والأفئدة .

ضياء الدين بن الأثير

هو ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ، ولد بجزيرة ابن عمر شمال العراق سنة ٥٥٨ لأسرة تُعنى بعلوم الشريعة واللغة ، ووجهه أبوه لحفظ القرآن الكريم ، وقرّعه للدراسة كما قرّغ أخويه : المبارك وعز الدين صاحب كتاب الكامل في التاريخ . وانتقل ضياء الدين مع أبيه إلى الموصل سنة ٥٧٩ وفيها أتمّ دراسته للعلوم الإسلامية واللغوية والبلاغية ، وأكبّ على حفظ الأحاديث النبوية والأشعار القديمة والحديثة وخاصة أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي . ولا أحسن أنه كملت له أدواته في الكتابة قصد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧ ووصله به القاضي الفاضل وزيره ، فعمل في دواوينه نحو أربعة أشهر ، ثم طلبه الأفضل نور الدين من أبيه صلاح الدين ، ولّى طلب ابنه ، فانتقل إلى العمل معه بنفس راتبه ، واتخذ نفسه مستشاراً ووزيراً . وتوفى صلاح الدين ، فصارت دمشق للأفضل ، وكلف ضياء الدين بتدبير شئونها ، فأساء التدبير والمعاملة مع أهلها ، حتى هَمُّوا بقتله . وتطور الظروف ويصبح الأفضل سلطاناً على مصر ، فيلحق به سراً في صندوق مقفل عليه خوفاً من الدمشقيين أن يقتلوه . ويظل نور الدين في مصر عاماً ويأخذها منه عمه العادل ويغوصه منها قلعة على الفرات تسمى سُمَيْسَاط . ويخرج ضياء الدين وراءه مستتراً إلى ولايته الجديدة ، ويقع عنده مدة ، ثم يفارقه إلى غير مأب في سنة ٦٠٧ ويرحل إلى أخيه السلطان الظاهر صاحب حلب ، ولا يطول مقامه عنده ، فيولى وجهه نحو الموصل ، ولا تستقيم حاله ، ويفارقه إلى إربل سنة ٦١١ ولا يستقر بها ، بل سرعان ما يخرج منها إلى الموصل ، وبها يلقى عصاه منذ سنة ٦١٨ إذ يصبح كاتب الإنشاء لصاحبا ناصر الدين محمود حتى نهاية حياته ، ويحدث أن يرسله في سنة ٦٢٧ إلى بغداد في بعض المهام ، فيدركه بها الموت .

وحظي ضياء الدين عند الأسلاف بشهرة عظيمة لروعة أسلوبه في رسائله ويقول ابن خلكان إنها كانت تشغل مجلدات ، واختار منها - كما يقول - مجلد واحد . وربما كان أهم منها في سبب شهرته كتابه : « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » وفيه صور الصنعة اللغوية وما يتصل بها من المهنات البدئية ، والصناعة المعنوية وما يتصل بها من

(١) انظر ضياء الدين ورجعت ابن خلكان ٥/ ٢٨٩ والنشرات ٥/ ١٨٧ وانظر كتابنا : اهلافة : تطور ولغات الحداثة (طبع بغداد) ١٣٦ وغيره
٥/ ١٥٦ ومرتآ الجبلان ٤/ ٩٧ والجرم الزاهرة ٦/ ٣١٨
وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٢ .

صور البيان ، موضحاً توضيحاً تاماً ما يحتاج الكاتب إلى المكوف عليه واستيعابه وتمثله من العلوم اللغوية والبلاغية والأشعار وأمثال العرب وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي مع معرفة الأحكام السلطانية وخاصة أحكام الخلافة والولايات وما يتصل بذلك من الفقه . وبلغ من إعجاب بعض الأسلاف بالكتاب أن قالوا : « إن المثل السائر للنظم والنثر بمرتلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام » . وله بجانبه كتب أخرى ، منها كتاب الوشى المرقوم في حلّ المنظوم ، وقد أفرّد فيه فصلين لبيان الاستعانة بآيات القرآن الكريم والحديث النبوي في الرسائل .

وكتاب المثل السائر يضع تحت أعيننا طريقته وخصائصه في رسائله الديوانية ، وهو يُعنى فيها قبل كل شيء بالسجع وتوشيته بالصور البيانية والمحسنات البديعية ، مع نثر ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي فيها وحلّ آيات الشعر . وعادة يسوق في الكتاب أمثلة كثيرة من كتاباته يصور بها جوانب من صناعته في رسائله ، من ذلك استيعاؤه آيات سور الرعد والذاريات والصفات ، وهي : (اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) (وفي السماء رِزْقُكُمْ وما توعدون) (وحفظاً من كل شيطان ماردٍ لا يَسْمعون إلى المَلَأِ الْأَعْمَلِ وَيَقْفُونَ من كل جانب) إذ يقول في إحدى رسائله واصفاً غبار الحرب : « وَهَقْدَ الْعَجَاجِ ^(١) شَفَقاً فَاَنْعَدَ ، وَأَرَانَا كَيْفَ رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ ، غَيْرَ أَنَهَا سَمَاءُ بُنِيتَ بِسَنَابِكِ الْجِيَادِ ، وَزُيِّنَتْ بِنَجْمِ الْعَصَادِ ^(٢) ، فَبِهَا مَا يُوعَدُ مِنَ الْمَنَابِلِ مَا يُوعَدُ مِنَ الْأَرْزَاقِ ، وَمِنْهَا تُقْلَفُ شَاطِئِينَ الْحَرْبِ لَا شَاطِئِينَ الْاِسْتِرَاقِ » .

ويعرض علينا أمثلة من اقتباسه للحديث النبوي وألفاظه في رسائله ، فمن ذلك ما روى عن الرسول عليه السلام من أنه في غزوة حُنين أخذ قبضة من التراب وألقاها في وجوه الكفار قائلاً : « شَاحَتْ الْوُجُوهُ » . ونقل ذلك ابن الأثير إلى إحدى رسائله واصفاً الانتصار على العدو وسحق جنوده قائلاً : « أَخَذْنَا بِسَنَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي النَّصْرِ الَّذِي نَزَّجَهُ ، وَبِذُنَا فِي وَجْهِ الْعَدُوِّ كَفّاً مِنَ التُّرَابِ ، وَقُلْنَا : شَاحَتْ الْوُجُوهُ » . ويورد ضياء الدين أمثلة كثيرة من حله للأشعار ، من ذلك بيت المتنبي الذي يصف فيه استنقاذ سيف الدولة لقلعة الحَدَث من الروم وتجديد بنائها وتمزيق العدو شرمزق ، إذ يقول : وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جَشَشِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمٌ وَقَدْ نَزَّ ضِيَاءُ الدِّينِ فِي وَصْفِ مَعْرَكَةِ مَائِلَةِ قَائِلًا : « وَكَأَنَّمَا كَانَ بِالْبِلْدَةِ جُنُونٌ ، فَبَعَثَ لَهَا مِنْ عَزَائِمِهِ حَزَائِمٌ ، وَهَلَّى عَلَيْهَا مِنْ رُمُوسِ الْقَتْلِ تَمَائِمٌ » . ومن ذلك بيت البحرني :

سُلبوا وأُشرفتِ الدماءُ عليهمُ محمَّرةً فكانهم لم يُسلبوا
فقد نثره في فصل من جملة رسالة تتضمن البشرى بهزيمة الكفار وعقهم عقاً لم يبق
منهم ولم يذر. والفصل يجرى على هذا الخط :

«سُلبوا وعاضتهم الدماءُ عن اللباس ، فهم في صورة عار وزُيهم زى كاس ،
وما أسرع ما خبط لهم لباسها المحمَّر ، غير أنه لم يُجَبِّب^(١) عليهم ولم يَزَّرْ ، وما لبسوه حتى
لبس الإسلام شعار النصر ، الباقي على الدهر ، وهو شعار نسجه السنان الحارق ،
لا الصنْعُ الحاذق ، ولم يَبِّبْ عن لابسِه إلا ربُّنا غابت اليَفسُ^(٢) في الطلى والهام^(٣) ،
وَأَلَفَ الطُّغْمُ بين أَلَفِ الخط واللام .

والفصل يدل على مهارة ضياء الدين في السجع ، وهى مهارة كتب بها مجلدات ، كما
أسلفنا من الرسائل الديوانية . ونراه في المثل السائر يحمل على الأسجاع الغثة التى تحيل
الكلام رصفاً لألفاظ وحشداً لكلمات دون أن تحمل شيئاً من المعانى الطريفة المتكررة ،
بحيث لا يلذ السجع الفكر كما لا يلذ السمع .

وينوه ابن خلكان ببعض صورهِ واستعاراته في أسجاعه ، ويضرب لذلك بعض
الأمثلة ، منها قوله في وصف النيل وقت زيادته وفيضانه في رسالة من رسائله : «وَعَذَّبَ
رُصَابُهُ قُضَاهَى جَنَّا النَّحْلِ^(٤) ، واحمَرُّ صَفِيحِهِ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَتَلَ الْمَحَلَّ^(٥) » . ويقول ابن
خلكان : «وهذا بديع غريب نهاية في الحسن ، ولم أقف لغيره على أسلوبه » . وضياء الدين
يشير به إلى طمى النيل ، وكأنه في رأيه دماء الجذب ، وهى حقاً صورة رائعة . وجعلته
عنايته بالمعانى والصور المتكررة يؤلف كتابه «المعاني المحترقة في صناعة الإنشاء» كما جعلته
عنايته بحل الشعر والاقتراس من آيات القرآن والأحاديث النبوية يؤلف كتابه : «الوشى
المرقوم» .

وفي الحق أن ضياء الدين بن الأثير كان من الكتاب المجيدين ، ولم تحظ العراق بعده
بكتاب ديوانى على مثاله أو مثال أنداده السابقين . وحرى بنا أن نترك كتاب الدواوين إلى
أدباء العصر التاجين : أبى حيان التوحيدي ، وابن مسكويه ، والحريري .

(١) جب التوب : جبل له جيباً وهو فتحه العليا . (٤) الرضاب : الريق ودرجة الصل . جنا النحل :
عله
(٢) اليَفس : السيوف .
(٣) الطلى : الأفاق ، والهام : الرموس .
(٥) المحل : الجذب .

أبو حيان ^(١) التوحيدى

هو أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى ، وقد اختلف في مسقط رأسه وتاريخ مولده ووفاته ، فقليل مسقط رأسه شيراز بفارس ، وقيل نيسابور بخراسان ، وقيل واسط بجنوب العراق ، وقيل بغداد ، وهو القول الراجح في رأينا ، إذ ذكر كثير من مترجميه أن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد يعرف باسم التوحيد ، وعليه حمل شرح المتنبي قوله :

بترشفن من فى رشفاتى هن فى أهلكى من التوحيد
وكانه هو وأباه نسا إلى هذا التمر . وخطأ ما ذهب إليه ابن حجر وغيره ممن ترجموا له من أن نسبته إلى التوحيد تعنى أنه من أهل العدل والتوحيد أى من المعتزلة ، إذ القدماء لا ينسبون إليهم هذه النسبة ، وإنما يقولون هذا معتزلى وذلك غير معتزلى ، وسرى عما قلل أباه حيان من ألد خصومهم وخصوم المتكلمين عامة ، فليس بصحيح أنه منهم ولا أنه منسوب إليهم ، إنما هو ابن بائع متجول ببغداد كان يبيع تمر التوحيد . وفى هذا ما يشير بوضوح إلى أنه كان بغداديا ومن أسرة متواضعة . وتاريخ مولده بالدقة غير معروف ، إنما يعرف بالتقريب ، إذ روى بإقوت رسالة له مؤرخة بشهر رمضان سنة ٤٠٠ ذكر فيها أنه فى عشر الثميين ، وإذن فيقلب أن يكون مولده فى العقد الثانى من القرن الرابع بين سنتى ٣١٠ و ٣٢٠ . ويقال إنه فى السنة المذكورة كان قد ألقى عصاه فى شيراز وظل بها حتى توفى ، ويتأخر بعض مترجميه بوفاته إلى سنة ٤١٤ . وليس فى المصادر القديمة نص على جنسيته أو على أصله ، واختلف المعاصرون من قائل إنه فارسى ، ومن قائل إنه عرنبى ، ويرجع عروبه اعترافه - كما جاء فى ترجمه بإقوت له - بأنه لم يكن يعرف الفارسية ، وكرر ما يشير

وذكرها إبراهيم ومحمد كرد على فى الجزء الثامن من مجلة
الجميع العلمى العربى بدمشق وأحمد أمين فى تقديمه
لكتاب المراسل والشواصل وذكرى مبارك فى كتابه النثر القفى
وإبراهيم الكيلانى فى مقدمته لثلاث رسائل ولكتاب
مثالب الوزيرين ومحمد توفيق حسين فى تقديمه لكتاب
المقاييس وبروكلمان ٣٣٥/٤ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى أبى حيان وترجمته معجم الأدباء ٥/١٥
وابن خلكان ١١٢/٥ وشد الإزار لعين الدين الشيرازى
٥٣ والمنظم ١٨٥/٨ والبيكى ٢٨٦/٥ وتهذيب الأسماء
واللغات ٢٢٣/٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٣٥٥/٦ ،
٥١٨/٤ ولسان الميزان لابن حجر ٣٩٩/٦ وروضات
الجنات ٧١٤ وكتبته فى العصر الحاضر مؤلفات
وبحث كثيرة لعبد الرزاق هبى الدين وإحسان عباس

إلى ذلك في المقابلة الثانية من كتابه «المقاسبات» وفي المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه «المواويل والشواويل». وأيضاً فإنه يدافع عن العرب بقوة - دفاع العرنى الأصيل - ضد الشعبيين من معاصريه أمثال الجبّهاني، ويرفعهم مكاناً علياً، كما يرفع لفهم على كل اللغات لبيانها الرائع على نحو ما بلفظنا في الليلة السادسة من ليالي كتاب الإمتاع والمؤانسة. وليس بين أبدينا شيء واضح عن طفولة أبي حيان ومرباه ومنشئه، وطبيعى أن تكون طفولته عادية وأن يختلف إلى الكتاب مثل لداته يحفظ القرآن الكريم والشعر ويتعلم الخط والحساب، وأكبر الظن أن أباه لاحظ فيه مخايل ذكاء منذ نعومة أظفاره، مما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء في المساجد، وكانت مفتوحة ومهيأة لكل من أراد لونا من ألوان المعرفة. ويذكر أبو حيان طائفة كبيرة من أساتذته في كتاباته، منهم في النحو واللغة أبو سعيد السمراني المتوفى سنة ٣٦٨ وفي البلاغة والبيان على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ وفي الفقه أبو حامد المروزي المتوفى سنة ٣٦٢ وفي الحديث أبو بكر الشافعي صاحب الغيليات المتوفى سنة ٣٥٤، وفي التصوف جعفر الخَلْدِي تلميذ الجنيد المتوفى سنة ٣٤٨. وفي الفلسفة وعلوم الأوائل يحيى بن عدى تلميذ القاراني المتوفى سنة ٣٦٣ وأبوسليمان الملقب السجستاني الذي مر ذكره، وقد تعرف به في مجلس يحيى بن عدى وانعقدت بينهما صداقة وثيقة، حتى إذا استقل أبوسليمان بندوة أو مجلس كمجلس يحيى بن عدى أصبح أبو حيان من رواده، بل من ملازميه ومسجل ما يدور بمحضرته. وكان من أكبر الأسباب في اتساع ثقافته وأنها شملت كل علم وفن احترافه الوراقة أو نسخ الكتب بالأجرة للناس، فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب في كل فن وفي كل علم، وانطبع كثير مما كتبه في ذهنه وحافظته سواء أكان نثراً أو شعراً. واشتهر بشغفه بكتب الجاحظ وتوفره على تصحيحها وخاصة كتاب الحيوان، فكان ما يكتبه منه يُعدّ نسخاً نفيسة في عصره ويُبهر عليه مكافأة جزيلة، كما جاء في مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة، بل لاشك في أن كل ما كان يكتبه كان يُجزى عليه الجزاء الحسن.

وتظل حياة أبي حيان مجهولة لنا حتى أوائل العقد السادس من القرن، إلا ما نعرفه عنه من أنه كان ورّاقاً، يعيش من نسخ الكتب، ونراه يذهب إلى الحج في سنة ٣٥٣ ويتعرف في مكة على جماعة من الصوفية، منهم ابن الجلاء والحرفاني، وفي كتاباته روايات وأخبار نسباً إليهما. وعاد إلى بغداد في سنة ٣٥٤ والتقى فيها ببعض المتصوفة. ويبدو أنه أنس في نفسه شيئاً من القدرة الأدبية، فرأى أن يقصد إلى ابن العميد في السرى لعله يجد لنفسه عملاً عنده، أولعله يوصى به أولى الأمر في خراسان. وبظل بعيداً عن بغداد منذ سنة

٣٥٥ حتى سنة ٣٥٨ إذ عاد إليها خالى الوفاض بعد أن طال وقوفه بباب ابن العميد . وكان نعرف في هذه الرحلة الطويلة إلى ابن مسكويه وبعلم من أعلام الهندسة والرياضة هو أبو الوفاء المهندس . وطبيعى أن يعود أبو حيان إلى عمله في الوراقة ونسخ الكتب . ويحدث في سنة ٣٦٣ أن تشدد مظالم الدولة للرعية بما ترهقها به من الضرائب وأن تور الطبقات البائسة المحرومة ، واستفحل أمر العيارين وسيطروا على بغداد ونهبوا كثيرا من الدور خاصة دور الأغنياء ، وكان مما نبهوه دار التوحيدى ، فقد أخذوا كل ما كان بها من ذهب وثياب وأثاث وكل ما كان جمعه منذ أيام صباه كما يقول هو نفسه في الجزء الثالث من كتابه الإمتاع . ولعل هذا ما جعله يهاجم العيارين لا في هذا الكتاب وحده ، بل أيضا في كتاب الصداقة والصديق ، بل إنه يهاجم العامة جميعا حتى يقول في الليلة السادسة عشرة من كتاب الإمتاع : « طلب الرفعة بينهم ضعةً والتشبه بهم نقیصة . » وهو استملاء غريب على العامة من رجل أسرته منهم ونشأ بينهم . وأهم من ذلك أنه يعترف بما أكسبته الوراقة من ذهب وثياب وأثاث ، ومع ذلك نراه هاجيا لهذه المهنة أشد الهجاء نالها أشد الثلب حتى ليسميا « حرقة الشؤم » . وهو يضيف إلى ذلك شكوى مرة من البؤس ، مما جعل كل من كتبوا عنه في هذا العصر يرون لبؤسه وفقره ، معللين ذلك بأنه كان يعيش على الوراقة ، مع أنه كان يعيش منها في عصره بعض كبار العلماء دون شعور بالبؤس ، بل كان منهم من يكتفى بالقليل مما ينسخ في حدود حاجته على نحو ما يروي ياقوت في ترجمته للسمرقاني أستاذ أبي حيان في النحو واللغة من أنه كان لا يخرج إلى مجلسه في القضاء بين الناس أو في محاضرة طلابه حتى ينسخ عشر ورقات بمشرة دراهم بقدر مئونة يومها . وطبعاً لم يكن أبو حيان وأمثاله من المهترفين للوراقة يكتفى بمثل هذه الورقات القليلة . وكان يحى بن عدى أستاذه في علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة يحترف الوراقة على نحو ما يروى القفطلى في ترجمته ، كما مر بنا ، وكان يكتب في اليوم واللييلة مائة ورقة . فالوراقة لم تكن مهنة بائسة كل هذا البؤس الذى تصوّره المعاصرون من شكوى أبي حيان المستمرة من الضنك وضيق العيش . وفى رأينا أن بؤسه كان بؤساً نفسياً أكثر منه بؤساً مادياً ، فقد كان يرى كثيرين ارتفعوا في الحياة وهم دونه في الثقافة والمعرفة والأدب والكتابة ، فكان يشعر بضجر شديد ويشقاء لا حذ له بملاً قلبه حسرة ولوعة ، وظل هذا الشعور يلزمه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

على كل حال لم تمنحه الوراقة راحة ولا رضا ولا طمأنينة ، ولعله من أجل ذلك فكر أن يضيف إليها بعض مؤلفات يكتبها أو يهديها باسم بعض الأعيان أو بعض ذوى المناصب

الكبرى ، وأيضاً فإن ذلك لم يبعُدْ عليه بشيء من طمأنينة النفس وراحة الفؤاد فظل يشعر بالثماسة والقلق المفضى . . ومن أوائل ما ألفه كتابه « البصائر والنخائر » الذى نشره الدكتور إبراهيم كيلانى بدمشق فى ستة أجزاء ، ويقول التوجيدى فى مقدمته إنه ابتدأ فيه سنة ٣٥٠ وانتهى منه فى سنة ٣٦٥ كما يقول إنه استقاه من كتابات الجاحظ وابن قتيبة والميرد وغيرهم من أعلام الأدب فى القرن الثالث الهجرى . والكتاب على طريقة الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، ويحمل كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال السالك وأشعار الشعراء وكلام حكماء الفرس واليونان والهند ، مما قرأه أبو حيان فى أثناء نسجه للكتب من كل لون وللداوين القديمة والحديثة وفيه كثير مما سمعه من أساتذته ومعاصريه . وليس له فيه إلا جودة الاختيار وإلا مقدمته التى يدعو فيها إلى الزهد فى الحياة الدنيا الزائلة . وهى نزعته كانت تمس نفسه فى الأربعينيات على ما يظهر ، وكذلك فى الخمسينيات من عمره وبعد ذلك ، وهى التى دفعته إلى الحج ، غير أنها لم تكن تنعمقه ، ولذلك نراه يطلب الدنيا فيذهب إلى الرىِّ وأرجان وأفدا على أنى الفضل بن العميد ، ويرجع بخفى حنين . ويدور الزمن ويشترى الوزارة ابنه أبو الفتح ، ويزور بغداد ويتناقل الناس أخبار عطائاه للعلماء وفى مقدمتهم السبرافى وأبوسليمان المنطقى ، ويشد أبو حيان الرحال إليه فى الرىِّ سنة ٣٦٦ راجياً أن يعوضه ما نفيه منه العيارون منذ ثلاث سنوات ، ويقدم إليه رسالة رواها باقوت تكثف بملق مسرف غاية الإسراف وإلحاح شديد فى السؤال وطلب التوال ، حتى لكانه من أهل الكدبة والشحاذة الأدبية . وما كان أغناه عنها ، فإن أبا الفتح قابلها بالإعراض ، وكان أبو حيان يسرع دائماً إلى الهجاء والذم ، فربما بلغه عنه شيء منها على الأقل يتصل بأبيه أنى الفضل بن العميد الذى أزور عنه . وتتطور الحوادث سريعاً ، ويفتك مؤيد الدولة البرهسية بأبى الفتح ويخلقه صاحب بن عباد ، فيعرض عليه أبو حيان خدماته ، ويكلفه بالوراقة له والنسخ ، ويظل ناسخاً له مدة ثلاث سنوات حتى سنة ٣٧٠ . وكان يحضره مجالسه وعلى موائده ، فيتخلل فيها يكون من حديث ببجاجة وزهو وتعلم مما ملأ نفس صاحب عليه حقاً وموجدة ، فبرم به صاحب برماً شديداً ، وأبو حيان لا يتراجع ، بل يزداد وقاحة . ولا يبعد أن يكون أبو حيان قد أخذ يسلُّ عليه لسانه ، وأن شيئاً من ذمه نُقل إليه . على كل حال فسد ما بينها فساداً من الصعب إصلاحه أودقته . وأخذ صاحب يخفوه ويصدّه عن مجالسه صدائيقاً . وليس ذلك فحسب فقد حرّمه من مكافآته على ما ينسخ ، إذ حبس عنه أجرته ، وكلما لقيه تجهّم له ، مما اضطر أبا حيان أن يرحل عنه بعد عمل متواصل لمدة ثلاث سنين دون أن يأخذ منه كما قال درهما

أوما قيمته درهم . وبمجرد أن عاد أبو حيان إلى بغداد انتقم منه ومن أبي الفضل بن العميد شرانتقام بتأليفه فيها كتابه « مثالب الوزراء » الذى نشره بدمشق الدكتور إبراهيم الكيلانى ، وهى صحف هجاء لاذعة أشد اللذع للوزيرين الكاتبين المشهورين ، إذ تحامل عليها تحاملا مسرفا ونجى عليها نجنيا قبيحا ، محاولا بكل ما استطاع أن يسلبها ما اشتراها به فى الناس من الفضائل . ونصيب صاحب فى هذا الهجاء المقلع أكثر من نصيب أبى الفضل بن العميد ، لأن جرح أبى حيان منه كان أبعد غرورا وأشد إيلاما .

ويعود أبو حيان جريحا كبيرا إلى بغداد وإلى حرفته فى الوراق ، ويشفق عليه ابن مسكويه وصديقه أبو الوفاء المهندس ، لما تجرع من حرمان مرير ، ومد إليه يد العون أبو الوفاء . أما ابن مسكويه فإنه ارتضى منه أن يؤلف معه كتابه « الموامل والشوامل » والموامل أسئلة لأبى حيان فى الفلسفة والطبيعة والسلوك واللغة ، والشوامل إجابات بديعة لابن مسكويه ، وقد نشره أحمد أمين والسيد صقر فى القاهرة ومعروف أن ابن مسكويه كان يلازم عضد الدولة ، فلا بد أن يكون قد نزل معه بغداد حين استولى عليها من ابن عمه بختيار سنة ٣٦٧ وكان أبو حيان غالبا فى الرى ، حتى إذا عاد وجد ابن مسكويه وكان قد تعرف به قديما حين نزل الرى زمن أبى الفضل بن العميد . والمظنون أن حوار الموامل والشوامل لم ينعقد بينها حينئذ ، وإنما انعقد فى بغداد بعد مجيء أبى حيان من لندن صاحب كاسف البال مقروح الكبد ، يؤكد ذلك أننا نجد ابن مسكويه يحاول أن يفرج عنه الغم الذى ملأ قلبه وما انطوى عليه من الإحساس باليأس والمرير من الزمان والإخوان ، إذ لاحظ مسارب ذلك فى حنايا نفسه وجواب أسئلته ، فقال له فى مطلع أجوبته : « انظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأس ، أو إلى الصابرين ملك وتسل ، فلعمريك إنما تشكو إلى شاك وتبكي على باك ، فى كل حلق شجى وفى كل عين قذى » . فالتاس كلهم شاكون باكون مثل أبى حيان ، وكلهم يعترض فى حلقه ما يكاد ينفص به ، وحسبه أن يكون له فى الناس قدوة وأسوة . وكان ابن مسكويه أراد بالكتاب أن يكون فيه سلوان لأبى حيان ، ينسبه همومه ولو إلى حين . ومع تقديمه هذه الهدية الفكرية لأبى حيان نجده يهاجمه فى الليلة الثانية من كتابه الإمتاع ، ويبدو أن سبب نهجه عليه ما نعت به أبو حيان من أنه كان شحيحا شحنا شديدا ، وكان أبى حيان لم يجد عنده ما كان يأمله من العون على ما كان يتجرعه من الصاب والعلقم .

أما أبو الوفاء المهندس فكان نعم الصديق لأبى حيان ، وكان قد تعرف عليه قديما ووعده بالسعى فى صلاح حاله ، وحين لقيه بعد عودته من لندن صاحب أرواحه بصره كما يقول أبو

حيان وأعاره سمعه ، وبدأ فتوسط له عند القائمين على بيارستان بغداد ، فعيّنه راعيا لبعض شؤنه . وأهم من ذلك أنه قرّبه من ابن سعدان أحد كبار رجال الدولة البويهية ، فكلفه بنسخ كتاب الحيوان للجاحظ ، وأخبره زيد بن رفاعه في سنة ٣٧١ أن أبا حيان يفكر في صنع رسالة عن الصداقة والصديق ، فشجع ابن سعدان أبا حيان على إنجازها غير أنه لم ينجزها توا ، بل ظل يراجعها ويزيد فيها حتى نشرها سنة أربعمئة ، وهي أقوال وأشعار مجموعة على طريقته في كتابه البصائر والذخائر ، ولا يكاد يكون له فيها سوى المقدمة وحديث عن ندماء ابن سعدان وحسن اختياره للمادة التي كوّن منها الموضوع ، والرسالة طُبعت بإستانبول والقاهرة . وينسب الزمن فترة لابن سعدان من سنة ٣٧٢ حتى سنة ٣٧٥ إذ يصبح وزيرا لسمصام الدولة البويهية ويتخذ له مجلسا علميا فلسفيا أديبا للحوار ليلا في كل ما يتصل بالإلهيات والطبيعات والأخلاق وعلم الكلام واللغة والشعر وقد ذكر أبو حيان العلماء والمتفلسفة الذين كانوا يتحاورون في هذا المجلس بكتابه « الإمتاع والمؤانسة » وقد نشره أحمد أمين وأحمد الزين في ثلاث مجلدات بالقاهرة . وجعل ابن سعدان أبا حيان واسطة عقد هذا المجلس ، فأزال من نفسه غشاوات الكتابة التي كانت قد تراكمت فيها طوال سنوات وقوفه بأبواب الوزراء : أبي الفضل بن العميد وابنه أبي الفتح والصاحب بن عباد ، وسأله صديقه أبو الوفاء أن يسجل في كتاب أطرف المسائل التي تناوَلها حواراه مع ابن سعدان ، فألف له كتاب الإمتاع مقتصرًا فيه على ما دار في سبع وثلاثين ليلة ، وعادة يعرض الوزير سؤالًا ويأخذ أبو حيان في الإجابة ، وقد يطلب إليه في موضوع أن يكتب فيه رسالة حتى يوفيه حقه ، وقد ينقل إليه مناظرة طويلة دارت في سوق الوراقين أو دارت في عهد وزير آخر مثل مناظرة السيرافي ومثى بن يونس في النحو والمنطق بمجلس الوزير ابن القرات سنة ست وعشرين وثلاثمائة ، وقد رواها أبو حيان كاملة في الليلة الثامنة . وعرض الحوار جوانب من حياة البغداديين كجانب الفناء واللهو . وليس في الكتاب ما يدل على أنه أُلّف بعد فلك سمصام الدولة البويهية بابتداء حياة ابن سعدان سنة ٣٧٥ ويطلب أن يكون أبو حيان ابتداء تأليفه في حياة الوزير ، وأنه بعد وفاته ، ذكرى عزيزة له ولجلسه العلمي الفلسفي الرائع الذي لم يبلغ مبلغه مجلس أي وزير أو حاكم بويهى في زمنه .

وعلى نحو ما سجل أبو حيان حواراه مع ابن سعدان في الإمتاع والمؤانسة سجّل في كتاب المقابسات أطرف ما دار من حوار في ندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني ، ومرّ بنا في غير هذا الموضع حديث طويل عن المقابسات وعن أبي سليمان ، ونرى أبا حيان يصرّح

في المقابلة الخامسة والثلاثين أنه يكتبها ووراءه خمسون عاما ويذكر في المقابلة الحادية والستين أنه قرأ على أبي سليمان كتاب النفس ببغداد سنة ٣٧١ ، ويتحدث في المقابلة الثانية والخمسين عن شخص توفي سنة ٣٨٦ وهناك مقابلة هي المقابلة الثانية والثمانون اختطفت المخطوطات في تاريخ إملاء أبي سليمان لها على تلاميذه ، هل هي سنة إحدى وسبعين أو هي سنة إحدى وتسعين . وإن صح التاريخ الأخير كان زمن المقابلات وإلّاها يمتد طويلا من نحو سنة ٣٧٠ حتى سنة ٣٩١ وإلا فقد امتد يقينا حتى سنة ٣٨٦ .

ولست المقابلات جميعها من إملاء أبي سليمان فكثير منها من إملاء من كانوا يحضرون ندوته من المتفلسفة ورجال الفكر . ويذكر أبو حيان في المقابلات الثانية والرابعة والواحدة والتسعين أنه حرّر كلام أبي سليمان وغيره من أهل الندوة فأعلاه مما كان فيه من اضطراب اللفظ وزين التأليف ، ويقول إنه استنفد الطاقة في تنقية الألفاظ من الشواذب ، حتى يسلم التعبير . وجعل ذلك بعض المعاصرين يتسع في الظن ، فيقول إن صياغة المقابلات وغيرها من النصوص التي يحكيها أبو حيان عن المتفلسفة إنما هي من صنيعه ، وإن أبا سليمان وغيره من جلسائه إنما لهم المعنى وحده . وقد يؤكد ذلك بالقياس إلى أبي سليمان خاصة ما وصفه به أبو حيان في الليلة الثانية من كتابه « الإمتاع » بأن في لسانه لكثرة ناشئة عن عجمته وما ذكره عنه من أن في عبارته تقطعا في السياق ، غير أن ما نعرفه عن أبي حيان من أن أحدا لم يسلم من لسانه يحلنا نشك فيما قاله عن أستاذه . ولعل لا أجاوز الحق إذا قلت إن المقابلات في جملتها من كلام أبي سليمان ورفاقه نصّا ولفظاً . وما يؤكد ذلك أن من يرجع إلى المقابلة السابعة عشرة المنسوبة لابن سوار المشهور باسم ابن الحنّام المتفلسف يبعدها بنصّها ولفظها في كتاب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطق ص ٣٣٥ ومثلها المقابلة الثانية والأربعون المنسوبة إلى نفس المتفلسف فإنها بنفس اللفظ والنص في صوان الحكمة ص ٣٥٣ . والمقابلة التاسعة والعشرون المنسوبة إلى النوشجاني موجودة بلفظها ونصّها في صوان الحكمة ص ٣٤١ . ونفس أبي سليمان في كتابه صوان الحكمة وفي رسائله التي ألحقها به الدكتور بدوي يملك بوضوح زمام العربية ويصدر عن ملكة بيانية جيدة . ونحن لا ننفي عن أبي حيان جهده في تنسيق المقابلات وتصحيحه أو إصلاحه بعض عباراتها ، ولكن هذا لا يعني ما قبل من أن اللفظ أو الصياغة في المقابلات له ، والمعنى لأبي سليمان وصحبه ، فصياغتها ولفظها أيضاً لهم إلا ما أدخله أبو حيان في بعض التغييرات وبعض الحذف أو الزيادات أحياناً . وقد طبع كتاب المقابلات طبعات مختلفة في بومباي والقاهرة وبغداد .

ونغضى مع ألى حيان بعد وفاة ابن سعدان ، ويبدو أنه عاد بعده إلى عملين : الوراقه وتأليف بعض الكتب والرسائل وأهم كتاب أخرجه بأخرة من حياته كتاب الإشارات الإلهية المطبوع في القاهرة وببيروت ، وأكثره مكتوب في صورة رسائل موجهة إلى بعض الفضائل عن طريق الهداية الإلهية وإلى بعض السالكين وإلى مجموعة من المتصوفة . وتخلل ذلك مناجيات وأدعية وإبتهالات تصور استشفائه إلى الملأ الأعلى . وقد يهبط من هذا الملكوت إلى تصوير ما استشره سنوات طويلا من الضياع والحرمان والشكوى من الناس شكوى مريرة حتى لينجيه إلى ربه في رسالته رقم « به » قائلا : « اللهم إليك أشكو ما نزل في منك ، وإياك أسأل أن تعطف على برحمتك ، فقد - وحقك - شددت الزناتق ، وضيقت الخناق ، وأقت الحرب بيني وبينك » . ومثل هذا الإحساس بالتمرد على الخالق إنما بلغ ذروته ، حتى أصبح إحساسا بالحرب كما يقول ، في عهود وقوفه بأبواب الوزراء : ألى الفضل بن العميد وابنه ألى الفتح والمصاحب بن عباد . ولذلك نظن ظنا أن الإشارات الإلهية مثلها مثل كثرة كتبه لم توف في عام واحد ولا في أعوام قليلة ، فبعضها يرجع إلى الستينات من حياته إن لم يكن إلى الخمسينات ، وبعضها متأخر في السبعينات من حياته وبعد السبعينات يدل على ذلك ما يجرى في كلامه من هجر للدنيا وترهاها وتعلق باقه ووقوف طويل ببابه في طلب العفو والرجاء في نعيه ، وعيناه تعصرها الدموع ، وقلبه يتحرق شوقاً لاكتحال بصره بنور ربه .

وحاول الدكتور عبد الرحمن بدوى في تقديمه للكتاب أن يربط بين مناجيات ألى حيان في الإشارات وبين مزامير داود وبعض آيات الأنجيل وأولى من ذلك في رأينا الربط بين مناجياته والمناجيات المبثوقة في عيون الأخبار لابن قتيبة ، فصادرها عنده مصادر إسلامية لا أجنبية . وهى تدل بقوة على تعمق الدين الحنيف في فؤاده وصفاء جوهزه الروحى . أما ما رده ابن الجوزى والذهبي وغيرهما - ونقله عنهم السبكى في طبقاته - من أنه كان زنديقا كبيرا ، فهو بيتان عليه أى بيتان ، وقد دافع عنه السبكى ، وقال إن الذهبي حمل عليه ، كما حمل على المتصوفة جميعاً ، وهى حملة ظالمة .

والحق أنه كان سنيا شديد التمسك بالسنة ولعل هذا هو السبب المهم الذى جعله يهاجم المعتزلة والأشاعرة والتكلمين مهاجمة عنيفة ، حتى ليقول فيهم عامة في الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع : « لم أر متكلماً في مدة عمره بكى خشية أو دمت عينه خوفاً أو أفلح عن كبيرة رغبة . . جد الله عروقهم واستأصل شافتهم » ويفضل الأمين عليهم ويقول إنهم أنقى لله عز وجل وأذكر للمعاد وأيقن بالثواب والعقاب ، ويتلقوا الباقلا فى الأشمى العظيم

بلسان حاد . وهى طبيعة أى حيوان حين يهجو يُسِفُّ فى هجائه إسفافاً شديداً ، حتى لزاء بصف الباقلاني بأنه على طرائق الملحدة . وربما كان من أسباب حملته على المتكلمين - بجانب أنه سنى - ما أشرنا إليه فى غير هذا الموضع من أنهم كانوا يصلون بين الفلسفة والدين ، وكان هو وأستاذه أبو سليمان يرون الفصل بينها ، حتى لا يتسلل الإسماعيلية وغيرهم عن طريق هذا الوصل ، كما مرُّ بنا ، إلى مذاهبهم ونحلهم الباطلة . وكان يهاجم الشيعة كما هاجم المتكلمين وكانت الدولة البويية الحاكمة لبغداد شيعية ، فلم يحارهم بالهجوم ، بل اتبع طريقة أخرى : أن يكتب رسالته التى سماها رسالة السقيفة ، وينسبها إلى أى بكر وعمر زاعماً أنها وجهها بها إلى على بن أى طالب ليان أنه دون أى بكر مترلة فى استحقاق الخلافة . وقد نشرها بدمشق إبراهيم الكيلاني مع رسالتين أخريين : أولاهما فى علم الكتابة والثانية فى بيان أنواع الحياة على نحو ما كان يتصورها المتفلسفة فى عصر أى حيوان . وله رسالة فى بيان ثمرات العلوم نشرت ملحقة بكتاب الصداقة والصديق المطبوع فى القاهرة وبها تعريفات للعلوم المختلفة .

وراء كل ما قلنا لأى حيوان كتب ورسائل أخرى سقطت من يد الزمن ، فلم تصلنا ، منها رسالة سماها الحج العقل إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى ، وأكبر الظن أنه يقصد بها - إن صحت نسبتها إليه - النك والعبادة لمن لا يستطيعون إلى الحج سيلا . وذكر باقوت رسالة له كتبها إلى أحد أصدقائه سنة أربعائة وفيها يذكر أنه أحرق كتبه ، لما فقد من الولد النجيب والصديق والحبيب والتابع الأديب ، ونظن ظنا أنه لم يحرق جميع كتبه ، وإنما أحرق طائفة منها يريد أن ينشرها فى الناس ، ولعله لم يرفض أن تنسب إليه . وعلى كل حال كتبه المهمة كانت قد ذاعت وشاعت نُسخُها فى الناس ، فلم يؤثر إحراقه لها - إن كان قد أحرقها - شيئاً . وكان هذا الإحراق كان مَعلَماً قوياً على طريق حياته التى أخذ بمضيها فى شيراز منذ هذا التاريخ متجها بكيانه وروحه إلى بارئه ، مناجياً له وداعياً ، مع اتخاذ لنفسه حلقة يروى فيها الناس عنه - كما ذكر السبكي - الحديث النبوى حتى وفاته .

وأبو حيوان يُعدُّ أكبر أدباء العراق فى هذا العصر من القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر ، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته ، إذ تناول فيه - كما فى كتابه الإمتاع والمؤانسة - كثيراً من جوانب التفلسف والفكر العميق فى الإلهيات والطبيعات والإنسان والأخلاق والنفس ، فأدبه ليس لفظياً ، قَصْفَةً ولا طيخن ، بل هو أدب يحمل زادا كبيراً من المعانى ، وقد أشار مراراً فى الإمتاع وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعنى بالمعانى كما يعنى بالألفاظ ، وهو شئ طبيعى لمن تمثل مثله ثقافة زمنه على اختلاف ألوانها ، فقد

استوعبها استيعاباً رائعاً، وصدر عنها في كتاباته صدوراً طبعياً ، كما يصدر الضوء عن الشمس . وأداء ذلك إلى أن يخلص عن موجة السجع التي سادت الكتابات الأدبية في أيامه ، إذ رأى فيها طلباً للفظ أو الألفاظ واستملاء لها على المعاني ، بل قل تحميها وانتقاصاً ، فازورُ عنها . وكانت المكتبة العربية قد ألفت بكنوزها بين يديه في أثناء وراثته ونسخه ، فراحه أسلوب الجاحظ وأدبه ، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتي والمعاني ، مستخدماً أسلوب الازدواج الذي عُرف به ، وقد يتخلله في الحين البعيد بعد الحين السجع ، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه ، فاستقر هذا الأسلوب في نفس أبي حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته . ويبلغ فيه ذروة من الجلال الصوتي لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند الجاحظ . وهو يتبع اتساعاً واضحاً في أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتي ، ولتقرأ هذه الفقرة في فاتحة الرسالة التي توصل بها إلى أبي الفتح بن العميد .

« اللهم هبني لي من أمرى رشداً ، ووقفني لمرضااتك أبداً ، ولا تجعل الحرمان عليّ رَصداً ، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن شكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق » .

وقد بدأ أبو حيان الرسالة بالسجع وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج ، معادلاً بين كل عبارة وتاليها معادلة صوتية دقيقة ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يستغل قدرته الفكرية في تفريع الجمل بعضها من بعض ، إذ بدأ بالصواب وجعله ينتهي بالتوفيق . ونحس كثيراً إزاء ازدواجيات أبي حيان وتفرعاته كأنما يريد أن يكسح بها قاره أكباحها ، دون أن يستطيع تخلصاً أو إفلاتاً . وكان عجباً له أن هذه الرسالة التي كتبها لأبي الفتح لقيت منه إعراضاً ، وعرف أن السبب في ذلك أنها لم تكتب بلغة السجع لغة معاصره ، إنما كتبت بأسلوب الجاحظ ، فرأى أن يدافع عن هذا الأسلوب بقوة مما جعله يكتب رسالة في تقريب الجاحظ يشد فيها به وبقته . ولا يروعنأ عنده ظاهر هذا الأسلوب وما يتخلله من السجع أحياناً إنما يروعنأ فيه أيضاً ما شغفه به من تلوينات عقلية تتداخل في جميع أوعيته الصوتية ، وتقصد الشراب السائغ الذي تحمله هذه الأوعية من المعاني الغزيرة حين يتحدث عن موضوع من الموضوعات ، فإذا هو يستقصيه من جميع أطرافه ، ولا يكاد يترك فيه فكرة ولا خاطرة . ويكنى ليان ذلك كتابه « مثالب الوزيرين » الذي

يقع في نحو ثلثائه وستين صحيفة ، إذ لم يترك جانباً فيها إلا مرزقه تخزيقا ، وخاصة
الصاحب بن عباد ، وإنه ليعتذر عن ثلثه وذمه بمثل قوله في الكتاب :

« رماني عن قوسه مُعْتَرَقاً^(١) فأفرغت ما كان عندي على رأسه مغيظا ، وحرمني
فازدريته ، وحقرتي فأخزيتي ، وخصصني بالحياة التي نالت مني ، فخصصته بالبنية التي
أحرقته ، والبادي أظلم ، والمتصف أحذر ، وكنت كما قال الأول :

وإن لسانى شهده يُشككي به أَجَلٌ وعلى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَاقِمٌ
ولئن كان منغني ماله الذي لم يبق له ، فاحظر على عرضة الذي بقى بعده ، ولئن كنت

انصرفت عنه بِخَفَى حَتِّين ، لقد لصق به من لسانى وقلمى كل عار وشنار^(٢) وشين ،
ولئن لم يرفى أهلاً لنا لله^(٣) وبِره ، إني لأراه أهلاً بقول الحق فيه ، ونث^(٤) ما كان اشتمل
عليه من مخازيه ، ولئن كان ظن أن ما يصير إلي من ماله ضائع ، إني لأوقن الآن أن ما
يتصل بمرضه من قول شائع . والمنصف في الحكم يُعَذِّرُ المظلوم ، ويلوم الظالم .

وواضح في الفقرة أن أبا حيان يعتمد في أسلوبه المزدوج حلّ المقابلات ، فهو يقابل
بين صنيع الصاحب به وصنيعه بالصاحب في كل عبارتين متواليتين . وهو يتسع في ذلك
هنا وفي كثير من جوانب كتاباته ، يرفده في ذلك ذهن خصص حافل بالمعاني المتقابلة فلا يكاد
المعنى يدونه قلمه حتى يسيل معه مقابله . وشيء من ذلك كان عند الجاحظ وقد صورناه
في حديثنا عنه بكتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ولكن الجاحظ لا يبلغ فيه هذا المبلغ
الذي نجده عند أبي حيان فقد كانت ثقافته ، وخاصة الثقافة الفلسفية ، أوسع بحكم تقدم
العصر ، فزور فكره إلى أقصى حد ، وكان لسانه بطاوعه ولا يتأني عليه شيء من التعبير ،
فاتسعت المقابلات عنده واتسع توليد المعاني بل فيضانها من نبع متدفق لا يتوقف ردفه ولا مدده .
ونراه في الإشارات يصور إحساسه في أواخر حياته بالفرية التي طالما أمضته والتي
وصفها في مقدمة رسالته : الصداقة والصديق ، إذ لم يبق له مؤنس ولا صاحب
ولا مشفق إلا الوحشة والوحدة ، وكادت شمس الحياة تقرب ، وماء الحياة ينضب . وإنه
ليطيل في الإشارات في وصفه للغريب إذ يمتد في ست صفحات لفته فيها الألفاظ ولفته
المعاني بمثل قوله :

« قد قيل الغريب مَنْ جُفَاء الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ،

(١) معترقا : أي حتى غدا سهم من اللحم إلى (٣) ناقل : خطأ .

المعظم . (٤) نث : نشر .

(٥) شنار : شنة .

بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حابه الشَّريب^(١) ، بل الغريب من نودى من قريب ، بل الغريب من هو فى غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . . والغريب من غربت شمس جماله ، واغترب عن حبيبه وعذله . . والغريب مَنْ إن حَصَرَ كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا . . والغريب من إذا ذُكر الحق هُجر ، وإذا دعا إلى الحق زُجر ، وإذا قعد لم يَزُر . . الغريب مَنْ إذا قال لم يسمعا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله . . الغريب من إذا أقبل لم يوسّع له ، وإذا مرض لم يُسأل عنه . . الغريب من إن زار أغلق دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرفع له الحجاب . . الغريب ليله أَسَف ، ونهاره لَهْف ، وغداؤه حَزَن ، وعشاؤه شَجَن ، وسيره عَلَن ، وخوفه وطن . .

وهى كلمات من سيل الغربة الذى تدفق فى صفحات الإشارات ، وكأنما هوسيل ليس له آخر من المعانى التى صيغت فى أسلوب الازدواج . وغلبَ السجع فى هذه الكلمات ، وهو يكثر فى الإشارات كثرة لا تراها فى كتبه الأخرى ، مما يدل على أنها حقا آخر كتاباته . ونجد فيها نفس الحرارة التى لا تغيب أبدا عن كتابات أبى حيان لا فى شبابه ولا فى هرمه . وارجع إلى فكر أبى حيان الخصب فى هذه الكلمات وما يصوره من ضروب الغربة ، حتى لتشمل الغربة النفسية لمن لم يغترب ، بل لمن يواصله الحبيب وينم بوصله . وبذلك بثّ فى كلامه معانى إنسانية عميقة ، وهى تجرى فى كتاباته ، وقد ختم حديثه عن الغريب بقوله : « دع هذا كله . الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه ، بل الغريب من نهالك فى ذكر الله متوكلا عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجَلَدِواءه . فحقى الصوفى غريب ، ولعله أولى بالشفقة والعطف من جميع الغرباء حوله . ومن أروع الأشياء حقا أدعيت ومناجياته لربه فى الإشارات من مثل قوله :

« اللهم رَوِّحْ صدورنا بنسيم وُدِّك ، واغمرْ أرجاء قلوبنا بغوامر من رِقِّدك ، وأدِّفْنَا حلاوة بِرِّك ، وجُدْ علينا بك ، وعَلِّ يَتْنَا وبينك ، وجَلِّ أبصارنا إليك . . واجمل أرواحنا مغارس معرفتك ، وألستنا قواطف وصفك ونعتك ، فى قدرتك وحكمتك ، وإذا عطشنا قُرُونًا ، وإذا ضعفنا قُفُونًا ، وإذا اهوججنا فسُونًا ، وإذا اعتلنا فدَاوِنًا ، وإذا كدبرنا فصَفْنَا ، وإذا دَرَسْنَا فَنَقْنَا . . وإذا بَنَّا منك فصلنا بك . »

وخصائصه التى صورناها واضحة فى هذا الدعاء ، فهو يعتمد فيه على الازدواج

ومعادلاته الموسيقية ، هو وما قد يلتحم معه من السجع ، كما يعتمد على التفريمات في المعاني والتوليدات والمقابلات والاستعارات مما يروع قارئه روعة شديدة ، بل مما يتبع سمعه وعقله وقلبه متعة هنيئة .

٤

ابن^(١) مسكويه

هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، واضطرت المصادر القديمة في مسكويه هل هو اسم جده أو هو اسمه ، فذكر ياقوت في ترجمته وكذلك القفطي في تاريخ الحكماء أن مسكويه اسمه ، وقال ابن خلكان في ترجمة ظهير الدين الروذراوري إنه أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه . وجعلت المصادر الأخرى لترجمته مسكويه اسم جده ، وهو الذي يتبادر من اتفاق المصادر على أن اسمه أحمد بن محمد ، وكأن اسم جده غلب عليه أحياناً . ويقول ياقوت إن مسكويه كان مجوسياً وأسلم وكان عارفاً بعلوم الأوائل معرفة جيدة ، وكأنه خلط بين الحفيد والجد ، فالهوسية للجد ، والمعرفة بعلوم الأوائل للحفيد .

وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأة ابن مسكويه ومرياه فضلاً عن مولده ومسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه ولد حوالي سنة ٣٢٠ للهجرة لا سنة ٣٣٠ كما ظن مرجليوث في مقدمته لكتاب تجارب الأمم ، إذ نراه يعمل مع المهلبى وزير معز الدولة البويهى منذ سنة ٣٤٥ حتى وفاته سنة ٣٥٢ والمعمول أن يلتحق بالعمل في دواوينه وهو في نحو العشرين على الأقل . ونسبه بعض من ترجموا له إلى الرى ، وقد تكون مسقط رأسه وموطن آباءه . ويبدو من صلته المبكرة بالمهلبى وعمله معه ببغداد أنه إما أن يكون منشؤه ومرياه فيها بحيث أتيت له فرصة تعرفه على المهلبى ، وإما أن يكون قد نزها في شبابه لاستكمال ثقافته . وتدل كتبه ومؤلفاته على أنه كان فيه نزوع للاطلاع على كتب الأدب والتاريخ وعلوم الأوائل ، ولا بد أنه اختلف في بغداد إلى كثير من أساتذة هذه العلوم . ونظن ظناً أنه

الإسلام لدى بروس ١٥٨ ومقدمة مرجليوث لكتاب تجارب الأمم والذرائع البتاني في الحضارة الإسلامية ترجمة د . بدوى ص ٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية في مادة ابن مسكويه وكتاب ابن مسكويه : فلسفة الأخلاقية ومصادرها لعبد العزيز حرت (طبع القاهرة) ومقدمة د . عبد الرحمن بدوى لكتابه الحكمة الخالدة .

(١) انظر في ابن مسكويه وترجمته تمة البيهية ٩٦/١ ومجمع الأدباء ٥/٥ وابن خلكان ١٣٧/٥ وروايات الجبلات للخوانسارى ٣٦ وتاريخ الحكماء للقفطي ٣٣١ وابن أبي أصيبعة ٣٣٠ ورسائل الخوانسارى وصحان الحكمة ص ٣٤٦ وما بعدها والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان ٣٥/١ ومقدمة أحمد أمين للوسائل والوسائل وتاريخ الفلسفة في

اختلف مع لداته إلى يحيى بن عدى وبجالسته التى كان يحاضر فيها تلاميذه فى تلك العلوم : كما اختلف إلى حلقات شيوخ مختلفين فى اللغة والتاريخ ، ثم التحق بالعمل مع المهلبى . وزاه فى كتابه تهذيب الأخلاق يصرح بأنه مرت عليه فترة كان يمكث فيها على اللذات الجسائية ويستكثر من الطعام والملابس والزينة وأنه تدرج إلى فطام نفسه بعد الكبر واستحكام العادة وأنه جاهد نفسه جهادا عظيما حتى استخلصها من مطالب النفس الشهوانية وارتقى بها إلى مطالب النفس الناطقة أو العاقلة من الفضائل . وأغلب الظن أن هذا الاسترسال فى اللذات إنما كان فى عهد المهلبى الذى مربنا انهياكه فى الفناء والقصف وشرب الخمر وأنه كان يعقد بقصره لذلك ليلتين فى كل أسبوع . ولا بد أن ابن مسكويه كان يحضر هذا المجلس من حين إلى آخر ، واندفع فيما اندفع فيه المهلبى من اللهو ، حتى إذا توفى وصادر ممر الدولة أمواله وقبض على بعض حواشيه وكلى ابن مسكويه وجهه نحو الرى ووزير ركن الدولة هناك أى الفضل بن العميد ، فأقامه خازنا على مكتبته . وربما كان فى ذلك ما يدل على أنه عُرِف بثقافة واسعة تشمل كل علم وكل فن ، ولذلك اتخذ ابن العميد مشرفا على مكتبته ينظمها ويضيف إليها روائع الكتب لزمت فى مختلف العلوم والفنون . وتعرف عليه أبو حيان التوحيدى حين وفوده على ابن العميد . وقال إنه رآه يهتم بعلم الكيمياء دون غيره من علوم الأوائل . وأكبر الظن أن أبا حيان بالغ فى قوله ، فقد كان ابن مسكويه يهتم بعلوم الأوائل جميعا كما يتضح من مديحه لأبى الفضل بن العميد فى الجزء السادس من كتابه تجارب الأمم ، إذ يقول عن شغفه بهذه العلوم : « فأما علم المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن يدعيها بمحضته » وطبيعى وابن مسكويه خازن كبة أن يكون له بها نفس اهتمامه . وكان يعهد إليه بتربية ابنه أبى الفتح وتعليمه . ولما توفى أبو الفضل سنة ٣٦٠ ونحلت مقاليد الوزارة إلى أبى الفتح ظل خازنا لكبة وأعلى منزلته . ويُقَصُّ على أبى الفتح سنة ٣٦٦ ويتحول ابن مسكويه إلى عضد الدولة البرهسى ، مؤملا العمل عنده فيتخذ خازنا لكبة ، ويعمله من ندمائه المقربين إليه ، حتى إذا استولى على بغداد سنة ٣٦٧ تحول معه إليها . وأخذ يُعْنَى - منذ هذا التاريخ على الأقل - بمجالس المتفلسفة ومصاحبهم ، فكان لا يكاد يفرق عن ابن الحنّار المتكلسف الذى مر ذكره ، كما كان يلم أحيانا بمجلس أبى سليمان المنطقى السجستانى ويستمع إلى ما فيه من محاورات بين متفلسفة عصره . أما زعم أبى حيان بأنه أعطاه شرحا لإيساغوجى وقاطيغورياس لأبى القاسم غلام أبى الحسن العامرى سنة ٣٧٢ فلا يفضى من شأنه كما أراد ، بل لعله يدل على رغبته فى الاطلاع على كتب الفلسفة . وظل بعد وفاة عضد الدولة

في السنة المذكورة يعمل مع ابنه صمصام الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) ثم مع ابنه الثاني بهاء الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ) ويبدو أنه تحول مع صديقه ابن الحارث إلى بلاط خوارزم شاه مأمون بن مأمون إذ يُذكر أنها خلصاه مع جملة من الأطباء منهم ابن سينا ، ويطلب أن يكون ذلك في أوائل القرن الخامس الهجري . وحدث بينه وبين ابن سينا شيء من الجفوة ، حتى ليذكر القفطى أن ابن سينا قال إنه حاضره في مسألة فاستمدها كرات دون أن يفهمها ، ويصفه بأنه كان عسر الفهم . وفي رأينا أن ابن سينا تجنّى عليه ، كما تجنّى عليه أيضاً أبو حيان في كلمته عنه بكتابه الإمتاع إذ قال إنه «عَبِيَ بَيْنَ أَيْنَاهُ» . وكتبه تشهد بفساحته وذكائه . وبأخرة من حياته ترك خوارزم إلى أصفهان وعاش حتى بطلت حركته وبلغ من الكبر عتياً ، فقد توفي عن نحو مائة عام سنة ٤٢١ . وكان شيعياً إمامياً بمقتد بعصمة الإمام على نحو ما ذكر ذلك في خواتيم كتابه الفوز الأصغر .

وابن مسكويه يُعَدُّ في الصفوة من فضلاء عصره وأجلّته ، يقول الثعالبي في وصفه : «إنه في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشرع ويذكر له طائفة من أشعاره تدل على براعته الشعرية وإحسانه في صنع الشعر ونظمه ، غير أنه لم يضرغ له ولم يحمله وَكْدُهُ وَهَمُّهُ . وكان ناثراً بليغاً كما يتضح من ترأسله مع الخوارزمي وبديع الزمان . وفي رسائل الخوارزمي رسالة يعزبه فيها عن زواج أمه بعد وفاة أبيه ، مما يؤكد أن صداقة كانت ناشبة بينها ، وربما رجعت إلى أيام شبابه . وفي ترجمة ياقوت له رسالتان متبادلتان بينه وبين بديع الزمان ، يتصل البديع في أولاهما من شيء بلغ ابن مسكويه عنه بعد مودة وثيقة كانت بينهما ، وردّ عليه ابن مسكويه فاسحاً في تنصّله ومشيئاً ببلاخته . ولم يجعل ابن مسكويه الرسائل الأدبي صناعته ، إذ كان يهتم بالتأليف ورسالة خلقية كبرى جرّد نفسه لها في معظم كتاباته وتأليفاته ، ويذكر له القفطى من كتبه المتصلة بالطلب كتاباً في الأدوية المفردة ، وذكر له كتاباً في الأطعمة .

وأول ما نقف عنده من كتبه كتابه «تجارب الأمم» وهو في التاريخ العام من الطوفان حتى سنة ٣٦٩ مع أنه عاش بعد ذلك طويلاً كما مرّ بنا ، ويقال إنه وصل به حتى وفاة عضد الدولة صاحبه سنة ٣٧٢ . ويبدو من مقدمة الكتاب ومن نفس اسمه أنه أراد به أن يتخذة الناس وخاصة الملوك والحكام والقواد حفلة وعبرة ، مما يرون فيه من أحداث التاريخ وتجاربه ، فقصده مقصد أخلاق ، وهو للمقصد الأسمى الذي ابتغاه في تأليفه على نحو ما سنسرى مما قبليل . وللكتاب أهمية تاريخية بعيدة ، وقد سقط من يد الزمن أكثر أجزائه ، ونُشر منه القسم الأخير الخاص بالقرن الرابع الهجري وهو فيه يعرض تاريخ البويهيّين الذين خدم في

جولتهم عرضاً عادلاً منصفاً دون تحيز ، ومما يدل على ذلك موقفه من صديقه أبي الفضل ابن العميد حين كَفَّ يده عن مساعدة المتطوعين لجهاد الروم الذين أقبلوا من خراسان في حماسة بالغة حين جاءهم النبا المشؤم باستيلاء الروم على ثغرى المصبصة وطرسوس في شبال الشام ، إذ وفدوا على أبي الفضل بن العميد في الرى سنة ٣٥٤ يطلبون المال للميرة والسلاح ، فردَّهم ردّاً منكراً ، وكأنه خشي منهم مكيدة فسلط عليهم جنوده ، ففرقوا جموعهم ، ويأسى لذلك ابن مسكويه قائلاً : « لو أن هؤلاء المتطوعين لجهاد الروم - وكانوا يبلغون نحو عشرين ألفاً - أعطاهم ابن العميد المال الذى طلبوه لانضمت إليهم في الطريق أعداد ضخمة من الغزاة المجاهدين ولنكّلوا بالروم نكالاً شديداً ، لكن قد أمراً هو بالغه . فصدقاته لأبي الفضل بن العميد لم تمنعه من تسجيله عليه هذه الوصية في تاريخه ، ويبدو أن ابن مسكويه فرغ من تأليفه لهذا الكتاب التاريخي الذى كان يقع في ست مجلدات إما في حياة عضد الدولة وإما بعد وفاته مباشرة لأنه لم يذكر فيه شيئاً عن خلفائه من أبنائه .

وهذا المقصد الأخلاق من العبارة والعظة الذى دفعه إلى تأليف هذا الكتاب التاريخي الضخم دفعه أيضاً إلى تأليف كتابه « جاويدان خرد » أى العقل الأزل ، وقد اختار له اسماً فارسياً ، مما يدل على أنه ألف مبكراً ، وهو لا يزال في الرى بخدمة أبي الفضل بن العميد وابنه ، وربما كان أول مصنفاته ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن بدوى باسم الحكمة الخالدة ، وهو يصور في ابن مسكويه مترعاً إنسانياً واضحاً ، إذ يجعل العقل الإنسانى وما يتجه من الحكم فوق كل جنس وكل أمة ، بدليل ما جمعه في الكتاب من حكم الفرس والمند والعرب والروم الشرقيين ، مما يثبت أن العقل الإنسانى واحد مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة بالإنسان ، ومهما اختلفت الظروف الطبيعية والاجتماعية .

وقد شغل ابن مسكويه نفسه بالأخلاق حتى عدَّ من أئمة نظرياتها ومباحثها ، وهو يعرض لها في ثلاثة كتب ، هى الفوز الأصغر وتهذيب الأخلاق والموامل والشوامل . أما الفوز الأصغر فقد تناول فيه ثلاث مسائل كبرى ، وجعل كل مسألة في عشرة فصول ، والمسألة الأولى تتصل بالإلهيات ، وهى في إثبات الصانع . وأنه واحد أزلى ليس يحسم وأنه واجب الوجود ليس بمتركب ولا متكرر ولا متحرك مما يؤكد أنه إنما يُعرف بطريق السلب دون الإيجاب ، وأيضاً فإن الله أبدع الأشياء لا من شئ . والمسألة الثانية تتصل بالفلس وأحوالها وأنها ليست يحسم ولا عرض وأنها تدرك المحسوسات والمعقولات وأنها ليست الحياة بل هى التى تعطى الحياة ، وهى لا تبطل ولا تموت ، ولها حال من الكمال تكون بها سعادة

الإنسان عن طريق الحكمة النظرية والأخرى العملية التي تحصل بها الهيئة الفاضلة التي تصدر عنها الأفعال الجميلة . وإذا عاق هذه الحكمة عائق فإنه يتدنى في حال من النقص يكون فيها شقاؤه . ويوضح هنا توضيحاً رائعاً كيف أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع ، إذ لم يخلق خلقاً من يعيش وحده من الوحش والبهائم والطيور وحیوان الماء ، فكلها تتم لها حياتها خلقة وإلهاماً ، أما الإنسان فلا تتم له حياته إلا بالتعاون والتعاقد في كل ما يتعلق به من المطعم والملبوس والمشروب . ويحمل على الزهاد الذين يحرّمون المكاسب لأنهم يعتمدون على الناس في ضرورات أبدانهم ويطلبون معونتهم ولا يعاونونهم بشيء ، وهم بذلك - في رأيه - جائرون ظالمون . والمسألة الثالثة في النبوات ، وقد بدأ فصولها بالحدث عن مراتب الموجودات في العالم التي تسرى فيها الحكمة ويظهر التدبير المتقن ، وهي النبات والحیوان والإنسان . وكل نوع في هذه الموجودات الثلاثة لا يزال يترقى حتى يصل إلى صورة النوع الذي يليه ، فالنبات لا يزال يرقى حتى نرى أرفقه يقبل صورة الحيوان على نحو ما يرى في أشجار النخيل فقيهاً المذكر والمؤنث وتحتاج إلى التلقيح كالسُفاد في الحيوان ، والحيوان لا يزال يرقى حتى يقبل صورة الإنسان في القرد وما يماثلها في الحلقة الإنسانية . وهي تقرب في التمييز وقبول المعارف من الزنج وأشباههم . وبالمثل لا يزال يرقى الإنسان حتى يبلغ وجوداً أعلى من الوجود الإنساني وهو وجود الملائكة . ومن هنا أو في هذه الدائرة يظهر الأنبياء . وواضح أن فكرة ترقى الموجودات عند ابن مسكويه تشبه نظرية أهل النشوء والارتقاء ، مما يدل على روعة تفكيره وأصالته .

وخصّ ابن مسكويه نظريته الأخلاقية بكتاب مفرد هو تہذیب الأخلاق ، وهو كتاب نفيس إلى أقصى حد ونظريته فيه تقوم على المزج بين الروح الإسلامية كما يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية وبين آراء فلاسفة اليونان : أرسطو وجالينوس وأفلاطون وكذلك آراء الكندي والفارابي وما قرأه من حكم الفرس والهنود والعرب وما تلقفه من تجارب الحياة . وهو يستلّه بتعريف النفس وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً ، ويستدل على أنها ليست جسماً بأنها تقبل صور الأشياء المتناقضة بينما الأجسام لا تقبل إلا صورة واحدة كالطول والعرض والبياض والسواد ، ثم هي تدرك المحسوسات والمعمولات وتميز المدركات الحسية والعقلية الصحيحة والخاطئة . ويلاحظ - كما لاحظ الفلاسفة قبله - أن للنفس ثلاث قوى : قوة شهوانية وقوة غضبية وقوة عقلية . ويقول إن الغرض من كتابه إصابة الحلق الشریف الذائق لا الغرض عن طريق المال أو السلطان أو المكاثرة والمغالبة . ويمضي فيما وضع الكتاب من أجله وهو بيان نظريته الحلقية عن الخير

وكيف أنه غاية الإنسان من وجوده حتى يحصل على الفضائل ، وهو لا يحصل عليها إلا إذا ظهرت نفسه من الشهوات الجسدية والزوات البيمية ويفرق بين الخير والسعادة ، فالخير عام للبشر جميعاً والسعادة خاصة بكل إنسان حسب ما يحقق لنفسه من المآرب العقلية وغير العقلية . ولما كان الخير كثيراً ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعه وجب أن تنهض به جماعة كثيرة ، حتى يتوزعوه ، ولذلك يجب على الناس أن يحب بعضهم بعضاً لأن كلا منهم لا يتحقق كماله إلا بغيره . ويرى أن الأجناس الكبيرة للفضائل أربعة هي الحكمة والصفه والشجاعة والعدل ، ويأخذ في بيان أنواع كل جنس من هذه الأجناس ملاحظاً نظرية الأوساط الأخلاقية عند أرسطو ، وهي أن الفضيلة دائماً تقع بين رذيلتين . ويأخذ برأى جالينوس القائل بأن الناس أقسام ثلاثة : أخيار بالطبع وهم قلة ، وأشرار بالطبع لا يمكن أن يتحولوا أخياراً وهم كثرة ، ووسط بين الطرفين ، وهم قابلون لأن يكونوا أخياراً بالتأديب أو أشراراً أيضاً بالتعليم ، وقد ينتقلون إلى الخير بمصاحبة الأخيار وبالمثل إلى الشر بمصاحبة الأشرار . وينقل عن أرسطو أن الشرير قد ينتقل إلى الخير بالتأديب . ويعرض للشرعية وأنها هي التي تقوم الناشئة وتعودهم الأفعال الحسنة ، ويقول إن كمال الإنسان في اللذات المعنوية لا في اللذات الحسية ، وإن من الواجب أن تربي الناشئة على أحكام الشريعة ثم تنظر في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الأحكام والآداب في أنفسها . ويذكر بفصل طويل في تأديب الناشئة والصبيان يقتبس أكثره من بروسن ويتحدث عن طائفة من الآداب في المطاعم وغيرها ، ويعطيل في الحديث عن الخير والسعادة وفرق ما بينهما مما أشار إليه . ويفيض في بيان الفضائل . ثم يتحدث عن التعاون والاتحاد ، وفي رأيه أنه لا يمكن أن تقوم جماعة بدون المحبة ، وأن علم الأخلاق إنما هو علم الإنسان بما يجب عليه في الجماعة ، وبها تفسر الأخلاق ، فليس هناك خلق فاضل لا يكون محوره الجماعة ، ومن هنا كانت الأفعال الدينية لا توصف بأنها خلقية وكانت العبادة تخرج عن علم الأخلاق . ومن آرائه الطريفة أن أحكام الدين الحنيف تولدت مذهباً خلقياً يقوم على محبة الإنسان للإنسان ، ولذلك كانت العبادات دائماً تتطلب الجماعة على نحو ما هو معروف عن النذب لصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة واشتراك الناس في أداء فريضة الحج . وهكذا تقوم شريعتنا على الأنس والمحبة ، وفي الذروة من المحبة محبة الله وتليها محبة التلاميذ لأساتذتهم ثم محبة الأبناء لأبائهم . ويقف عند الصداقة طويلاً مبيناً آدابها ، ثم يتحدث أحاديث طريفة عن أمراض النفس وأسبابها وعلاجها وكيف أن الإنسان في حاجة إلى أن يعرف حبيب نفسه ، ويعرض طائفة من الرذائل كالتهور والغدر والغضب .

وكان هذا الكتاب النفيس يُدرّسُ للناشئة في كثير من البلدان العربية في هذا العصر وشطر من العصر الحديث ، وحرى بنا أن نعود إلى دراسته لهم في المدارس الثانوية ، حتى نمدّهم بخير زاد لتقويم سلوكهم وتربيتهم تربية خلقية سديدة . وكثيرون يظنون أن قوام نثرنا الرسائل الرسمية والشخصية !

وحسبنا هذا الكتاب لنرى منه خطأ هذه الفكرة وأن في العربية كتباً نثرية نفيسة لا تمتد صفحاتها في أسجاع قلما تحوى غذاء فكرياً ، بل تمتد في أسلوب مرسل وتشتمل على زاد من غذاء خلقى تربوى رائع .

ومر بنا أننا نظن ظناً أن ابن مسكويه ألف هذا الكتاب قبل أن يعرض عليه أبو حيان أسئلته الكثيرة التي أجاب عنها في الموامل والشوامل ، وظننا أن ابن مسكويه أجاب أبا حيان عن أسئلته الكثيرة بعد رجوعه بمخفى حنين من لدن الصاحب ترويحاً عن نفسه الجريح ، ونقول الآن إن كتاب تهذيب الأخلاق هو الذى دفع أبا حيان إلى أن يعرض أسئلته الكثيرة على عالم الأخلاق وفيلسوفها كما اتضح في هذا الكتاب ، وأيضاً كما اتضح في الفوز الأصغر ، فقد ألقه ابن مسكويه هو الآخر قبل الموامل والشوامل بدليل أنه ذكره في بعض صفحه .

ويكمل كتاب الموامل والشوامل نظرات ابن مسكويه الأخلاقية . والكتاب مجموعة من المسائل الموامل التي تحتاج إلى إجابة ، جمعها أبو حيان ، وقد بلغت مائة وخمسة وسبعين مسألة ، وجهها إلى الفيلسوف الأخلاق ابن مسكويه ، فأجاب عليها إجابات شوامل ، وهى موزعة بين مسائل خلقية ولنوعية وأدبية وعلمية . وإجابات ابن مسكويه تصوره حقاً متفلسفاً ومفكراً كبيراً ، وقد أعجب الأستاذ أحمد أمين في تقديمه للكتاب بإجابة بديعة من إجاباته رد بها على سؤال أبا حيان هل تأتى الشريعة بما يخالف العقل ويأباه كذبح الذبائح مثلاً ؟ فقد ردّ على هذا السؤال قائلًا :

« ليس يجوز أن تردّ الشريعة من قِبَل الله تعالى بما يأباه العقل ويخالفه ، ولكن الشاك في [مثل] هذه المواضع لا يعرف شرائط العقل وما يأباه ، فهو أبدأً يخلطه بالعادات ، ويظن أن تأتى الطباع من شيء هو مخالفة للعقل . والعقل إذاً شيء فهو أبدى الإبقاء له لا يجوز أن يتغير في وقت . . وأمر العادة قد يتغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان . . وذبح الحيوان ليس من الأشياء التي يأباه العقل وينكرها بل هو من الأشياء التي تأباه بعض الطباع والعادة » .

ويذكر ابن مسكويه أن ما يعرض للإنسان من كراهية ذبح الحيوان إنما هو لمشاركته له

في الحيوانية وأنه يخطر بباله أنه ربما أصابه نفس المكروه بجامع الحيوانية بينه وبين الحيوان . ولا يزال ابن مسكويه يتعمق في الإجابة موضحاً أن الشريعة لا تخرج عن مقتضى العقل بحال . ونذكر طرفاً من إجابة ابن مسكويه عن مسألة خلقية سألمأ أبو حيان ، وهي إذاعة الأسرار مها ضُرب عليها من حُجب الكتمان ، يقول :

« قد تبين في المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين إحداها معطية والأخرى آخذة . فهي بالقوة الآخذة تشب (تسترجع) المعارف وتشتاق إلى تعرف الأخبار ، وبها يوجد الصبيان أول نشوئهم محيّن لسامع الخرافات ، فإذا اكتهلوا أحبوا معرفة الحقائق . وهذه القوة هي انفعال وشوق إلى الكمال الذي يخص النفس . وهي بالقوة المعطية تُفيض على غيرها ما عندها من المعارف ، وتقيد العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة . وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض . فكل إنسان يحرص بإحدى قوتيهِ على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام . . فقد ظهر السبب الداعي إلى إخراج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتاتت بإحدى قوتيها إلى الاستعلام ، واشتاتت بالأخرى إلى الإعلام لم ينكمس سرُّه . وهذا تدبير إلهي عجيب ، ومن أجله نُقلت الأخبار القديمة وحُفظت قصص الأمم ، وعُنى المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته . »

ويعني ابن مسكويه فيذكر أن صاحب السريني أن لا يستودع إلا القادر على نفسه والقاهر لثرواتها ، وأن إخراجها من جملة شهوات النفس وأن حفظه لذلك يحتاج بمجاهدة شديدة . وهذه الإجابة توضح كيف كان عقل ابن مسكويه خصباً وكيف كان حافلاً بالآراء الطريفة ، وهو يعرضها في أسلوب جزل مصقول ليس فيه أى صعوبة ولا أى عوج أو التواء . وقد روى ياقوت في ترجمته نسخة وصية له طريقة يعاهد فيه الله على العفة والشجاعة والحكمة وما يتفرع عن ذلك من شيم نبيلة رفيعة .

٥

الحريري^(١)

هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري ، كان أبوه من أثرياء المشان ، وهي قرية قريبة

(١) انظر في الحريري وترجمته الأنساب للسمعاني ٢٩٩/٢ (قسم العراق) ٢٩٩/٢ و٢٩٩/٣ والعبري غير من عبر ٢٨/٤ والنجم الزاهرة . ومعجم الأدياء ٢٦١/١٦ وابن خلكان ٢٦٢/٤ وإتياه الرواة ٢٣/٣ وتذكرة الحفاظ والسبكي ٢٦٦/٧ الألبار ص ٣٧٩ وفرح الشريشي على القلعات

من البصرة ، وقد ولد له سنة ٤٤٦ وبها كان منشؤه ومزبأه . ثم سكن البصرة في حى
 بنى حرام الفزاريين ، وأخذ يختلف إلى علماء عصره ، يأخذ عنهم الحديث والفقه
 والأدب ، ويسمى بهم ، ويعتد بهم ، السبكي في طبقاته . ويذكر مترجموه أنه تولى وظيفة الخبير
 في ديوان الخلافة بالبصرة ، وهى وظيفة تشبه وظيفة مصلحة الاستعلامات فى عصرنا ،
 ولا يعرف بالضبط متى تقلدها ولا متى عهد إليه بها ، وظل فى هذه الوظيفة إلى وفاته سنة
 ٥١٦ وظلت بعده فى أبنائه حتى آخر عهد المتى بالله (٥٣٠-٥٥٥ هـ) . ولم تمنحه الوظيفة
 من أن يمكف على الأدب واللغة ، بل أن يفرغ لها ، فيكتب مجموعة من الرسائل ، وآبته
 الرائعة : المقامات ، وينظم من الشعر ما يتيسر له أن يكون من أصحاب الدواوين ،
 ويؤلف كتابه المعروف «درة القواص فى أوهام الخواص» ، وهو مطبوع مراراً وواضح من
 عنوانه أنه فيه بسجل أغلاط المتأدبين مما يشيع على ألسنة العامة ، وإن كان قد بالغ فى ذلك
 حتى عُدَّ بعض الكلمات القصيدة غير صحيحة . ولشهاب الدين الخفاجى شرح عليه طبع
 فى إستانبول ، ومربنا فى غير هذا الموضع أن لتلميذه الجواليقي تكلة ألحقها بالكتاب وهى
 مطبوعة . ويؤلف الحريرى أيضاً ملحة الإعراب ، وهى منظومة فى النحو شرحها شرحاً
 جيداً ، وهى مطبوعة فى القاهرة مراراً . وكان لا يزال يختلف بين عمله فى البصرة وضياحه
 فى المشان وبين بغداد دار الخلافة وملتقى العلماء والأدباء . وبما يدل على أنه كان يختلف إلى
 بغداد منذ أواخر القرن الخامس ما أنشده له العباد الأصيبانى فى مديح سعد الملك وزير
 السلطان محمد شاه السلجوق الذى ضل به وقتله سنة ٥٠٠ للهجرة . ويقول السبكي إنه
 حدث فى بغداد بجزء من حديثه وبمقاماته .

وكان الحريرى لا يبارى فى الأدب والبلاغة والفضاحة ، وتعدُّ مقاماته آية براعته التى
 ليس لها لاحقة مماثلة وكأنما أغلق الأبواب بكتبا يديه بعده ، فلم يستطع أحد أن يحاربه
 أو يبلغ مبلغه فى تلك المقامات ، ويشهد بذلك الرضخى قائلاً :

أقسم بالله وآبائه ومَشْرِعِ الحج ومِيقَاتِهِ
 إن الحريرى حرى بأن نكتب بالتبَّير مقاماتِهِ

ويقول الضعافى عنه : «لم يكن له فى فنه نظير فى عصره ، ولو قلت إن مفتاح
 الإحسان فى شعره كما أن عتَمَ الإبداع فى نثره ، وأن مسير الحسن تحت لواء كلامه ، كما أن

الحريرية ، وهو مطبوع فى مصر مراراً ، وهو شرح لنفسه المأثور من ٤٤ والفن وملحبه فى النثر العربى
 ونكتة رغوف النكبات بشرح للمقامات لا تزال
 مخطوطة . وراجع فيه وفى مقاماته كتابنا (المقامة) طبع دار

حُجِّم البحر عند أقلامه ، لما زَلَقْتُ من شاطئ الإنصاف ، إلى حضيض الاعتساف .
ويقول الهاد الأصماني : « طلمت ذُكَاءً ^(١) ذكائه في المغرب والمشرق ، وامتلأت بيفائع
فوائده ، ونواصع فرائده ، حقائبُ المشيم والمروق . . حريرى الوشى ، عراقى
الوشم ^(٢) ، لؤلؤى النظم ، كلامه بنية البحر ، ونجمة النحر ، ودرة الصدف ، ودورى
الصدف ^(٣) . . قد أعجز الفصحاء بصناعته ، وأبهر ^(٤) على البلغاء ببراعته . » ويقول الرواة
إنه كان نبيلاً دميم الخلقة والمهيئة ، تقتحمه العين ، وكان يعتاد تنف الحية ، والناس على
الرغم من ذلك يزدهمون عليه لسباع مقاماته وإجازتهم بروايتها . ويقال إنه أجاز لسبعائة
طالب أن يرووها عنه ، وفي ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته في عصره من
مرتلة أدبية رفيعة .

والمقامات أقاصيص قصيرة تصور مواقف متنوعة لأدب متسول يمثال ببيانه وفصاحته
لسانه على الناس ، فيلقون إليه بالدراهم والدنانير . وهى تزخر بمركبة تمثيلية ، غير أنها
لا تتسع لتصوير حياة مجتمعها ، فقد كانت غاية الحريرى منها غاية بيانية بلاغية فحسب ،
واستطاع أن يحقق هذه الغاية إلى أبعد مدى . ويزعم الرواة أن سبب صَوْغِهِ لها ما حكاها
عن نفسه من أنه كان جالساً في مسجد بنى حرام في البصرة فدخل شيخ رث الهيئة ، كان
شجاذاً أديباً فسلم ثم سأل ، فأعجبت الحاضرين فصاحته وحسن بيانه ، فسأله عن كنيته
فقال أبو زيد ، وسأله عن موطنه ، فقال من سروج ، وهى بلدة قرب حران شمال
العراق ، فعمل الحريرى المقامة المعروفة باسم الحرامية ، وهى المقامة الثامنة والأربعون ،
ونسبها إلى أبى زيد السروجى المذكور ، واشتهرت فبلغ خبرها - فيما يقال - أنوشروان
ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢-٥٢٩ هـ) . فأشار عليه أن يضم إليها غيرها ،
فأتمها خمسين مقامة . . ويقال بل إنه حين عاد إلى البصرة صنع أربعين مقامة ، ورجع إلى
بغداد ، فأعجب بها الأدباء ، وطلبوا إليه أن يؤلف على غرارها مقامة امتحاناً له ، فظل
أربعين يوماً لا يَبْتَعُ عليه بشىء ، فعاد إلى البصرة ، وألف عشر مقامات ، وأصعد بها إلى
بغداد فحرف الأدباء فضله . وقال بعض حساده إنها من صناعة شخص كان استضافه ،
فأتى عنده . وقال حساد آخرون إن البدو أخذوا جراً لمخرى من بعض القوافل كانت به
هذه المقامات ، وتصادف أن اشتراه منهم الحريرى فنسبها إلى نفسه !

وكل ما قلنا قصص غير صحيحة ، وفي مقدمتها قصة تشجيع أنوشروان بن خالد له

(٣) السدف : النظم .

(٤) أبهر : غلب .

(١) ذكاء : شمس .

(٢) الوشم : الغش .

وبعث على تأليفها ، فإنه تولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريري ، وكذبها ابن خلكان بطريق آخر إذ قال إنه رأى نسخة من المقامات بخط الحريري نفسه كتب بخطه على ظهرها إنه صنفها للوزير جلال الدين بن صدقة وزير المسترشد وقد وزر له في أول خلافته سنة ٥١٢ . وكأنه هو الذي أشار إليه في مقدمة المقدمات بقوله : « فأشار من إشارته حكم وطاعته غم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع » يريد البديع الممذاني ومقاماته . وتوقف الشريشي في شرحه إزاء هذه العبارة ، وكأنه أراد أن يلدخس كل ما قيل من أن المقامات ألفت في عهد المسترشد بإشارة أحد وزيري : ابن صدقة أو ابن خالد ، فقال إنها إنما ألفت بإشارة الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وبدأ الحريري تأليفها سنة ٤٩٥ واستمرت منه نحو عشر سنوات حتى سنة ٥٠٤ .

واسمعت الأسطورة بأبي زيد ، أدب المقامات الشحاذ ، قليل إنه نحوي يسمى المطهر ابن سَلار ، ونرى كتب تراجم النحاة ترجم له ذاكراً أنه صاحب الحريري الذي أنشأ المقامات على لسانه ، وتقول إنه روى عنه أرجوزته « ملحة الإحراق » وربما كان المطهر شخصية حقيقية ، ودخل الوهم منه على النحاة ، فظنوا أنه أبو زيد السروجي . ومن المؤكد أن أبا زيد في المقامات شخصية خيالية اخترعها خيال الحريري ليحوك من حولها حيلاً أدبياً متسول . وقد سمي راويته الحارث بن همام يعني به نفسه أخذاً من الحديث النبوي : « تلوكم حارث وكلكم همام » أي كاسب كثير الاهتمام . ومن المؤكد أيضاً أنها بناء متكامل ، لم يُعَدَّجِزْ ولا قطعة تلو قطعة ، ويتضح ذلك من طريقة الحريري في عرضه المقامة الأولى ، إذ جعلها تعريف أبي زيد براويته ، بينا جعل الأخيرة ، وهي ذات الرقم الحامسين ، لتوبة أبي زيد من حرقة الشحاذة وحيلها الكاذبة ونلمه على ما تقدم من ذنوبه ، وبغيب عن راويته ، ولا يزال يبحث عنه حتى يجده في بلدته سروج وقد تحول ناسكاً متصوفاً مستغرقاً في عبادة ربه . وسمى المقامات فيها عداً ثلاثاً منها باسم البلدان التي تنقل فيها أبو زيد من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه . ونرى الحريري يذكر في مقدمتها مقصده منها إذ يقول : « أنشأت خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ، ورفيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وضحنا به من الآيات ، وعاسن الكتابات ورصمته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية . والأحاجي النحوية ، والقتاوى اللغوية ، والرسائل المبكرة ، والخطب المهيبة ، والمواظع المبكية ، والأصاحب الملهية » . ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القصص لذاته ، وإنما قصد فيها إلى أفنان من الترفيض عما التزمه من السجع . وكان ذوق التصنع عم في الكتابة ، فلم يقف الكتاب عند السجع

والمحسنات البديعية ، بل أخذوا يضيفون إلى ذلك عُدَّةً غريبة بصعُبُون بها المرور إلى السجع ، حتى يشتتوا براعتهم الأدبية ، وما نكاد نلمُّ بالمقامة السادسة ، حتى نراه يجلجلب ألباب الناس برسالة تتوالى كلماتها : كلمة حروفها منقوطة وكلمة حروفها غير منقوطة ، حتى إذا كانت المقامة المغربية السادسة عشرة عرض عقدة أو لُعبة غاية في العسر تسمى مالا يستحيل بالانعكاس كقوله . «لَمْ أَخَافْ» فإن العبارة تُقرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، ومضى يعرض طائفة كبيرة من مثل هذه العبارة نثراً وشعراً ، مما ملأ الحاضرين به إعجاباً شديداً . وفي المقامة القهقرية التالية جاء بطائفة كبيرة من الحكم تُقرأ الألفاظ فيها لا الحروف طرداً وعكساً مثل «مع اللجاجة تُلغى الحاجة» فإنها يمكن أن تُقرأ «الحاجة تلغى مع اللجاجة» . ويسمى المقامة السادسة والعشرين باسم الرُقطاء لأنها تتألف من كلمات تتوالى حروفها بالتبادل بين النقط وعدمه مثل «نائل يديه فاض ، وشُعْ قلبه غاض» . وفي المقامة الثامنة والعشرين نرى أبا زيد يخاطب خطبة كل كلماتها غير منقوطة ، ويعود إلى نفس اللعبة في المقامة التالية . وكل هذه عقد غريبة كان يمكن أن تخفى المقامات خفياً لولا ما امتاز به نسج الحريري من عذوبة ورشاقة . وكانت لُعبة الألفاظ شاعت في العصر ، فأفرد لها مقاماته : السادسة والثلاثين والثانية والأربعين والرابعة والأربعين . وخصَّ النحو بالمقامة الرابعة والعشرين ، إذ عرض فيها اثنتي عشرة مسألة نحوية ، وأفرد للفقهاء مقامتين : الخامسة عشرة والثانية والثلاثين . وقلما يُعنى يعرض شئون عصره السياسية والاجتماعية إلا أشياء طفيفة هنا وهناك ، فقد كان مشغولاً بعرض الأمثال والكنائيات والألفاظ اللغوية الغريبة ، على أن تكون مقبولة لا تَصُكُّ الأسماع ولا تستقلها الأفواه . وهو يكثر في مقاماته من الآيات القرآنية ومن أشعاره الجيدة ومن المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وطبيعي أن تتعدد فيها المواقف ويتنوع معها وصفه ، فتارة يصف روضة أوفلاة أو بحراً أو سوقاً ، وتارة ثانية هو زاهد متعب يكثر من وعظه بمثل قوله :

«ابن آدم ما أغراك بما يُفرك ، وأضرباك (أجراك) بما يضرُّك ، وأهلكك بما يُطغيك ، وأبهلك بمن يُطريك . . لا بالكفاف تقتنع ، ولا من الحرام تمتنع ، ولا للعلطات تستمع ، ولا بالوعد ترتدع . . يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . . أنظن أن سَتَرَكَ سُدَى ، وأن لا تحاسب غداً . . كلا والله لن يدفع الموتون ، مالٌ ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبور ، سوى العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووَعَى ، وحقق ما ادَّعى (ونهى النفس عن الهوى) . وعلم أن الفائز من ارعوى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى)» .

والمواعظ والأدعية الإلهية كثيرة في المقامات ، ودائماً تُعرض في مثل هذه الأسباج الخفيفة التي تطير عن الأفواه في عبودية ورشاقة . وبينما بلغنا أبو زيد في بعض النوادي واعظاً إذا هو يتحول من حين إلى حين ماجئاً مع ندائى يَحْتَسِى العُفَّار ويَجْلَع الوقار . ولكن من الحق أن ذلك قليل في المقامات ، وقد أراد به الحريرى إلى الفكاهة والدعابة ، وهما واضحتان عنده في مقامات عدَّة ، وخاصة حين يظهر أبو زيد مع ابنه أو مع زوجته مختصمين إلى أحد القضاة أو الحكَّام على نحو ما نرى في المقامة الإسكندرانية ، إذ تنكَّر في زى شيخ هرم خبيث تجرُّه بعنف امرأة معها طفل نحيل ضئيل ، وتقدما إلى القاضى وكانا قد عرفا أنه أحضر مال الصدقات ليزوجه على الفقراء وذوى الحاجات ، ولم تلبث المرأة أن بادرت إليه قائلة :

«أيَّد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، إني امرأة من أكرم جرثومة ، وأطهر أرومة ، ميسى الصَّوْن . . . وخلقى نعم العَوْن ، وبينى و بين جارائى بَوْن ، وكان أبى إذا خطبى بناء الجِد ، وأرياب الجِدِّ ، سكَّتهم وبكَّتهم ، وعاف وُصَلَّتْهم وصِلَّتْهم ، واحتجَّ بأنه عاهد الله تعالى بحِلْفَة . أن لا يباهر غير ذى حِرْقة ، فقَبَّضَ القدر لتَصْبَى ووَصْبى ، أن حضر هذا الخُدعة نادى أبى ، فأقسم بين رَهْطه ، أنه وفَّق شرطه ، وأدعى أنه طالما نظم دُرَّة إلى دُرَّة ، فباعها بِبَدْرَة (مال كثير) فاغترَّ أبى بيزخرفة بحاله (كبيده) وزوجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجنى من كيناسى (بيتى) ورَحَّلنى عن أناسى ، ونقلنى إلى كِسْرَه (بيته) وحصلنى تحت أسره ، وجدته قَعْدَة جَكَمَة (لا يفارق البيت) وألفيته ضَجِعةً (عاجزاً) نومة . . . ومزَّق مالى بأمره ، وأنفق مالى فى عسره . . . ولى منه سُلالة ، كأنه خلالة ، وكلانا ما ينال منه شَبعةً ، ولا ترقأ له من الطَّوى (الجوع) ذَمعةً ، وقد قُدَّته إِبْلك ، وأحضرته لديك ، لتَجْجُم (لتختبر) عودَ دعواه ، ونَحْكَم بيننا بما أراك الله .

ونمضى المقامة على هذا النمط الفكاهى ، ويردَّ الشيخ بقصيدة طويلة يدعى فيها أنه لا يُشَقُّ غُبَّاره فى العلم والشعر ، وأنه طالما اكتسب الأموال بدرر كلامه ، غير أن سوق الأدب كسدت ، لانقراض جيل الكرام ، مما اضطره إلى بيع كل ما يملك هو وزوجته ، حتى لقد باع - كارهاً والدموع تترقق فى عينيه - جَهَّازها وكل ما دخلت به من أثاث ورباش أو ثياب فاخرة . وتنتهى المقامة بمعطف القاضى على الشيخ وزوجته وفرضه لهما فى الصدقات حِصةً .

والمقامات يشيع فيها الجناس والمحسنات البديعية ، كما تشيع فيها العلوبة ، ويجيل إلى قارئ الحريرى فى مقاماته كأنما جمع العربة كلها فى كيانة أو حقبة ثم نثر ألفاظها بين

يديه ، وأخذ يختار منها ويتخب أروع ما عرفت لغتنا من أساليب مسجوعة : وكأنما كان يزلها على قيثارة عَزَفَ ملحن مبدع ، مما جعل معاصريه ومن جاء بعدهم يتخذونها النموذج النثرى الذى لا يمارى فى غرس ذوق العربية فى نفوس الناشئة وكل ما يُطَوَّى فى هذا اللوق من إحساس بجمال الصياغة الأدبية الثرية . ومربنا فى الفصل الثانى من هذا القسم الخاص بالعراق أن لابن الحشاش البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحثاً لغوياً فيما زعمه من أغلاط الحريرى فى مقاماته وأن لابن برى اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ مبحثاً رداً عليه انتصر فيه للحريرى .

وكان للحريرى بجانب مقاماته مجموع رسائل ، لم تحتفظ به يد الزمن ، غير أن الهاد فى خريدته وياقوت فى معجمه احتفظا ببعض رسائله ، وأطال الهاد الأصباني فى قطف متخبات كثيرة من هذه الرسائل شغلت منه فى ترجمته له نحو أربعين صحيفة ، وقد سجل منها هو وياقوت رسالتين اشتهرتا فى عصر الحريرى وبعد عصره ، اختار كلمات الأولى منها من ذوات السمن ولذلك سميت السمنية ، واختار كلمات الثانية من ذوات الشين ، ولذلك سميت الشينية . والتكلف فيها واضح لالتزام كلمات بعضها ، وكأنه فيها يحجل فى قيود ثقيلة . غير أن ما وراءهما من رسائل يشهد له بسلاسة سجمه وحسن رصفه فى رسائله شأنه فى مقاماته ، كقوله فى وصف جواب أو رسالة من أحد أصدقائه :

«وصل الجواب . . وخلته كتاب الأمان ، من الزمان ، فلقته كما تلقى يد الإنسان ، صحف الإحسان ، وصيكاك العطايا الحسان . لا : بل كما تلقى أناملُ الرّاح (الكف) كاسات الرّاح (الحمر) من أيدي الصّباح (الفاتنات) فى نسات الصّباح ، ومازلت أتمتع بحلمٍ ودُرّ ، ووُشَى وحير (حرير) وملح وزهر . فله ما جمع فيه من أنوار ونوار (زهر) ونضير (جميل) ونُفّار (ذهب) ونحسين وإحسان ، ومعين (ماء عذب) وممان .»

وواضح مافى هذا السجع من خفة ورشاقة بما يتتويه من مهارة فى انتخاب ألفاظه وتقصير عباراته بحيث يمتنع الألسنة كلامه حين يجرى عليها متدفقاً فى عذوبة ، كما يمتنع الآذان حين تستمع إلى جرسه ونبراته ، حتى ليشعر قارؤه أن متاعاً موسيقياً خلافاً يصبّ فى حنايا سجمه ، متاعاً بلد الآذان والقلوب والأفتنة .

القسم الثالث
إِيرَان

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

دول متقابلة

أخذت تنشأ في إيران منذ القرن الثالث الهجري دول متقابلة ، كانت أولاها دولة الطاهريين بخراسان التي أنشأها طاهر بن الحسين قائد المأمون ، وخلفه عليها أبنائه حتى سنة ٢٥٩ للهجرة ، وكانوا تابعين للخلافة ببغداد ، فكانوا يرسلون لها بالجابيات والضرائب . وفي سنة ٢٤٧ أقام يعقوب بن الليث الصفار الدولة الصفارية في إقليم بلوستان شرقي إيران ، ومد حدودها حتى شملت كرمان جنوبي إيران ، وأفغانستان ، واستولى على خراسان التي كانت بيد الطاهريين . وخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٦ إذ قضى عليه السامانيون قضاء مبرماً . ويغلب الحسن بن زيد العلوي على طبرستان منذ سنة ٢٥٠ ويقع بها دولة علوية يخلفها عليها أخوه محمد لسنة ٢٧٠ حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ هاجمه السامانيون ولم يلبثوا أن أسروه على أبواب جرجان ، وبذلك أجهزوا على تلك الدولة العلوية ، كما أجهزوا من قبل على الدولة الصفارية . وكُتب للسامانيين أن تظل دولتهم قائمة حتى سنة ٣٨٩ وبذلك تشغل شطراً من العصر العباسي الثاني إذ بدأت في سنة ٢٦٦ وظلت فترة طويلة في عصر الدول والإمارات ، متقابلة مع الدولة البويهية التي سيطرت منذ فواتح هذا العصر على الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من إيران ، ومدّت ذراعها إلى بغداد فسيطرت عليها وعلى العراق ؛ وكانت تقابلها الدولة الزيارية التي سيطرت على طبرستان بعد زوال الدولة العلوية منها ، وقد مدّت سلطانها أحياناً على جرجان وبلاد الجبل . ولا يكاد القرن الرابع ينتهي حتى يبرز نجم الدولة القزنوية . وبذلك كانت تتقابل في أوائل عصر الدول والإمارات دول السامانيين والبويهيين والزياريين والقزنويين .

الدولة السامانية^(١)

يرجع نسب السامانيين - فيما يذكر البيروني وغيره - إلى بهرام جوبين الذي كان مَرزُبَانًا لِخَشْرُو أَبَرُويز (٥٩٠ - ٦٢٧ م) على ولاية أذربيجان الفارسية ، وقد أسلم جدهم سامان خوردها أي سيد قرية سامان الواقعة في إقليم بَلخ بخراسان زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) . ولم يلبث اسمه أن لمح بين أصحاب أبي مسلم الخراساني حين نهض بالدعوة للعباسيين في أواخر العصر الأموي ، وتوفى ، فحلّ ابنه أسد مكانه في خدمة العباسيين حتى توفى لعصر الرشيد . ويصطنع المأمون أبناءه ، ويأمر عبد الله بن طاهر أمير خراسان أن يوليهم على ما وراء النهر ، فيولي أحمد فرغانة ونوحا سمرقند ويحيى الشاش وأشروسنة ، كما يولي أخاهم إلياس قرّة في أفغانستان . ويقلب أحمد على أخويه نوح ويحيى ويصبح له أمر ما وراء النهر جميعه . ويتوفى سنة ٢٦٦ ويخلفه ابنه نصر على ما بيده ، وينزع إليه أهل بخارى ، فيُرسل إليهم أخاه إسماعيل ، ويصبح نائباً له عليها . وتفسد الأمور بين الآخرين ، وتكون الغلبة لإسماعيل ، فيجرد أخاه من كل سلطان . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي للدولة السامانية .

وتلتقى جيوش إسماعيل في سنة ٢٨٦ للهجرة مع جيوش عمرو بن الليث الصفار صاحب كُزْمَان والرى وبلوخستان ، وتلدور الدوائر على عمرو ، ويصير ما بيده من البلدان إلى إسماعيل ، ويُرسل إليه الخليفة المعتضد بخلمة السلطنة . ولا يكاد يدور عام حتى تشب الحرب بين إسماعيل ومحمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان ، ويؤسر محمد بعد أن أصابته ضربات قاتلة ، ويموت متأثراً بجراحه ، ويستولى إسماعيل على إمارته . وبذلك تسع الدولة السامانية سعة كبيرة ، مما جعل السامانيين يقيمون على ولاياتها نواباً حديدین ، وبينما كانوا يقيمون في بخارى حاضرتهم كان قائد جيشهم يقيم في نيسابور حاضرة الدولة الطاهرية القديمة . وتكفل انتصارات إسماعيل بانتصار حاسم له على الترك سنة ٢٩١ للهجرة فقد زحفوا في جيش جرار ، فنادى إسماعيل في خراسان وبقية إمارته

(١) العربية - طبع القاهرة ص ٥٢ وتاريخ الأدب العباسي
لنيكلسن ترجمة صفاء خطومي (طبع بغداد) ص ٣٥
والحصار الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم ميتر
(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٤ وتاريخ
الشعوب الإسلامية ليريكمان (نشر دار العلم للملايين
بيروت) ص ٢٦٢ .

(١) انظر في الدولة السامانية الآثار الباقية للبيروني
وتجارب الأمم لابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون في
مواضع مفرقة وتاريخ ابن خلدون (طبع دار الكتاب
الكتابي) ٧١٢/٤ وكتاب تاريخ الأدب في إيران من
الفرديوسي إلى السدي ليراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين
الشولوى وإيران ماغيا وحاضرها للدكتور سليم (الترجمة

بالنقم ، وجاءت الجنود من كل فجٍ ، وهجم بهم على الترك في السَّحَر ، قتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرّ الباقر لا يَلُوتون . وإسماعيل أعظم أمراء هذه الدولة ، فهو الذي نظم علاقتها بالخلافة العباسية في بغداد ، فلم يكن يؤدّي لها ضرائب مالية ، بل كان يكسّر بإرسال بعض الهدايا ، ويقال إن هديته لسنة ٢٩٢ اشتملت على ثلثائة بعير كانت تحمل صناديق المسك والعنبر والثياب وتحفاً كثيرة . وقد منحه الخليفة حقّ ذكر اسمه معه في خطبة الجمعة وحقّ نقش اسمه على الدنانير . وظل ذلك تقليداً للأمراء السامانيين ، وهو رمز واضح لاستقلالهم السياسي عن الخلافة ، ومع ذلك كانوا يفتقرون دائماً إلى عهود تولية من الخلفاء العباسيين حتى يكون حكمهم شرعياً ، وكانوا تبعاً لذلك سنين مما جعلهم دائماً خصوماً للشيعة .

وخلف إسماعيل ابنه أحمد (٢٩٥-٣٠١ هـ) . وكان شجاعاً ، فاستولى على سيستان ، غير أن غلمانه لم يلبثوا أن تخلّوه ، فولى بعده ابنه نصر (٣٠١-٣٣٢ هـ) . ومنه اقتلع مرداويج الزيارى طبرستان سنة ٣١٦ وأنهم باعنتاه للذهب الإسماعيلي الشيعي ، فاضطره حرسه إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح (٣٣٢-٣٤٣ هـ) . وهو أول سلاطين الدولة في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت فيه شدة وعنف ، فلما خرج عليه أخواه وعنه إبراهيم سَمَلَ عيونهم جميعاً . وخلفه ابنه عبد الملك (٣٤٣-٣٥٠ هـ) . وكان ضعيفاً . وولى بعده أخوه منصور (٣٥٠-٣٦٦ هـ) . وأرسل إليه الخليفة المطيع قدّ بالخلع والتقليد . وأخذ البويهيون منذ ظهورهم يقطعون من السامانيين كثيراً من أطراف دولتهم في إيران ، فاستولوا على كرمان . غير أن خراسان ظلت في أيدي السامانيين هي وما وراء النهر ، وظل سلطانهم قوياً فيها حتى عهد منصور . وكانوا يمتازون بنشر العدل والأمن في ربوع بلادهم . وعكس ذلك ابن حوقل قائلاً : « ليس بأرض المشرق ملك أمتع جانباً ، ولا أوفر عِدَّةً ، ولا أكمل عُدَّةً ، ولا أنظم أسباباً ، ولا أكثر أعطية ، ولا أدر طعاماً ، ولا أذوم حسن نيات من السامانيين ، مع قلة جباياتهم ونزور أخرجتهم ، وقلة الأموال في خزائهم ، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبي صالح منصور بن نوح في وقتنا هذا ، لكل خراج يُقْبَضُ وضمان يُحْمَلُ في كل ستة أشهر ، عشرون ألف ألف درهم . وعليه أربعة أطعمة في كل ستة دارة ، غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل طعم منها في رأس تسعين يوماً ، يُخرج منه إلى غلمانه وقواده ولسائر المتصرفين خمسة آلاف ألف درهم ، وتسعون أطعمتهم نصف جباياته المذكورة ، وهي عشرون ألف ألف درهم ، عن نفس طيبة ومسرّة ظاهرة ، وضبطة بقيام المدلة فيهم تامة . . ولهذا الحال أهلهم مشحونة

بالقضاة والجُباة والكفاة والولاة مترّلين على أرزاق تتساوى ، وأحوال في المراتب تتداني ، وذلك أن رزقي القاضي وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرة (المدن) ووالي الصلاة والمعونة وراتبهم واحد بقدر كل ناحية وحسب كل كورة ، وليس ينقص بعضهم عن بعض . وهى شهادة قيمة من شاهد عيان غير متحيز ، إذ كان ابن حوقل شيعيا إسماعيليا ، وكان السامانيون سنين ، خصوصا لشيعته ، ومع ذلك يشهد لهم شهادة صدق بالعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، كما يشهد لهم بحسن الإدارة وتنظيم الدولة وتسويتهم بين موظفيها في الأرزاق والرواتب ، مما جمعهم لهم على الإخلاص والتفانى في خدمتهم .

وخلف منصور ابنه نوح الثانى (٣٦٦-٣٨٧ هـ). وكان صغيرا لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة ، وكأما كان ذلك نذيرا بضمضع شئون الدولة ، فقد أخذ القرخانيون حكام الترك بين قرغانة وحدود الصين ينازلون السامانيين فيما وراء النهر ، وكانوا قد أبلوا في حريم قبل ذاك طويلا ، وبنوا على حدودهم معهم رُبطا كثيرة ، حتى إذا ولى نوح وهو غلام استفحل خطر الترك وأخذوا يكثرزون من الإغارة على السامانيين ، وكان عبد الملك أبوه قد ولى ألبتكين قائد جيوشه أمر غزاة ، فاستعان بمملوكه سبكيكين ، ولم يلبث أن خلفه على ولايته وأدارها إدارة حسنة ، فولّى نوح الثانى ابنه محمودا الغزنوى خراسان ، وتوفى نوح ، واضطربت الأمور بعد وفاته ، بين ابنه منصور وعبد الملك ، وعلت كفة الأخير ، غير أن يملك خان حاكم الترك القرخانيين أغار على بخارى وأخذ عبد الملك أسيرا ، فخلا الجوار لمحمود الغزنوى ، وضم خراسان إلى ممتلكاته سنة ٣٨٩ وبذلك انتهت الدولة السامانية .

الدولة البويهية^(١)

لما خرج فرسان الديلم وبعض قوادهم لامتلاك البلاد لم يخرجوا إلى جنوبى بحر قزوين موطنهم فقط ، بل تغفلوا في إيران ، وكان في مقدمة من خرجوا على بن بويه وأخواه الحسن وأحمد ، وعملوا أولا - كما مر بنا في قسم العراق - مع القائد الديلمى ماكان بن كاكى ، حتى إذا هزمه مرداويج أترابى حاكم طبرستان وجرجان تركوه إلى خصمه قاتلين له - كما روى ابن مسكويه - «الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخف عنك مشورتنا ، ويقع كلنا (عشنا) على غيرك ، فإذا تمكنت هاونناك» . ووقع على بن بويه من مرداويج موقعا حسنا

(١) انظر في الدولة البويهية المصادر المذكورة في الفصل

الأول من قسم العراق

فولاه على الكرج إلى الجنوب الشرقي من همدان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث أن استولى في السنة التالية على أَرْجَان وفي تاليها على فارس . وقُتل مرداويج في سنة ٣٢٣ فانتزع على وأخوه الحسن الفرصة واستوليا على أصفهان والرّي اللتين كانتا بيده . وكان أخوهما - كما مرّ بنا في قسم العراق - قد استولى على كَرْمَان جنوبي إيران في سنة ٣٢٢ ومنها استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ وتآمر معه عامل واسط على اقتحامه بغداد ، وكانت تعاني من فوضى شديدة ، فدخل أحمد - كما مرّ بنا في قسم العراق - بغداد دون مقاومة سنة ٣٣٤ وخلع عليه الخليفة المستكن ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه عليا صاحب فارس عماد الدولة ولقب أخاهما الحسن صاحب بلدان الجبل والرّي ركن الدولة .

وبذلك أصبح الشطر الأكبر من إيران والعراق في قبضة البويهيين ، وأخذوا يزعمون أنهم من سلالة الملوك الساسانيين ، ويذكر البيروني أنهم انتسبوا إلى الملك الساساني بهرام جور ، بينما ينسبهم ابن الجوزي في كتابه المنتظم إلى سابور بن أردشير . ويروى أن بُوَيّه أباهم كان صَيَّادا باتسا على بحر قزوين لا يكاد يجد ما يتلّغ به . ويقلب أن يكون هذا النسب الشريف صنعه لهم بعض المتلفين من المؤرخين إرضاء لهم . وبلغ الإخوة الثلاثة من السلطان مبلغا عظيما ، حتى كانت السكّة تُضْرَبُ بأسمائهم ، وحتى كانت أسماءهم تُذَكَّرُ مع الخليفة في خطبة الجمعة .

وكانوا شيعة ويذهب ابن حَسّول إلى أنهم كانوا يعتنقون المذهب الزيدي^(١) ، ولعله تأثر في هذا الحكم بأن أصلهم من الديلم وكان المذهب الزيدي قد شاع هناك منذ خروج الحسن بن زيد في أواسط القرن الثالث بتلك الديار ، ونمى المذهب بعده هناك أخوه محمد ، ثم الحسن الأطروش . والحق أن البويهيين كانوا إمامية اثني عشرية على نحو ما سنوضح ذلك في حديثنا عن الشيعة ويقال إن معز الدولة فكر في نقل الخلافة إلى العلويين ، فخوّفه بعض أصحابه مغبة ذلك قائلا له : « متى أجلس بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافتك ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه » فانصرف عما كان عزم عليه . وظل الخلفاء العباسيون في يده وأيدى البويهيين بعده كأنهم أسرى .

وكانت رئاسة البيت البويهي للأخ الأكبر عماد الدولة ، فلما توفي سنة ٣٣٨ للهجرة ولم يترك عقباً انتقلت الرئاسة إلى أخيه ركن الدولة ، كما انتقلت إليه ولاية عماد الدولة على فارس ، وجعلها ركن الدولة لابنه عضد الدولة ، حتى إذا حانت وفاته سنة ٣٦٥ قسم

(١) تفصيل الأمراء على سائر الأجناد لابن حنّو (طبعة إستانبول) ص ٣٢ .

ملكه بين أولاده ، فجعل - كما مر بنا في قسم العراق - لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأذربجان ولأخيه مؤيد الدولة الرى وأصفهان ولأخيهما فخر الدولة همدان والديور . وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، وصدا لأمره ، فكانا لا يجلسان في حضرته ويقبلان الأرض بين يديه على عادة الديالة ، ويخدمانه بالريحان . ولم تلبث الأمور أن فسدت بين عضد الدولة وبين ابن عمه بختيار بن معز الدولة صاحب بغداد والعراق ، ونشبت بينها الحرب وسقط في ميادينها بختيار ، فاستولى عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ . ووضع في سنة ٣٧١ أخوه فخر الدولة يده في يد قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ضده ، فوجه إليهما أخاه مؤيد الدولة فاستولى على بلادهما .

ومر بنا في قسم العراق أن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أعظم الحكام البويين ، فقد اتسعت دولته حتى شملت كرمان وإقليم فارس والأهواز وبغداد والعراق وطبرستان ، وأنه أول من خطب بالملك شاهنشاه (ملك الملوك) في الإسلام . وبلغ من شعوره بأجماده واعتداده بنفسه أن فكر يوما في أن يتقلد خلافة المسلمين ، فقد ذكر ابن حزم في كتابه «نقط العروس في تواريخ الخلفاء» أنه أمر لذلك الحسن بن علي البصري المعروف باسم الجعفل أن يؤلف كتابا في تقليد الخلافة في غير قريش أملا منه في أن يتسنى بها ، وألف الجعفل الكتاب ، وانتشر الخبر إلى خراسان ، فصاح الناس في مجالس الفقهاء : وإسلاماه ! وإعمدهاه ! . وبلغ ذلك عضد الدولة ، فخشى الثورة عليه ، وسَمَّ الجعفل ، وقنع الناس بموته وسكن الأمر ^(١) . وكانت فيه قسوة شديدة جعلت قائده المطهر بن عبد الله يقتل نفسه حين هزمه بعض الثوار خوفا ورعبا ، وبلغ من قسوته أنه عشى على ملكه من تلبه بفتاة ، فأمر بتفريقها في غير شفقة ولا رحمة . وكان يفسط أمور دولته ضبطا دقيقا ، فظهر الطرق من اللصوص - كما مر بنا في قسم العراق - ورفع الجباية عن قوافل الحجاج ، واحترمهم الآبار في الطريق إلى الحرمين ، وبني كثيرا من المساجد الجامعة في مملكته وعنى بالعمران وزرع البساتين عناية واسعة .

ويتوفى ويخلفه - كما مر بنا في قسم العراق - ابنه صمصام الدولة ، وتوالى الأحداث ، فيتوفى سنة ٣٧٣ مؤيد الدولة دون عقب ، فيستدعي وزيره الصاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور ، ويسلمه أمور الجبل وطبرستان وكل مقاليد دولة مؤيد الدولة وبلاده . ويخرج في سنة ٣٧٦ على صمصام الدولة أخوه شرف الدولة ، ويصبح له الأمر

من دونه حتى يتوفى سنة ٣٧٩ فيخلفه أخوه أبو نصر الملقب بهاء الدولة وضياء الملة (٣٧٩-٤٠٣ هـ). وكان البرهمنون يستكثرون من الألقاب ، ولم يكتفوا بتلقب أنفسهم ، فقد أكثروا من تلقب وزرائهم بمثل كافى الكفاة وأوحد الكفاة إلى غير ذلك . ومعروف أن السامانيين لم يكونوا يعنون بتلقب أنفسهم ، ولكنهم تفتنوا فى تلقب قواد جبوشهم . وبلغ من شيوخ ذلك بين حكام إيران أن نجد بفرخان التركى حين يثور على الدولة فى سنة ٣٨٢ يلقب نفسه شهاب الدولة .

وكان بهاء الدولة - كما مر بنا فى قسم العراق - ظالماً سفاكاً للدماء ، وهو أقيح ملوك بنى بويه سيرة ، وولى بعده ابنه سلطان الدولة (٤٠٣-٤١٥ هـ) . وانتزع الملك منه أخوه مشرف الدولة صاحب كرمأن إلى أن توفى سنة ٤١٦ فخلفه أخوه جلال الدولة (٤١٦-٤٣٥ هـ) . ولا يلبث محمود الغزنوى أن يستولى من يد مجد الدولة بن فخر الدولة على الرى وأصفهان وبلاد الجبل . وتعمم الفوضى فى عهد جلال الدولة ، ويخلفه أبوكاليجار محمى الدولة (٤٣٥-٤٤٠ هـ) . ويعظم فى عصره شأن السلاجقة ، ويستولون على كثير من إيران ، ويتوفى أبوكاليجار غمّاً ، ويخلفه الملك الرّحيم ، ويدخل طغرل بك بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة ، كما مرّ بنا فى قسم العراق ، وبذلك ينقضى سلطان البرهمنين فى العراق وإيران نهائياً .

الدولة الزّيارية^(١)

زعم البيهقى فى كتابه الآثار الباقية أن هذه الدولة تنسبُ إلى الملك الساسانى قباد الذى حكم من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٥٣١ للميلاد ، وسواء أكان هذا النسب صحيحاً أو غير صحيح ، فإنها ترجع إلى أصل إيراني ، وكان مؤسسها مژدأويج بن زيار الديلمى (٣١٦-٣٢٣ هـ) أحد قواد الجبل الذين ظهوروا فى شمالى إيران لذلك العهد ، وقد انتظم فى سلك القواد الذين عملوا تحت لواء أسفار بن شيرويه الديلمى المتغلب على قزوین وديارها ، ولم يلبث أن وثب على أسفار وقتله ، وملك البلاد ، مؤسساً لأسرته إمارة فى طبرستان وجرجان جنوبى بحر قزوین أو كما يسمى بحر الخزر ، ومدّ أطراف إمارته

(١) الأندلس بيروت ٨٢/٤ وما بعدها ، وإيران مايبها وحاضرها ص ٥٢ وأدم ميتر ص ٢٦ وراون فى مواضع متفرقة من كتابه : تاريخ الأدب فى إيران من القردوسى إلى السطرى ترجمة القردوسى .

(١) راجع فى الدولة الزّيارية الآثار الباقية للبيهقى وتكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع بيروت) وتاريخ ابن سكويه وابن الأثير وابن خلدون وابن تبرى بردى فى مواضع متفرقة ومروج الذهب للمسعودى (طبعة دار

جنوبيا وغربا ، حتى الرىَ وأصفهان وهمدان وأرمينية وأذربيجان وخوزستان ، وانخذ أصفهان حاضرة لإمارته ، وكان فيه عتو شديد ، وكان شعوبيا شديد الكراهية للمروبة ، فرغم - فيما زعم - أنه سبستمد مجد دولة المعجم ويبطل دولة العرب فلا تقوم لها قائمة ، ووعد شيمته بالمسير إلى بغداد والقبض على الخليفة وتوليتهم ديار الإسلام ومدنه . وسأل عن تيجان الفرس فثقلت له هيئتها ، فاختار هيئة تاج كسرى أنوشروان ، وأمر بأن يصنع له على مثاله تاج من الذهب محلى بالجواهر ، وصنع له عرش من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة . وكان يطن الجوسية ، ولعله من أجل ذلك كان يحتفل بأعيادها احتفالات عظيمة ، واشتهر احتفال له بعيد ليلة الوقود المسمى بعيد السلق ، وفيها كانوا يوقدون نارا كثيرة . وقد أمر في تلك الليلة بأن تُجمع الأحطاب من أنحاء إمارته إلى حاضرتة أصفهان ، وتصبها على التلال والجبال حولها وأشعلها وأشعل معها شموعا عظيمة اتخذت لها تماثيل وأساطين ضخمة . وتمادى في بغيه وعتوه تماديا شديدا ، حتى أوغر صدور بعض غلمانه ، ففتكوا به في الحمام سنة ٣٧٣ للهجرة ، ونهبوا خزائنه وأمواله . ويقال إن الدبلم حزنوا عليه حزنا شديدا ، جعلهم يمشون حفاة أربعة فراسخ وراء تابوته .

ومررنا في حديثنا عن الدولة البويهية أن قائده على بن بويه استولى عقب وفاته على أصفهان والرى وأن بلدانا كثيرة أخذت تسقط في يده ويد أخويه إلا ما كان من طبرستان وجرجان ، فإنها ظلتا في يد خلفاء مرداويج الزياريين ، وقد خلفه أخوه وشكمير (٣٧٣-٣٥٦ هـ) . ويقال إنه ركب فرسا وشب وهو غافل عنه ، فسقط ميتا . وخلفه ابنه قابوس (٣٥٦-٤٠٣ هـ) . وكان كاتبا وشاعرا ، ومازال البويهيون يغيرون عليه حتى فر من إمارته عام ٣٧١ إلى السامانيين ، وعاش عندهم مكثرا حتى عام ٣٨٨ وفيه استرد ملكه . ويقال إنه عتا وبغى ، واشتد بغيه وعتوه ، فأجتمعت حاشيته على خلعها ، واضطرت ابنه منوچهر (٤٠٣-٤٢٦ هـ) أن يترل على إرادتها ، وحُبس قابوس في إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد . وظل منوچهر يرسل بالأموال إلى محمود الغزنوى استرضاء له ، وطلبه سنة ٤٢٠ فأوغل في البلاد متحصنا منه بجبال وهرة ، وتركه محمود ولم يلبث أن توفي فخلفه ابنه أنوشروان (٤٢٦-٤٣٠ هـ) . ومن يده استولى مسعود بن محمود الغزنوى على الإمارة ، كأن لم تكن شيئا مذكورا .

الدولة الغزنوية^(١)

كانت الدولة السامانية تستعين في جيوشها بكثير من الترك وبذلك هيأت لهم - كما هيا المباسون من قبل - أن يصبح كثير من الوظائف المدنية بأيديهم ، وأن يصلوا إلى رتب القيادة في الجيش ، وأن يقوِّضوها نهائيا بحيث تصبح أثرا بعد عين . وكان من آثار ذلك قيام الدولة الغزنوية ، فإن عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠ هـ) كان قد عين مملوكه التركي : ألبتكين قائدا عاما ، حتى إذا توفى عبد الملك مضى إلى غزنة بأفغانستان ، وأعلن نفسه أميرا عليها ، وعاجلته المنية ، فخلفه ابنه إسحق ، غير أنه لم يلبث أن توفى فقام عليا مملوك أبيه سُبُكْتِكِين (٣٦٦-٣٨٧ هـ) . وهو المؤسس الأول للدولة الغزنوية ، وقد بدأ أعماله بالاستيلاء على مدينة بُسْت في أفغانستان بمنطقة سيجستان القديمة ، وغنم فيها غنم منها الكاتب الفذ أبا الفتح البستي ، وكان يكتب لأمرها المغلوب ، فأصبح كاتباً للدولة الجديدة . وأخذ سُبُكْتِكِين يفتزو الهند . وسقط كثير من قلاعها في يده . وجرّد حملهين كبيرين لحرب ملك البنجاب المسمى جَيَّال ، وأرغمه على الطاعة والصلح على أموال طائلة ، وأن يتخلّى له عن إقليم كَابُل في شرق أفغانستان ، وكان يُشرف على الطرق المؤدية إلى السهل الهندي الخصيب . واستغاث به نوح بن منصور في سنة ٣٨٤ ضد التاتارين عليه ، فنكّل بهم ، مما جعله يلقبُه بناصر الدولة ، ويولى ابنه محمودا على خراسان ويلقبه بسيف الدولة .

وتوفى سُبُكْتِكِين ، فخلفه ابنه إسماعيل بعهد منه ، وكان ضعيفا ، فطلب إليه أخوه محمود أن يتنازل له عن الحكم لتلك الدولة المترامية الأطراف ، وكان محمود لا يزال واليا للسامانيين على خراسان ، وأبى إسماعيل ذلك إباء شديدا ، فسار محمود على رأس جيش إلى غزنة وهزم أخاه واضطره إلى إعلان تنازله . ومحمود الغزنوي (٣٨٧-٤٢١ هـ) أكبر أمراء هذه الدولة وأبعدهم صيتا لمدّة أطنابها شرقا وغربا وشمالا ، ولنهضت بالعلوم والآداب في عصره نهضة واسعة . وكان مثل أبيه وأسرته والأثراك جميعا سنيّا ، ولعل ذلك ما جعله يضطهد الشيعة ، وخاصة الغلاة منهم ، واضطهد أيضا المعتزلة لأنه كان

الفردوسي إلى السعدي ليراثون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي في أماكن متعددة وإيران ماضيا وحاضرا ص ٥٤ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٦٦ .

(١) انظر في الدولة الغزنوية الآثار الباقية للبيروني وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن تقي بردي وكتاب تاريخ اليمن للحمي مع شرح للنجي (طبعة القاهرة) في مواضع مستغرقة وكذلك تاريخ الأدب في إيران من

على مذهب أهل السنة^(١). وكان الأمير منصور بن نوح الثاني الساماني قد انتهز فرصة مبارحته لخراسان لحرب أخيه ، فولّى عليها أحد أتباعه ، وتطورت الأمور ، كما مرّ بنا في حديثنا عن السامانيين ، بسقوطهم واستيلاء محمود على ديارهم ، واعترف محمود اعترافاً كاملاً بالسلطة الروحية للخليفة العباسي ، مما جعله يخلع عليه لقب : « يمين الدولة وأمين الملة ». ويذهب براون إلى أنه لقب نفسه بلقب « ظل الله في أرضه » وكان يلقب بلقب السلطان وهو أول من تلقب بهذا اللقب في الإسلام . واتسع سلطانه حتى شمل إمارة خوارزم الصغيرة والكُرج (جورجيا) وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية غير مبق للبيجيين سوى كرمان وفارس .

ويشتهر محمود بكثرة حروبه وفتوحه في الهند وتمكيته للدين الحنيف في ديارها . وهو يُعدّ فاتحها الحقيقي ، أما فتح محمد بن القاسم الثقفي لها في عهد الوليد بن عبد الملك فيُعدّ غزواً أكثرته فتحة حقيقية ، وبما فتحه في الهند المُلتان وكشمير والبنجاب . وكان يتنقّى بفتوحه هناك نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله لا طلب المغنم ، كما يزعم بعض المستشرقين . واستغل أموال هذه الفتوح الطائلة في عمارة غزنة ومدن سلطته وبناء المساجد الفخمة وفي إحداث نهضة كبيرة علمية وأدبية ، وفيه يقول الفردوسي مصوراً استنثاره بقلوب شعبة وعظمة شأنه وملكه : « عند ما يُفطم الصبي ويتوقف جريان لبن أمه على شفّيته يكون أول ما ينطق به ويمرّ على الشفتين لفظ محمود . إنه كالقيل يحسده ومثل جبريل يروحه ، أما كفه فزن هائل ، وأما قلبه فنهر النيل بغيراته . إنه السلطان والملك الكبير الشأن ، الذي جعل الشاة تنهل مع الذئب من حوض واحد في أمان » .

وعهد محمود من بعده لابنه محمد . وكان ابنه الأكبر مسعود غائباً بأصفهان ، فأحفظه هذا العهد بعد وفاة أبيه ، واشتبك مع أخيه في حروب كُتب له فيها النصر ، وأصبح هو صاحب الدولة (٤٢١ - ٤٣٢ هـ) . وفتح - كما مرّ بنا - جرجان وطبرستان ، وقضى على الدولة الزيارية . وكانت أمواج السلاجقة بدأت في مدّها ، ولم يستطع وقفها ، فقد هُزم أمامها في عام ٤٣١ مما جعل رجال الدولة يعزلونه ويولون أخاه محمداً مكانه ثانية ، وصراعاً ما قتلوه وولوا مسعوداً مكانه ، وقتلوه بدوره ، وولوا مكانه ابنه مودوداً . ولم تحض سوى ثلاث سنوات حتى هزمه في إثرها السلاجقة بخراسان هزيمة ساحقة فتركها لهم ولقائدهم « طغرل بك » . وأخذ نجم هذه الدولة في الأفول ، فانسحب سلاطينها من إيران مكشّفين بغزنة وبما وراءها من ديار الهند ، ومن أهمهم إبراهيم المتوفى سنة ٤٩٣ وكان حازماً

(١) في المتنظم ٤٠/٨ أنه أمر بخرق كتب المخرقة والفلاسفة والروافض .

عادلا بعيد الهمة ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٣-٥٠٨ هـ) وتولى بعده ثلاثة من أولاده متعاقبين هم شيرزاد المتوفى سنة ٥٠٩ وأرسلان المتوفى سنة ٥١٢ وبرامشاه (٥١٢-٥٤٧ هـ) واضطره السلطان السلجوق سنجر سنة ٥٣٠ إلى الدخول في طاعته ، ودفع إتاوة له صاغرا . وفي سنة ٥٤٢ رأى بهرامشاه بسوء تدبيره أن يقتل صهره الأمير الغوري قطب الدين محمد ، وكان ذلك نذير شؤم باندلاع الحروب بين الغوريين والدولة الغزنوية ، ومازالوا يعصفون بهم حتى اضطروهم في سنة ٥٥٧ إلى الانسحاب نهائيا إلى عاصمتهم في الهند دلاهوره وتعقبوهم هناك حتى قضا عليهم بتلك الديار سنة ٥٨٢ للهجرة .

٢

دول متعاقبة

انتهى حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة عصر الدول المتعاقبة في إيران التي كانت توزعها فيها بينها والتي كثيرا ما تحاربت وعاشت في خصام ، وقد أخذت تحمل عليها دول متعاقبة ، كانت كل منها تجمع شمل إيران وتنتشر على بلدانها لواء واحداً ، وكان لكل دولة من هذه الدول عصرها التاريخي ، وجدير بنا أن نلم بها في إيجاز .

دولة السلاجقة^(١)

السلاجقة طائفة من قبائل الترك المعروفين باسم الأوغوز ، ويسمى مؤرخو العرب الغز تخفيفا ، ونرى اسمهم يتردد بين هؤلاء المؤرخين منذ أواخر القرن الرابع الهجري ، وهم ينسبون إلى رئيسهم سلجوق وقد نزل بهم قريبا من بحر الخزر (بحر قزوين) في المضارب المتصلة بنهرى سيحون وجيحون متخذة مدينة «جند» حاضرة له . وأخذت بعض جموعه تنزل فيما وراء النهر وتمتد إلى القرب من بخارى في خراسان . وكانوا يعتقدون المذهب السني ، وكانوا يقدروا فاعتمدوا على الوزراء في حكمهم ، وأخذ شأنهم يعظم ، مما جعل محمودا الغزنوي يتنبه لهم ، خوفا من استيلائهم على بعض دياره في خراسان . وكان سلجوق قد توفى وخلفه ابنه إسرائيل ، فكاتبه محمود وزين له أن يقدم عليه ، وما كاد يلقاه حتى قبض عليه وزج به في غياهب السجون ، وظل سجيناً يأخذى قلاع الهند حتى

(١) انظر في السلاجقة المصادر المذكورة في الفصل

الأول من قسم العراق .

توفي سنة ٤٢٢. وكان محمود قد توفي قبله ، وصمم السلاجقة بقيادة طغرل بك على الانتقام ، فاشتبكوا مع مسعود الغزنوي في سلسلة حروب انتهت باستيلائهم على خراسان في سنة ٤٢٩ وحاول مسعود أن يسترجعها ، ولكنه هُزم هزائم متوالية في الستين التاليين ، وأعلن طغرل بك نفسه ملكا على البلاد ، كما مر في قسم العراق . ومضى يستولى على ما كان بيد الغزنويين من إيران الوسطى والجنوبية ، واستولى على طبرستان وجرجان وبلاد الجبل . واعترف الخليفة القائم بأمر الله بتلك الدولة السنية الناشئة وأمر بأن يذكر اسم طغرل بك في الخطبة وأن يُقَرَّب اسمه على النقود . وقضى طغرل بك على البويهيين نهائياً - كما مر بنا في قسم العراق - ودخل بغداد في سنة ٤٤٧ في موكب رسمي ، وأجلسه الخليفة معه على العرش - كما مر بنا - وخلع عليه الخلع السني وكان يقوم بالترجمة بينها وزير طغرل بك محمد بن منصور الكندري . واتخذ طغرل بك مدينة الري حاضرة له ، وولى على البلدان إخوته وأبناءهم ، ودانت له العراق كما دانت له إيران ، وكان وزيره الكندري هو الذي يصرف الأمور في دولته الواسعة وكان أدبيا شاعرا ، وكان يظهر التسنن غير أنه كان في حقيقته مُتَزَلِّياً .

وتوفي طغرل بك سنة ٤٥٥ وخلفه - كما مر بنا في قسم العراق - ابن أخيه « ألب أرسلان » وكان له أخ يسمى سليمان ، حاول الوزير الكندري أن ينصبه على العرش من دونه ، فلما استولى ألب أرسلان على صولجان السلطة قبض على الكندري ، وأرسل به إلى مرو ، واستبقاه بها سنة ثم أمر بقتله . وكان ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) بطلامغوار قضى على كل من ثاروا عليه ، سواء في هراة أو فيا وراء النهر أو في فارس وكرمان . وخَصَّد شوكة القاطمين مستولياً منهم على حلب ودمشق ومكة والمدينة . وأعد الروم له جيشاً كثيفاً قوامه مائتا ألف رجل يتقدمهم الإمبراطور البيزنطي « ديجينس رومانوس » فأسرع إليهم في خمسة عشر ألفاً من صفوة جنوده ، والتقى بهم بالقرب من مدينة خلاط في أرمينية ، وعصفت جنوده - كما مر بنا في قسم العراق - بهذا الجيش الضخم مُتَزَلِّية به هزيمة ساحقة ، استسلم على إثرها الإمبراطور خاساً ذليلاً ، ونزل على الشروط التي طلبها ألب أرسلان ومنها أداء مليون دينار فدية لنفسه وعَقَّد معاهدة لمدة خمسين عاماً يتعهد فيها الإمبراطور أن تكون جيوشه على استعداد دائم لمعونة ألب أرسلان وأن يجرم جميع أسرى المسلمين . وبينما كان يحارب الترك عند نهري جيحون وخراسان بهم هزائم متوالية واقاه القدر . وكان يدبر له هذه السلطنة المترامية الأطراف وزيره نظام الملك ، وكان من أعظم رجال الإدارة والسياسة ، وكان عنوا للرافضة والإسماعيلية سني العقيدة ، واشتهر - كما مر

بنا في قسم العراق - بتأسيه للمدرسة النظامية ببغداد التي أحدثت بها نهضة علمية واسعة ، وأنس على غرارها مدارس اشتهرت باسمها في أصفهان ومرو ونيسابور وبلخ وهرّاة وطبرستان ، وعمل على تشجيع الشعراء والأدباء وألّف كثيراً من الضرائب التي كانت ترمق الشعب ، وكان أشعرياً شافعيّاً ، فازدهر المذهبان الشافعي والأشعري لعهده .

وخلف ألب أرسلان - كما مرّ في قسم العراق - ابنه ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) وكان في الثامنة عشرة من عمره فأدار له دولته الوزير نظام الملك إدارة حسنة ، وكان ملكشاه يُعجّب بأصفهان وبقيم فيها أكثر أيامه ، وخرج عليه بعض أقربائه ، ولكنه انتصر عليهم جميعاً . وأمر في سنة ٤٦٧ ببناء المرصد العظيم الذي وضع فيه عمر الحيام وجماعة من العلماء التقويم الجلال ويُرّجع تاريخه إلى عبد التّيرّوز في سنة ٤٧٢ . وكانت جيوشه مائتة غادية راتحة ، واستولت على كثير من مدن ما وراء النهر وفي مقدمتها سجّرد ، وبلغ من خوف إمبراطور بيزنطة منه أن أرسل إليه وهو في مدينة «كاشغر» النّاتية الجزية المفروضة على بلاده . وما يدل على ما وصلت إليه إمبراطوريته الواسعة من علو الشأن أن أصحاب السفن الصغيرة اللّبن عبروا به وبمجيئه إلى الضفة للمقابلة لهم من نهريّ جيجون أخذوا أجرتهم صُكوكاً تدفع لهم في أنطاكية بديار الشام حتى يروا مدى اتساع السلطنة . ويقال إنه ركب جواده على شاطئ اللّاذقية ، وخاض به البحر شاكراً ربّه على ما أنعم به عليه من هذا الملك الواسع الذي امتدّ من بلاد التّار والصّين إلى ديار الشام على البحر المتوسط ، وعُني بحفر الآبار في طريق الحجاج وتخفيف الضرائب عنهم . ودرسُ خصوم نظام الملك له عنده ، فأعفاه من الوزارة ، ولم تلبث أن امتدت إليه يد أحد الإسماعيليين أعدائه في الظلام ، فطعته طعنة نجلاء كانت سبباً في وفاته سنة ٤٨٥ . ولم يلبث ملكشاه أن توفي بعده بشهر واحد . وبذلك ينتهى - كما مرّ بنا في قسم العراق - عهد السلافة العظام .

وقام بالسلطنة بعد ملكشاه ابنه بركياروق أكبر أولاده (٤٨٥ - ٤٩٨ هـ) . ولُقّب بركن الدولة ، وخالفه همه تشّش صاحب دمشق وأخوه محمد صاحب أذربيجان ، وله معها وقائع كُتب له فيها النصر ، وكان يتعقب الباطنية الإسماعيلية - كما أسلفنا في قسم العراق - وقتل منهم في بعض السنوات مئاة ، وخلفه أخوه محمد (٤٩٨ - ٥١١ هـ) . ومضى مثله يتعقب الإسماعيلية ويستولى على حصونهم ، وتولى السلطنة بعده ابنه محمود (٥١١ - ٥٢٥ هـ) . وكان شديد الحق ، فعارب همه سينجر أمير خراسان الموقر ودارت عليه الدوائر ، غير أن همه عفا عنه وولاه العراق . وامتد حكم سنجر أربعين سنة (٥١٣ - ٥٥١ هـ) . واستنقل عنه في سنة ٥٣٥ ملك خوارزم أنشيز . وحاربه الترك في سنة

٥٣٦ واستولوا منه على مرو ونيسابور وسرخس ، وحاربه الفز في سنة ٥٤٨ وأسروه ، وظل في أيديهم إلى أن هرب سنة ٥٥١ ولم يلبث أن قضى نحبه . واشتهر في هذه الدولة أربعة من سلاجقة كرمان هم ثوراتشاه المتوفى سنة ٤٩١ وابنه إيرانشاه المتوفى سنة ٤٩٥ وأرسلانشاه المتوفى سنة ٥٣٧ وابنه مفيث الدين محمد المتوفى سنة ٥٥١ وقد تجزأت الإمبراطورية السلجوقية في سرعة شديدة ، حتى فقد الأمراء سلطانهم ، وحتى استبد بهم في كل بلد نوابهم المسمون باسم الأتابكة .

الدولة الخوارزمية^(١)

مؤسس هذه الدولة أحد ممالك السلطان ملكشاه ، وهو أنوشكين ، حين جمعه هذا السلطان واليا على خوارزم سنة ٤٧٠ فأسس بها دولة ملوك خوارزم أو خوارزمشاه ، واستطاع خلفاؤه أن يتخلصوا من كل صلة تربطهم بالسلاجقة ، ومن أهم ملوكهم أنشيز (٥٢١-٥٥١ هـ) . وله وقائع مع سنجر السلجوقي ، وتمكن أحيانا من الاستيلاء على مرو ونيسابور ، ويقترب باسمه كاتبه المشهور رشيد الدين الوطواط . وقد تمكن من جاءوا بعده من القضاء على سلطان السلاجقة في إيران وفرض سيطرتهم عليها ، وخاصة الأجزاء الشمالية ، وكان آخرهم جلال الدين منكبرتي الذي صمد صمودا باهرا للغزو التتاري من سنة ٦١٧ إلى سنة ٦٢٩ حين استسلم ولكن بعد نضال عظيم .

الدولة المغولية

المغول قبائل رحل كانت تتزل في قلب آسيا على حدود الصين في الإقليم المسمى منغوليا ، وكانت تعيش على الرعي والصيد ، واستطاع جنكيزخان أن يجمع شمل هذه القبائل ويفتح بها بلاد الصين - كما عرف القسم الخاص بالعراق - ثم يغزى بها على مملكة خوارزم ويقوض هذه المملكة ، كما أغار بها على خراسان ، وامتدت سيولها تجرف كل ما أمامها حتى الرى وهمدان ، متزلة فظائع وحشية ، ويحقّ يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧ إن فئوح التتار في بلاد الإسلام أعظم مصيبة حلتّ بالعالم . وامتدت أيام جنكيزخان في إيران

المصر العباسي الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) والشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي لحافظ حمدى (طبع القاهرة) وتاريخ الأدب في إيران من الفروسي إل السدي لبرتون .

(١) انظر في الدولة الخوارزمية ابن الأثير وابن خلدون والنجم الزاهرة لابن تغرى بردى وزيادة النصر للبندري (عصر تاريخ دولة كج سلجوق للهاد الأصيلي) وفيل الروستين لأبي شامة في مواضع متفرقة وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي للسوى . وراجع تاريخ العراق في

من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٢٥ وهى السنة التى قضى نجه فيها بالصين بعد أن حكم المغول اثنين وعشرين عاما . واجتمع أمراء المغول بعد وفاته من البلاد الشاسعة التى اقتسحوها فى الصين وما وراء النهر وخراسان وإيران وخوارزم ، واتفقوا جميعا على أن يتولى بعده ابنه أوكدى (أوكتاى) (٦٢٥ - ٦٣٩ هـ) . واتخذ عاصمة له قراقورم وأخضع لحكمه - كما مرر بنا فى قسم العراق - أوروبا الشرقية : روسيا وبولندا ، ونكلت جيوشه بالناس فيها تنكيلا شديداً على نحو ما نكلت جيوش أبيه بالإيرانيين والصينيين ، ويقال إن آذان ضحاياها فى بولنده بلغت مائتين وسبعين ألفا . وحين توفى خلفه ابنه كيوك وظل يدير هذه الدولة المترامية الأطراف حتى وفاته سنة ٦٤٦ وخلفه ابن عمه منكوس سنة ٦٤٩ فأرسل أخاه هولاكو إلى إيران فعمل على الاستقلال بها مع تبعيته لأخيه هو وأبنائه ، وأخذ يوطد حكمه بها منذ سنة ٦٥٤ بادئا باستئزال الإسماعيلية الملقين بالحشاشين من معاقلمهم فى «الموت» وغيرها والقضاء عليهم قضاء نهائيا . ولم يلبث أن أرسل إنذارا إلى الخليفة «المستعصم بالله» أن يسلم نفسه إليه ويعطيه مفاتيح مدينة بغداد . وتقدم إليها فى سنة ٦٥٦ فاكسحها كما مرر بنا فى الحديث عن العراق ، بعد حصار دام نحو شهر وقتل فيه هو وجنوده - كما يقول المؤرخون - نحو مليون من سكانها ، وقتلوا الخليفة وأكثر أهله - كما مرر بنا فى قسم العراق - وحرقوا قصوره ، ونهبوا البلدة وما كان بها من الكتب ، وكان ذلك إيذانا بدمار الحركة العلمية فيها وأقول نَجْمُها .

الدولة المغولية^(١) الأيلخانية

اتخذ هولاكو لقب إيل خان (تابع الخان) وهو اللقب الذى ورثه عنه خلفاؤه من بيته على إيران والعراق مما جعل دولتهم فيها - تسمى دولة الأيلخانيين ، وأرسل فى سنة ٦٥٨ جيشا كثيفا للاستيلاء على سوريا ومصر - كما مرر بنا فى قسم العراق - واستولى على أكثر البلاد السورية ، غير أن جيش مصر الباسل بقيادة قُطُز والظاهر بيبرس تصدى للمغول فى عين جالوت بفلسطين وهزمهم هزيمة ساحقة ، وتعقبهم فى سوريا حتى ردهم عنها إلى العراق وما وراءه . وتوفى هولاكو فى عام ٦٦٤ للهجرة ، فخلفه ابنه أبغا (٦٦٦ - ٦٨٠ هـ) . وقد وجه إلى سوريا حملات باءت كلها بالإخفاق الذريع أمام الجيوش المصرية ، إذ كانت دائما تنزل بها ضربات قاصمة . وأخذت من حيثئذ تنقسم الصلات التى كانت تربط الأيلخانيين فى إيران بأباطرة المغول فى (قراقورم) . وبموت أبغا ينتهى العهد الوثنى للمغول

(١) راجع فى الدولة المغولية الأيلخانية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق .

وحكامهم فإن خلفه بوكدار أخاه اعتنق الدين الحنيف ، ولم يُمنح في الحكم سوى عام واحد ، إذ قتلته يد آتمة . وولى بعده أخوه أرغون (٦٨١ - ٦٩٢) وفي عهده حظى المسيحيون النسورويون بعطف واسع ، وخلفه أخوه كيخسرومودة ستين ، ثم بيديو وقُتل مريعا . وولى بعده - كما مر في قسم العراق - غازان (٦٩٣ - ٧٠٣) الذي أتاح لدولة الإيلخانيين في إيران والعراق عهدا ذهبيا عظيما ، إذ اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين المغول نشرا واسعا ، وعُني بأن تصبح تبريز عاصمته من أجمل المدن الإسلامية ، وقد بنى فيها رباطا وبيارستانا ومدارس دينية ومرصدا كبيرا ومكتبة فخمة ، وأقام لأصحاب العلوم والفنون صاحبة مؤلفة من ثلاثين ألف بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والقراء والأساتذة والطلاب . وخلفه أخوه خدابندة سنة ٧٠٣ واهتم مثله بنهضة العلوم والفنون ، واتخذ عاصمة له مدينة بناها بالقرب من قزوین سماها السلطانية ، واحتفل في بنائها والاهتمام بها احتفالا واسعا . وتوفي سنة ٧١٦ وتولى بعده ابنه بوسعيد حتى سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، فلم يستطع ضبط البلاد ، وأخذ أبناء عمومته يتناحرون على الولايات والبلدان ، وكونوا دويلات صغيرة ، كان من أقواها الدولة المظفرية في كرمان التي استطاعت أن تبسط نفوذها على فارس والجزء الجنوبي من إيران . وتظل البلاد في فوضى نحو نصف قرن من الزمان ، إل أن يغزو تيمورلنك إيران والبلاد العربية .

الدولة المغولية التيمورية^(١) وما تلاها من الدول

مؤسس هذه الدولة تيمورلنك المولود - كما مر في قسم العراق - في كُش من أعمال ما وراء النهر بالقرب من سمرقند سنة ٧٣٦ للهجرة ، وهو من سلالة جنكيزخان ، كان أبوه واليا لكُش ونواحيا ، واستطاع تيمورلنك بذكائه وشجاعته أن يستميل حكام ما وراء النهر ، فيقربوه منهم ويستوزروه في بعض الأحيان . وما زال يعمل على أن يجمع زمام السلطة في يده - كما مر في قسم العراق - حتى غدا الحاكم الوحيد لإقليم ما وراء النهر جميعه سنة ٧٧١ للهجرة ، ومد سلطانه إلى خراسان في سنة ٧٨٢ واستولى على مازندران وسجستان وجرجان في سنة ٧٨٤ ولم يلبث في سنة ٧٨٨ - كما مر في قسم العراق - أن استولى على فارس وأذربيجان . وبدأ منذ سنة ٧٩٥ ما يعرف بحرب السنوات الخمس ، فأغار على

١٢٥/٢ إيران ماخيا وحاصرها لوتالده وليد ص ٧٦ وما بعدها .

(١) انظر في الدولة المغولية التيمورية المصادر المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق . وانظر في الدول التالية تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٢٠ وجليب حتى

أقاليم الخزر وآسية الصغرى واستولى على الرها وتكرت وآمد وحاصر بغداد - كما مر في قسم العراق - سنة ٧٩٥ ، وسار في سنة ٨٠١ إلى الهند وعبر نهر السند واستولى على دلهي . ثم اتجه شرقاً في سنة ٨٠٣ فاستولى على سيواس وملطية في آسية الصغرى ، ودخل ديار الشام ، واستولى على حلب وحماة وجنص وبلبك ودمشق . ولم يفكر في متابعة حملاته إلى الجنوب حتى مصر ، وكان ذكرى هزيمة أسلافه التتار في عين جالوت أمام المصريين كانت لا تزال ماثلة نصب عينيه ، ويستولى على بغداد . ويتجه إلى آسية الصغرى في سنة ٨٠٤ وتلدور رحى حرب طاحنة بينه وبين العثمانيين بقيادة بايزيد ويُهزَمُونَ هزيمة ساحقة . ويعود تيمورلنك إلى عاصمته سمرقند سنة ٨٠٧ وبعد حملة كبيرة على الصين ، تسير الحملة في وجهتها ، غير أن أجله يوافيه ، فيتوفى عن واحد وسبعين عاماً بعد أن حكم هذه الإمبراطورية الفخمة ستاً وثلاثين سنة . وقد ملأ سمرقند بالعالم الفخمة ، وضرع به فيها آية من آيات العمارة الرائعة . وكانت فتوحاته أقل بقاء وأقصر عمراً من فتوحات جنكيزخان وخلفائه ، فبمجرد أن مات رجعت سوريا وآسية الصغرى إلى حكمائها الأصليين .

وتوزع ابناء : شاه رخ وميران شاه إمبراطوريه - كما مر في قسم العراق - فكان شطرها الشرق الشامل لإيران من نصيب شاه رخ ، بينما كانت العراق وأذربيجان والقوقاز من نصيب ميران شاه . وتوفى سنة ٨١٠ فضم نصيبه شاه رخ إلى سلطانه ، وكان يتخذ هراة بأفغانستان عاصمة له إلى أن توفى سنة ٨٥١ للهجرة . وخلفه ابنه ألغ بك (٨٥١ - ٨٥٣ هـ) . وكان راعياً كبيراً للفن والأدب الفارسيين . وولى بعده بوسعيد (٨٥٤ - ٨٧٤ هـ) . وكان سلطانه وطيداً في دياره إلى حدود الهند . وأعقبه حسين بإقرا (٨٧٤ - ٩٠٢ هـ) وفي عهده أصبحت سمرقند مركزاً مهماً من مراكز الثقافة الإسلامية . ولم تلبث هذه النهضة أن توقفت فإن قبيلة أوزبك التركمانية بقيادة زعيمها شيباني قضت على التيموريين في الشرق ، وفر آخر حكامهم سنة ٩٠٦ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام . وكانت قبيلة قرايوسف التركمانية قد استولت على غربي إيران ، واتخذت تبريز عاصمة لها . ولم يلبث قرايوسف أن استولى على العراق سنة ٨١٣ وظل التركمان يحكمونه هو وغربي إيران كما مر بنا في قسم العراق حتى ظهر إسماعيل الصفوي (٩٠٧ - ٩٣٠ هـ) واستولى على إيران جميعها وأسس بها دولة جديدة هي الدولة الصفوية . وفي قسم العراق حديث عن وعن دولته أكثر تفصيلاً ، وكانت تمتد شرقاً إلى هراة وغرباً حتى شملت العراق جميعه . وجعل دولته دولة إيرانية قومية ، متخذة العقيدة الإمامية الشيعية عقيدتها الرسمية ، مما دفعه هو وخلفاؤه إلى الاشتباك في حروب متوالية مع الترك العثمانيين السنيين . وظل حكم الدولة

الصفوية في إيران نحو مائة وأربعين عاماً ، وخلفهم عليها الأفغانيون ، وجاء في إثرهم الأفشاريون ثم للزنديون ، وخلفهم القاجاريون في أواخر القرن الثاني عشر وظلوا نحو مائة وثلاثين عاماً وفي كل هذه الحقب وخاصة منذ حكم الصفويين خمد النشاط الأدبي العربي في إيران خموداً تاماً .

٣

المجتمع

كان يتكون المجتمع الإيراني في هذا العصر من ثلاث طبقات : طبقة عليا ، تتضمن الأمراء الحكام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين ، وطبقة وسطى تتضمن موظفي الدواوين وأوساط التجار والصناع ورجال الحسبة والقضاء ، وطبقة دنيا تتضمن العامة من أصحاب الحرف ومن الزراعة والخدم والرفيق ، ويدخل أهل النعمة في الطبقتين الأخيرتين بحسب أعمالهم .

وكانت الطبقة الأولى منعمة مترفة ترفا واسعاً ، وكان في أعلى درجاتها الأمراء الحكام الذين دانت لهم رقاب العباد ، وصُيِّت الأموال التي تُعَدُّ بالملايين في خزائنها ، وكانت مصادرها متعددة ، إذ كانوا يجمعون الضرائب من الناس ، ضرائب الأرض ، وكان لها نظام خاص هو نظام الزكاة الإسلامي ، وكان لها في كل مدينة ديوان هو ديوان الخراج ، وهو بمثابة خزانة مالية للدولة أو الإمارة ، وكانت أعطيات الجند ونفقات البلدة تؤخذ منه ، ويُحْمَلُ ما يتبقى إلى ديوان الخراج أو بيت المال في حاضرة الدولة ، وهناك ينفقه الأمير على الجيش وحاجات الإمارة . وما بقي منه يصبح رهن حياته المترفة في القصر دون رقيب . وبجانب ضرائب الأرض كانت هناك ضرائب كثيرة على الصادرات وعلى بعض الواردات من الرقيق ومن عروض التجارة . ولا بد أن نلاحظ كثرة الحروب في العصر وأن إمارات مجاهدين كانت تكتسح أحياناً وتدخل في سلطان هذا الحاكم البويهي مثلاً أو الحاكم الغزنوي أو الساماني أو السلجوقي ، وحينئذ تكتظ خزائن هذا المحارب المتصر بالأموال الطائلة . وظل ذلك طوال العصر بل تفاقم في عهد التار ومن تلاهم . وكان يتبع الإمارة عادة كثير من الضياع وكانت ثمارها جميعها تعود إلى الأمير وخزائنه . وكثرت في تلك المصور مصادرة أموال الوزراء حين يُعزَّلون أو يموتون ، وكذلك الكتب والعمال ، فكانت أموالهم وإقطاعاتهم وضياعهم تصبح ملكاً للدولة . ولعل في ذلك ما يوضح كيف أن الأموال في خزائن الأمراء أو على الأقل في خزائن

بعضهم كانت تُكّال كَيْلاً ، وأيضاً ما يوضح النصوص التي نقرأها في كتب التاريخ عن تركّات بعض هؤلاء الأمراء وما أنفقوه أحياناً في أعراسهم أو أعراس أبنائهم وفي بناء قصورهم ، فمن ذلك ما يروى عن فخر الدولة البَوَيْهِي صاحب همدان والجليل والديّينور وجرجان من أنه خلف حين مات مليوني دينار وثمانمائة وخمسة وسبعين ألفاً ومائتين وأربعة وثمانين ، كما خلف من الجواهر والبراقيت واللآلئ ما قيمته ثلاثة ملايين دينار ، ومن الفضة ما وزنه ثلاثة ملايين ، ومن الثياب ثلاثة آلاف حمل^(١) . أما أخوه مؤيد الدولة فيروى أنه أنفق في عرس زواجه من ابنة عمه معز الدولة السيدة زبيدة سبعمائة ألف دينار^(٢) . أموال كانت تسيل إلى خزائنه من إمارته الإيرانية في الرّى وأصفهان لا يعرف لها خيمة ، ولذلك يندّرُها ويطلقها حسب هواه . وعظم شأن أخيها عضد الدولة ، فخضعت لسلطانه البلاد الممتدة من بحر قزوين إلى جنوبي إيران وحتى العراق وهُما مما جعله يتلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام ، وكان دخله - فيما يروى - ثلاثمائة وخمسة وعشرين مليوناً من الدراهم ، وقيل بل كان اثنين وثلاثين مليوناً من الدينارين ومائة ألف درهم^(٣) . وكان عضد الدولة بدوره يتفق الملايين على بخله ، وغير ما يصور ذلك قصره الذي بناه بشيراز ، فقد رآه المقدسي بعد موته بفترة قليلة ، وبُهِت حين رآه ، وفي ذلك يقول : « بنى عضد الدولة بشيراز داراً لم أر في شرق ولا غرب مثلاً ، ما دخلها حامى إلا افتتن بها ، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها . شقّ فيها الأنهار ونصب عليها القباب ، وأحاطها بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والمُدد . سمعت رئيس الفراشين يقول : فيها ثلاثمائة وستون حجرة ، كان مجلسه كل يوم في واحدة إلى الحول . . . وطُفْتُ فيها ورأيت الأنهار تنطرد في البيوت والأروقة . وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة ، وبان بؤناً بعيداً وضلّ ضلالاً ميبئاً^(٤) .

وهذا القصر صورة من صور الترف المفرط ، فالأمر لا يريد أن يحلّس بيته في حجرة مهتأة لجلوسه كل يوم ، بل يريد أن تتغير ، بحيث لا يعود إليها إلا في عام قال ، وكأن الحجر في القصر أصبحت كآزبائه ، فهو يبدّلها كل يوم ، وطبعاً لا يمهه الشعب الكادح وراء هذا القصر ولا تهمة مصالحه ، وإن كان عضد الدولة قد اشتهر بفضله الأمن والنظام في ربوع إمارته الواسعة ، كما اشتهر بعنايته بالثقافة والعلم والعلماء ، ولكن لاشك أنه كان

(١) النجوم الزاهرة ١/ ١٩٧ والتلظم ٧/ ١٩٨ . (٤) أحسن التأسيس للمقدس (طبع لندن) ص ٤٤٩ .

(٢) للتظم ٧/ ١٢٢ . وانظر في قصره بناء فخر الدولة بمرجان البهجة ٣/ ٢٧١ .

(٣) للتظم ٧/ ١١٦ .

يُفرق نفسه في الترف والنعم .

وعلى شاكلة هؤلاء الأمراء البويهيين كان الأمراء السامانيون والزياريون ، فقد كان الأمير دائماً يبعُد الإمارة ضَيْعَةً له ، ولعل أميراً لم يَحْزُ من الأموال ما حازه محمود الغزنوي من غنائمه في الهند ، فقد ظل ينازل الهنود مدة أربع وعشرين سنة ، وهو يمدّ حدود إمارته حتى شملت كشمير والشمال الغربي من الهند ، وفي أثناء ذلك غنم غنائم لا تحصى . ويمكن أن نذكر من غنائمه ما أخذه من معبد سومنات الذي كان يبيع إليه الهنود الوثنيون ، وصومنات اسم الصنم الكبير فيه وكان مرصعاً بالجواهر والحجارة الكريمة ، وكان إلى جواره ست وخمسون سارية صفائحها من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة ، وكان يحيط بهيكله ألوف من التماثيل الذهبية والفضية . ويُخصى الغنى في كتابه البهمنى هذه الذخائر وما يماثلها مما يخرج عن طوق الخيال ^(١) . وقد أتاحت لمحمود أن يشيد جامعته العظيم بخرنة وأن يمدح نهضة علمية وأدبية في إمارته النائية ، كما أتاحت له ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثها الأجيال ، غير ما كان يُجسّى لهم سنوياً من تلك الديار .

وبالمثل كان السلاجقة يملكون في خزائهم الأموال الطائلة ، وقد اتسعت مملكتهم اتساعاً كبيراً ، حتى لقد كانت تمتد في عهد ألب أرسلان من أقصى حدود ما وراء النهر إلى أقصى حدود الشام ، وكانت له حروب وفتوحات كثيرة غنم منها مغامرات شتى ، من أهمها حروبه مع البيزنطيين في آسيا الصغرى وقد وقع ياحدى المعارك في أمره إمبراطورهم «ديوجينيس رومانوس» وافترس نفسه بمليون دينار - كما مر بنا - ودفع له الجزية صاغراً . ويذكر ابن الأثير أنه زوّج ابنته من الخليفة المتقي وهو لا يزال ولي عهد وأنه نثر على الناس ليلة زفافها جواهر كريمة كانوا يلتقطونها في دهشة وعجب كبير ^(٢) . ويقال إن خراج خلفه ملكشاه بلغ عشرين مليون دينار ^(٣) : ويروى أنه حين غلب سنجر السلجوقي صاحب خراسان على غزنة عام ٥٠٨ وقعت في أيديه وأبدى أصحابه أموال لا تعد ولا تحصى وكان في جملة ما استولى عليه خمسة تيجان قيمة الواحد منها تزيد على مليونين من الدنانير ، واستولى أيضاً على ألف وثلاثمائة قطعة مصاغ مرصعة وسبعة عشر سريراً من الذهب والفضة ^(٤) . وكان السلطان محمود السلجوقي مبدراً متلفاً ، وأتلف فيها أتلفه ما ورثه من

(١) البهمنى للحق ٩٩/٢ وانظر في غنائمه من البهمنى البيهات مائة ألف دينار (ابن الأثير ١٠٥/٩ . المتظم ٤٠/٨ .

(٢) ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس - طبع دار صادر (٣) المتظم ٧/٩ .

بيروت) ٧٠-٧١ وكان صدق الأميرات (٤) ابن الأثير ٥٠٧/١٠ .

أموال كانت محظوظة بخزائن الدولة ، وكانت ثمانية عشر مليوناً من الدينار^(١) . واحتقرت له دار في سنة ٥١٥ . واحترق فيها لزوجته «ملاحد» من الجواهر والحلى والقرش والثياب ، وأقيم الفسّالون لمُخلّصون الذهب ما أمكن تخليصه ، وهلك الجواهر جميعه إلا الباقوت الأحمر^(٢) .

وهذه أخبار متناثرة في كتب التاريخ تدل بوضوح على معيشة الأمراء الذين كانوا يحكمون إيران وكيف أنهم كانوا يفرقون إلى آذانهم في الترف والنعيم ، غير حاسبين للشعب حساباً . ومثلهم كان الوزراء وقد تعلقوا في هذا العصر بالألقاب وتمدها منذ أوائله حتى لنجد أبا بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ يشكو من ذلك شكوى مرة^(٣) . وكان الوزير يتولى الإشراف على مالية الإمارة ووجوه جَمْعها وإنفاقها ، وكان يقود الجيوش بنفسه ، على نحو ما كان وزيراً بنى بويه : ابن العميد والصاحب بن عباد ووزير السلاجقة نظام الملك ، واتخذ عضد الدولة البويهى وزيرين أحدهما كان نصرانياً هو نصر بن هرون وكان له النظر في شئون فارس . وكان الوزير يتقاضى مرتباً ضخماً ، جعله يحيط نفسه بمظاهر الفخامة التامة ، متخذاً لنفسه حرماً كبيراً كان يُعَدُّ بالعشرات وأحياناً بالآلاف^(٤) ، فكان إذا سار يبرز للناس في موكب باهر من الحراس . وكان أمراؤهم لا يكتفون بما يعطونهم من مرتبات جزيلة فقد كانوا يضيفون إليها كثيراً من الضياع والإقطاعات ، بحيث يعظم دخل الوزير ويعيش في ترف بالغ . وهبأهم ذلك لينوا القصور الباذخة ، على نحو ما يحدثنا الثعالى في كتابه البيّمة عن قصر بناء ابن العميد^(٥) ، وقصر آخر بناه الصاحب بن عباد في أصبهان تبارى شعراؤه في وصفه بالقصائد الطوال^(٦) ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس تُفَطَّر فيها ، وكانت صلاته وصدقائه وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يُطْلَقُ منها في جميع شهور السنة^(٧) . وكان الوزراء يتأنقون في ملابسهم ، ولم يقف تأنفهم عند أنفسهم ، فقد كانوا يطلبونه في خدمتهم وحواشيهم وكل ما يتصل بهم من ملابس ومطاعم ، ومن طريف ما يروى من ذلك ما ذكره الثعالى عن الصاحب بن عباد من أنه كان يعجبه الخنز (الحرير) ويأمر بالاستكثار منه في داره ، وألّم به

(١) زبدة النصرة للبندارى مختصر تاريخ دولة آل (٤) ابن الأثير ١٠/١٣١ .

سلجوق للهاد الأصمى (طبع لندن) ص ١٤١ . (٥) البيّمة ٣/١٥٨ .

(٢) ابن الأثير ١٠/٥٩٤ . (٦) البيّمة ٣/٢٠٣ وانظر وصفهم لقصر آخر له في

(٣) البيّمة للثعالى (طبعة محمد عيسى الدين جرجان البيّمة ٤/٣٦ .

عبد الحميد) ٤/٢٣٠ . (٧) البيّمة ٣/١٩٣ .

أبو القاسم الزعفراني الشاعر يوماً ، فرأى جميع من حوله من الخدم والحاشية يلبسون الحزوز الفاخرة الملونة ، فأنشده على البديهة ^(١) .

كسوتَ المقيمين والزائرين كسَى لم يُخَلْ مثلها ممكنا
وحاشيةُ الدار يمشون في ضروبٍ من الحزْرِ إلاننا

وكان الصاحب يكثر من إهداء الخلع إلى زواره ، كما يشير أبو القاسم فما إن سمع بقوله ، حتى أمر له من الحزْرِ بجمَّةٍ وقبضٍ وذُرَّاعةٍ وسراويلٍ وهامةٍ ومنديلٍ ومُطَرَّفٍ (ثوب) ورداء وجوب . وكان الولاة مثل الوزراء يحيطون أنفسهم بهذا الجو المترف ، فكانوا يبنون القصور ذات الأواوين الضخمة ، ويروي أن أبا جعفر والي سجستان تأتق في قصر بناء نفسه كان مكتوباً في صدر إيوانه ^(٢) :

من سره أن يرى الفردوس عاجلةً فليُنظِرِ اليوم في بُنيانِ إيوانِ
أوسره أن يرى رِضوانٍ عن كُتبِهِ بملءِ عينِهِ فليُنظِرِ إلى الباني

وبالمثل كان كبار الموظفين في الدواوين وغير الدواوين يعيشون معيشة مترفة كلها زينة وأناق ، سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأمور الدولة أو غير متصلين . ويبدو أن الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عنايةً بأناتهم ، ويلاحظ ذلك على كتاب السامانيين العبدوني الشاعر فينشد ^(٣) :

أُكُتِبَ ديوانِ الرسائلِ مالكم تجمَعُكُمْ بل مَتَّعُكُمْ بالتَجَمُّلِ

وكان كبار القضاة يدخلون في هذه الطبقة لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم أصحاب المظالم . وكان للقواد مكانة كبيرة ، وكأنما كانوا يشركون الأمراء في إماراتهم فأوسعوا عليهم في الرواتب والأرزاق . ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن كل المتصرفين في أعمال الدولة كانوا يعيشون معيشة بذخ على حساب الشعب الكادح ، فلهم القصور ولديهم الأموال والخلع التي يهبونها للشراء والناس ، وكان كثير منهم يشعر باستعلاء على أبناء الأمة ناسياً أنه يعيش من عرق جبينهم ، ويشكو شاعر من هذا الاستعلاء البغيض قال ^(٤) :

أَكُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ نِعْمَةٌ أَوْسَعُ مِنْ نِعْمَةِ إِخْوَانِهِ
أَمْ كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ جَوْسَقٌ مَشَرَفٌ شِيدَ بَارَكَانِهِ ^(٥)

(١) بنية ١٩١/٤ .

(٥) الجوسق : القصر .

(١) بنية ١٩١/٣ .

(٢) بنية ٣٣٨/٤ .

(٣) بنية ٧٧/٤ .

أَمْ كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ كِسْفَةٌ يَنْلِهَا فِي بَعْضِ أَجْيَانِهِ
يَرَى بِهَا مُسْتَكْبَرًا تَائِهًا عَلَى أَدَانِهِ وَخِلَانِهِ

ويلحق بهذه الطبقة بل يأتي في مقدمتها الإقطاعيون أصحاب الإقطاعات الواسعة التي كان يُقدِّمها الأمراء على المحاضن من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم من أفراد الأمة . وكان النظام الإقطاعي معروفاً في إيران قبل الإسلام ، وما ساعد عليه اختلاف أصقاعها وبقاعها بين قلاع صخرية وصحار وسهول . وأخذ هذا النظام يعود منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كنا في هذا العصر تنافس أمره ، حتى ليقول المقدسي في القرن الرابع إن أكثر الضياع بفارس مقطعة ^(١) . وظل ذلك بعد عصر بني بويه ، بل لقد اتسع في عصر السلاجقة وأيام نظام الملك وزيهم ، فإنه لما اتسعت مملكة السلاجقة رأى أن يسلّم القرى إلى مجموعة من الإقطاعيين : قرية أو أكثر أو أقل ، كل على قدر إقطاعه ^(٢) . وعُرف بجانب الإقطاع في هذا العصر نظام الضمان ، وأعدّ بدوره لظهور طبقة أخرى من الرأسماليين ، إذ كان يضمن خراج الضياع وأحياناً القرى ، بل أحياناً الولايات ، شخص يفرض على نفسه ما لا يؤديه عنها ، ويأخذ لنفسه أضعافه . وكثيراً ما كان هؤلاء الضامنون أصحاب الخراج أنفسهم ، إذ تحولوا بدورهم إلى إقطاعيين وأصحاب ضياع واسعة . وكل ذلك معناه أنه كانت هناك طبقة كبيرة تملك الإقطاعات والضياع الكثيرة معتمدة دماء الشعب ، وكان حسب الشخص ضيعة واحدة ليكون ثريا ، وصور ذلك المعاني بن هزيم شاعر أبيورد قائلا ^(٣) .

كَفَتْنِي ضَيْعَتِي مَدَحَ الْعِبَادِ وَظَنُّا فِي الْبِلَادِ بَغِيرَ زَادٍ
غَدْتُ سَكْنِي وَخَادِمِي وَظَيْرِي وَفِيهَا أَسْرَقِي وَبِهَا تِلَادِي
صَدِيقُ الْمَرْءِ ضَيْعَتُهُ وَكَمَّ مِنْ صَدِيقِي فِي الصَّدَاقَةِ مَسْتَرَادِي
يَخُونُكَ فِي الْمَوَدَّةِ مَنْ تَوَاضَعَى وَمَالُكَ لَا يَخُونُكَ فِي الرِّوَادِي

وكان الأبناء يتوارثون عن آبائهم هذه الضياع والإقطاعات ، مما أعدّ لنشوء طبقة أرستقراطية واسعة ، كانت تنفق عن سعة ، وكان كثير منها جواداً ممدحاً ، وبلغنا ذلك

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٤٢١ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي (طبعة محمود الطنحلي)
وجيد الفتح المطهر نشر مكتبة حسي الباي الحلبي

(٣) بنية ١٣٧/٤ والظفر: المرسنة .

٣١٧/٤ وبلغ من ثراء بعض الإقطاعيين في العصر
السلجوقي أن نرى في همدان زبداً الحسن الطوسي يدفع إلى

بوضوح في كتب تراجم الشعراء مثل البتية ودمية القصر والحريدة ، إذ نجد عشرات الأسماء المجهولة تُمدَّحُ أمداحاً كثيرة ، وحقا قال بشار :

يسقط الطيرُ حيث يَشْتُرُ الحَبُّ بٌ وَتُقَشَّى منازلُ الكرماء

وكان ذلك سبباً في أن تلقى بكثيرين من رعاة الشعر والشعراء في كل بلدة .

وكانت الطبقة الوسطى تتألف من عناصر كثيرة ، في مقدمتها القضاة والفقهاء وعلماء العربية وكان لكثيرين منهم رواتب يُقدِّرها الأمراء أو وزراءهم . ويدخل في هذه الطبقة عمال الحسبة والبريد ودواوين الجيش والشهود اللذين كان القضاة يقيمونهم للشهادة ، فقد أصبح مثلهم مثل العمال الثابتين ، وكانوا دائماً موضعاً للشكوى وفيهم يقول أبو عبد الله الحوزي ^(١) :

وَيْلٌ لِمَنْ عَدَّلَهُ الْقَاضِي وَاقَّهْ عَنْهُ لَيْسَ بِالرَّاضِي

تَمْضَى الْقَضَايَا بِشَهَادَاتِهِ وَهُوَ إِلَى النَّارِ غَدَاً مَاضِي

ويتظم في هذه الطبقة الصناع وأوساط التجار أما كبارهم فكانوا ذوى رموس أموال ضخمة ، وعدادهم لذلك في الطبقة السابقة . ومن العناصر المهمة في هذه الطبقة الشعراء الذين كان يُقدَّرُ عليهم أفراد الطبقة الرفيعة الأموال والعطايا ، ومثلهم المغنون والمغنيات ، ودائماً تلقاهم في كل بلاط وفي كل قصر ، فقد كان الشعب من كبيه إلى صغيره مولعاً بالغناء .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهى التى كانت تعمل في الصناعات والتجارات الصغيرة وفي خدمة أبواب القصور ، وكانت أشبه بالمعبد وخاصة من كان منها يعمل في فلاحه الأرض إذ لا يكاد يجد ما يسدُّ به رمقه ، وليست هناك مهنة إلا عملت فيها هذه الطبقة حتى أحقر المهن . وكانت حياتها كلها حرقاً وعتاً ومشقة لكى تملأ الطبقة العليا في الإمارات بطونها وتكثف قصورها بأدوات الترف واللهم والطرب .

وكان وراء تلك الطبقات أهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وكان المجوس في أوائل هذا العصر كثيرين في إيران وخاصة في قلاعها البعيدة ، ويروى أنه وقعت في شيراز سنة ٣٦٩ للهجرة فتنة بينهم وبين المسلمين ^(٢) ، ولم تكن الحكومات تتدخل في شأنيهم ولا في شعائر النصارى واليهود ، وكان لهم محاكمهم الخاصة التى تفصل بينهم في خصوماتهم ، وكانوا يدفعون ، نظير ما يستمتعون به من تسامح واسع ، الجزية ، وكانت أشبه بضريبة للدفاع الوطنى إذ لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، ولم تكن تؤديها

النساء ولا الرهبان ولا ذوو العاهات ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس . وكانت لا تتجاوز الدينار لعامتهم ودينارين لتوسطى الثراء وثلاثة دنائير لأصحاب الثراء الطائل ، وكانت تبلغ قيمة الدينار نحو اثني عشر درهماً . وكانت أبواب العمل لهم مفتوحة ، وكان أكثر الأطباء وكثير من الكتبة نصارى ، وكان على بن بويه ركن الدولة يستخدم كاتباً نصرانياً^(١) ، بل لقد اتخذ عضد الدولة كما قدمنا وزيراً نصرانياً ، وكان اليهود يعملون في أحقر المهن ، فكان منهم الصباغون والأساكفة والخزازون .

وكانت تتفنن الطبقتان العليا والوسطى في اللبس والمطعم ، فكانوا يلبسون الدَّراريح وهي ثياب مشقوقة من الصدر كما كانوا يلبسون الأكبية والسرَّاويل والحلل المطرزة . وكانوا يلبسون الخُرَّ صيفاً والقفراء والصوف شتاء كما كانوا يلبسون الجوارب القطنية والصوفية والحريرية . وكانت النساء حرائر وجوارى أكثر تفتناً في أناقتهن ، فكن يلبسن الإسترىق والسندس والوشى ، وكن يتحلين بالجواهر النفيسة من كل صنف ، وكن يتعطرن بأنواع الطيب والمسك والغالية .

ومضوا يفتنون في المطاعم ، فكانوا يصنعون منها ألواناً كثيرة وخاصة في بيوت الأمراء والوزراء ، مما جعل كثيرين يُعتون بالتأليف في كتب الأطعمة ، مثل ابن مسكويه ، الذي أحكم كتابه فيها غاية الإحكام وأتى منه بكل غريب حسن^(٢) ، ومثل ابن خلاد القاضي الذي أهدى إلى ابن العميد كتاباً في الأطعمة ، فأجابه بقصيدة طويلة عدّد فيها كثيراً من أنواعها التي ذكرها في كتابه^(٣) . وعرفوا حبشلة نوال ألوان الطعام على المائدة بين وضع ورفع . وكانت تقدم أحياناً قبل الطعام وأحياناً بعده الفاكهة والحلوى من كل صنف . وكانوا يمكنون بعد الطعام للسمر والشراب وسماع الغناء ، وكانوا يستطيعون ذكر الفكاهات والنوادر والحكايات الدالة على اللباقة في أثناء سمرهم ومتادمتهم على الشراب . ومن قديم تفرق الخمر بالغناء في إيران ، حتى ليرى صاحب الشهنامه في تربية قورش الملك الإيراني القديم صورة مجلس شراب وغناء كان قورش يشترك فيه بنفسه سابقاً ، وكأنما كانت الخمر والغناء إحدى شعائر القرس منذ أقدم العصور^(٤) ، وطبعي أن يظل ذلك ديدنهم حتى هذا العصر ، بحيث يشترك في المتاع بها الأمراء من مثل فخر الدولة^(٥)

فارص (الترجمة العربية) ص ٢٦٣ .

(١) ابن مسكويه ١٦٤/٥ .

(٥) ابن مسكويه ٣٨٦/٦ وانظر في عضد الدولة

(٢) أخبار الحكاهم للقفلى ص ٣٣٢ .

وجالس شرابه البهجة ٢١٨/١ وابن الأثير (طبعة دار

(٣) بهجة ١٦٨/٣ .

صادر - بيروت ٢٠/٩ .

(٤) انظر الشاهنامه نشر د . حوام ٣١٣/١ وراث

والوزراء من مثل أبي الفتح بن العميد^(١) والقضاة من مثل القاضي أبي أحمد منصور المروى^(٢) . وكانوا ينثرون الورود في قاعات الشراب^(٣) . وكان يجيئ بعضهم بعضاً بالورود والرياحين والفواكه في أثناء الشرب ، يقول عبدان الأصبهاني^(٤) :

سَقَيْتُ وَفِي كَفِّ الْحَبِيبَةِ وَرَدَةٌ وَأَتْرَجَةٌ تُغْرِى الْفُؤُوسَ بِصَوْنِهَا
مُدَاماً فَلَمَّا قَابَلْتَنِي بِوَجْهِهَا شَرِبْتُ لِحَيْثُنِي بَلُونِي وَلُونَهَا

ويبلغ من نفثي الغناء والرقص في فارس أن نجد عضد الدولة يفرض ضريبة فيها على المغنيات والراقصات^(٥) . وأكبر الظن أن إيران جميعها كان يشيع فيها ذلك بصورة مختلفة ، وكانت أكبر فرصة تتاح للناس كي يقصفوا ويمجنوا ما شاء لهم المجون والقصف هي الاحتفالات بالأعياد^(٦) المسبحة من مثل عيد الميلاد وعيد الزيتون وعيد الشعانين ، وفي العيد الأخير يقول أحمد بن المؤمل مشيراً إلى ما كان فيه من هو وموسيقى وغناء^(٧) :

سَقِيّاً لِدَهْرِ مَضَى إِذْ نَحْنُ فِي شُغْلٍ بِالزَّوْفِ وَالْقَصْفِ عَنْ شُغْلِ السُّلَاطِينِ
إِذْ يَوْمُنَا يَوْمُ عِيدٍ طَوَّلَ مُدَّتَنَا وَلَيْلُنَا كُلُّ لَيْلِ الشَّعَانِينِ

وكانوا يطلقون لأنفسهم العنان في الأعياد المبهجة من مثل عيد السُّقِّ ، وهو عيد لاشتعال النيران ، وكان يقع في شهر يناير من كل عام ، وبصور البيهقي في تاريخه الاحتفال به في سنة ٤٢٦ ، فيقول : « اقترب عيد السُّقِّ ، فأخذوا يجمعون له الطُّرْفَاءَ وعيدان الحطب ، حتى تراكت وأصبحت كالقلعة ، وأقاموا عرائس من الخشب صارت كالجلجل ارتفاعاً ، وأتوا بكثير من المعدادات والطيور وما يلزم هذا العيد من الحاجيات ، وحلَّ العيد وجلس السلطان في محجِّم له ، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النيران ، وكانت تُرى على بعد عشرة فراسخ ، وأطلقوا الطيور الجبلَّة بالنفط وكذلك الوحوش ، فكانت تجري وقد علقت بها النيران^(٨) . وكان أهم من هذا العيد عيد التَّيْرُوزِ في أول الربيع ، وكان موسماً كبيراً للمجون والشراب . ومثله عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر كل عام . ويقول البيهقي : « كان السلطان يجلس له صباحاً للمعايدة . . . ويجتمع أعيان الدولة

(١) ابن الأثير ١٦٧/٨ .

للبيروني ص ٢٧٩ .

(٢) دية القصر (طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة) (٦) انظر في احتفالهم بالأعياد كتاب الآثار الباقية

للبيروني ص ٢١٥ .

١٦٧/٢ .

(٧) البهجة ١٤٩/٤ .

(٣) بهجة ٢٤٤/٣ .

(٨) تاريخ البيهقي (الترجمة العربية - نشر مكتبة

(٤) بهجة ٣٠٠/٣ .

(٥) القاضي ص ٤٤١ وتحقيق مالهنت من مقولة 'الأخبار' ص ٤٧٠ - ٤٧١ .

والأمراء ومجلس النعماء ، ويبادرون إلى اللهو ، وتدور أقذاح الشراب ، وتعزف آلات الطرب ، يأخذ المغنون في الغناء^(١) .

وكانوا يخرجون مواكب وفردى للصيد والطرء ، وكان فخر الدولة البويهى مولماً بالصيد^(٢) . ومثله ملكشاه السلجوقي ، ويقال إن صيده بلغ في بعض الأيام سبعين غزالاً^(٣) . وكان من أحب هواياتهم إليهم اللعب بالترء والشطرنج ، وكانوا يشفقون بلبب الصولجان والكرة وبسباع الغناء . ومما يدل على انتشار كل هذه الملاهى في خراسان وإيران عامة أن نجد كيكائوس في القرن الخامس الهجرى يفرد في كتابه : «قابوسنامه»^(٤) فصولاً مختلفة لكل هذه الألعاب والملاهى ، وظل ذلك ديدنهم طوال العصور التالية .

٤

التشيع^(٥)

يقوم التشيع - كما مر بنا في قسم العراق - على أساس نظرية يؤمن أصحابها بالوراثة الشرعية لولاية الحكم على المسلمين أوبعبارة أخرى للخلافة ، فهى ليست مفوضة للأمة ، بل هى خاصة بمن اختارهم الله من آل البيت ، من الأئمة ، ويسمى كل منهم إماماً تفرقة بينه وبين اسم الخليفة للدلالة على مكانته الدينية . وتتفق الشيعة على أن الرسول ﷺ أوصى لعل بن أبى طالب بالخلافة بالقرب من غدِير خُم بين مكة والمدينة ، وهم فرق كثيرة ، أهمها ثلاثة : الزيدية والإمامية الاثنا عشرية والإسماعيلية .

والزيدية - كما مر بنا في قسم العراق - أقربهم إلى أهل السنة ، وهم يتسبون إلى إمامهم زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، وكانوا يُقرون ولاية الخلفاء من غير العلويين أخذاً بمبدئهم القائل بأنه تجوز ولاية المفضول على المسلمين مع وجود العلوى الأفضل ، وبذلك لم يطعنوا في الصحابين الجليلين : أبى بكر وعمر ولا في ولايتها أمور الأمة . وكانوا لا يأخذون بنظرية الإمام المختفى مثل الإمامية الاثني عشرية ، ولا بنظرية

(١) السبق في سنة ٤٢٧ ص ٥٣٩ . قسم العراق انظر مقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين

الفرق للبندادى والتبصير في الدين للإسفرائينى وفرق

الشيعة للزنجى ومقدمة ابن خلدون والمضائق الباطنية

(٢) برون (ترجمة الثولوى) ص ٢٢٨ .

(٣) ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مكتبة الأنجلو

(الإسماعيلية) للفرزلى واحتفادات فرق المسلمين والمشرىين

للنصر الرزى وبرون (ترجمة الشوافى) في مواضع

للصية .

(٥) بجانب مصادر التلخيص المذكورة في الفصل الأول من

مطرفة .

الإمام المستور مثل الإسماعيلية ، وهم لا يأخذون بفكرة العصمة في الإمام ولا بفكرة العلم الباطن ولا بفكرة أن الإمامة مقصورة على فرع الحسين وحده من العلويين دون فرع الحسن . وبذلك كانت الزيدية فرقة شيعية معتدلة .

ومرّبنا في قسم العراق حديث مفصل عن فرقة الإمامية الاثني عشرية وأنها تجعل الإمامة مقصورة على أبناء الحسين ، وترى أنها تابعت بعد علي في الحسن ثم الحسين وذريته بادية بابنه علي زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، وتفرقت بعد هذا الإمام السادس فرقة الإمامية عن فرقة الإسماعيلية كما مرّبنا في العراق ، إذ ترى أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم ، وتوالت بعده في أبنائه وأحفاده : علي الرضا ، فمحمد الجواد ، فعلي الهادي ، فالحسن العسكري ، فمحمد المهدي الذي اختفى ، وهو الإمام الثاني عشر ولذلك يسمون الاثني عشرية ، ويؤمن الإمامية حتى اليوم بأنه سيعود ويملا الأرض عدلاً وعلماً ، وهو بذلك الإمام المنتظر صاحب الزمان .

وعنصر أساسي ثان في عقيدة الإمامية عرضناه في قسم العراق وهو ما يعتقدونه من أن الإمام معصوم ، وهي عصمة ترفعه درجات عن الطبيعة البشرية في اعتقادهم إذ تجعله نقياً من الذنوب بريئاً من العيوب ، لا يعتره خطأ . وعنصر أساسي ثالث هو علمه لا العلم الظاهر فحسب ، كما يؤمن الزيدية ، بل العلم الباطني الإلهي الذي يتوارثه الأئمة عن النبي والذي يتقل فيهم من إمام إلى إمام ، بحيث يصبحون هم وحدهم العالمين بالمعاني الحقيقية للقرآن الكريم ، وهو ما فسح عند الإمامية والإسماعيلية أيضاً للتأويل الواسع في آيات الذكر الحكيم .

والإسماعيلية تختتم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفي قبل أبيه فعُدلت عنه الإمامية الاثنا عشرية إلى أخيه موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية فتسكت به لأنه الابن الأكبر لجعفر الصادق وعندهم أن النص على الإمام لا يتغير ، بل يرثه عنه ابنه الأكبر ، حتى لو توفي في حياة أبيه كما توفي إسماعيل ، وتبعه خلفاؤه في سلسلة متصلة ، وهم مستترون مخفون ، حتى آتت الدعوة السرية ثمرتها ، فظهر الإمام في شخص عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا .

وتسمى هذه الفرقة باسم السبعة تمييزاً لها من الإمامية الاثني عشرية ، لأنها تجعل أئمتها يتوالون في حلقات أو أدوار سبعة ، والسابع أعلاهم درجة إذ هو الإمام الناطق المبعوث برسالة تفوق كل رسالة سبقتها ، حتى رسالة الرسول ﷺ ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم . وعندهم أن الإمام هو التجلي الأعظم للعقل الكلّي ، وفي ذلك ما يؤكد نفوذ

الفلسفة الأفلاطونية إليهم وما يتصل بها من نظريتها المعروفة في الفيض ، وهى النظرية التى بنى عليها إخوان الصفا البصريون فلسفتهم الدينية فى موسوعتهم المشهورة . ومن تسمية نظريتهم أن العقل الكل الذى يتجلى فى أمتهم نجلى منذ آدم فى الأنبياء ، وهو الذى يسر الكون ويدبره ، وهو ما جعل الحاكم الخليفة الفاطمى الإسماعيلى يعتقد أن التجسد الإلهى تمثل فيه وأنه خالق عبادته . ومات مقتولاً ، فأدعى بعض الإسماعيلية حين ذاك أنه يعيش متخفياً ، وأنه سيرجع . وكان نظرية الرجعة عند الإمامية الاثنى عشرية وجدت طريقها إلى الفرقة الإسماعيلية فى شخص الحاكم . وكان القرامطة إحدى شعب الإسماعيلية ظنوا من قبل أن محمد بن الإمام السابغ إسماعيل سيرجع بعد موته ، وأنه الإمام الغائب المنتظر . ووضح أن الإسماعيلية غلت فى تشيعها غلواً بعيداً إذ رعت الأئمة إلى مراتب الآلهة ، حتى لنجد كثيرين من علماء الإسلام ومفكره يسمونهم دهرية زنادقة ، وقد حمل عليهم الغزالي حملات عنيفة فى كتابه « فضائح الباطنية » الذى سجل عليهم فيه ضلالتهم وخروجهم عن جادة الإسلام ، ولا بد أن نشير إلى أن تابى هذه الفرقة كانوا يصعدون فى سبع مراتب : مرتبة للعامة ، ثم تعلوها مراتب حتى المرتبة السابعة ، وصاحبها خليف عندهم بأن يكون من الدهاة . ومن حق الإسماعيلى والإمامى جميعاً أن يُخفيا عقيدتهما فى البلد الذى يسود فيه خصومها وهو المذهب المعروف عندهما باسم التقية ، وقد طبع دعوتها فى حقب وأماكن كثيرة بطابع السرية .

وهذه الفرق الشيعة المختلفة كانت على صلة وطيدة منذ أول الأمر بالاعتزال والمعتزلة ، فقد كان زيد بن على مؤسس فرقة الزيدية تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال . وتعاقد منذ العصر العباسى الأول مذهب الإمامية مع الاعتزال فى أثناء الجدل الذى كان دائراً بين أعلامها حتى لنجد النظام المعتزلى المشهور يؤمن بنظرية الإمامية الخاصة بعصمة الإمام ، وكان يعاصره ثمانية بن أشرس الذى لعب دوراً كبيراً لعهد المأمون فى حمله على أن يكتب إلى الآفاق بتفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وجميع الصحابة . ومن يرجع إلى معصنات الشيعة فى عقيدتهم يعدمهم بفردون فصولاً طويلاً للحديث عن التوحيد والعدالة ، على غرار ما يصنع المعتزلة . وفى رأينا أن هذه الصلة الوثيقة بين الاعتزال والشيعة هى التى جعلت أهل السنة فى العصر بنفرون منه ، ويعتقون المذهب الأشعرى .

وكانت إيران فى هذا العصر تُعد أكبر مركز للشيعة ، وقد مرت بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى حركة زيدية قوية غلبت على طبرستان وبلاد الديلم ، وعلى الرغم من إجهاز

الدولة السامانية عليها كما مر بنا في أوائل هذا الفصل ظلت لها هناك بقية ، وظل هناك أئمة يقودونها مثل الإمام المريد بالله أحمد بن الحسين الماروني المتوفى سنة ٤١١ للهجرة . وكان تقلد البويهيين الإماميين لإماراتهم المختلفة في إيران إيذاناً بأن يأخذ المذهب الإمامي طريقه إلى الانتشار ، واشتهرت مدينة « قم » باعتناقها وقد ظل مستشراً بها واعتنقه كثيرون في الحقب التالية ، وقبضَ له كثير من العلماء يعملون على نشره مثل ابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١ وقد كان أبوه شيخ الشيعة في مدينة « قم » وخلفه في مشيخته ، وألف كتباً كثيرة في المذهب ، محتجالة ، داعياً إليه ، ومن كتبه المطبوعة في طهران كتب العلل والأحكام وكتاب عقائد الشيعة الإمامية .

وقد نشطت الفرقة الإسماعيلية في إيران منذ أوائل هذا العصر ، ويقال إنهم استطاعوا أن يدخلوا في عقيدتهم نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان (٣٠١ - ٣٣٢ هـ) . مما جعل حرسه يضطره إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح ، ويقال أيضاً إن أبا علي بن سيمجور أحد رجالات الدولة في خراسان لأواخر أيامها كان إسماعيلياً ، مما جعل السلطان محموداً الغزنوي يفتك به . ويبدو أن الإسماعيليين جدوا حيتنهم في نشر دعوتهم بإيران ، حتى لنجد محموداً الغزنوي حين يستولى على الري من البويهيين سنة ٤٢٠ يكتب إلى الخليفة العباسي ببغداد خطاباً طويلاً ، يقول فيه ^(١) :

« قد أزال الله عن هذه البقعة أبدي الظلمة ، وطهرها من دعوة الباطنية الكفرة ، والمتدعة الفجرة . وقد تاهت إلى الحضرة المقدسة حقيقة الحال فيما قصر العبد عليه سعيه واجتهاده من غزو أهل الكفر والفسلال وقمع من نبغ ببلاد خراسان من الفئة الباطنية الفجار . . . وطلعت الرايات بسواد الرى . . . وخرج الدبالة معترفين بذنوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم ، فرجعنا إلى الفقهاء في تعرف أحوالهم ، فاتفقوا على أنهم خارجون عن الطاعة وداخلون في أهل الفساد ، فيجب عليهم القتل والقطع والنفي على مراتب جناباتهم . واعتقادهم في مذاهبهم لا يعدو ثلاثة أوجه تسود بها الوجوه يوم القيامة : التشيع والرفض والباطن . وذكر هؤلاء الفقهاء أن أكثر القوم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يعرفون شرائط الإسلام ، ولا يميزون بين الحلال والحرام ، بل يماهرون بالقتل والفساد وشتم الصحابة ، ويعتقدون ذلك ديانة . . . ويعمدون جميع الملل بخاريق الحكماء ، ويعتقدون مذهب الإياحة في الأموال والفروج والدماء .

والخطاب طويل ، وهو يصور مدى ما داخل العقيدة الإسماعيلية في إيران من فساد ،

حتى كان أصحابها لا يؤدّون شعائر الإسلام ، بل كانوا ينكرونه هو وجميع الديانات السماوية جملة . وليس ذلك فحسب ، فقد اختلطت بمقيدتهم العقيدة الزردكية الفارسية القديمة التي أحلّ صاحبها «مزدك» النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس ، ودعا إلى المكوف على اللذات والشهوات ^(١) . ونمضى بعد عهد محمود الغزنوي ، فوجد الدعوة الإسماعيلية تنشط في إيران طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة ، إذ تعهدا هناك دعاة مختلفون ، كان يؤيدهم تأييداً قوياً الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وقد ظل الرئيس الأعلى للإسماعيليين طوال ستين عاماً ، واستطاع أن يسطر سلطانه على واسط وبغداد حاضرة الخلافة العباسية في منتصف القرن الخامس . وقد حاربت الدولة السلجوقية العقيدة الإسماعيلية دون هوادة ، ولكن دعائها ظلوا منبئين في أنحاء إيران ، مثل ناصر خسرو الأديب الرحالة ، الذي لقبه أتباعه بـ «حجة خراسان» وقد زار القاهرة سنة ٤٣٧ وأقام بها سبع سنوات . وعاد إلى وطنه خراسان ، وأخذ يدعو للفاطميين الإسماعيليين بمصر ، غير أنه خصومه اضطروه إلى القرار إلى مرفعات «سجستان» . وكان أخطر منه في الدعوة للإسماعيليين الفاطميين أحمد بن عبد الملك بن العطاش الذي نهض بالدعوة في أذربيجان وأصفهان ، وقد استولى بجانب المدينة الأخيرة على حصن منيع يسمى «شاه دز» جعله وكرّاً لأتباعه ودعوته . وكان أشد منه خطراً الحسن بن الصباح ، وكان عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر ، وتلقن الدعوة عن بعض دعائها الفاطميين والایرانیين الذين صحبهم في مدينة الري ، ويقال إنه لقي بها في رمضان سنة ٤٦٤ ابن العطاش وإنه نصحه بالمسير إلى القاهرة حاضرة الخلفاء الفاطميين ليتلقن الدعوة من أربابها وشيوخها المقدمين . ووصل القاهرة سنة ٤٧١ وأسبغ المستنصر عليه جوارحه . ويقال إنه سأله من الخليفة بعده ؟ فأجابه ابنى نزار الأكبر ، ورجع إلى إيران سنة ٤٧٣ يدعو إلى نزار ، وولّى المصريون بعد المستنصر ابنه المستعل ، مما كان سبباً في انقسام الإسماعيلية إلى شعبتين : شعبة غربية تدعو إلى المستعل وتشمل مصر والشام وشعبة شرقية تشمل إيران وتدعو إلى نزار .

واتسعت دعوة الحسن بن الصباح ، حتى ضمت بين جناحيها كرمّان وطبرستان والدامغان وقزوین ، واستطاع الاستيلاء على حصن في غاية اللعنة ، هو قلعة «الموت» سنة ٤٨٣ ومعنى اسمها بلسان الدبلم تعليم العقاب ، كأنها ، لعلوها الشاهق ، وكرّله . وجعله استيلائه على هذه القلعة بضع لأتباعه خطة محكمة أن يستولوا على مثلها في إيران ،

فاستولوا على «خالنجان» بالقرب من أصفهان بالإضافة إلى ما كانوا استولوا عليه بجوارها من «شاه دز» واستولوا على «طَبَس» و«قَاين» و«تُون» و«رَوَزَن» و«خُور» و«خُوسَف» في قُهْسْتَان وعلى «شَمْكُوه» بجوار أبهر ، وعلى «أُسْتُونَاوَنَد» في مازَنْدَرَان ، وعلى «أَرْدَهَنْ» و«كُرْدُكُوه» وقلعة الناظر في خوزستان ، وعلى «قلعة الطنبور» بجوار أَرْجَان ، وعلى قلعة «خَلَاذُخَان» في فارس . وكان تملك الحسن بن الصباح وأتباعه لهذه القلاع الحصينة سبباً في أن يشعروا بأن لهم سلطاناً سياسياً ، حتى إذا توفى المستنصر ظلوا يدينون لئزار متفصلين عن الدعوة الفاطمية بمصر ، وكان يطلق عليهم اسم الإسماعيليين الباطنيين والحشاشين . وفي الاسم الأخير ما قد يدل على أن كبارهم - على الأقل - كانوا يعرفون المخدر المعروف باسم الحشيش . ومضوا يدعون سرّاً لعقيدتهم ، ونحووا إلى جماعات إرهابية تقتل كل من يقف في سبيل دعوتها ، وكان من أهم من قتلوه نظام الملك الوزير السلجوقي المصلح حين تصدى لهم وحاربهم وحاصر قلعتهم «أَلُوت» على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع . وترى ابن الأثير يذكرهم ويذكر ما كانوا يسفكونه من دماء ويشيرونه من رعب على مر السنين ، من مثل قتلهم لفخر الملك بن نظام الملك ولعبد الرحمن السميّامي الوزير السلجوقي وللقبّة عبد الواحد الروياني في طبرستان والقاضي سعد المروى في همدان . وكان السلاجقة يردون على هذه الاغتيالات بقتل بعض زعمائهم وأتباعهم ، على نحو ما هو معروف عن قتل ابن عطاش وبعض أتباعه بأصبهان سنة ٤٩٩ وللسلطان سنجر مقتلة عظيمة فيهم سنة ٥٢١ رداً على قتلهم لوزيره معين الملك . وكان الحسن بن الصباح حياً في أيام هذا السلطان ، غير أنه لم يكن يبارح قلعة «أَلُوت» وبها توفى سنة ٥١٨ للهجرة . وخلفه في رئاسة الطائفة كيايزرك حميد ثم ابنه محمد ، وتبعها دورُ ظهور الأئمة من أحفاد نزار ، إذ ظلت في أيديهم مقابلد السلطان والدعوة : وظل نشاط هؤلاء الحشاشين أو الإسماعيليين الشرقيين ، حتى استطاع المغول في منتصف القرن السابع الهجري دكّ حصونهم وقتل آخر أئمتهم ركن الدين خورشاه (٦٥٣ - ٦٥٥ هـ) . وبقتله وتحطيم حصون أتباعه ينتهى عهد الإسماعيلية بإيران ، ولا تبقى منهم إلا بقية لا وزن لها ، ويعود هذا الفرع الإسماعيلي الشرقى إلى الظهور في الهند ، ويتخذ أصحابه «آغاخان» رئيساً روحياً لهم ، وعادة يكون من أحفاد ركن الدين خورشاه الذى كان آخر أمراء قلعة «أَلُوت» .

ومنذ قضاء المغول على إسماعيلية إيران تتحول تدريجاً إلى قبضة الفرقة الإمامية الاثني عشرية ، ومع ذلك فقد ظل كثيرون يتبعون المذهب السنّى ، ويتعكس ذلك على العلماء

والفقهاء والصوفية لا بين من كانوا يتخذون العربية لسانهم فحسب ، بل أيضاً بين من كانوا يتخذون الفارسية لساناً لهم ، مثل الشيخ سعدى الصوفى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ وله شعر عربى قليل . ولا نصل إلى عصر إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية (٩٠٧ - ٩٣٠ هـ) حتى يصبح المذهب الإمامى الاثنى عشرى عاماً فى إيران إذ أعلنه مذهباً رسمياً للدولة . وبذلك غلب على مذهب أهل السنة هناك حتى اليوم .

ويحتفل الشيعة وفى مقدمتهم الإمامية من قديم - كما مر فى العراق - بعيدين : عيد الغدير ، يريدون غدير خم ، وموعده الثامن عشر من ذى الحجة ، وهو الغدير الذى يروون أن الرسول ﷺ أوصى عنده لعل بالخلافة من بعده قائلاً له . أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، وهو عندهم عيد سرور يظهرون فيه الفرح والزينة ، وكان أول احتفال لهم به فى عهد البويهيين ، وظل ذلك ثابتاً عندهم على مر السنين . أما العيد الثانى فكان مأتماً كبيراً ، يقيمونه يوم عاشوراء (العاشر من شهر المحرم) من كل عام حداداً على قتل الحسين وآله فيه بكربلاء ، تائبين إلى الله ومستغفرين من آثام هذه الكارثة المروعة . وهذا العيد الحزين أقدم من عيد الغدير بكثير ، حتى ليرجع البهرونى إلى زمن بنى أمية ، قائلاً إن الناس كانوا يظهرون فيه السرور والفرح ، بينما كانت العامة (يقصد الشيعة) تكثر فيه تجديد الأواني والياباب^(١) . وقد استحال منذ عهد البويهيين إلى يوم حداد كبير ، يترامى فيه الشيعة بأجسام ضاوية وشفاء ظامئة وعيون ساهمة بأكية ، ومن حولهم الشعراء يرون الحسين رثاء حاراً مصورين يؤس العلويين وما احتملوا من آلام التفتيل والاضطهاد فى أيام الأمويين والعباسيين وما عانوا من صنوف اليأس والعذاب والشقاء ، وكيف كانت حياتهم كلها معاناة وبلاء . وصيغ ذلك الحزن العميق فى تلك الذكرى الرهية شعر الشيعة بسواد لا آخر له ، فكله شكوى ممضة وعبرات وزفرات وأنات .

وكان من آثار إجلال الإمامية الاثنى عشرية لأنتمهم أن أصبح حجهم إلى قبورهم فى العراق سنة متبعة ، وأصبح للأماكن والأضرحة التى دفنوا فيها قلعة خاصة عندهم ، مما جعل البويهيين يهتمون بها ، ولعل فى هذا الاهتمام منهم ما يدل على أنهم كانوا إمامية دلالة قاطعة ، وكان أول من اهتم بذلك عضد الدولة فإنه شيد ضريحاً كبيراً لقبر على بن أبى طالب بالنجف ، ونقل إليه جثمانه بعد وفاته فدفن به ، كما دفن به أيضاً ابنه شرف الدولة وبهاء الدولة^(٢) . واهتم عضد الدولة أيضاً بضريح الحسين ، وبنى حوله حاضرة

(١) الآثار الباقية للبهرونى (طبعة أوروبا) ص ٣٢٩ . بيروت ١٨/٩ ، ٦٦ ، ٢٤١ .

(٢) انظر المنتظم ١٢٠/٧ وابن الأثير (طبعة دار صادر

جليلة^(١). ولا يزال عيد عاشوراء حتى اليوم مأتماً كبيراً يقام في كل عام ، بقمية إمامية إيران والعراق .

٥

الزهد والتصوف^(٢)

ظلت نزعة الزهد التي تحدثنا عنها في كتابي العصر العباسي الأول والثاني متغلغلة في نفوس كثيرين من أهل إيران وفقهائهم ومحدثيهم ، وكانت المساجد بيوتاً مفتوحة للمعبادة والنسك ، وكان الوعاظ لا يزالون يعظون فيها داعين الناس إلى الزهد في متاع الحياة الفانية وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة . وأقبل كثيرون على حياة التقشف والنسك ، وقرأ في كتاب للمحدثين مثل تذكرة الحفاظ للذهبي أو في كتاب للفقهاء مثل طبقات الشافعية للسبكي فستجد صوراً قوية للزهد ، وسترى مَنْ ظل صائماً طول حياته ، ومن بلغ من نسكه أن لا يرفع رأسه إلى السماء داعياً ، ومن يدق في أحكام الشريعة مبالغاً تخرجاً وخوفاً من الله مثل أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ هـ فقد حكى السبكي في ترجمته أنه بلغ من ورعه وتخرجه أنه لم يكن يستند في داره إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ولا يدق فيه وتدأ وأن جارية أرضعت ابنه إمام الحرمين الفقيه المشهور لبنا وهو في المهد ، فقلبه ، ليرده ، حتى لم يدع في باطنه شيئاً ، قائلاً : هذه الجارية ليست لنا وليس من حقنا أن نتصرف في شيء من لبنها . ولا ريب في أن كثرة الوعاظ هي التي أعدت - من بعض الوجوه - لسريان هذه الروح المتحرجة الورعة ، ويتوقف السبكي مراراً في طبقاته ليعصور لنا وعظ الوعاظ في نيسابور وغيرها ومدى تأثيره في نفوس السامعين كقوله عن أحدهم : « صار مجلسه روضة الحقائق والدقائق ، وكلما نه محرقه الأكباد والقلوب ، ومواجهه مقطرة الدماء من الجفون مكان الدموع ، ومقطرة الصلور

(١) المتظم ١٤٩/٧ .

الغافلن للمرقندى وطبقات الشمران ، وانظر جوله تسيير في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام » ونيكلسون في كتابه « في التصوف الإسلامي وتاريخه » ترجمة أبو هلال خفي والملايين والصولية وأمل الفتوة لخصي وآدم ميتر في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

(٢) راجع في الزهد والتصوف المتظم وابن الأثير وطبقات الشافعية للسبكي في مواضع متفرقة وكتاب طبقات الصوفية للسلي وحلية الأولياء لأبي نعم والفصل في الملل والنحل لابن حزم ورسالة القشيري وإحياء علوم الدين للنزالي وصفة الصفة لابن الجوزي وقوت القلوب للسكي ومصارح المشايخ للسراج وستان العارفين وتبنيه

بالتخويف والتفزع^(١) .

وأخذت موجة التصوف في العصر تزداد حدة وقوة ، وكان من مظاهر ذلك كثرة الربط المنظمة منذ القرن الرابع الهجري ، وأصل معنى الرباط مكان مرابطة الخيل للجهاد والحرب ، وكان زوايا المتصوفة كانت بُنيت لهم في هذا التاريخ على حافة قواعد الحرب الأمامية لجهاد أعداء الإسلام . واتسع مدلول الكلمة فيما بعد فأخذت تطلق على زوايا المتصوفة عامة ، وكأنما أصبحت مكاناً لتجمع المجاهدين أبنا وجدت . ويقول المقدسي في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان في إسباج فيما وراء النهر على حافة الحرب مع الترك ألف وسبعمائة رباط ، بينما كان في بيكند ألف رباط^(٢) ، وهي ثغر جليل بين بخارى ونهر جيحون . وإذا كان هذا العدد الضخم من الرباطات في ثغرين من ثغور الحرب فيما وراء النهر فما بالنا بما كان يقيّة الثغور . ويذكر الحجويزي الأصفهاني أنه لقي ثلثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان ولكل منهم طريقته^(٣) .

ويشير المقدسي إلى كثرة الخاناتاهات بإيران وما وراء النهر ، وهي بيوت للعبادة كان يتخذها المتصوفة للنسك والإقامة ، وهيات هذه البيوت بسرعة لفكرة الشيخ ومريده ، إذ كان يلزم شيوخ التصوف تلاميذ يأخذون عنهم طريقتهم وينشرونها ، وكانوا يمنحون مريدتهم خرقاً حين يتم قبولهم رمزاً إلى اعتراهم متاع الحياة ، بل كل الحياة وزخارفها ، وكان ذلك يتم عن طريق مجاهدات كثيرة يقوم بها المريد قبل قبوله ، وفي مقدمتها التجرد الكامل عن ضرورات الحياة ورفض مباحها وتبذ متعها وتحمل آلام الفقر والجوع وكل ما يتعلق بالجسد ، حتى الزواج فكان كثير منهم لا يتزوجون ، بل قل إن كثرتهم الغالبة كانت لا تتزوج ، ويبحث أبو الليث السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ كل من يستطيع الاستغناء عن الزواج أن يظل أعزب^(٤) حتى يتجرد لعبادة الله ويتفرغ تفرغاً كاملاً . وحتى المرض ينبغي أن لا يهتم به الصوفي فيعرض نفسه على الأطباء للتداوى ، فالطبيب هو الله ، وهو جانب من عقيدتهم في التوكل على الله حتى التوكل ، حتى ليهمل الصوفي كل تصرف شخصي ، ويترك نفسه لعناية الله وقضائه ، فلا يفكر في رزقه ولا في قوته ولا في غده ثقة في الله . ودائماً يرددون ذكر الله ، واتسع ذلك عندهم حتى كانوا يعقدون له اجتماعات تقف بها طائفة منهم في صفين متقابلين ، وهي تذكر الله ، متحركة بجسدها دون أقدامها يميناً

الرية - للدكتور إسعاد عبد الحادي (نشر المجلس الأعلى

للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١/ ٣٩١ .

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٦٩ .

(٢) أسن التلسم للنفسي ٢٧٣ . ٢٨٢ .

(٣) انظر كشف المحجوب للهجويزي - الترجمة (٤) انظر كتابه بستان العارفين ص ١٩٧ - ١٩٨

ويسارا، ومنشد ينشد في أعلى الصفيين، وفي أثناء ذلك ييم نغم منهم ويتش، حتى
 ليحس كأنه غاب عن عالم حبه، وهو ما يسمونه بالسكر وكأنما يروى رباً مسكراً بجبال
 الذات الإلهية، إذ تمتلئ بنور الله نفسه ويسلبها حواسها الجسدية، فتشعر كأنما تتجرد،
 عن كل إرادة، لمحبوبها الرباني، وهو ما يسمونه بالهبة الإلهية، وكأنما الذكر رحيقها
 المسكر الذي يذيب الصوفي في الجبال الرباني ويعمله يقني فيه في وجد لا يائله وجد.
 ومنذ الحلاج الذي تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني أخذ بعض المتصوفة يؤمنون مثله
 بفكرة الاتحاد بالله، معتقدين أنه يتجلى فيهم كما يتجلى في خلقه، وكأنهم يشاهدونه في
 أنفسهم، أو كأنما يحمل فيهم، مما هياً لظهور فكرة الحلول عند بعض الغلاة من المتصوفة،
 وكانت هذه الأفكار سبباً في أن يحدث شيء من الانفصام بين أهل السنة والمتصوفة ووسّع
 الهوة بين الطرفين أمثال أبي سعيد بن أبي الخير (٣٥٧-٤٤١ هـ). أكبر الصوفيين الإيرانيين
 المتفلسفين في عصره، وكان يعمل عمل الصوفي بقلبه على أداء فرائض الإسلام وأحكامه،
 وفي ذلك يقول ابن حزم: «إن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه
 الشرائع... وبلغنا أن ينسابور اليوم في عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد بن أبي الخير من
 الصوفية مرة يلبس الصوف، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال، ومرة يصلي في اليوم
 ألف ركعة، ومرة لا يصلي فريضة ولا نافلة، وهذا كفر محض، ونعوذ بالله من
 الضلال»^(١). وليس هذا كل ما أحدث الهوة بين المتصوفة وأهل السنة، فقد أوغل
 بعضهم في آراء ضالة، حتى ليمتنق بعض آراء المزدكية في المكوف على الحمر
 واستحلال الهرم، وغلا بعضهم في تقدير شيوخ الصوفية حتى قدمهم على الرسل
 والأنبياء، يقول ابن حزم: «وطائفة من الصوفية زعمت أن في أولياء الله تعالى من هو
 أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وقالوا: من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه
 الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلت له المحرمات كلها... وقالوا
 إنا نرى الله ونكلمه، وكل ما قلّد في نفوسنا فهو حق»^(٢).

ولم تقف المسألة عند أفراد، فقد أخذت بعض طوائف الصوفية في إيران يضعف
 عندها الوازع الديني ويشجع عنها إهمال فرائض الإسلام، وسرهمان ما تحولوا إلى طوائف
 من المتسولين، نذكر منهم جماعة الكيرامية بخراسان وماوراء النهر، وكانوا، أو قل تحولوا،
 دراويش يطوفون في البلدان لابسين أردية من الصوف، ومدلين فوطا على رموسهم تحيط

بها قلانس طويلة ، ويقول المقدسي إنهم لا يغفلون من أربع خصال : التقى والعصية والذل والكُذبة أى التسول^(١) . ومثلهم الملامية ، وكان مبدؤهم الأسامي الملامية ، فالصوفى الكامل فى رأيهم من يرتكب أشياء يلومه عليها الناس ، ومن أجل ذلك كانوا يقومون بأعمال ينكرها الشرع ، وقد ينتهكون فيها حرمة ، حتى يتم لهم مبدؤهم ، وأعدوا مثل الكرامية لظهور فكرة الدراويش الرُحل الذين يعيشون على التسول ، ويتخذونه ذريعة للبطالة ، وكأنما أصبح الصوفى هو التسول ، ولا بأس من أن يُسقط عنه الفروض الدينية أحياناً .

ولم يكن التسول بغضب أهل السنة بمقدار ما كان يفضيهم إنكار فرائض الإسلام وسنته ، مما جعلهم يحملون على المتصوفة حملات شعواء ، متهمين لهم بالزندقة والكفر ، وزاد هذه الحملات اشتعالاً ما وجدوه يتردد على ألسنة المتصوفة وفى كتبهم من كلام عن السكر والفناء واتحاد الصوفى بالذات الإلهية ، ومن الحق أنه كان هناك كثيرون من الصوفية لا يلوكون كلمات الاتحاد بالله ، ويرون أن الصوفى لا يبلغ مرتبة الكمال إلا إذا أدى الفرائض والسنة ، محتصاً صادقاً . غير أن هؤلاء لم يكونوا موضع الخصومة مع أهل السنة إنما كان موضعها دراويش الملامية والكرامية وأمثال أبى سعيد بن أبى الخير ، ممن أسقطوا فرائض الإسلام وشعائره .

وأخذ هذا الصدع بين الصوفية وأهل السنة يتفاقم ، وكان لابد أن يتراب ، حتى لا تنتشق الأمة على نفسها انشقاقاً قد يؤول إلى عواقب وخيمة ، فقبض الله لها صوفيين عظاما ، تداركوا هذه الطامة الكبرى كان أولهم أبو نصر السراج^(٢) عبد الله بن على الطوسى الزاهد صاحب كتاب اللمع المتوفى سنة ٣٧٨ وفيه قال أبو عبد الرحمن السلمى تلميذه فى كتابه «طبقات الصوفية» : «كان المنظور إليه فى ناحيته فى الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلوم الشريعة » . فتصوفه لم يكن تصوفاً فلسفياً يتغلغل فى الحلول وما إليه ، بل كان تصوفاً سنياً يرتبط بأداء الفرائض الدينية . وكان رحالة تجول فى العالم الإسلامى من نيسابور إلى القاهرة ، ووفد على بغداد فأفردت له غرفة خاصة فى جامع الشونيزية وأعطى رياسة الدراويش . ولا تغفلوا إذا ذهبنا إلى أنه يعد مؤسس مدرسة التصوف السنى فى عصره ، وهو تصوف يستمد من الكتاب والسنة ، وليس فيه حلول ولا شطحات .

٩١/٣ وكتابه اللع (نشره نيكسون فى سلسلة جب

(١) احسن التقاسيم ص ٤١ .

(٢) انظر فى أبى نصر السراج الطوسى طبقات الصوفية التذكارية .

للسلمى وكشف المحجوب للهجويزى وشرحات اللع

ويوضح مذهبه الصوفي كتابه اللمع الذى أشرنا إليه ، وفيه يفيض فى الحديث عن حقيقة التصوف ومذهب الصوفية ومقاماتهم وأحوالهم . وتلقن عنه المذهب فى نيسابور تلميذه أبو عبد الرحمن السلمى ، ولقنه بدوره عبد الكريم^(١) القشيرى النيسابورى ، وتلمذ عبد الكريم أيضاً على أبى على الدقاق . وكان متصوفاً سنياً ، فوصل تلميذه بهذا التصوف ، بل ملأ قلبه به حاسةً كما ملأه نفوراً من التصوف الفلسفى وما دخل عليه من أفكار بوذية هندية كفكرة التسول والمسكنة ، وكذلك ما دخل عليه من أفكار الاتحاد بالذات العلية والحلول . وما توفى سنة ٤٣٧ للهجرة حتى يؤلف رسالته المشهورة التى طُوِّت الآفاق غرباً وشرقاً وقد وجهها إلى جماعات الصوفية فى البلدان الإسلامية ، ليصحح لهم أفكارهم عن التصوف بما رسمه فيها من مبادئ التصوف السنى الحقيقى وما سجله من سير أعلام التصوف وأقوالهم ، مما يصل التصوف وصلاً وثيقاً بالشريعة ، وهو يستلها بقوله :

« اندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاعتداء ، وقلّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم ومنهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات . ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادّعوا أنهم تحرّروا من رِقِّ الأغلال ، ونعشقوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم مَحْوُّ ، وليس لله عليهم فيما يورثونه عتب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية .

وبهذه الرسالة العظيمة التى شرقت وغربت وطارت كل مطار رفع القشيرى الحواجز التى كانت قد استحكت بين أهل السنة والمتصوفة بل لقد أثبت أنها أقواس وهمة ، فالتصوف ليس خصصاً للشريعة ، بل هى قوامه وحيراطه الموصل إليه وأساسه وعماده . ولم يلبث متصوف كبير أن أحكم هذه الصلة إحكاماً وثيقاً ، وهو أيضاً نيسابورى ، أصله طوسى حقا ولكنه تلقن التصوف السنى فى نيسابور حيث مدرسته الكبرى : مدرسة أبى نصر السراج والقشيرى ، ونقصد أبا حامد^(٢) الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ . وقد لزم فقهاء

(١) انظر مصادر ترجمة القشيرى فى الفصل الرابع من (٢) انظر فى الغزالي المنتظم ١٦٨/٩ واللباب ١٧٠/٢ والوفاء بالولايات ٢٧٤/١ وابن خلكان (طبعة دار = هذا القسم .

نيسابور وأخذ عنهم كل ما عندهم ، وسرعان ما أصبح شيخاً يُشار إليه بالبنان ، وأكْبُ
الطلاب على دروسه . وأخذت شهرته تطبّق الآفاق . وقدم على نظام الملك وزير ملكشاه
السلجوقي ، فعيّنه أستاذاً للفقه الشافعي في مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٥ هـ ولم يلبث أن
اعتزته أزيمة نفسية سنة ٤٨٨ هـ فبارح بغداد إلى أداء فريضة الحج ، وولّى وجهه نحو الصوامع
النائية في مساجد بيت المقدس ودمشق معتزلاً للناس مستغرقاً في تأمل الفرق الإسلامية ،
واستقر في نفسه أنه ينبغي تخليص الأمة من الدقائق التي يخوض فيها المتكلمون ومن
خلافات الفقهاء وما يتجادلون فيه من فروع دون طائل ، وأخذ يحمل على الفقهاء
والمتكلمين جميعاً حملات عنيفة ، مبيّناً أن ما هم فيه من جدال ليس من الدين في شيء ،
وأن من شأنه أن يزعزع العقيدة العامة ويحدث بلبلة في العقول . وبالمثل حمل على الفلسفة
وأعلن عليها حرباً شجواء في كتابه «تهافت الفلاسفة» وخاصة على فلسفة ابن سينا المشائية ،
ووجّه حملاته بقوة إلى الإسماعيلية في كتابه «فضائح الباطنية» . وهدته تأملاته في عزله
إلى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والسنة كي ينمو الشعور الديني ويصبح تجربة نفسية
قلبية بحيث يتعانق عمل القلب وعمل الجوارح في أداء الشعائر والفروض والتوافل
حتى ينهض بها المسلم مصحوبة بالإخلاص وبصدق الشعور الباطني ، وحتى
تكون محبة الله الدافع الأساسي لكل ما يصدر عنه من قول وفعل . وألّف على هذا الهدى
كتاب «إحياء علوم الدين» محلاً فيه الحياة الدينية والأخلاقية للمسلم على مبادئ تستمد
من التصوف وروحه ، وتقصد التصوف السني الذي أقام هو والقشيري والسرّاج بنيانه ،
والذي يرفض أفكار الصوفية الغالية مثل الاتحاد بالله والحلول . وقد جعل القلب أساس
السمي إلى الله حتى يقرب منه المسلم ويتألم بمحبته ومبتغاه ، وحقاً لا بد أن تؤدي الفرائض
والسنة ، ولكن لا بد معها من عمق الإخلاص وعمق الشعور الديني وصدقه ، إذ هو
جوهر الحياة الدينية . وبذلك وصل الغزالي وصلاً وثيقاً بين أهل السنة والمتصوفة دون لجّاج
في اتحاد المتصوف بالذات الإلهية ودون تعرّف في شبك الحلول ، ومع الإيمان بأن أحكام
الشريعة أساس الحياة الدينية الصادقة المقعّمة بالإخلاص . ومن أهم ما نفذ إليه الغزالي في

لجلد تيسير القسم الرابع وفي التصوف الإسلامي ليكنسون
ترجمة صفح ١٣٩ وسيرة الغزالي لعبد الكريم العيّان
(طبع دمشق) والحقيقة في نظر الغزالي لحيان دنيا (طبع
دار المعارف بمصر) .

= صادر ٢١٦/٤ وطبقات الشافعية للسبكي (١٩١/٦)
ومقدمة بويج لنشرته لكتابه تهافت وطبع بيروت ومؤلفات
الغزالي لعبد الرحمن بدوي ومحاضرات مهرجانه في دمشق
سنة ١٩٦١ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بوروي
١٩٦١ ويراون ص ٣٦٨ والعقيدة والشريعة في الإسلام

أثناء كتاباته فكرة الحقيقة المحمدية ، وهي تبدو واضحة - كما يقول نيكلسون^(١) - في كتابه «مشكاة الأنوار» وكان الرسول صورة للأمر الإلهي أو الكلمة الإلهية . وكان لهذه الفكرة تأثير بعيد في متصوفة الأجيال التالية ، ونقصد فكرة الإنسان الكامل الذى يشتمل في الرسول ﷺ . وقد تكاملت للغزالي هذه التركة الصوفية في أثناء عزلته وخلوته بصوامع مساجد الشام مدة عشر سنوات ، عاد بعدها إلى بغداد ، ولكنه لم يعقد بها مجالس للفقهاء أو علم الكلام ، وإنما عقد بها مجالس للوعظ حدث فيها بكتابه «الإحياء» . وراجع إلى موطنه خراسان وألم بالمدرسة النظامية في نيسابور مدة يسيرة وتركها إلى طوس مسقط رأسه . وهناك أقام بجانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للمتصوفة ، واشتغل بالنسك والعبادة حتى لبى نداء ربه بعد أن زواج بين التصوف والشريعة مزاجية بقيت على مر العصور التالية ، وبعد أن هاجم الفلاسفة هجوما عنيفا جعلها تسقط أمام التصوف وصولحانه . وقد ازدهر التصوف السني في إيران وغير إيران من العالم الإسلامى ، بفضل أعلامه الثلاثة السابقين وخاصة الغزالي ، وليس معنى ذلك أن التصوف الفلسفى انتهى ، فقد ظلت منه أسراب ولكنها أسراب فردية على نحو ما يلقانا عند يحيى السهروردى^(٢) الإيراني المولود بسهرورد سنة ٥٤٥ للهجرة في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال وقد أكب على كتب التصوف والفلسفة . واستوت له فلسفة صوفية إشراقية وسنعود إلى الحديث عنه في الفصل الرابع . ومن أصحاب التصوف الفلسفى بعد السهروردى صدر الدين الشيرازى المتوفى سنة ١٠٥٠ للهجرة وهو أهم من كتب بعده في التصوف الإشراق على نحو ما يتضح في كتابه «الأسفار الأربعة» .

ومنذ الغزالي بل قبله منذ السراج والقشيري بنشط نشاطاً واسعاً التصوف السني في إيران ، وقد أخذت تظهر فيه مع مر الزمن طرق يتبعها كثيرون ، من أهمها طريقة النقشبندية ، وكان تيمورلنك يرمى أهلها ، كما مربنا في القسم الخاص بالعراق ، وعاصرتها طريقة البكطاشية ، وقد غمست في التشيع وفي شيء من التصوف الفلسفى . وبدون شك أنتجت إيران في هذا العصر وخاصة منذ القرن السابع طائفة كبيرة من شعراء التصوف في الفارسية في مقدمتهم جلال الدين الرومى (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) . والشيخ سعدى الشيرازى المتوفى سنة ٦٩١ وله بعض قصائد عربية ، وخلفه الصوفى الكبير حافظ الشيرازى المتوفى سنة ٧٩١ وفى الحق أن التصوف ظل مزدهراً في إيران قروناً متطاولة .

(١) في التصوف الإسلامى وتاريخه ص ١٤٦ وما بعدها . الفصل الرابع من هذا القسم .

(٢) انظر مصادر ترجمة يحيى السهروردى في ترجمته في

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

نشطت الحركة العلمية في العشرين : العباسي الأول والعباسي الثاني نشاطا عظيما ، فن تعلم الناشئة في الكنائس إلى تعليم للشباب في المساجد ، ومضت على هذا النحو في أوائل عصر الدول والإمارات في إيران وغير إيران ، وكانت الناشئة تعلم الخط والكتابة والقراءة وشيئا من الحساب وبعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض الأشعار . أما المساجد فتحولت بجانب ماكان يقام فيها من صلوات إلى جامعات كبرى ، يتعلم فيها الشباب جميع فروع العلم . وكان الأستاذ عادة يستند إلى أسطوانة في المسجد ، ويتحدث الطلاب حوله ، وهو يملئ عليهم محاضراته . وكانوا يتكاثرون في بعض الحلقات ، فلا تسمع الصفوف الأخيرة كلام الأستاذ ، فينهض مُستَمِعٌ بترديده ، حتى تسمعه تلك الصفوف . وكانت أكثر الحلقات طلابا حلقات الفقهاء والمحدثين . ولم تكن هناك رسوم أو أجور تؤخذ من هؤلاء الطلاب فقد كانت الدولة تتكفل بأجور العلماء ، وكان منهم من يأبى أن يأخذ أجرا على دروسه ، اكتفاء بما يكسبه من تجارة له أو عمل .

ولا نبالغ إذا قلنا إن القرنين الرابع والخامس للهجرة بإيران يُعدّان أزهى قرون هذا العصر من حيث النهضة العلمية وبلوغها الأوج المتظر ، ولعل مرجع ذلك إلى التنافس الذي نشأ بين أصحاب الإمارات حينئذ ، فقد مضى كل منهم بمجهود هذا بالغا في أن يضم حوله علماء العصر ليزدان بهم بلاطه وتزدان بهم دولته وكى ييمثوا في شباب الدولة الطموح إلى تحقيق مالم يحققه العلماء قبلهم . ولعل عضد الدولة خير من يمثل ذلك بين البويهيين ، فقد كان يقدر العلم والعلماء ويُجرى الرواتب والأرزاق على الفقهاء والأدباء والقراء ، فرغب الناس في العلم ، وكان هو نفسه يتشاغل بالعلم ، ووجد في تذكرة له : إذا فرغنا من حل أقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، وإذا فرغنا من كتاب أبي

على الفارسي النحوي تصدقت بخمسين ألف درهم ^(١) . ويقول ابن الأثير : « كان يجلس مع العلماء يعارضهم في المسائل ، فقصده العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، منها الإيضاح في النحو والحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ، والكناش الملكي في الطب لعل ابن عباس الجعفي ، وكتاب التاجي في التاريخ لأبي إسحق الصائغ إلى غير ذلك » . وكان خلفاؤه من البويهيين يُعْتَوْنَ بالعلم وأهله . وكذلك كان السامانيون ، حتى قالوا إن خراسان جنة العلماء ، وكانت بها نيسابور أكبر مركز للعلم بإيران في العصر ، وسيتردد اسمها كثيرا فيما يلي من كلام . وبالمثل كانت الدولة الزيارية تُعْنَى في طبرستان بالعلم والعلماء . ولم تكن تقل عنها عناية الدولة الخوارزمية بأمرائها الثلاثة في مدينة خيوه المعروف كل منهم باسم « مأمون خوارزم » . ويكنى أن نعرف أنه كان يعيش في رعاية ثالثهم الذي استولى محمود الغزنوي على إمارته سنة ٤٠٨ للهجرة صفوة من رجال الفلسفة والعلم في مقدمتهم البيروني وابن سينا وأبوسهل المسبحي والطبيب ابن الحمار والرياضي أبو نصر بن المراق ، وكان محمود الغزنوي قد طلبهم من مأمون خوارزم قبل استيلائه على إمارته ، فاستدعاهم وعرض عليهم رغبته ، وليأها ابن المراق وابن الحمار والبيروني ، ورفضها أبوسهل وابن سينا ، وولي الأخير وجهه نحو قابوس بن وشمكير الزبيري صاحب طبرستان ^(٢) . وفي هذا ما يدل على مبلغ اهتمام محمود الغزنوي ^(٣) بجمع الفلاسفة والعلماء في عاصمته « غزنة » التي جعلها مركزا من أهم مراكز العلوم والآداب في الشرق الإسلامي وعمت النهضة في دولته مدنا أخرى مثل هراة . وكثر حينئذ إهداء المؤلفين كتبهم للأمرء ، وكانوا أحيانا لا يقتصرون بها أميرا واحدا ، بل يتجمعون بها أمراء الدول والإمارات المختلفة ، على نحو ما كان يصنع الثعالبي ، فقد أهدى كتابه : « المبهج » وه النفل والمحاضرة إلى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان وجرجان وكتبه : « النهاية في الكناية » و« نثر النظم » و« اللطائف والظرائف » لمأمون بن مأمون أمير خوارزم ، وكتابه « لطائف المعارف » للصاحب بن عباد وزير البويهيين ، وكتابه « سحر البلاغة » و« فقه اللغة » للأمير أبي الفضل الميكالي راعي العلم والأدب في نيسابور . وكان مما عمل على ازدهار النهضة العلمية في العصر منذ أوائله تأسيس المدارس فيه ، وكانت نيسابور أول مدينة إيرانية سبقت إليها ، إذ تأسست بها في منتصف القرن الرابع الهجري مدرسة أبي حفص الفقيه ، وكان يدرس بها للطلاب ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١

(١) انظر للتظم ١١٥/٧ وابن الأثير ٧١/٧ . ١١١ .

(٢) انظر برون (ترجمة إبراهيم أمين الشواربي) ص (٣) انظر في لقاءه ابن تثيري بروي ٢٧٣/٤ .

للهجرة^(١) ، وفي أواخر القرن الرابع بُنيت بها مدرسة للمحدث الكبير ابن فورك^(٢) المتوفى سنة ٤٠٦ ومدرسة ثانية سُميت دار السنة^(٣) . وكثر بها بناء المدارس في النصف الأول من القرن الخامس ، إذ بُنيت بها مدرسة^(٤) لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام المتوفى سنة ٤٤٩ ثم أربع مدارس^(٥) : هي المدرسة البيهقية ، ومدرسة الإستراباذي المتوفى سنة ٤٤٠ بناها لأصحاب الشافعي ، والمدرسة السعدية بناها الأمير نصر بن سبكتكين ، والرابعة مدرسة بُنيت لأبي إسحق الإسفرائيني .

ولما أصبحت إيران تابعة للدولة السلجوقية واتخذوا الري حاضرة لهم أخذوا يعنون بالحركة العلمية ، ولم يلبث أن وزد لهم في عهد سلطانهم ألب أرسلان وزيرهم المشهور نظام الملك المولود بطوس سنة ٤٠٨ وقد التحق بخدمتهم منذ انتصارهم على الغزنويين في سنة ٤٣١ حتى إذا اعتلى ألب أرسلان العرش جعله كبير وزرائه ، وكان سياسيا بارعا وله في السياسة كتاب باللغة الفارسية سَمَّاه «سياسة نامه» . وكان شافعي المذهب أشعريا عدوا للإسماعيلية الباطنية ، فرأى أن يؤسس مجموعة من المدارس ، عُرِفَت كل واحدة منها باسم النظامية ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية نخلة الحشاشين ، ولشهر المذهب الشافعي والنحلة الأشعرية . فبنى بيلخ مدرسة وكذلك بنيسابور وهرات ومرو وأصفهان وآمل في طبرستان وبالموصل وبغداد . وجميعها تأسست حوالي سنة ٤٥٧ للهجرة ، وكان يُدرَّس فيها بجانب الفقه وعلم الكلام على مذهب الأشعري علوم التفسير والحديث واللغة والفرائض والأدب والرياضيات وكان يُختار لكل منها أستاذا كبيرا . وجعل لأساتذتها مساكن ورواتب منتظمة ، ورصد لطلابها نفقات مقدرة ، ووقف عليها جميعا أوقافا كثيرة . وألحق بكل مدرسة مكتبة كبيرة تَقْصُ بالكُتب في كل علم وفن ، ما عدا كتب الباطنية الحشاشين . والاهتمام بالمكتبات عند العصور السابقة سبق أن عرضنا له وبيننا اهتمام الدولة والأفراد به ، لأنها أداة الثقافة ومنها العذب ، وظل الاهتمام بها في هذا العصر ، بل تزايد مع ازدهار الحركة العلمية ، فكانت هناك مكتبات الوراقين التي تُعرض فيها الكتب للبيع ، وكانت تتكاثر في المدن الكبيرة حتى تصبح سوقا مستقلة . وكانت هناك مكتبات عامة للدولة كمكتبات نظام الملك التي ألحقها بمدارسه المسماة بالنظامية . وكانت في كل جامع كبير مكتبة تضم ما يقف العلماء على طلاب العلم في الجوامع . وكان هناك رعاة للعلم يبنون

(١) طبقات الفهرستى (طبع بتهان) ١٢١ . (٤) السبكي ٢٩٠/٤ .

(٢) السبكي ١٢٨/٤ . (٥) السبكي ٣١٤/٤ .

(٣) السبكي ١٥٩/٤ .

المكتبات لطلابها ، مثل ابن حيّان البستي صاحب كتاب الجرح والتعديل المتوفى سنة ٣٥٤
 فقد بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغرباء وأجرى لهم الرواتب . ويُروى
 أن أبا علي بن سوار الكاتب في دواوين عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أنشأ دار كتب في
 مدينة رامهرمز على شاطئ خليج العرب وجعل فيها نفقة لمن قصدها^(١) .

وكان طبيعياً منذ أوائل هذا العصر أن يُشغف البرييون بالكتب وجمعها واتخاذ
 مكبات خاصة لأنفسهم ، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة ، أولاها مكتبة
 عضد الدولة ، وقد رآها المقدسي ووصفها بقوله : «حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن
 ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صُنّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا
 وحصله فيها ، وهي أزج (بناء) طويل في صُفّة كبيرة : فيه خزان من كل وجه ، وقد
 ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزان بيوت طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب
 المزوّق ، عليها أبواب تتحدر من فوق ، والدفاتر منصّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت
 وفهرسات فيها أسامى الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجيه^(٢) » . والمكتبة الثانية مكتبة
 وزيره ابن العميد ، وكانت أكبر من السابقة ، ويقال إنها لو حُمِلت ما استطاع أن يحملها
 إلا مائة بعير^(٣) ، واتخذ خازناتها ابن مسكويه الفيلسوف المعروف لعصره ويقال بل اتخذه
 عضد الدولة ، ويبدو أنه اتخذه خازناً - كما مرّ في ترجمته - بعد وفاة ابن العميد وابنه أبي
 الفتح . والمكتبة الثالثة مكتبة صاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بالرّى ، ويقال إنها
 كانت أصعاف مكتبة ابن العميد ، إذ كان بها من كتب العلم ما يُحْمَلُ على أربعائة بعير أو
 أكثر . ويقال : كان فهرست خزانة الكتب بمدينة الرّى عشرة مجلدات^(٤) .

ولعل في ذلك ما يصور مدى اهتمام أصحاب الإمارات الفارسية ووزرائهم بالثقافة
 العربية ومصنفاتها الكثيرة ولم يقف ذلك عند البويهيين والسامانيين والزّياريين
 والخوانساريين ، بل امتد أيضاً كما قدمنا إلى عصر الدولة السلجوقية ووزيرها نظام الملك
 الذي كانت مجالسه تردان بالعلماء ، وكان يحضر سماعته القُشَيْرِي وإمام الحرمين وأبو إسحق
 الشّيرازي ، وكثر تصنيف الكتب باسمه من مثل كتاب التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية
 من فرق المالكين لأبي المظفر طاهر بن محمد الإسفراييني المتوفى سنة ٤٧١ . وقدم له إمام
 الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجُويني كثيراً من كتبه ، وله بنو المدرسة النظامية بنيسابور
 وظل يدرّس فيها عشرين عاماً إلى أن توفي سنة ٤٧٨ وكان يحضر دروسه أربعائة طالب

(١) المقدسي ص ٤١٣ .

(٢) ابن مسكويه ٢٨٦/٦ وما بعدها .

(٣) المقدسي ص ٤٤٩ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ٢٥٩/٦ .

وأستاذ^(١) . وكان الطلاب دائماً كثيرين في حلقات العلماء ، فيروى أنه كان يحضر دروس أبي الطيب الصعلوكي مفتي نيسابور أكثر من خمسمائة طالب^(٢) . وفي هذا ما يدل على إقبال الشباب في نيسابور على دروس الفقه والدين إقبالاً منقطع النظير ، ولم يكن ذلك في نيسابور وحدها ، فقد كان عاماً في مدن إيران وما وراء النهر من أرض الشاش وفرغانة ، إذ كان حضور حلقات العلماء مباحاً للجميع ، فكان الناس من كل الأوساط يقبلون عليها ، لا أوساط المثقفين فحسب ، بل أيضاً أوساط العامة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه ما رواه السبكي في طبقاته من أن فقهاء الشاش وكتبوا إلى ابن سريج إمام الشافعية ببغداد يعلمونه أن الناس في ناحيتهم : أرض الشاش وفرغانة مختلفون في فقهاء الأمصار ممن لهم الكتب المصنفة والفتا ، ويسألونه أن يكتب لهم رسالة يذكر فيها أصول الشافعي ومالك وسفيان الثوري وأبي حنيفة وصاحبيه (محمد وأبي يوسف) وداد بن علي الأصفهاني (صاحب مذهب الظاهرية) ويسألونه أن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامي ، فكتب القاضي لهم الرسالة^(٣) .

فالثقافة الفقهية لم تكن وقفاً على الفقهاء وتلاميذهم ، بل كانت العامة تشارك فيها وفي دقائقها وتفريعاتها الكثيرة لا التي اختلف فيها أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى : الشافعي ومالك وأبو حنيفة فحسب ، بل أيضاً تلك التي اختلف فيها معهم سفيان الثوري وداد بن علي الأصفهاني . ونفس ما حدث بين أصحاب مذهب كبير كالمذهب الحنفي من خلاف مثل ما حدث بين أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وقفت عليه العامة فيما وراء النهر . وظاهرة ثانية تدل على شيوع الثقافة الدينية في إيران وأنها كانت عامة بين الناس ، ولا تخص الرجال بل نعم النساء ، وهي تتصل بالحديث النبوي وروايته ، إذ نجد طائفة من النساء الإيرانيات يؤخذ عنهن الحديث كما يؤخذ عن علمائه الأئمة ، ويذكرن في تراجم بعض المحدثين ويتصرن على أنهم حملوا الحديث عنهن ، منهن كريمة المروزي ، وعليها قرأ بمكة الخطيب البغدادي المحدث المشهور صحيح البخاري ، وسمع منها أيضاً بمكة سعد الأسد آبادي^(٤) ، فهي لم تحدث في موطنها فحسب ، بل حدثت أيضاً في جميع العلماء بالحرم المكي ، وبأى كتاب ؟ بأعظم كتب الحديث إسناداً : صحيح البخاري . ومن هؤلاء المحدثات المشهورات عائشة^(٥) بنت عبد الله البوشنجية ، وهي من محدثات القرن

(١) طبقات السبكي ١٨٤/٥ .

(٢) السبكي ٣٠/٤ ، ٣٨٣ .

(٣) التهذيب للنووي (طبعة وستفيلد) ص ٣٠٧ . (٤) السبكي ١١٨/٥ .

(٥) السبكي ٤٥٧/٣ .

الخامس المجرى ، ومثلها فاطمة بنت أبي علي الدقاق شيخ القشيري في التصوف ، وعنها أخذ الحديث بنيسابور كثيرون^(١) . ومن محدثات القرن الخامس أيضا كريمة^(٢) بنت محمد ، وشهادة^(٣) بنت أحمد . وهن جميعا أدلة على ازدهار الحركة العلمية بإيران . ومن ثمة هذه الأدلة أن نجد العلماء منذ أوائل هذا العصر يحاولون فهرسة كتب المكتبة العربية ، وموزعين الكتب على علومها المختلفة ، على نحو ما هو معروف عن فهرست ابن النديم ، وربما كان أهم من ذلك أن نجد معاصره الخوارزمي أبا عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف يؤلف كتابا موسوعيا هو « مفاتيح العلوم » ويهديه إلى أبي الحسن العتبي وزير الأمير نوح الساماني الثاني (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) . وكان يعيش في رعايته بنيسابور . والكتاب يشتمل على المصطلحات الفنية للعلوم وتفسيرها وتوضيح دلالاتها ، وهو مقالتان : المقالة الأولى في علوم الشريعة وما يتصل بها ، والمقالة الثانية في الفلسفة وعلوم الأوائل .

٢

علوم الأوائل : فلسف ومشاركة

تحدثنا في كتابي العصر العباسي : الأول والثاني عن ترجمة علوم الهند والفرس واليونان ، وكيف أنها شملت ما لدى الفرس والهند من مصنفات في الفلك والرياضيات وما لدى اليونان من مؤلفات في الرياضيات والطبيعات . وسرعان ما شارك العرب في كل ما ترجموه ، سواء في النظريات الفلكية أو في العلوم الطبيعية ، وقد سارعوا في نقل كتاب المجسطي لبطليموس الإسكندري وهو في الفلك والجغرافية ونقل كتاب الأصول لأقليدس في الهندسة وكتب أرسطو في علمي الحيوان والطبيعة وفي المنطق وكتب جالينوس وبقرط في الطب ، وترجموا أيضا لأفلاطون وغير أفلاطون كتب مختلفة . وقد ذكرنا في كتابي العصر العباسي أسماء المترجمين والنقلة من اللغات المختلفة وأشهر ما نقلوه وترجموه ، وعرضنا ذلك كله عرضا مستقيضا . وأوضحنا مساهمة العرب مساهمة حجة خصبة في جميع الميادين العلمية ، بحيث ظهر من بينهم أفذاذ في الرياضيات دوت شهرتهم فيما بعد في عالم الغرب مثل محمد بن موسى الخوارزمي الذي يفتح سلسلة الرياضيين العظام بين العرب ، ومثل جابر بن حيان الكيميائي المشهور ، ومثل محمد بن زكريا الرازي ذائع الصيت في عالم

(٣) البكي ٧١/٦ ، ٧٣ .

(١) البكي ١١/٥ .

(٢) البكي ٩٥/٥ .

الطب الذى اكتشف فى وضوح فرق ما بين مرضى الجُدْرَى والحَصْبَة ووضع أسساً واضحة للطلب النفسى . وكان طبيعياً بعد أن تعمق العرب علوم الأوائل وفلسفاتهم أن يصبح لهم بدورهم فلاسفة نابون . ويلمع اسم الكندى فيلسوف العرب الأول لعصر المأمون ، ويلمع بأخرة من العصر العباسى الثانى اسم فيلسوف كبير هو الفارابى الذى مزج فى فلسفته بين روحانية الإسلام وأفكار فلاسفة اليونان مزجاً رائعاً ، مصطفياً لأمنته نظريات فلسفية جديدة .

وبانتهاء العصر العباسى الثانى ينتهى عصر المترجمين العظام ، وندخل فى عصر جديد هو عصر الفلسفة الإسلامية المتألصة والمشاركة العلمية التخصصية ، أما الفلسفة فنبغ فيها اثنان من الفلاسفة الإيرانيين البارعين هما ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ والبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ للهجرة .

وابن^(١) سينا أكبر فلاسفة الإسلام ، ويلقب بالشيخ الرئيس ، وقد احتفظ ابن أبى أصيبعة بترجمة شخصية له كتبها بقلمه ، وهو يصور فيها حياته حتى بلغ سن الثانية والثلاثين ، وفيها يذكر أن أباه من أهل بلخ وأنه انتقل منها إلى بخارى فى أيام الأمير السامانى نوح بن منصور وتولى التصرف للسامانيين بقرية خرمين ، وفيها ولد له ابنه سنة ٣٧٠ وانتقل الأب مع أسرته إلى بخارى وعُنى بتربيته فأحضر له معلماً للقرآن ومعلماً للأدب ، وما بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن ، وأقبل على دراسة الفقه . ويذكر أن أباه كان إسماعيلياً ولم يلبث أن أقبل على دراسة المنطق والهندسة والفلك على شخص متفلسف يسمى الناتلى ، وكان يقرأ معه إيساغوجى وكتاب أقليدس والمجسطى ، ويراه لا يفهمها حتى الفهم فكان بشرحها لأستاذه . وأكبُّ على علوم الأوائل والطب ، وسرعان ما اشتهر وهو لا يزال غلاماً فى السابعة عشرة من عمره . واستغلفت عليه الإلهيات حتى قرأ بالصدفة فيها كتاباً للفارابى ، حلَّ له مستغلفتها . وحدث أن مرض الأمير نوح بن منصور فاستدعوه لمعالجته بعد أن عجز الأطباء عن مداواته ، ويكون شفاؤه على يديه ، فبوذنه عنده ويغدق عليه

(١) راجع فى ابن سينا وترجمته صوان الحكمة لليقطين ص ٥٢ والقفطى ص ٤١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٤٣٧ وابن خلكان ١٥٧/٢ وروضات الجنات ص ٢٤١ ولسان الميزان ٢٩١/٢ وكتاب لكارادى فرعه (طبع باريس) ومقالته عنه فى دائرة المعارف الدينية والأخلاقية نشره ميستر (أدنية ١٩٠٩) ٢٧٢/٢ وبرلون (ترجمة د. إبراهيم أمين الشواوى) ص ١١١ ، ١٢١ وتاريخ

الفلسفة فى الإسلام لدى برود ص ١٦٤ ومائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع والعلم عند العرب لألكندوسيل ص ١٩٧ وكتابات مؤلفات ابن سينا لقزاد سيد وقتوتابى . وانظر ترجمته بقلمه وتلخيصها عليها فى كتابته «الترجمة الشخصية» طبع دار المعارف ومقالاً لنا عن لغة ابن سينا فى العدد رقم ٦٩١ من مجلة الثقافة ، وهو عدد خاص بعبده الأئمة .

من أمواله . ويستأذنه ابن سينا في دخول مكتبة القصر ويأذن له فيجد فيها ما لا يحصى من الكنوز في علوم الأوائل . ولم تلبث الدولة السامانية أن انهارت فترك بخارى إلى خوارزم ، ونزل بعاصمتها « خجوة » عند أميرها مأمون مع من كانوا يلوذون برعايته مثل البيروني . وسمع محمود الغزنوي بهذه الصفوة من العلماء والمثقفين والأطباء في بلاط أمير خوارزم ، فأرسل إليه في طلبهم ، كما مر بنا ، وأتى ابن سينا أن يذهب إليه ، وأخذ ينتقل في بلدان إيران حتى وصل إلى جرجان وأميرها قابوس بن وشمكير ، فأكرمه وأنزله منزلة عليا ، حتى إذا قُتل سنة ٤٠٣ هـ ولى وجهه نحو أصفهان وأميرها البويهى علاء الدين بن كاكويه . وظل هناك إلى أن أدركته الوفاة بهمدان سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م وقبره معروف بها إلى اليوم .

وعند ابن سينا تخرج الفلسفة اليونانية بالحكمة الشرقية والروح الإسلامية ، ويلقب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي ، وأكثر مؤلفاته بالعربية ، وله مؤلفات بالفارسية ، وأيضا له قصائد فلسفية بجانب نثره الفلسفي ، وله قصص فلسفية كقصّة سَلَامان وأَبَسال وقصة حَيّ بن يقظان ورسالة الطير . ومصنفاته تُعدّ بالمئات ، وأشهرها كتاب القانون في الطب وكتاب الشفاء في الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات . وكان الكتاب الأول عماد الغربيين في دراساتهم الطبية بمجامعاتهم حتى القرون القريبة ، وقد ترجموه إلى اللاتينية ، ويقال إنه طبع بها ست عشرة مرة في القرن الخامس عشر الميلادي وعشرين مرة في القرن السادس عشر . وكتاب الشفاء دائرة معارف كبرى تتناول كل فروع الفلسفة .

وابن سينا يتأثر بأرسططاليس ، وحاول جاهدا أن يوفق بين آرائه وآراء أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام . ونَحَا في كثير من أفكاره نحو الفارابي ، وهو يتفق معه في تفاريع المنطق وفي الإلهيات وما ذهب إليه من أن المادة لا تصدر عن الله ، لأنه مَرَّة عن كل مادة وكل جسم ، والله واحد من كل وجه ، فلا يصدر عنه كثير لا بالعدد ولا بالانقسام إلى مادة وصورة ، وإلا اختلفت الجهات في ذاته . وهو - لذلك - لا يصدر عنه إلا واحد هو العقل الأول . وعن هذا العقل يصدر عقل يدبّر الفلك (الملائكة) ومنه تصدر نفس كما تصدر مادة هي جرم الفلك ، وأخيرا العقل الفَعَال الذي تصدر عنه مادة الكائنات في الأرض وصورها الجنسية كما تصدر النفوس الإنسانية . وطبيعى أن لا يرتضى أهل السنة والمعتزلة منه هذه الآراء . وإذا نحّيناها عن فلسفة ابن سينا وجدناه بعدها يحاول التوفيق بين فلسفته وبين القائلين بسلطان القضاء ، فيقول إن كل ما في الوجود خيرا كان أم شرا بقضاء الله وقدره على نحو ما توضح ذلك رسالته في القدر . وكان يرى أن من الموجودات ما هو خير محض كالأموال العقلية والسبّابة ، ومنها ما يظلب عليه الخير كالوجود

الأرضي والشر فيه من طبيعته لأنه عالم كون وفساد .

وكان يذهب إلى أن العقل أعلى قوى النفس ، وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب أعلاها النفوس الكاملة التي تتمسك بالمثل العليا وبالخير المحض الخالص وكان يعد الموت بطلانا للجسم ، أما النفس فتبقى خالدة وعلى اتصال بالعقل الكلي ، وسعادتها وشقتها حيثما ترجمان إلى اتحادها به قوة وضعفا . وفي ذلك يكون الثواب والعقاب .

ويخطو ابن سينا بفلسفته خطوة ، فيمزجها بالتصوف الذي تفيض على المتصوف فيه اللذات الروحية فلا يرى في الكون سوى مبدعه وجهاله على نحو ما تصور ذلك قصته وحى ابن يقظان وهـ سلامان وأبسالة وستلم بها في الفصل الأخير . وفي الأولى يعود حى بن يقظان الفيلسوف إلى مورد المعرفة الصوفية الإلهية ، بينما يتخلص أبسال في الثانية من أغلال اللذات الحسية موعلا في اللذات العقلية وما يطوى فيها من لذات الصوفية الروحية . ويوضح ذلك في كتابه الإشارات ، فيقول عن الصوفي ويسميه العارف إنه المتصرف بفكره إلى قدس الله مستديما لإشراق نور الحق على نفسه ، وهو يعبد الله لأنه مستحق للعبادة لارغبة من عقابه ولا رغبة في ثوابه .

والبيروني^(١) هو محمد بن أحمد المولود سنة ٣٦٢ بضاحية من ضواحي خيوه عاصمة خوارزم تسمى بيرون ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، ويبدو أنه تلقى معارفه الأولى بجنوه ، ولم يلبث أن انجبه إلى الرياضيات والفلك فحلدها حذقا رائعا ، وشغف في أثناء ذلك بمعرفة أحوال البلدان والأمم ، ولم يكد بتدرج في العقد الثالث من عمره حتى بلرّح موطنه إلى طبرستان حيث عاش في رعاية أميرها قابوس ، وإليه قدم أول كتبه : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذي فرغ من تأليفه حوالى سنة ٣٩٠ وقد صور فيه المناهج التاريخية والتقاويم الحسائية لكثير من الأمم المتحضرة وهو أول كتبه العظيمة ، وقد طبعه سخاو في لينزج سنة ١٨٧٨ وقدم له بمقدمة نفيسة عن البيروني وأعماله ومكاته . وكان قابوس متقلبا ، فخشى البيروني على نفسه منه ، وتركه إلى موطنه وأميره فيه « مأمون خوارزم » . وسمع به ويعلمه محمود الغزنوى ، فطلبه من أميره ، وأبدى البيروني - فما

وكتاب العلم عند العرب لألدوميل ص ١٨٨ وما بعدها
ومقاتي بروكلمان وفيلسان عن البيروني في دائرة المعارف
الإسلامية وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكى
(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٤٥/١
وما بعدها .

(١) انظر في البيروني تمة صوان الحكمة للبيبي ومعجم
الأدباء ١٨٠ / ١٧ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص
٥٥٩ ومقدمتي سخاو للأكار الباقية وتحقيق ما لهند من
مقولة وبراون ١١١ ، ١٢١ وكاجورى في تاريخ
الرياضيات ومادة بيروني في دائرة المعارف البريطانية

يُروى - رغبته في الذهاب إليه ، ويقال : بل ظل مع مأمون خوارزم حتى استولى محمود الغزنوي على دياره فصحبه فيمن أخذهم معه من علماء خوارزم لسنة ٤٠٨ للهجرة . وكان البيروني شيعيا ومحمود سنيا يضطهد الشيعة ، فتحول البيروني إلى مذهبه ، وربما تحول إلى هذا المذهب قبل صحبته لمحمود . وكان محمود مائى يغزو الهند على نحو ما مربنا في الفصل السابق ، فكان يسير معه ، ويظهر أنه أقام بها سنوات متصلة مكته من دراستها دراسة علمية خصبة ، تعلم في أثناءها اللغة السنسكريتية وقرأ ما كتبه فيها علماءها ، ودرس في عمق فلسفتها ورياضياتها وعقائدها وتقاليدها وجملة معارفها في التنجيم والتاريخ والفلك ، وكل ذلك أودعه كتابه الرائع : «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» وقد أمته سنة ٤٢٣ بعد وفاة محمود الغزنوي بعامين . وفي الكتاب قطع بنصها لمؤلفين هنود ، وفيه وصف جغرافي مفصل للهند وآرائهم الدينية والفلسفية ومعارفهم وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم وأعيادهم وأنظارتهم في الفلك والتنجيم . ويقارن مقارنات خصبة بين علومهم وعلوم العرب واليونان والفرس . ويعترف بتفوق المعرفة اليونانية لما تمتاز به من كمال المنهج ومن الدقة والعمق . ويقارن بين أديان الهند وأديان الكتب السماوية مقارنات دالة على تأمل دقيق في الديانات وفلسفتها ، ويوسع تأمله ليشمل المانوية وغيرها من ديانات الفرس . وفي كل ذلك ينثر آراءه الأصيلة التي تدل على عقل متفلسف دقيق منتهى الدقة . ونراه يبين في قوة وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية والحكمة الهندية .

ومن مصنفات البيروني كتابه القانون المسعودى في الهيئة والتنجيم ألفه سنة ٤٢١ للسلطان مسعود بن محمود الغزنوى عقب وفاة أبيه وهو دائرة معارف في الفلك والمنجمة والتنجيم ، وقد وصفه ياقوت بأنه يعنى أثر كل كتاب ، صُفِّ في تنجيم أو حساب ، ويقول البيهقي إنه غرة في وجوه تصانيفه . وفي مقدمته يشيد بالسلطان مسعود الذى قدم إليه الكتاب وقد نشر في حيدرآباد سنة ١٩٥٣ . وللبيروني كتب أخرى ، منها كتاب في المعادن سماه الجواهر في معرفة الجواهر ، أهداه إلى السلطان مودود الغزنوى ، ومنها كتب في الطب وكتاب في الصيدلة نشره ماكس مايرهوف في برلين وكتب أخرى في الطيبيات . وفي الحق أنه شخصية فريدة في تاريخ إيران العربية .

ويلحق بهلمين الفيلسوفين العظيمين الشهر^(١) ستاني أبو الفتح محمد بن أبي القاسم

(١) انتظر في الشهرستاني وترجمته ابن خلكان ٢٧٣/٤ بالوفيات ٢٧٨/٣ وخطرات الذهب ١٤٩/٤ ومرة وتذكرة الحفاظ ١٣١٣/٤ والبكي ١٢٨/٦ والوافي الجبلان ٢٨٩/٣ ولسان الميزان ٢٦٣/٥ وغيره اللهم-

المتوفى سنة ٥٤٨ هـ وهو من شهرستان في شمالي خوارزم ، واشتهر بكتابه الفريد «الملل والنحل» الذي ألفه في سنة ٥٢١ هـ وهو في علم مقارنة الملل والأديان . وكان تسامح المسلمين مع أهل الكتاب من قديم سببا في نشأة هذا العلم نشأة مبكرة لدى العرب ، فنذ القرن الثالث الهجري وهم يؤلفون فيه إلى أن ظهر البيروني وألف كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة» الذي تحدثنا عنه آنفا ، وقلنا إنه يبحث فيه مباحث دقيقة في الديانات ، وجاء بعده ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ وألف كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وخلفه الشهرستاني ، فألف كتابه سالف الذكر عارضا فيه جميع الفرق الإسلامية وديانات أهل الكتاب وديانات غيرهم من أهل الشرك في اعتدال وإنصاف وبصر نافذ ، وهو لا يبارى في دقته ودكائه وتمييزه بين المعتقدات والملل سواء تحدث عن عالمه الإسلامي أو عن عالم الفرس للقديم ودياناته أو عن عالم الهند أو عالم اليونان .

وظلت طوال العصر دراسات علوم الأوائل ناشطة وفي مقدمتها الرياضيات والفلك ، وقد تقدم العرب بهما في مطالع هذا العصر خطوات على نحو ما بصور ذلك ألدوميلي في كتابه العلم^(١) عند العرب ، ومن نابجهم في القرن الرابع الهجري من تحدث عنهم أبو الفتح محمود بن محمد الأصفهاني الذي نفع كتاب الفروطيات لأبولونيوس ، وأبو جعفر الخازن الخراساني ، وله كتاب في الفلك وصف فيه عددا من آلات الرصد الفلكية ، وأبو الحسين الصوفي مؤلف كتاب الكواكب الثابتة ، وهو عظمى بالرسوم ، ويقول ألدوميلي إنه صحح فيه كثيرا من أخطاء بطليموس ، وانتفع بتصحيحاته علماء الفلك المحدثون . واطرد هذا النشاط العلمي في القرن الخامس إذ نجد أبا الحسن علي بن أحمد النسوي يؤلف بالفارسية كتابا في اللوغارتمات ويترجمه إلى العربية بعنوان المقنع في الحساب الهندي . ويشمل نظام الملك في الدولة السلجوقية برعاية الكثير من العلماء الرياضيين ، وفي مقدمتهم^(٢) عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة ، وله كتاب فذ في علم الجبر رتب فيه - كما يقول ألدوميلي - الصور المختلفة للمعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة ترتيبا منظما ، وقد عهد إليه نظام الملك بإصلاح التقويم ، وبنى له مرصدا سنة ٤٧١ هـ ويظن أنه إما كان في مرو وإما في أصفهان وإما في نيسابور ، وعين له ثمانية من علماء الفلك يساعدونه فأصلح التقويم

١٣٧/٤ = دروشت لجبات ١٨٦ وريون ص ٤٥٩ ودائرة وآثار البلاد للفرزوني (طبعة وستفيلد) ص ٣١٨ ويران للعارف الإسلامية .

(١) انظر العلم عند العرب ص ٢١٧ وما بعدها . الإسلامية .

(٢) راجع في عمر الخيام وترجمته القفطي ص ٢٤٣

وَأَلَّفَ فِيهِ كِتَابَهُ «التاريخ الجلال» نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقي . ومن أشهر الرياضيين بعده نصير^(١) الدين الطوسي المولود بطوس سنة ٥٩٧ وقد تلقَّه الإسماعيليون لما رأوا من ذكائه ، فأرسلوه إلى عاصمتهم «الموت» وهناك وجد مكتبة نفيسة أُكِّبَ على ما فيها من كتب الفلسفة والرياضيات ، حتى إذا استولى هولاكو على تلك القلعة انتقل نصير الدين إلى خدمته ، وكرَّمه لما سمع من معرفته بالفلك والتنجيم ، وصحبه في هجومه على بغداد ، وانتَهز الفرصة فاستولى على كثير من كتبها النفيسة ، وكوَّن منها مكتبة ضَمَّتْ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفِ مَجْلَدٍ ، كما يقول ابن شاذكر في كتابه فوات الوفيات . وساعده هولاكو في بناء مرصد مدينة المراغة المشهور سنة ٦٥٧ وعيَّن معه فيه جماعة من صفوة العلماء الرياضيين ، وظل نصير الدين قائما على هذا المرصد حتى وفاته سنة ٦٧٣ وقد أَلَّفَ زِيجا أو قل تقويما أصْلَحَ به تقويم الخيام ، وأَلَّفَ كُتُبًا كَثِيرَةً فِي التَّجْمِيمِ وَالْفَلَسَفَةِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ وَالطَّبِيعِيَّاتِ . ومن أشهر تلاميذه قطب^(٢) الدين محمود بن مسعود الشيرازي المتوفى سنة ٧١٠ وكان رياضيا فلكيا ، ومن كتبه : «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» . ومنهم نجم^(٣) الدين علي بن عمر الكاتبي المشهور باسم دبيران المتوفى سنة ٦٧٥ وكان موظفا في مرصد المراغة بأذربيجان واشتهر بكتاب في المنطق سماه «الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية» وهي مشروحة مرارا . وظل مرصد المراغة مجهزا بأكمل الآلات حتى القرن الثامن الهجري ، وكانت العربية لا تزال في إيران اللغة الأولى للعلوم ، وإن أخذت تراجحها الفارسية حتى ظفرت بها في الحقب للتأخرة .

وعلى نحو ما نهضت العلوم الرياضية والفلكية نهضت العلوم الطبيعية والطبية ، وكانت البهارستانات تُعَدُّ مدارس كبرى لتعليم الطب والنهوض به ، ومن أهم الأطباء في القرن الرابع الهجري على^(٤) بن العباس الجومسي صاحب الكناش الملكي في الطب ، وقد أهداه إلى عضد الدولة البويهى ، وكان يعاصره أبو^(٥) سهل المسيحي الذي أَلَّفَ ما يشبه دائرة

-
- (١) انظر في نصير الدين الطوسي وترجمته فوات الوفيات لابن شاذكر (نشر مكتبة النهضة المصرية) ٣٠٧/٢ وروايات الجنات ص ٥٠٦ وشرحات للذهب ٣٣٩/٥ وويلون ص ٦١٥ وألدوسيل ص ٢٨٩ ، ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية ، وقد نشرت له دائرة المعارف المئانية مجلد آباء سنة ١٣٥٨ هـ مجلدين من رسائله ومقالاته .
(٢) راجع في قطب الدين وترجمته الدور الكامنة لابن حجر ٣٣٩/١ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٩ وألدوسيل ص ٢٩٨ .
(٣) انظر في فوات الوفيات ١٣٤/٢ وألدوسيل ص ٢٧١ .
(٤) راجع ألدوسيل ص ٢٣٨ وما بعدها حيث يعرض مجموعة من الأطباء بينها علي بن العباس وانظر القفلى ص ٢٣٢ وروكلان ٢٩١/٤ .
(٥) انظر في القفلى ص ٤٠٨ وروكلان ٢٩٤/٤ .

معارف طبية في مائة مقالة . ولزین^(١) الدين الجرجاني الطيب المتوفى سنة ٥٣١ موسوعة طبية كتبها بالفارسية سماها « ذخيرة خوارزم شاه » وقد أهداها إلى الشاه الخوارزمي قطب الدين محمد . ويظل الاهتمام بالطب على توالى الحقب ، وكذلك ظل الاهتمام بالصيدلة وعلم العقاقير ، ويشتهر في هذا العلم موفق^(٢) بن علي الهروي في القرن الرابع الهجري ، كما يشتهر في الكيمياء الطبراني الشاعر المشهور وزير السلطان السلجوقي مسعود ، وله كتب كثيرة في الكيمياء^(٣) ، منها الجوهر النضير في صناعة الإكسير . وللقزويني^(٤) زكريا بن محمد المتوفى سنة ٦٨٢ للهجرة كتاب طريف في التاريخ الطبيعى سماه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات »

ومرربنا في كتاب العصر العباسي الثاني أن كتاب بطليموس الجغرافى وجه العرب منذ الخوارزمى الرياضى محمد بن موسى إلى التأليف في علم الجغرافيا أو تقويم البلدان ، ونشط فيه التأليف نشاطا واسعا وتابع الجغرافيون العرب حيثئذ منهاجا طريقا في وصف البلدان أن يُتمتوا بالحديث عن عادات الشعوب ، ويُقصّوا بعض ماسمعه من الأعاجيب ، مما جعل كتبهم الجغرافية تعتمد على الملاحظة وحكاية ماسمعه الجغرافى بأذنه ورآه تحت بصره ، وبذلك أصبحت تشبه كتب الرحلات . وبلغنا في القرن الرابع رحالة مشهور هو أبو دلف الخزر جى سمر بن مهلهل شاعر الكدبة الذى سترجم له بين الشعراء الشيعيين ، وعداده في شعراء أصفهان ، وأصله كما يبدو من لقبه من أهل المدينة ، وله رحلة إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية قام بها سنة ٣٣٣ للهجرة وقد نشرت منها وزارة التربية والتعليم المصرية قطعة ، حققها المستشرق مينورسكى ، وعُيّن الدكتور محمد منير مرسى بإعادة نشر هذه القطعة كما سيأتى في الحديث عنه بين الشعراء وفيها يصف أبو دلف بعض مدن الشمال الغربى لإيران . وجاء بعده في القرن الخامس الهجرى رحالة إسماعيل ، هو ناصر خسرو ، وقد كتب رحلته بالفارسية في كتابه المسمى « سفرنامه » واستغرقت منه الرحلة سبع سنوات (٤٣٧ - ٤٤٤ هـ) . طاف فيها ببلدان موطنه إيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وهى تخرج عن حديثنا لأنها ليست باللسان العربى . وللإيرانيين بجانب هذه الرحلات البرية رحلات بحرية إذ كان ملاحوهم يتعمقون في المحيطين الهندي والمحادى ،

(١) راجع فيه أندوسيل ص ٣٢٠ . (٤) راجع في القزوينى براون (ترجمة الدكتور

(٢) أندوسيل ص ٢٣٩ . (الشواربى) ص ٦١٢ وأندوسيل ص ٢٩٦ ودائرة المعارف

(٣) انظر في نشاط الطبراني الكلباني أندوسيل ص . الإسلامية وما بها من مراجع وتاريخ الادب الجغرافى

لكراشكولسكى ٣٦٠/١ .

٢٣٩ .

ووصفوا رحلاتهم فيها وفي المحيطين وجزرهما وشواطئها في آسيا وإفريقيا وكل ما رأوه من شعوب وحيوانات برية وبحرية وطيور . ومن أهم ما كتبوا من هذه الرحلات كتاب «عجائب^(١) الهند بَرّه وبحره وجزره وشطآنه» لبزرگ بن شهریار الناخذاه أوى الریان . ويدل اسمه على أنه إيراني ، وتدل حكاياته على أنه كان يعيش في القرن الرابع الهجري ، وهو يقص في كتابه قصصا بديعا ما سمعه من حكايات عن الملاحين الذين اتحموا المحيطين الهندي والهادى ووصفوا ما أبصروه من أسماك وطيور وحيوانات وما ألم بسفنهم من عواصف هوجاء ، وما شاهدوه من الشعوب وصناعاتها وعاداتها ودياناتها . وهو كتاب جغرافى وأدبى وقصصى نفيس .

وربما كان القزوينى زكريا بن محمد المذكور آنفا أكبر جغرافى أنتجته الحقبة التالية في العصر ، واسم كتابه الجغرافى : «آثار البلاد وأخبار العباد» وهو فيه يصف الأقاليم السبعة للأرض ، ويذكر ما فيها من البلدان والجزر والأنهار ، ويهتم بأحوال السكان ويجمع غرائب عن شعوب هذه الأقاليم في آسيا وإفريقيا وأوربا وخاصة شعوب الهند والصين ، ويقص حكايات عن شعراء الفرس والزهاد في البلدان الإسلامية ، ويعرض عجائب البنيان والآثار ويحكى كثيرا من الأساطير والخرافات مما يجعل كتابه في بعض جوانبه شيئا يكتب الأدب الخيالية السلية .

ولعل في كل ما سبق ما يصور ازدهار علوم الأوائل في إيران حتى القرن الثامن الهجري ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه إحساس العلماء بكثرة المصطلحات العلمية وأنهم في حاجة إلى كتاب يجمعها ويعرف بها تعريفا دقيقا ، وهو ما جعل السيد الشريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ بتجرد لوضع كتاب ينى بهذه الحاجة ، على نحو ما يلقانا عنده في كتابه التعريفات الذى أوضح فيه الاصطلاحات العلمية مرتبا لها على حروف المعجم ترتيبا دقيقا .

٢

علوم اللغة والنحو والبلاغة والتقد

نشط البحث في اللغة نشاطا واسعا لهذا العصر ، إذ كثر العلماء الايرانيون الذين تصدوا للمباحث اللغوية ، وكان أكبر ما نهضوا به وضع المعاجم ، واهتمامهم به قديم ، ولذلك

(١) انظر في هذا الكتاب كرامشكورسكى ١٤٣/١ وكتابا «الرحلات» طبع دار للطرف ص ٣٣ .

لا يكون عجباً أن أول نسخة تنشر من معجم العين للخليل بن أحمد ، وهو أول معجم وضع في العربية ، إنما تنشر - كما ذكر صاحب الفهرست - من خراسان . ومعروف أن المعجم الثاني في العربية الذي ألف على منهج معجم العين هو الجوهرة لابن دُرَيْد المتوفى سنة ٣٢١ هـ وهو أيضاً نُشِر لأول مرة في إيران ، إذ استدعى عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وفارس ابن دُرَيْد من البصرة لتأديب ابنه أبي العباس إسماعيل ، وهناك وضع الجوهرة ، وكان ترتيب الكلمات في هذا المعجم - كترتيبها في معجم العين - على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي أي من الحلق واللسان والقمم والشفتين . وأول معجم عام وضع في عصر الدول والإمارات الذي نحن بصدد معجم تهذيب اللغة الذي وضعه أبو منصور محمد ^(١) بن أحمد الأزهرى الهروى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ وسنجد كثيرين غيره من هراة بأفغانستان الحالية يشتركون في خدمة اللغة وغير اللغة ، وكانت هراة تعد جزءاً من إيران .

ورُتِب الأزهرى معجمه على ترتيب معجم العين أى حسب مخارج الحروف ، وعرض في مقدمته لرواة اللغة وترجم لهم موضحاً مدى الثقة والهمة في أعمالهم . وكان يعاصر الأزهرى عالم فاراب إسحق بن إبراهيم الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة وقد وضع في اللغة معجمه ديوان الأدب الذي نشره بجمع اللغة العربية بالقاهرة ، واتبع فيه طريقة جديدة هي ترتيبه حسب الحروف الهجائية باعتبار أواخر الألفاظ وفقاً للأبنية المختلفة ، ووضع صاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ معجماً كبيراً أسماء المحيط لم يبق منه إلا بعض أجزاء لا تزال مخطوطة . وخلفها أبو الحسين أحمد ^(٢) بن فارس القزوينى معلم العربية بهمدان المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وله معجمان : الجمل ومقاييس اللغة ، أما الجمل فمعجم عام رتبته حسب الأبجدية المعروفة لنا اليوم ، غير أنه قسم المواد في كل حرف إلى ثنائى ويشمل المضاعف والمطابق ، ثم ثلاثى ، ثم ما جاء على أكثر من ثلاثة حروف أصلية ، والتزم أن يفتح حديثه في كل حرف به مع مايليه . ومعجمه مقاييس اللغة على غرار الجمل ، عُنى فيه بأن يعامل لألفاظ كل مادة لغوية أصلاً تُرد إليه أو أصلياً . وهو فيه أكثر منه في الجمل

(١) انظر في الأزهرى ابن خلكان (طبعة دار صادر بيروت) ٣٣٤/٤ ومعجم الأدباء ١٦٤/١٧ وشذرات الذهب ٧٢/٣ والبيكنى في طبقاته ٦٣/٣ .
النصر وابن خلكان ١١٨/١ ومعجم الأدباء ٨٠/٤ وإنباء الرواة ٩٢/١ وما به من مراجع والنجوم الزاهرة ٢١٢/٤ .

(٢) انظر في أحمد بن فارس البيهية ٤٠٠/٣ وديمية

عناية بالشواهد والأمثال والعبارات المجازية ، بينما هو في الجمل أكثر منه في المقاييس عناية بذكر الأعلام .

ولأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ^(١) معاصره المتوفى سنة ٣٩٥ معجمه المشهور : تاج اللغة وصحاح العربية ويشتهر باسم الصحاح ، وأصل موطن الجوهري فاراب شرق خراسان ، رحل في طلب اللغة إلى بلاد ربيعة ومضر ، ورجع إلى خراسان فترق في الدامغان ثم ألقى عصاه في تيسابور ، وظل بها يدرس ويصنف إلى وفاته ، ومعجمه مرتب على الحروف الهجائية ولكن لا بحسب أوائل الكلمات وإنما بحسب أواخرها بنفس المنهج الذي اتبعه خاله الفارابي في معجمه ديوان الأدب ، وأوئى للمعجم من الشهرة والذيعر ما جعل مؤلفات كثيرة تعني به عند العلماء في موطنه وفي غيره . ووضع محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي من أهل القرن الثامن الهجري مختصراً له سماه « مختار الصحاح » ورتبه حديثاً محمود خاطر بحسب أوائل الكلمات لا بحسب أواخرها ، وهو مطبوع في عصرنا مراراً وتكراراً . وللزمخشري ^(٢) محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨ معجم عام سماه « أساس البلاغة » وهو مرتب بحسب أوائل الكلمات ويورد من الأمثلة والشواهد ما يوضح استخدامها ، ويعني ببيان ما جاء في كل كلمة ومادتها من مجازات مختلفة . ونمضي إلى القرن الثامن فنتلقى بالفيروز ابادي مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي المتوفى سنة ٨١٧ وضيّق أن تحدثنا عنه في الفصل الثاني من القسم الأول الخاص بالجزيرة العربية .

ويجانب هذه المعاجم اللغوية صنع علماء إيران اللغويون في الحقب الماضية معاجم خاصة للقرآن الكريم والحديث الشريف . منها معجم أبي عبيد المروى المتوفى سنة ٤٠١ وهو تلميذ الأزهري ، ولم يُعَنَّ مثل أستاذه بمعجم عام وإنما عُنِيَ بمعجم خاص لغريب القرآن والحديث سماه كتاب الغريبين ، وقد يذكر عند بعض أصحاب التراجم باسم كتاب الغريبين في لغة كلام الله وأحاديث رسوله أو باسم غريب القرآن والسنة وتفسيرهما ، ووضع الزوزني ^(٣) الحسين بن علي بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٦ بملء معجماً بالعربية والفارسية سماه

(١) راجع في الجوهري إنباه الرواة ١٩٤/١ ومعجم الأديباء ١٥١/٦ وشذرات الذهب ١٤٢/٣ والنبذة الذهب ١١٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٥ وأزهار الرياض ٢٨٢/٣ ونزهة الألباء ص ٣٩١ والجواهر الذهبية ١٦٠/٢ وكتب التلويح في سنة وقته ويرون في تاريخ

الأدب في إيران من الفرموسي إلى السطحي ص ٤٥٨ .
(٢) راجع في الزوزني إنباه الرواة ١/٣٢٠ ويرون ص ٤٤٩ ويروكلمان ٢٠٧/٥ .

(٣) انظر في الزمخشري ابن خلكان ١٦٨/٥ والأنساب للسماني الورقة ٢٧٧ وروضات الجنات ص ٦٨١ وإنباه الرواة ٢٦٥/٣ واللباب ٥٠٦/٢ ومعجم الأديباء

ترجمان القرآن . وجاء بعده الراغب ^(١) الأصبهاني الحسين بن محمد المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ووضع كتابه أو معجمه مفردات ألفاظ القرآن أو مفردات غريب القرآن ، وهو معجم لا نظير له في بيان دلالات ألفاظ القرآن ، ولا يستغنى عنه ناظر في آيات الذكر الحكيم ولا مفسر للقرآن الكريم . ووضع الزمخشري المذكور آنفاً معجماً لألفاظ الحديث النبوي سماه الفائق في غريب الحديث .

وبجانب هذا النشاط اللغوي نشط علماء اللغة في إيران في دراسة الأمثال وعمل معاجم لها تضمن شرحها ، ويمكن أن ندخلها في المعاجم الخاصة ، ولعل أول من يصادفنا في هذا الباب حمزة ^(٢) الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٠ وكان يتم بشعوبيته لاقتخاره بنسبة إلى الفرس ، ولأنه فيما يقال وضع كتاباً لعصدة الدولة البويهية في الموازنة بين العرب والفرس ، وينى عنه بروكلمان هذه التهمة ، ويقول إنه لم يعاد العرب بل أنصفهم وأهل ذكرهم ١ . وله في الأمثال معجم بما صيغ منها على وزن أفعل التفضيل مثل قولهم « أحلم من الأحنف » وسماه الدرة الفاخرة ، وصنع صاحب المذكور آنفاً أمثال التنبي ، استخرج من شعره الأبيات التي تجري مجرى المثل .

وكان يعاصره أبو هلال ^(٣) العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ وقد ولد بعسكر مكرم في إقليم خوزستان وإليها ينسب ، وتعلم بها ، واحترف التجارة ، ولم تشغله عن التصنيف والتأليف ، وله في الأمثال معجم سماه جمهرة الأمثال رتبته على حروف المعجم ، ذكر فيه منها نحو ألقى مثل . وشرحها شرحاً وافياً مبيناً مضاربيها ومواردها ، وأعقب كل باب بما ذكر حمزة الأصفهاني فيه من الأمثال المصاغة على وزن أفعل . وجاء بعده الميداني ^(٤) أحمد ابن محمد المتوفى سنة ٥١٨ هـ فألف أهم معجم بين كتب الأمثال سماه مجمع الأمثال . حاول فيه أن يستقصى الأمثال العربية ، وهو استقصاء لم يسبق إليه ، مع شرحها شرحاً مستفيضاً . وخلفه الزمخشري الذي ذكرناه آنفاً فألف معجمه « المستقصى في الأمثال » ، وهو مرتب على الحروف الهجائية مثل معجم الميداني . ولكنه لا يبلغ مبلغه من السعة

ومعجم البلدان في عسكر مكرم وإتياء الرواة للقطعي باب الكنى وبنية الرواة للسيوطي ص ٢٢١ وخزانة الأدب ١١٢/١ .

(٤) راجع في الميداني كتاب الأنساب الورقة ٥٤٨ ومعجم الأديب ٤٥/٥ والإتياء ١٢١/١ وابن خلكان ١٤٨/١ ونزهة الألباء ٣٩٠ وروضات الجنات ص ٨٠ .

(١) انظر في الراغب بنية الرواة وطبقات المفسرين ونسبة البيهقي ١٠٤ وروضات الجنات ٢٤٩ وبيروكلمان ٢٠٩/٥ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٢) راجع في حمزة الفهرست لابن النديم ص ٢٠٥ والأنساب ورقة ٤٤١ وبيروكلمان ٦٠/٣ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر في أبي هلال معجم الأديب ٢٥٨/٨ - ٢٦٧

والدقة . ويُدخل في هذا النشاط المعجمي بعض اللغويين وضع معاجم لألفاظ الفقهاء مثل المغرب في ترتيب العرب لناصر^(١) المطرزي الخوارزمي المتوفى سنة ٦١٠ خليفة الزمخشري في وطنه خوارزم . ومعجمه يتناول الألفاظ الغريبة التي يستخدمها الفقهاء .

وحاول اللغويون في إيران أن يضعوا كتباً تجذب القارئ بمنهجها مثل ديوان الأدب المار ذكره وهو يتناول أبواباً صرفية ، وأهم منه كتاب الصاحي في فقه اللغة ألفه أحمد بن فارس المذكور آنفاً باسم الصاحب بن عباد ، وهو أول كتاب منهجي في موضوع أصل اللغة العربية وبخصائصها . وأهم اللغويون بما يمرض للكلمات من أخطاء ، وتجرّد لذلك أبو أحمد^(٢) العسكري خال أبي هلال ، فصنف كتاب التصحيف والتحريف وتوالت بعض الكتب في هذا الموضوع .

ولم يقتصر نشاط اللغويين في إيران على كل ما قلنا . فقد بذلوا جهوداً خصبة في شروح الشعر ومن أهمها شرح الواحدى لديوان المتنبي وشرح الزوزنى المار ذكره على المجلقات السبع وقد طبع مراراً ويتداوله الطلاب في الجامعات العربية . واشتهر التبريزي أبو زكريا يحيى بن علي المتوفى سنة ٥٠٢ بكثرة ما صنف من شروح ، تناول في بعضها الشعر القديم وفي بعضها الشعر المولد ، وقد تحدثنا عن نشاطه في هذا الاتجاه بين اللغويين في العراق ، وشرح الزمخشري بعده لامية العرب للشمسري ، وشرح المطرزي خليفته مقامات الحريري .

ونخص اللغويين بمحاولة أخرى هي جمع الأشعار والكلم البليغة ، وألفوا في ذلك مصنفات مختلفة ، منها ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، وكتاب نثر الدرر لأبي سعيد منصور بن الحسن الآتي^(٣) من أدباء القرن الخامس وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني المذكور آنفاً وألف بأخرة من العصر بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة كتابيه الكشكول والمخلعة ، وهما كتابان نفيسان بما جمعا من طرائف النثر والشعر . ولم يكن اهتمام النحاة بالنحو أقل من اهتمام اللغويين باللغة ، وكثير منهم لم يكتف

(١) انظر في المطرزي معجم الأدباء ٢١٢/١٩ وإتيابه الرواة ٣٣٩/٣ ورواضات الجنات ص ٢٢٣ والجواهر ١٩١/٧ .

(٢) ولبيح في أبي الحسن الآي حمية القصص ١٠٣٠/١ وكتبة البنية ١٠٠/١ ومعجم البلدان في آبه من قري وابن منظور ص ٧٩ .

(٣) انظر في أبي أحمد العسكري ابن خلكان ٨٣/٢ أصيبان .

نحوية متنوعة غير أننا سنكتفي بذكر الأمهات وأصحابها ، وأول من نفق عنده ابن درستويه الفارسي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد مر ذكره بين اللغويين في العراق ، وأهم منه إمام النحاة عامة في القرن الرابع المعجى أبو علي الفارسي ^(١) المولود بالقرب من شيراز سنة ٢٨٨ وكان رحلة في تدرسه ، فأيام في شيراز وأيام في عسكر مكرم بخوزستان وأيام في كerman ، وأيام أخرى في بغداد أو في حلب أو في الكوفة أو في دمشق ، وله كتب يسميها المسائل كل منها منسوب إلى بلدة من هذه البلدان فهناك المسائل الشيرازية والعسكرة والحلبية ، وهكذا . وبجانب ذلك له كتب مستقلة عن القدماء بشرحها مثل الإيضاح والتكلمة وقد صنفها باسم عضد الدولة . وهو أستاذ ابن جني ، وفي كل مكان من كتبه ينقل عنه وخاصة في الخصائص وما وضعه فيه من القواعد الكلية ، حتى ليخيل إلى الإنسان كأن أكثر الأصول والآراء التي سجلها ابن جني في كتبه إنما استمدتها من إملاءات أبي علي الفارسي . وهو في آرائه النحوية يتصر مرة للخليل وسيويه وغيرهما من البصريين ، ومرة ثانية يتصر للكوفيين ، ومرة ثالثة يستبطن آراء مبتكرة لم يسبق إليها ، نافذاً بذلك إلى المذهب ^(٢) البغدادى الجديد في النحو الذي كان يقوم على الانتخاب من آراء مدرسي الكوفة والبصرة مع الخلوص إلى آراء وأحكام نحوية جديدة .

وكان يعاصره أحمد بن فارس الذي مر بنا ذكره ، وله كتب نحوية كان يلزم فيها مذهب الكوفيين ، واقترح للنحو مقدمة على شاكلة إيساغوجي في المنطق ، سماها مقدمة في النحو . ومن نخبة إيران في القرن الخامس عبد القاهر الجرجاني وسفصل الحديث فيه بين البلاغيين ، غير أننا نشير إلى أن له كتاباً في النحو سماه العوامل المائة ، عنى به الشراح طويلاً .

ويأتى بعده الزمخشري ، وله كتب نحوية مختلفة ، أشهرها المفصل ، وقد جعله في أربعة أقسام : قسم للأسماء تحدث فيه عن المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والنسب والتصغير المشتقات ، وقسم للأفعال وأنواعها المختلفة وقسم للحروف وأصنافها الكثيرة ، وقسم للمشارك أراد به الإمالة والزيادة والوقف والإبدال والإعلال والإدغام ، وقد شرح هذا الكتاب مراراً ، وأهم شروحه شرح ابن يعيش في عشر مجلدات . وهو في الكتاب

(١) انظر في ترجمة أبي علي القهرست ص ١٠١ وإنباه الرواة ٢٧٣/١ وطبقات القراء لابن الجوزي ٢٠٦/١ وتاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ومعجم الأدباء ٢٢٢/٧ ولسان الميزان ١٩٥/٧ وشمس المعارف ٨٨/٢ وابن خلكان

(٢) ٨٠/٢ ونزهة الألباء ص ٣١٥ وكتاب د. عبد الفتاح شلبي : أبو علي الفارسي .

(٣) راجع في ذلك كتابنا للمعاصر النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٤٥ وما بعدها .

بغدادى يتصر تارة للبصريين وتارة للكوفيين وتارة لمن تلاهم من البغداديين وينفذ إلى بعض الآراء الجديدة ، فهو يتخبط آراءه من المدارس السابقة عليه ، وينفرد بآراء جديدة^(١) . وتلك هى أصول المذهب البغدادى فى النحو الذى استحدثه ابن كيسان والزجاجى وثبته بعدهما أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى . ويؤلف المطرّزى كتابا فى النحو يسميه المصباح ويشرحه كثيرون . وإمام النحاة بعد ذلك فى إيران الرضى^(٢) الإستراباذى نجم الدين محمد بن الحسن المتوفى حوالى سنة ٦٨٦ ومولده ومرياه فى إستراباذ من أعمال طبرستان ، وقد عُني بعملين لابن الحاجب المصرى ، هما الكافية فى النحو والثافية فى الصرف ، فشرحها شرحاً واسعاً ساق فيه آراء النحاة منذ سيويه حتى عصره ، وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على عمق الثقافة النحوية فى إيران حتى أواخر القرن السابع الهجرى وهو فى شرحه للكتابين بغدادى المذهب ، فهو يتخبط من المدارس النحوية السابقة آراءه مفصلاً القول فى اختلاف النحاة ، ومن حين إلى آخره ينفرد بآراء مبتكرة .

وازدهرت مباحث البلاغة بجانب مباحث النحو واللفظة ، بل لعل هذه المباحث لم تنشط فيها بيئة كما نشطت إيران ، وأول من نقف عنده فيها أبو أحمد العسكري الذى عرضنا له آنفاً ، فقد ألف فيها كتابا فى صناعة الشعر وهو يمرض فيه لصور البديع بالمعنى العام بحيث يشمل فنونه وفنون البيان ، والرسالة مفقودة غير أن ابن أخته أبا هلال العسكري احتفظ منها بكثير من مجموعها فى كتابه الصناعتين ، وبالمثل نقل عنها كثيراً الباقلانى فى كتابه إعجاز^(٣) القرآن . وكتاب الصناعتين لأبى هلال مطبوع مرارا ، وهو يريد بالصناعتين صناعتى الكتابة والشعر ، وقد جعل الكتاب فى عشرة^(٤) أبواب : باب لموضوع البلاغة وحدودها ، وباب ثان تمييز جيد الكلام من رديئه ، وباب ثالث لمعرفة صنعة الكلام ، وباب رابع لحسن النظم ، وباب خامس لشرح الإيجاز والإطناب ، وباب سادس للسرفات الشعرية ، وباب سابع للتنشيه ، وباب ثامن للسجع والازدواج ، وباب تاسع لفنون البديع وهو أطول الأبواب ، وباب عاشر لحسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافى ودقة الخروج من النسيب إلى المديح .

وخلف أبا هلال القاضى عبد الجبار^(٥) قاضى قضاة البويهيين بإيران المتوفى سنة ٤١٥

(١) انظر فى ذلك كتابا المدارس النحوية ص ٢٨٣ (٤) راجع فى تحليل هذا الكتاب : البلاغة نظري

(٢) راجع فى الرضا كتابا المذكور ص ٢٨١ .

(٣) انظر كتابا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار

العارف) ص ١١١ وما بعدها وص ٤١٣ وما بعدها .

(٥) انظر فى عبد الجبار تاريخ بغداد ١١٣/١١٣ ولسان

الميزان ٣/٣٨٦ والفهارست ٣/٢٠٢ ومركبة الجنتان ٣/٢٩٠ -

وقد عرض في موسوعة الكلامية «المفنى في أبواب التوحيد والمعدل» لإعجاز القرآن في الجزء السادس عشر منها . وأداء الحديث في الإعجاز إلى عرض كلام أبى هاشم الجبائى في أن المدار في الإعجاز ليس على نظم القرآن وإنما على فصاحته . ويأخذ عبد الجبار في توضيح معنى الفصاحة ، فيقول - كما قال عبد القاهر الجرجاني من بعده - إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، فالكلمة في نفسها لا تُعدّ فصيحة ، بل لابد من ملاحظة أبعادها ونظائرها وحركاتها في الإعراب ومواقعها في التقديم والتأخير . وبذلك يقرب بوضوح من عبد القاهر في تفسيره للنظم في كتابه دلائل الإعجاز ، إذ يشير في صراحة إلى الخصائص النحوية وما ترسم من فروق في الكلام ، أو بعبارة أدق يريد - كما أراد عبد القاهر - النظام النحوى للكلام . ويمنع عبد الجبار - كما منع عبد القاهر فيما بعد - أن يكون للفظلة صفة أدبية في الكلام من حيث هى لفظة مفردة ، فالمدار على موقع الكلمة وكيفية إيرادها وطريقة أدائها . ويقول عبد الجبار إن حسن النظم وجمال اللفظ لا وزن له في الفصاحة ، مع أنها يضيفان إلى الكلام رونقاً وبهاء .

وهذه النظرية ^(١) الجديدة للفصاحة تناولها عبد القاهر الجرجاني ^(٢) المتوفى سنة ٤٧١ كما قدمنا ، فبسطها أعظم بسط وفسرها أروع تفسير بحيث أصبحت منسوبة إليه عند القدماء والمحدثين إذ وضع على أساسها علم المعانى المعروف بين علوم البلاغة العربية ، فالأصل من لَدُن عبد الجبار والعلم شعبه وتفرعيه التى بصورها كتاب دلائل ^(٣) الإعجاز من لدن عبد القاهر . وكما وضع علم المعانى وضع علم البيان وضما نهائياً في كتابه ^(٤) أسرار البلاغة ، وضعه بتشبيهاه وتفرعاتها الكثيرة وباستعاراته التصريحية والمكتنية والتشبيلية ومعجزاته اللغوية والعقلية ، مع روعة العرض وطرافته ، ومع الاهتمام الطريف بالجوانب النفسية . ويخلفه الزمخشري فيطبق في تفسيره الكشف مباحث في علمى المعانى والبيان تطبيقاً حياً خصباً مضيفاً إليها من حين إلى حين إضافات ^(٥) بارعة ، سواء في

-
- = وطبقات القسرين ١٦ والمترقة لابن المرتضى ١٦ وميزان الاحتفال ٥٣٣/٢ والسبكي ٩٧/٥ وكتاب البلاغة : تطور وتاريخ ص ١١٤ .
 (١) راجع في تحليل هذه النظرية عند عبد الجبار كتابها البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٥ وما بعدها .
 (٢) انظر في عبد القاهر إنباء الرواة ١٨٨/٢ ودمية القطر ١٧/٢ والسبكي ١٤٩/٥ وروضات الجنات ١٤٣ وشذرات الذهب ٣/٣٤٠ ورمّة الجنان ٣/١٠١ وفروقات
- الوليّات ١١٢/١ .
 (٣) انظر في عرض مراد هذا الكتاب كتابها البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦٠ - ١٨٩ .
 (٤) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابها البلاغة تطور وتاريخ ص ١٩٠ - ٢١٨ .
 (٥) راجع في هذه الإضافات الكتاب السالف ص ٢١٩ - ٢٧٠ .

المعاني الإضافية التي بصورها علم المعاني عند عبد القاهر أو في فنون البيان التي بصورها أيضاً عبد القاهر . وعنى ببعض ألوان البديع مثل الطباق والمشاكلة واللف والنشر والاتصاف وتأکید المدح بما يشبه الذم ومزاعة النظم والتقسيم والاستطراد والتجريد .

وتحول البلاغة بعد الزغشري وعبد القاهر إلى قواعد جامدة جافة ، وأهم من دفعها نحو هذا الاتجاه عاجلا الفخر^(١) الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ وقد أوغل في دراسة الفلسفة والعلوم الدينية ، وطاق بكثير من البلدان الإيرانية واستقر بمدينة هراة حتى وافاه أجله وهو يمتاز في تأليفه الكثيرة بالقدرة على تشبيب الأفكار وتقسيمها وتفريعها ، بمدح في ذلك عقل متفلس ، إذ كان قد درس الفلسفة دراسة عميقة ، وله كتب مختلفة في التفسير والفقه والطب والكيمياء وعلم الكلام . ويهنا كتابه في البلاغة الذي سماه : « كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » وهو يعلن في مقدمته^(٢) أنه سينظم ما كتبه عبد القاهر في مصنفه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وينوه بصنيعه قائلاً : « ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منها معاهد فوائدها ومقاصد فرائدها وراعت الترتيب مع التهذيب ، والتحرير في التقرير ، وضبطت أوابد الإيجالات في كل باب بالتقسيمات الیقينية ، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية ، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المله . وكأنه يعرفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط وقواعد أحالتها هيكلا لا حياة فيه فقد ألفت فيها السمووم الفلسفية المنطقية ما أحالها شاحبة باهتة . ولم تنفعه إضافات الزغشري فقد بث فيها نفس السمووم . وبالمثل ما نقله عن موطنه رشيد الدين الطوطا المتوفى سنة ٥٧٣ إذ نقل عن كتابه الذي وضعه بالفارسية وسماه « حقائق السحر في دقائق الشعر » . ما ذكره فيه من ألوان البديع ، وأسفه في هذا النقل أن الطوطا ساق أمثلة النثر والشعر في كتابه من الأدبين الفارسي والعربي . ولم تسلم هذه الألوان بدورها عند الرازي من الجفاف الشديد .

وعقله السكاكي^(٣) سراج الدين يوسف بن محمد بن علي المولود في خوارزم سنة

(١) انظر في الفخر الرازي ابن خلکان ٢٤٨/٤ تطویر و تاریخ ص ٢٧٥ .
 وطبقات السبکی (طبعة ميسر الخلی) ٨١/٨ وطبقات
 المفسرين ٣٩ و الفرائد للصفدي ٢٤٨/٤ و تاریخ الحكماء
 للقفطي (طبعة لينز) ص ٢١٩ وابن أبي أصیمه
 ص ٤٦٢ و شلوات الذهب ٢١/٥ .
 (٢) راجع في تحليل الكتاب ومواده كتابنا البلاغة :
 تطور و تاریخ ص ٢٧٥ .
 (٣) انظر في السكاکی معجم الأدباء ٥٩/٢٠ والجواهر
 للنسبة ٢٧٥/٢ و الفوائد البیة في تریجم الحنفیة للکتوب
 ص ٣٠١ و تاج التریجم لابن قطلوبغا ص ٨١ و شلوات
 الذهب ١٢٢/٥

••• وقد مضى بعب في موطنه من جداول الفلسفة والمنطق ، وأكب على العلوم الإسلامية وعلوم العربية يبل منها ، وذاعت شهرته ، فقصده الطلاب ، وظل يعلم ويلقى محاضراته إلى أن توفي سنة ٦٢٧ . ويشتهر السكاكي بتأليفه في البلاغة كتابه «الفتاح» وقد جمعه في ثلاثة أقسام ^(١) : قسم لعلم الصرف ، وقسم ثان لعلم النحو ، أما القسم الثالث فقصره على علمي المعاني والبيان ، وألحق بها ذبلاً تناول فيه مبحثاً عن الفصاحة والبلاغة ومبحثاً ثانياً لألوان البديع اللفظية والمعنوية . وقدم لعلوم البلاغة بمبحث واسع في علم المنطق ، وتلاه بمبحث في علمي العروض والقوافي ، وبذلك تضمن «الفتاح» علوم الصرف والنحو والمنطق والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي . وشهرة الكتاب إنما ترجع إلى ما كُتب فيه عن علوم البلاغة ملخصاً ، إذ الكتاب أشبه بمن في كل ما خاض فيه من مباحث ، وهو ممن استضاء فيه بالفخر الرازي قبله ، مع تفوقه عليه في الدقة وضبط الأقسام ، غير أنه يخلو خلواً تاماً من تحليلات عبد القاهر والزمخشري ، ويصحب الكتاب متناً لعلوم البلاغة يحصى قوانينها وقواعدها ، مع خلوها من كل ما يؤنس النفس ، إذ وضعت تلك القواعد والقوانين في قوالب منطقية شديدة الجفاف ، وهي قوالب يداخلها غير قليل من الالتواء بسبب كثرة التضييقات ، مما جعل الكتاب أوقل المن في حاجة إلى الشرح والتوضيح ، وتوالت الشروح ، فشرحه قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي وقد تقدم ذكره بين علماء الرياضيات والنجوم ، وشرحه كثيرون من مواطنيه ، من أشهرهم سعد ^(٢) الدين مسعود بن عمر التفتازاني المولود في تفتازان شرق إيران سنة ٧٢٢ وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند ، وبها توفي سنة ٧٩١ وله كتب كثيرة في المنطق والنحو . ومن شرح «الفتاح» السيد الشريف ^(٣) الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ صاحب كتاب الترميزات الذي مر بنا ذكره ، وله أيضاً تأليفات كثيرة في المنطق وقواعد البحث . وصنع الخطيب القزويني خطيب جامع دمشق في سنة ٧٣٩ تلخيصاً لهذا المن موجزاً أشد الإيجاز . فتصدى له سعد الدين مسعود التفتازاني بالشرح ، وشرح شرحه تلميذه السيد الشريف الجرجاني بعمل حاشية عليه . ويتوقف عمل علماء البلاغة في إيران عند صنع الشروح والمختصرات الموجزة التي يعودون إليها بالشرح وشرح الشرح أو وضع الحواشي عليه .

البيبة ص ١٢٨ وحبيب السمرقندي ص ٢٣/٣ . ٨٧ .

(٣) انظر في ترجمة السيد الشريف حبيب السمرقندي ص ٢٨٧ .

(٢) راجع في ترجمة السيد التفتازاني روضات الجنات

ص ٣٠٩ والبرهان الطالع للشوكاني ٣٠٣/٢ والقرائيد

(١) انظر في تحليل لفتاح كتاب البلاغة : نظير

وتاريخ ص ٢٨٧ .

(٢) راجع في ترجمة السيد التفتازاني روضات الجنات

ص ٣٠٩ والبرهان الطالع للشوكاني ٣٠٣/٢ والقرائيد

وعلى نحو ما نشطت المباحث البلاغية في إيران نشطت المباحث النقدية في هذا العصر، وأول ما بلغنا منها رسالة الصاحب بن عباد في الكشف عن مساوي المتنبي، وهو فيها ساخط عليه سخطا شديدا، وقد يَرَدُّ سخطه إلى عامل شخصي هو أن المتنبي أتى أن يمدحه، وأهم مساوي المتنبي في رأيه الغموض في أشعاره على طريقة الصوفيين في عباراتهم الموهمة، وأنه استخدم الألفاظ المعنفة في الغرابة، ورداءة المطالع كما يقول، والمبالغة المسرفة والاستعارة الذميمة، والنظم على القوافي الصعبة. ويلقانا في خراسان لعصر نوح بن منصور الساماني (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ). راوية للمتنبي يسمى النسيم^(١) وله فيه وفي شعره كتاب الانتصار للمني عن فضل المتنبي وهو من الكتب المفقودة. وكان المتنبي قد شغل الناس في إيران وغير إيران وأكثروا من التخاصم والجدل في شعره، فألف علي^(٢) بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه، وكان من قضية الدولة البويهية في إيران، فرأى أن يعرض شعر المتنبي على موازين القضاء العادل، وهذه هذه الموازين منذ الصفحات الأولى إلى أنه ينبغي أن لا يُحْكَم على الشاعر بما أساء فيه، فلكل شاعر إساءاته وسقطاته، وإنما يحكم عليه بإحسانه وما جود فيه، ولذلك سارع إلى الحديث عن أغلاط الشعراء القدماء والمحدثين في معانيهم وألفاظهم، ليبين أن شاعرا ممتازا من السابقين لم يخلُ شعره من هذه الأغلاط، وعرض لبعض ألوان البديع وصوره، ويفيض في بيان الحسن والقيح عند الشعراء وخاصة عند أبي نواس وأبي تمام. ويلم بطائفة من أبيات المتنبي التي أخذت عليه لبعده في الاستعارة أو غرابة في اللفظ أو تعقيد في الكلام. ويوضح كيف أن ذلك عند المتنبي قليل. ويشيد بمطالعه الجيدة وحسن تلخيصه ومعانيه الدقيقة، ويتحدث عن سرقاته حديثا مستفيضا مبينا أن السرقات شركة بين الشعراء جميعا. ولعل بن عبد العزيز في ثنايا كتابه نظرات نقدية تحليلية رائعة، منها ما يتصل بالغلو والمبالغة في الشعر، ومنها ما يتصل بأثر البيئة في الشعر والشعراء، ومنها ما يتصل بدقائق التشبيهات والاستعارات^(٣). ويأتي بعده الشعالبي^(٤) المتوفى سنة ٤٢٩ ويعقد في كتابه البيمة فصلا طويلا عن المتنبي فيها له وما عليه، استغرق من الكتاب نحو مائة صفحة، وقد استله بقوله عنه: «نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر في صناعة

(١) انظر في التيم البيمة ١٥٧/٤ ومعجم الأدباء (٣) راجع في التعللي دمية القصر وابن خلكان ١٧٨/٣ وعبر الذهبي ١٧٢/٣ وشذرات الذهب ٢٤٦/٣ وزهدة

(٢) انظر في تحليل الوساطة كتابا بلاغية: تطور وتاريخ (٢) من ١٣٢ وسنترجم المؤلف بين الشعراء. الألباء ص ٣٦٥ وروشات الجنات ٤٦٢ ومروءة الجنان ٥٣/٣ ومعاهد التنصيص ٢٦٦/٣.

الشعره ويبدأ بنذ عن ابتداء أمر المتنبي، ويورد بعض أخباره، ثم يعرض طائفة من معانيه إلى استظهرها عليه الكتاب في عصره برسالهم من أمثال صاحب بن عباد وأبي إسحق الصائغ وأبي العباس الفصيح والخوارزمي، كما يعرض طائفة من المعاني التي سرقها الشعراء منه من أمثال أبي الفرج البغدادى والمهلبى الوزير والصاحب بن عباد والسري الرفاء ويقول عنه إنه كثير الأخذ من المتنبي، ويذكر معه أيضاً أبا بكر الخوارزمي وأبا الفتح البستي وأبا الحسن السلمي وأبا القاسم الزعفراني. ويعرض لبعض سرقات المتنبي من غيره وما تكرر من معانيه، ثم يسترسل في بيان مساوي شعره مستضيئاً في ذلك بما كتبه صاحب بن عباد في رسالته آنفة الذكر، ثم يفيض في بيان محاسن شعره، مشيداً بنسبه بالأعرابيات، ومحاطبة المدح بمثل محاطبة المحبوب والصديق، واستعمال ألفاظ الغزل والنسب في أوصاف الحرب وما اشتهر به من الأمثال والحكم وطرائف المعاني. وكان يعاصر الثعالبي ناقد يسمى أبا القاسم^(١) عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني عاش في النصف الأخير من القرن الرابع والربيع الأول من القرن الخامس، وقد ألف كتاباً نُشر أخيراً في تونس سماه الواضح في مشكلات شعر المتنبي، ذكر في مقدمته نبذة عن المتنبي عرض فيها لنشأته في الكوفة ولبعض أخباره عن معاصره من البغداديين والشاميين والشيrazيين، ورواه في هذه المقدمة بمبحث الاعتقاد، وقال إنه وقع في صغره إلى شخص يسمى أبا الفضل من الكوفة كان من المتفلسفة فهو سه وأصله. ثم مضى يستدل بآيات من شعره على أخذه بمذهب السوفسطائية وعقيدة التناسخ ورأى الفضائية والإسماعيلية، وعرض لوصف شعره وأن نعت الخليل والحرب من خصائصه، وأن له النادر البديع، وفي بعض ألفاظه تعقيد وتويعيص. ثم أخذ يناقش ابن جني في كثير من تفسير شعره مرتباً الآيات التي ناقشها على الحروف الهجائية، وهو يدل في نقاشه على قدرة في فهم الشعر وتحليل معانيه. وقد بدأ تحليلاته يقول المتنبي:

أَحِبُّهُ وَأَحِبُّ فِيهِ مِلَامَةً إِنْ الْمِلَامَةُ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ
وَذَكَرَ أَنَّ ابْنَ جَنِي زَعَمَ أَنَّهُ نَاقِضٌ بِذَلِكَ أَبَا الشَّيْخِ فِي قَوْلِهِ :
أَجِدُ الْمِلَامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً حُبًّا لِدُكْرِكَ قَلِيلَتِي اللَّوْمِ

ويعلق على ذلك بقوله : معنى المتنبي بخلاف قول أبي الشيبخ، وإنما يريد المتنبي : إني أحب حببي واللؤام ينهون عنه فكيف تأتلف، وأبو الشيبخ يريد بقوله : أحب اللوم لا لنهي عن هواك بل لتكرار ذكرك في تضاعيف الكلام وأثناء اللام. ومضى الأصفهاني على هذا التحوير على ابن جني بعض تفسيراته لشعر المتنبي حتى نهاية الكتاب. وعُني بالرد

على تفسيرات ابن جني إيراني^(١) ثان هو أبو علي بن فورجة^(٢) البروجردى المتوفى سنة ٤٣٧ وقد كتب في ذلك كتابين : كتاب الفتح على فتح أبي الفتح لابن جني يقصد كتابه الفتح الوهمي على مشكلات المتنبي وقد نشره الدكتور محسن غياض ببغداد نشرة علمية محققة. ولابن فورجة كتاب ثان في الرد على ابن جني سماه كتاب التجني على ابن جني ، والأبيات في كتاب الفتح مرتبة على الحروف الهجائية ، وعماده الرد على ابن جني ، وفيه أيضاً ردود على القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في وساطته وأبي علي الحاتمي في رسالته الحامية والصاحب بن عباد في كشفه عن مساوي المتنبي ، وهو يغلظ - كما لاحظ الدكتور غياض - في ردوده على الصاحب إذ يراه متحاملاً عليه متجنباً ! وفيه يقول :
وما شهدت أحداً من الفضلاء وذوى العقول يذم المتنبي غير هذا الظالم . ويبدو من ملاحظات ابن فورجة في الكتاب وسوقه لكلامه أنه من أنصار المتنبي وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطلع على كثير من خصائصه ، من ذلك ملاحظته على البيت :
وإني لمن قوم كأن نفوسنا بها آتف أن تسكن اللحم والعظم

فقد لاحظ أن المتنبي في فخره قال كأن نفوسنا ولم يقل كأن نفوسهم بإعادة ضمير الغيبة على القوم ، وهو ضرب من الالتفات ، إذ يلتفتون من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم كما في البيت أو ضمير مخاطب . ثم قال إن ابن جني سأله عن ذلك فقال إنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة ، ويعقب على ذلك ابن فورجة بقوله : « وقد استقرت شعره كله فوجدته لا يتزل عن هذا المذهب في كل ما مدح به ، فإذا أورد ضميراً في ذم رده إلى الكلام الأول نفاذاً أن يخاطب به مواجهاً أو يرده إلى نفسه محيراً (أي أنه يرد الضمير إلى الغيبة) . ومع أنه يبدو دائماً مدافعاً عن المتنبي وخاصة أمام الصاحب كما قلنا فإنه ينص على بعض سيئاته ، فيقول في قصيدته « ملئت القطر أعطشها ربوعاً هذه القصيدة كلها من الشعر الرذل الذي لا يتشبع به ولا يتفسر . وحرى بنا أن نذكر تمة لهذا النشاط النقدي الذي عقده النقاد الإيرانيون حول شعر المتنبي شرح علي بن أحمد الواحدي الذي مر ذكره^(٣) لديوان المتنبي ، وقد ألقت شروح كثيرة للديوان ولكن نخص هذا الشرح بالذكر هنا ، لا لأنه أفاد من كل الشروح السابقة له ، بل لأنه رتب أشعار الديوان ترتيباً تاريخياً على حياة المتنبي وأيامه ، وهو ما لم يتبع لديوان

(١) انظر في ابن فورجة تمة البيت ١ / ١٢٣ ومجمع الأدباء ١٨ / ١٨٨ ولغات الوفيات ٢ / ٢٤٧ وإنباه الشفرات للذهب ٣ / ٣٣٠ وابن خلكان ٣ / ٣٠٣
(٢) راجع في الواحدي دمية القصر ومجمع الأدباء ١٢ / ٢٥٧ وإنباه الرواة ٢ / ٢٢٣ والسبكي ٥ / ٢٤٠
(٣) الرواة ١ / ٣٢٤ وما به من مراجع .

آخر من دواوين شعراء العرب قاطبة ، بحيث أصبح الديوان مَعْدًا لِكى يستغله الباحثون في كتابة ترجمة حياة المتنبي على نحو ما صنع بلاشروطه حسين . وفي الشرح نظرات نقدية كثيرة ، وخاصة في الأبيات الغامضة التي يختلف فيها الشراح ، فإن الواحدى يقارن بين أقوالهم وينفذ إلى الفكرة الصائبة دائماً ، مما يدل على قدرة نقدية حقيقية وذوق أدبى جيد .

٤

علوم التفسير والحديث والفقه والكلام

نشط العلماء لهذا العصر بإيران في تفسير القرآن الكريم ، واتضح في اتجاهات ثلاثة : اتجاه التفسير بالرأى ، واتجاه شيعى ، واتجاه صوفى ، وأهم ما نصادفه من الاتجاه الأول تفسير الزمخشري ، وهو يذيع فيه أفكار مذهبه الاعتزالي فالآيات الكريمة توجه مع فكرة الحرية والاختيار في أفعال العباد ومع فكرة تترية الذات العلية عن كل تشبيه ومع إكبار العقل ورفض كل اعتقاد في السحر والكهانة^(١) . ويقف الفخر الرازى المار ذكره آنفاً بعده في الصف المقابل فيدفع في تفسيره العظيم للقرآن « مفاتيح الغيب » آراء المعتزلة بطريقة فلسفية ، إذ كان عقله متسلساً إلى أبعد حد ، وهى فلسفة تظهر في تفسيره بصورة كثيرة ، حين يخوض في المباحث العقلية ، وحين نرى المسألة عنده تشعب شجراً كثيرة . وكان عقله من الحصب بحيث تغدو الفكرة كأنها شجرة كبيرة ، تنفرع منها فروع ، وتنفرع من الفروع غصون إلى غير نهاية . وكان أشعرى العقيدة ، فأشاع مذهب الأشاعرة في تفسيره ، وتعمق المعتزلة كما قلنا مُعَلِّياً عليهم وعلى أفكارهم مذهب الأشعرى السنّى . ومن تفاسير هذا الاتجاه بعد الرازى تفسير الفيضائى^(٢) عبد الله بن عمر المتوفى بتهريب سنة ٦٩١ وقد سماه « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » وهو يعتمد فيه على الزمخشري وتفسيره ، كما يعتمد على الرازى وغيره من المفسرين ، وهو لا يثنى في تفسيره باللائمة - كما يصنع الزمخشري - على أهل السنة ، وجاء بعده في هذا الاتجاه أبو البركات النسفى^(٣) المذكور بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد سمى تفسيره « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

(١) انظر في تأثر الزمخشري بالاعتزال في تفسيره كتاب

المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن لجوله سهر ترجمة
الدكتور عبد الحليم النجار .

(٢) راجع في الفيضائى السبكي ١٥٧/٨ وبني الوعاة

وروضات الجنات ٤٥٤ وشذرات الذهب ٣٩٢/٥ ورواة

الجنات ٢٢٠/٤ .

(٣) انظر في السنّى الدرر الكامنة ٣٥٢/٢ وتاج

الزجاج رقم ٨٦ والكنزى ١٠١ ودائرة المعارف

الإسلامية .

وهذا الاتجاه في التفسير كان يرافقه اتجاه شيعي في يثبات الشيعة المختلفة بإيران ، وكانوا ينسبون من قديم إلى أنهم من مثل جعفر الصادق والحسن بن علي العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ تفسيرا بأسمائهم ، ومن مفسريهم في أواخر القرن الثالث محمد بن مسعود السلمي رأس الإمامية بخراسان ، ومن أشهر تفسيريهم في هذا العصر تفسير الطوسي أبي جعفر محمد بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٠ وكان قد نشأ في طوس ، ثم رحل إلى العراق في الثالثة والعشرين من عمره ، وظل يفتد إلى أن أصبح شيخ الطائفة ومرجع فتاها ومن أجل ذلك وضعناه في القسم الخاص بالعراق . وتلقى بتفسير الطبرسي^(١) أبي علي الفضل بن الحسن المتوفى بطوس سنة ٥٥٢ ولقبه الطبرسي نسبة إلى طبرستان ، وقد سمى تفسيره بمجمع البيان . وهو في ثلاثين مجلدا .

أما الاتجاه الصوفي فن التفسير فيه تفسير أبي عبد الرحمن السلمي المتوفى سنة ٤١٢ ومما « حقائق التفسير » وأهم منه تفسير القشيري الذي مر ذكره في حديثنا عن التصوف ، وهو في تفسيره كعقيدته صوفي سني ، بعيد عن متاهات الاتحاد بالذات العلية ووحدة الوجود مما يلج فيه بعض متفلسفة الصوفية ، وتغلب عليه روح الوعظ ، ومثله في هذا الاتجاه الغزالي في بعض ما يعرض له من آي الذكر الحكيم ، ولأخيه أبي الفتح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ المذكور بين المفسرين في العراق ، تفسير ينحو فيه نحو الوعظ والتصوف ، لا يزال مخطوطاً .

ومن التفسير العامة تفسير أبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ ومما « بحر العلوم » وتفسير الثعلبي^(٢) للنيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ وتغلب عليه التزعة القصصية والنقل عن الإسرائيليات ولتلميذه الواحدي المذكور آنفاً شارح ديوان المتنبي ثلاثة تفسيرا : البسيط والوسيط والوجيز وله كتاب « أسباب التزول » واختصر القراء البهوي الحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٠ تفسير الثعلبي وسَمَّى مختصره « معالم التزليل » . ولنظام^(٣) الدين بن الحسن النيسابوري المتوفى في أواسط القرن التاسع الهجري تفسير سماه « غرائب القرآن ورجائب الفرقان » ويعد مختصراً لتفسير الفخر الرازي وسَمَّى فيه بذكر القراءات .

وظل علم الحديث ناهضاً في إيران لهذا العصر ، ومربناً في كتاب العصر العباسي الثاني ما يصور مدى نهضته في هذا الإقليم ، فقد كان من إنتاجه صحيح البخاري وصحيح مسلم

(١) الطرق الطبرسي روضات الجنات ص ٥١٢ ومقدمة
 والسبكي ٥٨/٤ والنجوم الزاهرة ٤ / ٢٨٣
 (٢) راجع في الثعلبي مجمع الادباء ٣٦/٥ وطبقات
 القسرين ص ٥ وطبقات القراء ١٠٠/١ وابن خلكان
 ٧٩/١ وإنباء الرواة ١١٩ / ١ وروضات الجنات ٦٨
 (٣) انظر في روضات الجنات ص ٢٢٥

وسنن النسائي وابن ماجه القزويني وجامع الترمذي ، ويمكن أن تلحق بتركيب الكتب سنن أبي داود السجستاني ، وبذلك تكون كتب الصحيح الستة من الحديث النبوي من صُنْع إيرانيين . ومضى هذا النشاط يؤتي ثمارا جديدة في القرون التالية . وأول من تلقاه من كبار المحدثين في العصر محمد^(١) بن أحمد بن حيان البُسنِي السجستاني قاضي سمرقند ومحدثها المتوفى بها سنة ٣٥٤ ويشتهر بكتابه «الجرح والتعديل» في نقد حملة الحديث ورواته ، وكان يُملئ مصنفاته في الحديث ويُقرأ عليه أو تؤخذ عنه . وكان يعاصره ابن القطان^(٢) الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب الكامل في الجرح والتعديل أو كتاب الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين . وخلفها ابن منته^(٣) الأصبهاني محمد بن إسحق المتوفى سنة ٣٩٥ وقد رحل طويلا في طلب الحديث وله مستند أبي حنيفة وكتب في الحديث مختلفة . وكان يعاصره أبو سليمان حمد^(٤) بن محمد الخطاطي البُسنِي المتوفى سنة ٣٨٦ وألف في نقد الحديث كتبها منها إصلاح غلط المحدثين ، وله شرح على صحيح البخاري ، وهو أول من رتب أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهي : الصحيح والحسن والضعيف . وعاصره الحاكم النيسابوري^(٥) المعروف باسم ابن البيع المتوفى سنة ٤٠٤ وهو الذي جعل أصول الحديث النبوي علما مستقلا ، وكان بنو سامان أصحاب بخاري يوفدونه في سفاراتهم إلى بني بويه ، وله كتاب المستدرك على الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح مسلم ، جمع فيه كثيرا من الأحاديث التي لم يُدخلها في صحيحيهما مستدلا ببراهين قوية على أنها مستكحلة لشروطها ، والكتاب مطبوع في حيدرآباد ، مع تعليقات في الرد على مؤلفه للذهبي . وكان يعاصره ابن فورك^(٦) محمد بن الحسن الأصبهاني محدث نيسابور ونزيل غزنة المتوفى بها

١٠/٣٦٨ وابن خلكان ٢/٢١٤ وتذكرة الحفاظ وبيته
الدر ٤/٣٣٤ .

(٥) راجع في الحاكم النيسابوري الأنساب ٩٩ ب
والسبكي ٤/١٥٥ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٢٧ وطبقات
القراء ٢/١٨٤ ولسان الميزان ٥/٢٣٢ والمتنظم ٧/٢٧٤
وتاريخ بغداد ٥/٤٧٣ واللباب ٢/٩٥ وابن خلكان
٤/٢٨٠ .

(٦) انظر في ابن فورك السبكي ٤/١٢٧ والوفاء
٢/٣٤٤ وابن خلكان ٤/٧٧٢ والشذرات ٣/١٨١
والنجوم الزاهرة ٤/٢٤٠ .

(١) انظر في ابن حبان الأنساب ٨١ والوفاء بالوفيات
٢/٣١٧ وتذكرة الحفاظ ٣/١٢٥ والسبكي ٣/١٣١
وميزان الاعتدال ٣/٥٠٧ وشذرات الذهب ٣/١٦
ولسان الميزان ٥/١١٢ .
(٢) راجع في ابن القطان تذكرة الحفاظ ٣/١٤٣
وميزان الاعتدال ١/٢٠١ ولسان الميزان لابن حجر ١/٦
وشذرات الذهب ٣/٥١ .

(٣) راجع في ابن منته أخبار أصبهان لأبي نعيم ٢/٣٠٦
وتذكرة الحفاظ ٣/٣٣٨ ولسان الميزان ٥/٧٠ .
(٤) انظر في الخطاطي السبكي ٣/٢٨٢ ورتبته الرواة
١/١٢٥ والأنساب ٨٠ ب ٢٠٢ ب ومجمع الأدباء

سنة ٤٠٦ وكان شديد الرد على الكرامية وله كتب كثيرة في الحديث والفقه الحنفى ، منها بيان مشكل الحديث ، ورد على الملحدة والمعلطة والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة ، وكتب مصنفات أخرى في نفس الموضوع ردا على المشبهة والمجسمة . ومن كبار المحدثين الثالين أبو إسحق الإسفرايينى المتوفى سنة ٤١٨ وأبو نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ ويشتهر بكتابة « حلية الأولياء » والبيهقي ^(١) أبو بكر أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ نيسابور ، وبها كان يعل كُتبه وتصانيفه ومن أهمها كتاب السنن الكبير ، وكتاب معرفة الآثار . وازدهرت دراسات الحديث في عصر السلاجقة ازدهارا عظيما ، كان من ثمارها ظهور الفراء البغوي ^(٢) المار ذكره بين المفسرين وله مصنفات كثيرة في الحديث والفقه الشافعى وتفسير القرآن الكريم ، وأهمها كتابه المصاييح جمعه من كتب الصحاح الستة ويؤبه وقسم الأحاديث في كل باب إلى صحيحة وتشمل كل ما أخذته من صحيح البخارى ومسلم وإلى حسنة ، وما رأى فيها من ضعف أشار إليه . وجاء بعده في القرن الثامن الهجرى محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى فرتبه ترتيبا جديدا وأتمه سنة ٧٣٧ ومما مشكاة المصابيح ، وألف بجانب المشكاة كتابا في رجالها سماه أسماء المشكاة ، وهو تراجم للرواة المذكورين في المشكاة أتمه سنة ٧٤٠ . وظلت دراسات الحديث وروايتها ناشطة بإيران في القرون التالية .

ولم يكن النشاط في علم الفقه أقل منه في علم الحديث ، بل ربما كان أوسع وأعظم ، وقد استقرت منذ أوائل العصر المذاهب الفقهية الكبرى : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل ، ولم يكن المذهب الحنبلى شائعا في إيران ولا في أى إقليم من أقاليمها ، ومع ذلك لا نعدم أن نجد فيها بعض الحنابلة في هراة وهمدان ^(٣) من مثل أبى إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى صاحب كتاب ذم (علم) الكلام ، وكان محدثا يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من الأشاعرة ^(٤) وربما كان المذهب المالكي أقل أتباعا حتى ليروى أن أحمد بن فارس اللغوى الذى ذكرناه في غير هذا الموضع وكان شافعىا كان يتزل الزرى ، فصار مالكيًا ، كما يقول ياقوت في ترجمته بمجمع الأدباء ، فُشل في

(١) راجع في البيهقي تذكرة الحفاظ ٣/٣٠٩ والكتاب ١٢٥٧/٤ وشرحات الذهب ٤/٤٨ والنجوم الزاهرة

٢٢٣/٥

(٢) أنسن التقاسيم للمقدسى ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ،

٨ / ٤

(٣) انظر في البغوى السبكي ٧ / ٧٥ وابن خلكان ٤٨١ .

(٤) ١٣٦/٢ وتهذيب ابن عساکر ٤/٣٤٥ وتذكرة الحفاظ (٤) السبكي ٤/٢٧٧

ذلك ، فقال : دخلتني الحمية لهذه البلدة ، بقصد مدينة الري ، كيف لا يكون فيها رجل على مذهب مالك الرجل المقبول القول على جميع الألسنة . وكان مذهب داود الظاهري أكثر اتباعا في إيران أثناء القرن الرابع ، ولكن لم يلبث أن تراجع وخفت صوته أمام المذهبين الكبيرين . مذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة .

وكان لمذهب الشافعي الغلبة وخاصة في شرق إيران وما وراء النهر ، ويقال إن الفقيه أبا بكر ^(١) القفال المعروف بالشافعي والمتوفى سنة ٣٦٥ هو الذي نشر مذهب الشافعي في تلك الأصقاع ، ويذكر المقدسي أنه كان غالبا أيضا في كرمان ^(٢) ، وعملت مؤثرات سياسية في نشره بل في ازدهاره لعهد السلاجقة ، فإن وزيرهم المشهور نظام الملك كان شافعيًا أشعريًا عدوًا للحشاشين الإسماعيلية ، فأسس، كما مر بنا ، مدارس في جميع المدن الإيرانية الكبيرة سنة ٤٥٧ ، ورصد لها مبالغ طائلة ، لإلحاق مكاتب بها ولما سكن الأساتذة ورواتهم ، واختار لكل مدرسة صفوة من أئمة الشافعية والأشاعرة في عصره ، وظل ذلك من بعده . فكان طبيعيا أن يزدهر المذهب الشافعي في إيران ازدهارا عظيما وأن يتأثر في دراساته الفقهية فقهاء كثيرون ، يُعدون في النوروة من الإمامة والقدرة على الفُتيا ، ولولا أن الاجتهاد بالمعنى الواسع كان قد أغلقت أبوابه ، ولم يبق لهم إلا الاجتهاد في الفروع ، لتطوروا بالفقه الشافعي تطورا عظيما . ومن أهم من تلقاه منهم لعصر السلاجقة أبو ^(٣) إسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ وقد عينه نظام الملك لتدريس فقه الشافعي بنظامه ببادكاه مرقف قسم العراق ، وكان يقابله في نظامية نيسابور إمام الحرمين الجويني ^(٤) عبد الملك أبو المعالي إمام الأئمة لعصره على الإطلاق المتوفى سنة ٤٧٨ . وقلنا في غير هذا الموضع إنه كان يحضر دروسه أربعائة تلميذ ، ورُزق من التوسع في العبارة وعلوها ما لم يُعْقَد من غيره ، وله بُنيت المدرسة النظامية بنيسابور ، وظل فيها ثلاثين سنة يلقى محاضراته ، وسُلم له الهرب والنير والحطابة ومجلس الوعظ يوم الجمعة وله تصانيف كثيرة منها النهاية في الفقه الشافعي والشامل ، والبرهان في أصول الفقه . ومن تلاميذه الغزالي وأجل تلاميذه بعده إلكيا الهَرَامِي ^(٥)

(١) انظر في ترجمة القفال الأنساب ٤٦٠ وابن خلكان ٤٣٥ ب وشعرات الذهب ٣٤٩/٣ وابن خلكان

٤٦/٣ وحرر النعمي ٣٣٨/٢ والوافي ١١٢/٤ وشعرات ٢٩/١

الذهب ٢٠٧/٣ والسبكي ٢٠٠/٣ (٤) راجع في الجوهري الأنساب الورقة ١٤٤ والمتنظم

١٨/٩ وابن خلكان ١٦٧/٣ والسبكي ١٦٥/٥ والخفد (٢) للنعمي ص ٤٦٨

(٣) انظر في ترجمة أبي إسحق الشيرازي السبكي (٥) ثرت مصادر ترجمته بين القسرين في العراق .

٢١٥/٤ والمتنظم ٧/٩ والذهب ٢٣٢/٢ والأنساب

على بن محمد المتوفى سنة ٥٠٤ بدأ حياته العلمية معيداً لإمام الحرمين ، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة ، ثم تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى وفاته . وكان يعاصره أبو الحسن الرويانى ^(١) عبد الواحد بن إسماعيل المتوفى سنة ٥٠٢ بأمل شهيدا على أيدي الباطنية الملاحدة ، وكان مدرس نظامية طبرستان وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله وله كتاب البحر في الفقه وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب الكافي ، وصنف في الأصول والخلاف . ومن كبار فقهاء الشافعية في القرن السادس فخر الدين الرازى محمد بن عمر الطبرستانى الأصل الرازى المولود المتوفى سنة ٦٠٦ فريد عصره ، ومر بنا الحديث عن تفسيره وعن كتاب له في البلاغة ، وله كتب كثيرة في علم الكلام وفي الحكمة وفي الطب ، يقول ابن خلكان : « انتشرت تصانيفه في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة ، فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين ، وله في الفقه وأصوله كتب مختلفة ، وكان يعظ مواطنيه باللسانين العربى والفارسى ، ونزل بأخرة من عمره في هراة . وبها توفى ، وله مواعظ طريفة . وكان قريبا من عصره الرافعى ^(٢) المتوفى سنة ٦٢٣ وكان إماماً كبيراً في التفسير والحديث والأصول ، أما الفقه فكان فيه - كما يقول السبكي - عمدة المحققين وأستاذ المصنفين ، وهو قزوينى ، وكان له مجلس للتفسير ولسماع الحديث والفقه ، وله الشرح الصغير والمحرر وشرح مسند الشافعى والشرح الكبير للمسى بالعزير في شرح كتاب الوجيز للغزالي ، واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعى وحواشيه إلى ألف بعده في مصر وغير مصر .

وكان مركز المذهب الحنفى مدينة بخارى لعهد السامانيين وبعدهم ، وكثيرون علماء هذا المذهب الذين ترجمت لهم كتب طبقات الحنفية مثل الفوائد البية للكنوى والجواهر المضية لابن أبى الوفاء وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ، ومن مشاهيرهم في القرن الرابع أبو بكر أحمد بن على الجصاص الرازى الذى سبق ذكره في قسم العراق ومثله مر هناك أبو زيد الدبوسى البخارى المتوفى سنة ٤٣٠ وهو أول من أسس علم الخلاف بين المذاهب الفقهية ، وله تقويم الأدلة في أصول الفقه . ومنهم البزْدَوِى ^(٣) على بن محمد بن عبد الكريم السمرقندى المتوفى سنة ٤٨٢ وله المبسوط في الفقه وكتب مختلفة في علم

(١) انظر في الرويانى كتاب الأنساب ٢٦٣ أ وللتظلم والسبكي ٢٨١/٨ و مرآة الجنان ٥٦/٤ .
 ١٦٠/٩ وابن خلكان ١٩٨/٣ والسبكي ١٩٣/٧ (٣) انظر البزْدَوِى في الفوائد البية (طبعة القاهرة) ص والنجوم الزاهرة ١٩٧/٥

(٢) انظر في الرافعى تليد الأسماء واللغات ٢/٢٦٤ ٧٨

وشفوات الذهب ١٠٨/٥ ولسونات الوفيات ٧/٢

الأصول والتفسير. ومنهم السرخسي^(١) محمد بن أحمد التوفى سنة ٤٩٠ وكان إماما علامة متكلمًا مناظرًا أصوليًا مجتهدًا وله كتاب المبسوط في أحد عشر مجلداً ، وهو أشبه بدائرة معارف في الفقه الحنفي ، ومنهم برهان^(٢) الدين أبو الحسن القرغاني التوفى سنة ٥٩٣ وله كتاب الهداية شرح البداية في مجلدين وهو من أمهات كتب الفقه الحنفي ، وعليه حواشي عدة . ومنهم العميدى^(٣) السرخسدي أبو حامد محمد التوفى سنة ٦١٥ كان إماما في فن الخلاف ، ويقول ابن خلكان له فيه طريقة مشهورة بأيدي الفقهاء ، ومن مصنفاته الإرشاد ، واعتنى بشرحه كثير من أرباب هذا الشأن . ومنهم حافظ الدين النسفي المذكور بين المفسرين والذي مر ذكره بين فقهاء الأحناف في قسم للعراق وقد ذكرنا هناك كتابه للشهور الذي يتناوله علماء المذهب الحنفي والذي سماه كثر الدقائق ، وله طبقات كثيرة في الهند ومصر ، وعنى به كثيرون فشرحوه ، ويكثر الشراح للكتب في القرون التالية . ولا بد أن نلاحظ أن كثيرين ممن مروا بنا في علوم الأوائل وعلوم النحو والتفسير والبلاغة كانوا أحنافاً ولم يشاركوا في تأليف مصنفات الفقه الحنفي مثل الزعفراني وناصر الطرزي ونصير الدين الطوسي .

وكان للشيعة بإيران فقهاءهم ، ونذكر للزيدية منهم الإمام الماروني^(٤) أحمد بن الحسين البطحاني التوفى سنة ٤١١ وكان إماما للزيدية ببجلان وبلاد الديلم . وقد أخذ المذهب الزيدي في التضاؤل أمام المذهب الإمامي الاثني عشري حتى انحسر عن إيران ، وتبعه المذهب الإسماعيلي ، وخاصة بعد القضاء على فرقة الحشاشين الإسماعيلية في منتصف القرن السابع الهجري قضاء نهالياً ، على أننا نلاحظ أن فقهاء المذهب الإسماعيلي كانوا يتركون - في عهد الدولة الفاطمية - موطنهم في إيران ويتزلون القاهرة وتذيع منها مؤلفاتهم فهم أولى بأن يتسبوا إلى موطنهم الجديد ، على نحو ما صنع حميد الدين الكرماني التوفى سنة ٤٠٨ والتوיד في الدين هبة الله الشيرازي التوفى حوالي سنة ٤٧٠ . أما المذهب الإمامي فهو الذي كتب له أن يذيع ويتشرب في إيران ، حتى إذا كانت الدولة الصفوية جعلته المذهب الرسمي للدولة ، ومن فقهاء المبكرين الذين عملوا على تأسيه في إيران أبو جعفر القمي التوفى سنة ٢٩٠ والكليني الرازي التوفى سنة ٣٢٨ قبل هذا العصر بقليل ولكتابه الكافي

- (١) راجع في السرخسي الجواهر الفقهية والقوائد الفقهية
ص ١٥٨ وابن قطر بنا رقم ١٥٧
(٢) انظر في القرغاني القوائد الفقهية ص ٤١ والجواهر
الفقهية ٣٨٣/١ وابن قطر بنا ص ٤٢ وروكخان ٣٠٩/٦
(٣) راجع ترجمة العميدى في القوائد الفقهية والجواهر
الفقهية ١٢٨/٢ ولاحق الفرائض ٥٨ وابن خلكان ٢٥٧/٤
والرواني ٢٨٠/١ والشمسرات ٦٤/٥
(٤) انظر في بروكخان (ترجمة الدكتور عبد الحليم
التجار) ٣٣٣/٣ .

أهمية كبيرة ، ويعد - كما مرّ بنا في قسم العراق - رابع أربعة من الكتب الكبرى للإمامية ، وهو فيه يتناول العقيدة الإمامية بجميع فروعها ويشتمل على أكثر من ستة عشر ألف حديث ، وشرحه كثيرون من علماء إيران الإمامية بعده . وأشهر فقهاء الإمامية في أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات ابن بابويه القمي نزيل بغداد المذكور في قسم العراق والمتوفى بالرى سنة ٣٨١ وكان أبوه كما مرّ بنا رئيس الشيعة في مدينة قم مركز المذهب الإمامي ، وابن بابويه استعان ركن الدولة بن بويه في استخدام تعاليم الإمامية في تدبير سياسته ، وفي ذلك دليل يُضَمُّ إلى ما قدمناه من أدلة في غير هذا الموضوع على أن البويهيين كانوا إمامية . ومن أهم مصنفات ابن بابويه الأمالي واعتقادات الإمامية وكتاب من لا يحضره الفقيه ، وهو أحد الكتب الأساسية عند الشيعة ، وأكبر فقهاء الشيعة بعد ابن بابويه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي وقد تحدثنا عنه في القسم الثاني الخاص بالعراق . ونشط علم الكلام بجانب العلوم الإسلامية السابقة ، وظل للمعتزلة طوال القرنين الرابع والخامس نشاطهم ، ومن أهم رجالهم القاضي عبد الجبار قاضي قضاة البويهيين في الرى المار ذكره في المباحث البلاغية ، وله كتاب المغنى في أبواب التوحيد والعدل ، وهو دائرة معارف واسعة في الاعتزال وأصوله ، وقد نشرت وزارة الثقافة بمصر أجزاء كثيرة منه . ومن أهم رجال الاعتزال بعده الزمخشري ومرّ بنا أنه أخذ نفسه في تفسيره بتوجيه آى الذكر الحكم توجيها اعتزاليا ، أساسه تأويل كل الآيات التي قد يفيد ظاهرها تنبيها ، وكذلك توجيه الأخرى التي قد تدل على فكرة القدر والجبر نحو فكرة الإرادة الحرة في أفعال العباد . وقد عُني الشيعة دائما بالاعتزال وعدّوه مؤيدا لهم في دعوائهم الشيعة ، ولعل ذلك ماساعد على بقائه بعد القرن الخامس الهجرى ، ولكن على كل حال ضعف شأنه . ومنذ أحمد ابن حنبل وفتنة القول بخلق القرآن وأهل السنة الحنابلة يحملون على المعتزلة حملات شديدة ، حتى ليصمّونهم بالإلحاد أحيانا . ولانصل إلى أوائل القرن الرابع الهجرى حتى يفصل - كما مرّ بنا في العصر العباسي الثاني - أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة ، وكان قد تلمذ لهم ، ويكوّن لنفسه مذهبا جديدا يسمى المذهب الأشعري ، وهو مذهب يقوم على التوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، وكان المعتزلة يقدمون العقل فيجعل معه بل قبله الكتاب والحديث النبوي . وبذلك أصبحت كل مسألة تُقرن فيها الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من القرآن الكريم والسنة ، ونضرب لذلك مثلا تنزيه الله عن التشبيه الذى كان يقول به المعتزلة كما أسلفنا أخذ به ، كما أخذ يقول أهل السنة في أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة ، واستدل على ذلك بأدلة سمعية في كتابه الإبانة وبأدلة عقلية في كتابه اللمع . وكان

المعتزلة يحتكون دائماً في الإلهيات إلى العقل فاحتكم معه إلى الشرع والأدلة السمعية من القرآن والسنة . وتوسط بين المحدثين والمعتزلة في فكرة خلق الإنسان لأفعاله ، فقال إن هذه الأفعال لله صنعا وللإنسان كسباً وإرادة ، فالإنسان يريد بها والله يخلقها . وقال ، في مسألة خلق القرآن التي أحدثت فتنة بين المحدثين والمعتزلة في زمن المأمون والمعتصم والواثق ، إن الألفاظ المترلة بالوحي دلالات على الكلام الأزل والدلالة مخلوقة محدثة ، وقال إن صفات الله ليست هي عين الذات الإلهية كما قال المعتزلة ولا هي أحوال كما قال أبو هاشم الجبائي المعتزلي وإنما هي زائدة على الذات قائمة بها .

وإنما أطلنا في الحديث عن مذهب الأشعرى لأنه المذهب الذي ساد طوال هذا العصر في أغلب البيئات الإسلامية وخاصة بين الشافعية والمالكية ، وكان المذهب الشافعي - كما مر بنا - متشرباً في شرق إيران ، وكان أصحابه جميعاً أشاعرة ، ولم يلبث نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور أن أسس لهذا المذهب الكلامي وبالمثل لقرينه المذهب الشافعي كرامتي في جميع المدارس التي أنشأها - كما مر بنا - في إيران والعراق ، فازدهر المذهب ازدهاراً عظيماً ، وانتصر فعلاً على المعتزلة والسلفيين من أهل السنة جميعاً ، إذ أصبح المذهب الرسمي آنذاك وكان من أهم رجاله إمام الحرمين الجويني الذي ذكرناه بين الفقهاء ، وكان أعلم أهل زمانه بعلمي الكلام والفقه الشافعي وبنيته له المدرسة النظامية بنيسابور كما أسلفنا ، ونرى الشهرستاني يشرح على لسانه رأيه المتوسط في أفعال العباد وأنها لله خلقاً وللناس كسباً يقول : إن نتي هذه القدرة والاستطاعة (عن الإنسان) مما يبابه العقل والحس ، وأيضاً إثبات قدرة لا أثر لها بوجه كنفى القدرة أصلاً . فلا بد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق ، فإن الخلق يشعر باستقلال إيماده من العدم ، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضاً عدم الاستقلال فالفعل يستند وجوده إلى القدرة ، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة ، وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب ، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها المستغنى عن الإطلاق ، فإن كل سبب منها استغنى من وجه محتاج من وجه ، والبارئ تعالى هو الغنى المطلق الذي لا حاجة له ^(١) . وخلف الجويني تلميذه الغزالي ، فقاد هذا المذهب إلى النصر الحاسم ، وظل أعظم المذاهب الكلامية طوال العصر .

وكان يعتنقه الشافعية كما أسلفنا في إيران وغير إيران ، أما الحنفية فكانوا يؤثرون على

مذهب الأشعرى مذهباً متوسطاً مثل مذهب الأشاعرة لعلمهم من أعلامهم ، وهو مذهب الماتريدي^(١) محمد بن محمد بن محمود المتوفى بسمرقند سنة ٣٣٣ وكان التنافس شديداً بين الماتريدية والأشعرية ، وكانوا أقرب من الأشعرية إلى المعتزلة ، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة يقولون بأن الوسيلة إلى ذلك التي توجبها هي العقل ، ويقول الأشاعرة بل الوسيلة الموجبة هي الشرع الذي يمتحن علينا الإيمان بالله ، ويتوسط الماتريدية بين الطرفين فيقولون إن أساس الإيمان بالله الشرع كما يقول الأشاعرة ، ولكن هذا الإيمان يدركه العقل فالعقل وسيلة فيه . ومثلاً في مسألة الصفات الإلهية كان المعتزلة يقولون بأنها عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرى إنها زائدة على الذات قائمة بها ، وتوسط الماتريدية فقالوا إن الله عالم وله علم أزل . وبينما كان المذهب الأشعرى يسود في نيسابور كان المذهب الماتريدي يسود في بخارى وسمرقند وآسيا الوسطى حيث يسود للمذهب الحنفي في الفقه . وكان الكرامية من الصوفية خاصة يحملون على المذهب الأشعرى ، ومعروف أنهم كانوا يقولون في التشبيه . وعلى كل حال أخذت كفة المذهب الأشعرى تلو حتى في يثبات الماتريدية منذ اتخاذه عقيدة رسمية للسلاجقة في عهد وزيرهم نظام الملك . وظل المعتزلة ينازحونهم طوال هذا العصر ، حتى في نيسابور نفسها وحتى منذ عهد نظام الملك أو قل قبله بقليل فإن الوزير السابق له أبا نصر منصور بن محمد الكندري حسن لسلطانه طُفِرُكُك السُّلجُوق أن يمنع الأشاعرة من الوعظ والتدريس وأن يعزلهم عن الخطابة ، ونشبت بذلك فتنة^(٢) في نيسابور بين الأشاعرة والمعتزلة ، ولم يلبث الوزير أن قُتل وخلفه نظام الملك فازدهر المذهب الأشعرى منذ هذا الحين كما ذكرنا .

وكان أهل السنة الحنابلة يخالفون الأشعرية في الأخذ بفكرة التأويل المجازي للآيات والأحاديث التي قد تدل على التشبيه والتجسيد للذات الإلهية ، دون إثباتها . ومعروف أن الأشعرى كان يقول إزاء مثل هذه الآيات كما في قوله تعالى (بل بدءا ميسوطان) إن ذلك يُفهم ولكن بلا كيف ، حتى لا يأخذ بفكرة التشبيه ، وكان أهل السنة الحنابلة يأخذون مثله بظاهر الآيات مع الإيمان بتثريه الله عن التشبيه والتفصيل وكانوا يرون أن كلام الله قديم وأن القرآن لذلك غير مخلوق ، بينما توسط الأشعرية ، وقالوا إن كلام الله قديم ولكن

الذي يصور مذهبه الكلامي ، وهو كتاب نفيس .
(٢) راجع في هذه الفتنة طبقات الشافعية للسبكي ٣٨٩/٣ وترجمت عبد الكريم القشيري والجميحي وأن سهل بن الحرث .

(١) انظر في ترجمة الماتريدي الأسباب للسماعاني ٤٩٨ والقوائد البيهية ص ٩٥ والجواهر الفضية لابن أبي الوفا ١٣٠/٢ وابن قطرغا ص ٥٩ وشرح الإحياء للزبيدي ١٥/٢ ونشر له الدكتور خبغ الله خليف كتاب التوحيد

ألفاظ القرآن الدالة عليه مخلوقة . فهي ليست كلام الله ولكنها تبليغ له . وأيضاً توسط الأشاعرة كما أسلفنا بين أهل السنة الحنابلة وإيمانهم بالقدر وبين المعتزلة وإيمانهم بحرية الإرادة للإنسان . وكان ذلك كله مثار جدل عنيف طوال هذا العصر بين أهل السنة الحنابلة والأشاعرة ، وبالمثل بين الأشاعرة والماتريدية ، وكاد يخفى في القرون المتأخرة أنصار الاعتزال ، وألفت في ذلك كله كتب كثيرة ، تنصر تارة لهذا المذهب أو ذاك ، وتارة تحمى جميع المذاهب والآراء ولا تقصد كتاب الملل والنحل للشهرستاني المؤلف في القرن السادس فحسب بل تقصد أيضاً كتاب المواقف لعضد الدين^(١) الإيجي المتوفى سنة ٧٥٦ وله شروح نفيسة للسعد التفتازاني والسيد الشريف الجرجاني وغيرهما ، وهو بشروحه موسوعة كبيرة لعلم الكلام ومذاهبه وأصحابه

٥

التاريخ

تنوعت الكتابة التاريخية في إيران كما تنوعت في كل بلد عربي ، فكان هناك المؤرخون العامون للأمم والدول ، وهناك المؤرخون للمدن ، وهناك أصحاب التراجم العامة والخاصة . ومر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أن أكبر مؤرخي الأمم والدول في الإسلام كان مؤرخاً إيرانياً هو الطبري المتوفى سنة ٣١٠ . وأول من بلفقنا في هذا العصر من هؤلاء المؤرخين المطهر^(٢) بن طاهر المقدسي المتوفى سنة ٣٥٥ وهو ليس إيرانياً كما يشهد اسمه ، ولكنه كتب كتابه بدء الخلق والتاريخ في مدينة بُست شرق إيران ، وأهداه لبعض الوزراء السامانيين ، وهو جمع لمعارف كثيرة عن الأديان . وبه كثير من الأخبار التاريخية . وكان يعاصره مؤرخ إيراني هو حمزة الأصفهاني المتوفى سنة ٣٦٠ ومر بنا حديث عنه في عرضنا لكتب الأمثال بين المصنفات اللغوية . وله تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، وقد طُبعت منه ونُشرت بعض أقسام . وبلغنا بعده ابن مسكويه وكتابه « تجارب الأمم » وقد ترجمنا له في القسم الثاني الخاص بالعراق .

وكان في عصره المرعشي المتوفى سنة ٤٢٠ وقد صنف باسم السلطان محمود الغزنوي كتاب الغرر في سير الملوك وأخبارهم ، عُني فيه بسير ملوك الفرس ، ومضى فيه حتى عصره .

(١) انظر في عضد الدين السبكي ٤٦/١٠ والدرر لاين الإسلامية وما بها من مراجع .

حبر ٤٢٩/٢ والبيدر الطالع ٣٧٦/١ والشدات (٢) انظر في بروكلمان ٦٧/٣

والنجوم الزاهرة ٢٨٨/١٠ ودائرة المعارف

ومن هذه الكتب التاريخية العامة كتاب « الآثار الباقية من القرون الخالية » للبيروني كما مر بنا ويعمل تقاوم وجداول للشهور عند الأمم القديمة مع عرضه لأعيادها ولكثير من المشاكل الفلسفية والتزعات الدينية ، وكان حر الفكر ومع أنه كانت فيه نزعة إلى الاعتداد بقوميته الفارسية فإنه لم يتحيّف العرب في أحكامه ، بل إنه نادى بأن العربية أكثر ملاءمة للغة العلم من الفارسية . وهو يدعو في هذا الكتاب إلى نقد الأخبار التاريخية المفرقة في القدم لما يشوبها من أساطير . ويفوق هذا الكتاب في التاريخ العام أهمية كتابه تحقيق ما للهند من مقولة الذي سبق أن تحدثنا عنه والذي يضم تاريخ هذه الأمة وجغرافية بلادها وما يتصل بذلك من دراسة لأديانها وكل ما يتصل بحياة شعبها . وكان يعاصره العنبي ^(١) محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ واشتهر بكتابه الذي ألفه في الدولة الغزنوية لعهد مؤسسها السلطان محمود الغزنوي وقد فصل القول فيه عن هذا السلطان وعن أبيه سبكتكين وحروبها ، وخاصة حروب محمود في الهند ، وسماه البيهقي نسبة إلى لقبه : يمين الدولة الذي منحه له الخليفة تكريما ، وألفه في لغة مسجوعة منمقة ، حتى عدّه الفرس من روائع آثارهم الأدبية ، ولذلك اعتنى به وبشرحه كثيرون منهم ، ومن شروحه شرح مطبوع معه بمصر باسم « الفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العنبي » . وعنى محمد بن حسين البيهقي المتوفى سنة ٤٧٠ بكتابه تاريخ السلاطين الغزنويين ، غير أن الكتاب فقد ولم يبق منه إلا جزء خاص بمحادث السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، ولهذا يطلق عليه اسم تاريخ مسعودي ، وهو باللغة الفارسية وترجم حديثا إلى العربية وطبع في مصر باسم تاريخ البيهقي . وألف بعد ذلك الوزير أنوشروان بن خالد المتوفى سنة ٥٣٢ كتابا في تاريخ الدولة السلجوقية ، وعليه اعتمد المعاد ^(٢) الأصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ في كتابه عن السلاجقة الذي سماه « نصرة الفطرة وعصرة القطرة » . ويدخل في هذه الكتب التاريخية الخاصة بالدول والسلاطين كتاب ابن عرشاه ^(٣) المتوفى سنة ٨٥٤ : « عجائب المقدور في نوائب تيمور » وهو تاريخ مفصل لتيمور لك طبع مرارا بمصر وفي أوروبا ، وحقا ابن عرشاه ولد في دمشق ، غير أنه رحل عنها إلى بلاد الروم ثم إلى سمرقند وبلاد المغول في التركستان ، وتلقى العلم على الشيخ هناك ، فرباه بإيران ، وتولى ديوان الإنشاء هناك ، وكانت تصدر

(١) انظر مصادر ترجمة النحفي في الفصل الأخير من هذا
القسم .

شامة ص ٢٧ والرائي ١٣٣/١ والسبكي ١٧٨/٦ .

(٢) انظر في ابن عرشاه الفصول اللاحقة ١٢٦/٢

والشذرات ٢٨٠/٧ والبهار الطالع ١٠٩/١

(٣) راجع في المعاد مجمع الأدباء ١٨/١١ والشذرات

٣٢٢/٤ وابن خلكان ١٤٧/٥ وذيل الروضتين لأبي

عنه الرسائل بالعربية والفارسية والتركية .

وللمؤرخين في إيران كتب كثيرة خصّصوا بها البلدان عارضين علماءها عرضاً واسعاً ،
فهي من جهة تاريخ علمي للبلدان إيران ومن جهة ثانية تاريخ علمي لعلمائها النابيين ، ومن
السابقين إلى صنع ذلك في العصر العباسي الثاني ابن منده محمد^(١) بن يحيى المتوفى سنة ٣٠١ ،
فله تاريخ أصبهان ، ومن أوائل ما يلقانا في هذا الاتجاه لأوائل هذا العصر عصر الدول
والإمارات كتاب تاريخ بخارى حتى سنة ٣٣١ لأبي بكر محمد بن جعفر الزرخي المتوفى
سنة ٣٤٨ كتبه لنوح بن نصر الساماني ، واختصره بعده محمد بن زفر بن عمر سنة ٥٧٤
وأكمّله مؤلف مجهول إلى عهد المغول ، ونشره شيفر في باريس . وجاء بعد الزرخي
الحاكم النيسابوري الذي مر بنا ذكره بين المحدثين ، فألف كتابه تاريخ نيسابور أو تاريخ
علماء نيسابور ، ويقول السبكي في طبقاته إنه أكمل من تاريخ بغداد . ويؤلف
الحسن^(٢) بن محمد القمي المتوفى سنة ٤٠٦ تاريخ قم : مدينة الشيعة ، باسم
الصاحب بن عباد ، وهو مطبوع في طهران . ويؤلف أبو نعم^(٣) المتوفى سنة ٤٣٠ تاريخ
أصبهان ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه نقل عن هذا الكتاب اسم أبيه ونسبه . ومن كتب
القرن الخامس تاريخ الرى لأبي سعد الآبي صاحب نثر الدرر الذي عرضنا له في غير هذا
الموضع . وتلت في القرن السادس بتاريخ مرو للسماعي^(٤) المتوفى سنة ٥٦٢ وتاريخ نسا
وأبيورد للأبيوردى الشاعر المتوفى سنة ٥٧٥ .

وعُنت طائفة كبيرة من المؤرخين الإيرانيين بصنع كتب التراجم ، ومنها العامة ، ومنها
الخاصة بطائفة معينة كالصوفية والفلاسفة أو الأطباء والشعراء والمغنين ، ونذكر في مقدمة
تراجم الصوفية كتاب طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن^(٥) السلمى النيسابوري المذكور
بين المفسرين المتوفى سنة ٤١٢ للهجرة وعادة يقدم معلومات دقيقة في عبارات موجزة عن
الصوفي الذي يترجم له ويذكر بعض عباراته وبعض ما كان يردده من أشعار . وأوسع منه

(١) ابن خلكان ٢٨٩/٤ وتذكرة الحفاظ ١٠٣١ وثلثات الذهب ٢٠٩/٣ وثرآة الجنان
والثلثات ٢٣٤/٢ والبي ٣٧١/٤ وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٨٠/٧

١٣١٦/٤

(٢) انظر في القمي بروكلمان (الترجمة العربية) ٢٩/٣ (٣) انظر في أبي نعم السبكي ١٨/٤ وتذكرة الحفاظ

٢٧٥/٣ وثلثات الذهب ٢٤٥/٣ وللتب ١٠٠/٨ (٤) واللباب ٥٥٤/١ وللتب ٦/٨ وتذكرة

الحفاظ وثلثات الذهب ١٩٦/٣ وميزان الاحتفال ٧١/١ وابن خلكان ٩١/١ والبر ١٧٠/٣ .

٥٢٣/٣

(٥) راجع في السمعاني للتب ٢٢٤/١٠ وابن خلكان

في طبقات الصوفية كتاب حلية الأولياء لأبي نُعَيْمٍ صاحب تاريخ أصفهان الذي ذكرناه آنفاً ، وترجياته أوسع وأخصب . ومن كتب تراجم الأطباء والفلاسفة كتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيني^(١) المتوفى سنة ٥٦٥ هـ وقد يسمى شجرة صوان الحكمة ، ونسرف مصر بالاسم الأول وفي لاهور بالاسم الثاني .

واهم كتب التراجم التي عنيت بالشعراء كتاب الأغاني لأبي الفرج^(٢) الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ويقع في نحو ٢٥ مجلداً ، ترجم فيه أبو الفرج للتأبين من شعراء الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى للإسلام ، ولم يترجم لأئمة الشعراء فحسب ، بل ترجم أيضاً لأئمة المغنين والمغنيات حتى نهاية القرن الثالث الهجري . وعادة يذكر صوتاً أو كما نقول الآن أغنية ، ولذلك سماه الأغاني ، ويتلو الأغنية دائماً برفيقها الموسيقى قائلاً مثلاً إنها من الثقيل الأول ونحو ذلك ، ويذكر اسم شاعرها ومن تغنى بها ، ويترجم إما للشاعر وإما للمغنى أو المغنية ترجمة مفصلة ، قد تمتد أحياناً إلى مائة صفحة ، وقد تزيد كثيراً ، وبذلك يطلعا على كل ما يتصل بالشاعر من نشأة ومن علاقات اجتماعية ومن آراء لمعاصريه أو للنقاد فيه ، مورداً ذلك كله بأسلوب ناصع شفاف ، يعرف كيف يروي وكيف يقصُّ وكيف يسوق الأخبار سَوْقا مشوّقا ، وفي أثناء ذلك يعرض عليك صور الحياة العربية والحضارة المباسية كما يعرض بعض الخلفاء ، ويخيل إليك أحياناً أنك تراه في قصورهم وفي مجالسهم ومع حواشيهم يلهون ويطربون ، رؤية مجسمة ، تجعل الماضي أمامك حاضراً بحذافيره .

ويُعنى الثعالبي بعده بعمل موسوعته الشعرية التي أشرنا إليها والتي سماها البيهية أو بهيمة الدهر في محاسن أهل العصر وهي تراجم لجميع الأقاليم العربية ومن نبغ فيها من شعراء العروبة من الأندلس حتى أقصى الشرق من أقاليم إيران ولما نصيب الأوفر من الاهتمام فقد شغلت من الكتاب نحو نصفه ، وبدأ الحديث فيها بذكر ابن العميد وبعض الوزراء الكتاب الأفاضل ثم تحدث عن شعراء أصفهان الجبل فشعراء فارس والأهواز فشعراء جرجان وطبرستان فشعراء خراسان وما وراء النهر ، فبعض الشعراء التأبين المقيمين ببخارى وبغريها من مدن أقصى الشرق فشعراء نيسابور . وجميعهم من شعراء القرن الرابع وأوائل الخامس ، ويقول في مقدمته إنه أورد فيه لبَّ اللب ، وحجّة القلب ،

وصح الطبعة ٣٠٥/٢ وميزان الاحتال ١٣٣/٣ ولسان الميزان ٢٢١/٤ وحرّة الجبان ٣٥٩/٢ والفلوات ١٩/٣ وقنبرم الزاهرة ١٥/٤ وروضات الجئات ٤٨٧ .

(١) راجع في البيني معجم الأدباء ١٣/٢١٩
(٢) انظر في أبي الفرج تاريخ بغداد ١١/٣٩٨ وتاريخ أصفهان لأبي نعيم ١١/٢ وللتكم ٧/٤٠٧ ومعجم الأدباء ١٣/٩٤ ونهاية القرون ٢/٢٥١ ولبن علكان ٣/٣٠٧

وناصر العين ، ونكتة الكلمة ، وواسطة العقد ، ونقش الفص ، مع كلام في الإشارة إلى النظائر والأحسن والسرقات ، غير أنه عُي بأشعار الشعراء ، والاختيار منها ، ولم يُعن ، مثل أبي الفرج في كتابه الأغاني ، عناية واسعة بأخبار الشعراء إلا قليلاً جداً لا يكاد يشق غلّة . وأتبع الثعالبي البيّمة بذيل لها سماه «تمة البيّمة» وزع فيه الشعراء على نفس الأقسام التي ذكرها في البيّمة ، وبينما تقع البيّمة في أربع مجلدات كبار تقع التمة في جزءين ، وهي مطبوعة في طهران . والتمة والبيّمة توردان لشعراء الدولتين البويهية والسامانية وكذلك لشعراء الزياريين في طبرستان والفرنويين في غزنة . ويليهما كتاب «دُمّة القصر وعُصرة أهل العصر» للباخرزي على بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٧ هـ وهو يؤرخ لشعراء زمنه ، ويعرج على نفس نظام البيّمة ، فيؤرخ لشعراء العالم العربي ، ويُعنى خاصة بشعراء إيران وأقاربها كما عُي الثعالبي . وقد سار على غرارهِ في العناية بشعر الشعراء أكثر من أخبارهم ، وكأن الثعالبي هو المسئول عن هذا الاتجاه في الترجمة للشعراء ، إذ عمّ وشاع لا في إيران وحدها بل في أقطار العالم العربي جميعها . ويأتي بعد الباخرزي في الأهمية كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للهاد الأصماني الذي سبق أن ذكرناه بين المؤرخين وهو أيضاً يترجم لشعراء الأقطار العربية لعصره أي في القرن السادس الهجري حتى نحو سنة ٥٧٠ للهجرة ، وترجمه أوسع ، غير أنها تصطبغ بصبغة البيّمة ، وخصّ إيران بقسم كبير من كتابه لم ينشر حتى الآن ، ونشرت منه الأجزاء الخاصة بمصر والشام والعراق والمغرب والأندلس..

ولعل أهم كتاب في التراجم العامة هو كتاب الأنساب للسمعاني عبد الكريم بن محمد الذي ذكرناه بين المؤرخين للمدن وهو مطبوع في مجلد ضخّم بالزنكوغراف ، وهو ليس في الأنساب بمعنى نسب الشخص في آبائه ، بل هو أعم من ذلك ، إذ يعني بأنساب العلماء والأدباء إلى بلدانهم أو قبائلهم أو أسرهم أو صناعاتهم أو تجاراتهم . ويعرّف أولاً بما ينسب إليه الشخص ، وإذا كان بلدة ذكر مكانها ، وكذلك الأنساب الأخرى ثم يترجم ترجمة دقيقة لصاحب النسبة ، وقد يشترك في النسب أو اللقب الواحد عدة أشخاص ، فيتحدث عن كل منهم ، أو قل يترجم لكل منهم ذاكرة مولده ووفاته . واختصر الكتاب عز الدين ابن الأثير في مصنفه اللباب في مختصر الأنساب ، وإلى الكتّابين نرجع في كثير من التراجم ، كما هو واضح في الموامش .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر العربي على كل لسان

رأينا في حديثنا عن الحياة السياسية لإيران أنها أخذت تستشر منذ القرن الثالث الهجري نزعة قومية قوية كان من آثارها في أوائل هذا العصر أن تقابل دويلات وإمارات فارسية كثيرة على رقعة إيران الفسيحة ، فكان البويهيون في الوسط والجنوب ومدوا أجنحتهم حتى شملت بغداد والعراق . وكان الزياريون في الشمال بطبرستان وجرجان ، وكان السامانيون في خراسان ، وبذلك كانت إمارتهم أبعد الإمارات عن حاضرة اللغة العربية والحلقة الإسلامية : بغداد ، وتليها إمارة الزياريين في البعد . وهياً ذلك للإمارتين جميعاً أن تعملوا على إحياء اللغة الفارسية الأدبية . وكان السامانيون أسبق إلى ذلك ، لأن إمارتهم أسبق في التاريخ ، ولأنهم ورثوا إمارة الطاهريين التي سبقتهم منذ عصر المأمون ، إذ منح طاهر بن الحسين قائده المشهور خراسان طُغمة له ولبنته ، فاستقلوا بها مبكرين ، وكانت أول الإمارات الفارسية في الظهور والنشأة ، فساعد ذلك أهلها على أن يكونوا السابقين في استعمار القومية الفارسية والعمل على استظهار شعر فارسي لهم ينافسون به الشعر العربي . وكذلك الشأن في إمارة الصفاريين التي عاصرتها ، ويذكر مؤرخو الشعر الإيراني عادة بعض أسماء الشعراء الذين عرفهم القرن الثالث الهجري ، واتخذوا الفارسية لساناً لهم ، يعبرون بها عن مشاعرهم ، وغير قليل منهم يلقه ضباب الأساطير ، وأول شاعر معروف حقاً هو الرودكي السمرقندي جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة وكان يتغنى بمدح السامانيين ووزيرهم البلّعي مترجم تاريخ الطبري إلى الفارسية ، ويقال إن هذا الشاعر ترجم من العربية كليلة ودمنة شعراً فارسياً ، غير أن ترجمته سقطت من يد الزمن . وخلفه الدقبلي الطوسي المتوفى سنة ٣٦٧ وهو بدوره من شعراء الدولة السامانية ، واشتهر بأنه اعتمر نظم الشاهنامة في تاريخ ملوك الفرس وأبطالهم وأساطيرهم القديمة وأنه نظم منها

ألف بيت ، ثم حال الموت بينه وبين إكمالها ، فأكملها من بعده الفردوسى في عهد محمود الغزنوى .

ولم يهتم البويهيون أى اهتمام بهذا الانجاء القومى في إحياء الآداب الفارسية ، فقد آثروا الانصواء تحت لواء الثقافة العربية الخالصة ، وكثير منهم أنقروا العربية ، حتى اتخذوها لسانهم للتعبير عن عواطفهم وأهوائهم ، مما جعل الثعاللى يترجم لطائفة كبيرة منهم بين شعراء العربية في إيران . وكان وزرائهم من كبار الأدباء وفي مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد المشهوران بأشعارهما وكتابتهما في العربية . ومع أنه يقال إنه وقد حل الصاحب شاعران قديما له مدائحهما بالفارسية ، وهما منصور بن على الرازى الملقب بالمنطقى ومحمد بن على السرخسى الملقب بالكبرى ، غير أن ذلك يعدّ شذوذاً في بيئة البويهيين ، فقد كانت بيئة عربية خالصة ، وكان مثل هذين الشاعرين يُعدّان طارئين عليها . وبالعكس عُتبت الدولة الغزنوية ، وخاصة في عهد محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) بالعمل على إحياء الآداب الفارسية ، مع أن هذه الدولة ترجع إلى أصول تركية . وفي عهد محمود أنجز الفردوسى نظم الشاهنامة في نحو ستين ألف بيت من الشعر الفارسي^(١) ، وكان الفرغنى والعنصرى والسجلى ومنوجهرى يتبارون في تمجيد فتوحه ومديح أبنائه . وخلقت كل هذه الإمارات السالفة في إيران الدولة السلجوقية ، وفي عهدها أخذ الشعراء الإيرانيون من أمثال أبى سعيد بن أبى الخضر وسنانى وفريد الدين العطار وعمر الخيام والأنورى يتجهون نحو التصوف . ونتم هذه الموجة شعراء إيران في القرون التالية من أمثال الشيخ سعدى الشيرازى وجلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وعبد الرحمن الجامى .

وينبغى أن نعرف أن نشاط هذا الشعر الفارسي وأصحابه لم يكن يُقاس في شيء إلى نشاط الشعر العربى في إيران وأصحابه طوال القرون المجرية : الرابع والخامس والسادس . وأكبر دليل على ذلك أنه بينما ألقت المجلدات الضخام من الشعر العربى في تلك القرون على نحو ما تُصوّر ذلك مجلدات البيتة ودُمية القصر والحريدة لم يؤلف عن الشعر الفارسي كتاب يضم بين دفتيه شعراؤه ، وأول كتاب عُني بهم هو كتاب لباب الألباب لعوفى المؤلف في أوائل القرن السابع الهجرى . ومعنى ذلك أنهم كانوا حتى هذا التاريخ قلة قليلة بالقياس إلى شعراء العربية ، ولو أن الفتح المغولى لم يحدث في هذا القرن لظل الشعر العربى هو المسيطر على روح الجماعة الإيرانية ، ومع ذلك فقد ظل أشواطاً من التاريخ والزمن ، على الرغم

(١) ترجمت الشاهنامة بمصر في العصر الأيوبي ، ترجمها عبد الوهاب حزام .

أبو الفتح البختارى ، ونشر ترجمته في القاهرة الدكتور

من الحراب الذى رافق المغول والذى عمّ إيران ، فقد حرقوا ودمروا كل ما صادفهم من حضارة ، وكانت الحضارة العربية هى التى تسود فى كل تلك الديار ، وكان يسود معها الشعر والعلم العربيان ، فتراجعت تلك الحضارة أمام السيول المغولية وأمام ما أنزل بها جنكيزخان وهولاكو من تدمير ، حتى لقد كانا يحرقان المكتبات . أما المدن فقد أنزلا بها خرابا لا مثيل له فى التاريخ ،

وما أنزل هولاكوبيغداد من دمار معروف مشهور . وكان ذلك كله ضربة قاصمة للحضارة العربية فى إيران وبالتالى للشعر والعلم العربيين ، ومع ذلك فقد ظل العلم العربى حيا وبالمثل الشعر ، وإن فقد كثيرا من نشاطها المائل القديم . ولا بد أن نعرف أن لغة العلم فى إيران ظلت حتى القرن العاشر الهجرى هى العربية ، فيها كان يكتب علماءهم وفلاسفتهم من أمثال ابن سينا والبيرونى فى القرن الخامس والزرخشري والفخر الرازى فى القرن السادس ونصير الدين الطوسى والكاتبى القزوينى المعروف بديبران فى القرن السابع . وسعد الدين التفتازانى وعصدد الدين الإيجى فى القرن الثامن والسيد الشريف الجرجانى فى القرن التاسع . فى كل هذه القرون - وخاصة حتى القرن السابع - لم تستطع الفارسية أن تستولى تماماً على ألسنة العلماء الإيرانيين ، حقا قد يكتب العالم بها رسالة أو يترجم بها عملاً من أماله ، كما حدث أحياناً عند ابن سينا والبيرونى ، ولكن تظل العربية لغة الأساس التى يلجئ بها كتبه ومعارفه ، ومرجع ذلك إلى أن العربية كانت تفوق الفارسية فى القدرة على التعبير العلمى بفضل ما تتم به من مرونة فى الاشتقاقات ، وأيضاً لأنها كانت قد أصبحت فعلاً لغة علمية ، تزخر بمصطلحات العلم ، فكان من الصعب أن نحمل الفارسية محلها ، ويصور ذلك البيرونى قائلاً : « إلى لسان العرب نُقلت العلوم فى أقطار العالم ، فازدانت وَحَلَّتْ إلى الأفئدة ، وسَرَتْ محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة . . . والمهجو بالعربية أحب إلى من الملعون بالفارسية . ويعرف مصداق قول من تأمل كتاب علم قد نُقل إلى الفارسية . [فسمى أنه] قد ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودَّ وجهه ، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة [الفارسية] إلا للأخبار الكسروية والأسحار الليلية ^(١) . »

وظل هذا الشعور ماثلاً فى نفوس كثيرين من العلماء الإيرانيين حتى القرن العاشر الهجرى ، فكانوا يشبّون فى مهاد العربية وينهلون من ينابيعها الأدبية ، بل إننا نجد ذلك نفسه عاما بين الشعراء الذين اتخذوا الفارسية لسانا لهم منذ الرودكى ، ولذلك مظهر عام

(١) انظر كتاب الأدب الفارسى فى العصر الزنوى كتاب الصبغة للبيدق .
للكور حل الثانى (طبع تونس) ص ٣٣٨ خلافاً من

عنده وعند غيره ممن جاؤا بعده من شعراء الفارسية ، فإن الألفاظ العربية تكثر في أشعارهم ، بل لذلك مظهر أبعد عمقاً وغوراً ، فإن ضروب النظم التي صاغوا فيها أشعارهم ضروب عربية ، بل قل كل عروض الأشعار عندهم من نفس عروض الشعر العربي ومادة تفاعيله وأوزانه .

وقد اشتهرت عندهم طائفة من ضروب النظم العربي وأنماطه أولها المثنوي ، وهو نفس الضرب المعروف في العربية باسم المزدوج الذي أخذ يشيع - كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول - منذ بشار ، وأشاعه بعده أبان بن عبد الحميد في ترجمة كليله ودمنة وما نظم من الشعر التعليلي^(١) ، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت في حين تتحد في الشطرين المتقابلين ، وقد اختاره الفردوسي لشاهنامه والترم فيه وزن المتقارب .

والضرب الثاني القصيدة ، وموضوعها ونسقها لا يختلف في شيء عن موضوع القصيدة العربية ، فقد يكون مديحاً أو هجاء أو ديناً أو فلسفة .

والضرب الثالث الغزل ، وموضوعه غزل أو صون وأبياته لا تزيد عن اثني عشر بيتاً إلا في النادر ، وهو بذلك المعروف في العربية باسم المقطعات الغزلية .

والضرب الرابع الرباعيات ، وهي تتألف من أربعة شطور ، يتفق أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يُختم بنفس القافية وقد لا يُختم وهو بدوره نط عرى ظهر عند بشار وأبي نواس وأبي العتاهية^(٢) ، وكل ما للفرس أنهم مع الزمن الترموا فيه وزنين خاصين سبق أن تحدثنا عنها في قسم العراق .

والضرب الخامس المسط ، وهو يتألف من أدوار وكل دور يتكوّن من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور في قافية واحدة ، ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة : وقد أخذ هذا الضرب يشيع في العربية منذ أبي نواس قبل نشأة الشعر الفارسي الحديث .

ومعنى ذلك أن الشعر الفارسي الذي أخذ ينظمه شعراء الفرس بإيران منذ القرن الثالث الهجري فصل عن الشعر العربي كما يفصل الرضيع عن أمه ، بل لقد ظل الشعر العربي يعذب طوال القرون التالية ، ولذلك مظاهر مختلفة فيه . فإن موضوعاته من مديح وغير مديح هي نفس موضوعات الشعر العربي ، وإذا أخذنا موضوعاً مثل المديح وجدناه ينظم بنفس الصورة العربية ، فللمدحة مقدمة من النسيب ومن وصف الطبيعة ، وكأننا نقرأ مدحة

(١) العصر العباسي الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ (٢) العصر العباسي الأول ص ١٩٧ .

وما بعدها .

عربية مترجمة على نحو ما يوضح عند شعراء الدولة الغزنوية : منوچهرى والصجدى والمنصرى والقرشى . ونما عندهم - على نحو ما هو معروف - شعر التصوف ، ولكنه يتغلّى في نشوئه ونموه جميعاً بشعر التصوف العرنى عند الحلاج وأضرابه من القدماء وعند ابن العرنى وابن الفارض والشهزرديين . ولا يوجد شاعر صوفى من فريد الدين العطار إلى عبد الرحمن الجامى إلا وهو يحسن العربية ويترنّى ثقافياً في مهادها ، ولذلك دائماً نجد لشعرائهم الصوفيين شعراً عربياً ، وهو يقل عند بعضهم حقاً ، ولكنه على كل حال يرمز في قوة إلى هذا التواصل الوثيق^(١) بين شعراء الفارسية وشعراء العربية . وشاعت بينهم طريقة هى أن يقتبسوا في بعض منظوماتهم شطوراً أو أبياتاً عربية ، ويسمون ذلك الملمع ، فالشطر أو البيت العرنى يلمع في المنظومة كما تلمع المنارة وتتألق . ويكثر عندهم وراء هذه الشطور والأبيات أن يضمنوا كثيراً من أبيات منظوماتهم معاني أبيات عربية ، فضلاً عما يضمنونها من الآيات القرآنية والأحداث النبوية . وللدكتور حسين محفوظ بحث طريف بعنوان « متنبى وسعدى طبعه في طهران ، وفيه يذكر أبيات الذكر الحكيم في شعر سعدى الشيرازى ، وتشغل من البحث نحو عشرين صحيفة ، ويتلوهما ما استظهره سعدى من الأحاديث النبوية في نحو ثلاثين صحيفة ، ويعرض تضمنيته لمعاني أبيات الشعر العرنى في أشعاره في نحو خمسين صحيفة ، وهى أبيات تمتد من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى مصورة بقوة ثقافة سعدى الشيرازى بالشعر العرنى على مر العصور ، وعلى ذلك تضمن سعدى أشعاره معاني أبيات المتننى في نحو خمسين صحيفة . ويجانب ذلك يذكر أشعار سعدى العربية الخالصة . وسعدى أو الشيخ سعدى هو أحد ثلاثة يعدّون أنه شعراء الفرس في تلك الحقب ، والاثنان الآخران جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى ، بل ربما كان هو أكثر الثلاثة شعبية وعجة بين أبناء قومه . فإذا قلنا إن الشعر الفارسى كان دائماً الاتجاه إلى الشعر العرنى ، وكان هذا الشعر دائماً يقع منه موقع البوصلة أو موقع الإبرة المغناطيسية يجلبه إليه في قوة لم نكن مغالين .

وليس هذا كل ما يلاحظ من ولاء الشعر الفارسى للشعر العرنى في تلك القرون ، فإننا نجد أصحابه يعدّون منذ نشأته بمصطلحات البديع التى أخلت تزايد وتراكم بين شعراء العربية في إيران وغير إيران ، وأكبر مثل يوضح ذلك « كتاب حدائق السحر في دقائق الشعر » لرشيد الدين الطواطى المتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة ، وقد أورد فيه ستة وخمسين فناً

(١) من يرجع إلى كتابات الشافعى والباخرزى يعرف أن هذا التواصل لديهم فقد كان كبير من الشعراء بحسن
الساكنين ونظم بها . انظر النجاشية ٤ / ٨٨ وجملة الشعر
٢ / ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٣٤٤ ، ٣٦٢ .

من فنون البديع ، ونراه في كل فن يذكر أمثلة من الشعر العربي وأمثلة أخرى من الشعر الفارسي تحاكيا جرت على ألسنة الرودكي والعنصرى والقرنخى والمسجدى ومنوجهرى والمنطقى وأضرابهم ، وكأن شعراء الفرس لم يتركوا لشعراء العربية فنا إلا حاكوه فيه ، مهما يكن معقداً أو شديداً التكلف ، فمن ذلك تقليدهم « لزوم ما لا يلزم » في القافية بحيث يلتزم فيها الشاعر حرفاً قبل حرف الروى ، وتقليدهم الأبيات التى يمكن بحذف أجزاء أخيرة منها أن تقرأ على وزنين ، ومن ذلك المقطع وهو أن يورد الشاعر بيتاً لا تتصل حروف كلماته في الكتابة ، والموصل وهو أن يقول الشاعر بيتاً لا تقبل كلماته التقطيع في الكتابة ، والأرقط وهو البيت الذى يتوالى فيه حرف منقوط وحرف غير منقوط بالتعاقب ، والأخيف وهو الذى تتوالى الكلمات فيه كلمة منقوطة وكلمة غير منقوطة . وقد أنشدنا أمثلة من هذه الصور المتكلفة في قسم المراق ومن ذلك استخدامهم كثيراً اللز ، والتضمين ، والتقسيم ، وحسن التعليل ، والمثل .

ولعل في هذا ما يوضح كيف أن الشعر الفارسي كان يتبع خطوات الشعر العربى الماضى والمعاصر له خطوة خطوة ، يتبعه في الصياغة والسمات وبما كبه عحاكاة دقيقة . وكان الشعر العربى هو الأكثر شيوعاً ، وهو الذى يدور على كل لسان ، أما في القرون الرابع والخامس والسادس فليس في ذلك شك ، حتى لنرى كثيرين ممن كانوا ينظمون بالعربية والفارسية من الشعراء إنما يشتهرون بشعرهم العربى ، مثل بديع الزمان الهمداني إذ تروى له بعض أبيات فارسية بينما له ديوان بالعربية ، وبالمثل أبو الفتح البستي ، إذ يقول الرواة إنه كان ينظم بالفارسية . ولكن هذا النظم ضاع ، وفق له ديوانه العربى ، ومثلها الباخريزى ضاع شعره الفارسي إلا ما احتفظ به محمد عوف في كتابه الباب ، وظل ديوانه العربى تتناقله الأجيال حيناً من الدهر . ومنذ حروب المغول وتخريبهم لآيران انعكست الحال ، فكثر من ينظمون بالفارسية ، وأصبح المعول في شهرة الشاعر على ما ينظمه بتلك اللغة ، كما هو الشأن في سعدى الشيرازى الذى مرّ بنا حديث عنه ، أما قبل ذلك فكان الشعر العربى هو الأكثر ذيوفاً ، وكأنه العملة الشعبية المتداولة في بيئات المثقفين جميعاً ، فالفلاسفة والعلماء ينظمونه كما ينظمه الكتاب ، غير من كان ينظمه من الشعراء ، ويعلمون بالملات .

كثرة الشعراء

راجت سوق الشعر العربي بإيران في القرن الرابع الهجري رواجاً عظيماً ، وكان من العوامل التي أدت إلى هذا الراج اهتمام ملوك البرصين ووزرائهم بالشعر وأصحابه ، وفي مقدمتهم عضد الدولة ، وكان ينظم شعراً حسناً ، كما كان يؤثر بمجالسة الأدباء على مناداة الأمراء ، كما يقول صاحب اليتيمة ، وقد أنشد له أبياتاً طريفة في الشراب والطرب من مثل قوله ^(١) :

ليس شَرِبُ الكأسِ إلا في المطَرِّ وغِناء من جَوَارٍ في السَّحَرِّ
وكان الشعراء يقدون عليه ويُجزل لهم في صلاتهم ومكافأتهم ، غير من كان يفرض لهم الرواتب الحسنة . وقد استحال مجلس وزيره ابن العميد إلى ما يشبه ندوة أدبية كبيرة ، فكان الشعراء يروحون ويقدون على مجلسه ، وكثيراً ما كان يطلب إليهم أن يعارضوا بيتاً يلقيه ، أو يصفوا شيئاً عرض لهم ، ونضرب لذلك مثلاً : أن بعض الوافدين حيّاه بأترجة حسنة ، فطلب إلى من حضره من الشعراء أن يتجادبوا وصفها ^(٢) ، وابتدأ بقوله : « وأترجة فيها طبايع أربع » فقال أبو محمد بن هندو : « وفيها فنون للهو للشرب أجمع » فقال أبو القاسم : « يشبهها الرائي سَيِّكَةً حَسْبِيهِ » فقال أبو الحسين بن فارس : « على أنها من قارة الملك أضوع » فقال أبو عبد الله الطبري : « وما اصفر منها اللون للعشق والموى » فقال أبو الحسن البديهي : « ولكن أراها للمحبين تجمع » . وبذلك تكونت ستة شطور أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات على البديهة ارتجالاً . وكانت تكثر هذه المقارضات في مجالس الوزراء وغيرهم من المتأدبين ، ولعل مجلساً لم يبلغ منها ما بلغه مجلس الصاحب بن عباد إذ يقول الثعالبي في كتابه اليتيمة : « احتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل وفرسان الشعر ، من يربى عدهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ويملك ريق المعاني ، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين كأي نواس وأي العتاهية والعتاهي والثرى ومسلم بن الوليد وأي الشيعى ومروان بن أبي حفصة وعمر بن

مناذر ، وجمعت حضرة صاحب بأصبيان وبالرئى وجرجان مثل أبى الحسين
السلامى وأبى بكر الخوارزمى وأبى طالب المأمونى وأبى الحسن البديعى وأبى سعيد
الرستقى وأبى القاسم الرضفانى وأبى العباس الفسبى وأبى الحسن بن عبد العزيز
الجرجاني وأبى القاسم بن أبى العلاء وأبى محمد الخازن وأبى هاشم العلوى وأبى
الحسن الجوهري وبني المنجم وابن بابك وابن القاشاني وأبى الفضل المهداني
وإسماعيل الشاشي وأبى العلاء الأسدى وأبى الحسن القويبرى وأبى ذكف الخرجي
وأبى حفص الشهرزوى وأبى معمر الإسماعيلي وأبى الفياض الطبرى وغيرهم ممن لم
يبلغنى ذكرهم أو ذهب عنى اسمه . ولذكر كل من هؤلاء مكان من هذا الكتاب إما
متقدم أو متأخر . ولكل منهم ولكثيرين وراءهم فيه مدائح لا تكاد تُحصى ، ومع
كل مدحة كان يأمر بصلة . وكان يتبادل مع من يحضرون مجلسه مقارضات الشعر
ومطارحاته وإجازاته ، وكثيراً ما كان يعرض موضوعاً ، فيتنافس فيه الشعراء ،
وكل يحاول أن يظهر براعته وتفوقه ، من ذلك أنه بنى قصراً بأصبيان ، فتبارى نحو
عشرين شاعراً فى وصفه ^(١) ، منهم أبو سعيد الرستقى ، ولله يقول ^(٢) :

وسامية الأعلام تلحظ دونها سنا النجم فى آفاقها متضاللا
نسخت بها إيوان كسرى بن هرمز فأصبح فى أرض المدائن عاطلا
مضى ترها خلت السماء سراداقاً عليها وأعلام النجوم موثلا
وماه على الرضراض يجرى كأنه صفائح تير قد سبكن جداولا ^(٣)

ولما حصل صاحب ، وهو بجرجان ، على فيل ضخم كان فى عسكر السامانيين
أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه فى تشبيب قصيدة على وزن قافية قول عمرو
ابن معد يكرب الزبيدى :

أعددت للحدثان ساء بقة وعداء علكدى ^(٤)

وأنشد أبو الحسن الجوهري فى هذه المباراة قصيدة استلها بمديح صاحب ، ثم
أخذ فى وصف الفيل وصفاً مريحاً يمثل قوله ^(٥) :

يُزَمَّى بخرطوم كمت ل الصولجان يرد رداً
أو كم راقصة تش سيرُ به إلى التُدمان وجداً

(١) البنية ٢٢٩/٣ والساجدة الدرغ . والطندى :

النيلظ ، وأردأ به الفرس .

(٥) البنية ٢٣١/٣ .

(١) البنية ٢٠٣/٣ .

(٢) البنية ٢٠٦/٣ .

(٣) الرضراض : الحصى الصغار فى مجارى المياه .

وكانه بوقاً نُحَـ
أذناه مِرْوَحَانُ أَسَـ
سُرْكَه لَتَفْعَ لِيهِ جَدَا
سَدْنَا إِلَى الْفَوْدَيْنِ عَقْدَا

ونفق بِرَذُون (بَنَل) أُنَى عيسى بن المنجم ، بعد أن طالت صحبته له ، فأوعز
الصاحب إلى من حوله من الشعراء الندماء أن يُعَزِّروا أَبَا عيسى فيه ويكوه له ،
ونظم منهم عشرة قصائد فكاهية سُمِّيت بِالْبِرَذُونِيَّاتِ منها يرذونية أُنَى القاسم
ابن أُنَى العلاء وفيها يقول ^(١) :

لَقَدْ أَنْصَفْتَهُ الْخَلِيلُ مَا ذُقْنَ بَعْدَهُ شَمِعِيّاً وَلَا يَنْتَأُ وَمَتْنٌ خَلِيلَا
وَفِي كُلِّ إِصْطِلَاقٍ أَنْبَنُ وَزَفْرَةُ تَرْدُدُ فِيهِ بُكْرَةٌ وَأَصْبِلَا
وَلَوْ وَفَتْ الْجُرْدُ الْجِيَادَ حَقِيقَةً لَمَا رَجَعْتُ حَتَّى الْمَاتِ صَهِيلَا

وفى هذا كله ما يصور من بعض الوجوه حياة الشعر العربي في أَصْبَهَانَ والرُّى
لعهد بنى بويه ، وبالمثل كان الزَّيَّارِيُّونَ وفى مقدمتهم قابوس بن وَشْمَكِيمَ يشجعون
الشعراء ويمزلون لهم فى العطاء ، ويذكر البَاخَرَزَى فى دُعَيْتِهِ أَبَا بَكْرٍ الْخُسْرَوَى الَّذِى
كَانَ يَنْظُمُ بِالسَّانِينِ الْعَرَبِيَّ وَالْفَارْسِيَّ ، ويقول : « كَانَتْ لَهُ وَظَائِفُ كُلِّ سَنَةٍ مِنْ
الْأَمِيرِ شَمْسِ الْمَعَالَى قَابُوسِ بْنِ وَشْمَكِيمَ وَالصَّاحِبِ أُنَى الْقَاسِمِ بْنِ عِبَادٍ تُدَرِّ عَلَيْهِ ،
وَتَسَابِقُ إِلَيْهِ ^(٢) . وَكَانَتْ لِكَثِيرِينَ غَيْرِهِ هَذِهِ الْوُظَائِفُ أَوْ الرُّوَاتِبُ مِنَ الدُّوَلَتَيْنِ ،
وَكَذَلِكَ مِنَ الدُّوَلَةِ السَّامَانِيَّةِ ، وَفِي عَاصِمَتِهَا بَخَارَى يَقُولُ الثَّعَالِبِيُّ : « كَانَتْ بِبَخَارَى
فِي الدُّوَلَةِ السَّامَانِيَّةِ مَثَابَةُ الْمَجْدِ وَكَعْبَةُ الْمُلْكِ وَمَجْمَعُ أَفْرَادِ الزَّمَانِ وَمَطْلَعُ نَجْمِ أَدْبَاءِ
الْأَرْضِ وَمَوْسَمُ فَضْلَاءِ الدَّهْرِ ^(٣) » وَيَذْكَرُ مَجْلِساً مِنْ مَجَالِسِهَا ضَمَّ أَبَا الْحَسَنِ اللَّحَّامَ
وَأَبَا مُحَمَّدَ بْنَ مَطْرَانَ وَأَبَا جَمْفَرَ بْنَ الْعَبَّاسِ بْنِ الْحَسَنِ وَأَبَا مُحَمَّدَ بْنَ أُنَى الثَّيَّابِ وَأَبَا
النَّصْرِ الْهَرْتَمِيَّ وَأَبَا نَصْرَ الطَّرِيفِيَّ وَرَجَاءَ بْنَ الْوَلِيدِ الْأَصْبَهَانِيَّ وَعَلِيَّ بْنَ هُرُونَ الشَّيْبَانِيَّ
وَأَبَا إِسْحَاقَ الْفَارْسِيَّ وَأَبَا الْقَاسِمَ الدِّينَوْرِيَّ وَأَبَا عَلِيَّ الزُّوْنِيَّ إِلَى غَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَنْتَظِمُ فِي
سُلُوكِهِمْ مِنَ الشُّعْرَاءِ . وَلَيْسَتْ الْخَوَاصِرُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي اخْتَصَمَتْ بِالنَّشَاطِ الشُّعْرِيَّ ،
فَكَثِيرٌ مِنَ الْمَدَنِيِّينَ شَارَكَهَا هَذَا النَّشَاطَ مِثْلَ بِلَادِ الْجَبَلِ وَجَرَّجَانَ وَطَمِيرِسْتَانَ وَخَوَّازِمَ
وَفَارِسَ وَالْأَهْوَازَ وَتَيْسَابُورَ وَهَرَّاءَ . وَقَدْ بَلَغَ عِدْدُ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ تَرَجَّمُوا لَهُمُ الثَّعَالِبِيُّ
يَتِيمَتُهُ مِنَ الْإِيرَانِيِّينَ خَاصَّةً أَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ وَثَمَانِينَ شَاعِراً ، وَزَادُوا عَنْ الْمَاتَيْنِ
فِي الدَّمِيَّةِ إِلَى مَنْ تَرَجَّمُوا لَهُمُ الْعَمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي الْخَرِيدَةِ وَتَرْجَاتِ ضَافِيَّةِ ،

(١) البَيْهَقِيُّ ٢١٨/٣ .

(٢) دَمِيَّةُ الْقَصْرِ (طَبْعَةُ دَارِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ) ٢٥٩/٢ .

(٣) البَيْهَقِيُّ ١٠١/٤ .

وكان بجانب أمراء الدويلات الإيرانية كثير من حواة الأدب والشعر في كل بلدة كبيرة ، منهم آل ميكال في نيسابور ، وفيهم يقول الثعالبي : « القول في آل ميكال وقدم بيتهم وشرف أصلهم وتقدم أقرامهم (سادتهم) وكرم أسلافهم وأطرافهم وجمعهم بين أول المجد وآخره وقدم الفضل وحديثه وتليد الأدب وطريقه يستغرق الكعب ويملا الأدرج ويحق الأقالام ، وما ظنك بقوم مدحهم البحرى وخدمهم ابن دريد وألف لهم معجم الجمهرة وسير فيهم المقصورة التي لا يلبها الجديدان ، وانخرط في سلكهم أبو بكر الخوارزمي وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر^(١) » . ويدل أكبر الدلالة على ماكان ببلدان إيران من نشاط أدنى وشعرى أن نجد هذه البلدان لا تكتظ بأدبائها وشعرائها وحدهم ، بل يقد عليها كثيرون غيرهم من بلاد قريبة وبعيدة في العراق وغير العراق ، على نحو ما يلقانا في نيسابور ، فقد ترجم الثعالبي لطائفة من الشعراء الطائرين عليها من بلدان شتى ، وبلغ عددهم ستة عشر شاعراً اختاروها مقاماً لهم .

ونيسابور من بلدان الدولة السامانية ، وهي صالحة لأن تكتب في شعرائها دراسة قيمة عن نشاط الشعر بها لا في عهد السامانيين وحدهم بل أيضاً في الحقب التالية ، وبالمثل بلدان إيران الكبيرة المختلفة مثل أصبهان والري والجرجانية عاصمة الزياريين وخوارزم وهرات عاصمة خلف بن أحمد معدوح بديع الزمان الحمذاني وغزنة عاصمة الغزنويين ، فكل هذه البلدان وما يماثلها ، وحتى بلاد الشاش فيما وراء النهر يمكن أن تفرد لها دراسة تضم شعراءها في البيتة والدمية وغيرها من كتب التراجم مثل طبقات الشافعية للسبكي ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان .

ومن يرجع إلى هذه الكتب يجئ إليه أن الشعر يابزان إلى ما وراء النهر كان على كل لسان ، وكان الأمراء ورعاه في كل بلدة يقيمون له مواسم كالأعياد ، وكان الوزراء والأمراء لا يزالون يهبون الشعراء آلاف الدراهم والدنانير ، وكانوا يمينون لهم مرتبات ، كما مر بنا ويُقدون عليهم إغداقاً كثيراً ، حتى ليقال إنه حصل للأيوردي الشاعر السلجوقي من الملوك والأمراء ما لم يحصل للمتني في عصره ولابن هاني في مصره . فلا عجب أن يتكاثر الشعراء ، فقد كان الشعر وسيلة لحياة رغدة ، ولذلك قلما ترى شاعراً من المئات التي ترجم لها الثعالبي في البيتة والباخرزي في الدمية والعماد الأصهباني في الخريدة إلا وهو يتكسب بأشعار لعلها تفتح له أبواب النعم .

وليس هذا وحده كل مادعا الشعر إلى النشاط في إيران ، فقد كان يُعدّ جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العربية التي كان الناس يعكفون عليها في شغف ، وهذا هو السر في أنك قلما تجد فقيهاً أو فيلسوفاً في تلك البيئة إلا وهو ينظم الشعر ، ويتخذ أداثه في التعبير عن مشاعره ، نجد ذلك عند البيروني في ترجمته بمعجم الأدياء كما نجد عند ابن سينا ، ويتسع ذلك عند الفقهاء ، وكأنهم كانوا يُعدّون الشعر من آلات عملهم ، وارجع إلى السبكي في طبقاته فإنك تجد من وقت إلى آخر حين يترجم لفييه يذكر له أشعاراً مختلفة في الغزل وغير الغزل ، من ذلك أن نراه يترجم لمحمد بن عبد العزيز الثبلي أحد أئمة خراسان المتوفى سنة ٤٣٦ هـ فيذكر له أشعاراً منها هذه الأبيات الغزلية البديعة (١) :

ما حالٌ مَنْ أَسَرَ الهوى ألبابَهُ ما حالٌ من كَسَرَ التصانِي بَابَهُ
نادى الهوى أَسْمَاعَهُ فأجابهُ حتى إذا ما جازَ أَغْلَقَ بَابَهُ
أَهْوَى لَتَمْرِيقِ الفؤادِ فلم يجد في صدرهِ قلباً فَشَقَّ ثِيَابَهُ

ومن كبار أئمة الشافعية في العصر القفال الشافعي ناشر مذهب الشافعي فيما وراء النهر ، وكان أكبر من صاح في قومه لغزو الروم عام التغير ، وذلك أن يُفقروا إمبراطور الروم أرسل إلى الخليفة المطيع قصبدة بتوعده فيها ويتوعد المسلمين بمثل قوله (٢) :

ثغوركُمُ لم يبقَ فيها لَوْنُكُمْ وضعفكمُ إلا رُسُومُ العالم

ومضى يفاخر بانتصاراته وانتصارات أسلافه في كربت (إفريطش) وسروج وعلى أبواب سُمَيْسَاط والحَدَث ومَرَعَش والمُصْبِصَة وطَرَسُوس. ورد عليه فخره ونقسه نقضاً الشيخ القفال بقصبدة طنانة يذكر له فيها انتصارات المسلمين عليهم قروناً متطاولة وما قتلوا من مئات الألوف من رجالهم وماسبوا من آلاف الجوارى الروميات ، بل ما قتلوا وسبوا من آلاف الآلاف على مر السنين ، وإن صواعق الموت لتوشك أن تنزل به ويجنوده ، ترسلها عليهم زحوف الحراسانيين جنود الملك الساماني منصور بن نوح (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) التي تزحف بقصبتها وقضيضها ورعودها وبروقها المبتة ، يقول :

أَتَنكُ خُرَاسَانُ تَجْرُ خِيولُها مُسُومَةٌ مِثْلَ الجرادِ السَّوَامِ

كهول وشبان حماة أحاسيس ميامن في الهيجاء غير مشائم^(١)
 ونرجو بفضل الله فتحاً معجلاً نال يقسطنطين ذات المحارم
 هناك نرى يقفور والله قادر ينادى عليه قائماً في المقاسم
 ويحمر لنا في الروم طراً وأهلها وأموالها جمعاً سيهاً المقاسم
 فيضحك منا سن جلدان باسم ويقرّع منه سين خزيان نادم
 ووراء القفال أئمة في الفقه الشافعي كثيرون أنشد لهم السبكي أشعاراً في
 الزهد ، وسترجم منهم للقسيري بين شعراء الزهد والتصوف . وأنشد
 السبكي أيضاً أشعاراً لقاضيين هاهنا على بن عبد العزيز الجرجاني والأرجاني وسنترجم
 لها بين شعراء المديح ، كما أنشد أشعاراً مختلفة للفقيه الأيوبي وسنترجم له بين
 شعراء الفخر ، وله ديوان كبير مثل الأرجاني ، وكان لعل بن عبد العزيز ديوان سقط
 من يد الزمن . وعلى نحو ما كان الفقهاء ينظمون الشعر كان المحدثون ينظمونه أيضاً ،
 مثل حمد بن محمد الخطاطي البُستني الذي مرّ حديثنا عنه بين المحدثين ، وقد ترجم له
 صاحب البيتجة في جزئها الرابع وأنشد له طائفة من شعره ، وكان ينظمه أيضاً
 المفسرون للقرآن الكريم من مثل الزمخشري ، وله ديوان شعر لما ينشر ، وهو زاخر
 بالأدعية والابتهالات . وقروى كتب التراجم للفخر الرازي أشعاراً مختلفة ، وكان
 كثيرون من اللغويين والنحويين ينظمون الشعر ، منهم الجوهري إسماعيل بن حماد
 صاحب معجم الصحاح ، وله ترجمة في الجزء الرابع من البيتجة أنشد فيها الثعالبي
 طائفة من أشعاره ، ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس صاحب معجمي الجمل
 ومقاييس اللغة ، وقد ترجم له الثعالبي في الجزء الثالث من البيتجة وأنشد طائفة من
 شعره من مثل قوله^(٢) :

مرّت بنا هيّفاء مقدودة تركيبة تُسمّى لتركي
 ترنو بطرفي فاتنٍ ظنير أضعف من حجة نحوي
 ومنهم ابن لورجة البروجردى ، وله ترجمة في الجزء الأول من تمة البيتجة
 وكذلك في الجزء الأول من دبة القصر ، وله أشعار بدیعة من مثل قوله الذي أنشده
 الثعالبي^(٣)

ألم تطرب لهذا اليوم صاح إلى نغم وأوتار فصاح

كَأَنَّ الْأَيْتَانَ يَوْسَعَانَا نِتَارًا مِنْ الْوَرَقِ الْمَكْرَرِ وَالصَّحَاحِ
تَمِيدُ كَأَنَّهُا عَلَتْ بِرَاحٍ وَمَا شَرِبْتُ سِوَى الْمَاءِ الْقَرَّاحِ
كَأَنَّ غُصُونَهَا شَرِبَتْ نَشَاوَى تَصَفَّقُ كُلُّهَا رَاحًا بِرَاحٍ
وَمَرَّبْنَا أَنَّهُ كَانَ نَاقِدًا بَصِيرًا ، كَمَا كَانَ شَاعِرًا قَدًّا ، وَذَكَرَ لَهُ الثَّعَالِيُّ مَعْنَى نَقْلِهِ عَنْ شَاعِرٍ
فَارْسِيٍّ مَعَاصِرٍ لَهُ يَسْمَى الْمَرْقُوقَ عَلَى هَذَا النَّمطِ .

يُظَنُّونَ مَا تَذَرِي جَفَوْنِي أَدْمَعًا بَلِ الدَّمُ مِنْهَا يَسْتَحِيلُ فَيَقْطُرُ
تُعِيدُ بِيَاضًا حَمْرَةَ الدَّمِ لَوْعَى كَمَا أَيْضُ مَاءِ الْوَرْدِ وَالْوَرْدُ أَحْمَرُ
وَمِنْ أَصْحَابِ الْمُبَاحِثِ الْبَلَاغِيَةِ وَالتَّقْدِيَةِ الَّذِينَ اسْتَشْهَرُوا بِنَظْمِ الشُّعْرِ أَبُو هَلَالٍ
الْمَسْكُورِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ الصَّنَاعَتَيْنِ ، وَقَدْ ضَمَّنَهُ كَمَا ضَمَّنَ كِتَابَهُ دِيوَانَ الْمَعَانِي طَائِفَةً
مِنْ أَشْعَارِهِ ، وَأَنْشَدَ مِنْ تَرْجُمَاتِهِ لَهُ بَعْضُ أَشْعَارِهِ . وَمِثْلُهُ الثَّعَالِيُّ صَاحِبُ الْيَتِيمَةِ
وَمَرَّبْنَا حَدِيثَ عَنْ بَعْضِ نَظَرَاتِ تَقْدِيَةٍ لَهُ ، وَلَهُ أَشْعَارٌ مُخْتَلِفَةٌ أَنْشَدَ أَطْرَافًا مِنْهَا فِي
كِتَابِ لَطَائِفِ الْمَعَارِفِ وَفِي كِتَابِهِ الْأُخْرَى . وَمِثْلُهَا عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ صَاحِبُ
دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ وَأَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ ، وَفِي تَرْجُمَتِهِ بِدْمِيَةِ الْقَصْرِ طَائِفَةٌ مِنْ أَشْعَارِهِ . وَهُوَ
بَابُ يَطُولُ إِذَا أَخَذْنَا نَحْصِي شُعْرَاءَ الْعُلَمَاءِ مِنْ كُلِّ صَنَفٍ ، إِنَّمَا هِيَ أَمْثَلَةٌ فَحَسَبُ ،
أَرَدْنَا بِهَا أَنْ نُصَوِّرَ تَفْتِيحَ يَنَابِيعِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُتَقَفِّينَ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ . وَكَانَ
مِنْ أَقْرَبِهِمْ إِلَى هَذِهِ الْيَنَابِيعِ كِتَابُ الدَّوَاوِينِ ، وَلَا تَكَادُ تَجِدُ كَاتِبًا كَبِيرًا يَتَرَجَّمُ لَهُ
الثَّعَالِيُّ فِي الْيَتِيمَةِ وَالْبَاخَرَزِيُّ فِي الدِّمِيَةِ وَالْعَمَادُ فِي الْخَزِيدَةِ إِلَّا وَشَعْرَهُ يَكَادُ يَغْلِبُ
نَثْرَهُ . بَلِ إِنْ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ تَقْتَصِرُ تَرْجُمَتُهُمْ عَلَى مَا لَمْ مِنْ أَشْعَارٍ ، حَتَّى إِنَّهُ يَكَادُ
يَكُونُ مِنَ الْعَسِيرِ أَنْ تَتَعَقَّبَ دَوَاوِينَ الرِّسَالِ وَكُتَابُهَا وَآثَارُهُمُ النَّثْرَةُ عِنْدَ السَّامَانِيِّينَ
وَالْخَوَارِزْمِيِّينَ وَالْفَرَزَنْدِيِّينَ وَالسَّلَاجِقَةَ إِلَّا مَا يَأْتِي عَفْوًا . وَكَثِيرٌ مِنْ كُتَّابِ هَذِهِ الدُّوَلِ
وَالْإِمَارَاتِ كَانَتْ لَهُمْ دَوَاوِينُ شُعْرِيَّةٍ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ الْخَوَارِزْمِيِّ الْكَاتِبِ الْمَشْهُورِ وَمِثْلِ
بَدِيعِ الزَّمَانِ وَأَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِيِّ وَالْبَاخَرَزِيُّ وَقَدْ أَشْرَفْنَا فِيمَا أَسْلَفْنَا إِلَى دَوَاوِينِهِمْ ،
وَمِثْلُهُمُ الصَّاحِبُ بْنُ عِبَادٍ وَالْعَمَادُ الْأَصْبَهَانِيُّ ، وَكَأَنَّهُمْ وَأَصْرَابُهُمْ كَانُوا يَرُونَ أَنَّ
الشُّعْرَ هُوَ الْعَمَلَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَتَدَاوِلَةُ الَّتِي تَحُوزُ لِصَاحِبِهَا الشُّهُرَةَ الْأَدَبِيَّةَ .

شعراء المديح

يكثر شعر المديح في هذا العصر كثرة مفرطة ، إذ كان يطلبه الملوك والأمراء والوزراء والولاة والقضاة . ومن يقرأ اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة يرى الشعراء جميعاً يمدحون معاصريهم ، وكأن عمل الشاعر الأساسي أن ينظم في المديح ، وهو شيء طبيعي إذ كان أداة للكسب ورغافة العيش ، ومُرت بنا كثرة الأعطيات التي كان يأخذها الشعراء وأنهم كانوا - أو كان كثير منهم - يأخذ رواتب من الوزراء والحكام ، وكان لكل إمارة شعراؤها الذين يقدمون لأصحابها المدائح والتهاني في المناسبات والأعياد المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية ، بل كان لكل أمير ولكل وزير شعراؤه الذين يروحون عليه ويقدمون بالمدائح الرائعة ، وتنف قليلاً عند الدولة البويبية فإن ما نُظم في حُضد الدولة يكاد يؤلف ديواناً مستقلاً ، إذ لم يكذبنيغ شاعر في إيران إلا قصده ، وقُدِّم له مدامحه ، وقصده المتنبي بشيراز في سنة ٣٥٤ ومُدحه بعدة قصائد بديعة ، كما قصده شعراء العراق وفي مقلدتهم السَّلامىُّ الشاعر ، وفيه يقول مواطنه أبو بكر الخوارزمي ^(١) :

غريبٌ على الأيام وجدانٌ مثله وأغربُ منه بعد روثه الفقرُ
عجبتُ له لم يلبس الكبيرَ حُلَّةً وفينا لأنْ جُزْنَا على بابٍ كبيرٍ

وكانوا كثيراً ما يشيرون إلى النوال في مدائحهم على نحو ما صنع الخوارزمي في البيت الأول . ونُظمت في مؤيد الدولة وفخر الدولة مدائح كثيرة ، ولأبي سعيد الرُّستمي مدائح بديعة في أولها من مثل قوله ^(٢) :

بقيت مدى الدنيا ومُلُكك راسخٌ وظلُّك ممدودٌ وبابُك عامرٌ
يُرْدُ سَنَّاك البدرُ والبدرُ زاهرٌ ويقفو نَدَاك البحرُ والبحرُ زاهرٌ

وبالمثل كان وزراء بني بويه ممدحين ، وخاصة ابن العميد والصاحب بن عباد ، أما ابن العميد فلم يقصده فقط شعراء إيران ، بل قصده أيضاً جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد البعيدة مثل المتنبي الذي وفد عليه بمدينة أَرَجَان ومُدحه بقصائد

رائعة ، ومثل ابنُ نباتة السعدي الشاعر العراقي ، وله فيه مدائح جيدة ، وكذلك للصاحب بن عباد من مثل قوله في قدومه إلى أصبهان ^(١) :

قَدِمَ الرَّيْسُ مَقْدَمًا فِي سَبْقِهِ فكَأَنَّمَا الدُّنْيَا جَرَتْ فِي طَرَفِهِ
وَكَأَنَّمَا الْأَخْلَاقُ طَوْعٌ يَمِينِهِ كَالْعَبْدِ مُنْقَادًا لِمَالِكِ رَقَبِهِ
قَدْ قَاسَمْتُهُ نَجْمُهَا فَنَحْوُهَا لَعْدُوهُ وَسَعُودُهَا فِي أَفْقِهِ

ولعل وزيراً بُوَيْهِيًّا لم يثل من المدائح ما ناله الصاحب بن عباد ، ومرت بنا أسماء طائفة من الشعراء الذين كانوا يلزمون بابَه . وكان وراءهم كثيرون يقدون عليه من شتى البلدان الإيرانية والعراقية ، وعقد لهم الثعالي في يمينته الباب السادس من جزئها الثالث ، وذكر لكل منهم بعض مدائحه فيه ، وكان من مادحيه أبو سعيد الرستمي ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله ^(٢) :

وَرِثَ الْوِزَارَةَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ مُوصُولَةً الْإِسْنَادِ بِالْإِسْنَادِ
يَرْوِي عَنْ الْعَبَّاسِ عِبَادًا وَزَا رَتَهُ وَإِسْمَاعِيلُ عَنْ عِبَادِ
وهو يمدحه بأنه نشأ من الوزارة في حجرها ودرج إلى الناس من وَكْرَهَا إِذْ وَرَثَهَا
عن آبَائِهِ ، وكان أبو سعيد يبالي بمبالغة مفرطة في مديحه أحياناً على عادة الشعراء في العصر ، من مثل قوله فيه ^(٣) :

لَوْ كَانَ غَيْرُ اللَّهِ يُعْبَدُ مَا اتَّشَتْ إِلَّا إِلَيْكَ أَعْنَةُ الْعِبَادِ
وهي مبالغة تمجُّهُمُ الْأَذَان . ونراه في نفس القصيدة يذكر للصاحب أنه قمع أهل الجبر ومن يقولون بأن كل شيء قدر مقدور ملّفين حرية الإرادة في الإنسان ، يقول :
وَنَصَبْتُ لِلْإِسْلَامِ أَكْرَمَ رَايَةٍ وَقَصَصْتُ أَهْلَ الْجَبْرِ وَالْإِلْحَادِ

وكان الصاحب إمامياً معتزلياً ، والصلة بين مذهب الإمامية والمعتزلة بل بين المعتزلة والشيعة عامة معروفة من قديم ، وهو ما جعل الصاحب يتعقب أهل الجبر بالنكال إن صحَّ ما يقول أبو سعيد الرستمي . ويقول له أبو بكر الخوارزمي من قصيدة فيه ^(٤) :

وَمَنْ نَصَرَ التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ فَعَلُهُ وَأَبْقَظَ نَوَامَ الْمَعَالِي شِمَالُهُ
وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن المدائح لم تكن ثناء فحسب ، بل كانت أيضاً تسجيلاً لأعمال الأمراء والوزراء ، وهي لذلك ذات قيمة تاريخية مهمة ، وهي قيمة

(١) بيتة ٣٠٧/٣ .

(١) البيتة ١٥٨/٣ .

(٢) بيتة ٢١٤/٤ .

(٢) بيتة ١٩٠/٣ ، ٣٠٧ .

تغيب عن أذهان كثيرين فيظنون أن المديح كان في العصور السابقة ملقا ونفاقاً ، متناسين أنه كان أيضاً تسجيلاً لأعمال الدولة واتجاهاتها المذهبية وما غاخت من حروب وكسبت من انتصارات . وعلى نحو ما نجد في كتاب البيتيمة وتضمنها من مدائح بنى بويه ووزرائهم نجد أيضاً مدائح السامانيين ووزرائهم من مثل البلّعى مترجم تاريخ الطبري إلى الفارسية كما أسلفنا ، وفيه يقول أبو محمد المطراني الشاشي^(١) :
 بلوناك حين يرجى الولد سى حرّفاً ويخشى العدو النكرا
 فلم تك إلا اختباراً نفوعاً ولم تك إلا اضطراراً ضروراً
 وكان أبو الحسن بن سيمجور قائد السامانيين ممّداً ، وللأموى الشاعر فيه مدائح مختلفة . وبنفس الصورة يلقانا أمراء الدولة الزيارية وفي مقدمتهم قابوس بن وشمكير الذى لقبه الخليفة بلقبه : شمس المعالى ، فقد مدحه كثير من الشعراء ، وكان غيتاً مدراراً ، فأكثروا من مديحه .

ولابد أن نشير إلى أن هذه المدائح التى عرضنا لها سريعاً عند الزياريين والسامانيين والبويعيين تضمنت وصف ما بنى القوم من قصور مشيدة ، وأشرنا فيما مضى إلى ما نظمته الشعراء في دار بناها الصاحب بن عباد بأصفهان . وأيضاً لابد أن نشير إلى أن الشعراء ضمنوا مقدمات مدائحهم النسيب القديم ووصف الأطلال من حين إلى حين . وأكثروا أيضاً من تضمينها وصف الربيع وكانوا يقفون عنده طويلاً في مقدمات المدائح بعيد النيروز . وأطرد ذلك في مدائح سلاطين الدولة الغزنوية ووزرائها . وقصائد كثيرة نظمت باللغتين العربية والفارسية في مديح محمود الغزنوى الملقب بيمين الدولة وأمين الملة والإشادة بفتوحه في إيران وما وراء النهر وفى الهند ، ومن رائع ما مدح به قصيدة لبديع الزمان الهمداني يقول فيها^(٢) :

تعالى الله ما شاء	وزاد الله إيمانى
أفريدون فى التاج	أم الإسكندر الثانى
أم الرجعة قد عادت	إلى بنا بسلجان
أطلت شمس محمود	على أنجم سامان
وأسمى آل بهرام	عيداً لابن خاقان
إذا ما ركب الفيل	لحرب أو لبيدان
رأت عيناك سلطاناً	على منكب شيطان

فن واسطة الهند إلى ساحه جرجان
ومن قاصية السند إلى أقصى خراسان

وأفريدون من ملوك الفرس الأسطوريين ، وآل بهرام هم السامانيون الذي قضى عليهم محمود وامتلك ديارهم ، ويسميه ابن خاقان لأنه تركى ، وقد ضم إيران جميعها إلى ملكه ماعدا إقليم فارس وكرمان ، كما مر بنا في غير هذا الموضع . ويكثر بعده مديح السلاجقة ووزرائهم ، وخاصة نظام الملك ، ومُدَّاحه يتعاقبون في كتاب دُمية القصر بالعشرات ، مع أن مؤلفها الباخريزى توفى قبله بنحو سبعة عشر عاماً ، وعن ذكرهم بين مُدَّاحه الفياض الهروى ، وله فيه وفي فتوح سلطانه ألب أرسلان في آسية الصغرى وأسرهِ لإمبراطور يزنطة قصيدة بديعة ، يذكر فيها جيش رومانوس الجزار ومُناه في احتلال ديار السلطان السلجوق ، وكيف رَدَّ الله كيده في نحره ، فسحق جيشه سحقاً ، وقتل منه ما لا يُحصى ، وأسير الإمبراطور ووقف بين يدي ألب أرسلان ذليلاً خائفاً ، وأهوى على الأرض يلثم التراب بين يديه . ويصور ذلك كله الفياض الهروى مشيداً بنظام الملك وقيادته مع ألب أرسلان لجيش المسلمين قائلاً^(١) :

إذا ما ملوك الأرض عُدُّوا فأنما لكم كاهلُ المجد الأشمُ وغارِبُهُ
أحاسده مهلاً فهنئى سيوفهُ وهاتيك يومَ المكرّمات مواهبةً
ويتوالى سلاطين الدولة السلجوقية ووزرائهم ويتوالى مديحهم عند الطغرائى والأرجانى وغيرهما من معاصريها . وكان وراء أمراء العصر ووزرائه كثيرون من عليّة القوم يخصّصهم الشراء بمدائحهم ، وقد دُبجت فيهم قصائد كثيرة . وكانوا يهتنون كثيراً لا بالأعياد فحسب ، بل أيضاً بالمواليد ، وفي اليتمية والذمّية من ذلك قصائد ومقطوعات مختلفة . وكثر في العصر مديح الفقهاء والعلماء بمدحهم تلاميذهم ومريدوهم والمعجبون بهم ، من ذلك ما أنشده الباخريزى لأبى الطهر الأصفهاني في أستاذة الإمام الموفق محمد بن هبة الله وكان من أئمة الشافعية في نيسابور ، وله يقول تلميذه من قصيدة طويلة^(٢) :

يا أيها الولي الأجلُّ ومنَّ به أصبحتُ آمنٌ منْ تحصن في الدُّرى
أنبتني ورعيتني وسموتُ بي غصناً بأبكار البيان منوراً

ولابن عَنين قصيدة رائعة سيّرها من نيسابور إلى الفخر الرازي بهراة ، وفيها يشيد بقضائه على البدع في عصره ، ويرفعه فوق ابن سينا وأرسطو وبطليموس درجات

في الفلسفة والطب ، غير أن ابن عنين دمشق . وعلى كل حال هو تكلة لهذه الظاهرة التي رآها في إيران ، ظاهرة مدائح التلاميذ والمريدين لشيوعهم وأسائلتهم من العلماء والفقهاء . وجدير بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء المديح في تلك البيئة لتتضح لنا صورته ، وهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والطُّرَّاني والأُرْجَانِي .

علي^(١) بن عبد العزيز الجرجاني

من جُرجان ، وقد علي نيسابور في صباه ، وسمع على شيوعها ، وتخرج بهم فقيهاً شافعيًا نائباً ، وولى قضاء موطنه جُرجان ثم ولّاه صاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة قضاء الرُّي ، ثم جعله قاضي القضاة بها ، وظل في هذه الوظيفة إلى أن توفي سنة ٣٩٢ وحُمل تابوته إلى جُرجان فدفن بها ، وترجم له الثعالبي في بيتته فقال : « هو فرد الزمان ، ونادرة الفلك ، وإنسان حدقة العلم ، ودرة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحتري » . ومربنا حديث عن كتابه « الوساطة بين المنتهى وخصومه » وكيف أنه فيه يصدر عن ناقدٍ ممتاز ، بل لعله أهم ناقد ظهر في عصره . وهو في الكتاب بصور ثقافة واسعة بالشعر العربي قديمه وحديثه ، كما يصور ذوقاً شريفاً مصني . وبهذا الذوق كان ينظم أشعاره في المديح وغير المديح ، وقد روى له الثعالبي طائفة من مدائحه في قوادٍ عصره وولاة جرجان وفي شمس المعالي قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ، وللصاحب بن عباد القيدح المعلى من مدائحه من مثل قوله :

يا أيها القَرْمُ الذي بعلوِّ نال العلماء من الزمانِ السُّولا

قسمتَ يَدَاكَ على الوَرَى أرزاقها فكتوك قاسمَ رزقها المستولا

وهي مبالغة أن يجعل صاحب يقسم على الناس أرزاقهم ، ولكنها كانت تُستحب في عصره ، وكان كل شاعر يحاول أن يأتي منها بمعنى طريف . وكان صاحب بمرأً فلياضاً أخذق الصلوات على زواره وقاصديه ، وله بصف بلاغته التي عُرِف بها في النثر والشعر جميعاً :

سَبَقَتْ بأفراد المعاني وألَفَتْ خواطرك الألفاظ بعد شراذمها

(١) انظر في ترجمة علي بن عبد العزيز وشعره مجموع الأبيات ١٤/١٤ والنبذة ٣/٤ وما بعدها وابن خلكان ٢٠٥/٤ .
٢٧٨/٣ والبسكي ٤٥٩/٣ وللتظلم ٢٢١/٧ وشذرات

المحب ٥٦/٣ ورملة الجنان ٣٨٦/٢ والنجوم الزاهرة

فإن نحن حاولنا اختراع بديعةً حصَلنا على مسروقها ومُعادها وهو معنى طريف ، وكانت له ملكة خصبة لا تزال تمدّه بالمعاني الغريبة النادرة ، وكان يعرف كيف يقتنصها وكيف يوردها في مدايح من مثل قوله للصاحب :

لا وجفوني بغضها العَدْلُ عن وجناتٍ تذيبها القُبْلُ
ما عاش من غاب عن ذراك وإن أخر مِقاتَ يومه الأَجَلُ^(١)
وله في عياداته حين يمرض قصائد بديعة ، وأخرى في تهنته حين يُبَلّ من مرض ألمّ به أو حُمى نزلت يمسده ، وكان يتخللها من تلهب ذهنه وتوقد ذكائه ، ومن قوله في تهنته له بالشفاء :

بك الدهرُ بَدَى ظِلُّهُ وَيَطْبُ وَيُقْلَعُ عما ساءنا ويتوبُ
وأشدد له الثعالبُ قصيدة طويلة في وصف دار الصاحب التي بناها بأصبيان وتبارى الشعراء في وصفها على نحو ما مر في حديثنا ، كما أنشد له أيضاً قصيدة فككة في رثاء بردون أبي عيسى بن المنجم ، استلها بقوله :

جَلَّ وَاقَرَّ مَا ذَاكَ وَعَزَّاءُ إِن الْكَرِيمَ مُزَيَّ
هِيَ مَا لَمْ تَحِلْ أَحَدًا دَهْرٍ لَمْ تَدْعُ حُدَّةً تُصَانُ وَكَثْرًا
وكان يمزج بين الطبيعة والمديح مزجاً بديعاً لا يكتفى فيه بأن يجعل الطبيعة مقدّمة للمديح كما كان يصنع الشعراء كثيراً من حوله ، بل يجعلها جزءاً من المدح ومن عمله وشيمه وفكره ، وكأنها صورة منه ، أو كأنها مرآة له ، يقول في وصف بعض الرياض الجميلة الساحرة مادحاً لأبي مضر محمد بن منصور والي جرجان :

أَبَاتُ يَدُ الْأَسَازِ بَيْنَ رِيَاضِهَا تَلَفَتْ أَمْ أَهَدَتْ إِلَيْهَا سَحَابِهَا
أَلْبَسَهَا أَخْلَاقَهُ الْفَرَّ فَاخْتَدَتْ كَوَاكِبُهَا تَجَلُّوْا عَلَيْنَا كَوَاكِبَا
أَوْشَتْ حَوَاشِيهَا خَوَاطِرُ فَكُرُو فَايَدَتْ مِنَ الزُّهْرِ الْأَيْقُ غَرَابِهَا
أَخْلَاقَهُ يَصْبُو نَحْوَهَا فَتَرَيَتْ تَوَمَّلُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْهَا مَلَاعِبَا
ولعل في ذلك ما يدل على قدرة الشاعر التصويرية ، وهي قدرة تلقانا في غزله كما تلقانا

في مديحه ، على نحو ما نقرأ في قوله يصف بعض لبال أنسه مع مئى قلبه :
ولسبالو كأنهن أمان من زمانٍ كأنه أحلامُ
وكان الأوقات فيها كحوس دائراتٍ وأنسهن مُدام

(١) الفلرا : الكف والفل.

زمنٌ مُسَعِدٌ وَالْفَتْ وَصُولٌ وَمُنَى تَسْتَلِذُهَا الْأَوْهَامُ
 وواضح ما في الآيات من خيال دقيق ، فكأنه كان يعيش في حلم ، يتماطى خسر
 الأنس المسكرة ، ومن قوله في الغزل :

قَدْ بَرَّحَ الشُّوقُ بِمَشَاتِلِكَ فَأَوَّلِهِ أَحْسَنَ أَخْلَاقِكَ
 لَا تَجْفَهُ وَارَعَ لَهُ حَقَّهُ فَبَانَهُ آخِرَ عُشَائِكَ

والبيتان يحملان شعوراً مرهفاً رقيقاً ، وكان إلى ذلك كله شغوفاً بالعلم ، يراه متعة
 لا تعلمها متعة ، ولذلك كان يألف دائماً الخلوة للقراءة في منزله ، وفي ذلك يقول :
 مَا تَطَعْتُ لَذَّةَ الْعَيْشِ حَتَّى صِرْتُ لِلْيَسْرِ وَالْكَتَابِ جَلِيسًا
 لَيْسَ شَيْءٌ أَعَزُّ عِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ سَمَ لَهَا أَبْتَنَى سِوَاهُ أَنْبِيَا
 قلذة القراءة لا تعلمها عنده لذة . وكانت نفسه أيّة شديدة الإباء ، لا يهينها ولا يُلْطَمَا
 فليسون اللد والهوان الموت ، وفيه يذل الإنسان ويهون أُنَى سبيل المال والغنى ؟ بؤراً لها وله
 إن هو اقتترف في نفسه هذه الجناية الكبرى ، وفي ذلك يقول :

كَأَنِّي الْأَنَى كُلِّ يَوْمٍ يَتَوَنَّى بِلَتَبِي وَمَا فَتَنِي سِوَى أَنْفِي حُرٍّ
 وَقَالُوا تَوَصَّلْ بِالْخَضُوعِ إِلَى الْغَنَى وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الْخَضُوعَ هُوَ الْفَقْرُ
 وَيُنَى وَبَيْنَ الْمَالِ شَيْطَانٌ حَرَمًا عَلَى الْغَنَى : نَفْسِي الْأَيَّةُ وَالذَّهْرُ
 إن مثل هذا الغنى الذي يكسبه صاحبه بالخضوع هو الفقر الحقيقي الذي يلتر حياة
 الإنسان ، فتمسأ لمن يطلبه عن هذه الطريق وتبأ له . وله آيات رائعة في عزة النفس ،
 وخاصة عزة نفس العلماء ، اشتهرت في عصره وبعد عصره ، وهو يفيض فيها على هذا
 النمط :

يَقُولُونَ لِي : فَيْكَ انْتِبَاضٌ وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْضِعِ الدَّلِّ أَحْجَبًا
 إِذَا قِيلَ : هَذَا مَتَهَلٌّ قُلْتُ : قَدْ أَرَى وَلَكِنْ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظُّلْمَا
 وَلَمْ أَتَقَبَّرْ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كَلِمَا بَدَأَ طَمَعٌ صَبِيرَتُهُ لِي سَلَامًا
 وَلَمْ أَتَبَدَّلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي لِأَعْدَمَ مِنْ لَاقِبَتٍ لَكِنْ لَأَخْلَعَنَا
 آتَشَقَّى بِهِ غَرَسًا وَأُجْنِيهِ ذِلَّةً إِذَنْ ظُلَّيَاغُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا
 وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظُمَا
 وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدُنُّوا عِيَاةَ بِالْأَطْعَامِ حَتَّى تَجْهَمَا

وهو يصور في الآيات نفس العالم الحر الذي يأبى الهوان مستشعراً كرامته إلى أقصى
 حد ، وإنه ليأبى في شمم ما بعده شمم أن يَرَوَى من منهل قد يصيبه منه ما يؤذى نفسه ،

ورنه ليردى الطمع في الدنيا الذى يتحول بالعالم إلى ما يشبه دَوَّارة الريح فهو يدور مع معه المهين . ناسياً لمن شأن علمه أن يجعله مخدوماً لا خادماً وسيداً لا عبداً ذليلاً . والا كان الجهل خيراً منه وأكثر عائداً على صاحبه . ويحمل حملة شعواء على من يراهم حوله من العلماء صغار النفوس الذين لم يصونوا حرمة العلم بل دنسوه ولطخوه بهوان أليم .

الطغرائى (١١)

هو أبو اسماعيل مؤيد الدين الحسين بن علي بن محمد . الكاتب الشاعر الذى غلب عليه لقب الطغرائى لعمله في دواوين الطغراء . وهى الطغرة التى يكتبها عادة رئيس ديوان الإنشاء في أعلى الكعب فوق البسطة بالخط الغليظ متضمنة نعوت السلطان أو الحاكم الذى يصدر الكتاب باسمه . وقد ولد بأصفهان سنة ٤٥٣ لأسرة عربية تنسب إلى أنى الأسود الدؤلى . ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولكن ثقافته الأدبية والعلمية العميقة تدل على أنه اختلف إلى دور العلم وحلقت العلماء منذ نعومة أظفاره وأنه يتتقف على أبهى جبهذة موطنة من النغوين والفقهاء والأدباء وأصحاب الصنعة (الكيمياء) وله فيها معانبات مختلفة (١٢) . ويبدو أن ملكته الشعرية استيقظت في نفسه مبكرة ، فسال الشعر على نسائه . ووفد به على الرؤساء ، وكان من أوائل من وفد عليهم فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء لأتاب أرسلان . وأعجب به وبشعره . فعينه كاتباً في الديوان وأوصله إلى الوزير نذم الملك فاستمع إلى مدائح فيه . ورحب به . وحدث أن اشترك الفضل في مؤامرة كبرى على نظام خلك وانكشفت المؤامرة . وألقي به في غياهب السجون . وظل الطغرائى يحفظ له صنيعة معه ويواسيه في محنة ببعض أشعار يدبجها في مدحهم . وكان نظام الملك حصيفاً . فلم يأخذ على الشاعر شيئاً من وفائه لصاحبه . وظل الطغرائى يعمل في دواوينه . كما ظل على صلته به بمدحه في المناسبات ومن مدائحه الجديدة فيه باثتان ، بشيد فيه به وبانتصارات جيوش الدولة في الشرق وفي الغرب على شاكنة قوله :

(١١) انظر في ترجمة الطغرائى وشعره مصجم الأديباء ٥٦/١٠ وابن خلكان ١٨٥/٢ والأنساب للسمازي ٥٤٣ والشعر ٤١/٤ ومقدمة الصفيى لشعره على قصيدة الصغرائى : لامية المعجم المسمى بالثبث المعجم وكتاب الصغرائى للذكور عن جواد الطاهر (طبع بغداد) وكتبه شعر تدمري في العراق وبلاد المعجم في العصر السلجوق . وديوان حمدى مطبوع قديماً في استانبول . طبعت لايدج مع شرحه . وأهم شروحه شرح الصغرائى (طبع القاهرة) .

(١٢) العلم عند العرب لألدوميل ص ٣٠٧ - ٣١٠ وكتب الشعر العربى الثالث للذكور عن جواد الطاهر ١٥٥/٢ .

خَمِيسٌ أَقاصى الشرق تَرَزُّمُ نَحْتَهُ وترتجُّ منه أنْخِرَاتُ المَغَارِبِ (١)
 يَلْفَهُمُ بِالرُّعْبِ قَبْلَ طَرَادِهِمْ وَيَزْمُهُمُ بِالْكَتْبِ قَبْلَ الْكَتَابِ
 وفي هذه الأثناء يتزوج ، وما تلبث زوجته أن تتوفى وتترك له رضيعاً لا يزال يحدف
 نفسه منه شجى عميقاً عليها . ومراثيه فيها تفيض بالحزن المرير على شاكلة قوله :
 بِنَفْسٍ مِنْ غَالِبٍ فِيهَا بِمَهْجَتِي وَجَاهِي وَمَا حَازَتْ بِدَايَ مِنْ الْوَفْرِ
 وَفَزَتْ بِهَا مِنْ بَيْنِ يَأْسِي وَخِيَّةٍ كَمَا اسْتَخْرَجَ الْفَوَاصِلُ لَوْلُوَةَ الْبَحْرِ
 لِحَاجَةٍ كَمَا جَاءَ الْمُنَى وَاشْتَهَى الْهَوَى كَالْأَلَى وَبَلَاً فِي عَفَافٍ فِي سَبْرِ
 فَيَا مَوْتَ الْخَفَى بِهَا غَيْرَ غَادِرٍ فَإِنْ بَقَايَ بَعْدَهَا غَايَةُ الْقَدْرِ
 وهى مرثية بديعة . فقد أظلمت الدنيا فى عيني الطغرائى بعد زوجه الشابة الجميلة .
 ولم يعد له منها سوى الأنين والدموع والزفرات . وإنه ليشيح بوجهه عن الصبر وأجره وثوابه
 مفضياً إلى لوحات قلبه وحسرات نفسه ، إذ تركت بين جوانحه ناراً لا تنطفى ، ويتوجه
 إليها بالخطاب نادياً لحظه العائر ، منشداً :

لَأَتْنِيتَا حَتَّى إِذَا مَا يَهْرَتْنَا سَتَا - وَسَاءَ غَيْبُ غِيُوبَةِ الْبَذْرِ
 وَقَدْ كَانَ رَبِّىْ أَهْلَابِكُ مُدَّةً أَحْنُ إِلَى حَنَّةِ الطَّيْرِ لِلْوَكْرِ
 وَأَوَى إِلَيْهِ وَهُوَ رَوْضَةٌ جَنَّةٍ بِدَائِمِهَا يَحْتَكُنُ فِي حُلَلِ حُمْرِ
 فَلَمْ يَنْتِ عَنْهُ صَارَ أَوْ حَسَّ مِنْ لَفَى وَأَضِيقَ مِنْ قَبْرِ وَأَجْدَبَ مِنْ قَبْرِ
 لقد غاب عنه بدره وانقضَّ وكره ودمرت جته وعاد يتقلب بعد أعطاف النعم فى
 لظى الجحيم ، وحتى مسكنه أصبح قبراً مظلماً وقفراً مجدباً . ويظل يبكيها وتمر به الأيام .
 فيسلو عنها ويتزوج ويُزَقُّ الولد ، وهو فى أثناء ذلك يعمل فى دواوين السلاجقة . ويتوفى
 نظام الملك ، وتضطرب به الحياة ، فيتعرض لبعض الوزراء بالمهجاء ولبعضهم بالمدح
 والثناء . وتتوفى صلته بالسلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٩ - ٥١٢ هـ) ويصبح فى عهده
 نائباً فى ديوان الطغراء أو بعبارة أخرى وزيراً للقلم والإنشاء . ونراه فى مدحة له يتحدث
 عن جيوشه ووقائعها مع الروم وما تلقى فى قلوبهم من فزع بمثل قوله :

خَيْلُ بَارِضِ الرَّقْمَيْنِ وَرَأَاهَا نَفَعَ كَمُتَكِيمِ الْقَامِ مَنَارُ
 رِيحُ الْعَدُوِّ وَقَدْ أَحْسَرُ بِقُرْبِهَا فَالْجَنْبُ نَابِى وَالرَّقَادُ غِرَارُ (٢)
 وَعَلَى خَلِيجِ الرُّومِ مِنْكَ مَهَابَةٌ مِنْ خَوْفِهَا يَنْطَامُنُ الثَّيَارُ
 وَلَقَدْ دَرَى الرُّومِيُّ أَنَّ وَرَاءَهُ خَطَرًا تَغَاصَّرَ دُونَهُ الْأَخْطَارُ

ويتحدث في نفس القصيدة عن مقاومة السلطان محمد للباطنية الحشاشين وقضائه المبرم على ابن عطاش في حصن « شاء دز » بقرب أصفهان واستيلائه على قلعته ، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ويتولى السيمى الوزارة ويتولى السلطان محمد ويخلفه ابنه محمود وتفسد العلاقة بين الطغرائي والوزير ، ويرحل إلى بغداد وينبو به للقام فيلم في بالية مقامه في العراق مستهلاً ذمه بقوله :

ملئت ثَوَانِي بالعراق وملئى رفاقي وكانوا بالعراق طرابا
وينظم حينئذ لاميته التي اشتهرت خطأ باسم لامية العجم ، وقائلها عري كما مر بنا في نسبه ، وليس فيها أى تعصب للعجم ضد العرب ، ولعلها سميت بذلك لأن قائلها كان يعيش في بلاد العجم وجعلها على روى لامية العرب للشغري وقد نالت شهرة واسعة منذ عصره وشرحها الأسلاف مراراً وأهم شروحها شرح الصفدى ، وموضوعها للشكوى من الزمان وأمله ، شكوى لا تنكسر فيها نفسه ، بل يظل له طموحه وتظل له صلابته ، وتظل له فضائله التي يفخر بها ، وهو يستهلها بقوله :

أَصَالَتُ الرَّأْيَ صَاشَتْنِي عَنِ الْحَطَلِ وَجَلِيَةُ الْفَضْلِ زَاتْنِي لَدَى الْعَطَلِ
وربما أشار بالعطل إلى تعطله من وظيفته الدبوانية حينئذ ، وربما يشير إلى ما حدث له أخياناً من هذا العطل ويهتف :

فِيمَ الْإِقَامَةُ بِالزُّورَاءِ لَا سَكْنَى بِهَا وَلَا نَاقَى فِيهَا وَلَا جَبِيلُ
ويشكو طويلاً الغربة بالزوراء (بغداد) وأن لا صديق له فيها ولا أنيس سوى الوحشة وبعد الوطن والدار ، مع بوار الأمانى وانعكاس الآمال . ويرحل مع صديق ، ويقتربان من حىٍّ إصمَّ بالقرب من المدينة ، حى الحبيبة التي ضرب إليها أكباد الإبل ، ولكن دونها الحماة بالسهام والبيض والسم ، أو السيوف والرماح ، والأسد رابضة حول الكئاس . ويتمنى الإمامة بالحق تبرئه من عله ، بل ليشمى الموت في سبيل نظرة ، وكل هذا رمز عن مطامحه التي لا يستطيع تحقيقها ، وإنه ليصرح بأن طالب المجد لا بد له أن يفاخر وأن يركب الأعطار ، فإن لم يتحقق له في بلدة طلبه في أخرى ، ويصبح :

إِنَّمَا حَدَّثَنِي وَهَى صَادِقَةٌ فَمَا تَحَدَّثُ أَنَّ الْبُرْ فِي الثَّقَلِ
ويقول إنه لا يزال يمل نفسه بالآمال في أن تقبل عليه الأيام ثانية . ويشكو من الدهر ومن الناس ، مع شعور غير قليل بالكرامة ، ومع التحذير الشديد من الأصدقاء الأعداء قبل الأعداء . ويتم القصيدة بالدعوة إلى القناعة ورفض المناصب فكل ما على الدنيا ظل

زائل ، وستنشد قطعة من هذه اللامية في حديثنا عن شعراء الحكمة والفلسفة .
ولاندرى كيف رغب ثانية في العمل لدى السلاجقة ، إذ نراه يقصد إمارة السلطان
مسعود الموصل سنة ٥١٣ وبعينه وزيراً له ، وتنشب الحرب بين مسعود وأخيه السلطان
عمود وتدور الدوائر في سنة ٥١٥ على مسعود وجيشه ويؤسر الطغراني ويقتل بتهمة
الزندقة . ويبدو أن خصومه استغلوا عكوفه على الكيمياء ، فاتهموه بالسحر والإلحاد ،
واستمع السلطان محمود إلى اتهامهم له وأمر بقتله . والشكوى كثيرة في أشعار الطغراني وتكنى
منها لاميته السالفة . وفي ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة يستوحى فيها حجازيات الشريف
الرضى ومهيار ، ومن طرائف غزله :

يا قلب مالك والهموى من بعدما طاب السلو وأقصر العشاق
أو ما بدا لك في الإفاقة والألى نازعتهم كأس الغرام أفاقوا
يا حبيدا نجد وأعراف الثرى لذن وأنفاس النعيم رفاق

وكان يدعو إلى مجلس الشراب أحياناً وسماع المثلث والمثنى والانتشاء بالخمير في مباحج
الربيع . وطبيعي أن يتردد الفخر في أشعاره ، على نحو ما ترددت منه رنات في لاميته ، وله
يفتخر بثقافته الواسعة وإلمامه بشئ العلوم :

أما العلوم فقد ظفرت ببئني منها لما أحتاج أن أتملأ
وعرفت أسرار الخليفة كلها علماً أنار لى البهيم المظلا

واشتهر كما قلنا بمعرفته العميقة بالصنعة أو كما نقول الآن علم الكيمياء ، وله فيها
أشعار يفسمها غمطوط تحتفظ به مكتبة جامعة القاهرة بعنوان مفتاح الرحمة ومصايح
الحكمة ، ونقل منها الدكتور على جواد الطاهر طائفة^(١) تصور هذا الضرب من شعره
العلمي أو التعليمي . ويكثر عند الطغراني ومعاصره جبيعاً معارضته الشريف الرضى
ومهيار في بعض قصائدهما ، بل أيضاً معارضته من سبقها من الشعراء ، وربما كانت
لاميته السالفة أروع قصائده من حيث السبك والصياغة ، ومع ذلك حاول الصفدى في
شرحه لها جاهداً أن يرد معاني أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقه . وكان الطغراني كشعراء عصره
يتصنع لفنون البديع ولكل ما أتوا به من فنون التكلف ، وفي الحق أنه كان شاعراً بارعاً ،
ويبلغ من إعجاب السابقين به وبلاميته أن عارضها منهم كثيرون ، كان آخرهم البارودى في
لامية له مشهورة .

(١) انظر الشعر العربي في العراق وبلاد الصميم في العصر
السلجوقي ١٥٥/٢ .

الأرجاني^(١)

هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني نسبة إلى أرجان من كور الأهـ : من بلاد إقليم خوزستان ، وُلد سنة ٤٦٠ ويقول الهامد الأصفهاني فيه : « منبت شجرته أرجان ، وموطن أسرته تُستَر وعسكر مُكرَّم من خوزستان ، وهو وإن كان في العجم مولده فن العرب محته ، سلفه القديم من الأنصاره فهو عرى التجار . فارسي الموطن . وقد أرسل به أهله إلى المدرسة النظامية بأصفهان حين شَبَّ عن الطوق ، فظل بها . حتى خرج فيها فقيهاً شافعياً ، يُحسن الحكم بين الخصوم والفتياً . وتفجر الشعر على لسانه . فقصد به الوزير السلجوقي المشهور نظام الملك : منذ سنة ثيف وثمانين وأربعمائة ، وظل ينظمه إلى وفاته بُسْتَر سنة ٥٤٤ وكأنه مات من سن عالية ، وكان يفتخر بأنه فقيه ويحسن الشعر في ذلك يقول :

أنا أشعرُ الفقهاء غيرَ مُدافعٍ في العصر ، بل أنا أفقهُ الشعراء
وأعدته معرفته العميقة بالفقه لكي يشغل بالقضاء في موطنه ببلاد خوزستان . تارة بتستَر ، وتارة بعسكر مُكرَّم عن قاضبها ناصر الدين أبي محمد ومن بعده عن عماد الدين أبي العلاء ، وفي ذلك يقول :

ومن النواصبِ أني في مثل هذا الشغل نائبٌ
ومن العجائبِ أن لي صبراً على هذِي العجائبِ
وكان يُحسن الفارسية وترجم منها عدداً من الرُباعيات . وأكثر شعره في المديح . ونراه كما مر بنا يمدح نظام الملك حتى إذا خلفه الوزير تاج الملك مدحه بلامية يقول فيها :
كم موقفٍ دون العلاء وقفته والحيلُ بالأسل الطوال تصولُ
ونراه يمدح وزراء بركياروق حين استولى على صولجان الحكم بعد أبيه ملكشاه . وفي مقدماتهم الوزير الدهقاني وفيه يقول :

فأني به العصرُ الأخيرُ وقصرتُ عن شأوه وزراء كلِّ الأغصُرِ
ويظلُّ على صلة وطيدة بسلطين السلاجقة ، يروح إليهم ويفقدو بالمدايح . وله في السلطان محمود مدايح مختلفة ، من مثل قوله :

(١) راجع في ترجمة الأرجاني . ابن خلكان ١٥١/١ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٥ والأنساب ٢٤ ومجمع البلدان والسبكي ٥٢/٦ . شذات الذهب ١٣٧/٤ ورواة الزمان في أرجان . وديوانه مطبوع قديماً في بيروت . ٢٨١/٢ وفتوة خضراء ١٣٠٦ : ٤ والمنظوم ١٣٩/١٠ .

أعلى السلاطين في يومئذى ووَعَى رَأْيًا وَأَفْضَلُهُمْ سِرًّا لِإِعْلَانِ
وَمِدَحِ وزيره السيمى الذى يقول فيه ابن الأثير كان ظالمًا كثير المصادرة للناس
سبىء السيرة ، ولعله اضطرَّ إلى مديحه خوفًا من بطشه به كما بطش بالطغرائى ، وله يقول
في بعض مديحه .

وَأَنْقَضَتْ دِينَ الله من شرِّ مارقٍ وَكَانَ كِشْلُو بين نَائِيهِ نَاشِبِ
وَحَصَّ مَعْنَى الدين أحمد بن الفضل وزير السلطان سنجر بمدائح كثيرة ، وصلته به قديمة
منذ كان على ديوان الإنشاء للسلطان عمدا ، وله يقول :

أَحْلَكَ سُلْطَانُ السَّلاطين رُبَّةً يَفْضِقُ بِهَا فَرْعُ الحُصودِ السَّاجِلِ
وَكَانَ يَزُورُ بَغْدَادَ كَثِيرًا وَيَمْدَحُ خُلفاءَهَا ووزراءَهَا ، وله في الخليفة المستظهر (٤٨٥) -
٥١٢ هـ) غير مدحة ، ونراه يلجج فيها يلجج فيه قديمًا مروان بن أبى حفصة وغيره من شعراء
العصر العباسى الأول حين كانوا يتحدثون عن شرعية الخلافة وأن العباسيين أولى بها من
العلويين لأن الميراث ابن أخيه ولا يرثه ابن العم ، ويزعم الأرجحاني أن الرسول عليه
السلام بشر بها عمه وأنها تكون في أبنائه ، يقول :

بِكُمْ قَدِيمًا رَسُولُ الله بَشَرْنَا كما به بَشَرْنَا سَالِفُ الثُّلُثِ
وَقَالَ مِنْ بَعْدُ للعباس في مَلَأِ افْخَرُ فَأَنْتَ أَبُو الْأُمَلَاكِ مِنْ مُصْبِرِ
وَوَلَّى للمسترشد (٥١٢ - ٥٢٩) فظل يقدم إليه مدائحه ، واصفًا له بالبأس
والشجاعة والإقدام علمًا أنه أهداه من جيوشه وما تدمر وتحطم وتشتق كل من يقف في
طريقها سَحَقًا . وبالمثل يمدح وزراء بغداد وفي مقدمتهم بنو جهير ، وفيهم يقول :

لَهُ دَرَّ بنى جَهِيرِ إِنْهُمْ جَهِرُوا بِدينِ الجَهدِ حَتَّى أَطْعَمْنَا
وَنُوهُ طَوِيلًا بِجلالِ الدين بن صدقة ويأنوشروان بن خالد ، وله فيه نحو عشرين مدحة
يتحدث فيها عن كرمه وشجاعته وعلمه وحذله ومواكبه . كما نوه أيضًا طويلًا بالوزير شديد
الدولة محمد بن عبد الكريم ، وله يقول في بعض مدائحه :

أَمِينَ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِى اصْطَفَى وَسَهَمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَدَا
وله غزليات رقيقة ، وهى مطبوعة مثل غزليات الطغرائى بطوايع الشريف الرضى
ومهيار ، ونقص الطوايع البدوية ومن طريف غزلياته :

أَتَحْبَبُ الشَّاكِينَ طَوْلَ نَجْوى وَالذَّاهِبِينَ عَلَى الْهوى فِي مَذْهى
مَا جَبَّتْ أَفَاقُ الْبِلَادِ مَطْوَا إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي الرِّىِّ مَسْطَلَى
سَهْمِ إِلَيْكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَالَّذِى تَجِدُونَ مَنِ فَهُوَ سَهْمُ الدَّهْرِ لِي

أتحوكم ويرد وجهي القَهْقَرَى سَيرى ، فسَيرى مثلُ سَيرِ الكوكبِ
 فالقصدُ نحوَ المشرقِ الأَمْصَى له والسيرُ رأى العَينِ نحوَ المغربِ
 تائق ما صدق الوشاةُ بما حَكُوا أنى نَسِيتُ العهدَ عندَ تَغْرِيبِ
 والأبيات تحمل معاني وصوراً دقيقة تصور شاعرية الأرجاني وأنه كان يعرف كيف
 يُطَرِّف بصوره ومعانيه ، مما جعل القدماء يشيدون به ، ومن معانيه الغريبة :
 رَمَى لى وقد ساوَيْتُهُ في نُحُولِهِ خيالِي لَمَّا لم يكن لى راحِمُ
 فلدَّسَ لى حتى طَوَّقَتْ مكانه وأوْهَتْ لى أَنه لى حَالِمُ
 ويثنا ولم يشعر بنا الناسُ ليلةً أنا ساهرٌ فى جَنَّتِهِ وهو نائمُ
 وهو بعد فى الخيال والتصوير إلى درجة مفرطة من الوهم ، وكان مثل الطغرائى
 يشكو من الزمن ومن الناس ، وقلما نجد شاعراً فى هذا العصر لا يشكو ، ومن شكواه
 قوله :

ولما بلوتُ الناسَ أطلبُ عندهم أنا ثقةٌ عند اعراضِ الشدائدِ
 تطلعتُ فى حالِّ رخاءٍ وشدَّةٍ وناديتُ فى الأحياءِ هل من مساعدِ
 فلم أرَ فيها سامعٍ غيرَ شامتٍ ولم أرَ فيها سَرَّيَ غيرَ حاسدِ
 نعمتِها يا ناظرِي بنظرةٍ وأوردنما قلبي أمرُ المواردِ
 أحنى كُفًّا عن قوادى فإنّه من البنى سَعَى اثنين فى قتل واحدِ

فحتى عيناه لا ترجحانه بما تدلحمان فى قلبه من جحيم الفتنة بالجمال . وله رباعيات
 كثيرة غير أنه فيها شديد التكلف ، وقد نظم فى مديح أنوشراون قصيدة تشتمل على
 ثمانين رباعية . ومن باب هذا التكلف أو التصنع عنده إظهار قدرته فى نظم بيت يُقرأ
 طرداً وعكساً مثل قوله :

أحبُّ المرءَ ظاهِرُهُ جميلٌ لصاحبه وباطنُهُ سليمٌ
 مودته تدومُ لكلِّ هولٍ وهل كلُّ مودته تدومُ

فالبيت الثانى يقرأ عكساً من آخره إلى أوله كما يقرأ من أوله إلى آخره ، ونجد عند
 الأرجاني أرجوزة يمكن أن تقرأ لا على قافيتين فحسب ، بل على أربع قواف ، وهى تدل
 على مقدرة لغوية أكثر منها على مقدرة فنية خالصة . ولعل فى كل ما أسلفنا ما يوضح
 شخصية الأرجاني الشعرية .

ع

شعراء المرافئ

نشط الرثاء طوال هذا العصر ، فلم يمت سلطان ولا أمير ولا وزير ولا قائد إلا رثاه الشعراء ، وخاصة إذا كان شخصاً خطيراً له تاريخ مجيد أو أعمال مجيدة ، وانضم إلى ذلك كرم فياض ، حل محله هو معروف مثلاً عن صاحب بن عباد الذي كان غيثاً مديراً للشعر والشعراء ، فأتوه من كل فج ، حتى قيل إن من ملحوه بلغوا اللغات ، ونرى الثعالي في بيتته يتوقف مراراً ليدكر لنا بعض الأشعار التي قبلت في مديحه ، وبالمثل الأخرى التي قبلت في رثائه ، من ذلك قول أبي سعيد الرستمي ^(١) .

أبعد ابن عباد يهش إلى السرى أخو أملٍ أو يستباح جواد
أبي الله إلا أن يموتا يموتاً لها حتى المعاد معاد
وحمل تابوته من الرزي إلى أصفهان ، ودُفن في حلة تُعرف بباب دُزيه ، وتبارى الشعراء على قبره يرثونه ، وتقدم أبو منصور أحمد بن محمد اللجبي يثمد معبراً عنه بلقبه : « كافي الكفاة » ^(٢) :

توى الجود والكافي معاً في حفيرة ليأس كل منها بأعيب
هما اصطحبا حين ثم تعانقا ضجعين في قبر يباب دُزيه
ومر بنا الحديث عن محمود الغزنوي وفتوحه في إيران والهند وملازمته للجهاد ونشر الإسلام ، وكان متحفاً وطلب - كما مر بنا - إلى بلاطه العلماء والأدباء ، وأقبلوا عليه يستقون له كثيراً من الكتب في فنون العلوم ، وقصده الشعراء من جميع البلدان في إيران ، فكان يسبح عليهم كثيراً من عطاياه ، فلما توفي بكاه خير شاعر ، وفي مقدمتهم أبو علي الحسن بن محمد الدماغاني ، وفيه يقول ^(٣) :

مضى الأنفوان الصلُّ والأسد الورْدُ وتاج ملوك الأرض والفارسُ التَّحْدُ
ولم أذر أن الشمسَ يسترها كرى ولا الفلكُ الأهلُ يُغييه كحدُ
وأحس الشعراء هذا الإحساس بالحصارة الكبيرة إزاء نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور ، الذي عمَّ العلماء والشعراء بيره ، وألفت باسمه مصنفات كثيرة ، وكان مجلسه

(٣) قصيدة البنية ١٥٣/١ والأفروان الصل : الذي لا

تخيد منه الرقة ، والورد : الفاظ

(١) البنية ٢٨٠/٣

(٢) البنية ٤٠٩/٤

يَقْصُرُ دَائِماً بِالْفَقْهَاءِ وَالْقُرَّاءِ وَالْأَدْبَاءِ ، فَلَمَّا تَوَفَّى أَكْثَرَ الشُّعْرَاءِ مِنْ رِثَائِهِ ، وَمِنْ جَيْدِ مَا قَبِلَ فِيهِ قَوْلَ خَتْنِهِ شَيْلُ الدَّوْلَةِ مِقَاتِلَ بْنِ عَدْلِيَّةٍ ^(١) :

كَانَ الْوَزِيرُ نِظَامُ الْمَلِكِ لُؤْلُؤَةً يَتِمُّ صَاحِبُهَا الرَّحْمَنُ مِنْ شَرَفِ
عَزَّتْ فَلَمْ تَعْرِفْ الْأَيَّامُ قِيَمَتَهَا فَرَدُّهَا ، غَيْرَةً مِنْهُ ، إِلَى الصَّدَفِ
وظاهرة جديدة في الرثاء لهذا العصر ، قد تكون لها مقدمات في العصر العباسي ، ولكنها شاعت إلى أقصى حد حيثئذ ، ونقصد رثاء الفقهاء والعلماء في كل فن ، فلم يتوفَّ عالم كبير إلا تبارى تلاميذه وغير تلاميذه في رثائه ، فمن ذلك رثاء أبي الحسن عبد الرحمن البوشنجي لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان ، وفيه يقول ^(٢) :

أَوْدَى الْإِمَامُ الْحَبِيرُ إِسْمَاعِيلُ لَهْنِي عَلَيْهِ فُلَيْسُ مِنْهُ بِدِيلُ
بَكَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ يَوْمَ وَفَاتِهِ وَبَكَى عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَالْتَرِيلُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْمُنِيرُ تَنَاحَا حَزَنًا عَلَيْهِ وَلِلنَّجْمِ عَوِيلُ

ومن يرجع إلى طبقات الشافعية للسبكي سيجد من هذا الرثاء للفقهاء والمحدثين وأئمة الإسلام كثيراً ، وبالمثل من يرجع إلى كتب الشعراء مثل البيهقي ودُميَّة القصر وكتب التراجم مثل وفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدياء لباقوت ، من ذلك قول أبي الفرج حمد بن محمد الحمفاني في رثاء الشيخ الإمام أبي محمد الجويني ^(٣) :

عُلُومٌ عَلَتْ أَعْلَامَهَا غَيْرَاتُهَا وَأَعْيُنُ أَعْيَانٍ طَلَعَتْ حَيْرَاتُهَا
وَأَفْلَادُ أَكْبَادٍ مِنَ الْفَضْلِ فَكُنْتُ فَدَلْتُ عَلَى تَغْنِيَتِهَا زَفَرَاتُهَا
تَدَاعَتْ مَبَانِي الدِّينِ وَانْهَدَ رُكْنُهُ وَهَدَمَ مِنْ أَطْوَادِهِ صَحْرَاتُهَا

وبلغ ابنه إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني من الشهرة العلمية ما لعل أباه لم يبلغه غزارة مادة وتفتت في العلوم من الأصول والفروع . ولما توفَّى أغلقت الأسواق في نيسابور إجلالاً له وتكرمة ، وكسر ميثقه في الجامع وقعد الناس لعزائه ، كما يقول ابن خلكان ، وأكثروا فيه من المراثي ، كقول بعض تلاميذه ^(٤) :

قُلُوبُ الْعَالَمِينَ عَلَى الْمَقَالِ وَأَيَّامُ الْوَرَى شَيْءُ اللَّيَالِ
أَشْيَرُ غُصْنٍ أَهْلُ الْعِلْمِ يَوْمًا وَقَدْ مَاتَ الْإِمَامُ أَبُو الْمَعَالِ
وَنَجِدُ بَيْنَ أَسَاتِذَةِ الزَّعْمَرِيِّ أَسْتَاذًا مَقْصُورًا دَرَسَ عَلَيْهِ النُّحُو ، بِسْمَى أَبَا مَضَر

منصوراً ، ومع ذلك نراه - حين يلبى نداء ربه - يتأثر عليه تلميذه تأثراً عميقاً ،
فيريثه بقوله ^(١) :

وقالته : ما هذه الدُّرُّ التي تساقط من عينك سيمطين
قلت هو الدر الذي كان قد حشا أبو مُقَرٍّ أذني تساقط من عيني

وهي صورة بديعة ، فلدر دموعه ثمرة سماعه على أستاذه ، أودعها الزخشرى في سمعي
فجرت من مدمعه .

وعلى نحو ما تفجعوا على العلماء وبكوههم بدموع غزار تفجعوا على أبنائهم وأمهاتهم
وآبائهم وللباخريزي رثاء لأبويه ، ولأبي الحسن الحسيني البلخي رثاء جيد لأمه ^(٢) .
ومر بنا عند الطغرائي رثاؤه لزوجته التي ماتت في ريعان الشباب ، وفي ديوانه مرثية لها
قائلة ، بصور فيها الموت وهو يقبض كفها ويرسلها وحينها ساهمتان مطرقتان . وقد
أخذ الحزن منه كل مأخذ ، يقول :

ولم أنسها والموت يقبض كفها ويسطها والعين تزو وتطرق
هلال قوى من قبل أن تم نوره وغضن ذوى قيناته وهو مورق

ويصف زيارته لقبرها وعناقه لأحجاره وترابه والأرض تدور به ، وهو لا يكاد
يصدق أنها ماتت أو أن بينه وبينها حجاباً صفيقاً ، والدموع تنهل على خديه ، وكله
حسرات ولوعات .

ومر بنا في كتابي العصر العباسي الأول والثاني بكاء الشعراء للمدن ، حين تنزل بها
صواعق النهب والحريق ، فقد بكوا بغداد لمهد الأمين والمأمون ، وبكوا البصرة حين
هجم عليها الزنج في أواسط القرن الثالث ودمروا مساكنها وفككوا أهلها . وكانت كارثة
هذا العصر أعظم وأطم ، ونقصد تدمير المغول لبغداد في سنة ٦٥٦ إذ قتلوا من أهلها
نحو مليون أو يزيدون ، وأشعلوا بها الحسرات وأعملوا النهب حتى في الكتب
والمكتبات ، وكان ذلك دماراً فظيماً لما كان بها من حضارة عربية وحركة علمية ، أو قل
كان ذلك أفولاً لنجمها الذي طلأ تألق في سماء البلاد العربية جميعاً ، وطبيعي أن نجد من
شعراء إيران من سيكون المدينة العظيمة ، وفي مقدمة من بكأها منهم الشيخ سعدى
الشيرازي المتصوف الفارسي المشهور المتوفى سنة ٦٩١ من نحو مائة سنة ، وهو يشهر
بكتاباتهِ الصوفية الفارسية التي يمثلها كتاباه : جلستان و بوستان ، غير أشعار فارسية وعربية

كثيرة ، وقصيدته^(١) في دمار بغداد أكثر من تسعين بيتاً استهلها بقوله :
 حبستُ بجنّتي المدامعَ لا تجرّى فلما طغى الماء استطال على السكر^(٢)
 ويتمنى لو مر به نسيم صبا بغداد فأحيا نفسه ، وبصور حزن مدرسة المستنصرية على
 علمائها الراسخين في العلم وكيف تبكى المهاجر أئمتها وجهابذتها ، وهو يندب ويبكى
 ويلدرف الدموع ، ولا يطبق صبراً ولا سلواناً قائلاً :
 أيا ناصحي بالصبر دغني وزفرني أوضاع صبر والكبود على الجبر
 ويقول تحولت دجلة دماً قانياً ، ويرثي الخليفة الشهيد : المستنعم والشهداء الأبرار
 ويهتهم بالفردوس ، ويتحدث عن صبايا المسلمين ، والمغول يسوقونهن في الصحراء .
 والقصيدة كلها تجمع وتغمر على مصير بغداد ذات التاريخ العريق المجيد وكيف وقعت
 فريسة للذئاب المغول الكاسرة .
 ولم نتحدث حتى الآن عن مرثي الشيعة للإمام علي بن أبي طالب والحسين ،
 ولا ريب في أنها كانت كثيرة ، إذ انتشر التشيع في إيران منذ عصر بني بويه ، واعتاد
 الشيعة أن يعقدوا سنوياً مأتماً كبيراً في يوم عاشوراء حداداً على الحسين وذكرى حزينة
 لاستشهاده ، وكان الشعراء يرثون الحسين في تلك الذكرى القائمة مرثي كلها أنين
 وزفرات . ونشر الشيخ محمد آل ياسين للصاحب ديواناً وفيه غير قصيدة في رثاء الحسين ،
 ونزاه يآلم ألماً شديداً لهذه الجريمة الشنعاء ، التي مثل فيها بحفيد رسول الله ﷺ ، وهو يكرر
 في مرثيته الأنين والبكاء والدمع المردار . وله شعر كثير في فضائل علي بن أبي طالب يدخل
 في الشعر الشيعي بعمامة ، وفيه يتحدث عن نظرية الوصية بالإمامة لعلي بن أبي طالب
 المعروفة عند الشيعة الإمامية وعن سابقته في الإسلام وحروبه المظفرة وحقوقه في الخلافة .
 ويكثر الحديث عند الشيعة عن الإمام محمد المهدي المنتهي ورجعته ليبدح أسرته الضائع
 ويعيد سنن الشريعة . والأشعار المتصلة به تفرق لا في الرثاء ، بل في المديح ، مثل الأشعار
 المتصلة بالإمام علي ، ويسمونه صاحب الزمان أو قائم الزمان ، وغير قصيدة تصوره
 قصيدة بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة ، وهو فيها يسميه حجة الله وخليفته
 وظله^(٣) . وتتوقف قليلاً عند شاعر شيعي من شعراء الرثاء .

(٢) السكر : ما سُدَّ به النهر .

(١) حتى وسعدى للدكتور حسين محفوظ

(٣) انظر الكشكول العاملي (طبعة الحلبي) ١٧٦/١ .

(طبع طهران) ص ٧٣

أبو الحسن^(١) علي بن أحمد الجوهري الجرجاني

نشأ بجرجان ، واجتذبه صاحب بن عباد إلى حضرته فيمن اجتذبه من أدباء عصره وشعرائه ، ونراه يقربه منه ويرفع مكانته عنده . ويتخذ في ندمائه . وتستل ترجمته في البتمة برسالة كتبها إلى أبي العباس الضبي نائب صاحب في أصبهان يُشيد فيها به ، ويقول إنه يحسن الشعر في اللسانين العربي والفارسي كما يحسن النثر . ويرك أصبهان إلى جرجان فلا تطول به الأيام ، كما يقول الثعالبي ، حتى يلجئ نداء ربه ، ويقول من ترجموا له إنه توفي سنة ٣٨٠ . ولا يذكر له الثعالبي شيئاً من شعره الشيعي ولا من رثائه للحسين ، وما يروى له في بكاء الحسن قوله :

أهل الكساء صلاة الله نازلة عليكم الدهر من متى ووجدان
أنتم نجوم بني حواء ما طلعت شمس النهار وما لاح السماكان

ويشير الجوهري بفكرة الكساء إلى ما يروى عند الشيعة من أن الرسول ألقى عليه وعلى السيدة فاطمة والإمام علي والحسن والحسين كساء ، وقال : نحن أهل البيت . . ويشير الجوهري في القصيدة إلى مقتل الحسين وسياء كل من كانوا معه من أهله ، وله مرثية أخرى للحسين يندوها بالحديث عن يوم عاشوراء يوم مقتله باكياً نادياً قائلاً :

يا أهل عاشورَ يالهي على الدينو خذوا حدادكم يا آل ياسينو
اليوم قام بأعلى الطف نادبهم يقول من ليقيم أو لمسكين
يا عين لا تذهي شيئاً لغادية تهني ولا تذهي دمعاً لهزون
يا آل أحمد إن الجوهري لكم سيف يقطع عنكم كل مؤزون^(٢)

والآيات تصور المأساة تصويراً عجزاً متناحاً . والطف هو الموضع الذي استشهد فيه الحسين ، والجوهري لا يرقأ دمه ، بل هو يتمنى أن تسيل من عينه دموع لا تكف ولا تجف ، لما نزل بآل أحمد أو آل ياسين أهل البيت النبوي الطاهر .

وينشد الثعالبي للجوهري أشعاراً كثيرة تتصل بمدحه للصاحب ولسلطانه فخر الدولة ولنائبه أبي العباس الضبي ولبعض الوجهاء ، كما تتصل بالغزل وتصوير بعض الأطعمة وبهجاء بعض الأشخاص ، وله خمريات طريفة يمزجها بالحديث عن الطيعة ، كقوله في

(١) انظر في الجوهري البتمة ٢٧/٤ وأهباي الشبعة ج بهروت ١٣٠/٢ وما بهداه
٤١ ص ٤١ وأدب الطف أو شعر الحسن لجواد شير (طبع) (٢) اللوزون : الدرع للنسج .

دعوة بعض أصدقائه إلى الصبح :

شجرٌ مُدَنَّفٌ وجوٌّ عليلٌ وصباحٌ يميل كالنُشوانِ
صاحٍ إن الزمان أقصرُ عمراً أن يُراعِ الثُّنى بصرفِ الزمانِ
رقٌّ عني ملاحفُ الليل فانهَضُ يرقبني من صَوْبِ تلك الدُّنانِ
كمصير الخنود في بَقِي الأَو جه أو كالدموع في الأجفان^(١)

ويبدو من هذه الخمرة ميله إلى الدقة في التصوير ، وأنه كان يحاول الإطراف بأخيلته ، وأن يأتي بصور مبتكرة ، على شاكلة قوله :

صَكَّ النسيمُ فِرَاحَ الغَيْثِ فارتعجت يتفُضْنَ أجنحةً من عَنبرِ الرُّعبِ
ويقول الثعالبي : لو لم يقل إلا هذا البيت لكان أشعر الناس ، وهو فيه يصور زغب الثلج المنساق كشعيرات الريش المتطايرة .

٥

شراء الهجاء والفخر والشكوى

ظل الشراء يرشون سهام الهجاء في هذا العصر كما كانوا يرشونها في العصر السابقة ، تارة يسددها بعضهم إلى صدور بعض ، وتارة يسدونها إلى السلاطين والوزراء وعلية القوم . وقد تُسَدَّدُ إلى أكثر هؤلاء جوداً وكرماً ، ليجرد أنه تأخر في جائزة شاعر ، أو لأنه أعطى شاعراً جائزة دون جائزة شاعر آخر ، أو لأنه أسخطه لأى سبب من الأسباب . ومربنا أن الصاحب بن عباد وزير بني بويه كان ينال عليه المديح انبيالاً لكثرة ما كان يُغَنِّدُه على الشراء ، حتى يقال إنه وقد عليه منهم مئات ، ومع ذلك كان لا يسلم من أسنة بعضهم مثل أبى العلاء الأسدی ، وكان كما يقول الثعالبي قديم الصحبة له ، شديد الاختصاص به ، ممتد الثرة والتحجيل في شعرائه وصنائمه وندمائمه . وكان يودّه ويأنس به ويكتبه نثراً ونظماً . وإليه كتب : « أبا العلاء شيخى أين ذلك الميعاد ؟ وأين تلك المهود سقها العيهاد (الأمطار) . . وأين كسبك التى هى ألد من انتهاء النفس إلى رجائها ، وابتداء العين في إغفائها » . ويبدو أن أبا العلاء لم يرتض من الصاحب أمراً أوشياً يوماً ، فأسرع يهجوه بقوله^(٢) :

إِذَا رَأَيْتَ سُجَّيَ فِي مَرْقَمَةٍ يَأْوِي الْمَسْجِدَ حَرًّا ضُرَّهُ بَادِي
فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَقْرَ الْمُسْكِنَ قَدْ قَذَفَتْ بِهِ الْخُطُوبُ إِلَى لَوْمِ ابْنِ عِبَادٍ
وَهُوَ يَصِفُهُ بِاللَّوْمِ ، وَيَصِفُ مِنْ جُودِهِ الَّذِي شَاعَ عَنْهُ فِي سَخَرِيَّةٍ مَرَّةً . وَانْتَقَمَ
لِلصَّاحِبِ مِنْ أَبِي الْعَلَاءِ الْأَسَدِيِّ زَمِيلٍ لَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ بِسَمَى عَبْدِانِ الْأَصْبَهَانِيَّ جَعَلَهُ عَرَضَةً
وَهَدَفًا لِأَهْلَابِهِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِيهِ ^(١) :

أَبَا الْعَلَاءِ اسْكُنْ وَلَا تُؤْذِنَا بِشَيْءٍ هَذَا النَّسَبُ الْبَارِدُ
وَتَدْعُنِي فِي أَسَدٍ زَيْبَةٍ لَا تَبْتُ الدَّهْرِيَّ بِلَا شَاهِدٍ
أَقِيمْ لَنَا وَالِدَةً أَوَّلًا وَأَنْتِ فِي حِلٍّ مِنْ وَالِدٍ

وهي سخرية لازمة . ومن كبار المعجائين في أوائل العصر الشاعر المسمى أبا الحسن
اللَّحَامُ ، وفيه يقول الثعالبي : لم يَلَمْ أَحَدٌ مِنَ الْكِبَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ مِنْ هَجَائِهِ إِيَّاهُ ،
وَكَانَ لَا يَهْجُو إِلَّا الصُّدُورَ ، وَفِي مَقْدَمَتِهِمُ الْبَلْعَمِيُّ وَزَيْرُ السَّامَانِيِّنِ وَفِيهِ يَقُولُ ^(٢) :

وَزَارَةُ الْبَلْعَمِيِّ مُتَقَلِّبَةٌ وَهُوَ كَقَفْلٍ غَدَا عَلَى خَرِيَّةٍ
لَمْ يَخْجِ لِلْأُولِيَاءِ حُرْمَتِهِمْ فِيهَا وَلَا لِلْوُجُوهِ وَالْكُتُبِ
فَهُوَ أَحَقُّ الْوَرَى بِدَاهِيَةٍ تَفْضِي لَهَا رَأْسَهُ عَلَى خَشْبَةٍ

وهو يريد له أن يصلب ويصبح مثلاً للناظرين ، وكان عبدان آتف الذكري بشيعة كثيراً
فأزال يفكر في أن يورد عليه هجاء شديد الإيلام ، وهداه طول تفكيره إلى قوله فيه ^(٣) :
عِبْدَانُ هَامَتُهُ لِلصَّفْعِ مَعْتَادُهُ لَا سِيَّامًا مِنْ أَكْفِ السَّادَةِ الْقَادَةِ
كَأَنَّ أَيْدِي النَّدَامَى فِي تَنَاوُلِهَا أَيْدَى صِيَامٍ إِلَى كَيْزَانِ بَرَادَةِ
وَالْبَرَادَةُ : إِنَاءٌ يَبْرُدُ اللَّاءُ . وَكَانَ السَّخَطُ عَلَى السَّلَاطِينِ وَالْمُلُوكِ يَبْلُغُ أحياناً
عِنْدَ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ حَدًّا يَحِلُّهُمْ يَمْتُونَهُمْ بِهِ غَيْرَ مُفَرِّقِينَ بَيْنَ مُصْلِحٍ وَفَاسِدٍ ، فَإِذَا هُمْ
يَهْجُونَهُمْ جَمِيعاً عَلَى شَاكِلَةِ يَوْسُفَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْجَلُودِيِّ الرَّازِي فِي قَوْلِهِ ^(٤) :

لَا يَصْحَبُنْ مُلُوكُنَا إِلَّا أَمْرُو يُصْ مِنْ مَفْلِسٍ قَوَادُ
قَلُهُ لَدَيْهِمْ زُفْقَةٌ وَمَنَالَةٌ وَلَنْ تَمْرُجَ وَاسْتَعْفَ كَسَادُ

وَالْبَيْتَانِ يَمَسُخَانِ الْمُلُوكَ حَيْثُ ذَاكَ مَسْخَاً . وَكَانُوا كَثِيراً مَا يَهْجُونَ الْبُلْدَانَ وَأَهْلَهَا ، وَيُنْخِلُ
إِلَى الْإِنْسَانِ أَنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا بِلَدَةً إِلَّا سَلَطُوا عَلَيْهَا سِهَامَ هَجَائِهِمْ ، وَقَدْ يَتَرَضُّونَ لَصَفَةٍ فِي

الشخص ذئبة ، فيهجونه بها ، كصفه الحق ، ولا ين حَسُول يهجو التكبرين عليه ^(١) :
دخلتُ على الشيخ فبمن دخلتُ ففربل عَصَصُهُ واتحل ^(٢)
وأظهر من نخوة الكبريا مالم أقدر ومالم أنحل
فقلتُ له مؤثراً نُصَحَهُ وقد يُقْبَلُ النُصَحُ من نَحَل
إذا كنتَ سيدنا سُدَّتْنا وإن كنتَ للخال فاذهب فَنَحَل
أنحل بحق دُهاة الرجال فازال بَصْفَعُ حتى أنحل

وهو بصور هذا الشيخ التكبر المتعجرف ، وقد دخل عليه فلم يقم له ، وكأنما هم أن يرفع نفسه وعصصه أو مؤخرته ، ثم تخلى عن ذلك وتمكّن من مجلسه ، فعرف أنه متكبر متعظم ، وهو مالا يكاد يظنه ، فحاول أن ينصحه نصيحة من تخل القول وعرف ضوابه وخطأه ، وتعرض له قائلاً إن كنت سيدنا حقاً سدتنا دون حاجة إلى كبرياء وإلا فخلّ عنك ، غير أنه لم يستمع نصحه فإزال بَصْفَعُ ، حتى أصابه الخلل .

وكان الفخر في هذا العصر يرافقه الهجاء كما رافقه في العصور السابقة ، وقلماً يحسن الشعر أمير أو وزير أو قائد إلا وهو يفتخر بنفسه ، وفي كتاب اليتيمة فصل خاص بسلاطين بني بويه ، ونجد أشعارهم موزعة بين الفخر والغزل والخمر . وبلغنا فخر كثير للشعراء ، وكثيراً ما يسوقون فخرأهم بأشعارهم وجودتها وبلاغتها ، من مثل قول علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي ترجمنا له بين شعراء اللديج ^(٣) :

ألا إني أنسى بكلّ بديعة يَبِيْنُ بالباب الرجالو لواعبا
تسيرُ ولم ترحلْ ، وتدنو وقد نأتْ وتُكْسِبُ حَفَاطَ الرجالو المراتبا
نرى الناس إما مُسْتَهَامَا بذكرها وَلَوْعَا وإما مُسْتَعْمِرَا وغاصبا

فلشاعره كلها - في رأيه - بدائع وطرائف ، تنتشر في الناس حتى أقاصى الأرض ، لكثرة رواياتها والمعجبين بها ، ويتداولها الشعراء ويغيرون على معانيها المبتكرة . وكثر الفخر في العصر عند العلماء بسعة المعرفة وغزارة الحصول والتمعنق في الأفكار والتفوذ إلى أغوارها البعيدة .

وشاعت مع الفخر الشكوى من الدهر ومن الناس ، وهي شكوى قديمة ، غير أنها اتسعت في هذا العصر سعة شديدة ، لما شاع فيه من كثرة البؤس والفنك في حياة

١ ما ليس له .

(١) دية القصر ١/٤١٥ .

(٢) المصنوع : نهاية المود الفقاري ، وحرية (٣) اليتيمة ٢٠/٤

المصنوع : تمكة في المجلس . اتحل : ادعى لف

الشعب ، فضلاً عن الشعراء . ودائماً بتضاعف إحساس الشاعر بيؤسه حين لا تصلة الجواهر الكبيرة ، وحين يحد من بعض الناس إغراضاً عن شعره ، فتظلم الدنيا في عينيه ، ويراه سواداً في سواد وظلاماً وحرماناً لا آخر له . ومثله العالم الفاضل الذي يرى علمه كاسداً ، وأنه لن يروج إلا إذا لثم التراب وقُبِل الأوباب ، فيؤساً للعلم يكون هذا جزاءه ، ويؤساً للشعر يكون هذا ثوابه . ويصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وهما أروع ما صُنِفَ في البيان العربي ، وكان مقصد الطلاب في عصره من كل فُجٍّ ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلونه في نعم الحياة محلفين له اليؤس والشظف ، مما جعله يهتف بمثل قوله (١) :

هذا زمانٌ ليس فيه سوى التذالَّةِ والجهالةِ
لم يَرَقْ فيه صاعيدٌ إلا وسُلَّمُهُ التذالَّةُ

واقرأ في البيمة وذميمة القصر والحريدة فتجد سبيل هذه الشكوى تتدافع من كل جانب . وكثيراً ما كان يحدث لأُمير أن يُسَلِّبَ سلطانه كما كان يحدث ذلك للوزراء ، فكان منهم من ينظم الشعر يُودِعه شجونه ، ومرت بنا مأساة قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان إذ عزله عن سلطانه حاشيته وألقت به في غياهب السجون بإحدى القلاع حتى مات لوعة من شدة البرد وأسفاً على ضياع سلطانه ، وكان شاعراً كما كان كاتباً ، فففى يشكو شكوى مرة من الناس دون أن تنكسر نفسه ، بل مع غير قليل من الصلابة ، على شاكلة قوله (٢) :

قُلْ لِلَّذِي بِصُرُوفِ الدَّهْرِ عَمِينَا هل حاربَ الدهرُ إلا مَنْ له خَطَرُ
أما ترى البحرَ تعلو فوقه جَيْفٌ وتَسْتَقِرُّ بأَقْصَى قَمَرِهِ الدُّرُ
فإن تكن عِشْتُ أبدي الزمان بنا ومَسَاً من تَمَادَى بؤسه ضَرَرُ
ففي السماء نجومٌ ما لها عِنْدَ وليس يَكْشَفُ إلا الشمسُ والقَمَرُ

وقد تحولت الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد ، فالزمان كله يؤس وتماسة ، والناس ليس فيهم فاضل ولا كرم ، بل كلهم أخصاء أندال ، حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني (٣) :

ما في زمانك ماجدٌ لو قد تأملتَ الشواهدَ
فاشْهَدْ بِصِدْقِ مقالتي أولاً فكذبني بواحد

فهو لا يرى في الدنيا ما جدا واحدا ، وكأنما الناس كلهم أشرار ، ليس فيهم من نجد عنده شيئا من اللون يملأ القلب رضا وطمأنينة ، بل جميعهم يملأون القلب حسرة ولوعة . ونقف عند شاعرين من شعراء العصر هما الخوارزمي والأبيوردی .

أبو بكر ^(١) الخوارزمي

أصله من طبرستان ومولده ومنشؤه خوارزم ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المعروف ، وقد فارق موطنه في ريعان شبابه ، وأقام بالشام مدة . وهو أحد الشعراء والكتاب المجهدين في عصره ، وأيضاً أحد أساتذة الأدب ورواته ، رحل إلى الشام والعراق وبخارى ونيساور وسجستان ، ثم قصد الصحاب بن عباد ، فأكرمه وأهل منزله ، وغمره بما كان سبباً لثرائه وارتياشه ، فعاد إلى نيسابور واستوطنها واقتنى فيها عقاراً وضياعاً ، وكان لا يزال يأتيه رسم أوراتب من قبل الصحاب منذ انصرافه عن حضرته . وكان ذلك سبباً في أن يتعصب تعصباً شديداً للبيهيين ضد السامانيين أصحاب نيسابور وبخارى ، وناله من ذلك بعض السوء ، لولا توسط الصحاب بن عباد له عند بعض وزرائهم . وكان شيعياً وكانت نيسابور سنية ، فاستوحش منه كثيرون وانتهزوا فرصة وفود بديع الزمان الممعداني على بلدتهم ، فمقدوا مناظرة بينها انتصروا فيها للبديع ، وتصادف أن توفي الخوارزمي عقبها سنة ٣٨٣ فصفا الجولاناقه . وقد خلف الخوارزمي ديوان رسائل كبير وهو مطبوع ، وخلف أيضاً ديوان شعر سقط من يد الزمن ، غير أن في كتاب البيضة طائفة كبيرة من أشعاره في النسيب والغزل والمديح والمراثي وفي فنون مختلفة في مقدمتها الهجاء ، وكان طبعياً أن يصبه سياطاً على ظهور السامانيين حين استخرجوا منه ، أو صادروا ، بعض ماله وزجروا به في سجونهم ، وأفرجوا عنه ، غير أنه مضى يستقم منهم بمثل قوله :

جَزَى اللهُ عَنِّي أَهْلَ سَامَانَ مَا أَتَوَا وَفِي اللهِ لِلنَّارِ الْمَضِيعِ طَالِبُ
هُمْ زَوْجُونِي الْمَهْمُ بَعْدَ طَلَاغِهِ وَذَلِكَ عَرَسُ لِلْعَاقِبِ جَالِبُ
وَاتَّخَذُوا لَزْعِي بِالْحَصَادِ وَأَنْصَبُوا مِيَاهاً لَهَا أَبْدَى سِوَاهُمْ مَدَانِبُ
أَتَحْصُدُ أَبْدِيَكُمْ وَتَزْرَعُ غَيْرَكُمْ فَأَنْتُمْ جَرَادُ وَالْمَلُوكُ سَحَابِبُ
فهم يحصلون ما زرعه آل بويه ووزرائهم ، ويأكلونه ناراً ، وكأنهم جراد مستشر

(١) انظر في الخوارزمي وشعره البيضة ١٩٤/٤ وابن خلكان ٤٠٠/٤ والوافي بالترغيبات ١٩١/٣ والشذرات ١٠٥/٣ وكتابتان الفن ومذاهب في النثر العربي (طبع دار المعارف) ص ٢٣٠ وما بعدها

يصبب البلاد بالخراب والوبال بينا البويهيون سحائب غيث منهلة . تروى من يعيشون في بقاعهم القرية وفي بقاع السامانيين البعيدة وغير السامانيين . وبحكم تشيعه كان غاضباً على الخلفاء العباسيين السنيين ، غير أنه اكتفى في هجائهم بالإشارة إلى صنيعهم السيئ في توزيع الألقاب على السلاطين والوزراء والقواد ومن يستحق ومن لا يستحق ، يقول :

مَالِي رَأَيْتُ بَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ فَتَحُوا مِنْ الْكُفَى وَمِنْ الْأَلْقَابِ أَبْوَابَا
قَلَّ الدَّرَاهِمُ فِي كُفَى خَلِيفَتِنَا هَذَا فَانْفَقَ فِي الْأَهْوَامِ أَلْقَابَا

ولا شك في أنها تدل على ما أصاب المجتمع في إيران وغير إيران من تدهور ، وكان يغيظ الخوارزمي الشيعة المتعصب لتشييعه العالي في تعصبه أن يرى أحياناً فقيها يلقن ابنه مبادئ أهل السنة الذين يسميهم المتيشعة ناصية فيدعي عليه أنه من القائلين بالجبر ويهتف :
مُجْبِرٌ صَبْرُ ابْنِهِ نَاصِيًّا مَجْرَأُ مِثْلِهِ وَتِلْكَ عَجِيْبَةٌ
والمجبر الذي يقول بالجبر وأن الإنسان لا حرية له في فعله ولا اختيار وأنه مسير كريمة في يد القدر يوجهه كيف شاء . وأسخطه طاهر بن شار الطبرستاني ، فتولاه بهجاء مقدع من مثل قوله :

قَدْ فِي كُلِّ مَا قَضَاهُ لَطَائِفُ تَحَنُّبَا بَدَائِعِ
سَبَّحَانَ مَنْ يُطْعَمُ ابْنُ شَارٍ وَيَتْرَكُ الْكَلْبَ وَهُوَ جَالِعِ

وهو إقذاع مرير ، فقد جعله دون الكلب وأقل منه ، وحتى يد الصاحب بن عباد الذي طالما أسبغ عليه من نواله ، بل لقد جعل له راتباً معلوماً ، كما قدمنا ، يوصله في نيسابور ، نجده يخلشها بل يعضها ويسيل الدم منها بأظفار هجائه ، ويبدو أنه لم يرض منه يوماً لقاء له ، فإذا هو يذمه ذمّاً قبيحاً قائلاً :

لَا تَحْمَدُنْ ابْنَ عِبَادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ يَدَاهُ بِالْجُودِ حَتَّى أَخْجَلَ الدِّيَا
فَإِنَّهَا خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسٍ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا بُخْلًا وَلَا كَرَمًا
فمطاياها التي طبقت الشعراء في إيران وغير إيران إنعاماً وسأوس وهو اجس تلم به أحياناً . وهو كفران شديد للمعروف ، وكأنها طبيعة للخوارزمي أن لا يستطيع احتمال الصبر وأن يلجأ سريعاً إلى قلعه وشعره ، ويميله سوط عذاب يتزل به حتى على ولي نعمته . ونراه يتابع سخطة على من يريد هجاءهم حتى بعد وفاتهم كقوله في رثاء صديق ، حدث بينها ما يوجب شتاً من العتاب ، فإذا هو يضخم عتابه ويميله هجاء قائلاً :

بَكَيْتُ حَبْلِكَ بِالْعَيْنِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ مِنْ سِوَةِ فَعْلِكَ فِي تَجْوُدِ

فها أنا ذا المهتأ والمعزى وها أنا ذا الشقى بك السعيد
وما أصبحت إلا مثل خيرس تأكل قهو موجود قعيد
فنى تركى له داء دوى وفى قللى له ألم شديد
وطبيعى لئلى الخوارزمى الذى كان ينشب أظفاره فى الحكام والأصدقاء والناس أن
يتيم بهم جميعاً ويدنيه وبالدمر ، حتى ليقول :

لا تشكر الدهر لخير سببة فإنه لم يتعمد فى الهبة
وإنما أخطأ فىك مذهب كالسبل إذ يسنى مكانا خربة

وله وراء ذلك كله مدائح فى البوهيين والصاحب وغيرهم وله غزليات ونغميات
ووصف للطبيعة وورودها ورياحيتها . وفتح الثعالبى له فصلاً طويلاً لبيان تضميناته
أشعار غيره فى شعره ، وهم يمتدنون على الحقب من العصر الجاهلى حتى عصره .

الأيوردي^(١)

هو أبو المظفر محمد بن أحمد ، من أبناء معاوية بن محمد حفيد عتبة بن
أبى سفيان بن صخر بن حرب الأموى ، مولده ومنشؤه بأيوردي فى خراسان ، وقد تفقه على
إمام الحرمين الجوينى ببساور ، وله فيه مدائح بدبية . وسمع عبد القاهر الجرجانى ، ولعل
له أثر فى رهاقة ذوقه الأدبى . وأكسب على المعارف بمصطلها ، ولعل ذلك ما جعله فيما بعد
يصنف كتباً مختلفة فى الأنساب وغيرها . وفتح له الشعر والأدب العمل فى دواوين
السلطنة فى بغداد وأصفهان وغيرها من بلدانهم . ويبدو أنه ظل فى بغداد طويلاً ، إذ
يروى عنه أنه قال : كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبعى على العربية ، وبعد أنا
أرتضخ لكثرة أحجية . وفى بغداد التحق بخدمة مؤيد الدولة بن نظام الملك ، فلما عادى
هذا الوزير عميد الدولة بن منوچهر هجاه الأيوردي ، فندس عليه عند الخليفة أنه هجاه
ومدح صاحب مصر الفاطمى . وخشى الأيوردي على نفسه فترك بغداد إلى همدان حتى
سكن جأشه وهدا روعه . وتدل على الحقبة التى أمضاها ببغداد قصائده فى الخليفة المقتدى
(٤٩٧ - ٤٨٧ هـ) وله فيه إحدى عشرة قصيدة . ويقول بعض الرواة إنه إنما هجر بغداد

(١) انظر فى الأيوردي وشعره مجسم الأديب ١٩٦/٣ والأنساب ٤٩٠ وتذكرة الحفاظ ١٢٤١/٤
وروضات الجنات ١٨٥ وطرقات الذهب ١٨/٤ وإنباه
والهيكى ٨١/٦ وللتعظيم ١٧٦/٩ والنجم الزاهرة
١٥١/٥ ، ٢٠٦ وابن الأثير ٢٨٤/١٠ ومرتة الجنان

لأنه كان يَرشَحُ من كلامه نوع تشييب بالخلافة التي كانت لأسلافه الأمويين مدعياً استحقاقه الإمامة . فاضطرَّ إلى مفارقتها بغداد إلى همدان ، وبقى فيها مدة يدرس ويفيد ويصنِّف . وقال العماد في الحريرة : تولى في آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨ - ٥١١ هـ) ، وسقوه السم وهو واقف عند سريره . لسنة ٥٠٧ فخاته قدامه وتوفى على الأثر ، فحُمِلَ إلى منزله بأصفهان ، ويقال : بل لم يُسَقِّ السم ، وكل ما في الأمر أنه حين مثل أمام السلطان أصابه الفزع فارتعد وسقط ميتاً .

ويعُدُّ الأبيوردي من أشهر شعراء هذا العصر ، وديوانه كبير ، وقد وزعه على أقسام ، من أهمها البراقيات والتجديات والوجديات . وله شعر كثير في الفخر بنسبه الأموي وبيان فضله وحقه في الخلافة ، ويقولون إنه كان إذا صلى قال : اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها ، ولعل لهذا الغرض فيه هو سبب حظه على يد السلطان محمد ، ومن شعره للمعبر عن طموحه وقوة نفسه قوله :

يا مَنْ يُسَاجِلُنِي وَلَيْسَ بِمَدْرِكٍ شَأْوَى وَأُبَيِّنَ لَهُ جَلَالَهُ مَتَّعِي
لا تَعْبُرْ فِدُونًا مَا أُمَلَّتْهُ خَرَطُ الْقَتَادَةِ وَامْتَطَأَ الْكُوكَبُ^(١)
وَالْمَجْدُ يَعْلَمُ أَتَيْنَا خَيْرَ آبَا فَاَسْأَلُهُ تَعْلَمُ أَيُّ ذِي حَسَبٍ أَبِي
جَدِّي معاويةُ الْأَخْرُسُ سَمْتُ بِهِ جُرْثُومُهُ مِنْ طِينِهَا خَلَقَ النَّبِيُّ
وورثتهُ شَرْفًا رَفَعْتُ مَنَارَهُ قَبُو أُمِّيَّةٍ بِفَخْرُونَ بِوَيْبِي

وهي صورة جاعحة من الاعتداد بالآباء ، وأبن بنو أمية في القرن الأول الهجري منه في القرن الخامس ؟ وهل جده معاوية أقرب رحماً إلى الرسول ﷺ من بنى هاشم ؟ إن هذا ومثله لغزو ما يشبه اللغو . وهو لا يتوقف عند هذا الحد في فخره العريض ، إذ يسوقه في شكل أحلام لا يمكن تحقيقها إذ يقول :

النَّاسُ مِنْ خَوَلِيٍّ وَالدَّهْرُ مِنْ خَدَمِي وَقِمَّةُ الْمَجْدِ عِنْدِي مَوْطِئُ الْقَدَمِ
وَالنَّسْرُ يَتَّبِعُ سَنِي حِينَ يَلْحَظُهُ وَالدَّهْرُ يُنْشِدُ مَا يَهْمِي بِهِ قَلَمِي
لَوْ صِغِفَتِ الْأَرْضُ لِي دُونَ الْوَرَى ذَهَابًا لَمْ تَرْضَهَا لِرَجْمِي نَائِلِ مَيْمِي
وَعَنْ قَلِيلٍ أَرَى فِي مَازِي حَرْجٍ بِهِ تُشَامُ السَّرِجِيَّاتِ فِي الْقَيْمِ^(٢)
وَالْيَيْفُ مَرْدَقَةٌ تَبْدُو بِخَلَاخُطِهَا فِي مَسْلَكِي وَحِلْوٍ مِنْ عَثَرَةٍ وَدَمِ

(١) القَتَادَةُ : نبات له شوك كالإبر ، وفي الكل : من شديدة .

دونه خَرَطُ القَتَادَةِ يضرب للقيء لا ينال إلا بمسقة (٢) تُشَامُ : ترمى . السَّرِجِيَّاتُ : ضرب من السيوف

فاجتهد في صهوات الخيل مطلبه واليرز في طلبة الصمصامة الخليم^(١) وهو يعلم حليماً غريباً بأنه سيقود معركة مظفرة تُسبى فيها النساء النابات لأزواجهن وأبنائهن وأهلهم، وتجول وتصول فيها الخيل مردية للأقران، ونسور الفلا تتبعه لتأكل من أشلاء قتلاه، والدهر ينشد مجده الحزنى شراً حماساً ملتبهاً. وطبيعى أن يقتزن هذا الفخر العاصف عنده بالشكوى من الزمن الذى لا ينيله مطامحه، وهى شكوى تخرج بغير قليل من القوة والجلد وتعمل الشدائد على شاكلة قوله :

تتكّر لى دهرى ولم يندّر أنى أُرِزُّ وأحداثُ الزمانِ نهونُ
فبات يُرِنُّ الحطَبَ كيف اعتداه وَبِتُّ أريه الصَّبْرَ كيف يكون

وهذا الجانب فى الأبيوردى واعتزازه بنفسه وقومه جعله يستشر غضباً لا حد له على الصليبيين حين أغاروا لأول مرة سنة ٤٨٨ للهجرة على بيت المقدس، وهو استعمار يُحمد له، فإنه أحس الكارثة التى نزلت بالإسلام وأهله، حين دُئس الصليبيون بأقدامهم الحرم القدس، فصاح بأعلى صوته يهيب بالمسلمين أن يلودوا عن حياهم المستباح فى قصيدة طويلة يقول فيها :

مزجتنا دماء بالدموع السواجم
وكيف تام العين ملء جفونها
وإخوانكم بالشام يفضي قتلهم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دُمى
أترضى صناديد الأعراب بالأذى
فليتهم إذ لم يلودوا حمية
فلم يبق منا حرصة للمراجم^(٢)
على هفوات أبقت كل نائم
ظهور المذاكى أو بطون القشام^(٣)
توارى حياء حستها بالمعاصم
ويُففى على ذل كماء الأعاجم
عن الدين ضنوا غيرةً بالمهارم

والقصيدة استفزاز قوى للمسلمين من العرب والأعاجم كى يقفوا سداً متبعا دون حياهم وحمى الإسلام يلودون عنه بسلامهم وأرواحهم حتى يلبقوا الصليبيين وبال حربهم ويردوا كبلهم إلى نحرهم، وهى أولى القصائد التى أخذت طوال قرن تصوب آياتها، بل سهامها، إلى صدور أعداء الإسلام، حتى استطاع صلاح الدين أن يستنقذ منهم بيت المقدس وغيره من ديار الشام، ويسفك دماء ملوكهم وقادتهم، وكان حقاً على الله نصر المؤمنين.

وللأبيوردى وراء ذلك مدائح كثيرة فى الخلفاء وسلاطين السلاجقة ووزرائها،

(١) الصمصامة : السيف. الخليم : الخيل. القاطع : الخيل. القشام : القشام : السرد.

(٢) المراجم : القبيح من الكلام.

وله غزليات سنمعرض لبعض أمثلة منها في مطالع الفصل التالى ، وكانت له مرثية بديعة
للحسين تحدث عنها ياقوت ، غير أن ديوانه خلا منها ، كما خلا من مرثيته للغزالي ، التى
أشار إليها ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان . وله بيتان طريفان فى هجاء أنى النجيب
عبد الرحمن بن عبد الجبار المرازى ، وكان شاعراً ، ويستعمل فى شعره لزوم ما لا يلزم
الذى اشتهر به أبو العلاء فى لزومياته ، فقال فيه :

شعر المرازى - وحوشيت - كَمَقْلَبٍ أَسْلَمَهُ أَسْقَمَهُ

يَلْزَمُ ما ليس له لازماً لكنّه يترك ما يَلْزَمه

والسخرية واضحة ، إذ يشير إلى أن شعره مفسول مما يلزم الشعر من المشاعر
والأخيلة وفتون البديع ، بينما يفرضه فيها لا يلزم من تعقيد الروى وعدم الاكتفاء فى الشعر
بروى واحد ، مما يصور تكلفاً شديداً إن لم يكن الشاعر بارعاً فى صنع الشعر ونظمه .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

ظل تيار الغزل حاراً متدفقاً طوال هذا العصر ، حتى لبخيل إلى الإنسان أنه لم يشد شاعر بشعر إلا وجرى الغزل على لسانه ، لا يشد عن ذلك سلطان ولا وزير ولا كاتب ولا قائد . وظل للغزل لونهاء المتقابلان على مر العصور : الغزل المادى والغزل العُلوى العفيف ، وكان طبيعياً أن تظل للغزل سوقه الكبيرة لكثرة الإماء والجوارى وكان كثيرات منهن يحسن الغناء ، فلأن قلوب الرجال شغفا وهياما . وقرأ في تراجم الشعراء لهذا العصر تستجد دائماً مقطوعات الغزل تختار منها ما يطيب لك جمال معنى وجمال صورة وجمال صوت ، على شاكلة قول ابن العميد ^(١) .

ظَلْتُ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ نَفْسُ أَمْرٍ عَلَى مِنْ نَفْسِي
فَأَقُولُ وَاعْجِبْ وَمِنْ عَجَبِ شَمْسُ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ

وهي صورة بدیعة لما فيها من لفت قوى إلى جمال صاحبه ، وكان خليفته في وزارته المصاحب بن عباد أشعر منه ، وله غزل كثير أنشد منه النعالی طائفة من المقطوعات ، من ذلك قوله ^(٢) :

قَالَ لِي إِنَّ رَكْبِي . سَبِيُّ الْخَلْقِ قَدَارِهِ
قُلْتُ دَعْنِي وَجْهَكَ الْجُدُّةُ حَفَّتْ بِالْمَكَارِهِ

وواضح أنه حمد في البيت الثاني إلى الاقتباس من الحديث النبوي : « حَفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ » وهو اقتباس طريف لإحكام صلته بما قبله . وكثرة الاقتباس من الحديث والقرآن الكريم ظاهرة من ظواهر العصر الأدبية .

وكانوا يتورطون أحيانا في الغزل بالعلمان ، وهو وصية في جبين العصر ، تضاف إلى

مثلتها في العصر العباسي ، وربما كانوا ينظمونه تنديراً ودعابة ، أو تقليداً لأسلافهم ، وهو تقليد بغيض . ومن الحق أن كثيراً من الشعراء نحو هذا النوع المقيت عن غزلهم ، مؤثرين أن يعلّموا أشعارهم بطوايح الغزل الضيف الطاهر الذي لا يعرف المتاع المادى للحب ولا اجتناء ثمراته من المتاع وغير المتاع ، إنما يعرف نيرانه المهرقة كما يعرف الحب الظالم الذي لا يروى صاحبه أبداً ، فدائماً فراق ودائماً حنين واشتياق ، ودعاء كما قال أبو العلاء الأسدي (١) :

شئتوا بالفراق شملّي ولكنّ جتمع الله شملهم أين كانوا
وكثير من هذا الغزل العلويّ كان يصوغه العلماء والفقهاء صورةً لطهارة نفوسهم ونقاها وما يتجشّسون في الحب من آلام دون أن يشوب تفكيرهم شيء من الغريزة النوعية ، فقد تساموا عن الحسّ وكل ما يتصل بالحس . ويكثر في هذا الغزل الحنين المستمد من حنين العلويين ، الحنين إلى نجد وديار نجد مع الحشرات من الفراق والشوق إلى اللقاء . وربما لم يكثر من ذلك شاعر كما أكثر الأبيوردي ، فقد جعل للنجديات أو الغزل النجدى العلوي قسماً مستقلاً من أقسام ديوانه الكبير ، ومن نجدياته :

نزلنا بَنَمَانَ الْأَرَاكِ ، وَلِلنَّدى سَيِّطُ بِهِ ابْتَلَتْ عَلَيْنَا السَّطَّارُ^(٢)
فَبِتْ أَعَانِي الرَّجْدَ وَالرَّكْبُ نَوْمٌ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنِّي السَّرَى وَالشَّائِفُ^(٣)
وَأَذْكُرُ نَحْوَدَاً إِنْ دَعَانِي عَلَى النَّوَى هَوَاهَا أَجَابَتْهُ الدَّمْعُ الدَّوَارُ^(٤)
لَهَا فِي مَغَانِي ذَلِكَ الشَّعْبِ مَرَلٌ لَنْ أَنْكَرْتَهُ الْعَيْنُ فَالْقَلْبُ عَارِفُ^(٥)
وَقَفْتُ بِهِ وَالدَّمْعُ أَكْثَرُهُ دَمٌ كَأَنِّي مِنْ جَفْنِي بَنَمَانَ رَاعِفُ^(٦)
وعلى نحو ما . يعملون محبوبتهم نجدية يعملونها ممتعة ، فحولها أسدٌ يحمونها ، بحيث لا يستطيع الحب الولهان أن يلقاها أو يقرب من حياها ، فدونها الموت الزؤام ، وفي ذلك يقول الطغرائي في لاميته (٧) :

إِنِّي أُرِيدُ طُرُوقَ الْحَيِّ مِنْ إِضْمٍ وَقَدْ حَمَاهُ رُمَاءُ الْحَيِّ مِنْ نُكُلٍ
يَحْمُونَ بِالْبَيْضِ وَالسُّرِّ الدَّانِي بِهِ سَوْدَ الْغَدَائِرِ حُمَرُ الْحَلِيِّ وَالْحَلَلِ
فَالْحَبُّ حَيْثُ الْيَدَا وَالْأَسَدُ رَابِضَةٌ حَوْلَ الْكِتَاسِ لَهَا غَابٌ مِنَ الْأَسَلِ
فهو يريد الإلزام بحى معشوقته في إضم ، فغري دون ذلك أهوالا ، فقد حماه رماء من

(١) البيت : للغارات . السرى : السر ليلاً .

(٢) تَنَمَّنَ : واد بين عرفات والطائف . الْأَرَاكِ : من

(٣) رَاعِفٌ : من الرفاف وهو الدم السائل من الأنف .

(٤) ديوان الطغرائي ص ٥٤ .

(٥) أنشجار البادية ، للطغراف : التياب .

حشيرة تُمل المشهورون منذ امرئ القيس بجلغهم في رمى السهام ، وهم مسلحون بالسيف والرماح ، يحمون نساءهم الفاتات ، الرابضات في الحدود وكأنهن طباء في كُناس نحوطة غابة ضخمة من الرماح ، والأسد جثوم ، والموت الأحمر ينتظر كل من يدنو أو يقترب . وتقف عند شاعرين من شعراء الغزل في العصر .

أبو الفرج^(١) بن هندو

هو علي بن الحسين بن هندو ، وسقطت كلمة علي من اليتيمة وصحح الاسم الثعالبي في تسميتها . وكان من النابيين في الطب والفلسفة والأدب والشعر ، وله من الكتب مفتاح الطب والمقالة المشوقة في المدخل إلى علم الفلسفة وكتاب الكلم الروحانية من الحكم اليونانية وهو مطبوع ومنشور بالقاهرة . وقد تعلم في الفلسفة والطب على يد أبي الخير بن الحمار وكان من أجل تلاميذه ، ووفد على صاحب بن عباد ، فقرأ به إليه ، وكان أحد كتاب الإنشاء في ديوان عضد الدولة البويهى ، وعاش بعده طويلاً إلى أن وافته المنية بمرجان سنة ٤٢٠ . وكان له ديوان شعر لم يصل إلينا ، ويقول الثعالبي : « هو مع ضربه في الآداب والعلوم بالسهام الفائزة ، وملكه رِقُّ البلاغة والبراعة ، فردُّ الدهر في الشعر وأوحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد ، ونظم القلائد والفرائد ، مع تهليل الألفاظ البليغة وتقريب الأغراض البعيدة وتذكير الذين يسمعون ويروون بقوله تعالى : (أفسِحْ هذا أم أنتم لا تبصرون) » . ويُشدد له كثيراً من غزلياته وخاصة في التتمة ، من ذلك قوله :
تقول : لو كان عاشقاً دَنِفًا إِذْنُ بدتْ صُفْرَةٌ بِخَلْدِيهِ
لَأُتَشَكَّرِيهِ فَإِنْ صُفِّرَتْهُ غَطَّنُ عَلَيْهَا دُمَاءَ عَجَبِيهِ

وهو برهان بديع ، وطبيعي لمن درس الفلسفة أن يحسن التحليل ، فصفرته متوارية في خَلْدِيهِ ، تواربها دماء عَجَبِيهِ . وتكرر هذه العلل الطرفية في غزله على شاكلة قوله :

عارضٌ وَرَدُّ الفصول وَجَّتَهُ فَاتَّفَقَا فِي الجبالِ واختلفا
يزداد بالقُطْفِ وَرَدُّ وَجَّتِيهِ وينقصُ الورد كلما قُطِفَا

فوجئة صاحبته وردها غريب ، ورد يزيده القطف ، إذ يزداد خدنها به خجلا واحمرارا ، فيزداد الورد ويكثر ولا ينقص أبدا ولا تفيض حمرة ، بل لا يزال يولد فيه

(١) انظر في ترجمة أبي الفرج بن هندو اليتيمة ٣٩٤/٣ إلى أمسية (طبعة مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٢٩
وتتمة اليتيمة ١٣٤/١ والعبية ٥٧/٢ وصحاح الأدباء
وفوات الوفيات ٩٥/٢ وتاريخ حكماء الإسلام للشيخ
١٣٦/١٣ وصيون الأبناء في طبقات الأطباء لابن ٩٣-٩٥ .

القطف وردا لا ينتهى ، ويتلطف لصاحبه له قائلا :

أيا بدرا بلا كَلَفٍ به دونَ الورى كلنى
أين لي دُرٌّ تُفَرِّك ما بهاء الدُرِّ في الصدفِ
وواضح أنه يطلب إليها في رقة أن تبسم له ، حتى تفتح له أبواب النعم على مصاريعها ، وعلى مثال هذا التلطف قوله :

قولا لهذا القمر البادى مالِكٌ إصلاحى وإفسادى
زودُ فزادا راحلاً قُبْلَةً لا بُدَّ للراحِل من زادٍ
فكل مسافر لابد له من زاد ، وهو يريد أن يأخذ زاداً لروحه : قبله من محبته ، تظل تغذى مشاعره ، حتى يعود إليها من رحلته الطويلة . ويحاول في غزله دائماً أن يأتي بصورة مبتكرة ، فحلب كثيرا من الصور الغريبة كقوله :

ليس لي من أذى الفراق اكتئابٌ قد كُفِنى عني جميعَ اكتابى
كلما شئت أسبلت دمَ قلبي فأرى فيه صورةَ الأحباب^(١)
فهو لا يكتب للفراق كثيرا من العشاقي الذين طالما شكوا منه واكتبوا ، إذ تردُّ عنه عنه اكتابه بدموعها التي تتدفق فيها دماء قلبه ، تلك التي يرى من خلالها صورة الأحباب ، فصورتهم لا تغادر دموعه . وإذا كان المحبون طالما شكوا من طول الليل وظلامه الداجي فإنه يناقضهم قائلا :

ليت أن الليل دامت ظلمةٌ فلقد جئتُ لدينا نعمةً
مثلتُ صدقيلك لي ظلمةٌ وأرتِ خديك عني أنجمةً
فهو يمثل في الليل محبته ، إذ يرى في ظلمته خصل شعرا المنسلة على خديها ، ويرى خديها في نجومه المتألقة ، وهو يُعَدُّ في الوهم والخيال ، وله :

قالوا اشتغل عنهم يوماً بغيرهم وخادع النفس إن النفس تخدعُ
قد صيغَ قلبي على مقدار حبِّهم فما لحبُّ سواهم فيه منسَعُ
وهو ردُّ طريف على من يطلبون إليه السؤلَى عن بعض أحبابه بحبِّ سواهم ، فقلبه مشغول دائما بهم وليس فيه مكان لغيرهم . وله معان طريفة كثيرة في موضوعات الشعر المختلفة ، من ذلك قوله في نبيل :

لو مات لم يأكل الطعامَ إذا ما كان ذاك الطعامُ من كيو
ان لم نشاهد دُخانَ مطبخهِ فقد شهدنا دخانَ تعبهِ

فهو لا يأكل من كبسه ، بل يخزن المال ولا يرى سروراً إلا في خزنه ، ولم يشاهد أحد له دختاناً يملو مطبخه ، فدخانه دائماً يملو وجهه ، تعبس ما بعده تعبس . ويقول في النهي عن اتخاذ الأولاد والاقتناع بالوحدة :

ما لِلْمُحِيلِ وللِمَعَالِ إِنَّمَا يَسْمَى إِلَيْهِ الْوَحِيدُ الْفَارِدُ
فَالشَّمْسُ نَجَاتُ السَّمَاءِ وَحِيدَةٌ وَأَبُو بَنَاتِ النَّعْشِ فِيهَا رَاكِدُ
وبَنَاتِ النَّعْشِ نَجُومٌ مَعْرُوفَةٌ فِي السَّمَاءِ لَا تَكَادُ تَرْمِ ، تشهد بالقرب من القطب
الشمالي ويدعوه أباه . وله في الشكوى أشعار مختلفة منها قوله يشكو من مقامه بمدينة الرُّيْ
دون طائل :

ضَيْقُ بَارِضِ الرُّيِّ فِي أَهْلِهَا ضِيَاعُ حَرْفِ الرَّاءِ فِي الثَّلَاثَةِ
صِرْتُ بِهَا بَعْدَ بُلُوغِ الْمَتَى يَعْجِزُ أَنْ أَبْلِغَ الْبَلَّةَ^(١)
ولعل في كل ما قلنا ما يصور شاعرية أبي الفرج بن هندو وبراغته في نظم الشعر
والإتيان فيه ، وخاصة في الغزل ، بالصور والمعاني الطريفة المبتكرة .

أبو الفضل^(٢) الميكالي

هو عبيد الله بن أحمد من آل ميكال وجُهاة نيسابور ، وطالما عملوا مع السامانيين في
دواوينهم وولاءهم على بعض البلدان ، ومربنا تنويه الثعالبي بهم ، وفي أبي الفضل يقول :
والأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة
الشمس على البدر ، ومكانه منهم مكان الواسطة من العقد وما على ظهرها اليوم أحسن منه
كتابة وأتم بلاغة . ثم يورد الثعالبي قول بعض الشعراء في وصف بلاغته وحسن بيانه على
هذه النقط :

لَكَ فِي الْحَاسَنِ مَعْجَزَاتُ جَمَّةٍ أَبْدَأُ لِعَفْرِكَ فِي الرَّيِّ لَمْ تُجْمَعِ
بِحِرَانٍ : بِحَرٍّ فِي الْبَلَاغَةِ زَانَهُ شَيْثُ الْوَلِيدِ وَحُسْنُ حِفْظِ الْأَصْمَى^(٣)
وَإِنَّا تَفَتَّقْنَا نَوْرَ شَيْعِكَ نَاضِرَا فَالْحُسْنُ بَيْنَ مَرَضِعٍ وَمَصْرِعٍ
أَرْجَلَتْ قُرْصَانَ الْقَرِيضِ وَرُضَّتْ أَفْ رِلْسَ الْبَدِيعِ وَأَنْتَ أَجْدُ مَبْدَعِ^(٤)
وليست عندنا معلومات واضحة عن حياة أبي الفضل ، ويذكر ابن خلكان أنه دخل

(١) البلة : ما يكنى له الحاجة . (٢) الوليد : البهري .

(٣) انظر في أبي الفضل البيهقي ٣٥٤/٤ وفوت (٤) أهراس : ج هرس ، هراس : ج هارس .

الوليد ٥٢/٢ وابن خلكان ٢٠٢/٣ ، ١٠٩/٥

بغداد بعد صدوره من الحج سنة ٣٩٠ وأن له مصنفاً يسمى للمتخل جمع فيه مختارات شعرية . ويروى الثعالبي له شعراً قاله في نكبة ، ويبدو أنه حُبس في عهد الفزنوين حين استولوا على إمارة السامانيين . وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره منها بُدِّ في الغزل من مثل قوله :

لقد راعنى بَدْرُ الدُّجَى يصدوده ووَكَّلَ أجفاني بِرِغْمِي كواكِبَ
فياجزعني مَهْلًا صاه يعود لي ويا كبدى صَبْرًا على ما كواكِبُ به
وواضح أنه قصد إلى الجناس قصداً في قافيتي البيت ، فكلمة «كواكب» في البيت الأول لا تنقص عنها شيئاً كلمة «كواك» به . وهذا هو البديع الذي يشير إليه مادحه . إذ شَغِفَ الإيرانيون أو قل كثير منهم بمصنعة الجناس ، حتى ليرى الثعالبي في بيته أن شاعراً يسمى أبا حفص عمر بن علي اللطوعي ألف في أجناس التجنيس كتاباً ، ويقول الميكالي :
أُنْكَرْتُ من أدمى نَشْرَى سَوَاكِبُهَا
سَلَبِي جُفُونِي هل أَبْكَى سَوَاكِبُهَا
والبيتان خفيفان في موسيقاهما ، ولكنه أثقلها بهذا الجناس المتعمد في القافيتين : «سواكبا» و «سواك بها» . وقد يحمل الجناس بين كلمتين في البيت الواحد كقوله :
وأصداعه يَلْسَمُنِي كَالْعَارِبِ وَالْحَاظُهُ يَقَعْلَنُ فَلَ الْعَارِ فِي
وقوله :

ألا ليت الجوابَ يكون خَيْرًا فَيَشْفِي ما أُنْهَاط من الجوى في
والمقارب الأولى في البيت الأول : جمع عقرب ، والعقارب في نهاية البيت : الحمر ، والجوى في نهاية البيت الثاني : حُرَّةُ الوجد ولوعته ، وقد أضاف إليها كلمة « في » ليم له الجناس بين آخر البيت وكلمة الجواب في أوائله ، ويقول :
ظَلَمْتُ يَحَارُ التَّرْقُ في بَرِيقِهِ غَنِيْتُ عن إِبْرِيقِهِ بِرِيقِهِ
فلم أزل أَرْفُفُ من رَحِيقِهِ حتى شَفِيتُ القلبَ من حَرِيقِهِ
وقد أدخل على كلمة « ريقه » وهو رُضَابُ الفم الباء ليم له الجناس بين نهايتي الشطرين المتقابلين ، والجناس في البيت الثاني أكثر قبولاً إذ جانس بين « رَحِيقه » و « حريقه » لتداخل الصورة معه ولأن الجناس ليس تاماً ، فالتكلف فيه يبدو أقل قليلاً ، ويقول :

شَاةٌ كَفَى رَفَأً بِقَبْلَةٍ ما شَفَتْ
فَقُلْتُ إذ قَبْلُهَا يا ليت كَفَى شَفَتِي

والجناس مقبول في البيت الثاني ، وربما الذي جعله مقبولا أن كلمة « كفى » مَبَات له واستدعته ، فحُفَّ التكلف فيه ، ولم تَجَمَّه النفس ، ومثله قوله :

ماذا عليه لو أباحَ رِبْقَهُ لقلبٍ صَبُّ يَشْتَكِي حَرِيقَهُ
والجناس هنا بين « رِبْقَهُ » و « حَرِيقَهُ » مقبول لأنه ليس جناسا تاما يبدو فيه القصد والتكلف ، وكأنه جناس طبيعي استدعاه الكلام ، وقارن ذلك بقوله :

صَدَفَ الحبيبُ بوَصْلِهِ فجَاءَ رُقَادَى إِذْ صَدَفَ
ونثرتُ لَوَلُو أدمعَ أَضْحَى لها جَفَى صَدَفَ
فقد جانس بين قافيتي اليتيم باستخدامه كلمة « صدف » الأولى بمعنى أعرض ، والثانية بمعنى غشاء اللؤلؤة ، والتكلف شديد الوضوح . وكثيرون غيره من معاصريه كانوا يذهبون مذهبه في هذا الجناس التثني الذي كثيرا ما تقابل فيه كلمتان كلمة واحدة ، ويقرب منه في هذا التصنع بل ربما زاد عليه وأرى أبو الحسن أحمد^(١) بن المثل ، وقد روى له منه التتالي أبياتا كثيرة في الغزل وغير الغزل . وللميكالي وراء غزله أشعار في وصف الطليعة وفي الإخوان ، وله مداهبات ، ولا يحلها أيضا من تصنعه ، كقوله :
فَتَى سَخِطَ التَّصَبُّ فِي قَدْرِهِ كَمَا رَضِيَ الخَفْضُ فِي قَدْرِهِ
وقد تصنع لذكر النصب والخفض المعروفين في النحو ، وأراد أنه لا ينصب قدره ولا يدع فيها شيئا يطبخ ، كما رضى بالدون في قدره فلا كرم له ولا همة . ومن طريف ما روى له التتالي قوله :

كَمْ وَالِدٍ يَحْرُمُ أَوْلَادَهُ وَغَيْرُهُ يَحْفَظُ بِهِ الْإِبْعَدُ
كَالْعَيْنِ لَا تَبْعِيرُ مَا حَوْلَهَا وَلَحْظُهَا يُدْرِكُ مَا يَبْعُدُ
ولعل فيما قدمنا ما يدل على شاعرية أبي الفضل الميكالي ، ولو لم ينقلها بكلف الجناسات لبدأ خِصْبَهَا واضحا ، إذ كان غزير المعاني والصور . وليس من ريب في أن إعجاب الشعراء والأدباء من حوله بجناساته هو الذي جعله يبالغ في ذلك ويغلو فيه .

٢

شعراء اللهو والمجون

كان شعر اللهو والمجون متشرا في إيران طوال العصر ، إذ كان هناك من ينغمسون في الملاهي والتمجور إما لتحلل الأخلاق وإما هروبا من مآسى الحياة وما فيها من اضطراب

(١) انظر ترجمته في البيعة ١٤٨/٤ .

القيم ، وكان يتورط فيها كثيرون من رجال الدولة : سلاطينها ووزرائها . ومرت بنا آيات لعصد الدولة في غير هذا الموضع يقول فيها إن متاع الحياة إنما هو الشرب في المطر وغناء الجوارى في السحر . وكان وزراؤه على شاكلته يعمقون على الخمر ويتفننون بها في أشعارهم من مثل قول صاحب بن عباد في وصف كأس مملوءة بالخمر^(١) .

رَقَّ الزَّجَاجُ وَرَاقَتْ الخَمْرُ وَتَشَابَهَا ، فَتَشَاكَلْ الأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدَحٌ وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلَا خَمْرٌ
وكان كثيرا ما يحاكي الصنوبري في ثلجيته أو بعبارة أخرى في ذكره الخمر مع الثلج ونزوله في الشتاء القارس وفي ذلك يقول^(٢) :

أَقْبَلَ الثَّلْجُ فَانْبَسَطَ لِلسُّرُورِ وَلشَرِبَ الكَبِيرُ بَعْدَ الصَّغِيرِ
أَقْبَلَ الجَوُّ فِي غَلَالِهِ نُورٌ وَتَهَادَى بِسُلُولِهِ مَنْشُورٌ
فَكَأَنَّ السَّمَاءَ صَاهَرَتْ الأَرْضَ ضَ فَصَارَ الثَّارُ مِنْ كَافُورِ

وكأنما يتصور الدنيا تجلو عروسا . وتتكاثر هذه الثلجيات عند غيمه من شعراء العصر ، فقد أحمروا من وصف شرب الخمر واحتساها في أيام الثلج وزمهريره ، ومعروف أن المكوف على الخمر قديم في إيران منذ أعتق عصورها ، وظل ذلك طوال الحقب ، ويقول أبو عبد الله الروزباري^(٣) :

مَا لِأَبْنِ هَمْ سَوَى شَرِبِ ابْنِ العِنَبِ فَهَاتِلًا قَهْوَةً فَرَّاجَةً الكَرْبِ
أَذْهَقُ كُتُوسَكَ مِنْهَا وَاسْتَقِي طَرِيًّا عَلَى النُّيُومِ فَقَدْ جَاءَتْكَ بِالطَّرِبِ^(٤)
يَنَارُ غَيْثٍ حَكِي لَوْنَ العِيَانِ لَنَا فَاشْرَبْ عَلَى مَنْظَرٍ مُسْتَحْسَنِ عَجَبِ
جَادَ النِّعَامِ بِدَمْعِ كَاللَّجَيْنِ جَرَى فَجَدُّ لَنَا بِالنِّى فِي اللُّونِ كَالذَّهَبِ

فهى فرحتهم ومسرتهم في دنياهم ، وهم يعبون منها أوطالا تلويطال حين يكفهر الجو بالسحب ، لما تبعث في النفوس من طرب في أيام الشتاء المفضضة ، التى تتناثر فيها الأمطار ، وكأنها ينثار عرس مفرح ، تنار فضى مبهج ، ويقول أبو المظفر ناصرين منصور البستي المعروف بالزغال^(٥) :

وَإِذَا المَهْمُومُ تَطَاوَلَتْ فَاطِلْبُهَا عَيْشًا هَنِئًا بِانْتِرَاعِ مُدَامِ
صَهْبَاءَ تَسْطَعُ فِي الكُوسِ كَأَنَّمَا نَارُ تَجِيْشُ بِوَقْدَةِ وَضِرَامِ
مِنْ كَفِّ سَاقِي لَوْ سَقَاكَ بِكَفِّهِ سَمًا لَكَانَ شِفَاً لِكُلِّ سَقَامِ

(١) أمتع الملا .

(٥) النوبة ٢/٣٥٨ .

(١) النجوم الزاهرة ١٧١/٤ .

(٢) البهجة ٣/٢٦١ .

(٣) البهجة ٣/٤١٦ .

وكانها معصورةً من خَدِّهِ إِذْ ظَلَّتْ تَرْمَقُهُ يَلْحَظُ سَامُ
وأبو المظفر يريد أن يعيش حياته لتناول الكُوس التي تلهب فؤاده ، من كف ساق
يقدم له بها ما يشق سقامه ، ويتخيلها كأنما عصرت من خدود جميلة ، وهو يكب عليها
غير محتشم ولا مفكر في رشاد ، فحسبه الخمر وحسبه احتساؤها ، وليكن من الإثم ما
يكون ! ودانما تلقانا هذه الخمريات في تراجم الشعراء ، إذ كان يتورط فيها كثيرون من
مثل عمر المرندى القائل ^(١) :

لَا أَحِبُّ الْمُدَامَ إِلَّا الْعَيْقَا وَيَكُونُ الزَّاجُ مِنْ فَيْكٍ رِيْقَا
إِنَّ بَيْنَ الضُّلُوعِ مَنَى نَارًا تَلْطَفِي فَكَيْفَ لِي أَنْ أَطْبِقَا
بِمَيَانِي عَلَيْكَ يَا مَنْ سَقَانِي أَرْحِقًا سَقَيْنِي أَمْ حَرِيقَا

فبين ضلوعه نار متقدة لا يشفيها إلا الخمر وهو يعكف عليها ، ولا يدري أحرقى هي أم
رحيق لأنها تدفعه دائما إلى المزيد ، بحيث لا يستطيع أن ينصرف عنها ، إذ تأخذ عليه
طريقه . وإنما لتظل تملؤه حبًا لها وشوقا لارتشافها ، وهو يرتشف ولا يدري أيرتشف رحيقا
أو نارا أو قل أيرتشف شرابا هنيا أو سُمًّا زعافا ، وهو ممن في الشرب متعلق به ، لا
يستطيع فككا منه ولا خلاصا . وكانت للخمر مواسم عندهم هي الأعياد الفارسية
والمسيحية ، ففي عيد الشعانين وفي أعياد الثيروز والمهرجان والسَّدَق أو النار المجرسية
يشربون منها ويعبّون في احتفالات صاخبة . وكانوا يشربونها كثيرا وسط الرياض ، ولذلك
يكثر عندهم معها وصف الطبيعة والرييح البهيج . وتلقانا في أثناء ذلك أبيات طريفة من
مثل قول أبي منصور قَسَمَ بِنِ إِبْرَاهِيمَ ، وكان ينظم باللسانين العربي والفارسي ^(٢) :

وَحُبِّبَ فِي التَّلَجِ الرِّيْعُ وَحُسْنُهُ كَمَا اكْتَنُ فِي يَنْصَرِ فِرَاخِ الطَّوَاوِسِ
وكانوا يخرجون أحيانا للصيد والطرد . ولأحمد بن عضد الدولة طردية بديدة ^(٣) .

ونعجب لألفاظ الفحش والمقازر التي نجدها عند بعض الشعراء ، وهو جانب أشاعه في
العصر ابن الحاجج الشاعر البغدادي المتوفى سنة ٣٩١ وموطنه ابن سكرة . ويلاحظ ذلك
صاحب اللامية حين يترجم للمشطب الممداني ، فيقول : « له أشعار سخيفة نسج فيها
على منوال ابن الحاجج ^(٤) » ويذكر منها قصيدة مليئة بالفحش ، وحتى صاحب بن
عباد الوزير الوقور تجرئ أمثلة من هذا الفحش على لسانه في أشعاره ^(٥) . وهي وصمة لا

(١) البيهية ٤١١/٣ .

(٢) البيهية ٢٧٢/٣ - ٢٧٥ .

(٣) البيهية ٤٥٠/٢ .

(٤) البيهية ٢٢١/٢ .

شك فيها . وحسبنا الآن أن نعرض شاعرين من شعراء الحمر والمجون في العصر هما أبو بكر القهستاني وأبو الحسن الباخري .

أبو بكر^(١) القهستاني

هو علي بن الحسن القهستاني من قرية رُحج من قرى كابل ، بزغ نجمه في دولة السلطان محمود الغزنوي ، إذ سلكه بين ندماائه ووظفه في دواوينه ، واتصل بابنه محمد ، وأصبح رئيسا لديوانه في أثناء ولايته لأبيه على خوزستان ، وكان مدحا ، مدحه كثيرون منهم الباخري والفرغني السجستاني الشاعر الفارسي المشهور ، وكان يمدح بدوره الأمير محمد الغزنوي ، بمثل قوله :

محمد بن محمود أبو أحد حمد مولى أمير المؤمنين
جلال الدولة العلياء دنيا جمال الجلة العلباء دينا
ولي العهد عهد الملك طوي لنا إذ ظل ظل الله فينا

وهو يشير إلى تولية السلطان محمود لابنه محمد ولاية العهد من بعده دون أخيه مسعود . وتعد الفترة التي قضاه معها أزهى فترات حياته ، فقد كان يحس بإقبال الدنيا عليه ، وخاصة حين كان يتولى قيادة جيوشه . وقد تحول بمجلسه في ديوانه إلى ندوة أدبية كبيرة كان ما ينشئ من مجالس أميره بإنشاد بعض الأغاني الممتعة وامتحان الأدباء والندماء فيها من مثل قوله :

دقيقة الساق لا عروق لها تدوس رزق الوري بهامتها

وهو لفرأاد به مغرة الباقلائي يرف بها الماء ويشم برأسها الخبز والثريد وهو رزق الوري . وتكثر هذه الأغاني منذ فاتحة العصر ، وزاها ماثرة في كتاب البيتة في أشعار ابن العميد وغيره ، وكأنها دعايات كانت تطفو في مجالس الأدباء والوزراء . ويتولى محمد مقاليد الحكم بعد أبيه سنة ٤٢١ غير أن أخاه مسعودا يسلبه منه كما مر بنا في غير هذا الموضع . ونرى القهستاني يترك بلاط الغزنويين ودواوينهم إلى بغداد ، فيمدح الخليفة القادر بالله (٣٨٢ - ٤٢٤ هـ) قائلا :

ولم يرنى ذو ميتة غير خالق وغير أمير المؤمنين بيابه

ويمدح وزيره وكتابه أبا طالب بن أيوب ، كما يمدح المرتضى نقيب الشيعة ويبدو أنه

(١) انظر في القهستاني قصة البيتة ٧٣/٢ ودمية القصر دلائل الشعر (نشر الدكتور إبراهيم أمين) ص ١٠٠ .

٢١١/٢ ومعجم الأدباء ٢١/١٣ وحدايق السحر في

ظل يبعداد إلى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع ، حتى إذا استولى السلاجقة من السلطان مسعود الغزنوى على خراسان سنة ٤٣١ وضع يده في أيديهم إلى أن توفى . ولا تُعرف بالضبط سنة وفاته . وكان مثقفا ثقافة واسعة ، إذ يقول القدماء إنه عُنى بتحصيل علوم الأوائل حتى انتهت بعض معاصره بالمرق من الدين . ويقول ياقوت إنه كان كثير المزاج ، راغبا في اللهو والمزاح ، وله في ذلك خاطر وقاد وحكايات متداولة . وله خمريات بديمة . ، كان يغنى فيها المثنون بحضرة الأمير محمد الغزنوى من مثل قوله :

قُمْ يَا خَلِيلِي فَاسْتَقِي كُشْمَاعَ خَذَكْ مِنْ شَرَابِ
فَلَقَدْ يَمُرُّ الْعَيْشُ مِنْهُ قَرَضًا وَلَا مَرُّ السَّحَابِ
فَانْتَمِ بِعَيْشِكَ مَا اسْتَطَعْتَ وَلَا تُضِيعْ شَرَحَ الشَّابِ
فَلَكُمْ أَضَعَتْ مِنَ الشَّابِ بَ وَما اسْتَغْدَتْ سَوَى اكْتَابِ

وهو يدعو صديقه دعوة حارة إلى الشراب ، قبل أن يفتى عمره الذى يمر مُسرِعاً مر السحاب ، وقبل أن تذبل زهرة شبابه ، وكم أضع من أيام الشباب ، ولم يبد - كما يقول - سوى الاكتاب والغم والحسرات ، ويهتف به ثانية :

تَمَتَّعَ مِنَ الدُّنْيَا فَأَوَقَاتُهَا خَلَسَ وَعُمُرُ الْفَتَى - مَلَيْتَ - أَطْوَلُهُ نَفْسُ
وَسَارِعَ إِلَى سَهْمٍ مِنَ الْعَيْشِ فَاتَرُ فَا ارْتَدَّ سَهْمٌ قَطُّ يَوْمًا وَلَا احْتَبَسُ
وَلَا تَقَاصِرَ الْيَوْمَ هَمَّ غَدٍ وَدَعَّ حَدِيثَ غَدٍ فَالِاشْتِغَالُ بِهِ هَوَسُ
هَى الرُّوحُ كَالْمَصْبَاحِ وَالرَّاحُ زَيْتُهَا فَدُونِكَ عَنِّي إِنَّمَا الرَّأْيُ يُقْبَسُ

وهى دعوة ملهبة لانتهاز فرصة الشراب ، فليس فى الدنيا وراءه - فى رأيه - نعيم ولا مناع ، ودَعَكَ من الموم كما يقول ، ودع التفكير فى الغد . وهى نفس النغمة التى نجدناها فى رباعيات الخيام الفارسية ، فالحياة فانية ، وهى سريعة الفناء ، وعلى الإنسان أن يتدارك يومه ، بل اللحظة التى هو فيها ، ليشرب وينعم بالشراب ، إذ هو زيت الروح ، بدونها تنطفئ وتظلم ، وبه تضىء ضوء الفرح والبهجة والمرح . ودائما تلقانا هذه الحمريات البهجة عند القهستانى وأنداده من شعراء إيران ، وإنه ليعلم دائما أنه سبطل ما عاش يشرب الخمر صفوا . وله وراءها غزليات وأهاج فى الوزير الميمندى كاتب السلطان محمود الغزنوى وبعض معاصره ، وله بعض مقطوعات كان يتصنع فيها للجناس ما وسعه التصنع كمقطوعته :

تَمَتَّعَ بِيَوْمٍ مُسَعِدٍ الثَّجِيعِ مُسْعِفٍ وَدَعَّ قَوْلَ لَاحِ مُعْتَمِدِ الثَّضَعِ مُعْتَمِدِ
وهى مليئة من بدايتها إلى نهايتها بمثل هذه الجناسات ، وأيضاً كان يقبس كثيرا بعض

الآيات القرآنية كقوله في بعض مديحه :

سما بك من فوق السموات رَبَّةً أَبُ لَكَ يدعو الله في السر والجهر
كما قد دعا موسى لمرون رَبُّهُ أَنْ (اشدُّدْ به أَرْزِي وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي)
ولا ريب في أنه كان شاعرا بارعا ، كما كان كاتباً نابهاً دَوَّنَتْ رسائله كما دَوَّنَتْ
أشعاره ، ويقول ياقوت : « له أشعار فائقة ، ورسائل رائقة » .

أبو الحسن ^(١) البخارزي

له كتيبان أبو الحسن وأبو القاسم ، واسمه على بن الحسن بن علي بن أبي الطيب ، من
بخارز ، من نواحي تيسابور ، ونراه يُعْنَى في شبابه بالاختلاف إلى حلقات العلماء
بتيسابور . ويكِبُّ على الاشتغال بالفقه على مذهب الإمام الشافعي ، ويختص بملازمة
دروس الفقيه المشهور لعصره أبي محمد الجَوْنِيّ والد إمام الحرمين . وينجيه إلى فن
الكتابة . ويوظف في ديوان الرسائل لدى الفَرَنْجِيِّين ، وحين يرتفع نجم السلاجقة نراه
يرحل إليهم ويستغل في دواوينهم ، إذ يصبح كاتباً للسلطان « طغرل » وله فيه مدائح بديعة
من مثل قوله :

سِرْنَا ورمّة الزمانِ بحالها فالآن قد مُحَقَّتْ وصارتْ مِنْجَلًا
تَخَذُ الرُّكَّابُ فلا تَعُوجُ بنا على طَلَل الحبيب ولا تُحْيِي المترا^(٢)
ونَحْرُكُ الأعطافَ تَشْمِيحًا بنا تَبَيَّنَ الملكُ المظفر طَغْرُلًا

وقرّبه منه الوزير الكُندَرِي ، وكانا يتعارفان في شبابه ، ويبدو أنه هو الذي وصله
بطغرل ، وكان يلزمه في حله وترحاله ، فلما ورد بغداد صحبه معه ، وفيها مدح الخليفة
القائم بأمر الله سنة ٤٥٥ بقصيدته التي صدر بها ديوانه مفتتحاً لها بقوله :

عِشْنَا إلى أَنْ رأينا في الهوى عَجَبًا كُلُّ الشهور وفي الأمثال عِشْرُ رَجَبًا
أليس من عَجَبٍ أَنِّي ضَحَى ارتحلوا أو قدتُ من ماء دُمعي في الحشا لَهَبًا
وَأَنَّ أجفان عيني أمطرتْ وَرَقًا وَأَنَّ ساحة خَدَيَّ أُنْبِتْ ذَهَبًا
وإِنْ تَلَهَّبَ بَرَقٌ من جوانبهم توقدُ الشوق في جَنَّتِي والنبا
ولما سمع البغداديون شمره استهجنوه وقالوا فيه برودة العجم ، لما لاحظوا فيه من تكلف

٩٥/٣ وشلوات الذهب ٣٢٧/٣ وراون (ترجمة

الشارح) ص ٤٥١ .

(٢) تخذ : تسرع . تعج : تميل

(١) انظر في البخارزي كتاب الأنساب ٥٧ ب ومعجم

الأدباء ٣٢/١٣ وابن خلكان ٢٨٧/٣ والنجوم الزاهرة

٩٩/٥ والسبكي ٢٥٦/٥ وقلهبا ٨٣/١ ورمّة الجنان

وتصنع ، على نحو ما نرى في البيت الأول إذ حاول أن يستغل المثل : « عِشْ رَجَبًا تَرِ
عَجَبًا » فقال إن شهور الممدوح كلها عجيبة ، ومضى في تصنعه ، فإذ دموه بوقد جحيا
في حشاه وأجفان عينه تَطْرُورقا أو دموعا كالفضة الصافية ، بينما تثبت ساحة خده حين
الوداع ذهابا : وحين رأى البغداديين يستبدون أشعاره انتقل إلى الكَرْخ وسكنها وخالط
فضلاها وسوقها مدة ، واتبس من لغتهم وظرفهم ، ثم أنشأ قصيدة استهلها بقوله :
هَبْتُ عَلَى صَبَا تَكَادُ تَقُولُ إِنِّي إِلَيْكَ مِنَ الْحَبِيبِ رَسُولُ
سَكْرِي تَجَسَّسْتُ الرَّبِّي لِتُرَوِّنِي مِنْ عِلَّتِي وَهَبُوبِهَا تَعْلِيلُ
فاستحسنها البغداديون ، وقالوا تغير شعره ورق طبعه . وظل ملازما الكندري في مدينة
الرِّي عاصمة طغرل عاملا في دواوين الدولة ، ومقدما له مدائح كثيرة ، إلى أن قبض
السلطان أَلْب أرسلان على الكندري وأمر بقتله ، وله مراثية فيه غير أنه يشيد فيها بقاتله ، مما
جعل القدماء يأخذون عليه عدم الوفاء . ويبدو أنه أخذ يُعْنَى منذ ذلك بتأليف كتابه دمية
القصر الذي نرجع إليه كثيرا ، مذكِّلا به على يتيمة الدهر للشمالي ، كما مرَّ بنا في غير هذا
الموضع . واستقال من عمله في دواوين السلاجقة وأخذ يعيش عيشة لاهية ماجنة انتهت
بمقتله في إحدى ليالي أنه سنة ٤٦٨ للهجرة . وكان ينظم ، باللسانين العربي والفارسي ،
وله في الفارسية قصيدة طويلة جعل عنوانها « طرب نامه » أو رسالة الطرب ، وهي مؤلفة
من رباعيات فارسية تتوالى بحسب الترتيب المهجائي للحروف . وكان ما يزال يحاول النفوذ إلى
معان وصور غريبة نادرة ، من ذلك قوله بصف شدة البرد وزمهريره .

كَمْ مُؤْمِنٍ قَرَصَتْهُ أَظْفَارُ الثَّنَا فَنَدَا لِسُكَّانِ الْجَحِيمِ حَسُودَا
وَتَرَى طَيَّورَ الْمَاءِ فِي وَكُنَانِهَا تَخْتَارُ حَرَّ النَّارِ وَالسَّفُودَا
وَإِذَا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ فِي الْمَوَى عَادَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْعَقِيقِ عُقُودَا
بِأَصْحَابِ الْعُودِينَ لَا تُهْلِلُهَا حَرَّقَ لَنَا عُودَا وَحَرَّكَ عُودَا

والصور في الأبيات تقوم على المبالغة الشديدة ، فالؤمن يحسد سكان الجحيم والطيور
تؤثر لو تُشَوَّى على السفود . ولو رميت في الموى بفضل الكأس لتجمدت حبات الخمر
وأصبحت عقودا . وينادي على المفتي أن يحرك عود طرب للغناء ويحرق عود حطب
للصلاة . وله غزليات رقيقة من مثل قوله :

قَالَتْ وَقَدْ سَاءَلْتُ عَنْهَا كُلَّ مَنْ لَاقَيْتُهُ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِي
أَنَا فِي قَوَادِكِ فَارَمَ طَرَفُكَ نَحْوَهُ تَرَنَّى فَقُلْتُ لَهَا وَأَيْنَ قَوَادِي
فَقَوَادِهِ لَيْسَ عِنْدَهُ ، بَلْ هُوَ عِنْدَهَا ، إِذْ ضَاعَ مِنْهُ ، وَهِيَ الَّتِي تَعْرِفُ مَكَانَهُ ، وَمَاذَا

عليها لورده إليه ، وله من جملة آيات :

بصورة الوثن استعبدني وبها قسّيتني وقديما هيجت لي شجنا
لا غرو أن أحرقت نار الهوى كبدي فالتار حق على من يعبد الوثنا
والصورة طريقة غير أنه يداخلها شيء من التكلف ، إذ حاول أن يعطل لحرق نار
الهوى لكبه بأن صاحبه استعبدته بصورة الوثن ، وكأنه عبّد وثناً وحقت عليه النار ، ولم
يكن في حاجة إلى إيراد هذه العلة وتكلفها على هذا النحو ، فإن الهوى تحرق أكباد
الشراء من قديم ، ولعل الصورة التالية أكثر تكلفاً إذ يقول في غزله :

زكاة رموس الناس في عيد فطرمهم يقول رسول الله -صاع من البر
ورأسك أغلى قيمة تصدق بفيك علينا فهو صاع من الدر

فقد وضع صورة الزكاة في عيد الفطر وما يجب على كل مسلم من تصدقه بصاع من البر
أو القمح في هذا العيد ، ليصل إلى أن صاحبه ينبغي أن تصدق عن نفسها لا بصاع من
البر وإنما بصاع من الدر ، يريد ثغرها وما فيه من دُرّ الأستان . والصورة في غاية التكلف .
وتكثر مثل هذه الصور منذ مطالع هذا العصر ، وكأنما أخذ يعنى الشراء أن يأتوا بصور
طبيعية أو كأنما أحسوا أن أسلافهم استنفدوها ، فأخذوا يحاولون الإتيان بهذه الصور الغريبة
المبهدة في الغرابة من مثل قول الباخري أيضاً لبعض صواحيبه :

وأبكى لدر الثغر منك ولي أب فكيف يُديم الضحك وهو يتيم

فهو يبكى لأنها لا تنيله شيئاً ، ويعجب أن يبكى وله أب ، بينما ثغرها يضحك ، وهو
يتيم . والتورية واضحة ، فالمنى المتبادر أنه لا أب لهذا الثغر ، وهو يريد أنه منقطع النظر
حسناً . والتكلف في البيت أو قل في الصورة شديد الواضح .

٣

شراء الزهد والتصوف

لا شك في أن موجة المجون وما اتصل بها من هو وخمر كانت موجة محدودة ، حتى
لتكاد تكون قاصرة على البيئات المترفة ، أما بيئات الشعب العامة فلم تكن تعرف الترف ولا
ما يستجبه من الخمر والمجون ، إنما كانت تعرف قسوة الحياة وشظفها مستعينة عليها بتقوى
الله والاستئاع إلى الوعاظ في المساجد يتسايرون وغير نيسابور وما يدعون إليه من الزهد في
الحياة ومتاعها الزائل وانتظار ما عند الله من ثواب ونعيم في الدار الآخرة . وكان هؤلاء
الوعاظ كثيرين كثرة مفرطة ، وكانوا يسمون بمجالس وعظهم بمجالس التدكير ، يذكرون

الناس بالحشر وما فيه من أهوال وبعذاب النار ونعيم الجنان ، موددين عليهم من قصص الأنبياء والأمم السالفة ما يملأ قلوبهم إيماناً وتقوى وورعاً . وكانت العامة تُشغفُ بهم ، وتستدير حول مجالسهم منية إلى الله مغلبةً مشاعرهما وعواطفهما بما تسمعه من مواعظهم . وكان نفر من كبارهم مثل أبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بنيسابور المتوفى سنة ٤٤٩ ، وكان يعظ الناس بالعربية والفارسية لمدة ستين سنة متوالية^(١) ، وطبيعي أن يشعزع هذا الوعظ شعر الزهد على ألسنة الوعاظ والفقهاء والنسك ، فهو الشعر الذي نهى إليه أئمة الشعب ، ولذلك مضى ينظمه غير شاعر حتى يستولى على ألباب سامعيه ، وتلقانا في العصر مواعظ كثيرة ، من مثل موعظة أبي الفرج الساوي حين توفى السلطان فخر الدولة البويهي ، فقد نفذ من موته إلى صنع موعظة طريفة استلها بقوله^(٢) :

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بملء فيها حَلَارِ حَلَارِ مِنْ بَطْنِي وَفَكِّي
فَلَا يَفْرِكُكُمْ حُنُّ ابْتِغَايَ فَقُولِي مَضْحَكُ وَالْفَعْلُ مَبْكِي
يَفْخَرُ الدُّوْلَةُ اعْتَبَرُوا فَإِنِّي أَخْلَعْتُ الْمُلْكَ مِنْ بَيْتِي هَلْكَ
وَقَدْ كَانَ اسْتِطَالَ عَلَى الْبِرَايَا وَنَظَّمْ جَمْعَهُمْ فِي سِلْكَ مَلِكُ
فَلَوْ شَمْسُ الضُّحَى جَاءَتْهُ يَوْمًا لَقَالَ لَهَا عَتَا : أَفْ مِنْكَ
وَلَوْ زَهَرَ النُّجُومُ أَبَتْ رِضَاهُ تَابِي أَنْ يَقُولَ : رَضْتُ عَنْكَ
فَأَمْسَى بَعْدَ مَا قَرَعَ الْبِرَايَا أَسِيرَ الْقَبْرِ فِي ضَيْقِي وَضَنْكَ
وَعَنِي أَنَّهُ لَوْ عَادَ يَوْمًا إِلَى الدُّنْيَا تَسْرَبَلْ تَوْبَ نُسْكَ

ومضى يتخذ من موت هذا السلطان الباغى عبرة وعظة ، فلو أنه عاد إلى الدنيا لطأطأ من كبرياله وعتوه وظلمه بل لرفض الدنيا زاهدا فيها مؤثرا أن يعيش عيشة النساك . وفي كتاب البيضة شاعر يسمى أبا محمد إسماعيل بن محمد الدهان ، كان يشغل نفسه حقبة بمناجيع الأعيان والوجاه ، ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، ويورد الثعالبي أطرافا من شعره الزاهد^(٣) من مثل قوله :

عَبْدُ حَصَى رَبِّهِ وَلَكِنْ لَيْسَ سَوَى وَاحِدٍ يَقُولُ
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ جَمِيلًا فَبِمَا ظَنُّ جَمِيلُ

(١) انظر ترجمته في الأنياب ٣٨٦ وطبقات القسرين

للبيروني رحمه البيضة ١١٥/٢ وقصبي ٢٧١/٤ .

(٢) البيضة ٣٩٣/٣ .

(٣) البيضة ٤٣٢/٤ .

وهو يصور فناء الإنسان السريع وخوفه من ربه ورجاءه في لطفه ، ويذكر الثعالي أنه
 لما أزعج الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ ظل ينشد :
 أنبتك راجلا ووددت أنى ملكت سواد عيني أنتظيه
 ومالى لا أسير على المآلى إلى قبر رسول الله فيه

ومن شعراء كتاب البيعة الذين شاركوا في هذا الشعر الزاهد الذى يفوح بالتقوى
 أبو جعفر البحاث الزوزنى أحد القضاة بخراسان ، وله موعظة طويلة يتحدث فيها عن
 الشباب ورجله والمشي ونزوله ، ويقف يإزاء الزمان وما يدير على الناس من كوس
 شراب هنئ وشراب بغيض مرير ، ويفيض في الحديث عن الحياة والموت وكيف أتى على
 الملوك والحشم والجيوش وربات الخدور والحسان ، ويسخر من الأغنياء حين يموتون فإن
 ورثهم يستبشرون بموتهم ، وكل منهم يصبح في شغل بميراثه ، يقول (١) :

سباع حوالبه زرق العيون كلاب وأسد وذئب أزل (٢)
 فهذا يجاذب ما قد حواه وهذا يخالسه ما فضل
 إذا وضموه على نخبه أشاعوا البكا وأسروا الجد (٣)
 وإن دفنوه نسه معاً وكل بميراثه منتظر

ويكى أبو جعفر بدموع غزار على شابه وما صار إليه من وهن العظم واشتعال الشيب
 في رأسه ، ويتوب إلى ربه منياً مستغفراً . ويلقانا هذا الشعر الزاهد على ألسنة كثير من
 الشعراء في كتاب دمية القصر ، وخاصة منهم القصاص الوعاظ ، وكان طبيعياً أن يفسح
 هؤلاء الشعراء لمديح الرسول عليه السلام ، وعم هذا الشعر الزاهد بين شعراء المهديين
 والفقهاء . وللمعشرى ديوان لا يزال محفوظاً بدار الكتب المصرية وهو ملئ بالأدعية
 والابتهالات وطلب الشفاعة من الرسول عليه السلام . وللزغالى بدوره أشعار زهدية كثيرة
 وقد يترع بها مترع المتصوفة السنين على شاكلة قوله (٤) :

سقى في الحب عالىنى ووجدى في الهوى علقى
 وعذاب يرتضون به فى فى أحلى من الثم
 مالفى فى محبتكم عندنا والله من أكرم

(٣) المجلد : الفرج .

(١) البيعة ٤/ ٤٤٥ .

(٢) غلب أزل : ذئب يتولد بين الفص والحلب . (٤) انظر ترجمة الزغالى في السكى ٦/ ٢٢٢ .

وللفخر الرازى المار ذكره أنشعار زهدية طريفة . وكان علامة في علم الكلام والتفسير والحديث والشريعات وعلوم الأوائل . وله في جميعها مؤلفات كثيرة . وكان في الوعظ آية ، وكان يحضر مجالسه أرباب المذاهب والمقالات في هراة ، وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى وكان يلحقه الوجد في الوعظ ويكثر من البكاء . ويشتهر له قوله ^(١) :
 نهاية إقدام العقول عقالٌ . وأكثر سعي العالين ضلالٌ
 وأرواحنا في وحشة من جُسمنا . وحاصلُ دنائنا أذى ووبالٌ
 ولم نستغِد من بَحْثنا طولَ عُمرنا سوى أن جَمَعْنَا فيه قيلَ وقالوا
 وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
 وكم من جبالٍ قد علتْ شُرَفَاتُهَا رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالٌ
 لكل ما في الحياة حتى العلوم عبثٌ وضلالٌ ، وما الدنيا ؟ إننا لا نجنى منها سوى
 الأذى والوبال ، وسوى العدم والفناء الذى يحيط بالناس جميعاً وبالذول مها عظم
 سلطانها . فلأما إلى زوال . ومن كبار الشعراء الفقهاء الزهاد الإمام الرافعى القزوينى الفقيه
 الشافى المشهور المار ذكره المتوفى سنة ٦٢٣ وكان له مجلس في قزوین لسباع الفقه والتفسير
 والحديث النبوى . ومن قوله في الدعوة إلى الرضا بالحظ المقسوم وحمد الله في اليسر
 والعسر دائماً أبداً ^(٢) :

إِنْ كُنْتَ فِي الْيُسْرِ فَاحْمَدْ مَنْ حَبَاكَ بِهِ . فَلَيْسَ حَقًّا قَضَى لَكِنَّهُ الْجُودُ
 أَوْ كُنْتَ فِي الْعُسْرِ فَاحْمَدْهُ كَذَلِكَ إِذَا مَا فَوْقَ ذَلِكَ مَصْرُوفٌ وَمَرْدُودُ
 وَكَيْفَهَا دَارَتْ الْأَيَّامُ مُقْبِلَةً وَغَيْرَ مُقْبِلَةٍ فَالْحَمْدُ مُحَمَّدُ
 وَكَانَ يَقُولُ : « اعلم أن الناس في الرضا ثلاثة أقسام : قوم يحسبون البلاء ويكرهونه
 ولكن يصبرون على حكمه ويتركون تدبيرهم ونظرهم بحبابة تعالى . لأن تدبير العقل
 لا ينطبق على رسوم المحبة والهووى . وقوم يفسمون إلى سكون الظاهر سكون القلب بالاجتهاد
 والرياضة . وإن أتى البلاء على أنفسهم :

يَسْتَعِذُّونَ بِبَلَايَاهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَتَّسِرُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُبِلُوا
 تُسَرُّهُمْ الْبَلَاءُ كَمَا تُسَرُّهُمْ النِّعْمَةُ . وقوم يتركون الاختيار ، ويوافقون الأقدار ، فلا يبق
 لهم تَلَذُّذٌ وَلَا اسْتِعْذَابٌ وَلَا رَاحَةٌ وَلَا هِزَابٌ . وفي ذكر الرافعى لكلمة المحبة ما يدل على أنه
 كان يتربع بزهده نزعة صوفية . والتصوف كثير في العصر ولم يكن النظم فيه يقتصر على

(١) ابن خلكان ٢٥٠/٤ والسيكى ٩٦/٨ . وما بعدها ٢٨٦/٨

(٢) انظر في الأبيات وكلام الرافعى المثال السبكى

شعراء اللسان العربي ، بل كان يشمل المتصوفة الذين ينظمون باللسان الفارسي ، على شاكلة الشيخ سعدى الشيرازي ، وله أشعار صوفية عربية من مثل قوله ^(١) .

يَا نَدِيمِي قُمْ بِلَيْلٍ وَاسْتَقِى وَاسْتَقِى التَّدَامَى
خَلِّى أَسْهَرُ لَيْلٍ وَدَعِ النَّاسَ نِيَامَا
فِي أَوَانٍ كَشَفَ الزُّرْ دُ عَنْ الْوَجْهِ اللَّطَامَا
قُلْ لِمَنْ عَمِرَ أَهْلُ الدَّ حَبُّ بِالْحَبِّ وَلَا مَا
لَا عَرَفَتِ الْحَبُّ هِيَ تَ لَا ذُقْتَ الْقَرَامَا

وهي خمرة صوفية طريفة . ومربنا في الفصل الأول أن المتصوفة في إيران كانوا يمثلون اتجاهين : اتجاهاً سنياً واتجاهاً فلسفياً ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند شاعرين يمثلان التزمتين ، هما عبد الكريم القشيري ويحيى السهروردي .

عبد الكريم ^(٢) القشيري

ولد في قرية أسترآ بخراسان سنة ٣٧٦ وفيها بدأ تعليمه ، ثم انتقل إلى نيسابور حاضرة خراسان العلمية لعمره ، واتفق أن حضر مجلس الصوفي الكبير أبي علي الدقاق ، فأعجب به وسلكه بين مرديه ، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم والفقه ، فأقبل على دروس أبي بكر الطوسي الفقيه الشافعي ، ثم اختلف إلى دروس ابن فورق حتى أتقن علم الأصول ، كما اختلف إلى دروس أبي إسحق الإسفرائيني الفقيه الشافعي للتكلم الأصول ، ونظر في كتب القاضي الأشعري أبي بكر بن الطيب الباقلاني . وسرعان ما أصبح علامة في الفقه الشافعي وفي التفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف وعلم الكلام على مذهب الأشعري . وزوجه الدقاق ابنة حبا له ، حتى إذا توفي خلفه في مجالسه سالكا مسالك المجاهدة والتجريد ، وأخذ في التصنيف ، فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمائة وسماه « التيسير في علم التفسير » وهو - كما يقول ابن خلكان - من أجود التفاسير . وخرج إلى الحج في رقة ، فيها الشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين وأحمد

(١) الكشكول لبياء الدين العاملي (طبعة الحلبي) ٢٨٠/٨ واتباه الرواة للنفطى ١٩٣/٢ وخرات الذهب

للمعاد ٣١٩/٣ والباب ٢/٢١٤ والنجوم الزاهرة ٩١/٥ ٢٦٣/١

(٢) انظر في ترجمة القشيري كتاب الأنساب للسمطاني

٤٥٣ ب وتاريخ بغداد ٨٣/١١ وابن خلكان ٢٠٥/٣

ودية القصر والبكى ١٥٣/٥ وللتظلم لابن الجوزي ٢٥٩/٣

ابن الحسين البیهقي وجماعة من المشاهير ، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز . وعقد نفسه في نيسابور مجلس الإملاء في الحديث وبجالس الوعظ منذ سنة ٤٣٧ وقصده الطلاب من كل صوب . وذكره الخطيب البغدادي ، فقال : « قدم علينا بغداد في سنة ٤٤٨ وحدث ببغداد وكتبنا عنه ، وكان ثقة ، وكان يقصر ، وكان حسن الوعظ مليح الإشارة » ويقول البخارزي واصفاً وعظه : « لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب » .

وكان يشتق مذهب الشافعي في الفقه والفروع ومذهب الأشعري في علم الكلام والأصول . وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهو - كما مر بنا في الفصل الأول - من أوائل من رأوا الصدع الذي كان قد تفاقم بين المتصوفة وأهل السنة ، وذلك في رسالته المشهورة التي نقلنا عنها فقرة طويلة في الفصل المذكور ، والتي وجهها إلى الصوفية وأهل السنة ، وخلفه في هذا الصنيع الغزالي السني . ولا ريب في أن له فضلاً كبيراً في الجمع بين الطرفين المتعارضين وإزالة ما بينها من خلاف ، بحيث أصبح أداء الفروض الدينية جزء لا يتجزأ من التصوف ، كما أصبح التصوف نتيجة طبيعية للتسلك بتلك الفروض تمسكاً ينتهي إلى النكح والمحبة الإلهية ، دون مغالاة من شأنها أن تدفع بالتصوف إلى منازع فلسفية تتصل بالحلول وما إلى الحلول من اتحاد بالذات الإلهية . وتلك هي صورة التصوف السني الذي رفع عماده القشيري ، وكان شاعراً وله أشعار كثيرة ، تصور تصوفه وزهده من مثل قوله :

وَإِذَا سُمِّيتُ مِنَ الْحَبَّةِ جُرْعَةً أَلْقَيْتُ مِنْ فَرْطِ الْخَمَارِ خِمَارِي
كَمْ تَبْتُ قَصْداً ثُمَّ لَاحَ عِذَارُهُ فَخَلَعْتُ - مِنْ ذَلِكَ الْعِذَارِ - عِذَارِي
وَالْخَمَارُ بَضْمُ الْحَمَاءِ بَقِيَةِ السُّكْرِ وَالْخَمَارُ بِكُسْرِ الْحَمَاءِ الْحِجَابُ . يقول إنه يسكر بنشوة الحب الإلهي ، وإنه إذا أخذ يتناول جرعات تلك الخمر الإلهية رفعت الحجاب بينه وبين محبوبه . وإنه ليتوب ثم تراهي له شواهد . فيعود ثانية إلى سكره والنشوة بحبه ، أو كما يقول بملح عذابه كناية عن أنه يتهكم فيه ويقول :

وَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهَوَى ذَاقَ سَلْوَةً فَأَنْتَ مِنْ لَيْلَى لَهَا غَيْرُ دَاتِقٍ
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلْتَهُ مِنْ وَصَالِهَا أَمَانِي لَمْ تَصْدُقْ كَحَطْفَةِ بَارِقٍ
فهو لا يسلو هواه ولا يكف عنه ، لأنه هوى يتمنى شغاف قلبه فلا يستطيع انفكاكاً عنه ولا خلاصاً منه ، هوى لا يزال يتعثر في شبكه ، ومع ذلك لا ينال من وصال المحبوب شيئاً إلا أمانى تبدو له كما يبدو البرق الخاطف في السحاب . ويقول :

سَقَى اللهُ وقتاً كنت أخلو بوجهكم وَفَرَّ الهوى فى رَوْضَةِ الأُنس ضاحكُ
أَقَمْنَا زماناً والعيونُ قريرةً وَأَصْبَحْتُ يوماً والجفونُ سرافكُ

وهو يتحدث عن الوصال الذى يذكره المتصوفة هذا الحديث الرمزي . فقد كان
ينم به زماناً أو قل كان يحل إليه أنه ينم به ، وكانت تحتل نفسه بهجة وفرحة ، غير أنه
أصبح يوماً ، فإذا الوصال كان حلماً ، وإنه ليطلبه باكياً بكاء لا يقطع ، بكاء كله
جزع ، وكله لوعة وحسرة . وله وراء ذلك تبتلات طريفة من مثل قوله :

يا مَنْ نقاصرُ شكرى عن أباديهِ وَكَلَّ كُلُّ لِسَانٍ عن معاليهِ
وجوده لم يزل فرداً بلا شبه عَلاَ عن الوقت ماضيه وآتِيهِ
لا دَهرٌ يُخلِّقه لا قَهرٌ يُلحقُه لا كَشفٌ يُظهره لا سِتْرٌ يُخفيه
لا عَدَ يَجْمَعُه لا عِيْدٌ يَمْنعه لا حَدٌّ يَقطعه لا قَطْرٌ يَخويهِ
لا كَوْنٌ يَحْصُرُه لا عَوْنٌ يَنْصُرُه ولبس فى الوهم معلومٌ بِضامه
جلاله أزلُّ لا زوالَ له ومُلْكُه دائمٌ لا شَيْءَ يُفنيه

والتبُّل يقوم على التنزيه الشديد للذات العلية ، وأنه فرد لا شبيه له ، سماعن كل زمن
ماضٍ وحاضر ، فلا زمن يحصره ولا دهر ينال منه ، وهو القاهر فوق عباده ، موجود فى
كل زمان ومكان ، دون انكشاف ودون حجاب ، ودون حصر ، ودون حدٍ يطيف به أو
مكان يحويه ، ليس كمثله شىء ، أزلُّ لا زوالَ لجلاله ولا فناء للملكه . وهو تجريد قوى
للذات العلية يفصل به الفُشْرى وأصحاب التصوف السنى عن أصحاب التصوف الفلسفى
وما آمنوا به من الحلول والاتحاد بالذات الإلهية . ويقول :

جَنَّبَانِي الجونَ يا صاحِبِيهْ وَاتَّلُوا سُورَةَ الصَّلاحِ عَلَيَا
قد أَجَبْنَا لزاجرِ العقلِ طَوْعاً وَتركنا حديثَ سَلَمَى ومِثَا
وَمَنَعْنَا لموجبِ الشَّرعِ نَشْراً وَشرَعْنَا لموجبِ اللُّهُو طَبَا
ووجدنا إلى القناعة باباً فَوَضَعْنَا علِ المطامعِ كِبَا
كُنْتُ فى حَرٍّ وَحَشَى لاختياري فَعَرَّضْتُ بالرِّضا مِنْه قِيَا (١)
والذين ارتَوَوْا بكأسِ مَنْاهم فَعَلِ الصَّدَّ سوف يَلْقَوْنَ غَيَا

وهو يعلن فى الايات سلوكه فى الطريق ، وكأن الانحراف عن هذا السلوك مجوناً
أو يشبه الجون ، وقد لى عقله ودواعيه وترك اللهُو وبواعثه ، فهو يعيش للشريمة الحميدة
قانماً ، زاجراً مطامعه فى متاع الحياة . ويتصور كأنه كان يقضى أيامه قبل تصوفه فى فيافي

وحشة شديدة الحرارة ، حتى أفاء عليه التصوف بظلاله الوارفة ، ظلال نهل فيها كئوس المني . ومن ينهل منها لا يستطيع أن يفارق مواردها وينيامها الثرة أو يصد عنها ، لأنها ينابيع الصلاح والرشاد . وما زال التشيخي غارقاً في هذه الماشعر الصوفية ناعماً بها حتى توفي سنة ٤٦٥ هـ بنيسابور ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاني .

بجى^(١) السهروردى

ولد بجى بن حبش حوالى سنة ٥٤٥ هـ للهجرة بسهروردى الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال ، وبموطنه تلقى ثقافته الأولى ، وتركه مبكراً إلى مدينة مراغة ، ثم إلى أصفهان حيث درس الفقه وأكب في أثناء ذلك على كتب التصوف والفلسفة . وأعجب بالصوفية فصحيح وأخذ نفسه بطرقهم في الرياضة والمجاهدة . وأكثر من الرحيل للقاء العلماء والمتفلسفة والمتصوفة . ومدّ تجواله وترحاله إلى ديار الشام . وكان قد أصبح شيخاً من شيوخ التصوف الفلسفي ، فكان يجادل الفقهاء . واستوت له فلسفة تصوفية إشراقية تعتمد - كما يقول دارسوه - على غنوصية آسيوية ، وغير ما يصور ذلك من كتبه الكثيرة التي بلغت أكثر من أربعين كتاباً مصنفة : « حكمة الإشراق » وهو قسمان : قسم خص به المطلق الذي يضبط الفكر ضبطاً دقيقاً ، وقسم ثان قصره على الأنوار الإلهية ، عرض فيه لنور الأنوار وحقيقته وما يصدر عنه ، كما عرض فيه للمعاد والنبوات والمنامات . وهو ينقد المنطق والفلسفة نقداً واسعاً ، غير أنه يراها ضروريين للمتصوف ، حتى يتماثل في داخله العقل والقلب أو الذوق . ولجّ السهروردى في نظرية النور وما يقابلها من الظلمة ، وكأنه يتأثر النحل الفارسية من زرادشتية وغيرها في ثنائية النور والظلمة وتقسيم العالم إلى عالم ظلمة وعالم نور . وفي رأيه أن الموجودات انبثقت عن نور الأنوار بطريق الفيض إلى ما لا نهاية ، ومن ثم كان يقول بوحدة الوجود وبال حلول الإلهي في الكون والكائنات . وذهب إلى النبوات لا تنقطع وأن الحكميم الصوفى للتوغل في تصوفه أفضل وأسمى من الأنبياء . وكان طبعاً أن يكتفّر الفقهاء في « حلب » وأن يحمّلوا الملك الظاهر ابن صلاح الدين على قتله سنة ٥٨٧ هـ للهجرة . ولما تحقق القتل كان يشتد :

والنجوم قزعة ١١٤/٦ دائرة للمارف الإسلامية وتعلق
الذكر محمد مصطفي على رجسته فيها وفاتوى ابن
تيمية ٩٣/٥ والفلسفة الصوفية في الإسلام لمد القادر
عمود (طبع دار الفكر العربي) ص ٤٤٠ وما بعدها .

(١) انظر في ترجمة بجى السهروردى منجم الامعاء
لبنوت ٣١٤/١٩ وابن خلكان ٢٦٨/٦ ومهرن الأنبياء في
طبقات الأطباء ص ٦٤١ وقد خلط ابن أبيصية بينه وبين
الشهاب عمر السهروردى المتصوف البخندى السني ،
وتظهر مرآة الجنان ٣٤٤/٣ ولسان الميزان ١٥٦/٣

أرى قَدَمِي أَرَأَقَ دَمِي وَهَانَ دَمِي فَمَا نَمِي
ولكنه ندم ولات حين مندم . ومن كلامه : حرام على الأجساد المظلمة أن تلج
ملكوت السموات ، فوحّد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكران
عربان ، ولو كان في الوجود شمسان لانطمست الأركان ، فأبى النظام أن يكون غير
ماكان :

ونخبتُ حتى قلتُ لستُ بظاهرٍ وظهرتُ من سَعَى على الأكرانِ
والبيت يشير بقوة إلى فكرتي الحلول والاتحاد في الذات العلية وكان يكثر من ترداد
قوله :

لو علمتا أننا ما نلتقي ما قضيتا من سَلَمِي وَطَرَا
والشهرودي يشير في وضوح إلى فكرة الشهود المروقة عند التصوفة وله شعر صوفي
كثير من مثل قوله :

أقول لجارتي والدمعُ جارِي ولي مَرْمُ الرحيل عن الديارِ
دَرَيْتُ أَنْ أَسِيرَ وَلَا تَتَوَحَّى فَإِنَّ الشَّهْبَ أَشْرَفَهَا السَّوَارِ
وإني في الظلام رأيت ضوءاً كأن الليل بُدِّلَ بالنهارِ
ويبدو لي من الزُّوراء بَرَقَ يَذْكُرُنِي بِهَا قَرَبَ المَرَارِ
إذا أبصرتُ ذاك النورَ أَقْنَى لَهَا أَدْرَى يَمْنَى مِنْ بَسَارِ
وهو يذكر في الأبيات فكرة نور الأنوار إزاء عالم الظلمة الكثيف ، كما يذكر فكرة
القناء الصوفية وكيف أنه يغنى عن كل ما حوله فلا يعود يشعر إلا بنور الأنوار أو يلهه وما
أنعم عليه - كما يتصور - بنعمة الوصال ، بل بنعمة الاتحاد والاندماج بنوره . وله حائبة
رائعة يستلها بقوله :

أبدأُ نَحْنُ إِلَيْكُمْ الأرواحُ ووصالكم رَيْنَحَانُهَا وَالرَّاحُ
وَقُلوْبُ أَهْلِ وِدَادِكُمْ تَشْتَاقُكُمْ وَإِلَى لَدِيدِ لِقَائِكُمْ تَرْتَاحُ
وَارْحَمْنَا لِّلْعَاشِقِينَ تَكَلَّفُوا سَتَرَ الحُبِّ وَالْهَوَى فَضَاحُ
وهو يخاطب الذات الإلهية قائلاً إن كل الأرواح معلقة بها هائمة تمنى وصلها لتجد فيه
ريحانها وراحها ونشوتها التي لا تماثلها نشوة ، وإن القلوب تمنى إليها دائماً مشتاقة مولعة
شاعرة بنعم ما بعده نعم : ويأسى لعاشق الذات الإلهية ، فهم لا يستطيعون إخفاء عشقهم
ولا كتمانها ، لدموعهم التي تقطر دائماً على خدودهم سحاً وتسكاباً ، ويتضرّع إلى المحبوب
قائلاً :

عودوا بنور الوصل من غسق الجفأ فالهجر ليل والوصال صباح
صافاهم فصفوا له فقلوبهم في نورها المشكاة والمصباح
وتتموا فالوقت طاب بقرىكم راق الشراب ودارت الأقداح

وهو يعود إلى فكرة النور ويصلها بفكرة الظلمة فالوصل نور مشرق والمجر ظلام
داجر ، وهو يشير بالمشكاة والمصباح إلى الآية الكريمة : (الله نور السموات والأرض مثل
نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة
مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي
الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) وكأن في قلوب
الصوفية نور الله ، وهو يريد بذلك الاتحاد بالذات الإلهية النورانية ، وهو اتحاد يعني السكر
والنعم بنشوة هذه الخمر الربانية التي راقق وأخذت كثوسها وأقداحها تدور على المهيمن كما
يقول ، أقداح من شراب رحي مصفى ، ويقول مصورا لهم في حال سكرهم :
لا يطربون بغير ذكر حبيب أبداً فكل زمانهم أفرح
حضرأ وقد غابت شواهد ذاتهم فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أنفاهم عنهم وقد كشفت لهم حجب البقا فتلاشت الأرواح

فهم سكارى فرحون بذكر حبيب ، وهم حاضرون غائبون ، وكأنما يفنون عن ذواتهم
وأجسادهم بل هم قانون فعلا ، لا يدركون جساً منهم ولا ما يشبه الحس ، إذ أصبحوا في
الحضرة الإلهية ، وأصبحوا لا يحسون ولا يبصرون سواها ، وإنهم ليصبحون ويعلو
صياحهم فرحاً وإبتهاجاً بما صاروا إليه من الفناء والاتحاد بالله ، وبما كشف عنهم من
الحجب والأستار . وواضح ما يداخل هذه الآيات من أفكار صوفية فلسفية كان
ينكرها - كما قلنا - أصحاب التصوف السني ، فهم لا يعرفون فناء ولا اتحاداً ،
ولا يدعون غيبة وهم حضور ، كما لا يدعون رؤية الله بأبصارهم فإنه كما قال القشيري آنفاً
لا يحده زمان ولا مكان ولا تبصره العيون ولا ينكشف لأحد ، ليس كمثل شيء ،
ولا كم له ولا كيف (لا تتركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وليجى
السهروردي قصيدة في النفس حاكي فيها قصيدة ابن سينا العينية المشهورة التي صور فيها
النفس سابقة للجسد ، وهي تحمل فيه ودائماً متشوقة إلى عالمها المثالي الأول ، وفي ذلك
يقول السهروردي :

خَلَقَتْ هِيَ كُلَّهَا بِجَرَّعِ الْحَيِّ وَصَبَتْ لَمَعْنَاهَا الْقَدِيمَ تَشْوَقاً

فهى تشاق عالمها القديم ، ولذلك تفارق الجسد الذى حلت فيه راضية مرضية ، ولعل فى هذه القصيدة ما يؤكد صلة السهروردي بابن مينا وفلسفته الإشراقية فضلا عن صلته بالفلسفة عامة .

٤

شعراء الحكمة والفلسفة

الحكمة قديمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهل ، ونجدها متراسة فى مطوِّلة زهير وكانت تجرى على ألسنة كثيرين يقطرون خبراتهم شعرا ، ليستغ بها أبناء قبائلهم ومن حولهم ، وتظل ماثلة فى الشعر العربى طوال العصر الإسلامى ، وتكثر فى العصر العباسى وتتنوع دروافدها الأجنبية بتعدد الثقافات التى عرفها العرب ولقى نُقلت عنها لهم الحكم والأمثال . ومربنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن أبان بن عبد الحميد نقل من الفارسية إلى العربية كتاب كليله ودمته وما فيه من أمثال وحكم فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، وأن أبا العتاهية نظم مزدوجة طويلة سماها ذات الأمثال ، وكلها حكم ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى أبو الفرج فى ترجمته بكتابه الأغاني منها قطعة طويلة ، وأكبر الظن أن كثيرا من هذه الحكم نقلها أبو العتاهية عن الفارسية ولعله أخذها من بعض كتب الأدب الفارسية التى ترجمها ابن المقفع وغيره ، وفى شعر أبى نواس بعض أمثال فارسية نصَّ عليها القدماء . وقد مضى شعراء العصرين العباسى الأول والعباسى الثانى يسلكون فى أشعارهم بعض الأمثال الفارسية والعربية ، حتى إذا كنا فى هذا العصر يابسان وجدنا الشعراء الإيرانيين ينقلون كثيرا من الأمثال المعروفة فى لغتهم إلى أشعارهم العربية ، بل لقد نصَّدى نفر منهم إلى صنع قصائد حكيمية ، هى ترجمات لبعض الأمثال الفارسية على نحو ما نجد عند أبى عبد الله الضمير الأبيوردي ، فقد ذكر له الثعالبي قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس ، أنشد منها بعض الأبيات من مثل قوله ^(١) :

صيامى إذا أفطرت بالسحت خلة	وعلى إذا لم يجد ضرب من الجهل ^(٢)
وتركنى مالا جمعت من الربا	رياء وبعض الجود أنزى من البخل
كسارقة الرمان من كرم جارها	تعود به المرضى وتطمع فى الفضل
الأرب ذنب مر بالقوم خاويا	فقالوا علاه البهر من كثرة الأكل ^(٣)

وكان الشعراء يصفون قصائدهم وأشعارهم كثيرا من الحكم ، ومن خير من يمثل ذلك الطُّفَرَانِي في لامبته المسماة لامبة العجم ، وهي تنص بالحكم والأمثال منذ مطالعها ، ونكتي برسد طائفة من طرائفها على هذا النمط :

حبُّ السلامة يَتَّبِعُ هَمَّ صاحبه عن المعالي ويُغَيِّرُ المرءَ بالكسل
أَعْلَلُ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَزْقِيهَا ما أَصْبَقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأمل
تَقْلُبُنِي أَناسُ كان شَوْطُهُمْ وراءَ خَطْوِي إِذْ أَمتَشَى على مَهَلٍ
وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي فلا عَجَبُ لى أسوءُ بالخطا ط الشمس عن رُحْلٍ
أَعْدَى عدوكُ أَذْنَى مَنْ وَثَقَتْ بِهِ فحاذِرِ النَّاسِ واصحبهم على دَخَلٍ (١)
وَإِنَّمَا رَجُلُ الدنيا ووَاحِدُهَا مَنْ لا يَعُولُ في الدنيا على رَجُلٍ
وأكبر الظن أن الطفراني لم ينقل شيئا من هذه الحكم عن الفرس إنما هي ثمرة تجاربه وخبرته بالدنيا وبالناس من حوله .

ونمت الفلسفة في هذا العصر نمواً واسعاً ، ونمت معها علوم الأوائل على نحو ما مررنا في الفصل الثاني ، وظهر كثير من المتفلسفة أمثال ابن سينا وله أشعار تُشجِّع بشيء من تفلسفه قليلاً أو كثيراً وأثرت له رباعيات فارسية وأشعار عربية في الزهد والحكمة وبعض مسائل طبية وفلسفية : وأهم تلك الأشعار وأشهرها قصيدته العينية عن النفس ، وهي تصوِّرها في عالمها العلوي الذي كانت تَحْيَى فيه قبل اتصالها بالبدن حين يَتَخَلَّقُ في الرحم ، وفي عالمها السفلي حين تمَّ هذا الاتصال بالجسد . وهو اتصال تُقَدِّم عليه وهي كارهة ، وتظل في أثنائه منشوقة إلى عالمها العلوي ، مع ما حدث لها فيه من آفة ، ولذلك تنفصل عنه كارهة كما اتصلت به كارهة ، يقول (٢) :

هبطتُ إليك من المحلِّ الأرفعِ وَرَقَاءَ ذاتُ نَعْمَزُزٍ وَنَمْعِ
عجوبةٌ عن كلِّ مَقْلَةٍ ناظِرِ وهي التي سَفَرَتْ فلم تَتَبَرَّعِ
وصلتُ على كَرَرٍ إليك وربما كرهتُ فراقَكَ وهي ذاتُ تَفَجُّعِ
أنفتُ وما ألفتُ فلما واصلتُ ألفتُ بمجاورةِ الخرابِ البَلَقِ
وأظنُّها نسبتُ عهداً بالحيى ومنازلاً بفراقها لم تَفْنِ
حتى إذا اتصلتُ بها هبوطها من ميم مَرَكْرَها بذاتِ الأَجْرِ
علقتُ بها ثاءَ الثَّقيلِ فأصبحتُ بين العالمِ والطلولِ الخُضْعِ

(١) نشر دار مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٤٦ وقارن باين

خلكان ١٦٠/٢

(٢) دخل : خبت وسكر

(٢) انظر العينية في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

والورقاء : الحماة كفى بها عن النفس . وهو يصورها تهبط من عالمها الرفيع أو الأرفع ، عالم العقول المجردة أو العقول الكلية ، الذى يجد فيه سعادتها وكمالها ، ولذلك هى تهبط منه شاعرة بغير قليل من العزة والشرف ، محجوبة عن كل حس ، ومع ذلك تسفر للعقول فتدركها دون أن تبصرها ، وتنزل فى البدن كارهة لأنه ليس من جنسها ، غير أنها تأنس له مع الأيام ، حتى إذا فارقت توجعت له وتجمعت عليه ، مع أنه بدونها خراب بلقع مقفر . وكأنما نسبت عهودها بعالمها العلوى لأنسها لهذا الجسد الفانى الذى هبطت إليه من مركزها الرفيع وعشقتها ، عشقت مشخصاته الأرضية التى عبر عنها بالثقل وبذات الأجرع ، وغدت نغم إلى دياره ومعالمه وطلوله حينئذ الشراء لمشوقاتهم ، وبمضى قائلا :

تبكى وقد نسبت عهوداً بالجمى بمدام تهمى ولا تُفعل
وتظل ساجدة على الدمن التى درست بشكرار الرياح الأربع
حتى إذا قرب السير إلى الجمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت مفارقة لكل خلف عنها حليف التراب غير مشيع
هجمت وقد كشف الغطاء وأبصرت ما ليس يُدرك بالعيون الهُجِع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق والعلم يرفع كل من لم يرتفع

فهى نغم إلى عهودها القديمة وتبكى بدموع غزار الدمن أو أجزاء البدن التى توشك على الفساد والانحلال ، حتى إذا أوشكت أن تفارق جسدها إلى عالمها الأعلى ، بل حتى فارقت فعلا ، فارقت البدن الفانى ، عادت إليها سكبتها واستراحت ، إذ كشف لها الغطاء وأبصرت ما لا تدركه العيون التى ألم بها النوم ، وغدت تغرد فرحة ، فقد عادت إلى عالمها وعاد لها علمها بالأشياء ، العلم الكلى الشامل الذى كانت قد نسبت به سكنها البدن ، ويستمر سائلا متحيرا :

فلأى شيء أقيمت من شاهق سام إلى قعر الحضيض الأوسع
إن كان أمبطها إلاله لحكمة طويت عن الفطن اللبيب اللوذعى
إذ عاقها الشرك الكيف فصدها قصص عن الأوجر الفسيح الأربع
فهبطها - لاشك - ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين فقرقها لم يرتفع
وهى التى قطع الزمان طريقها حتى لقد غرت بغير المطلع
فكانها برق تألق بالجمى ثم انطوى فكانه لم يلعب

وهو يعجب من هبوط النفس من العالم العلوى إلى العالم السفلى ثم رجوعها إلى العالم الأول ويسأل فيم هبطت وفيم عادت ؟ ويجب إن كان في ذلك حكمة لله جل شأنه تنبى عن العقول الذكية فأكبر الظن أنها هبطت لتسمع ما لم تكن تسمع ولتعلم ما لم تكن تعلم من العالم الأرضى وتقف على أسرارها ، بجانب ما كانت تعلم من العالم العلوى ، وكأنها لم تبلغ من ذلك كل ما أرادت ، فعادت وقد انقطع بها الزمان الدنيوى . عادت وقد نمت رحلتها في الدنيا من شروق وما تلا الشروق من العلم بخفايا الأرض وعالمها وما انتهى إليه هذا الشروق من غروب ، وكأنها في هذه الرحلة القصيرة برق لمع ، ثم طوته السحب طيا . وواضح ما تحمل القصيدة من فكرة وجود النفس قبل البدن وغلوطها ، متصلة في الحالين بالعقل الكلى إلا ما كان من رحلتها القصيرة في الأرض وغلغل البدن ، ومع ذلك فهي في هذه الرحلة تحاول أن تعلم من أسرار عالمنا ما تضيفه إلى علمها بأسرار العالم العلوى . وسرعان ما تنفك عن البدن ويصيه الانحلال والفساد . ولعل من الحثيث أن نقف عند شاعرين من شعراء الحكم والأمثال ، كان أحدهما يعنى بنقلها عن الفارسية وكان الثانى يعنى بوضعها ونظمها في أشعاره ، وهما أبو الفضل السكرى المروزى وأبو الفتح البستي .

أبو الفضل^(١) السكرى المروزى

هو أحمد بن محمد بن زيد ، يقول فيه الثعالبي : « شاعر مَرَوَ وظريفها ، وله شعر مليح بخفيف الروح كثير المَلَح والأمثال ، ويورد بعض أشعاره ، ثم يذكر أن له مزدوجة ترجم فيها أمثالا للفرس ، وكأنه اختار أن ينظمها من وزن الرجز الذى خص به الباسيون منذ عصرهم الأول الشعر التعليمى لوفرة ألحانه وأنغامه ، حتى يتلافوا ما في هذا الشعر من نقص الأحاسيس والمشاعر ، وظل ذلك ثابتا طوال العصور التالية إلا ما ندر . فقد تعارف الشعراء على اختيار الرجز لنظم المعلومات والمعارف والحكم والخبرات ، واتبعوا ما أحدث الباسيون الأول في الرجز من تغيير القافية فيه من بيت إلى بيت ، مع الاحتفاظ بها في كل شطرين متقابلين بحيث يصبح الشطر في واقع الأمر وحدة الأرجوزة المزدوجة ، فهي تتألف من شطرين شطرين ، وكل شطرين يتحدان في قافيتها . ويقف الثعالبي عند مزدوجة لأبي الفضل ترجم فيها طائفة كبيرة من أمثال الفرس ، ويورد منها ثلاثة عشر بيتا من مثل قوله :

(١) انظر في ترجمة أبي الفضل السكرى البجعة ٨٧/٤

من مثل الفرس ذوى الأبصار الثوبُ رهنٌ في يدي القصار^(١)
نال الحمارُ بالسقوط في الوحل ما كان يهوى ونجا من العمل
والعثر لا يسمُن إلا باللف البحر غمر الماء في البیان^(٢)
من لم يكن في بيته طعام والكلب يروى منه بالسان^(٣)
كان يقال : من أتى غوانا قاله في محفل مقام
من غير أن يدعى إليه هانا^(٤)

ويعلق الثعالبي بعد ذكره لبعض أمثال المزدوجة بقوله : « وكان أبو الفضل السكري
مولما ينقل الأمثال الفارسية إلى العربية » وينشد طائفة كبيرة من الأبيات اختارها من نقله
وترجماته الأخرى غير مزدوجة ، من ذلك قوله :
إذا لم تُطيق أن ترتقى ذروة الجبل لمجز قيف في سفحه هكذا المثل
وقوله :

في كل مستحسن عيب بلاريب ما يسلّم الذهب الإبريز من عيب
وقوله :

ادعى الثعلب شيئا وطلب قيل هل من شاهد؟ قال : الذئب
وقوله :

تبختر إخفاء لما فيه من عرج وليس له فيما تكلفه فرج

وأبو الفضل إنما هو رمز لتعلق الناس بالأمثال ، وهو تعلق مرجعه إلى أنها تعمل
خبرات الإنسان في عصور طويلة ، ولذلك كان لكل أمة أمثالها التي تحفظها الأجيال من
جيل إلى جيل ، وهى لذلك تدخل في باب الآداب الشعبية ، لأنها تتداول على السنة
الشعب ، وكأنها عملات لغوية عامة ، كلٌ يستخدمها ، وكل يلفظ بها عند مناسبتها .
وكأنما يُلقي بها الكلمة التي لا ترد ، ولذلك سميت حكمة ، فهى حكمة الشعوب وخبرتها
مركزة في قطرات أو كلمات .

(٣) لواء الفرس : الكثير العسير .

(٤) لقروان : مائدة الطعام .

(١) القصار : صانع الثياب

(٢) لطف : رفق .

أبو الفتح ^(١) البُنى

هو علي بن محمد ، ويُعَدُّ من كبار الأدباء الإيرانيين في زمنه ، وكان يُحَسِّن الكتابة والشعر باللسانين العربي والفارسي وعرف له أمير بُسْت مكانته ، فاتخذهُ كاتباً له ، حتى إذا فتح بلدته الأمير سُبُكْتِكِين قُرْبَه منه وقَلَّده الكتابة في ديوانه ، وحلَّ عنده محل الثقة الأمين في مهمات شتونه . ونم مجواره ، واشتهر بما صوَّر في كتبه وأشعاره من فوحه ، وظلت له نفس المكانة عند ابنه الأمير محمود الغزنوي ، إلى أن غضب عليه ونفاه إلى بخارى وسرعان ما وافقه المنية بها سنة ٤٠٠ للهجرة وقيل بل سنة ٤٠١ وكان شافعي المذهب معتزلي العقيدة .

ويعرَّف به الثعالبي فيقول : «صاحب الطريقة الأنيفة في التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه التشابه ويأتى فيه بكل طريقة لطيفة» . ولم يكن يستخدم الجناس استخداما واسعا في أشعاره فحسب ، بل كان أيضا يستخدمه في كتاباته ونثره . ويورد الثعالبي طائفة من جناساته وسجعاته في رسائله ، يدل بها على قدرته في التجنيس البديع الصبيغة ، فن ذلك قوله :

«مَنْ أَصْلَحَ فاسده ، أرغم حاسده . مَنْ أَطَاعَ غضبه ، أضاع أدبه . عادات السادات ، سادات العادات . مِنْ سَعَادَةِ جَدُّكَ ، وقوفُكَ عند حَدِّكَ . الحية ، نهك الحية . الدعة ، رائدة الضعة . أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ كَانَ لِلْإِخْوَانِ مُدِيلاً ، وعلى السلطان مُدِيلاً . إذا بَقِيَ مَا قَاتَكَ ، فلانأس على ما قَاتَكَ . المنيّة ، تضحك من الأُمنيّة . حَدُّ العَفَاف ، الرضا بالكُفَاف . ظِلُّ الجَفَاء ، يَكْشِفُ شمس الصفاء» .

ويأخذ الثعالبي في عرض أغراض شعره بادئا بملحه في الغزل والحمز ، وهي ملح لا تقوم على الاهتمام بالمعاني بقدر ما تقوم على الاهتمام بالجناس ، وكأنما أصبح الجناس وما قد يجلبه من تشبيه أو استمارة أو طباق غايته أو هدفه من صنع أشعاره ، على نحو ما نجد في قوله متغزلا :

وغزالي كلُّ مَنْ شَبَّهُ بهلاؤُ أوبسدرُ ظَلَمَ
قال إذ قَبْلْتُ بالوهم قَمَّةً قد تعدّيتُ وأسرفتُ قَمَّةً

خلكان ٣٧٦/٣ وشرارات الذهب ١٥٩/٣ وصبر النعمي
٧٥/٣ والأنايب ٨٠ ب وروضات الجنات ٤٨٧
والنجم الزاهرة ١٠٦/٤ وديوانه مطبوع

(١) انظر في ترجمة أبي الفتح البنى وشعره البيهقي
٣٠٦/٤ وما بعدها والنظم ٧٢/٧ وتاريخ الحكماء
للبيهقي : ٤٩ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٩٣/٥ وابن

ومَه في آخر البيت الثاني اسم فعل أمر بمعنى اكفُفْ . وواضح أنه جلبها ليصنع منها جناسا تاما بينها ومعها الفاء وبين كلمة « مه » في آخر الشطر الأول . وعلى نفس الشاكلة قوله في الخمر لصاحبه :

أوانٍ أنت في هذا الأوانِ عن الرَّاحِ المروِّقِ في الأوانِ
فقد جناس بين « وان » في أول البيت بعد إدخاله عليها همزة الاستفهام ليتم له جناس كامل بينها وبين كلمة « الأوان » في آخر الشطر الأول بمعنى الزمان ، ثم بينها وبين كلمة « الأوانِ » في آخر البيت جمعا لإباء . وبالمثل معاتبته وأهاجيه ومدانحه كقوله في مديح كاتب وكتابه :

لم تَر عني مثله كاتباً لكل شيءٍ و شاء و شاء
يُتَدع في الكُتُب وفي غيرها بدالعا إن شاء إنشاء
والجناس الناقص واضح بين « شيء » و « شاء » و « و شاء » أو منق ، وأنى يجناس تام في البيت الثاني بين كلمتي « إن شاء » و « إنشاء » . ويعترف بأنه سمع وهو صهي شاعرا من موطنه « بُسْت » يستخدم الجناس فاستحسنه وأخذ نفسه بسلوك طريقته ^(١) . وكان هو نفسه عاملا مها في إشاعة هذه الطريقة بين الشعراء الإيرانيين في زمنه ^(٢) وبعد زمنه . وعنى غير أديب بإفراد كتب خاصة بها مثل المطوحي الذي مرّ بنا ذكره . وكان أبو الفتح يتصنع كثيرا في شعره لاستخدام المصطلحات الفقهية والطبية والفلسفية والفلكية والنحوية كقوله مستظها مصطلح اللازم والمتعدى :

قال لي ما رأي طالبا مالا ورفدا
إن مالي يا حيي لازم لا يستعدى

وكان هذا التصنع وما بمثله قد أخذ يشيع في زمنه ، وما لا شك فيه أن البُستي كان من عوامل إذاعته وانتشاره في الأوساط الأدبية الإيرانية . على أنه ينبغي أن لا نحمل على تصنع أبي الفتح هذه المصطلحات وأنواع الجناس بصورة التامة والناقصة ، فقد كان يتخذ في أحيان كثيرة إلى استخدام رشيقي للمصطلحات والجناسات كقوله يهجو بعض خصومه ، وكان يدهي سمة الفكر والمنطق العميق :

يُنِي على الفكرة أعماله وذاك في التحقيق أعمر له
فقيض الرحمن أقمي له تريو في الخلوة أفعاله

وواضح جناحه التام بين أعماله « و « أعمى له » في البيت الأول ، وبين « أفعى له »
وه أفعاله ، في البيت الثاني . ولم نتحدث حتى الآن عن الحكم والأمثال في أشعاره ، وكان
يعرف كيف يصوغها صياغة محكمة ، ومن أروع ماله في هذا الجانب نونيته ، وهي
طويلة ، وفيها يقول :

زيادةُ المروء في دنياه نُقصانُ وريحُهُ غيرَ مَحْضِرٍ الخَيْرُ خُسْرَانُ
يا عامراً لخراب الدَّارِ مجتهداً بالله هل لخراب العَمْرِ عُمْرَانُ
ويا حريصاً على الأموال يَجْمَعُهَا أَقْصِرْ فَإِنَّ سرورَ المالِ أَحْزَانُ
أَحْسَنْ إِلَى الناسِ تستعبدُ قلوبَهُمْ فطالما استعبدَ الإنسانَ إِحْسَانُ
وَكُنْ عَلَى الدهرِ مِعْوَاناً لذي أَمَلٍ يرجو نَدَاكَ فَإِنَّ الحُرَّ مِعْوَانُ
واشدَّدْ يَدَيْكَ بِحِلٍّ أَقْوَمَ مَعْتَصِماً فَإِنَّ الرُّكْنَ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ
مَنْ جَادَ بِالمالِ مَالَ النَّاسِ قَاطِئَةً إِلَيْهِ وَالمالُ لِلإنسانِ قَتَانُ
وَالنَّاسُ أَعْوَانُ مَنْ وَاتَّهَ دَوْكُ وَهَمَّ عَلَيْهِ إِذَا عَادَتْهُ أَعْوَانُ

واشتهرت له هذه القصيدة الحكيمة منذ حياته وانتشرت في العالم العربي ، وأخذت
الاجيال العربية تردها في كل بلد ، حتى لتصبح قصيدة شعبية ، ينشدها الناس في كل
مكان ، وإلى زمن قريب كان المنشدون ينشدونها في مقاهي القاهرة . ولعل في هذا
ما يدل - من بعض الوجوه - على ما يمتاز به الشعر العربي الفصيح من شعبيته ، فقصيدة
تنظم في أقصى بيئاته في الشرق في « بُسْت » بأفغانستان الحالية تُنشدُ في قلب العالم العربي
بالقاهرة ، ويحفظها الشباب ويستظهرونها في المغرب كما يستظهرونها في المشرق . ويعقد
الثمالي فصلاً طويلاً لحكم الأبيات ، ووراءها حكم وأمثال كثيرة في ديوانه ، ومن طرائفه
الحكيمة قوله :

لَا تَحْقِرِ المَرْءَ إِنْ رَأَيْتَ بِهِ دِمَامَةً أَوْ رِثَاةَ الحَلَلِ
فَالْحَلُّ شَيْءٌ عَلَى ضَوْؤِهِ يَشْتَارُ مِنْهُ الفَيَّ جَنَّا المَسَلِ^(١)

وقوله :

لَا يَسْتَحْفِظُ الفَيَّ بَعْدَهُ أَبَدًا وَإِنْ كَانَ العَدُوَّ ضَيْلًا
إِنَّ القَدَى يُؤْذِي العَيُونَ قَلْبُهُ وَلرَّعَا جَرَحَ البَوْحُضِ الفَيْلًا

وقوله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرْءَ طَوَلَ حَيَاتِهِ مَعْنَى بِأَمْرِ لَا يَزَالُ يُعَالِجُهُ

يدور كدود القزّ يَنْجُ دائما وبهلك غمّا وَسَطَ ما هو ناسِجَةٌ
وعلى هذا النحو لا تزال نقرأ عند أبي الفتح البُستى حكما طريفة . مما يدل على بعد نظره
واتساع خبرته . وكان يجلبها من الجناس عادة ، حتى تخفّ على ألسنة الناس وتدور في
أفواههم ، ومن الحق أنه كان شاعرا خصب القريحة ، مما جعل شعره يجفل بجمان وصيغ
بدیعة .



شعراء شعبيون

لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشعر العربي انفصل في عصر من عصوره عن شعوبه ، إذ
كان دائما ترجمانا عن عواطفها ومشاعرها ، حتى في المديح ، فإن الشعراء كانوا يمدحون
الحكام بالمثل العليا التي تتطلبها شعوبهم فيهم ، ولم يتركوا لهم عملا قدّموه لشعوبهم دون أن
يحمدهم لهم حمدا كثيرا ، سواء أكان في الداخل مما يتصل بنشر الأمن والعدل أم في
الخارج مما يتصل بانتصاراتهم على أعداء شعوبهم وخصومها . وكثرة الشعراء كانت من
عامة الشعوب العربية ، فكان طبيعيا أن تتضح في أشعارهم روحها ومشاعرها وكل
ما يجري في خواطرها . وقد تحدثنا عن أغراض تتضح صلتها القوية بالشعوب مثل الزهد
الذي يلتحم مباشرة بالجماعة الكبيرة فيها . وكانت تعيش كادحة كدحا مريرا ، لكى تثرى
وتتم بثمار عملها جماعة محدودة من الحكام وكبار التجار والإقطاعيين . ولم يكن أمام هذه
الجماعة الكبيرة إلا الانصراف عن متاع الحياة وطبائنها ، وهى لذلك تُقبل على شعر الزهد ،
ويصبح هذا الشعر غذاءها . ولا شك في أن شعبية هذا الشعر هى التى جعلته يَسْهُلُ في لفته
سهولة شديدة ، لأن العامة لا تحب الإغراب اللغوى ، بل تحب الأساليب السهلة المبسطة
الحقيقية التى تفهمها بمجرد أن تقرأ أسماعها . وبذلك كان الزهد طوال هذا العصر شعبيا في
لفته الشعرية ، وكان مما أكد شعبيته ذبوجه على ألسنة الزهاد والعباد والمتصوفة والقصاص
والفقهاء وأصحاب الحديث ، فكان الناس يسمعون في كل مكان بالإضافة إلى ما كانوا
يسمعون منه على ألسنة الشعراء ، وحتى شعر المجنون مع أنه خاص بطبقة معينة من الشعب
ونقصد أصحاب الرأى واللهو نجد فيه أو بعبارة أدق في بعض منه آثار شعبية ، غير أنها
هذه المرة لا تأتي من سهولة الألفاظ وإنما تأتي مما كان يقرن به أحيانا من دعاية ، مما يجعله
أقرب إلى التوارد المضحكة ، وتأتى أيضا من استظهار طائفة من أصحابه للكلمات الفارسية
التي تشيع على ألسنة العامة ، ويلقانا منهم كثيرون في البيتة وتسمتها وفي دمية القصر

والحرقة . وطبيعي أن يشيع شعر شيعي كثير على ألسنة الشيعة ، يرويه خالف لهم عن سالف وخاصة ما يتصل بمراثي الحسين ، وبالمثل كان يشيع لأهل السنة كثير من الأشعار المصورة لمقيدتهم السنة ، مما ترخر به كتب الطبقات .

ونجد في البيعة شاعرا من الأهوازي يسمى محمد^(١) بن عبد العزيز السومى ، يقول فيه الثمالي إنه كان أحد شياطين الإنس ، ويذكر أن له قصيدة كانت تترسى على أربعمائة بيت في وصف حاله وتقله في الأدبان والمذاهب والصناعات ، أولا :

الحمد لله ليس لي بخت ولا ثياب يضمها تحث^(٢)
سببان بيني لمن تأمله والمهمة الصصححان والمرت^(٣)
أمنت في بيني للصوم فإ للصرف فيه فوق ولا تحت

فهو عديم الحظ وليس له ثياب يضمها حيوان ، فكل ما يملكه فوق جلده ، وبيته فارغ من الأثاث ومن أى شيء يكون في البيوت عادة ، وكأنه فلاة مقفرة ، وطبيعي أن يأمن اللصوص ، فليس في بيته ما يسرقونه ، وكأنه سجن ولا حرس له . ويحصى فيما رواه الثمالي من القصيدة ، فيذكر أنه اضطر إلى أن يتخذ مظهر متسولة الصوفية فقصر ثيابه ، وأحرق شاربه مستعميا ، وحمل سجادة ، وذهب إلى الحج دون أن ينويه ، ودخل المسجد الحرام وصلّى في مقام الخليل ليوم الناس أنه صوفى حقا . حتى يعطفوا عليه ويمسحوا إليه . والقصيدة كانت كلها هزلا على هذا الخط .

واشتهرت منذ أوائل العصر جماعة من الشعراء الرحالة المتسولين المعروفين باسم شعراء الكذبة أو التسول الأدبي ، ويعرفون أيضا باسم الساسانيين نسبة إلى أمير فارسي يسمى ساسان حرمة أبوه من الملك ، فهم على وجهه محترقا للكذبة ، وتُشبه هذه الجماعة طائفة الأدبائية التي كانت معروفة بمصر في أواخر القرن الماضي والتي كانت تظهر في موالد الأولياء متخذة من أشعارها وسيلة لاكتساب المال وإبترازه . ونجد مقدمات هذه الجماعة الساسانية في أوائل كتاب البخلاء للجاحظ إذ يعرض طائفة من حيلها وخدعها ، ويطولها البيق فيصور في كتابه المحاسن والمساوي ألوانا من هذه الخدع والحيل . وحرى بنا أن نقف عند أهم شعرائها في العصر : أبى دلف الخزرجي .

(١) البيعة ٤٢٦/٣ . (٢) للهمة : القلابة . الصصححان : المستوى

الواسع . المرت : القفر لانهات فيه .

(١) البيعة ٤٢٦/٣ .

(٢) تحت : الصوان .

أبو دلف الخزرجي : **يسمر بن مَهْلَهْل** ^(١)

شيخ هذه الجماعة بإيران في العصر ومقمتها وزعيمها من شعراء القرن الرابع الهجري وقد عاش في بلاط نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١ هـ) ورافق بناء على أمره مجموعة صينية في عودتها إلى الصين ، وفي عودته طاف بالهند . وعاش حتى اتصل بالصاحب بن عباد الوزير البويهي كما يوضح ذلك الثعالي ونراه يتقدم له ترجمة طويلة في البنية ، ويعرف به على هذا النحو : « شاعر كثير المُلح والطرف ، مشحود المديّة في الكُتُبَة ، خُتق السّمين في الإطراب والاعتراب وركوب الأسفار الصّباب ، وضرب صَفحة الهَراب بالجِراب ، في خِدمة العلوم والآداب . . . وكان يتاب حضرة الصّاحب [بن عباد] ويكثر المقام عنده ، ويكثر سواد غاشيته وحاشيته ، ويرتقى بخلعته ، ويرتقى في جملة ، ويترود كتبه (رسائله إلى الولاة برعايته) في أسفاره فتجربى بجرى السّفاتج (الحوالات المالية) في قضاء أوطاره . وكان الصّاحب يحفظ مناكاة (كلام ومصطلحات) بني ساسان حفظا عجيبا ، ويُعجبه من أي دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجادبان أهدابها ، ومن قول أبي دلف :

وَيْحَكَ هَذَا الزَّمَانُ زَوْرُ فَلَإِ بِسِرْنِكَ السَّرُورُ ^(٢)
زَوْنٌ وَمَخْرِقٌ وَكُلٌّ وَأَطِيقٌ وَاسْرِقُ وَأَطِيقُ لِمَنْ يَزُورُ
لَا تَلْتَزِمُ حَالَةً وَلَكِنْ دُرٌّ بِاللِّبَالِ كَمَا تَنْدُورُ

والآيات تصور حياة أبي دلف وأنها تقوم على المخرقة والتحامق والمخطف والسلب والنهب . وله قصيدة طويلة سماها القصيدة الساسانية ، أو هكذا أسماها الثعالي ، وهي في ذكر المكنين وبيان فنون حرفهم وأنواع رسومهم ، استهلها بالتحريف ببني ساسان الأدبانية وكيف يعيشون على الغربة والترحال والبسر تارة والعسر وربط البطون على الجوع والمسغبة تارات . . ثم يقول :

فَنَحْنُ النَّاسُ كُلُّ النَّاسِ فِي الْبَرِّ وَفِي الْبَحْرِ
أَخَذْنَا جِزْيَةَ الْخَلْقِ مِنَ الصَّيْنِ إِلَى مِصْرٍ

ترجمة وتطبيق الدكتور محمد منير مرسى (نشر عالم الكتب بالقاهرة).

(٢) الغرور : كل ما غر الإنسان من شيطان أو نحوه أو مال أو مقام .

(١) انظر أبا دلف في البنية ٣/٣٥٢ وتاريخ الأدب الجليلي لكراتشكوفسكي ١٨٨/١ وفي دائرة المعارف الإسلامية وانظر الرسالة الثانية لأبي دلف نشر منورسكي بالقاهرة وكذلك النشرة الثانية للرسالة لمشرقيين روسيين

إِلَى طَنْجَةِ بِلْ فِي كَلْ أَرْضِ خَيْلُنَا نَسْرِي
إِذَا ضَاقَ بِنَا قُطْرُ نَزَلْنَا عَنْهُ إِلَى قُطْرِ
لَنَا الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ
فَنَضْطَافُ عَلَى الثَّلْجِ وَنَنْشُو بِلْدَ الشَّمْرِ

وطريف أن يَعدُّ أبودلف ما يأخذه الساسانيون من الناس بتفاسحهم وخذلهم وحيلهم الأدبية جزية . ويصوِّر الأرض كلها من مشارقها إلى مغاربها داراً لهم من الصين على المحيط الهادئ إلى طنجة والمحيط الأطلسي ، وكأن الدنيا كلها ملكهم ولا حواجز تحجزهم من نهر أو جبل أو بلد مسلم أو بلد كافر ، فالدنيا كلها مسرح لأقدامهم ، يصطافون في أقاليمها الباردة ، ويشتون في أقاليمها الحارة الدافئة . ثم يأخذ أبودلف في وصف حيلهم وصفاً مسهباً ، وكيف أنهم كانوا يمتثلون على النساء بما يكتبون لهم من تعاويذ وأحراز ، وكيف أن القاص منهم كان يتفق مع صاحب له ، ليفد على مجلس قصصه ، فيأمر السامعين بإعطائه ما يمجودون به ، ثم إذا تفرَّقوا عنه تقاسماً ما أعطوه . ويصورهم يتباكون في البرد القارس خداعاً للناس ، حتى تلبس لهم قلوبهم ويعطوهم دراهمهم وكيف أنهم حين يلبثون بموانئ الباعة يخطفون جوزة من هنا وتمرّة أوتينة من هناك ، وكيف يدهنون وجوههم بماء البيض الأصفر ، لتبدو شديدة الصفرة ، وكيف ينعصبون جباههم ليوهوا الناس أنهم مَرْضَى ، وكيف يقرّون أو يمحرون أنفسهم بالأمواس ، وكيف يطلّون أجسادهم بالزيت حتى تسود جلودهم ، وكيف يدارون ألسنتهم موهين الناس أن الروم قطعوها في جهادهم ، محاولين أن يبتزوا منهم الثياب والسلاح للغزو ، وكيف يحملون البخور وأدواته للسؤال به ، وكيف يمتثلون على مرضى الأسنان بوضع دود الجبّين بين أسنانهم ثم استخراجه ، وكيف يروون للناس كذباً الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار ، وكيف يلبسون ثياب المتصوفة والرهبان احتيالا ، وكيف يوهون الناس أنهم يجمعون الأموال لأقربائهم الأسرى في ديار الروم فداء لهم ، وكيف يخفون إحدى أيديهم إياها بأنها مقطوعة ، وكيف يميّلون للناس أنهم كانوا يهوداً أو نصارى وأسلموا ، وكيف يوهونهم بأنهم هُمِّي لا يصرون ، وكيف يدورون بين العِشائين منادين : رحم الله من عَشِيَ الغريب الجائع ، آخذين من كل دار كِسرة ، وكيف يمتثلون على الناس بمعرفة طوالمهم ونجومهم ، وكيف يمتثلون على الشيعة خاضعين لحاهم بالحِثَاء مع حملهم الألواح والسَّج من الطين زاعمين أنها من قبر الحسين ، مع نواحيهم عليه ورواية الأشعار في فضائله ومقتله ، وكيف أنهم يمتثلون للذرف الدموع بغمس قطنة في الزيت وإمرارها على عيونهم ، وكيف يستأجرون

الصبيان والنساء ويكثفون أو يشحنون عليهم ، وكيف يطرحون على أبواب الحوانيت
السُّبُحات وأقراص الحلوى ، وكيف يترقون المجانين وأصحاب العاهات ، وكيف يموهون
بأنهم صائمون وأنهم سيججون عن الناس ، وكيف يعبرون للناس رؤاهم ، وكيف
يستأجرون الصبيان ، وكيف يحملون السُّلال فيها الحيات وقد قلعوا أنيابها ، وكيف يدعون
الطب ومداداة المرضى ، وكيف يشحنون أو يكثفون على الدُّببة والسباع والقرود ، وكيف
يرعدون رعدات شديدة تهتر لها مفاصلهم وتصلطك أنسنتهم ، وكيف أنهم يشدون أيديهم
بمجموعة الأصابع حتى يُظن أنها مقطوعة ، وكيف يأوون إلى المساجد عليهم المرقعات حتى
يُظن أنهم من الصوفية . وما يزال أبودلف في وصف خُدع القوم وحيلهم ، حتى يُوَي على
نهاية القصيدة قائلا :

ألا إني حَلَبْتُ الدَّهْرَ	رَ من شَطَرٍ إلى شَطَرٍ
وَجَبْتُ الأَرْضَ حَتَّى صِرَ	تُ في التَّطَوُّفِ كَالخَضِرِ
فإِنْ أَظْفَرُ بِأَمَالِي	تَشَفَّتْ عِلَّةُ الصَّدْرِ
وَأَلَمْتُ بِأَوْطَانِي	قَوَى النَّهْيُ وَالْأَمْرُ
وَقَدْ تَخَفَّقَ فَوْقَ عِ	زَّةِ أَلْوَبَةِ النُّصْرِ
وإِذَا تَكُنْ الأُخْرَى	وَعِزُّ جَائِرِ الكُسْرِ
فَلَا أَتُبُّ مَعَ السَّفَرِ	غَدَاً فِي أَوْبَةِ السَّفَرِ
وَلَا عُدْتُ مَعِي عُدَّتْ	بَلَا عِزٍّ وَلَا وَفَرٍ

ويقول إن له أسوة في غربته بالسادة الطُّهْر آل البيت كما تشهد قبورهم في الكوفة
وكريلاء وبغداد وسامرا وطوس وباخرا بالقرب من الكوفة . وفي ذلك مايدل على أنه
كان شيعيا ، وأكبر الظن أنه كان إماميا مثل الصاحب بن عباد . وقد صُوِّر في قصيدته كل
أفانين المكدين وحيلهم مستخدما مصطلحاتهم في هذه الحيل ، مما جعله يُعتَقى بشرح
القصيدة بيتا بيتا ، وعنه نقل الثعالبي الشرح ، ولخصناه في إيجاز . والمصطلحات كلها
شيعية ، ومن المؤكد أن جماعة الكدية كلها كانت جماعة شيعية ، ولاشك في أن أبودلف
بعد خير شاعر في عصره عبر عن نفسه وعن هذه الجماعة .

ولأى دلف رحلات إلى الصين وأواسط آسيا دون اقتباسات كثيرة منها ياقوت في
« معجم البلدان » والقزويني في كتابه « آثار البلاد » ووجدت له رسالتان حلت أولاهما
المستشرق الألماني رور صوير موضحا أنه يتحدث فيها عن رحلته إلى الصين : ونشر الرسالة
الثانية المستشرق مينورسكى (طبع وزارة التربية والتعليم بالقاهرة) كما نشرها مستشرقان

روميان وعنى الدكتور محمد منير مرسى بترجمة ما بذلاه فى نشرتها والتعليق على الرسالة
 تعليقات علمية نافعة ، تذلل صعوباتها وتجعلها ميسرة للقارىء . وفيها يصف أبو دلف
 رحلته فى أواسط آسيا من جنوبى أذربيجان إلى مدينة باكو فتغليس فأردبيل فهمدان فالرى
 فطبرستان فقومس فطوس فنيسابور ، فهراة ، فأصفهان ، فدن خوزستان . ويعنى بوصف
 المدن والقلاع التى شاهدها وصفا دقيقا ذا كراً معادنها وثمارها وأسواقها وأسوارها وسكانها
 من الشيعة وغيرهم وآثارها القديمة .

الفضل الخامس

النثر وكتابه

١

تنوع الكتابة

رأينا في المعصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني كيف تطور النثر العربي حتى وصَّى الثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية ، وكيف تحول العرب من دور النقل والترجمة إلى دور التصنيف والمشاركة العقلية الحقة المثمرة في ميادين العلم والفلسفة . ونحن لا نصل إلى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، حتى يصبح في أغلب الأمر عصر تصنيف ومشاركة حبة في الفلسفة وعلوم الأوائل ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع . وقد أصبح للعرب نوعان متكاملان من النثر : نوع علمي ونوع فلسفي ، ونقلوا خلال ذلك إلى وضع كتب في مصطلحات العلوم ، كما أسلفنا ، وكل ذلك أحدثوه بدون ضجة . ولم يتركوا علما دون أن يعمقوا فيه ودون أن يكتبوا فيه المجلدات الضخام ، ويحدثنا المطهر المقدس المتوفى سنة ٣٥٥ عن سلوك معاصريه العلمي وما يذللون من عناء ليس وراءه عناء قاتلا^(١) :

• «بأبى العلم أن يضع كفه أو ينفذ جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لتجرد له بكليته ، ومتوفر عليه بأنبيته ، ممان له بالقرعة الثاقبة ، والرؤية الصافية ، مقترن به التأييد والتسديد ، قد شمر ذيله ، وأسهر ليله ، حليف النصب ، ضجيج التعب ، يأخذ مأخذه متدرجا ، ويتلقاه مطرطا ، لا يظلم العلم بالتصف والاحتحام ، ولا يخط فيه خبط المشواء في الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والتزوع عن نزاع الطبع ، وبجانب الإلف ، ونبد الماحكة واللجاجة ، وإجالة الرأي عند غموض الحق ، والتأني بلطف اللأني ، وتوقية النظر حقه من التميز بين المشتبه والمتضح ، والتفريق بين التزوي والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ العقول ، فعند ذلك إصابة المراد ، ومصادفة المرادة .

وهذا العناء البالغ والجهد الشاق تمثل المثقفون العلوم والفلسفة تمثلا رائعا ، وكان

(١) كتاب بدء الحلق والتاريخ للمقدس ٤/١ .

لذلك آثار كثيرة في تنوع فنون الكتابة والنثر، مما نراه واضحا لا في الكتابات العلمية والفلسفية فحسب، بل أيضا في الكتابات الأدبية، ولناخذ جانباً واحداً هو جانب القصص، فقد أخذ يوجد بجانب القصص الأدبي الخالص قصص صوفى وقصص فلسفى. ومعروف أن المترجمين عُنوا في القرنين الثانى والثالث للهجرة بنقل كثير من القصص الفارسية والهندى وكان بين ما نقلوه كتاب ألف ليلة وليلة. وعكاكة له ألف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتاباً قصصياً مماثلاً يشتمل على ألف حكاية من حكايات العرب وغيرهم. ومنذ هذا الحين يكثر تأليف كتب السر حتى ليذكر حمزة الأصفهاني المتوفى قبل سنة ٣٦٠ أن كتب السر المتداولة في أيامه بلغت سبعين كتاباً^(١)، وكانت العامة تلهف منها على ما يدور حول الحب وحكاياته أو حول الجن. وطبيعى أن تكثر كتب النوادر، وخاصة ما اتصل منها بالحمقى أو بالمغفلين، وتكثر أيضاً كتب الندماء وأخبارهم.

ومرّبنا في كتاب العصر العباسى الثانى أنه أخذت تتكوّن منذ القرن الثالث حول المتصوفة حكايات كثيرة، تصوّر جهادهم في نسكهم جهاداً مضيئاً، وحكايات أخرى بجانبها تصوّر كراماتهم. وكانت العامة تقبل على هذه الحكايات الصوفية، مما جعلها تطبع بطوابع الأدب الشعبي وألفاظه ولغته^(٢). وكلما مضينا في عصر الدول والإمارات كثرت الحكايات والأقاصيص عن المتصوفة، لما كانت تلقى من رواج عند العامة، ويكنى أن نعرض أطرافاً من هذه الحكايات عند القشبرى مؤسس التصوف السنى، فقد فتح في رسالته باباً لكرامات الأولياء، وقصّ حكايات منها تنسب إلى الصحابة والتابعين وكبار المتصوفة في إيران والعراق ومصر والخضر عليه السلام. ومما حكاها أنه كان في قصر سهل التسترى المتصوف بيت يسمى بيت السباع، يقول: فسألنا عن ذلك؟ فقالوا كانت السباع تجمّء إلى سهل، وكان يُدخلهم هذا البيت ويُغفّهم ويُطعمهم اللحم ثم يخلّهم! وحكى عن يسمي ابن سالم أنه لما مات إسحق بن أحمد دخل سهل التسترى صومعته، فوجد فيها سقّاً (وعاء) فيه قارورتان، في واحدة منها شيء أحمر، وفي الأخرى شيء أبيض، ووجد شوشقة (قطعة) ذهب وشوشقة فضة، فرمى بالشوشقتين في دجلة، وخط ما في القارورتين بالتراب! وكان على إسحق دين، قال ابن سالم: قلت لسهل إيش كان في القارورتين، قال: إحداهما لو طرّح منها وزن درهم على مثاقيل من النحاس

(١) تاريخ سى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة (٢) انظر العصر العباسى الثانى (طبع دار المعارف) ص الأصفهاني (نشر دار مكتبة الحياة بيروت) ص ٤٠. ٢٥٩.

صارت ذهباً ، والأخرى لو طُرح منها مثقال على مثاقيل من الرصاص صارت فضة . فقال
 سامع لابن سالم : وإيش عليه لو قضى منه دين إسحق ؟ فقال له : إى دوست
 (يا صاحبي) خاف على إيمانه . وحكى عن الخواص أنه قال : كنت فى البادية مرة ،
 فسرت فى وسط النهار ، فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء ، فترلت ، فإذا أنا بسبع
 عظيم أقبل ، فاستسلمت ، فلما قرب منى ، إذا هو يبرج ، فحَمَمَ وبرك بين يدى ،
 ووضع يده فى حجرى ، فنظرت ، فإذا يده متفخة ، فيها قيح ودم ، فأخذت خشبة
 وشققت الموضع الذى فيه القيح ، وشدت على يده خرقه ، ومضى ، وإذا أنا به بعد
 ساعة ومعه شبلان يصبصان لى وحملأ إلى رغيفا . وحكى عن ذى النون فى رواية أبى
 بكر بن عبد الرحمن قال : كنا مع ذى النون المصرى فى البادية ، فزلنا تحت شجرة أم
 غيلان ، فقلنا : ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رُطب ، فبسم ذو النون ، وقال :
 أنشئون الرطب ، وحرك الشجرة ، وقال : أقسمت عليك بالذى ابتداءك وخلقك شجرة
 إلا نزلت علينا رُطباً جَيِّئاً ، ثم حركها ، فنزل رطباً جَيِّئاً ، فأكلنا وشبعنا . ثم نمنا ،
 وانتبهنا وحركنا الشجرة ، فنزل علينا شوكة ! . وما حكاها عن الخضر فى رواية أبى عمران
 الواسطى قال : انكسرت السفينة ، وبقيت أنا وامرأتى على لوح وقد ولدت فى تلك الحالة
 صبية ، فصاحت لى ، وقالت لى : يقتلى العليل ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ، ورفضت
 رأسى ، فإذا رجل فى الهواء ومعه كوز ، فأخذت الكوز وشربنا منه ، وإذا هو أطيب من
 المسك وأبرد من الثلج وأحل من العسل ، فقلت : من أنت ؟ رحمك الله ، فقال :
 عبد لمولاك ، فقلت : بم وصلت إلى هذا ؟ فقال : تركت عَوَارِى الدنيا لمرضاته ،
 فأجلسنى فى الهواء ، ثم غاب عني ولم أره :

وتكثر أمثال هذه الحكايات فى كتب المتصوفة ، وواضح ما فيها من إبطال قانون
 السببية ، وإنما رويتها لندل على ذبوع حكايات وأقاصيص صوفية شعبية بين العامة ،
 وكانت تُروى بلغة وسطى بين الفصحى والعامية أو قل بلغة فصحي قريبة من أفهام
 العامة ، وبذلك كانوا يتداولونها وكانت تشجع فى أوساطهم وتنتشر ، عاملة - إلى حد -
 فى الإبقاء على الفصحى ، لغة متداولة على ألسنة الإيرانيين فى ذلك العصر ، خاصة أنهم
 كانوا يُشَقِّقُونَ بالتصوف وكل ما يتصل به من أقاصيص ، لا تناول الكرامات فحسب ،
 بل أيضاً تناول جوانب أخرى كرواى الرسول ﷺ فى الحلم ورواى الصحابة والصوفية ورواى
 الحور العين . وفى رسالة القشيري من ذلك حكايات مختلفة ، وبالمثل فى كتب المتصوفة
 ككتاب قرة العيون ومفرح القلب المهزون لأبى الليث السمرقندى المطبوع على هامش

الروض الفائق في المواعظ والرفائق .

ويلقانا بجانب القصص الصوفى قصص فلسفى رمزى عند ابن سينا ويحيى السهروردى ، أما ابن سينا فله ثلاث أقاصيص ، هى حى بن يقطان وسلامان وأبسال ، ورسالة الطير . ونسبلى أقصوصة حى بن يقطان بأن رفقاء (هى شهوات الإنسان وغرائزه) خرجوا بترهون ، فبينما هم يطوفون إذ رأوا شيخا بيا هو حى بن يقطان وقد رمز به ابن سينا إلى العقل الفعال . ويدور حوار بين حى بن يقطان والرفقاء نعرف منه خطورة علم المنطق ويسميه علم الفراسة ، كما نعرف أن الرفقاء رفقاء سوء وأن هناك شاهد زور هو قوة التخيل التى توقع الإنسان فى الشر ، وأن الإنسان نغف من بين القوة الغضبية ومن يسار القوة الشهوانية القذرة ولا نجاة منها إلا بالموت ، مثلها فى ذلك مثل الرفقاء السوء من المفرائر ، ولأن على الإنسان أن يقمعها بالمجاهدة . ويقول حى بن يقطان إن حدود الأرض ثلاثة ، حد يحوزه الحافظان ، ويقصد به المركبات المحسوسة ، وحد المغرب ويقصد به الميولى ، وحد المشرق ويقصد به الصورة . وبين هذين الحدين وبين عالم البشر سور مضروب لن يتجاوزه إلا الخواص المختلون فى عين قوارة لعلها علم المنطق تطهرهم وتركبهم ، إذ تفسبى لهم الحقائق . ويشير إلى المملكة المدنية والنباتية والحيوانية ويقول إن إقليم الإنسان تقابله أقاليم للملكة السماوية وما بها من الأفلاك التسعة أو العقول التسعة التى تتسلط على الأرض والكون ، ثم العلة الأولى أو علة العلل وهى الذات الإلهية . ويتحدث عن عالم الأرض ويقول إنه رتب على سكك خمس كسكك البرد ، ويريد بها الحواس الخمس ، ويقول إن فى الأرض أمة برزة رازما بها إلى القوى العاقلة . وبذلك تنهى الأقصوصة .

وأقصوصة سلامان وأبسال لها أصول يونانية ، وهما أخوان كان أبسال أصغرهما سناً وترى فى كتف أخيه ، ونشأ جميلا عفيفا ، شجاعا عالما أدبيا . وسلامان فى الأقصوصة هو النفس الناطقة ، وأبسال هو العقل أو درجة العرفان ، وكانت لسلامان زوجة رمزت بها الأقصوصة إلى القوة البدنية الأمارة بالشهوة ، عشقت أبسال ، فقالت لزوجها أخلطه بأسرتك ، ولما خلت به أظهرت له عشقا ، فأبى الانصياع لها أو قل أبى العقل الانصياع إلى القوة البدنية . ومكرت به فزوجته بأختها ، وقالت لها إننى لم أزوجك بأبسال ليكون لك وحدك ، وإنما ليكون لنا معا . وفى ليلة الزفاف جاءته بدلا من أختها وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها ، فلاح برق فى السماء أبصر على ضوئه وجه زوجة أخيه فتخلص منها . ويرمز البرق إلى جذبة من جذبات الحق ، وينكشف الشرك لمن أبسال ، ويتخلص

من عالم الشهوات الحسية إلى عالم العقل المحض . ويتنظم جنديا في الجيش ويفتح كثيرا من البلاد رمزا إلى الاطلاع على الملكوت الأعلى . وتتفق زوجة سلامان مع المطابخ والطاعم فيدسّان لأبسال السم ويموت . ويثار الأخ لأخيه ، فيقتل الزوجة والطاعم (رمزي القوة الشهوانية) والمطابخ (رمز القوة الغضبية) . وسلامان نفسه في قتله الثلاثة رمز لقلبة العقل على القوى البدنية .

وأقصوة الطير يتخذ ابن سينا الطير فيها رمزا للحرية ، ويستهلها بدعوة إخوانه الفلاسفة إلى الصفاء والإخلاص والسمو إلى الكمال ، ويتصور نفسه طائرا مع طائفة من الطير تنبه لها الصيادون ، فنصبوا لها الشباك ، وسرعان ما وقع فيها الطير وتشبث بأجنحته وأرجله ، فاستسلم للهلاك ، وشغل كل طائر عن أخيه بأمره وكرهه ناسيا حرته الضائعة كما نسبت الأرواح الإنسانية عالمها الذي هبطت منه ، وأصبحت سجينة البدن . وتخلص بعض الطيور روهها وأجنحتها من الشباك ، ولكن تظل أرجلها متعثرة فيها . ويجمع الطير قوته والشباك عالقة به ، ويمسّ جبل الملك رجاء أن يفكها عنه ، ويرى من دونه سبعة جبال ما يزال يقطع وديانها حتى يصل إلى الجبل الثامن ويعرف أن الملك في مدينة وراه فيغذ إليه ويهره جماله ، وتضرع إليه أن يفك عنه الشباك . ويقول له لا يستطيع فكها إلا عاقدوها ، ويرسل إليهم رسولا معه ليفكوها عنه . وانصرف الطير مسرورا . وواضح أن كل هذا الجهاد من جبل إلى جبل إنما كان في سبيل تخلص الأرواح من أجسادها ، وترمز الجبال إلى مقامات السلوك إلى عبادة الله المعروفة في بيئات المتصوفة ، بينما يرمز الرسول الذي يفك الشباك عن الطير إلى ملك الموت .

ويُعبد يحيى بن حبش السهروردي كتابة أقصوة حي بن يقظان متخذا لها اسما جديدا هو الغرية الغريبة ، وحي بن يقظان فيها لا يرمز إلى العقل الفعال أو العقل الإنساني كما رأينا عند ابن سينا ، وإنما يرمز إلى المتصوف وجهاده ومقاماته حتى يتصل بربه محبوبه . ويستهل الأقصوة السهروردي بأنه سافر مع أخيه عاصم من ديار ماوراء النهر إلى مدينة القيروان حيث أسيرا وقبدا في السلاسل وألقى بهم في بئر عميقة . ويبدو أنه يرمز بالمغرب والبر إلى الشهوات التي تحول بين الإنسان وبين حياة الإشراق . ورأى هو وأخوه (رمز العقل كما يتضح من اسمه عاصم) ههنا في ليلة قراء في منقاره كتاب صدر من شاطئ الوادي الأيمن من البقعة المباركة . وهو كتاب حمل إليهما من الذات العلية يدعوها إلى السفر (رمز الجهاد الصوفي) بغية الوصول ، ويأمرهما بركوب سفينة تجرى بهما في موج كالجبال صاعدة بهما إلى طور سيناء ، ليريا صومعة (الله) . ولعله رمز بالموج إلى

الشهوات . ورأيا في الطريق جاجم عاد وثمود (رمز الضالين) وصعدا الجبل ورأيا أباهما شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق لمجالة وجلالة . وكأنه يرمز بذلك إلى وصوله . ويرطب إلى ربه أن يخلصه من سجن القيوان غير أنه يأمره بالعودة إليه قائلا إنه يمكنه الهجئ إليه كلما شاء . وهو بالعودة إلى سجن القيوان يرمز إلى أن الصوفى لا يستطيع التخلص نهائيا من علائق الأرض . ويقول الله إنك ستخلص يوما (يوم الموت) من سجن القيوان ولا تعود إليه . ويلقاء في الرحلة أسد هو رمز القوة الغضبية وحيتان ربما كانت رمزا للشهوات . وكانت الرحلة شاقة . واتخذ السهروردى من مشاقها رمزا للعناء الصوفى في الوصول إلى المعرفة الإلهية والهبة الربانية ، وقد ختمها بقوله « نجأنا الله من قيد الهوى والطبيعة » .

وإذا كان القصصى نما في العصر هذا النمو على أيدي الفلاسفة والمتصوفة فإن ضروب النثر الأخرى نمت بدورها ، وفي مقدمتها المناظرات وخطابة الوعظ . أما المناظرات فكثرت كثرة مفرطة بين أصحاب المذاهب الفقهية ، وكذلك بين أصحاب المذاهب الكلامية ، وهى أكثر وأوسع من أن نقف عندها ، وخاصة أنها كانت علمية الطابع . وأما خطابة الوعظ فتجرد لما كثيرون من الفقهاء والمحدثين والمتصوفة والزهاد وكانوا يعظون الناس في المساجد بعد صلاة الجمعة وطوال شهر رمضان . ويصور السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ ما يبنى أن يكون عليه الواعظ والمستمعون إليه ، فيقول ^(١) : إن أول ما يحتاج إليه الواعظ أن يكون صالحا في نفسه ورعا متواضعا ، وأن لا يكون متكبرا ولا فظا غليظا ، وأن يكون عالما بتفسير القرآن والأحاديث وأقاويل الفقهاء ، وأن لا يحدث الناس إلا بما صبح عنده من الأحاديث النبوية والأخبار ، وأن لا يسأل إنسانا هدية ، أما إذا أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس من أن يقبل هديته ، وينبغى أن يمزج في مجلسه بين الخوف والرجاء ، فلا يجعله كله خوفا ولا كله رجاء ، وإن كان الواعظ محتاجا إلى تطويل مجلسه فليحمله بكلام يستظرفه السامعون حتى يزيدهم نشاطا وإقبالا على سماعه . ومن آداب المستمعين أن يصلوا على الرسول ﷺ عند سماع اسمه وأن لا يناموا في أثناء الوعظ ، بل يظلوا ناشطين متنبهين

وتلهم على سبيل المثال بطائفة من كبار الوعاظ ، فهم أبو عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان ويقال إنه ظل - كما مر بنا - يعظ الناس في مجالس تذكيره ستين سنة ، وإنه كان

(١) بستان المارفين على هامش تيه الفاضل

السمرقندى ص ٢٥ وما بعدها .

يعظمهم بالعربية والفارسية^(١) ، ومنهم إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ومن أجله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور - كما أسلفنا - وكان يجلس للوعظ والمناظرة ودرّس من التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره ، وكان لا يتلعم في كلمة^(٢) . ومنهم القشيري الإمام الصوفي الكبير المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ هـ ومربنا ما قيل في وعظه من أنه هـ لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب هـ . ومنهم الغزالي الإمام المشهور وأخوه أجد الذي قيل فيه : هـ كان واعظا تفلق الصخور الصم عند سماع تحذيره ، وترعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره^(٣) . هـ . ومنهم فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وكان واعظا كبيرا وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء . وحضر مجلس وعظه ذات يوم السلطان أبو المظفر الغزنوي ، فصاح به وهو على المنبر ، يا سلطان العالم الا سلطانك يتيق ، ولا تليس الرازي يتيق ، وإن مردنا إلى الله^(٤) .

وكانت كثرة الدول والإمارات الفارسية في العصر عاملا مها في كثرة الرسائل الديوانية ، فقد كان لكل دولة ولكل إمارة ديوان رسائل تصلّره كتاب اشتهروا بحسن البيان ، وليس ذلك فحسب فإنهم مضوا يتأنقون في كتاباتهم صورا من التأنيق حتى يرضوا أمراءهم . وكانت كتبهم لا تخلو من حلية السجع ، فهي حلية مشتركة في الرسائل جميعها وتضاف لها حلي مختلفة من الجناس والطباق والأخيلة ، حتى لتندو بعض الرسائل طائفة من الحليّات والتنميقات . وكان الشبان يقدون على هذه الدواوين ابتغاء العمل فيحسّرون ، ومن تنضح عنده الملكة الأدبية يوظف فيها ، وحيث يُلزم كاتبها من كتابها ، يعمل بين يديه ، حتى يخرجه كاتبها ماهرا . وكان بعضهم يظل في حضرة الدولة أوعاصمتها ، وبعضهم يرسل إلى الولايات للعمل بين أيدي الولاة . وكل ذلك كان يدفع شباب الكتاب إلى التنافس بينهم ، تنافسا أداهم إلى التقف الواسع بألوان الثقافات المختلفة من لغوية وغير لغوية . وكان من يظهر منهم نبوغا يرتقى سريعا وقد يصبح رئيسا للديوان ، وقد يصبح وزيرا يدير أمور الدولة كلها ، وربما أصبح واليا لمدينة كبيرة . وكل ذلك دفع إلى النهوض بالكتابة الديوانية ، وخاصة في القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، حين كانت العربية لا تزال هالكة ولا يزال سلطانها نافذا في الأعمال الرسمية . وبالمثل ظلت في

(١) السبكي ٢٧١/٤ (١) السبكي ٨٩/٨ وما بعدها وابن خلكان

. ٢٤٩/٤

(٢) ابن خلكان ١٦٨/٣

(٣) السبكي ١٩١/٦

تلك القرون الكتابة الإخوانية مزدهرة ، فالأدباء يصورون في رسائلهم الشخصية عواطفهم في التهادي والاستمناح والثناء والدم والتهاني والعتاب والاستعطاف والتعزية ، مظهرين في هذا المجال براعة في طرافة التفكير وجمال التعبير ، وسنعتي في الصحف التالية بالحديث عن كتاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ونقف قليلا عند قابوس بن وشمكير ومحمد بن عبد الجبار العتي ورشيد الدين الوطواط من كتاب الدول والإمارات ثم نلم بابن العميد واضع طريقة كتابة الرسائل في العصر وتلميذه صاحب بن عباد وبديع الزمان وما أنشأ من مقاماته الرائعة .

٢

كتاب الرسائل

من أهم ما يلاحظ في مطالع هذا العصر بإيران ازدهار الحياة الأدبية ، فإن أصحاب الدول والإمارات الإيرانية تنافسوا في جمع الأدباء من حولهم ، واتخذوا لذلك كل ما استطاعوا من تشجيع مادي مما جعل حواضرهم تتحول إلى مراكز أدبية كبيرة ، ولعلنا لم ننسَ ما مررنا من كثرة الإمارات الفارسية في القرن الرابع الهجري ، فقد كان السامانيون في بخارى بخراسان والبويهيون بالرقي والزبيريون في طبرستان وجرجان ، ولم يلبث الغزنويون أن ظهروا في هراة بأفغانستان . وكان كل حاكم يسعى إلى أن تحفل عاصمته بكبار الكتاب والشعراء ، وكانوا دائما يختارون كتابا كبيرا ليتولى شئون دواوينهم ، وكان بدوره يختار طائفة من الكتاب البلقاء لمعاونته ، فلا نعجب إذا نشطت الكتابة حينئذ وكثر الكتاب بإيران كثرة مفرطة . ولم يكن أصحاب الإمارة الكبيرة أو الدولة فقط هم الذين يجذبون الكتاب البلقاء إلى دواوينهم ، بل كان أيضا يصنع صنيعهم حكام البلدان والإمارات الصغيرة ، ولذلك تعددت مراكز الأدب في الإمارة الواحدة على نحو ما يرى القارئ للشعالي في كتابه اليتيمة ، فإنه عرض في حديثه عن الدولة السامانية وحاضرتها بخارى بخراسان لنيسابور وما كان بها من نشاط أدبي واسع ، وبالمثل عرض في حديثه عن الدولة البويهية وحاضرتها الكبرى في الرقي لأصبهان والجبل وفارس والأهواز .

ولن نستطيع أن نتعقب جميع كتاب الدول والإمارات الإيرانية في القرن الرابع فضلا عما وراه من قرون ، ولذلك سنكتفي ببعض المشهورين متخذين منهم أمثلة لازدهار كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية قبل الغزو المغولي أو التتاري في القرن السابع الهجري . وأول من نقف عندهم كتاب الدولة السامانية ومن كبار كتابها العميد والد أبي الفضل بن العميد

كبير كتاب القرن الرابع وعلى بن محمد^(١) الإسكافي النيسابوري وأسرته بني ميكال من أهل نيسابور وفي مقدمتهم أبو الفضل الميكالي الذي ترجمنا له بين شعراء الغزل ، ويقتطف الثعالبي فصولا طريفة من رسائله . وأكثر المجلد الرابع من البيمة إنما هو في الترجمة لأدباء بخارى ونيسابور ومن طرأ عليهما من كبار الأدباء مثل بديع الزمان ، وسفرد له حديثا ، ومثل أبي بكر الخوارزمي ، وقد ترجمنا له في شعراء الهجاء ، وهو أكبر كتاب الرسائل الشخصية أو الإخوانية في العصر ورسائله مطبوعة ، وقد تحدثنا عن فنه الكتابي وبراعته الأدبية في كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » .

ويُقْبَضُ المجلد الثالث من كتاب البيمة في ذكر كتاب الدولة البويهية في الري وأصبهان والجليل وفارس والأهواز وفي مقدمتهم ابن العميد والمصاحب بن عباد ، وسنخصص كلامنا بمحدث ، ويشيد الثعالبي بأبي العباس^(٢) الضبي المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول إنه خليفة المصاحب وجذوة من ناره ، ويمر في طريقه ، ترسما وترسلا . وكان لجرجان وطبرستان حظها من الكتاب والشعراء ، ولعل كتابا فيها لم ينبغ نبوغ قابوس بن وشمكير في الترسل والكتابة ، وسلم به وبكتابه عما قليل . وتلتقى في الدولة الغزنوية بكثيرين من الكتاب وفي مقدمتهم أبو الفتح البستي ، وقد ترجمنا له بين شعراء الحكمة والفلسفة ، وكان يعاونه في الكتابة أبو النصر محمد بن عبد الجبار العنقي ، وسنقف عنده بعد قليل . ومن كتاب الدولة الغزنوية أبو بكر القهستاني الذي ترجمنا له بين شعراء اللهو والهجون وكان على رأس كتاب الأمير محمد بن محمود الغزنوي . ويذكر الثعالبي في تمة البيمة بعض أسجاده في رسائله . ومن كتاب هذه الدولة أيضا القاضي أبو أحمد منصور^(٣) بن محمد الأزدي الهروي المتوفى سنة ٤٤٠ وأشاد بكتاباته وأشعاره كل من ترجموا له من القدماء .

ونخصي إلى الدولة السلجوقية في القرن الخامس الهجري ونجد على رأس كتابها أول وزير لها حميد الملك منصور بن محمد الكُتَنْدَرِيُّ المَارَّ ذكره المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة وفيه يقول صاحب الدمية : « لعبد الملك الكُتَنْدَرِيُّ طريقة في الترسل عمودة ، وموافقة في البلاغة مشهودة »^(٤) ويذكر نموذجاً من كتاباته . ومن كتاب هذه الدولة أبو الحسن^(٥) الحسيني

(١) تنظر في الإسكافي البيمة ٩٥/٤ ومعجم الأدباء ١٩١/١٩ وروكبان ١٢٢/٢ .

(٢) راجع الكندي في الدمية ٢٣٠/٢ وابن خلكان ١٥٧/١٤ .

(٣) راجع في الضبي البيمة ٢٨٧/٣ ومعجم الأدباء ١٠٥/٢ .

(٤) انظر القاضي منصور الهروي في تمة البيمة ٤٦/٢ .

(٥) انظر في الدمية ١٧٧/٢ .

والدمية ١٥٣/٢ والسبكي ٣٤٦/٥ ومعجم الأدباء

البلخي ، وكان ألب أرسلان يرسله في مهامه إلى بغداد ، ويسوق الباخري في الدمية نموذجاً من سلطانياته . ومن كتاب هذه الدولة أيضاً الباخري صاحب الدمية ، ومتر ترجمته بين شعراء اللهو والمجون ، والطرفاني ومتر ترجمته بين شعراء المديح ، والأبيوردي وعمل في دواوين السلاجقة ببغداد وأصفهان وغيرهما من البلدان ، ومتر ترجمته بين شعراء الفخر والمجاء والشكوى .

وكانت الدولة الخوارزمية تقود بدورها نشاطاً أدبياً وعلمياً عظيماً استمر حتى قضاء التتار عليها سنة ٦٢٩ للهجرة ، ويكنى أن هذا النشاط أنتج العالم المعترف الكبير الزخشي التتوي سنة ٥٣٨ كما أنتج كتاباً كبيراً يُعد آخر كتاب الدواوين الناجين في إيران ، وهو رشيد الدين الطوطا ، وسنخسه بكلمة ، بعد إلامنا بقابوس بن وشمكير وأبي النصر العنبي .

قابوس^(١) بن وشمكير

هو أحد أمراء الدولة الزيارية في طبرستان وخرجان وبلاد الجبل ، ويرجع نسبه هو وأسرته إلى آل قارن ، إحدى الأسر السبع الرفيعة - فيما يُقال - لعهد الساسانيين . وينسبه البيروني هو وأسرته إلى قبّاذ ، الملك الساساني . ولحق الحكم في إمارته بعد أبيه وشمكير ابن زيار سنة ٣٦٧ ولقبه الخليفة العباسي بلقب « شمس المعالي » واشتبك مع البويهيين في سلسلة حروب انتهت بفراره من إمارته إلى السامانيين سنة ٣٧١ وظل عندهم مكرماً ، حتى استرد ملكه سنة ٣٨٨ . وكان أميراً جليل القدر بعيد المهمة ، غير أنه كان - كما يقول ابن خلكان - على ما خصّ به من المناقب ، والرأي البصير بالعواقب ، مراً السياسة لا يساغ كأسه ، ولا تُؤمن بحال سطوته وبأسه ، يقابل زلّة القدم ، بإراقة الدم ، لا يذكر العفو عند الغضب ، فما زال على هذا الحقائق ، حتى استوحشت النفوس منه وانقلبت القلوب عليه ، فأجمع أعيان دولته وعسكره على خلعهم ونزع أيديهم من طاعته ، وحاصروه بإحدى القلاع في جرجان . وكان ابنه منوچهر بطبرستان فاستحثه على السير إليهم لعقد البيعة له ، فأصرع في الحضور وباعوه على أن يخلع أباه ، ونزل على إرادتهم ، وألزم أباه المكث بإحدى القلاع ، ولم يزل في سجنه حتى توفي سنة ٤٠٣ على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

(١) راجع ترجمة قابوس في البيئية ٥٩/٤ وإلمني للشي مع شرح للنهي (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) .
١٤/٢ - ١٦ - ١٧٢/٢ - ١٧٨ ومعجم الأديباء .
والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٤ وابن الأثير في مواضع متفرقة
وديران الحاق للمصري ٨٦/١ والفن ومطامير في التث
المرى (الطبعة الثالثة) ص ٢٥٥ .
٢١٩/١٦ وابن خلكان ٧٩/٤ وللتظلم ٢٦٤/٧

وكان قابوس مكرما للعلماء والشعراء يبرز الصلوات لهم ، وقدم له البيروني كتابه « الآثار الباقية » وقدم له الثعالبي كتابيه : « المبهج » و « التمثل والمحاضرة » . وكان مثقفا ثقافة واسعة شملت علوم الأوائل ، ويقال إنه كتب في الإسطرلاب كتابا كان يعجب به الصاحب . وكان أدبيا بارعا ، وهو يعد من كبار الكتاب في عصره ، وفيه يقول الثعالبي : « جمع الله سبحانه له إلى عزة العلم بسطة القلم ، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم ، وإلى أتوج هذا الكتاب (البثيمة) يلُمع من غمار بلاغته . . وأكتب فصولا من عالي نثره » . ويقول العيني في كتابه الجمني : « إن رسائله موجودة في البلاد عند الأفراد ، لكنني أكتفي منها بلعنة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه » . ويعلق أبو هلال العسكري على رسالة له اقتبسها في كتابه « ديوان المعاني » بأنها لانظير لها في الاختصار والعتاب . وقد جمع رسائله في عصر قريب منه عبدالرحمن بن علي اليزدادي باسم « كمال البلاغة » ونُشرت في القاهرة ، ونراه يحال في مقدمته لها بلاغته ، وقد ردها إلى أربعة عشر نوعا في طريقة التسجيع واستخدام قابوس اللوازم المتصلة به ، مما يصور بوضوح تعقد السجع عند قابوس تعقدا شديدا ، وهو تعقد مرجعه فيها يظهر سعة وقته ، وكأنه اتخذ منه أداة للهو وتسلية على نحو ما يتضح في المطلع التالي لإحدى رسائله :

« الإنسان خلق ألوا ، وطبع عطوفا ، فالسبدي لأيتحي عوده ، ولايرجى عوده ، ولايُخال لفيشة مخيلة ، ولايُحال تنكره بحيلة ، أئين صخر تدمر قلبه ، فليس يليه العتاب ، أم من الحديد جانبه فليس يميله الإعتاب » .

وواضح تصنعه المعقد للجناس في سجعانه إذ يجانس بين « عوده » و « عوده » ملتصبا جناسه في اختلاف حركة العين في الكلمتين ، وقد يلتمس الجناس عن طريق الاشتقاق كما في « يحال » و « مخيلة » وفي « يحال » و « بحيلة » . وقد يلتمسه في تغاير بعض الحروف في الكلمة كما في « مخيلة » و « بحيلة » . وكل ذلك ليظهر مهارته في تضييق ممراته إلى أسجاعه . وفي كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » بيان واف لهذا الجانب عنده .

أبو النصر^(١) العتيبي

هو محمد بن عبد الجبار العتيبي ، مولده ومرياه في الرُّي ، وقد فارقتها في شبابه ، وقدم خراسان على خاله أبي نصر العتيبي وكان من وجوه المال بها ، فلم يزل يرعاه كالولد العزيز

(١) انظر في ترجمة العتيبي البثيمة ٣٩٧/٤ والسبكي في (الترجمة العربية) ١/٦ .

ترجمة محمود بن سبكتكين الفزري ٣١٩/٤ وبيروكلمان

عند الوالد الحافى إلى أن وافاه القدر . وتتقلب بمحمد أحوال وأسفار وأعمال في الدواوين إلى أن استقر أمره في العمل مع أبي الفتح البستي في ديوان أبي منصور سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية ، وظل يعمل بعد وفاة سبكتكين مع ابنه محمود حين استولى على صولجان الحكم ، وكان محمود يعترف - كما مر بنا - بالسلطة الروحية للخليفة العباسي ، فخلع عليه لقب يمين الدولة وأمين الملة . واتسع ملكه - كما أسلفنا - حتى شمل خوارزم وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية وكشمير والبُنجاب في الهند . وعُني أبو النصر العتي بكتابه تاريخ هذا الفاتح العظيم وسمى كتابه الجيني نسبة إلى لقب محمود الذي خلعه عليه الخليفة : « يمين الدولة » وقد انتهى به عند سنة ٤٠٩ مع أنه عاش حتى سنة ٤٢٧ . وربما كان في ذلك ما يدل على أنه صنفه في وقت متأخر ، وأنه لم تنح له الفرصة لتكمله . ويقول السبكي : « وأهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري » وهو مطبوع في القاهرة مع شرح المنيني له في القرن الماضي ، ونسقى القطعة التالية منه مع ما سجله من ألقاب محمود الغزنوي ، يقول :

« الأمير السيد ، الملك المزيّد ، يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود بن ناصر الدين أبي منصور سبكتكين ، ملك الشرق بجيئيه ، والصدر من العالم ويديه ، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس في حوزة ملكه ، وحصول ممالكها الفسيحة وولاياتها العريضة في قبضته ، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظامتها تحت حمايته ، وجبايته ، واستدراستهم ودفعهم » من آفات الزمان بظل ولايته ، ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض لعزته ، وارتياحهم بفائض هيئته ، واحتراسهم - على تقاذف الديار ، وتحاجز الأنجاد والأغوار - من فاجئ ركضته .

والعتي بكتابته تاريخ محمود الغزنوي بهذه اللغة المسجوعة يحاكي الصائفي في كتابه « التاجي في ملوك بني بويه » الذي كتيه قبله بنفس اللغة ، وقد سقط « التاجي » من يد الزمن بحيث لا نستطيع المقارنة بين العملين . ويبدو أن كتاب العتي كان أخف ، فتعلقت به القلوب والأفئدة ، حتى قالوا إن من جاءوا بعده كانوا يتحفظونه ويتدارسونه ويتخذونه قدوة لهم في البلاغة . وعلى شاكلة في خفة السجع وعذوبة رسائله ، فإن الفصول التي حكاهما الثعالبي منها تتخذ نفس الأسلوب فلا تكلف ولا تصنع ولا تعمل من مثل قوله في رقعة كتبها في الإنكار على من يذم الدهر :

« عتبك على الدهر داع إلى العتب عليك ، واستبطاؤك إياه صارف عنان اللوم إليك ، فالدهر سهم من سهام الله مترعه عن مقابض أحكامه ، ومطلعه من جانب

ما حرَّره مجارى أقلامه ، والوقية فيه ، نمرد بحكم خالقه وباريه ، ومجارى الأشياء على قدر طابعها ، وبحسب ما فى قواها وأوضاعها ، ومنَ ذا الذى يلوم الأرقام على التثنية بالآتياب ، والمقارب على السمع بالأذنان ، وأنى لها أن تُذَمَّ ، وقد أُشْرِيتْ خَلْقُهَا السم وحكم الله فى كلِّ حال مطاع ، وبأمره رِضاً واقتناع .

ولغة العنبر سهلة ليس فيها ألفاظ غريبة ، وسجعه يتلصق من الألسنة فى يسر ، وليس فى الكلام ما يعوق جريانه من عقد الجئاس وما يتصل بالجئاس ، مما يتعثر فى الأقواء .

رشيد الدين^(١) الوطواط

هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العمري الملقب برشيد الدين المعروف بالوطواط لضآلة جسمه . من سلالة عمر بن الخطاب ، ولد ببلخ وبها نشأ وترى فى المدرسة النظامية ، وكان شاعرا كما كان كاتباً ، وله مصنفات عدة ، منها : « غرر الخصائص الواضحة » وهو من كتب الأدب التهذيب ، ومنها : « حقائق السحر فى دقائق الشعر » وهو فى علم البديع والصناعة الشعرية ، وضعه بالفارسية ، وأمثله فيه موزعة . بين الفارسية والعربية ، وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين . ونرى رشيد الدين يغادر موطنه ويلتحق فى سنة ٥٢٢ للهجرة بدواوين الدولة الخوارزمية فى عهد أميرها الطموح الباسل أئمز (٥٢١ - ٥٥١ هـ) ويظل بعد وفاته يعمل فى دواوين الدولة ، إلى أن يبلغ من الكبر عتياً ويهين عظمه ، يدل على ذلك أن سلطان شاه محمود حفيد أئمز حين تولى مقاليد الأمور فى خوارزم سنة ٥٦٨ أراد أن يرى هذا الشاعر المرمى المريض فحملوه إليه فى محفة ، فلما مثل بين يديه نظم رباعية فى مديحه ومديح أبيه وجده باللغة الفارسية . وعاش الوطواط بعد ذلك سنوات ، واختلف مؤرخوه ، فقيل توفى سنة ٥٧٣ وقيل بل سنة ٥٧٨ .

ويشيد ياقوت بأدبه وبلاغته قائلاً : « كان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه فى النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب ، طار فى الآفاق صيته ، وسار فى الأقاليم ذكره ، وكان ينشئ فى حالة واحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معا ، ويقول ياقوت : من مؤلفاته

ذكر مراتبه فى الفارسية . وانظر برككان ١٤٢/٥ و رشيد الدين الوطواط (مقالة مستلة من مجلة الجلسات المستترة) العدد الأول سنة ١٩٧٠ .

(١) راجع فى الوطواط وترجمته مجمع الأدباء ٢٩/١٩ وروضات الجنات ٧٧ وبيتة الرواة للسيوطى ومفصلة الدكتور إبراهيم أمين لتحريره لكتاب حقائق السحر فى دقائق الشعر ، وقد ضمنها ترجمة واسعة له مع

تحفة الصديق من كلام أبي بكر الصديق ، وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب ، وأحسن اللفهان من كلام عثمان بن عفان ، ومطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب . ويقول أيضا : له ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية وديوان رسائل بالفارسية ، وشعره دون نثره جودة . ورسائله العربية مطبوعة بمصر في جزئين ، وهي موزعة بين رسائل شخصية أو إخوانية ورسائل سلطانية أو ديوانية . ونسوق له قطعة من تقليد حسبة صدر عن ديوان خوارزم ، وفيه يقول :

« أن أول الأمور بأن تُصَرَفَ أَعْيُنُ العنابة إلى ترتيب نظامه ، وتُفَصَّرَ الهمم على مهمة إتمامه ، أمرٌ يمتلئ به ثبات الدين ، ويتوقف عليه صلاح المسلمين ، وهو أمر الاحتساب فإن فيه تثبيت الزائفين عن الحق ، وتأديب المنهكين في الفسق ، وتقوية أعضاد أرباب الشرع وسواعدها ، وإجراء معاملات الدين على قوانينها وقواعدها . وينبغي أن يكون متقلدا لهذا الأمر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد (أماكن) الرئب (التهمة) بعيداً عن مواقف التهم والعب ، لا بأساً بمدارع السداد ، سالكاً مناهج الرشاد . والشيخ الإمام - أدام الله فضله - متحلٌّ بهذه الخصائص المذكورة ، والفضائل الشهورة ، ومستظهر في دولتنا للحقوق القرآنية ، ومستشعر للصفات النبوية ، فقلدناه هذا الأمر . وأمرناه أولاً أن يجعل التقوى شعاره ، والأزهد دثاره ، والعلم مَعْلَمَهُ والدين مناره . ثم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم حدود الشرع على وفق النصوص والأخبار ، ومقتضى السنن والآثار . وأمرناه أن يبالغ في تعديل المكايل والموازين ، على وفق أحكام الشرع والدين ، فإن وجد تفاوتاً في شيء منها سواه وعدله ، وغيره وبدله ، وأدب صاحبه على رموس الأشهاد ، ليتزجر عن مثله أهل الخيانة والفساد .

والتقليد مهم لأنه يطلعنا على وظيفة الحسبة ، وأن الحاسب لم يكن فقط يراقب الأسواق كما يراقبها الشرطي ، بل كان أيضاً ينظر في كل ما يقع بها من الجنايات والخصومات كما ينظر القاضي ، وكأنه كان يقوم بوظيفة الشرطي والقاضي في وقت معاً ، فهو ينظر في الجرائم وما يقع من خصومات وفق ما جاءت به الشريعة من الحدود والأحكام . وهو لذلك كان يختار من الفقهاء أو من الشيوخ كما جاء في التقليد ، إذ لا بد أن يكون عالماً بالكتاب والسنة وما جاء من الأئمة في الحدود وغيرها من أحكام . وهو مع ذلك يقوم بأعمال الشرطي ، فيراقب المكايل والموازين ، فإن وجد في مكيال أو ميزان تفاوتاً أو نقصاً بطله على رموس الأشهاد ، حتى يفتضح الخائنون فلا يعودوا إلى خيانة أبداً ، وحتى يتزجر غيرهم فلا تحذهم نفوسهم بخيانة في ميزان أو مكيال أو ما يشبه الخيانة .

والتقليد جميعه مسجوع ، وليس فيه ألفاظ غريبة ، فالوطواط ينطلق في سحجه ، وكأنه ينسأب من معين زاهر دون أى عائق أو حائل . وبمثل هذه الصورة من السجع رسالته الإخوانية أو الشخصية فهى تجرى سائقة سهلة خفيفة على الأسماع والأغواء كقوله من رسالة وجه بها إلى الزعيمى يستأذنه في حضور دروسه وبجملته :

«أنا منذ لفظتني الأقدار من أوطاني ، ومعاهد أهل وجيراني ، إلى هذه الخطئة (خوارزم) التي هي اليوم بمكان جار الله - أدام الله دولته - جنة للكرام ، وجنة (سيرا) من نكبات الأيام ، كانت قصوى مثني ، وقصارى بغني ، أن أكون أحد الملازمين لسنة الشريفة التي هي غيم السيادة ، ومقبل أفواه السادة ، من ألقى فيها عصاه ، حاز في الدارين مثاه ، ونال في المحلين مبتغاه ، ولكن سوء التصدير ، أو مانع التقدير ، حرمني تلك الخدمة ، وحرّم على هذه النعمة . والآن أظن - وظن المؤمن لا يخطئ - أن أفل جدّي (حظي) هم بالإشراق ، وذابل إقبالي أقبل على الإبراق ، فقد أجد في نفسي نوراً مجدداً يهديني إلى جنته ، ومن شوق داعياً موقفاً يدعوني إلى حضرته .»

وتعنى الرسالة على هذا الخط من السجع الطيبي . وكان يفسح في شعره لكل صور البديع المتكلفة ولكل ضروب المحسنات من ترصيع وغير ترصيع . ونتركه للحديث عن ثلاثة هم في الدررة من أدباء العصر في مختلف حقبة الماضي : ابن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان .

٣

ابن العميد^(١)

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، فارسي الأصل ، من مدينة قم الشيعية الإمامية ، فيها منشؤه ومرياه ، مما أعده ليكون شيعياً إمامياً مثل أمرائه البويهيين . وكان أبوه كاتباً فذاً ، كتب لما كان بن كاكى ثم للسامانيين ، وهم الذين لقبوه بلقبه العميد كما دأبهم فيمن يتقلد لهم ديوان الرسائل . ولم يلحق ابنه معه بديوانهم ، بل ألحقه بدواوين البويهيين . وخدم ركن الدولة الحسن بن بويه صاحب الرى ، ولم يزل يترقى عنده ، حتى أصبح وزيره منذ سنة ٣٢٨ حتى وفاته سنة ٣٦٠ .

(١) انظر في ابن العميد وترجمته البيهقي ١٥٤/٣ وما بعدها ونجارب الأمم لابن مسكويه في مواضع متفرقة وابن الأثير ٥١١/٨ ، ٥١٦ ، ٦٠٦ ، وابن خلكان ١٠٣/٥ .
والشذرات ٣١/٣ والإمتاع والقناعة لأبي حيان ١٦١/١ وكتابه «طالب العزيز» وفيه تعامل شديد عليه وانظر الفن وملاحقه في الفن العربي ص ٢٠٥ .

وكان ابن العميد مثقفاً ثقافة واسعة بجميع علوم عصره حتى ليقول ابن مسكويه مؤرخ
 البويهيين المشهور : « كان أجمع أهل عصره لآلات الكتابة ، حفظاً للغة والغريب ،
 وتوسعاً في النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستمارات ، وحفظاً للدواوين من
 شعراء الجاهلية والإسلام . فأما القرآن وحفظ مشكله ومثابه والمعرفة باختلاف فقهاء
 الأمصار ، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة . . أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات
 منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد
 التعلم » . ويقول ابن الأثير : « كان عالماً في عدة فنون ، منها الأدب ، فإنه كان من العلماء
 به ، ومنها حفظ أشعار العرب فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله ، ومنها علوم الأوائل
 فإنه كان ماهراً فيها ، مع سلامة اعتقاد إلى غير ذلك من الفضائل ، ومع حسن خلق ولين
 عشرة مع أصحابه وجلسائه ، وشجاعة تامة ، ومعرفة بأمور الحرب والمناصرات ، وبه
 تخرج عضد الدولة ، ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء » . ويقول ابن خلكان :
 « كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم » .

وكان - كما لاحظ ابن الأثير - يحسن قيادة الجيوش ، وحقق للدولة انتصارات
 عظيمة ، من ذلك انتصاره على محمد بن ماكان قائد الجيش الخراساني سنة ٣٤٤ بعد
 أخذه لأصبهان واستيلائه على خزائنها ، فقد اعترضه في طريقه إلى الري وهزمه هزيمة
 ساحقة . ومن ذلك انتصاره على ابن بلكا بشيراز سنة ٣٤٥ . وخرج في سنة ٣٦٠ لقتال
 حسويه الكردي ، ولكن المنية أدركه دون غايته ، وكان عمره يزيد قليلاً على ستين
 عاماً . وظل وزيراً ثلاثاً وثلاثين سنة . وكان مقصد الشعراء والأدباء يبرز لهم الصلات ،
 وقصده أبو الطيب المتنبي بأرجان . فاستقبله استقبالاً حافلاً ، وفيه يقول :
 عربى لسانه فلسفى رأيه فارسيه أحياده

ويشيد كل من ترجموا له ببلاغته ، وفي ذلك يقول الثعالبي : « أوجد العصر في
 الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ، والضارب في الآداب بالسهام الفائزة ،
 والآخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يدعى الجاحظ الأخير والأستاذ الرئيس : يضرب
 به المثل في البلاغة ، وينتهي إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترتيل وجزالة
 الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعاني ونفاسها . وكان يقال : بُدِثت الكتابة بعبد الحميد ،
 ونُحِثت بابن العميد » . ومن يقرأ ما اقتبسه الثعالبي من كتاباته يؤمن بأنه هو الذي أعطى
 الكتابة في عصر الدول والإمارات صيغتها التي ظلت الأجيال المتوالية تستلهمها ، وهي
 صيغة قامت على أساسين كبيرين : أولهما السجع ، وكان السجع معروفاً من قبله في

الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع الهجري ، على نحو ما مرّ بنا ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني ، وسنراه يُدخل عليه ضرورياً من الموازنة في السجتين المتواليتين ، بحيث تصبح هذه الضروب ضرورة أو لازمة فيه . والأساس الثاني لم يكن متبعاً قبله ، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع ، فالسجع وحده لا يكفي ، بل لابد أن تُضاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما إلى ذلك من محسنات البديع وتلاوينه . ونسوق مثلاً لذلك من كتاب كتب به عن ركن الدولة بن بويه إلى ابن بلكا عند عصيانه عليه ، مفتحاً كتابه بقوله :

« كاني إليك ، وأنا متّارّجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك ثيلٌ سابق حرّمه ، وتمتّ بسالف خدمة ، أسرها يوجب حقاً ورعاية ، ويقتضى معافاة وعناية ، ثم تشفعها بمحادث غلُول^(١) وخيانة ، وتبجحها بآياف^(٢) خلاف ومعضية ، وأدنى ذلك يُحبط أعمالك ، ويُسقط كل ما يُرعى لك » .

وهذه النغاث الأولى في الكتاب ترينا بوضوح أساس المنهج الذي التزمه ابن العميد في كتابته ، فهو يلترم السجع ، وليس ذلك فحسب ، بل هو يوازن بين السجعات ، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين ، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية وجعلها موازنة لها أدق موازنة ، فسجعة « تدلّ سابق حرمة » توازنها في دقة السجعة التالية لها : « تمتّ بسالف خِلْمة » . ومثلها السجعتان : « ثم تشفعها بمحادث غلُول وخيانة ، وتبجحها بآياف خلاف ومعضية » . وهو لا يلترم السجع فحسب ، بل يكثر من الطباق مثل « طمع ويأس » و « إقبال وإعراض » كما يكثر من الجناس مثل سابق وسالف ، والكتاب زاخر به وبالطباق وبتساوير كثيرة كقوله فيه معاتباً صاحبه :

« ألم تكن في ظلّ ظليل ، ونسيم حليل ، وريح بليل ، وهواء عذّي^(٣) وماء رويّ ، ومهادٍ وطّي^(٤) (لين) وكن^(٥) كنين^(٥) ، ومكان مكن ، وجحش حصين » .

وكل هذه كنايةات واستعارات لما كان فيه هذا العاصي لركن الدولة حين كان يضع يده في يده ، فقد كان في سعادة ما وراءها سعادة ، فإذا كل نعم كان فيه يتحول برؤساً وشقاء . وله فصل من رسالة كتب بها إلى عضد الدولة يشيد فيها برعايته للعلم والعلماء قاللاً : « قد يعدّ أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مدّدها ، وانتقاض مِرْرها

(١) غلُول : خيانة . (٢) آياف : الكثر . ما يردّ الحر والبرد من الأبنية .

(٣) عذّي : سنور .

(٤) كنين : كنين .

(٥) آف : آف .

(٦) عذّي : خالص .

(قواها) .. الطوفان بالنار والماء، والموتان العارض من صوم الأوباء، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء .. وليس عندى الخطبُ في جميع ذلك يقارب ما يؤلده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتوسع قدرته . ويحسب عظم الهمة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها ، وجمتمع فرقها ، وهي نور^(١) نوافر من لاقت حتى تصير إليه ، وشرد نوازح حيث حلت حتى تقع عليه ، تلتفت إليه تلتفت الوامق ، وتشوف نحوه تشوف الصب العاشق .

والفصل طريف في دلالة على عناية عضد الدولة بالعلم وأهله ، وكان دائماً يعقد لهم المناظرات بين يديه . والفصل صورة أخرى لعناية ابن العميد بالسجع وتفصيله ، وإحداث الموازنات بين السجعات حين تطول : وفي أثناء كل ما قدمنا له نتضح عنايته بمحسّنات البديع وسلامة اللفظ وجمال السبك ووضوح المعنى . وهي كلها جوانب أساسية في بلاغته وبيانه .

٤

الصاحب^(٢) بن عباد

هو كافى الكفاة إسماعيل بن عباد ، من أهل الطالقان : ولاية بين قزوین وأبهر ، وُلد عام ٣٢٦ لآبيه عباد بن العباس الطالقاني ، وكان يعمل مع ابن العميد في ديوان ركن الدولة بالرى ، وعُني به ، فوصله منذ نعومة أظفاره بأحمد بن فارس اللغوى ، حتى إذا اتضحت فيه مخايل الأدب ألحقه بابن العميد ، فكان يصحبه دائماً ، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب صاحب ابن العميد ، وظل هذا اللقب علماً عليه ، وقيل بل صاحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ الصبا وصماه الصاحب ، فاستمر عليه اللقب واشتهر به .

(١) نور : جمع نور : شاردة

يريد ابن العميد والصاحب وقد بالغ في النض منها كما أشرت إلى ذلك . ورسائل الصاحب منشورة في دار الفكر العربى بالقاهرة بتحقيق وتحقيق الدكتور عبد الرحمان مزام . وجع أشعاره محمد آل ياسين ونشرها في النجف باسم ديوان الصاحب وله عنه كتاب ، وكذلك للدكتور بنوى طباطبة (طبع القاهرة) . وانظر للمحل بين يدي الرسائل وكتابتها اتقن ومذاهبه في فنن العربى ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) انظر في الصاحب وترجمته وأشعاره ووسائله البهية ١٨٨/٣ وللتظلم ١٧٩/٧ ومجمع الأدباء ١٦٨/٦ وابن خلكان ٢٢٨/١ وإنباء الرواة ٢٠١/١ وروضات الجنات ١٠٤ ونزهة الألباء ٣٢٥ ورسالة الجنان ٤٢١/٢ والشرحات ١١٣/٤ ولسان الميزان ٤١٣/١ وابن الأثير في سرائع مفرقة وفي سنة ٣٨٥ وكذلك النجوم الزاهرة ١٦٩/٤ ، ومطالب العزيزين لأبى حيان ،

ومنذ فتك مؤيد الدولة بأبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد سنة ٣٦٦ ولاء وزارته وظل وزيراً له حتى إذا توفى سنة ٣٧٣ وخلفه أخوه فخر الدولة أقره على وزارته ، وكان مبعجلاً عندهما ومعظماً نافذ الأمر . وكان حسن السياسة مدبراً للملك كما كان قائداً شجاعاً بما رفع منزلته عندهما إلى أقصى حد ، حتى قيل : كان « مَنْ يُؤَذَّنْ له في الدخول عليه يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرة ، وشرفاً وتعظيماً ، فإذا حصل في الدار وأذن له في الدخول إلى مجلسه قبل الأرض عند وقوع بصره عليه . . ولم يكن يقوم لأحد من الناس ، ولا يشير إلى القيام ، ولا يطعم أحد منه في ذلك » . ومازال وزيراً لفخر الدولة حتى توفى سنة ٣٨٥ ويقال أنه لما توفى أغلقت له مدينة الري ، واجتمع الناس على باب قصره يتظنون خروج جنازته ، وحضر فخر الدولة وسائر القواد وقد غيروا لباسهم . ومشي فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس ، وقعد للزواء أياماً . وفيه يقول الثعالبي : « ليست تخضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتفردة بفايات المحاسن ، وجمعه أشاتات المفاخر ، لأن همة قولي تتخفّض عن بلوغ أدنى فضائله ومعالیه ، وجهد وصنى بقصر عن أيسر فواضله ومساغبه ولكنى أقول : هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . . وكانت أيامه للعلوية والعلماء . والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلاتهم ، ومرتع آمالهم ، وأمواله مصروقة إليهم ، وصنائمه مقصورة عليهم ، وهمت في مجد يشيده ، وإنعام يحمده ، وقاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أوسعمه . . وكانت حضرته مشرعاً لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . . واحتفّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، مَنْ يرقى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، ومثلك رِقْ المعاني » . ويذكر باتقوت أن عطاياء للأدباء والشعراء والعلماء والأشراف كانت تريد على مائة ألف دينار في العام الواحد . وكان يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية ، وفي هذا ما يدل على أنه كان يعرف الفارسية ، بل ربما كان يتقنها إذ روى أنه اختبر قدرة بديع الزمان الهمداني ، حين مرّ ببابه ، في الترجمة من الفارسية إلى العربية .

وكان شاعراً مجيداً ، كما كان كاتباً مجيداً ، وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره أخلاها من شعره العقيدى الشيعى والمعتزلى ، فقد كان شيعياً إمامياً كما مر بنا في حديثنا عن شعراء المديح وكان يدين بمذهب المعتزلة ومبادئهم المعروفة ، وقد نشر محمد حسن آل ياسين

ديوانه كما مر بنا ، وهو يروج بأشعاره الشيعة ويتصوره لمبادئه الاعتزالية من مثل قوله :
 قالت : فما اخترت من دين تفوز به فقلت إني شيعي ومعتزلي
 وقوله :

ومن كان بالشيعة والجبر دائماً فإنني في التوحيد والعَدْل أوحداً
 وهو يحمل على المشبهة والهجرة حملات شعواء ، كما يحمل نفس الحملات على من
 يقولون بأن القرآن قديم وغير مخلوق يقول :

وإن قال أقوامٌ قديمٌ لأنه كلامٌ له فانظر إلى أين صعدوا
 وله وراء شيعياته واعتزالياته أشعار طريفة أنشدنا منها - فيما مر - أطرافاً . وصفت في
 اللغة معجماً سماه المحيط كما صنف كتباً ورسائل مختلفة في الإمامة وفي فضائل علي
 ابن أبي طالب وفي أسماء الله وصفاته وله رسالة في الكشف عن مساوي المتنبي وكتاب في
 المقصور والمدود . وكانت له مكتبة ضخمة ويقال إن فهرست كتبها كان يقع في عشر
 مجلدات ، وأنها كانت حِمل أربعةائة بعير .

ورسائله منشورة ، وهي في عشرين باباً وكل باب يشتمل على عشر رسائل ما عدا
 البابين السابع عشر والثامن عشر ، وأولها في الآداب والمواظع وبه أربع رسائل ، والثاني
 فصول قصيرة وتوقيعات موجزة . وقد ذكرت في مدخل الرسائل القيمة التاريخية لها .
 وجميعها ديوانية ، أو الكثرة الكثيرة منها ، ولذلك كانت تُعدُّ وثائق قيمة عن الدولة
 البويهية ، وخاصة أن صاحب يعرض فيها حروبهم وأسماء قوادهم وقضاتهم كما يعرض
 معاهداتهم وإدارتهم لشئون الرعية مما يجعل لها قيمة سياسية واجتماعية بعيدة . والباب
 الأول منها خاص بفتوح عضد الدولة وحروبه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير
 ومع الروم ومع ابن حمدان ومع وهسودان . وفي كل ذلك تفاصيل جديدة تضيفها
 الرسائل إلى ابن الأثير وغيره من المؤرخين . وبالمثل تضيف جديداً إلى ما تذكره كتب
 التاريخ عن معاهدات البويهيين على نحو ما جاء في معاهدة لهم مع السامانيين من أنه
 « لا يُقبلُ في جهة من الجهتين أباقي العساكر ، ولا يجهد في جنة من الجنتين للخالف
 والنافر ، ولا يُحاطى على مَنْ عَصَا فُشِدَ ، وشق العصا وانفرد . ومن الطريف أن تنعقب
 ما جاء في الباب الثاني من العهد للقضاة والولاة والعتبين ، وخاصة عهود القضاة ،
 لنرى هل كانوا يرجعون إلى مصادر الفقه المعروفة العامة ، وهي الكتاب والسنة والإجماع
 والقياس ، وكان لا فرق بين الشيعة وأهل السنة حيث في القضاء ومصادره ؟ . وفعلًا
 يؤكد ذلك ما جاء في الرسالة الأولى من الباب الثاني الخاصة بعهد القاضي عبد الجبار .

وفيه أيضاً أن التركة لا تُردُّ إلى بيت المال بل يأخذها الأباعد من ذوى الأرحام ، وهو ما أشار إليه المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم من أن البويهيين لم يكونوا يتعرضون للتركات . وبلغنا عهد في الجنبه نطلع منه على صفات المحتسب وواجباته ومسئوليته . وتلقانا عهدود في معاملة الرعية وفي قسمة الماء في بعض الأودية ، كما بلغنا باب عن الحجيج والمصالح والثغور . وفي الباب السادس رسالتان هما الخامسة والسابعة كُتبتا بمناسبة نشوب ثورة في قزوين بين الشيعة والسنة ، ونرى صاحب يدعو فيها إلى أن تحمل الألفة والوثام بين الطائفتين دون نصرة إحداهما على الأخرى . وفي ذلك ما يدل على أن البويهيين لم يتحيزوا إلى مذهبهم الشيعي في أنهاء دولتهم حفظاً للأمن وصيانة له . وطبيعي أن نحس في بعض الرسائل بأن كاتبها من المعتزلة ، فقد كان صاحب كما قدمنا معتزلياً ، وفي الباب السابع عشر رسالتان صريحتان في أن صاحب كان يبعث دعاة له أحياناً يدعوون الناس إلى الدخول في نخلة الاعتزال . ومن قوله في إحداهما : « كان هذا البلد من البلاد المستغلبة على أهل عدل الله وتوحيده ، والتصديق بوعدده ووعيده » ، هذا وفي فقهاه وفور ، وفي الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على بث كلمة الحق ، وسمع الأكثر على لين ورفق » . وربما رأى أن الاعتزال باب للتشيع ، وكانا متآخيين حيثذ ، فعمل على نشره ليشتر من ورائه التشيع مبتغاه . وفي الرسائل - من حين إلى آخر - ما يدل على نزعة الشيعة وخاصة حين يكتب برسائله إلى بعض الأشراف العلويين . وتلقانا في الباب التاسع عشر رسالة هي عهد لعلوى وإلى النقابة بين الذرية الطيبة ، وفيها ما يدل على أن النقيب هو الذي كان يحكم بين العلويين ، وأنه كان لهم قضاء مستقل في الدولة ، وأنه كان يتسب إليهم دخلاء يتحلون النسبة ، وبأمر النقيب بتعقيهم وإشهار أمرهم ، وفي الرسالة أيضاً ما يدل على كثرة الأموال التي كان يقدمها البويهيون للعلويين .

وعلى هذا النحو لرسائل صاحب المنشورة قيمة تاريخية كبيرة ، وأيضاً لها قيمة أدبية كبيرة ، لأنها المجموعة الوحيدة التي وصلتنا عن كتاب البويهيين في القرن الرابع الهجري ، وهي دائماً تبتدىء بالتحميد والتعجب للنبي ﷺ أو بالدعاء . ويُعقب صاحب هذا البدء بذكر أميره الذي يكذب عنه مكتئباً بقلبه المشهور الذي خلعه عليه الخليفة ، وقد يذكر كلمة الحضرة السامية أو الحضرة الشريفة . وإذا كانت الرسالة في فتح عظيم أطال في الدعاء تنوياً بالفتح . والرسائل كلها مكتوبة بأسلوب ابن العميد الذي يقوم على السجع والبديع ، ويروى معاصروه طرقات كثيرة عن ميله للسجع وإيثاره ، حتى زعموا أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين :

فجاءواها إلى قرية غامرة وماء ملح لا شئ إلا ليكتب إلينا : « كاتى هذا من التوبهار ، يوم السبت في نصف النهار . وقالوا إن سجمة اضطرتة إلى عزّل قاضى مدينة قُم ، فقد كان في حضرته ، فقال له : أيها القاضى بقم ، وأراد أن يكمل السجمة ، فأعياء إكمالها ، فقال : قد عزلتك قُم . ولعل هاتين النادرتين جميعاً من وضع خصمه أبى حيان ، وفي تكلفه للسجع يقول : « كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجدل والمزحل يزيد على كلف كل من رأبناه في هذه البلاد . . قلت لابن المسي : أبى يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجمة تنحل بموقعها عروة الملك ، وبضطرب بها حبّل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غُرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، ونجش أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخفّ عليه أن يُفرج عنها ويخليها ، بل يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها . وكل هذه مبالغات فإن من يرجع إلى الرسائل المنشورة يجد صاحب يترك نفسه على سجيها ، فإن واتاه السجع مضى فيه ، وإن لم يواته استخدم أسلوب الازدواج ، وإن كان ذلك لا يأتي إلا نادراً ، فالصورة العامة لرسائله هي السجع والبديع والتفنن في استخدامها تفتنا يدل على مهارة واسعة ، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعه وسجية من سجاياه . وأول ما يلقانا في رسائله رسالته التي وصف فيها انتصار جيوش مؤيد الدولة على جيوش أخيه فخر الدولة وحليفه قابوس بن وشمكير ، ومقطعها الأول يجرى على هذا النمط :

« أحسنُ نعم الله تعالى غُرراً وأَوْضاحاً ، وأَيُّهَا فَلَقاً وصباحاً ، وأولاهها إذا نُصِفَتْ المواهب أخذاً بحظ السابق ، وأولاهها إذا اتَّيَبَتِ المنتائج فوزاً بالز الشاقي ، وأحرأها بأن تُثنى عليها ألسنة الأيام والليالي ، وتُنثى إليها أعناق المحامد والمعالى ، نعمة صادفت حمداً وشكراً . وجمعت فتحاً ونصراً ، ونظمت نُجْحاً وقهراً ، واستندت ممتطياً للبحرود لاهياً عن غوره ، مُستشْرِياً في الضموط عادياً لعلّوره . وتلك النعمة عند مولانا الملك السيد إذ عَصَدَ الدولة ، وتَوَجَّحَ المُلَّةُ ، وحرس الأُمّة ، وزحزح الفُتّة ، ورَقَدَ الخلافة ، وبَسَطَ العدل والرأفة ، وطَهَّرَ البلاد ، وعمر الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسدّ الثغور ، فشهدت فتوحه بأنه مؤيد من عند الله ، وعروط الملك بيد الله ، لا ينازع رأيه منازع إلا نُلّ لجينه ^(١) ، وعوجل بقطع وتينه ^(٢) : ولا يمانع رأيته ممانع إلا غَلَّتْ يده دون مطلبه ، واقطع أمده عن مَهْرَبه ، ولم يَعرِزْ بالتحصن عليه مارق ، والتمتّع دونه مشاق مفارق ،

إلا استولى عفواً على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكّن منه القضاء سَمَحاً فاستترل عن معاقله وصياصيه ^(١) .

وواضح أنه تمكّل طريقة أستاذه ابن العميد ، فهو يُعنى أشد العناية بانتخاب ألفاظه ، حتى يكون بناء رسالته في هذا الفتح قوياً سامقاً . ويُعنى بأسجاعه ، فهي تتقابل وتوازن مها طالت ، كقوله : « وأولاهها إذا تُصَفّحت المواهب أُنْعَدّاً بحظ السابق ، وأولاهها إذا تُبَيّعت المنافع فوزاً بالعر الشاهق » وكل كلمة في العبارة الثانية تكاد تشابك بالأبدى مع قرينتها في العبارة الأولى . ومثلها السجمة التالية : « وأحراها بأن تُثَقّى عليها ألسنة الأيام والليالي ، وتثنى إليها أعناق المحامد والمعالى » وكأن الكلمات في العبارتين تتماق . واستمر في قراءة الأسجاع الطويلة في هذا الفصل وفي رسائل الصاحب ، فستجد دائماً هذا التماق والتشابك بين كلمات السجعات ، وحقاً ابن العميد بدأ ذلك ولكن الصاحب اتسع فيه سعة شديدة . ولا بد أن القارئ لاحظ كثرة استخدامه للتصوير منذ فاتحة المطلع ، فالتم ذات غُرر وأوصاح كتحليل الحرب الظافرة ، بل هي كالصباح الجميل البهيج ، وتوالى الأعيلة والصور في المقطع . ويكثر فيه الجناس مثل غوره وطوره ، والأئمة والفئة ، وبنازع ومتازع ، ويمانع ومانع ، ويحاول أن يأتي بغرائب في الجناس تغلب أبواب السامعين ، فيعمد إلى المغايرة بين كلمتين لا في بعض الحروف ولكن في بعض الحركات كما في « أولاهها ، وأولاهها » و« تثنى وتثنى » . وجعلته قدرته على حشد السجعات يكثر من الجمل الاعتراضية في رسائله على نحو ما يتضح في مطلع هذا المقطع ، فقد بدأه بمبتدأ هو « أحسن نعم الله » وفصل بينه وبين خبره ، وهو « نعمة صادفت حمداً وشكراً » بنحو ثلاثة أسطر ، ونقده أبوحيان ، وقال إن هذا يُحدث تماطلاً في أساليبه ^(٢) . وفي رأينا أنه مقبول ما لم يطل الاعتراض طويلاً شديداً ، وهو نادر عنده . على أن هذا الجانب في أساليبه شاع فيما بعد بين كتاب العصور التالية وخاصة عند المهاد الأصفهانى والقاضى الفاضل . وليس معنى ذلك أن الصاحب وضع مبدأ طول عبارات السجع ، بل هي تطول أحياناً ، وأحياناً تقصر كما في هذا المقطع نفسه إذ يقول : « نعمة صادفت حمداً وشكراً ، وجمعت فتحاً ونصراً ، ونظمت نُجْماً وقهراً » . وتكثر هذه السجعات القصيرة في رسائله الإخوانية ، كقوله في عزاء ابن عن أبيه ، وكان عالماً غريباً : « للفضائح اختلاف مواقع ، وللمصائب تباين مراتب ، ومن أشدها لدهأ ، وأعظمها

وقعاً ، فجبهة أخرجت صدور قوم مؤمنين ، ومصيبة خضت العلم والدين ، لفقد الشيخ المنقطع القرن ، أبي عثمان - رحمه الله ، وأكرم مأواه ، ومثواه . فقد كان للإسلام جبالاً ممتداً ، وللدين ركناً مشدداً ، وللعلم شهاباً لا يخبو ، وللأدب سهماً لا يتبو ، بذب عن حق الله القائم ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، عاش عظيم الخطر ، ومات جميل الأثر ، التقوى شعاره ، واليقين دثاره ، وحجج الله مفرزه ، وآيات الله مرجعه ، فياله مصاباً ما أعظمه على الموحدين ، وأسره إلى الملحدن ، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار ، وأعلام الأمة الأخيار .

ويعنى في مثل هذا السجع القصير موشياً له بالجناس ، أهم لون من ألوان البديع كان يستعمله ، كما نرى في مثل « مأواه ومثواه » ، و« ممتداً ومشتداً » و« لا يخبو ولا يتبو » و« لومة لائم » . وكان يستخدم معه الطباق من حين إلى حين كما نرى في مثل « الموحدين والملحدن » . وله تهته طريفة بينت ولدت لبعض أصحابه تمنى على هذه الشاكلة :

« أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وأمّ الأبناء ، وجالبة الأضهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة ياخوة يتناسقون ، نجباء يتلاحقون :

فلو كان النساء كمثل هلى لفُضِّلَت النساء على الرجال
وما التأنيت لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهِلال^(١)

فاذرع ياسيدى اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها . والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية . والسماة مؤنثة وقد زينت بالكواكب ، وحلّت بالنجم الثاقب . والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا حُرِف الأنام : والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، ولما بُعث المرسلون : فهنيئاً هنيئاً ما أوليت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت ، وأطال بقامك ما حُرِف النسل والولد ، وما بقى الأمد ، وكما عُمِّر كبد^(٢) .

والرسالة مؤلفة من السجع القصير ، ويحلّيها الصاحب بالجناس من مثل « الأضهار والأطهار » وهو قليل فيها ، وكأنه لم يكن يتأنق في الرسائل الإخوانية تأنفه في الرسائل الديوانية الطويلة . وفي الرسالة ظاهرة يبنى الالتفات إليها ، ونقصد ظاهرة الاحتجاج ، فقد احتج للتهته بالبت - وكان الأسلاف يفضلون الابن عليها - بست

حجج أوستة أدلة ، وكل دليل لا يقبل قوة عن سابقه ، فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية كما جاء في القرآن «ومنها خلقناكم» والسماء مؤنثة وروعتها في كواكبها ونجومها فوق التصوير ، والنفس مؤنثة وهى قوام الإنسان ، والحياة مؤنثة وبدونها يموت الإنسان وتبطل حركته ، والجنة مؤنثة ولها بُعث المرسلون وبها وُعد المتقون . أدلة لأنتقض . وكأننا بإزاء مناظرة كلامية في تفضيل البنت الأنثى على الابن الذكر . يستعين فيها على رأيه بكل ما يستطيع من أدلة وبراهين ، ولا شك أن ذلك جاءه من اعتزاله وعكوفه على كتب المعتزلة يقرأ في أدلتهم وحوارهم وكيف ينفذون إلى البراهين الساطعة ، مما جعل كتابته تشع بطرائقهم وجدالهم وتفننهم في التعليل والتدليل . وهى تضع في جدال المنحرفين عن الدولة وفى تعليه العام لأفكاره وتدليه عليها بالأدلة البينة . ومن قوله فى إهداء أثرجة :

«ما زلت ياسيدى أفكر فى تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق ، وتُنظم نعوت مشوق وشاتق ، حتى ظفرت بأثرجة كأن لونها لوني وقد مُنيت ببعدهك ، وُلِيت بصدك ، وكان عرقها^(١) مستعار من عرقك ، وظرفها مشتق من ظرفك ، فكأنها بعض من لا أسميه ، وأنا أفديه ، فأنفذها وقلت :

مولائى قد جاءتك أثرجة من بعض أخلاقك مخلوقة
ألبسها صانعها حلة من سرقى أصفر مسروقة^(٢)

والرسالة تصور أناته فى اختيار سجماته وتوشيتها بالجناس والطباق مجتمعين فى قوله : «معشوق وعاشق» و«مشوق وشاتق» وهى تصور ظرفه ورقة مشاعره . ولم تتوقف عند تصاويره وهى كثيرة فى رسائله الإخوانية والديوانية كقوله فى وصف الورود السوداء فى احمرار ، المعروفة باسم الشقائق ، ووصف الأشجار الخضراء والنارنجيات الصفراء : «قابلتى شقائق كالزئوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعت فى دماؤها^(٣) ، وسامتني أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكسها أبرادها ، وحضرتني نارنجيات ككُرات دهب أو تُدَيّ أبكار خلقت^(٤)» .

وله رسالة لم يُعنَ فيها بالسجع ، وإنما عُنَى بالتصوير وحده ، وهى فى استدعاء صديق لبعض مجالس أنه ، وتطرّد على هذا النمط :

«نحن ياسيدى فى مجلس غنى^٥ إلا عنك ، شاكر إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون

(١) العرف : الرائحة الطيبة .

(٢) (٣) الذماء : بنية الروح .

(٤) خلقت : طَيَّنَ .

(٥) السرق : شقن الحرير .

الرجس ، وتوردت فيه حدود البنفسج ، وفاحت بحمار الأترج ، وقُتقت فأرات ^(١) النارنج ، وأنطقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، وهبَّت رياح الأقداح ، ونَفَقَت ^(٢) سوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الند ^(٣) فبحياتي لما حضرت لنحصل بك في جنة الخلد ، وتتصل الواسطة بالعقد .

والرسالة مغموسة غمساً في صور وأخيلة متعاقبة ، وكأنما ترك صاحب نفسه على سجيته ، فلم يعمد فيها إلى سجع . ولعل في ذلك ما يرد على من اتهموه بتكلفه للسجع وغرامه به ، حتى لوكلفه ذلك خلاً في الملك والدولة أو لوكلفه أهوالاً ثقلاً ما بعدها أهوال ، فقد كان يلجأ إلى الازدواج أحياناً ، بل ربما تخفف من الازدواج والسجع جميعاً كما في هذه الرسالة . وله رسائل ملؤها المزاح والدعابة . وكانت بديته حاضرة ، مما جعله يمتاز بحسن الأجوبة وسرعته فن ذلك أن ضرابين للتقود من دار الضرب رفعوا إليه رقعة في مظلمة ووقعوا عليها باسمهم : الضرابين ، فوقع تحتها « في حديد بارد » . واستمع إلى ابن سمعون الواعظ يبيد في أثناء درس له فسأله متحاثاً عن قَدِّ مَكُونِيَّات العلم إذا وقعت قبل التوهم ، بظن أنه بذلك يقطعه عن الكلام ، ولم ينقطع فلما سكت قال له صاحب : « هذا الذي تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله ! » .

٥

بديع ^(١) الزمان ومقاماته

هو أحمد بن الحسين وُلد سنة ٣٥٨ بهمدان ، ولذلك يقال له الهمداني ، ولقبه معاصروه باسم بديع الزمان إعجاباً بأدبه . وهو من أسرة عربية ، نزلت مسقط رأسه ، وهي أسرة تغلبية مصرية ، ومن قوله في بعض رسائله : « همدان المولد ، وتقلب المورد ، ومُضَرُّ المتمدن » فهو ليس فارسي الأصل ، بل هو عربي مضرى تغلبي . وعنى به أبوه ، فأخذته بالعلم والتعلم منذ نعومة أظفاره ، وألحقه بحلقات العلماء ، وخاصة حلقة أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي المشهور صاحب كتاب المجل ، وله يقول في بعض رسائله متلفاً :

(١) فارة المسك : وعازه .

(٢) نفقت : راجت .

(٣) الند : الطيب .

(٤) انظر في بديع الزمان وترجمته وأخباره البيئية

٢٥٦/٤ ومجموع الأدباء ١٦١/٢ ودية القصر ٣٤٦/٢

واين خلكان ١٢٧/١ ورسائله مطبوعة قديماً ببغوت

ومقاماته طبعت سررا ، وديوانه مطبوع بمصر قديماً

وانظر فيه كتابناه الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٣٨

وأيضاً كتابنا (المقامة) طبع دارالمعارف ص ١٣ وما بعدها

لَا تُلْخِصْنِي عَلَى رُكَاكَةِ عَقْلِي أَنْ تَبْقُتَ أَنْتِ هَمْدَانِي

وكان حبيباً للرحلة ، فلم يكذب يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، حتى فارق موطنه إلى حضرة صاحب بن عباد ، وكان - كما مر بنا في ترجمته - راعياً كبيراً من رعاة الأدب في عصره ، بل كان أكبر رعاته ، فالتجمه الشاب بديع الزمان سنة ٣٨٠ وملكه ببعض أشعاره ، وأعجب به صاحب لبراعته الأدبية ، وأحضره مجالسه ، ويقال إنه كان يلقي عليه بعض الأبيات الفارسية ويطلب إليه نقلها إلى العربية ، فينقلها في سرعة عجيبة . ويرحل عن حضرة صاحب مولباً وجهه شطراً جرجان ، ويترنل بأسرة معروفة بالثراء وتشجيع العلماء والأدباء ، وهي أسرة الإسماعيلية ، ويرعاه منها خاصة أبو سعيد ابن منصور الإسماعيلي ، وظن بعض المعاصرين أنها كانت تتبع المذهب الإسماعيلي الشيعي ، وهو اتفاق في الاسم جراً إلى هذا الخطأ^(١) . ويؤكد ذلك أن ياقوت في ترجمته له يقول : « إنه كان شديد التعصب لأهل الحديث والسنّة » فلم يكن إسماعيلياً ، ولا كان أيضاً إمامياً شيعياً ، بل كان سنيّاً أشعريّاً .

ولا يمكث في جرجان طويلاً ، بل يتركها إلى نيسابور موطن أهل السنة عام ٣٨٢ وهناك يصطدم بأبي بكر الخوارزمي ، وهو اصطدام طبيعي ، فقد كان الخوارزمي شيعياً إمامياً ، وكان يدعو لبني بويه الشيعة الإماميين في نيسابور معقل الدولة السامانية السنية ، فانتفروا الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان يبلدتهم ، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمي انتصروا فيها لبديع ، فعلاصيته ، وتألق نجمه ، إذ كان الخوارزمي يفتد في الذروة من الكتاب والشعراء لعصره . وتصادف أن توفي سريعاً ، فعلا الجور للبديع ، وطارت شهرته ، ورعاه حيثئذ بنوميكال أعيان نيسابور وأدباؤها النابون . وسرعان ما فارقها سنة ٣٨٣ راحلاً من بلد إلى بلد في خراسان بينا الجوائز والمكافآت تُغذّق عليه ، حتى إذا بدأت المعارك بين الغزنويين والسامانيين وكلّ وجهه نحو سيجستان وأميرها خلف بن أحمد (٣٤٤ - ٣٩٩ هـ) . وكان أديباً فأعجب ببديع الزمان ، ويقول الباخريزي إنه وصله بألف دينار . وذكر ذلك في إحدى رسائله . وله فيه خمس مقامات أنشأها في مديحه وقصائد ورسائل مختلفة .

ويترك سيجستان إلى هراة بأفغانستان ، ممثياً نفسه أن يصبح من حاشية محمود الغزنوي ويلقاه ، وقد أنشدنا له قصيدة في مديحه على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ،

(١) راجع كتاب بديع الزمان لهمداني لمارون عبود وعروجه دون دليل .

(طبع دار المعارف) ص ١٦ وهو يشك في اسمه واسم أبيه

ويُصْهر إلى سَرَى من سَرَاة هَرَاة يسمَّى الحُشْنَامِي ، وينجب أولاداً ، ويقبض عَقَاراً وضياعاً . ويكتب إلى أبيه رسالة يستدعيه فيها هو وإخوته وغمه مما يدل على ما صار إليه من ثراء . ويبدو أنه غدت له مكانة كبيرة ، فكان الكبراء يقصدونه لطلب شفاعته عند أولى الأمر ، يقول في بعض رسائله : «وهؤلاء الصدور ، يرون أن الشمس من قِبَل تدور» غير أنه لم يلبث أن توفى وهو لا يزال في الأربعين من عمره سنة ٣٩٨ للهجرة . وللبدیع رسائل كثيرة ، وهي رسائل إخوانية تتناول المديح والاستعطاف والشكر والاعتذار والعزاء والاستمناح وطلب الشراب والمجاهة والتفريع ، ومنها ما هو موجه إلى الأمراء أو الوزراء أو كبار الموظفين أو شيوخه أو إلى نظرائه من الأدباء أو إلى أهله أو إلى ذوى الوجاهة واليسار . وله من كتاب إلى الأمير أبي نصر الميكالي النيسابورى :

«كتانى - أطال الله بقاء الأمير - ويودى أن أكونه ، فأستد به دونه ، ولكن الحريرى محروم لو بلغ الرزق فاه . لولاه قناه ، وبعد فاني في مفاعته بين ثقة تجد ، ويد ترتعد ، ولم لا يكون ذلك والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره ؟ ومن رأى من السيف أثره ، فقد رأى أكثره ، وإذ لم ألقه ، فلم أجهل إلا خلقه ، وما وراء ذلك من تاليد أصل ونسب ، وطارف فضل وأدب ، فعلوم تشيد به اللغات ، والخبر المتواتر ، وتنطق به الأشعار ، كما تختلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواس إدراكاً ، والآذان أكثرها استمساكاً .

وفي هذه الرسالة القصيرة ما يوضح بعض خصائص سجع ، وأنه يُعنى فيه بتقصير العبارات ، تواتيه في ذلك ملكة قياضة ، فلا يكاد يملك بالقلم ويكتب ، حتى تتال عليه العبارات ، وحتى يجيل إلى الإنسان كأن سيلاً متصلاً من الكلام يجري ولا ينقطع إلا أن يتوقف البديع عامداً لينهى الكلام . وتأمل في سجع هذه الرسالة فتجد موشى بالجناس الناقص في مثل : «تجد وترتعد» و«أره وخيره» و«أثره وأكثره» و«ألقه وخلقته» . وهو دائماً يكمس رسائله في الجناس غمساً ، تارة يأتي به كاملاً ، وتارة يأتي به ناقصاً ، وهو الأغلب الأكثر ، كقوله في الأمير خلف بن أحمد في إحدى رسائله : «لو أن البحر عدده ، والسحاب يده ، والجبال ذبه ، لقصرت عما يبه . بينا المرء في سيرة من نومه ، وقصاره قوت يومه ، إذ يُقَرَّع الباب عليه قرعاً خفياً ، ويُسأل به سؤالاً خفياً ، ويُعطى ألفاً خفياً» . والجناس الناقص واضح في هذه العبارات المتعاقبة ، وهو يشفعه بكثير من التشبيهات والاستعارات ، ضامناً دائماً النظر في الألفاظ إلى نظيره ، وهو ما يسميه البلاغيون بمراعاة النظر كقوله من فصل في إحدى رسائله :

«أراني أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس أوهبت الريح أو غممت النجم أولع البرق

أَوْ عَرَضَ الْغَيْثَ أَوْ ضَحَكَ الرُّوْضَ . إِنْ لِلشَّمْسِ عَجَبًا ، وَلِلرَّيحِ رِيَاءٌ ، وَلِلنَّجْمِ حِلَاءٌ
وَعُلَاءٌ ، وَلِلرِّقِّ سَنَاءٌ وَسَاءٌ ، وَلِلغَيْثِ يَدَاءٌ وَتَدَاءٌ ، وَلِلرُّوْضِ سَجَابِيَاءٌ .

وَوَاضَحَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ عِنَصْرًا مِنَ الطَّبِيعَةِ وَهُوَ الشَّمْسُ أَرَدَفَهُ بِالرَّيحِ وَالنَّجْمِ وَالرِّقِّ
وَالغَيْثِ وَالرُّوْضِ . وَالْجَنَاسَاتُ كَثِيرَةٌ فِي الْقِطْعَةِ . وَبِجَانِبِ ذَلِكَ نَزَاهُ بِكَثْرٍ مِنَ الْاِتِّكَاسِ مِنَ
الْقُرْآنِ ، كَمَا يَكْثُرُ مِنْ نَسْجِ الْأَبْيَاتِ وَالشُّطُورِ فِي تَضَاعِيفِ رَسَائِلِهِ . وَنَزَاهُ يَمْنَحُ كَثِيرًا إِلَى
سَرْدِ بَعْضِ الْقَصَصِ وَالْحِكَايَاتِ الْقَصِيرَةِ ضَرْبًا لِلْأَمْثَالِ كَقَوْلِهِ مِنْ رِسَالَةٍ :

«فَبِمَا يَقُولُ النَّاسُ مِنْ حِكَايَاتِهِمْ أَنَّ أَعْرَابِيًّا نَامَ لَيْلًا عَنْ جَمَلِهِ فَقَدَهُ ، فَلَمَّا طَلَعَ الْقَمَرُ
وَجَدَهُ ، فَرَفَعَ إِلَى اللَّهِ يَدَهُ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ لَقَدْ أَعْلَيْتَهُ ، وَجَعَلْتَ السَّمَاءَ يَتَهُ . ثُمَّ نَظَرَ إِلَى
الْقَمَرِ فَقَالَ : إِنْ اللَّهُ صَوْرُكَ وَتَوْرُكَ ، وَعَلَى الْبُرُوجِ دَوْرُكَ ، . . وَلَنْ أَهْدِيَتْ إِلَى قَلْبِي
سُرُورًا ، لَقَدْ أَهْدَى إِلَيْكَ نُورًا . وَالشَّيْخُ ذَلِكَ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ لَقَدْ أَعْلَى اللَّهُ قَدْرَهُ ، وَأَنْفَذَ بَيْنَ
الْجُلُودِ وَاللَّحُومِ أَمْرَهُ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ وَإِلَى الَّذِينَ يَحْسُدُونَهُ ، فَجَعَلَهُ فَوْقَهُمْ وَجَعَلَهُمْ دُونَهُ .
وَيَضْرِبُ مَثَلًا مَنْ يَذْهَبُ فِي الْبَحْثِ بَعِيدًا عَنْ أَمْنِيَّتِهِ ، وَهِيَ مَدُّ يَدِهِ ، بِالْبَخَارِيِّ الَّذِي
ضَاعَ حِمَارُهُ فَذَهَبَ يَبْحِثُ عَنْهُ فِي الْبِلَادِ النَّاتِيَةِ ، بَيْنَمَا هُوَ فِي مَرَبِيعِهِ ، يَقُولُ :

«لَمْ يَكُنْ مِثْلِي مَعَهُ إِلَّا مِثْلُ الْبَخَارِيِّ الَّذِي ضَاعَ حِمَارُهُ وَخَرَجَ فِي طَلَبِهِ ، حَتَّى عَمِرَ نَحْرُ
جَيْحُونٍ بِسَبَبِهِ ، يَطْلُبُهُ فِي كُلِّ مَثَلَةٍ ، وَيَنْشُدُهُ فِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ ، وَهُوَ لَا يَجِدُهُ حَتَّى جَاوَزَ
خُرَّاسَانَ ، وَانْتَهَى إِلَى طَبْرِسْتَانَ ، وَأَتَى الْمَرَاقَ ، وَطَافَ الْأَسْوَاقَ ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْهُ وَأَيَّسَ عَادَ
وَقَدْ طَالَتْ أَسْفَارُهُ ، وَلَمْ يَحْصُلْ حِمَارُهُ ، حَتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَى بَلَدِهِ ، بَيْنَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، أَحَبَّ
اللَّهُ أَنْ يَلْطَفَ بِهِ لَطْفًا لِيَتَبَرَّكَ بِهِ ، فَنَظَرَ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى إِصْطَبْلِهِ ، فَإِذَا الْحِمَارُ بِسَرْجِهِ
وَلِجَامِهِ ، وَحِزَامِهِ ، قَائِمًا عَلَى السَّعْلِ يَنْشُدُهُ .

وَرَسَائِلُ الْبَدِيعِ خَفِيفَةٌ وَرَشِيقَةٌ ، بَلْ لَعَلُّهَا أَخْفَى وَأَرْشَقُ رَسَائِلَ وَصَلَتْنا عَنْ عَصْرِهِ
وَبَعْدَ عَصْرِهِ . وَجَعَلْتَهُ مَوْهَبَةً الْقَصَصِيَّةِ الَّتِي رَأَيْنَاهَا فِي رَسَائِلِهِ يَتَدَعَّى مُنْذُ جَدِيدًا ، هُوَ مِنْ
الْمَقَامَةِ ، وَهِيَ حِكَايَةُ قَصِيرَةٍ تَقُومُ عَلَى الْخَوَارِ بَيْنَ بَطْلٍ وَمَقَامَاتِهِ : أَيْ الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِي
وَرَاوِيَةِ حِكَايَاتِهِ وَأَقَاصِيصِهِ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ . وَالْمَعْرُوفُ أَنَّهُ أَمَّلَى أَرْبَعِينَ مَقَامَةً فِي أَثْنَاءِ
مَقَامِهِ بَنِيْسَابُورَ ، وَأَضَافَ إِلَيْهَا خَمْسًا ، كَمَا أَسْلَفْنَا ، عِنْدَ تَرْوِلِهِ بِخَلْفِ بْنِ أَحْمَدَ أَمِيرِ
سَجِسْتَانَ ، ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهَا سِتًّا أُخْرَى . وَالْمُظَنُّونَ أَنَّهُ عَرَضَ بَنِيْسَابُورَ عَلَى طُلَاغِهِ أَوَّلًا
أَحَادِيثَ ابْنِ دُرَيْدٍ الْأَرْبَعِينَ الَّتِي احْتَفَظَ بِهَا كِتَابُ الْأُمَامِيِّ لِأَيِّ عَلَى الْقَتَالِ ، وَهِيَ
حِكَايَاتُ قَصِيرَةٍ مَلِيَّةٍ بِالسَّجْعِ وَالْغَرِيبِ ، وَبَعْدَ أَنْ أَنَاهَا رَأَى أَنَّ يَمْرُضَ عَلَى طُلَاغِهِ ثَانِيًا
أَرْبَعِينَ مَقَامَةً لَهُ . وَمَعْنَى كَلِمَةِ مَقَامَةٍ حَدِيثٌ . وَلَمْ يَحْمِلْ مَقَامَاتِهِ حِكَايَاتُ مُتَنَوِّعَةٍ

الموضوعات ، بل جعلها تدور على موضوع واحد ، هو الكُذبة أو الشحاذة الأدبية ، وكأنه استلهم فيها حديث الجاحظ عن المُكذِّين في أوائل كتابه «البخلاء» وكذلك حديث البيهقي عنهم في كتابه «الحاسن والمساوي» ويعرض الجاحظ والبيهقي لأساليبهم وحيلهم في استخلاص الطعام والدرهم والدنانير من الناس . وكان هؤلاء الأدباء الشحاذون قد لمت أئمتهم في عصر بديع الزمان ، ومزَّبنا حديث مفصل عنهم وعن شعرائهم في هذا القسم الخاص بإيران وأيضاً في القسم الخاص بالعراق . وكل ذلك ألهم بديع الزمان صنع مقاماته ، ونراه في أولها يشتمل بأبيات كبير المُكذِّين أنى دلف الخزرجي ، وقد أنشدناها في حديثنا السابق عنه ، إذ يقول :

وَيَحْكُ هذا الزمانُ زورُ فلا يفرِّكُ العَرورُ

ويسمى إحدى مقاماته المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة من المكذِّين أو الأدباء الشحاذين ، إذ كانوا يسمون بالساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو - كما أسلفنا - أمير فارسي هجر إمارته وهام على وجهه عتقاً للكُذبة .

وتنقل بديع الزمان بأبي الفتح الإسكندري بطل مقاماته في بلدان مختلفة مما دفعه إلى أن يسمي أكثر المقامات بأسماء البلدان التي ألمَّ بها وأكثرها بلدان فارسية . وفي أحوال قليلة تسمي باسم الحيوان الذي وصفه فيها مثل المقامة الأسدية نسبة إلى الأسد ، أو باسم الأكلة التي طعمها أبو الفتح مثل المقامة المَصْصِيَّة نسبة إلى طعام المَصْصِيَّة ، وهي لحم يطبخ باللبن المصير أي الحامض . وقد تسمى باسم موضوعها مثل الوعظية نسبة إلى الوعظ والإبليسية نسبة إلى إبليس والقريضية نسبة إلى ما فيها من أحكام أدبية على الشر والشراء . وسمى مقامة باسم المقامة الجاحظية نسبة إلى الجاحظ ، وهو يقول عنه إنه قليل الاستعارات ويغفر من الغريب والكلام المصنوع ، ولعله يقصد الكلام المسجوع المليء بالجناس وما إليه من المحسنات البديعية . وتخلو المقامات الخمس المتصلة بخلف بن أحمد من الكُذبة ، إذ هي مديح خالص له . أما بقية المقامات فكما قدمنا تدور على الكذبة أو الشحاذة الأدبية عن طريق التضاصح البياني وما ينصبه أبو الفتح من حيل وشباك لسلب أموال الناس . وفي تضاعيف ذلك يعرض البديع مجتمعه بكل ما فيه من مساجد وحامات ومارساتان وحوانيت ومطاعم وحانات وموائد وما يتصل بها من الأواني في بيوت الأغنياء والفقراء . ويعرض في المقامة النيسابورية صورة لفساد القضاء والقضاء في بعض البلدان . وقد حمل في المقامة المارستانية حملة عنيفة على المعتزلة ، لأنه كما قدمنا كان أشعرياً ، وكانت

الخصومة مستمرة في زمنه بين الأشعرية والمعتزلة . ونحن نسوق له إحدى مقاماته ، ولكن
المقامة البصرية نسبة إلى البصرة في العراق ، وهي تجري على هذا الخط :

وحدثنا عيسى بن هشام قال : دخلت البصرة وأنا من سيئ في قضاء (شباب) ومن
الزنى في حير وإشياء (ثوب مطرز) ومن الفنى في بقر وشاء (غنى) فأثبت اليربؤ (سوق
البصرة) في رفقة تأخذهم العيون ومشيئا غير بعيد إلى بعض تلك المتترهات ، في تلك
المتوجهات ، وملكنا أرضاً فحللناها ، وعمدنا لِقِداح اللّهُو فأجلناها ، مطرحين للحشمة
إذ لم يكن فينا ، إلا ميتاً ، فما كان بأسرع من ارتداد الطُرف ، حتى عن (ظهر) لنا سواد
(رجل) تُخَفِضُهُ وهاد ، وترفضه نِجاد (مرتفعات) وعلما أنه يوم بنا ، فأثْلَمْنَا (مددنا
أعناقنا) له حتى أذاه إلينا سيرة ولقيتنا بتحية الإسلام ، ورددنا عليه مفتضى السلام ، ثم
أجال طُرفه فينا وقال : يا قوم ما منكم إلا مَنْ يلحظني شَرّاً (بمؤخر عينه) ويوسفني حَرّاً
(نغمينا) وما ينشكم عني ، أصدق مني . أنا رجل من أهل الإسكندرية ، من الثغور
الأموية ، قد وطأ (مهد) لي الفضل كُفّه ، ورُحِبَ لي عَيْش ، وغامى بيت ثم جمعت في
(أهانني) الدهر ، وأتلاقي (أتبعني) زغاليل حُرّ الحواصل . . . ونشَرْتُ علينا البيض
(الدراهم) وشَمَسَتْ (نفرت) منا الصُفْر (الدنانير) وأكلتنا السود (الليالي) وحطمتنا
الحُمُر (السنوات المهدبة) . . وهذه البصرة ماؤها حُصُوم (مهضم) وفقيرها مهضوم :

فكيف بمن :

يطُوف ما يطُوف ثم يأوى إلى زُغْبٍ محدّدة العيون^(١)

كسَاهُنُ الليل شُغْناً فُتِنسى جِباعُ الثَّابِ ضامرة البطون^(٢)

ولقد أصبحن اليوم وسرّحن (أجلن) الطُرف في حَيٍّ كَمِيت (يقصد نفسه) وبيت
كلايت ، وقَلْبِنُ الأَكْفُ على لبِ ، قَفَضَ فُضْرَ عَقْدِ الفلُوح ، وأقْضَى ماءَ الدموع ،
وتداعَيْنِ باسم الجبوع :

والقُفْرُ في زمن اللثا م لكل ذي كرم علامة

رَغِبَ الكرامُ إلى اللثا م وتلك أشرطُ القِيامه^(٣)

ولقد اخترتكم يا سادة ، ودلّيتي عليكم السعادة ، وقلت : قَسَماً ، إن فيهم لئسماً ،
فهل من فقي يُعْشِين ، أو يُعْشِين (يكسوهن) وهل من حرٍّ يُقَدِّين أو يُرَدِّين (يلبسن)

(١) زغب : من الزغب : صغار الفريش والشمع (٢) شغاً : مغيرة ، كتابة من أن نأخذ لا يرعاهم .

(٣) أشرط : علامات

والكتابة واضحة .

ثياباً). قال عيسى بن هشام : فوافقه ما استأذن على حجاب سمى كلاماً رائعاً أبرع ، وأرفع ، وأبدع ، مما سمعت منه . لا جرم أنا استمعنا الأوساط (يريد الأخمزة وما فيها من نقد) ونفضنا الأكمام ، ونحنينا الجيوب ونئله (أعطيته) أنا مطرفي (ثوبى) وأخذت الجماعة الحلى ، وقتلناه : الحق بأطفالك ، فأعرض عنا بعد شكر وفاءه ، ونشر ثناءه) ملأ به فاه . وواضح ما يمتاز به البديع فى مقاماته من خفة روح وميل إلى الدعابة ، حتى يدخل السرور على سامعيه وترسم السمات على شفاههم . ويكثر من إنشاد الشعر فى المقامات ، ومن حل بعض الأبيات المشهورة ، على نحو ما صنع بقوله : « وأتلافى زغاليل حمراء الحواصل » يريد أولاده وأنهم مثل زغاليل قرية عهد بالولادة ، فحواصلها لا تزال حمراء خالية من الريش ، والصورة استعارها من الخطيئة حين حبسه عمر بن الخطاب ، فتوجه إليه يستطفه لأولاده قائلاً :

ماذا تقول لأفراخ يذى مَرخ زُغِبِ الحَواصل لا ماء ولا شجر^(١)

وكانت للبديع موهبة قصصية رائعة ، غير أنه لم يستغلها فى مقاماته بالمقدار الذى كان يُظنّ، إذ لم يضع فى ذهنه صنع قصص وحكايات ، إنما الذى وضعه وجعله نصب عينيه أن يتخذ من حوار المقامة القصير بين عيسى بن هشام وأبى الفتح وسيلة لحشد عبارات مسجوعة طريفة تتحفظها الناشئة . وجاراه الحريرى وغيره فى صنع هذه الأقاصيص القصيرة البلاغية ، وعدوها أروع صور النثر وأبلغه ، غير حافظين بعمل قصص طويلة أوحى قصص قصيرة متنوعة . وبدأ البديع فوضع هذه الأقاصيص القصيرة أو هذه المقامات فى إطار السجع ، وتبعه خالفوه . وهو يضيف إلى السجع - كما رأينا فى رسائله - ألوان البديع من الأخيلة والتصاوير ومن الجناس ومراعاة النظر ، وألماه الحوار القصصى عن المبالغة فى ذلك . ولا ريب فى أن سجمه فى مقاماته - كرسائله - سجع رشيق ، لما يمتاز به من قصر ومن حسن انتخاب لألفاظه . وقد يتخلل بعض مقاماته بالشعر ، كما قد يحشد فيها بعض ألفاظ غريبة ، على نحو ما نقرأ فى المقامات : الحمدانية والموصلية والقردية . وربما دفعه إلى ذلك مقصد تعليمى ، وهو مقصد تأثر فيه بأحاديث ابن دريد المفرطة فى الغرابة . غير أن ذلك إنما يأتى فى المقامات التى سميناها وفى الحين البعيد بعد الحين ، بحيث لا تُعد عيباً فى أساليبه التى تطبعها - كما قلنا - الرشاقة ، وأيضاً الحقبة والعذوبة وروح الفكاهة المرححة الهيبة لكل إنسان .

وحرى بنا أن نشير إلى ما ذكرناه في كتابنا المقامة من أن المقامة الإبلية لبديع الزمان هي التي أوحى لابن شهيد الأندلسي وأبي العلاء الممرى رحلتها فيها وراء الطبيعة ، فإن بديع الزمان تصور في مقامه عيسى بن هشام يلتقي بإبليس في واد من وديان الجبن ، إذ ضلت منه إبل فخرج يطلبها ، حتى نزل في واد حافل بالأشجار والأنهار ، وبينما هو ينظر من حواله إذ رأى شيخاً جالساً فسلم عليه وردّ السلام ، وسأله ابن هشام هل تروى من أشعار العرب شيئاً ؟ قال نعم وأنشد بعض أشعارهم ، وعرض عليه أن ينشده من شعره وهشّ له ابن هشام ، فأنشده قصيدة لجرير ، وعجب ابن هشام من انتحاله لها ، ويدور بينهما حوار يقول له فيه إبليس « ما أحدٌ من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا أملت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مرة » . وبغيب عنه ، ويحد عيسى بن هشام نفسه وحيداً . وقد استوحى ابن شهيد هذه المقامة في رسالته « التوابع والزوابع » أي الجبن والشياطين ، وهو فيها يلتقي شياطين الشعراء في وادي الجبن ، وكلما لقي شيطاناً لشاعر أنشده من شعر صاحبه ، ثم أنشده من شعره ، فيلدى إعجابه به ويميزه اعترافاً بروعة شعره ، ولقي شياطين الكتاب كما لقي شياطين الشعراء ، وعرض عليهم بعض رسالته ، ولقي شيطان بديع الزمان الذي سماه « زبدة الحقب » ، ويحاول أن يمرض عليه بعض عباراته الثرية التي يحاكم فيها ، ويعترف له زبدة الحقب بحسن بلاغته ، ويميزه على إبداعه . والصلة قوية بين هذا العمل لابن شهيد وبين المقامة الإبلية ، فهما جميعاً يتخذان لقاء شياطين الشعراء في وادي الجبن موضوعاً لها ، ويلتقي ابن شهيد شيطان بديع الزمان مما يؤكد صلته بآثاره ، وأنه يعارض مقامته الإبلية بتوابعه وزوابعه . ونجدال الباحثون طويلاً هل ابن شهيد هو الذي ألهم أبا العلاء رسالة الغفران وما صوّر فيها من رحلة وراء الطبيعة يوم البعث وعلى الصراط وفي الجنة ، أو أن أبا العلاء هو الذي ألهم ابن شهيد رحلته وراء الطبيعة في وادي الجبن ؟ . ولعل في ذكرناه ما يطل هذا التراع والجدال ، فإن بديع الزمان هو الذي استغل لأول مرة الحديث عن وديان الجبن وشياطين الشعراء في مقامته الإبلية ، ثم جاء بعده ابن شهيد وأبو العلاء الممرى في القرن الخامس الهجري ، فألف كل منهما رحلة فيها وراء الطبيعة . ويتضح أثر البديع بقوة في ابن شهيد لأنه التقى مباشرة مع البديع في وادي الجبن ، أما أبو العلاء فاستغل يرحلته عن هذا الوادي ، واتخذ لها مضموناً أشمل وأبعد وأوسع .

خاتمة

١

تحدثنا عن الجزيرة العربية في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي العراق وإيران في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث ، وبدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض التاريخ السياسي لأقاليمها حيثند ، وهي الحجاز ونجد واليمن وحَضْرَمَوْت و ظَفَّار و عُمان و البَحْرَيْن ، وفصلنا القول في إمارتي مكة والمدينة وما كان من دخول الحجاز في حكم الدولة العثمانية . وصورنا تحركات القبائل في نجد وتكوينها لإمارات متعددة في شرق الجزيرة وظهور آل فضل وآل ميرا في بوادي الشام ثم ظهور آل سعود في نجد . وعرضنا دول اليمن المتعاصرة في زَبِيد وصَنْعَاء وصَعْدَة وعَدَن ودخولها في حكم الأيوبيين ثم الرسولين فالظاهرين ، فغلبة الدولة الزيدية عليها . وتداول الدول اليمنية حَضْرَمَوْت ، وكذلك ظَفَّار إلى أن تبعت عُمان نهائيا . وكان الحُجَواج في عُمان يتخذون « نَزْوَى » في الداخل حاضرة لهم بينما استقلت عنهم عُمان والثغور على الخليج العربي قرونا متطاولة حتى غلبوا عليها في القرن العاشر الهجري . وسيطر القرامطة على البحرين في أوائل العصر ، وخلفتهم عليها دول متعاقبة أهمها الدولتان العُيُونِيَّة ودولة بَنِي عصفور ، واستقلت عن البحرين قطر وجزيرة أوال (البحرين الحالية) وضمت الدولة السعودية إليها الأحساء والقُطَيْف منذ أكثر من قرن .

وكان مجتمع الجزيرة طوال العصر يتألف من بدو وحَضْر ، وظلت نجد بدوية إلا قليلا في بعض القرى وبعض العواصم التي اتخذتها إماراتهم . وكان يتزل اليمن أحباش كثيرون ، بينما نزل في مدن الخليج وثغوره كثير من أهل إيران والهند وسواحل إفريقيا . وعرفت اليمن وعُمان والبحرين الزراعة واعتمدت عليها مما أهّل لشئ بها من الحضارة ، واشتهرت اليمن بكثرة الجوارى والغناء . وعرفت الجزيرة بجانب المذاهب السنية الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل مذاهب الشيعة : الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية وكانت « نَزْوَى » بعان مكررا للخوارج الإباضية من قديم ومنها شاع مذهبيهم في حضرموت . وما يتصف القرن الثاني عشر الهجري حتى يعتق محمد بن سعود أمير الدَّرْعِيَّة

الدعوة الوهابية السلفية ويضع يده في يد محمد ابن عبد الوهاب لنشرها في الجزيرة ، وهي نداء يدعو إلى اتباع الحنابلة من أهل السنة . وبلغنا كثير من كبار التصوف في مكة واليمن وحضرموت ، وكان السالك مشتردين في كل مكان .

وكان يجرى في كل بلاد الجزيرة جدول كبير من جداول الثقافة العربية بجميع علومها وفنونها ، حتى في قرى نجد وقد تحولت - منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب - إلى دار كبيرة لدراسة كتبه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية . وكانت مكة والمدينة أشبه بجامعتين كبيرتين ، بما كان فيها من العلماء والأدباء ، وبما كان يقد عليها سنويا من أدباء العالم العربي وعلمائه ، وخاصة من كان يقيم بهما منهم مجاوراً سنوات طوالا . وكانت الحركة العلمية والأدبية ناشطة طوال العصر في اليمن وحضرموت وعُمان والبحرين ، ونشط معها البحث في علوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية خاصة على نحو ما هو معروف عن ابن ماجد الغماني . وفي كل أقاليم الجزيرة ومدنها نشطت علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ، وكثر تأليف المعاجم والكتب والدراسات البلاغية والتقدية ، وبالمثل نشطت علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام وكثر العلماء في كل الأقاليم ، وكثراً ما أنتجوه من الكتب والمصنفات .

وكان الشعر يجرى على كل لسان في أقاليم الجزيرة ، وأخذت العامية تراحم القصص في نجد واليمن وحضرموت وعُمان والبحرين منذ القرن السادس الهجري ، ومع مرور الزمن شاع معها شعر حُمَتي في اليمن وحضرموت وشعر نبطي في بقية الأقاليم ، غير أن سيل الشعر القصص ظل قويا فيها جميعا . وقد ترجم الباخري لمجموعة كبيرة من شعراء نجد والحجاز واليمن في القرن الخامس الهجري وترجم الهادي الأصبهاني لطائفة من شعراء بني عُقيل في الموصل وشعراء بني مزيد في الحلة وأيضاً لطائفة من شعراء الحجاز واليمن في القرن السادس . وتلقانا بعده في كتب مختلفة تراجم لشعر الجزيرة في حقب العصر التالية ، غير ما طبع ونشر من دواوين النابيين من الشعراء . ويكثر شعراء المديح وفي مقدمتهم القاسم بن هُتَيْل اليمنى وأحمد بن سعيد الخروصي السُتالي العُاني وحلي بن مقرب العُيني البُحراني وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحضرمي ، كما يكثر شعراء المراثي من أمثال النهامي المكي وجعفر الخطي البُحراني ، وشعراء الفخر والمهجاء من أمثال نشوان بن سعيد الحميري اليمنى وسليمان النهاي العُاني .

وتكثر في الجزيرة طوائف الشعراء ، ونلتقي منهم يشعراء الدعوة الإسماعيلية وفي طلبتهم ابن القم والسلطان الخُطَّاب وعُجوة اليمنى ، ويشعراء الدعوة الزيدية من أمثال يحيى

ابن يوسف النشوب بمكة وموسى بن يحيى بمران وعلى بن محمد العنسى في اليمن ، وبشراء الخوارج من أمثال أبي إسحق الحضرمي الإباضي وابن الهيثم اليمني . وتلقى بشراء الدعوة الروائية السلفية ، وفي مقدمتهم محمد بن إسماعيل الحسن بن الحسن بن أبي العباس بن مشرف الأحاسني ، وبشراء الزهد والتصوف وللدائع النبوية من أمثال عبد الرحيم البرقي اليمني وعبد الرحمن العبدلوس الحضرمي . وجميعهم رُسمت شخصياتهم واتجاهاتهم الشعرية . ولم تكن نجد تعنى بالكتابة قبل ظهور محمد بن عبد الوهاب ، أما بعد ظهوره فقد أخذت الكتابة تنمو مع الدعوة نموا واسعا . وكان في مكة والمدينة كتاب إنشاء من قديم ، وكثرت بها الإجازات العلمية وتقاريط الكتب . وكانت الكتابة مزدهرة في اليمن طوال العصر ، وظلت ناشطة في حضرموت وعمان والبحرين . وتحفظ الكتب برسائل متبادلة بين أمراء مكة وسلاطين مصر للمالبيك . وكانت الرسائل الديوانية ناشطة في اليمن منذ زمن الدولة الصليحية في القرن الخامس . وتحفظ الكتب التاريخية ببعض رسائل متبادلة بين الدولة الرسولية وسلاطين المالبيك في مصر ، وكذلك برسائل متبادلة بين الأئمة الزيديين المتأخرين وبين أئمة الخوارج في عمان ، وبالمثل بين الأئمة الأخيرين وعالمهم . وتكثر الرسائل الشخصية وينحول بعضها إلى رسائل أدبية جيدة . ويكثر الوعظ . وتلقاها محاورات ورسائل فكاهية ومقامات أدبية متنوعة .

٢

وفي القسم الثاني من هذا الجزء تحدثنا عن العراق ، وبدأنا حديثنا عنه بتاريخه السياسي وبيان الدول التي تعاقبت على حكمه ، وهي الدولة البويهية ، ويليها الدولة السلجوقية ، ويسترد الخلفاء منها في منتصف القرن السادس الهجري صولجان الحكم ، ويقضى التنازع بقيادة هولاكو على حكمهم وخلافتهم في منتصف القرن السابع . وتعاقب على العراق وبغداد دولتان تاريخيتان : دولة الإيلخانيين ودولة التيموريين ثم دولة التركمان ، ويظل العراق في قبضتها إلى أن استولت عليه الدولة الصفوية الإيرانية ، وسرعان ما استخلصته منها الدولة العثمانية . وكان المجتمع في بغداد يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة . وطبقة وسطى تحظى بشيء من سعة العيش ، وطبقة دنيا هي طبقة العامة ، وكانت تنجس الفضل والبر ، فتحول كثيرون منها إلى عيارين ولصوص ينجسون بغداد من سنة إلى أخرى مستشرعين - فيما يبدو - فكرة العدالة الاجتماعية . وشاع في العراق المذهب الشيعي الإمامي الاثنا عشري ، وكان بجواره مذهب شيعي مارق هو مذهب النصيرية ،

ومذهب شيعي معتدل هو مذهب الزيدية . وكانت موجة الزهد والتصوف حادة طوال العصر ، وتزخر كتب التراجم بأسماء الزهاد والمتصوفة وطرقهم وخاصة طريقتي الجبلاني والرفاعي وما شاع بعدهما من طريقتي النقشبندية والبكطاشية .

وظلت الحركة العلمية في بغداد ناشطة وكذلك الشأن في العراق عامة إذ عُني بها البويهيون والسلاجقة ، وخاصة وزيرهم نظام الملك مؤسس جامعة النظامية ببغداد ، وتكاثر المدارس ، ويؤسس الخليفة المستنصر ببغداد جامعته المستنصرية . وكانت المساجد مدارس كبرى يستمع فيها الناس للعلماء في كل فن بحيث تصبح الثقافة غذاء شعبيا عاما ، مما أحدث رواجاً هائلاً في الوراقة ونشر الكتب على نحو ما يصور ذلك ابن النديم في كتابه « الفهرست » . وتظل هناك بقية لحركة الترجمة ، وتنشط الحركة الفلسفية والعلمية حتى لتصبح الفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل من مدارك العامة ، كما تدل على ذلك رسائل إخوان الصفا . وتكاثر الندوات الفكرية في بغداد وتكاثر للتفلسفة ، وخاصة قبل الغزو التتاري ، وتظل منهم بقية في الحقب التالية . وتنشط في العصر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية والجغرافية ، كما تنشط البحوث اللغوية وشروح الشعر ، وتفقد بغداد في النحو إلى مدرسة جديدة هي المدرسة البغدادية . ويتسع النشاط في الدراسات البلاغية وما يتصل بها من البديعيات ، وبالمثل في الدراسات النقدية وخاصة حول المتنبي وشعره . ويُعنى صني الدين الحلبي بدراسة الموشحات والأشكال الشعرية المستحدثة والشعر العامي . وتنشط ببغداد والعراق في دراسات القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه وعلم الكلام ، كما تنشط الكتابة في التاريخ العام والخاص وفي تراجم العلماء من كل صنف . ويتكاثر الشعراء في العراق وتتوالى موجاتهم على نحو ما بلغنا في البيعة وتسمتها والدمية والحزينة وما تلاها من كتب التراجم ، وينظمون في الرباعيات والموشحات ، ويفسحون في أشعارهم لصور كثيرة من التعقيدات حتى في المحسنات البديعية . وبلغنا مع كل دولة بل في كل مكان شعراء المديح ومن أعلامهم الأفاضل المتنبي أكبر شعراء العصر ، وسبط ابن التعاويذي ، وصني الدين الحلبي . وتلتق بكثيرين من شعراء المرائي والهجاء والشكوى من أمثال السري الرفاء ، وابن القطان . ويكثر شعراء الشيعة ، وفي مقدمتهم الشريف الرضي ، ومهيار ، وابن أبي الحديد .

وتلتق بطوائف كثيرة من الشعراء ، ولول من تلتق بهم شعراء الغزل ، وقد أذاعوا فيه حنيناً وشوقاً وظمناً للقاء محبوباتهم لا ينتهى ، مما أعدّ لظهور ضرب من الشعر الوجداني عند ابن المعلم والحاجري والثقفري . ويتغنى للطبقة المترفة شعراء اللهو والمجون من أمثال

ابن سكرة ، وابن الحجاج ، بينما يتغنى للشعب ومشاعره الدينية شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال ابن السراج البغدادي ، والمرتضى الشهرزوري ، والصرصري .
ويلقانا أصحاب الشعر الفلسفي والتعليمي من أمثال ابن الشبل البغدادي وابن المبارية ، كما يلقانا شعر شعبي عامي كثير وقفنا عند فنونه ، وأيضا شعراء شعبيون من أمثال أبي الأحنف المكي .

ويتنوع النثر في العصر ، فكان هناك النثر الفلسفي والنثر العلمي والمناظرات وخطابة الوعظ والقصص وكتب الأدب التهذي والرسائل الشخصية . وتكثر الكتابات الديوانية ونلتقي بأبي إسحق الصائغ والعلاء بن الموصلاي وضياء الدين بن الأثير . ويلقانا من أعلام النثر أبو حيان التوحيدي بأسلوبه المتموج بطرائف الفكر ، وابن مسكويه بنظرياته الأخلاقية الملتحمة فيها الفكر الأجنبي بالفكر الإسلامي العربي مع حسن الأداء ، والحريزي بمقاماته الرائعة التي خلبت ألباب معاصريه وخالفه حتى العصر الحديث .

٣

وفي القسم الثالث من هذا الجزء تحدثنا عن إيران ، وبدأنا حديثنا ببيان الدول المتعاقبة بها ، وهي الدولة السامانية ، والدولة البويهية ، والدولة الزيارية ، والدولة الغزنوية ، ثم تحدثنا عن الدول التي تعاقبت عليها منذ أواسط القرن الخامس الهجري ، وهي دولة السلاجقة ، والدولة الخوارزمية ، والدولة التتارية الإيلخانية ، والدولة التيمورية ، والدولة الصفوية ، وما تلاها من الدول . وكان مجتمع إيران يتكون من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مرفهة ، وطبقة متوسطة تعيش في غير قليل من اليسار ، وطبقة دنيا هي طبقة العامة . ونشط الشيعة في نشر عقيدتهم ، وفي مقدمتهم الزيدية الذين أقاموا لهم في القرن الثالث دولة في طبرستان غير أنها لم تمكث طويلا . ومنذ قبض البويهيون على زمام الأمور بإيران نشط الإماميون في نشر عقيدتهم ، ومازالوا ناشطين حتى تولى الصفويون مقاليد الحكم في أواخر القرن التاسع الهجري فجعلوا المذهب الإمامي المذهب الرسمي لإيران . وكان نشاط الإسماعيليين كبيرا طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين إلى أن قضى عليهم التتار نهائيا في منتصف القرن السابع الهجري . وكانت تم في إيران موجة زهد وتصوف ، وحدث انفصام بين الصوفية والفقهاء ، وسرعان ما رآب الصدع أبو نصر السراج ، والقشيري ، والغزالي .

وظلت الحركة العلمية طوال العصر ناشطة ، وخاصة في القرون الأولى ، بفضل رعاية الحكام والأمراء لها ، فكانوا يبنون المدارس ويرصدون الرواتب للعلماء والطلاب ، وعُتوا بالمكتبات . وأقبل جميع أفراد الشعب على العلوم ، حتى النساء ، وأخذوا ينفردون كتباً لشرح المصطلحات في العلوم والفنون . ونشطت نشاطاً عظيماً دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، ويكفي مثلاً لهذا النشاط جهود ابن سينا والبيروني ، مما أهل لنهضة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والجغرافية . وتكاثر وضع المعاجم ، وازدهرت المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية . ونشط التأليف في التفسير كما نشط التأليف في الحديث النبوي ، وفي الفقه ، وفي علم الكلام وخاصة في المذهبين : الأشعري والماتريدي . وتنوعت الكتابة التاريخية بين كتب تناول التاريخ العام أو تاريخ بعض البلدان وكتب تناول التراجم : تراجم الشعراء والعلماء في كل فن .

ويزدهر الشعر العربي بإيران في القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، بدليل المجلدات الضخمة التي شغلها في اليتيمة وتسمتها وفي الدمية والحريدة . ومعروف أن أول كتاب صنف عن الشعر الفارسي وشعرائه كتاب عوفى في القرن السابع الهجري . ونفس الشعر الإيراني صيغ صياغة على أنماط الشعر العربي ، وتناول نفس موضوعاته ، وشاع فيه مثله زخرف البديع ومحسناته . وقد ظل الشعر العربي حياً في إيران حتى القرن التاسع على الأقل . ويتكاثر شعراء المديح وفي مقدمتهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والطبراني والأرجاني ، وبالمثل شعراء المرائي من أمثال أبي الحسن علي بن أحمد الجوهري الجرجاني ، وشعراء الفخر والمجاء والشكوى من أمثال أبي بكر الخوارزمي ، والأبيوردي .

وتلقانا بإيران طوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من تلقاهم شعراء الغزل وفي مقدمتهم أبو الفرج بن هندو ، وأبو الفضل الميكالي . ويليهم شعراء اللهو والمجون من أمثال أبي بكر القهستاني ، وأبي الحسن الباخريزي ، وشعراء الزهد والتصوف من أمثال القشيري ، وعبيد السهروردي ، وشعراء الفلسفة والحكمة والأمثال وفي مقدمتهم أبو الفضل السكري المروزي ، وأبو الفتح البستي ، وشعراء شعيون مختلفون من أمثال أبي دلف الخزرجي .

وينشط النثر ، ويظهر فيه قصص صوفي كثير وقصص فلسفي بديع ، ويتكاثر كتاب الرسائل إذ تكثر الدول والإمارات ويصبح لكل إمارة ولكل دولة ديوان ، ويشتهر في كل دولة كاتب مجيد من أمثال قابوس بن وشمكير والغنبي ورشيد الدين الطوطا ، ومن أنه كتاب إيران في العصر على توالي حقبة ابن العميد الذي أرسى قواعد الكتابة على ركنين

أساسين من السجع والمحسنات البديعية ، وأولى الصاحب بن جباد بالكتابة بعده على الغاية التي كانت تستظرها من التجويد والتتميق . وينشئ بديع الزمان الهمداني لأول مرة في تاريخ الأدب العربي مقاماته المشهورة . وهو بحق يُعَدُّ أئمة كتاب إيران الذين ظهرت في عصر الدول والإمارات غير متأزج ولا مدافع .

فهرس الموضوعات

صفحة

٨ - ٥	مقدمة
٢٣٠ - ٩	القسم الأول : الجزيرة العربية
٥١ - ١١	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
	١ - أقاليم ودول وإمارات : الحجاز ، نجد ،
١١	البحرين ، حضرموت و ظفار ، عمان ، البحرين
٣٤	٢ - المجتمع
٤٠	٣ - التشيخ
٤٤	٤ - الحوار : الإباضية
٤٦	٥ - الدعوة الوهابية السلفية
٤٨	٦ - الزهد والتصوف
٨٧ - ٥٢	الفصل الثاني : الثقافة
٥٢	١ - الحركة العلمية
٥٧	٢ - علوم الأوائل ، علم الملاحة البحرية
٦٢	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد
٧٧	٤ - علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام
٨٤	٥ - التاريخ
١٤٣ - ٨٨	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٨٨	١ - الشعر على كل لسان
٩٢	٢ - كثرة الشعراء
	٣ - شعراء المديح : القاسم بن عجيل ، أحمد بن سعيد الخروصي
١١٠	الستال ، علي بن المقرب العيزي . عبد الصمد بن جده الله باكثير
١٢٦	٤ - شعراء الرائي : التهامي . جعفر الخطي
١٣٥	٥ - شعراء القنفر والمجاء : نشوان بن سيد الحميري ، سليمان التميمي

صفحة

١٤٤ - ٢٠٠	الفصل الرابع :
١٤٤	١ - شعراء الدعوة الإسماعيلية :
١٤٤	ابن القيم ، السلطان الخطّاب ، عمارة الجني
	٢ - شعراء الدعوة الزيدية :
١٥٧	يحيى بن يوسف الثّشور ، موسى بن يحيى بهران ، علي بن محمد العنسي
١٧١	٣ - شعراء الخوارج : أبو إسحق الحضرمي ، ابن الجيني
	٤ - شعراء الدعوة الموهابية السلفية :
١٨٠	محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني ، ابن مشرف الأحصاني
	٥ - شعراء الزهد والتصوف وللدائع النبوية :
١٨٧	عبد الرحيم البرقي ، عبد الرحمن الميذروس
٢٣٠ - ٢٠١	الفصل الخامس : النثر وأنواعه
٢٠١	١ - تنوع الكتابة
٢٠٦	٢ - رسائل ديوانية
٢١٤	٣ - رسائل شخصية
٢٢١	٤ - مواظظ وخطب دينية
٢٢٦	٥ - محاورات ورسائل فكاهية ومقامات
٢٣١ - ٤٧٨	القسم الثاني : العراق
٢٣٣ - ٢٧٥	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
٢٣٣	١ - البرييون والسلاجقة والخلفاء العباسيون
٢٤١	٢ - الدول : للفرية ، والتركانية ، والصفوية ، والممانيّة
٢٥١	٣ - المجتمع
٢٦٣	٤ - التشييع
٢٦٩	٥ - الزهد والتصوف
٢٧٦ - ٣٢٢	الفصل الثاني : الثقافة
٢٧٦	١ - الحركة العلمية
٢٨٢	٢ - علوم الأوائل : تفسيف ومشاركة
٢٩٢	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والتقد
٣٠٥	٤ - علوم القراءات والتضمر والمحدث والفقه والكلام

صفحة

٣١٨	٥ - التاريخ
٣٨١ - ٣٢٣	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٣٢٣	١ - كثرة الشعراء
٣٢٦	٢ - رباعيات وتعليقات وموشحات
٣٣٦	٣ - شعراء المديح : المتنبى ، سبط ابن التعاويذى ، صلى الدين الحلبي
٣٥٩	٤ - شعراء المرائي والمجاهد والشكوى : السرى الرفاء ، ابن القطان البغدادي
٣٦٨	٥ - شعراء التشيع : الشريف الرضى ، مهيار ، ابن أبي الحديد
٤٢٩ - ٣٨٢	الفصل الرابع : طوائف من الشعراء
٣٨٢	١ - شعراء الغزل : ابن اللطيم ، الحاجري ، التلعفري
٣٩٦	٢ - شعراء اللهو والمجون : ابن سكرة ، ابن الحجاج
	٣ - شعراء الزهد والتصوف والملاحق القنبوية : ابن السراج البغدادي ، المرتضى
٤٠٥	الشهرزورى ، الصرصرى
٤١٦	٤ - شعراء الفلسفة والشعر التعليمي : ابن الشبل البغدادي ، ابن الهبارية
٤٢٣	٥ - شعراء شعيون : الأحنف المكي
٤٧٨ - ٤٣٠	الفصل الخامس : النثر وكتابه
٤٣٠	١ - تنوع النثر
	٢ - كتاب الرسائل الديوانية : أبو إسحاق الصائغ ، العلاء بن الرصلايا
٤٤٠	ضياء الدين بن الأثير
٤٥٣	٣ - أبو حيان التوحيدى
٤٦٥	٤ - ابن مسكويه
٤٧٢	٥ - الحريرى
٦٧٣ - ٤٧٩	القسم الثالث : إيران
٥٢٠ - ٤٨١	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
	١ - دول : مقابلة : الدولة السامانية ، الدولة البويهية ، الدولة الزيارية ،
٤٨١	الدولة الغزنوية
	٢ - دول متعاقبة : دولة السلاجقة ، الدولة الخوارزمية ، الدولة المغولية
٤٩١	الإيلخانية ، الدولة المغولية التيمورية وماتلاها من الدول
٤٩٨	٣ - المجتمع
٥٠٧	٤ - التشيع

صفحة

٥ - الزهد والتصوف	٥١٤
الفصل الثاني : الثقافة	٥٢١ - ٥٦١
١ - الحركة العلمية	٥٢١
٢ - علوم الأوائل : تخلص ومشاركة	٥٢٦
٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد	٥٣٤
٤ - علوم التصور والحديث والفقه والكلام	٥٤٧
٥ - التاريخ	٥٥٤
الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء	٥٦٢ - ٦٠٣
١ - الشعر العربي على كل لسان	٥٦٢
٢ - كثرة الشعراء	٥٦٨
٣ - شعراء المديح : علي بن عبد العزيز الجرجاني ، الططرقا ، الأرجاني	٥٧٥
٤ - شعراء الرائي : أبو الحسن علي بن أحمد الجوهري الجرجاني	٥٨٩
٥ - شعراء الفجاء والفخر والشكوى : أبو بكر الخوارزمي ، الأبيوردي	٥٩٤
الفصل الرابع : طوائف من الشعراء	٦٠٤ - ٦٤٠
١ - شعراء الغزل : أبو الفرج بن هندو ، أبو الفضل الميكال	٦٠٤
٢ - شعراء الظهور والهموم : أبو بكر القهستاني ، أبو الحسن الباغري	٦١٠
٣ - شعراء الزهد والتصوف ، عبد الكريم القشيري ، يحيى السهروردي	٦١٧
٤ - شعراء الحكمة والفلسفة : أبو الفضل السكري المروزي ، أبو الفتح البستي	٦٢٧
٥ - شعراء شيعيون : أبو دلف الخزرجي : مسمر بن مهلهل	٦٣٥
الفصل الخامس : النثر وكتابه	٦٤١ - ٦٧٣
١ - تنوع الكتابة	٦٤١
٢ - كتاب الرسائل : قابوس بن وشمكه ، أبو النصر المني ، رشيد الدين الوطواط	٦٤٨
٣ - ابن العميد	٦٥٥
٤ - لصاحب بن جباد	٦٥٨
٥ - بديع الزمان ومقاماته	٦٦٦
خاتمة	٦٧٤ - ٦٨٠